مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّالِث والخَمسُون

سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّالِث والخَمسُون

سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36

نُخبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي

AL QASIMI PUBLICATIONS

2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 8-66-644-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 8-66-644-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ الشُّورَىٰ

﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشّورى: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الإخـبـارُ عن التَّشريع بعد بـيـان علمه تـعـالى دليـلٌ عـلى صلاحيَّة التَّشريع لكلِّ زمان

لمّا بيَّن النَّظمُ الجليل أنَّ اللّه تعالى هو مالك مقاليدِ السَّماوات والأرض، وأنَّه لا متصرِّف في الوجود سواه، فترتَّب على ذلك أنَّه لا تصِحُّ الأديان إلّا بكونها من اللّه تعالى، ولمّا ختم الآيةَ ببيان شمول علمِه تعالى؛ أتبع ذلك ببيان أنَّ ما شرعه للمسلمين هو عينُ ما وصّى به الأممَ السّابقة، فهو العالِمُ بما يصلح للنّاس[1]، ومن المناسبة: أنَّه تعالى لمّا عظَّم شأنَ الوحي في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾ [الشّورى: 3]؛ أتبعه في هذه الآية تفصيلَ ذلك، فقال جلَّ شأنه: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾، فهذا هو المقصود من الآية[2]، ومن المناسبة على وجه الإجمال: أنَّ النَّظم انتقل "من الامتنان بالنِّعم الجسمانيَّة إلى الامتنان بالنِّعمة الرّوحيَّة"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿۞شَرَعَ﴾: (شرع) أصله شيء يُفتح في امتداد يكون فيه، من ذلك الشَّريعة، وهي موردُ الشّاربة الماء، واشتُقَّ من ذلك الشِّرْعَةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 263.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 587.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 49.

في الدّين والشَّريعة(1)، والشِّرعةُ في الدّين: الطَّريق، وقد شَرَعَ لهم يَشْرَعُ شَرْعًا، أي: سنَّ، والشّارع: الطَّريق الأعظم، والشَّريعة والشَّرائع: ما شرع اللهُ للعباد من أمر الدّين، وأمرَهم بالتَّمسُّك به، والشَّرْعُ: نهجُ الطَّريق الواضح، يقال: شَرَعْتُ له طريقًا، وسُمّيت الشَّريعَةُ شَريعَةً تشبيهًا بشريعة الماء من حيثُ إنَّ من شرع فيها على الحقيقة المصدوقة رَوِيَ، وتَطَهَّر(2)، والمراد به في الآية الكريمة: طَرَقَ، وسنَّ طريقًا ظاهرًا بيِّنًا واضحًا(3).

2) ﴿وَصَّىٰ﴾: (وصي) أصلٌ يَدُلُّ على وصلِ شَيءٍ بِشَيءٍ، ووصَيْتُ الشَّيءَ: وصَلْتُهُ، والوَصيَّةُ مِن هذا القياسِ، كأنَّهُ كَلامٌ يوصَى، أي: يوصَلُ، والوَصيَّةُ: التَّقدُّمُ إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظ، من قولهم: أرض واصيَةٌ: متَّصلة النَّبات، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: 132](4)، وأوصيتُه بولده، أي: استعطفته عليه، وهذا المعنى لا يقتضي الإيجاب، وأوصيته بالصَّلاة أمرته بها، وعليه قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: 153]، وقولُه: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النّساء: 11] أي: يأمركم(5).

3) ﴿كَبُرَ﴾: أصلٌ يدلُّ على خلاف الصِّغر، والكِبْرُ: العَظَمَةُ، ويقال: أكبَرْتُ الشَّيءَ: استَعظَمْتُهُ، وإذا تَعَظَّمَ الشَّيء؛ قيل: كَبُرَ يَكْبُرُ، وكَبُرَ الأمرُ علينا كَبارَةً(6)، وتُستعمل الكبيرة فيما يشقُّ، ويصعب، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: 35]، و﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾(7)، والمراد به في الآية الكريمة: عَظُم، وشَقَّ عليهم(8).

4) ﴿يَجْتَبِيٓ﴾: (جبي) أصلٌ يَدُلُّ على جَمْعِ الشَّيءِ والتَّجَمُّعِ، وجبيتُ الخراج جباية، أي: جمعته، وحصَّلته، وجَبَى المستقي الماءَ في الحوض جبيًا، واجتبى الرَّجلُ الرَّجُلَ؛ إذا قرَّبهُ، قال الله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: 50]، أي: قرَّبهُ، واجتباه، أي: اصطفاه(9) واختاره؛ "لأنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرع).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (شرع).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 263.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وصى).
(5) الفيّوميّ، المصباح المنير: (وصى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (كبر).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (كبر).
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 26.
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (جبا).

مَن جمع شيئًا لنفسه؛ فقد اختصَّه، واصطفاه، وهو من جَبْوَة اللّهِ وصفوته"[1]. فالاجتباء: جمعٌ على طريق الاصطفاء، قال ﷺ: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: 50]، واجتباءُ اللّهِ العبدَ: تخصيصه إيّاه بفيضٍ إلهيٍّ يتحصَّل له منه أنواعٌ من النِّعَم بلا سعيٍ من العبدِ[2]، والمراد به في الآية الكريمة الاختيار والاستخلاص[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

شَـــرْعُ الـلّـهِ لعباده مناسبٌ للعبادة قديمًا وحديثًا

يخبر النَّظمُ الكريم أنَّ اللّه تعالى قد شرع لكم أيُّها النّاس ويا أيّتها الأُمَّة الخاتمة من الدّين ما وصَّى به نوحًا أن يأمر به النّاسَ، ويعملَه، ويبلِّغَه إيّاهم، ومن ذلك الشَّرعُ الذي أوحيناه إليك أيُّها الرَّسول، وهو الإسلام، فأمرناك به، وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى، وأمرناهم بأنِ اعملوا بما شرع لكم، وفرض عليكم، فأقيموا التَّوحيدَ والطّاعة للّه تعالى، ولا تختلفوا في الدّين الذي أمرتكم به، فإنَّه قد عَظُمَ على المشركين ما تدعوهم إليه مِن توحيد اللّه وإخلاص العبادة له، وإنَّ اللّه تعالى يصطفي لدينه من يشاء مِن خَلْقه، ويوفِّق للعمل بطاعته مَن يتوب إليه، ويرجع إلى عبادته[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل قوله تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم﴾:

الشُّروع بالثّناء على سبيل الله وتوحيده

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ لأنَّها مستأنَفَة استئنافًا ابتدائيًّا، سيقت للتَّنويه بمكانة الإسلام، والشَّريعة، وللتَّعريض بالكفّار الذين أعرضوا عنه[5].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (جبي).
(2) الرّاغب، المفردات: (جبى).
(3) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 68، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 12.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 512، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 484.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 49.

توضيحُ المنهاج وتبيين السَّبيل منَّةٌ جليلة من الله

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿شَرَعَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل ﴿شَرَعَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ للدَّلالة على سَنِّه طريقًا لعباده، فاللهُ تعالى قد أوضح للنّاس المنهاجَ والسَّبيلَ القَويم، وبيَّن لهم ما فرضه عليهم، والشّارع هو الطَّريق الأعظم(1)، فهو الواسع البيِّن، وأطلق على سنِّ القوانين التي تبيِّن سبيلَ الحياة للنّاس، فـ ﴿شَرَعَ﴾ هنا دالٌّ على التَّبيين(2)، وإنَّما آثَر ﴿شَرَعَ﴾ دون أن يقول: (فرض عليكم)؛ لأنَّ النِّعم المتقدَّمَ ذِكْرُها هي من فيض الرُّبوبيَّة، فكان السّياقُ أنسبَ باللُّطف، فجعل الشَّرعَ للنّاس لا عليهم، لما في حرف الاستعلاء من الوجوب والتَّكليف، وأنَّه منحةٌ وعطيَّة للنّاس من فضل الله تعالى عليهم.

شَرْعُ الله تعالى والوحي بالرِّسالة الخاتمة أعظمُ النِّعم وأجلُّها

نُكْتَةُ الالتفات من الغَيبة إلى التَّكلُّم:

التفت النَّظمُ الجليل من التَّعبير بالضَّمير الغائب في الفعلين (﴿شَرَعَ﴾، و﴿وَصَّىٰ﴾)، إلى التَّعبير بضمير المتكلِّم في فعل الوحي في قوله جلَّ شأنه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ وجاء ذلك تعظيمًا للوحي المُنزَّل على النَّبيِّ ﷺ، وتفخيمًا لشأنه، وإظهارًا لكمال العناية به(3)، وفيه أيضًا أنَّ خطاب نوحٍ عليه السلام غائبٌ عن المخاطَبين زمانَ بعثة النَّبيِّ ﷺ، فجيء بضمير الغائب، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ﴾ بصيغة المتكلِّم؛ وذلك لأنَّه خطابٌ للحاضر(4).

شَرَّعَ العليمُ الشَّريعةَ لمنافع النّاس

نوع اللّام في ﴿لَكُم﴾ ودلالتُها:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، وهي

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شرع).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 49.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 25.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 3.

هنا دالَّة على التَّعليل، أي: شرع لأجلكم تلك الشَّرائع[1]، فدلَّت على أنَّ تلك الشَّرائع تضمَّنت الخيرَ للنّاس، فقد شرَّعها العليمُ الخبير لأجلهم بما يناسبهم، ويحقِّق مصالحهم.

بلاغة الخطاب في ﴿لَكُم﴾:

الإبلاغُ بالتَّشريع امتنانٌ وتنويهٌ بالمخاطَب

خاطب النَّظمُ الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿۞شَرَعَ لَكُم﴾ النّاس كلَّهم بهذا التَّشريع، فهو تشريعٌ للنّاس جميعًا فضلًا من الله ورحمة بهم[2]، ويجوز أن يكون الخطاب مقتصِرًا على أُمَّة النَّبيِّ ﷺ[3]، وفائدتُه أنَّه تنويهٌ بالإسلام وتشريفٌ لأتباعه[4].

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

ما شرعَهُ الله تعالى هو الدّين المُلزِمُ للعباد

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، وهي هنا بيانيَّة تبيِّن جنس التَّشريع[5]، فهو تشريع من الدّين المُلزم اعتقادًا وسلوكًا، وإنَّما كانت بيانيَّة؛ لأنَّه ذَكر من ضمن الذي شَرَّعه لهم ما أوحى به للنَّبيِّ ﷺ، فلا يكون الوحي بعضًا من الدّين؛ لأنَّه هو أساسُه، وأصله، وجعلها العلّامة ابن عاشور دالَّة على التَّبعيض[6].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾:

إنَّ الدّين واحد وهو عند الله الإسلام

عرَّف النَّظمُ الجليل ﴿ٱلدِّينِ﴾ بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، وهي هنا لتعريف الجنس، فهو يعمُّ الأديان السّابقة[7]، وأراد به الطَّريقَ المستقيم الذي بُني على توحيد الله تعالى[8].

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 70.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 512.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 607، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 58.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 49.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 501.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 50.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 50.
(8) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 286.

نُكْتَة تقديمِ شبه الجملة على المفعول به:

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور ﴿لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ على المفعول به ﴿مَا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾؛ إظهارًا للعناية بالمخاطَبين، وأنَّ المقصود من التَّشريع منافعُهم ومصالحُهم.

كمالُ العناية بالنّاس والمخاطَبين هي أصل التَّشريع

نُكْتَةُ إيثار الموصول ﴿مَا﴾ والتَّعبير به دونَ الظّاهر:

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول دونَ الاسم الصَّريح في قوله جلَّ شأنه: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، فلم يقل: (شرع لكم من الدين وصية نوح)؛ وذلك جاء تفخيمًا لشأن تلك الوصايا التي نزلت على نوح عليه السلام، أي: الذي وصّى به نوحًا توصيةً عظيمة[1]، وذلك لما في ﴿مَا﴾ من الإبهام الدّالِّ على التَّفخيم والتَّعظيم.

شريعةُ الله المُنزَّلة أعظِمْ بها مسلكًا وسبيلًا للحقِّ!

نُكْتَة التَّعبير بـ﴿وَصَّىٰ﴾ مادَّةً وصيغةً:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة (فعَّل) في قوله تعالى: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾؛ للدَّلالة على التَّكثير والمبالغة؛ تعظيمًا لشأن تلك التَّوصية، فهي من العظمة بحيثُ إنَّها تبقى خالدةً صالحة على مرِّ الزَّمان من نوح عليه السلام إلى الرِّسالة الخاتمة، وإيثارُ التَّعبير بالتَّوصية؛ لأنَّها أمرٌ على سبيل التَّوكيد[2]، فهي "معربةٌ عن تأكيد الأمرِ والاعتناء بشأن المأمور به"[3].

الوصيَّة أمرٌ عظيم يلزم الإيفاءُ به

نوع الباء ﴿بِهِۦ﴾ ودلالتُها:

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ ﴿بِهِۦ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، وهي هنا للتَّعدية، والمعنى: ألزمهم، وكلَّفهم ذلك[4]، أي: "قد وصَّيناه وإيّاك يا محمَّد دينًا واحدًا"[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 264.

(2) المهايميّ، تبصير الرّحمن: 2/ 244.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 25، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 58.

(4) ابن عادل، اللّباب: 8/ 511.

(5) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 95.

تعيين مرجع الضَّمير ﴿بِهِۦ﴾:

يعود الضَّمير المتعلِّق بفعل التَّوصية في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ﴾ على الدّين[1]، فالَّذي وصّى به نوحًا هو الدّين الذي أمره به.

نُكْتَة التَّصريح باسم نوح عليه السلام:

شريعة التَّوحيد قديمة متَّصلة بأوَّل الأنبياء

ابتدأ النَّظمُ الجليل بذكر نوح عليه السلام في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾؛ وذلك للإشارة إلى صلاح الشَّريعة منذ الزَّمان الأقدم، وأنَّ الرِّسالة الخاتمة امتدادٌ لما وصّى اللّهُ تعالى به نوحًا عليه السلام[2]، وفيه أيضًا تزكيةٌ لشريعة النَّبيِّ ﷺ، فإنَّ ما شرَّعه له هو ما شرَّعه للأنبياء بدءًا من أوَّل الأنبياء، فهو دينٌ قديم أجمعَ عليه الرُّسل منذ القِدم[3].

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ﴾:

الرِّسالة الخاتمة مغايرةٌ لسابقها تفصيلًا وتفريعًا

عطف النَّظمُ الجليل الوحي على الوصيَّة بالواو في قوله جلَّ شأنه: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ للدّلالة على ما بينهما من المغايرة التي تأتَّت من التَّفصيل وكثرة التَّفريع[4]، وفيه إيماءٌ إلى اتِّصال شريعة النَّبيِّ ﷺ بالشَّرائع التي قبلَه؛ ردًّا على مَن ظنَّ ابتداعَ الرِّسالة وغرابتها.

علَّة استعمالِ (الذي) دون (ما):

التَّعبير بأعرف الموصولات لَمْحٌ لفخامة شأنِ الرِّسالةِ الخاتمة

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبير بالاسم الموصول (الذي) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، فلم يقل: (ما أوحينا إليك)، كما قال: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾؛ لأنَّ (الذي) هو أصل الموصولات، فأفاد ذلك تفخيمَ شأنِ النَّبيِّ ﷺ[5]، ولأنَّ الشَّرائع السّابقة ليست معهودةً

---

(1) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 95.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 264.

(3) القنوجيّ، فتح البيان: 12/ 283، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 24.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 51.

(5) القنوجي، فتح البيان: 12/ 284.

للمخاطَبين لبُعْد عهدِها بهم، وأمّا الموحَى به إلى النَّبيِّ ﷺ؛ فهو شرعٌ متداوَل فيهم، معروف عندهم[1].

بلاغة استعمال ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ مادَّةً وصيغةً دونَ (وصّينا):

الوحي أدلُّ على النُّبوَّة وأصرح بالتَّفضيل

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالوحي مع النَّبيِّ ﷺ دونَ الوصيَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، فلم يقل: (الذي وصّيناك به)؛ تعظيمًا لرسالته ﷺ؛ لأنَّ الوحيَ أدلُّ على النُّبوَّة من التَّوصية، كما أنَّه تصريح برسالته ﷺ[2]، و"لأنَّ الشَّرائع التي سبقت شريعة الإسلام كانت شرائعَ مؤقتةً مُقدَّرًا ورودُ شريعة بعدَها، فكان العمل بها كالعمل الذي يقوم به مؤتمَنٌ على شيء حتّى يأتيَ صاحبُه، وليقعَ الاتِّصال بين فعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، وبين قوله في صدر السّورة: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾ [الشّورى: 3]"[3].

غرضُ إسناد فعلِ الإيحاء إلى ضمير العظَمة:

تعظيم الوحي لتفخيم الموحَى إليه

أسند النَّظمُ الجليل فعلَ الإيحاء إلى ضمير التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ تعظيمًا لأمر الإيحاء، والمراد: تفخيمُ شأن النَّبيِّ ﷺ[4]، وفيه بيانٌ لمكانة دعوته ﷺ، وما لها من منزلة كبيرة جديرة بالنِّسبة إلى الله تعالى[5]، فإبرازُ الفعل في مظهر العظَمة بالإسناد إلى الضَّمير والتَّعبير بلفظ الوحي، أي: بالأصل في الموصلات، والدَّلالة على زيادة عظمته بتقديمه على مَن كانوا قبله، مع ترتيبهم عند ذكرهم على ترتيبهم في الوجود حصرٌ للإعجاز وتخصيصُه به تعالى، وتشريفٌ لمقام النَّبيِّ ﷺ[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 52.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 25.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 53.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 70.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 23.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 264.

دلالة حرف الجرِّ (إلى):

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (إلى) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، وهو دالٌّ على الغاية، وذلك للدَّلالة على بلوغ الوحي إليه ﷺ.

علَّةُ ذِكْر الوحي بين وصيَّتين:

الوحيُ المحمَّديُّ حاكم لما قبله من الوحي ومهيمنٌ عليه

أورد النَّظمُ الجليل ذِكر الوحي للنَّبيِّ ﷺ بين وصيِّتين في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ وذلك لأنَّه بعد أنْ بيَّن أوَّلَ الرِّسالات، وهي رسالة نوح عليه السلام، وأتبعه بخاتمتها؛ أتبع ذلك ما كان بينهما من الرَّسائل والشَّرائع[1]، فإيرادُ ذِكْر الإسلام بعد ذِكْر دينِ نوح عليه السلام يُشير إلى أنَّ الإسلام هو الخاتم للأديان، فجمع بين طرفَي الأديان، ثمَّ ذكر الأديان الأُخَر لتوسُّطها بينهما[2].

سرُّ الخطاب بـ (لك) بعد الخطاب بـ ﴿لَكُم﴾:

فهمُ القرآن حقَّ فهمِه من خواصِّ النَّبيِّ ﷺ

خاطَب النَّظمُ الجليل النَّبيَّ ﷺ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ بعد خطاب الجمع، فلم يقل: (أوحينا إليكم)؛ وذلك جاء تشريفًا له ﷺ وتعظيمًا، وإيماءً إلى أنَّه لا يفهمه حقَّ فهمِه غيرُه ﷺ[3]، وتنبيهًا على عُلوِّ منزلتِه، فإنَّ اللّه تعالى شرعَ لهم ذلك على لسانه ﷺ[4].

نوع الواو في قوله: ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا﴾:

الشَّريعة الخاتمة شاملةٌ لكلِّ الشَّرائع قبلها

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ على وصيَّة نوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾، فالجملةُ واقعة ضمن حيِّز الفعل

---

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 286.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 51.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 264 - 265.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 26.

﴿۞شَرَعَ﴾[1]، ودلَّ ذلك أنَّ ممّا شرعه اللّهُ تعالى للنّاس ولهذه الأمَّة الخاتمة هو ما أمر به تعالى الرُّسلَ من أولي العَزْم[2].

دلالة استعمال (ما):

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول عمّا شَرَعه للأنبياء عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾؛ للدَّلالة على فخامة تلك الوصايا، وتعظيم شأنها.

نُكْتَةُ إسناد (وَصّى) لضمير العظَمة:

أسند النَّظمُ الجليل فعلَ التَّوصية إلى ضمير التَّعظيم في قوله تعالى: ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ﴾، أي: بما لنا من العظَمة، فالتَّعظيم يُرادُ منه تفخيمُ شأن تلك الوصايا[3].

نُكْتَة ترتيبِ المُرسَلين:

البَـدءُ بالأقدم والتَّثنية بالخاتم الأعـظـم، ثـمَّ سردٌ تاريخيٌّ

رتَّب النَّظمُ الجليل الأنبياء في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾، فابتدأ بنوح؛ لأنَّه أوَّل الرُّسل، ثمَّ أتبعه بذِكْر النَّبيِّ ﷺ؛ تنويهًا بزيادة عظَمته، ولأنَّه آخرُ الرُّسل، ثمَّ ذكر بعد ذلك الأنبياء من أولي العزم، مرتِّبًا إيّاهم بحسب ترتيبهم في الوجود[4].

توجيهُ تخصيص هؤلاء المرسلين بالذِّكر:

أولو العَزْم أولى النّاسِ بالذِّكر

خصَّ النَّظمُ الجليل ذِكْرَ الأنبياءِ الخمسة في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ دونَ سواهم؛ وذلك لأنَّهم أكابر الأنبياء عليهم السلام، ولأنَّهم أصحاب شرائعَ معروفةٍ، ولهم أتباعٌ كُثُر[5]، وقد خُصّوا بالذِّكر

---

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 501.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 58.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 265.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 264.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 587.

أيضًا؛ لأنَّهم أولو العَزْم من الرُّسل، وفي ذكرهم استمالةٌ لقلوبِ أتباعهم[1]، ونوحٌ عليه السلام أوَّل الرُّسل؛ فدينُه أساسُ الدّيانات، وإبراهيمُ أصل الحنيفيَّة، وهو أشهر الأنبياء بين العرب، وأمّا موسى؛ فشريعتُه أوسعُها انتشارًا قبلَ الإسلام، وأمّا عيسى؛ فلأنَّه آخرُ الرُّسل قبلَ النَّبيِّ ﷺ، ولم يكن بينه وبين الإسلام دينٌ آخر[2].

نوع ﴿أَنۡ﴾ ودلالتُها:

ما شَرَعَهُ لهم حفظُ الدّين وإقامتُه على شروطه

عبَّر النَّظمُ الجليل بالحرف ﴿أَنۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾، وهي صالحة أن تكون تفسيريَّةً ومصدريَّة، فهي تفسيريَّة؛ لأنَّه قد سبقها ما فيه معنى القول، وهو الفعل ﴿شَرَعَ﴾، فجيء بها لتفسير ما وصّى به الأنبياءَ[3]، ويجوز أن تكون مصدريَّةً، فيكون المصدر المؤوَّل منها ومن الفعل (إقامة) لمبتدأ محذوف، تقديره (هو)، فكأنَّه قيل: ما الَّذي شرعه الله تعالى؟ فقيل: هو إقامة الدّين[4].

دلالة انتقاء مفردة ﴿أَقِيمُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

حفظ الدّين وإقامتُه على أصوله وفروعه فريضةٌ منذ القِدَم

عبَّر النَّظمُ الجليل بالإقامة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾؛ للدَّلالة على حفظ الدّين من الزَّيف، وعلى المواظبة عليه، وإقامة شروطه، وتعديل أركانه، فيبقى الدّين قائمًا على مرِّ الزَّمان بلا زيغٍ أو انحراف عن الصِّراط المستقيم[5]، وجاء التَّعبيرُ بفعل الأمر؛ للدَّلالة على وجوب الإقامة ولزومها.

معنى تعريف ﴿ٱلدِّينَ﴾:

دين الفطرة هو الدّين الشّامل للشَّرائع السَّماويَّة

عرَّف النَّظمُ الجليل ﴿ٱلدِّينَ﴾ بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 25.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 51.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 396، والخازن، لباب التّأويل: 4/ 95.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 607.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 26، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 25.

﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾، وهو هنا تعريف الجنس، فهو دين الفطرة "الذي اتَّفق عليه الخلائقُ بالرُّجوع إلى ما فطروا عليه وقتَ الاضطرار، وهو التَّوحيد والوصف بجميع صفات الكمال على الإطلاق، وغيرُ ذلك من كلِّ ما أرسلَ به رسلَه"(1).

نوع الواو في قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ﴾:

عطف النَّظمُ الجليل النَّهي عن الافتراق على الأمر بالإقامة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾؛ وذلك لأنَّه لّما عظَّم شأن الدّين بالأمر بالاجتماع عليه؛ أتبعَه بالنَّهي عنِ الافتراق فيه(2).

دلالةُ ذِكْر التَّفرُّق دون الاختلاف:

التَّفرُّق تشتيتٌ مذموم لا تنوُّعٌ محمودٌ

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالتَّفرُّق دون الاختلاف في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾؛ لأنَّ التَّفرُّق مذمومٌ؛ لأنَّه يدلُّ على كمال الانفصال، وعلى تشتيت الشَّمل والكلمة(3)، أمّا الاختلاف؛ فلا يقتضي التَّفرُّقَ والانفصال، فقد يكون اختلافَ تنوُّعٍ لا اختلافَ تضادٍّ.

سرُّ تقييد فعل ﴿تَتَفَرَّقُواْ﴾ بقيد ﴿فِيهِۚ﴾:

أسوأ التَّفرُّقِ التَّفرُّقُ في الدّين شدَّةً وضررًا على النّاس

قيَّد النَّظمُ الجليل التَّفرُّقَ بشِبه الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ دون أن يكون المَنهيُّ عنه مطلقَ التَّفرُّقِ؛ وذلك لأنَّ التَّفرُّق في الدّين أسوأُ وأضرُّ تفرُّقٍ، وأنَّ التَّفرُّق في غيره أمرٌ لا مَفرَّ منه لطبيعة الإنسان.

علَّةُ فصلِ جملة ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

ظهورُ الحقِّ شاقٌّ على أهل الزّيغ والتَّفرُّق

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾؛ لأنَّها مستأنفة استئنافًا تعليليًّا، فعِلَّة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 265.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 266.
(3) الرّاغب، المفردات: (فرق).

النَّهي عن التَّفرُّق في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾، هو أنَّ الاجتماع على عبادة اللّه تعالى وحدَه شقَّت على المشركين، فلأجل ذلك تراهم يَسْعَون في تفرُّقكم عنه[1]، ويجوز أن يكون استئنافًا بيانيًّا، سيق للجواب عن سؤال مَن يتعجَّب من إعراض المشركين عن دعوة الإسلام، مع أنَّه مُؤيَّدٌ بما سبق من الأديان، فأُجيبَ بأنَّه الإسلام قد شقَّ عليهم، فتجهَّموه، وأعرضوا عنه[2].

بلاغة اختيار ﴿كَبُرَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّوحيد والائتلاف عليه ثقيلٌ على نفوس الكافرين

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل ﴿كَبُرَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾، وهو في الأصل يدلُّ على ضخامة الذّات وعِظَمها، فدلَّ التَّعبيرُ به على ثقله على نفوس الكافرين وصعوبة تقبُّلهم له؛ لأنَّ الشَّيء الضَّخم يصعب حمله[3]، أي: "شقَّ، وعَظُم عليهم ما تدعوهم إليه من الدّين المبرَّأ من عبادة غير اللّه"[4]، فدلَّ التَّعبيرُ به على الأثر العظيم الَّذي وقع على المشركين بما دُعوا إليه من التَّوحيد ونبذِ الأصنام الموروثة من آبائهم، وجاء التَّعبيرُ بالفعل الماضي على وزن (فَعُلَ) للمبالغة في صعوبته، والدَّلالة على تحقُّق المشقَّة.

دلالةُ استعمالِ حرف الاستعلاء:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ الدّالِّ على الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾؛ وذلك للدَّلالة على ثقل التَّوحيد وعُسرِه على المشركين[5].

دلالةُ استعمال عنوان الشِّرك دون الكفر:

التَّوحيد والبراءة من الأوثان علَّة المشقَّة على المشركين

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالشِّرك دون الكفر في قوله جلَّ شأنه:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 54.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 54.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 70.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 54.

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾؛ إيماءً إلى أنَّ الذي شقَّ عليهم هو التَّوحيد، وعَظُمَت عليهم البراءة من عبادة غير الله تعالى[1]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [الزّمر: 45].

غرض التَّعبير بالاسم الظّاهر ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ دون الاسم الموصول:

صفة الشِّرك راسخة بالمشركين على وجه العراقة والثُّبوت

عبَّر النَّظمُ الجليل عن المشركين بالوصف دونَ الاسم الموصول في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾، فلم يقل: (كبر على الذين أشركوا)؛ وذلك للدَّلالة على رسوخ صفة الشِّرك فيهم، وثباتِهم عليه، وعراقتهم فيه.

نوع ﴿مَا﴾ ودلالةُ استعمالها:

كلُّ دعوة الإسلام ثقيلةٌ على الضّالّين

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾؛ تعبيرًا عن دعوة الإسلام والتَّوحيد؛ وذلك لاعتبار إنكار المشركين لها[2]، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ عموم ما تضمَّنه الإسلام ودعوةُ التَّوحيد قد كَبُرَ وشقَّ عليهم.

غرض التَّعبيرِ بالمضارع ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾:

الدَّعوة إلى الحقِّ دائمةٌ مستمرَّة

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع عن الدَّعوة في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾؛ لتجدُّد دعوة النَّبيِّ ﷺ والمسلمين للمشركين ودوامه عليها.

دلالةُ تقييد الدَّعوة بالضَّمير دون الإطلاق:

مصدرُ مشقَّتِهم قَصْدُهم بالدَّعوة

أوقع النَّظمُ الجليل فعلَ الدَّعوة على الضَّمير في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ دون أن يقول: (كَبُر على المشركين ما تدعون إليه)؛ لأنَّ المشقَّة وقعت عليهم؛ لأنَّه قصدهم بالدَّعوة، فلمّا عبَّر بالمشقَّة التي وقعت عليهم؛ ناسبَ أن يذكر أنَّه

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 70.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 54.

عناهم بالدَّعوة، فلم تكن دعوتُه لغيرهم ممّا يشقُّ عليهم، وإن كانوا يقفون منها موقفَ العِداء، فالحديثُ في السّياق مقصودٌ به المشقَّةُ، وهي وقعت؛ لأنَّ الدَّعوة وُجِّهت إليهم.

نُكْتَةُ استعمالِ (إلى) دون اللّام:

الإسلام غايةٌ ساميةٌ، بلوغ النّاس إليها مُرادُ الدُّعاة

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (إلى) في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ﴾، وهو دالٌّ على الغاية، فالدَّعوة يُراد منها أن يدخل المشركون في الإسلام حتّى يُبَلِّغوه، ويكونوا من أهله، وهذا ما شقَّ عليهم، ونكَّروه.

علّة فصلِ جملة: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ﴾:

تكليفُ المسلمين بالشَّريعة الخاتمة اصطفاءٌ من الله تعالى

فصل النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾؛ لأنَّها مستأنَفَة استئنافًا تعليليًّا، سيق لبيان علَّة إرشادِ أُمَّةِ النَّبيِّ ﷺ إلى الشَّريعة؛ وذلك لأنَّه اجتباهم، واصطفاهم، فإنَّه تعالى يخصُّ من يشاء بالرِّسالة والدّين، ولا اعتبار بالحَسَب والنَّسب والغِنى[1]، ويصحُّ أن يكون استئنافًا بيانيًّا، وذلك أنَّه لمّا أخبر بكِبَرِه ومشقَّته عليهم، ربَّما أوهم أنَّ أحدًا لن يؤمن به، فكأنَّه أُثير سؤالٌ، فقيل: كيف السَّبيل مع ذلك إلى دخول أحدٍ في هذا الدّين؟ فأجاب مُزيلًا ذلك الوهمَ بأنَّ الله تعالى يصطفي من عباده من يشاء[2].

براعةُ استعمال اسم الجلالة بعد ذِكْر جمالِ أفعاله السّابقة:

الاجتباء للقُرب من المولى تعالى منالٌ عظيمُ الشَّأن جليلُ القدر

صرَّح النَّظمُ الجليل باسم الجلالة بعد ذِكْر أفعاله السّابقة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾؛ وذلك للمبالغة في التَّعظيم، وتفخيم قدرته، فاللّه تعالى الذي له مجامع العظَمة بكلِّ أسبابها هو الَّذي يجتبي لدينه وللقُرْب منه مَن يشاء من

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 588.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 267.

عباده[1]، وهذا يفصح عن عُلوٍّ منزلة أولئك الَّذين اصطفاهم مولاهم، فإنَّ اللّه تعالى اختصَّهم بالقُرْب من سائر عباده.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿يَجۡتَبِيٓ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الاصطفاء للقرب حاصل بغاية العناية

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاجتباء في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه يجلب، ويجمع إليه مَن يختار، ويَصطفي من عباده[2]، أي: إنَّه يختار بغاية العناية والمعرفة لَمن يستحقُّ تلك المكانة[3]، والتَّعبير بصيغة (الافتعال) يرسِّخ الدَّلالة على تلك العناية لما في الصّيغة من دلالة على التَّكلُّف والاجتهاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ [الأعراف: 203][4].

علَّةُ ذِكْر ﴿إِلَيۡهِ﴾ دون الاكتفاء بالإطلاق:

عظَمةُ الاجتباءِ بعظم غايته والمقصود منه

قيَّد النَّظمُ البليغ الاجتباءَ بشبه الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ﴾، دون أن يُطْلِق التَّعبير، فلم يقل: (يجتبي مَن يشاء)؛ وذلك لبيان غاية الاجتباء تعظيمًا له، فهو يُقرِّب، ويصطفي إلى دين التَّوحيد مَن يشاء[5]، ويصلح الضَّميرُ أن يكون عائدًا على اللّه تعالى، فيكون القيد دالًّا على فخامة الاجتباء وعظَمته السّامية[6].

دلالة التَّعبير بالموصول: ﴿مَن﴾:

رحمةُ الله واسعةٌ لا تنحصر بقوم ولا بزمانٍ ومكان

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ وذلك لما فيه من دلالة على العموم، فالاجتباء لا ينحصر بقوم دون غيرهم، فرحمةُ اللّه تعالى تسَعُ أن يصطفي لدينه من عباده في كلِّ عصر من العصور إلى يوم القيامة.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 267.
(2) السّيرافيّ، التّقريب، ص: 229.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 267.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جبو، جبى).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 267.
(6) ابن جزي، التّسهيل: 2/ 246.

دلالة عطف الهداية على الاجتباء:

السَّعي للهداية يُثمِر التَّوفيق إليها

عطف النَّظمُ الجليل الهدايةَ على الاجتباء في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾؛ ليجمعَ بين الاصطفاء الواقع بمشيئته تعالى بلا كسب من العبد، وبين الهداية إلى سلوك سبيل الحقِّ بتوفيق العباد إليه[1]؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ الخير والنَّجاح لا ينحصر برتبة مَنِ اجتباهم اللهُ تعالى، وأنَّ اجتهاد العبد وسعيَه للهداية والرُّجوع إلى مولاه يُثمِر الهداية والتَّوفيق للدّين؛ منعًا للعباد عن الاتِّكال.

بلاغةُ التَّعبير بالهداية مادَّةً وصيغةً:

السَّعيُ للهداية يُثمِر التَّوفيق إليها

عبَّر النَّظمُ الجليل بالهداية في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الله تعالى يوفِّق، ويُرْشد إلى التَّوحيد والطّاعة مَن أناب إلى مولاه، ويمدُّه بلطائف التَّثبيت والإيمان[2]، وذلك إذا أظهر أسبابَ الهداية، وتطلَّع إلى سلوك نفسه في أهل الصَّلاح.

دلالة التَّعبير بالموصول ﴿مَن﴾:

التَّوفيق إلى الهداية شامل لكلِّ من سعى إليها

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾؛ وذلك لما فيه من دلالة على العموم، فكلُّ من آبَ إلى مولاه، ورجع إلى الصَّلاح؛ فإنَّ الله تعالى يوفِّقه للخير، ويحقِّق له تمام الهداية.

نُكْتَةُ استعمال ﴿يُنِيبُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تجديد الأوبة والتَّوبة يحقِّقُ القَبولَ وعُلوَّ الرُّتبة

عبَّر النَّظمُ الجليل بالإنابة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾؛ للدَّلالة على الرُّجوع إلى الله تعالى بالتَّوبة وإخلاص العمل[3]، فاللهُ تعالى يهدي مَن يتوب توبةً نصوحًا، ويوفِّقه للخير

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 267.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 62.

(3) الرّاغب، المفردات: (نوب).

والصَّلاح، وجاء التَّعبيرُ عن ذلك بالفعل المضارع؛ للدَّلالة على أنَّه يجدِّد الرُّجوعَ إلى طاعة مولاه، فاستحقَّ بهذا الدَّوام أن يشملَه اللّهُ تعالى بالهداية(1).

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الاجتباء والاختيار والاصطفاء:

الاجتباء تقريب الصَّفوة، والاصطفاء أخذ الصَّفوة، والاختيار طلب ما فيه خير

الاجتباء: يَدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ والتَّجَمُّعِ(2)، وهو الجمع على طريق الاصطفاء، واجتباء اللّه العبدَ: تخصيصُه إيّاه بفيض إلهيٍّ يتحصَّل له منه أنواعٌ من النِّعَم بلا سعي من العبد(3)؛ وذلك "لأنَّ مَن جمع شيئًا لنفسه؛ فقد اختصَّه، واصطفاه، وهو من جَبْوة اللّه وصفوته"(4)، ويدلُّ على التَّقريب: يقال اجتبى الرَّجلُ الرَّجُلَ؛ إذا قرَّبهُ، قال اللّه تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: 50]، أي: قرَّبهُ(5)، فالاجتباء: تقريب أحدٍ ما باصطفائه من جماعة للنَّفس.

أمّا الاختيار؛ فهو (افتعال) من الخير، وهو: "طلب ما فِعلُهُ خير"(6)، فيدلُّ على تكلُّف طلبِ ما فيه نفعٌ وخير.

وأمّا الاصطفاء؛ فأصلُه من الصَّفاء، وهو خلوصُ الشَّيءِ من الشَّوب، والاصطِفاءُ: تناولُ صَفْوِ الشَّيءِ(7)، فالاصطفاء: (افتعال) من الصَّفوة.

ومن هنا فالاختيار أعمُّ الجميعِ، والاجتباء أخصُّ؛ لأنَّ فيه تقريبًا وتخصيصًا، أمّا الاصطفاء؛ فهو الأخصُّ؛ لأنَّه من الصَّفوة، وعبَّر في الآية الكريمة بالاجتباء؛ لأنَّه يشمل كلَّ الصّالحين الذين يقرِّبهم اللّهُ تعالى منه، ولا يختصُّ بالأصفياء من خصوص خَلْقه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 267.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جبي).
(3) الرّاغب، المفردات: (جبى).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (جبي).
(5) الخليل، العين: (جبي).
(6) المناويّ، التّوقيف، ص: 41.
(7) الرّاغب، المفردات: (صفو).

التَّفرُّق والاختلاف:

التَّـفرُّق يشتِّت شملَ الجماعة، ويُـنـتِـجُ الـعِـداء بين أفرادها

أصلُ الاختلاف يدلُّ على مجيء شيءٍ بعد شيءٍ يقوم مقامَه، يقال: اختلف النّاس في كذا؛ لأنَّ كلَّ واحد منهم يُنَحّي قولَ صاحبِه، ويقيمُ نفسَه مقامَ الذي نحّاه[1]، وهو أن يأخذ كلُّ واحد طريقًا غيرَ طريق الآخر، والخِلاف أعمُّ من الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضدَّين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدَّين[2]، وهو "افتعال من الخلاف، وهو تقابل بين رأيين فيما ينبغي انفرادُ الرَّأي فيه"[3].

أمّا التَّفرُّق؛ فهو من الفَرْق، ويقال اعتبارًا بالانفصال، فهو الفصل بين الشَّيئين، والتَّفْريقُ أصله للتَّكثير، ويقال ذلك في تشتيت الشَّمل والكلمة[4]، فالاختلاف دالٌّ على المغايرة، وأمّا التَّفرُّق؛ فدالٌّ على التَّشتُّت، فالتَّفرُّق أسوأ من الاختلاف؛ لأنَّه نهايته ونتيجته، فعبَّر في الآية الكريمة بالنَّهي عن التَّفرُّق؛ لأنَّه يُشتِّت الشَّمل، ويفرِّق الجماعة، وتقع به العداوةُ بينهم.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).

(2) الرّاغب، المفردات: (خلف).

(3) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 41.

(4) الرّاغب، المفردات: (فرق).

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾ [الشّورى: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الإخبار عن التَّفرُّق بعد النَّهي عنه فضحٌ لمطمَع المتُفرِّقين

لمّا ذكر النَّظمُ الجليل ما شَرع للنّاس من الأمر بإقامة الدّين والنَّهي عن التَّفرُّق فيه؛ أتبعه بِذكر نقضِهم للنَّهي ووقوع التَّفرُّق فيه[1]، فالإخبارُ عن التَّفرُّق بعد النَّهي عنه يُبيِّن علَّة التَّفرُّق، وفي ذلك يقول الفخر الرّازيُّ: "واعلم أنَّه تعالى لمّا بيَّن أنَّه أمر كلَّ الأنبياء والأمم بالأخذ بالدّين المتَّفق عليه؛ كان لقائل أن يقول: فلماذا نجدهم متفرِّقين؟ فأجاب اللّهُ تعالى عنهم بقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾، يعني: أنَّهم ما تفرَّقوا إلّا من بعد أن علموا أنَّ الفُرْقة ضلالة، ولكنَّهم فعلوا ذلك للبغي، وطلبِ الرّياسة، فحَمَلَتْهمُ الحميَّةُ النَّفسانيَّة والأَنَفَة الطَّبعيَّة، على أن ذهب كلُّ طائفة إلى مذهب، ودعا النّاسَ إليه، وقبَّح ما سواه طلبًا للذِّكر والرّياسة، فصار ذلك سببًا لوقوع الاختلاف"[2].

ومن المناسبات: أنَّه "لمّا كان المراد بالمشركين مع عبّاد الأوثان أهلَ الكتابِ الذين اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون اللّه؛ لقبولهم منهم التَّحليلَ والتَّحريم، وكان ذلك مُفهمًا؛ لأنَّهم فارقوا أهلَ الطّاعة، وكان ذلك موهمًا؛ لأنَّهم ما فارقوهم إلّا عن جهل، قال عاطفًا على ما تقديره: فأتى الرُّسل إلى النّاس، فأقاموا لهم الدّين، وبيَّنوا لهم غاية التَّبيين، فاجتبى اللّهُ بعضَهم، وأضلَّ بعضهم، فافترقوا"[3].

---

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 12/ 286.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 588.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 268.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿بَغۡيَۢا﴾: (بغي) أصلٌ هو جِنْسٌ مِنَ الفَسادِ، قَولُهُم: بَغى الجُرْحُ؛ إذا تَرامَى إلى فَسادٍ، أو تجاوز الحدَّ في فساده، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِن هَذا ما بَعْدَهُ، فالبَغِيُّ: هي الفاجِرَةُ، تَقولُ: بَغَتْ تَبْغي بِغاءً، وهي بَغِيٌّ؛ وذلك لتجاوزها إلى ما ليس لها، قال ﷻ: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النور: 33]، ومِنْهُ: أن يَبْغيَ الإنسانُ على آخَرَ، وبَغَتِ السَّماءُ: تجاوزت في المطر حدَّ المحتاجِ إليه[1]، والمرادُ به في الآية الكريمة، أي: ظُلمًا وتعدّيًا وطلبًا للرِّئاسة[2].

2) ﴿أُورِثُواْ﴾: (ورث) أصلٌ، وهو أن يكونَ الشَّيءُ لِقَوْمٍ، ثُمَّ يَصيرَ إلى آخَرينَ بِنَسَبٍ أو سَبَبٍ[3]، يُقالُ: وَرِثَ أباهُ، يَرِثُه، إرْثًا، فهو وريثٌ، أي: صارَ إليه مُلْكُهُ بعد مَوْتِه، واللّه ﷻ يَرِث الأرضَ ومَن عليها، وهو خيرُ الوارِثين، أي: يَبقى، ويَفْنى مَن سواهُ، فَيرجع ما كانَ مُلك العِباد إليه وحْده لا شريك له[4]، والمراد به في الآية الكريمة: صار إليهم عِلْمُ الكتاب[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تفرُّقُ المختلفين صادرٌ عن البغي واتِّباع الهوى، والعذابُ المستحقُّ مقدَّر يوم الحساب

يخبر النَّظمُ الكريم أنَّ المشركين لم يتفرَّقوا في دينهم بأن صاروا أحزابًا مشتَّتة إلّا من بعد ما جاءهم العِلْم، وما دعاهم إلى ذلك إلّا البَغيُ وطلبُ حَظِّ النَّفس والعِناد، فقدِ استحقّوا العذابَ بسبب ذلك، ولولا تقديرُ اللّه تعالى بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة؛ لعجَّل لهم العذاب، ولنزل بساحتهم، وإنَّ أهلَ الكتاب من اليهود والنَّصارى الذين جاؤوا من بعدهم، والمشركين الذين أُرْسِل إليهم

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بغي).
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 359.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ورث).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 58.

النَّبيُّ ﷺ، فصار إليهم العِلْم بالكتاب والوحي، لفي شكٍّ من القرآن والوحي والدّين والإيمان، وشكُّهم عظيمٌ، مشوبٌ بخوف، وموقِعٌ في الرّيبة والاضطراب والاختلاف[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتُها على المحذوف:

بيانُ علَّة عدم الامتثال للنَّهي

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾، وما بينهما من الجُمَل في قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ هي جُمَل اعتراضيَّة، وفي النَّظم كلام محذوفٌ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّهم قد تفرَّقوا بعد النَّهي، والتَّقدير: فتفرَّقوا، وما تفرَّقوا إلّا بعد مجيء العِلْم[2]، وفائدة هذا العطف: بيانُ علَّة تفرُّقهم، فقد يقال: لماذا تفرَّق النّاسُ مع أنَّهم نُهوا عنه؟ فأجيبَ: بأنَّهم تفرَّقوا عن عِلْم بأنَّ الفرقة ضلالة، ولكنَّهم فعلوا ذلك بغيًا وطلبًا لحظِّ الدُّنيا[3].

دلالة النَّفي بأداة (ما):

تفرُّقهم لم يَبْعُد عن زمان وصيَّتهم

آثر النَّظمُ الكريم النَّفيَ بـ (ما) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ وذلك لأنَّ (ما) تنفي الفعل الماضي القريب من الحال[4]، والمقصود: أنَّ هناك زمانًا قليلًا بين حصول الفعل وما يخبر به عنه، نحو: ما حضر الأستاذ، فهذا التَّعبيرُ جوابٌ عن الجملة المُثْبِتة: لقد حضر الأستاذُ[5]، فلمّا كان

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 514، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 484.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 56.

(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 26.

(4) الزّمخشريّ، المفصل، ص: 405.

(5) مختار، أسلوب النّفي أدواته ودلالاته: 1/ 275.

تفرُّقهم قريبًا من زمان مجيء العِلْم؛ نفى أن يكون التَّفرُّق إلّا في حالة قُرْبِه من زمان مجيء العِلْم.

بلاغةُ الجناس في ﴿تَتَفَرَّقُواْ﴾ و﴿تَفَرَّقُوٓاْ﴾:

التَّفرُّق في الدّين خطيرُ الأثر، مُحوجٍ للتَّنبيه بالتَّكرير

أورد النَّظمُ البليغ لفظين من جذر واحد في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾، على طريقة الجناس الاشتقاقيِّ، فاللَّفظةُ الأولى فعلٌ مضارع من التَّفرُّق، والثّانية فعلٌ ماضٍ منه، وفي تكرار اللَّفظين من مادَّة واحدة تأكيدٌ على موضوع التَّفرُّق المنهي عنه، ولفتٌ للأفهام على خطورته.

تعيين مَرجعِ الضَّمير في ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾:

يصلحُ الضَّمير في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ أن يكون المُراد به اليهود والنَّصارى؛ وذلك للدَّلالة على أنَّهم تفرَّقوا في دينهم[1]، ويصحُّ أن يكون المُراد بهم قريشًا، فهُم تفرَّقوا بعد بعثة النَّبيِّ ﷺ[2].

نوع الاستثناء في ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ﴾:

ما أسوأ التَّفرُّقَ بعد حصول العِلْم!

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاستثناء المُفرَّغ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾، وهو هنا لاستثناء الأحوال، فاستثنى من أعمِّ الأحوال حالَ تفرُّقهم، أي: وما تفرَّقوا في حالٍ من الأحوالِ إلّا حالَ مجيء العِلْم[3]، وفائدة ذلك: تسجيل الذَّمِّ عليهم؛ لكونهم اتَّخذوا العِلْم الذي هو من سُبل الاتِّفاق وسيلةً للتَّفرُّق والاختلاف.

نوع ﴿مِنۢ﴾ ودلالتُها:

لا أسوأ من التَّفرُّق إلّا التَّعجيلُ به إثر النَّهي عنه

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾، وهي هنا للتَّبعيض؛ وذلك للدَّلالة على

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 63.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 607.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 26.

عدم استغراق زمان البَعديَّة، فلم يكن قد طال الزَّمانُ على مجيء العِلْم، فتطرَّق إلى علمهم النِّسيان[1].

دلالةُ الظَّرف ﴿بَعۡدِ﴾:

حصول التَّشتُّت بعد حصول العِلم مذمَّةٌ ظاهرة

عبَّر النَّظمُ الجليل بالظَّرف الدّالِّ على البعديَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾، وذلك للدَّلالة على ذَمِّ التَّفرُّق والتَّشنيع عليه، فهو إنَّما وقع بعد مجيء العِلْم وظهوره، فكان ينبغي التَّوحُّد على التَّوحيد، لا التَّفرُّق على الشِّرك.

نوع ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

التَّفرُّق حدث وحصل حقيقةً لا افتراضًا

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالحرف ﴿مَا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾، وهي هنا مصدريَّة[2]، فالجملةُ الفعليَّة مع ﴿مَا﴾ المصدريَّة تؤوَّل بمصدر، وهو مجرور بإضافة ﴿بَعۡدِ﴾ إليه، والتَّقدير: من بعد مجيء العلم إيّاهم[3]، وإنَّما عبَّر بالمصدر المؤوَّل دون المصدر الصَّريح؛ للإشارة إلى وقوع التَّفرُّق بعد حدوث المجيء ووقوعه، وذلك لما في الفعل من دلالة على الحدث والزَّمن.

بلاغةُ استعمالِ مفردة المَجيء:

مجيءُ العِلْم بقوَّة تفخيمٌ لشأنه

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ المجيء في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾؛ لأنَّ المجيءَ يُستعمل في الأعيان والمعاني[4]، ولأنَّ المجيء يُشعِر بالقوَّة، فيدلُّ على مجيء بقوَّة، كما يوحي بذلك دلالةُ صوت الجيم؛ وذلك لتفخيم شأن العِلم.

تعيين مرجعِ الضَّمير في قوله: ﴿جَآءَهُمُ﴾:

الكافرون ملَّة واحدة، وسلوكهم سنَّة مطَّردة

يصلح الضَّميرُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 268.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 503.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 79.
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).

﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أن يكون المراد به قريشًا، فهُم الذين تفرَّقوا بعد مجيء النَّبيِّ ﷺ والقرآنِ الكريم، ويصلح أن يكون المراد به الأممَ السّابقة، فإنَّهم اختلفوا لمّا طال بهم المدى، فآمن قوم، وكفر قوم، ومنهم اليهود والنَّصارى[1].

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾:

حصولُ التَّفرُّق مــع بـلــوغ الأسباب المانعة دليلٌ على شدَّة البغي

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ العِلْم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾؛ وذلك للدَّلالة على انتفاء اللَّبس، وتحقُّق الحُجَّة، فانتفت أسبابُ التَّفرُّق، فلم يكن من مسوِّغ للتَّفرُّق المنهي عنه[2]، ومجيء العِلْم يدلُّ على أنَّ الرُّسل عليهم السلام قد بيَّنوا لأقوامهم مضارَّ التَّفرُّق[3]، فكان التَّعبير بالعِلْم ذمًّا للمتفرِّقين، الذين تفرَّقوا مع وجود بيان المنهاج الشّافي الكافي للأُلفة والوحدة.

بلاغةُ المجاز في إسناد المجيءِ إلى العِلْم:

تحقُّق العِلمُ وظهـرَ بسبب مجيء النَّبيِّ ﷺ

أسند النَّظمُ الجليل المجيء إلى العلم في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾، فنسب له فعلًا من أفعال الأحياء، والمراد من العلم أسبابُه، فأطلقَ العلمَ على الأسباب، من باب ذِكر السَّبب وإرادة المسبَّب، فهو مجاز مرسل علاقتُه السَّببيَّة[4]، وسبب العلم: هو مجيء النَّبيِّ ﷺ مصدِّقًا لما في التَّوارة والإنجيل من البشارات[5]، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى قوَّة العلم وبروزه وشخوصه، كشخص يأتي بنفسه، فيشاهده النّاسُ، فدلَّ على أنَّ التَّعبير بذلك يراد منه المبالغةُ في شأن تحقُّق العلم النّاقض للجهل، والمقيم للحُجَّة.

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 607، 608.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 268.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 56.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 413.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 56.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿بَغۡيَۢا﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بالبغي في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِمَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مصدرًا منصوبًا؛ للدَّلالة على الغرض والغاية من تفرُّقهم، أو لبيان حالهم وكيفيَّة تفرُّقهم، فهو صالح أن يكون مفعولًا لأجله وحالًا، أي: تفرَّقوا للبغي بينهم، وطلبِ الجاه والرِّئاسة[1]، أو تفرَّقوا باغين بعضُهم على بعض؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ تفرُّقهم لم يكن بسبب قصور في البيان والحُجج، بل تنافسوا في أمر الدُّنيا، فبغى بعضُهم على بعض[2]، فهو تزكية للبيان الإلهيِّ ورفْعٌ للقصور عنه، فلم يكن ضلالُهم وتفرُّقهم بسبب عدم كفاية الوحي، بل بسبب طمعهم بأمر الدُّنيا.

غايةُ التَّفرُّق التَّطاولُ على الحقِّ والبغي على النّاس

والبغي دالٌّ على طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى، وهو الطَّلب بأكثر ممّا يجب[3]، ومن هنا فالتَّعبير به للدَّلالة على أنَّهم ببغيهم طمحوا لنيل الرِّئاسة والجاه، وهو أكثر من استحقاقهم، ولكنَّهم تشوَّفوه، وتطلَّعوا له، فوقعَ بينهم التَّنافسُ، فجرَّهم إلى التَّفرُّق والاختلاف.

طلبُ ما ليس مستحقًّا بابٌ للشَّرِّ خطير

دلالةُ تقييد البغي بشِبه الجملة:

قيَّد النَّظمُ البليغ البغيَ بشبه الجملة من الظَّرف والمضاف إليه ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِمَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ البغي لم يكن مع أحد من غير جماعتهم، وإنَّ البغي منافٍ لمكارم الأخلاق، وإنَّه أشدُّ منافاة وعجبًا أن يقع بين أفراد الجماعة الواحدة، فلم يكن بغيُهم إلّا بينهم[4].

أسوأ البغي ما وقع بين أفراد جماعة واحدة

بلاغةُ التَّعريض بالمشركين في قوله: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

عرَّض النَّظمُ الجليل بالمشركين في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ

لا قصورَ في الوحي بل الإعراض عنه، لما في النُّفوس من حبِّ الدُّنيا

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 607.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 79.
(3) الرّاغب، المفردات: (بغي).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 269.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِمَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾، فإنَّ تفرُّق الأقوام بينهم إنَّما كان للعداوة بينهم، فعرَّض بالمشركين بأنَّ إعراضهم عن الإسلام ليس إلّا عداوةً للمؤمنين، لا لقصور في الحُجَّة والبرهان[1].

نوع الواو ﴿وَلَوۡلَا﴾ ودلالتُها:

استحقاقُ العذاب مدفوعٌ بكلمة القَدَر

افتتح النَّظمُ الجليل الجملةَ بالواو في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، وهي هنا استئنافيَّة، فالجملة مستأنَفَة[2] استئنافًا ابتدائيًّا سيقت لبيان استحقاقهم العذابَ؛ بسبب التَّفرُّق، وبيانِ امتناعِ عذابهم في الدُّنيا بسبب الأجل المُقدَّر[3]، وفيه تحذيرٌ للمؤمنين من الاختلاف والتَّفرُّق في الدّين[4].

دلالة التَّعبير بالأداة (لولا):

قَدَرُ الله تعالى غالبٌ لفعل الإنسان وجُرْمِه

عبَّر النَّظمُ الجليل بالأداة (لولا) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، وهي حرف امتناع لوجود، متضمِّن معنى الشَّرط[5]، فامتنع عذابُهم لوجود أجل ووقتٍ محدَّد له، فـ "أخبر تعالى أنَّهم استحقّوا العذابَ بسبب هذا الفعل، إلّا أنَّه تعالى أخَّر عنهم ذلك العذابَ؛ لأنَّ لكلِّ عذابٍ عنده أجلًا مسمًّى"[6]، فإنَّ بغيَهم موجبٌ للمؤاخذة في الحال، ولكنَّها لم تقع؛ لأنَّه تعالى قضى بتأخير العذاب عنهم[7]، فدلَّ ذلك على أنَّ عدم وقوعِ العذاب عنهم ليس انتفاءً للقُدرة، بل هو محضُ فضل بإرجائهم إلى وقت معلوم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 56.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 79.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 588.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 57.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 504.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 588.
(7) المهايميّ، تبصير الرّحمن: 2/ 245.

غرضُ تنكير ﴿كَلِمَةٌ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الكلمة منكَّرةً في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لما في التَّنكير من دلالة على التَّكثير والتَّنويع؛ وذلك لأنَّ الأمم المتفرِّقة كثيرة، ولكلِّ أمَّة منها كلمة من اللّه تعالى تقضي بتأخير العذاب عنهم[1].

كَـثُرَ المتفرِّقون فـزادَ القضاءُ بتأجيل العذاب

دلالةُ التَّعبير بالكلمة:

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الكلمة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾؛ للدَّلالة على قضاء اللّه تعالى بألّا يفصل بين المتفرِّقين في الدُّنيا[2]، فالكلمة هنا يُراد بها ما شاءه اللّهُ تعالى من الإمهال، وتأخير الجزاء والمؤاخذة إلى وقت قدَّره في علمه، وعلى مقتضى حكمته، فالكلمة هنا مستعملة للإرادة والتَّقدير[3]، ودلَّ ذلك على أنَّ قضاء اللّه تعالى بذلك قد تحقَّق، وثبت، فكلمته لا تتغيَّر، وكذلك قضاؤه، لا يستعجله كفر الكافرين على إيقاع العذاب بهم، وقد قضى في الأزل بتأخير العذاب عنهم.

قضاءُ اللّه بالإمهال ثابتٌ لا يُعجِلُه تفرُّق الباغين

نُكْتَةُ وصفِ الاسم بجملة ﴿سَبَقَتْ﴾:

وصف النَّظمُ الجليل الكلمةَ بالجملة الفعليَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على تقدُّمها على تفرُّقهم، فقضاءُ اللّه تعالى وإرادتُه سابقةٌ لما اجترح النّاس[4]، ودلَّ الوصف بذلك على أنَّ هذه الكلمة ليست حادثةً أو طارئة، بل هي مقرَّرةٌ سابقًا.

تأخير العذاب معلوم لله من الأزل

بلاغة استعمال مفردة ﴿سَبَقَتْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ السَّبق في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لدلالته على التَّقدُّم، فالسَّبق هو" القُدْمةُ

لا تبديلَ لكلمات الله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 57.
(2) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 246.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 57.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 57.

في الجَرْي وفي كُلِّ شَيءٍ"[1]، فتأخيرُ العذابِ عنهم قد سبق تفرُّقَهم وإعراضَهم، وجاء التَّعبيرُ عن ذلك بالفعل الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق السَّبق حقيقةً لا مبالغة.

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

تأخيرُ العذاب مِنَّة من الله تعالى

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، وهي هنا ابتدائيَّة، فصدورُ تلك الكلمةِ كان من الله تعالى تفضُّلًا منه ورحمةً.

دلالةُ استعمال عنوان الرُّبوبيَّة:

إمهالُ القضاء وتأخيرُ العذاب مظهر من مظاهر الرُّبوبيَّة

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ لمناسبته الرِّفقَ بعباده بما قضاه بإمهالهم، وتأخيرِ العذاب عنهم رحمةً بهم[2].

نُكْتَةُ إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير الخطاب:

تأخيرُ العذاب عن مكذِّبي القرآن إكرامٌ من الله تعالى لنبيِّه في قومه

أضاف النَّظمُ الحكيم لفظَ الرَّبِّ إلى الضَّمير العائد إلى النَّبيِّ ﷺ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾؛ تشريفًا له، وإيماءً إلى أنَّ ذلك اللُّطفَ بهم بتأخير العذاب عنهم إنَّما كان لأجله ﷺ، وأشار إلى أنَّ إحسانه تعالى عليهم إحسانٌ يليق بمقامه الشَّريف[3].

غرضُ تقديم ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ على ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾:

تقديمُ علَّة اللُّطف أبلغُ في سياق الامتنان

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ على شبه الجملة: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ بسبب تضمُّن الأولى لفظَ الرُّبوبيَّةِ المشعرَ بلطفه في سبق كلمته القاضية بتأخير العذاب، فكان التَّقديم عنايةً بمصدر الرَّحمة والمنَّة.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 269.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 269.

دلالةُ استعمال حرف ﴿إِلَىٰٓ﴾:

لا يتقدَّم الأجل ولا يتأخَّر

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ للدَّلالة على غاية الأجل، وذلك يشير إلى أنَّ العقوبة لا تقع قبل بلوغ ذلك الأجل، سواء كان في الدُّنيا أم في الآخرة، أي: "إلى وقت معيَّن معلوم عند الله تعالى، وهو يوم القيامة، أو آخر أعمارهم المُقدَّرة"(1)، فالغاية تبيِّن مدَّةَ التَّأخير ونهايته.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿أَجَلٖ﴾:

يـأتي الـعـذابُ في وقـتـه المـقـرَّر وزمانه المقدَّر

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الأجل في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، وهو دالٌّ على المدَّة المضروبة للشَّيء(2)، وهو غاية الوقت في محلِّ الدَّين وغيره(3)، فبيَّن أنَّ لعذابهم وقتًا مضروبًا، وزمانًا مقدَّرًا، لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر.

غرضُ تنكير ﴿أَجَلٖ﴾:

التَّنكير يدلُّ على التَّكثير والتَّنويع

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الأجل بصيغة التَّنكير في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ لما فيه من دلالة على التَّكثير والتَّنويع؛ فإنَّ لكلِّ أُمَّة منهم أجلًا مسمًّى، فهي آجال كثيرة متعدِّدة، متنوِّعة طولًا وقِصَرًا وكيفيَّة(4).

فائدةُ وصف الأجل بأنَّه ﴿مُّسَمّٗى﴾:

موعدُ العذاب مقدَّرٌ ومقرَّر

وصف النَّظمُ الجليل الأجل بأنَّه مسمًّى في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ للدَّلالة على أنَّه وقت معلوم(5)، فالأجلُ المسمَّى هو الوقت المُعيَّن المحدَّد؛ لأنَّ الاسم

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 64.
(2) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 57.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 588.

يقيم المسمَّى بتشخيصه وتمييزه[1]، فتسميةُ الأجل تعيينُه، كما يُعيِّن الاسمُ مسمّاه.

نوع اللّام في قوله: ﴿لَّقُضِىَ﴾:

لا شكَّ في وقوع العذاب لو لم يَسبِق القدَر

أدخل النَّظمُ الجليل حرفَ الرَّبط (اللّام) على فعل القضاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الجملة هي الجواب عن أداة الشَّرط[2]، فهي تربط بين الجملتين في أسلوب الشَّرط؛ لبيان التَّعلُّق بينهما، فإنَّ وقوع العذاب محقَّقٌ؛ لو أنَّ الكلمة بتأخيره لم تكن.

دلالةُ استعمالِ مفردة القضاء مادَّةً وصيغةً:

الفصل بين المتنازعين بعقوبة الكافر ونجاة المؤمن

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ القضاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَّقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ لدلالته على الفصل بين المُفْترقين والمتنازِعين[3]، وهو هنا دالٌّ على وقوع العقوبة على مستحقِّها، ونجاة المؤمنين، فالقضاء دالٌّ على الجزاء على وفق الأعمال[4]، وجاء التَّعبيرُ بالزَّمن الماضي؛ للدَّلالة على تأكيد تحقُّقه، وعبَّر بصيغة المبني للمفعول دون أن يقول: (لَقَضَى بينهم)؛ وذلك للدَّلالة على أنَّه يمكن القضاء عليهم بأيسر وجه، بلا كلفة[5] مع الإيجاز؛ تعويلًا على معرفة الفاعل من السّياق.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف (بين):

الفصل بالحكم بنجاة المؤمنين وعذاب الكافرين

عبَّر النَّظمُ الجليل بالظَّرف (بين) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على وقوع القضاء بين المؤمنين منهم والكافرين، وذلك بعذاب الكافرين، ونجاة المؤمنين[6].

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سمو).
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 79.
(3) الرّاغب، المفردات: (قضى).
(4) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 396، والقنوجيّ، فتح البيان: 12/ 287.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 269.
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 64.

نوع الواو في صدر الجملة:

التَّفرُّق في الدّين سنَّة ثابتة في أهل الزَّيغ والضَّلال

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ تفرُّق السّابقين باقٍ في أعقابهم[1]، والمعنى: أنّه كما تفرَّق أسلافُهم في الدّين، تفرَّقَ خَلَفُهم في تطبيق صفات النَّبيِّ ﷺ المُبشَّرِ به في كتبهم، تفرُّقًا ناشئًا عن التَّردُّد والاضطراب والشَّكِّ[2]، ويجوز أنَّه عطف لبيان كيفيَّة "كفر المشركينَ بالقرآنِ، إثرَ بيانِ كيفيَّةِ كُفرِ أهلِ الكتابِ"[3].

دلالةُ استعمال الاسم الموصول:

المشركون وأهلُ الكتاب زمانَ البعثة راسخون في الشَّكِّ

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ للدَّلالة على قوم معهودين بعينهم، وهم المشركون ممَّن خاطَبهم النَّبيُّ ﷺ، فهُم الذينَ أورثوا القرآنَ بعد وراثة أهلِ الكتابِ لكتابهم[4]، أو هم أهلُ الكتاب الذين كانوا في عهد النَّبيِّ ﷺ، فهُم ورثوا التَّوراةَ والإنجيلَ عن السّابقين[5].

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة ﴿أُورِثُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

نعمةُ وراثة الكتاب وصيرورة العِلْم به تقتضي الشُّكرَ لا الشَّكَّ

عبَّر النَّظمُ الجليل بالإرث في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على وصول الكتاب وصيرورته إليهم، أي: صار إليهم علمُ الكتاب، فلأنَّهم خلفوا مَن سبقهم بعلم الكتاب عبَّرَ بالإرث[6]، وبُنِيَ الفعلُ للمفعول؛ لأنَّ وصول الكتاب إليهم كان وصولًا بلا حاجز، ولا منازع، فلا حاجةَ إلى العلم بمَن

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 26.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 57.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 27.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 27.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 26.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 58.

أوصله إليهم[1]، فالمهمُّ هو وصولُ الكتاب إليهم، لا بالنَّظر لكونه من معيَّن.

معنى تعريف ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

ورثَ الإسلامُ وأهلُهُ كلَّ الشَّرائعِ التي سبقته

عرَّف النَّظمُ الجليل الكتابَ بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ وهي هنا لتعريف الجنس، فيشمل كلَّ كتاب سبقهم، كالتَّوراة والإنجيل[2]، ويجوز أن يراد بها العهد، أي: الكتاب المعهود، وهو القرآن الكريم، فدلَّ التَّعريف على كماله، أي: الكتاب الخاتم الكامل بما نسخ لكُتُب مَن تقدَّمه[3].

نوع ﴿مِنۢ﴾ ودلالتُها:

كلُّ شريعة غيرِ الإسلام لها وقت محدَّد وأجلٌ معلوم

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾، وهي هنا لابتداء الغاية الزَّمانيَّة[4]؛ للدَّلالة على انتهاء كونِ بني إسرائيل الأمَّةَ القائمة على الدَّعوة والشَّريعة عند بَدْء وراثة هذه الأُمَّة الكتابَ.

دلالة الظَّرف ﴿بَعۡدِهِمۡ﴾:

تشريف أُمَّة أخرى بحمل الكتاب إثرَ نهاية حقبة أُمَّة سابقة

عبَّر النَّظمُ الجليل بالظَّرف الزَّمانيِّ الدّالِّ على البعديَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على انتهاء تشريف الذين تفرَّقوا بحمل الكتاب، وبَدْءِ تشريفِ أُمَّةٍ أخرى أورثوا الكتاب بعد تفرُّقهم، فالبَعديَّة مؤذِنةٌ بأُفول السّابقين، ومبشِّرةٌ بقيام شأن المسلمين.

نوع اللّام ﴿لَفِي﴾ ودلالتُها:

عبَّر النَّظم الجليل بحرف (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَفِي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 270.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 58.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 270.
(4) قباوة، المفصل، ص: 1711.

﴿شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾، وهي اللّام المزحلقة الدّالَّة على التَّأكيد[1]؛ وذلك لتأكيد كونِهم في حيرة وشكٍّ واضطراب.

بلاغةُ استعمال حرف الظَّرفيَّة:

تمكُّنُ الشَّكِّ منهم كتمكُّن الظَّرف ممّا فيه

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ (في) الدّالِّ على الظَّرفية في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾، والظَّرفيَّة هنا مَجازيَّة، على طريقة الاستعارة التَّبعيَّة، فشَبَّه تمكُّنَ الشَّكِّ منهم بالظَّرف المحيط بما يَحْوي عليه[2]، وإنَّما كانت مجازيَّةً؛ لأنَّ الشَّكَّ لا يكون ظرفًا حاويًا للإنسان.

غرضُ تنكير لفظ الشَّكِّ:

شكُّ الكافرين عظيمٌ كبير

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الشَّكِّ بصيغة التَّنكير في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾؛ وذلك لما في التَّنكير من دلالة على التَّعظيم والتَّهويل، فهو شكٌّ بليغ عظيم.

نوع (مِنْ) في ﴿مِّنۡهُ﴾ ودلالتُها:

ابتداءُ شكِّ المشركين ناشئٌ بسبب القرآن والبعثة

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (مِنْ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾، وهي هنا ابتدائيَّة، والابتداء هنا مجازيٌّ، والمراد منه السَّببيَّة، أي: وقعوا في شكٍّ بسببه[3]، وإنَّما كان الابتداء مجازيًّا؛ لأنَّ القرآن والنَّبيَّ ﷺ ليسا مصْدَرين للشَّكِّ.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير في ﴿مِّنۡهُ﴾:

الشَّكُّ ينتاب الكافرَ في كلِّ ما هو يقينيٌّ

أورد النَّظمُ الجليل العبارةَ في غاية الإيجاز، فأوقع الضَّميرَ في شِبه الجملة ﴿مِّنۡهُ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ مَوقِعًا صالحًا أن يكون مرجعُه ما سبق ذِكْرُه من الكتاب، والدّين، والوحي،

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 504.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 59.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 59.

وما كبر على المشركين، وما دعاهم إليه، فالشَّكُّ قد وقع في ذلك كلِّه[1]، كما أنَّه صالح أن يكون عائدًا على القرآن، أو على النَّبيِّ ﷺ[2].

بلاغة وصفِ ﴿شَكِّ﴾ بمفردة ﴿مُرِيبِ﴾:

وصفَ النَّظمُ الجليل الشَّكَّ بأنَّه مريب في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَفِي شَكِّ مِّنْهُ مُرِيبِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه شكٌّ يورد صاحبَه الرِّيبة، وهو قَلَقُ النَّفسِ وخوفُها واضطرابُها ممّا تتردَّد فيه[3].

بلاغةُ التَّوكيد في الجملة:

تأكيد تردُّد الكافرين تحريضٌ على اليقظة من مكائدهم

أكَّد النَّظمُ البليغ الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكِّ مِّنْهُ مُرِيبِ﴾ بـ (إنّ) واللّام والجملة الاسميَّة؛ وذلك للاهتمام بالخبر، والدَّلالة على تحقُّقه، وفائدةُ الاهتمام بهذا الخبر: تنبيهُ النَّبيِّ ﷺ، وتحريضُ المؤمنين على الحذر من مكرهم وعدم الرُّكون إليهم[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 58.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 608.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 413، والقنوجيّ، فتح البيان: 12/ 287.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 59.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشّورى: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ظهور الفُرقةِ بين النّاس علّةٌ موجبة للدّعوة إلى الائتلاف

لمّا أمر اللّهُ تعالى العباد بالوحدة في الدّين، ونهاهم عن التَّفرُّق فيه، ثمَّ أخبر عن وقوع التَّفرُّق فيه بسبب بغيهم وتنازعهم؛ أتبعه بأمر النَّبيِّ ﷺ بالدَّعوة إلى الائتلاف والاتِّفاق على ملَّة التَّوحيد، والثَّباتِ عليها، ونهاه عن اتِّباع أهوائهم الباطلة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتَّبِعۡ﴾: أصلُ (تبع) التُّلوُّ والقَفْوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا؛ إذا تَلوتُه، وأتبَعْتُه؛ إذا لَحِقْتَه، كأنَّما لَحِقَ أوِ التصق به، وتَطَلَّبَه مُتَّبعًا له، وتَبِعتُ الرَّجُلَ؛ إذا مشيتُ مَعَهُ، واتَّبعتُه؛ إذا مشيتَ خَلفَه لتلحقَه[2]، قال أبو عُبيد: ويُقال: أَتْبَعْتُ القَومَ؛ إذا كانوا قد سبقوك، فلحِقتَهم، وأمّا التَّتبُّع؛ فأنْ يتتبَّعَ في مُهْلة شَيئًا بعدَ شَيء[3]، والمرادُ بالاتِّباع في الآية: المجاراة والموافقة على الأهواء[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمر بالدّعوة إلى الاتّفاق والثّبات على الحقّ والنّهي عنِ اتّباع أهواء الكافرين

يخبر النَّظمُ الكريم أنَّه بسبب الاختلاف والتَّفرُّق باتِّباع حظِّ النَّفس، أمرَ اللّهُ تعالى النَّبيَّ ﷺ بأن يدعوَ إلى ذلك الدّين الذي

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 27، وينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 589، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 271.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن دريد، جمهرة اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تبع).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 61.

شَرَعه للنّاس، ووصّى به نوحًا، وأوحاه إليك، فادعُ عباد اللّٰه إليه، واستقم على العمل به، بثبات لا يتخلَّله زيغ، فاثبت عليه كما قد أمرك ربُّك بالاستقامة، وأعْلِن لهم على مسمع منهم أنَّك قد صدَّقت بالكُتب المنزَّلة جميعِها، وقل: أمرني ربّي أن أعدل بينكم في الحُكْم، وإنَّ اللّٰه تعالى هو مالكُنا ومالكُكم، وربُّنا وربُّكم، وما كسبناه من ثواب الأعمال، فهو خاصٌّ بنا، وما اكتسبتموه من أعمالكم الفاسدة خاصٌّ بكم، ولا خصومةَ ولا جدالَ بيننا وبينكم بعدما ظهر الحقُّ، وصار بيِّنًا، وإنَّ اللّٰه الذي هو أحكم الحاكمين سيجمع بيننا وبينكم يومَ القيامة، فيقضي بيننا بالحقِّ فيما اختلفنا فيه، وإليه وحدَه تعالى المرجعُ والمآب، فيحاسِبُ النّاسَ، ويُجازي كلًّا بما كسب(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ استعمال الفاء دون الواو:

الأمـرُ بـالـدَّعـوة للتَّوحيد مسبَّبٌ عن التَّفرُّق

افتتح النَّظمُ الجليل الجملة بالفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾، وهي هنا للتَّفريع، فإنَّ الأمر بالدَّعوة والاستقامة مُتفرِّع عن قوله تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾، وما بينهما جملٌ معترضة(2)، ودلَّت الفاءُ على السَّببيَّة كذلك، فإنَّ التَّفرُّق والشَّكَّ المريبَ في الدّين والوحي سببٌ للدَّعوةِ إليهِ والأمرِ به(3).

نوعُ اللّام ودلالتُها:

عـلَّـةُ الـتَّـفـرُّق أوجبت تشريعَ الدَّعوة والإلـزامَ بها

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ﴾، وهي هنا للتَّعليل، أي: فَلِحُدوث ذلك التَّفرُّق فادعُ(4)؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 516، 518، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 484.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 60.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 27.
(4) السّيرافيّ، التّقريب، ص: 230.

"لأنَّ المعنى: ولأجل ذلك التَّفرُّق، ولما حدث بسببه من تشعُّب الكفر في الأمم السّالفة شُعَبًا، فادعُ إلى الاتِّفاق والائتلاف"[1]، فالتَّفرُّق والشَّكُّ المريب السّابق الذِّكر سببٌ لتشريع الدَّعوة إلى الوحدة، والاتِّفاق بإقامة الدّين ومقاومة الباطل[2].

دلالةُ استعمال اسمِ الإشارة للبعيد:

الشَّكُّ والتَّفرُّق بعيد عن منهاج الحقِّ

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ﴾ مع قرب المُشار إليه؛ لبيان أنَّ التَّفرُّق والشَّكَّ في أمر الكتاب مُباعدان للصَّواب[3]، فهو إشارةٌ إلى بُعْد منزلةِ التَّفرُّق والشَّكِّ في الضَّلال.

علَّة تقديمِ شبهِ الجملة على متعلِّقها:

التَّنبيهُ على خطر أسباب الدَّعوة بتقديم ذِكْرها

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور على الفعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ﴾، فلم يقل: (فادعُ لذلك)؛ وذلك للاهتمام بما احتوى عليه اسمُ الإشارة، وهو التَّفرُّقُ والشَّكُّ وغيرُها من أسباب الأمر بالدَّعوة إلى الائتلاف والوحدة[4].

فائدةُ استعمالِ الفاء في قوله: ﴿فَٱدۡعُۖ﴾:

تأكيدُ كونِ الدعوةِ والأمرِ بها لما وقع من التَّفرُّق والانحراف عن الحقِّ

كرَّر النَّظم الجليل الفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ﴾، وفائدتها تأكيد ما قبلها من فاء التَّفريع[5]، فلم يقل: (فادعُ لذلك)؛ لتأكيد كونِ الدَّعوة والأمرِ بها؛ لِما وقع من التَّفرُّق والانحراف عن الحقِّ.

بلاغةُ التَّعبير بالدَّعوة مادَّةً وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الدَّعوة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ﴾، وهي دالَّةٌ على طلب الإقبال بالنِّداء والصَّوت والكلام،

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 33.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 360.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 271، 272.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 60.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 61.

مطالبة النّاس بالتَّوحيد، وبذلُ الجَهْد للتَّبليغ واجب شرعيٌّ

كالمُؤذِّن الذي يدعو إلى الصَّلاة، فالنَّبيُّ ﷺ هو داعي الخَلْق إلى التَّوحيد[1]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة الأمر للدَّلالة على دوام الدَّعوة[2]، وأنَّها واجبة مُلْزِمة.

غرضُ حذفِ متعلِّق فعلِ الأمر (ادع):

حَذَفَ النَّظمُ الجليل متعلِّقَ فعلِ الدَّعوة في قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾؛ لدلالة السّياق عليه، فلمّا ذمَّ التَّفرُّقَ، ونهى عنه؛ دعا إلى نقيضه، وهو الاتِّفاق والائتلاف على ملَّة التَّوحيد[3].

تعيين المخاطَب في قوله: ﴿فَٱدۡعُ﴾:

الدَّعـوة واجبة على كلِّ مسلم

أورد النَّظمُ الجليل فعلَ الأمر بصيغة المفرد في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾؛ لأنَّه خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، والمُراد به أمَّتُه؛ لأنَّ أمْرَ النَّبيِّ ﷺ هو أمرٌ لأمَّته[4]، وإنَّما خاطَب الأُمَّة بخطاب نبيِّها تشريفًا له، وإظهارًا لكرامته.

نُكْتَةُ عطفِ الأمر بالاستقامة على الأمر بالدَّعوة:

تصديق الدَّعوة بالعمل شرطٌ للقبول

عطف النَّظمُ الجليل الأمرَ بالاستقامة على الأمر بالدَّعوة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَٱدۡعُ وَٱسۡتَقِمۡ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ مَن يدعو غيرَه لا تكون دعوتُه نافعةً للمَدعوّين، ما لم يكن هو نفسُه منتفِعًا بدعوته مستقيمًا عليها[5].

دلالةُ السّين والتّاء في فعل الاستقامةِ:

لـزومُ المنهج والثَّبات عليه مطلبٌ واجب

دلَّ التَّعبيرُ عن الاستقامة بصيغة (الاستفعال) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ على المبالغة بلُزوم المنهج المستقيم[6]،

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (دعو).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 60.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 28.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 29.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 272.
(6) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 414.

والسّين والتّاء المزيدتان تدلّان على الطَّلب، أي: "اطلبِ القَوَمَ من ربِّك على مشاقِّ الدَّعوة؛ ليُعينكَ عليه"[1].

نوع الكاف ودلالتُها:

الاستقامة مطلوبةٌ على وفق الوحي المنزَّل

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الكاف) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾، وهو حرفٌ دالٌّ على المشابهة، وفائدتُه هنا بيانُ نوعِ الاستقامة، فالمطلوبُ هو دعوةٌ واستقامة موافقةٌ لما أُمِرتَ به، ووافيَةٌ بذلك[2].

نوع (ما) ودلالتها:

عبَّر النَّظمُ الجليل بـ (ما) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾، وهي صالحة أن تكون مصدريَّة، والتَّقدير: استقم استقامةً كائنة مثلَ أمرِ اللّه لكَ بها[3]، ويكون المصدر المؤوَّل مفعولًا مطلقًا لتأكيد الاستقامة[4]، وهي صالحة أن تكون موصولةً، والتَّقدير: مثل الاستقامة التي أُمِرتَ بها، أي: وِفاقَها[5].

دلالةُ التَّعبير بالفعل المبنيِّ للمفعول:

أوامرُ الشَّريعة قيمتُها السّامية في ذاتها؛ لحسنها وعدلها وكفايتها

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المبنيِّ للمفعول في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾؛ لكون الفاعل معلومًا، فلا أمر لغيره تعالى[6]، فهو دالٌّ على الإيجاز في التَّعبير، ولأنَّ المقصود الاهتمامُ بأوامر الشَّريعة لذاتها، لا بكونها من معيَّن.

وَجْهُ عطفِ النَّهي ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾ على الأمر ﴿فَٱدۡعُۖ﴾:

الدَّعوة والاستقامةُ تناقضان اتِّباعَ الهوى

عطف النَّظمُ الجليل النَّهيَ عنِ اتِّباع الهوى على الأمر بالاستقامة في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 272.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 61.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 506.
(4) صافي، الجدول: 13/ 28.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 61.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 272.

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾؛ لأنَّ النَّهيَ يُراد منه النَّهيُ عن مخالفة الأمرَيْنِ المأمورِ بهما، وهما الدَّعوةُ والاستقامة[1].

بلاغةُ استعمالِ الاتِّباع مادَّةً وصيغةً:

مجاراة الباطل وتعمُّد اتِّباعِه ليس من شأن أهل الصَّلاح والدَّعوة

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عنِ الاتِّباع بصيغة (الافتعال) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾؛ لدلالته على الاقتفاء والائتمار[2]، والمراد منه هنا مجاراتُهم وموافقتهم، ومحاكاتُهم في أهوائهم[3]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة (الافتعال)؛ للدَّلالة على التَّكلُّف والاجتهاد، وذلك بأنَّه يتعمَّد اتِّباع الأهواء، ويجتهد لذلك[4].

دلالة استعمال لفظ الهوى وجمعه:

اتِّباع النَّفس هواها منهجٌ منحرف عن الحقِّ

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ الهوى في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾؛ لدلالته على محبَّة ما لا نفع فيه، فهو نهي عن مجاراتهم فيما يحبّون من متابعته لهم، وكفرهم وانحرافهم عن الحقِّ[5]، وعبَّر عنه بصيغة الجمع؛ لأنَّ أهواءَهم كثيرةٌ متعدِّدة، وهي ما كانوا يحبّونه من الكفر والباطل كلِّه[6].

دلالةُ إضافةِ الهوى إلى ضمير الغائبين:

كلُّ الأهواء يَحرُم اتِّباعُها، وبالأخصِّ أهواء المشركين

أضاف النَّظمُ الجليل الأهواء إلى الضَّمير في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ تلك الأهواءَ منسوبةٌ إليهم وخاصَّةٌ بهم، وفيه تأكيد للنَّهي عنِ اتِّباعها، فلم ينهه عن اتِّباع كلِّ الأهواء، بأن يقول: (ولا تتَّبع الأهواء)؛ لأنَّ أهواءهم أجدرُ الأهواء بترك اتِّباعها ونبذها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 61.
(2) الرّاغب، المفردات: (تبع).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 61.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 272.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 62.
(6) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 246.

دلالةُ عطف الأمر (قُلْ) على السّابق:

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ على قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُۖ﴾[1]، فلمّا أمره بالدَّعوة إلى الائتلاف والتَّوحيد؛ أمره بأن يعلن إيمانَه بجميع الكتب ليخالف حالَ المُفرِّقين أتمَّ مخالفةٍ[2].

إعلانُ الإيمان لمخالفة المُفرِّقين

براعةُ ترتيب الأفعال المعطوفة ﴿فَٱدۡعُۖ﴾، ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾، ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾، ﴿وَقُلۡ﴾:

رتَّب النَّظمُ الجليل الأفعالَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾، فبدأ بالدَّعوة؛ لأنَّ الدَّعوة إلى التَّوحيد والائتلاف والاتِّفاق هي دعوةٌ للخَلْق جميعًا، ثمَّ قال: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾؛ لأنَّ الدّاعي إلى دعوة ما، يجب أن يكون منتفعًا بدعوته عاملًا بها، ثمَّ قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾؛ لأنَّ الوحي الذي تدعو إليه حقٌّ، وكلُّ ما خالفه باطلٌ، فوجبَ النَّهيُ عن اتِّباع الأهواء الصّارفة عن الحقِّ، ثمَّ قال: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾؛ لأنَّهم لمّا تفرَّقوا في الكتاب، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعض؛ أمره بأن يعلن مخالفتَه لهم، بأنَّه يؤمن بكلِّ الكُتُب، لا يفرِّق بين الرُّسل[3].

دعوة الخلق مشروطةٌ بالعمل ومخالفةِ الأهواء وإعلانِ ذلك

دلالة التَّعبير بفعل القول:

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل القول في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أُمِرَ بإعلان إيمانه، والجهر به؛ وذلك للتَّعريض باليهود؛ لأنَّهم قالوا: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ [النِّساء: 150][4]، وفائدة الأمر بإعلان ذلك إبلاغُ

لا بدَّ للحقِّ من الجهر والإعلان

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 80.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 272.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 272.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 33.

اليهود بأنَّه لن ينكر كونَ كتابِهم حقًّا بسبب إنكارهم كتابَهُ، وهذا من عدل دعوته وإنصافها[1].

الإيمانُ ملابس للكتب ممتزجٌ بها

نوع الباء ودلالتُها في قوله: ﴿بِمَآ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾، وهي هنا للإلصاق، فالإيمانُ والتَّصديق ملابسٌ للكتب المُنزَّلة، قد لصق بها، فهو تعبيرٌ عن قوَّة الإيمان، وبلوغِه الكتبَ وامتزاجه بها.

ما أنزله الله تعالى من الكتب شأنُه عظيم والإيمان به واجب

نوع (ما) ودلالتُها:

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول (ما) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾؛ للدَّلالة على إيمانه بكلِّ شيء يجب الإيمان به ممّا أنزله تعالى، وذلك لما في (ما) من دلالة على العموم[2]، وإنَّما لم يقل: (آمنت بكلِّ ما أنزله اللّه)؛ وذلك لدلالة (ما) على التَّفخيم لما فيها من الإبهام، فما أنزله اللّهُ تعالى له شأن عظيم وأثرٌ جليل.

الإيمانُ بما أنزل الله تعالى مطلقًا لا لكونه متدرِّجًا

بلاغة استعمال صيغة الإنزال دون التَّنزيل:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة الإنزال في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ دون التَّنزيل؛ لأنَّ المُراد إعلانُ الإيمان بالشَّرائع التي أنزلها اللّه تعالى، وليس المراد بيانَ تدرُّجِ نزولها، أو تكثير ذلك النُّزول.

ما أنزله الجليلُ جديرٌ بالإيمان ملزم للاتِّباع

دلالةُ إسناد فعل الإنزال إلى اسم الجلالة:

أسند النَّظمُ الجليل فعلَ الإنزال إلى اللّه ﷻ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾؛ لما في الاسم الجليل من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 62.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 66.

استحضار لصفات الكمال من الجلال والجمال[1]، ولتفخيم شأن ما أنزله تعالى، والإشارة إلى أنَّه جدير بالإيمان، وملزمٌ به، وتزكيةٌ لإيمانه؛ بأنَّه إنَّما يؤمن بما جاء من اللّه تعالى لا من الأهواء.

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾، وهي هنا بيانيَّة، جيءَ بها لبيان ما أنزل اللّه تعالى[2].

غرض تنكير ﴿كِتَٰبٖۖ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل عن الكتاب بصيغة التَّنكير في قوله: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾؛ للدَّلالة على إيمانه بجميع الكتب المُنزَّلة، أي: بأيِّ كتابٍ قد صحَّ، وثبت أنَّ اللّه أنزله[3].

دلالةُ واو العطف في قوله: ﴿وَأُمِرۡتُ﴾:

الإيمان والأمر بالعدل يجب الإعلانُ بهما

عطف النَّظمُ البليغ الأمرَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ على الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾؛ وذلك لأنَّ الإيمان والتَّبليغ بالحُكْم بالعدل كلاهما ممّا أمر بإعلانه وإشاعته[4].

نُكْتَةُ بناء ﴿وَأُمِرۡتُ﴾ للمفعول:

الأمْرُ بالعدل ظاهر السُّموّ بلا نظر للآمر به

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن أمر اللّهِ تعالى النَّبيَّ ﷺ بالفعل المبني للمفعول في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾؛ وذلك لمعرفة الآمر وظهوره، فالأمرُ كلُّه للّه تعالى، وهو الذي أنزل عليه القرآن[5]، كما أنَّ في بناء الفعل للمفعول تفخيمًا للأمر، واهتمامًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 273.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 62.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 589.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 80.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 274.

به، فهو جدير بالاتِّباع لذاته لا بكونه من معيَّن، وذلك لأنَّه جاء على تمام العدل وكماله.

نوع اللّام ودلالتُها:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ﴾، وهي هنا دالَّةٌ على التَّعليل، فهي لام كي، أي: لأجل أن أعدل بين شريفِكم ووضيعِكم في الحُكم وفصلِ القضاء(1).

نُكْتَةَ التَّعبير بالمضارع ﴿لِأَعْدِلَ﴾ قبلَ تحقُّقِه:

الإخبارُ بالغيب دليـلٌ مـن أدلَّـة إعجاز القرآن

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ﴾، وهو هنا دالٌّ على المستقبل؛ لأنَّه منصوب بـ (أن) مقدَّرة، مع أنَّ الآية مكّيَّة نازلةٌ في حال ضعف المسلمين، فهي من الإخبار بالغيب؛ إذ تُخْبِر أنَّ النَّبيَّ ﷺ سيكون له سلطانٌ على اليهود، فيحكم بينهم في شؤونهم، وهذا إعجاز غيبيٌّ بيِّن(2).

دلالة الظَّرف ﴿بَيْنَكُمُۖ﴾:

الحُكم بالعدل لِمـا وقــع من خلاف بين أفراد أهل الكتاب

عبَّر النَّظمُ الجليل بالظَّرف في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه ﷺ مأمورٌ بأن يقيم الحُكم العادل بين أفرادهم، أي: خلالهم ووسطهم، وبما وقع بينهم من حوادث، فهو ظرف متَّحد لا موزَّع(3).

عِلَّة فصل جملة ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾ عن السّابق:

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾؛ لأنَّها مستأنَفَة استئنافًا تعليليًّا(4)، سيقت لتعليل الأمر بالعدل بينهم.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 66.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 62.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 62.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 274.

بلاغة الإخبار بالجملة الاسميَّة:

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة الجامعة بين اسمي الجلالة والرُّبوبيَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾؛ لتأكيد مضمونها، ولبيان ثبوتِ الحُكم الَّذي تُقرِّره، والجمع بين الأُلوهيَّة والرُّبوبيَّة فيها لتقرير المضمون، فهُم يعترفون بأنَّ اللّه تعالى هو الإله الحقُّ، وأنَّه هو ربُّ النّاس جميعًا، فهو تقريرٌ لهم بأنَّ المصير والمرجع إلى اللّه تعالى، الذي أحسن إلينا بالدّين والمنهاج.

الاتِّفاق بعبادة اللّه داعٍ إلى الائتلاف والوحدة

نُكْتَةُ العطفِ بين ﴿رَبُّنَا﴾ و﴿وَرَبُّكُمۡۖ﴾:

عطف النَّظمُ الجليل بين لفظ الرَّبِّ المضاف إلى ضمير المتكلِّم والمخاطَب: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على الاتِّفاق على توحيد اللّه تعالى، فهو دالٌّ على التَّسجيل والإلزام بما يعترفون به، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: 64][1].

الاعتراف بربٍّ واحد ملزمٌ بالاتِّفاق

دلالة الإضافة في قوله: ﴿رَبُّنَا﴾ و﴿وَرَبُّكُمۡۖ﴾:

أضاف النَّظمُ الجليل الرَّبَّ إلى ضمير المتكلِّم والمخاطَب في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المُحْسنَ إليكم بالشَّريعة أوَّلًا هو ذاتُه المُحْسن إلينا، وأنَّنا متَّفقون على الإقرار بفضله وإحسانه والعبوديَّة له، فهو ربٌّ واحد لنا ولكم[2].

المُحسِنُ بالشَّريعة للأُمَمِ ربٌّ واحد

عِلَّة فصل ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا﴾ عن السّابق:

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ، سيقت لبيان ما نتج عن الإخبار بكون الإله والرَّبِّ واحدًا، فلمّا كان هو ربَّ الجميع؛ فهو لا يفرِّق بين عباده، فلذا تكون أعمالُ كلِّ أحد خاصَّةً به لا تعدوه إلى غيره[3].

خصوص الأعمال بأصحابها نتيجةٌ لعدل الإله الواحد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 63.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 275.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 275.

غرضُ تقديم ﴿لَنَآ﴾ على ﴿أَعۡمَٰلُنَا﴾:

جـزاءُ الأعـمـال خاصٌّ بأصحابها لا يـتـعـدّاه إلى غيرهم

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور على المسند إليه في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا﴾؛ للدَّلالة على الاختصاص، أي: جزاءُ أعمالنا لنا، لا يتخطّانا إلى غيرنا[1].

نوع اللّام ﴿لَنَآ﴾ ودلالتُها:

اخـتـصـاص جـزاء الأعـمـال بأصحابها

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاص، فأعمالُنا خاصَّة بنا، ليس لأحد غيرنا[2]، وكذا الأمر في (لكم)، فاللّام فيها لاختصاص أعمالهم بهم.

دلالة التَّعبير بالعمل وجمعه:

مـنـاط الـجـزاء بـمـا قُـصِـد من الأعمال ونويَ

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ العمل في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾؛ لأنَّ العمل ما فُعِل قصداً[3]، والمراد من الأعمال جزاؤها، أي: لنا جزاءُ صالحها وفاسدها، لا لأحد غيرِنا[4]، والجمع دلَّ على أنَّ جزاء جميع الأعمال مختصٌّ بالمتكلِّمين، أي: جميع أعمالِنا لنا.

توجيه إضافة الأعمال إلى الضَّمير:

ارتباط الأعمال بـفـاعـلـيـهـا واخـتـصـاصـهـا بهم

أضاف النَّظم الجليلُ لفظَ العمل ﴿أَعۡمَٰلُنَا﴾ و﴿أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾ إلى ضميري المتكلِّم والمخاطَب في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على شدَّة ارتباط الأعمال بفاعليها، وترسيخ معنى الاختصاص الَّذي دلَّ عليه اللّام في لفظي: ﴿لَنَآ﴾ و(لكم).

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 28.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 275.
(3) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(4) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 287.

فائدة العطف بين الجملتَين الاسميَّتَين:

كلُّ امرئٍ بما كسب رهين

عبَّر النَّظمُ الجليل بالعطف في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على انتفاء الانتفاع بعمل غير النَّفس، فالثَّوابُ والعقاب خاصٌّ بعمل كلِّ فردٍ[1]، وفائدة ذلك: بيانُ أنَّ اللّٰه تعالى يجازي كلَّ امرئٍ بعمله[2]، وتكرار القيد (لكم) مسندًا إلى ضمير الخطاب يدفع توهُّمَ تحمُّل وزرِ أعمال الطَّرف الآخر، فضلًا عن أعمالهم.

غرض الجملة الخبريَّة:

الإخبار عن المتاركة تهديد وتنبيه على مجانبة الحقِّ

دلَّتْ جملة الخبر في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾ على المتاركة والدَّعوة إلى اشتغال كلِّ فردٍ بشأنه، فإنَّ اللّٰه تعالى يجمع كلَّ أحد من النّاس يوم القيامة، ويجازيه على عمله[3]، وفائدة الخبر تهديدهم والتَّنبيه على خطئهم[4].

بلاغةُ النَّفي بـ ﴿لَا﴾ النّافية للجنس:

الحاجَّة منتفيةٌ نفيًا من الأصل، فلا يُتَصوَّر لها وجود

النَّفي بـ ﴿لَا﴾ النّافية للجنس مؤكِّد؛ لأنَّه ينفي وجودَ الشَّيء من الأصل، وقد آثر النَّظمُ الكريم النَّفيَ بها في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾؛ للدَّلالة على نفي المحاجَّة والخصومة من الأصل، وذلك لأنَّ الحقَّ قد ظهر، وبان[5].

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿حُجَّةَ﴾:

لا احتياج للاحتجاج بين الحقِّ والباطل

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالحجَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾؛ لأنَّ الحُجَّة هي الدَّلالة المبيِّنة لما يُحتجُّ له، وهي مستعملةٌ هنا؛ للدَّلالة على الاحتجاج، أي: لا احتجاج موجودٌ[6]، فعبَّر بها للدَّلالة على نفي الاحتجاج من الأصل لظهور الحقِّ.

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 28.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 63.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 589.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 63.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 28.
(6) الرّاغب، المفردات: (حج).

دلالة استعمال الظَّرف ﴿بَيۡنَنَا﴾:

الاختلاف ميدانٌ للاحتجاج وظرفٌ له

عبَّر النَّظمُ الجليل بالظَّرف في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾؛ وذلك لأنَّ الاحتجاج يقع بين مختلفَين، فالخصومة التي تقع بين طرفين منفيَّة هنا؛ لأنَّ الحقَّ قد ظهر، وبان الطَّرفُ المعاند، فدلَّ الظَّرفُ المكانيُّ على انتفاء أيِّ مجال للخلاف(1).

نُكْتَةُ العطفِ بين الظَّرفين:

انتفاء الاحتجاج واقعٌ بين كل أفراد الجماعتين

عطف النَّظمُ الجليل الظَّرفَ على الظَّرف في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ انتفاء الاحتجاج واقعٌ بين الجماعتين وبين ما حوته من أفراد، فكلُّ فردٍ من جماعة الإسلام قد حجَّ مَن يقابله من الطَّرف المقابل، فهو "ظرفٌ موزَّع على جماعات أو أفراد ضمير المتكلِّم المشارك، وضميرِ المخاطَبين"(2).

علَّةُ فصلِ الجملة عن السّابق:

تقريرُ ظهور الحقِّ وتأكيدُ نصرِ الله تعالى لعباده المؤمنين

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ لتقرير مضمون ما قبلها، من ظهور الحقِّ وانتفاء الاحتجاج، فالكلامُ تأكيدٌ و"تعريض بأنَّ القضاء سيكون له عليهم"(3).

غرض تقديم اسم الجلالة على المسند الفعليّ:

رسالةُ النَّبيِّ ﷺ مؤكَّدة صادقة

قدَّم النَّظمُ الجليل اسم الجلالة على المسند الفعليِّ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، فلم يقل: (يجمع اللّٰه بيننا)؛ لتأكيد الرِّسالة المحمَّدية وتأكيدِ صِدقها(4)، وبيانِ أنَّ الجمع سيكون للّٰه تعالى فحسب؛ لما في تقديم المسند إليه من دلالة على الحصر، وهو إشارةٌ إلى قيام حجَّته عليهم يوم القيامة؛ لأنَّ اللّٰه تعالى عادل،

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 505.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 64.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 64.

وفصلُه يقع بالحقِّ، وهو يعلم أنَّه أرسل النَّبيَّ ﷺ، فيؤول الكلامُ إلى تأكيد الرِّسالة وصدقها.

نُكْتَةُ إيثارِ التَّعبير باسم الجلالة:

آثَر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالاسم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ وذلك لتعظيم مضمون الخطاب، فاللّه أحكمُ الحاكمين، يجمع بين المختلفين، فيحكم بينهم الحُكمَ العادل[1].

الجمع بين النّاس يوم القيامة من عظائم الأمور، لا يفعله إلّا الله تعالى

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الجمع مادَّةً وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ الجليل بالجمع في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾؛ لدلالته على جمع المتفرِّق وضمٍّ بعضِه لبعض[2]، والمراد به: جمعُهم؛ ليَقضيَ بينهم فيما اختلفوا فيه[3]، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع؛ تصويرًا للمشهد واستحضارًا للصّورة، ولأنَّ الجمع يكون في المستقبل.

المُفرَّقون المُتفرِّقون في الدُّنيا مجتمعون للحساب في الآخرة

بلاغةُ الكناية في لفظ ﴿يَجۡمَعُ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بالإخبار عن الجمع في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ تعريضًا وكناية بأنَّ القضاء يوم القيامة سيكون له عليهم[4]، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [الشّعراء: 227].

الله ينصر عبادَهُ في الدُّنيا، وينصفهم في الآخرة

براعةُ الاقتصار على الظَّرف المضاف إلى ضمير المتكلِّم دونَ المُخاطَب:

اقتصر النَّظمُ الجليل على ذكر الظَّرف المضاف إلى ضمير المتكلِّم في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، فلم يقل: (اللّه يجمع بيننا وبينكم)، كما قال قبله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾؛ وذلك لأنَّ الجمع مرادٌ به الجمعُ يومَ القيامة للفصل بينهم[5]، وهو

الجمعُ واقعٌ لكلِّ البشريَّة على مرِّ العصور، غيرُ مختصٍّ بعصر النُّبوَّة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 276.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (جمع).
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 67.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 64.
(5) القنوجيّ، فتح البيان: 12/ 288.

جمع عامٌّ لكلِّ الأمم على مرِّ العصور، فلم يذكر الظَّرفَ؛ لأنَّ ذلك الجمع عامٌّ لكلِّ النّاس، وليس للمتكلِّم والمخاطَبين فحسب، أي: يجمع بيننا جميعًا.

دلالة عطف ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ على السّابق:

حسابُ النّاس يوم القيامة أمرٌ قطعيٌّ يقينيٌّ

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾؛ وذلك جاء تذييلًا للآية بمصير عموم النّاس[1]، فأفاد العطفُ تأكيدَ تحقُّقِ الجمع، فلمّا كان عامَّةَ النّاسِ يصيرون إلى اللّٰه تعالى يومَ القيامة، فإنَّ الجمع هنالك للحساب مؤكَّدٌ وواقعٌ على وجه اليقين.

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ على ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

لا تصير الأمورُ لأحدٍ إلّا لله تعالى

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملةِ من الجارِّ والمجرور على المسند إليه في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ للدَّلالة على القصر، والاختصاص، فالمصيرُ يومَ القيامة ليس إلّا إلى اللّٰه تعالى.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

مصائرُ الخَلْق كلُّها لله تعالى

عرَّف النَّظمُ الجليل المصير بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ وذلك للدَّلالة على الاستغراق، فمصيرُ النّاس جميعًا للّٰه تعالى، أي: مصيرُنا ومصيرُكم ومصيرُ الخَلْقِ كلِّهم[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 64.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 64.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾

[الشورى: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ثَـبـاتُ حُـجَّـةِ أهـلِ الإيـمـانِ ودُحـوضُ حُجَّةِ أهلِ الكُفرِ

لَمّا قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشورى: 15]، وكانَ التَّقدير: فالذينَ رَجَعوا إليهِ اختيارًا في الدُّنيا بعدَ هذا التَّوضيحِ والبَيان، وتَركوا الجِدال؛ فإنَّ حُجَّتَهُم ثابِتَةٌ، ولَهُم الرِّضا والنَّعيم المُقيم؛ عَطَفَ عليهِ ما يقابلُ ذلكَ، فَقال سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾[1].

شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يُحَآجُّونَ﴾: (حجج) تَدورُ كثيرٌ مِن تَصريفاتِه على مَعْنى القَصْد[2]، وقد يكونُ اشتِقاقُها مِن أصلِ القَصْد؛ وذلكَ لأنَّها تُقصَد، أو يُقصَد بها الحقُّ المطلوبُ[3]، والحُجَّةُ: الدَّلالَةُ المُبيِّنَةُ للمَقْصد المُستقيم[4]، ومعنى المادَّة يدورُ حولَ تجوُّفٍ كَهْفيٍّ صُلبٍ أو مَتينٍ يَحْمي ضعيفًا في داخلِه، ومنه: حِجاج العَيْن؛ لكونه يَحْمي مُقلَة العَين بكلِّ ما حَوْلَها، ومنه حَجُّ البيتِ، وهو قصدُهُ؛ لأنَّ الحاجَّ يزورُ البَيْتَ، ويدخُلُ حَوْزَتَه وحَرَمَه، ومِن هذا الأصل: الحُجَّة، وهي: البُرْهان، كأنَّها ظَرْفٌ قويٌّ صُلب للرَّأي يَحْفَظُهُ، ويَدْعَمُه[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 277.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حج).
(4) الرّاغب، المفردات الكريم: (حج).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حجج).

والمُحاجَّة: المُجادلَة، بأن يأتيَ كلُّ واحدٍ مِنَ المُتقابِلَيْن بحُجَّته، وهي مُفاعلَةٌ ومُشاركَةٌ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِن الخَصمَين يريد ردَّ صاحبهِ والانتصارَ عليهِ في حجَّته[1].

ومعنى قولهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ يُخاصِمون في دينِه[2]، وذلك بإدخالِهم الشَّكَّ على النّاسِ في صِحَّة دينِ الإسلام[3].

2) ﴿دَاحِضَةٌ﴾: (دحض) تدلُّ تصريفاتُه على زلَقٍ وزَوال، يُقال: دحَضَتْ رِجْلُه؛ إذا زَلِقَت، ومنه قولُهم: دَحَضَت الشَّمْسُ، أي: زالَت، وحُجَّة داحِضَةٌ، أي: غيرُ ثابتةٍ، ومنه قول اللّه سُبْحانَهُ: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[4].

3) ﴿غَضَبٌ﴾: (غضب) تدور اشتقاقاتُه على معنى الشِّدَّة والقوَّة، ومِنْهُ تسميةُ العربِ الصَّخرةَ الصُّلبةَ بالغَضْبَة[5]، ومِنْهُ الغضَبُ، وقال الرّاغب: إنَّهُ ثورانُ دمِ القلبِ لإرادة الانتقامِ[6].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بَيانُ حالِ المُجادِلينَ في دينِ اللهِ تَعالى بالباطِلِ

يُبَيِّنُ اللّهُ تعالى في كتابهِ العزيز حالَ الَّذين يُجادِلون في دينِه الَّذي أَرْسَلَ به مُحَمَّدًا ﷺ، بعدَما استجابَ النّاس له، وأَسْلَموا، فيَذْكُرُ أنَّ حُجَّتَهُم ومُجادَلَتَهُم باطِلَةٌ وزائِلَةٌ، وعلَيْهِم غضَبٌ مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ في الدُّنيا، ولَهُم في الآخِرَة عذابٌ شَديدٌ، وهو النّارُ[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

الانتِقالُ مِنَ الحِجاجِ مَعَ أهْلِ الكِتابِ إلى الحِجاجِ مَعَ أهلِ الشِّرْكِ

الواوُ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (حج).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 25/ 30.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 65.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دحض).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غضب).
(6) الرّاغب، المفردات: (غضب).
(7) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 485.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جُمْلَةِ: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: 15]، وذلك يدلُّ على تحويلِ مَجْرى الكلامِ، فبَعْدَ أن نوَّعَ الحِجاجُ مع أهلِ الكِتاب، واستوفي حَظُّهم في شأنِ الجِدالِ مَعَهُم؛ عادَ الكلام إلى المُشْرِكين في هذا الشَّأن أيضًا، فقال سُبْحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾[1].

سِرُّ تَغَيُّرِ الأُسْلوبِ في الآيَةِ عَن نَسَقِ ما قَبْلَها:

بَيانُ المَقْصودِ بِالمُحاجّينَ في اللهِ تَعالى

تغيَّر الأسلوبُ في الآيةِ الكريمةِ بالإتيانِ بالاسم الظّاهرِ المَوصول وصِلَتِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على الانتقالِ مِن غرضٍ إلى آخرَ مع مُراعاةِ مُناسبَةِ ما أُلْحِقَ بِهِ بعدُ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾، وقولِهِ سُبْحانَه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾، فأفادَ أنَّ المَقصودَ بالَّذين يُحاجّون في اللّهِ هُم المُشْرِكون؛ لأنَّهم المُنازِعون في وحدانيَّة اللّه تعالى دون أهلِ الكتابِ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالاسمِ المَوصولِ وصِلَتِهِ:

اشتِهارُ المُشْرِكينَ بِالجِدالِ الباطِلِ

جاء التَّعبير بالاسم المَوصولِ وصِلَتِه في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾؛ لذمِّهم والنَّعي عليهم بما تضمَّنته جملة صلة الموصول، وليُفيدَ اشتِهارَهُم بالجِدال؛ إذ مِن شَأنِ الاسمِ المَوصول أن يُستعمل فيما يتَّصف به المتحدَّثُ عَنْهُ بصفةٍ معروفةٍ مشهورة، فكانَ التَّعبير بِهِ هُنا مُبْرِزًا أنَّ الجدال سِمَةٌ لازمةٌ لهم يُعرفون بها.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمُحاجَّةِ:

تَصْويرُ حالِ المُبْطِلينَ والمُشْرِكينَ في ادّعائِهِمُ الحُجَّةَ

جاء التَّعبيرُ بالمحاجَّة في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾؛ لِتَصْوير حالِ المُبْطِلين المُتظاهِرين بالاستِنادِ إلى الحُجَجِ بعدَ ظُهور الحقِّ، إلّا أنَّها شُبَهٌ زائفَةٌ باطلةٌ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 65.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 65.

وذلكَ بِخِلاف لفظِ الجِدالِ الذي يكون في الحقِّ وفي الباطِلِ، وكذا لفظ الخِصام المُشْعِر بِضَرْبٍ من ضروبِ النِّزاع والانفعالِ، فكان من دقَّة البيانِ القرآنيِّ أن استعملَ لفظَ المحاجَّة؛ للدَّلالةِ على أنَّ هؤلاءِ المشرِكين يوهِمون غيرَهُم بأنَّهم في مقامِ الاستِدلالِ؛ مبالغة في التَّلبيس.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يُحَآجُّونَ﴾:

استِمْرارُ المُشْرِكينَ في الجِدالِ بالباطِلِ

عُبِّر عن المحاجَّة بصيغةِ المُضارع في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِمَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾؛ للدَّلالَةِ على استِمرارِهِم وتَجَدُّدهم في المحاجَّة[1]؛ إذ يُظهر الفعلُ المُضارع أنَّ هؤلاءِ لا يَزالون في كلِّ وقتٍ وحينٍ يُحاجّون، ويجادلونَ في دينِ اللّه سُبْحانَه، حتّى بعد أن ظهَرَ فسادُ حُجَجِهِم، وكذلك أفاد التَّعبير بالفعل المضارع استحضار صورتهم القبيحة، وهم يقومون بهذه المحاجَّة.

دلالَةُ الإدغامِ في ﴿يُحَآجُّونَ﴾:

تَصويرُ الخَفاءِ في التَّشْكيكِ

وَرَد فعلُ المُحاجَّة ﴿يُحَآجُّونَ﴾ مُدْغمًا في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ دون أن يَرِدَ مُظْهَرًا (يُحاجِجونَ)؛ للإيماء إلى تَصويرِ الخفاء والموارَبَةِ في تَشْكيكِهم، كأنَّهم يُلْقونَ شُبَهَهُم على وجهِ السِّرِّ والخفاء، فتَنْتَشِر في القلوب، وتَضْعُفُ[2]، فكما أنَّ في الإدغام خفاءَ حَرْفٍ ودخولَهُ في آخرَ؛ فكذَلِكَ كانَ مدلولُ الكَلِمَةِ المُشْتملة على حرفٍ مُدْغم مفيدًا معنى الخفاءِ والاستتارِ، فضلًا عن أنَّ هذا الإدغام ترتَّب عليه هذا المدُّ اللّازم المثقل في الكلمة، ممّا أطال الوقوف عليها بما يدلّ على طول محاججتهم.

سِرُّ حَذْفِ مَفْعولِ ﴿يُحَآجُّونَ﴾:

مُحاجَّةُ أهلِ الشِّركِ لأهلِ الإيمانِ

الفعلُ ﴿يُحَآجُّونَ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 277.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 277.

يتعدّى إلى مفعولٍ به، وقد حُذِفَ لدلالة قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ عليه؛ إذِ المَقْصودُ: أنَّ المُشْركين يحاجّون أهلَ الإيمانِ، أو يحاجّون المُسْتَجيبين للّه تَعالى[1].

بَلاغَةُ الحَذْفِ في قَوْلِه: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾:

عِظَمُ جُرْمِ المُحاجّينَ بالباطِلِ وخُطورَةُ ذَنْبِهم

في قول اللّه سُبْحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ حذْفٌ للمُضاف وإقامة للمضاف إليه مقامه؛ إذِ التَّقديرُ: يُحاجّون في دينِ اللّه سُبْحانَه[2]، وهَذا الحذفُ يوسِّع الدَّلالة؛ ليَشْمَلَ كُلَّ ما يتعلَّق باللّهِ سُبْحانَه، سواءٌ تعلَّق بدينِه أم بأسمائِه وصِفاتِه، ممّا يُظْهِر أنَّ محاجَّتَهُم ليسَ لها حدٌّ، بل تَشْمَلُ كُلَّ ما يتَّصل به سُبْحانَهُ، كما يُثير الحذفُ التَّشويقَ، ويدفعُ للتَّأمُّل، ويُنبِّه على عِظَم الجُرم الَّذي اقتَرفوه؛ إذ إنَّ محاجَّتهم في أمرٍ يتعلَّق باللّه ﷻ أصالَةً، ممّا يُظهر خُطورَةَ عَمَلِهم وعِظَمَ ذَنْبِهم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالاسمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ دونَ اسمِ اللهِ تَعالى (الرَّبِّ):

التَّأكيدُ عَلى عَظَمَةِ اللهِ ﷻ أبْلَغُ في الرَّدِّ عَلى المُبْطِلينَ

اختير التَّعبيرُ بالاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله سُبْحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ دون اسمِه تَعالى (الرَّبِّ)؛ لكونِ الاسم الأحسَنِ (اللّه) فيه تربيةٌ للمهابةِ، وهو أنسبُ لسياقِ الآيةِ؛ إذ كان الكلامُ عَن قَضايا الإيمانِ والتَّوحيد الَّذي وقَعَ فيها جِدالُ المُشْرِكين، واسمهُ تَعالى (اللّه) أشملُ وأجمعُ لِلمعاني؛ لدِلالَتِه عَلى صِفات الجلالِ والجمالِ والكَمال، بخِلاف اسمِه تَعالى (الرَّبِّ)، فإنَّه أشدُّ تعلُّقًا بأفعالِه مِنَ الخلقِ والتَّدبير ونحوِهما.

كما أنَّ التَّعبير بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ أنسبُ في الرَّدِّ على المُجادِلين؛ لأنَّ فيه تأكيدًا لوَحْدانيَّة اللّه سُبْحانَهُ وعظمتِه، فيكون ذلك أبلغَ في الرَّدِّ عليهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 66.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 28.

دلالَةُ التَّعبيرِ بِجُمْلَةِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ بَعْدَ المُحاجَّةِ:

الجِدالُ بَعْدَ ظُهورِ الحَقِّ دَليلُ العِنادِ والانحِرافِ

جاء قولُ اللّٰه تَعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ بعد المحاجَّة في قوله تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ مُحاجَّتَهُم جاءت بعدَ بيانِ الحقِّ ووُضوحِه وقبولِ أهلِ الإيمانِ لَهُ، فيكونُ ذلكَ أدخَلَ في الزَّجْرِ وأبلَغَ في التَّوبيخ؛ إذِ المُحاجَّة بعد قيام الأدلَّة والبراهينِ عَلى خلافِ ذلكَ ممّا يدُلُّ على عِنادِ المُحاجِجِ وبُلوغِه غايةَ الانحرافِ في ردِّ الحقِّ والتَّمسُّكِ بالباطلِ.

دِلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ ﴿مِنۢ﴾:

ذَمُّ الجِدالِ بَعدَ قيامِ الحُجَّةِ

حرفُ الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ لابتداء الغاية الزمانية؛ وقد أفاد: تأكيدَ المَعْنى وتقويتَه، كذلك يُفيد ذمَّهُم على هذا الجدالِ، ولَو قَلَّ زَمَنُهُ وقَصُر[1]، فكيف وقد طالَ ذلكَ منْهُم، وكثُرَ، كما دلَّ عليه الفعلُ المُضارع ﴿يُحَآجُّونَ﴾؟ فإنَّ الذَّمَّ أشدُّ وأعظمُ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالظَّرْفيَّةِ ﴿بَعۡدِ﴾:

عِظَمُ عِنادِ المُشْرِكينَ

عُبِّر بالظَّرف ﴿بَعۡدِ﴾ من قول اللّٰه تَعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾؛ للإشارة إلى التَّرتيبِ الزَّمنيِّ؛ إذ إنَّ ذلك يؤكِّد أنَّ المُحاجَّةَ في دين اللّٰه سُبْحانَه وقعَت بعد وُضوحِ الحَقِّ وقَبولِ أهل الحقِّ له لا قبلَ ذلك، وهذا يَقْتَضي أنَّهم جادلوا، وحاجّوا بعد وُضوح الحقِّ وظُهورِه، فلم يَبْقَ بعدَ ذلكَ إلّا العنادُ.

دِلالَةُ ﴿مَا﴾ في ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾:

تَأكيدُ المَعْنى وتَقْويَتُهُ

﴿مَا﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ مصدريَّة تُؤوَّلُ مع ما بعدها بِمَصْدَرٍ مضافٍ إلى الظَّرف[2]، والتَّقدير: من بعد استِجابَتِهم له، وفي العدولِ عن المَصْدَرِ الصَّريح إلى المؤوَّل تأكيدٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 278.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 24.

للمَعْنى وتقويَةٌ له؛ إذ إنَّ المَصْدَرَ الصَّريح يكون مجرَّدًا عن الزَّمن، وأمّا المؤوَّل؛ فبحسَبِ ما صيغَ به، وقد صيغَ هُنا بـ ﴿مَا﴾ والفعلِ الماضي؛ ليُفيد تحقُّق الاستجابةِ وثبوتَها.

دلالَةُ بِناءِ الفِعْلِ ﴿ٱسۡتُجِيبَ﴾ لِلمَفْعولِ:

تَـعَـدُّدُ صُـوَرِ الاستِجابَةِ

بُنِي الفعلُ ﴿ٱسۡتُجِيبَ﴾ مِن قول اللّٰه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ إيجازًا واخْتِصارًا؛ للعلم بالفاعل من جهة، ولدعوتهم للانشغال بالفعل نفسه دون النَّظر إلى فاعله من جهة أخرى، والتَّقديرُ: مِن بَعدِ ما استَجاب النّاس للّٰه سُبحانَهُ أو لدينِه، ودَخَلوا فيه، وأذعَنوا له؛ لوُضوح الأدلَّة وظُهور السَّبيل[1].

ويَحتَمِلُ أن يكونَ التَّقدير: مِن بعد ما استجابَ اللّٰهُ ﷻ لرَسولِه ﷺ ودينِه بِظُهور صحَّةِ دين الإسلامِ[2]، ولكنَّ الحمل على هذا المعنى من شأنه أن يفكِّك الضَّمائر.

ويجوز أن يكون الفعلُ بُنِيَ للمفعول؛ ليَشْمَلَ جميعَ معاني الاستجابةِ بأوجز صياغةٍ وأعمَقِها، فيكونَ المرادُ استجابةَ اللّٰه تعالى لنبيِّه بإظهار المُعْجِزات[3]، واستجابةَ المؤمنين لدين اللّٰهِ تَعالى بالدُّخول فيه والانقياد له بعدَ ظُهور الحجَّة.

دلالَةُ اللّامِ في ﴿لَهُۥ﴾:

بَـيـانُ عِـظَـمِ المُسْتَجابِ لَهُ

دلالَةُ اللّام في ﴿لَهُۥ﴾ من قول اللّٰه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ تدلُّ على الاختِصاص، فتكونُ الاستجابَةُ خاصَّةً موجَّهةً للّٰه سُبحانَه أو لرَسولِه ﷺ، ممّا يُظْهِر شرفَ المَقام وعِظَم المُستَجابِ لَهُ.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿لَهُۥ﴾، ودِلالَةُ التَّعْبيرِ به دونَ الاسمِ الظّاهِرِ:

سَـعَـةُ دلالاتِ النَّصِّ وغَناؤُها

الضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ من قول اللّٰه ﷻ: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 26، والقنوجي، فتح البيان: 12/ 289، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 66.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 330.

(3) الماوردي، النكت والعيون: 8/ 308.

يعودُ إلى دين اللهِ تَعالى، أي: إنَّ الاستجابةَ كانت لدينِ اللهِ سُبحانَهُ بالدُّخول فيه والإذعانِ لَهُ[1].

ويجوز أن يكونَ الضَّمير راجعًا إلى الله تعالى، بإظْهارِ المُعْجِزاتِ الدّالَّة على صِدْقِه[2].

أو أنَّه يعود إلى النَّبيِّ ﷺ؛ على مَعْنى أنَّ المُسْتَجيبين كانوا أهلَ كِتابٍ، وقَد أقرّوا بنُبوَّتِه قبل مَبْعَثِه، ثمَّ لَمّا بُعث عليه السلام؛ جَحدوا ذلك، وحاجّوا فيه.

والجامِعُ لهذه الأقوالِ كُلِّها إبرازُ شناعة المحاجَّة بعد ظُهور البراهين، سواءٌ أكانَت في الحُجَّة على إثباتِ صحَّة دينِ الله تعالى أم نُصْرَتِه نبيَّه ﷺ أم صِدق نُبوَّته.

والتَّعبير بالضَّمير ﴿لَهُۥ﴾ دون الاسم الظّاهر يوسِّع دِلالات النَّصِّ ويُغْنيها؛ إذ أتاح للضَّمير أن يَحْمِلَ معانيَ متعدِّدةً، ولو صُرِّح بالاسم؛ لانْحَصَر المَعْنى، لكنَّ الضَّمير عدَّد الفُهوم الَّتي تَلْتَقي جميعًا عند إبرازِ عِنادِ المُحاجّين بعد ظُهور الحُجَّة عليهم، وهذا مِن بلاغة الإيجازِ في التَّعبير القرآنيِّ.

ضَعْفُ مَوْقِفِ المُشْرِكينَ أمامَ قُوَّةِ بَراهينِ الحَقِّ

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالحُجَّةِ دونَ الشُّبْهَةِ:

جاءَ التَّعبيرُ بالحُجَّة دون الشُّبْهَةِ في قولِه تَعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مجاراةً لِزَعْمِ المُحاجّين[3]، وذلك أبلَغُ في إبْرازِ سُقوطِها، وأدخَلُ في التَّهكُّم بحالِهم؛ إذْ إنَّه وصَفَها بالحُجَّة، ثُمَّ فَنَّدها بِوَصْفِها بـ ﴿دَاحِضَةٌ﴾، أي: ساقطةٌ باطلَةٌ، وهذا أبلَغُ مِن وصْفِها أصالةً بـ (الشُّبْهَةِ)؛ إذِ التَّعْبير القرآنيُّ مزَجَ بينَ مُجاراتِهم والرَّدِّ القويِّ، مبرزًا ضعفَ موقفِهم وتَهَلْهُلَ ادِّعائهم أمامَ الحقِّ الواضحِ.

---

(1) القنوجي، فتح البيان: 12/ 289.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 26.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 250، أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 28، وإسماعيل حقي، روح البيان: 8/ 301.

دلالَةُ الإضافَةِ في قَوْلِهِ: ﴿حُجَّتُهُمْ﴾:

زَيْفُ الحُجَجِ وسُخْفُ عُقولِ أصْحابِها

الإضافة في ﴿حُجَّتُهُمْ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فيها إيماءٌ إلى تَمَلُّكِهِمُ الحجَّة زَعْمًا وادِّعاء، وأنَّها مِن صُنْعِهم ومنسوبةٌ إلى عُقولهم، فيكون وصفُ القرآنِ لَها بعدُ بِالدُّحوض وصفًا لها بالسُّقوط والبطلانِ، ووصفًا لعقولِهم الَّتي أنْتَجَتْها بالسُّخْفِ والضَّلال.

سِرُّ ذِكْرِ لَفْظِ الحُجَّةِ مَعَ تَقَدُّمِ الإيماءِ إلَيْها في ﴿يُحَآجُّونَ﴾:

التَّأكيدُ عَلى بُطْلانِ حُجَجِهِم

أُعيد ذِكْرُ الحُجَّة مضافَةً إليهم بعدَ سَبقِ الإشارَةِ إليها في ﴿يُحَآجُّونَ﴾ من قولِ اللّه سُبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِمَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾؛ للتَّأكيد على بُطْلانها وفَسادِها، فضلًا عن أنَّه في ذكرها قد تحقَّق جناسٌ صرفيٌّ بين اللَّفظتين ممّا أكسبها محسِّنًا لفظيًّا بديعيًّا جميلًا.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿دَاحِضَةٌ﴾ دونَ (مُدْحَضَة):

بُطْلانُ حُجَجِ المُشْرِكينَ يُغْني عَنْ إبْطالِها

جاء التَّعبيرُ باسمِ الفاعلِ ﴿دَاحِضَةٌ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ دون اسمِ المَفعول: (مُدْحَضَةٌ)، فأطلق اسم الفاعل مع إرادته اسم المفعول تجوُّزًا؛ لبيانِ شدَّة فساد حُجَّتِهم وعِظَمِ بُطْلانِها، حتّى إنَّها تَسْقُط مِن نَفْسِها مِن غير احتياجٍ إلى مَن يُفْسِدُها، ويُبَيِّن زَيْفَها، فَبُطْلانُها يُغْني عَن إبْطالِها.

بَلاغَةُ الاستِعارَةِ في قَوْلِهِ: ﴿دَاحِضَةٌ﴾:

إخْراجُ المَعْنَويِّ في صورَةِ الحِسّيِّ أَرْسَخُ في الذِّهْنِ

في وصْفِ الحُجَّة بالدُّحوض في قولِ اللّه تَعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ استعارةٌ؛ إذ استُعير الدَّحْض للبُطلان، بجامع عدم الثَّبات في كلٍّ، على سبيلِ الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، فحُجَّتُهم لا ثباتَ لَها، ولا قوَّة لها أمامَ البُرْهانِ القاطع، كالشَّيء الَّذي يَزول عن موضعِه، وكالقَدم لا تَثْبُت في المَكان الزَّلِق[1]، وفي هذه الاستعارةِ

---

(1) القِنَّوجي، فتح البيان: 12/ 290، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 66.

تَصْوِيرٌ بديعٌ للأمْرِ المَعْنَوِيِّ في صورةٍ حِسّية؛ ليكون ذلك أثبتَ في الذِّهن وأرسخ في القلب.

سِرُّ عَدَمِ ذِكْرِ وجْهِ الدَّحْضِ:

كَثْرَةُ الأدِلَّةِ القُرْآنيَّةِ عَلى بُطْلانِ الشِّرْكِ وعَلَى صِحَّةِ أُصولِ الدّيانَةِ

لَم يُبَيِّن النَّظم القرآنيُّ وجهَ الدَّحْض في قول اللّه تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾؛ اكتفاءً بما بُيِّن في آياتِ القرآنِ الكَريم المُتَكاثِرَة مِنَ الأدلَّة والحُجَج على بُطْلانِ الشِّرك، وعلى صِدقِ النَّبيِّ ﷺ وإمكانِ البَعْثِ بعدَ المَوت، وبِما بانَ للعيان مِن ازدياد المُسلمين يومًا بعد يوم، واطمِئْنانِهم من أن يُعْتَدى عليهم[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِوَصْفِ الرُّبوبيّةِ في ﴿رَبِّهِمْ﴾:

بُطْلانُ حُجَجِ المُشْرِكينَ مِن جَميعِ الوُجوهِ

عُبِّر بِوَصْفِ الرُّبوبيَّة في ﴿رَبِّهِمْ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في سياقِ بَيانِ بُطْلانِ حُجَّتِهِم؛ لِبَيان أَنَّ حُجَّتَهم باطلةٌ عندَ رَبِّهم مِن حيث هو رَؤوفٌ رحيمٌ مُحْسِنٌ، فأَوْلى أن تَبْطُلَ مِن حيثُ كونُه سُبْحانَهُ قادِرًا قاهِرًا[2]، فالتَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة فيه نوعٌ من المؤانسة والملاطفة، وفيه نوعٌ من التَّأنيب لهم على المحاجَّة في دين ربِّهم وسيِّدهم ومصلحهم.

دلالَةُ الإضافَةِ في ﴿رَبِّهِمْ﴾:

حُلولُ الخِزْيِ عَلَيْهِم في الدُّنْيا والعَذابِ في الآخِرَةِ

أُضيف اسمُ الرَّبِّ إلى ضميرهم في قول اللّه ﷻ: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّه سُبْحانَهُ أحسَنَ إليهم بإفاضَة العَقْلِ الَّذي جَعَلَهُم في أحسَنِ تَقْويم، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ أقلَّ عقوبَةٍ لَهُم هو قطعُ إحسانِه عَنْهُم، وأنَّه يُظْهِر بطلانَ ما سمّوه حجَّةً لكلِّ عاقِلٍ، فيورِثُهُم ذلك خِزْيًا في الدُّنيا وعذابًا في الآخِرة[3]، ففي الإضافة تشريفٌ لهم، وفيها دعوة لترك المحاجَّة بالباطل.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 66.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 3.

(3) البقاعي، نظم الدرر، ص: 279 - 180.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالواوِ في ﴿وَعَلَيۡهِمۡ﴾:

فَسادُ حُجَجِهِم تَجلِبُ عَلَيهِم غَضَبَ اللهِ تَعالى

الواوُ في ﴿وَعَلَيۡهِمۡ﴾ مِن قول اللّه سُبْحانَه: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على الجملةِ قَبْلَها، وهي تفيدُ التَّرابُط بَينَ بُطلان الحجَّة وحلول الغضَبِ علَيهم، وأنَّ الغضبَ مآلٌ مُحَتَّم لإصرارهم على الباطلِ بعدَ ظُهور الحجَّة واتِّضاح المَحَجَّة.

دلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ (عَلَيْهِمْ):

بَيانُ استِحقاقِهِمُ الغَضَبَ الإلَهيَّ

قُدِّم الجارُّ المَجرور (عَلَيۡهِمۡ) على ﴿غَضَبٌ﴾ مِن قول اللّه سُبْحانَه: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾؛ لوُقوعِ المُبْتَدَأ نكرةً، ولا مُسَوِّغ لَها إلّا تأخيرُها، وذلك لا يَمْنَعُ مِن اشتمال التَّقديم على نُكْتَةٍ بلاغيَّة؛ لِما تقرَّر مِن أنَّ جَريان التَّركيب على الأصلِ لا يَمْنَعُ مِن تَضَمُّنه نكاتٍ بلاغيَّةً[1]، وفائدةُ التَّقديم هَهنا الاهتمامُ بِوُقوع الغضَب عليهِم واستِحْقاقِهم لَه بِما يُلائم حالَ مَن خابَ مسعاهُ، وبطلَتْ حُجَّتُه[2]، وقد يكون التَّقديم لتعجيل ما يسوؤهم.

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ (عَلى):

ذُلُّهُم وهَوانُهُم أمامَ عَظَمَةِ اللهِ سُبْحانَهُ

حرفُ الجرِّ (على) يدلُّ في الأصلِ على الاستِعلاء، وهو في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ استعلاءٌ مجازيٌّ[3]؛ إذْ شُبِّه حلولُ الغضَبِ عليهِم بِنُزول أمرٍ عظيم جسيم لا يُقدَرُ على ردِّه ودَفْعِه، وفيه ذَمُّهم باستعلاءِ النِّقَم عليهم[4]، وفي ذلك أيضًا إبرازُ قَهرِ اللّه تعالى لَهُم، وأنَّهم في مقامِ الذُّلِّ والهوان أمامَ عظمةِ اللّه تعالى وسُلْطانِه.

دلالَةُ التَّنْكيرِ في ﴿غَضَبٌ﴾:

شِدَّةُ غَضَبِ اللهِ سُبْحانَهُ عَلى أهْلِ الباطِلِ

نُكِّر لفظُ الغَضَبِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم والتَّهويل، وذلك أبلغُ في التَّخويف، وأشدُّ في

(1) الشِّهابُ الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 229.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 66.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 66.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 279.

التَّرهيب، ففي التَّنكير إشارةٌ إلى غضَبٍ شديدٍ لا يُقادر قدرُهُ يناسِبُ حالَ المُحاجّين الَّذين كابَروا الحقَّ بعد ظُهوره، وجادَلوا بالباطِل[1].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالجُملَةِ الاسميَّةِ: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾:

حُلولُ غَضَبِ اللهِ تَعالى بِكُلِّ مُعانِدٍ ومُكابِرٍ

جاءَ التَّعبير بالجملة الاسميَّة: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾؛ لإفادَةِ الثُّبوت والاستِمْرار، وأنَّ الغضَبَ قَدِ استقرَّ بِهم، واستَوجَبوا حُلولَه، وأنَّ هذا حقيقةٌ ثابتَةٌ راسخة لا تتغيَّر، ولا تتبدَّل، فكان التَّعبير بالجملة الاسميَّة مفيدًا أنَّ وُقوع الغضَبِ قضاءٌ ثابت لكلِّ مَن عاند، وكابرَ، وجادل في دينِ اللّٰه تعالى بالباطِل.

سِرُّ عَدَمِ إضافَةِ الغَضَبِ إلى الاسْمِ الأَحْسَنِ (الله):

طَيُّ اللَّفْظِ الذي دَلَّ السّياقُ عَلى تَعْيينِهِ

لَم يُضَف الغضبُ في قول اللّٰه تَعالى: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾، إلى الاسمِ الأَحسَنِ، فلَم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (وعليهم غضَبُ اللّٰه)، وذلك لظُهور المُراد مِن قولِه تَعالى قبلُ: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، فكان التَّقدير: وعَلَيْهم غضَبٌ مِنْهُ؛ إذ لا يُتَصوَّر في هذا المَقام غضبٌ سِوى غضَبِه سُبْحانه[2].

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ﴾:

بَيانُ العاقِبَةِ السَّيِّئَةِ لِلمُجادِلينَ في دينِ اللهِ تَعالى بِالباطِلِ

الواوُ في ﴿وَلَهُمۡ﴾ مِن قول اللّٰه ﷻ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جُملَة: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾؛ لِما بين الجُملَتين من التَّوسُّط بين الكمالين، فإنَّ الجملتين اتَّحدتا في الخبريَّة، وبينَهُما مناسبَةٌ في المَعْنى، وهو بيانُ العاقبة السَّيِّئة للمُجادلين في دينِ اللّٰه سُبْحانه بالباطِل، وحسَّن الوصلَ اتِّحادُهما في الاسميَّة، وتقديمُ المُسْنَد وتنكيرُ المُسْنَدِ إليه في كِلَيْهما.

معنى اللّامِ ودِلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ (لَهُمۡ):

بَيانُ استِحقاقِهِمُ العَذابَ

أفادت اللّام هنا معنى الاستحقاق؛ لأنَّهم استحقّوا هذا الجزاء،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 28، والقِنَّوجي، فتح البيان: 12/ 290، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 26.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 66.

وقُدِّم الجارُّ المَجرور (لَهُمْ) على ﴿عَذَابٌ﴾ مِن قول اللّه سُبْحانَه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ للاهتمام بِوُقوعِ العذابِ عليهم واستِحْقاقِهم إيّاه، بِما يوافق حالَ مَن خابَ سعيُه، وانهارَت دَعواهُ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِاللّامِ مَعَ العَذابِ:

التَّـهَـكُّـمُ بِالمُشْرِكينَ عَذابٌ مَعْنَويٌّ يُضافُ إلى العَذابِ الحِسّيِّ

عُبِّر بِحَرْفِ الجرِّ (اللّام) معَ العذابِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ دون (عَلى)، فلم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: وعليهم عذابٌ شديدٌ؛ للإيماء إلى استِحْقاقِهم العذابَ الشَّديد واختصاصِهم به، وفيه تهكُّم بهم؛ إذْ إنَّ اللّامَ في الأصل تدلُّ على المنفعة.

سِرُّ وصْفِ العَذابِ بِالشَّديدِ دونَ المُهينِ والأليمِ والعَظيمِ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في اختيارِ الألْفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

وَصْفُ العذابِ في القُرآنِ الكريمِ بِأوصافٍ كثيرَةٍ، مِنْها: كونُهُ مُهينًا، وأليمًا، وعظيمًا، وشديدًا.

فيَرِدُ وصفُه بالمُهين في سياقِ جَزاءِ مَن يَتَكَبَّر على غَيْرِه، ويَستَعْظِمُ ما عِنْدَهُ، فيكونُ العَذابُ المُهين أنْسَبَ لَه؛ لِمَحْقِه مشاعِرَ الكِبْرِ والغُرور عِنْدَهُ، ولأنَّه مجازاةٌ لَهُ بِنَقيضِ قَصْدِه، ومنهُ آيةُ لُقْمانَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ [لقمان: 6]، فإنَّ الباعثَ عَلى الاستهزاءِ هو الكِبْرُ وغَمْطُ الشَّيءِ المُسْتَهْزَأ بِهِ.

ويوصَفُ العذابُ بالأليم؛ إذا كانَ المعذَّب أو المتوعَّدُ بالعذابِ سبَّب بجُرمِهِ آلامًا كثيرةً لأهل الإيمانِ، واختيرَ لَهُ العَذاب الأليمُ؛ ليكونَ الجَزاءُ من جِنْسِ العَمَلِ، ومنهُ آيةُ لُقْمانَ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًاۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان: 7]، فإنَّ المبلِّغ لآياتِ اللّه سُبْحانَهُ، إذا قوبِلَ بالإعراض والاستِكْبارِ؛ يكبُرُ ذلكَ في نفسِه، ويَجِدُ لذلكَ ألَمًا معنويًّا عظيمًا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 66.

فناسبَ أن يُعاقَب المُتَسَبِّب في ذلكَ الألَمِ بالعذابِ الأليم، ولم يُذْكَر العَذابُ المُهينُ في آيةِ لُقمانَ المتقدِّمَة: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ [لقمان: 7]، مع أنَّه نُصَّ على الاستكبارِ؛ اكتفاءً بذِكْرِه في الآيةِ المتقدِّمَة، وليُجمَعَ لَهُ ألوانٌ مِنَ العذابِ.

وقَد يوصَفُ العذابُ بالعظيم، وذلكَ إذا عَظُمَ الجُرْمُ والذَّنْبُ؛ ليكونَ الجزاءُ مِن جِنْسِ العَمَلِ، ومِنهُ قول اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: 6 - 7]، فقد وردَتْ هذهِ الآيَةُ في سياقِ الحَديثِ عَنِ الكُفّارِ الَّذينَ أعْرَضوا عنِ الحقِّ، واستَوى لَدَيهِم الإنذارُ وعَدَمُه، فلَمّا كانَ ذَلكَ إعراضًا عظيمًا عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ فناسبَ أن يُتَوَعَّدوا بالعذابِ العَظيم.

وقد يوصَفُ العذابُ بالشَّديد؛ للإشارةِ إلى شِدَّة إيغالِهم في الجُرْمِ الَّذي رُتِّب عليهِ العَذاب، كما في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾، فإنَّ الآيةَ في الَّذين يحاجّون في اللّهِ من بعدِ ما استُجيب له، فلمّا كانَت محاجَّة هؤلاءِ شديدةً ممّا استَوجَب غضبَ اللّهِ تعالى عليهِم؛ ناسَب ذلكَ أن يكونَ عذابُهم شديدًا، فقال سُبحانَه: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾[1].

بَيانُ عَظَمَةِ العَذابِ وهَوْلِه

دلالَةُ التَّنْكيرِ في قَوْلِه: ﴿عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٞ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم والتَّهويل، وهذا أبلغُ في التَّرهيبِ وأدخَلُ في التَّخويف، ففي التَّنكير إشارةٌ إلى عذابٍ شديدٍ لا يُقادر قدرُهُ، يناسِبُ حالَ المُحاجّين الَّذين كابَروا الحقَّ بعد ظُهوره، وجادَلوا بالباطِل، ووصْفُ العذابِ بِالشَّديد مُنَكَّرًا زيادةٌ في التَّعظيم والتَّهويل.

(1) سعد عبد العظيم محمد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 56.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المُجادَلَةُ والمُحاجَّةُ والمُحاوَرَةُ:

في المُجادَلَةِ استِمرارٌ، وفي المُحاجَّةِ إرادَةُ الغَلَبَةِ، وفي المُحاوَرَةِ هُدوءٌ في المُراجَعَةِ

المُجادلَةُ في أصلِ اللُّغَةِ تَدُلُّ على شدَّة الخُصومَة واستِمْرار مُراجعةِ الكَلام، بخِلاف المُحاجَّة فإنَّ مَعْناها: المُغالبَةُ بِالحُجَّة والبُرْهانِ، وأمّا المُحاورَةُ؛ فَهيَ مُراجعَةُ الكَلامِ.

وقَد جاءَ ذِكْرُ المُجادَلَة في القُرآن الكريم كثيرًا، بَل إنَّ سورَةً مِن سوَرِه سُمّيت بالمُجادلَة، ومِن شَواهِدِ الجِدالِ الوارِدِ في القرآنِ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125].

وورَدَ النَّهْيُ عَنِ الجِدال إلّا بالَّتي هيَ أحسَنُ، كَما في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: 46]، والجِدالُ المَنْهيُّ عنهُ هو الَّذي يَجُرُّ إلى المُغاضبَةِ والمُشاتَمَة، وأمّا مُراجعَةُ الكلامِ بغَرَضِ الإقناع والوُصول إلى الحَقِّ؛ فهذا مَنْدوبٌ إليه.

وأمّا المُحاجَّة؛ فقد وردَتْ في القرآنِ الكريم ثلاثَ عَشْرَةَ مرَّة، منها في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة: 76].

فالمُحاجَّة: مُحاولَةُ كُلِّ واحدٍ أن يَغْلِبَ خَصْمَهُ بما يُقيمُهُ مِن بَراهينَ وحُجَجٍ، بقَصْدِ إقامَةِ الحَقِّ وبيانِه ونُصْرَتِه.

وأمّا المُحاوَرَةُ؛ فَقد ذُكِرَت في القرآنِ ثلاثَ مَرّات، منها في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧﴾ [الكهف: 37].

وحقيقَتُها: مُراجعَةُ الكَلامِ، وهيَ تَخْلو من الشِّدَّةِ الَّتي في

المُجادَلَةِ، والحاصِلُ أنَّ المُجادَلَة والمُحاجَّة والمحاورَةَ تَجْتَمِعُ في مراجعَةِ الكلامِ، وتَنْفَرِدُ المُجادلَةُ بدِلالَتِها على الشِّدَّة والاستِمْرارِ، وأمّا المُحاجَّة؛ فَهيَ مُصاحبَةُ الكلامِ لِلحُجَجِ الَّتي يُراد بِها الغلبةُ عَلى الخَصْمِ، وأمّا المُحاورة؛ ففيها هدوءٌ في مراجعَةِ الكلامِ[1].

الحُجَّةُ والدَّليلُ والبُرْهانُ والسُّلْطانُ:

البُرْهانُ أخَصُّ مِنَ الدَّليلِ والحُجَّةِ، والحُجَّةُ أخَصُّ مِنَ الدَّليلِ، والدَّليلُ والسُّلْطانُ أعَمُّ مِنْهُما

الحُجَّة: الدَّليل الَّذي يُستخدم في مواجهة الخَصم، ويكونُ به الظَّفر عند الخصومةِ، واستُعْمِلَت الحُجَّة في القرآن بِمَعنى الدَّليل المُبَيِّن للمَحَجَّة - أي: القصدِ المُستقيم - في مواجهةِ خَصْمٍ مُخالِفٍ معانِد، كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: 149].

والدَّليل: الهادي الذي يُهتدى به، وهو العلامة المبيِّنة لصِدْقِ الدَّعوى، واستُعمل في القرآن بمعنى العلامةِ الَّتي يُهْتَدى بها، كما في قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾[2] [الفرقان: 45].

وأمّا البُرهان؛ فهو الحُجَّة الفاصلة البيِّنة، يقال: بَرهَن يُبَرهِنُ بَرهَنةً؛ إذا جاء بحُجَّةٍ قاطعة لِدفع الخَصم، فهو مُبَرهِنٌ، فيُبَرهن بمعنى يُبَيِّن، وقد بَرهَنَ عليه، أي: أقام الحجَّة[3]، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: 111]، وفي الحديث: «الصَّدقة بُرْهانٌ»[4]، أي: هي دَليلٌ على صحَّة إيمان صاحبها لطيب نَفسه بإخراجها، وذلك لعَلاقة ما بين النَّفس والمال.

أمّا السُّلطان عند العرب؛ فيُطلَق على الحُجَّة، ويُذكَّر ويُؤَنَّث، والسُّلطان: الحاكم، وإنَّما سُمّيَ سُلطانًا؛ لأنَّه حُجَّةُ الله تعالى في

---

(1) داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 178 - 181.
(2) داود، معجم الفروق، ص: 122 - 124.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (برهن).
(4) رواه مسلم في صحيحه: (برقم: 223).

أرضه، أو هكذا ينبغي أن يكون[1]، وقول اللّه تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩﴾ [الحاقة: 29] معناه: ذهبت عنّي حجّتي[2]، فالسُّلطان أعمُّ.

والحاصلُ: أنَّ هذه الألفاظَ تَشْتَرِكُ في مَلْمَحِ الوُضوحِ والصِّدق، واختُلِف فيما بينَها، فالبُرْهانُ أخصُّ من الدَّليل والحُجَّةِ؛ لاختِصاصه بالقَطْعِ واليَقين، والحُجَّةُ أخَصُّ من الدَّليل؛ لانحِصارِها في مواجَهَة الخَصْم، والدَّليل والسُّلطان أعمُّ مِنْهُما، والظّاهر أنَّ السُّلطانَ أخصُّ من الدَّليل؛ لِما في المادَّة من إلْماحٍ إلى الإلجاءِ والإلزامِ.

الغَضَبُ والسَّخَطُ:

بَـيْنَ الـغَـضَـبِ والسَّخَطِ عُمومٌ وخُـصـوصٌ وجْهيٌّ

الفرقُ بينَهُما مِن وجهين[3]: **أحدهما**: أنَّ الغضَبَ يكون مِن الصَّغير على الكبير، ومِنَ الكبير على الصَّغير، بخلاف السُّخْط؛ فلا يكون إلّا مِنَ الكبير على الصَّغير، **والآخرُ**: أنَّ الغضبَ هو اشتدادُ السُّخْطِ، فهو أخصُّ.

وبهذا يتبيَّنُ أنَّ الغضبَ أعمُّ مِنَ السُّخْطِ من وجهٍ، وأخصُّ مِنْهُ مِن وجهٍ آخرَ.

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 217.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 630.
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 130.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧﴾ [الشورى: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بَيانُ ما تُعرَفُ بِهِ صِحَّةُ الحُجَجِ أو زَيْفُها

لَمّا جزَم اللَّهُ سُبْحانه بِما توعَّدهم به مِنَ الغَضَب والعذابِ الشَّديد بعدَ حُكْمِه على حُجَّتهم بالدُّحوض، ولا يَجْزِمُ بالشَّيء إلَّا مَن كان نافِذَ الأمر ومحيطَ الحُكم؛ أشارَ إلى أنَّه سُبْحانَه كذلكَ، موضِّحًا ما يُعرف به ثباتُ الحُجَجِ أو دُحوضها المُسْتَلْزِم غضبَ اللهِ ﷻ الّذي يعقُبُه العذابُ الشَّديد، فقال تَعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾: (وزن) تَدورُ تَصريفاتُه على مَعْنى التَّعديل والاستِقامَة[2]، ويُقال للآلة الَّتي توزَنُ بِها الأشياءُ: ميزانٌ، ونَظَرَت العربُ إلى التَّعادل عندَ الوَزْنِ، فأطلقوا الميزانَ، وأرادوا به: العَدْلَ[3]، ولذا قال جماعةٌ مِنَ السَّلف: سُمّي العدلُ ميزانًا؛ لأنَّ الميزانَ آلةٌ للإنصافِ والتَّسْوِيَة[4]، والميزانُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ هو العدلُ[5].

2) ﴿يُدۡرِيكَ﴾: (دري) تدلُّ اشتِقاقاتُه على تَغَلْغُل الشَّيء بدِقَّة وقوَّة خلالَ جِرْم كثيفٍ، فيَصِل إلى عُمقه، ومنه: المُداراةُ، وهي: المُلايَنة وحُسْنُ الخُلُق، ويكون ذلك بالتَّغاضي عن سوءِ الفِعْلِ اتِّقاءً

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 280.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وزن).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وزن).
(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 181.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 250.

للشَّرِّ، فهو تَسَتُّرٌ؛ ليَعْلم المُداري باطنَ مَن يُداريه، ومنهُ الدِّراية، وهي: علمٌ فيهِ نفاذٌ إلى ما خفيَ[1]، وقولهُ تَعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾، أي: أيُّ شيءٍ يجعلُك عالِمًا بها[2].

3) ﴿قَرِيبٞ﴾: (قرب) تَدور تَصريفاته على ضِدِّ البُعْدِ[3]، فالقريبُ عكسُ البَعيدِ[4]، ويدخُلُ في ذلكَ الزَّمان والمَكان وغيرُهما، والقربُ المَذْكورُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ قُرْبُ الزَّمانِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّنْبيهُ عَلى قُرْبِ الحِسابِ

يُبَيِّن اللّه تعالى أنَّه أنْزَل الكِتابَ بالحقِّ والميزانِ؛ ليَحْكُم بينَ النّاس بالعَدْلِ، ثُمَّ يُخاطِب نبيَّه محمَّدًا ﷺ - أو كُلَّ مَن يَصِحُّ خِطابُهُ - مُشيرًا إلى أنَّ القيامَةَ قَد تَكون أقربَ ممّا يظنّون، وأنَّ العِلْمَ بِها على وجهِ الحقيقةِ عندَ اللّهِ تَعالى وحدَهُ[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ هَذِهِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

مِن ضُروبِ البَيانِ إقامَةُ الدَّليلِ عَلى المُبَيَّنِ

فُصِل قولُ اللّه تَعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ عنِ الآيَةِ قبلَها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾؛ لوُقوعِها موقِعَ البَيان مِنْها؛ إذِ الثّانيَةُ دليلٌ لِما قَبْلَها، والدَّليل مِن ضروب البيانِ[6]، فكان بهذا بينَ الجُمْلَتين كمالُ الاتِّصال.

سِرُّ الإظْهارِ في مَقامِ الإضمارِ:

التَّنْبيهُ عَلى عَظَمَةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ

في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (درى).
(2) القِنَّوجي، فتح البيان: 12/ 290.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرب).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (قرب).
(5) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 471.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 67.

إظهارٌ في مَقامِ الإضمار؛ لأنَّ مُقْتَضى الظّاهِرِ أن يَرِدَ في النَّظمِ القرآنيِّ: (هو الَّذي أنزلَ الكتابَ)؛ لِتَقَدُّمِ ذِكْرِ اسمِ اللّه تَعالى ﴿ٱللَّهُ﴾ و(الرَّبِّ) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، ونكتَةُ الإظهارِ التَّنبيه على عظمَةِ المُخْبَرِ عنه، وهو اللّهُ ﷻ[1]، ولذا اختير التَّعبيرُ عنه بالاسمِ الأحسَنِ (اللّه) الجامعِ لِصِفاتِ الكمالِ والجلالِ والجمالِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالاسمِ الموَصولِ وصِلَتِهِ:

الإشارَةُ ابتِداءً إلى وجْهِ بِناءِ الخَبَرِ

جاء الإخبارُ عن اللّه تعالى بالاسمِ المَوْصول وصِلَتِه في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾؛ لِما في المَوصوليَّة مِنَ الإشارَةِ إلى وجْهِ بِناءِ الخبَرِ المَذْكور بعدُ، وأنَّه مِن جنسِ الحقِّ والعَدْل، فالتَّعبير بالاسمِ الموصول هنا أفاد معنى التَّعظيم؛ إذ إنَّ التَّعريف به يأتي على مرحلتَيْن: الاسمِ الموصول، وهو مبهمٌ، ثمَّ جملة صلة الموصول الَّتي تزيل إبهامه.

بلاغةُ القصر بتعريف الطَّرفيْن:

في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تعريفٌ لطرفي الإسناد، وقد أفاد هذا التَّعريف: القصر الحقيقيَّ، فإنزال الكتاب بالحقِّ والميزان هو من شأنه تعالى لا من شأن غيره.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالإنزالِ دونَ التَّنْزيلِ:

الإنـزالُ دَفْعيٌّ، والتَّنزيلُ تَدْريجيٌّ

عُبِّر بالإنزالِ ﴿أَنزَلَ﴾ دون التَّنْزيل (نَزَّل) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ المُراد جملةُ الكتابِ الَّذي لا مَطْعَن في شيءٍ مِنْهُ؛ لأنَّ الإنزالَ دفعيٌّ بخلافِ التَّنزيل، فإنَّه تدريجيٌّ[2].

واستعمالُ الإنزالِ يَجْعَلُ لفظَ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بعدُ يَصِحُّ حَمْلُهُ على

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 280.

(2) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 68، والزّبيديّ، تاج العروس: (نزل).

جميعِ الكُتُبِ؛ إذِ الكُتُب كلُّها نزلَت جملةً واحدةً، ومِن ذلك القرآنُ الكريم، فإنَّ له نُزولَيْن: نزولًا دَفْعيًّا إلى السَّماء الدُّنيا، ونزولًا تدريجيًّا بحسب الوقائعِ والحوادِث[1]، بخلافِ ما لو جاءَ التَّعبير بالتَّنزيل، فإنَّ ذلك يُخَصِّص دِلالة الكتابِ بالقرآنِ وحدَه؛ إذ هو المختصُّ بِنُزوله تدريجيًّا، ولا يدخُلُ فيهِ شيءٌ مِنَ الكُتُبِ السّابقة.

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

انــدِراجُ جَميعِ الكُتُبِ الإلَهيَّةِ في لَفْظِ (الكِتاب)

(أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ للاستغراق[2]، فتشمل جميعَ الكتُبِ الإلهيَّة المنزَّلة على الأنبياءِ، بِقَرينَة قولِ الله سُبْحانَه قبلُ: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾[3] [الشورى: 15].

ويجوزُ أن تكونَ (أل) للعَهْدِ العِلْميِّ (الذهني)، والمُرادُ بهِ القُرآن الكريمُ خاصَّة[4].

والأوَّل أعمُّ؛ لاندِراج الثّاني فيهِ، فيكون المُرادُ بالكتابِ: القرآنَ وسائرَ الكتُبِ الإلهيَّة المُنَزَّلة[5].

دلالَةُ الباءِ و(أل) في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

نُــزولُ الكِـتـابِ مُصاحَبًا بالحَقِّ والصِّدْقِ

الباءُ في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مِن قولِ الله تَعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ للمُلابَسَة والمُصاحَبَة، أي: إنَّ اللهَ سُبْحانَه أنزلَ الكتابَ مُتَلَبِّسًا بالحقِّ في أحكامهِ وأخبارِهِ مُصاحِبًا له، مُقْتَرِنًا بهِ، بعيدًا مِنَ الباطِل[6]، وتعريف الحقِّ للاستغراق؛ ليعمَّ كلَّ حقٍّ أوجده الله ﷻ.

(1) المقدسيّ، المرشد الوجيز، ص: 17، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/ 146.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 31، والزمخشري، الكشاف: 4/ 217، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 330، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 25.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.
(4) القِنَّوجي، فتح البيان: 12/ 290.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 15.
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 217، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 361، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.

دلالَةُ العَطْفِ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾:

إنزالُ الكِتابِ والميزانِ بِالحَقِّ

الواوُ في ﴿وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ عاطفةٌ ما بعدَها عَلى كلمةِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، والتَّقدير: أنزل الكتاب بالحقِّ، وأنزل الميزانَ بالحقِّ[1]، ويجوزُ أن يكون (الميزان) معطوفًا على محلِّ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ إذِ الجارُّ والمجرور متعلّقان بمحذوف حال[2].

بَلاغَةُ المَجازِ في التَّعْبيرِ بِلَفْظِ (الميزانِ):

الميزانُ رَمْزٌ لِلعَدْلِ وآلَةٌ لِلإنْصافِ

(الميزان) مِن قول الله سُبْحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾، هو العدلُ في قولِ أكثَرِ أهلِ التَّفسير، وسُمّي العدلُ ميزانًا؛ لأنَّ الميزان آلةُ الإنصافِ والتَّسوية بين الخلق، فيكون لفظُ الميزانِ مُتَجَوَّزًا به عن العدلِ، مجازًا مرسلًا بعلاقةِ السَّببيَّة؛ إذ أُطْلِق السَّبب، وأريدُ المُسَبَّب[3]، ويجوز أن تكون العلاقةُ آليَّةً، من إطلاق اسمِ الآلةِ وإرادة أثرِها.

وذهب بعضُ أهل التَّفسير إلى أنَّ الميزان هو الدّين والشَّرع، بقرينةِ ذِكر الإنزالِ؛ فإنَّ الدّين هو المُنَزَّل، والدّين يدعو إلى الإنصافِ في الجِدال، والعدلُ في إعطاءِ الحُقوق[4]، فيكون لفظُ الميزانِ مُسْتَعارًا للشَّرع؛ تشبيهًا له بالميزان العُرْفيِّ، من جهة أنَّه توزن به الحقوقُ الواجبُ أداؤُها، سواءٌ أكانت حقوقًا للّه تعالى أم حقوقًا للعبادِ[5].

نكتة تقديم الحقِّ على الميزان:

عطْفُ الخاصِّ على العامِّ للإشادة به

قدَّمت الآية الكريمة لفظة الحقِّ على الميزان؛ لأنَّ الحقَّ هو

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 520، والنحاس، إعراب القرآن: 4/ 53، وصافي، الجدول: 25/ 30، والدعاس، إعراب القرآن: 3/ 185.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 24.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 12/ 290.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.
(5) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 26/ 69.

الثّابت الَّذي لا يتغيَّر، وهو وصفٌ وصف اللّه تعالى به نفسه، وما الميزان والعدل إلّا فرعُ هذا الحقِّ وثمرته، فلولا الحقُّ؛ لما كان العدل، ولا أُقيم الميزان.

دلالَةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾:

لا مَفَرَّ لِلعِبادِ عَن لِقاءِ الجَزاءِ يومَ القيامَةِ

الواوُ في ﴿وَمَا﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ عاطفَةٌ الجملةَ بعدَها عَلى جُمْلَةِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾، ولا إشكالَ في عَطف الإنشاء على الخبرِ؛ إذا آل أحدهما إلى معنى الآخر؛ لأنَّ الصّواب جوازُه، والقرآنُ طافِح به[1]، والاستفهام هنا إنشاءٌ لفظًا، خبرٌ معنًى، والمناسبَةُ بينَ الجُمْلَتَين المُتقدِّمتين هو أنَّ قولهُ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ يُؤْذِنُ بِمُقَدَّر قَبْلَهُ يقتضيهِ المعنى، والتَّقدير: فجعلَ اللّه ﷻ الجزاءَ للسّائرين على الحقِّ والنّاكبين عَنْهُ يومَ قيامِ السّاعَةِ، فَلا مفرَّ للعباد عن لقاءِ الجَزاء، وما يُدْريكَ لعلَّ السّاعة قَريبٌ[2].

دلالَةُ الاستِفهامِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾:

إثـارَةُ الـفِكْـرِ في أمْرِ السّاعَةِ

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ استفهاميَّةٌ، والمَعْنى: أيُّ شيءٍ يَجْعَلُك داريًا بها عالمًا بوَقْتِها[3]، والاستفهامُ خارِجٌ عن أصلهِ مِن إرادَةِ طلَبِ العِلْم بشيءٍ لَم يكُنْ معلومًا من قبلُ، والمُراد به التَّنبيه والتَّهيئة[4]؛ إذ فيه لفتُ الانتباهِ إلى اقترابِ السّاعة، وإثارةِ التَّفكير في شأنِها، وفيه أيضًا إشعارُ النَّفس البشريَّة بقُصورِها في العلمِ والمَعْرِفَة أمامَ عِلْم اللّه تعالى المُطْلَق.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿يُدۡرِيكَ﴾ دونَ (يُعْلِمُكَ):

الإدْراكُ عِـلْـمٌ فـيـهِ نَـفـاذٌ إلى الخَفيّاتِ

جاء التَّعبير بـ ﴿يُدۡرِيكَ﴾ دون (يُعْلِمُكَ) مِن قولِ اللّه تَعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 210.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 12/ 290.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾؛ لِما في لَفْظِ الإدراك مِن عُمْقٍ في المَعنى؛ إذ هو علمٌ فيهِ نفاذٌ إلى ما خفيَ[1]، وهو الأنسب لذِكْرِ يوم القيامةِ؛ إذْ هي غيبٌ محجوبٌ عنِ العبادِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُدۡرِيكَ﴾:

اختِصاصُ عِلْمِ الغَيْبِ بِاللهِ تَعالى

جاء التَّعبير بالفعلِ المُضارع ﴿يُدۡرِيكَ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾، وفيه دلالة على الاستمرارِ والدَّوام، والمَقْصود استمرارُ التَّنبيه إلى عَجْزِ الإنْسان عن إدراكِ الغَيْب، وعندما يعبِّر القرآن الكريم بلفظ الدّراية بالفعل المضارع؛ فإنَّه لا يبيِّن المقصود بعدها، كما يفعل بموعد السّاعة، بينما عندما يعبِّر عنها بالفعل الماضي، فإنَّه يبيِّنها، كما في الحاقَّة والقارعة والقدر وغيرها.

دلالَةُ كافِ الخِطابِ في ﴿يُدۡرِيكَ﴾:

نَفْيُ عِلْمِ السّاعَةِ عَنْ أفضَلِ الخَلْقِ دَليلٌ عَلى انتِفائِهِ عَن غَيرِهِ مِن بابِ الأولَوِيَّةِ

كافُ الخطابِ في قول اللّه تَعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، والمَعْنى: وما يُدْرِيكَ يا أكملَ الخلقِ بحالِ القيامة[2]؛ إذِ القُرآن الكريم أوحيَ إليه ﷺ، ثُمَّ أُمِرَ بعدُ بتبليغه.

ويَحْتَمِل أن يكونَ ضميرُ الخِطاب خارجًا عَن أصلهِ مِن إرادة مُعَيَّنٍ، قصدًا إلى العمومِ، أي: وما يُدريك أيُّها المُخاطَب[3].

ولا تنافيَ بينَ المَعنيين؛ لأنَّه إذا نُفي علمُ السّاعة عن أكملِ الخَلْقِ وأشرَفِهم، وهو النَّبيُّ ﷺ، فنَفْيُ العلم بِها عن غيره من بابٍ أولى وأحرى، ولا ريبَ أنَّ الثّانيَ أعمُّ وأشملُ.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾:

تعريفُ السّاعة هنا للعهد الذِّهنيِّ، والمراد بها وقت قيام السّاعة.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (درى).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 280، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 26/ 70.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 330، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالسّاعَةِ:

الإيـمـاءُ إلى المُفاجَأةِ في حُلولِ القيامَةِ

عُبِّرَ عن يوم القيامةِ بالسّاعة في قول اللّه تَعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾؛ للإيماءِ إلى المُفاجأةِ في حلولِها[1]، وأنَّها تأتي بغتةً، كما قال اللّه سُبحانه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ [الأعراف: 187]، ولفظ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ يُؤَدّي هذه الوظيفةَ الدَّلاليَّة.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿قَرِيبٌ﴾ دونَ (آتيَة):

قُـرْبُ السّاعَةِ مُـشْـعِـرٌ بِالخَوْفِ مِنْها والاستِعدادِ لَها

جاء التَّعبيرُ بالقُرب في قول اللّه سُبْحانه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ دون الإتيانِ، فلَم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (لعلَّ السّاعة آتية)؛ لِما في التَّعبير بالقُرب مِن إثارة الشُّعور بالخَوْفِ مِنْها والاستعدادِ لَها، بخلافِ الإشارَةِ إلى مجرَّد حُدوثِها، فالتَّعبير بالقُرْب أخصُّ؛ لأنَّه إخبارٌ بإتيانها وزيادَة.

سرُّ التَّعْبيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿قَرِيبٌ﴾ دونَ (قَريبَة):

إيثارُ التَّذْكيرِ في وصفِ السّاعَةِ إيماءٌ إلى شِدَّتِها وعَظَمَتِها

عبَّر النَّظْمُ القرآنيُّ بـ ﴿قَرِيبٌ﴾ في الإخبارِ عن السّاعة في قول اللّه تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ بصيغة المُذكَّر، والأصلُ أن يتطابقَ جُزْءا الجملةِ الاسميَّة تذكيرًا وتأنيثًا، وذلك لأنَّ تأنيثها غيرُ حقيقيٍّ، فالمَعنى: لعلَّ البعثَ قريبٌ، أو هو على حذف مضافٍ، والتَّقدير: لعلَّ مجيءِ السّاعة قريب[2].

أو لأنَّ العربَ إذا أرادوا به الظَّرف؛ جعلوهُ بغير هاءٍ، وكان لفظهُ عندَهُم واحدًا في الواحد والاثنين والجمع، مُذَكَّرًا كان ذلك أو مؤنَّثًا، فيقولون: هو قريبٌ، وهي قريبٌ، وهما قريب، وهم قريب، وهُنَّ قريب[3].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 330.

(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 397، وابن أبي زمَنِين، تفسير القرآن العزيز: 4/ 165، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 15.

(3) معمر بن المثنى، مجاز القرآن: 2/ 200.

وأمّا ما ذهب إليه جماعةٌ مِن أهل العلم من أنَّ (قريب) واردٌ على زنةِ (فعيل)، وهو ممّا يستوي فيه المُذَكَّر والمؤنَّث؛ ففيه نظرٌ؛ لأنَّ ذلك خاصٌّ بزنة (فعيل) الَّتي بمَعْنى مفعولٍ، أمّا (فعيل) بمعنى فاعلٍ؛ فلا يستوي فيه ذلك[1].

وفي إيثار التَّذكير إيماءٌ إلى أنَّها ذاتُ الشَّدائد، وأنَّ شدائدها ذكور الشَّدائد، فكانَ التَّذكير أنسبَ للدَّلالة على ما فيها مِنَ القوَّة والعظم[2].

بَلاغَةُ التَّذْييلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾:

يَومُ القيامَةِ يَومُ الحِسابِ ووَزْنِ أعمالِ العِبادِ

لفظُ ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ جارٍ مجرى المَثل[3]، فَجملةُ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ تذييلٌ جارٍ مجرى المَثل لاستقلالهِ بنَفْسِه، وعدمِ افتِقاره إلى ما قبلَه في فَهْمِ تمامِ المُراد منهُ.

ومناسبةُ ذِكْر هذه الجملةِ بعدَ ذِكْر إنزال الكتاب بالحقِّ والميزان: أنَّ السّاعة يقع فيها الحسابُ ووضعُ المَوازين، فكأنَّه قيل: قَد أمركم اللّه سبحانَه بالعَدْل والعَمل بالشَّرع المُنَزَّل، فاعملوا بالكتابِ والعَدْلِ قبلَ أن يَفْجَأكُم يومُ الحساب ووزنُ الأعمالِ[4].

وَجهُ الاختِلافِ بَينَ هَذِهِ الآيَةِ وبَينَ قَولِهِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾:

مُراعاةُ تَناسُبِ الفَواصِلِ تَحقيقٌ لِلانسِجامِ الصَّوتيِّ

قال اللّه سُبحانه هنا: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾، وقال في موضعٍ آخرَ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ [الأحزاب: 63]، وذلك مراعاة للفواصل[5]، فإنَّ لفظَ ﴿قَرِيبٞ﴾ أنسبُ للآية قبلَه:

---

(1) حقي، روح البيان: 8/ 302، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 12/ 290 - 291.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 281.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 217، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 206.

(5) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 224.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾، والآية بعده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾، ولفظ ﴿قَرِيبًا ٦٣﴾ [الأحزاب: 63] أنسبُ للآية قبله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ٦٢﴾ [الأحزاب: 62]، والآية بعده: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤﴾ [الأحزاب: 64].

﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾ [الشورى: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تَبايُنُ النّاسِ في مَوْقِفِهِم مِنَ السّاعَةِ

لَمّا ذكر اللّه تعالى ما يُشْعِر بقُرب السّاعة، وأشار بـ (لَعَلَّ) في قولِه: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ إلى أنَّ المُستعجل بها حالُهُ حالُ الرّاجي لأمرٍ محبوب، وهذا جهلٌ عظيم منه؛ شَرع سُبحانه في بيان أحوال النّاس في شأنِها، مشيرًا إلى أنَّ العاقلَ يَنْبَغي له أن يستعدَّ لها للخلاصِ في وقْتِها، وذلك لظُهور أدلَّتها من غير بحثٍ عن قُربها أو بُعدِها، فإنَّه لا بُدَّ من كَوْنِها ووُقوعها، فقال ﷻ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَعۡجِلُ﴾: (عجل) تدلُّ اشْتِقاقاتُه عَلى سَبْقِ تَحْصيلِ شَيءٍ قَبلَ أوانِهِ، ومِنْهُ سَمَّتِ العربُ ولَدَ البقرةِ عجلًا؛ لِولادَتِه قَبْلَ بُلوغِ الوَقْتِ الَّذي أَلِفَتِ العربُ أنْ تَلِدَ النّوقُ بَعْدَهُ، فإنَّها تلِدُ لاثنَي عَشَرَ إلى خَمْسَةَ عَشَر شهرًا، بخلافِ البَقَرِ فإنَّها تَلِدُ لِتِسْعَةِ أشْهُرٍ[2].

والعَجَلَةُ: طَلَبُ الشَّيءِ وتَحَرّيهِ قَبْلَ وقْتِهِ[3]، ومِنهُ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾.

2) ﴿مُشۡفِقُونَ﴾: (شفق) تدورُ تصريفاتُه على رِقَّة في الشَّيء،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 277.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عجل).
(3) الرّاغب، المفردات الكريم: (عجل).

تقولُ: أشفقتُ منَ الأمرِ؛ إذا رقَقْتَ، وحاذرتَ[1]، وأشفقَ منه؛ حاذَرَ[2]، وقول الله تعالى: ﴿مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾، أي: خائفون[3].

3) ﴿يُمَارُونَ﴾: (مري) تدلُّ اشتقاقاتُه على مائعٍ أو شيءٍ رقيق غزير يُستخرج بحيلة[4]، والمِراء: مصدرُ مارَيْتُهُ مِراءً ومُماراةً، أي: جادَلْتُهُ[5]، والمِرْيَةُ الشَّكُّ، وسُمّيتِ المُجادَلة مِراءً؛ لأنَّها بسببِ الشَّكِّ وعدمِ اليقينِ في ما يقولُ الآخَرُ، وكلٌّ منَ المُتمارِيَيْنِ يُعالِج صاحبَه؛ ليَستَخْرِجَ ما عندَهُ، ثُمَّ لا يكتفي، ولا يقتَنِعُ[6].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

المَواقِفُ المُتبايِنَةُ مِنَ السّاعَةِ بَيْنَ الجُحودِ واليَقينِ

ذَكَر الله تعالى حالَ فَريقينِ مُتبايِنَيْن في شأنِ السّاعة، فذَكَر أنَّ الذين كَفَروا بالسّاعة يَستَعْجِلون بها استهزاءً وتَهَكُّمًا، ظانّين أنَّها لن تَقوم، وأمّا المُؤْمِنون؛ فَيَخافونَها، ويُشْفِقون من حُلولِها، عالِمين أنَّها الحقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه، ثُمَّ أبان سُبْحانَه أنَّ الذين يُمارون في أمْرِ السّاعة، ويَقِفون موقِفَ الشَّكِّ والجُحود قد ضَلّوا عَن سواءِ السَّبيل، وباعَدوا بَيْنَهُم وبينَ الحقِّ المُبينِ[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هَذِهِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

بَيـانُ حالِ المُشْرِكينَ والمُؤْمِنينَ تُجاهَ تَنْبيهِهِم إلى قُرْبِ السّاعَةِ

فُصِلَ قولُ الله تَعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ عمّا قبلَها؛ لِما بينَ الجُمْلَتَين من شِبْه كمال الاتِّصال، وهو المُسمّى: الاستئناف البياني، وذلك لأنَّ قول الله سُبحانه: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيه تهديدٌ ضمنيٌّ لهم بحلول العذاب بأهلِ الشِّرك، فقالوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفق).
(2) الحميري، شمس العلوم: (شفق).
(3) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (شفق).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مرى).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (مرى)، والأزهري، تهذيب اللغة: (مرى).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مرى).
(7) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 485.

على وجهِ السُّخرية: فمتى موعدُ السّاعة؟ ولَيْتَها تقومُ حتّى يَظهر الحقُّ، فجاءَ قول اللّه تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ مجيبًا عن هذا دافِعًا الشُّبهة[1].

ويجوز أن يكون قول اللّه سُبْحانه: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ فُصِلَ عمّا قبلَه لوُقوعه بيانًا؛ لأنَّ قولَه ﷻ: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ يتضمَّن تنبيهًا وتهيئةً بالنِّسبة إلى فريقي المُؤْمنين بالسّاعة وغير المُؤمنين بها، فذَكَر سُبْحانه حالًا كلا الفَريقين تُجاه ذلك التَّنبيه[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالاستِعْجالِ:

استِهزاءُ المُشركينَ بأمرِ السّاعَةِ مبالغةٌ مِنهُم في نَفْيِها

جاء التَّعبير بالاستِعْجالِ في قول اللّه تَعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾؛ لدلالَته على الطَّلبِ، فمَعْنى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ﴾ يطلُب التَّعجيل، أي: يطلُبُ أن تكونَ السّاعة قبلَ الوقتِ المَضْروب لَها؛ ليَظْهَرَ صدقُهُ - فيما يزعُم - [3] فكان التَّعبير بالاستعجالِ مُشيرًا إلى الطَّلب المَقْصودِ؛ مُبالغةً في الكَشْفِ عَنِ استِهزائِهم وتَهَكُّمِهم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَسۡتَعۡجِلُ﴾:

استِمرارُ أهلِ الشِّركِ في صِدامِهِم مَعَ الحَقِّ

عبَّر بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَسۡتَعۡجِلُ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾، ويشير إلى استمرارِ حالِ الطَّلبِ استهزاءً، ويَدُلُّ على دَوامِ تَحَدّيهم وصِدامِهم مع الحَقِّ، كأنَّهم في تَكْرارِ هذا الطَّلبِ يُريدونَ أن يُبْرِزوا سُخريَتَهم، ويُجاهِروا بِعِنادِهم.

دلالَةُ الباءِ في قَوْلِهِ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا﴾:

السُّخريةُ والعِنادُ في استِعجالِ الكُفّارِ لِلسّاعَةِ

حرفُ الجرِّ الباء في ﴿بِهَا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ يدلُّ على مَعْنى المُلابسَةِ والارتِباط الوثيق بينَ الفِعْلِ ﴿يَسۡتَعۡجِلُ﴾ ومُتَعَلِّقه وهو السّاعة المُعبَّر عنها بالضَّمير

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 590.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 69.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 283، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 69.

في ﴿بِهَا﴾، وأفاد ذلك أنَّ طلبَهُم تعجيلَها ليس دعوى عابرةً، بل هو ارتباطٌ وثيقٌ بسخريةٍ وعنادٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بقَوْلِه: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾ دونَ (يَسْتَعْجِلُها):

بَيانُ شِدَّةِ استِهزاءِ أهلِ الشِّركِ وعَظيمِ عِنادِهِم

قال اللّه سُبْحانه: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾، ولم يرد في النَّظم القرآنيِّ: (يَسْتَعْجِلُها)؛ ليُفيد أنَّ الكُفّار لا يستعجلونَ السّاعة لذاتِها، بل يستعجلونَ أمرًا مرتبطًا بها، كالحسابِ أو العذابِ، وهذا يَقْتَضي شدَّة استهزائِهم وعظيمَ عنادِهم.

دلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿بِهَا﴾:

التَّأكيدُ عَلى استِهتارِ الكُفّارِ بِالعَذابِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿بِهَا﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ من قول اللّه سُبْحانه: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾؛ لإرادة الاهتِمام بالمُقدَّم؛ إذِ المُراد جَعْلُ الحسابِ والعذابِ الكائنَيْن يومَ القيامة محطَّ الكلام وأساسَ القول؛ ليتجلّى للسّامعين أنَّ هذا الأمرَ هو مدارُ الحديثِ ومفتاحُه، وقد جاء هذا التَّقديم أيضًا؛ ليُبَيِّن استهزاءَ الكُفّار واستخفافَهُم، حتّى كأنَّهم يَرَوْنَ العذابَ - لشِدَّةِ استبعادِهِم لَهُ - أمرًا هيِّنًا يستعجلونَ نُزولَهُ بلا خوفٍ ولا وجَلٍ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَوْصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

بَيانُ عِلَّةِ استِعجالِ المُشرِكينَ لِلسّاعَةِ

جاء التَّعبيرُ بالاسم المَوصول وصِلته في قولِه سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ إيماءً إلى أنَّهم مُشْتَهرون بهذا الوصفِ - عدم الإيمان - إذ مِن شأنِ الصِّلة أن تكونَ مشتهرةً معلومةً لَدى المُخاطَبين، فالتَّعبير بالاسم الموصول هنا لذمِّهم والنَّعي عليهم بما في حيِّز الصِّلة.

وفي التَّعبير عن المُشْرِكين بوصفِ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ دِلالةٌ على علَّة استعجالِهم بِها، وكشفٌ لحقيقة حالِهم الَّتي قادتْهُم إلى هذا الاستهزاءِ، فجحودُهم أعمى بصائرَهُم، فاستَسْهلوا أمر العذابِ وشأنَهُ ظانّين أنَّه لن يكونَ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

الـكُـفْـرُ حـالٌ راسِـخَـةٌ في نُفوسِهم

عبَّر النَّظم القُرآنيُّ بالفعلِ المُضارعِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾؛ للدَّلالَةِ على الاستِمرار[1]، والمَقصودُ استِمرارُ النَّفي ودوامُه، لا نفيُ الاستِمرارِ؛ إذ ليسَ المُرادُ أنَّهم يُؤمِنون بالسّاعة في بعضِ الأحايين، وإنَّما المَعنى أنَّهم دائمون على مُجانبَةِ الإيمانِ بها مُستَمِرّون على ذلك، فالكُفرُ حالٌ ثابتَةٌ في نُفوسِهم، راسِخةٌ في أذهانِهم.

دلالَةُ تَعديَةِ الفِعلِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالباءِ:

الكُفْرُ بالسّاعَةِ دلالَـةٌ عَلى الانفِصالِ عَنِ الحَقِّ

عُدّي فعلُ الإيمان في قولِ اللّه ﷻ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ بحرف الجرِّ (الباءِ)؛ للدَّلالة على الارتباطِ الوَثيق والتَّصديق الكامل، ونفيُ ذلك هنا يُشير إلى انفِصال الكُفّار عن الحقِّ واستمرار إنكارهم لَه، ممّا يُشير إلى الإصرارِ على الكُفر واجتهادهم في فكِّ الارتباطِ بينَهُم وبينَ الإيمانِ.

سِرُّ استِعجالِ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وُقوعَ السّاعَةِ:

فَسادُ عُقولِ المُشرِكينَ وانحِرافُ طِباعِهم

استِعجالُ الكُفّار حلولَ السّاعة راجعٌ إلى دَغَلٍ في عُقولِهم وانحرافٍ في طِباعِهم؛ إذ يأبَون الإذعانَ للحَقِّ، وظَنّوا أنَّ تأخيرَ العذابِ دليلُ ضعفٍ ووهنٍ، فاستعجالُهُم ليسَ عن يقينٍ مِنهُم بذلكَ، بَل هو مِن بابِ التَّهكُّم والمُكابَرَة.

سِرُّ تكرار شبه الجملة (بِها):

إبرازُ تَناقُضِ الكُفّارِ في أمْرِ السّاعَةِ

كُرِّر الجارُّ والمجرورُ (بها) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ لاختِلافِ مُتَعَلِّقه، فـ ﴿بِهَا﴾ الأولى تتعلَّق بالاستِعجالِ، وهي تقتضي استِهزاءَ الكُفّار وتَهَكُّمَهُم، فهُم يَطلبونَ تَعْجيلَ ما أنكروهُ؛ ليَجعَلوا مِنهُ مادَّةً للتَّكذيبِ، وأمّا ﴿بِهَا﴾ الثّانيةُ؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 283.

فَمُتَعَلِّقة بالإيمانِ، وهيَ تُشير إلى إنكارهم وجُحودِهِم لِلْيَقين الذي لا مَهْرَب لَهُم مِنهُ ولا محيصَ.

وبِهَذا التِّكرار يتحقَّق التَّباينُ بين الفِعلَيْن - ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ و﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ - رُغْم اتِّحادهما في الغايةِ، وهيَ السّاعةُ، مِمّا يُبرِزُ التَّناقُضَ في حالِهم: استِعْجالِهم لِما يُنْكِرونه، وإعْراضِهم عمّا يعلَمونَه حَقًّا.

وفي هذا التَّكرار أيضًا إيماءٌ إلى أَهَمّيَّة السّاعة في هذا السّياق، وأنَّ مدارَ الحديثِ إنَّما هو عَلَيْها.

دلالَةُ الواوِ في قَوْلِه: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

الـتَّـقـابُـلُ بَـيْـنَ حـالِ الـكافِرينَ والـمُـؤْمِـنـيـنَ في شَأْنِ السّاعَةِ

الواوُ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ عاطِفَةُ الجُمْلة بعدَها على الجُملة قبلَها، وهي قولُهُ سُبْحانَه: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ﴾؛ لِما بين الجُمْلَتَين مِنَ التَّوسُّط بينَ الكمالَيْنِ، لاشتراكِهما في الخَبَريَّة، ولِما بينَهُما مِنَ التَّناسُب المَعْنَويِّ، وهو التَّضادُّ، فالجملة الأولى تَذْكُر حالَ الكافرين، والثّانية تذكر مُقابِلَ ذلك، وهو حالُ المُؤمنين.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمَوْصولِ وصِلَتِهِ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الإيمانُ الرّاسِخُ سَـبَـبُ إشْـفـاقِ الـمُـؤْمِـنـيـنَ مِـنَ السّاعَةِ

جاء التَّعْبيرُ بالمَوصول وصِلَتِه في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾؛ لمَدْحِهم والثَّناء عليهم بما في حيِّز الصِّلة، ولإظْهار السَّبَبِيَّة والعِلّيَّة بين الإيمانِ ومَوْقِف أهلِه مِنَ السّاعة، فسبَبُ إشْفاقِهِم مِنَ السّاعةِ هو إيمانُهم الرّاسِخُ ويقينُهُم الكاملُ بأنَّها حقٌّ، بِحَيْثُ أدْرَكوا عظمةَ هَذا الأمرِ وجَلالَه، بخلافِ الكُفّار الذين يَسْتَعْجِلونَ السّاعة جَهْلًا واستهزاءً.

سِرُّ تَقْديمِ مَوْقِفِ الكُفّارِ مِنَ السّاعَةِ عَلى مَوْقِفِ المُؤْمِنينَ:

قُدِّم حالُ الكُفّار مع السّاعَةِ على حالِ أهل الإيمانِ مَعَها في قولِ اللّه تَعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ

التَّأكيدُ على عَظَمَةِ السّاعَةِ وخَطَرُ التَّهَكُّمِ بِها

مِنۡهَا﴾؛ لإبرازِ استِهزاءِ الكُفّار أوَّلًا وبيانِ جَهْلِهم؛ ليكونَ ذلك مَدْخَلًا للتَّبايُن معَ موقفِ أهلِ الإيمانِ وإشْفاقِهم مِنَ السّاعة، فيَتَرَقّى النَّصُّ من ذِكْرِ الجَهْلِ إلى ذِكْرِ اليَقين؛ تأكيدًا لعَظَمَةِ السّاعة وخُطورَةِ الاستِهْزاءِ بها.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

رُسوخُ الإيمانِ وأثَرُهُ في الإيقانِ بِالسّاعَةِ

جاء التَّعْبيرُ بالفِعْلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾؛ للتَّنبيهِ عَلى استِقْرارِ الإيمانِ وثُبوتِه في قُلوبِه، فَهو لَيْسَ إيمانًا عارِضًا، بَل هو حقيقَةٌ قَد تَحَقَّقت، ورسَخَت في نُفوسِهم، وبِهذا الإيمانِ صاروا يوقِنونَ بالسّاعة، ويُشْفِقون مِنها.

دلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ الإيمانِ:

أفرادُ الإيمانِ مَعْلومَةٌ لَدى المُؤْمِنينَ، وهُم مُصَدِّقونَ بِها جَميعًا

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ الإيمانِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾، فلم يُذْكَر بماذا آمَنوا؛ لِلعِلْم بِه، فَإنَّ متعلِّق الإيمانِ كان معروفًا عِندَ المُخاطَبينَ(1)، أو أنَّهُ حُذِفَ لقصدِ إفادة العمومِ، أي: آمَنوا بجميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِه.

ولا تنافيَ بينَ الدَّلالتَيْن؛ لأنَّ الإيمانَ المَعْهودَ عندَ المُخاطَبين هو الإيمانُ بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِه.

بَلاغَةُ الاحتِباكِ في الآيَة:

استِثارَةُ ذِهنِ المُتَلَقّي لاستِخراجِ المَعاني الخَفِيَّة

في قولِ اللّه تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ احتِباكٌ، وهو المُسَمّى بالحذفِ المُقابَليِّ أو بحذفِ التَّقابل، ووجهُ ذلك أنَّ اللّهَ تعالى ذَكَرَ استِعجالَ الكُفّار أوَّلًا؛ لِيَكونَ دَليلًا عَلى حَذْفِ مُقابِلِه، وهو عدَمُ استِعْجال أهلِ الإيمانِ بِها، وذَكَرَ إشْفاقَ المُؤْمنينَ مِنها؛ ليكونَ دليلًا عَلى حَذْفِ مُقابِلِه، وهو عدمُ إشفاقِ الكُفّار منها، وتقديرُ الكلامِ: يَستَعْجِلُ بها الذي

(1) رضا، تفسير المنار: 1/ 192.

لا يُؤْمِنونَ بِها، فلا يُشْفِقونَ منها، والذين آمنوا مُشفِقونَ مِنها، فَلا يَستَعجِلون بها[1].

وَهذا الحذفُ يَسْتَثيرُ عقلَ القارئ لاستِخراج المَعْنى، فَيغوصُ في أعماقِ النَّصِّ القرآنيِّ، فَتستقرُّ المَعاني في نَفْسِهِ، وتُحْدِثُ فيها أثرًا بالغًا.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالإشْفاقِ دونَ الخَوْفِ:

دِقَّـةُ الـبَـيـانِ القُرآنيِّ في انتِقاءِ الألفاظِ

جاء النَّظم القُرآنيُّ معبِّرًا بلفظ الإشفاقِ في قول اللَّه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ دون الخَوْفِ؛ لِما في الإشفاقِ من وفْرَة المَعْنى وكَثافَة الدَّلالَة؛ إذِ الإشفاقُ هو الخَوْفُ العَظيمُ[2]، الَّذي يُتوقَّع معَهُ الثَّوابُ[3]، فيكونُ في الإشفاقِ جمعٌ بين الخوفِ والرَّجاء، ومَعْنى الخوفِ أظهَرُ فيه؛ لتَعْديَته بحَرْفِ الجرِّ (مِنْ)[4]، والجمعُ بينَ الخوفِ والرَّجاء هو الحالُ الذي يَنْبَغي أن يكونَ عليهِ أهلُ الإيمانِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ ﴿مُشْفِقُونَ﴾ دونَ الفِعْلِ (يُشْفِقونَ):

الإشْـفـاقُ مِـنَ الـسّـاعَـةِ صِفَةٌ راسِـخَـةٌ في نُـفـوسِ أهـلِ الإيمانِ

عُبِّرَ عن الإشفاقِ بالاسم: ﴿مُشْفِقُونَ﴾ من قول اللَّه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ دون الفِعلِ؛ للدَّلالة على الدَّوام والاستمرار؛ ليُفيدَ ذلكَ ثباتَ صفةِ الإشفاقِ مِنَ السّاعةِ ورسوخَها في نفوسِ المُؤْمِنينَ.

دلالَةُ ارتباطِ الإشفاقِ بِالسّاعَةِ:

حِـرْصُ أهـلِ الإيـمـانِ مُـدَّةَ حَـيـاتِـهِـم عَـلى الاسـتِـكـثـارِ مِـنَ الأعـمـالِ الصّالِحَةِ

جَعل اللَّهُ تَعالى الإشفاقَ من ذاتِ السّاعة؛ لبيانِ عِظَم أهوالِها، حتّى كأنَّما أحوالُها المُرَوِّعة هي عينُ وُجودِها، على نَحْو ما يُسنَد الحكمُ أو أثَرُه إلى الأعيانِ نَفْسِها، فالمُؤْمِنون - وهُم يَخشَونَ هول ذلك اليوم - يَجْعَلونَ مِن طاعَتِهِم وتَقوى اللَّهِ سُبحانَهُ وسيلَةً لِلنَّجاة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 283، والقِنَّوجي، فتح البيان: 12/ 291.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 283.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 28.

(4) حقي، روح البيان: 8/ 302، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 27، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 26 - 27.

مِن أهوالِه، ولذا لا يَستَعجِلون قدومَ السّاعة، بَل يَحْرِصون مُدَّة بَقائِهم في الدُّنيا على العمَلِ الصّالح[1].

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ (مِنْ) في ﴿مِنۡهَا﴾:

خَوفُ أهلِ الإيمانِ مِنَ السّاعَةِ مَقْرونٌ بِعِنايَتِهِم واهتِمامِهِم بِها

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في ﴿مِنۡهَا﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ يدلُّ على ظُهور معنى الخوفِ والرَّهبة مع قرينة التعبير بـ ﴿مُشۡفِقُونَ﴾ أيضًا، فالمُؤْمِنون يُظْهِرون خوفَهم الشَّديد مِن هَوْلِ السّاعة مع العِنايَة والاهتمام بِها، إلّا أنَّ الخَوْفَ أظهَرُ؛ لأنَّ (مِنْ) تُبْرِزُ التَّحرُّز مِمّا يُخْشى مِنْهُ... فالتعدية بحرف (مِنْ) أظهر لمعنى الخوف، وفي التعدية بحرف (في) يكون معنى العناية أظهر[2].

دلالَةُ العَطْفِ في ﴿وَيَعۡلَمُونَ﴾:

إشفاقُ أهْلِ الإيمانِ مِنَ السّاعَةِ إشفاقٌ عَن يَقينٍ راسِخٍ بِها

عُطِفَت جُملة: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ مِن قول الله سُبْحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ على ﴿مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ إشفاقَ المُؤمنين من السّاعة إشفاقٌ عن يقينٍ راسخٍ وجزْمٍ تامٍّ، لا عَن شُكوكٍ أو تَخْمينات، فَهُم لا يَخْشَونَها بناءً على تَرَدُّدٍ وخشيةٍ أن يَكْشِف الواقعُ عَن صِدْق الخبَر بها، بل إنَّهم عَلى علم ويقينٍ بأنَّ السّاعة حقٌّ لا شَكَّ فيه[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالعِلْمِ دونَ المَعْرِفَةِ:

في التَّعْبيرِ بالعِلْمِ تأكيدٌ لِحَقيقَةِ الإيمانِ

عُبِّر بالعِلْم دونَ المَعْرفة في قولِ الله ﷻ: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾؛ للدَّلالة على يقينِ أهلِ الإيمان وجَزْمِهم[4] بأنَّ السّاعة حقٌّ لا ريبَ فيها، بخلافِ ما لو جاءَ التَّعبير بالمَعْرِفَة؛ فإنَّ المَعْنى يتَّسِع؛ ليَشْمَلَ الظَّنَّ واليقينَ معًا، واحتمالُ الظَّنِّ في العِبارة يُضْعِفُ مَدْحَهُم والتَّنويه بشأنِهِم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 70.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 27.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 70.
(4) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 26/ 71.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ (يَعْلَمونَ):

دَوامُ يَقينِ المُؤمِنينَ بِالسّاعَةِ

عُبِّر بالفعلِ المُضارِع (يَعْلَمونَ) مِن قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾؛ للدَّلالَة عَلى استِمْرارِ عِلْم المُؤْمنينَ ويَقينِهم بأنَّ السّاعة حَقٌّ، فليسَ هو بعِلْم عارِضٍ، بل هو يقينٌ ثابتٌ ملازِمٌ لَهُم في حاضِرِهِم، لا يَنْفَكُّ عَن قُلوبِهم، ولا يَغيبُ عَن وعْيِهم، وذلكَ ممّا يَجْعَلُ السّاعة كأنَّها شاخصةٌ أمامَ أعيُنِهم، لا يَنسَونَها، ولا يغفُلون عَنْها.

دلالَةُ التَّأْكيدِ في قَوْلِهِ: ﴿أَنَّهَا﴾:

أُكِّد قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ بـ (أنَّ)؛ إبرازًا ليَقين أهلِ الإيمانِ وجَزْمِهم بِكَوْنِ السّاعَةِ أمرًا ثابتًا حقًّا لا شَكَّ فيهِ، وفي ذلك مدْحٌ لَهُم على رسوخِ إيمانِهم[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿ٱلۡحَقُّۗ﴾:

إثْباتُ يَقينيَّةِ السّاعَةِ

عُبِّر عن السّاعة بلَفْظِ ﴿ٱلۡحَقُّۗ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ دون غيرِه مِنَ الألفاظِ المُقارِبَة لدِلالَتِه على اليقينِ الثّابتِ الَّذي لا شَكَّ فيه ولا احتمالَ لِزَوالِه، ممّا يَجْعَلُه أبلغَ في إثباتِ حقيقة السّاعَة وأقوى في بيانِ إيمانِهم المُتَجَذِّر الرّاسِخ بِها.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿ٱلۡحَقُّۗ﴾ مُعَرَّفًا:

ظُهورُ أدِلَّةِ السّاعَةِ ظُهورًا كامِلًا لا خَفاءَ مَعَهُ

عُرِّف لفظُ ﴿ٱلۡحَقُّۗ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ تَعريفَ الجنسِ؛ لإفادَةِ قَصْرِ المُسْنَد على المُسْنَد إليه قَصْرًا إضافيًّا؛ مُبالغةً لكمالِ الجِنْسِ في المُسْنَد إليهِ، والمَعْنى: أنَّهُم يوقِنون بأنَّ السّاعة هي الحقُّ كلُّ الحقِّ، الثّابتَةُ ثباتًا كاملًا لا انقضاءَ لَهُ ولا زوالَ، وذلك لظُهورِ أدلَّةِ وُقوعِها حتّى كأن لا حقَّ غَيْرُها[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسميَّةِ المؤكَّدة ﴿أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾:

جاءَ التَّعبير بالجُمْلة الاسميَّة المؤكَّدة ﴿أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾؛ لإفادَةِ

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 27.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 284، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 70.

الثُّبوت والاستمرار؛ إذ إنَّ ذلك يُشير إلى أنَّ السّاعَةَ حقيقَةٌ ثابتَةٌ راسخَةٌ لا يَدْخُلُها شكٌّ بوجهٍ مِنَ الوُجوه.

سِرُّ تَقْديمِ الإشفاقِ عَلى العِلْمِ في الآيَةِ:

الإشفاقُ ثَمَرَةُ اليَقينِ

قُدِّم الإشفاقُ على العلم في قول الله سُبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾؛ للتَّنبيهِ عَلى أنَّ الخوفَ والخَشية مِن أهوالِ السّاعة هي أَوْلى أحوالِ العُقلاء، ممّا يَجْعَلُ الإشْفاق دافعًا للإيمانِ والبُعد عَن الغفْلة، ثُمَّ جاء العِلْمُ بَعْدُ؛ تأكيدًا بأنَّ الإشفاقَ ليسَ ناشِئًا عن جهلٍ، بل هو إشفاقٌ مَبْنيٌّ على بصيرة ويقينٍ راسخٍ بأنَّ السّاعةَ حَقٌّ[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَآ﴾:

شَدُّ انتِباهِ السّامِعينَ إلى أهَمّيَّةِ ما يُقالُ

صُدِّرت الجملَةُ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ بِحَرْفِ الاستِفتاحِ ﴿أَلَآ﴾؛ لإرادَةِ التَّأكيدِ والتَّنبيه لقَصْدِ العِنايَةِ بالكَلام، وشَدِّ انتباهِ السّامِعين وتَوْجيههِم إلى أهمّيَّة ما سَيُقالُ[2].

بَلاغَةُ التَّذْييلِ في الآيَةِ:

بَيانُ ضَلالِ المُكَذِّبينَ بِالسّاعَةِ وهِدايَةِ الموقِنينَ بِها

قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ تذييلٌ لِما تَقَدَّمها، ظاهِرُه الصَّريح إثباتُ ضلالِ المُكَذِّبين بالسّاعَة، وكِنايَتُه إيماءٌ إلى هدايَةِ المُؤْمنين الموقِنين بها، فجاءت هذهِ الآيَةُ جامِعةً مُظْهِرَةً الفَرْقَ بينَ الفَريقَيْن[3].

دلالَةُ التَّأْكيدِ بِـ ﴿إِنَّ﴾:

مآلُ المُمارينَ في السّاعَةِ إلى الضَّلالِ المُبينِ

أُكِّد قولُ اللّهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾؛ لإبرازِ قوَّة الحُجَّة وثُبوت الحُكْم؛ تأكيدًا بأنَّ الضَّلال المُبين هو المَصيرُ المُحَقَّق للمُمارينَ في شأنِ السّاعة.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 283.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 71، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 26/ 71.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 70.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمَوْصولِ وصِلَتِهِ ﴿ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ﴾:

الإشارَةُ إلى عِلَّةِ انحِرافِهِم وسَبَبِ ضَلالِهِم

جاء التَّعْبيرُ عَنِ المُشْرِكينَ بالمَوْصولِ وصلَتِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ﴾ في قولِ الله سُبْحانَه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ هؤلاء المُشْرِكين مَشْهورونَ بالمُماراةِ في شأنِ السّاعة مَعْروفون بِهَذا الفِعْلِ الذَّميم، وذِكْرُهُم بِهَذِهِ الصِّفَةِ دونَ سِواها يدُلُّ على أنَّها أظْهَرُ خِصالِهِم وأقبَحُها.

وفي التَّعبير بالمَوْصولِ وصِلَتِهِ أيضًا إيماءٌ إلى سبَبِ انحِرافِهم وعلَّة ضلالِهم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿يُمَارُونَ﴾ دونَ (يُجادِلونَ):

مُبالَغَةُ المُشْرِكينَ في التَّشْكيكِ بِأمْرِ السّاعَةِ

جاء التَّعبير بالمُماراةِ في قولِ اللهِ سُبْحانَه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ دون المُجادلَة؛ لِما تدُلُّ عليه المُماراة منَ التَّشكيك واللَّجاجةِ الشَّديدة[1]، فهُم يُبالِغون في الخُصومة، ويَشْتَدّون في اللَّجَج، وهذه المَعاني لا تُعْطيها لفظَةُ الجِدال.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُمَارُونَ﴾:

بَيانُ عِنادِهِمُ المُتَجذِّرِ فيهِم

عُبِّرَ عن المُماراةِ بالفِعْلِ المُضارع ﴿يُمَارُونَ﴾ في قول اللهِ تَعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ للدَّلالة على استِمْرارِ حالِهِم في المُماراة ودَوامِهِم عَلَيْها، وذلك يُبْرِزُ عِنادَهُم المُتأصِّل فيهِم وتَشَبُّثِهِم بالباطِلِ، وكذلك فإنَّ التَّعبير بالفعل المضارع يفيد أيضًا استحضار صورتهم، وهم يمارون في شأن السّاعة.

سِرُّ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

تَعْظيمُ شَأْنِ السّاعَةِ وتَهْويلُ أمْرِها

في قول اللهِ سُبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضمارِ، وذلك لأنَّ مُقْتَضى الظّاهر أن يَرِدَ في النَّظم القرآنيِّ: (ألا إنَّ الذين يُمارون فيها)؛ لِتَقَدُّمِ التَّصريح

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 284.

بالسّاعةِ قبلُ في قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، وأُضمِرَت بعدُ في مواضِعها الأربعة: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾، وأُظهِرَت في قَوْلِه: ﴿يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ﴾؛ تعظيمًا لأمْرِها وتهويلًا لشَأْنِها، كما أنَّ في الإظهارِ إيقاظًا للقُلوب وتَنْبيهًا للعُقول.

دلالَةُ اللّامِ في ﴿لَفِي﴾:

لُـزومُ الـضَّـلالِ لِـلـمُـكَـذِّبـيـنَ وتَحَقُّقُهُ فيهم

اللّامُ في ﴿لَفِي﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٍ﴾ هي اللّام المُزحلقة[1]، وهي مؤكِّدة للجملة، وذلك يَقْتضي أنَّ الضَّلال الذي وُصِف به المُكذِّبون أمْرٌ لازم لَهُم متحقِّق فيهم.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿لَفِي ضَلَٰلِۢ﴾:

إحاطَةُ الضَّلالِ بِالمُشْرِكينَ مِن كُلِّ جانِبٍ

حرفُ الجرِّ (في) من قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٍ﴾ دالٌّ على الظَّرْفيَّة، وهي هنا ظرفيَّة مجازيَّة؛ إذ شُبِّه الضَّلال بالظَّرف لهم، وذلك لتمام تلبُّسِهم به وانْغِماسهم فيه، كوقوع المَظْروف في ظرفه[2]، فكان الأسلوبُ مُصَوِّرًا حالَهم بأنَّهم غارقون في الضَّلال غَوْصًا كاملًا، بحيثُ أحاطَ بِهِم الضَّلال مِن كُلِّ جانِبٍ، وهَذا يُبْرِزُ بُعْدَهُم عنِ الحقِّ، وانحِرافَهُم عَن جادَّة الصَّواب.

سِرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بِوَصفِ الضَّلالِ:

شِـدَّةُ انـحِـرافِ الـمُـكَـذِّبـيـنَ بِالسّاعَةِ

اختير وصفُ الضَّلالِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٍ﴾؛ لِما يَدُلُّ عليهِ اللَّفْظُ مِن شِدَّةِ الانحِراف والبُعد عن سواءِ الصِّراط، وذلك هو أنسَبُ لِما اتَّصف به المُكذِّبون مِن مُماراتِهِم في أمرِ السّاعة.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 25.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 71.

دلالَةُ التَّنْكِيرِ في ﴿ضَلَٰلٍ﴾ و﴿بَعِيدٍ﴾:

بُعْدُ المُشْرِكِينَ عَنِ الحَقِّ بُعْدًا لا تُرْجى مَعَهُ هِدايَتُهُم

نُكِّر لفظُ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ و﴿بَعِيدٍ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعْظيم والتَّهْويل؛ وذلك يقتضي أنَّ ضلالَهُم ليسَ عارضًا بل هو ضلالٌ مَهولٌ عظيمُ الشَّأن، وأنَّ بُعدهم عن الصَّواب بُعدٌ شديد جدًّا، لا يُرجى معهُ هُدًى[1].

سِرُّ وصْفِ الضَّلالِ بِالبُعْدِ:

انحِطاطُ فُهومِ المُشْرِكِينَ عَن إدْراكِ الأدِلَّةِ الظَّاهِرَةِ

وُصِفَ الضَّلال بالبُعْدِ في قول الله سُبْحانَه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾؛ لأنَّ السّاعة وما فيها مِنَ البَعْث أشبَهُ المُغَيَّباتِ بالمَحسوساتِ؛ إذ إنَّه يُشْبِهُ إحياءَ الأرضِ بعدَ مَوْتِها، فَمَن لَم يهتَدِ إلى إمكانِهِ وتجويزِه؛ فَهو مِنَ الاهتداءِ إلى ما وراءَ ذلكَ أبعدُ[2].

بَلاغَةُ المَجازِ في قَوْلِهِ: ﴿ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾:

المُبالَغَةُ في بَيانِ شِدَّةِ انحِرافِ المُشْرِكِينَ

وُصِفَ الضَّلال بالبُعد في قول الله سُبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ من باب المَجاز العقليِّ؛ إذِ البُعدُ في الحقيقة للضّالِّ؛ لكونِه المُتباعدَ عن السَّبيل[3]، فوُصِفَ فِعْلُه بالبُعدِ؛ مبالغةً في بيان شدَّة انحرافه، وهذا الوصفُ يُصَوِّر عِظَم ضَلالِهم بحيثُ يَعْسُر معَهُ رُجوعُهُم إلى الهُدى[4].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الإشْفاقُ والخَوْفُ:

الإشفاقُ أخَصُّ مِنَ الخَوْفِ

الخَوْفُ: انفعالٌ يَحْصُل بتَوَقُّع ما فيه هلاكٌ أو ضررٌ أو أذًى[5]، والإشفاقُ هو الخَوْفُ العَظيم[6] الذي يُتوقَّع معَهُ الثَّوابُ[7]، فيكونُ في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 285.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 28، وحقي، روح البيان: 8/ 303.
(3) حقي، روح البيان: 8/ 303، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 26/ 72.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 71.
(5) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلتها، ص: 56.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 283.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 28.

الإشفاقِ جمعٌ بين الخوفِ والرَّجاء، ولذا يردُ الإشفاقُ أيضًا دالًّا على خوفٍ مَقْرونٍ بالمَحَبَّة والرَّحْمَة.

المِرْيَةُ والشَّكُّ والرَّيْبُ:

المِـرْيَـةُ شُـكـوكٌ مُتَجَدِّدَةٌ

الشَّكُّ: وقوفُ النَّفس بين شَيئَين مُتَقابِلَين مِن دون أمارَةٍ مُرَجِّحةٍ بينَهُما، والرَّيبُ: أن يُتَوَهَّم في الشَّيء أمرٌ ما، ثُمَّ يَنْكَشِفَ عمّا تُوُهِّم فيه[1]، والامتِراء: استِخراجُ الشُّبَه المُشْكِلَةِ لإدخال الشَّكِّ على المُجادل، ثُمَّ سُمّي الشَّكُّ مريةً[2].

فالمِرْيَة شُكوكٌ مُتَجَدِّدة، وهي أشَدُّ مِن مُطْلَق التَّردُّد بين أمرينِ.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/ 115.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 99، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 71.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾

[الشورى: 19]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لُطْفُ اللهِ تَعالى بِالعِبادِ

لَمّا ذكَر اللّه تعالى شأنَ الكفّار والمُؤمنين معَ السّاعةِ، وكان حاصلُ أمرِ الفَريقَيْن أنَّه سُبْحانَه أظْهَر خوفَ الكافِرين في قمَّة الأمنِ وغايتِه، وأبطَنَ أمنَ أهلِ الإيمان في أعظمِ مواقِف الخَوْف، وكان هذا عينَ اللُّطف الإلهيِّ؛ بيَّن ﷻ ذلك بقولِه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَطِيفُۢ﴾: (لطف) تدُلُّ اشتِقاقاتُه عَلى رِفْقٍ، ويدُلُّ على صِغَرٍ في شيءٍ، ومِنْهُ اللُّطْفُ، وهو الرِّفق في العمَلِ[2].

ومنهُ اللَّطيفُ من أسماءِ اللهِ سُبْحانَهُ: الذي يَلْطُفُ بعَبْدِهِ فيما تَعَلَّق بنفسِه، ويَلْطُفُ بِه في الأُمورِ الخارِجَةِ عَنْهُ، فَيَسوقُهُ ويَسوقُ إليهِ ما بِه صَلاحُهُ من حيثُ لا يَشْعُرُ، وهَذا من آثارِ عِلْمِه وكرَمِه ورَحْمَتِه؛ فَلِهَذا كانَ مَعْنى اللَّطيفِ نَوْعَين:

أوَّلُهُما: أنَّه الخَبيرُ الذي أحاطَ عِلمُه بالأسرارِ والبَواطِنِ والخَبايا والخَفايا، ومَكْنوناتِ الصُّدور، ومُغَيَّباتِ الأمورِ، وما لَطُفَ، ودقَّ من كُلِّ شيءٍ.

والآخَر: لُطْفُهُ بعَبْدِه ووليِّه الَّذي يُريدُ أن يُتمَّ عليه إحسانَهُ، ويَشْمَلَهُ بكرمِه، ويُرقِّيَه إلى المنازلِ العاليَةِ، فيُيَسِّرُه لليُسرى، ويجنِّبُهُ العُسْرى، ويُجْري عليهِ من أصنافِ المِحَنِ الَّتي يَكْرَهُها، وتَشُقُّ عليهِ، وهيَ عينُ صلاحِهِ والطَّريق إلى سَعادَتِه[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 285.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لطف).

(3) القحطاني، الثمر المجتنى، ص: 44.

1) ﴿يَرۡزُقُ﴾: (رزق) تدلُّ تصريفاتُه على معنى العَطاء[1]، مِن قولهم: رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا، والمَصدَر: الرَّزْقُ - بفتح الرّاءِ - والرِّزْقُ - بالكسر - هو الاسمُ، وقد يُستعمل بمعنى المَصدَر[2]، ويُطلق الرِّزقُ إطلاقاتٍ متعدِّدةً، مِنها[3]: العطاءُ الجاري، ومِنْهُ قوله: رَزَقَ السُّلطانُ جُنْدَه، ومنها: ما يَصِل إلى الجَوْف، ويُتَغذّى به، ومِنْهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لَوْ أنَّكم تَوَكَّلْتُم عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِه؛ لَرَزَقَكُمْ كَما يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدو خِماصًا، وتَروحُ بِطانًا»[4]، ومنها: كُلّ خَيْرٍ وصَلَ إلى صاحِبه، ومِنْهُ قَوْلُهُم: رَزَقَ اللهُ فلانًا عِلْمًا.

وحَمْلُ الرِّزْقِ في الآيةِ على العُموم أَوْلى وأَنْسَبُ لبلاغة القرآنِ القائمةِ على وفرة المعاني، فيكون الرِّزْقُ شاملًا لكلِّ ما تقدَّمَ.

2) ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾: (قوي) تدورُ كثيرٌ مِن تصريفاتِه على شدَّةٍ وضِدِّ الضَّعْفِ، ومِنْهُ القوَّةُ، والقويُّ: ضدُّ الضَّعيفِ[5]، وتُستعمَلُ القوَّةُ في البَدنِ، كقَوْلِه تَعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: 15]، وفي القَلْبِ، كقولِهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم: 12]، وتُستعمَلُ في المُعاوِنِ مِن خارجٍ، كقولِه: ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ [هود: 80]، وفي القُدْرَةِ الإلهيَّةِ، كقولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: 21][6].

واسمُ اللهِ تَعالى القَويُّ: المَوصوفُ بالقوَّة الكاملة[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَوْسيعُ الـرِّزْقِ وتَقْديرُ الضّيقِ راجِعٌ إلى حِكْمَةِ اللهِ سُبْحانَهُ

يُبَيِّنُ اللهُ تَعالى مُنْتَهى لُطفِه وكرمِه بعِباده؛ إذ يوَسِّع الرِّزقَ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رزق).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 1/ 82.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: 2/ 87، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 324.
(4) رواه التِّرمذي، برقم: 2344، وابن ماجَه، برقم: 4164، وهو صَحِيحٌ كما في السِّلسلة الصَّحيحة، برقم: 310.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوي).
(6) الرّاغب، المفردات الكريم: (قوي).
(7) القحطاني، الثمر المجتنى، ص: 22.

من يشاءُ مِن عباده وفقَ حِكْمَتِه البالغَة، ويُقَدِّر الضّيق على من يشاء بعَدْلِه الذي لا يُجارى، وهو سُبْحانَه ذو القوَّة القاهرة التي لا تُضاهى، العزيزُ في انتقامِه مِمَّن يتمَرَّد على أمرِه، ويَعْصيه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هَذِهِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

شِـدَّةُ ارتِبـاطِ النَّـتـيـجَـةِ بِمُقَدِّماتِها

فُصِلَ قولُ اللّه سُبْحانَه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لكونِ الآية مُسْتَأنَفَةً استئنافًا ابتدائيًّا، وهي مقدِّمَةٌ لاستئنافِ الجملة الموطِّأ لَها، وهيَ قولُه تَعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾[2].

ويجوز أن تكون الجملةُ فُصِلَت عمّا قبلها؛ للاستئناف البيانيِّ لوُقوعِها نتيجةً لِما قبلَها، وشأن النَّتيجة ألّا تُعْطَفَ على ما تقدَّمها[3].

سِرُّ تَصْديرِ الآيَةِ بِالاسْمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

دلالَــةُ الاسْـمِ الأحْسَنِ (اللهِ) عَـلى تَـفَـرُّدِهِ سُبْحانَهُ بِالرِّزْقِ والعَطاءِ

صُدِّرت الآية الكريمَة: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ بالاسم الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ رِزْقَهُ وعطاءَه صادرٌ عن ذاته سُبْحانَه الذي له صفاتُ الجَلال والجمالِ والكَمال، فهو الذي لهُ الأمر كلُّه[4]، اللَّطيف في تَدْبيرِه، الحكيمُ في تَصَرُّفه، القويُّ العزيزُ في سُلْطانِه، الَّذي يرزُقُ مَن يشاءُ بما يشاءُ.

دلالَةُ الإظْهارِ دونَ الإضْمارِ:

إدْخـالُ المَهابَةِ عَلى التَّلَقّي بِذِكْرِ الاسْمِ الأحْسَنِ (الله)

في قول اللّه سُبْحانَه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ إظهارٌ في مقام الإضْمار؛ إذ مُقْتَضى الظّاهر أنْ يُذكر اللّه ﷻ بالاسم المُضْمَر؛ لتَقَدُّم ذِكْره صريحًا قبلُ في قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾؛ وذلِكَ لِبُعْد العَهْد به بسبَبِ طولِ الفصلِ، ولأنَّ في

---

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 485.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 71.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 285.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 285.

الإظهارِ إدخالَ الهَيْبَة على المتلقّي بذِكْرِ اسم اللّه تعالى صَراحَةً، بخِلاف الاسمِ المُضْمَر فإنَّه لا يُعْطي هذا المَعْنى، ولا يدُلُّ عليهِ.

سِرُّ اخْتيارِ وصْفِ (اللَّطيفِ):

تأخيرُ اللهِ تعالى العَذابَ عمَّن استوجَبَهُ مِن لُطفِهِ سُبحانَهُ

أُخبِر عنِ اللّه تعالى باللُّطف في قولِه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ دون غيرِه منَ الأوْصافِ؛ لأنَّه لمّا ذُكِرَ إنزال الكتابِ عليهِم في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾، وهو مُشْتَمِلٌ على الأدلَّة اللَّطيفة؛ كان ذلكَ مِن لُطْفِ اللّه ﷻ، ثُمَّ إنَّ المُمارين في أمرِ السّاعة مُسْتَوْجِبون العذابَ الشَّديد، ولكنَّه سُبْحانَه أخَّر عنهم العذابَ، فكانَ ذلك مِن لُطْفِهِ تعالى بِهِم[1].

سِرُّ تَنْكِيرِ لَفْظِ ﴿لَطِيفُۢ﴾:

شُمولُ لَفظِ (لَطيف) لِجَميعِ مَعاني اللُّطْفِ

نُكِّر ﴿لَطِيفُۢ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على التَّفخيم والتَّعظيم؛ ليَشْمَلَ كُلَّ معاني اللُّطْفِ، فَهو لطيفٌ عظيمُ اللُّطف بالعبادِ، يُفيضُ عليهِم مِن ضُروب اللَّطافة ما لا يُحْصى[2].

دلالَةُ صيغَةِ (فَعيلٍ) في ﴿لَطِيفُۢ﴾:

وردَ اسمُ اللَّطيف على زِنَة فَعيلٍ في قولِ اللّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، وهو مِن أوزانِ المُبالغَة؛ للدَّلالة على كمالِ صِفة اللُّطف وتمامِها، وسَعَتِها وعُمومِها[3].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالجُمْلَةِ الاسميَّةِ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ﴾:

دَوامُ لُطْفِ اللهِ تَعالى بالعِبادِ واستِمْرارُهُ

عُبِّر بالجُمْلَةِ الاسميَّة في قولِه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، فلم يَرِد مثلًا: (يَلْطُفُ اللّه بعباده)؛ لِما في الجملةِ الاسميَّة من الدَّلالة على الثُّبوت والدَّوام والاستمرارِ، وذلك مُؤَكِّدٌ كمالَ اللُّطف وشمولَهُ، وهو أظْهَرُ في تَجَلّي معاني رعايةِ اللّه تعالى بالعبادِ وعِنايَتِه بِهِم.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 590.

(2) حقي، روح البيان: 8/ 303، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 27، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 26/ 91.

(3) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 26/ 91.

ويُقَوّي هذه الدَّلالةَ التَّعبيرُ عَن لُطفِ اللّه تعالى بالاسم دون الفِعل؛ فلَمْ يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (اللّه يلطُف بعباده)؛ لإفادة دوام لُطْفِ اللّه بالعبادِ مِن غيرِ انقطاعِ ذلك عَنْهُم.

دلالَةُ الباءِ في ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾:

تَخصيصُ أهلِ الإيمانِ بِكَمالِ العِنايَةِ

الباءُ في ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ مِن قول اللّه سُبْحانَه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ هي باء المصاحبة والملابسة، فلُطْفُه مصاحبٌ لعباده، لا ينفكُّ عنهم، ويمكن أن تكون باءَ التَّخصيص[1]، فاللُّطفُ وإن كان عامًّا لجميع المَخلوقات؛ إلّا أنَّ أثره أكثرُ ظُهورًا في أهلِ الإيمانِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالعِبادِ دونَ العَبيدِ:

تَشْرِيفُ اللهِ تَعالى لأهْلِ الإيمانِ

العبادُ والعبيدُ كلاهما جمعُ عَبْدٍ، إلّا أنَّ العبادَ جَمْعُ عَبْدٍ، الذي هوَ العابِدُ، أمّا العبيدُ؛ فهو جَمْعُ عبْدٍ، الذي هوَ خلافُ الحُرِّ، وأمّا في الاستعمالِ القُرآنيِّ، فَيَرِدُ لفظُ (العباد)؛ للإيماءِ إلى عِباد اللّه الطّائعين المُخْلِصينَ لَهُ العبادَةَ غالبًا، ولذا يَنْسِبُهُم اللّهُ سُبحانَهُ إليهِ تشريفًا لَهُمْ[2]، كما في الآيَة: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

دِلالَةُ الإضافَةِ في قَوْلِهِ ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾:

عُمومُ لُطْفِ اللهِ تَعالى وإحْسانِهِ إلى العِبادِ

أُضيف لفظُ (عباد) إلى الضَّمير الرّاجع إلى اللّه سُبْحانَه في قولِه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾؛ لإفادَةِ العُموم، فلُطْفُه وإحسانُه عامٌّ للعباد كلِّهم[3]، وجوَّز بعضُ أهل العلم أن تكون الإضافةُ دالَّةً على التَّشريفِ، فيكون لفظُ العِباد مخصوصًا بِمَن اصطَفاهم اللّه سُبْحانَه من أهلِ الإيمان[4]، ويُؤَيِّد ذلك أنَّ لفظَ (العِباد) يَرِدُ في غالب الاستعمالِ القُرآنيِّ مُرادًا به أهلُ الإيمانِ والطّاعة[5].

(1) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 71.
(2) الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 308 - 309.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 8/ 304.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 207.
(5) الدوري، دقائق الفروق، ص: 308 - 309.

سِرُّ فَصلِ جُملَةِ ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ عمّا قَبْلَها:

تَوسيعُ اللهِ تَعالى الرِّزْقَ أو تَضييقُهُ تابِعٌ لِحِكْمَتِهِ سُبْحانَهُ

فُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ عمّا قبلَه؛ لِما بينَهُما من شِبْهِ كمالِ الاتِّصال، وهو المُسَمّى الاستئنافَ البيانيَّ، فالجُمَلَةُ الثّانية واردَةٌ جوابًا عَن سُؤالٍ يُثيرُهُ قولُه سُبْحانَهُ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، فإنَّ مِن أظهَرِ ما يكونُ اللُّطْفُ في الرِّزق؛ إذ إنَّ اللّهَ ﷻ يوسِّع على مَن لا حيلةَ له، ويُضَيِّق على مَن هو في غاية القوَّة والقُدرة، فأورثَ ذلك عندَ المُتلقّي سُؤالًا عن كيفيَّة اللُّطف، وجاء جوابُ ذلكَ في قوله تَعالى: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالرِّزْقِ:

اللُّطْفُ في الرِّزْقِ مِن أظْهَرِ تَجَلّياتِ اسمِ اللهِ تَعالى (اللَّطيفِ)

عُبِّر بالرِّزق بعد ذِكْرِ لُطف اللّه سُبْحانَه في قَوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ لأنَّ مِن أبين مظاهرِ لُطْفِ اللّه ﷻ بالعباد كائنةً في الرِّزق، فنُصَّ عليه لِذَلِكَ[2].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ عَنِ الرِّزْقِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ:

جاء التَّعبيرُ عن الرِّزق بالفِعْلِ المُضارع في قول اللّه ﷻ: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ لإبراز استمرارِ الرِّزق وتجدُّده، فإنَّ رزْقَ اللّه تعالى العبادَ متجدِّد لا ينقطعُ عَنْهُم بحالٍ.

دَفْعُ تَوَهُّمِ العُمومِ والخُصوصِ في قَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾:

اللُّطْفُ الكامِلُ خاصٌّ بِأهْلِ الإيمانِ، ولِغَيْرِهِم نَصيبٌ مِنْهُ

قُيِّد اللُّطف بالعبادِ في قول اللّه سُبْحانَه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾؛ لتَخْصيصِ اللُّطف بأهلِ الطّاعة، وما يُرى على الكفّار مِنَ النِّعم ليس بلطفٍ، وإنّما هو من إملاء اللّه تعالى لَهُم، إلّا ما كان مآلُهُ المَوتَ على الإسلامِ[3]، فكان تقييدُ اللُّطف بالعبادِ دفعًا لتوهُّم العمومِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 286.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 286.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 27.

وفي قولِهِ تَعالى: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ بيانٌ لعُموم رِزْقِ اللّه سُبْحانَه، والاسمُ المَوْصول ﴿مَن﴾ مِن ألفاظ العموم، وفي هذا التَّعبير دفْعٌ لإيهام تخصيصِ رِزْقِ اللّه تعالى بأهلِ الطّاعة المُشار إلَيْهم قبلُ بلَفْظِ (العباد)، وذلك لأنَّ رزْقَ اللّه تعالى عامٌّ لكلِّ أحدٍ.

ويَحْتَمِل العكسَ، وهو العمومُ في اللُّطف، والخصوصُ في الرِّزق، ووجهُ ذلكَ: أنَّ لفظَ العبادِ في قول اللّه سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ جمعُ مضافٍ، فيدلُّ على العموم، ويدخل فيهم الطّائعون والكُفّار، إلّا أنَّ لطْفَ اللّهِ تَعالى بالكفّار لطْفٌ دنيويٌّ لتقوم به معايشُهم، وأمّا الرِّزق؛ فقَيَّدَهُ اللّه تعالى بمَن يشاءُ رِزْقَهُ، فكان بهذا الاعتبار خاصًّا، وهو سبحانه، وإن كان رزْقُه عامًّا لكلِّ خلقِه إلّا أنَّ اللَّفظَ قُيِّد بالمَشيئة، وعند التَّأمُّل لا تنافيَ بينَ المَعنَيَيْن؛ لأنَّ اللُّطف الكامل إنَّما هو بالعبادِ الطّائعين أهلِ الإيمان والتَّقوى، ولغيرهم نصيبٌ مِن هذا اللُّطف، ورزْقُ اللّه تَعالى عامٌّ لكلِّ الخلق، ولكنَّ ذلك حاصلٌ بمشيئَتِه سُبْحانَهُ قلَّةً وكثرةً.

دلالةُ العَطْفِ في قَوْلِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾:

تَمْجيدُ اللّهِ تَعالى بِالقوَّةِ والعِزَّةِ دَفْعًا لِتَوَهُّمِ ما لا يَنْبَغي

قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ تمجيدٌ للّه سُبْحانَه بهَذَيْن الوَصْفَيْن، وعُطف على صِفَةِ ﴿لَطِيفُۢ﴾، أو على جملة: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ لإفادة الاحتراسِ مِن تَوَهُّم أن يكون لطفُه بسببِ عجزٍ أو مُصانعةٍ، فبيَّن أنَّه ﷻ قويٌّ عزيزٌ لا يعجز، ولا يُصانع، ولإفادة الاحتراس أيضًا مِن توهُّم أن يكون رزقُه لِمَن يشاء بسبب شحٍّ أو قلَّةٍ، فإنَّه سُبحانه القويُّ، ومَن كان كذلكَ تَنْتَفي عنه أسباب الشُّحِّ، وهو العزيزُ، ومَن كانَ هذا وصفَهُ؛ تَنْتَفي عنه أسبابُ القلَّة، فرِزْقُهُ سُبْحانه عامٌّ لكلِّ الخلق، ولكن يَقِلُّ ذلك، ويَكْثُر بحسَب ما تقتضيه حكمتُه ﷻ(1).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 73.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالضَّميرِ (هوَ):

شُهْرَةُ اللهِ سُبْحانَهُ بِالقوَّةِ والعِزَّةِ

جاء التَّعبيرُ بالضَّمير في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ لتقدُّم التَّصريح بمَرْجِعِه قبلُ في قولِه سُبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، ولأنَّ الضَّمير أوجَزُ مِنَ الاسم الظّاهر، ولِما في الضَّمير مِنَ الإشارة إلى شُهْرَة اللّه تعالى بالقوَّة والعِزَّة بحيث إنَّ ذلك يُغْني عن تَكرار الاسمِ الأحْسَنِ.

سِرُّ اختيارِ وصْفِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ بَعْدَ ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾:

التَّدَرُّجُ البَلاغيُّ في سَرْدِ الأوْصافِ

في اختيار وصفِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ بَعْدَ ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾ في قول اللّه تَعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ تدرُّج بلاغيٌّ في إيراد الأوصاف، فإنَّ ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾ يُشير إلى القُدرة المُطلقة التي لا تُقْهَر، وتعقيبُه بـ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ القوَّة ليست قوَّة مجرَّدة، بل هي قوَّة مطلقة مقرونةٌ بسلطانٍ لا يُردُّ، ولا يُقاوم.

دلالَةُ الجَمعِ بَيْنَ وصفَي القوَّةِ والعِزَّة:

القوَّةُ والعِزَّةُ صِفَتانِ ذاتيَّتانِ لا تَنْفَكّانِ عَنِ اللهِ تَعالى

جُمِع بين وصفَي القوَّة والعزَّة في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ ليكونَ ذلك أنسبَ لِما تقدَّم من ألفاظ الآية، وذلك لأنَّ ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾ مناسبٌ لعُموم لُطْفِه بالعباد، و﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ - وهو المَنيع الذي لا يُغلب - يُناسِب تخصيصَ مَن شاء بِما شاء[1].

وعُبِّر بالجملة الاسميَّة؛ للدَّلالة على ثُبوت وصْفَي القوَّة والعِزَّة للّه تَعالى ودَوامِهما لَهُ سُبْحانَه، وهُما صِفتان ذاتيَّتان لا تَنفكّان عنهُ ﷻ.

دلالَةُ التَّعْريفِ بِـ (أل) في الاسمَيْنِ الكَريمَيْن:

اختِصاصُ اللهِ تَعالى بِكَمالِ صِفَتَي القوَّةِ والعِزَّةِ

عُرِّف الاسمان الكريمان: ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾ و﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ لإفادة القصر بتعريف جزأي الجملةِ، ففيه قصر القوَّة والعِزَّة على اللّه ﷻ، وهو قصر إضافيٌّ تُراد به

(1) حقي، روح البيان: 8/ 304.

المُبالغةُ؛ لبيان كمالِ الصِّفتين له سُبْحانه، حتّى كأنَّ قوَّة غيرِه وعزَّة غيره عدمٌ لا حقيقةَ لَهُما[1].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

القَويُّ والقادِرُ والقَديرُ:

القَويُّ: المُتَّصف بصفة القوَّة، والقادر والقديرُ: المُتَّصف بصفة القُدرة، والقوَّة: صفةٌ يُتَمَكَّن بها مِنَ الفِعل مِن غير ضعفٍ، والقُدرة: صفة يُتَمَكَّن بها مِنَ الفعل من غير عجزٍ.

القـوَّةُ أعَـمُّ مِـنَ القُدْرَةِ

والقوَّة أعمُّ مِن القُدْرَة مِن جهة أنَّها تقع وصفًا لذي العلم وغيرِه مِن صاحب الشُّعور وغيره، والقُدرة تَخْتَصُّ بذي العلم وغيره مِمَّن له شعور، دون الجمادِ، فتقول في الحديدِ مثلًا: قويٌّ، ولا تقول عنه: قادرٌ[2].

والفرق بين القادرِ والقَدير: أنَّ القادرَ اسمُ فاعلٍ، والقديرَ: صيغةُ مبالغةٍ منه، فالقديرُ أبلغُ مِنَ القادرِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 73.

(2) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية: 1/ 204 - 205.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾

[الشورى: 20]

بَيْنَ حَرْثِ الدُّنْيا وحَرْثِ الآخِرَةِ تَزهيدٌ وتَرغيبٌ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا ذكر اللَّه سُبْحانَه أنَّ الرِّزق بيدِه سُبْحانَه خاصَّة؛ أعقبَ ذلك بِما يُزَهِّد في طلب رِزْقِ البدَنِ، ويُرَغِّب في طلب رِزْقِ الرّوح، فقال؛ جوابًا عمَّن سأل: هل الرِّزق يكون بشِدَّة السَّعي في طلبه؟ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرْثَ﴾: (حرث) تدور تَصْريفاتُه على شقِّ السَّطح المُلْتَئِم وإثارتِه، ومن ذلك: الحَرْث، وهو العملُ في الأرض زرعًا كان أو غرسًا، وسُمّي هذا العملُ حرثًا؛ لأنَّه تَسْبِقُه إثارة الأرض، والحرثُ أيضًا: الزَّرع؛ لأنَّه يخرج منَ الأرض بإثارة الأرضِ[2]، ويُطْلق الحرثُ بِمَعْنى الكَسْب[3]، ومنهُ وردَ الحديثُ: "أَصْدَقُ الأسماءِ: حارِثٌ وهَمّامٌ"[4]؛ وذلك لأنَّ الحارِثَ هو الكاسب، ولَيْسَ من أحد إلّا وهوَ يحرث بهذا المَعنى[5]، والحرثُ في قول اللَّه تَعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾: العمَلُ[6].

2) ﴿نَّصِيبٍ﴾: (نصب) تدلُّ اشتِقاقاتُه على إقامةِ الشَّيء إلى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 287.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حرث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرث).
(4) رواه أحمد في مسنده: (برقم: 19032)، وأبو داوود في سننه: (برقم: 4900)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد: (برقم: 303).
(5) ابن قتيبة، غريب الحديث: 1/ 286.
(6) مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 10/ 6579.

أعلى قويًّا مُتماسِكًا أو شديدًا على وضعٍ مُسْتَقيم دائِم، ومنهُ قولُ اللّه تَعالى: ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩﴾ [الغاشية: 19]، والنَّصْب والنُّصُب: ما نُصِب، فعُبِد من دون اللّه تعالى، كما قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣﴾ [المعارج: 43]، والنَّصيب: الحَظُّ من الشَّيءِ، سُمّي الحظُّ بذلكَ؛ لأنَّه كالشَّيءِ الذي رُفِع لصاحِبِه[1]، ومن هذا قولُ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

يُضاعِفُ اللّهُ سُبحانَهُ أجرَ المُخلِصينَ ويُخَيِّبُ سَعيَ غَيرِهم

يَذْكُر اللّهُ تَعالى أنَّ مَن كان قصدُه ونيَّتُه أن يعمَلَ للدّار الآخرة، بأن يُؤَدّيَ حقوقَ اللّهِ تَعالى على وجهِ الإخلاص، ويُنْفِقَ ماله في سبيلِ الدَّعوة إلى الحقِّ والهدايَة، فإنَّ اللّه سُبحانَهُ يضاعِفُ له أجرَهُ، ويَزيدُه في ثوابِ عَمَلِه زيادةً تَتناسَبُ معَ صِدْقِ نيَّته وإخلاصه، حتّى تكون الحسنَةُ بعشر أمثالها إلى ما شاءَ اللّهُ تَعالى مِنَ الزّيادة، وأمّا مَن كان غَرَضُه الوحيدُ مِن عمله هو حظوظَ الدُّنيا وزخرفَها الفاني؛ فإنّا نَرْزُقُه منها ما كتَبْنا له في الأزَلِ بنَصيبِهِ المُقَدَّر، ولكنْ لا نصيبَ له في الآخرة عندَ الحسابِ، ولا ينالُه مِنَ الثَّواب إلّا الخيبةُ والنَّدامَةُ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هَذِهِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

التَّزْهيدُ في طَلَبِ رِزْقِ البَدَنِ، والتَّرْغيبُ في طَلَبِ رِزْقِ الرّوحِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ متَّصل بقوله قبلُ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾؛ لِما تضَمَّنته من ذِكْر فريقَيْن: مَن كان همُّهُم الآخرةَ، وهُم أهلُ الإيمان، ومن كان همُّهُم قاصِرًا على الدُّنيا، وهُم الكفّار، فجاء قولُ اللّه سُبْحانَه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ تفصيلًا لحظوظِ الفَريقَيْن في أمرِ الإيمانِ بالدّار الآخرة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصب).
(2) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 485.

وعدَمِ الإيمان بها؛ فلأجلِ هذا الاتِّصال تُرك عطفُ هذهِ الجُمْلَة على جُمْلة: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾[1].

ويجوز أن يكونَ فصلُ هذه الآيةِ عمّا قبلَها؛ لوُقوعِها استئنافًا بيانيًّا، وذلك لِما بينَ الجملتين من شِبْهِ كمال الاتِّصال؛ إذ قولُه تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ يبعث في نفسِ المُتَلَقّي سُؤالًا، وهو: هل يكونُ الرِّزق بشِدَّةِ السَّعي في طلبه؟ فجاء الجوابُ في قولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾؛ تزهيدًا في طلب رِزْقِ البدَنِ، وتَرْغيبًا في طلَب رِزْقِ الرّوح[2].

دلالَةُ ﴿مَن﴾ في قَوْلِهِ: ﴿مَن كَانَ﴾:

تَـقْـريـرُ الإرادَةِ في طَلَبِ الـدّارِ الآخِرَةِ

﴿مَن﴾ في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ اسمُ شرطٍ جازم في محلِّ رفعٍ مبتدأ[3]، وأسماء الشَّرط من ألفاظِ العُموم، فلفظُ ﴿مَن﴾ يُضْفي شموليَّة على الخطابِ القُرآنيِّ، ممّا يجعله يتناوَلُ كلَّ فردٍ مخاطَب بهَذا الوصفِ، مشيرًا إلى أنَّ باب الآخرة مُشْرَعٌ للجميع بناءً على إراداتِهم واختياراتِهم.

دلالَةُ فِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانَ﴾:

في التَّعبير بفِعْلِ الكَوْن في قول اللّه تَعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ إيماءٌ إلى استمرارِ الرَّغبة والإرادَة الصّادقة الباعِثَة على العمَلِ للآخِرَةِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإرادَةِ دونَ الطَّلَبِ:

دلالَةُ الإرادَةِ عَلى الرَّغْبَةِ الرّاسِخَةِ والعَزْمِ الأكيدِ

جاء التَّعبيرُ بفِعْلِ الإرادَةِ ﴿يُرِيدُ﴾ دون الطَّلب في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦۖ﴾؛ لِما يدُلُّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 73.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 287.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 27.

عليهِ لفظُ الإرادةِ مِنَ الرَّغبة القلبيَّة الرّاسِخَة، فهيَ تُعَبِّر عن توجُّهٍ كُلّيٍّ للنَّفس نحوَ الغاية، وتتضَمَّن العزمَ الأكيدَ، بخِلاف الطَّلب فهو يُطلق على مُطْلَقِ السَّعي ومُطْلَق الرَّغبة دون أن يكونَ وراءَ ذلك عزيمَةٌ صادقةٌ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُرِيدُ﴾:

تَـصْـويـرُ دَوامِ الرَّغْبَةِ وتَجَدُّدِها

عُبِّر عن الإرادَةِ بالفِعْلِ المُضارع ﴿يُرِيدُ﴾ مِن قول اللّٰه ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾؛ للدَّلالَة عَلى استِمْرار الرَّغبة وتجدُّدها؛ تأكيدًا بأنَّ العملَ للآخِرَةِ ليسَ أمرًا عارضًا مُؤَقَّتًا، بل هو حالٌ مستمِرَّة متجدِّدة تعبِّر عن عزيمَةٍ صادِقَةٍ وتوجُّه قلبيٍّ دائِمٍ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالإرادَةِ عَنِ النِّيَّة:

لَـفْـظُ الإرادةِ مُـفْـهِـمٌ الاسـتِـعـدادَ العَمَليَّ

عُبِّر عن النِّيَّة بالإرادة في قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لِما تدُلُّ عليهِ الإرادَةُ مِنَ العَزْمِ الفاعلِ المُقْتَرِن بالعمَل، بخِلاف النِّيَّة فقد تُطلق على مجرَّد القَصْد من غير أن يَقْتَرِنَ ذلك بعمَلٍ، فكانَ اختيارُ لفظِ الإرادَةِ إبرازًا للاستعدادِ العمليِّ للآخرة[1].

بَلاغَةُ الاستِعارَةِ في قَولِه: ﴿يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

تَشْبيهُ الأعمالِ بِالبُذورِ، وما يَنتُجُ عَنها بِالمَحاصيلِ

الحرْثُ في أصلِ اللُّغة هو الكَسْبُ، يُقال: فلانٌ يحرُثُ لِعيالِه، ويَحترِث، أي: يَكْتَسِبُ لَهُم، والحرثُ: إلقاءُ البَذْرِ في الأرض لتَحْصيلِ الغَلَّة، وإطلاقُها على ثَمراتِ الأعْمالِ وفوائدِها استعارَةٌ مبنيَّة على تَشْبيهِها بالغَلَّة الحاصِلَةِ من البَذْرِ، وذلك مُتَضَمِّن تشبيهَ الأعمالِ بالبُذورِ، وما يَنْتُجُ عنها بالمَحاصيل، والمَعْنى: مَن كان يُريدُ بأعمالِه وكَسْبِهِ ثوابَ الآخرة، فإنَّ اللّٰه سُبْحانَه يُضاعِفُ للعَبْدِ الحسنَةَ بعشرة أمثالِها إلى سبعمئة ضعفٍ إلى ما شاءَ اللّٰهُ تعالى[2].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 32.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 32.

بَلاغَةُ المَجازِ في قَوْلِهِ: ﴿حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

إخراجُ الغَيْبِ في صورَةِ المَحْسوسِ أعْلَقُ بِالذِّهْنِ

في قول اللّه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ شُبِّهت الآخرةُ بالأرْضِ الَّتي مِن شأنِها أن تُزرع، وتُحرَث، ممّا يَقْتَضي تَقَبُّلَها ما يُبذل فيها من جُهد وعمل، وهذا المَجاز استعارةٌ مكنيَّة، وفيها تصوير بديع، بإخراج ما غابَ عن الحسِّ الحاضر في صورةِ ما عُهِدت رُؤْيَتُه، وهذا أبلغُ في الفهم وأعلَقُ بالذّهن.

دلالَةُ الإضافَةِ في قَوْلِهِ: ﴿حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

بَيانُ اختِصاصِ المُعَلِّ بِعِلَّتِهِ

إضافَةُ لفظَةِ ﴿حَرۡثَ﴾ إلى ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾، وكذلكَ إضافَتُها إلى ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قولهِ سُبْحانَه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا﴾ إضافةٌ على مَعْنَى اللّام، وهيَ لامُ الاختِصاص، وهو هنا اختِصاصُ المُعَلَّل بعلَّتِه[1]، فالمُعَلُّ هو الحَرْثُ - المُراد به العمَل - مُختَصٌّ بعِلَّتِه، وهيَ إرادةُ الآخرة أو الدُّنيا.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِلفظ الزّيادَةِ من حيث المادَّة والصّيغة:

الجَمعُ بَينَ الزِّيادَةِ في العَمَلِ والزِّيادَةِ في الجَزاءِ

فِعلُ الزّيادة ﴿نَزِدۡ﴾ يَحمِلُ دِلالتَيْن: **إحداهُما**: أن يكونَ المُرادُ الزّيادةَ في ثواب العمل، كالوارد في قول اللّه تعالى: ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: 276]، وعلى هذا فيكونُ تعليقُ الزّيادة بالحَرْث في قولِه تَعالى: ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ مجازًا عقليًّا؛ إذ إنَّ الزّيادة حقُّها أن تُعلَّق بثوابِ العمَل لا بالعمل نفسِه، فيكون في الكلامِ حَذْفُ مضافٍ، والمَعْنى: زيادةُ الثَّواب النّاشئَ عنِ العَمَلِ الصّالح.

والآخَر: أن تكونَ الزّيادة متعلّقة بالعملِ نفسِه، وذلك بتقدير أنَّ اللّه سُبْحانه يُهَيِّئ له الأسبابَ الَّتي تُمَكِّنُه من زيادتهِ في الأعمالِ الصّالحة، فيزداد بالتَّوفيق والعونِ الإلهيِّ مِن صالحات القول

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 74.

والفعل، وعلى هذا فيكونُ تعليقُ الزّيادة بالحرثِ في قولهِ ﷻ: ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ حقيقيًّا.

فكانَ الحاصلُ مِن الآيةِ الكريمَة حَمْلَها إعجازًا بلاغيًّا؛ إذ جمعت بين الحقيقةِ والمَجاز، وذلك بين الزّيادة في العمل والزّيادة في الجزاء، مِمّا يُشير إلى سعَةِ الفَضل الإلهيِّ[1].

وأمّا التَّعبيرُ بالفعل المضارع؛ فإنَّه يدلُّ على تجدُّد هذه الزّيادة بتجدُّد مسوِّغاتها.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِنونِ العَظَمَةِ في ﴿نَزِدۡ﴾:

إدخالُ المَهابَةِ في قُلوبِ العِبادِ مِنَ الوَعْدِ الإلَهيِّ

النّون في ﴿نَزِدۡ﴾ مِن قول اللّه تَعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ تدلُّ على العَظمَة، والمَعْنى: نَزِدْ له بِعَظَمَتِنا الَّتي لا يَقْدِرُ أحدٌ على تَحْويلِها[2]، وذلك ممّا يُضْفي على الوعدِ الإلهيِّ رهبَةً وإجْلالًا في قلوبِ العِبادِ.

دلالَةُ عَدَمِ بَيانِ كَيْفيَّةِ الزّيادَةِ:

في الإبـهـامِ والإجـمالِ فَتْحٌ لِطَريقِ التَّفَكُّرِ والتَّدَبُّرِ

لَم يُنَصَّ على كيفيَّة الزّيادة في قول اللّه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾؛ ليكون ذلك إبهامًا، وهو هنا أبلَغُ من التَّصريح؛ إذِ الإجمالُ يَفْتَحُ طريقًا للتَّفكُّر، ويشير إلى أنَّ فضل اللّه تعالى لا نهايةَ له، ممّا يُلْهِب الذِّهن إلى التَّأمُّل في مظاهر هذه الزّيادة، فقد تكونُ زيادةً بمُضاعفة الثَّواب، أو بزيادة التَّوفيق والإعانة، أو بزيادة قوَّته ونشاطه، فكلُّ هذه المَعاني يحتَمِلُها لفظُ الزّيادة؛ لترك بيانِ كيفيَّتِها وعدم تَقْييدِها في الآيَة[3].

دلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

تَـمَـيُّـزُ أهـلِ الإيمانِ والعَمَلِ الصّالِحِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ مِن قول اللّه تَعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 75.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 287.

(3) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 26/ 93.

﴿حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ لتقوية الاختصاصِ، فإنَّ اللّام تدلُّ على الاختِصاص، وقُدِّم الجارُّ والمجرورُ تقويَةً له وتَرْشيحًا، وذلك ممّا يُبرز تميُّزَ أهلِ الإيمان والعملِ الصّالح، ولطفَ اللّه تعالى بعبادِهِ المُتَّقين.

سِرُّ إفْرادِ الضَّميرِ في ﴿لَهُۥ﴾:

إعْلاءُ شَأْنِ المؤْمنينَ

أُفرد الضَّمير في ﴿لَهُۥ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾؛ لإبراز مزيدِ العِناية الإلهيَّة بأهل الإيمانِ، حتّى إنَّ العِناية تنالُهُم جَميعًا على سبيلِ الانفراد، فيَغْدو العبدُ المُؤْمِنُ كأنَّما هو المَخْصوص بهذه العنايةِ والرِّعاية دونَ سِواه.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

جَزاءُ المُؤْمنينَ عَلى أعمالِهم مُتَّصِلٌ بِجُهْدِهِم

﴿فِي﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وفي التَّعبير به إيماءٌ إلى استِغراق الزِّيادة وتَغَلْغُلِها في حرثِ العَبْد، فلم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (نَزِدْ له حرثَه)؛ للتَّنبيه على أنَّ نماء الأعمالِ يكون راسِخًا، وجزاؤُهم متَّصلًا بِجُهْدِهم ومُتضاعَفًا فيهِ.

نُكْتَةُ عَدَمِ ذِكْرِ نَصيبِ الدُّنيا لِعامِلِ الآخِرَةِ:

إهْمالُ ذِكْرِ الرِّزْقِ الدُّنيَويِّ تَصْغيرٌ لِشَأْنِهِ بِجانِبِ أمْرِ الآخِرَةِ

لَم يُذْكَر نصيبُ مريدِ حرث الآخرة في قول اللّه تَعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾، مع أنَّ رِزْقَ العامِل مقسومٌ لهُ واصلٌ إليه دونَ شَكٍّ، وذلك للتَّنبيه على أنَّ ما ينالهُ مِن الدُّنيا أحقَرُ من أن يُذكر مع شأنِ الآخِرة، كأنَّه غيرُ مُعْتَبَرٍ[1].

سِرُّ تَقْديمِ حَرْثِ الآخِرَةِ عَلى حَرْثِ الدُّنْيا:

بَيانُ شَرَفِ الآخِرَةِ وحَقارَةِ الدُّنْيا

قُدِّم ذِكْرُ حرثِ الآخرة على حرثِ الدُّنيا في قول اللّه سُبْحانَه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 218، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 331، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 288.

﴿ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾؛ تنبيهًا على فضلِهِ وشَرَفِه[1]، فالتَّقديم لهُ مَدْخَلٌ في إظهارِ عُلوِّ قَدْرِه وسُموِّ مَقصده، وإذا كانت الآخرةُ دارَ القَرار، والدُّنيا دارَ زوالٍ؛ كان حرثُ الآخرةِ أوْلى بالتَّقديم؛ ليكونَ ذلكَ دليلًا على أنَّ مَن سَعى للآخرةِ هو صاحبُ الهِمَّة العاليةِ والغاية السّامية.

دلالَةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن كَانَ﴾:

تَقابُلُ أعْمالِ النّاسِ ومَقاصِدِهِم

الواوُ في ﴿وَمَن﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جملة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾؛ لِما بينَهُما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذِ الجُمْلَتان اتَّفقتا في الخبريَّة، وبينَهُما مناسبَةٌ في المَعْنى، وهي تَقابُلُ مقاصدِ النّاس وأعمالِهم ونتائِجها، وبينَهما تناسبٌ لفظيٌّ، وهو اتِّحاد الجملتينِ في الاسميَّة، وبينَهُما اتِّحاد في لفظِ المُسْنَدِ إليهِ.

دلالَةُ الشرط في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن كَانَ﴾:

شُمولِيَّةُ الخِطابِ وفَتْحُ بابِ الاختيارِ

(مَنْ) في قَوْلِ اللّهِ سبحانَه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ اسمُ شرطٍ جازم في محلِّ رفعٍ مبتدأً، وأسماء الشَّرط من ألفاظِ العُموم، فلفظُ (مَنْ) يُضْفي شموليَّة على الخطابِ القُرآنيِّ، ممّا يجعله يتناوَلُ كلَّ فردٍ مخاطَب بهَذا الوصفِ، مشيرًا إلى أنَّ باب الآخرة مُشْرَعٌ للجميع بناءً على إراداتِهم واخْتياراتِهم.

دلالَةُ فِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانَ﴾:

استِمرارُ الرَّغْبَةِ في طَلَبِ الدُّنيا

في التَّعبير بفِعْلِ الكَون في قول اللّه تَعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ إيماءٌ إلى استمرارِ الرَّغبة المتجذِّرةِ والإرادَة في طلَبِ الدُّنيا.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالإرادَةِ مادَّةً وصيغَةً:

جاء التَّعبيرُ بفِعْلِ الإرادَةِ ﴿يُرِيدُ﴾ دون الطَّلب في قولِ اللّه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 591.

في لَفْظِ الإرادَةِ إشارَةٌ إلى التَّوَجُّهِ الكُلّيِّ لِلنَّفْسِ نَحْوَ الغايَةِ

سُبْحانَه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾؛ لِما يدُلُّ عليه لفظُ الإرادةِ مِنَ الرَّغبة القلبيَّة الرّاسِخَة، فهيَ تُعَبِّر عن توجُّه كُلّيٍّ للنَّفس نحوَ الغاية، وتتضمَّن العزمَ الأكيد، بخِلاف الطَّلب؛ فهو يُطلق على مُطْلَقِ السَّعي ومُطْلَق الرَّغبة دون أن يكونَ وراءَ ذلك عزيمَةٌ صادقةٌ.

وَعُبِّر عن الإرادَةِ بالفِعْلِ المُضارع ﴿يُرِيدُ﴾؛ لإفادةِ استِمرار الرَّغبة وتجدُّدها.

سِرُّ التَّعْبيرِ عَن نَفْعِ الدُّنيا بِالحَرْثِ:

تَحصيلُ الدُّنْيا مَشوبٌ بِالنَّصَبِ والتَّعَبِ

الحَرْثُ في الأصلِ الكَسْبُ، والحرثُ: إلقاءُ البَذْرِ في الأرضِ لتَحْصيلِ الغَلَّة، وعُبِّر عن نفعِ الدُّنيا بالحَرْثِ في قول الله تَعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾؛ للتَّنبيه على الكَدْح والسَّعي الشَّديد؛ لأنَّ الحرث عملٌ شاقٌّ فيه تعَبٌ ونصَب، وهو متعلِّق برجاءِ تَحْصيلِ زَرْعٍ مِن شأنِه ألّا يَدومَ، وكذلك شأنُ الدُّنيا، فإنَّ تحصيلَها مشوبٌ بتعَبٍ ونصَبٍ، وما يَحْصُل منها إلّا شيءٌ يسيرٌ زائلٌ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالدُّنْيا دونَ الحَياةِ الدُّنْيا:

التَّنْبيهُ عَلى حَقارَةِ شَأْنِ الدُّنْيا

عُبِّر بالدُّنيا دون الحياةِ الدُّنيا في قول الله ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾؛ ليكونَ أنسبَ لصَدْرِ الآية في قوله تَعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأٓخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦۖ﴾؛ إذْ لَم يَرِد: (حرث الحياة الآخِرَة)، وفي طيِّ ذِكْر (الحياة) مع الدُّنيا أيضًا تنبيهٌ على حقارةِ شأنِ الدُّنيا، وأنَّها لا تستحِقُّ أن يوسَّع الكلام فيها في جَنْبِ ذِكْرِ الآخِرَة.

سِرُّ المُقارَنَةِ بَينَ نَتيجَةِ ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ ونَتيجَةِ ﴿حَرْثَ ٱلْأٓخِرَةِ﴾:

حَرْثُ الدُّنْيا مَحْدودٌ زائِلٌ، وحَرْثُ الآخِرَةِ دائِمٌ وأجْرٌ ثابِتٌ

جاء في قولِ الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأٓخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ مقارَنَةٌ بينَ مآلِ حرثِ الدُّنيا ومآلِ حَرْثِ الآخِرة، وذلك لبيانِ التَّفاوُت بينَ مقاصِدِ النّاسِ

وأعمالِهم وبينَ عَواقِب ذلكَ، فالدُّنْيا بما فيها حرثٌ محدودٌ زائِلٌ، والآخِرة حرثٌ دائِم وأجْرٌ مقيم، ولازمُ ذلك التَّنبيه على حَقارَةِ العمَل للدُّنيا، وجلالَةِ العمَلِ للآخِرَة.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿نُؤۡتِهِۦ﴾ دون (نُعْطِهِ):

حَـقـارَةُ الدُّنيا عِندَ اللهِ تَعالى وعَظَمَتُها عِندَ أهلِها

عُبِّر بلَفظِ الإيتاءِ دونَ الإعطاءِ في قول اللّٰه تَعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾، فلَم يَرِد في البيان القرآنيِّ: (نُعْطِه منها)، مع أنَّ الغالبَ في الاستعمالِ القرآنيِّ أن تكونَ للشَّيء العظيم، وذلك للتَّنبيه على أنَّ ما يُعطى لأهلِها يُعَدُّ عظيمًا عندَهُم لقِصَرِ هِمَمِهِم، وأنَّ غاية هؤلاء هي الدُّنيا، فكلُّ ما يَنالونَه مِنها هو عظيمُ الشَّأن عِندَهُم، وإن كانَ حقيرًا عندَ اللّٰه تَعالى، وهذا التَّعبير يُقَوّي تفاوُتَ المَقاصِد بين أهل الدُّنيا وأهلِ الآخِرَة.

دِلالَةُ نونِ العَظَمَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿نُؤۡتِهِۦ﴾:

كُلُّ ما في الدُّنْيا خاضِعٌ لِلقُدْرَةِ الإلَهيَّةِ

النّون في ﴿نُؤۡتِهِۦ﴾ من قول اللّٰه ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ تدلُّ على العَظَمَةِ، والمَعْنى: نؤتِهِ بِعَظَمَتِنا؛ إيماءً إلى أنَّ الدُّنيا بكلِّ ما فيها بيَدِهِ سُبْحانَهُ خاضع لقُدْرَتِه وتَصَرُّفه، يُؤْتيه مَن يشاء كما يشاءُ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ (مِنْ) مَعَ الدُّنْيا و﴿فِي﴾ مَعَ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

إبـرازُ الـتَّـفـاوُتِ الـعَـظـيـمِ بَـيـنَ مُـريـدِ الـدُّنـيـا ومُريدِ الآخِرَةِ

عُبِّر بـ (مِنْ) في جانبِ الدُّنيا وبـ (في) في جانب الآخرة من قول اللّٰه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾؛ للمُبالغَةِ في إبرازِ التَّفاوُتِ بينَ الفَريقَين، فَمُريدُ حرثِ الدُّنيا لا ينالُه إلّا شيءٌ يسيرٌ مِنها، كما أفادَهُ حرفُ الجرِّ (مِنْ) الدّالُّ على التَّبْعيض[1]، ومريدُ حرثِ الآخرة له مِن الجزاءِ الحسَنِ أكملُه وأوفاه، كما تُشير إليه ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة.

---

(1) ابن أبي زمَنِين، تفسير القرآن: 4/ 166، وبيان الحق، إيجاز البيان: 2/ 734.

نُكْتَةُ عَوْدِ الضَّميرِ عَلى الدُّنْيا في ﴿مِنۡهَا﴾ دونَ الحَرْثِ:

ما يَنالُهُ العَبدُ مِنَ الدُّنيا لَيسَ جَزاءً عَلى عَمَلِهِ، بَل هوَ مَحضُ رِزْقٍ مِنَ اللهِ تَعالى

عاد الضَّمير في ﴿مِنۡهَا﴾ مِن قول الله سُبْحانَه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ إلى الدُّنيا، دون أن يعودَ إلى الحَرْث؛ إذ لَم يرِد في النَّظم القرآنيِّ: (ومَن كان يريد حرث الدُّنيا؛ نؤتِه مِنْهُ)؛ للإيماء إلى أنَّ ما يُعطاه العبادُ مِن الدُّنيا ليس جزاءً على عَمَلِهم أو كَدْحِهِم، وإنَّما هو مَحْضُ رِزْقٍ مِنَ اللّه تَعالى.

دلالَةُ إفرادِ الضَّمائِرِ في ﴿نُؤۡتِهِۦ﴾ و﴿لَهُۥ﴾:

العَطاءُ الدُّنيَويُّ لَيسَ دَليلًا عَلى شَرَفِ المُعطى

أُفْرِد الضَّمير في ﴿نُؤۡتِهِۦ﴾ و﴿لَهُۥ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾؛ مراعاةً لِلَفْظِ (مَنْ)، وفي إضمار ﴿نُؤۡتِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الرِّزق الدُّنيويَّ الَّذي يُعْطاه العامِلُ لأجْلِ الدُّنيا مخصوصٌ به، وأنَّه عطاءٌ ليس فيه فضلٌ أو شرفٌ للمُعْطَى، وإفرادُ الضَّمير في ﴿لَهُۥ﴾ إيماءٌ إلى اختِصاصه بنَفْيِ الخير عنهُ، وأنَّه بِمَعْزِلٍ عَنِ الخير العميم.

دلالَةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُۥ﴾:

تَصويرُ حالِ الحِرْمانِ المُمْتَدِّ لِلآخِرَةِ

الواوُ في ﴿وَمَا﴾ من قول اللّه سُبْحانَه: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ واو الحالِ[1]، والجُملة بعدَها في مَوْضِع نصبٍ على الحال، وفيه بيانُ أنَّ حِرْمان مَن أراد الدُّنيا وحدَها لا يَقْتَصِر على هذه الحياة، بل يَمْتَدُّ إلى الحياة الآخِرَة.

سِرُّ النَّفْيِ بِـ(ما) دونَ (لَيْسَ):

تَصويرُ شِدَّةِ الحِرْمانِ الأُخْرَوِيِّ

جاء النَّفي في قول اللّه سُبحانه: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ بـ (ما) دون (ليس)؛ لِما تدلُّ عليه (ما) من قوَّةٍ في النَّفي، ووجهُ ذلك: أنَّ (ما) تفيدُ التَّوكيد، ولذا تقعُ جوابًا للقَسم، كقولهم: واللّهِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 288.

ما زيدٌ بحاضرٍ، وقَد نصَّ سيبويهِ أنَّ قولهم: "ما فعل" نفيٌ لقولهم: "لقَد فعل"[1]، ممّا يدلُّ على أنَّ فيها تقويةً وتوكيدًا.

ولأنَّ العرب استَعْمَلَت (ليس) استعمالَ الأفعالِ، وعلى هذا فالجملةُ المَبْدوءَة بها جملةٌ فعليَّة، والجملةُ المَنْفيَّة بـ (ما) اسميَّة، والجملة الاسميَّة أثْبَتُ مِنَ الجُملة الفعليَّة[2].

سِرُّ تَكْرارِ لَفْظِ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مَعَ تَقَدُّمِ ذِكْرِها:

التَّأكيدُ على وعيدِ مُريدِ الدُّنْيا

كُرِّر لفظُ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ مع تقدُّم ذكرها في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾؛ إذ لو أُضمرت - بأن يرد في النَّظم القرآنيِّ: (وما له فيها من نصيب) - فإنَّه يوهِم عَوْدَ الضَّمير على الدُّنيا؛ لكونِها أقربَ مذكورٍ، وهذا يجعَلُ النَّظمَ القُرآنيَّ في غاية الاضْطِراب؛ إذ أُثبِتَ له عطاءٌ في الدُّنيا، ثُمَّ نُفيَ عنهُ مُطلق الحظِّ والنَّصيب، فكان الإظهارُ مُتَعَيِّنًا، كما أنَّ في التَّصريح بلفظ الآخرةِ تَشْديدًا على وعيدِ مُريدِ الدُّنيا بأنَّه لا نَصيبَ لهُ فيها.

دلالَةُ ﴿مِن﴾ في قَوْلِهِ: ﴿مِن نَّصِيبٍ﴾:

تَصْويرُ الخَيْبَةِ المُطْلَقَةِ في الآخِرَة

﴿مِن﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ تدلُّ على النَّصِّ في الاستغراقِ والعُموم، والمَعْنى: ما له حَظٌّ ولا نصيبٌ في الآخِرَةِ؛ لأنَّ هِمَّتَهُ كانت مقصورَةً على الدُّنيا، ولكلِّ امرئٍ ما نَواهُ، فيكون مَنْ هذا شأنُه مَحْرومًا من ثوابِ الآخِرَةِ بالكُلّيَّة[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالنَّصيب دونَ الحَظِّ والخَلاقِ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في انْتِقاءِ الألْفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

عُبِّر بالنَّصيب في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ دون الخلاق؛ لأنَّ النَّصيب في الأصل والحظِّ المَنْصوب، أي: المُعَيَّن،

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 252 - 255.
(3) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 26/ 94.

ولذا وردَ استِعْمالُه في قِسْمَة الميراث؛ لأنَّه تعيينٌ لِحَظِّهم منه، واستعمالُهُ في آية الشّورى أنسبُ لسياق الآية؛ إذْ لَمّا كان مَن عَمِلَ للدُّنيا وحدَها قد أعرَض عن الآخرة، وكان الجزاءُ من جِنْسِ العمل؛ ناسب ذلك ألّا يصيبَ مِن القِسْمَة في الآخرة شَيْئًا.

وهذا بخلافِ آيةِ سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍۚ﴾ [البقرة: 102]، فإنَّ الآية في الكلام عن أهلِ الكِتاب، وقد عَلِموا أنَّ مَن اشْتَرى السِّحر؛ آثر القليلَ الفاني على النَّصيب العظيم من الخيرِ بتَقْدير أنْ يكون نَصيبًا لصاحِبه؛ إذِ الخَلاق مشتَقٌّ مِنَ الخَلْق، وهو التَّقدير، فكان لفظُ الخلاقِ في آيةِ البَقرة أنسَبَ[1].

دلالَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿نَّصِيبٍ﴾:

حَـقـارَةُ مَقاصِدِ الآخِرَةِ

نُكِّر لفظُ ﴿نَّصِيبٍ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ يدلُّ على العُموم والشُّمول؛ لوُقوعِه في سياق النَّفي (ما)، وفي ذلك تأكيدٌ على الحِرْمانِ المُطْلَق في الآخِرَة، معَ الإيماءِ إلى تَحْقير العامِلِ لأجلِ الدُّنْيا.

سِرُّ تَقْديمِ ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عَلى ﴿مِن نَّصِيبٍ﴾:

الـتَّـنْـبـيـهُ إلى عاقِبَةِ الاختيارِ بَيْنَ الدّارَيْنِ

قُدِّم ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ على ﴿مِن نَّصِيبٍ﴾ من قول اللّه سُبْحانَه: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾؛ للاهتمام بأمرِ الآخرة، وأنَّها المَقصود الأهمُّ في الآية؛ ليُلْفَت نظَرُ المُتلقّي إلى عاقبة الإنسانِ فيها، وما يترتَّب على اختياره بينَ الدُّنيا والآخرة.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإيتاءُ والإعْطاءُ:

الإيـتـاءُ خـاصٌّ بـالـشَّيءِ الكَثيرِ والأمـرِ العَظيمِ في غـالِـبِ الاستِعمالِ القُرآنيِّ

الإيتاءُ والإعطاءُ بمعنًى واحدٍ في ظاهرِ صَنيعِ كثيرٍ مِن أصحابِ المُعجَماتِ[2].

(1) محمد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 142.
(2) الخليل، العين: (أتى)، والجوهريّ، تاج اللّغة: (أتى)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتي).

وفرَّق آخرونَ بينَهُما بأنَّ في الإعطاءِ دليلًا عَلى التَّمَلُّكِ بخِلافِ الإيتاءِ[1].

وأمّا في الاستِعمال القرآنيِّ للَّفظَتَيْن؛ فإنَّ بينَهُما فرقًا مِن وجهَيْن[2]:

أحدهما: لَم يُستعمل الإيتاءُ - غالبًا - إلّا لِلشَّيءِ الكَثيرِ والعَظيم الشَّأْنِ، كالقُرآنِ الكريم، والمُلْكِ، والحِكْمَةِ، والرَّحمة، ومثلُ ذَلِكَ: الزَّكاةُ؛ لِعَظيم نَفْعِها.

بينَما يَكونُ الإعطاءُ لِلشَّيءِ القَليل، ولم يَرِد دالًّا على الشَّيء الكثير إلّا مقيَّدًا بما يدلُّ على الكَثْرَة، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]، وقوله: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: 20]

ثانيهما: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ يكون عَن طيب نَفْسٍ، بخلاف الإعطاءِ فَهوَ أعَمُّ، فيكون عَن طيب نَفْسٍ، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥﴾ [الليل: 5]، ويكونُ عَن كُرْهٍ، كَما في قَوْلِه: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: 29].

النَّصيبُ والحَظُّ:

اختِصاصُ الحَظِّ بالنَّصيبِ المُقَدَّرِ مِنَ الخَيْرِ

النَّصيبُ هو الحظُّ المَنْصوبُ، أي: المُعَيَّن، وهو يأتي عامًّا في الحظِّ مِن كلِّ شيء، أو للقِسْمَة بينَ جماعَةٍ، وممّا يدلُّ على تعيينه اقْترانُ لفظِ ﴿مَّفۡرُوضٗا ٧﴾ [النساء: 7] به في قول اللّه تَعالى: ﴿نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ٧﴾ [النساء: 7]، وأمّا الحظُّ؛ فهو ما يحظُّه اللّه تعالى للعبدِ مِن الخيْرِ.

والحظُّ يخالِفُ النَّصيبَ مِن حيث كونُ الحَظِّ مخصوصًا بالنَّصيب المُقَدَّر، وبالخير دونَ الشَّرِّ، بخلاف النَّصيب فإنَّه يَرِدُ في الخَيْرِ والشَّرِّ.

(1) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 87.

(2) داوود، معجم الفروق، ص: 27 - 29.

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١﴾

[الشورى: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تَوبيخُ المُنحَرِفينَ عَنِ الشَّرعِ

لمّا ذكر اللّه تعالى ما شَرَعَهُ مِنَ الدّين ممّا وصّى به نوحًا والنَّبيّين من بَعْدِه، وتقرَّر ذلك، فبانَتْ أصولُ هذا الدّين، واتَّضحت معالِمُه، وخَتَم ذلك ببيانِ القانونِ الأعظم في أمْرِ الدّارَين، فكانَ التَّقدير: هذا شرعُ اللّهِ سُبْحانَه الذي رَضيَهُ للعباد، فهَل قَبِلوه؟ بيَّن سُبحانه على وجه التَّنبيه والتَّوبيخ على ما هو الأصلُ في الانحِرافِ عنِ الشَّرعِ، فقالَ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَرَعُواْ﴾: (شرع) تدلُّ تَصريفاتُه على شيءٍ يُفتَحُ في امتِدادٍ يكونُ فيه[2]، ومِن ذَلِكَ: الشَّريعةُ، وهي مورِد الإبلِ على الماءِ الجاري، ويُقال: أشرعَ ناقتَهُ؛ إذا أدخلَها في شَريعةِ الماءِ[3]، والشَّريعَةُ: ما سنَّهُ اللّه تعالى مِنَ الدّين، وأمَرَ بِهِ[4]، وسُمّيت شريعةً تَشْبيهًا بشريعَةِ الماءِ، مِن حيثُ إنَّ مَن شرَعَ فيها على الحقيقَةِ؛ رَويَ، وتطهَّر[5].

و﴿شَرَعُواْ﴾ في الآيةِ الكَريمَةِ مَعْناهُ: ابتَدعوا لَهُم دينًا يتدَيَّنونَ بِهِ.

2) ﴿ٱلدِّينِ﴾: (دين) تدلُّ تَصريفاتُه عَلى مَعْنى اللُّزوم، فَتَأتي في العربيَّةِ على أوْجُهٍ تَرْجِع كلُّها إلى شيءٍ يَلْزَمُ الإنسانَ، أو يلزمُهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 290.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرع).
(3) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (شرع).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شرع).
(5) الرّاغب، المفردات الكريم: (شرع).

الإنسانُ[1]، وأَرْجَعَ ابنُ فارسٍ هذهِ المادَّةَ إلى جِنْسٍ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ[2]، وهذا والذي قبلَهُ مُتلازِمانِ.

ووَرَدَ الدّين في القرآن على أَوْجُهٍ، بلغَ بها ابنُ الجَوْزيِّ إلى أحَدَ عَشَرَ وجْهًا[3].

3) ﴿يَأۡذَنۢ﴾: (أذن) تدلُّ كثيرٌ مِن اشتقاقاتِه على مَعْنَى العِلْمِ[4]، والتَّأْذينُ: الإعْلامُ[5]، ومنهُ الأذانُ الشَّرْعيُّ؛ إذ هوَ الإعلامُ بدُخولِ وقتِ الصَّلاةِ بألفاظٍ مخصوصَةٍ[6]، يُقال: أُذِّنَ بالصَّلاةِ، أي: أُعْلِمَ بها[7].

والإذْنُ: الإباحَةُ، وقولُ اللّهِ تعالَى: ﴿مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ بمعنى: ما لَم يُبِح اللّهُ سُبحانَهُ لَهُم ابتِداعَهُ[8].

4) ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾: (فصل) تدور اشتِقاقاتُه على تَمْييزِ شيءٍ من آخرَ وإبانَته عَنْهُ، تقولُ: فَصَلْتُ الشَّيءِ فَصْلًا؛ إذا: أَبَنْتَه، ومنهُ سُمّي الحاكِمُ فَيْصَلًا؛ لأنَّه يُميِّز الحقوقَ[9]، وقَوْلُ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ﴾، أي: لَولا ما تقدَّم مِن وعْدِ اللّهِ سُبحانَهُ أنَّه يَفْصِلُ بينَهُم يومَ القيامَةِ؛ لَفَصَلَ بينَهُم الآنَ[10]، فكَلِمَةُ الفَصْلِ: القَضاءُ السّابِقُ[11].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّـنْـبـيـهُ عَـلى عَواقِبِ الانحِرافِ عَنِ الشَّرْعِ المُنَزَّلِ

يَذْكُر اللّهُ سُبحانَهُ أنَّ المُشْرِكينَ باللّهِ تَعالى قَد ابتَدَعوا في الدّينِ شِرْكًا وضَلالًا لَم يأذَنْ بهِ اللّهُ تَعالى، أَلَهُم شُرَكاءُ من دون اللّهِ

---

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 217.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دين).
(3) ابن الجوزي، نُزهة الأعين النَّواظر، ص: 297 - 299.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(5) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (أذن).
(6) النّفراوي، الفواكه الدّواني: 1/ 171.
(7) الفيّومي، المصباح المنير: (أذن).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 522.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فصل).
(10) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (فصل).
(11) القِنّوجي، فتح البيان: 1/ 593.

سُبحانَهُ شَرَعوا لَهُم ذَلِكَ؟ ولولا قضاءُ اللّهِ وقَدَرُه بإمْهالِهِم وعدم تَعْجيلِ العذابِ لَهُم في الدُّنيا؛ لكانَ قَد قُضيَ بينَهُم بحُلولِ العِقاب، وإنَّ الكافِرين الظّالِمين لَهم يومَ القيامَةِ عذابٌ موجِعٌ وأليمٌ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هَذِهِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

تَوْبيخُ المُشْرِكينَ عَلى إعراضِهِم عَن شَرْعِ اللهِ سُبْحانَهُ

فُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ للتَّغاير بين الجمل من حيث الإنشاء والخبر، فهذه الجملة إنشائيَّة من حيث اللَّفظ، ويمكن أن يكون الفصل لوُقوعِها استِئنافًا بيانيًّا، فبَيْنَ الجُملَتَيْنِ شبهُ كمالِ الاتِّصال، وذلكَ لأنَّ اللّه تعالى لَمّا بيَّن ما شرَعَهُ من الدّين ممّا وصّى به الأنبياءَ كلَّهُم، فبانَت بذَلِكَ أصولُ الشَّريعة، واتَّضحَت فروعُها وتفاصيلُها، وكان مُقْتَضى ذلك أنَّ ذلك هو شرع اللّه تعالى الذي رَضيَهُ لعِباده؛ أورثَ ذلك سُؤالًا، وهو: هَل قبلَهُ هَؤُلاء المُشْرِكونَ؟ فجاءَ الجوابُ مُبَيِّنًا أنَّهم أعْرَضوا عنهُ، ولَم يَنْقادوا له، وأُخرِجَ الجوابُ على طريقِ التَّوبيخ لهم، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾(2).

دلالَةُ ﴿أَمۡ﴾ في صَدْرِ الآيَةِ:

مُخالَفَةُ الشَّرائِعِ الإلَهيَّةِ وتَلَقّي الشِّرْكِ مِن أئِمَّةِ الضَّلالِ

﴿أَمۡ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ منقَطِعَةٌ، وهي بمَعْنى (بل) التي للإضراب، وهو إضرابٌ انتِقاليٌّ؛ إذِ المُرادُ الانتِقالُ مِنَ الكلام على تفرُّقِ أهلِ الشَّرائع السّابقة في شَرائعِهِم إلى الكلام عَلى ما يُشْبِهُ ذلكَ مِن الاختِلاف في أصلِ الدّين؛ وهو مُخالَفَةُ أَهلِ الشِّرك للشَّرائع كُلِّها وتَلَقّيهِم الشِّركَ مِن رُؤوسِ الكُفْرِ وأئمَّةِ الضَّلال(3).

---

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 485.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 290.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 76، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 32، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 28.

ويجوزُ أن تكونَ ﴿أَمۡ﴾ مُتَّصلة معادلَةً لهمزةِ الاستفهام، فيَكونُ في الكلامِ إضمارٌ، والتَّقدير: أيقبَلون ما شرعَهُ اللّه تعالى مِنَ الدّين، أم لَهُم آلهة شرَعوا لَهُم دينًا غيرهُ[1]؟.

دلالَةُ الاستِفْهامِ في الآيَةِ:

التَّوْبيخُ والتَّهكُّمُ عَلى إحداثِ الشِّرْكِ

الاستفهامُ المُستَفادُ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ خرجَ عَن أصلِه مِن إرادَةِ طلَبِ العِلْم بشَيءٍ لَم يكُن معلومًا مِن قبلُ إلى مَعنى التَّوبيخِ والتَّقريعِ[2]، وفيه مَعْنى التَّهكُّمِ أيضًا، فأمّا التَّوبيخُ والتَّقريع؛ فراجعانِ إلى تَشْريعِهِم مِنَ الدّين ما لَم يأذَنْ بِهِ اللّه تَعالى، وأمّا التَّهكُّم؛ فعائِدٌ إلى مَن شَرَعوا لَهُم الشِّركَ[3].

دلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَهُمۡ﴾:

تَصْويرُ شِدَّةِ ارتباطِ المُشْرِكينَ بِشُرَكائِهِم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُمۡ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾؛ لإفادَةِ القَصْرِ والاخْتِصاص، وذلكَ يومِئُ إلى أنَّ هَؤُلاء المُشْركين اتَّخذوا شُركاء اختَصّوا بهم، وابتَدَعوهُم، وجَعَلوهُم جُزْءًا من حياتِهم، وذلك يَقتَضي أنَّ هَؤُلاءِ المُشْركين قَبِلوا ما شرَعَهُ شُركاؤُهُم لَهُم، وأقرّوه.

دلالَةُ الضَّميرِ في قَوْلِهِ: ﴿لَهُمۡ﴾:

إفادَةُ عُمومِ المُشْرِكينَ مَعَ انْدِراجِ الكُفّارِ المُعاصِرينَ لِلتَّنْزيلِ

الضَّمير في ﴿لَهُمۡ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ راجِعٌ إلى المُشْركين باللّهِ تَعالى[4] الَّذين يُريدون الدُّنيا فحسبُ، وليسَ لَهُم إيمانٌ بالدّار الآخِرَة، ولِذا لا تَقْصِدُ نفوسُهُم شيئًا مِن ثوابِها.

ويجوزُ أن يُراد بِهِم الكُفّار المُعاصِرون للنَّبيِّ ﷺ، والأوَّل أعمُّ وأشمَلُ وأولى؛ لاندِراجِ الثّاني تحتَهُ[5].

(1) القنوجي، فتح البيان: 12/ 294.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 19، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 80، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 332، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 28، والقنوجي، فتح البيان: 12/ 294.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 76.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 522.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 32.

دلالَةُ التَّعبيرِ بِلَفْظِ ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾:

انحِرافُ أهلِ الشِّركِ ومُبالَغتُهم في الضَّلالِ

في التَّعبير بلَفظِ الشُّركاء في قول اللّه تَعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ دون لَفْظِ (آلهة)، إيماءٌ إلى إيغالِهم في الضَّلال والانحِرافِ، وأنَّهُم لَم يَتَّخِذوا مَعْبوداتٍ مُجَرَّدةً، بَلِ اتَّخذوا معبوداتٍ، وخلَعوا عَلَيها مِن أوصافِ الرُّبوبيَّة وصلاحيَّة تشريعِ الأحكام.

دلالَةُ التَّعبيرِ بِلَفظِ ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ جَمعًا:

حَيرَةُ المُشرِكينَ وتَعَدُّدُ مَقاصِدِهِم بَينَ شُرَكاءَ كُثُرٍ

جُمِعَ لفظُ ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾؛ للدَّلالة على كثرةِ الشُّركاء الَّذين اتَّخذَهُم المُشْرِكونَ مِن دونِ اللّه تَعالى، ويَدخُلُ في ذلك الأصنامُ والأوثانُ، وكلُّ مَن جَعَلوهُ شَريكًا للّه سُبحانَه، ويجوزُ أن يَندَرِجَ مَعَ ذلكَ أيضًا: الشَّياطينُ والمُغْوون من النّاسِ[1]، وهذا فيهِ إشارَةٌ إلى عِظَمِ غَيِّهِم وتفرُّق قَصْدِهِم بينَ شُرَكاء كُثُرٍ، فَهُم حَيارى في إرضائهم، كما قال اللّهُ تَعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾ [الزمر: 29].

دلالَةُ التَّنْكيرِ في قَوْلِهِ: ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾:

سُخْفُ عُقولِ المُشْرِكينَ

نُكِّر لفظ ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ مِن قول اللّه سُبحانَه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾؛ للدَّلالَةِ عَلى التَّحقير والتَّهوين، ففيه إشارَةٌ إلى أنَّ هَؤُلاءِ الشُّركاء المَزعومينَ ليسوا بذي قدرٍ مَعْروفٍ، وإنَّما هُم مَجاهيلُ غيرُ مَعْروفينَ بِشَيءٍ مِن خَصائصِ الألوهيَّةِ، وهذا يَقتَضي سُخْفَ عُقولِ مُتَّخذيهِم شُركاءَ.

دلالَةُ إضافَةِ الشُّرَكاءِ إلَيهِم في قَولِهِ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾:

بَيانُ كَونِهِم مَن أحْدَثَ عِبادَتَهُم مِن دونِ اللهِ تَعالى

أُضيفَ الشُّركاء إليهِم في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾؛

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 332.

لأنَّهُم هُم الذين أحدَثوا عِبادَتَهُم مِن دونِ اللّه تَعالى، فأشْرَكوا بينَهُم وبينَ اللّه سُبْحانَهُ في العِبادَةِ، واتَّخذوهُم شُرَكاءَ للّهِ تَعالى[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بِقَولِهِ: ﴿شَرَعُواْ﴾:

عَظَمَةُ ضَلالِ المُشْرِكينَ

اختارَ البيانُ القُرآنيُّ لفظَ الشَّرعِ في قولِ اللّه سبحانَهُ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾؛ لِدلالَتِها على وضْعِ الأحكامِ المُلْزِمَةِ، وذلكَ يُفيد أنَّ المُشْركينَ لَم يَكْتَفوا باتِّباعِ الباطِلِ، بَل تَجاوَزوا ذلك إلى لزومِهِم هذهِ الأحكامَ وجَعْلِها دينًا قويمًا، وهذا إبعادٌ مِنهُم في الكُفْرِ والضَّلال.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿شَرَعُواْ﴾:

رُسوخُ المُشْرِكينَ في الباطِلِ

عُبِّر بالفِعْلِ الماضي ﴿شَرَعُواْ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾؛ للدَّلالَةِ على تحقُّق الفعلِ وتأكيدِ حُصولِهِ، ممّا يدلُّ على استِقرارِ حالِ الابتِداعِ ورُسوخِها عندَ أهلِ الشِّرك، فأفادَ ذَلِكَ أنَّ المُشركينَ قَدِ استَقَرّوا على اتِّباعِ تشريعاتٍ باطلةٍ أحدَثَها لَهُم أولياؤُهم مِن شَياطينِ الجِنِّ والإنسِ، فكانَ التَّعبيرُ بالفِعلِ الماضي أبلَغَ دلالةً على تماديهِم في الباطِلِ.

دلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَهُم﴾:

انفِرادُ الشُّرَكاءِ بإضلالِ أتباعِهِم

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُم﴾ من قول اللّه تَعالى: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾؛ للدَّلالَةِ على القَصْرِ والاختِصاصِ، وأنَّ هَؤُلاءِ الشُّركاء شَرَعوا ضَلالَهُم لأتباعِهِم مِن أهلِ الشِّرك دونَ غَيْرِهِم، ممّا يَقتَضي شدَّةَ إحداثِهِم لِهَذا الباطِل وانفرادِهِم بإضلالِ أتباعِهِم.

سِرُّ تَكْرارِ شبه الجملة:

استِحقاقُ المُشرِكينَ التَّوبيخ

كُرِّر (لَهُمْ)؛ لإفادَةِ التَّوكيد، وللتَّسجيل على أهلِ الشِّرْكِ فيما سَلكوهُ مِن طُرُقِ الغواية، فكأنَّ النَّصَّ القرآنيَّ يُحيطُ بِهِم

---

(1) مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 10/ 6582، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 592.

مِن كُلِّ جانِبٍ؛ لومًا لَهُم على ضَلالِهِم، وهَذا أدخَلُ في التَّوبيخ وأقْوى في الزَّجْر.

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ ﴿مِّنَ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ بيانيَّة، وذلك لأنَّ فعلَ ﴿شَرَعُواْ﴾ يَرِدُ بِمَعْنى: سَنّوا لَهُم شرعًا، إلّا أنَّ فيه ضربًا مِنَ الإبهامِ، فجاء بيانُهُ أنَّه تشريعٌ دينيٌّ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿ٱلدِّينِ﴾:

الـشِّـرْكُ لَـيْـسَ بِـديـنٍ عَـلـى الحَقيقَةِ

عُبِّر بالدّين في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ من باب المُشاكلَةِ، وذلكَ لأنَّ اللّه سُبحانَهُ بيَّن ما شرعَهُ مِنَ الدّين ممّا وصّى به الأنبياءَ جَميعًا، فذكَر أنَّ أعداءَ الأنبياءِ - وهُم أهلُ الشِّرك - شَرَعَ لهُم شركاؤُهم ما يتعبَّدون به، وليسَ ذلك بدينٍ على الحَقيقَةِ.

ويجوزُ أن يكونَ التَّعبير بالدّين من بابِ التَّهكُّم بهم[1]، وذلك على سبيل الاستعارة التَّهكُّميَّة، إذ شبَّه شعائرهم مع شركائهم بأنَّها من شعائر الدّين، وذلك على سبيل التَّهكُّم بهم؛ إذْ إنَّ الذي أحدثوهُ إنَّما هو ضَلالاتٌ تُضادُّ الدّينَ، وتُنافيه.

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلدِّينِ﴾:

الإشارَةُ إلى خَطَرِ التَّضْليلِ وزَيْفِ الادِّعاءِ

(أل) في ﴿ٱلدِّينِ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ للجِنْسِ، والمَعْنى: شَرعوا لَهُم مِن جِنْسِ الدّينِ دينًا لَم يأذن اللّه تعالى بِشَرْعِهِ؛ إذ لَم يُرْسِل بهِ رَسولًا مِنهُ[2]، وفي ذلك إيماءٌ إلى زَيْفِ ادِّعاء أهلِ الشِّرك وخُطورَةِ تَضْليلِهِم؛ إذْ إنَّهُم ألْبَسوا ضَلالاتِهِم لَبوسَ الدّين الحقِّ.

---

(1) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 26/ 97.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 77.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿مَا﴾:

حقارَةُ التَّشريعِ الباطِلِ

﴿مَا﴾ من قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ اسمٌ موصولٌ في محل نصبٍ مفعولٌ به، أي: الَّذي لَم يأذن به اللّه تعالى، والمَعْنى: شرَعوا لَهُم مِنَ الدّينِ الذي لَم يأذَنِ اللّه تعالى بشرعِهِ، وفي التَّعبير بالاسم المَوْصول تحقيرٌ لشأنِ هذا التَّشريع الباطِلِ وحَطٌّ مِن شأنِه، وهو أليَقُ بسياقِ الإنكارِ عليهِم وتَوْبيخِهِم.

سِرُّ النَّفْيِ بِـ ﴿لَمۡ﴾:

بَلاغَةُ النَّفْيِ الشّامِلِ لِكُلِّ زَمَنٍ ماضٍ

جاء النَّفي بـ ﴿لَمۡ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾؛ لئلّا يُتوهَّم تقييدُ النَّفي بالماضي القَريب، بل يعُمُّ جميعَ أزمنَةِ المُضيِّ؛ إذ إنَّ ﴿لَمۡ﴾ تنفي المُضارع، وتقلِبُ دِلالتَه إلى المُضيِّ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالإذْنِ:

انتِفاءُ الإذنِ مُسْتَلزِمٌ انتِفاءَ الشَّرْعِ

عُبِّر بالإذنِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾، مع أنَّ المُطابقَةَ تَقْتَضي أن يُقال لهم: شَرعوا لَهُم مِن الدّين ما لَم يَشْرَعْهُ اللّه تعالى، وذلك لأنَّ الإذنَ أعَمُّ مِنَ الشَّرع، ونفيُ الأعمِّ أخصُّ من نفي الأخصِّ؛ وذلك لأنَّ الشَّرع يستلزِمُ ثبوتَ ذلكَ، وجعله شَرْعًا عامًّا مستمرًّا، والإذنُ يستلزِمُ الأمرَ بِهِ[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ المَنْفيِّ بِـ ﴿لَمۡ﴾:

استِمرارُ نَفْيِ الإذنِ بِالشِّرْكِ

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارع المَنْفيِّ بـ ﴿لَمۡ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾؛ للدَّلالة على الاستمرارِ، والمُراد استمرارُ النَّفي لا نفي الاستمرار، فإنَّ اللّه تعالى لَم يأذَن بالشِّرك مُطْلَقًا، بل هو ممّا عُرِف قُبْحُه شرعًا وعقلًا، وما كان كذلك لا يأذنُ اللّه تعالى به بحالٍ، وفي التَّعبير بالمُضارِعِ المَنْفيِّ بـ ﴿لَمۡ﴾ إيماءٌ إلى

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 570.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 4.

أنَّ الشُّركاء المَزْعومين لَم يكونوا بأهلٍ للتَّشريع في الماضي، ولا هُم كذلكَ في الحالِ ولا الاستِقبالِ.

مَعْنى الباءِ في ﴿بِهِ﴾ ودلالَتُها:

التَّشْريعُ حَقٌّ للهِ تَعالى وحْدَهُ

الباءُ في ﴿بِهِ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ تدلُّ على الإلصاقِ - كما هو الأصلُ فيها - وفي هذا إيماءٌ إلى الصِّلة الشَّديدة بين الإذنِ في الشَّرع وبين اللّه ﷻ، وأنَّه لا يَمْلِكُ حقَّ التَّشريع إلّا اللّه سُبْحانَه، فتشريعُ الشُّركاء لأهل الشِّرك دينًا تشريعٌ باطلٌ؛ لكونِهم تلبَّسوا بما لا سُلْطانَ لَهُم عليه.

سِرُّ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿بِهِ﴾:

استِهجانُ التَّشريعِ الباطِلِ واستِقباحُهُ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾؛ لإفادة الاهتِمام بالمُقَدَّم، وهو التَّشريعُ الباطلُ الذي جاء نفيهُ، وذلك يُبْرِزُ استهجانَ الأمرِ واستِقباحَهُ ابتداءً، فيكون أشَدَّ في التَّوبيخ وأبلَغَ في التَّقريع.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالاسمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهُۚ﴾:

المُبالَغةُ في إبطالِ التَّشريعِ الفاسِدِ

في التَّعبير بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُۚ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ تعظيمٌ للرَّدِّ على أهل الشِّرك، ومبالغةٌ في إبطالِ ذلك التَّشريع الفاسِد؛ وذلك لأنَّ الاسمَ الأحسنَ ﴿ٱللَّهُۚ﴾ جامِعٌ لأوصافِ الجَلال والكمال والعظمَةِ، ولا يَصْدُرُ مِنَ العَظيم إلّا عظيمٌ.

دلالَةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَوۡلَا﴾:

تَهديدُ المُشركينَ بَعدَ بَيانِ ضَلالِهِم

الواوُ في ﴿وَلَوۡلَا﴾ مِن قول اللّهِ سُبْحانَه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ عاطفةٌ[1] الجملَةَ بعدَها على جُمْلَة: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالَيْنِ؛ إذِ

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 28.

الجُمْلَتان خبريَّتان، وبينَهُما تناسُبٌ في المَعْنى؛ لِوُرودِ الثّانية تَهديدًا لأهلِ الشِّرك المذكورين في الجملةِ الأولى.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِ (لَوْلا):

شُمولُ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى وعَظيمُ حِكْمَتِهِ

(لولا) في قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ حرف امتناع لوجودٍ، وهي مفيدةٌ معنى الشَّرْطِ، وجوابُه: (قُضِيَ بَيْنَهُمْ)، وفي التَّعبير بالشَّرط إيماءٌ إلى عظمةِ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحانَهُ وجليلِ حِكْمَتِه، وأنَّ تأخيرَ القَضاء بينَهُم ليسَ عَن عجزٍ، وإنَّما ذلك ناشِئٌ عَن حِكْمَةٍ بَديعةٍ في هذا التَّأخير.

دلالَةُ إضافَةِ ﴿كَلِمَةُ﴾ إلى ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾:

عَظَمَةُ اللهِ تَعالى في التَّدْبيرِ والحُكْمِ

إضافَةُ ﴿كَلِمَةُ﴾ إلى ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ إضافةٌ يُراد بها التَّعيين، وأنَّ المراد بالكلمة: قضاءُ اللّهِ تعالى السّابقُ، وفي هذا إيماءٌ إلى عظمة اللّه سُبحانه في تدبيرِه وحُكمه بينَ العِبادِ.

دلالَةُ إفْرادِ لَفْظِ ﴿كَلِمَةُ﴾:

تَحَقُّقُ الأمْرِ الإلَهِيِّ وعَدَمُ تَخَلُّفِهِ

أُفْرِدت لفظة ﴿كَلِمَةُ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الأمر الإلهيَّ يَنْفُذُ بقَوْلٍ واحدٍ، سواءٌ أتعلَّق ذلك بتحقيقِ أمرٍ أم بتأجيله، وهذا يدلُّ على جلالةِ التَّدبير الإلهيِّ وسُموِّ حُكْمِه.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفَصْلِ دونَ القَضاءِ أوِ الحُكْمِ:

الدَّلالَةُ عَلى حَسْمِ الحُكْمِ وإنْفاذِهِ

عُبِّر بالفصل في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ دون القضاءِ أو الحكم؛ لكونِ ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ أبلغَ في الدَّلالة على الحَسْمِ والتَّمييز بين الحقِّ والباطل، وقَطْعِ النِّزاع بين المُتخاصِمَيْن، بخلاف الحُكْم فإنَّه قد لا يكونُ مُلْزِمًا، والقضاءُ قد يُؤخَّرُ، فكانَ التَّعبير بالفصلِ أدلَّ على حَسْمِ الحُكْمِ وإنفاذِه.

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ تدلُّ على الكمالِ، فَهو الفَصلُ الكامِلُ الَّذي يُمَيِّز بينَ الحقِّ والباطلِ أتمَّ تَمييزٍ وأبينَهُ.

دلالَةُ اللّامِ في ﴿لَقُضِيَ﴾:

التَّرابُطُ بَيْنَ القَضاءِ والتَّقْديرِ السّابِقِ

اللّام في ﴿لَقُضِيَ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ واقِعَةٌ في جَواب الشَّرط غيرِ الجازِم، فَهيَ تومِئُ إلى التَّرابط المَعْنَويِّ بين القَضاء بينَ العِبادِ وتقدير الله تَعالى السّابق، وأنَّ الله سُبۡحانَهُ إنَّما أخَّر القضاءَ بينَهُم لحكمةٍ بديعةٍ مودَعَةٍ في تَقْديره الأوَّلِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالقَضاءِ في قَوْلِهِ: ﴿لَقُضِيَ﴾:

قُـرْبُ الإنْفاذِ لَولا الحِكْمَةُ في التَّأْجيلِ

جاءَ التَّعبير بالقَضاء في قولِ الله تَعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾؛ لِما يتضمَّنه لفظُ القَضاء مِنَ الحَسْم والإنفاذِ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هذا القضاءَ قريبٌ وقوعُهُ لولا أنَّ حِكمة الله سُبۡحانَهُ اقتَضَت تأجيلَهُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِالفِعْلِ الماضي مَبْنيًّا لِلمَفْعولِ (قُضيَ):

هَـوانُ المُشْرِكينَ وعَجْزُهُم

عُبِّر بالفعل الماضي مبنيًّا للمفعولِ (قُضي) في قول الله تَعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾؛ للإشارة إلى هوان شأنِ المُشْركينَ[1] وعَجْزِهم عَن مُقاومَةِ العَذاب أو الفرارِ مِنْهُ، وفيه إيماءٌ إلى عظمةِ الله تعالى سُبۡحانَهُ بَطَيِّ ذِكْرِهِ لفظًا؛ لأنَّه لا يَقْضي - على الحقيقة - إلّا هو ﷻ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بِالظَّرفيَّةِ ﴿بَيۡنَهُمۡۗ﴾:

العَدْلُ الإلَهيُّ في الحُكمِ بَينَ المُتَنازِعينَ

في التَّعبيرِ بالظَّرفيَّة ﴿بَيۡنَهُمۡۗ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ إشارةٌ إلى الفَصلِ والتَّمييز بينَ المُختَلِفين

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 292.

المُتنازِعين، وهُم أهلُ الحقِّ وأهل الباطل، وفي ذلك دلالةٌ على شُمول القَضاء ممّا يَسْتَلْزِمُ ثبوتَ العَدالَةِ الإلهيَّة في الحُكْم بينَ الخلائقِ.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

زَيْـفُ الشُّرَكاءِ وهَوانُ أمرِهِم

الضَّمير في ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ راجعٌ إلى المُؤْمنين والمُشْركين، ويجوز أن يكونَ مرجعُ الضَّمير المُشْركين وشركاءَهُم[1]، وفيه على الوجهِ الأوّل إبرازٌ للعَدالَة الرَّبّانيَّة في الفَصْلِ بين الفريقَيْن المُخْتَلِفَيْن في الإيمان والكُفْر، وعلى الوجهِ الآخر فيهِ إظهارٌ لسَخافَةِ عُقول المُشْركين وبيانٌ لانحرافِها؛ إذ سَيُقْضى بينَهُم وبينَ ما عَبدوهُم مِنَ اللّه تعالى؛ ليبرُزَ زَيْفُ الشُّركاء وهوانُ شأنِهم.

دلالَةُ الواوِ في قَوْلِه: ﴿وَإِنَّ﴾:

تَحَقُّقُ المُؤاخَذَةِ رُغْـمَ تَـأْخـيرِ العَذابِ

الواوُ في ﴿وَإِنَّ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جُمْلَة: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ إذِ الجُمْلَتانِ خبريَّتان، وبينَهُما تناسُبٌ في المَعْنى، وذلك أنَّ الجُمْلَةَ الثّانية جاءت لتَحْقيق إمهالِهم إلى أجلٍ مُسَمّى، وأنَّ تأخيرَ العذاب عَنْهُم لا يَجْعَلُهُم مُفْلَتين مِن المُؤاخذَةِ بسبَبِ ظُلْمِهم[2].

سِرُّ التَّأْكيدِ بِـ (إنَّ) والجُمْلَةِ الاسميَّةِ:

الـرَّدُّ عَلى إنكارِ المُشْرِكينَ

أُكِّد قول اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّة الجملةِ؛ لأنَّ الخبرَ موجَّه إلى أهلِ الشِّرك، وهم يَسمَعونَ هَذا الكلامَ، ويَعْلَمونَ أنَّهُم المَقصودونَ به، والحالُ أنَّهُم يُنْكِرون أن يقعَ بِهِم العذابُ، فأُكِّد الكلامُ لَهُم مُقارعةً لإنكارِهِم[3].

(1) القِنّوجي، فتح البيان: 12/ 295.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 77.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 292، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 77.

دلالَةُ التَّعبيرِ بِالظَّالِمِينَ دونَ المُشْرِكينَ:

في التَّعبير بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دونَ (المُشْرِكينَ) مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تعليقٌ للوَعيدِ باللَّفظ الأعمِّ الأشمَلِ؛ إذ عُلِّق تعذيبُهُم العذابَ الأليمَ على جميع صوَرِ ظُلْمِهم الَّتي تَلَبَّسوا بها، وأعظَمُها: الشِّرْكُ؛ إذ هو أعظمُ الظُّلم، فكان في التَّعبير بالظُّلم دون الشِّرك جمعٌ بين الخُصوص والعُموم، فهو يُشير إلى شِرْكِهم أصالةً، وإلى سائِرِ مَظاهِرِ ظُلْمِهم، سواءٌ أتعلَّق ذلك بِظُلْمِهم أنفسَهُم أم بِظُلْمِهم الخلقَ.

الـجَـمْـعُ بَـيْنَ خُصوصِ الشِّرْكِ وعُـمـومِ صـوَرِ الظُّلْمِ

دلالَةُ التَّعبيرِ عَنِ الظُّلْمِ بالاسمِ دونَ الفِعْلِ:

عُبِّر عن الظُّلم بالاسم دونَ الفِعلِ في قول اللّه تَعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فلم يَرِد في النَّظْم القُرآنيِّ: (وإنَّ الذين يظلمون)؛ لِما يدُلُّ عليه الاسمُ مِنَ الثُّبوت والدَّوام، ممّا يَقْتَضي أنَّ الظُّلم فيهم صِفَةٌ راسخةٌ لا أمرٌ عارضٌ، وهذا أدلُّ على استِحقاقهم العذابَ الأليمَ.

بَـيـانُ استِـحـقـاقِـهـمُ العَذابَ الأليمَ

دلالَةُ تَقديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَهُمۡ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُمۡ﴾ في قول اللّه تَعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لإفادة القصرِ والاختصاص، والمَعْنى: أنَّ الظّالمين ليسَ لَهُم نصيبٌ في الآخرةِ إلّا العذاب المُؤلِم الشَّديد.

لَيْسَ لِلظَّالِمينَ نَصيبٌ حَسَنٌ في الآخِرَةِ

سِرُّ وصْفِ العَذابِ بِالألَمِ دونَ العَظَمَةِ أوِ الشِّدَّةِ:

وَصْفُ العذابِ بالأليمِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لِما في الظُّلم مِنَ الإيلام، فالشِّرك باللّه تعالى يُؤلم نفوسَ المُوَحِّدين، وظُلْمُ النَّفسِ يُؤلِمُها ذاتَها، وظُلْمُ الخَلق مؤلمٌ لهم، فكلُّ هذا اقتَضى أن يكونَ جزاءُ الظّالمين عذابًا أليمًا، فقال سُبْحانَه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ ليكونَ الجزاءُ مِن جِنْسِ العَمَلِ.

دِقَّـــةُ الـبَـيـانِ القُرآنيِّ في اختيارِ الألفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

دلالَةُ التَّنْكيرِ في ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

نُكِّر ﴿عَذَابٌ﴾ ووُصِفَ بـ﴿أَلِيمٌ﴾ من قول الله سُبْحانَه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لإفادة التَّعظيم والتَّهويل، ممّا يَجْعَلُه أبلغَ في التَّهديد وأشَدَّ في التَّخويف.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الدّينُ والمِلَّةُ:

بينَ المِلَّةِ والدّينِ فَرْقانِ[1]:

المِلَّةُ اسمٌ لِجُمْلَةِ الشَّريعَةِ

أوَّلُهُما: أنَّ المِلَّةَ اسمٌ لجملةِ الشَّريعَة، بخلاف الدّينِ فهو اسمٌ لما عليهِ كُلُّ واحدٍ من أهلِ الشَّريعة، ولذا يُقالُ: فلانٌ حسنُ الدّين، ولا يُقال حسنُ المِلَّة، بَل يُقالُ: هوَ من أهلِ المِلَّة، ويُطْلَقُ الدّين أيضًا على جملَةِ الشَّريعَة، كقولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19].

ثانيهما: أنَّ المِلَّةَ لا تُضافُ إلّا إلى النَّبيِّ الذي تُنْسَبُ إليْه، كقولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: 95]، ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ [يوسف: 38]، ولا تَكادُ توجَدُ مُضافَةً إلى اللّهِ ﷻ، ولا إلى آحادِ أُمَّةٍ غَيْرِ النَّبيِّ.

وذكر العسْكَريُّ[2] أنَّ المِلَّةَ اسمٌ للشَّرائعِ مع الإقرارِ باللّهِ سُبحانَهُ، بخلافِ الدّين فهو ما يذهبُ إليه الإنسانُ معتقدًا أنَّه يُقرِّبُهُ إلى اللّهِ تَعالى؛ وإن لم يكُنْ فيه شرائعُ، وفرَّع على هذا أنَّ المِلَّة أعمُّ من الدّين، فكلُّ مِلَّةٍ دينٌ، وليسَ كلُّ دينٍ مِلَّةً، وذلك لأنَّ النَّصرانيَّةَ - مثلًا - مِلَّةٌ، بخلافِ الشِّرْكِ فهو دينٌ، وليسَ مِلَّةً، ثُمَّ لمّا كان هذا مُشْكِلًا؛ ذكَرَ بأنَّ اللَّفْظتينِ تتقارَضانِ، بأن تُطْلَقَ إحْداهُما مَوْضِعَ الأُخْرى.

وهذا فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ الأصلَ أنَّ كُلَّ لفظةٍ لها دِلالَتُها الَّتي تختصُّ

(1) الرّاغب، المفردات الكريم: (ملل)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 220.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 220.

بها، لا يُعْدَلُ عن هذا إلّا لدليلٍ قويٍّ، ولا دليلَ يدلُّ على الفرقِ الَّذي مالَ إليه، بل إنَّ ظاهرَ آيةِ يوسُفَ عليه السلام تَرُدُّ هذا الفرقَ، فإنَّ فيها: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: 37]، فسمَّى ما هُم عليهِ ملَّةً، مع التَّنصيص على عَدَمِ إيمانِهم باللّهِ عز وجل ولا باليوم الآخِرِ، وهذا عينُ الشِّرْكِ.

القَضاءُ والحُكْمُ:

الحُكْمُ أعَمُّ مِنَ القَضاءِ

في التَّفريقِ بينَ القَضاء والحُكْمِ مَسْلكان[1]:

أوَّلُهما: أنَّ القضاءَ يَقتَضي فَصلَ الأمرِ فَصلًا تامًّا، بخلافِ الحُكم فإنَّه يَقتَضي المَنْعَ مِن الخُصومَة؛ إذ أصلُ الحُكْم دالٌّ على المَنْعِ، فيكونُ الحُكْمُ أعمَّ مِنَ القَضاء؛ لأنَّ المَنْعَ مِنَ الخُصومَةِ قَد يكونُ بغيرِ قضاءٍ.

والآخَرُ: أنَّ الحُكم فصلُ الأمرِ على الأحكام بما يَقْتَضيه الشَّرع والعَقْلُ، ولِذا إذا قيلَ: حَكَمَ فلانٌ بالباطِل، فإنَّ المُراد: أنَّه جعل الباطِلَ مَوْضِعَ الحقِّ، ويُستعمَلُ الحُكْمُ في مَواضِعَ لا يُستَعمَلُ فيها القضاءُ، فيكون الحُكمُ أعمَّ مِنَ القَضاءِ أيضًا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 190.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢﴾ [الشورى: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بَيانُ حالِ المُؤْمِنينَ والكافِرينَ يَوْمَ القيامَةِ

لمّا كانَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ دالًّا على أنَّه سُبحانَهُ يَفصِلُ بينَ أهل الإيمانِ وأهل الكفر يوم القيامة؛ أعقبه بشرح حالِ الفريقين في ذلك اليوم، فقال ﷻ: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَسَبُواْ﴾: (كسب) تدلُّ تصريفاتُه على جَمْعِ الشَّيءِ وتحصيلِهِ شيئًا بعدَ شيءٍ بِضَربٍ مِنَ الجُهْدِ[2]، ومِنْهُ: الكَسْبُ، وهو الابتغاءُ والطَّلَبُ والإصابةُ[3].

والكَسْبُ في قولِهِ تَعالَى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ بمعنى العَمَلِ، أي: ممّا عَمِلوهُ من السَّيِّئاتِ[4].

2) ﴿وَاقِعُۢ﴾: (وقع) تدورُ اشتِقاقاتُه على ثبوتِ الشَّيءِ وسقوطِهِ[5]، يُقالُ: وقع الشَّيءِ وقوعًا، فهو واقِعٌ، ومنهُ الواقِعَةُ، وهو اليومُ الآخِرِ؛ لأنَّها تقَعُ بالخَلْقِ، فتَغْشاهُم[6]، ومواقِعُ النُّجوم: مساقِطُها، كما قال

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 292 - 293.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (كسب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسب).
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 80.
(5) الرّاغب، المفردات: (وقع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقع).

اللّهُ تعالى: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة: 75][1]، وقول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ معناهُ: والعذابُ نازِلٌ بهِم لا محالَةَ[2].

3) ﴿رَوۡضَاتِ﴾: (روض) تدلُّ تَصْريفاتُه على رخاوَةِ الأرْضِ مِن تَشَبُّعِها بالماءِ والرُّطوبة، ويلزَمُ مِن ذلكَ كثرةُ نباتِها وخُضْرَتُها[3]، والرَّوضة في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾: الموضِعُ الكثيرُ الخُضْرَة، وروضات الجنّاتِ: أطيب مساكِنها كما أنَّها في الدُّنيا أحسن أمكنتِها[4].

4) ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾: (فضل) تدور تصاريفُه على زيادَةٍ في شيءٍ، ومِنْهُ: الفَضْلُ، وهو الزّيادَةُ والخيرُ، والإفضالُ: الإحسانُ[5]، والفَضْلُ نوعانِ: محمودٌ؛ كفضلِ العِلْمِ والجودِ، ومذمومٌ، كفضْلِ الغضَبِ على ما ينبغي أن يَكونَ عَلَيهِ، إلّا أَنَّ استعمالَ الفَضْلِ في المَحمودِ أكثَرُ[6].

والفَضْلُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ بمعنى التَّفوُّق والشَّرف[7].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

بَيانُ حالِ الظّالِمينَ وحالِ المُؤْمِنينَ يَومَ القيامَةِ

يَذْكُرُ اللّهُ تَعالى حالَ الظّالمِين يومَ القيامة، وهُم يعيشون في خوف شديدٍ؛ لِما اقترفوه في الدُّنيا من أعمالٍ سيِّئة، والعذابُ واقِعٌ بهم - لا محالةَ - وبَيَّن سُبْحانه حالَ أهلِ الإيمان الذين عَمِلوا الصّالحات، وهُم في رَوْضاتِ الجنّات يتنعَّمون بما يَشاؤون عندَ ربِّهم، ذلك الجزاءُ العَظيم الذي خَصَّهم به هو الفَضْلُ الكبيرُ الذي لا يُضاهى[8].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقع).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 252.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (روض).
(4) القِنّوجي، فتح البيان: 12/ 295.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(6) الرّاغب، المفردات الكريم: (فضل).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 80.
(8) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 485.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هَذِهِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

بَيانُ إشفاقِ الظّالِمِينَ ونَعيمِ المُؤمِنينَ

فُصِل قولُ اللّهِ تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِوقوعِه استِئنافًا بيانيًّا[1]، وذلك أنَّ هذه الجملةَ واردَةٌ جوابًا عَن سُؤال يُفهم مِن جملة: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وهو: ما حالُهُم حينَ تَوَقُّع حلولِ العذاب؟[2] فجاء الجوابُ: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾، ويجوز أن تكون هذه الآيةُ جوابًا عن سُؤال يُفهم من جملة: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾، وتقديره: ما حالُ الفَريقينِ يومَ يُفصل بينَهم؟ فجاءَ الجوابُ في الآيةِ مبيِّنًا حالَ أهلِ الكُفْرِ وأهلِ الإيمانِ جميعًا.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالرُّؤْيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَرَى﴾ معنًى وصيغة:

استِحضارُ حالِ الظّالِمينَ في الآخِرَةِ

الرُّؤية في قولِ اللّه تَعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ بصريَّةٌ[3]، وفي التَّعبير بفعل الرُّؤية مضارعًا - وهو دالٌّ في الأصلِ على الحالِ - استِحضارُ صورَةِ حالِ الظَّلمة يومَ القيامَة في ذِهْنِ المُتَلَقّي[4].

بَيانُ المُخاطَبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَرَى﴾:

عُلوُّ مَرْتَبَةِ النَّبيِّ ﷺ في الفَهْمِ والإدْراكِ

المُخاطَبُ في ﴿تَرَى﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ يجوز أن يُرادَ بِه النَّبيُّ ﷺ، فيكون النَّظم القرآنيُّ قَد أقبَلَ على أعلى الخَلْق؛ إشارَةً إلى أنَّ ما بعدَهُ لا يفهَمُهُ حقَّ الفَهْمِ وكمالَهُ، ولا يوقِنُ به حقَّ الإيقانِ إلّا هو ﷺ[5].

ظُهورُ فَظاعَةِ حالِ الظّالِمِينَ

ويجوز أن يكونَ الخِطاب لكلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه، فيكون ضميرُ الخِطاب خرجَ عن أصلِه في إرادةِ المُعَيَّن إلى معنى العُموم، والمَعْنَى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 29.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 78.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 33.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 78.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 293.

على هذا: أنَّ حال الظّالِمين في السّوءِ مِن الوُضوح والظُّهور بحيثُ لا تختصُّ برؤيَةِ أحدٍ دونَ آخرَ[1].

بَلاغَةُ وضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:

تَشديدُ التَّوبيخِ والتَّشهيرِ بالظُّلْمِ

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ إظهارٌ في مَوضِعِ الإضمارِ؛ وذلكَ لأنَّ مُقْتَضى الظّاهر أن يَرِدَ في النَّظْم القرآنيِّ: (تراهم مُشْفِقين ممّا كسبوا)، وذلك لتقدُّم التَّصريح بالظّالِمين في الآية قبلُ: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ وذلك زيادة في التَّقريعِ والتَّوبيخ؛ إذِ الإظهار يُبْرِزُ جُرْمَهُم أتمَّ إبرازٍ، ويُشَهِّر وصفَهُم بالظُّلم مرَّة أخرى، وهذا أدخلُ في التَّخويف مِن مَصيرِهِم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالإشْفاقِ دونَ الخَوْفِ:

الإشْفاقُ ألْيَقُ بِمَقامِ التَّهْديدِ والتَّخْويفِ

عُبِّر بالإشفاقِ دونَ الخَوْفِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ تهديدٍ وتخويفٍ، والإشفاقُ أنسَبُ لتَحْقيقِ هذا المَقْصودِ، وذلكَ لأنَّ الإشفاقَ هو أشدُّ الخوفِ، وهو ملائِمٌ لِحالِ مَن يُحاسِبُه مَن هو أعلى مِنْهُ، والمُحاسَبُ مقصِّرٌ مفرِّطٌ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالاسْمِ ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ دونَ الفِعْلِ:

بَيانُ شِدَّةِ حالِ الظَّلَمَةِ يَوْمَ القِيامَةِ

عَبَّر النَّظم القرآنيُّ عن الإشفاقِ بالاسم في قول اللّه تَعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ دون الفعلِ، فلَم يَرِد في البيان القُرآنيِّ: (ترى الظّالِمين يُشْفِقون ممّا كسبوا)؛ لأنَّ الاسمَ أبلَغُ في الدَّلالة على الاستمرارِ والدَّوام، فلِشِدَّةِ الحال الَّتي يَكونونَ عَلَيْها يومَ القيامَةِ لا ينفَكُّ الإشْفاقُ عَنْهُم طَرْفَةَ عَيْنٍ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بِـ (مِنْ) في ﴿مِمَّا﴾:

إشْفاقُ الظَّلَمَةِ بِسَبَبِ سوءِ صَنيعِهِم في الدُّنيا

(مِنْ) في ﴿مِمَّا﴾ مِن قول اللّهِ سُبْحانَه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ

---

(1) مكي القيسي، الهداية: 10/ 6582، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 29، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 293، والقنّوجي، فتح البيان: 12/ 295، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 78.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 293.

مِمَّا كَسَبُواْ﴾ حرفُ جرٍّ هو صلةُ الإشفاقِ، وفي الكلام حذفٌ، والتَّقديرُ: مُشْفِقين مِن وبالِ ما كسَبوا، ويحتَمِلُ أن تكونَ (مِنْ) يُراد بها التَّعليلُ، والمَعْنى: ترى الظّالِمين مُشْفِقين؛ بسبَبِ ما كسَبوهُ في الدُّنيا مِنَ المَعاصي، وهذا أدخَلُ في التَّهديد والوَعيدِ(1).

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِ(ما) في ﴿مِمَّا﴾:

إشفاقُ الظّالِمينَ مِن جَميعِ مَعاصيهِم

(ما) في ﴿مِمَّا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ اسمٌ مَوْصولٌ بِمَعْنى (الذي)، والعائدُ محذوفٌ، والتَّقدير: ترى الظّالِمين مُشْفِقين من الَّذي كَسَبوهُ، والاسمُ المَوْصولُ مِنَ الألفاظِ الَّتي تدلُّ على العُموم، وذلك يَقْتَضي أنَّ الظّالِمين يخافونَ أشدَّ الخَوْفِ من جميعِ ما كسبوهُ في الدُّنيا مِنَ المَعاصي والآثامِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالكَسْبِ:

خَوْفُ الظّالِمينَ مِن صَغائِرِ الذُّنوبِ وكَبائِرِها

عبَّر البيانُ القُرآنيُّ بالكسبِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ دون الظُّلْم، فلَم يرد في النَّظم القرآنيِّ: (مُشْفقين من ظُلْمِهم)، وذلك لأنَّ الكَسْبَ أعمُّ مِنَ الظُّلْم، فأفادَ التَّعبيرُ بالكسْبِ أنَّهم لأجل ظُلْمِهم يخافونَ من كلِّ ذنبٍ عَمِلوهُ، وإن قلَّ(2).

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿كَسَبُواْ﴾ ماضيًا دونَ (اكْتَسَبوا):

سُخْفُ عُقولِ الظَّلَمَةِ في اعتِقادِهِمُ الضَّرَرَ نافِعًا لَهُمْ

عُبِّر عن فعلِ الكَسْبِ ماضيًا في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾؛ لإفادةِ تحقُّقِ صُدورِ الذُّنوب مِنْهُم، وجاءَ التَّعبير بالكَسْبِ دونَ الاكْتِساب، فلَمْ يَرِد في البَيان القُرآنيِّ: (مُشْفقين ممّا اكْتَسَبوا)؛ لأنَّ الكلامَ في الذين ظُلْمُهُم هيئَةٌ راسخَةٌ لَهُم، بحيثُ كان كلُّ عَمَلِهِم وبالًا عَلَيْهِم، فعُبِّر بالكَسْبِ؛ لبيان أنَّهم يعملون ما يضرُّهم في الآخرة، وهُم يَعْتَقِدونَ أنَّ ذلك غاية ما يَنْفَعُهُم(3).

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 29.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 4.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 293.

دلالَةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ﴾:

قَطْعيَّةُ وُقوعِ العَذابِ بِهِم واستِحْقاقِهِم إيّاهُ

الواوُ في ﴿وَهُوَ﴾ مِن قول اللّه تَعالى: ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ واوُ الحالِ، والجملة بعدها حاليَّةٌ[1]، وهو حالٌ من ضمير ﴿مُشۡفِقِينَ﴾[2]، وأفاد ذلك أنَّ وقتَ إشفاقِهم هو وقتُ استِشعارِهم وقوعَ العذاب بهم؛ لأنَّ الأصل في الحالِ اقترانُه بعاملِه في الزَّمن، وهذا يدلُّ على حتميَّةِ حُلول العذابِ واستِحْقاقِهم إيّاهُ.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ (هوَ):

الإشارَةُ إلى جَزاءِ ما كَسَبوهُ مِنَ الذُّنوبِ

الضَّمير (هوَ) في قول اللّه ﷻ: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ يعودُ إلى (ما كَسَبوا) بتقدير مضافٍ، والمَعْنى: وجزاءُ ما كسَبوا واقِعٌ بِهِم[3]، وجزاءُ الذي كَسَبوهُ مِنَ الذُّنوب والآثامِ هو العذابُ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالوُقوعِ دونَ الإحاطَةِ:

تَصْويرُ نُزولِ العَذابِ وسُرْعَتِهِ

جاء التَّعبير بالوُقوع في قولِ اللّه تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ دون الإحاطَةِ، فلَم يَرِد في البيان القُرآنيِّ: (وهو محيطٌ بِهِم)؛ لِما في لفظِ الوُقوع من إفادةِ نُزولِهِ وتلبُّسِه بالمُعَذَّبين، بخلافِ لَفْظِ الإحاطَةِ؛ فإنَّه يدلُّ على الشُّمول والعموم مِن غيرِ بيانِ مَعْنى النُّزول بِهِم.

كما أنَّ لفظَ الوُقوع مُشْعِرٌ بِسُرْعَةِ نُزولِ العذاب بِهِم كما هو شأنُ الأشياءِ الواقِعَةِ، وهَذا أدخَلُ في التَّخويف والتَّرهيب.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الفاعِلِ ﴿وَاقِعُۢ﴾ دونَ الفِعْلِ:

إدْخالُ الخَوْفِ والمَهابَةِ في نُفوسِ الظَّلَمَةِ

في التَّعبير عن الوقوع باسْم الفاعل ﴿وَاقِعُۢ﴾ دونَ الفعل المُضارع (يقَعُ) في قول اللّه تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ

(1) القنوجي، فتح البيان: 12/ 295.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 29.

(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 397، والقنوجي، فتح البيان: 12/ 295.

﴿وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾؛ لِما في الاسمِ مِنَ الدَّلالة على الثُّبوت والدَّوام، وذلك أبلغُ في إدخالِ الخَوْفِ والمَهابَةِ في نُفوس الظّالِمين، بخلافِ التَّعبير بالفِعْلِ المُضارِعِ فإنَّه وإن أفادَ الاستمرارَ، إلّا أنَّه استمرارٌ تَجَدُّديٌّ، والدَّوام أبلغُ مِنَ الاستِمرار التَّجدُّديِّ.

دلالَةُ الباءِ في ﴿بِهِمۡۗ﴾:

تَصْويرُ العَذابِ المُلازِمِ لِلظّالِمينَ

الباءُ في ﴿بِهِمۡۗ﴾ مِن قول اللّه تَعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ تَحمِلُ مَعنى الاستعلاءِ، والمَعْنى: وهو واقِعٌ علَيهم، وفيهِ مَعنى الإلصاقِ المَجازيِّ[1]، وذلك يَقتَضي شدَّةَ ارتِباطِ العذابِ بالمُعَذَّبين ولزومَهُ إيّاهم، فالعذابُ لا يَحِلُّ بهم حُلولًا عارِضًا، بل يلزَمُهُم، ويَسْتَعْلي عليهِم، ويَكْتَنِفُهُم مِن كلِّ جانب، بحيثُ لا يجدونَ عنهُ مَخْلَصًا.

دلالَةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الإشـارَةُ إلى التَّـبـايُـنِ بَـيـنَ الإشـفـاقِ والاطمِئنانِ

الواوُ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مِن قول اللّه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ عاطفةٌ ما بَعْدَها على مفعولِ ﴿تَرَى﴾، والتَّقدير: وترى الَّذين آمَنوا، وعَمِلوا الصّالحات في رَوْضاتِ الجَنّات، ويجوز أن تكونَ عاطِفَةً على جميع الجُمْلَةِ قبلَها، فيكون (الذين) مبتدأً، و﴿فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ متعلِّق بخبر محذوفٍ[2]، ويكون عطفُها على ما قبلَها لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّط بين الكَمالَيْنِ؛ لاشتراكِ الجُمْلَتَيْنِ في الخبريَّة، ولِما بينَهُما مِنَ التَّناسب المَعْنَويِّ، وهو التَّضادُّ، وجائزٌ أن تكونَ الواو للحالِ، والمَعْنى: ترى الظّالِمين في إشفاقٍ في حالِ أنَّ المُؤْمِنين مُطمَئِنّون في رَوْضاتِ الجَنّات[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 78.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 293.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 79.

بَلاغَةُ المقابلة بين حال الظّالمين وحال المؤمنين:

تَصويرُ تَضادِّ حالِ الفَريقَيْنِ يَوْمَ القيامَةِ

على القولِ بأنَّ الواوَ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ من قول الله سُبْحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ حاليَّةٌ، فإنَّ الجُمْلَةَ الحاليَّةَ بعدَها تدلُّ على أنَّ المُؤمنين قَدِ استَقَرّوا في رَوْضاتِ الجنّاتِ قبلَ عَرْضِ الظّالمين على الحسابِ وإشفاقِهم مِن تَبِعاتِهِ، وهذا مِن تضادِّ حال الفَريقَيْنِ يومَ القيامةِ على عكْسِ ما كانوا عليهِ في الحياةِ الدُّنيا، والمَقْصودُ: اليومَ انقلبَ إشفاقُ أهلِ الإيمان اطمِئْنانًا، واطمئنانُ أهلِ الظُّلم والشِّرك إشفاقًا[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَوْصولِ وصِلَتِهِ:

الإيماءُ إلى سَبَبِ التَّكْريمِ ودُخولِ الجَنّاتِ

جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ (الذينَ) وصلتِهِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾؛ إيماءً إلى نَوْعِ الخَبَرِ المَحْكومِ به على المسنَدِ إليَه، وأنَّه مِن جنسِ التَّكريمِ والرِّفْعَةِ، وفيهِ إعلامٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم روضاتِ الجنّاتِ المذكورة في قولِهِ: ﴿فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾، وأنَّ هذه المَكْرُمَةَ مُسَبَّبَةٌ عَن إيمانِهم وعَمَلِهم الصّالحات.

وفي هذا تَرْغيبٌ في التَّلبُّسِ بالإيمانِ والعمَلِ الصّالِحِ؛ ليَنْدَرِجَ العبْدُ في سِلْكِ المُكْرَمينَ بروضاتِ الجنّاتِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَوْصولِ جَمْعًا:

كَثْرَةُ المُؤْمِنينَ العامِلينَ الصّالِحاتِ

إيرادُ الاسمِ المَوصولِ جَمْعًا في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾؛ فيهِ إشْعارٌ بكَثْرَةِ أهلِ الإيمانِ الَّذينَ جمَعوا معَ الإيمانِ العمَلَ الصّالِحَ، وكونُهُم كَثيرينَ لا يَلْزَمُ منهُ أنَّهُم أكثَرُ الخَلْقِ كَما هو ظاهِرٌ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تَحَقُّقُ وصْفِ الإيمانِ والعَمَلِ الصّالِحِ فيهِم

جيءَ بصِلةِ المَوْصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قولِهِ سُبْحانَهُ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 79.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾؛ للدَّلالَةِ علَى تحقُّقِ وصْفِ الإيمانِ والعَمَل الصّالحِ فيهِم.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ فِعْلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾:

حَقِيقَةُ الإيمانِ مُسْتَقِرَّةٌ في نُفوسِ المؤْمِنين، وهُم مُقِرّون بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ

حُذِفَ متعلِّقُ الفعلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ من قولِ الله تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾، وهو المُؤْمَنُ به، وفي ذَلِكَ مَسْلَكانِ:

أحدُهما: ظُهورُ أفرادِ المُؤْمَنِ به؛ وذلك لأنَّ لِلإيمان حقيقةً شرعيَّةً معروفةً، فإذا أُطْلِقَ لفظُهُ؛ انصرَفَ الذِّهْنُ إلى تلكَ الحقيقةِ، مِن غَيْرِ افتِقارٍ إلى التَّنصيصِ عَلَى مُتَعَلَّقِه.

والآخر: إرادَةُ العُمومِ؛ وذَلِكَ لأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مُشْعِرٌ بالعُمومِ، والمَعْنَى: آمَنوا بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ شَرْعًا.

فائِدَةُ عَطْفِ عَمَلِ الصّالِحاتِ عَلَى الإيمانِ:

شَرَفُ العَمَلِ الصّالِحِ وعَظيمُ مَنْزِلَتِهِ

عُطِفَ العملُ الصّالح على الإيمانِ في قَولِه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ هوَ مِن بابِ الإطْنابِ بِعَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذْ إنَّ حقيقةَ الإيمانِ: قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، فالعمَلُ داخِلٌ في مسمَّى الإيمانِ وحقيقتِهِ الشَّرعيَّةِ، والنُّكْتَةُ في عطفِ الخاصِّ على العامِّ التَّنبيهُ على شرفِ العمل الصّالِح بذِكْرِهِ مرَّتين، إحداهُما: مُنْدَرِجًا تحتَ لَفْظِ الإيمانِ، والأُخْرى: مُنْفَرِدًا.

فائِدَةُ ذِكْرِ الصِّفَةِ وحَذْفِ المَوْصوفِ:

الاقْتِصادُ في اللَّفظِ اكتِفاءً بالقرينة

في قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ إنَّ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ صِفَةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، والتَّقدير: وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحاتِ، والقَرينَةُ على تَعْيينِ المَحْذوفِ هوَ الفِعلُ (عَمِلوا)، فاكتُفيَ بِالقَرينَةِ عنِ التَّصْريحِ بِالمَوْصوفِ؛ اقتِصادًا في اللَّفْظِ وإيجازًا.

العَمَلُ الصّالِحُ هوَ الجامِعُ لِلإخلاصِ والمُتابَعَةِ

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُرادُ بها العَهْدُ العلميُّ؛ وذلك أنَّ العملَ الصّالحَ معروفَةٌ حقيقَتُهُ في الشَّرعِ، وأنَّه الجامعُ لأمرَينِ، أحدهما: الإخلاصُ للّه تعالى، والآخَر: المتابعَةُ لرَسولِ اللّه ﷺ.

ويَجوزُ أن تَكونَ اللّام للاستِغراقِ العُرفي، وفي هذا ضَربٌ مِنَ المُبالغَةِ في وصفِ أهلِ الإيمانِ، حتَّى كأنَّهم ما تركوا عملًا صالحًا إلّا ولَهُم فيهِ نَصيبٌ.

أعمالُ الخيرِ في الإسلامِ كثيرَةٌ أفرادُها ومُتنَوِّعَةٌ مَجالاتُها

نُكْتَةُ جمْعِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

جُمِعَتِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن قَولِ اللّهِ تَعالَى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لِلإيماءِ إلى الإتيانِ بها بأنواعِها دونَ الاكتفاء بِبَعْضِها؛ إذْ إنَّ أركانَ الإسلامِ وأعمالَ الخيرِ مُترابطةٌ، آخِذٌ بعضُها بِحُجَزِ بعضٍ، كما قال اللّهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: 208]، وفي التَّعبير بلفظ الجمع تخفيفٌ على المؤمنين من إفراد العمل الصّالح؛ لأنَّ الإفراد يقتضي أنَّه لا بدَّ أن تكون جميع أعمالهم صالحةً بلا استثناء عملًا عملًا، وهذا فيه من المشقَّة ما فيه عليهم، بخلاف لفظ الجمع الَّذي يقتضي أن تكون أغلب أعمالهم صالحة.

تَشريفُ أهْلِ الإيمانِ وإكرامُهُم

دلالَةُ حَرْفِ الجرِّ ﴿فِي﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الواردُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وهي ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ؛ لأنَّ المُؤمِنَ لا يكون في روضاتِ الجَنّات في وقتٍ واحِدٍ، وإنَّما هو في موضِعٍ واحدٍ مِنها، فالظَّرف أوسعُ مِنَ المَظروفِ، وهذا بناءً على أنَّ كلَّ واحدٍ من أهلِ الإيمانِ له روضاتُ الجنّاتِ.

ويجوز أن يكون المَعْنى على التَّوزيع، أي: لكلِّ واحدٍ روضةٌ؛ لأنَّ

(الذين) جمعٌ، و﴿رَوۡضَاتِ﴾ جمعٌ كذلك، ومقابلةُ الجمعِ بالجَمْعِ تَقْتَضي القِسْمَةَ آحادًا، والمَعْنى: كلُّ واحدٍ لهُ رَوْضَةٌ[1]، فتكون الظَّرفيَّة حقيقيَّةً.

إلّا أنَّ الأوَّل أبلغُ في الإكرامِ وأدخَلُ في تَشْريف أهلِ الإيمانِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـِ ﴿رَوۡضَاتِ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

كَثْرَةُ الرَّوْضاتِ عَدَدًا وأنْواعًا

عُبِّر بـ ﴿رَوۡضَاتِ﴾ في قول اللّه سُبْحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾؛ لِما تدلُّ عليه مادَّتُها مِن الخُصوبَةِ والرَّخاوة المُتَرَتِّبة عن تشبُّع الأرض بالماء، ممّا يَقْتَضي أنَّها أماكنُ عامرةٌ بالحياةِ والخُضْرَةِ وأصنافِ النَّعيم.

كما أنَّ البيانَ القرآنيَّ آثر التَّعبير بـ ﴿رَوۡضَاتِ﴾ جمعًا؛ لإفادة كثرةِ الرَّوضاتِ في عددها، أو تنوُّعِها في أصنافِها، ولا مانعَ مِن إرادَتِهِما معًا، فهي كثيرةُ العددِ مختلفةُ الأنواعِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بـِ ﴿ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ تنكيرًا وجَمْعًا:

تَنْشيطُ القُلوبِ لِتَحْصيلِ أسْبابِ دُخولِ الجَنَّةِ

في جَمْعِ الجَنّات مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ دلالَةٌ عَلى أنَّها ليسَتْ جنَّةً واحِدَةً، وإنَّما تَشْتَمِلُ عَلى جَنّاتٍ كثيرَةٍ مُتَعدِّدة؛ إذِ الجنَّةُ في الآخرةِ تشتمِلُ على جِنانٍ كثيرةٍ.

وهذا أقْوى في التَّرغيب، وأنشَطُ لقُلوبِ المتلقّينَ على فِعْلِ أسبابِ تحصيلِها، وأفاد تنكير الجنّات تعظيمها وتفخيمها، كما يمكن أن يفيد التَّنكير النَّوعيَّة، فهي جنّاتٌ ليست من جنس الجنّات الَّتي يعرفونها.

دلالَةُ إضافَةِ الرَّوْضاتِ إلى الجَنّاتِ:

عَظَمَةُ الجَزاءِ الإلَهيِّ في إكرامِ المُؤْمِنينَ

إضافَةُ ﴿رَوۡضَاتِ﴾ إلى ﴿ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ في قول اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ يدلُّ على تميُّزها بالشَّرف

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 5.

والطّيب[1]، فهي أحسنُ بقاعِ الجنانِ وأطيَبُها، وفي هذا إيماءٌ إلى عظمَةِ الجَزاءِ الإلهيِّ، وشدَّة إكرام اللّه تَعالى لأهلِ الإيمانِ.

إشفاقُ الظّالِمِينَ واطمِئنانُ المُؤمنينَ

بَلاغَةُ الاحتِباكِ في الآيَةِ:

في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ﴾ احتباكٌ، وهوَ المُسَمّى بحذفِ التَّقابُلِ أو الحذف المُقابَليِّ، وذلكَ لأنَّه أثْبَتَ الإشفاقَ للظّالمين أوّلًا؛ للدَّلالةِ على إثباتِ الأمْنِ والطُّمأنينَةِ للمُؤْمنينَ ثانيًا، وأُثْبِتَ الجَنّاتُ ثانيًا دليلًا على حذفِ النّيرانِ أوّلًا[2]، فيكون تقديرُ نَظْمِ الآيَةِ: تَرى الظّالمين مُشْفِقين ممّا كسَبوا، وهو واقِعٌ بِهِم، وهُم في النّيران، وتَرى الَّذين آمَنوا، وعَمِلوا الصّالحات آمِنينَ مُطْمَئِنّين، وهُم في رَوْضاتِ الجنّاتِ.

لَيسَ لِلظّالِمِينَ المُشْرِكِينَ مِنَ الجَزاءِ في الآخِرَةِ شَيءٌ

دلالَةُ التَّعْبيرِ باللّامِ في ﴿لَهُم﴾:

اللّامُ في ﴿لَهُم﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ﴾ للاختِصاص[3]، فلا يُشارِكُهُم في ذلكَ غيرُهُم، وفي ذلكَ تَعْريضٌ بأهْلِ الظُّلْمِ والشِّركِ بأنَّه لَيْسَ لَهُم نَصيبٌ من هذا الجزاءِ العظيمِ.

في تفخيم جزاء المؤمنين تعريضٌ بجزاء الظّالمين

نكتَةُ تقديم شبه الجملة: ﴿لَهُم﴾:

أفاد تقديمُ شبه الجملة هنا معنى الاختصاص، على معنى أنَّ هذه الجنّات لهم، وليست لغيرهم، وقد يكون غرض التَّقديم هو تعجيل ما يسرُّهم.

سَعَةُ فَضْلِ اللهِ تَعالى عَلى أهْلِ الإيمانِ

دلالةٌ بالمَشيئَةِ دونَ الطَّلَبِ:

عُبِّر بالمَشيئَةِ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ﴾ دون الطَّلَبِ، فلَم يَرِد في النَّظْم القُرآنيِّ: (لَهُم ما يَطّلبون)؛ لبيانِ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 30.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 294.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 275، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 79.

سَعَةِ فَضْلِ اللّه تعالى عَلَيهم، وعظيم إكْرامِه لَهُم، حتّى إنَّ مجرَّد رَغْبَتِهم في شيءٍ ما يَقْتَضي إحضارَهُ لَهُم مِن غيرِ حاجَةٍ إلى سُؤالِه أو طَلَبِه.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالظَّرفيَّةِ:

عَظَمَةُ الجَزاءِ وسَعَةُ الكَرامَةِ لِلمُؤْمِنينَ في الآخِرَةِ

العِنْديَّةُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ يجوز أن تكون حقيقةً أو مجازًا[1]، فحَمْلُها على الحقيقةِ مَعْناهُ: أنَّ ما يشاؤونَهُ يَجِدونَهُ حقيقةً في جِوارِ ربِّهم في الجنَّة، ويجوز أن تكونَ عنديَّةً مجازيَّةً، على مَعْنى أنَّ ما يشاؤونه مُتَحَقِّقٌ بعِنايةِ اللّه تَعالى ورعايَتِه، فعُبِّر عن هذهِ الرِّعاية والعنايَةِ الإلهيَّة بالعِنديَّة للإيماءِ إلى المَكانَةِ الرَّفيعَة، وكِلا الوَجهَيْنِ فيهِ دلالَةٌ على عظمَةِ الجَزاءِ وسَعَةِ الكَرامَةِ لأهلِ الإيمانِ في الجَنَّة.

دلالَةُ الإضافة في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾:

اسمُ اللهِ تَعالى (الرَّبِّ) دالٌّ عَلى عَظيمِ الإحسانِ والرِّعايَةِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ بإضافةِ الظَّرف إلى اسمِ اللّه تَعالى الرَّبِّ دلالَةٌ على التَّشريف وعظيم العِناية[2]، وأنَّ ذلك مِن جُمْلَةِ إحسانِ اللّه تعالى إليهم؛ إذ ذلكَ مِن مُقْتَضياتِ اسم اللّه سُبْحانَهُ (الرَّبِّ).

بَلاغَةُ تَرتيبِ الأخبارِ عَنِ الاسمِ المَوصولِ (الذين):

التَّدَرُّجُ في التَّشْريفِ والعَطاءِ

(الذين) مِن قول اللّه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ يجوزُ أن يكون مبتدأً، وخبره: ﴿فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾، وقوله سُبْحانه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ خبرٌ ثانٍ، وجائزٌ أن يكون الخبرُ الثّاني قولَه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾، ويكون قولُه: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ خبرًا ثالثًا، ورُتِّبت الأخبارُ على طريقَةِ التَّرقّي مِنَ الأدْنى إلى الأعْلى، مُراعًى فيهِ تَرْتيبُ الوجودِ أيضًا، فأمّا التَّرقّي:

(1) القِنوجي، فتح البيان: 12/ 296.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 79.

فلأنَّه سُبْحانَهُ أخبَر عنهم بأنَّهم نزلوا في أحسَنِ موضِعٍ وأطْيَبِه، ثُمَّ أُحْضِرَ لَهُمْ ما يشتهونَه، ثُمَّ ارتَقى إلى ما هو أفخَمُ، وهو كونُهُم عندَ ربِّهم، وأمّا ترتيبُ الوُجود؛ لأنَّ الضَّيف يَنْزِلُ أوَّلَ قُدومِهِ في أحسنِ موضعٍ، وهو منزلُ إكرامٍ، ثُمَّ يُحضَر بينَ يديهِ القِرى ممّا يَشْتَهيه، ثُمَّ يُخالِطُه ربُّ المَنْزِل، ويَخُصُّه بالقُرْب والكَرامَة[1].

بَلاغَةُ التَّذْييلِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾:

بَـراعَـةُ الـخَـتْـمِ بِـجَـمْـعِ مَـعـانـي النَّعيمِ

قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ تذييلٌ[2]، وهو تذييلٌ غيرُ جارٍ مَجْرى المَثَل، وذلكَ لاحتياجِهِ إلى ما قبلَهُ في فَهْمِ تَمامِ المَعْنى، وجُمْلَةُ التَّذييل جَمَعَت معانيَ الجُمَلِ قبلَها؛ إذ تُفيد أنَّ ما تقدَّم ذِكْرُهُ من نَعيمِ الجَنَّة وما يُرْزَقُهُ المُؤْمِنونَ فيها هو فَضْلٌ إلهيٌّ ومِنَّةٌ ربّانيَّةٌ.

دلالَةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عَظَمَةُ الفَضْلِ وجَلالَةُ الجَزاءِ

عُبِّرَ باسمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، وهو دالٌّ عَلى البُعْدِ؛ للإيماءِ إلى عَظَمَةِ الفَضْلِ وجَلالَةِ الجَزاءِ وأنَّه عالي الرُّتْبَةِ والقَدْرِ، وهَذا على وجهِ الاستِعارَةِ؛ إذِ استُعيرَ اسمُ الإشارَةِ الدّالُّ على بُعْدِ المَكانِ في بُعْدِ المَكانَةِ والشَّرَفِ[3].

بلاغةُ القصرِ في التَّعبيرِ بِضَميرِ الفَصْلِ ﴿هُوَ﴾:

المُبالَغَةُ في بَيانِ عَظَمَةِ الفَضْلِ

﴿هُوَ﴾ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ ضميرُ فَصْلٍ، وجيءَ به؛ تأكيدًا للقصرِ المُسْتَفاد من تعريفِ جُزأي الجُملةِ، فإنَّ المُبْتَدَأ ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسمُ إشارَةٍ، وهو معرفَةٌ، و﴿ٱلْفَضْلُ﴾ خبرُه، وهو معرفَةٌ، فالمَعْنى: ذلكَ هو الفَضْلُ لا غيرُه[4]، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ يُراد به

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 30، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 79 - 80.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 79 - 80.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 30، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 294، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 80.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 294.

المُبالغةُ في أعظَميَّة الفَضْلِ[1]، فلَم يَكُن ضَميرُ الفصلِ مُثْبِتًا القصرَ بَل مُؤَكِّدًا له؛ لئلّا يَلْزَم إثباتُ طَريقَيْنِ للقَصْر في تركيبٍ واحدٍ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بِـ ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾ مَصْدَرًا:

شَرَفُ أهلِ الإيمانِ وجَليلُ إنعامِ اللهِ تَعالى عَلَيهِم

﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾ في قول اللهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ يجوزُ أن يكونَ مَصدرًا بِمَعنى التَّفوُّق والشَّرف، فالمَعْنى: ذلكَ هو فَضلُهُم الكبيرُ، أي: شَرَفُهُم وتَفَوُّقُهم.

ويجوزُ أن يكونَ اسمًا لِما يُتَفَضَّل به مِن عطاءٍ، فيكون المَعْنى: ذلك فَضْلُنا على أهلِ الإيمانِ[2].

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾ من قول اللهِ سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ تدلُّ على الكمالِ، أي: ذلك هو الفضل الكامل من كلِّ الوجوهِ[3].

سِرُّ وصْفِ الفَضْلِ بالكِبَرِ:

عَجْزُ العُقولِ عَن إدراكِ كَمالِ العَطاءِ الرَّبّانيِّ

وُصِف الفَضْلُ بالكِبَرِ في قول اللهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾؛ لبيانِ أنَّه فضلٌ لا يوصَفُ، ولا تَهْتَدي العقولُ إلى كُنْهِ وصْفِه، والوقوفِ على حقيقَتِه؛ وذلك لأنَّ اللهَ سُبْحانَهُ إذا قالَ عَن أمرٍ ما: إنَّه كبيرٌ؛ فمَن ذا الذي يَستَطيعُ أن يَقدُرَهُ قَدْرَه؟![4].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(كَسَبوا) و(اكْتَسَبوا):

الكَسْبُ غالِبٌ في جانِبِ الحَسَنَةِ، والاكتِسابُ غالِبٌ في جانِبِ السَّيِّئَةِ

يَرِدُ الكسْبُ في الاستِعْمالِ القُرآنيِّ في جانبِ الحسنَةِ، والاكتساب في جانِبِ السَّيِّئة، وهذا هو الغالبُ، كما قال اللهُ سُبْحانَهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 80.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 80.
(3) القنوجي، فتح البيان: 12/ 296.
(4) القنوجي، فتح البيان: 12/ 296.

وكما هو مُقرَّر في القاعدَةِ: أنَّ الزّيادة في المَبْنى يدلُّ على الزّيادة في المَعْنى؛ فإنَّ الاكتِسابَ - وهو أكثَرُ حُروفًا - فيه زيادَةٌ في المَعْنى، وذلكَ لِما فيهِ مِن تَصَرُّفٍ واجتِهادٍ وضَربٍ مِن ضُروبِ التَّكلُّف، وبيانُ ذلك: أنَّ السَّيِّئات تُكتسَبُ بعدَ عملٍ وجُهدٍ، وذلك لأنَّ الشَّرَّ ممّا تشتيهِ النَّفْسُ، وهي مُنْجَذِبَةٌ إليه، فكان الإنسان في تحصيلهِ أعْمَلَ وأجدَّ.

وفيه وجه آخرُ، وهو أنَّ لفظ الاكتسابِ أثقَلُ مِن لفظِ الكَسْبِ، وبيانُ ذلك: أنَّ الحسناتِ ممّا تُكسب مِن غير تكلُّفٍ؛ إذْ كاسِبُها على طريقِ اللّه تعالى وقوانينِ شَرْعِه، بخلافِ السّيِّئات فإنَّها تُكتسَبُ بتكَلُّف؛ إذْ كاسِبُها خارجٌ عن حدودِ النَّهي الإلهيِّ مُتَخَطٍّ لهُ إليها[1].

وقد عُدِلَ عن هذا الأصلِ في مواضع، منها قولُ اللّه تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾؛ لبيانِ أنَّ ظُلْمَهُم صارَ صفةً راسخةً لَهُم، بحيثُ إنَّ عَمَلَهُم السّيِّئاتِ صار مِن جُمْلَةِ السَّجايا والطَّبائع التي تَحصُل مِن غير كُلفةٍ.

المَشيئَةُ والإرادَةُ:

المَشيئَةُ أخَصُّ مِنَ الإرادَةِ

المشيئة والإرادَة متقاربتانِ، ولذا فسَّرَ كثيرٌ مِن علماء العربيَّة إحداهما بالأخرى[2]، وربَّما أفاد صنيعُهم أنَّهما بمعنًى واحدٍ من جهة اللُّغة[3].

وذكر أبو البقاءِ أنَّ بينَهما فرقًا من جهة اللُّغة؛ إذ إنَّ المَشيئَةَ لُغَةً: الإيجادُ، والإرادة: طلبُ الشَّيءِ[4].

(1) دوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 247 - 248.
(2) الجوهريّ، تاج اللُّغة: (شيأ) و(رود)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (شيأ)، وابن منظور، لسان العرب: (شيأ)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (رود).
(3) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 216.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 75.

وفرَّق بينهما أبو هِلالٍ، بأنَّ الإرادةَ تكون لِما تراخى زمَنُه، ولِما لا يتراخى، بخلاف المشيئة فَهيَ لِما لَم يتراخَ زمَنُهُ؛ فالإرادة أعمُّ مطلقًا مِنَ المشيئة[1].

أمّا المشيئة والإرادة باعتبار تعلُّقِهما باللّٰهِ تعالى؛ فالإرادة أعَمُّ مِنَ المشيئة مطلقًا؛ وذلك لأنَّ الإرادة تَشْمَلُ الإرادة الكَوْنيَّةَ والإرادة الشَّرعيَّة، أمّا المشيئةُ؛ فهي مرادفةٌ لِلإرادَةِ الكَونيَّةِ[2].

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 124.

(2) حَكَمِي، أعلام السُّنَّة المنشورة، ص: 88.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ٢٣﴾ [الشورى: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بَعدَ البِشارَةِ لِلمُؤمِنينَ بالفَضلِ الكَبيرِ لَم يطلبِ النَّبيُّ ﷺ سِوَى مَودَّةِ آلِه وأقارِبِه

لمَّا ذَكَرَتِ الآيَةُ السّابِقَةُ مَبلَغَ الفَرقِ بَينَ مَصيرِ الظّالِمينَ والمؤمِنينَ، وبيَّنَت أنَّ مَحلَّ المُؤمِنينَ ومَآلَهم في رَوضاتِ الجَنّاتِ، بَعدَ أن أنعَمَ اللّهُ تعالى بِفَضلِه الكَبيرِ؛ بَيَّنَت هَذِه الآيَةُ امتِنانَ اللّه تعالى على عِبادِه المُؤمِنينَ بِهَذِه البِشارَةِ، ولَمّا كانَتِ العادَةُ جارِيَةً بِأنَّ البَشيرَ لا بُدَّ لَهُ مِن جَزاءٍ على حُسنِ البِشارَةِ وإن لَم يَسأل؛ وذَلِكَ لأنَّ بِشارَتَهُ قائِمَةٌ مَقامَ السُّؤالِ، فكانَ كَأنَّهُ قيلَ: ماذا تَطلُبُ على هَذِه البِشارَةِ؟ فبَيَّنَ أنَّهُ لا يَطلُبُ مِنهُم بِسَبَبِ هَذا التَّبليغِ نَفعًا عاجِلًا ومَطلوبًا حاضِرًا؛ لِئَلّا يَتَخَيَّلَ جاهِلٌ أنَّ مَقصودَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِن هَذا التَّبليغِ المالُ والجاهُ، فأُمِرَ ﷺ بالجَوابِ بِأنَّهُ لا يريد سِوَى المَحبَّةِ العَظيمَةِ الواسِعَةِ لأهلِ قَرابَتِه، ثُمَّ بَيَّنَتِ الآيَةُ أنَّ جَزاءَ الإحسانِ لا يَكونُ إلّا مِن جِنسِه، وهوَ الإحسانُ نَفسُهُ، فمَن يَكسِبْ أيَّ حَسَنَةٍ - ولَو صَغُرَت - يَزِد اللّهُ في حُسنِها بِما لا يَدخُلُ تَحتَ الوَهمِ، فهو تعالى يَجزي بالحسنة أضعافَها[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يُبَشِّرُ﴾: (بشر) أصلٌ واحِدٌ: ظُهورُ الشَّيءِ مَعَ حُسنٍ وجَمالٍ، يُقالُ: بَشَّرتُ فُلانًا أُبَشِّرُهُ تَبشيرًا، وذَلِكَ يَكونُ بِالخَيرِ، ورُبَّما حُمِلَ عَلَيه غَيرُهُ مِنَ الشَّرِّ، ولَعَلَّهُ جِنسٌ مِنَ التَّبكيتِ، فأمّا إذا أُطلِقَ الكَلامُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 294.

إطلاقًا؛ فالبِشارَةُ بِالخَيرِ والنِّذارَةُ بِغيره، ويُقالُ: بَشَرتُ الأديمَ؛ إذا قَشَرت وجهَهُ[1]، والمُبَشِّراتُ الرِّياحُ الَّتي تُبَشِّرُ بِالغَيث[2]، والمَعْنَى المِحْوَرِيُّ: انتِشارٌ واسِعٌ على ظاهِرِ الشَّيءِ، يُقالُ: بَشَرتُهُ فأبشَرَ، أي: استَبشَرَ، وأبشَرتُهُ[3]، والمُرادُ بِفعلِ التَّبشيرِ: الإخبارُ بِما يَسُرُّهُم، وهوَ دُخولُ الجَنَّةِ والتَّنَعُّمُ بِنَعيمِها.

2) ﴿أَجۡرًا﴾: (أجر) أصلانِ، فالأَوَّلُ: الكِراءُ على العَمَلِ، والثّاني: جَبْرُ العَظْمِ الكَسيرِ، فأمّا الكِراءُ؛ فالأجرُ والأُجرَةُ[4]، فالأجرُ جَزاءُ العَمَلِ، والفِعلُ أجَرَ يَأجُرُ أجْرًا، والمَفعولُ مَأجورٌ، والأجيرُ: المُستَأجَرُ، والأُجارَةُ: ما أعطَيتَ مِن أجرٍ في عَمَلٍ[5]، وأمّا جَبرُ العَظمِ؛ فيُقالُ مِنهُ: أُجِرَت يَدُهُ، والمَعنَى الجامِعُ بَينَهُما: أنَّ أُجرَةَ العامِلِ كَأنَّها شَيءٌ يُجبَرُ بِه حالُهُ فيما لَحِقَهُ مِن كَدٍّ فيما عَمِلَهُ، وقَد أجَرَه اللّٰهُ يأجُرُه ويأجِرُه أجرًا، وآجَرَه اللّٰهُ إيجارًا[6]، والمُرادُ هَهُنا: قُل يا مُحَمَّدُ ﷺ: لا أطلُبُ على تَبليغِ الرِّسالَةِ جُعلًا[7].

3) ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ﴾: (ودد) كَلِمَةٌ تَدُلُّ على مَحَبَّةٍ، ودِدْتُهُ: أحبَبْتُهُ، ووَدِدْتَ أنَّ ذاكَ كانَ؛ إذا تَمَنَّيْتَهُ، وفي المَحَبَّةِ الوُدُّ[8]، فالوُدُّ مَصدرٌ للمَوَدَّةِ، وكَذلِكَ الوِدادُ، ويُقال في الحُبِّ: الوُدُّ والوَدُّ والمَوَدَّةُ والمَوْدَدَةُ[9]، والمَعنَى المِحوَرِيُّ: التَّلازُمُ والتَّماسُكُ المُمتَدُّ، مَعَ رِفقٍ أو لينٍ، للاحتِواءِ على مادَّة ذلك[10]، والوُدُّ مَحَبَّةُ الشَّيءِ، وتَمَنّي كَونِه، ويُستَعمَلُ في كُلِّ واحدٍ مِنَ المعنَيَينِ، على أنَّ التَّمَنِّيَ يَتَضَمَّنُ مَعنى الوُدِّ؛ لأنَّ التَّمَنِّيَ هوَ تَشهّي حُصولِ ما تَوَدُّهُ[11].

4) ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: (قرب) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على خِلافِ البُعدِ، يُقالُ: قَرُبَ يَقرُبُ قُربًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(2) الخليل، كتاب العين: (بشر).
(3) الراغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بشر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(5) الخليل، كتاب العين: (أجر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (أجر).
(7) الخازن، لباب التأويل: 2/ 133.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ودد).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (ودد).
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ودد).
(11) الراغب، مفردات القرآن: (ودد).

وفُلانٌ ذو قَرابَتي، وهوَ مَن يَقْرُبُ مِنكَ رَحِمًا، وفُلانٌ قَريبي، وذو قَرابَتي، والقُربَةُ والقُربَى: القَرابَةُ، والقِرابُ: مُقارَبَةُ الأمرِ(1)، والمَعنَى المِحوَريُّ: وُجودُ الشَّيءِ في الحَيِّزِ مُتاحًا مُهَيَّأً للتَّناوُلِ أوِ الوُصولِ إلَيه(2)، والقَريبُ والقَريبَةُ ذو القَرابَةِ، والجَميعُ مِنَ النِّساءِ قَرائِبُ، ومِنَ الرِّجالِ أقارِبُ، ولَو قيلَ: قُرْبَى؛ لَجازَ(3)، يُقالُ: قَرُبْتُ مِنهُ أقْرُبُ، وقَرَّبْتُهُ أُقَرِّبُهُ قُرْبًا وقُرْبانًا، ويُستَعمَلُ ذَلِكَ في المَكانِ، وفي الزَّمانِ، وفي النِّسبَةِ، وفي الحَظوَةِ، والرِّعايَةِ، والقُدرَةِ(4)، والمُرادُ بالقُربى هَهُنا: إمّا أهلُه وعَشيرَتُه خاصَّةً، أو قُرَيشٌ عامَّةً.

5) ﴿يَقْتَرِفْ﴾: (قرف) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مُخالَطَةِ الشَّيءِ والالتِباسِ به وادِّراعِه، وأصلُ ذَلِكَ القَرْفُ، وهوَ كُلُّ قِشرٍ، ومِنَ البابِ: اقْتَرَفْتُ الشَّيءَ: اكتَسَبتُهُ، وكَأنَّهُ لابَسَهُ، وادَّرَعَهُ، وقارَفَ فُلانٌ الخَطيئَةَ: خالَطَها(5)، والمَعْنَى المِحوَريُّ: قِشرُ الشَّيءِ أوْ جِلدُهُ أو غِلافُهُ اللّاصِقُ بِه(6)، ويُقالُ: اقْتَرَفَ، أي: اكتَسَبَ، وما أقْرَفْتَ يَدي شَيئًا مِمّا تَكرَهُ، أي: ما دانَتْ، وما قارَبَت(7)، واستُعيرَ الاقترافُ للاكتِسابِ حَسَنًا كانَ أو سوءًا، والاقتِرافُ في الإساءَةِ أكثَرُ استِعمالًا(8)، والمُرادُ بالاقترافِ هَهُنا: الاكتِسابُ بِقوَّةٍ.

6) ﴿حُسْنًا﴾: (حسن) أصلٌ واحِدٌ، فالحُسنُ ضِدُّ القُبحِ، يُقالُ: رَجُلٌ حَسَنٌ وامرَأةٌ حَسناءُ وحُسّانَةٌ، والمَحاسِنُ مِنَ الإنسانِ وغَيْرِهِ: ضِدُّ المَساوي(9)، والإحسانُ: ضِدُّ الإساءَةِ، والتَّحاسينُ: جَمعُ التَّحسينِ، اسمٌ بُنِي على تَفعيل، ومِثلُهُ تَكاليفُ الأُمورِ(10)، والمَعنَى المِحوَريُّ: نَقاءُ الشَّيءِ ورِقَّتُهُ بِخُروجِ الخَشِنِ أوِ الغَليظِ الَّذي يُخالِطُهُ، فيَشوبُ رِقَّتَه(11)، والحُسنُ: عِبارَةٌ عَن كُلِّ مُبهِجٍ مَرغوبٍ فيه، والحَسَنَةُ يُعَبَّرُ بِها عَن كُلِّ ما يَسُرُّ مِن نِعمَةٍ تَنالُ الإنسانَ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرب).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قرب).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (قرب).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (قرب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرف).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قرف).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (قرف).
(8) الرّاغب، مفردات القرآن: (قرف).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (حسن).
(11) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسن).

في نَفسِه وبدَنِه وأحوالِه، والسَّيِّئَةُ تُضادُّها[1]، والمُرادُ بزيادَةِ الحُسنِ مُضاعَفَةُ الثَّوابِ على الحَسَنَةِ، فإنَّها يُزادُ بها حُسْنُ الحَسَنَةِ[2].

7) ﴿شَكُورٌ﴾: إنَّ حَقيقَةَ الشُّكرِ الرِّضا باليَسيرِ[3]، والمَعنَى المِحوَرِيُّ: امتِلاءُ جَوفِ الشَّيءِ بِرخوٍ طَيِّبٍ وظُهورُهُ عَلَيه[4]، والشُّكرُ: تَصَوُّرُ النِّعمَةِ وإظهارُها، ويُضادُّهُ الكُفرُ، وهوَ: نِسيانُ النِّعمَةِ وسَترُها، فالشُّكرُ على هَذا هوَ الامتِلاءُ مِن ذِكرِ المُنعِمِ عَلَيه، وإذا وُصِفَ اللّٰهُ بِالشُّكرِ في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾؛ فإنَّما يُعْنَى به إنعامُهُ على عِبادِه، وجَزاؤُهُ بِما أقاموهُ مِنَ العِبادَةِ[5].

المَعنى الإجْماليُّ:

بَيانُ فضلِ الله وسَعةِ رَحْمَتِه ومَغْفِرَتِه، وغِنَى رَسولِه ﷺ عَنِ الأجْرِ مِنَ النّاسِ

فَصَّلَتِ الآيَةُ القَولَ في مَعنَى الفَضلِ الكَبيرِ، الَّذي جاءَ في الآيَةِ السّابِقَةِ، فبَيَّنَت أنَّهُ البِشارَةُ العُظْمَى والعَطاءُ الجَزيلُ، الَّذي يَمنَحُهُ اللّٰهُ تَعالَى يَوْمَ القيامَةِ لِعِبادِه، ثُمَّ أمَرَ اللّٰهُ تَعالَى نَبيَّهُ ﷺ أن يُؤَكِّدَ لأولَئِكَ المُشرِكينَ أنَّهُ لا يَسألُهُم أجرًا على دَعوَتِه، وإنَّما يَسألُهُمُ المَوَدَّةَ والمُعامَلَةَ الحَسَنَةَ لِقَرابَتِه مِنهُم، وفي المُرادِ بالقُربَى أقوالٌ: أوَّلُها: أنَّ المُرادَ بها الصِّلَةُ والقَرابَةُ الَّتي تَربِطُ بَينَ الرَّسولِ وبَينَ كُفّارِ قُرَيشٍ، أي: لا أسألُكُم على التَّبليغِ أجرًا، لَكِن أسألُكُم أن تَوَدّوني لِقَرابَتي فيكُم، فتَكُفّوا عَنّي أذاكُم، وتَمنَعوا عَنّي أذَى غَيرِكُم، ولا شَكَّ أنَّ مَنْعَ أذاهُم عَنهُ ﷺ - بِسَبَبِ قَرابَتِه فيهم - لَيسَ أجرًا، وثانيها: أنَّ المُرادَ بالقُرْبَى هُنا: أقارِبُهُ وعَشيرَتُهُ وعِترَتُهُ، فيَكونُ المَعْنَى: لا أسألُكُم أجرًا على دَعوَتي لكم إلى الخَيرِ والحَقِّ، ولَكِن أسألُكُم أن تَحفَظوني في

(1) الراغب، مفردات القرآن: (حسن).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 33.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شكر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (شكر).
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (حسن).

قَرابَتي وأهلِ بَيتي، ولا شَكَّ أنَّ إحسانَهُم إلى أقارِبِه، لَيسَ أجرًا مِنهُم لَهُ على ذَلِكَ؛ لأنَّ الإحسانَ إلى النّاسِ، شَيءٌ قَرَّرَتْهُ جَميعُ الشَّرائِعِ، وتَقتَضيه مَكارِمُ الأخلاقِ، وثالِثُها: أنَّ المُرادَ بِالقُربَى هُنا: التَّقَرُّبُ إلى اللّٰه تَعالَى بِالإيمانِ والعَمَلِ الصّالِحِ، ثُمَّ بَيَّنَ اللّٰهُ تعالى جانِبًا مِن مَظاهِرِ فضلِه على عِبادِه في مُضاعَفَةِ الحَسَناتِ لِمَن يَكتَسِب حَسَنَةً يبغي بِها التَّقَرُّبَ إلى اللّٰه تَعالَى؛ وذَلِكَ لأنَّ اللّٰهَ تَعالَى واسِعُ المَغْفِرَةِ لِعِبادِه، كَثيرُ الشُّكرِ لِلطّائِعينَ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوْقِعُ جُمْلة ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى ...﴾ مِمّا قَبْلَها ودَلالَتُهُ:

تَأكيدُ اختِصاصِ الفَضلِ الكَبيرِ بِعِبادِ اللهِ المُخلَصينَ

جاءَتْ جُملَةُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِتُبَيِّنَ الإجْمالَ في قَولِه تَعالى في الآيَةِ السّابِقة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى: 22]، وذَلِكَ بِبَيانِ مَناطِ الفَضْلِ الكَبيرِ، وهوَ تِلكَ البُشرَى العَظيمَةُ بِدُخولِ الجَنَّة، وفي الجُملَة كذَلِكَ تَأكيدٌ لاختِصاصِ هَذا الفَضلِ الكَبيرِ بِعِبادِ اللّٰه المُخْلَصينَ، فاسمُ الإشارَةِ مُؤَكِّدٌ لِنَظيرِه الَّذي قَبلَهُ، أي: ذَلِكَ المَذْكورُ الَّذي هو فَضْلٌ يَحصُلُ لَهم في الجَنَّةِ هو أيضًا بُشرى لَهم مِنَ الحَياةِ الدُّنيا[2].

المُرادُ بالإشارَةِ في ﴿ذَٰلِكَ﴾، والغَرَضُ مِنَ التَّعبيرِ بِه:

الإشارَةُ إلى نَعيمِ عِبادِ الله، وعَظيمِ مَنْزِلَتِهِم عِنْدَ الله تعالى

عَبَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ باستِعمالِ اسمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ إشارَةً إلى قَولِ اللّٰه تَبارَكَت آلاؤه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى: 22]، الَّذي يرجع إلى جَزاءِ الَّذينَ آمَنوا، ومِن دَلالاتِ اسمِ الإشارَةِ الَّتي لا تَتَخَلَّفُ تَمييزُ المُشارِ إلَيه أكمَلَ تَمييزٍ؛ لِيَقَعَ الخَبَرُ عَنهُ بَعدَ هَذا التَّمييزِ، والتَّحديدِ، وظُهورِ الدَّلالَةِ، ولا يَكونُ ذَلِكَ إلّا في المَعاني الَّتي لَها فضْلُ عِنايَةٍ، ثُمَّ دَلالَةُ البُعْدِ في المَنْزِلَة، وقَد دَلَّ استِعمالُ

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 30 - 32.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 80.

اسم الإشارَةِ هُنا على تَعْظيم مَنْزِلَةِ هَذا الفَضْلِ عِندَ عِبادِ اللَّه المُخْلَصينَ؛ إذِ المُرادُ بِه الأمرُ العَظيمُ مِنَ الجَنَّةِ ونَعيمِها[1].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسمِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾:

الإحـالـة على أعْظَمِ البُشريات

استَعمَلَ النَّظمُ الحَكيمُ الاسمَ المَوْصولَ ﴿ٱلَّذِي﴾؛ للدَّلالَةِ على شُهْرَةِ هَذا الفَضلِ وعُلوِّ مَنزِلَتِه، بوصفِه أعظَمَ البُشرَياتِ، فلا بُشرَى أعظمُ ولا أجلُّ مِنَ البُشرَى بالحُلولِ في رَوضاتِ الجَنّاتِ؛ إذِ الأصلُ في الاسمِ المَوصولِ الدَّلالَةُ على اشتِهارِ الشَّيءِ بِصِفَةٍ تُمَيِّزُهُ؛ حَتَّى تُصبِحَ عَلامَةً عليه، فلا يَكادُ يُذكَرُ إلّا بِهَذِه الصِّفَةِ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بِالمُضارِعِ ﴿يُبَشِّرُ﴾:

سـوقُ مـا يـدلُّ عـلى تـجـدُّد المبشِّرات

عَبَّرَ النَّظمُ الجَليلُ بِصيغَةِ المُضارَعَةِ ﴿يُبَشِّرُ﴾؛ لإفادَةِ التَّجَدُّدِ الاستِمراريِّ، وذَلِكَ مُشعِرٌ بتَجَدُّدِ الخَيراتِ؛ إذ إنَّ تَجَدُّدَ البِشارَةِ دالٌّ على أنَّ ما يُبَشَّرونَ به أمرٌ عَظيمُ القَدْرِ، فهوَ تعالى يُؤَكِّدُ الامتِنانَ بِذِكْرِ هَذا الفَضْلِ الكَبيرِ في صيغَةِ البُشرَى؛ حَثًّا لَهُم على تَحَمُّلِ مَشَقَّةِ التَّكاليفِ، وفي تجدُّدِ البِشارَةِ طَمأنَةٌ لقُلوبِ المُؤمنينَ على مَصائِرِهِم، فتَتَوالَى لَهُمُ البُشرَى في الحَياةِ الدُّنيا ويَومَ يَقومُ الأشهادُ.

تَوْجيهُ القِراءاتِ الوارِدَةِ في ﴿يُبَشِّرُ﴾:

خِـفَّـةُ الـبِـشـارَةِ وفَجْأتُها متلائمٌ مـع وَقْـعـهـا في النُّفوسِ

وَرَدَ في ﴿يُبَشِّرُ﴾ قراءتانِ، فقَرَأ نافِعٌ وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب وخلف العاشر ﴿يُبَشِّرُ﴾، بتشديد الشين، وهو من (بَشَّرَهُ)؛ إذا أخْبَرَهُ بِحادِثٍ يَسُرُّهُ، وقَرَأهُ باقي العشرة ﴿يَبْشُرُ﴾ مُخَفَّفَةً[2]، وتَخْفيفُ الفِعْلِ - وإنْ كانَ لُغَةً من لُغاتِ العَرَبِ - يُشيرُ إلى اختِصاصِهم بِتِلكَ البِشارَةِ، المُشتَمِلَةِ على المُفاجَأةِ، والتَّضعيفُ في ﴿يُبَشِّرُ﴾ دالٌّ على التَّكْثيرِ، ولا يَتَأتَّى التَّكثيرُ فيه بالنِّسْبَةِ إلى المَفعولِ الواحِدِ، فبِالنِّسبَةِ إلَيه يَكونُ فِعْلٌ فيه مُغنيًا

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 294.
(2) ابن الجزري، النّشر: 2/ 239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 81.

عَنْ فِعلٍ؛ لأنَّ الَّذي يَنْطِقُ به مُشَدَّدًا غَيْرُ العَرَبِ الَّذينَ يَنْطِقون به مُخَفَّفًا[1].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالبِشارَةِ:

البِشارَةُ بالجَنّاتِ عَطاءٌ عَظيمٌ مِنْ رَبٍّ رَحيمٍ

دَلَّ التَّعْبيرُ بِالبِشارَةِ بَعدَ الإخْبارِ بها على تأكيدِ عِظَمِ هَذا الفضلِ الكَبيرِ، فيَكونُ التَّبشيرُ الوارِدُ في الآيَةِ، إنَّما هوَ الإخبارُ بِحُصولِ أقصَى مَراتِبِ السَّعاداتِ، بِدُخولِ رَوْضاتِ الجَنّاتِ، فهوَ عَطاءٌ عَظيمٌ مِنْ رَبٍّ رَحيمٍ.

دَلالَةُ حَذْفِ عائِدِ الصِّلة:

في الحَذْفِ تَفْخيمٌ للبُشْرَى، وإشارَةٌ إلى أهَمّيَّتِها وعِظَمِ قَدْرِها

حَذَفَ البَيانُ القُرآنيُّ العائِدَ مِنَ الصِّلَةِ إلى المَوْصولِ، وتَقْديرُهُ: (الَّذي يُبَشِّرُ اللَّهُ به عِبادَهُ)، وحَذفهُ هُنا لِتَنْزيلِه مَنزِلَةَ الضَّميرِ المَنصوبِ باعْتِبارِ حَذْفِ الجارِّ، فلَمّا عومِلَ مُعامَلَةَ المَنصوبِ؛ حُذِفَ كَما يُحْذَفُ الضَّميرُ المَنصوبُ[2]، فكانَ حَذْفُ العائِدِ تَفْخيمًا لِلْمُبَشَّرِ به[3]، كَما أنَّ في الحَذفِ إيجازًا يُنْبِئُ بِأهَمّيَّةِ سُرْعَةِ الخُلوصِ إلى فِعْلِ (البُشْرَى).

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسمِ الجَليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

عَظَمَةُ البُشرَى مِن عَظَمَةِ المُبَشِّرِ تعالى

أسنَدَ النَّظمُ الحَكيمُ فِعلَ البِشارَةِ إلى الاسمِ الجَليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لِتأكيدِ البُشْرَى بِنِسْبَتِها إلى المَلِكِ الأعظَمِ تبارَكَت آلاؤُه[4]، فصاحِبُ الجَلالِ والمَلَكوتِ يُبَشِّرُ هَؤُلاءِ الطَّيِّبينَ الصّالِحينَ؛ بَيانًا لعظمِ البُشْرَى، فلا شيءَ أعظمُ مِن أن تأتيَ البِشارةُ مِنَ الملكِ الجبّار.

الغَرَضُ مِنَ الإضافَةِ في ﴿عِبَادَهُ﴾:

بَيانُ عَظيمِ الشَّرَفِ بِانتِسابِ هَؤلاءِ المُؤمِنينَ لِعِبادَةِ الله تعالى

في قَوْلِ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ أُضيفَ الضَّميرُ العائدُ إلى اسمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ إلى لَفْظَةِ ﴿عِبَادَهُ﴾، وفي ذَلِكَ بَيانٌ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 180.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 80.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 294.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 294.

لِعَظيمِ الشَّرَفِ بِانتِسابِ هَؤلاءِ المُؤمنينَ المُخلِصينَ لِعِبادَةِ اللّه تعالى، وفيه كَذَلِكَ إشارَةٌ لإرادَةِ تَكريمِهم بِمَقامِ العُبوديَّةِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ﴿عِبَادَهُ﴾:

في الوَصْفِ بِالعِبادَةِ بَيانٌ للقُربِ

عَبَّرَ البَيانُ القُرآنيُّ عَنِ المُؤمنينَ بكَلِمَةِ ﴿عِبَادَهُ﴾، وكانَ يُمكِنُ أن يُقالَ: (ذَلِكَ الَّذي يُبَشِّرُ اللّهُ الَّذينَ آمَنوا)، مِن غَيرِ ذِكرِ كَلِمَةِ ﴿عِبَادَهُ﴾، وفيه دَلالَةٌ على قُرْبِهم، وأنَّهُم عِبادُهُ وخاصَّتُهُ، وأنَّ الشَّأنَ في عِبادِه الإيمانُ وعَمَلُ الصّالِحاتِ، وأنَّ هَذا الإيمانَ وهَذِه الصّالِحاتِ موجِباتُ العُبوديَّةِ لِلّه رَبِّ العالَمينَ[1].

سِرُّ تَقْييدِ العِبادِ بِالوَصفِ بالاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

ثَباتُ الإيمانِ في نُفوسِ المُؤمنينَ وظهورُهُ في سُلوكِهم وطَبائِعِهم

قَيَّدَ النَّظمُ الكَريمُ كَلِمَةَ ﴿عِبَادَهُ﴾ بالاسم المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مَعَ صِلَتِه؛ لِما فيه مِنَ الإيماءِ إلى ثَباتِ ذَلِكَ الإيمانِ في نُفوسِهم، وظُهورِه في سُلوكِهم وطَبائِعِهم، فالجُملَةُ المَوصوليَّةُ أفادَتِ المَدحَ والتَّقريظَ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دونَ (مَن):

شُهرَةُ المُؤمنينَ بالإيمانِ أمرٌ مَعهودٌ

آثَرَ النَّظمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بالاسم المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دونَ الاسم المَوصولِ (مَن)، فلَم يَقل: (مَن آمَنوا، وعَمِلوا الصّالِحاتِ)؛ لأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ مَوصولٌ خاصٌّ، يَختَصُّ بالجَمعِ العاقِلِ، أمّا (مَنْ)؛ فمُشتَرَكَةٌ تُستَعمَلُ لِلمُفرَدِ والمُثَنَّى والجَمعِ والعاقِلِ وغَيرِ العاقِلِ، فالاسمُ المَوصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نَصٌّ في المُرادِ، وكَونُهُ مُختَصًّا مِن شَأنِه أن يَكونَ مَعهودًا لَدَى السّامِعِ ممّا يَدُلُّ على عُلوِّ شَأنِهم وتلألُئِهم في ظُلُماتِ البَشَرِ، كَأنَّهُم مَعْهودونَ نَصبَ العَيْنِ لِكُلِّ سامِعٍ، وإن لَم يَتَحَرَّ، ولَم يَطلُبْ، وفي جَمعيَّتِهم رَمزٌ إلى إمكانِ الاقتِداءِ[2]، وغَلَبَ إطلاقُهُ في القُرآنِ في مَعرِضِ التَّقريبِ وتَرفيعِ الشَّأنِ، ولِذَلِكَ يَكونُ مَوْقِعُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ هُنا مَوْقِعَ عَطفِ البَيانِ[3].

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 126.
(2) محمد سعيد، إشارات الإعجاز، ص: 34.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 81.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي في ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ﴾ دونَ اسمِ الفاعِلِ (المُؤْمِنينَ):

الالتِباسُ بالإيمانِ واستِصحابُه في كُلِّ أحوالِ المُؤمِنينَ وثَباتُه في نُفوسِهم

عَبَّرَ البَيانُ القُرآنيُّ عَنِ المُؤمِنينَ بالاسمِ المَوْصولِ مَعَ الفِعْلِ الماضي؛ وذَلِكَ لأنَّ الإتيانَ بالمَوْصولِ مَعَ الصِّلَةِ بالفِعلِ الماضي قُصِدَ به الالتِباسُ والاستِصحابُ[1]، إضافَةً إلى ذَلِكَ، فالاسمُ الموصولُ مَعَ الفِعْلِ الماضي دَلَّ على زَمانٍ ماضٍ مُحَدَّدٍ، عكس اسمِ الفاعِلِ الَّذي لا يَدُلُّ على زَمانٍ مُحَدَّدٍ، كَما أنَّ الضَّميرَ (واو الجماعة) في ﴿ءَامَنُواْ﴾ فيه قَصْديَّةُ الإيمانِ والتَّوَجُّه إلَيه بكُلِّ حَواسِّهم ومَشاعِرِهم، فكانَ الأولى التَّعبيرَ بالاسمِ المَوْصولِ؛ وذَلِكَ لِما فيه مِن إشارَةٍ إلى بَيانِ سَبَبِ هَذا الجَزاءِ، وكَذَلِكَ فإنَّ في التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ دَلالَةً على تحقُّقِ الإيمانِ في نُفوسِهم وثَباتِه ورُسوخِه.

دَلالَةُ إيثارِ التَّعْبيرِ بـ﴿ءَامَنُواْ﴾ دونَ (أسلَموا):

تمامُ الإذعانِ في مطابَقةِ العمل للإيمان

آثَرَ النَّظْمُ الجَليلُ التَّعبيرَ بِفِعلِ الإيمانِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ دونَ فِعلِ الإسلامِ (أسلَموا)؛ لِما في الإيمانِ مِنَ الدَّلالَةِ على تَمامِ انقيادِ القَلْبِ للّه وتَعْظيمِه؛ إذِ الإيمانُ عَمَلُ القَلْبِ، بِخِلافِ الإسْلامِ، الَّذي يُرادُ به في كَثيرٍ مِنَ المَواضِعِ عَمَلُ الجَوارِحِ، ولَمّا كانَتِ الآيَةُ بُشْرَى بِدُخولِ رَوضاتِ الجَنّاتِ؛ كانَ المُعَوَّلُ عَلَيه هو الإيمان لا الإسلام؛ لأنَّ المُعَوَّلَ في دُخولِ الجَنَّةِ على إيمانِ القَلْبِ مَعَ تَسْليمِ الجَوارِحِ.

دَلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ الفِعْلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾:

شُمولُ مَفهومِ الإيمانِ لكلِّ أركانِه وفُروعِه

حَذَفَ البَيانُ القُرْآنيُّ مُتَعَلِّقَ الفِعْلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ إمّا للعِلمِ به، فهوَ المَذكورُ في قَولِه ﷺ: «أن تُؤمِنَ بِاللّه ومَلائِكَتِه وكُتُبِه ورُسُلِه»[2]؛ فصارَ هَذا القَولُ بمنزِلةِ المفهومِ المعروفِ، فإذا قيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فُهِمَ المَقصودُ مِن تَعَلُّقِ الإيمانِ دونَ تَرْكٍ لأيِّ رُكْنٍ من أركانِه، أو لأيِّ

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 8/ 186.

(2) الحديث أخرجه البخاريّ في صحيحه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبيّ ﷺ، حديث رقم: (50).

فرعٍ مِنْ فُروعِه، وإمّا للإيجازِ الَّذي هوَ أحَدُ أهَمِّ خَصائِصِ النَّظْمِ الجَليلِ، في اكْتِنازِ اللَّفْظَةِ القُرْآنيَّةِ بمعانٍ كثيرةٍ.

دَلالَةُ عَطْفِ ﴿وَعَمِلُواْ﴾ على ﴿ءَامَنُواْ﴾:

الإيـمـانُ يستدعي العَمَلَ الصّالِحَ ويلوِّح بالمُداوَمَةِ

عَطَفَ النَّظْمُ الحكيمُ العَمَلَ الصّالِحَ على الإيمانِ؛ لِما في هَذا العَطفِ مِن فوائِدَ، **فمِنها**: أنَّ الإيمانَ، وإن كانَ يَدْخُلُ فيه جَميعُ الأعمالِ الصّالِحَةِ، إلّا أنَّ قَولَهُ: ﴿ءَامَنُواْ﴾ لا يُفيدُ إلّا أنَّهُ فعَلَ فِعْلًا واحِدًا مِن أفْعالِ الإيمانِ؛ فلذا حَسُنَ أن يَقولَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ كَي تَتَعَدَّدَ الأعمالُ، **ومِنها**: أنَّ العَطْفَ هُنا فيه تَرتيبٌ بَينَ الإيمانِ والعَمَلِ الصّالِحِ، فالإيمانُ هوَ الدّاعي الرَّئيسُ لِلعَمَلِ الصّالِحِ، ومِنها إفادَةُ المُداوَمَةِ، فقَولُهُ: ﴿ءَامَنُواْ﴾ يُفيدُ الماضي، فكَأنَّهُ تَعالَى قالَ: آمَنوا أوَّلًا، ثُمَّ داوَموا عَلَيه آخِرًا[1]، ويَجوزُ أنْ يَكونَ مِنْ بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ الإيمانَ أعَمُّ، والعَمَلُ الصّالِحُ جُزءٌ مِنهُ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِ(عَمِلوا) دونَ (فَعَلوا):

سوقُ العَمَلِ لقَصدِ المُثابَرَةِ والمداوَمةِ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بِـ(العَمَلِ) دونَ (الفِعْلِ)، وسِرُّ ذَلِكَ أنَّ العَمَلَ أخَصُّ مِنَ الفِعْلِ، فكُلُّ عَمَلٍ فِعْلٌ، ولا يَنْعَكِسُ[2]، وهَذا يَحْمِلُ قَصْديَّةَ الفِعْلِ والتَّوَجُّهِ إلَيه، فعَمَلُ الصّالِحاتِ صارَ لِهَؤُلاءِ المُؤْمِنينَ المُخْلِصينَ طَبيعَةً ودَيْدَنًا؛ لأنَّ فيه امتِدادَ زَمانٍ؛ إذْ كانَ المَقْصودُ المُثابَرَةَ عَلَيها لا الإتيانَ بِها مَرَّةً أو بِسُرْعَةٍ[3].

عِلَّةُ حَذْفِ المَوصوفِ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الحَذْفُ للإيجازِ، ولـلاهْـتِـمـامِ بِصِفةِ الصَّلاحِ في العَمَلِ

في قَوْلِه تَعالَى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حَذَفَ النَّظْمُ الجَليلُ المَوصوفَ، وأبْقَى الصِّفَةَ، وهِيَ: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والأصلُ (الأعمالَ الصّالحات)، وذَلِكَ للإيجازِ؛ إذِ الفِعْلُ دالٌّ على تَقْديرِ مَصْدَرِه[4]،

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/ 58.

(2) الخازن، لباب التأويل: 1/ 58.

(3) السّيوطي، معترك الأقران: 3/ 487.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 317.

ثُمَّ إنَّ إقامَةَ الصِّفَةِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مَقامَ المَوصوفِ تُشْعِرُ بأنَّ المَوصوفَ (وَهوَ الأعْمالُ) حاضِرٌ لا غائِبٌ، فكَأنَّ عَمَلَ الصّالِحاتِ هَمُّهُمُ الَّذي لا يَتَحَوَّلُ ولا يَتَغَيَّرُ، كَما أنَّ الاهْتِمامَ يَنْصبُّ في المَقامِ الأوَّلِ على صِفَةِ الصَّلاحِ في العَمَلِ، فليْسَ كُلُّ عَمَلٍ يُدْخِلُ الجَنَّةَ، فاكتَفَى البَيانُ القُرآنيُّ بِالصِّفَةِ لِبالِغِ أهَمّيَّتِها.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالجَمعِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لا المُفْرَدِ:

الــدَّلالَــةُ على كَــثْرَةِ الأعْـمـالِ الصّالِحاتِ مَعَ تَنَوُّعِها وتعدُّدِها

آثَرَ النَّظْمُ التَّعبيرَ بِالجَمعِ، وذَلِكَ لِفائِدَتَينِ: **الأولَى**: الإشارَةُ إلى كَثْرَةِ المَجْموعِ تَفْخيمًا في مَقامِ الثَّناءِ والمَدْحِ؛ لِذا دَرَجَ القُرآنُ على استِخدامِ الجَمعِ في الثَّناءِ على المُؤمِنينَ بِعَمَلِهِمُ الصّالِحِ، وفي ذَلِكَ تَكثيرٌ لِلأعْمالِ الصّالحاتِ؛ تَمهيدًا لِمُقابَلَتِها بِواسِعِ مَغْفِرَتِه ورِضْوانِه، **والفائِدَةُ الثّانِيَةُ**: الجَمْعُ دالٌّ على التَّعَدُّدِ والتَّنَوُّعِ، فهُم لا يَتْرُكونَ فُرْصَةً مِنَ الدَّهْرِ إلّا وكانوا في مُقَدِّمَةِ مَنْ يَفْعَلونَ الصّالِحاتِ؛ حَتَّى صارَ ذَلِكَ طَبْعًا وسَجِيَّةً[1].

سِرُّ اخْتيارِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دونَ مُرادِفاتِها:

الصّالِحاتُ خَيرٌ مُـطـلَـقٌ، أمّـا الـخَـيراتُ فَهي نِسْبيَّةٌ

آثَرَ البَيانُ القُرآنيُّ التَّعْبيرَ بِلَفْظِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ الأعمالَ الصّالِحاتِ تَضُمُّ في ثَناياها الأعْمالَ الخَيِّراتِ، وتَخْتَصُّ بِالأفْعالِ، أمّا الخَيْراتُ؛ فهيَ مُقَيَّدَةٌ بِحالِ كُلِّ شَخْصٍ، وهيَ أنَّ خَيْرَ الواحِدِ شَرُّ الآخَرِ، كالمالِ الَّذي رُبَّما كانَ خَيْرًا لِزَيْدٍ وشَرًّا لِعمرو[2]، فكانَت ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ خَيْرًا مُطْلَقًا، أمّا الخَيْراتُ؛ فصالِحاتٌ مُقَيَّدَةٌ بِمَآلِ العَمَلِ بِها.

الغَرَضُ مِنْ تَعْريفِ المَفْعولِ بِه بـ(ال) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

جِنْسُ الصَّلاحِ مُـرَغَّـبٌ فيه بإطْلاقٍ لِلنَّجاةِ يَومَ التَّلاقي

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُعَرَّفَةً بـ(ال) لإرادَةِ الجِنْسِ، أي: جِنْسُ الأعمالِ الصّالِحاتِ، فالغالِبُ علَيْها الصَّلاحُ، فهيَ كَلِمَةٌ مُطْلَقَةٌ لَم تَدُلَّ على عَمَلٍ مُعَيَّنٍ؛ لأنَّ اللّهَ لَم يَأمُرْ إلّا بِما هوَ خَيْرٌ

(1) الخضري، الإعجاز البياني، ص: 130.

(2) الرّاغب، مفردات القرآن، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (صلح).

ونافِعٌ وبرٌّ، ولَم يَنْهَ إلّا عمّا هوَ شَرٌّ وضارٌّ وفُجورٌ، وهَذا يَعْني: أنَّ الصّالِحاتِ تَعْني كُلَّ صالِحٍ يُصْلِحُ بِه شأنَي الدُّنْيا والآخِرَةِ، وكُلَّ ما تُعْمَرُ به الأرْضُ، فهوَ مِنَ الصّالِحاتِ؛ لأنَّ المُهِمَّ هوَ صالِحُ العَمَلِ، وفي الصَّدْرِ نيَّةُ ذِكْرِ اللّه وتَسْبيحِه، وأداءِ حَقِّه؛ لأنَّ مَنْ ضَيَّعَ حَقَّ اللّه؛ فلَنْ يُعْطيَ الحَقَّ لِغَيْرِه، ولا يَجوزُ أنْ تَنْتَظِرَ حَقًّا ولا خَيْرًا مِمَّنْ ضَيَّعَ حَقَّ اللّه[1].

دَلالَةُ الاستِئْنافِ في قَوْلِه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

بَعدَ الإنْذارِ بِعَذابِ الجَحيمِ والبِشارَةِ بالجَنَّةِ، يأتي نَفْيُ الوَهْمِ بابْتِغاءِ الأجْرِ

فَصَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ جُملَةَ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ عَنِ الجُملَةِ السّابِقَةِ عَلَيْها، فكانَ كَأنَّهُ قيلَ: ماذا تَطْلُبُ على هَذِه البِشارَةِ؟ فأمَرَ بِالجَوابِ بِقَوْلِه: ﴿قُل﴾، أيْ: لِمَن تَوهَّمَ فيكَ ما جَرَتْ به عادَةُ المُبَشِّرينَ[2]، فجاءَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِفَصْلِ الجُملَتَيْنِ، فهوَ استِئْنافٌ ابتدائيٌّ بِمُناسَبَةِ ذِكْرِ ما أُعِدَّ لِلمُشْرِكينَ من عَذابٍ وما أُعِدَّ لِلمُؤمِنينَ من خَيْرٍ، ولَيْسَ في الكَلامِ السّابِقِ ما يُتَوَهَّمُ منهُ أن يَكونَ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ جوابًا عَنْهُ، فتَعَيَّنَ أنَّ جُملَةَ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ كَلامٌ مُسْتَأْنَفٌ استِئْنافًا ابتِدائيًّا[3]، فالجُملَةُ مُستَأنَفَةٌ؛ لأنَّها جاءَتْ عَقِبَ البَلاغِ بالبُشْرَى لِلَّذينَ آمَنوا، وعَمِلوا الصّالِحاتِ، وعَقِبَ البَلاغِ بالوَعيدِ لِلظّالِمينَ، ولَيْسَ في نَفْعِ النّاسِ أنْفَعُ مِنْ أنْ تُبَلِّغَهُم عَنْ رَبِّهِم رِضاهُ وغَضَبَهُ وثَوابَهُ وعِقابَهُ، ولَو كانَ لِلبَلاغِ عنِ اللّه أجْرٌ مِنَ النّاسِ؛ لَكانَ أجْرُهُ فوْقَ كُلِّ أجْرٍ[4].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الأمرِ ﴿قُل﴾:

التَّلْقينُ في مَواضِعِ الوَهْمِ بَيانٌ لِمُهِمَّةِ البَلاغِ الشَّريفِ

صَرَّحَ النَّظْمُ هَهُنا بِفِعْلِ الأمرِ ﴿قُل﴾، لِما فيه مِنَ التَّصريحِ بِمُهِمَّةِ البَلاغِ الَّتي كَلَّفَ اللّهُ بِها نَبِيَّهُ ﷺ، وهوَ كَذَلِكَ لِلتَّنْبيه على أهَمّيَّةِ

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 127.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 295.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 81.
(4) أبو موسى، آل حم، ص: 128.

ما سَيأتي بَعْدَهُ، فالأمرُ بِقَوْلِ مَقولٍ ما دَليلٌ على أهَمّيَّتِه، وأنَّهُ يَجِبُ أنْ يُقالَ بِصيغَةٍ مُلَقَّنَةٍ، فابتُدِئَتِ الجُملَةُ بـ ﴿قُل﴾؛ إمّا لاحتِمالِ أنَّها جَوابٌ عَن كَلامٍ صَدَرَ مِنهم، وإمّا لأنَّها مِمّا يَهْتَمُّ بِإبْلاغِهِ إلَيْهِم[1].

دَلالَةُ نَفْيِ سُؤالِهِ الأجْرَ في: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

نَفْيُ طَلَبِ الأجْرِ دَليلٌ على الصِّدْقِ وإرادَةِ وَجْهِ الحَقِّ

نَفَى النَّظْمُ الحَكيمُ أنْ يَكونَ الرَّسولُ ﷺ طالِبًا لِلنَّفْعِ والأجْرِ في تَبْليغِ القُرْآنِ؛ تَنْبيهًا لِلاستِدلالِ على صِدْقِه؛ لأنَّهُ لَوْ كانَ يُريدُ لِنَفْسِه نَفْعًا؛ لَصانَعَهُم، ووافَقَهُم، وفي ذَلِكَ بَيانٌ لِلمَقْصودِ مِنَ الرِّسالَةِ، فهوَ لَيْسَ مالًا يَأخُذُهُ، ولا سُلْطانًا يَفْرِضُهُ، ولا سيادَةً يَطْلُبُها، وإنَّما جاءَ لِلذِّكْرى، والمَوْعِظَةِ، والهِدايَةِ لِلعالَمينَ[2].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُضارِعَةِ المَنْفيَّةِ في: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾:

الاسْتِمرارُ في الإعْلانِ عَن نَفْيِ الأجْرِ تَأكيدٌ على الثَّباتِ على الحَقِّ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بِصيغَةِ المُضارَعةِ ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾، ولَم يقل: (ما سَألْتُكُم)؛ وذَلِكَ لِلدَّلالَةِ على تَجَدُّدِ النَّفْيِ واسْتِمرارِه، وفي ذَلِكَ إشارَةٌ إلى ثَباتِه ﷺ على الحَقِّ، وعلى دَوامِ تَجَرُّدِه عَنِ الأغْراضِ والمَنافِعِ الشَّخْصيَّةِ، ولَعَلَّ النَّظْمَ الحَكيمَ إنَّما آثَرَ التَّعْبيرَ بِالمُضارِعِ هَهُنا لِمُناسَبَةِ استِمرارِ نُزولِ الوَحْيِ الَّذي جاءَ في صَدْرِ السّورَةِ، في إشارَةٍ إلى أنَّ الوَحْيَ مَهْما تَجَدَّدَ نُزولُه؛ فإنَّهُ ﷺ سَيَتَجَدَّدُ مِنْهُ نَفيُ ابتِغاءِ الأجْرِ.

تَحْديدُ عَوْدِ الضَّميرِ في: ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

تَعَدُّدُ الآراءِ في عَوْدِ الضَّميرِ دَليلٌ على بَلاغَةِ اللَّفْظَةِ واكْتِنازِها بِعَديدِ المَعاني

تَعَدَّدَتِ الأقْوالُ في تَحْديدِ عَوْدِ الضَّميرِ في قَوْلِ اللهِ تعالى على لِسانِ نَبيِّه ﷺ: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾، فذَهَبَ بَعْضُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ الخِطابَ لِقُرَيْشٍ على ما قيلَ: إنَّهم جَمَعوا لَهُ مالًا، وأرادوا أنْ يُرْشوهُ على أنْ يُمسِكَ عَنْ سَبِّ آلِهَتِهم، فلَم يَفْعَلْ، ونزلتِ الآيةُ؛ لأنَّ لَهُ ﷺ في جَميعِهم قَرابَة، وقيلَ: الخِطابُ لِلأنصارِ بِناءً على ما قيلَ: إنَّهم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 360، و25/ 81.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/ 2584.

أَتوهُ بِمالٍ؛ لِيَستَعينَ بِه على ما يَنوبُهُ، فنَزَلَتْ، فرَدَّهُ، ولَهُ ﷺ قَرابَةٌ مِنهم؛ لأنَّهم أخوالُهُ، وقيلَ: الخِطابُ لِجَميعِ العَرَبِ لِقَرابَتِه ﷺ مِنهم جَميعًا في الجُملَةِ، والظّاهِرُ مِن هَذِه الأَخْبارِ أَنَّ الآيَةَ مَكّيَّةٌ، والقَوْلُ بِأنَّها في الأَنْصارِ يَقْتَضي كَوْنَها مَدَنيَّةً[1].

مَعْنَى الحَرْفِ (على) ودَلالَتُهُ في: ﴿عَلَيۡهِ﴾ وبَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ:

الضَّميرُ إمّا عائِدٌ على القُرآنِ أو على البَلاغِ، ومَآلُ الأمرَينِ واحِدٌ

أفادَ حَرْفُ الجَرِّ (على) الاستِعْلاءَ، وعادَ الضَّميرُ إمّا على القُرآنِ، بِدَلالَةِ الحَديثِ عَنِ الوَحْيِ في صَدرِ السّورَةِ الكَريمَةِ[2]، وإمّا على البِشارَةِ والنِّذارَةِ في الآيةِ السّابِقَةِ، ومَآلُ الأمرَينِ واحِدٌ، فإنَّ القُرآنَ هوَ مَحَلُّ البِشارَةِ والنِّذارةِ[3].

الغَرَضُ مِن تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على المَفْعولِ بِه ﴿أَجۡرًا﴾:

تَبليغُ القُرآنِ مُنَزَّهٌ عن أن يُطْلَب بِه الأجْرُ، وإنَّما هوَ بِشارَةٌ أو نِذارَةٌ

في قَوْلِه جَلَّ شَأنُهُ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ قَدَّمَ النَّظْمُ الجَليلُ الضَّميرَ العائِدَ على القُرآنِ في الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ تَنْزيهًا لِلقُرآنِ عَنِ الامتِنانِ، فإنَّهُ هوَ المَقصودُ، بِنَفْيِ سُؤالِ الأَجْرِ، ولِأنَّ سُؤالَ الأجْرِ، لَوْ كانَ، إنَّما سَيَكونُ بِسَبَبِ القُرْآنِ، فهوَ الأَصْلُ في وُجودِ الأجرِ مِن عَدَمِه.

الغَرَضُ مِن تَنْكيرِ المَفْعولِ بِه ﴿أَجۡرًا﴾:

مَقامُ النُّبوَّةِ أرْفَعُ مِنِ ابْتِغاءِ الأجْرِ مِنَ النّاسِ مَهْما قَلَّ

جاءَتْ لَفظَةُ ﴿أَجۡرًا﴾ نَكِرَةً لِلتَّقْليلِ؛ إذِ المُرادُ: قُلْ لا أَسْأَلُكُم على البِشارَةِ بِالجَنَّةِ، أو تَبْليغِ القُرآنِ أيَّ أَجْرٍ أَوْ نَفْعٍ، وإنْ قَلَّ، فإنَّ مَقامَ النُّبوَّةِ أَرْفَعُ مِنْ أَنْ يُبْتَغى بِها الأَجْرُ مِنَ النّاسِ، فلا يُثيبُ عَلَيْها إلّا اللهُ تعالى الَّذي اصْطَفاهُ لِهَذه المُهِمَّةِ العَظيمَةِ الجَليلَةِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِأُسْلوبِ القَصْرِ ونَوْعُ الاسْتِثْناءِ:

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ عَنْ مَقولِ القَوْلِ في جُملَةِ القَصْرِ باسْتِعْمالِ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 30 - 33.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 81.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 295.

تَوكيدُ نَفيِ ابتِغاءِ الأجْرِ سَواءٌ بانْقِطاعِ الاستِثْناءِ أوِ اتِّصالِه

أداةِ النَّفيِ ﴿لَّآ﴾ و﴿إِلَّا﴾ لِتَوْكيدِ نَفْيِ ابْتِغاءِ الأجْرِ، وقَدْ تَعَدَّدَتْ أقْوالُ المُعرِبينَ في مَوْقِعِ كَلِمَةِ: ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ﴾ ونَوْعِ الاسْتِثْناءِ، فذهبوا إلى أنَّ ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ﴾ مُسْتَثْنًى بـ ﴿إِلَّا﴾ مَنْصوبٌ، وهوَ اسْتِثْناءٌ مُنْقَطِعٌ بِمَعْنَى (لَكِنْ)؛ لأنَّهُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الآخَرِ، فـ﴿إِلَّا﴾ بِمَعْنَى (لَكِنْ)؛ فلَيْسَ اسْتِثْناؤُها مِن عُمومِ الأجْرِ المَنفيِّ اسْتِثْناءً حَقيقيًّا، والمَعْنى: لا أسْألُكم على التَّبْليغِ أجْرًا، وأسْألُكُمُ المَوَدَّةَ لِأجْلِ القُرْبى[1]، أوْ هوَ اسْتِثْناءٌ مُتَّصِلٌ، أيْ: لا أسْألُكُم عَلَيْه أجْرًا إلّا هَذا، وهوَ أنْ تَوَدّوا أهْلَ قَرابَتي، أوْ بَدَلٌ مِنْ ﴿أَجۡرًا﴾ مَنْصوبٌ مِثْلُهُ، قالوا: لَوْ لَم يَكُن اسْتِثْناءً لَيْسَ مِنَ الأوَّلِ؛ كانتِ ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ﴾ بَدَلًا مِنْ ﴿أَجۡرًا﴾[2]؛ بِناءً على تَعْميمِ الأجْرِ، وكَوْنُ المَوَدَّةِ المَذْكورَةِ مِن أفْرادِ الأجْرِ ادِّعاءٌ كافٍ لاتِّصالِ الاسْتِثْناءِ، والانْقِطاعُ أقْطَعُ لِتَوَهُّمِ المُنافاةِ بَيْنَ هَذِه الآيَةِ والآياتِ المُتَضَمِّنَةِ لِنَفْيِ سُؤالِ الأجْرِ مُطْلَقًا.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بـ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ﴾:

في المَوَدَّةِ رَدٌّ إلى أصْلِ الفِطْرَةِ ومَنْشَأِ الخِلْقَةِ للنّاسِ أجْمَعينَ

آثَرَ النَّظْمُ الجَليلُ التَّعْبيرَ بِكَلِمَةِ ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ﴾؛ لِما في أصْلِ وضْعِها مِنَ الدَّلالَةِ على التَّلازُمِ والتَّماسُكِ المُمْتَدِّ مَعَ رِفْقٍ ولِين، وهو أنْسَبُ المَعاني لِنَفْيِ ابْتِغاءِ الأجْرِ على تَبْليغِ وحْيِ اللّه تَبارَكَتْ آلاؤُه، فهوَ مَعْنًى يَرُدُّ النّاسَ إلى أصْلِ فِطْرَتِهم الَّتي فطَرَهُم اللّه تعالى ومَنْشَأَ خِلْقَتِهم، مَهْما اخْتَلَفوا مَع رَسولِ اللّه ﷺ في قَضيَّةِ الرِّسالَةِ؛ إذا كانَ الخِطابُ لِقُرَيْشٍ، وهي حَثٌّ على حُسْنِ الوُدِّ وجَميلِ العِشْرَةِ ورَدِّ المَعْروفِ؛ إذا كانَ الخِطابُ للمُسْلِمينَ.

الغَرَضُ مِنْ حَذْفِ المُضافِ في: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ﴾:

المَحَبَّةُ انْبِعاثٌ نَفْسانيٌّ، والمَوَدَّةُ فِعْلٌ ظاهِرٌ

حَذَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ المُضافَ، وأقامَ المُضافَ إلَيْه مَكانَهُ، في قَوْلِه: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾؛ إذِ الكَلامُ على تَقْديرِ مُضافٍ، أيْ: مُعامَلَةَ المَوَدَّةِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 83.

(2) الخطيب وآخران، التّفصيل: 25/ 81.

أي: المُجامَلَة؛ بِقَرينَةِ أنَّ المَحَبَّةَ لا تُسْأَلُ؛ لأنَّها انْبِعاثٌ وانْفِعالٌ نَفْسانيٌّ، والمُرادُ بالمَوَدَّةِ: المَحَبَّةُ والمُعامَلَةُ الحَسَنَةُ المُشْبِهَةُ مُعامَلَةَ المُتَحابِّينَ[1].

فائِدَةُ التَّعْريفِ بـ(ال) في: ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰٓۚ﴾:

شُمولُ المَوَدَّةِ لِكُلِّ أنْواعِ القُرْبَى مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ أوْ قَراباتِ المُسْلِمينَ

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰٓۚ﴾ مُعَرَّفَةً بـ(ال)؛ إمّا للعَهْدِ الذِّهْنيِّ، أي: قَرابَةِ رَسولِ اللّه ﷺ، بِدَلالَةِ المُخاطَبِ بالأمرِ في ﴿قُل﴾، وهوَ رَسول اللّه ﷺ، وإمّا لاسْتِغْراقِ كُلِّ أنْواعِ القَرابَةِ للمُخاطَبينَ؛ فقَدِ اخْتُلِفَ في المُرادِ بِقَرابَتِه ﷺ، فقالَ بَعْضُهُم: وَلَدُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وقالَ آخَرونَ: عَليٌّ وفاطِمَةُ ووَلَدُها رَضيَ اللّهُ تَعالى عَنْهم، وفي بَعْضِها ما يَدُلُّ على عُمومِ القُرْبى، وآثارُ تِلْكَ المَوَدَّةِ التَّعْظيمُ والاحْتِرامُ، ووَرَدَ أنَّ المَعْنى: لا أسْألُكم عَلَيْه أجْرًا إلّا التَّقَرُّبَ إلى اللّه تَعالى بِالعَمَلِ الصّالِحِ، فلَيْسَ المُرادُ بِها على هذا الرَّأيِ قَرابَةَ النَّسَبِ[2].

مَعْنَى ﴿فِي﴾ ودَلالَتُها في: ﴿فِي ٱلۡقُرۡبَىٰٓۚ﴾:

التَّابَرَةُ على صِلَةِ الأرْحامِ سَبَبٌ للمَحَبَّةِ وانْتِفاءِ البُغْضِ

في قَولِ اللّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰٓۗ﴾ جاءَ الحَرْفُ ﴿فِي﴾ مُفيدًا للسَّبَبِيَّة؛ إذِ المَعْنَى: لِقَرابَتي مِنكم، فهي بِمَعْنى اللّامِ لِتَقارُبِ السَّبَبِ والعِلَّةِ[3]؛ لأنَّهُم لَمّا كانوا يُثابِرونَ على صِلَةِ الأرحامِ - وإنْ بَعُدَتْ - والأنْسابِ؛ لِذَلِكَ قالَ: ﴿فِي ٱلۡقُرۡبَىٰٓۗ﴾، أيْ: مَظْروفَةً فيها، بِحَيْثُ يَكونُ القُرْبى مَوْضِعًا لِلْمَوَدَّةِ وظَرْفًا لَها، وقَدْ شَمِلَ ذَلِك جَميعَ القَراباتِ[4]، وقيلَ: إنَّ ﴿فِي﴾ هَهُنا للظَّرْفيَّةِ المَجازيَّة؛ لأنَّ مَجْرورَها - وهو ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰٓۗ﴾ - لا يَصْلُحُ لأنْ يَكونَ مَظْروفًا فيه، ومَعْنى الظَّرْفيَّةِ المَجازيَّةِ هُنا: التَّعْليلُ، فإنَّ النُّبوَّةَ أعْظَمُ مَرْتَبَةً في تَعْليمِ الحَقِّ، ولِذَلِكَ أمَرَ اللّهُ رُسُلَهُ بِالتَّنَزُّهِ عَنْ طَلَبِ جَزاءٍ على التَّبْليغِ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 82.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 32 - 34.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 33.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 296.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 83 - 84.

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَمَن﴾:

الواوُ إمّا عاطِفَةٌ لِبيانِ استِكْمالِ البِشارَةِ، وإمّا اعْتِراضِيَّةٌ لِبَيانِ الفَضْلِ الكَبيرِ

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِالواوِ قَوْلَ اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ على الجُملَة السّابِقَة؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوَسُّطِ بينَ الكَمالَيْنِ: كَمالِ الاتِّصالِ، وكَمالِ الانقطاعِ، فالجُملَتانِ خَبَرِيَّتانِ لَفْظًا، وإنْ كانَتِ الأولَى إنْشائيَّةً مَعْنًى؛ لِوُجودِ فِعْلِ الأمرِ ﴿قُل﴾ في صَدْرِها، وقَدْ وُجِدَتِ المُناسَبَةُ المُسَوِّغَةُ للعَطْفِ، فقَدِ انْتَقَلَ الكَلامُ مِنْ أنْ يَكونَ المُتَحَدِّثُ رَسولَ اللّه ﷺ، إلى مُتَكَلِّمٍ آخَرَ هوَ اللّهُ سُبْحانَهُ، فإذا كانَ رَسولُ اللّه ﷺ مِنّا، وهوَ يوصينا بِالمَوَدَّةِ في القُرْبَى؛ فإنَّ اللّه يَقولُ شَيْئًا آخَرَ، هوَ هَذِه الجُملَةُ المُبَشِّرَةُ، والَّتي هيَ جُزْءٌ مِنَ البِشارَةِ الَّتي تَضَمَّنَتْها الجُملَةُ السّابِقَةُ؛ لأنَّهُ لا يَزيدُ الحَسَنَةَ حُسْنًا إلّا اللّهُ، وبِذَلِكَ تَجِدُ هَذِه الآيَةَ راجِعَةً إلى ما قَبْلَها ومُلْتَحِمَةً مَعَها التِحامًا ظاهِرًا(1).

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِجُملَةِ الشَّرْطِ ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ﴾:

دَلالَـةُ الشَّـرْطِ قـائِـمَـةٌ على المُجازاةِ، فَجَزاءُ الإحْسانِ إحْسانٌ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ عَنْ مضاعفَةِ الحَسَناتِ بالجُملَةِ الشَّرْطيَّةِ؛ لأنَّ دَلالَةَ الشَّرْطِ قائِمَةٌ على المُجازاةِ في الأعَمِّ الأغْلَبِ، فإنَّ مَنْ جاءَ بالحَسَنَةِ؛ جوزِيَ عَلَيْها بِمُضاعَفَتِها؛ تَرْغيبًا لِمَنْ جاءَ بها مُخْلِصًا في أدائِها، فالمَعْنَى هَهُنا كالمَعْنَى في آياتٍ كَثيرَةٍ، فكَوْنُهُ خَيْرًا وأعْظَمَ أجْرًا زِيادَةٌ في حُسْنِه(2).

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِمادَّةِ الاقْتِرافِ في: ﴿يَقْتَرِفْ﴾:

في عَمَلِ الحَسَناتِ لا بُدَّ مِنَ الإخْلاصِ وأدائِها بِحُبٍّ ونَشاطٍ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بِمادَّةِ الاقْتِرافِ، لِما فيها مِنَ الدَّلالَةِ على شِدَّةِ الاكْتِسابِ، فَهِيَ افْتِعالٌ مِنَ القَرْفِ، أيْ: يَكْسِب، ويُخالِط، ويَعْمَل بِجِدٍّ واجْتِهادٍ وتَعَمُّدٍ وعِلاجٍ، وفيه دَلالَةٌ على الاهْتِمامِ والاحْتِشادِ، وأنَّهُ يَقْتَرِفُ الحَسَنَةَ بِوَفْرَةِ حُبٍّ ونَشاطٍ وإقْبالٍ، فيَقْتَرِفُ ما يُقَرِّبُهُ مِنَ اللّه

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 133.

(2) الشّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 205.

بِوُدٍّ، ثُمَّ إِنَّهُ لا يَقْتَرِفُ حَسَنَةً في ذاتِها، وإنَّما جُعِلَ الاقترافُ لأسبابِ الحَسَنَةِ اقتِرافًا لِلحَسَنَةِ؛ لِلإشارَةِ إلى أنَّ ثَوابَ اللّٰه لا يَتَخَلَّفُ[1].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ بصيغَةِ الافتِعالِ في: ﴿يَقْتَرِفْ﴾:

تَجَدُّدُ العَطاءِ الرَّبّانيِّ بِتَجَدُّدِ فِعْلِ الحَسَناتِ

آثَرَ البَيانُ القُرْآنيُّ التَّعْبيرَ بصيغَةِ المُضارَعَةِ ﴿يَقْتَرِفْ﴾؛ للدَّلالَةِ على التَّجَدُّدِ الاستمراريِّ في فِعْلِ الاقْتِرافِ، فوَعْدُ اللّٰه تعالى دائِمٌ، لا يَتَخَلَّفُ أبَدًا، فمَعَ كُلِّ تجَدُّدٍ لفعلِ الحسناتِ بِجِدٍّ ونَشاطٍ وإخْلاصٍ يَتَجَدَّدُ العَطاءُ الرَّبّانيُّ بمُضاعَفَةِ الجَزاءِ على الحَسَناتِ وزيادَتِها، وهَذا هو مَعْنَى زيادَةِ الحُسْنِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بمادَّةِ الحُسْنِ في: ﴿حَسَنَةً﴾:

الإثابةُ الرَّبّانيَّةُ على الفعلِ الحسَنِ؛ إذا صلحتِ النّيَّةُ وحَسُنَ القصدُ

عَبَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ بِلَفْظِ ﴿حَسَنَةً﴾؛ لأنَّ الحَسَنَةَ هي الفَعْلَةُ ذاتُ الحُسْنِ، وهي مُشْتَقَّةٌ مِنَ الحُسْنِ، وهوَ صِفَةٌ في الذّاتِ تَقْتَضي قَبولَ مَنْظَرِها في نُفوسِ الرّائينَ ومَيْلَهم إلى مُداوَمَةِ مُشاهَدَتِها، وتوصَفُ المَعْنَويّاتُ بالحُسْنِ، فيُرادُ به كَوْنُ الفِعْلِ أوِ الصِّفَةِ مَحْمودَةً عِنْدَ العُقولِ مَرْغوبًا في الاتِّصافِ بِها[2].

دَلالَةُ التَّنْكيرِ والإفْرادِ في: ﴿حَسَنَةً﴾:

مَهما قلَّتِ الحَسَنَةُ أو صَغُرَتْ فهيَ عِنْدَ الله عَظيمَةُ القَدْرِ جَليلَةُ الأجْرِ

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿حَسَنَةً﴾ بالإفْرادِ والتَّنْكيرِ لِتُشيرَ إلى أيِّ حَسَنَةٍ، ولَوْ صَغُرَتْ[3]؛ إذِ المُهِمُّ القَصْدُ إليها، وجَمعُ النَّفْسِ لَها المَفْهومُ مِن صيغَةِ الافْتِعالِ؛ لأنَّ اللّٰه تعالى يَنْظُرُ إلى قُلوبِنا، ونَحْنُ نُزاوِلُ الطّاعَةَ، وهَذا أهَمُّ مِنْ حَجْمِ الطّاعَةِ، وإفرادُ الحَسَنَةِ وتَنْكيرُها واضِحُ الدَّلالَةِ على أنَّ اللّٰه سُبحانَهُ تُرضيهِ هَذه الحَسَنَةُ المُفْرَدَةُ النَّكِرَةُ، ويَحتَفِلُ بها، ويَزيدُ بِنَفسِه حُسْنَها حُسْنًا، فإنَّ اللّٰه يَرْزُقُ المُحْتَشِدَ لِلطّاعَةِ والمُقْتَرِفَ لِلْحَسَنَةِ حُبًّا زائِدًا لِلأعْمالِ الموجِبَةِ لِلحَسَناتِ[4].

---

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 133.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 84.

(3) الشّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 205.

(4) أبو موسى، آل حم، ص: 133.

الغَرَضُ مِن إسنادِ جَوابِ الشَّرْطِ إلى (نا) الدّالَّةِ على التَّعْظيمِ في: ﴿نَّزِدۡ﴾:

أسنَدَ البَيانُ القُرآنيُّ فِعْلَ الزّيادَةِ في الحُسْنِ إلى نونِ العَظَمَةِ في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾؛ لِصَرْفِ القَوْلِ إلى مَظْهَرِ العَظَمَةِ؛ فإنَّهُ لا يَزيدُ في الإحسانِ إلّا العُظَماءُ، وإلى أنَّ الإحْسانَ قَدْ يَكونُ سَبَبًا لِعَظَمَةِ المُحْسِنِ[1]، كَما أنَّ في هَذا الإسْنادِ دَلالَةً على أنَّ اللهَ الكَبيرَ المُتعالي وحْدَهُ هوَ المُجازي والمُكافِئُ لِعِبادِه.

الـزِّيـادَةُ في الإنعامِ من أدِلَّةِ عَظَمَةِ البارِئِ تعالى

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِمادَّةِ الزّيادَةِ في: ﴿نَّزِدۡ﴾:

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بِلَفْظِ الزّيادَةِ دونَ غَيْرِها؛ إشارَةً إلى أنَّ هَذِه الزّيادَةَ تَكونُ بِما لا يَدْخُلُ تَحْتَ الوَهْمِ، ومِنَ الزّيادَةِ أنْ يَكونَ لَه مِثْلُ أجْرِ مَنِ اقْتَدَى بِه فيها إلى يَوْمِ القيامَةِ، لا يَنْقُصُ مِن أُجورِهِم شَيْئًا، وإنْ دَعاهم، فلَم يَهْتَدوا؛ كانَ لَهُ مِثْلُ أُجورِهم؛ لَوِ اهتَدَوا، فإنَّ عَدَمَ اهتدائِهم لَيْسَ مِن تَقْصيرِه[2].

الزّيادَةُ قَدْ تَكونُ بِما لا يَدْخُلُ تَحْتَ الوَهْمِ مِنَ فضْلِ اللهِ الواسِعِ الكَبيرِ

مَعْنَى اللّامِ في: ﴿لَهُۥ﴾، والغَرَضُ مِن تَقْديمِ الجارِّ والمَجرورِ:

أفادَتِ اللّامُ في ﴿لَهُۥ﴾ تَخْصيصَ الزّيادَةِ لِلمُحْسِنينَ المُخْلِصينَ، دونَ غَيْرِهم؛ لِحَثِّهم على اقترافِ الحسَناتِ، والاجتهادِ في عَمَلِها، والإخلاصِ في ابتغاءِ الأجرِ مِنَ اللّهِ وحْدَهُ، فهي زيادَةٌ بِشُروطٍ خاصَّةٍ لِلمُخْبِتينَ الأوّابينَ وحْدَهُم.

في تَخصيصِ الـزّيـادَةِ حَثٌّ وتَشْجيعٌ على مَزيدٍ مِنَ الأعْمالِ الصّالِحاتِ

مَعْنَى (في) ودَلالَتُها في: ﴿فِيهَا﴾:

أفادَتْ (في) مَعْنَى الظَّرْفِيَّةِ، على نَحْوٍ شَبيهٍ بِما في قَوْلِه: ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾، فالقُرْبَى وِعاءٌ لِلمَوَدَّةِ، والحَسَنَةُ وِعاءٌ لِلحُسْنَى[3].

كَما أنَّ القُرْبَى وِعاءٌ لِلمَوَدَّةِ، فالحَسَنَةُ كَذَلِكَ وِعاءٌ لِلحُسْنَى

بَلاغَةُ الجناسِ في تَكْرارِ مادَّةِ الحُسْنِ:

كَرَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ مادَّةَ الحُسْنِ مَرَّةً أُخْرَى في كَلِمَةِ ﴿حُسۡنًاۚ﴾؛

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 299.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 299.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 134.

وذَلِكَ لأنَّه لَمّا كانَتِ الحَسَنَةُ مَأخوذَةً مِنَ الحُسْنِ؛ جُعِلَتِ الزّيادَةُ فيها مِنَ الزِّيادَةِ في الحُسْنِ؛ مُراعاةً لأصْلِ الاشْتِقاقِ، فكانَ ذِكْرُ الحُسْنِ مِنَ الجِناسِ المُعَبَّرِ عَنْهُ بِجِناسِ الاشْتِقاقِ، وصارَ المَعْنى: نَزِدْ لَهُ فيها مُماثِلًا لَها، ويَتَعَيَّنُ أنَّ الزّيادَةَ فيها زِيادَةٌ مِن غَيْرِ عَمَلِهِ[1].

الجَـزاءُ مِـنْ جِنْسِ العَمَلِ، والـلـهُ أكْـرَمُ الكُرَماءِ

الغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِ ﴿حُسۡنًاۚ﴾:

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿حُسۡنًاۚ﴾ نَكِرَةً للتَّعْظيمِ؛ وذَلِكَ للدَّلالَةِ على عَظيمِ الجَزاءِ الرَّبّانيِّ لِمَنْ يُخْلِصونَ في أعْمالِهِم ابتِغاءَ وجْهِ اللّهِ، حَتَّى لَوْ كانَ الفِعْلُ الصّالِحُ قَليلًا هَيِّنًا.

الغَرَضُ مِنَ الخَتْمِ بِجُملَةِ التَّذْييلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾:

فَضْلُ اللهِ واسِعٌ يَـتَـضـاءَلُ إلى جِـوارِهِ كُـلُّ ذَنْـبٍ مَهْما عَظُمَ

جاءَ قَوْلُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ عَقِبَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾؛ لأنَّهُم لَمّا كانوا يَقولونَ: إنّا قَدِ ارتَكَبْنا مِنَ المَساوِئِ ما لَم يَنْفَع مَعَهُ شَيءٌ؛ أتَى بِهَذا التَّذييلِ العَظيمِ نافِيًا لِذَلِكَ على سَبيلِ التَّأكيدِ والمُبالَغَةِ[2].

الغَرَضُ مِن تَوالي المُؤَكِّداتِ في قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾:

طَـمأنَـةُ قـلـوبِ المُؤْمِنينَ وحثُّهم عـلى الإخْـلاصِ للهِ تعالى

حَفَلَ قَوْلُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ بِعَدَدٍ مِنَ المُؤَكِّداتِ لِتَرْسيخِ صِفَتَي المَغْفِرَةِ وعَظيمِ الإحْسانِ للّهِ تعالى، فاستَعْمَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ الجملةَ الاسميَّةَ الَّتي تُفيدُ الدَّوامَ والثَّباتَ في المَغفِرَةِ والإحْسانِ، ثُمَّ دَخَلَت عَلَيْها ﴿إِنَّ﴾ المُؤَكِّدَةُ، الَّتي تَقوم مَقامَ تَكْريرِ الجُملَةِ مَرَّتَين، مَعَ جَوْدَةِ الاخْتِصارِ والإيجازِ، كَما جاءَتِ الصِّفَتانِ الكَريمَتانِ على صيغَةِ (فَعولٍ) الدّالَّةِ على المُبالَغَةِ، فهو تعالى البالِغُ أقْصى حُدودِ المَغْفِرَةِ، وفي تَوَلّي هَذِهِ المُؤَكِّداتِ ما يُطَمئِنُ قلوبَ المُؤْمِنينَ، ويَحُثُّهُم على إخْلاصِ العِبادَةِ في اقْتِرافِ الحَسَناتِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 85.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 299.

العَطاءُ الجَزيلُ الـوافِـرُ مِـنَ الله ذي الـكَـمـالاتِ المُطْلَقَةِ وحْدَهُ

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْمِ الجَليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

صَرَّحَ النَّظْمُ الحَكيمُ باسم الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قَوْلِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾؛ لأنَّ مِثلَ هَذا الجَزاءِ العَظيم لا يَقْدِرُ عَلَيْه مَلِكٌ على الإطلاقِ إلّا اللّه[1]، أي: الَّذي لا يَتَعاظَمُهُ شَيْءٌ، ولِذا كانَ التَّصْريحُ بالاسْمِ الأَعْظَمِ في هَذا السّياقِ مُناسِبًا لِمَعنَى العَظَمَةِ والكَرَمِ.

بـثُّ الأمَـلِ في نُفوسِ المُؤْمِنينَ بِـذِكْـرِ صِـفـاتِ الجَمالِ

سِرُّ اصطِفاءِ الاسمَيْنِ الجَليلَيْنِ ﴿غَفُورٌ شَكُورٌ﴾:

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بالاسْمَينِ الجَليلَينِ ﴿غَفُورٌ شَكُورٌ﴾؛ لِبَثِّ الأمَلِ في نُفوسِ المُحْسِنينَ بِأَنَّ اللّهَ غَفورٌ لِكُلِّ ذَنْبٍ تابَ مِنهُ صاحِبُهُ، ولَمّا كانَ إثباتُ الحَسَنَةِ فضْلًا عَنِ الزّيادَةِ عَلَيها لا يَصِحُّ إلّا مَعَ الغُفْرانِ، ولا يُمكِنُ أنْ يَكونَ مَعَ المُناقَشَةِ، فذِكْرُ ذَلِكَ الوَصْفِ الَّذي هو أَساسُ الزّيادَةِ، أفادَتْها - أي: الزّيادَة - بِقَوْلِه: ﴿شَكُورٌ﴾، فهو يَجْزي بِالحَسَنَةِ أَضْعافَها[2].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 299.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 299.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾ [الشورى: 24]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

نَفيُ الافتراءِ وإزهاقُ الباطِلِ لازِمانِ مِن لَوازِمِ إثْباتِ الوَحْيِ وإحْقاقِه

لَمّا ابْتَدأ النَّظْمُ الحَكيمُ في أوَّلِ السّورَةِ بِتَقْريرِ أنَّ هَذا الكِتابَ إنَّما حَصَلَ بِوَحْيِ اللَّه، واتَّصَلَ الكَلامُ في تَقْريرِ هَذا المَعْنى، وتَعَلَّقَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ؛ حَكى شُبْهَةَ القَوْمِ، وهي قَوْلُهم: إنَّ هَذا لَيْسَ وحْيًا مِنَ اللَّه تَعالى[1]، فعَرَضَ لِشُبْهَتِهم أنَّ الرَّسولَ الكَريمَ ﷺ افْتَرى تَعَمُّدَ الكَذِبِ والافتراءِ على اللَّه تعالى، وكانَ قَوْلُهم مَعْلومَ البُطْلانِ؛ لأنَّهُ تَحَدّاهم بِشَيءٍ مِن مِثْلِه، فلَم يَأتوا بِشَيْءٍ، ولِتَأكيدِ أُلوهيَّةِ الوَحْيِ ورَبّانيِّتِه؛ بَيَّنَت هَذِه الآيَةُ أنَّ اللَّهَ تعالى لا يُعْجِزُه شَيءٌ، فلَو شاءَ تعالى لَمَنَعَ قَلْبَ رَسولِه ﷺ مِنْ قَبولِ الوَحْيِ، وساقَ الكَلامَ هَكَذا؛ لأنَّهُ دالٌّ على تَعَلُّقِ الافْتِراءِ بِخَتْمِ القُلوبِ، وذَلِكَ دالٌّ قَطْعًا على أنَّهم هُمُ الكاذِبونَ لِما على قُلوبِهم مِنَ الخَتْمِ الموجِبِ، ولَمّا كانَ الحالُ أنَّهُ تعالى لَم يَشَأ ذَلِكَ لِنَبيِّه ﷺ، بَلْ شاءَ جَعْلَهُ قابِلًا لِروحِ الوَحْيِ؛ عَطَفَ النَّظْمُ الجَليلُ عَلَيْه بِأنَّهُ تعالى هو القادِرُ على مَحْوِ الباطِلِ، وإحْقاقِ الحَقِّ بِكَلِماتِه، فأثْبَتَ تعالى صَفاءَ لُبِّ نَبيِّه ﷺ ونورانيَّتِه[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾: (فري) أصلٌ يَدُلُّ على قَطْعِ الشَّيءِ، ثُمَّ يُفَرَّعُ مِنهُ ما يُقارِبُهُ، فمِنْ ذَلِكَ فَرَيْتُ الشَّيءَ أفْريه فَرْيًا، وذَلِكَ قَطْعُهُ لِإصْلاحِه، وأفْرَيْتَهُ؛ إذا أنْتَ قَطَعْتَهُ لِلإفْسادِ، ويُقالُ: فَرَى فُلانٌ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/ 596.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 300.

كَذِبًا يَفريه؛ إذا خَلَقَهُ[1]، والافتراءُ الكَذِبُ، وقيلَ الافتراءُ: الكَذِبُ العَظيمُ، وقيلَ: الكَذِبُ المُتَعَلِّقُ بالأعراضِ، ويأتي الافْتراءُ بِمَعْنَى: البُهْتانِ والظُّلْم، ويأتي الفَرْيُ بِمَعنَى: الصُّنعِ والاخْتِلاقِ[2]، وسُمّيَ الكَذِبُ فِرْيَةً وافتراءً؛ لأنَّ المُفْتَري يَقْتَطِعُ الكَلامَ اقتِطاعًا مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ويَقْطَعُ، ويُفْسِدُ في عِرْضِ غَيْرِه.

2) ﴿يَخۡتِمۡ﴾: (ختم) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ بُلوغُ آخِرِ الشَّيءِ، فأمّا الخَتْمُ، وهوَ الطَّبْعُ على الشَّيءِ؛ لأنَّ الطَّبْعَ على الشَّيْءِ لا يَكونُ إلّا بَعْدَ بُلوغِ آخِرِه، والخاتَمُ مُشْتَقٌّ مِنْهُ؛ لأنَّ به يُخْتَمُ[3]، والمَعْنَى المِحوريُّ: إنْهاءُ الشَّيءِ ومَنْعُ الزّيادَةِ عَلَيْهِ بِتَسويَةِ ظاهِرِه وتَغْطيَتِه على ما في أثْنائِه[4]، والمُرادُ بالخَتْمِ على القُلوبِ: التَّغْطيَةُ على القَلْبِ والاستيثاقُ.

3) ﴿وَيَمۡحُ﴾: (محو) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على الذَّهابِ بِالشَّيءِ، وتُسَمَّى الشَّمالُ مَحْوَةً؛ لأنَّها تَمحو السَّحابَ[5]، وامَّحَى الشَّيءُ: ذَهَبَ أَثَرُهُ، يُقالُ: مَحا الشَّيءَ يَمحوهُ ويَمحاهُ مَحْوًا ومَحْيًا؛ إذا أذْهَبَ أَثَرَهُ[6]، والمَحْو: إزالَةُ الأَثَرِ[7]، والمَعْنَى المِحوريُّ: ذَهابُ ما يَبْدو لاصِقًا بِظاهِرِ الشَّيءِ أو عَرْضِهِ[8]، وحَقيقَةُ المَحْوِ في الآيَةِ: إزالَةُ الباطِلِ ومَحْقُهُ وإثباتُ الحَقِّ بِوَحيِه أو بِقَضائِه[9].

4) ﴿وَيُحِقُّ﴾: (حقق) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه، ثُمَّ يَرْجِعُ كُلُّ فَرْعٍ إلَيْه بِجَوْدَةِ الاستِخْراجِ وحُسْنِ التَّلفيقِ، ويُقالُ: حَقَّ الشَّيءُ: وجَبَ، ويُقالُ: حاقَّ فُلانٌ فُلانًا؛ إذا ادَّعَى كُلُّ واحِدٍ منهما، ويُقالُ: فُلانٌ حَقيقٌ بِكَذا ومَحْقوقٌ به[10]، وحَقَّ الأمرُ: وجَب، وأحَقَّهُ: كانَ مِنْهُ على يَقينٍ، والمُرادُ بـ﴿يُحِقَّ﴾، أيْ: يَثْبُتُ على وجْهٍ لا يُمكِنُ زَوالُهُ[11].

5) ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾: (كلم) أَصْلانِ: أحَدُهُما يَدُلُّ على نُطْقٍ مُفْهِمٍ، والآخَرُ على جِراحٍ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرى).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فرى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ختم).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ختم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (محو).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (محو).
(7) الراغب، مفردات القرآن: (محو).
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (محو - محي).
(9) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 34.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقق).
(11) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 303.

فالأوَّلُ الكَلامُ، تقولُ: كَلَّمتُهُ أُكَلِّمُهُ تَكْليمًا، ويَجْمَعونَ الكَلِمَةَ على كَلِماتٍ وكَلِمًا، والأصلُ الآخَرُ الكَلْمُ، وهوَ الجُرْحُ، والكَلامُ: الجِراحاتُ، وجَمعُ الكَلْمِ: كُلومٌ[1]، وأصْلُ اشتِقاقِ الكَلامِ مِنَ الكَلْمِ[2]، وقيلَ: أصْلُ الكَلامِ مِنَ الكَلْمِ، وهوَ الجَرْحُ والشَّقُّ؛ لأنَّهُ يَشُقُّ الأسماعَ بوُصولِه إلَيْها، وقيلَ: لأنَّهُ يَشُقُّ المَعاني[3]، والمُرادُ بـ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ في الآيَةِ: كَلِماتُ القُرآنِ والوَحْيِ، أوِ المُرادُ: كَلِماتُ التَّكْوينِ المُتَعَلِّقَةُ بِالإيجادِ على وفْقِ عِلْمِه[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إثباتُ ألوهيَّةِ الوَحْيِ وتَوْكيدُ صِدْقِ الرَّسولِ الكَريمِ ﷺ في التَّبْليغِ عَنْ رَبِّهِ تعالى

عَرَضَتِ الآيَةُ لِمَزاعِمِ الكُفّارِ الكاذِبَةِ المُتَمَثِّلَةِ في قَوْلِهم: إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدِ افْتَرى على اللّهِ تَعالَى كَذِبًا فيما يَدْعوهُم إلَيه، وفيما يَتلوهُ عَلَيهِم مِن قُرآنٍ، ثُمَّ أجابَ سُبحانَهُ عنِ افْتِرائِهِم هَذا بِبَيانِ طَلاقَةِ المَشيئَةِ الإلَهيَّةِ في إحاطَةِ الوَحْيِ بِسياجٍ مَتينٍ مِنَ الوِقايَةِ والحِمايَةِ لا قِبَلَ لأحَدٍ بِه، فبالَغَ في تَأكيدِ صِدْقِ نَبيِّه ﷺ بِطَريقَةِ مُجاراةِ الخَصْمِ، فبيَّنَتِ الآيَةُ أنَّ اللهَ تعالى إنْ يَشَأْ؛ يَجْعَلْ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ المَخْتومِ على قُلوبِهِم؛ لأنَّ افتِراءَ الكَذِبِ على اللّهِ لا يَكونُ إلّا مِمَّن طَبَعَ اللّهُ على قُلوبِهِم، فهُم لا يَفْقَهونَ، وهوَ ﷺ نَبيٌّ كريمٌ مُبَرَّأٌ ومُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، فالمَقْصودُ مِنَ الجُملَةِ الكَريمَةِ تَنزيهُ ساحَةِ الرَّسولِ ﷺ عَمّا قالَهُ المُشْرِكونَ في شَأنِه، وإثباتُ أنَّ افْتِراءَ الكَذِبِ إنَّما هوَ مِنْ شَأنِهِم لا مِنْ شَأنِه ﷺ[5]، ثُمَّ أوْضَحَ النَّظْمُ الجَليلُ أنَّ مِنْ شَأنِ اللّهِ تعالى أنْ يَمحوَ الباطِلَ، وأنْ يُثْبِتَ الحَقَّ بِكَلِماتِه الفاصِلَةِ، وقَضائِه العادِلِ، كَما قالَ تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلم).
(2) المناوي، التّوقيف: 1/ 283.
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النّواظر، ص: 523.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 88.
(5) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 32.

﴿هُوَ زَاهِقٌۚ﴾ [الأنبياء: 18]، فهوَ سُبْحانَهُ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ، مُطَّلِعٌ على ما تُخْفيه الصُّدورُ مِنْ أسْرارٍ ونيّات، لا يَخْفَى عَلَيه شَيءٌ في الأرْضِ ولا في السَّماءِ، وسَيُجازي كُلَّ إنْسانٍ بِما يَسْتَحِقُّهُ مِن خَيْرٍ أو شَرٍّ(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَعْنَى ﴿أَمۡ﴾ ودَلالَتُها:

تَهْيِئَةُ السّامِعينَ بالاستِفْهامِ الاستِنْكاريِّ تَعَجُّبًا مِنْ حَماقَةِ الزّاعِمينَ المُفْتَرين

في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ صَدَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ الآيَةَ الكَريمَةَ بـ﴿أَمۡ﴾، وهيَ إمّا مُنْقَطِعَةٌ مُقَدَّرَةٌ بـ (بَلْ)، أي: بَلْ يَقولونَ، و(بَل) انتِقاليَّةٌ، وقيلَ: إنَّ ﴿أَمۡ﴾ مُتَّصِلَةٌ، ومُعادِلُها مُقَدَّرٌ، أي: أتُنْكِرونَهُ، أم تَقولونَ: افْتَرَى الوَحيَ والنُّبوَّةَ؟ وقيلَ: هيَ استِفْهاميَّةٌ بِمَعْنَى الهَمزَةِ، وقيلَ: عاطِفَةٌ بِمَعْنَى الواوِ، والرّاجِحُ أنَّها استِفْهاميَّةٌ للإضْرابِ، وهو إضرابٌ أطَمُّ مِنَ الأوَّلِ، فكَأنَّهُ قيلَ: أيَتَمالَكونَ التَّفوُّهَ بِنِسْبَةِ مِثْلِه ﷺ إلى الافتراءِ، ثُمَّ إلى الافتراءِ على اللّه ﷻ الَّذي هو أعظَمُ الفَرْيِ وأفْحَشُها، ولا تَحْتَرِقُ ألْسِنَتُهم؟ وفي ذَلِكَ أتَمُّ دَلالة على بُعْدِه صَلّى اللّه تَعالى عَلَيْه وسَلَّمَ مِنَ الافْتِراءِ(2)، كَما أفادَتِ الإضْرابَ الانْتِقاليَّ، عَطْفًا على قَوْلِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: 21]، وهو الكَلامُ المُضْرَبُ عَنْهُ والمُنْتَقَلُ منهُ، والمُرادُ الانتِقالُ إلى تَوْبيخٍ آخَرَ، فالهَمزَةُ المُقَدَّرَةُ بَعْدَ ﴿أَمۡ﴾ لِلاستِفْهامِ التَّوبيخيِّ، فإنَّهم قالوا ذَلِكَ فاستَحَقّوا التَّوبيخَ عَلَيه، والمَعْنى: أم قالوا: افتَرى، ويَقولونَهُ(3).

الغَرَضُ مِنَ الاستِفهامِ المُقَدَّرِ بَعْدَ ﴿أَمۡ﴾:

المُكَذِّبونَ حَقيقونَ بالإنكارِ والتَّوْبيخِ والتَّشْنيعِ

صَدَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ الآيَةَ بـ﴿أَمۡ﴾ الَّتي أفادَتِ الاستِفْهامَ الاستِنْكاريَّ، ولَكِنَّ الاستِفهامَ الَّذي تُفيدُهُ ﴿أَمۡ﴾، قَد يَكونُ حَقيقيًّا،

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 33.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 34، و6/ 111، والخطيب وآخران، التفصيل: 25/ 83.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 85.

وقَد يَكونُ غَيْرَ حَقيقيٍّ، بَلْ يُرادُ بِه الإنْكارُ والتَّوبيخُ والتَّعَجُّبُ[1]، فإنَّ مَوْقِعَها هَهُنا لَيْسَ على جِهَةِ الاستِفهامِ، وإنَّما خَرَجَت مَخْرَجَ التَّوبيخِ والتَّقْريرِ، فهي لتَكريرِ تَوْبيخٍ بَعْدَ تَوْبيخٍ عَلَيهِم[2]، فالاستِفْهامُ المَحذوفُ؛ لإنكارِ الواقِعِ واستِبعادِه، ثُمَّ أعقَبَ ﴿أَمْ﴾ بالاستِفهامِ عَن دَعْوَى المُشْرِكينَ الافتِراءَ؛ لِيَتَلَقَّى السّامِعُ هَذِه الدَّعْوَى بِمَزيدٍ مِنَ التَّعَجُّبِ مِن حَماقَةِ أصحابِها.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾:

الافــتراءُ على رَسـولِ الله شَنيعٌ، وأشْنَعُ مِنهُ الاستِمرارُ في تَرديدِه ولَوكِه لَيلَ نَهارَ

عَبَّرَ النَّظمُ بِصيغَةِ المُضارَعَةِ ﴿يَقُولُونَ﴾؛ للدَّلالَةِ على استِمرارِهم في تَرديدِ هَذِه الفِرْيَةِ؛ لِيَتَوَجَّهَ التَّوبيخُ لاسْتِمرارِهم على هَذا القَوْلِ، فإذا كانَ قَوْلُهم هَذا شَنَعًا مِنَ القَوْلِ؛ فاسْتِمرارُهم عَلَيهِ أشْنَعُ[3]، فالافتراءُ على رَسولِ اللّه أمرٌ مُنْكَرٌ شَنيعٌ على كُلِّ حالٍ، لَكِنَّ الاستِمرارَ في تَرْديدِه ولَوْكِه لَيلَ نَهارَ أشْنَعُ مِنهُ، فاستَحَقّوا بِهَذا تَوبيخًا بَعْدَ تَوْبيخٍ[4].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ دونَ (كَذَبَ) أو (زَعَمَ):

في الافــتراءِ دلالــةٌ على الكَذِبِ العَظيمِ والـبُـهْـتـانِ والاخْــتِـلاقِ والإفسادِ، وَهُم بِه أحِقّاءُ

آثَرَ البَيانُ القُرآنيُّ التَّعْبيرَ بِمادَّةِ الافتِراءِ دونَ غَيرِها مِن مُرادِفاتِها، كَكَذَبَ، وزَعَمَ، واخْتَلَقَ، وذَلِكَ لِما في مادَّةِ الافْتِراءِ مِنَ الدَّلالَةِ على الكَذِبِ العَظيمِ والبُهْتانِ والاخْتِلاقِ والإفسادِ[5]، ففَي التَّعْبيرِ بِها إشْعارٌ بِتَعَنُّتِهم ومُكابَرَتِهم، ففيه تَعْجيبٌ مِنْ حالِهِم وإنكارٌ على جَهلِهم وجَرأتِهم، كَما أنَّ الكَذِبَ إخْبارٌ بِخِلافِ الحَقيقَةِ[6]، أمّا الافتِراءُ؛ فهوَ اختِلاقُ حَدَثٍ لَيْسَ مَوْجودًا، فهوَ أشَدُّ مِنَ الكَذِبِ، فالكَذِبُ يَدُلُّ على تَغْييرِ الحَقائِقِ والإخْبارِ عَنها بِخِلافِ

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 247.
(2) المبرد، المقتضب: 3/ 291.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 85.
(4) أبو موسى، آل حم، ص: 137.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (فرى).
(6) الكفوي، الكليات، ص: 768.

ما هيَ عَليه، أمّا الافتراءُ؛ فلَيسَ لَهُ واقِعٌ، فكانَ أخَصَّ مِنَ الكَذِبِ وأشَدَّ منْهُ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾:

ضَجَرُ المُكَذِّبينَ مِن ثَباتِ دَعوَةِ النَّبيِّ ﷺ وظُهورِ دينِه على أديانِهم الفاسِدَةِ

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّعْبيرَ بِصيغَةِ المُضيِّ في ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ مُرادَهُم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَدِ افْتَرَى على اللّه افتراءً ثابتًا في الماضي، حَتَّى غدا افتراؤُهُ راسِخًا لا يَتَزَحْزَحُ، وفي ذلِكَ دَلالَةٌ على ضَجَرِهم مِنْ ظُهورِ أمرِه وثَباتِ دَعْوَتِه ﷺ، فكانَ التَّعْبيرُ بالماضي كاشِفًا لِحَقيقَةِ ما يَجِدونَه في ذاتِ صُدورِهم، وسَخائِمِ قُلوبِهم.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ دونَ (افْتَراهُ):

الافتراءُ على النَّبيِّ أشْنَعُ مِنَ الافتراءِ على القُرآنِ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِـ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ دون (افْتَراهُ)، كَما هو في سائِرِ المَواضِعِ الأُخْرَى في القُرآنِ العَظيمِ[1]؛ للدَّلالَةِ على أنَّ مُرادَهُم أنَّ الافْتِراءَ لَيْسَ واقِعًا على ضَميرِ القُرْآنِ، وإنَّما هوَ عائِدٌ على رَسولِ اللّه ﷺ، وأنَّهُ افترى الكَذِبَ على اللّه في كُلِّ ما بَلَّغَ عَنْهُ، وهَذا أدْخَلُ في الزّورِ والبُهْتانِ وأشْنَعُ؛ ولِذلِكَ ذَهَبَ بَعْضُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ هَذه الآيَةَ وصَفَتْ دَرَجَةً في الضَّلالِ والبُهْتانِ أبْعَدَ مِنَ الآيَةِ قَبْلَها: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ﴾ [الشورى: 21]، مَعَ أنَّ آيَةَ الشُّرَكاءِ وثَنِيَّةٌ مَحْضَةٌ، وهَذِه الآيَةُ فيها اعْتِرافٌ بِاللّه وتَكْذيبٌ لِمَنِ ادَّعَى أنَّ اللّه أوْحَى إلَيْه[2].

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

إيهامُ المُكَذِّبينَ لأتْباعِهِم أنَّهُم أحْرَصُ على الجَنابِ الإلَهيِّ مِنْ رَسولِ الله ﷺ

قَدَّمَ النَّظْمُ الحَكيمُ شِبْهَ الجُملَةِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالَةِ على التَّخْصيصِ والقَصْرِ؛ لِبَيانِ إيهامِهم لأتباعِهم أنَّهُم أحْرَصُ على الجَنابِ الإلَهيِّ مِنْ رَسولِ اللّه ﷺ، كأنَّهُم قَصَدوا تَعْظيمَ اللّه تَعالَى مِنْ أنْ يُنْسَبَ القُرْآنُ إلَيْه، ولَعَلَّ تَقْديمَ شِبْه الجُملَةِ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ ناتِجٌ عَنْ تَأثُّرِهم بِأُسْلوبِ القُرآنِ العَظيمِ، الَّذي أثَّرَ في نُفوسِهم أعْظَمَ

(1) يونس: 38، وهود: 13، وهود: 35، والأنبياء: 5، والسجدة: 3، والأحقاف: 8.

(2) أبو موسى، آل حم: الشورى، ص: 137.

تأثيرٍ، رُغْمَ عِنادِهم وتَكْذيبِهم، فغَلَبَهُم القُرآنُ بِسِحْرِ بَلاغَتِه، وعَجيبِ نَظْمِه.

مَعنى ﴿عَلَى﴾ ودَلالَتُها في: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

الوَحيُ مُستَعْلٍ على شِرْكِ المُفترينَ وكُفْرِ المُكَذِّبينَ

جاءت ﴿عَلَى﴾ التي تفيدُ الاستِعْلاءَ، والَّذي هوَ أصْلُ مَعانيها؛ إشارَةً إلى زَعْمِهم أنَّ الوَحْيَ الَّذي بَلَّغَهُ الرَّسولُ الكَريمُ ﷺ قَدِ اسْتَعلى على ما ورِثوهُ عَنْ آبائِهم الأقْدَمينَ مِنْ عَقائِدَ فاسِدَةٍ؛ إذْ يُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ ثَمَّةَ مُضاف، هوَ (وَحي)، أي: افْتَرَى على وحي اللّه، أو أنْ يَكونَ التَّقْديرُ: (افْتَرَى على اللّه في ادِّعائِه تَبْليغَ وحي من عِنْدِه).

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ الجَليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

مُزايَدَةُ المُشْرِكينَ الآثِمَةُ على رَسولِ اللهِ ﷺ في ادِّعاءِ الاهتِمامِ بأمرِ الألُوهيَّة

جاءَ التَّعْبيرُ بِلَفْظِ الجَلالَةِ في سياقِ الحَديثِ عَنِ الكَذِبِ عَلَيْه؛ تَنْبيهًا على عِظَمِ جُرْمِ الكَذِبِ على اللّه، وإعْلامًا بِشِدَّةِ قَباحَتِه، فصَرَّحَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِعَلَمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ إظْهارًا لِعَظَمَةِ هَذِه الجِنايَةِ، فكَأنَّهُم أرادوا بِذَلِكَ المُزايَدَةَ على رَسولِ اللّه زورًا وبُهْتانًا.

الغَرَضُ مِنَ التَّنْكيرِ في: ﴿كَذِبًاۖ﴾:

كُلُّ كَذِبٍ على اللهِ عَظيمٌ وإنْ كانَ قَليلًا

آثَرَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ التَّعْبيرَ بِصيغَةِ التَّنْكيرِ ﴿كَذِبًاۖ﴾؛ لِلدَّلالَةِ على عَظيمِ خُطورَةِ الكَذِبِ على اللّه تَعالَى، وقَدْ أفادَ تَنْكيرُ لَفْظِ ﴿كَذِبًاۖ﴾ العُمومَ؛ لِيَتَناوَلَ الاسْمُ قَليلَ الكَذِبِ وكَثيرَهُ، ويَشْمَلَ جَميعَ أنْواعِه، فيَدْخُلَ فيه كلُّ ما يُسَمَّى كَذِبًا، فكانَ قَليلُ الكَذِبِ على اللّه تَعالَى وكَثيرُهُ سَواءً في عِظَمِ الذَّنْب.

دَلالَةُ الجمعِ بَيْنَ لَفْظَي: ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ و﴿كَذِبًاۖ﴾:

مُبالَغَةُ الكُفّارِ في تَكْذيبِ رسولِ اللهِ ﷺ لِصَدِّ النّاسِ عَنْ قَبولِ دَعْوَتِه

جَمَعَ النَّظْمُ الجَليلُ في مُزايَدَةِ الكُفّارِ على رَسولِ اللّه ﷺ بَيْنَ لَفْظَي الافْتِراءِ والكَذِب؛ لِبَيانِ مُبالَغَتِهم في نِسْبَةِ الكَذِبِ إلى رَسولِ اللّه، وذَلِكَ في إطارِ سَعْيِهم الأثيمِ إلى التَّشْنيعِ على الوَحْيِ الإلَهيِّ، كَما أنَّهُ شامِلٌ لِكُلِّ ما يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّه سَواءٌ أكانَ كِتابًا أو سُنَّةً، واختَصَّتْ سورَةُ الشّورَى بِهَذا؛ لأنَّها سورَةُ الوَحْي.

جَلالَةُ الوَحْيِ أعلى وأرْقَى مِنْ أنْ تَمتَدَّ إلَيْها افتِراءاتُ المُفْتَرِين

مَعْنَى الفاءِ ودَلالَتُها في: ﴿فَإِن﴾:

الفاءُ في قَوْلِه: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾، هيَ الفاءُ التَّفْريعيَّةُ، وهيَ وارِدَةٌ للتَّوْبيخ، فالشَّرْطُ وجَوابُهُ دَليلٌ على المَقْصود بالتَّفْريعِ المُناسِبِ لِتَوْبيخِهم وإبْطالِ قَوْلِهم، وتَقْديرُ المُفَرَّع: فلَوْ شاءَ؛ لَخَتَمَ على قَلْبِك، فتُفْحَمُ عَنِ الكَلام، فلا تَسْتَطيعُ أن تتقوَّل عليه، فيكون الشَّرطُ كنايَةً عَنِ انتِفاءِ الافْتِراء، فحَصَلَ بهَذا النَّظْمِ إيجازٌ بَديعٌ[1]، وفي ذلك أتمُّ دلالة على بُعْدِه ﷺ مِنَ الافتراء، فهَذا الأُسْلوب مُؤَدّاهُ استِبْعادُ أن يُخَوَّنَ مِثْلُهُ، والتَّنْبيهُ على أنَّهُ رُكِّبَ مِن تَخْوينِه أمرٌ عَظيمٌ، فالكَلامُ تَعْليلٌ لإنْكارِ قَوْلِهم[2].

صِيانَةُ الجَنابِ النَّبَوِيِّ عنِ الخَتْمِ على قَلبِهِ

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِأداةِ الشَّرْطِ (إنْ):

استَعمَلَ النَّظمُ الحَكيمُ أداة الشَّرطِ (إنْ)، وعَدَلَ عَنِ استِعمالِ غَيرِها مِنْ أدَواتِ الشَّرْطِ، مِثلَ (إذا)؛ لأنَّ (إنْ) تَأتي في العادَةِ لِما لا يَغْلِبُ وُقوعُهُ، على النَّقيضِ مِنْ (إذا) الَّتي تَأتي لِما يَغْلِبُ وُقوعُهُ، وفي ذَلِكَ إشارَةٌ جَليَّةٌ إلى صِيانَةِ الجَنابِ النَّبَوِيِّ عَن تَحَقُّقِ الشَّرطِ في حَقِّه، وهوَ الخَتْمُ على القَلْبِ، ومِن هُنا كانَ التَّعْبيرُ بِـ(إنْ) دَليلًا على أنَّ هَؤُلاءِ المُكَذِّبينَ هُمُ الأحِقّاءُ بالخَتْم، وأنَّهُم هُمُ المُفترونَ الآثِمونَ، وفي التَّعْبيرِ بِـ(إنْ) كَذَلِكَ إرْخاءٌ للعنانِ، وقيلَ: إشْعارٌ بِعَظَمَتِه تَعالى، وأنَّهُ سُبْحانَهُ غَنيٌّ عَنِ العالَمينَ[3].

تَجَدُّدُ الخَتْمِ على قُلوبِ المُفْتَرينَ بِتَجَدُّدِ أفْرادِهِم ومَذاهِبِهِم

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمَشيئَةِ فِعْلًا مُضارِعًا ﴿يَشَإِ﴾:

جاءَ البَيانُ القُرآنيُّ بِصيغَةِ المُضارَعَةِ ﴿يَشَإِ﴾، دونَ صيغَةِ المُضيِّ؛ للدَّلالَةِ على التَّجَدُّدِ الاسْتِمراريِّ، أي: اسْتِمرارُ المَشيئَةِ الإلَهيَّةِ في مَحْقِ المُفْتَرينَ والخَتْمِ على قُلوبِهم، فكُلَّما تَجَدَّدَ مِنْهُمُ الافتراءُ؛ تَجَدَّدَ الخَتْمُ، بِتَعَدُّدِ مَذاهِبِهم في الافتراءِ والكَذِبِ على اللهِ تعالى.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 85.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 34.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 34.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالمُسْنَدِ إلَيْه بِالاسمِ الجَليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

أمرُ القُلوبِ بيَدِ اللهِ وحْدَهُ، لا بيَدِ أحَدٍ سِواهُ تعالى

صَرَّحَ النَّظْمُ الجَليلُ بإسنادِ الفاعِليَّةِ في الجُملَةِ إلى الاسمِ الجَليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ إشارَةً إلى أنَّ أمرَ القُلوبِ بيَدِ اللهِ وحْدَهُ، فكانَ التَّصْريحُ بِه أوْقَعَ في القلوبِ، وأشَدَّ في التَّعْريضِ باستِحْقاقِهم الخَتْمَ، وكذَلك فإنَّ العُدولَ عَنِ الإضْمارِ إلى الإظْهارِ أقْوَى في التَّعْبيرِ عَن كَمالِ عِلْمِ اللهِ، فلَم يُضْمِرْ تَعْظيمًا لِلأمرِ بأنَّ الخَتْمَ لا يَقْدِرُ عَلَيه إلّا المُتَّصِفُ بِجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ على الإطْلاقِ مِن غَيْرِ تَقيُّدٍ بِقَيْدٍ[1].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالخَتْمِ:

تَغْطيَةُ القُلوبِ عَنِ الهُدَى عِقابٌ للمُفْتَرينَ الكاذِبينَ

عَبَّرَ النَّظْمُ الجَليلُ عَن جَزاءِ المُفْتَرينَ على اللهِ تعالى، بمادَّةِ الخَتْمِ في ﴿يَخۡتِمۡ﴾؛ لأنَّ الخَتْمَ بُلوغُ آخِرِ الشَّيءِ، وهوَ كَذَلك الطَّبْعُ؛ لأنَّ الطَّبْعَ على الشَّيْءِ لا يَكونُ إلّا بَعْدَ بُلوغِ آخِرِه[2]. فالمُرادُ بالخَتْمِ على القُلوبِ التَّغْطيَةُ على القَلْبِ والاستيثاقُ مِنْ ألّا يَدخُلَهُ شَيْءٌ مِنَ الإيمانِ، نَكالًا وعِقابًا لِمَنِ افْتَرَى على اللهِ الكَذِبَ، وحاشا لِرَسولِه الكريمِ ﷺ أن يَفْتَرِيَ على رَبِّه تعالى، والوَجْهُ الأدَقُّ في استِعْمالِ مادَّةِ الخَتْمِ هَهُنا أنَّهُ مَصروفٌ إلى تَسليَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وتَذْكيرٌ بإحْسانِ اللهِ إلَيه؛ لِيَشْكُرَ رَبَّهُ سُبْحانَهُ، ويَتَرَحَّمَ على مَن خُتِمَ على قَلْبِه، فاسْتَحَقَّ غَضَبَ رَبِّه؛ إذْ لَوْلا ذَلِكَ؛ ما اجْتَرَأَ على نِسْبَتِه لِما ذُكِرَ[3].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُضارَعَةِ ﴿يَخۡتِمۡ﴾:

كُلَّما تَجَدَّدَ الافْتِراءُ؛ تَجَدَّدَ الخَتْمُ على قُلوبِهِم، مَهْما تَعَدَّدَتْ أشْخاصُهُم ومَذاهِبُهُم

جاءَ النَّظْمُ بِالفِعلِ ﴿يَخۡتِمۡ﴾ في صيغَةِ المُضارَعَةِ؛ للدَّلالَةِ على التَّجَدُّدِ الاسْتِمراريِّ، فكُلَّما تَجَدَّدَ الافْتِراءُ مِنَ المُفْتَرينَ؛ تَجَدَّدَ الخَتْمُ على قُلوبِهم، مَهْما تَعَدَّدَتْ أشْخاصُهُم ومَذاهِبُهُم، فالمُرادُ تَبْرِئَةُ ساحَةِ الرَّسولِ الكَريمِ ﷺ، مِمّا يَزْعُمُهُ الكاذِبونَ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 301.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ختم).

(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 35.

مَعْنَى ﴿عَلَىٰ﴾ ودَلالَتُها في: ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾:

استعلاءُ الخَتْمِ علـى قُلـوبِ المُفْتَرِينَ فلا يدْخُلُها إيمانٌ

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الكَريمُ الحَرْفَ ﴿عَلَىٰ﴾؛ لإفادَةِ الاسْتِعْلاءِ، وذَلِكَ لأنَّ الخَتْمَ لَمّا كانَ في آخِرِ الشَّيْءِ؛ فهوَ قدِ استَعلى عليه، والمُرادُ باسْتِعْلاءِ الخَتْمِ على القلبِ أنْ يَمنَعَهُ مِن قَبولِ روحِ هَذا الوَحْيِ، وقَدْ أعاذَ اللّهُ نَبِيَّهُ ﷺ عَمّا يَقولونَ مِمّا يَصِحُّ نِسْبَتُهُ إلى الباطِلِ[1].

الغَرَضُ مِنَ الإضافَةِ إلى ضَميرِ الخِطابِ في: ﴿قَلۡبِكَۗ﴾ والمُرادُ بِالضَّميرِ:

قَلْبُ النَّبيِّ ﷺ بمرأى ومَسْمَعٍ مِنَ الله تعالى

أضافَ النَّظْمُ الحَكيمُ القَلْبَ إلى ضَميرِ الخِطابِ في ﴿قَلۡبِكَۗ﴾ للاخْتِصاصِ، والضَّميرُ عِنْدَ الجُمهورِ عائِدٌ على رَسولِ اللّه ﷺ، وذَهبَ فريقٌ إلى أنَّ مَعْنَى: ﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ يَربِط على قَلبِكَ بالصَّبْرِ على أذاهُم؛ حَتَّى لا يَدْخُلَ قَلْبَكَ مَشَقَّةٌ مِنْ قَوْلِهم، وقال بَعْضُهُم: فإن يشأِ اللّهُ؛ يَخْتِم على قُلوبِ الكُفّارِ، فالخِطابُ لَهُ، والمُرادُ الكُفّارُ[2]، وعَدَلَ عَنِ الغَيْبَةِ إلى الخِطابِ ومِنَ الجَمعِ إلى الإفْرادِ[3]، وقيلَ: المَعْنى لَوِ افْتَرَيْتَ على اللّه؛ لَطَبَعَ على قَلْبِك حَتّى لا تَقْدِرَ على حِفْظِ القُرْآنِ، وقيلَ: لَخَتَمَ على قَلْبِك بالصِّدْقِ واليَقينِ، وقَدْ فعَلَ ذَلِكَ[4]، والرّاجِحُ أنَّ المُرادَ الرَّدُّ على مَقالَةِ الكُفّارِ وبيانُ إبطالِها، فمَقصَدُ اللَّفْظِ هَذا المَعْنى، وحُذِفَ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ الظاهِرُ اخْتِصارًا واقتِصارًا[5].

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بالجُملَةِ الشَّرطيّةِ وجَوابِها عنِ احْتِمالِ الخَتْمِ:

صيانَةُ العقيدَةِ الإسلاميَّةِ عن مُغالاةِ اليَهودِ والنَّصارَى

في قَوْلِه سُبْحانَهُ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ تَحْقيقٌ وتَوْضيحٌ وتَثْبيتٌ لِلفَرْقِ العَظيمِ بَيْنَ الأُلوهيَّةِ والنُّبوَّةِ حَتَّى لا يَخْتَلِطَ الأمرُ على أحَدٍ بَعْدَ طولِ الأمَدِ، وأنْ يَقولَ المُسْلِمونَ ما قالَهُ اليَهودُ والنَّصارَى،

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 301.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 596، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 25.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 35.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 336.

(5) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 34.

وهَذا ومِثْلُهُ صانَ عَقيدَةَ الأُمَّةِ مِن هَذا الخَلْطِ الَّذي أَفْسَدَ اليَهوديَّةَ والنَّصرانيَّةَ، فلَيْسَ في المُسْلِمينَ واحِدٌ يَتَوَهَّمُ هَذا الخَلْطَ[1].

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَيَمۡحُ﴾:

مَحْوُ الباطِلِ وإحْقاقُ الحَقِّ لَيْسَ مَشْروطًا بِشَيْءٍ، بلَ هو مِن خَصائِصِ الأُلوهيَّةِ

عَطَفَ البَيانُ القُرآنيُّ جُملَةَ: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ على جُملَةِ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ على التَّفْريعِ، وهي كَلامٌ مُستَأنِفٌ، فهيَ لَيسَت مُعطوفَةً على جَوابِ الشَّرطِ قَبلها؛ لأنَّ مَحْوَ اللَّهِ لِلباطِلِ وإحقاقَهُ الحَقَّ لَيْسَ مَشْروطًا بِشَيءٍ[2]، وعلى مُراعاةِ هَذا المَعنى جَرى جُمهورُ المُفَسِّرينَ؛ لأنَّ المُتَبادِرَ أنَّ هَذا وعْدٌ مِنَ اللّهِ بإظْهارِ الإسلامِ، ووَعيدِ المُشْرِكينَ بأنَّ دينَهم زائِلٌ[3]، وثَمَّةَ احتِمالٌ آخَرُ في نَظْمِ الجُملَةِ، وهوَ أنْ يَكونَ المَعنى: أنَّ مِن شَأنِ اللّهِ تَعالى أن يُزيلَ الباطِلَ، ويَفْضَحَهُ بإيجادِ أسبابِ زَوالِه، والمَعْنَى الأوَّلُ أَنْسَبُ بالاستِئْنافِ، ولإفادَتِه الوَعيدَ بإزالَةِ ما هم عَلَيه ونَصْرِ المُسْلمينَ عَلَيْهم، وعلى كِلا المَعْنَيَيْنِ فقَوْلُهُ: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ كَلامٌ مُسْتَأنَفٌ لَيْسَ مَعْطوفًا على جَزاءِ الشَّرْطِ؛ إذْ لَيْسَ المَعْنى على: إنْ يَشَأ اللّهُ؛ يَمحُ الباطِلَ، بَلْ هو تَحْقيقٌ لِمَحْوِه للباطِلِ[4]، ويَجوزُ أنْ يَكونَ هَذا وعْدًا مِنَ اللّه لِرَسولِه بِأنَّهُ يَمحو الباطِلَ الَّذي هم عَلَيْه مِنَ البَهْتِ والفِرْيَةِ والتَّكْذيبِ، ويُثْبِتُ الحَقَّ الَّذي كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَيْهِ[5].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِ(يَمحُ) مادَّةً وصيغَةً:

إزالَةُ الباطِلِ ومَحْقُهُ أمرٌ مَتَجَدِّدٌ، يَحْفَظُ اللّهُ به دينَهُ مِنْ عَبَثِ العابِثِينَ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِمادَّةِ المَحْوِ (يَمحُ)؛ لِما فيها مِنَ الدَّلالَةِ على الذَّهابِ بالشَّيْءِ، وإزالَةِ الأثَرِ، وأُطْلِقَ هُنا على إزالَةِ الباطِلِ ومَحْقُهُ وإثْباتُ الحَقِّ بِوَحْيِه أو بِقَضائِه، وهو الباطِلُ المَعْهودُ، وهو

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 141.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 140.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 86.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 87.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 597.

دينُ الشِّرْكِ، وقدِ اسْتَعْمَلَ البَيانُ القُرآنيُّ الفِعْلَ: (يَمحُ) بصيغَةِ المُضارَعَةِ، لإفادَةِ التَّجَدُّدِ؛ لأنَّهُ أُريدَ ما في إفادَةِ المُضارِعِ مِنَ التَّجَدُّدِ والتَّكْريرِ؛ إيماءً إلى أنَّ هَذا شأنُ اللَّه، وعادَتُهُ لا تَتَخَلَّفُ؛ لأنَّ إفادَةَ التَّكْريرِ تَقْتَضي ذَلكَ، وللغَرَضِ نَفْسِه عَدَلَ عَنِ الجُملَةِ الاسميَّةِ في صَوْغِ: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾، فلَم يقل: (واللَّه يَمحو الباطِلَ)؛ إذ لَم يَقْصِدْ تَحْقيقَ ذَلكَ وتَثْبيتَهُ[1].

دَلالَةُ حَذْفِ الواوِ في: ﴿وَيَمۡحُ﴾ في الوَصْلِ والوَقْفِ:

سُهولَةُ مَحْوِ الباطِلِ دَليلٌ على طَلاقَةِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ

حَذَفَ النَّظْمُ الواوَ في ﴿وَيَمۡحُ﴾، والأَصْلُ فيه (يَمحو) بالواوِ، وحُذِفَتِ الواوُ في النُّطْقِ تَخفيفًا واخْتِصارًا، وتَبِعَ حَذْفَها في النُّطْقِ حَذْفُها في الرَّسْمِ، كَما حُذِفَتْ واوُ: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨﴾ [العلق: 18][2]، ولَم يَرِدْ إثْباتُها في هَهُنا في أيٍّ مِنَ المَصاحِفِ[3]، ولَعَلَّ في حَذْفِ الواوِ في الكِتابَةِ رَسْمًا، وفي النُّطْقِ وصْلًا ووقْفًا، إشارَةً خَفيَّةً إلى سُهولَةِ مَحْوِ الباطِلِ على أيِّ حالٍ وسُرْعَةِ إزالَتِه، فالحَذْفُ دَليلٌ على طَلاقَةِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ، وكَذَلكَ فإنَّ في حَذْفِ الواوِ إيماءً إلى أنَّهُ سُبْحانَهُ يَمحَقُ رَفْعَهُ وعُلوَّهُ، وغَلَبَتَهُ التي دَلَّتْ عَلَيْها الواوُ مُطابَقَةً بَيْنَ خَطِّه ولَفْظِه، ومَعْناهُ تأكيدًا لِلْبِشارَةِ، وفي الحَذْفِ أيْضًا تَشْبيهٌ لَهُ بِفِعْلِ الأمرِ؛ إيماءً إلى أنَّ إيقاعَ هَذا المَحْوِ أمرٌ لا بُدَّ مِن كَوْنِه على أتَمِّ الوُجوهِ وأحكَمِها وأعلاها وأتْقَنِها، كَما يَكونُ المَأمورُ به مِنَ المَلِكِ المُطاعِ[4]، وجَوَّزَ بَعْضُهُم عَطْفَ جُملَةِ: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ على جُملَةِ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ بالجَزْمِ، وقالوا: لا مانِعَ مِنْ عَطْفِه على جَوابِ الشَّرْطِ، فيُجْزَمُ، و﴿وَيُحِقُّ﴾ حينَئِذٍ مُسْتَأنَفٌ، والمَعْنَى: إنْ يَشَأ اللَّهُ؛ يَمحُ افتراءَكَ لَو افْتَرَيْتَ، أوْ يَمحُ باطِلَهُم عاجِلًا؛ لَكِنَّهُ لَم يَفْعَلْ لِحِكْمَةٍ مُطْلَقًا، وقَدْ فعَلَ، وأظْهَرَ دينَهُ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 87.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 34.

(3) الحميري، معجم الرسم العثماني: 5/ 3027 - 3028.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 303.

(5) الشّهاب، عناية القاضي: 8/ 420.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالمُسْنَدِ إلَيهِ بالاسمِ الجَليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

مَحْوُ الباطِلِ وإحْقاقُ الحقِّ مِن أخَصِّ خَصائِصِ الأُلوهيَّةِ

أظْهَرَ النَّظْمُ الجَليلُ اسمَ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾، وعَدَلَ عَنِ الإضمارِ، فلَم يقل: (ويَمحُ الباطِلَ)، وذَلِكَ لِتَقْوِيَةِ تَمَكُّنِ المُسْنَدِ إليهِ مِنَ الذِّهْنِ ولإظْهارِ عِنايَةِ اللَّه بِمَحْوِ الباطِلِ[1]، فمَحْوُ الباطِلِ وإحْقاقُ الحَقِّ مِن خَصائِصِ الأُلوهيَّةِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالمَفعولِ بِهِ مُعَرَّفًا باللّامِ ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾:

يَمحو اللهُ الباطِلَ عامَّةً، والباطِلَ المُفْتَرَى على وحْيِهِ ورَسولِهِ خاصَّةً

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ مُعَرَّفَةً باللّام، إمّا للدَّلالَةِ على مَحْوِ جِنْسِ الباطِلِ كُلِّه، فعلى هَذا تكونُ اللّامُ هَهُنا جِنْسيَّةً، وإمّا للدَّلالَةِ على أنَّ المُرادَ بِالباطِلِ هوَ الباطِلُ المَعْهودُ، وهو دينُ الشِّرْك، وبالحَقِّ: الحَقُّ المَعْهودُ، وهو الإسلامُ[2]، وبِذَلِك تَكونُ اللّامُ عَهْديَّةً، والمَعْنَى: يَمحو اللهُ ﷻ الباطِلَ الَّذي هوَ قَوْلُهُمْ: ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾، وكُلَّ كَذِبٍ افْتَرَوْهُ عَلَيْهِ ﷺ، فلا يَدَعُ لَهُ أثَرًا[3]، ويُمكِنُ الجَمعُ بَيْنَ الدَّلالتَينِ بأنَّ اللهَ تعالى يَمحو الباطِلَ عامَّةً، والباطِلَ المُفْتَرَى على وحْيِه ورَسولِه ﷺ خاصَّةً.

مَعْنَى الواوِ في ﴿وَيُحِقُّ﴾:

إحْقاقُ الحَقِّ سُنَّةُ اللهِ الماضيةُ الَّتي لا تَتَخَلَّفُ ولا تَتَأخَّرُ

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ على قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾، وجُمهورُ القُرّاءِ والمُفَسِّرينَ على رَفْعِ الفِعْلِ (يَحِقُّ)، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ إحقاقَ الحَقِّ سُنَّةُ اللهِ الماضيةُ الَّتي لا تَتَخَلَّفُ، ولا تَتَأخَّرُ، فهوَ تعالى الَّذي يُثْبِتُ الحَقَّ الَّذي عَلَيْه نَبيُّهُ ﷺ بِالقرآنِ أو بِقَضائِه الَّذي لا مَرَدَّ لَهُ بِنُصْرَتِه عَلَيْهِم[4].

دلالَةُ التَّعبيرِ بِـ(يُحِقُّ) مادَّةً وصيغَةً:

في التَّعْبيرِ بالحَقِّ دَلالَةٌ على جَوْدَةِ الاسْتِخْراجِ وحُسْنِ التَّلْفيقِ والتَّأتّي

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بِمادَّةِ (الحَقِّ) في ﴿وَيُحِقُّ﴾؛ لِما فيها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 87.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 87.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 303.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 34.

مِنَ الدَّلالَةِ على إحْكامِ الشَّيْءِ وصِحَّتِه[1]، فالمُرادُ بـ(يُحِقُّ): أنَّ اللّهَ تعالى يَثْبُتُ الحَقَّ على وجْهٍ لا يُمكِنُ زَوالُهُ[2]، وقد جاءَ الفِعْلُ (يُحِقُّ) بصيغَةِ المُضارَعَةِ إشارَةً إلى أنَّ هَذا شَأنٌ من شُؤونِ اللّهِ يَتَجَدَّدُ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالمَفعولِ به مُعَرَّفًا باللّامِ ﴿ٱلْحَقَّ﴾:

التَّشوُّفُ إلى إحقاقِ جنسِ الحقِّ أو مَعهودِهِ

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ مُعَرَّفَةً باللّام، إمّا للدَّلالَةِ على إحْقاقِ جِنسِ الحَقِّ، فعلى هَذا تكونُ اللّامُ جِنْسيَّةً، وإمّا للدَّلالَةِ على أنَّ المُرادَ بالحَقِّ هوَ الحَقُّ المعهودُ في سياقِ السّورَةِ، وهوَ الوَحْيُ وسَلامَتُهُ مِنَ الافْتِراءِ، أوْ أنْ يَكونَ الحَقُّ المَعْهودُ هوَ الإسلام[3].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالجِناسِ الاشْتِقاقيِّ في: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾:

طَمأنَةُ نُفوسِ المُؤْمِنينَ إلى أنَّ اللهَ ناصِرٌ نبيَّهُ ﷺ

جاءَ الجِناسُ الاشْتِقاقيُّ في: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ دالًّا على مبلغِ الانسِجامِ في إحْقاقِ الحَقِّ، فتَسْتَمتِعُ الأذُنُ، وتَهْدأُ النَّفْسُ، ويَطْمَئِنُّ العَقْلُ إلى أنَّ اللّه تعالى ناصِرُ الحَقِّ ومُثَبِّتُه، وفيه طَمأنَةٌ لِنُفوسِ المُؤْمِنينَ بأنَّ اللّهُ ناصِرٌ نَبيَّهُ ﷺ، وفي إيثارِ مادَّةِ (حقق) في الكَلِمَتينِ تَوْكيدٌ شَديدٌ وإقْرارٌ راسِخٌ لِثَباتِ الحَقِّ وانْتِصارِه، وحاصِلُ الجَمعِ دَيْمومَةُ إعْلائِه تَعالَى لِلحَقِّ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالطِّباقِ ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ و﴿ٱلْحَقَّ﴾ وسِرُّ البَدْءِ بالباطِلِ:

إحْقاقُ الحَقِّ نَتيجَةٌ لازِمَةٌ لِزُهوقِ الباطِلِ

بَيْنَ جُملَةِ: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾، وجُملَةِ: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ طِباقٌ، وهوَ مِن بَديعِ الأُسلوبِ البَلاغيِّ، ويُسَمَّى أيضًا بِمُجاوَرَةِ الأضدادِ[4]، ففي هاتَيْنِ الجُملَتَيْنِ مَعْنًى داخِلٌ تَحْتَ هَذا الفَنِّ، فالمَعْنَى: أنَّهُ تَعالَى يُبْطِلُ مَزاعِمَ الكُفّارِ وافْتِراءاتِهم على رَسولِ اللّهِ ﷺ، ويُحِقُّ الحَقَّ، وهو سَلامَةُ الوَحْيِ مِنَ الافْتِراءِ والادِّعاءِ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقق).

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 303.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 87.

(4) ثعلب، قواعد الشعر، ص: 58.

مَعْنَى الباءِ ودَلالَتُها في: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾:

إحْقاقُ الحَقِّ مرهونٌ في حُصولِهِ بِكَلِماتِ اللهِ الدّالَّةِ على مَشيئَتِهِ المُطْلَقَةِ

جاءَتِ الباءُ في ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ لِلسَّببيَّةِ، أيْ: إنَّ هَذا الإحْقاقَ كانَ بِمدْعاةِ كَلِماتِه وأوامِرِه الَّتي تَقَعُ - لا مَحالَةَ - وفيه مَدْحُ هَذا الإحْقاقِ؛ لأنَّهُ حادِثٌ بِسَبَبِ كَلِماتِه تَعالَى، أو هيَ لِلمُصاحَبَةِ، أيْ: يُحِقُّ الحَقَّ مَصحوبًا بِكَلِماتِه، أيْ: يُظْهِرُ الحَقَّ مَصْحوبًا بِدَليلِه والبُرْهانِ عَلَيْه، أوِ الباءُ لِلْمُلابَسَةِ والإلصاقِ، أيْ: يُحِقُّ الحَقَّ مُلْتَبِسًا بِكَلِماتِه مُلْتَصِقًا بِها، فَهِيَ مِنْهُ، وهوَ مِنْها، تُداخِلُهُ، ويُداخِلُها[1]، وعَظَّمَ الحَقُّ وإحْقاقُهُ بِذِكْرِ آلَةِ الفِعْلِ، فقالَ: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾[2].

إيْثارُ لَفْظِ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾:

الكَلِماتُ إمّا القُرْآنُ حَقيقَةً، أو كَلِماتُ التَّكْوينِ المتعلِّقةُ بالإيجادِ

آثَرَ النَّظْمُ الجَليلُ التَّعْبيرَ بِلَفْظِ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ المُرادَ كَلِماتُ القرآنِ والوَحيِ[3]، أو أنَّ المُرادَ كَلِماتُ التَّكْوينِ المُتَعَلِّقَةُ بالإيجادِ على وِفْقِ عِلْمِه[4]، أيْ: الكَلِماتُ المُتَضَمِّنَةُ البراهينَ والأدِلَّةَ والحُجَجَ، أو أنَّها الوَعْدُ الصّادِقُ لِنَبيِّه ﷺ بِظُهورِ دينِه ومَحْقِ مُعارِضيه المُفْتَرينَ عَلَيْه، وآثَرَ لَفْظَ (الكَلِماتِ) لِدِقَّةِ تَعْبيرِها، فَهيَ تَدُلُّ على مُرادِهِ تَعالَى وكَلامِهِ النَّفْسيِّ، وهوَ على نَسقَينِ: أن تَكونَ على وجهِ الحَقيقَةِ، بِأنْ تَأتيَ على أشْكالِ اللَّفْظيَّةِ المَعْهودَةِ الَّتي يَفْهَمُها البَشَرُ، ويُبَلِّغونَ بِها، كالقُرْآنِ ونَحْوِه، وقَدْ تَكونُ على وجْهِ المَجازِ، بِأنْ تَأتيَ على غَيْرِ المَعْهودِ مِنَ الألْفاظِ، كَخِطابِهِ لِلمَلائِكَةِ المَحْكيِّ في الكِتابِ الكَريمِ[5].

دَلالَةُ الجَمعِ والإضافَةِ في: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾:

سيقَ الجَمعُ لِيَشْمَلَ الكَلِماتِ التَّكْوينيَّةَ والتَّشْريعيَّةَ، والإضافَةُ لِلعُمومِ والتَّعْظيمِ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بِلَفْظِ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ جمعًا؛ لِيَشْمَلَ كَلِماتِه التَّكْوينيَّةَ بِالإيجادِ والإرادَةِ، وكَلِماتِه التَّشْريعيَّةَ بِالوَحْيِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 272، و25/ 87.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 304.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 141.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 88.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 271.

المَتلوِّ المَسْطورِ، وقُرِئَ: (بِكَلِمَتِه) بالإفْرادِ[1]؛ لِجَعْلِ المُتَعَدِّدِ كالشَّيءِ الواحِدِ، والمُرادُ به اسْمُ الجِنْسِ، فيُؤَدّي مُؤَدَّى الجَمعِ، أو على أنَّ المُرادَ بها كَلِمَةُ ﴿كُن﴾ [البقرة: 117] الَّتي هيَ عِنْدَ الكَثيرِ عِبارَةٌ عَنِ القَضاءِ والتَّكْوينِ، وأضافَ (الكَلِماتِ) إلى ضَميرِ اسْمِ الجَلالَةِ؛ لِيُفيدَ التَّعْظيمَ والتَّشْريفَ[2].

سِرُّ الاسْتِعارَةِ في: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾:

تعليقُ كَلِماتِه بِقُدْرَتِه تَعالَى بِالإيجادِ

في قَوْلِه تَعالَى: ﴿وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾ اسْتِعارَةٌ، فإنَّ لَفْظَ (الكَلِماتِ) لَيْسَ على الحَقيقَةِ، وإنَّما هيَ تَعَلُّقُ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ بالإيجادِ، الَّذي يُعَبَّرُ عَنْهُ بالتَّكْوينِ الَّذي يَسيرُ على وفْقِ إرادَتِه وعِلْمِه سُبْحانَهُ، وهوَ تَعَلُّقٌ يُشْبِهُ الكَلامَ الَّذي يَنْتُجُ عَنْهُ اسْتيعابُ المَعاني[3].

مَوْقِعُ جُملَةِ ﴿إِنَّهُۥ ...﴾ مِمّا قَبْلَها ودَلالَتُها:

تَحْذيرٌ لِكُلِّ مَن افتَرى على الله وعلى نَبيِّه ﷺ

جاءَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِقَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ لِبَيانِ أنَّهُ تباركت آلاؤه لا يَخْفى عَلَيه افتِراءُ مُفْتَرٍ ولا صِدْقُ مُحِقٍّ، وذَلِك على طَريقَةِ الاستِئْنافِ البَيانيِّ عَنْ سُؤالٍ تَقْديرُهُ: لِمَ فعَلَ اللهُ تعالى ذَلِكَ؟ فكانَ الجَوابُ: لأنَّهُ يَعْلَمُ مُسْتَخْفَياتِ صُدورِهم ودَقائِقَ خواطِرِها[4]، فبَيانُ السَّبَبِ بالجُملَةِ الاستِئنافيَّةِ يُحَرِّكُ السّامِعينَ؛ لِيَعْلَموا، ويَتَقَرَّرَ عِنْدَهُم أنَّ اللهَ عَليمٌ بِخَفايا الصُّدورِ، كَما يُفْهَمُ مِن هَذا التَّعْليل شِدَّةُ التَّحْذيرِ لِكُلِّ مَن افترى على اللهِ تعالى وعلى نَبيِّه ﷺ.

مُناسَبَةُ الإضْمارِ بَعْدَ الإظْهارِ:

الإضْمارُ لإيجازٍ يُبينُ عَنِ الدَّلالَةِ، في حالَتَيِ التَّصْريحِ والإيعازِ

أضمَرَ البَيانُ القُرآنيُّ لَفظَ الجَلالَةِ في قَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وعَبَّرَ عَنْهُ بِالضَّميرِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ لأنَّ المُسْنَدَ إلَيْهِ في ذِهْنِ

---

(1) ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن، ص: 49.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/ 161.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 257.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 23.

المُخاطَبينَ؛ لِتقَدُّم ذِكْرِه في جُملَةِ: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾، فأُضْمِرَ إيجازًا، فَهوَ العَليمُ بِذاتِ الصُّدور.

دَلالَةُ التَّأكيدِ بِـ (إنَّ) واسْميَّةِ الجُملَةِ:

تَعَدُّدُ المُؤَكِّداتِ حَتَّى لا تَبْقَى ريبَةٌ في أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على سَرائِرِ الخَلْقِ أجْمَعينَ

في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ جاءَتِ الجُملَةُ على القَطْعِ والاستِئْنافِ، فعَبَّرَ بِـ(إنَّ)، وكَذَلِكَ فقد أفادَتِ الجُملَةُ الاسميَّةُ تأكيدَ المَعْنَى وثَباتَه، وعَدَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ عَنِ التَّعْبيرِ بالجُملَةِ الفِعْليَّةِ؛ وذَلِكَ لِلدَّلالَةِ على دَوامِ الاستِمرارِ.

إيثارُ التَّعْبيرِ بِصِفَةِ العِلْمِ:

دَلالَةُ صفةِ العِلْمِ على معرفةِ الظَّواهرِ والمخبَّآت

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بِصِفَةِ العِلْمِ للإخْبارِ عَنِ العِلْمِ بِوَصْفِه صِفَةً ثابِتَةً بِلَفْظِ المُبالَغَةِ ﴿عَلِيمُۢ﴾، فاللهُ ذو العِلْمِ المُطْلَقِ والكامِلِ بِأفعالِ خَلْقِه، وهوَ العالِمُ بِالسَّرائِرِ والخَفيّاتِ الَّتي لا يُدْرِكُها عِلْمُ الخَلْقِ، فسَواءٌ أعْلَنوا الباطِلَ، أو أخْفَوْهُ؛ فإنَّه تعالى عَليمٌ بِما في ذاتِ صُدورِهم.

لَطيفَةُ تَنْكيرِ ﴿عَلِيمُۢ﴾:

عِلْمُ اللهِ دائِمٌ كامِلٌ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثقالُ ذَرَّةٍ

في قَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ جاءَتْ صِفَةُ الجَلالِ ﴿عَلِيمُۢ﴾ نَكِرَةً؛ لإفادَةِ التَّعْظيمِ والكَمالِ في المَوْصوفِ، وفي الوَصْفِ بِنِسْبَتِه إلى ذاتِ الجَليلِ، فهوَ عَليمٌ عَظيمٌ في ذاتِه، وكامِلٌ في عِلْمِه، ولإفادَةِ العُمومِ والشُّمولِ.

نُكْتَةُ المُبالَغَةِ في صيغَةِ ﴿عَلِيمُۢ﴾:

صِفاتُ اللهِ واسِعَةُ الاشتِمالِ، ولا يُحاذيها مِثالٌ في جَميعِ الأحوالِ

في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ جاءَتْ صِفَةُ ﴿عَلِيمُۢ﴾ على وزْنِ (فَعيلٍ) الَّذي يَصْلُحُ لأن يَكونَ مِثالًا من أمثِلَةِ الصِّفَةِ المُشَبَّهَةِ، ومِثالًا من أمثِلَةِ المُبالَغَةِ؛ لإفادَةِ مَعْنَى الدَّيْمومَةِ، أيْ: دائِمُ العِلْمِ لا يَتَغيَّرُ، ولا يَغيبُ، وكامِلُ العِلْمِ لا يَنْقُصُ، فصيغَةُ (فَعيلٍ) أفادَتِ استِقْصاءَ التَّعْبيرِ عَنِ الإحاطَةِ بِالعِلمِ وسَعَتِه بِكُلِّ ما تَحمِلُهُ كلمتا الإحاطَةِ والسَّعةِ مِنْ مَعْنًى ومَدْلولٍ.

تَمامُ عِلْمِ الله بِما يَجْري في صُدورِ الخَلْقِ

بَلاغَةُ المَجازِ في: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

قَوْلُه: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كِنايَةٌ عنِ القُلوبِ الَّتي في الصُّدورِ، أو كِنايَةٌ عَنِ الأسرارِ المُسْتَكِنَّةِ في الصُّدورِ، والأسرارُ إذْ لَمّا كانَتْ مُضْمَرَةً في الصُّدورِ؛ قيلَ لَها: (ذاتُ الصُّدورِ)، فشُبِّهَ ما في الصُّدورِ مِنَ القُلوبِ وأحْوالِها، أوِ الأسْرارِ بالصّاحِبِ في المُلابَسَةِ التّامَّةِ لِصاحِبِه، فذَكَرَ لَفْظَ المُشَبَّهِ بِه، وهوَ (ذات) بِمَعْنَى (الصّاحِب)، وأُريدَ المُشَبَّهُ: وهوَ (الأسْرار) على سَبيلِ الاستِعارَةِ التَّصريحيَّة، أوِ التَّمثيليَّةِ بِمُلاحَظَةِ تَشْبيه هَيْئَةٍ بِهَيْئَةٍ وحالٍ بِحالٍ في المُلابَسَةِ والمُلازَمَةِ[1]، وقَد عَدَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ عَنِ التَّعْبيرِ بِحَرْفِ (في) المُفيدِ للظَّرفيَّة، إلى كَلِمَةِ (ذاتِ) الَّتي تُفيدُ شِدَّةَ المُلازَمَةِ والمُصاحَبَةِ، الدّالَّةِ على شِدَّةِ الإخفاءِ والاكتِنانِ، فكانَ التَّعبيرُ بها أبلَغَ وأدَقَّ.

لَمّا افْتَرَوا على رَسولِ الله ﷺ؛ كانَ الجَزاءُ مُتَمَثِّلًا في فضْحِ سَرائِرِهِم

سِرُّ تَقْييدِ الخَبَرِ ﴿عَلِيمُۢ﴾ بِالجارِّ والمَجْرورِ ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

قَيَّدَ البَيانُ القُرآنيُّ الخَبَرَ ﴿عَلِيمُۢ﴾ بالجارِّ والمَجْرورِ ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وعَدَلَ عنِ اقْترانه بكَثيرٍ مِنَ الصِّفاتِ الإلَهيَّةِ الَّتي جاءت في الكِتابِ العزيزِ، ومنها: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٦﴾ [النساء: 26] و﴿عَلِيمٌ حَلِيمٌ ١٢﴾ [النساء: 12] و﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ ٥٠﴾ [الشورى: 50] و﴿عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٩٥﴾ [البقرة: 95] و﴿عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ [يوسف: 19] وغَيْرِها مِنَ التَّعْبيراتِ؛ لِبَيانِ أنَّ اللّهَ تعالى يَعْلَمُ دَخائِلَ نُفوسِهم؛ لِكَي يَحْصُلَ لَهُم مِنَ الرَّهبَةِ والخَوفِ والرُّعبِ بِقَدْرِ افْترائِهم على رَسولِ اللّه ﷺ، فناسَبَ القَيدُ المَهيبُ عِظَمَ الذَّنْبِ الكَبيرِ.

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 5/ 71، والآلوسي، روح المعاني: 6/ 198.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مِـــن دَلائِـــلِ الرَّحْمَةِ الإلَهيَّةِ فتْحُ بابِ التَّوْبَةِ للمُعانِدينَ رغمَ شِـــدَّةِ الافْــتِراءِ والبَليَّةِ

لَمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى افْتِراءَ المُشْرِكينَ وادِّعاءاتِهم الآثمةَ على رَسولِ اللّه ﷺ بافْتِراءِ الوَحْيِ، ثُمَّ عَقَّبَ تعالى بتَأكيدِ براءَةِ رسولِهِ ﷺ ممّا أضافوهُ إلَيْه من هَذا الافتراءِ المُبينِ، وكانَ مِنَ المَعْلوم أنَّهم قَدِ استَحَقّوا بِهَذِه الفِرْيَةِ عِقابًا عَظيمًا؛ لا جَرَمَ نَدَبَهُمُ اللّهُ تعالى على التَّوْبَةِ وعَرَّفَهم أنَّهُ يَقْبَلُها من كُلِّ مُسيءٍ، وإنْ عَظُمَتْ إساءَتُهُ[1]، ورَغَّبَهم رَحْمَةً منهُ لَهم في التَّوْبَةِ؛ ولِذا أخْبَرَ تعالى بِأنَّهُ يَعْفو عَنِ السَّيِّئاتِ سواءٌ أكانَتْ صَغيرَةً أو كَبيرَةً وعَنْ غَيْرِها، فلا يُؤاخِذُ بها إنْ شاءَ؛ لِأنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ ما قَبْلَها، كَما أنَّ الإسلامَ الَّذي هو تَوْبَةٌ خاصَّة يَجِبُّ ما كانَ قَبْلَهُ، ثُمَّ أخْبَرَهُم بِما يوجِبُ التَّنْزيهَ عَنْ ذَلِكَ تَرْغيبًا وتَرْهيبًا، بِأنَّهُ تَبارَكَتْ آلاؤُهُ يَعْلَمُ في كُلِّ وقْتٍ ما يَفْعَلونَ مِن أفعالٍ وأعمالٍ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقْبَلُ﴾: (قبل) أصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ تَدُلُّ كَلِمُهُ كُلُّها على مواجَهَةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ[3]، والمَعْنَى المِحوريُّ: مُقَدَّمُ الشَّيءِ الَّذي يُتَّجَهُ إلَيه مِنهُ لِمُلاقاتِهِ أوِ النَّفاذِ فيه، ومِنْهُ: قَبِلَ الهَديَّةَ قَبولًا، أي: أدْخَلَها في حَوْزَتِه، ومِن هذا القَبول كُلُّ ما في القُرْآنِ مِنَ الفِعْلِ: (يَقْبَلُ) لِلْفاعِلِ ولِلمَفْعولِ، وكُلُّ (تَقَبَّلَ) ماضيًا ومُضارِعًا لِلفاعِلِ

---
(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 597.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 305.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).

ولِلمَفْعولِ[1]، وقَبِلَ اللّهُ تَوْبَةَ عَبْدِه وعُذْرَهُ، وتَقبَّلَهُ، بِمَعْنَى: أنَّهُ اعْتَدَّ لَهُ بِما أتَى بِه، وبِما اعْتَذَرَ بِه، والتَّقَبُّلُ: قَبولُ الشَّيْءِ على وجْهٍ يَقْتَضي ثَوابًا كالهَدِيَّةِ[2].

2) ﴿وَيَعۡفُواْ﴾: (عفو) أصْلانِ يَدُلُّ أحَدُهُما على تَرْكِ الشَّيءِ، والآخَرُ على طَلَبِه، فالأوَّلُ: عَفْوُ اللّه تعالى عَنْ خَلْقِه، وذَلِكَ تَرْكُهُ إيّاهُم، فلا يُعاقِبُهُم، فضْلًا مِنْهُ، والأصلُ الآخَرُ الطَّلَبُ، يُقالُ: اعتَفَيْتُ فُلانًا؛ إذا طَلَبْتُ مَعْروفَهُ[3]، وكُلُّ مَنِ استَحَقَّ عُقوبَةً، فتَرَكْتَهُ؛ فقَدْ عَفَوْتَ عَنْهُ[4]، والمَعْنَى المِحوريُّ: تَغَطّي الشَّيءِ بِطَبَقَةٍ خَفيفَةٍ أو هَشَّةٍ تَنْشَأُ مِنهُ، فالعَفْوُ التَّركُ كَأنَّهُ تَركُ الشَّيءِ مغطّى بِغِطائِهِ لَمّا لَم يُؤْخَذْ مِنْهُ[5].

3) ﴿تَفۡعَلُونَ﴾: (فعل) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إحْداثِ شَيْءٍ مِنْ عَمَلٍ وغَيْرِه، ومِنْ ذَلِكَ: فعَلْتُ كَذا أفْعَلُهُ فِعْلًا، والفِعالُ جَمعُ فِعْلٍ، والفَعالُ بِفَتْحِ الفاءِ: الكَرَمُ، وما يُفْعَلُ مِنْ حَسَنٍ[6]، والمَعْنَى المِحوريُّ: نَفاذٌ أو مُخالَطَةٌ مادّيَّةٌ عَنيفَةٌ أو جادَّةٌ يُغَيِّرُ شَيْئًا، أو يُحدِثُهُ، ثُمَّ عُمِّمَ في كُلِّ مُمارَسَةٍ عَمَلِيَّةٍ تَتَطَلَّبُ قوَّةً زائِدَةً تَتَمَثَّلُ في تَحَمُّلِ المَشَقَّةِ أوِ التَّأثيرِ أوِ الجِدِّ، فالفِعلُ كِنايَةٌ عَنْ كُلِّ عَمَلٍ، ويَنْبَغي أنْ يُزادَ قَيْدٌ: فيه زيادَةُ جِدٍّ[7]، والفِعْلُ: التَّأثيرُ مِنْ جِهَةِ مُؤَثِّرٍ، وهوَ عامٌّ لِما كانَ بِإجادَةٍ أو غَيْرِ إجادَةٍ، ولِما كانَ بِعِلْمٍ أوْ غَيْرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أوْ غَيْرِ قَصْدٍ[8].

المعنى الإجمالي:

بَيَّنَ النَّظْمُ الحَكيمُ أنَّ اللّه تعالى وحْدَهُ الَّذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبادِه التّائِبينَ إلَيْه، شَفَقَةً عَلَيْهِم، ورَحْمَةً بِهِم، بِأنْ يُكَفِّرَ سَيِّئاتِهِم، ولا يُعاقِبَهُم عَلَيْها، ثُمَّ جاءَ بَيانُ العَفْوِ عَنِ السَّيِّئاتِ تَأكيدًا لِما قَبْلَهُ وتَقْريرًا لَهُ، أيْ: إنَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبادِه التّائِبينَ، وفَضْلًا عن ذَلِكَ، يعفو عَنْ سَيِّئاتِهِم، ويَسْتُرُها عَلَيْهِم، ثُمَّ عَطَفَتِ الآيَةُ على بَيانِ عِلمِ اللّه تعالى بكلِّ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قبل).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (قبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عفو).
(4) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (عفو).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عفو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فعل).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فعل).
(8) الرّاغب، مفردات القرآن: (فعل).

أفْعالِهم تَحْذيرًا مِنَ التَّمادي في تَأخيرِ التَّوْبَةِ، وفي اقترافِ ما نَهَى عَنْهُ، فكَأنَّهُ ﷻ يقولُ: لَقَدْ فتَحْتُ لكم بابَ التَّوْبَةِ والعَفْوِ، فأقْبِلوا على طاعَتي، واتْرُكوا مَعْصيَتي[1].

بَعْدَ بَيانِ عُقوبَةِ المُكَذِّبينَ وجَزاءِ المُحْسِنينَ فتَحَ سبحانه بابَ التَّوْبَةِ للخَلْقِ أجْمَعينَ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَهُوَ﴾ وعِلَّةُ الوَصْلِ:

ثنّى النَّظْمُ الجَليلُ بالواوِ الاستِئْنافيةِ بجُملةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ بعد جُملَةِ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بَيْنَ الكمالَينِ، ووُجِدَتْ بَيْنَهُما الرَّوابِطُ المَعْنَويَّةُ المُسَوِّغَةُ للعَطْفِ، فقَدِ انْقطَعَ الكَلامُ السّابِقُ واستُؤْنِفَ كَلامٌ آخَرُ، وهوَ مَعَ هَذا امتِدادٌ ظاهِرٌ لِلكَلامِ الَّذي سَبَقَهُ، هوَ مِنْ تَمامِ مَعْناهُ، فهَذِه الآيَةُ تَفْتَحُ لِهَؤُلاءِ المُبْطِلينَ والوالِغينَ في الباطِلِ بابَ التَّوْبَةِ؛ ليَلْحَقوا بالَّذينَ في رَوْضاتِ الجَنّاتِ، فالواو هَهُنا أَدْخَلُ في الرَّوابِطِ مِنها في المُناسَبَةِ[2].

الانْتِقالُ مِن بَيانِ العِقابِ والجَزاءِ إلى التَّرْغيبِ في التَّوْبَةِ الحَسْناءِ

سِرُّ الوَصْلِ بالمُضْمَرِ (هوَ):

افتَتَحَ البَيانُ القُرآنيُّ الآيَةَ بالضَّميرِ (هوَ) إردافًا على ما سَبَقَ، ويَجوزُ لُغَةً التَّعْبيرُ بلَفْظِ الجَلالَةِ؛ لَكِنَّهُ أرادَ أنْ تَرْتَبِطَ هَذه الآيَةُ مَعَ الآيَةِ السّابِقَةِ؛ لِما بَيْنَهُما من تَعالُقٍ، فإنَّ هَذه الجُملَةَ مُتَّصِلَةٌ بما أوْرَدَهُ سُبْحانَهُ مِنْ مَحْوِ الباطِلِ وإحقاقِ الحَقِّ والعِلْمِ بذاتِ الصُّدورِ، فالضَّميرُ يَدْعَمُ العَلاقَةَ التَّرْكيبيَّةَ بَيْنَ الجُملَتَيْنِ في بَيانِ اقتدارِ اللّٰه تعالى.

في تَعالُقِ الجُملَتَينِ بَيانٌ لاقْتِدارِ الله سبحانه مِنْ جِهَةٍ، وسَعةِ رَحْمَتِهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى

فائِدَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ بالاسْمِ المَوْصولِ:

بَعْدَ أنِ اسْتَهَلَّ النَّظْمُ بالضَّميرِ (هوَ)؛ أرْدَفَهُ بالمُسْنَدِ، فجاءَ بِهِ اسْمًا مَوْصولًا، وفائِدَةُ ذِكْرِه على هَذا النَّمَطِ أنَّ فيه تَشْويقًا، وإثارَةً لِلنَّفْسِ في مَعْرِفَةِ جُملَةِ الصِّلَةِ؛ فإنَّ الاسْمَ المَوْصولَ لا يُدْرَكُ

تَشْويقُ السّامِعينَ لِنِعْمَةٍ عُظْمَى مِنْ نِعَمِ رَبِّ العالَمينَ

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 34 - 35.

(2) أبو موسى، آل حم: 142 - 143.

مَعْناهُ إلّا بِجُملَةِ الصِّلَة، فجاءَ بَعْدَهُ قولُه: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ موَضِّحًا نِعْمَةً من أجَلِّ نِعَمِ اللّه على عِبادِه، وهي قَبولُ تَوْبَةِ التّائِبين.

الغَرَضُ مِنْ تَعْريفِ المُسْنَدِ إلَيْه والمُسْنَدِ في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

اخْتِصاصُ اللهِ وحْدَهُ بِقَبولِ التَّوْبَةِ دافِعٌ لِسُرْعَةِ الرَّجْعَةِ والأَوْبَةِ

جاءَ النَّظْمُ بِتَعْريفِ طرفَي الإسْنادِ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ اللّهَ وحْدَهُ دونَ سِواهُ، هوَ مَن يَقْبَلُ التَّوْبَةَ، وفي هَذا الإسنادِ قَصْرٌ حَقيقيٌّ مِنْ بابِ قَصْرِ الصِّفَة على المَوْصوفِ، وهوَ قَصْرٌ مُسْتَفادٌ من تَعْريفِ طرفَي الإسْنادِ بِذِكْرِ ضَميرِ الفَصْلِ والاسْمِ المَوْصولِ، ويَنْجَرُّ القَصْرُ هُنا أيْضًا إلى جَعْلِ العَفْوِ عَنِ السَّيِّئاتِ مَقْصورًا علَيْه تعالى.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالمُسْنَدِ اسْمًا مَوْصولًا ﴿ٱلَّذِى﴾:

مِنْ أُسُسِ الاعتِقادِ القَويمِ اليَقينُ بِقَبولِ اللهِ تَوْبَةَ كُلِّ مَنْ جاءَهُ بِقَلْبٍ سَليمٍ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بالاسْمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾؛ جَرْيًا على طَريقَةِ القُرْآنِ في الحَديثِ عَنِ الأحداثِ الَّتي لا تَحْدُثُ إلّا بإرادَةِ اللّه، لِما في ذَلِكَ مِنَ الدَّلالَة على الاختِصاصِ، فمَجيءُ المُسْنَدِ اسْمَ مَوْصولٍ؛ لإفادَةِ اتِّصافِ اللَّه تَعالى بمَضْمونِ صِلَتِه، وأنَّها شَأْنٌ من شُؤونِ اللَّه تَعالى، فهوَ ثابِتٌ لَهُ لا يَتَخَلَّفُ عَنْه؛ لأنَّهُ المُناسِبُ لِحِكْمَتِه وعظَمَةِ شَأْنِه وغِناهُ عَنْ خَلْقِه[1]، فلَيْسَ هُناكَ مَنْ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِه، ويَعْفو عَنِ السَّيِّئاتِ، ويَعْلَمُ ما يَفْعَلونَ إلّا اللَّه ﷻ، كَما أشارَ استِخْدامُ الاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِه إلى أنَّ قَبولَ اللَّهِ لِلتَّوْبَةِ وعَفْوَه أُمورٌ مَعْروفَةٌ مَشْهورَةُ النِّسْبَةِ لَهُ تعالى.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِمادَّةِ القَبولِ:

إذا قَبِلَ اللهُ تَوْبَةَ عَبْدِه؛ أثابَهُ وأجْزَلَ لهُ العَطاءَ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بالفِعْلِ ﴿يَقۡبَلُ﴾ دونَ غَيْرِه مِن مُرادِفاتِه، وذَلِكَ لِما فيه مِنَ الدَّلالَة على حَوْزِ الشَّيْءِ المُقَدَّم، ولِما فيه مِنَ الإشارَةِ إلى الاعْتِدادِ بما يُقَدِّمُهُ العَبْدُ، وبِما اعْتَذَرَ به، وقَبولِ الشَّيْءِ على وجْهٍ يَقْتَضي ثَوابًا كالهَديَّة، فأفادَ التَّعْبيرُ أنَّ مَنْ تابَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 89.

إلى رَبِّه تَوْبَةً نَصوحًا؛ أَجْزَلَ اللّٰهُ لَهُ العَطاءَ، ففيه مِنَ البُشْرَياتِ ما يَحُثُّ عِبادَ اللّٰه على سُرْعَةِ التَّوبةِ، كَما أنَّ التَّعْبيرَ بالقَبولِ يُشيرُ إلى فَرْحَةِ اللّٰه تعالى بتَوْبةِ عَبْدِه، بدَلالَةِ الإثابَةِ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ في: ﴿يَقْبَلُ﴾:

عبَّر البَيانُ القُرآنيُّ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَقْبَلُ﴾؛ لِلدِّلالَةِ على تَكَرُّرِ تَوْبَةِ اللّٰه تَعالَى على عِبادِه بتَكَرُّرِ تَوْبَتِهم إلَيه سُبْحانَهُ، فمَهما تَجَدَّدَ وُقوعُ الذَّنْبِ مِنْ صاحِبِه؛ فإنَّ تَوْبَةَ اللّٰه عَلَيْهِ تَتَكَرَّرُ مَتَى تابَ المُذْنِبُ، وأنابَ إلى رَبِّه التَّوّابِ، وهَذا ضَرْبٌ مِنْ ضُروبِ التَّوكيدِ دَلَّ عَلَيه وُقوعُ الفِعْلِ بكَثْرَةٍ واستِمرارٍ، كَما أنَّ في التَّعْبيرِ بصيغَةِ المُضارَعَةِ بِشارَةً لِلمُؤْمِنينَ بأَنَّهُ قَبِلَ تَوْبَتَهم ممّا كانوا فيه مِنَ الشِّرْكِ والجاهليَّةِ، فإنَّ الَّذي من شَأْنِه أنْ يَقْبَلَ التَّوْبَةَ في المُسْتَقْبَلِ يَكونُ قَد قَبِلَ تَوْبَةَ التّائِبينَ من قَبْلُ، بدَلالَةِ لَحْنِ الخِطابِ أو فحْواهُ، وهَذا كُلُّهُ يَتَضَمَّنُ وعدًا لِلمُؤْمِنينَ بقَبولِ إيمانِهم ولِلعُصاةِ بِقَبولِ تَوبَتِهم[1].

> كُلَّما تَجَدَّدَتِ التَّوْبَةُ؛ تَجَدَّدَ القَبولُ، ولا يَعْدِلُ عَنْ تَجْديدِ التَّوْبَةِ سِوَى المَخْذولِ

الغَرَضُ مِن تَعْريفِ المَفْعولِ بِه ﴿ٱلتَّوۡبَةَ﴾:

جاءَ لَفْظُ ﴿ٱلتَّوۡبَةَ﴾ مُعَرَّفًا بِاللّامِ، وهي هَهُنا لِلعَهْدِ الذِّهنيِّ، أي: التَّوبَةَ الَّتي يَعْلَمُها المُخاطَبونَ بقَرائِنِ التَّنْزيلِ، فالمُرادُ التَّوْبَةُ الصَّحيحَةُ الخالِصَةُ، فكَأنَّهُ قيلَ: إنَّ اللّٰهَ تعالَى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ الَّتي أَعْلَمَكُم قَبْلَ ذَلِك شَرائِطَها وأرْكانَها، ولا يَصْلُحُ هَهُنا تَفْسيرُ اللّامِ بالجِنْسِ، أي: قَبولُ جِنْسِ التَّوْبَةِ؛ لأنَّ مِنَ التَّوْبَةِ ما يَكونُ خالِصًا، ومنها ما لَم يَسْتَوْفِ أركانَهُ وشُروطَهُ، ومنها ما كانَ تَقيَّةً، وإن سُمّيَ الجَميعُ تَوْبَةً.

> لا يَقْبَلُ الله مِنَ التَّوْبَةِ إلّا ما كانَ صَحيحًا خالِصًا

بَلاغَةُ تَضْمين ﴿يَقۡبَلُ﴾ مَعْنَى الفِعْل (يَتَجاوَزُ):

ضُمِّنَ الفِعْلُ ﴿يَقۡبَلُ﴾ مَعْنَى (يَتَجاوَزُ)، و(يَعْفو) بدَليلِ تَعْدِيَتِه بِـ ﴿عَنۡ﴾، أيْ: يَقْبَلُ ذَلِك مُتَجاوِزًا عَنْ ذُنوبِهِمُ الَّتي تابوا عَنْها، فيَقْبَلُ

> التَّوْبَةُ قُرْبانُ العائِدينَ إلى رَبِّ العالَمينَ، فيَقْبَلُ الله التّائِبينَ ويَتَجاوَزُ عن المُذْنِبينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 89.

اللّهُ بِفَضْلِه وكَرَمِه التَّوْبَةَ مُتَجاوِزًا عَنْ سَيِّئاتِ عِبادِه، وبَلاغَةُ هَذا التَّضْمينِ تَظْهَرُ في كَوْنِ الفِعْلِ المُضَمَّنِ يُؤَدّي في وقْتٍ واحِدٍ مَعْنَى فِعْلٍ آخَرَ، فيَكونُ أبْلَغَ في تَأديَةِ المَعْنَى المُرادِ، ففيه دَلالَةٌ على سَعَةِ كَرَمِ اللّه تَعالَى وعَفْوِه.

سِرُّ تَعْديَةِ ﴿يَقْبَلُ﴾ بِـ ﴿عَنْ﴾:

مِنْ دَلائِلِ رَحْمَةِ اللّه سبحانه تَسْهيلُ سَبيلِ التَّوْبَةِ لِعَبْدِهِ ليَكُفَّ عَنْ طُغْيانِه

عَدَّى النَّظْمُ الحَكيمُ الفِعْلَ ﴿يَقْبَلُ﴾ بِحَرْفِ الجَرِّ ﴿عَنْ﴾ دونَ حَرْفِ الجَرِّ (مِنْ) الَّذي يُفيدُ ابتِداءَ الغايَةِ؛ وذَلِكَ لأَنَّ ﴿عَنْ﴾ تُفيدُ البُعْدَ، فقَوْلُ اللّه تَعالَى: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ يُفيدُ أَنَّ التّائِبَ يَجِبُ أَنْ يَعْتَقِدَ في نَفْسِه أَنَّهُ صارَ مُبْعَدًا عَنْ قَبولِ اللّه تَعالَى لَهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ الذَّنْبِ قَبْلَ التَّوْبَةِ، ويَحْصُلُ لَهُ انْكِسارُ العَبْدِ الَّذي طَرَدَهُ مَوْلاهُ، وبَعَّدَهُ عَنْ حَضْرَةِ نَفْسِه، فلَفْظَةُ ﴿عَنْ﴾ في السّياقِ الكَريمِ كالتَّنْبيه على أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ حُصولِ هَذا المَعْنَى للتّائِبِ، و﴿عَنْ﴾ أَبْلَغُ لِظُهورِ الانتِقالِ مَعَهُ، وكَأَنَّهُم لَمّا جاوَزَتْ تَوْبَتُهُم عَنْهُم إلى اللّه؛ اتَّصَفَ هوَ تَعالَى بالتَّوْبَةِ عَلَيْهِم، فـ ﴿عَنْ﴾ في هَذا المَوْضِعِ أَبْلَغُ؛ لأَنَّ فيه تَبْشيرًا بِقَبولِ التَّوْبَةِ مَعَ تَسْهيلِ سَبيلِها[1]، وفي ﴿عَنْ﴾ كَذَلِكَ مَعْنَى انْفِصالِ الشَّيءِ عَنْ مُعْطيه وباذِلِه، فهو أشَدُّ مُبالَغَةً في مَعْنَى الفِعْلِ؛ لأَنَّ فيه كِنايَةً عَنِ احْتِباسِ الشَّيْءِ المَبْذولِ عِنْدَ المَبْذولِ إلَيْه بِحَيْثُ لا يُرَدُّ على باذِلِه[2]، وقيلَ: إنَّ التَّعْديَةَ بِـ﴿عَنْ﴾ تُفيدُ مَعْنَى رَدِّ الذَّنْبِ عَنِ العَبْدِ وحَمْلِه عَنْهُ، فكَأَنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ يَرُدُّ عَنْهُم ذُنوبَهُم حينَ يَقْبَلُ مِنْهُمُ التَّوْبَةَ، فعَبَّرَ بِـ ﴿عَنْ﴾ مَعَ أَنَّ التَّوْبَةَ مِنْهُم؛ لِيَحْمِلَها عَنْهُم[3].

الغَرَضُ مِنَ الإِضافَةِ في: ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

تَرَبُّعُ التّائِبينَ المَنْزِلَةَ الشَّريفَةَ

أَضافَ البَيانُ القُرآنيُّ الجَليلُ ضَميرَ الهاءِ العائِدِ على اللّه تعالى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/ 140، والخازن، لباب التّأويل: 2/ 404.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 89.

(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 22/ 13773 - 13774.

إلى لَفْظِ ﴿عِبَادِهِۦ﴾؛ لإفادَةِ التَّشْريفِ والتَّكْريم، فلَمّا كانَ السّياقُ سياقَ تَأكيدٍ لِقَبولِ اللّه تَعالَى تَوْبَةَ التّائِبينَ، وتَنْبيهٍ لِغَيْرِهم ممَّنْ قَصَّروا على إنْقاذِ أنْفُسِهم بالتَّوْبَةِ مِنَ المُهلكاتِ؛ كانَتِ الإضافَةُ البَليغَةُ الكَريمَةُ مُؤَدّيَةً لِهَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ؛ لِتَحْذيرِهم مِنْ مَغَبَّةِ ابتِعادِهم عَنْ مَظَلَّةِ العُبوديَّة، ومَسْلَكِ الضَّلالِ، ولِتَخْويفِهم عُقوبَةَ الافْتِراءِ على اللّه وعلى رَسوله ﷺ.

دَلالَةُ التَّقْييدِ بالعُبوديَّةِ:

لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ إلّا مَنْ أخلَصَ له العبوديَّةَ

قَيَّدَ البَيانُ القُرآنيُّ الجَليلُ قَبولَ التَّوْبَةِ بشِبْهِ الجُملَة: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، وعَدَلَ عَن: (ويقْبَلُ التَّوْبَةَ، ويَعْفو عَنِ السَّيِّئاتِ)؛ إيماءً إلى أنَّ اللّه رَفيقٌ بِعِبادِه لمَقام العُبوديَّة، وفيها إشارَةٌ إلى رَحْمَته، وأنَّهُ سُبْحانَهُ يُقَرِّبُهُم، ويَفْتَحُ لَهُم أبْوابَ الرَّحْمَة، ويَدْعوهُم إلَيْها؛ لأنَّهُم عِبادُهُ الَّذينَ خَلَقَهُم لِعِبادَته، وشَرَّفَهُم بِهَذِه العُبوديَّةِ المُخْلِصَةِ إلَيْه سُبْحانَهُ[1].

نُكْتَةُ وضْعِ المُظْهَرِ مَكانَ المُضْمَرِ في: ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

في الإظْهارِ بَيانٌ لِشَرَفِ العِبادِ بِشَرَفِ عُبوديَّتِهم

وَضَعَ البَيانُ القُرآنيُّ الجَليلُ لَفْظَ (العِبادِ) المظهرَ في مَوْضِعِ المُضْمَرِ في قَوْلِه تَعالَى: ﴿عِبَادِهِۦ﴾، فلَم يقل: (يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْهُم)؛ وذَلِكَ لِلتَّنْبيه على عُلوِّ مَنْزِلَةِ العِبادَةِ وجَلالِ قَدْرِها، فمَنْ حَقَّقَ شَرائِطَ العِبادَةِ؛ نازَعَتْهُ نَفْسُهُ إلى التَّوْبَةِ؛ إذْ لا راحَةَ لَها، ولا سَكَنَ، ما دامَتْ مُبْعَدَةً عَنْ رَحْمَةِ اللّه تَعالَى بِالإصْرارِ على الذَّنْبِ، والتَّقاعُسِ عنِ التَّوْبَةِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالجُملَةِ الاسْميَّةِ وتَعدُّدِ المُؤَكِّداتِ:

ثَباتُ تَجَدُّدِ قَبولِ الله لِتَوْبَةِ عِبادِه

بَنَى النَّظْمُ الحَكيمُ الجُملَةَ على الجُملَةِ الاسْميَّة، دونَ الجُملَةِ الفِعْليَّة، فعَدلَ عَن: (ويَقْبلُ التَّوْبَةَ)، فدَلَّتْ على ثَباتِ تَجَدُّدِ قَبولِ التَّوْبَةِ مِنْ عِبادِ اللّه، فحَصَلَتْ في جُملَةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ

---

(1) أبو موسى، آل حم: 142 - 143.

عِبَادِهِۦ﴾ أَرْبَعُ مُبالَغاتٍ: بِناءُ الجُملَةِ على الاسْميَّةِ، وعلى المَوْصوليَّةِ، وعلى المُضارِعيَّةِ، وعلى تَعْديَةِ فِعْلِ الصِّلَةِ بِـ﴿عَنْ﴾ دونَ (مِن)(1)، وفي ذَلِكَ إفادَةُ الثَّباتِ واليَقينِ في نُفوسِ التّائِبينَ.

دَلالَةُ العَطْفِ في: ﴿وَيَعۡفُواْ﴾:

مِنْ واسِعِ رَحْمَةِ اللهِ أنَّهُ يَعْفو عَمّا شاءَ لِمَنْ شاءَ

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ قَوْلَ اللهِ تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على قَوْلِه: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾، وذَلِكَ لأمرَين: لَفْظيٍّ ومَعْنَويٍّ، فأمّا اللَّفْظيُّ؛ فهوَ التَّوَسُّطُ بَيْنَ الكَمالَين: كَمالِ الاتِّصالِ، وكَمالِ الانقِطاعِ، وبَيْنَهُما الرَّوابِطُ المَعْنَويَّةُ المُسَوِّغَةُ للعَطْفِ، وكِلتا الجُملَتَين خَبَريَّتانِ لَفْظًا ومَعْنًى، وأمّا مِن حيثُ المَعْنَى، فمَعَ استِقلالِ المَعْنَى في كُلٍّ مِنَ الجُملَتَيْنِ، فإنَّهُما مُتَّصِلَتانِ في المَعْنَى العامِّ، فجُملَةُ: ﴿وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ امتِدادٌ ظاهِرٌ لِجُملَةِ: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾، فهي مِنْ تَمامِ مَعْناهُ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِمادَّةِ العَفْوِ:

كَثافَةُ الدَّلالاتِ المَعْنَويَّةِ في العَفْوِ ففيها تَرْكُ المُؤاخَذَةِ والتَّغْطيَةُ والمَحْوُ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِمادَّةِ العَفْوِ، وذَلِكَ لِما فيها مِنَ الدَّلالَةِ على تَرْكِ الشَّيْءِ، فعَفْوُ اللهِ تعالى عَنْ خَلْقِه: تَرْكُهُ إيّاهُم، فلا يُعاقِبُهُم، فضْلًا مِنْهُ، كَما أنَّ في العَفْوِ أيْضًا مَعْنَى السَّتْرِ وتَغْطيَةِ الشَّيْءِ بِطَبَقَةٍ خَفيفَةٍ أوْ هَشَّةٍ، فالعَفْوُ عَنِ السَّيِّئاتِ عَدَمُ المُؤاخَذَةِ عَلَيْها، كَأنَّ مَنْ عَفا؛ غَطّاها، أوْ أعْرَضَ عَنْها، فلَمْ يَنْظُرْ إلَيْها(2)، كَما تَشْتَمِلُ مادَّةُ العَفْوِ على مَعْنَى الدُّروسِ، كَقَوْلِهِم: (عَفَتِ الدّيارُ)، أي: ذَهَبَتْ آثارُها(3)، فمَعْنَى عَفْوِه عَنِ السَّيِّئاتِ أنَّهُ يُذْهِبُها، ويُذْهِبُ آثارَها، فالعَفْوُ عَنِ السَّيِّئاتِ على ذَلِكَ أعَمُّ مِن قَبولِ التَّوْبَةِ لِشُمولِه الصَّغائِرَ؛ إذا اجْتُنِبَتِ الكَبائِرُ، وهو تَعْميمٌ بَعْدَ تَخْصيصٍ(4).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 89.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عفو).

(3) معمر بن المثنى، شرح نقائض جرير والفرزدق: 3/ 976.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 36.

مَعْنَى ﴿عَنِ﴾ ودَلالَتُها في: ﴿عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾:

عَدَّى النَّظْمُ الحَكيمُ الفِعْلَ ﴿وَيَعۡفُواْ﴾ بِحَرفِ الجَرِّ ﴿عَنِ﴾، فقَيَّدَ الفِعْلَ بِشِبْهِ الجُملَة، فلَم يكْتَفِ بـ﴿وَيَعۡفُواْ﴾، وذَلِكَ لأنَّ مِنْ دَلالَةِ حَرْفِ ﴿عَنِ﴾ المُجاوَزَة، ومَعْنَى المُجاوَزَةِ الابْتِعاد، تَقولُ: (انصَرَفَ عَنْهُ)، ووَضَعَهُ عَنْهُ، بِمَعْنَى: رَفَعَهُ عَنْهُ بَعْدَ أن كانَ عَلَيه، وتَقولُ: انتَقَلَ عَنهُ، وابتَعَدَ عَنهُ، ونَأى عَنهُ، وانحَرَفَ عَنهُ، فكُلُّها تُفيدُ المُجاوَزَةَ والبُعْدَ(1)، فأفادَ التَّعْبيرُ بِحَرْفِ ﴿عَنِ﴾ سَعةَ رَحْمَةِ اللّٰه وغُفْرانِه وعَفْوِه، فيُباعِدُ بَيْنَ التّائِبينَ وذُنوبِهم.

بِكَرامَةِ العفْوِ يَصيرُ بَيْنَ التّائِبينَ وذُنوبِهم مَدَى بَعيدٌ

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجمعِ مُعَرَّفًا ﴿ٱلسَّيِّئَاتِ﴾:

جاءَ لَفْظُ ﴿ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ مُعرَّفًا باللّام؛ للدَّلالَةِ على الجِنْسِ؛ إذِ المُرادُ به الاستِغْراقُ، وهو عامٌّ مَخْصوصٌ بِغَيْرِ الشِّرْكِ، ولَكَ أنْ تَجْعَلَهُ عِوَضًا عَنِ المُضافِ إلَيْه، أي: عَنْ سَيِّئاتِ عِبادِه، فيَعُمَّ جَميعَ العِبادِ عُمومًا مَخْصوصًا(2).

التَّعْريفُ هَهُنا عامٌّ، ولَكِنَّهُ مخصوصٌ بِغَيْرِ الشِّرْكِ بِاللهِ تَبارَكَتْ آلاؤُهُ

دَلالَةُ العَطْفِ في: ﴿وَيَعۡلَمُ﴾:

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ قَوْلَ اللّٰه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ على الجُملَتَيْنِ السّابِقَتَيْن؛ وذَلِكَ لِبَيانِ إحاطَةِ عِلْمِه تعالى بِكُلِّ أفْعالِهم، وكانَتْ تَعْدِيَةُ القَبولِ بِـ﴿عَنِ﴾ مُفْهِمَةً لِبُلوغِه ذَلِكَ بِواسِطَةٍ، فكانَ رُبَّما أشْعَرَ بِنَقْصٍ في العِلْمِ، فأخْبَرَ بِما يوجِبُ التَّنْزيهَ، أيْ: والحالُ أنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ وقْتٍ(3)، فجُمْلَةُ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ تَذْييلٌ لِلكَلامِ السّابِقِ، يُؤَكِّدُ ما ذَكَرَهُ مِنَ القَبولِ والعَفْوِ، ثُمَّ فيه لُطْفٌ وحَثٌّ على لُزومِ الحَذَرِ مِنْهُ تعالى، والإخْلاصِ لَهُ سُبْحانَهُ في إمحاضِ التَّوْبَةِ، وفيه كَذَلِكَ تَأكيدٌ، كَما لا يَخْفى(4).

تَوْكيدُ إحاطَةِ عِلْمِ اللهِ بِكُلِّ أفْعالِ عِبادِه، فكَمالُ تَنْزيهِه لا تَنْتَهي آمادُهُ

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 3/ 54.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 90.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 306.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 36.

سِرُّ تَتابُعِ الأفْعالِ المُضارِعَةِ: ﴿يَقْبَلُ﴾ و﴿وَيَعْفُواْ﴾ و﴿وَيَعْلَمُ﴾:

رَحْمَةُ اللهِ وعَفْوُه وعِلمُه لا تَنْقَطِعُ أبَدًا

جاءَتِ الأفْعالُ ﴿يَقْبَلُ﴾ و﴿وَيَعْفُواْ﴾ و﴿وَيَعْلَمُ﴾ كُلُّها في زَمَنِ المُضارَعَةِ؛ للدَّلالَةِ على التَّجَدُّدِ الاستمراريِّ؛ إذْ أسْنَدَ النَّظْمُ الحكيمُ الأفْعالَ الثّلاثَةَ لِفاعِلٍ واحِدٍ، وهوَ اللّه تعالى، فقَبولُ التَّوْبَةِ والعفْوُ والعِلْمُ بالأفْعالِ تتجدَّدُ بِتَجَدُّدِ التّائِبينَ مِن خَلْقِ اللّه، فلا تَنْقَطِعُ رَحْمَتُهُ ولا عَفْوُهُ ولا عِلْمُهُ بأحْوالِ خَلْقِه.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿مَا﴾:

بَيانُ شُمولِ عِلْمِ اللهِ سبحانه وسَعَتِه

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بـ﴿مَا﴾؛ لِما فيها مِنَ الدَّلالَةِ على الشُّمولِ والسَّعَةِ ما لَيْسَ في غَيرِها، فناسَبَ التَّعْبيرُ بِها شمولَ عِلْمِ اللّه تعالى واتّساعه.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ ﴿تَفۡعَلُونَ﴾:

إحاطَةُ عِلْمِ الله أزَلًا بِما يَتَجَدَّدُ مِنْ أفْعالِ عِبادِه

عَبَّرَ البَيانُ القُرآنيُّ بـ﴿تَفۡعَلُونَ﴾ في صيغَةِ المُضارَعَةِ، دونَ التَّعْبيرِ بصيغَةِ المُضيِّ، فلَم يَقُلْ: (وَيَعْلَمُ ما فعَلْتُم)، وذلِكَ للدَّلالةِ على إحاطَةِ عِلْمِهِ أزَلًا بِكُلِّ ما يَتَجَدَّدُ لَهم عَمَلُهُ سَواءٌ كانَ عَنْ عِلْمٍ أو داعيَةِ شَهْوَةٍ وطَبْعٍ سَيِّئَةٍ[1].

تَنَوُّعُ القِراءاتِ في: ﴿تَفۡعَلُونَ﴾ و﴿يَفۡعَلُونَ﴾ وثَراءُ المَعْنَى:

التَّنْويعُ بَيْنَ الخِطابِ والغَيْبَةِ يلْفِت الانتِباه ويشْحَذُ عَقْلَ السّامِعِ الأوّاه

وَرَدَ في ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ قِراءَتانِ مُتَواتِرَتانِ؛ الأولى بِتاءِ الخِطابِ، وهي قراءة حفص وحمزة والكسائي وخلف ورويس بخلاف عنه، والثانية بياءِ الغَيْبَةِ، وهي قراءة باقي العشرة[2]، فالقِراءَةُ بتاءِ الخِطابِ فيها التِفاتٌ يَشُدُّ انتباهَ السّامِعِ، ويَدعوهُ للتَّأمُّلِ في بَديعِ رَحْمَةِ اللّه وشُمولِ عَفْوِه وسَعَةِ عِلْمِه وشُمولِ إحاطَتِه بِأفْعالِ خَلْقِه، وحجّة الذين قرؤوا بالغيبة أنهم ردّوه على ما قبله من لفظ الغيبة، وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 306.
(2) ابن الجزري، النّشر: 2/ 367.
(3) مكّي، الكشف: 2/ 251.

دَلالَةُ حَذْفِ المفعولِ في: ﴿تَفْعَلُونَ﴾:

حَذَفَ النَّظْمُ الجَليلُ المفعولَ به في: ﴿تَفْعَلُونَ﴾، والمُرادُ أنَّه تعالى يَعْلَمُ الَّذي تَفْعَلونَهُ كائِنًا ما كانَ، مِن خَيْرٍ وشَرٍّ، فيُجازى بالثَّوابِ والعِقابِ، وقالَ بَعْضُهُم: يَعْلَمُ ذَلِكَ، فيُجازي التّائِبَ، ويَتَجاوَزُ عَنْ غَيْرِهِ؛ إذا شاءَ سُبْحانَهُ، وقيلَ: يَعْلَمُ سُبْحانَهُ ذَلِكَ، فيُثيبُ على الحَسَناتِ، ويُعاقِبُ على السَّيِّئاتِ[1]، ففي الحَذْفِ دَلالَةٌ على عِلْمِ اللهِ تَبارَكَتْ آلاؤُهُ بِكلِّ أفْعالِ خَلْقِه أجْمَعينَ.

ما مِنْ فِعْلٍ مِنْ أفْعالِ العِبادِ إلّا وهوَ داخِلٌ في عِلمِ الله

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العفْو والمحْو:

في مادَّةِ (العَفْوِ) عَدَدٌ مِنَ الدَّلالاتِ المُتَكاثِفَةِ، فمِنْها الدَّلالَةُ على تَرْكِ الشَّيْءِ، فعَفْوُ اللهِ تعالى عَنْ خَلْقِه تَرْكُهُ إيّاهُم، فلا يُعاقِبُهُم، فضْلًا مِنْهُ[2]، كَما أنَّ في العَفْوِ أيْضًا مَعْنَى السَّتْرِ وتَغْطيَةِ الشَّيْءِ، كَأنَّ مَنْ عَفا؛ غَطّاها، أوْ أعْرَضَ عَنْها، فلَم يَنظُرْ إلَيها، وفيها مَعْنَى الدّروسِ، ومِنْ ثَمَّ فالعَفْوُ عَنِ السَّيِّئاتِ أعَمُّ مِن قَبولِ التَّوْبَةِ؛ إذْ هو تَعْميمٌ بَعْدَ تَخْصيصٍ، وأمّا المَحْوُ؛ فهوَ إزالَةُ الأثَرِ، وذَهابُ ما يَبْدو لاصِقًا بِظاهِرِ الشَّيْءِ أو عَرَضِه[3]، وعلى هَذا فإنَّ العَفْوَ يَشْمَلُ المَحْوَ وزيادة، وهو أنْسَبُ للتَّعْبيرِ عَن قَبولِ التَّوبَةِ.

العَفْو أشْمَلُ مِنَ المحْوِ، ففيه مَعْنَى المَحْوِ وزيادَةٌ

الفِعل والعَمل:

العَمَلُ: كُلُّ فِعْلٍ يَكونُ بِقَصْدٍ، فهوَ أخَصُّ مِنَ الفِعْلِ؛ وسِرُّ ذَلِكَ أنَّ العَمَلَ أخَصُّ مِنَ الفِعْلِ، فكُلُّ عَمَلٍ فِعْلٌ، ولا يَنْعَكِسُ[4]، والعَمَلُ إيجادُ الأثَرِ في الشَّيْءِ، والفِعْلُ: التَّأثيرُ مِن جِهَةِ مُؤَثِّرٍ، وهوَ عامٌّ لِما كانَ بِإجادَةٍ أو غَيْرِ إجادَةٍ، ولِما كانَ بِعِلمٍ أو غَيْرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أوْ غَيْرِ

الفِعْلُ أعَمُّ مِنَ العَمَلِ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 36.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عفو).

(3) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (محو - محي).

(4) الخازن، لباب التأويل: 1/ 58.

قَصْدٍ، والفِعْلُ يكونُ مِنَ الإنسانِ والحَيَوانِ والجَماداتِ[1]، ولِذا عَبَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ بِقَوْلِه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ عِلْمَهُ تعالى يَشْمَلُ كُلَّ ما يَفْعَلونَهُ سواءٌ أكانَ بِقَصْدٍ أم بِغَيْرِ قَصْدٍ.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 134، والرّاغب، مفردات القرآن: (عمل) و(فعل).

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ٢٦﴾ [الشورى: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتِقالُ مِنَ الحَديثِ عن قَبولِ التّائِبينَ، إلى مَزيدِ فضْلِه للطّائِعينَ، وشِدَّةِ عَذابِه للكافِرينَ العاصينَ

بَعْدَ أنْ خَتَمَ البَيانُ القُرْآنيُّ في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الحَديثَ عن الجُزْءِ المُتَعَلِّقِ بأصْحاب السَّيِّئاتِ التّائِبينَ، وأصْحابِ السَّيِّئاتِ الَّذينَ لَم يَتوبوا، جاءت هَذِه الآيَةُ لِبَيانِ حالِ فريقٍ آخَر، وهُمُ الَّذينَ آمَنوا، وعَمِلوا الصّالِحاتِ، الَّذينَ يَقْتَرِفونَ الحَسَناتِ، فبيَّنت أنَّ اللّهَ تعالى يَزيدُ لَهُم في دَرَجاتِ الكَرامَةِ والتَّشْريفِ، وذَلِك بإكْرامِهم بشَيْءٍ آخَرَ، وهوَ أنَّه يُجيبُهُم، ويَزيدُهُم مِنْ فضْلِه[1]، فوَجْهُ المُناسَبَةِ بَينَ الآيَتينِ أنَّهُ سبحانه لَمّا رَغَّبَ بالعَفْوِ؛ زادَ الإكْرامَ بإجابَةِ دُعاءِ الَّذينَ أقَرّوا بالإيمانِ في كُلِّ ما دَعَوْهُ به، أو شَفَعوا عِنْدَهُ فيه، فأثابَهُم النَّعيمَ المُقيمَ، وزادَهُم على ما دَعَوا لَهُ ما لَم يَدْعوا بِه، ولَم يَخْطُرْ على قُلوبِهم، ثُمَّ رَهَّبَ الَّذينَ اسْتَمَرّوا على كُفْرِهم بالافتِراءِ على نَبيِّه الكَريمِ ﷺ، وأنْكَروا الوَحْيَ بِأنَّ لَهم عَذابًا شَديدًا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾: (جوب) أصلٌ يَدُلُّ على خَرْقِ الشَّيْءِ، وثَمَّةَ أصْلٌ آخَرُ، وهوَ مُراجَعَةُ الكَلامِ، يُقالُ: كَلَّمَهُ، فأجابَهُ جَوابًا، وقَد تَجاوَبا مُجاوَبَةً، والمُجابَةُ: الجَوابُ[3]، والمَعْنَى المِحوريُّ: قَطْعُ وسَطِ الشَّيْءِ المُجْتَمِعِ الصُّلب أوِ الشَّديدِ قَطْعًا مُسْتَديرًا، مَعَ بَقاءِ جَوانِبِه

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 146.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 306.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جوب).

مُلْتَحِمَةً، ومِنْ هَذا الأَصْلِ الإجابَة، والاسْتِجابَةُ، أيْ: قَبولُ الدُّعاءِ ونَحْوِه، كَأنَّ المُجيبَ تَجَوَّبَ لِلشَّيْءِ، أيْ: قَبِلَهُ في جَوْفِه وحَوْزَتِه، وكُلُّ ما في القُرْآنِ مِنَ الفِعْلِ (استَجابَ) ومُضارِعِه وأمرِه؛ فهوَ بِمَعْنَى إيتاءِ السُّؤْلِ إمدادًا بِالمَطْلوبِ، أَوْ قَبولًا بِما يَدْعو اللَّهُ إِلَيْهِ[1]، وقَدْ أجابَهُ إجابَةً وإجابًا وجَوابًا، واسْتَجْوَبَهُ واستَجابَهُ، واستَجابَ لَهُ، والإجابَةُ والاستِجابَةُ بِمَعْنًى[2].

2) ﴿فَضۡلِهِۦ﴾: (فضل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على زيادَةٍ في شَيْءٍ، مِنْ ذَلِكَ الفَضْلُ: الزِّيادَةُ والخَيْرُ، والإفْضالُ: الإحْسانُ[3]، فالمَعْنَى المِحوريُّ: زِيادَةٌ مِنْ مادَّةِ الشَّيءِ مُتَمَيِّزَةٌ عَنْهُ[4]، والفَضْلُ: الزِّيادَةُ عَنِ الاقْتِصادِ، وذَلِكَ ضَرْبانِ: مَحْمودٌ: كَفَضْلِ العِلْمِ والحِلْمِ، ومَذْمومٌ: كَفَضْلِ الغَضَبِ على ما يَجِبُ أَنْ يَكونَ عَلَيْه، والفَضْلُ في المَحْمودِ أَكْثَرُ استعمالًا، والفُضولُ في المَذْموم، والفَضْلُ إذا استُعْمِلَ لِزيادَةِ أَحَدِ الشَّيْئَيْنِ على الآخَرِ؛ فعلى ثَلاثَةِ أَضْرُبٍ: مِنْ حَيْثُ الجِنْسُ، والنَّوْعُ والذّاتُ، وكُلُّ عَطِيَّةٍ لا تَلْزَمُ مَنْ يُعْطي؛ يُقالُ لَها: فَضْلٌ[5]، والمُرادُ بِـ﴿فَضۡلِهِۦ﴾: أَنَّ اللّهَ تَبارَكَتْ آلاؤُهُ يُعْطيهم ما أَمَّلوا مِن دُعائِهم وعَمَلِهم، وأَعْظَمَ مِمّا أَمَّلوا[6]، ورُوِيَ أَنَّ زيادَةَ الفَضْلِ هِيَ الشَّفاعَةُ في إِخْوانِهم[7].

۞ المَعْنَى الإجْماليُّ:

تَجَدُّدُ نِعَمِ اللهِ للطّائِعينَ المُصَدِّقينَ، وشِدَّةُ عذابِ الكافِرينَ المُفْتَرينَ

اسْتَهَلَّ النَّظْمُ الحَكيمُ الآيَةَ بِنِعْمَةٍ أُخْرَى مِنْ نِعَمِ اللهِ على عِبادِهِ المُؤْمِنينَ، وهيَ نِعْمَةُ الاستِجابَةِ، وقَدْ تَعَدَّدَتْ أَقْوالُ المُفَسِّرينَ في بَيانِ

(1) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 248.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جوب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فضل).
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (فضل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 91.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 507.

هَذِه الاسْتِجابَةِ على ثَلاثَةِ أقْوالٍ، الأوَّلُ: أنَّ الاسْتِجابَةَ مِنَ اللّهِ لِعِبادِه المُؤْمِنينَ، فمَعْنَى ﴿وَيَسۡتَجِيبُ﴾ يَعْني: (يُجيبُ)، أيْ: يُجيبُهُم فيما يَطْلُبونَ مِنْهُ، والثّاني: أنَّ الاستِجابَةَ مِنَ المُؤْمِنينَ لِرَبِّهم باتِّباعِ دينِه، والثّالِثُ: أنَّ الاسْتِجابَةَ هي طَلَبُ المُؤْمِنينَ الإجابَةَ مِنْ رَبِّهم، ولَعَلَّ الرَّأيَ الأوَّلَ أرْجَحُ الأقْوالِ؛ لِدَلالَةِ قَوْلِه: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾، فيَسيرُ السّياقُ على نَسَقٍ واحِدٍ، ثُمَّ خَتَمَ تعالى الآيَةَ بالتَّذْكيرِ بمَصيرِ الكافِرينَ بِما سَيَنالُهُم مِنَ العَذابِ الشَّديدِ؛ زيادَةً في تَرْهيبِهم، ولِبيانِ سوءِ حالِهم وشِدَّةِ بُؤْسِهم، في مُقابِلِ تَجَدُّدِ نِعَمِه وعَطاياهُ للمُؤْمِنينَ المُخْبِتينَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعْنَى الواوِ ودِلالَتُها في: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ﴾:

كَما مَنَّ اللهُ على التّائِبينَ بِقَبولِ التَّوْبَةِ، مَنَّ على المُؤْمِنينَ الطّائِعينَ بالاستِجابَةِ

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ قَوْلَ اللّه تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على قَوْلِه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾، فوَصَلَتِ الواوُ بَينَ الجملتَينِ، للتَّوَسُّطِ بَيْنَ الكَمالَينِ: كَمالِ الاتِّصالِ، وكَمالِ الانقِطاعِ، مَعَ وجودِ المُناسَبَةِ للوَصْلِ، وهو اسْتِمرارُ الحَديثِ عَن نِعَمِ اللّه تعالى وعَطاياهُ لِعبادِه، وقيلَ: هيَ مَعْطوفَةٌ على جُملَةِ: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾؛ لأنَّ ظاهرَ النَّظْمِ أنَّ فاعِلَ (يَسْتَجيبُ) ضَميرٌ يَعودُ إلى ما عادَ إلَيْه ضَميرُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾، وأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مَفْعولُ (يَسْتَجيبُ) بدونِ تَقْديرِ شَيْءٍ؛ بِناءً على أنَّ (يَسْتَجيبُ) يَتَعَدّى بِنَفْسِه، كَما يَتَعَدّى باللّامِ نَحوُ: (شَكَرْتُهُ)، و(شَكَرْتُ لَهُ)، أو بِتَقْديرِ اللّامِ على أنَّهُ مِن بابِ الحَذْفِ والإيصالِ، والأصْلُ: (يَسْتَجيبُ للَّذينَ آمَنوا)؛ بِناءً على أنَّهُ يَتَعَدّى لِلدّاعي باللّامِ ولِلدُّعاءِ بِنَفْسِه[2].

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 52.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 37.

الاستجابة بمعنى الإثابة

دَلالةُ التَّعبيرِ بمادَّةِ الاستِجابَةِ:

يَجوزُ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أن يَكونَ المُرادُ بالاسْتِجابَةِ أنَّهُ سبحانه يُثيبُهم على طاعَتِهم، فإنَّ الطّاعَةَ لِكَوْنِها طَلَبَ ما يَتَرتَّبُ عَلَيْها مِنَ الثَّوابِ شابَهَتِ الدُّعاءَ، وشابَهَتِ الإثابَةُ عَلَيْها الإجابَةَ، ومِن هَذا يُسَمّى الثَّناءُ دُعاءً؛ لأنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْه ما يَتَرَتَّبُ عَلَيْه، على مَعْنى: أنَّ الحَمدَ يَدُلُّ على الدُّعاءِ والسُّؤالِ بِطَريقِ الكِنايَةِ والتَّعْريضِ[1].

إمكانُ الجمع بين الحقيقة والمجاز في معنى الاستجابة

وقيلَ: هو على إطلاقِ الدُّعاءِ على الحَمدِ لِشَبَهِهِ بِهِ في طَلَبِ ما يَتَرَتَّبُ عَلَيْه، وجوِّزَ أنْ يُرادَ بالإجابَةِ مَعْناها الحَقيقي والإثابَة؛ بِناءً على القَوْلِ بِصِحَّةِ الجَمعِ بَيْنَ الحَقيقَةِ والمَجازِ، أيْ: يُجيبُ دُعاءَهم، ويُثيبُهم على الطّاعَةِ[2].

الاستجابة بمعنى الانقياد له والتزام أوامره ونواهيه

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في مَحَلِّ رَفْعٍ فاعِلًا، أي: يُجيبُ الَّذينَ آمَنوا رَبَّهُم؛ إذا دَعاهُم، فيكون (يَسْتَجيبُ)، بِمَعْنى: يُجيبُ، أَوْ يَبْقى على بابِه مِنَ الطَّلَبِ، أيْ: يَسْتَدعي الَّذينَ آمَنوا الإجابَةَ من رَبِّهم بالأعمالِ الصّالِحَة، ويَنقادونَ لَهُ[3]، ويُؤَكِّدُ هَذا الوَجْهَ أنَّ اللّه تَعالى دَعا المُؤْمِنينَ بِقَوْلِه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، وذَكَرَ أنَّ المُؤْمِنَ مَنِ اسْتَجابَ دَعْوَةَ رَبِّه تَعالى بِقَوْلِه: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[4].

المبالغة في الاستجابة جزاء الطّائعين المخبتين

فائِدَةُ التَّعبيرِ بِصيغةِ (استَفْعَل) في (يَسْتَجيبُ):

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بِصيغَةِ (استَفْعَلَ)، في: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ﴾ دونَ (يُجيبُ)؛ وذَلِكَ لأَنَّ الاستِجابَةَ: مُبالَغَةٌ في الإجابَةِ، وخُصَّتِ الاستِجابَةُ في الاستِعمالِ بامتِثالِ الدَّعْوَةِ أوِ الأمرِ[5]، وذلِكَ فضْلًا عَنْ دَلالَةِ الصّيغَةِ على الطَّلَبِ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 37.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 37.
(3) العكبري، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 1133، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 337.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 38.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 90.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ ﴿وَيَسۡتَجِيبُ﴾:

تَجَدُّدُ الاسْتِجابَةِ بِتَجَدُّدِ الدُّعاءِ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بصيغَةِ المُضارَعَةِ (يَسْتَجيبُ)؛ للدَّلالَةِ على التَّجَدُّدِ الاسْتِمراريِّ، فكُلَّما دَعا المُؤْمِنونَ رَبَّهُم بِضَراعَةٍ وصِدْقٍ؛ كانَت الاستِجابَةُ الإلَهيَّةُ حاضِرَةً مُتَجَدِّدَةً جَزاءً لِعِبادِ اللّه المُؤْمِنينَ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالمُسْنَدِ إِلَيْه بالاسمِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دونَ (مَنْ):

ثَباتُ الإيمانِ في نُفوسِ المُؤْمِنينَ وظُهورُه في سُلوكِهِم وطَبائِعِهِم

عَبَّرَ النَّظْمُ الكَريمُ عَنِ المُؤْمِنينَ بالاسْمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مَعَ صِلَتِه؛ لِما فيه مِنَ الإيماءِ إلى ثَباتِ ذَلِكَ الإيمانِ في نُفوسِهِم، وظُهورِه في سُلوكِهِم وطَبائِعِهِم، وقَد آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بالاسْمِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دونَ الاسْمِ المَوْصولِ (مَن)، فلَم يقل: (مَنْ آمَنوا، وعَمِلوا الصّالِحاتِ)؛ لأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسْمٌ مَوْصولٌ خاصٌّ، يَخْتَصُّ بالجَمعِ العاقِلِ، أمّا (مَنْ)؛ فمُشْتَرَكَةٌ تُسْتَعْمَلُ لِلمُفرَدِ والمُثَنَّى والجَمعِ والعاقِلِ وغَيرِ العاقِلِ، فالاسْمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نَصٌّ في المُرادِ، وكَوْنُهُ مُخْتَصًّا من شَأنِه أن يَكونَ مَعْهودًا لَدَى السّامِعِ مِمّا يَدُلُّ على عُلوِّ شَأنِهِم[1].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ﴾:

الالتِباسُ بالإيمانِ واستِصْحابُه في كُلِّ أحْوالِ المُؤْمِنينَ وثَباتُه في نُفوسِهِم

عَبَّرَ البَيانُ القُرْآنيُّ عَنِ المُؤْمِنينَ بالاسْمِ المَوْصولِ مَع الفِعْلِ الماضي؛ لأنَّ الإتْيانَ بالمَوْصولِ مَعَ الصِّلَةِ بالفِعْلِ الماضي قُصِدَ به الالتِباسُ والاستِصْحابُ[2]، إضافَةً إلى ذَلِكَ، فالاسْمُ المَوْصولُ مَعَ الفِعْلِ الماضي دَلَّ على زَمانٍ ماضٍ مُحَدَّدٍ، فكانَ الأولى التَّعبيرَ بالاسْمِ المَوْصولِ؛ لِما فيه مِنْ إشارَةٍ إلى بَيانِ سَبَبِ هَذا الجَزاءِ الّذي أعَدَّهُ اللّه لِلمُؤْمِنينَ مِنْ طيبِ المَقامِ في الجَنَّةِ، وكَذَلِكَ فإنَّ في التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ دَلالَةً على تَحَقُّقِ الإيمانِ في نُفوسِهِم.

(1) محمد سعيد، إشارات الإعجاز، ص: 34.

(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 8/ 186.

دَلالَةُ إيثارِ التَّعْبيرِ بـ﴿ءَامَنُواْ﴾ دونَ (أسْلَموا):

المُعَوَّلُ في دُخولِ الجَنَّةِ على إيمانِ القَلْبِ مَعَ الجَوارِحِ

آثَرَ النَّظْمُ الجَليلُ التَّعْبيرَ بِفِعْلِ الإيمانِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ دونَ فِعْلِ الإسلامِ (أسْلَموا)؛ لِما في الإيمانِ مِنَ الدَّلالَةِ على تَمامِ انقيادِ القَلْبِ للّه وتَعْظيمِه؛ إذِ الإيمانُ عَمَلُ القَلْبِ، بِخِلافِ الإسْلامِ، الَّذي يُرادُ بِه في كَثيرٍ مِنَ المَواضِعِ عَمَلُ الجَوارِحِ، حَتَّى صَحَّ إسْلامُ المُنافِقِ مِنْ حَيثُ الظّاهِرُ، ولَم يَصِحَّ إيمانُه، مِنْ حَيثُ الباطِنُ.

دَلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ الفِعْلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾:

شُمولُ مَفْهومِ الإيمانِ لِكُلِّ أرْكانِه وفُروعِه

حَذَفَ البَيانُ القُرآنيُّ مُتَعَلِّقَ الفِعْلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ إمّا لِلعِلْمِ بِه، فصارَ هَذا القَوْلُ بمنزلةِ المَفهومِ المَعْروفِ، فإذا قيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فُهِمَ المَقْصودُ مِنْ تَعَلُّقِ الإيمانِ دونَ تَرْكٍ لأيِّ رُكْنٍ مِنْ أرْكانِه، أو لِأيِّ فرْعٍ مِنْ فُروعِه، وإمّا للإيجازِ الَّذي هوَ أحَدُ أهَمِّ خَصائِصِ النَّظْمِ الجَليلِ، في اكْتِنازِ اللَّفْظَةِ القُرْآنيَّةِ بِمَعانٍ كَثيرَةٍ، لا يُعَبِّرُ عَنْها غَيرُها.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالجَمعِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لا المُفْرَد:

الـدَّلالَـةُ على كَـثْرَةِ الأعْمالِ الصّالِحاتِ مَعَ تَنَوُّعِها وتَعَدُّدِها

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بِالجَمعِ؛ وذَلِكَ للإشارَةِ إلى كَثْرَةِ المَجْموعِ تَفْخيمًا في مَقامِ الثَّناءِ والمَدْحِ؛ ولِتَكْثيرِ الأعْمالِ الصّالحاتِ تَمهيدًا لِمُقابَلَتِها بِواسِعِ مَغْفِرَتِه ورِضْوانِه، كَما أنَّ الجَمْعَ دالٌّ على التَّعَدُّدِ والتَّنَوُّعِ وشُمولِ كُلِّ ما تَسْتَطيعُهُ النَّفْسُ مِنْ خَيْرٍ، فهُم لا يُقصِرّونَ على عَمَلٍ واحِدٍ فقَطْ، وإنَّما يُحيطونَ أنْفُسَهُم بِكُلِّ ما يُقَرِّبُهُم مِنْ رَبِّهم، يَنْشَغِلونَ بِه[1].

الغَرَضُ مِنْ تَعْريفِ المَفْعولِ بِه بِاللّامِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

التَّعريفُ بِاللّامِ لإرادَةِ الجِنْسِ أوِ الاسْتِغراقِ أوْ للإطْلاقِ

جاءت كَلِمَةُ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُعَرَّفَةً باللّامِ لإرادَةِ الجِنْسِ، أيْ: جِنْسُ الأعْمالِ الصّالحاتِ هي جِنْسُ أعْمالِهِم، فالغالِبُ علَيْها

(1) الخضري، الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، ص: 130.

الصَّلاحُ، فهُم يُسارِعونَ إلى كُلِّ عَمَلٍ صالِحٍ، فهيَ كَلِمَةٌ مُطلَقَةٌ، لَم تَدُلَّ على عَمَلٍ مُعَيَّنٍ، وهَذا يَعني أنَّ الصّالِحاتِ تَعْني كُلَّ صالِحٍ يُصلِحُ بِه شَأن الدُّنْيا والآخِرَة.

دِلالَةُ العَطْفِ بِالواوِ في: ﴿وَيَزِيدُهُم﴾:

بَعدَ الإثابَةِ والتَّوْفيةِ تأتي الزِّيادَةُ والتَّحْليَةُ

عَطَفَ البَيانُ القُرآنيُّ الحَكيمُ قَوْلَ اللّه تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ﴾ على قَوْلِه تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فوَصَلَت الواوُ بَينَ الجملتَين، وذَلِكَ للتَّوَسُّطِ بَيْنَ الكَمالَين: كَمالِ الانْقِطاعِ، وهو الحَديثُ عَنْ نِعْمَةٍ مُغايِرَةٍ لِما سَبَقَ، وكَمالِ الاتِّصالِ، وهوَ استِمرارُ الحَديثِ عَنْ نِعَمِ اللّه تعالى وعَطاياهُ لِعبادِه، فجاءَتْ جُملَةُ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ﴾؛ لِتَتَناوَلَ نِعْمَةً أُخْرَى مِنْ نِعَمِ اللّه لِعِبادِه المُؤْمِنينَ، وهيَ إعْطاؤُهُم أكْثَر ممّا سَألوه، وأكْثَرَ مَمّا يَسْتَحِقّونَهُ على أعْمالِهم الصّالِحَةِ، ومِنْها قَبولُ شَفاعَتِهم في إخْوانِهم الَّذينَ قَصَّرَتْ بِهم أعْمالُهُم عَنِ النَّجاةِ مِنْ سوءِ المَآلِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ ﴿وَيَزِيدُهُم﴾:

تَجَدُّدُ الزيادَةِ في كلِّ وقْتٍ وحينٍ في الدُّنْيا أوِ الآخِرَةِ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِصيغَةِ المُضارَعَةِ ﴿وَيَزِيدُهُم﴾؛ للدَّلالَةِ على التَّجَدُّدِ الاسْتِمراريِّ في الزِّيادَةِ الإلَهيَّةِ بالعَطاءِ الجَزيلِ، فلا حَدَّ لِفَضْلِه ولا نِهايَةَ لِعَطائِه، بَلْ يَتَجَدَّدُ في كُلِّ وقْتٍ وحينٍ في الدُّنْيا أوِ الآخِرَةِ.

مَعْنَى ﴿مِّن﴾ ودِلالَتُها في: ﴿مِّن فَضْلِهِۦۚ﴾:

ابتِداءُ الفَضْلِ مِنَ اللّهِ، وفَضْلُهُ واسِعٌ لا نِهايَةَ له، يُعْطيهِ مِصْداقًا لِكَرَمِهِ وجودِه

يُحْتَمَلُ في ﴿مِّن﴾ ثَلاثَةُ أوْجُهٍ[1]: أحَدُها: أنْ تَكونَ ابتِدائيَّةً، بِمَعْنَى أنَّ ابتِداءَ صُدورِ العَطاءِ مِنَ اللّه وحدَه، وثانيها: أنْ تَكونَ تَبْعيضيَّةً، أي: مِنْ بَعْضِ فَضْلِه الواسِعِ العَميمِ، وهَذانِ المَعْنَيانِ يَتَأتّيانِ؛ إذا حُمِلَ الفِعْلُ في قَوْلِه: ﴿مِّن فَضْلِهِۦۚ﴾، على مَعْنَى العَطاءِ الزّائِدِ دونَ مُقابِلٍ، وثالِثُها: أنْ تَكونَ سَبَبيَّةً؛ إذا حُمِلَ الفِعْلُ على مَعْنَى السَّبَبِ، أي: التَّفَضُّلِ، وهَذه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/ 270.

المَعاني مُتَكامِلَةٌ غَيْرُ مُتَنافيَةٍ، فيَجوزُ أَنْ تُحْمَلَ الآيَةُ عَلَيْها جَميعًا، مِنْ بابِ حَملِ اللَّفْظِ على جَميعِ مَعانيه الَّتي دَلَّ عَلَيْها.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفَضْلِ:

فَضْلُ الله عَطاءٌ بلا نِهايَةٍ، وقَبولُ شَفاعَةِ المُؤْمِنينَ مِنْ مَزيدِ العِنايَةِ

آثَرَ البَيانُ القُرآنيُّ الجَليلُ التَّعْبيرَ بِمادَّةِ الفَضْلِ؛ لأَنَّهُ يَحْمِلُ مَعْنَى العَطاءِ، ويَأتي بِمَعْنَى الإحْسانِ بلا عِوَضٍ، وفي هَذا تَكْريمٌ لِلْمُؤْمنينَ، وإِعْلانٌ بِسَعَةِ العَطاءِ؛ حَتَّى تَطْمَئِنَّ نُفوسُهُم، فهوَ تعالى يُعْطيهم مِنْ حَيْثُ لَم يَحْتَسِبوا، فيُنْعِمُ عَلَيْهِم في الدُّنْيا بِالعَطاءِ الجَزيلِ، وفي الآخِرَةِ بِقَبولِ شَفاعَتِهِم في إِخْوانِهِم، وهي كَرامَةٌ لا مَزيدَ عَلَيْها.

الغَرَضُ مِنَ الإِضافَةِ في: ﴿فَضۡلِهِۦۚ﴾:

أَضافَ النَّظْمُ الحَكيمُ الفَضْلَ للّه تعالى ؛ لِبَيانِ أَنَّ اللّهَ وحْدَهُ صاحِبُ الفَضْلِ، فالإِضافَةُ للتَّخْصيصِ، كَما أَنَّ في هَذِهِ الإِضافَةِ تشريفًا وتعظيمًا لِقَدْرِ فضْلِ اللّهِ تَبارَكَتْ آلاؤُه.

سِرُّ العَطْفِ بالواوِ ودلالةُ التَّعْبيرِ بالكُفْرِ في: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

التَّذْكيرُ بِمَصيرِ الكافِرينَ مِنْ تَمامِ بَيانِ المِنَّةِ على المُؤْمِنينَ

عَقِبَ بَيانِ ما أَنْعَمَ اللّهُ تعالى على عِبادِه التّائِبينَ مِنْ قَبولِ التَّوْبةِ، واسْتِجابَتِه تعالى لِدُعاءِ المُؤْمنينَ المُصَدِّقينَ، عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ بيان حالِ الكافِرينَ، فقال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾، باستِعْمالِ أداةِ العَطْفِ الواوِ، وذَلِكَ للتَّوَسُّطِ بَيْنَ الكَمالَيْن: كَمالِ الاتِّصالِ، وكَمالِ الانقطاعِ، كَما في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤﴾ [الانفطار: 13 - 14]، فانْقَطَعَ الحَديثُ عَنِ المُؤْمنينَ مِنْ ناحيَةٍ، وجاءَ التَّذْكيرُ بمصيرِ الكافرينَ للتَّرْهيبِ والإِنْذارِ، وفيه اتِّصالٌ لِما فيه مِنْ بَيانِ عَظيمِ المِنَّةِ على المُؤْمنينَ، وتَوْكيدٌ لِلوَعيدِ، وتَحْذيرٌ مِنَ الدَّوامِ على الكُفْرِ بَعْدَ فَتْحِ بابِ التَّوْبَةِ لَهم[1].

سِرُّ التَّصْريحِ بِكُفْرِهم في هَذا المَوْضِعِ:

صَرَّحَ النَّظْمُ الجَليلُ بِكُفْرِ المُفْتَرينَ المُعانِدينَ، فمَجيءُ هَذِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 91.

التَّصريحُ بِكُفرِهم نَتيجة لِشِدَّةِ عِنادِهم

الجُملَةِ الَّتي تَتَوَعَّدُ بالعَذابِ الشَّديدِ بَعْدَ جُمَلٍ تَفيضُ بالرَّحْمَةِ وقَبولِ التَّوْبَةِ، تُشيرُ إلى الطّائِفَةِ الَّتي فُتِحَتْ لَها كُلُّ هَذِه الأبوابِ، وأصَرَّتْ على العِنادِ والكُفْرِ، ويُلاحَظُ أنَّ كَلِمَةَ ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لَم تُذْكَرْ في أوَّلِ السّورَةِ إلّا في هَذِهِ الجُملَةِ؛ لأنَّ الآياتِ السّابِقَةَ فتَحَتْ أبوابَ الرَّحْمَةِ، وهَؤُلاءِ كَفَروها، وعَموا عَنْها، وصَيَّروها كَأنَّها لَم تَكُنْ، والَّذينَ لا يَدْخُلونَ أبْوابَ الهُدَى مِنْ مَنافِذِ التَّوْبَةِ، والعَفْوِ، والزّيادَةِ مِنَ الفَضْلِ لَيْسَ لَهُم طَريقٌ آخَرُ إلى الهُدَى[1].

الغَرَضُ مِنَ الطِّباقِ بَيْنَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

في الطِّباقِ حَثٌّ للعاقِلِ على التَّدَبُّرِ والتَّأمُّلِ، وبَيانٌ لِتَمامِ النِّعْمَةِ والتَّفَضُّلِ

بَينَ قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وقَوْلِه: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ طِباقٌ فيه إيضاحٌ بالِغٌ لِمَدَى بُعْدِ الشُّقَّةِ بَيْنَ الفَريقَينِ، وما لِكُلٍّ مِنْهما عِندَ اللّه تعالى، فأضْفَى على المَعْنَى حُسْنًا وجَمالًا، وزادَها رَوْنَقًا وبَيانًا، فالضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ، كَما هوَ مُقَرَّرٌ عِنْدَ أرْبابِ البَلاغةِ، كَما أسْهَمَ الطِّباقُ في الآيَةِ في تَنْشيطِ الفاعِليَّةِ الإدراكيَّةِ لِأذْهانِ السّامِعينَ والمُتَلَقّينَ؛ إذْ يؤَدّي ذِكْرُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ إلى تَداعي المَعاني المُعاكِسَةِ لِكُلِّ فَريقٍ، ويوَسِّعُ آفاقَ التَّصوُّرِ بِشُؤْمِ المَآلِ في مُقابِلِ حُسْنِ الحالِ، ويوقِظُ الإحْساسَ بِسوءِ مَصيرِ الكافِرينَ في مُقابِلِ التَّكْريمِ والتَّشْريفِ لِلمُؤْمِنينَ، وفيه حثٌّ للعاقِلِ على زيادَةِ التَّدَبُّرِ وإمعانِ الفِكْرِ للاعْتِبارِ والاتِّعاظِ.

سِرُّ المُغايَرَةِ بَيْنَ الاسْمِ المَوْصولِ والاسْمِ الصَّريحِ:

كَثْرَةُ صُدورِ أفْعالِ الإيمانِ مِنَ الَّذينَ آمَنوا، وطُروءُ الكُفْرِ على قُلوبِ الكافِرينَ

غايَرَ النَّظْمُ الكَريمُ في التَّعْبيرِ، فاستَعْمَلَ الاسمَ المَوْصولَ والفِعْلَ الماضي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مَعَ المُؤْمِنينَ، واستَعْمَلَ اسمَ الفاعِلِ مَعَ الكافِرينَ، فعَبَّرَ بالاسمِ المَوْصولِ (الَّذينَ) مَعَ صِلَتِه، لِما فيه مِنَ الإيماءِ إلى ثَباتِ ذَلِكَ الإيمانِ في نُفوسِهم، وظُهورِه في سُلوكِهم

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 148.

وطَبائِعِهم، فالجُملَةُ المَوْصوليَّةُ أفادَتْ عَراقَةَ الإيمانِ في قُلوبِهم حَتَّى أصْبَحوا مَعْروفينَ بِه، وأفادَ الفِعلُ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ كَثْرَةَ صُدورِ الأفْعالِ الدّالَّةِ على الإيمانِ مِنْهُم، وأمّا (الكافِرونَ)؛ فاستَعْمَلَ مَعَهُم اسمَ الفاعِلِ؛ للدَّلالَةِ على طُروءِ الكُفْرِ على نُفوسِهم، ثُمَّ تَمَكُّنه مِنْها، حَتَّى صارَ لَهُم جِبلَّةً لا تَتَزَحْزَحُ، فهُم عَريقونَ في هَذا الوَصْفِ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالجُملَةِ الاسْميَّةِ في الآيَة:

دَوامُ العَذابِ لِكُلِّ مُعانِدٍ كَذّابٍ

في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ عبَّرَ النَّظْمُ الجَليلُ بِالجُملَةِ الاسميَّةِ؛ لِلدَّلالَةِ على دَوامِ العَذابِ واستِمرارِه، فلا يَنْقَطِعُ عَذابُهُم في النّارِ جَزاءً وِفاقًا على افتِرائِهم على رسولِ اللّه ﷺ، ولِرَفْضِهم التَّوْبَةَ بَعْدَ أنْ عُرِضَتْ عَلَيْهم.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَهُمْ﴾:

التَّقْديمُ لإفادَةِ الاختِصاصِ، ولِبَيانِ الاستِحْقاقِ، ولِلتَّهَكُّمِ

قَدَّمَ البَيانُ القُرْآنيُّ الجارَّ والمَجْرورَ ﴿لَهُمْ﴾ لِأغْراضٍ ثَلاثَةٍ، **الأوَّلُ**: لإفادَةِ اخْتِصاصِ العَذابِ بِهم دونَ غَيْرِهم، **والثّاني**: لِبَيانِ استِحْقاقِهم لِهَذا العَذابِ، **والثّالِثُ**: مِن بابِ التَّهَكُّمِ بالكافِرينَ، فإنَّ سياقَ الآيَةِ الإنعامُ والامتِنانُ على المُؤْمنينَ بالاستجابَةِ والتَّفَضُّلِ، ثُمَّ ذَكَرَ النَّظْمُ مَصيرَ الكافِرينَ، فقال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ﴾، فتَشَوَّفَتْ نُفوسُ السّامِعينَ إلى مَعْرِفَةِ جَزائِهم، فجاءَ الإخْبارُ بأنَّ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، فحَصَلَ لَهُم مِنَ المَهانَةِ والذِّلَّةِ والامتِهانِ أضْعافُ ما حَدَثَ للمؤْمنينَ مِنَ الكَرامَةِ والتَّحيَّةِ والإنْعامِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّنْكيرِ في: ﴿عَذَابٌ﴾:

في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ جاءَ لَفْظُ ﴿عَذَابٌ﴾ نَكِرَةً لإفادَةِ التَّهْويلِ، فهوَ عَذابٌ لا يُقَدَّرُ قَدْرَه، ولا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إلّا اللّه، وفي هَذا مِنَ التَّهْويلِ ما فيه.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 307.

نُكْتَةُ وصْفِ العَذابِ بِالشَّديدِ دونَ غَيْرِه مِنْ أوْصافِ العَذابِ:

مُلاءَمَةُ الوَصْفِ لِشِدَّةِ الجُرْمِ والافْتِراءِ

آثَرَ البَيانُ القُرْآنيُّ وصْفَ العَذابِ بِالشِّدَّةِ، دونَ الوَصْفِ بِالعَظيمِ أوِ الأليمِ أوِ المُهينِ بِاعْتِبارِ المُعَذَّبِ، فهُناكَ مَنْ يُناسِبُهُ وصْفُ العَذابِ بِالعَظيمِ مِن بابِ الإهانَةِ، وهُناكَ مَن تُناسِبُهُ كَثْرَةُ العَذابِ كَمًّا وكَيْفًا - كَما هُنا - لأنَّهُم كَفَروا بالوَحْيِ، وافْتَرَوا على رَسولِ اللّه ﷺ، فكانَ الوَصْفُ لِلعَذابِ هُنا بِاعْتِبارِ الكَمّيَّةِ والكَيْفيَّةِ والدَّوامِ الأبَديِّ، كَما أنَّهُ سبحانه لا يُجيبُ دُعاءَهُم، فغَيْرُهم مِنَ العُصاةِ لَهم عَذابٌ غَيْرُ لازِمِ التَّقَيُّدِ بِشَديد[1].

بَلاغَةُ الاحتِباكِ في الآيَةِ:

الاسْتِجابَةُ في مُقابِلِ الإعْراضِ، والعَذابُ في مُقابِلِ النَّعيمِ

جاءَتِ الآيَةُ كُلُّها: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ جارِيَةً على أُسْلوبِ الاحْتِباكِ، وهوَ أنْ يَجْتَمِعَ في الكَلامِ مُتَقابِلانِ، ويُحْذَفَ مِنْ كُلٍّ واحِدٍ مِنْهُما مُقابِلُهُ؛ لِدَلالَةِ الآخَرِ عَلَيْه، كَقَوْلِهم: (عَلَفْتُها تِبْنًا وماءً بارِدًا)، أيْ: عَلَفْتُها تِبْنًا، وسَقَيْتُها ماءً بارِدًا[2]، وفي الآيَةِ جاءَ ذِكْرُ الاسْتِجابَةِ أوَّلًا دَليلًا على ضِدِّها ثانيًا، والعَذابِ ثانيًا دَليلًا على ضِدِّه أوَّلًا، وسِرُّه أنَّهُ ذَكَرَ الحامِلَ على الطّاعَةِ والصّادَّ عَنِ المَعْصيَةِ[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 307.

(2) الجرجاني، الكليّات، ص: 12.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 307.

﴿۞وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾ [الشورى: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مِنْ دَلائِل لُطْفِه بالمُؤْمنينَ إجابةُ سُؤالِهم حَتَّى لا يكونوا في قَضيَّةِ الرِّزْقِ مِنَ الحائِرينَ

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ النَّظْمُ في الآيةِ السّابِقَةِ أنَّ مِمّا امتَنَّ اللّٰهُ به على عِبادِه المُؤْمِنينَ اسْتِجابَتَه لِدُعائِهم، بِأنْ يُعْطيهم مِن خَيْرِ الدُّنْيا ما لَم يَسْألوهُ إيّاهُ، فكانَ المُتَبادِرُ مِن هَذِهِ الاستِجابَةِ إيجادَ كُلِّ ما سَألوهُ في هَذِه الدُّنْيا على ما أرادوهُ؛ فجاءَتْ هَذِه الآيَةُ تُشيرُ إلى جَوابٍ، عَنْ سُؤالٍ مُقَدَّرٍ في نَفْسِ السّامِعينَ، فحْواهُ: إذا كانَ اللّٰهُ تعالى قدِ امتَنَّ عَلَيْنا بإجابَةِ دُعائِنا، فلِمَ لا يَبْسُطُ اللّٰهُ لنا الرِّزْقَ في الدُّنْيا، فيُغْنينا مِن فضلِه، فإنَّ كَثيرًا مِنَ المُؤْمِنينَ وأهْلِ اللّٰه يُعانونَ العَوَزَ والحاجَةَ؟ فكانَ الجَوابُ: إنَّ اللّٰه لَوْ بَسَطَ الرِّزْقَ لِلنّاسِ كُلِّهم؛ لَكانَ بَسْطُهُ مُفْسِدًا لَهم، شاغِلًا لَهُم عَنِ العِبادَةِ والالتِجاءِ إلى اللّٰه تعالى، فجاءَتِ الآيَةُ على هذا على سَبيلِ الاعْتِذارِ لِعِبادِه، وهو المَلِكُ الأعْظَمُ تعالى[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَسَطَ﴾: (بسط) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ امتِدادُ الشَّيءِ، في عِرَضٍ أو غَيْرِ عِرَضٍ، والبَسْطَةُ في كُلِّ شَيْءٍ السَّعَةُ[2]، والمَعْنَى المِحوريُّ هوَ: تَفَلْطُحُ الشَّيْءِ وانفِراشُهُ أوِ اتِّساعُهُ، وكُلُّ ما في القُرْآنِ مِنَ البَسْطِ هوَ مِنَ الاتِّساعِ عَدا بَعْضِ الكِناياتِ[3]، والمُرادُ بِـ﴿بَسَطَ﴾ هَهُنا: وسَّعَ، وبَسَطَ الشَّيءَ: نَشَرَهُ[4].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 307، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 92.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بسط).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بسط).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 27.

2) ﴿ٱلرِّزْقَ﴾: (رزق) أُصَيْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْه غَيْرُ المَوْقوتِ، فالرِّزْقُ: عَطاءُ اللّٰه جَلَّ ثَناؤُه[1]، والمَعْنَى المِحوريُّ هوَ ما يَدْخُلُ الجَوْفَ مِنْ طَعامٍ ونَحْوه بِاسْتِرْسالٍ، ثُمَّ يُطْلَقُ على ما يُعْطيه اللّٰه العَبْدَ مِنْ مالٍ وخَيْرٍ يَطْعَمُ مِنْهُ، ويَنْتَفِعُ، وكُلُّ ما جاءَ في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيبِ؛ فهوَ بِهَذا المَعْنَى[2]، ويُقالُ: رَزَقَ اللّٰهُ الخلقَ رَزْقًا ورِزْقًا، فالرَّزْقُ بِفَتْحِ الرّاءِ، هوَ المَصْدَرُ الحَقيقيُّ، والرِّزْقُ الاسْمُ، والأَرْزاقُ نَوْعانِ: ظاهِرَةٌ للأَبدانِ كالأَقْواتِ، وباطِنَةٌ لِلقُلوبِ والنُّفوسِ كالمَعارِفِ والعُلومِ[3]، والرِّزْقُ يُقالُ لِلعَطاءِ الجاري تارَةً، دُنْيَوِيًّا كانَ أم أُخْرَوِيًّا[4].

3) ﴿لَبَغَوْاْ﴾: (بغي) أَصْلانِ: أَحَدُهُما طَلَبُ الشَّيءِ، والثّاني جِنْسٌ مِنَ الفَسادِ، فمِنَ الأَوَّلِ بَغَيْتُ الشَّيءَ أَبْغيه؛ إذا طَلَبْتَهُ، والأَصْلُ الثّاني: قَوْلُهُم: بَغَى الجُرْحُ؛ إذا تَرامَى إلى فسادٍ، ومِنْهُ أَنْ يَبْغِيَ الإنسانُ على آخَرَ، ومِنْهُ بَغْيُ المَطَرِ، وهوَ شِدَّتُه ومُعْظَمُهُ، والبَغْيُ: الظُّلْمُ[5]، والمَعْنَى المِحوريُّ تَزايُدُ الشَّيْءِ نُموًّا وقوَّةً أَوْ تَوَصُّلًا لاكْتِمالِ حالِه، ومِنَ التَّزايُدِ جاءَ مَعْنَى الطَّلَبِ؛ لأَنَّهُ ازْدِيادٌ، ومِنْهُ أَيْضًا جاءَ مَعْنَى التَّجاوُزِ؛ لأَنَّهُ تَعَدٍّ وتَزايُدٌ، فبَغَى عَلَيْهم، أي: عَدَلَ عَنِ الحَقِّ، واسْتَطالَ، وكُلُّ مُجاوَزَةٍ وإِفْراطٍ على المِقْدارِ الَّذي هوَ حَدُّ الشَّيءِ بَغْيٌ، ومِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[6]، والمُرادُ بـ﴿لَبَغَوْاْ﴾ هَهُنا، أَيْ: لَتَكَبَّروا فيها بَطَرًا، وتَجاوَزوا الحَدَّ[7].

4) ﴿بِقَدَرٍ﴾: (قدر) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كُلِّ شَيْءٍ، وكَذَلِكَ القَدَرُ، وقَدَرْتُ الشَّيءَ أَقْدِرُهُ وأَقْدُرُهُ مِنَ التَّقْديرِ[8]، والمَعْنَى المِحوريُّ ضَبْطُ الشَّيءِ القابِلِ لِلتَّسَيُّبِ أوِ الانبساطِ وحكمُهُ وامتِساكُهُ على وضْعٍ أَوْ كَمٍّ أَوْ مَسافَةٍ مُعَيَّنَةٍ، فلا يَتَسَيَّبُ، ولا يَسْتَرْسِلُ[9]، وتَقْديرُ اللّٰه لِلأَشياءِ على وجهَيْنِ: أَحَدُهُما: بِإِعطاءِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (رزق).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (رزق).

(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (رزق).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).

(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بغو - بغى).

(7) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 38.

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).

(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قدر).

القُدْرَةِ، يُقالُ: قَدَّرَني اللّهُ على كذا، وقَوّاني عَلَيْه، والثّاني: بأنْ يَجْعَلَها على مِقْدارٍ مَخْصوصٍ ووَجْهٍ مَخْصوصٍ حَسَبَ ما اقْتَضَت الحِكْمَةُ[1]، والمُرادُ بـ﴿بِقَدَرٖ﴾ التَّقْديرُ، أيْ: بتَقْديرٍ لَهم جُملَة، ولِكُلِّ واحِدٍ مِنهم، لا يَزيدُ عَنْ تَقْديره ذَرَّةً، ولا يَنْقُصُها[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اسْتِجابَةُ الله لِعِبادِهِ المُؤْمنينَ مُقدَّرةٌ بِقَدَرٍ

بَيَّنَ اللّهُ تعالى في هَذِهِ الآيَةِ جانِبًا مِمّا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ في تَدْبيرِ أُمورِ عِبادِه؛ إذا خَطَرَ في نُفوسِهم أنْ يَتَساءَلوا في نُفوسِهم، إنَّ مِمّا يَسْأَلُ المُؤْمِنونَ رَبَّهُم سَعَةَ الرِّزْقِ، فقَدْ كانَ المُؤْمِنونَ أيّامَ صَدْرِ الإسلام في حاجَةٍ وضيقِ رِزْقٍ، فيُجابُ بأنَّ اللّهَ لَوْ بَسَطَ الرِّزْقَ لِلنّاسِ كُلِّهم؛ لَكانَ بَسْطُهُ مُفْسِدًا لَهم؛ لأنَّ الَّذي يَسْتَغْني يتطرَّقُهُ نِسْيانُ الالتِجاءِ إلى اللّه، ويَحْمِلُهُ على الاعتِداءِ على النّاسِ، فكانَ مِن خَيْرِ المُؤْمنينَ الآجِلِ لَهم ألّا يُبْسَطَ لَهم في الرِّزْقِ، وكانَ ذَلِكَ مَنوطًا بِحِكْمَةٍ أرادَها اللّهُ مِن تَدْبيرِ هَذا العالَمِ تَطَّرِدُ في النّاسِ[3]، فجاءَتِ الآيَةُ مُبَيِّنَةً أنَّهُ تعالى وإنْ كانَ قَدِ امتَنَّ بالاسْتِجابَةِ، فإنَّ لِهَذِه الاسْتِجابَةِ حِكْمةً بالِغَةً وتقْديرًا رَشيدًا منْهُ، ثُمَّ ذَيَّلَ النَّظْمُ الكَريمُ الآيَةَ بأنَّهُ تعالى بِعِبادِه خَبيرٌ بَصيرٌ؛ لِتَعْليلِ تَنْزيلِه الرِّزْقَ على عِبادِهِ بتَقْديرٍ وتَحديدٍ دَقيقٍ، فهوَ جَلَّ شَأْنُهُ خَبيرٌ بخَفايا أحْوالِ عِبادِه، وبِطَوايا نُفوسِهم، بَصيرٌ بما يَقولونَهُ، وبِما يَفْعَلونَهُ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَعْنَى الواوِ ودِلالَتُها في: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ﴾:

جاءَ قَوْلُ اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (قدر).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 307.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 92.
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 35.

الحَديثُ عَنْ حِكْمَةِ البَسْطِ والقَبْضِ في الرِّزْقِ مِنْ تَمامِ نِعَمِ اللهِ على عِبادِهِ المُؤْمِنينَ

مَعْطوفًا بالواوِ على جُملَةِ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾، أَوْ على المَجْموعِ مِن جُملَةِ: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ومِن جُملَةِ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾[1]، فالآيَةُ السّابِقَةُ تَبْعَثُ في النَّفْسِ هاجِسًا يَقولُ: وما دامَ سُبْحانَهُ يَزيدُنا مِنْ فضلِه فما بالُنا نَدْعوهُ جَلَّتْ حِكْمَتُه، ونَطْلُبُ السَّعةَ في الرِّزْقِ، فلا يُجيبُ دُعاءَنا؟ وهَذِه الآيَةُ تُعالِجُ هَذا الإحْساسَ الَّذي تَوَلَّدَ مِنَ الكَلامِ السّابِقِ، ولَيْسَ مِنْ شِبْه كَمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ الآيَةَ مَعْطوفَةٌ بِالواوِ، وإنَّما هوَ مِنَ الكَشْفِ عَنِ العَلاقاتِ الذِّهْنيَّةِ بَيْنَ الآياتِ[2].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِأُسْلوبِ الشَّرْطِ بِالأداةِ (لَوْ):

قد يورِّثُ الرِّزقُ الطُّغيانَ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِأُسْلوبِ الشَّرْطِ وبِالأداةِ (لَوْ)، الَّتي تأتي أَحْيانًا شَرْطيَّةً امتِناعيَّةً، فتُفيدُ امتِناعَ الشَّرْطِ والجَوابِ، وتأتي في أَحْيانٍ أُخْرَى شَرْطيَّةً غَيْرَ امتناعيَّة، ولا شَأْنَ لَها بِالجَوابِ إثْباتًا أَوْ نَفْيًا[3]، فامتِناعُ الشَّرْطِ في هَذِه الحالَةِ لا يُؤَدّي إلى امتِناعِ الجَوابِ؛ لأنَّ البَغْيَ في الأَرْضِ لَهُ أَسْبابٌ مِنْها بَسْطُ الرِّزْقِ، فـ(لَو) في الحَقيقَةِ تُبَيِّنُ سَبَبَ الامتِناعِ، وبَيانُ هَذا السَّبَبِ هوَ الَّذي رَبَطَ بَيْنَ الشَّرْطِ والجَوابِ على تَفْصيلٍ في أَحْوالِ هَذا الرَّبْطِ، وهَذِه السَّبَبيَّةِ؛ لأَنَّ اللّٰه يَدْفَعُ النّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ، والبَسْطُ في الرِّزْقِ لِلكافَّةِ يَصْرِفُ النّاسَ عَنِ التَّوَجُّه إلى اللّٰه؛ لأنَّ الَّذي يَسْتَغْني يَتَطَرَّقُهُ نِسْيانُ الاتِّجاه إلى اللّٰه، فلَوْ أنَّ هَذا النِّسْيانَ تَطَرَّقَ لِلْجَميعِ؛ لَبَغَى الكُلُّ على الكُلِّ[4].

سِرُّ التَّعبيرِ بِ(لَوْ) الشَّرْطيَّةِ رغْمَ احْتِمالِ تَخَلُّفِ الشَّرْطِ:

وُجودُ البَغْيِ مَعَ الفَقْرِ أقلُّ، ووُجودُهُ مَعَ البَسْطِ أكْثَرُ وأغْلَبُ

استَشْكَلَتِ الآيَةُ عِندَ بَعضِهم بِأنَّ الغِنى، كَما يَكونُ سَبَبَ البَغْيِ، فكَذَلِكَ الفَقْرُ قَدْ يَكونُ، فلا تظْهَرُ الشَّرْطيَّةُ، وأُجيبَ بِأنَّهُ لا شُبْهَةَ أَنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 92.
(2) أبو موسى، آل حم: 148 - 149.
(3) السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 89.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 92، وأبو موسى، آل حم: 148 - 149.

البَغْيَ مَعَ الفقْرِ أقلُّ، ومَعَ البَسْطِ أكْثَرُ وأغْلَبُ، وكِلاهُما سَبَبٌ ظاهِرٌ للإقْدامِ على البَغْيِ والإحْجامِ عَنْهُ، فلَوْ عَمَّ البَسْطُ؛ لَغَلَبَ البَغْيُ حَتّى يَنْقَلِبَ الأمرُ إلى عَكْسِ ما عَلَيْهِ الآنَ[1]، فإنَّ نِظامَ العالَمِ على ما هو عَلَيْهِ يَسْتَمِرُّ، وإنْ كانَ قَدْ يَصْدُرُ مِنَ الغَنيِّ في بَعْضِ الأحْيانِ بَغْيٌ، ومِنَ الفَقيرِ كَذَلِكَ، لَكِنْ في أحَدِهما ما يَدْفَعُ الآخَرَ، ثُمَّ إنَّ الفَقْرَ الكُلّيَّ لا يُتَصَوَّرُ مَعَهُ البَغْيُ لِلضَّعْفِ العامِّ، ولأنَّهُ لا يَجِدُ حاجَتَهُ عِنْدَ غَيْرِهِ؛ لِيَظْلِمَهُ، وأمّا الغِنى الكُلّيُّ؛ فعِنْدَهُ البَغْيُ التّامُّ، وأمّا الَّذي عَلَيْهِ سُنَّةُ اللَّه ﷻ؛ فهو الَّذي جَمَعَ الأمرَيْنِ[2].

إيثارُ التَّعبيرِ بمادَّةِ البَسْطِ:

التَّعبيرُ بالبَسْطِ أكْبَرُ دَلالَةً على مَعاني السَّعَةِ والانْتِشارِ وأكْثَرُ أصالَةً

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ عَنْ رَغْبَةِ العِبادِ في اتِّساعِ الرِّزْقِ في السُّؤال الَّذي أضْمَرَتْهُ نُفوسُهُم بِمادَّةِ البَسْطِ دونَ غَيْرِها مِمّا قَدْ يُؤَدّي مَعْناها، وذَلِكَ لأنَّ البَسْطَ امتدادُ الشَّيْءِ، في عِرَضٍ أو غَيْرِ عِرَضٍ، والمُرادُ بِهِ في كُلِّ شَيْءٍ السَّعَةُ، وكَذَلِكَ لِما فيها مِنْ مَعاني النَّشْرِ، ففيها إذًا مَعاني السَّعةِ والانتشارِ، بل هي أوسعُ مِنْهُما في الدَّلالَةِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿بَسَطَ﴾:

الرِّزْقُ قَضيَّةٌ مَحْسومَةٌ مَقْطوعٌ بِها

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بالفِعْلِ الماضي ﴿بَسَطَ﴾ دونَ المُضارِعِ (يَبْسُطُ)؛ إشارَةً إلى أنَّ قَضيَّةَ الرِّزْقِ قَضيَّةٌ مَحْسومَةٌ مَقْطوعٌ بِها مُنْذُ أنْ شاءَتْ إرادَةُ اللَّه الكَبيرِ المتعالي خَلْقَ الكَونِ بِما فيه؛ لِذا كانَ التَّعْبيرُ بِصيغَةِ المُضيِّ أنْسَبَ لِلمَعْنى.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّبَعيَّةِ:

تَشْبيهُ الرِّزْقِ بالبِساطِ يَبْعَثُ في العَقْلِ النَّشاطَ

في التَّعْبيرِ بـ ﴿بَسَطَ﴾ هُنا استِعارَةٌ تَصْريحيَّةٌ تَبَعيَّةٌ عَنِ الكَثْرَةِ والتَّوسعةِ؛ إذِ المُرادُ وسَّعَ الرِّزْقَ، ولَكِنَّهُ عَدَلَ عَنْ (وَسَّعَ) إلى (بَسَطَ)؛ لِما فيه مِنَ الدَّلالَةِ المادّيَّةِ الأشَدِّ رُسوخًا في أذْهانِ المُتلقّينَ، فكَأنَّ اتِّساعَ

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 223.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 38.

الرِّزْقِ يُشْبِهُ البِساطَ في امتدادِه طولًا وعَرْضًا، فهو مُعَبِّرٌ غايَةَ التَّعْبيرِ عَنْ حِرْصِ الخَلْقِ على اتِّساعِ الرِّزْقِ، فهي استِعارَةٌ تُنشِّطُ العَقْلَ.

نكتة إظهار الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾ دون إضماره:

التَّـصْـريـحُ بالاسْمِ الأعْظَمِ لاخْـتِـصـاصِـه وحـدَه بقضيّة الرِّزْق

أَسْنَدَ البيانُ القُرْآنيُّ الجَليلُ فِعْلَ البَسْطِ للّه ﷻ مُظْهِرًا ﴿ٱللَّهُ﴾، وعدَلَ عَنِ الإضْمارِ، فلَم يَقُل: (وَلَوْ بَسَطَ الرِّزْقَ)؛ لِعَدَدٍ مِنَ الأُمورِ، **الأوَّلُ:** للتَّنْبيه على عَظَمَةِ هَذا المَقام، فهوَ تعالى المَلِكُ الأَعْظَمُ الجامِعُ لجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ[1]، **والثّاني:** للدَّلالَةِ على اختِصاصِه تعالى بأمرِ الرِّزْقِ، وفيه رَدٌّ على مَنْ يَعْتَقِدونَ أنَّ أَرْزاقَهُم بيَدِ الخَلْقِ، لا بيَدِ اللّه، ورَدًّا على مَنْ يَسْتَعْبِدونَ ذَوي الحاجَةِ، بإيهامِهم أنَّ أَرْزاقَهُم بأيْديهم، فلا أحَدَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ للخَلْق، ويَمنَعُهُ عَنْهُم إلّا اللّه تَعالَى، **والثّالِثُ:** لِما فيه مِنَ الدَّلالةِ على خُطورَةِ قَضيَّةِ الرِّزْقِ.

إيثارُ التَّعْبيرِ بِمادَّةِ الرِّزْقِ ودلالَةُ التَّعْريفِ بِاللّامِ:

التَّعْبيرُ بِالرِّزْقِ شـامِـلٌ لِـكُـلِّ العَطايا

آثَرَ النَّظْمُ الجَليلُ التَّعبيرَ بـ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ على غَيْرِه؛ لِما فيه مِنْ مَعْنًى شُموليٍّ لِمُطْلَقِ العَطاءِ الجاري في الدُّنْيا والآخِرَة، في السَّماءِ كالمَطَرِ، وفي الأَرْضِ كالنَّباتِ وسائِرِ ما يَتَعَيَّشُ به الإنسانُ، وأيضًا لِشُموله لِمُطْلَقِ العَطاءِ الحِسّيِّ، كَإِعْطاءِ المالِ والوَلَدِ، والمَعْنَويِّ كالعِلْم، فاللّامُ هَهُنا للجِنْسِ، أي: جِنْسِ الرِّزْقِ على اختِلافِ أشْكالِه وأنْواعِه وأقْدارِه.

دَلالَةُ تَقْييدِ الجُملَةِ الفِعْليَّةِ بِشِبْه الجُملَةِ ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾:

عَـبَّرَ بـالـعـامِّ لِـيَـشْـمَـلَ الـخـاصَّ، فالمُؤْمِنونَ هُم أخَـصُّ العِـبـادِ لله

قَيَّدَ البَيانُ القُرْآنيُّ بَسْطَ اللّهِ الرِّزْقَ بِشِبْه الجُملَةِ ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾، فورَدَتْ هَذه الآيَةُ مَوْرِدًا كُلّيًّا؛ لأنَّ قَوْلَهُ: ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ يَعُمُّ جَميعَ العِبادِ، أيْ: كُلُّهُمُ التّائِبُ مِنهم وغَيْرُهُ بأنْ أعْطاهم فوْقَ حاجَتِهم[2]، ومِن هَذِه الكُلِّيَّةِ تَحْصُلُ فائِدَةُ المسؤولِ عَلَيْه الجُزْئيِّ الخاصِّ بالمُؤْمِنينَ مَعَ إفادَةِ الحِكْمَةِ العامَّةِ من هَذا النِّظامِ التَّكْوينيِّ، فكانَتْ هَذه الجُملَةُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 307.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 307.

بِهَذا الاعْتِبارِ بِمَنزِلَةِ التَّذْييلِ لِما فيها مِنَ العُموم، ولَيْسَ مِن حِكْمَتِه أَنْ يَخُصَّ أَوْلياءَهُ وحِزْبَهُ بِنِظامٍ تَكْوينيٍّ دُنْيَويٍّ، ولَكِنَّهُ خَصَّهم بِمَعاني القُرْبِ والرِّضا والفَوْزِ في الحَياةِ الأَبَدِيَّةِ، ورُبَّما خَصَّهم بِما أرادَ تَخْصيصَهم به مِمّا يَرْجِعُ إلى إقامَةِ الحَقِّ[1].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ دونَ (خَلْقِه):

اخْـتِـصـاصُ المُؤْمِنينَ بِضيقِ الرِّزْقِ لِيَبْتَلِيَهُم

ذَهَبَ بَعْضُهُم إلى أنَّ النَّظْمَ الحَكيمَ عَبَّرَ بـ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ دونَ (خَلْقِه) أوِ النّاسِ؛ لأنَّ اللّه تعالى خَصَّهُمْ بِالكَرامَةِ، وجَعَلَهم مِن أَوْليائه، ويُؤَيِّدُهُ التَّذْييلُ بِقَوْلِه تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾، فكانَ قَبْضُ الرِّزْقِ دونَ بَسْطِهِ الأَنْسَبَ بِحالِ المُكْرَمينَ المُصْطَفَيْنَ مِن عِبادِه تَعالى حَتَّى لا يُبْطِرَهُمُ الغِنى[2].

مَعْنَى اللّامِ ودِلالَتُها في: ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾:

البَشَرُ هُم مَنْ تَحَيَّروا في أمرِ الرِّزْقِ

جاءَتِ اللّامُ في ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ للاخْتِصاص، فبَسْطُ الرِّزْقِ وقَبْضُه إنَّما يَتَساءَلُ عَنْهُ البَشَرُ، بِما جُبِلوا عَلَيْه مِنْ حُبِّ الدُّنيا؛ لذا جاءَتِ اللّامُ؛ لِتُخَصِّصَهُم دونَ غَيْرِهم مِنْ خَلْقِ اللّه تعالى، وكَذلِكَ فإنَّ في التَّخْصيصِ باللّامِ تَنْبيهًا إلى ضَرورَةِ العَمَلِ بالرِّزقِ وفْقَ مَرْضاةِ اللّه تعالى، لا وفْقَ الأَهْواءِ الفارِغَةِ والشَّهَواتِ الباطِلَة.

الغَرَضُ مِنَ الإضافَةِ في: ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾:

الإضـافـةُ إمّـا لِـبـيـانِ خُـضـوعِ الخَلقِ أجْمَعينَ، وإمّـا لِتَشْريفِ المُؤْمِنينَ

أضافَ النَّظْمُ لفظَ (العِبادِ) لِضَميرِ الهاءِ العائِدِ على اللّه تعالى، وتَحْتَمِلُ الإضافَةُ رأيَين، **الأَوَّلُ:** تَذْكيرُ الخَلْقِ أجْمَعينَ أنَّهُم عِبادٌ للّه، تَجْري عَلَيْهِم أَحْكامُهُ في كُلِّ ما قَدَّرَهُ عَلَيْهِم، **والآخَرُ:** أنَّها إضافَةُ تَشْريفٍ مُخْتَصَّةٌ بابتِلاءِ المُؤْمِنين[3].

(1) الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 92.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 38.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 39.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالماضي في جَوابِ الشَّرْطِ ﴿لَبَغَوۡاْ﴾:

إحاطَةُ عِلْمِ الله بِنُفوسِ خَلْقِه، وبِما يُصْلِحُهُم وبِما يُفْسِدُهُم

عَبَّرَ النَّظْمُ بِصيغَةِ الْمُضيِّ في ﴿بَسَطَ﴾، و﴿لَبَغَوۡاْ﴾؛ إشارَةً إلى رجحانِ تَحَقُّق فِعْلِ البَغْي مِنْ أكْثَرِ الخَلْق في حالِ البَسْطِ، فالتَّعبيرُ بِالْمُضيِّ يَدُلُّ على أنَّ بَسْطَ الرِّزْقِ مُحقِّقٌ لِبَطَرِ النُّفوسِ المُؤَدّي إلى البَغْيِ والطُّغْيانِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِمادَّةِ البَغْي في: ﴿لَبَغَوۡاْ﴾:

البَغْيُ ازدِيادٌ في الشَّهْوَةِ، يورِدُ الإنسانَ مَورِدَ التَّهْلُكَة

آثَرَ البَيانُ القُرْآنيُّ التَّعْبيرَ بِمادَّةِ البَغْي في ﴿لَبَغَوۡاْ﴾؛ وذَلِكَ لِما فيه مِنَ الدَّلالَةِ على العُدْوانِ والظُّلْم، ولِما فيه مِنَ الدَّلالَةِ على شِدَّةِ الطَّلَبِ والتَّجاوُزِ والرَّغْبَةِ في الازْدِيادِ؛ إذِ المُرادُ: لَصاروا يُريدونَ كُلَّ ما يَشْتَهونَهُ، فإنْ لَم يَحْصُلوا عَلَيْه؛ سَعَوا في إنْفاذِه كالمُلوكِ بما لَهم مِنَ المُكْنَةِ بِكُلِّ طَريقٍ يوصِلُهم إلَيْه، فيَكْثُرُ القَتْلُ والسَّلْبُ والنَّهْبُ والضَّرْبُ والفَسادُ[1].

تَقْييدُ البَغْيِ بِكَوْنِه ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

بَسْطُ الرِّزْقِ دونَ حِكمةٍ مُؤْذِنٌ بِفَسادِ الأرْضِ

قَيَّدَ النَّظْمُ الجَليلُ البَغْيَ بِكَوْنِه ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، مع أنَّه لا يُتَصَوَّرُ في غيرِها؛ لِبَيانِ أنَّ بَسْطَ الرِّزْقِ دونَ حِكْمَةٍ قاضٍ بِفَسادِ الأرْضِ، الَّتي ما خَلَقَهُم اللهُ إلّا ليَعْمُروها، لا لِيُفْسِدوا فيها، ففي تَقْييدِ البَغْيِ بِـ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تَنْبيهٌ للحِفاظِ على الأرْضِ الَّتي جَعَلَها اللهُ قِوامَ حَياتِهم ومَعايِشِهم.

دَلالَةُ التَّعْريفِ باللّامِ في: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الظُّلْمُ مُؤْذِنٌ بِفَسادِ العُمرانِ

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ مُعرَّفَةً باللّام؛ لِبَيانِ الجِنْسِ، فاللّامُ هَهُنا جِنْسيَّةٌ، أي: جِنْسُ الأرْضِ، وفيها دَلالَةٌ على أنَّ البَغْيَ بِسَبَبِ بَسْطِ الرِّزْقِ يُفْضي إلى استِشْراءِ الظُّلْمِ والعُدْوانِ في رُبوعِ الأرْضِ كُلِّها، وخَرابِ عُمرانِها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 307.

مَعْنَى الواوِ ودِلالَتُها في: ﴿وَلَٰكِن﴾:

بَيانُ الحِكْمَةِ مِنْ تَقْديرِ الرِّزْقِ، حَتَّى لا تُفْتَنَ قُلوبُ الخَلْقِ

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ جُملَةَ: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ بالواوِ على جَوابِ الشَّرْطِ: ﴿لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، ووَصَلَ بَيْنَ الجُملَتَيْنِ بالواوِ للتَّوَسُّطِ بَينَ الكمالَيْنِ: كَمالِ الاتِّصالِ، وكَمالِ الانقِطاعِ، فاستقلَّت هَذه الجُملَة بِبَيانِ الحِكْمَةِ في تَقْديرِ الرِّزْقِ دونَ بَسْطِه بِغَيْرِ حِكْمَةٍ، مَعَ استِكمالِ الحَديثِ حَوْلَ قَضيَّةِ الرِّزْقِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالاستِدْراكِ (لَكِنْ):

مِنْ زِيادَةِ اللهِ في الإنْعامِ تَنْقِيَةُ جَوانِبِ الاعْتِقادِ ورَفْعُ الأوْهامِ

استَعْمَلَ النَّظْمُ أداةَ الاستِدْراكِ (لَكِنْ)؛ للجَوابِ على ما جالَ في خاطِرِ بَعْضِ المُؤْمنينَ مِنْ عَدَمِ استِجابَةِ اللّه لِدُعائِهم بسَعةِ الرِّزْقِ، فهوَ تَعقيبٌ لرفعِ ما يُتَوَهَّم في أذْهانِهم[2] مِنْ عَدَمِ حُصولِ الاسْتِجابَةِ الَّتي امتَنَّ اللّهُ بها على عِبادِه المُؤْمنينَ في الآيَةِ السّابِقَة، وفي ذَلكَ تَنْقِيَةٌ لِعَقيدَتِهم مِنْ أنْ يَدْخُلَها زَيْغٌ أوْ ضَلالٌ في قضيَّة الرِّزْقِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بمادَّةِ ﴿يُنَزِّلُ﴾:

استِئْثارُ اللهِ بأمرِ الرِّزْقِ مِنَ الأُمورِ العَلِيَّةِ، حَتَّى لا تَضِلَّ فيها أفهامُ البَرِيَّةِ

عَبَّرَ النَّظْمُ عَنْ رِزْقِ اللّه لِعِبادِه بفِعْلِ النُّزول ﴿يُنَزِّلُ﴾؛ إذِ الأَصْلُ في النُّزولِ انحِطاطٌ من عُلُوٍّ[3]، ففيه إشارَةٌ إلى أنَّ الرِّزْقَ في السَّماءِ، وتَلْميحٌ خَفيٌّ لِقَوْلِه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: 22]، وأنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْكُم مِنْ عُلوٍّ مِنْ عِنْدِ خالِقِكُم، وعَلْياؤُهُ سُبْحانَهُ عَلْياءُ مَكانَةٍ، ولَيْسَتْ عُلوَّ مَكانٍ، وفيه كَذَلكَ رَبْطٌ بَيْنَ تَنَزُّلِ الرِّزْقِ وتَنَزُّلِ الغَيْثِ في الآيَةِ التّاليَةِ[4]، كَما أفادَ التَّعبيرُ بالإنزال الإشعارَ بتفضُّلِ اللّه تعالى وظهورِ منَّته على النّاسِ، فالتَّنزيلُ على معنى الإنعامِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿يُنَزِّلُ﴾:

رِفْعَةُ قَضيَّةِ الرِّزْقِ وعُلُوُّ مَكانَتِها

آثَرَ النَّظْمُ الجَليلُ إطْلاقَ فِعْلِ التَّنْزيلِ على إعْطاءِ الرِّزْقِ في قَوْلِه

---

(1) الخطيب وآخران، التّفصيل: 25/ 91.

(2) الصّبان، حاشية الصّبان على شرح الأشموني: 1/ 398.

(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (نزل).

(4) أبو موسى، آل حم، ص: 150.

تَعالى: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾؛ لأنَّهُ عَطاءٌ مِن رَفيعِ الشَّأنِ، فشُبِّهَ بِالنّازِلِ مِن عُلوٍّ[1]، ففي الفِعْلِ (يَتَنَزَّلُ) اسْتِعارَةٌ تصريحيَّةٌ تَبعيَّةٌ بتشبيه إيجادِ الأشياءِ والتَّمكُّنِ مِنَ الانتفاعِ بها على قدْرِها بالمطرِ الَّذي ينزلُ بقدرِه، كَما تُشيرُ إلى رِفْعَةِ قَضيَّةِ الرِّزْقِ، بِنِسْبَتِها إلى المُتَعالي الجَبّارِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ ﴿يُنَزِّلُ﴾:

خَزائِنُ اللهِ مَلْأى بِـواسِـعِ فضْلِه، وعَطاؤُهُ لا يَنْفَدُ

جاءَ الفِعْلُ ﴿يُنَزِّلُ﴾ على صيغَةِ المُضارَعَةِ؛ للدَّلالَةِ على التَّجَدُّدِ الاسْتِمراريِّ، فخَزائِنُ اللّه تعالى مَلْأى بواسِعِ فضْلِه، فيَجودُ على عِبادِهِ بالخَيْرِ والرِّزْقِ في كُلِّ وقْتٍ وحينٍ، بِمقْدارٍ مَعْلومٍ عِنْدَهُ، وهو تعالى أعْلَمُ بالحِكْمَةِ والمَصْلَحَةِ في مِقْدارِ كلِّ ما يُنَزِّلُهُ، وقَد أَوْضَحَ هَذا في غَيْرِ هَذا المَوْضِعِ، كَقَوْلِه تَعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ٢١﴾ [الحجر: 21][2]، وكذلكَ ليدركَ النّاسُ قيمةَ الامتنانِ به عند ضيقِ الرِّزْقِ أو فقْدِه؛ إذ إدراكُ النِّعمةِ عند فقْدِها أشدُّ، فيُجَدِّدوا شُكْرَ النِّعْمَةِ.

سِرُّ تَقْييدِ الفِعْلِ بِـ ﴿بِقَدَرٍ﴾:

الرِّزْقُ أمرٌ مُقَدَّرٌ مَحْتومٌ

قَيَّدَ البَيانُ القُرْآنيُّ تَنْزيلَ الرِّزْقِ بِشِبْهِ الجُملَةِ ﴿بِقَدَرٍ﴾، أيْ: بِتَقْديرٍ لَهم جُملَةً، ولِكُلِّ واحِدٍ مِنهم، لا يَزيدُ عَنْ تَقْديرِه ذَرَّةً، ولا يَنْقُصُها[3]، وفي هَذا القَيْدِ بَيانٌ لِحِكْمَتِه تعالى ؛ إذ عَرَفَ في سابِقِ عِلْمِه ما يَؤولُ إلَيْه أَحْوالُهُم، فيُقَدِّرُ لَهُم ما هوَ أَصْلَحُ لَهُم وأقْرَبُ إلى جَمعِ شَمْلِهم، فيُفْقِرُ، ويُغْني، ويَمنَعُ، ويُعْطي، ويَقْبِضُ، ويَبْسُطُ، كَما تَشاءُ الحِكْمَةُ الرَّبّانيَّةُ، ولَوْ أغْناهُم جَميعًا؛ لَبَغَوا، ولَوْ أفْقَرَهُم؛ لَهَلَكوا[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 94.

(2) الشّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 206.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 307.

(4) الطّيّبي، فتوح الغيب: 14/ 59.

مَعْنَى ﴿مَّا﴾ ودِلالَتُها في: ﴿مَّا يَشَآءُۚ﴾:

شُمولُ المَشيئَةِ الإلَهيَّةِ لِكُلِّ جوانِبِ الرِّزْقِ، فهو سبحانه محيطٌ بأُمورِ الخَلقِ

وَقَعَ فِعْلُ التَّنْزيل على الاسم المَوْصولِ ﴿مَّا﴾ في قَوْلِه: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ﴾، فهوفي مَحلِّ نَصْب مَفْعولٍ به، وعَبَّرَ بـ﴿مَّا﴾ دونَ (الَّذي)؛ للدَّلالَة على طَلاقَة المَشيئَة الإلَهيَّة؛ ذَلِكَ أنَّ ﴿مَّا﴾ تتَمَيَّزُ باتِّساعِ مَخْرَج الألِفِ في آخرها، فكانَتْ مُشاكِلَة لاتِّساعِ أجْناسِ الرِّزْقِ[1]، ففيها مِنَ العُمومِ والشُّمولِ في التَّعْبيرِ عَنْ قضيَّةِ الرِّزْقِ ما ليس في لفظِ (الَّذي)، وكَذَلِكَ فإنَّ ﴿مَّا﴾ تُفيدُ الدَّلالَةَ على تَناوُلِ مَشيئَتِه لِعُمومِ الأُمورِ الدّاخِلَةِ في قَضيَّةِ الرِّزْق، بِتَنَوُّعِها وتَعَدُّدِ أشْكالِها.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ ﴿يَشَآءُۚ﴾:

حِفْظُ اللهِ وكَلاءَتُهُ لا تَنْقَطِعُ عَنْ خَلقِهِ طَرفَةَ عَيْنٍ

جاءَ الفعلُ ﴿يَشَآءُۚ﴾ بصيغةِ المُضارَعَةِ؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ الاستِمراريِّ في قَضيَّةِ تَنْزيلِ الرِّزْقِ، فهو تعالى اللَّطيفُ بِعِبادِه، الَّذي لا تَنْقَطِعُ عَنْهُم رَحْمَتُهُ ورِعايَتِه، فهو يَكْلَؤُهُم بِحِفْظِه في كلِّ وقْتٍ وحينٍ، وقَد أفادَ التَّعْبيرُ بالفِعْلِ ﴿يَشَآءُۚ﴾ أنَّ مَشيئَتَهُ تَعالى جارِيَةٌ وفْقَ عِلْمِه وتَقْديره، وعلى ما يُيَسِّرُهُ لَهُم مِن تَرْتيبِ الأسْبابِ، على حَسَبِ مُخْتَلِفِ مَصالِحِ مَخْلوقاتِه وتَعارُضِ بَعْضِها بِبَعْضٍ، وكُلُّ ذَلِكَ تَصرُّفاتٌ وتَقْديراتٌ لا يُحيطُ بِها إلّا عِلْمُ اللّه تَعالى[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالمشيئةِ في الآيةِ:

الإرادَةُ أعَمُّ مِنَ المَشيئَةِ

آثَرَ النَّظْمُ الكَريمُ التَّعبيرَ بلفظِ المَشيئَةِ دونَ الإرادةِ في قَولِه تَبارَكَ اسْمُهُ: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ﴾؛ لِكَوْنِ المَشيئة دالَّةً على إرادَةٍ كَونيَّةٍ، وهوَ المُرادُ بيانُهُ في سياقِ الآيةِ في تَعَلُّقِ المَشيئَةِ بِتَنْزيلِ الرِّزْقِ، بِخِلافِ الإرادَةِ فإنَّها أعَمُّ مِنَ المَشيئَةِ[3]، فهي نَوعانِ: كَونيَّةٌ وشَرعيَّةٌ[4]، فلو عُبِّرَ بها؛ لالتَبَسَ الأمرُ بينَ الإرادتَيْنِ أيُّهُما المُرادُ.

---

(1) السّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 140.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 94.

(3) ابن القيم، شفاء العليل: 1/ 111.

(4) الفارابي، معجم الأدب: 3/ 420.

مَوْقِعُ جُملَةِ ﴿إِنَّهُۥ ...﴾ مِمّا قَبْلَها ودَلالَتُها:

بعْدَ بَيانِ المَشيئَةِ الإلَهيَّةِ في قَوْلِه: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ﴾ جاءَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِقَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾؛ تَعْليلًا لِبَيانِ حِكْمَةِ هَذِه المَشيئَةِ، ذَلِكَ أنَّه لَمّا كانَ أكْثَرُ النّاسِ يَقولُ في نَفْسِه: لَوْ بَسَطَ إلَيَّ الرِّزْقَ؛ لَعَمِلْتُ الخَيْرَ، وتَجَنَّبْتُ الشَّرَّ، وأصْلَحْتُ غايَةَ الإصْلاحِ، فقالَ مُعَلِّلًا ما أخْبَرَ بِه؛ لأنَّهُ يَعْلَمُ جَميعَ ظَواهِرِ أُمورِهم وحَرَكاتِهم وانتِقالاتِهم وكَلامِهم وبَواطِنِها، فيُقيمُ كُلَّ واحِدٍ فيما يَصْلُحُ لَهُ مِن فسادٍ وصَلاحٍ وبَغْيٍ وعَدْلٍ، ويُهَيِّئُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِن ذَلِكَ أسْبابَهُ[1].

تَعْليلُ تَقْديرِ الرِّزْقِ بِطَلاقَةِ المَشيئَةِ الإلَهيَّةِ، فكلُّ شَيْءٍ داخِلٌ في عِلْمِهِ تعالى

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ (إنَّ) واسْميَّةِ الجُملَةِ:

افْتَتَحَ النَّظْمُ الحَكيمُ جُملَةَ التَّعْليلِ بِـ (إنَّ) الَّتي لَم يُرَدْ مِنها تَأكيدُ الخَبَرِ في ذاتِه، ولَكِنَّها لِمُجَرَّدِ الاهْتِمامِ بالخَبَرِ، والإيذانِ بِالتَّعْليلِ؛ لأنَّ (إنَّ) في مِثْلِ هَذا المَقامِ تَقومُ مَقامَ فاءِ التَّفْريعِ، وتُفيدُ التَّعْليلَ والرَّبْطَ، فالجُملَةُ في تَقْديرِ المَعْطوفَةِ بالفاءِ[2]، وكَذَلِكَ فقَدْ أفادتِ الجُملَةُ الاسميَّةُ تَأكيدَ المَعْنَى وثَباتَه ودَوامَ عِلْمِه تعالى.

تَعَدُّدُ المُؤَكِّداتِ حَتَّى لا تَبْقَى رِيبَةٌ في دِقَّةِ المَشيئَةِ الإلَهيَّةِ

الغَرَضُ مِنْ تَقْييدِ الخَبَرِ بِشِبْهِ الجُملَةِ ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ والغَرَضُ مِنْ تَقْديمِها:

قَيَّدَ النَّظْمُ الحَكيمُ الخَبَرَ ﴿خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ بِشِبْهِ الجُملَةِ ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾، وكانَ مِنَ المُمكِنِ عدمُ التَّقْييدِ بِها، فيقولَ: (إنَّه خبيرٌ بصيرٌ)؛ لِبَيانِ شُمولِ عِلْمِه وإحاطَتِه بأحْوالِهم فيما تُحَدِّثُهُم به نُفوسُهُم في أمرِ الرِّزْقِ، وقَدَّمَ القَيْدَ بِشِبْهِ الجُملَةِ ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ على الخَبَرِ لإفادَةِ الاهتمامِ بهم، ولِبَيانِ رَأفَتِه بِهِم تعالى.

إحاطَةُ عِلمِ اللهِ بِعِبادِه، وشُمولِهِم بِرأفَتِه ورَحْمَتِه

دَلالَةَ إيثارِ التَّعْبيرِ بِـ﴿خَبِيرُۢ﴾:

آثَرَ البَيانُ القُرْآنيُّ التَّعْبيرَ باسمِ اللهِ الخَبيرِ؛ إشارَةً إلى أنَّه تعالى هوَ العالِمُ بِما كانَ وما يَكونُ، وأنَّهُ هوَ الَّذي أحاطَ عِلْمُهُ

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 307.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 94.

بالظَّواهرِ والبَواطِنِ، والإسْرارِ والإعْلانِ، وبالواجباتِ والمُسْتَحيلاتِ والمُمكِناتِ، وبالعالَمِ العُلْويِّ والسُّفْليِّ، وبالماضي والحاضِرِ والمُسْتَقْبَلِ، فلا يَخْفَى عَلَيْه شَيْءٌ مِنَ الأشْياءِ[1]، فكانَ مِنْ تَمامِ المُناسَبَةِ التَّعْبيرُ باسمِ اللهِ الخَبيرِ فيما يَتَعَلَّقُ بأمرِ الرِّزْقِ لِتَحَيُّرِ البَشَرِ في أمرِه، فكانَ في اسْمِ اللهِ الخَبيرِ ما يُطَمئِنُ قُلوبَهُم وعُقولَهُم.

في اسْمِ اللهِ الخَبيرِ مِنَ الدَّلالاتِ ما يُطَمئِنُ قُلوبَ البَشَرِ بِشَأنِ أرْزاقِهِم

الغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِ ﴿خَبِيرُۢ﴾:

جاءَ خَبَرُ (إنَّ) في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ نَكِرَةً للتَّعْظيمِ؛ لِبَيانِ مَدَى عَظَمَةِ عِلْمِ اللهِ تعالى، ولإفادَةِ شمولِ العِلْمِ الإلَهيِّ لِكلِّ ما يتَعَلَّقُ بِقَضيَّةِ الرِّزْقِ، وبما يدورُ في نفوسِهِم مِنْ هواجِسَ بِشَأنِها، فلا يَعْزُبُ عَنْهُ منها شيءٌ، فهوَ تعالى ذو خَبَرٍ بِهِم، وذو عِلْمٍ، يَعْلَمُ مَنْ يُصْلِحُهُ التَّضْييقُ، وتُفْسِدُهُ السَّعَةُ في الرِّزْقِ، ومَنْ يُفْسِدُهُ التَّضْييقُ، وتُصْلِحُهُ السَّعَةُ، فيُعْطي كُلًّا على قَدْرِ ما يُصْلِحُهُ[2].

لا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِ اللهِ شَيْءٌ مِمّا يَدورُ في نفوسِ عِبادِهِ

سِرُّ اقْتِرانِ ﴿بَصِيرٞ﴾ بِـ﴿خَبِيرُۢ﴾:

قَرَنَ البيانُ القُرْآنيُّ بَيْنَ صِفَتَيْنِ مِنْ صِفاتِ اللهِ تعالى هُما ﴿خَبِيرُۢ﴾ و﴿بَصِيرٞ﴾، فالخَبيرُ: العالِمُ بالأخْبارِ، والبَصيرُ: العالِمُ بالمُبْصَراتِ، وهَذانِ الاسمانِ الجَليلانِ يَرْجِعانِ إلى مَعْنى بَعْضِ تَعَلُّقِ العِلْمِ الإلَهيِّ[3]، واقْتِرانُ (الخبير) مع (البصير) يُفيدُ شُمولَ عِلْمِ اللهِ تَعالَى لِلْبَواطِنِ والحَقائِقِ، وكَذَلِكَ لِلذَّواتِ والمَشاهِداتِ والمُبْصَراتِ.

شُمولُ العِلْمِ الإلَهيِّ بِكُلِّ شَيْءٍ

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

البَغْي والظُّلم:

تَشْتَمِلُ مادَّةُ البَغْيِ على مَعْنَى التَّجاوُزِ؛ لأنَّهُ تَعَدٍّ وتَزايُدٌ، وفيه

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خبر)، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 268.
(2) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 10/ 6592.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 94.

البَغْيُ أشَدُّ مِنَ الظُّلْمِ وأخَصُّ مِنْهُ، والظُّلْمُ أدْنَى مِنَ البَغْيِ، وإنْ كانَ أعَمَّ مِنْهُ

كذَلِكَ مَعْنَى البَطَرِ والكِبْرِ[1]، وأصْلُهُ في العَرَبيَّةِ شِدَّةُ الطَّلَبِ لِما لَيْسَ بِحَقٍّ تَغْليبًا، فالبغيُ بِغَيْرِ الحَقِّ إرادَةُ التَّرَؤُّس على النّاسِ بِالغَلَبَةِ والاسْتِطالَةِ، وأمّا أصلُ الظُّلمِ؛ فهوَ نُقْصانُ الحَقِّ، ووَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِه تَعَدّيًا، وحَجْبُ ما يَنْبَغي، أوْ ما يُسْتَحَقُّ، أيْ: مَنْعُهُ أوِ انْتِقاصُهُ[2]، فالظُّلْمُ إذًا هوَ المَيْلُ عَنِ القَصْدِ، والتَّعَدّي سَواءٌ أكانَ صَغيرًا أم كَبيرًا، ويَتَراوَحُ الظُّلْمُ ما بَيْنَ أكْبَرِ الكَبائِرِ، وهوَ الشِّرْكُ بِاللّٰه، وبَيْنَ ارْتِكابِ صَغائِرِ الذُّنوبِ، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ البَغْيَ أشَدُّ مِنَ الظُّلْمِ؛ لأنَّهُ يَتَضَمَّنُ كُلَّ أنْواعِ الظُّلْمِ والتَّعَدّي والكِبْرِ مَعًا، والظُّلْمُ أدْنَى مِنَ البَغْيِ لِتَفاوُتِ دَرَجاتِه[3]، وإنْ كانَ أعَمَّ مِنْهُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بغي).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 232، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ظلم).
(3) داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن: 144 - 150.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [الشورى: 28 - 29]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بيانُ الحِكمَةِ في بسطِ الرِّزْقِ وقَبْضِه، وتعقُّبه بإنْزالِ المَطَرِ وقتَ الحاجَةِ إليه

لَمّا بَيَّنَ تَعالى أَنَّهُ لا يُعْطيهم ما زادَ على قَدْرِ حاجَتِهم؛ لِأَجلِ أنَّهُ عَلِمَ أنَّ تِلْكَ الزّيادَةَ تَضُرُّهم في دينِهم؛ بَيَّنَ أَنَّهم إذا احتاجوا إلى الرِّزْقِ؛ فإنَّهُ لا يَمنَعُهم منهُ[1]، وكانَ مِنَ النّاسِ مِمَّنْ خَذَلَهُ الإضْلالُ مَن يَقولُ: إنَّ ما النّاسُ فيه مِنَ المَطَرِ والنَّباتِ وإخْراجِ الأقْواتِ إنَّما هو عادَةُ الدَّهْرِ، فبَيَّنَ أَنَّهُ سُبْحانَهُ هو الفاعِلُ لِذَلِكَ بِقُدْرَتِه واخْتيارِه، من أَنَّهُ قَدْ يَحْبِسُ المَطَرَ عَنْ إبّانِه وإعادَتِه في وقْتِه وأوانِه؛ حَتّى يَيْأَسَ النّاسُ منهُ، ثُمَّ يُنْزِلُهُ؛ إنْ شاءَ[2]، ولَمّا كانَ إنْزالُ الغَيْثِ جامِعًا بَيْنَ كَوْنِه نِعْمَةً وكَوْنِه آيَةً دالَّةً على بَديعِ صُنْعِ اللَّه تَعالى وعَظيمِ قُدْرَتِه المُقْتَضيَةِ انفرادُهُ بالإلَهيَّةِ؛ انْتَقَلَ إلى ذِكْرِ آياتٍ دالَّةٍ على انْفِرادِ اللَّه تَعالى بالإلَهيَّةِ، وهي آيَةُ خَلْقِ العَوالِم، وما فيها مِمّا هو مُشاهَدٌ لِلنّاسِ، وهَذا الانتِقالُ اسْتِطْرادٌ واعْتِراضٌ بَيْنَ الأغْراضِ الَّتي سياقُ الآياتِ فيها[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾: (غيث) أَصْلٌ صَحيحٌ، وهوَ الحَيا النّازِلُ مِنَ السَّماءِ، يُقالُ: جادَنا غَيْثٌ، وهَذِه أَرْضٌ مَغيثَةٌ ومَغْيوثَةٌ، وغِثْنا، أيْ: أصابَنا الغَيْثُ[4]، واسْتَغاثَني فُلانٌ، فأَغَثْتُه، وقَدْ غاثَ اللَّهُ البِلادَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 599.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 310 - 312.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 97.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غيث).

يُغيثُها غَيْثًا؛ إذا أنْزَلَ بِها الغَيْثَ[1]، والغَيْثُ: الكَلأُ يَنْبُتُ مِنَ المَطرِ، ويُجْمَعُ على الغُيوثِ، والغياثُ: ما أغاثَكَ اللّهُ بِه[2]، والمَعْنَى المِحوريُّ ماءٌ يَنْتَشِرُ مَطَرًا أو يَتوالَى مِنْ كَثْرَتِه[3]، والغَوْثُ يقال في النُّصرة[4]، والمُرادُ بالغَيْثِ هَهُنا: المَطَرُ، وسُمّيَ غَيْثًا؛ لأنَّهُ يُغيثُ الخَلْقَ[5].

2) ﴿قَنَطُواْ﴾: (قنط) كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ على اليَأسِ مِنَ الشَّيْءِ[6]، والقُنوطُ: الإياسُ من الخيرِ، ويُقالُ: شَرُّ النّاسِ الَّذين يُقَنِّطون النّاسَ من رحمةِ اللّه، أي: يُؤَيِّسونَهُم[7]، وقَنَط يَقْنِطُ ويَقْنُطُ قُنوطًا، وقَنِطَ قَنَطًا، وهوَ قانِطٌ: يَئِسَ[8].

3) ﴿ٱلْوَلِيُّ﴾: (ولي) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ، ومِنْ ذَلِكَ الوَلْيُ: القُرْبُ[9]، والمَعْنَى المِحوريُّ لُزومُ الشَّيْءِ شَيْئًا آخَرَ تَبَعًا لَهُ مَعَ نَحْوٍ مِنَ الاشْتِمالِ[10]، والوَليُّ اسمٌ مِنْ أسْماءِ اللّه الحُسْنَى: هوَ النّاصر، وقيلَ: المُتَوَلّي لأُمورِ العالَم والخَلائق القائِمُ بها، ووِلايَتُهُ تعالى وِلايَتانِ: عامَّةٌ وخاصَّةٌ، فالوَلايَةُ العامَّةُ: تَوَلّي اللّه الخَلْقَ بالمُلْكِ، والتَّدْبيرِ، والتَّقْديرِ، والوَلايَةُ الخاصَّةُ: تَوَلِّي اللّه المُؤْمِنينَ بالمَحَبَّةِ، والتَّوْفيقِ، والنَّصْرِ، والتَّأييدِ، ونَحْوِ ذَلِكَ[11].

4) ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: (حمد) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ وأصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ، يُقالُ: حَمِدْتُ فُلانًا أحْمَدُهُ، ورَجُلٌ مَحْمودٌ ومُحَمَّدٌ؛ إذا كَثُرَتْ خِصالُهُ المَحْمودَةُ غَيْرُ المَذْمومَةِ[12]، والحَمدُ للّه تَعالَى: الثَّناءُ عَلَيْهِ بالفَضيلَةِ، وهوَ أخَصُّ مِنَ المَدْحِ، وأعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ[13]، ومَعْنَى اسم اللّه الحَميد، أي: هوَ المَحْمودُ عِنْدَ خَلْقِهِ بما أوْلاهُم مِنْ نِعَمِه، وبَسَطَ لَهُم مِنْ فضْلِه، وهوَ الَّذي اسْتَوْجَبَ الحَمدَ مِنَ الخَلْقِ بِصَنائِعِه الحَميدَةِ إلَيْهم وآلائِه الجَميلَةِ لَدَيْهم[14]،

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (غيث).
(2) الخليل، كتاب العين: (غيث).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غيث).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (غوث).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 28.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قنط).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (قنط).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (قنط).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).
(11) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (ولي).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمد).
(13) الرّاغب، مفردات القرآن: (حمد).
(14) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 4/ 711، و7/ 579.

وهوَ المَحْمودُ الَّذي اسْتَحَقَّ الحَمدَ بِأفْعالِه، وهوَ فعيلٌ بِمَعْنَى: مَفْعولٍ، وهوَ الَّذي يُحْمَدُ في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ، وفي الشِّدَّةِ والرَّخاءِ؛ لأنَّهُ حَكيمٌ لا يَجْري في أفْعالِهِ الغَلَطُ، ولا يَعْتَرِضُهُ الخَطَأُ، فهوَ مَحْمودٌ على كُلِّ حالٍ[1].

5) ﴿بَثَّ﴾: (بثث) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ تَفْريقُ الشَّيءِ وإظْهارُهُ، واللَّهُ تَعالَى خَلَقَ الخَلْقَ، وبَثَّهُم في الأَرْضِ لِمَعاشِهِم، أي: فرَّقَهُم، وبَثَثْتُ الحَديثَ، أيْ: نَشَرْتُهُ، وأمّا البَثُّ مِنَ الحُزْنِ؛ فمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا؛ لأنَّهُ شَيْءٌ يُشْتَكَى، ويُبَثُّ، ويُظْهَرُ[2]، وبَثَّ الشَّيءَ والخَبَرَ يَبُثُّه، ويَبِثُّه بَثًّا، وأبَثَّه، بِمَعْنَى، فانْبَثَّ: فرَّقه، فتَفرَّقَ[3]، والمَعْنَى المِحوريُّ نَشْرُ ما كانَ مُجْتَمِعًا مُنْضَمًّا وتَفْريقُهُ[4]، ووضْعُ الأشْياءِ في أمكِنَةٍ كَثيرَةٍ[5]، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ إشارَةٌ إلى إيجادِه تَعالَى ما لَم يَكُنْ مَوْجودًا وإظْهارِه إيّاهُ[6].

6) ﴿دَآبَّةٍ﴾: (دبب) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ مُنْقاسٌ، وهوَ حَرَكَةٌ على الأَرْضِ أَخَفُّ مِنَ المَشْيِ، تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكُلُّ ما مَشَى على الأَرْضِ مِنَ الحيوانِ؛ فهوَ دابَّةٌ[7]، وهوَ اسمٌ لكلِّ حَيَوانٍ مُمَيَّزٍ وغيرِه، لِما يَعقل ولِما لا يَعقل[8]، وقيلَ: هو اسْمٌ لِما يُرْكَبُ، وتَصْغيرُها دوَيبَّةٌ، الياءُ ساكِنَةٌ وفيها إشْمامٌ مِنَ الكَسْرَةِ[9]، والمُرادُ بها في الآيَة، أيْ: شَيْءٌ فيه أهْلِيَّةُ الدَّبيبِ بِالحَياةِ مِنَ الإنسِ والجِنِّ والمَلائِكَةِ وسائِرِ الحَيَواناتِ على اخْتِلافِ أصْنافِهم وأَلْوانِهم وأشْكالِهِم[10].

7) ﴿جَمْعِهِمْ﴾: (جمع) أَصْلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على تَضامِّ الشَّيْءِ[11]، يُقالُ: جَمَعَ الشَّيءَ عَنْ تَفْرِقةٍ يَجْمَعُه جمعًا وجَمَّعَه وأجْمَعَه[12]، فالجَمْعُ: ضَمُّ الشَّيْءِ بِتَقْريبِ بَعْضِه مِن بَعْضٍ[13]،

(1) الخطابي، شأن الدّعاء، ص: 78.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بثث).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بثث).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بثث - بثبث).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 97.
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بثث - بثبث).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دب).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (دب).
(9) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (دب).
(10) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 313.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(13) الرّاغب، مفردات القرآن: (جمع).

والمَعْنَى المِحوريُّ: تَضامُّ أشْياءَ مُتَجانِسَةٍ كَثيرَةٍ تَلاقيًا أوْ تَلاحُمًا أوْ تَراكُمًا[1]، والمُرادُ بِجَمعِهِم في الآيةِ: حَشْرُهم بَعْدَ البَعْثِ لِلْمُحاسَبَةِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنْ دَلائِلِ قُدْرَةِ الله إنْزالُ المَطَرِ، وخَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ، وجَمعُ الخَلْقِ للحِسابِ

ساقَتِ الآيَتانِ الكَريمَتانِ ألْوانًا مِنْ نِعَمِ اللّه تعالى على عِبادِه، وكُلُّها تَدُلُّ على وحْدانيَّتِه وكَمالِ قُدْرَتِه، فمِنْها أنَّهُ تعالى هوَ الَّذي يُنَزِّلُ المَطَرَ على عِبادِه، مِنْ بَعْدِ أنِ انْتَظَروهُ فتْرَةً طَويلَةً، حَتَّى ظَهَرَتْ على مَلامِحِهِم عَلاماتُ اليَأسِ، وبَدَتْ على وُجوهِهِم أماراتُ القُنوطِ، فيُنَزِّلُ الأمطارَ بَعْدَ يَأسِ النّاسِ مِنْ نُزولِها، ويَنْشُرُ رَحْمَتَهُ عَلَيْهِم عَنْ طَريقِ ما يَنْتُجُ عَنْ هَذِه الأمطارِ مِنْ خَيْراتٍ وبَرَكاتٍ وأرْزاقٍ، فهوَ تعالى الَّذي يَتَوَلَّى عِبادَهُ بِرَحْمَتِه وإحْسانِه، وهوَ كَذَلِكَ الحَميدُ، أي: المَحْمودُ على فِعْلِه، حَيْثُ أنْزَلَ على عِبادِه الغَيْثَ بَعْدَ أنْ يَئِسوا مِنْهُ، ثُمَّ بَيَّنَ اللّهُ تَبارَكَتْ آلاؤُهُ لَوْنًا آخَرَ مِنْ ألْوانِ كَمالِ قُدْرَتِه، ومِنْها العَلاماتُ النّاصِعَةُ الدّالَّةُ على كَمالِ قُدْرَتِه، كَخَلْقِه لِلسَّماواتِ ولِلأرْضِ بِتِلْكَ الصّورَةِ الباهِرَةِ البَديعَةِ التي نُشاهِدُها بِأعْيُنِنا، وخَلْقِه أيْضًا لِما بَثَّ فيهِما مِنْ دابَّةٍ، ولِما نَشَرَ، وفَرَّقَ فيهِما مِنْ دوابَّ، لا يَعْلَمُ عَدَدَها إلّا اللّه تَعالَى، ثُمَّ انْتَقَلَ النَّظْمُ للتَّذْكيرِ بِآيَةٍ أُخْرَى مِنْ آياتِ قُدْرَتِه الباهِرَةِ، وهيَ أنَّهُ تعالى قادِرٌ قُدْرَةً تامَّةً على جَمعِ الخَلائِقِ يَوْمَ القيامَةِ لِلْحِسابِ والجَزاءِ، فهيَ آيَةٌ أُخْرَوِيَّةٌ غَيْبِيَّةٌ، في مُقابِلِ الآياتِ الدُّنْيَوِيَّةِ المُشاهَدَةِ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الانْتِقالُ مِنَ الحَديثِ عنِ الرِّزْقِ إجْمالًا، إلى بَيانِ أهَمِّ أنْواعِه تَفْصيلًا

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَهُوَ﴾ وعِلَّةُ الوَصْلِ:

عَطَفَ النَّظْمُ الجَليلُ بالواوِ المُفيدَةِ للاستِئْنافِ جُملَةَ: ﴿وَهُوَ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جمع).

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 40.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 36 - 37.

﴿ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾، على جُملَةِ: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾؛ فإنَّ الغَيْثَ سَبَبُ رِزْقٍ عَظيم، وهو ما يُنَزِّلُهُ اللّٰه بِقَدَرٍ هو أعْلَمُ به، وفيه تَذْكيرٌ بِهَذه النِّعْمَةِ العَظيمَةِ على النّاسِ الَّتي منها مُعْظَمُ رِزْقِهِمُ الحَقيقيِّ لَهُم ولأنْعامِهِم[1]، فجاءَ العَطْفُ بَيْنَ الجُملَتَيْنِ للتَّوَسُّطِ بَيْنَ الكَمالَيْنِ، ووُجِدَتْ بَيْنَهُما الرَّوابِطُ المَعْنَوِيَّةُ المُسَوِّغَةُ للعَطْفِ[2]، فهَذِه الجُملَةُ مِنْ تَمامِ مَعْنَى الجُملَةِ السّابِقَةِ؛ لأنَّها تُفيدُ أنَّ الرِّزْقَ في يَدِه تعالى ؛ لأنَّ الغَيْثَ هوَ الرِّزْقُ، وقَدْ سَمَّى اللّٰهُ الغَيْثَ رِزْقًا في قَوْلِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾[3]، فجُملَةُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ تَفْصيلٌ لِضَرْبٍ مِنْ ضُروبِ الرِّزْقِ، وهوَ الغَيْثُ، بَلْ هو أهَمُّ ضُروبِه؛ إذْ به تَقومُ الحَياةُ بِكُلِّ ما فيها مِنْ حَرَكَةٍ ونَماءٍ.

سِرُّ الوَصْلِ بِالمُضْمَرِ (هوَ):

افْتَتَحَ البَيانُ القُرْآنيُّ الآيَةَ بَعْدَ الواوِ بالضَّميرِ (هوَ) عَطْفًا على ما سَبَقَ، ويَجوزُ لُغَةً التَّعْبيرُ بِلَفْظِ الجَلالَة، لَكِنَّهُ أرادَ أنْ تَرْتَبِطَ هَذه الآيَةُ مَعَ الآيَةِ السّابِقَةِ؛ لِما بَيْنَهُما مِنْ تَعالُقٍ؛ فإنَّ هَذه الجُملَةَ مُتَّصِلَةٌ بما أوْرَدَهُ سُبْحانَهُ مِنْ تَنْزيلِ الرِّزْقِ بِحِكْمَةٍ مُقَدَّرَةٍ تَقْديرًا دَقيقًا، فالضَّميرُ يَدْعَمُ العَلاقَةَ التَّرْكيبيَّةَ بَيْنَ الجُملَتَيْنِ في بَيانِ اقْتِدارِ اللّٰه تعالى، ويُفَصِّلُ الحَديثَ حولَ هَذه النِّعْمَةِ.

في تَعالُقِ الجُملَتَينِ بَيانٌ لِتَقْديرِ الرِّزْقِ مِنْ جِهَةٍ، وإغاثَةِ الله للخَلْقِ مِنْ جِهَةٍ أخْرَى

فائِدَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ بِالاسْمِ المَوْصولِ:

بَعْدَ أنِ اسْتَهَلَّ النَّظْمُ بِالضَّميرِ (هوَ)، أرْدَفَهُ بالمُسْنَد، فجاءَ به اسْمًا مَوْصولًا، وفائِدَةُ ذِكْرِه على هَذا النَّمَطِ أنَّ فيه تَشْويقًا، وإثارَةً لِلنَّفْسِ في مَعْرِفَةِ جُملَةِ الصِّلَةِ؛ فإنَّ الاسْمَ المَوْصولَ لا يُدْرَكُ مَعْناهُ

تَشْويقُ السّامِعينَ لنعمةٍ عُظْمَى مِنْ نِعَمِ رَبِّ العالَمينَ هي نَعْمَةُ إنْزالِ الغَيْثِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 95.

(2) فيود، علم المعاني، ص: 475.

(3) أبو موسى، آل حم، ص: 151.

إلّا بِجُملَةِ الصِّلَةِ، فجاءَ بَعْدَهُ قَوْله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِمَا قَنَطُواْ﴾ موَضِّحًا نِعْمَةً مِنْ أَجَلِّ نِعَمِ الله على عِبادِه، وهِي إنْزالُ الغَيْثِ.

الغَرَضُ مِنْ تَعْريفِ المُسْنَدِ إلَيْه والمُسْنَدِ في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

اخْتِصاصُ اللهِ وحْدَهُ بِإنْزالِ الغَيْثِ دافِعٌ لِشُكْرِه والاعْتِرافِ بِفَضْلِه تعالى

جاءَ النَّظْمُ بِتَعْريفِ طرفَيِ الإسْنادِ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ اللّهَ وحْدَهُ دونَ سِواهُ، هوَ الَّذي يُنَزِّلُ الغَيْثَ، وفي هَذا الإسْنادِ قَصْرٌ حَقيقيٌّ مِنْ بابِ قَصْرِ الصِّفَةِ على المَوْصوفِ، وهوَ قَصْرٌ مُسْتَفادٌ مِنْ تَعْريفِ طرفَيِ الإسْنادِ بِذِكْرِ ضَميرِ الفَصْلِ والاسْمِ المَوْصولِ.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِأُسْلوبِ القَصْرِ بِطَريقِ تَعْريفِ الطَّرَفَيْنِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ﴾:

إنْزالُ الغيثِ حَقيقَةٌ إلَهيَّةٌ راسِخَةٌ، لا يُنْكِرُها إلّا الجاحِدونَ أوِ الغافِلونَ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بالاسْمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ جَرْيًا على طَريقَةِ القُرْآنِ في الحَديثِ عَنِ الأحْداثِ الَّتي لا تَحْدُثُ إلّا بإرادَةِ اللّه، لِما في ذَلِكَ مِنَ الدَّلالَةِ على الاخْتِصاصِ، فمَجيءُ المُسْنَدِ اسْمًا مَوْصولًا؛ لإفادَةِ اتِّصافِ اللّه تَعالى بمَضْمونِ صِلَتِه، وأنَّهُ شَأنٌ مِن شُؤونِ اللّه تَعالى، فهوَ ثابِتٌ لَهُ لا يَتَخَلَّفُ عَنْه؛ لأنَّهُ المُناسِبُ لِقُدْرَتِه وعظَمَةِ شَأنِه وغِناهُ عَنْ خَلْقِه[1]. فلَيْسَ هُناكَ مَنْ يُنَزِّلُ الغَيْثَ بَعْدَ القُنوطِ إلّا اللّه ﷻ، كَما أشارَ اسْتِخْدامُ الاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِه إلى أنَّ إنْزالَ الغَيْثِ أمرٌ مَعْروفُ النِّسْبَةِ لَهُ تعالى مَشْهورٌ بِأنَّهُ مِنْ آثارِ رَحْمَتِه، فلا يُنْكِرُ هَذه النِّعمةَ إلّا الجاحِدونَ، فصيغَةُ القَصْرِ في قَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ تُفيدُ قَصْرَ القَلْبِ؛ لأنَّ في السّامِعينَ مُشْرِكينَ يَظُنّونَ نُزولَ الغَيْثِ مِن تَصَرُّفِ الكَواكِبِ، وفيهِمُ المُسْلِمونَ الغافِلونَ، نُزِّلوا مَنزِلَةَ مَن يَظُنُّ نُزولَ الغَيْثِ مَنوطًا بالأسْبابِ المُعْتادَةِ لِنُزولِ الغَيْثِ؛ لأنَّهم كانوا في الجاهِليَّةِ يَعْتَقِدونَ أنَّ المَطَرَ مِن تَصَرُّفِ أنْواءِ الكَواكِبِ، فهَذا القَصْرُ بالنِّسْبَةِ لِلْمُشْرِكينَ قَصْرُ قَلْبٍ أصْليٌّ، وهو بالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمينَ قَصْرُ قَلْبٍ تَنْزيليٌّ[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 89.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 95.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِمادَّةِ ﴿يُنَزِّلُ﴾:

استِئْثارُ اللهِ بأمرِ الرِّزْقِ مِنَ الأُمورِ العَلِيَّةِ، حتَّى لا تَضِلَّ فيها أفْهامُ البَرِيَّةِ

عَبَّرَ النَّظْمُ عَنْ إغاثَةِ اللّه تعالى للخَلْقِ بالغَيْث بِفِعْلِ ﴿يُنَزِّلُ﴾؛ إذِ الأَصْلُ في النُّزولِ انحِطاطٌ من عُلوٍّ[1]، ففيه إشارَةٌ إلى أنَّ الغَيْثَ في السَّماءِ، وأنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْكُم مِنْ عُلوٍّ مِنْ عِنْدِ خالِقِكُم، وعَلْياؤُهُ سُبْحانَهُ عَلْياءُ مَكانَةٍ، ولَيْسَتْ عُلوَّ مَكانٍ، وفيه كَذلِكَ رَبْطٌ بَيْنَ تَنَزُّلِ الغَيْثِ وتَنَزُّلِ الرِّزْقِ في الآيَةِ السّابِقَةِ، كَما أفادَ التَّعبيرُ بالإنْزالِ الإشْعارَ بتفضُّلِ اللّه تعالى وظهورِ مِنَّتِه على النّاسِ، فالتَّنْزيلُ على معنى الإغاثَةِ والإنْعام.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بـ﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾ دونَ (المَطَرِ):

خَصَّصَ القُرآنُ لَفْظَ المَطَرِ للعَذابِ، ولَفْظَ الغَيْثِ للخَيْرِ والبَرَكَةِ والنَّماءِ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بِكَلِمَةِ ﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾ دون كَلِمَةِ (المَطَرِ)؛ لأنَّ كَلِمَةَ الغَيْثِ، وإنْ كانَتْ قَريبَةَ الدَّلالَةِ مِنْ كَلِمَةِ المَطَرِ مِنْ حَيْثُ المَعْنَى العامُّ؛ فإنَّها مَخْصوصَةٌ بالنّافِعِ مِنَ المَطَرِ[2]، وعلى هَذا المَعْنَى جَرَى النَّظْمُ القُرآنيُّ[3].

دَلالَةُ التَّعْريفِ في المَفْعولِ بِه ﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾:

الغَيْثُ إمّا مُطْلَقُ الغَيْثِ، أوِ الغَيْثُ المَعْهودُ لَهُم

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾ في الآيَةِ مُعَرَّفَةً باللّامِ، واللّامُ هَهُنا إمّا أنْ تَكونَ جِنْسِيَّةً، تُشيرُ إلى جِنْسِ الغَيْثِ، أيْ: مُطْلَقِه، وإمّا أنْ تَكونَ للعَهْدِ الذِّهْنيِّ، أي: هوَ الغَيْثُ الَّذي عَهِدتُم آثارَهُ في إحياءِ الأرْضِ وإنْباتِ العُشْبِ والكَلَأ، فهوَ المَطَرُ الَّذي يُغاثُ به النّاسُ، فيُجابونَ إلى ما سَألوا، ويُغاثونَ ظاهِرًا، كَما يَنْزِلُ الوَحْيُ الَّذي يُغاثونَ بِه ظاهِرًا وباطِنًا[4].

مَعْنَى مِنْ ودَلالَتُها في: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾:

جاءَتْ ﴿مِنۢ﴾ لابْتِداءِ الغايَةِ؛ لأنَّ من تَمامِ حِكْمَةِ اللّه تعالى أنْ يبتَدِئَ إنْزالَ الغَيْثِ بَعْدَ أنْ يَبْلُغَ بالنّاسِ اليَأْسُ مَبْلَغَهُ، فيُمعِنوا في

---

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (نزل).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 32.

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مطر).

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 310.

الضَّراعَةِ والدُّعاءِ، فيَكون نزولُهُ دَليلًا بالِغًا لَهُم على وجودِ اللّٰه الواحِدِ القَهّارِ، وعادَةً ما يَكونُ ذَلِكَ لإرادَةِ الابْتِلاءِ والامتِحانِ والتَّمحيصِ، فأمّا المُصَدِّقونَ الموَحِّدونَ؛ فيَزيدُهُم نزولُ الغَيْثِ إيمانًا، وأمّا المُكَذِّبونَ والغافِلونَ اللاهونَ؛ فيَقولونَ: مُطِرْنا بِنَوْءِ كَذا، كَما جاءَ في الحديثِ القدسيِّ، فيَقولُ اللّٰه: "أَصْبَحَ مِنْ عِبادي مُؤْمِنٌ بي وكافِرٌ بي، فأمّا مَنْ قالَ: مُطِرْنا بِرَحْمَةِ اللّٰه وبِرِزْقِ اللّٰه وبِفَضْلِ اللّٰه؛ فهُوَ مُؤْمِنٌ بي كافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وأمّا مَنْ قالَ: مُطِرْنا بِنَجْمِ كَذا؛ فهوَ مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ كافِرٌ بي"[1].

ابْتِداءُ نُزولِ الغَيْثِ بَعدَ القَحْطِ ابْتِلاءٌ وامتِحانٌ وتمحيصٌ

سِرُّ تَقْييدِ الفِعْلِ بِالظَّرْفِ ﴿بَعۡدِ﴾:

قَيَّدَ النَّظْمُ الجَليلُ إِنْزالَ الغَيْثِ بالظَّرْفِ ﴿بَعۡدِ﴾؛ لِلتَّذْكيرِ بِكَمالِ النِّعْمَةِ[2]، أي: بَعْدَ أنْ يَئِسوا مِن إِنْزالِه، وعَلِموا أنَّهُ لا يَقْدِرُ على إِنْزالِهِ غَيْرُهُ، ولا يُقْصَدُ فيه سِواهُ؛ لِيَكونَ ذَلِكَ أَدْعى لَهم إلى الشُّكْرِ[3]؛ لأنَّ الفَرَحَ بِحُصولِ النِّعْمَةِ بَعْدَ البَلِيَّةِ أَتَمُّ، فكانَ إِقْدامُ صاحِبِهِ على الشُّكْرِ أَكْثَرَ[4].

إنْزالُ الغَيْثِ بَعْدَ اليَأسِ أدْعَى لاستِجْلابِ الشُّكْرِ

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿مَا﴾:

عَبَّرَ البَيانُ القُرْآنيُّ بِـ﴿مَا﴾ المَصْدَرِيَّةِ[5] مَعَ الفِعْلِ الماضي ﴿قَنَطُواْ﴾، وعَدَلَ عَنِ المَصْدَرِ الصَّريحِ (مِنْ بَعْدِ قُنوطِهم)؛ وذَلِكَ لأنَّ المَصْدَرَ المُؤَوَّلَ يَتَضَمَّنُ الدَّلالَةَ على الزَّمَنِ فضْلًا عَنِ الدَّلالَةِ على الحَدَثِ[6] ووُقوعِه مِنَ النّاسِ، وهو فِعْلُ القُنوطِ مِنْ إِنْزالِ الغَيْثِ. فكانَ التَّعْبيرُ بِـ﴿مَا﴾ المَصْدَرِيَّةِ دَلالَةً على ثُبوتِ وُقوعِ القُنوطِ مِنْهُم.

لا يَتَذَكَّرُ غالِبُ البَشَرِ رَبَّهُم إلّا في حالِ الشِّدَّةِ واليَأسِ

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، حديث رقم: (4200).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 39.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 310.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 599.
(5) الجمل، حاشية على تفسير الجلالين: 7/ 59.
(6) السّامرائي، معاني النحو: 3/ 147.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بـ﴿قَنَطُواْ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

انقِطاعُ الغَيْثِ مِنْ دَواعي شِدَّةِ اليَأسِ، فهو دَليلٌ على حُصولِ الضُّرِّ والبَأسِ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بِمادَّةِ القُنوطِ دونَ (اليَأسِ)؛ لِما فيها مِنَ الدَّلالَةِ على انْقِطاعِ الأمَلِ بالكُلِّيَّةِ؛ إذْ لا يُقال: قَنَطَ إلّا إذا اشتدَّ يَأسُهُ مِنَ الشَّيْءِ[1]، وقيلَ: اليَأسُ: هو قَطْعُ الرَّجاءِ والأمَلِ مِنْ تَحْقيقِ أمرٍ مُعيَّنٍ، وهوَ شُعورٌ يَنْشَأُ في القَلْبِ والعَقْلِ، وأمّا القُنوطُ؛ فهوَ تأثيرُ اليَأسِ عِنْدَما يَظْهَرُ على بَدَنِ الإنسانِ بِشَكْلٍ ظاهرٍ في مَلامِحِه وتَصَرُّفاته[2]، وعَبَّرَ بِصيغَةِ المُضيِّ؛ للدَّلالَةِ على تَحَقُّقِ وُقوعِ القُنوطِ منْهُم على جِهَةِ الثَّباتِ واليَقينِ، فلا يُنْكِرُ أحَدٌ مِنْهُم ما أصابَهُ مِنْ غَمٍّ وهَمٍّ بِسَبَبِ انْقِطاعِه.

دَلالَةُ العَطْفِ في: ﴿وَيَنشُرُ﴾:

في نَشْرِ الغَيْثِ بَيانٌ لِمَزيدِ العِنايَةِ، فإذا لم يُنْشَرْ؛ لَقَلَّ الانْتِفاعُ بِه، ولمْ تَتَحقَّقِ الغايَةُ

عَطَفَ البَيانُ القُرآنيُّ جُملَةَ: ﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾ على جُملَةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾؛ لِبيانِ مَزيدِ الامتِنانِ بإنْزالِ الغَيْثِ، فإنْزالُ الغَيْثِ - في حَدِّ ذاته - نِعْمَةٌ كُبْرَى، وإنْزالُهُ بَعْدَ القُنوطِ نِعْمَةٌ أُخْرَى، ثُمَّ يأتي نَشْرُهُ بعْدَ القُنوطِ بِوَصْفِه نِعْمَةً ثالِثَةً، فلَوْ أنْزَلَهُ في مَكانٍ واحِدٍ دونَ نَشْرٍ؛ لَقَلَّ الانْتِفاعُ به، فجاءَ العَطْفُ بالنَّشْرِ لِيُبيِّنَ مزيدَ العِنايَةِ الإلَهيَّةِ بالخَلْقِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بـ (يَنْشُرُ) مادَّةً وصيغَةً:

في التَّعْبيرِ بالنَّشْرِ دَلالَةٌ على تَعْميمِ أثَرِ الغَيْثِ وظُهورِ بَرَكَتِه في كُلِّ مَظاهِرِ الحَياةِ

جاءَ التَّعْبيرُ بالفِعْلِ (يَنْشُرُ)؛ تَعْميمًا لأثَرِ الغَيْثِ على النَّباتِ وغَيْرِه، فمِنْ مَظاهِرِ رَحْمَةِ اللهِ تعالى نَشْرُ الغَيْثِ على السَّهْلِ والجَبَلِ، فيَنْزِلُ مِنَ السَّحابِ المَحْمولِ بالرّيحِ مِنَ الماءِ ما يَملَأُ الأرْضَ، بِحَيْثُ لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْه الخَلائِقُ ما أطاقوا حَمْلَهُ، فتُصْبِحُ الأرْضُ ما بَيْنَ غُدْرانٍ وأنْهارٍ، ونَباتٍ ونَجْمٍ وأشْجارٍ، وحَبٍّ وثِمارٍ، وغَيْرِ ذلِكَ مِنَ المَنافِعِ الصِّغارِ والكِبارِ، فما أجْلَفَ مَنْ يُنْكِرُ إخْراجَهُ

---

(1) النّحاس، معاني القرآن: 6/ 314.

(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 5 - 6.

المَوْتى مِنَ القُبورِ، أوْ يَحيدُ مِن ذَلِكَ بِنَوْعٍ مِنَ الغُرورِ[1]، وأتى بِصيغَةِ المُضارَعَةِ لإفادَةِ التَّجَدُّدِ الاسْتِمراريِّ في نَشْرِ آثارِ الرَّحْمَةِ الإلَهيَّةِ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في: (يَنْشُرُ):

امتِدادُ آثارِ الرَّحْمَةِ إلى نُفوسِ العِبادِ بَعْدَ الضّيقِ والكَرْبِ والعُبوسِ

أتَى البَيانُ القُرْآنيُّ بالفعلِ (يَنْشُرُ) على طريقِ الاسْتِعارَةِ، لإفادَةِ مَعْنَى التَّوْسيعِ والامتِدادِ في أثَرِ الغَيْثِ ومَنافِعِه[2]، فالمُتأمِّلُ في هَذه الآيَةِ الكَريمَةِ يَراها تصوِّرُ جانِبًا مِنْ فضْلِ اللّه على عِبادِه بطَريقَةٍ مَحْسوسَةٍ، فالتَّعْبيرُ بالغَيْث يُشْعِرُ بالغَوْثِ والنَّجْدَةِ بَعْدَ أنْ فقدَ النّاسُ الأمَلَ في ذَلِكَ، والتَّعْبيرُ بِالقُنوطِ يُشْعِرُ بِأنَّ آثارَ الضّيقِ قَدْ ظَهَرَتْ على وُجوههم، والتَّعْبيرُ بقَوْلِه تَعالَى: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، يُشْعِرُ بانْتِشارِ الرَّجاءِ والفَرَحِ والانْشِراحِ على الوُجوه بَعْدَ أنْ حَلَّ بِها القُنوطُ[3].

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالمَجازِ المُرْسَلِ في: ﴿رَحْمَتَهُۥ﴾:

بعدَ القَحْطِ والكَرْبِ والظَّلامِ يأتي النّورُ والضّياءُ والنَّماءُ

جاءَ النَّظْمُ الكَريمُ بِنَشْرِ الرَّحْمَةِ بعدَ ذِكرِ إنْزالِ الغيثِ، والظّاهرُ أنَّ المُرادَ بالرَّحْمَةِ هَهُنا: مَنافِعُ الغَيْثِ وآثارُهُ في كُلِّ شَيْءٍ مِنَ السَّهْلِ والجَبَلِ والنَّباتِ والحَيَوانِ، أوْ رَحْمَتُهُ الواسِعَةُ المُنْتَظِمَةُ لما ذُكِرَ انتِظامًا أوَّليًّا[4]، وقالَتْ فِرْقَةٌ: أرادَ بِالرَّحْمَةِ: المَطَر، وعَدَّدَ النِّعْمَةَ بِعَيْنِها بِلَفْظَيْنِ، الثّاني مِنهُما يُؤَكِّدُ الأوَّلَ، وقالَتْ فِرْقَةٌ: الرَّحْمَةُ في هَذا المَوْضِعِ: الشَّمسُ، فذَلِكَ تَعْديدُ نِعْمَةٍ غَيْرِ الأولى، وذَلِكَ أنَّ المَطَرَ إذا ألَمَّ بَعْدَ القَنَطِ؛ حَسُنَ مَوْقِعُهُ، فإذا دامَ؛ سُئِمَ، فتَجيءُ الشَّمسُ بَعْدَهُ عَظيمَةَ المَوْقِعِ[5]، فكلمةُ ﴿رَحْمَتَهُۥ﴾ كلمةٌ شامِلةٌ، وهي مَجازٌ مُرْسَلٌ عن كلِّ فعلٍ فيه خيرٌ، وفيه بَرٌّ، وفيه عطاءٌ وإحَسانٌ، ولذلك فُسِّرَتْ مرَّةً بالمطر، وهوَ صَحيحٌ أوْ بِالدِّفْءِ بعدَ نزولِ الغيث،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 310.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 95.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 36 - 37.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 39.
(5) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 36.

وهوَ صَحيحٌ، أو بِطُلوعِ الشَّمسِ بعدَ المطرِ، وهكذا، وهذِه الكلماتُ الجامعةُ من أهمِّ أدَواتِ الإيجازِ، وحينَ تقَع مَوقِعَها الأشبَه بِها تكونُ مِنَ البَلاغَةِ بِمَكانٍ(1).

صِحَّةُ التَّفسيرِ في قَوْلِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِمَا قَنَطُوا۟﴾:

الـفَـرَجُ بَـعْـدَ الشِّدَّةِ، والمَسَرَّةُ بَعْدَ الحُزْنِ مِنْ جَميلِ نِعَمِ الله

في الآيَةِ فنُّ صِحَّةِ التَّفْسيرِ، وهوَ أنْ يَأتيَ المُتَكَلِّمُ في أوَّلِ كَلامِه بِمَعْنًى لا يَسْتَقِلُّ الفَهْمُ بِمَعْرِفَةِ فحْواهُ، إمّا أنْ يَكونَ مُجْمَلًا يَحْتاجُ إلى تَفْصيلٍ أوْ موَجِّهًا يَفْتَقِرُ إلى تَوْجيهٍ، أوْ مُحْتَمِلًا يَحْتاجُ المُرادُ مِنْهُ إلى تَرْجيحٍ لا يَحْصُلُ إلّا بِتَفْسيرِه وتَبْيينِه، ووُقوعُ التَّفْسيرِ يَأتي في الكَلامِ على أنْحاءٍ تارَةً يَأتي بَعْدَ الشَّرْطِ أوْ بَعْدَ ما فيه مَعْنَى الشَّرْطِ، وطَوْرًا بَعْدَ الجارِّ والمَجْرورِ - كَما في هَذِه الآيَةِ - وقَدْ جاءَتْ صِحَّةُ التَّفْسيرِ فيها مُؤْذِنَةً بِمَجيءِ الرَّجاءِ بَعْدَ اليَأسِ، والفَرَجِ بَعْدَ الشِّدَّةِ، والمَسَرَّةِ بَعْدَ الحُزْنِ؛ لِيَكونَ ذَلِكَ أحْلَى مَوْقِعًا في القُلوبِ(2).

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾:

إثْـبـاتُ الـولايَـةِ الخالِصَةِ لله ردٌّ بالِغٌ على اتِّخاذِ الأوْلياءِ مِنْ دونِه

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ بواوِ الاسْتِئْنافِ قَوْلَه: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ على قَوْلِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِمَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾؛ ذَلِكَ أنَّهُ لَمّا أنْكَرَ عَلَيْهِم فيما مَضى اتِّخاذَ وليٍّ مِن دونِه بِقَوْلِه تَعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الشورى: 9] أثْبَتَ أنَّهُ تعالى هو الوَليُّ، وتَعَرَّفَ إلَيْهِم بِآثارِه الَّتي حَوَتْ أفانينَ أنْوارِه، وكانَتْ كُلُّها في غايَةِ الكَمالِ موجِبَةً لِلْحَمدِ المُتَواتِرِ المِنوالِ(3).

الغَرَضُ مِنَ القَصْرِ بِطَريقِ تَعْريفِ الطَّرَفَيْنِ في: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾:

آثـارُ الألُـوهـيَّـةِ نـاطِـقَـةٌ بِـعِـزِّ الوِلايَةِ لله، فهوَ الوَلِيُّ وحْدَهُ، ولا وليَّ سِواهُ

جاءَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ بِتَعْريفِ الطَّرَفَينِ، فجاءَ الطَّرَفُ الأوَّلُ (هوَ) ضَميرًا، وهوَ أعْرَفُ المَعارِفِ، وجاءَ الطَّرَفُ الثّاني مَعَرَّفًا بالألِفِ واللّامِ، وذَلِكَ لِلدَّلالَةِ على أنَّ

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 152.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 36.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 311.

مَن هَذِه أفْعالُه، فهو الَّذي يَنْفَعُ؛ إذا والَى، وتُحْمَدُ أفْعالُه ونِعَمُه، لا كالَّذي لا يَضُرُّ، ولا يَنْفَعُ مِن أوثانِكم[1].

سِرُّ الاقْتِرانِ في: ﴿ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾:

استِحْقاقُ الوِلايَةِ والحَمدِ لله بإنْعامِه على العِبادِ وإغاثَتِه إيّاهُم

قَرَنَ البَيانُ القُرْآنيُّ بَيْنَ صِفتَيِ ﴿ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ دونَ غَيْرِهما لِمُناسَبَتِهما لِلْإغاثَة، وعَبَّرَ بالوَليِّ؛ لأنَّ الوَليَّ يُحْسِنُ إلى مَواليه، ولأنَّه هوَ الَّذي يملكُ العَطاءَ والمَنْعَ، ويَملِكُ أنْ يَسوقَ السَّحابَ، وأنْ يُنَزِّلَ مِنَ السَّماءِ رزقًا، وأنْ يَضَعَ في يَدِ كُلِّ عَبْدٍ مِن عِبادِه ما يُصْلِحُ به شَأْنَهُ، ولأنَّ الحَميدَ هوَ الَّذي يُعْطي ما يُحْمَدُ عَلَيْه، وجاءَ وصْفُ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ على وزْنِ (فَعيل) بِمَعْنى مَفْعولٍ[2].

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

التَّدَرُّجُ في إثْباتِ كَمالِ الأُلوهيَّةِ مِنَ الأدِلَّةِ الجُزْئيَّةِ إلى الأدِلَّةِ الكُلِّيَّةِ الشّامِلَة

جاءَتِ الواوُ عاطِفَةً مُفيدَةً للاستِئْنافِ[3] في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فعَطَفَتْهُ على قَوْلِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾، وجاءَ العَطْفُ هَهُنا امتِدادًا لِلكَلامِ الَّذي مَضى ومُتَمِّمًا لَهُ، وبَيانُ ذَلِكَ أنَّ الكَلامَ الَّذي مَضَى هوَ بَيانٌ لِشَأنِ اللّه مَعَ عِبادِه في آخِرَتِهم وفي دُنْياهُم، بِذِكْرِ البَسْطِ في الرِّزْق، ونُزولِ الغَيْثِ مِنَ السَّماءِ، فناسَبَ ذَلِكَ أنْ يُقْرِنَ خَلْقَ السَّماواتِ والأرْضِ؛ لأنَّه بمنزلةِ الدَّليلِ الكُلّيِّ الشّامِلِ؛ لِما سَبَقَهُ مِنْ آياتِ اللّه تَعالى الَّتي امتَنَّ بها على خَلقِه، ولِما فيها مِنْ لَفْتِ انْتِباه الإنْسانِ إلى السَّماواتِ والأرْضِ الَّتي تُحيطُ بِه مِنْ كُلِّ جانِبٍ[4].

مَعْنَى (مِنْ) ودَلالَتُها في: ﴿وَمِنْ﴾:

ذِكْرُ بَعْضِ آياتِ اللهِ الدّالَّةِ على أُلوهيَّتِه وكَمالِ قُدْرَتِه

جاءَتْ (مِنْ) تَبْعيضيَّةً[5] في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 36.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 95.
(3) الخطيب وآخران، التّفصيل: 25/ 93.
(4) أبو موسى، آل حم: 154 - 155.
(5) ابن عثيمين، تفسير سورة الشورى، ص: 244.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إذْ لَمّا كانَ ما مَضى مِن بَسْطِ الرِّزْقِ وقَبْضِه، وإنْزالِ الغَيْثِ وحَبْسِه مِنَ الآياتِ العَظيمَةِ، فقَدْ عَمَّمَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِذِكْرِ ما ذَلِكَ بَعْضٌ مِنهُ، وهو دالٌّ على جَميعِ ما خَتَمَ بِه الآيَةَ السّالِفَةَ مِنَ الحَمدِ الَّذي هو الاتِّصافُ بِجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ، فكلُّ ذَلِكَ مِن آياتِ اللّه الدّالَّةِ على قُدْرَتِه واخْتيارِه، وأنَّهُ هو الَّذي يُحْيي هَذا الوُجودَ[1].

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ المُسْنَدِ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ على المُسْنَدِ إلَيْه ﴿خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

اهْتِمامُ النَّظْمِ بِتَقْديمِ الآياتِ لِكَونِها عَلاماتٍ لا يُنْكِرُها عَقْلٌ سَلِمَ مِنَ الآفاتِ

قَدَّمَ النَّظْمُ الحَكيمُ المُسْنَدَ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ على المُسْنَدِ إلَيْه ﴿خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لِبَيانِ الاهْتِمامِ بكونِ خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ مِنْ أهَمِّ العَلاماتِ الواضِحَةِ على قُدْرَتِه[2]، والأدِلَّةِ البَيِّنَةِ على ألوهيَّتِه تعالى وعلى اسْتِحْقاقِه لِلحَمدِ والوِلايَةِ، بِما فيهِما مِنْ عَجائِبِ الصَّنائِعِ، فإنَّها بِذاتِها أوْ صِفاتِها تَدُلُّ على شُؤونِه العَظيمَةِ[3].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجَمعِ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾:

آياتُ اللهِ الدّالَّةُ على وحْدانيَّتِه وكَمالِ قُدْرَتِه لا يُحْصيها عَدٌّ

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ جَمعًا لِلتَّكْثيرِ، ففيها دَلالَةٌ على أنَّ آياتِ اللّه تعالى الشّاهِدَةَ على وحْدانيَّتِه والدّالَّةَ على كَمالِ قُدْرَتِه كَثيرَةٌ كَثْرَةً لا يُحْصيها عَدٌّ، وفي إيرادِها جَمعًا كَذَلِكَ حَثٌّ لِلعُقولِ على التَّدَبُّرِ في هَذِه الآياتِ والعَلاماتِ بِما يُقَوّي الاعْتِقادَ السَّليمَ.

الغَرَضُ مِنَ الإضافَةِ في المُسْنَدِ إلَيْه ﴿خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

تَأكيدُ أنَّ كُلَّ ما في الكَوْنِ مَخلوقٌ لله ﷻ

في إضافَةِ النَّظْمِ الحَكيمِ لَفْظَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى كَلِمَةِ ﴿خَلۡقُ﴾ إشارَةٌ إلى أنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ مِنْ إضافَةِ الصِّفَةِ إلى المَوْصوفِ، أي: السَّماواتِ المَخْلوقَةِ[4]، وفيه رَدٌّ على مَنْ قالَ بِقِدَمِ العالَمِ، وزَعَمَ أنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 311.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 255.
(3) حقي، روح البيان: 8/ 321.
(4) حقي، روح البيان: 8/ 321.

السَّماواتِ والأرْضَ أزَليَّتانِ، فمَن لَهُ أدْنى إنْصافٍ وشُعورٍ يَجْزِمُ بِاسْتِحالَةِ صُدورِها مِنَ الطَّبيعَةِ العَديمَةِ الشُّعورِ[1].

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالطِّباقِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

في الطِّباقِ حَثٌّ على إدامَةِ التَّفكُّرِ وطولِ النَّظَرِ في كَثْرَةِ الآياتِ في السَّماواتِ والأرْضِ

بَينَ لَفْظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولَفْظِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ طِباقٌ يُسْهِمُ في تَنْشيطِ الفاعِليَّةِ الإدْراكيَّةِ لأذْهانِ السّامِعينَ والمُتَلَقّينَ، ويَحُثُّهُم على التَّفكُّرِ في بَديعِ الآياتِ في السَّماواتِ والأرْضِ وتَعدُّدِ ألْوانِها وأنْواعِها، ويوقِظُ الإحْساسَ بِعَظَمَةِ اللّٰه ﷻ في هذا الخَلْقِ البَديعِ، فأضْفَى الطِّباقُ على النَّظْمِ الجَليلِ حُسْنًا وجَمالًا، وزادَهُ رَوْنَقًا وبَيانًا.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالجُملَةِ الاسْميَّةِ:

خَلْقُ اللّٰه للسَّماواتِ والأرْضِ حَقيقَةٌ ثابِتَةٌ لا تَتَبَدَّلُ ولا تَتَغَيَّرُ

آثَرَ النَّظْمُ الكَريمُ التَّعْبيرَ بِالجُملَةِ الاسْميَّةِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لِتأكيدِ مَضْمونِ الخِطابِ، ولِلدَّلالَةِ على ثُبوتِ ذَلِكَ المَعْنَى، وكَوْنِهِ حَقيقَةً راسِخَةً لا تَتَغَيَّرُ بِمُرورِ الزَّمانِ، كَما أنَّ في جَعْلِها اسْميَّةً مُتَضَمِّنَةً تِلْكَ الأفاعيلَ العَظيمَةَ، وما تَبِعَها مِنَ المَذْكوراتِ لاحِقًا؛ إشارَةً إلى تَرْبيَةِ المَهابَةِ، فهيَ تَذْكيرٌ مُؤَيَّدٌ بِالعِبَرِ على عَظيمِ آلاءِ اللّٰه.

دَلالَةُ العَطْفِ في: ﴿وَمَا بَثَّ﴾:

بَثُّ الخَلْقِ في السَّماواتِ والأرْضِ تَذْكيرٌ آخَرُ بِعَظَمَةِ قُدْرَتِهِ

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ والمُرادُ: ومِن آياتِه خَلْقُ ما بَثَّ، أوْ هيَ مَعْطوفَةٌ على ﴿خَلۡقُ﴾، وعلى ذَلِكَ يَكونَ المُرادُ: ومِن آياتِه ما بَثَّ[2]، وقَدْ أفادَ العَطْفُ التَّذْكيرَ بِدَليلٍ آخَرَ مِنْ أدِلَّةِ وحْدانيَّتِه وآياتِ قُدْرَتِه وعَظَمَتِه، وهوَ تَصَرُّفُهُ تعالى فيما خَلَقَ في السَّماواتِ والأرْضِ بِالبَثِّ والنَّشْرِ والتَّفْريقِ، ثُمَّ الإحْياءِ والجَمْعِ والحِسابِ، حَسْبَ مَشيئَتِه وحْدَهُ تعالى.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 39.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 39.

مَعْنَى (ما) ودَلالَةُ التَّعْبيرِ بها دونَ (الَّذي) في: ﴿وَمَا بَثَّ﴾:

تَعَدُّدُ الأجْناسِ المَبْثوثَةِ وكَثْرَتُها مِنْ أعْظَمِ الأدِلَّةِ على كَمالِ عَظَمَتِهِ تعالى

(ما) في الآيةِ على وجْهَين، **الأوَّلُ:** أنَّها اسْمٌ مَوْصولٌ مَبْنيٌّ مَعْطوفٌ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فهوَ في مَحَلِّ جَرٍّ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ في مَحَلِّ رَفْعٍ عَطْفًا على ﴿خَلۡقُ﴾ على حَذْفِ مُضافٍ، أيْ: و(خَلْقُ ما بَثَّ)، **والوَجْهُ الآخَرُ**: أنْ تكونَ (ما) مَصْدَريَّةً، أيْ: (وَمِنْ آياتِه بَثُّه)؛ فتَكونُ (ما) وما بَعْدَها في تَأويلِ مَصْدرٍ، وهوَ مَعْطوفٌ على ﴿خَلۡقُ﴾ مَرفوعٌ مِثْلَهُ[1]، والتَّقْديرُ بالموصوليَّةِ أظْهَرُ، ولا حاجَةَ عَلَيْهِ إلى تَقْديرِ مُضافٍ[2]، وفي التَّعْبيرِ بـ(ما) المَوصولَةِ دَلالَةٌ على تَعَدُّدِ الأجْناسِ المَبْثوثَةِ في السَّماواتِ والأرْضِ وتَنَوُّعِها، وقَدْ آثَرَ النَّظْمُ الكَريمُ التَّعْبيرَ بها دونَ الاسمِ المَوْصولِ (الَّذي)؛ لأنَّ في اتِّساعِ الألفِ في آخِرِها ما يُشيرُ إلى كَثْرَةِ الأجْناسِ[3] والأنواعِ المَبْثوثَةِ الدّالَّةِ على كَمالِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿بَثَّ﴾:

تَحَقُّقُ البَثِّ فيما مَضى، داعٍ للعُقولِ إلى الإيمانِ فيما سَيَأتي

عَبَّرَ النَّظْمُ الكَريمُ عَنْ تَفَرقَةِ الدَّوابِّ ونَشْرِها بصيغَةِ المُضيِّ ﴿بَثَّ﴾؛ للدَّلالَةِ على تَحَقُّقِ هَذا البَثِّ في زَمَنِ الماضي، فقَدْ وقَعَ البَثُّ، وشاهَدَتْهُ العُيونُ، وتَيَقَّنَتْ مِنْهُ العُقولُ، على هَذا المِنوالِ الغَريبِ مِنَ الحِسِّ والحَرَكَةِ بالاخْتيارِ، مَعَ التَّفاوُتِ في الأشْكالِ، والقُدورِ والهَيْئاتِ والأخْلاقِ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النَّقْصِ والكَمالِ، فكانَ تَحَقُّقُهُ داعيًا للإيمانِ بوَحْدانيَّةِ اللهِ وقُدْرَتِه وكَمالِ عَظَمَتِه[4].

مَعْنَى (في) ودَلالَتُها في: ﴿فِيهِمَا﴾:

شُمولُ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ لِجَميعِ الخَلْقِ في السَّماواتِ والأرْضِ

عبَّرَ البَيانُ القُرْآنيُّ عَنِ اشْتِمالِ السَّماواتِ والأرْضِ على جَميعِ المَخْلوقاتِ بحَرفِ (في) المُفيدِ للظَّرْفيَّةِ، ذَلِكَ أنَّهُ لَمّا كانَتِ الأرْضُ

(1) الخطيب وآخران، التّفصيل: 25/ 93 - 94.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 39.

(3) السّهيلي، نتائج الفكر، ص: 140.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 311.

بِناءً، والسَّماءُ سَقْفَهُ؛ فمَن كانَ في أحَدِهما؛ صَحَّ نِسْبَتُهُ إلى أنَّهُ في كُلٍّ مِنهُما: الأسْفَلُ بالإقْلالِ والأعلى بالإظْلالِ، أي: في السَّماواتِ والأرْضِ، ولا سيَّما وقَدْ جَعَلَ لِكُلٍّ منهُما تَسَبُّبًا في ذَلِكَ بِما أوْدَعَهُما مِنَ الجَواهِرِ، وأنْشَأَ عَنْهُما مِنَ العَناصِرِ[1]، على أنَّهُ قَدْ يَكونُ المُرادُ مِنَ الظَّرْفيَّةِ في قَوْلِه: ﴿فِيهِمَا﴾ ظَرْفيَّةَ المَجموعِ لا الجَميعِ، أيْ: ما بَثَّ في مَجْموعِ الأرْضِ والسَّماءِ مِن دابَّةٍ، فالدّابَّةُ إنَّما هي على الأرْضِ، ولَمّا ذُكِرَتِ الأرْضُ والسَّماءُ مُقْتَرِنَتَيْنِ، وجاءَ ذِكْرُ الدَّوابِّ؛ جُعِلَتِ الدَّوابُّ مَظْروفَةً فيهما؛ لأنَّ الأرْضَ مَحوطَةٌ بالسَّماواتِ ومُتَخَيَّلَةٌ مِنها، كالمَظْروفِ في ظَرْفِه، والمَظْروفُ في ظَرْفٍ مَظْروفٌ في ظَرْفِ مَظْروفِه، كَما قالَ تَعالى: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ۝١٩﴾ [الرحمن: 19]، ثُمَّ قالَ: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ۝٢٢﴾ [الرحمن: 22]، واللُّؤْلُؤُ والمَرْجانُ يَخْرُجانِ مِن أحَدِ البَحْرَيْنِ، وهو البَحْرُ المِلْحُ لا مِنَ البَحْرِ العَذْبِ[2].

مَعْنَى ﴿مِن﴾ ودَلالَتُها في: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾:

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ باستِعْمالِ ﴿مِن﴾ في قَوْلِه: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾، وهيَ هَهُنا بَيانيَّةٌ تُفيدُ العُمومَ، فأفادَتْ عمومَ ما بَثَّ اللهُ في السَّماواتِ والأرْضِ مِنَ الدَّوابِ، وهَذا العُمومُ بما يُفيدُهُ مِنْ كَثْرَةِ مَخْلوقاتِ اللهِ تعالى وما بينَهما مِنَ التَّوازُنِ والاطِّرادِ والانسِجامِ خَيْرُ شاهدٍ على كَمالِ الخالِقِ ﷻ.

كَثْرَةُ المَخْلوقاتِ واطِّراد نِظامِها مِنْ أدِلَّةِ كَمالِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ

سِرُّ التَّعبيرِ بِلَفظِ ﴿دَآبَّةٖ﴾ والغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِها:

آثَرَ النَّظْمُ الكَريمُ التَّعْبيرَ بكَلِمَةٍ نَكِرَةٍ ﴿دَآبَّةٖ﴾؛ لإفادَةِ العُمومِ، وعَبَّرَ بهَذا اللَّفظِ دونَ غَيْرِه؛ لأنَّهُ أوسَعُ في الدَّلالَةِ؛ إذِ الدّابَّةُ ما يَدُبُّ على

شُمولُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ (دابَّةٍ) لِجَميعِ أنْواعِ الخَلْقِ، ما عَرَفْناه مِنْهُ، وما لم نَعْرِفْهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 311.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 36، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 599، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 39، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 97، وأشارت بعض الدِّراساتِ الحديثَةِ لوجود أنواعٍ مِنَ اللؤلؤ تُسْتَخْرجُ مِنَ بعضِ الأنهار العذبة في بَعْضِ المناطق في أوروبا وآسيا، انظر: لجنة القرآن والسّنة في المجلس الأعلى للشّؤون الإسلامية في القاهرة، المنتخب في تفسير القرآن، ص: 645.

الأرْضِ، ويَشْمَلُ الطَّيْرَ؛ لأنَّ الطَّيْرَ يَمشي؛ إذا نَزَلَ، وهو مِمّا أُريدَ في قَوْلِه هُنا: ﴿فِيهِمَا﴾، أيْ: في الأرْضِ وفي السَّماءِ، أيْ: بَعْضِ ما يُسَمّى بالسَّماءِ، وهو الجَوُّ، قالَ تَعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل: 79]، فإطْلاقُ الدّابَّةِ على الطَّيْرِ باعْتِبارِ أنَّ الطَّيْرَ يَدُبُّ على الأرْضِ كَثيرًا لالتِقاطِ الحَبِّ وغَيْرِ ذَلِكَ، وأمّا المَوْجوداتُ الَّتي في السَّماواتِ العُلا مِنَ المَلائكَةِ والأرْواحِ؛ فلا يُطْلَقُ عَلَيْها اسْمُ دابَّةٍ، وجَوَّزَهُ بعضُهُم؛ إذْ يَجوزُ أنْ تَكونَ في بَعْضِ السَّماواتِ مَوْجوداتٌ تَدُبُّ فيها، فإنَّ الكَواكِبَ مِنَ السَّماءِ[1]، فقَدْ ثَبَتَ في صِحاحِ الأحاديثِ ما يَدُلُّ على وُجودِ الدَّوابِّ في السَّماءِ من مَراكِبِ أهْلِ الجَنَّةِ وغَيْرِها، بَلْ لا يَبْعُدُ أنْ يَكونَ في كُلِّ سَماءٍ حَيَواناتٌ ومَخْلوقاتٌ على صوَرٍ شَتّى وأحوالٍ مُخْتَلِفَةٍ، لا نَعْلَمُها، ولَم يُذْكَرْ في الأخْبارِ شَيْءٌ مِنها، فقد قالَ تَعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: 8][2].

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَهُوَ﴾:

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ على قَوْلِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ لِبَيانِ أنَّهُ تعالى - بِقُدْرَتِه على خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ وما فيهما عَنْ عَدَمٍ - قادِرٌ على إعادَةِ خَلْقِ بَعْضِ ما فيهما لِلبَعْثِ والجَزاءِ؛ لأنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ سَواءٌ في جَوازِ تَعَلُّقِ القُدْرَةِ بِه، فكَيْفَ تَعُدّونَهُ مُحالًا؟ فالجُملَةُ مُعْتَرِضَةٌ في جُملَةِ الاعتِراضِ لإدْماجِ إمكانِ البَعْثِ في عَرْضِ الاستِدْلالِ على عَظيمِ قُدرَةِ اللَّهِ وعلى تَفَرُّدِه بالأُلوهيَّةِ[3].

الإحْياءُ والجَمْعُ بَعدَ الخلقِ والبثِّ، مُتَصَوَّرٌ عَقْلًا، وهو أهونُ على الله تعالى

سرُّ الوَصْلِ بالمُضْمَرِ (هوَ):

في تَعالُقِ الجُملَتَينِ بَيانٌ للتَّلازُمِ بينَ الخَلْقِ والبَثِّ، ثُمَّ الإحْياءِ والجَمعِ للحِسابِ

افْتَتَحَ البَيانُ القُرْآنيُّ الجُملَةَ بَعْدَ الواوِ بالضَّميرِ (هوَ)؛ عَطْفًا على ما سَبَقَ، ويَجوزُ لُغَةً التَّعْبيرُ بِلَفْظِ الجَلالَةِ، لَكِنَّهُ أرادَ أنْ تَرْتَبِطَ هَذه

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 396، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 97.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 39.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 97.

الجُملَةُ مَعَ الجُملَتَينِ السّابِقَتَين؛ لِما بَيْنَها مِنْ تَعالُق، فإنَّ هَذِه الجُملَةَ مُتَّصِلَةٌ بِما أَوْرَدَهُ سُبْحانَهُ مِنْ تَمام القُدْرَةِ على إِنْزالِ الغَيْث، وخَلْقِ السَّماواتِ والأَرْضِ وبَثِّ المَخْلوقات، ثُمَّ الإحياءِ والبعث، فالضَّميرُ يَدْعَمُ العَلاقَةَ التَّرْكيبيَّةَ بَيْنَ الجُمَلِ في بَيانِ اقْتدارِ اللّه ﷻ.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ﴾ على الخَبَرِ ﴿قَدِيرٌ﴾:

في التَّقْديمِ دَلالَةٌ على الاهتِمامِ بأمرِ البعْثِ؛ إذْ هوَ مَناطُ الفائِدَةِ

قَدَّمَ النَّظْمُ الحَكيمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ﴾ على الخَبَرِ ﴿قَدِيرٌ﴾؛ إذِ الأَصْلُ (وَهوَ قَديرٌ على جَمعِهِم)، وذَلِكَ لأَهَمّيَّةِ قَضيَّةِ الجَمعِ للحِساب؛ إذْ هيَ مَناطُ الفائِدَة، والكَلامُ بِها أعلى؛ لأَنَّ هذه الآيَةَ العظيمةَ التي هي خَلْقُ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما، تَتَضَمَّنُ حَديثَ البَعْثِ ودَليلَهُ، فهي مِنْ بَراهينِ الأُلوهيَّة، فضْلًا عَنْ أنَّها إِخْبارٌ عَنِ البَعْثِ مَصْحوبًا بِالدَّليل، ثمَّ هي أيضًا تتضمَّنُ ما لا يَخفى من التَّهديدِ والوَعيد[1]، وكَذَلِكَ لَمّا كانَتِ الأَدِلَّةُ والبَراهينُ السّابِقَةُ على كَمالِ قُدْرَةِ اللّه تُشاهِدُها العُيون، جاءَ في هَذِه الآيَةِ بِدَليلٍ غَيْبيٍّ للتَّذْكيرِ بِجانِبِ البَعْث، وقَدَّمَهُ؛ لِيَكونَ أَقْرَبَ للعُقولِ الصحيحَة.

مَعْنَى ﴿عَلَىٰ﴾ ودَلالَتُها في: ﴿عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ﴾:

استِعْلاءُ اللهِ تَعالى على خَلْقِهِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ

جاءَتْ ﴿عَلَىٰ﴾ هَهُنا على أَصْلِ مَعْناها، الَّذي هوَ إفادَةُ الاستِعْلاء، فدَلَّتْ على اقْتِدارِ اللّه تعالى على أمرِ الجَمعِ كَما هوَ قادِرٌ على أمرِ الخَلْقِ والبَثّ، فكَما لَم يَتَعَذَّر عَلَيْه خَلقُهُ وتَفريقُهُ، لَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيْه بَعْثُه وحِسابُهُ[2].

بَلاغَةُ الطِّباقِ بينَ البثِّ والجَمعِ:

الطِّباقُ بينَ البثِّ والجَمعِ يُحَرِّكُ الأذْهانَ للنَّظَرِ والاعتِبارِ

جاءَ الطِّباقُ بينَ لَفْظِ البَثِّ في: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖ﴾، ولَفْظِ الجَمعِ في: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ﴾؛ لِتَمامِ إيضاحِ طَلاقَةِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ على الخَلْقِ والبَعْث، فكُلُّ قَضيَّةٍ مِنهُما بحَدِّ ذاتِها تَدُلُّ على جانِبٍ

---

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 158.

(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 116.

مِنْ جَوانِبِ عَظَمَةِ الخالِقِ تعالى، إلّا أنَّ الجَمعَ بَيْنَهُما في سياقٍ واحِدٍ على طَريقَةِ الطِّباقِ يوقِظُ الأذْهانَ، ويُثْري الوِجْدانَ، ويَحُثُّ على التَّفَكُّرِ والنَّظَرِ في كَمالِ العَظَمَةِ الإلَهِيَّة، وهو إلى جانِبِ ذَلِكَ يَملَأُ النَّظْمَ الجَليلَ حُسْنًا وجمالًا، ويَزيدُه رَوْنَقًا وبيانًا؛ لأنَّ جَمْعَ ما بُثَّ وتَفَرَّقَ وانتَشَرَ وتَكاثَرَ أصعَبُ، ولِهَذا تَرَى التَّلاؤُمَ بَينَ الجُملَتَينِ، وأنَّ كُلًّا مِنهُما مُمَسِّكَةٌ بالأُخرَى[1].

الغَرَضُ مِنْ إسْنادِ الجَمعِ إلى ضَميرِ العُقَلاء (هُم):

الجَمعُ إمّا لِلعُقَلاءِ ولِغَيْرِهِم، والضَّميرُ للتَّغْليبِ، وإمّا للعُقَلاءِ وحْدَهُم

وإنَّما قالَ: ﴿عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ﴾، ولَم يَقُلْ: على جَمعِها؛ لأجْلِ أنَّ المَقْصودَ مِن هَذا الجَمعِ المُحاسَبَةُ، فكَأنَّهُ تَعالى قالَ: وهو على جَمعِ العُقَلاءِ - إذا يَشاءُ - قَديرٌ[2]، وقيلَ لِلسَّمَواتِ والأرْضِ وما فيهما على التَّغْليبِ، وقيلَ: للدَّوابِّ، وقَدْ ورَدَ في الأحاديثِ أنَّ بَعْضَ الدَّوابِّ تُحْشَرُ لِلانتِصافِ مِمَّنْ ظَلَمَها[3]، ولَعَلَّ القَولَ بأنَّهُ لِلعُقَلاءِ هوَ الأوْلى[4].

بَلاغَةُ الاعتِراضِ في: ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾:

قضيَّةُ البَعْثِ والجَمعِ قَضيَّةٌ حَتْمِيَّةٌ في مَشيئَةِ الله تعالى

جاءَ البَيانُ القُرْآنيُّ الجَليلُ بأداةِ الشَّرْطِ ﴿إِذَا﴾ دونَ أداةِ الشَّرْطِ (إنْ)؛ لإفادَةِ اليَقينِ في قضيَّةِ البَعْثِ والجَمعِ، فهي قَضيَّةٌ حَتْميَّةٌ في مَشيئَةِ اللّه تعالى[5]، فقُدْرَتُهُ ومَشيئَتُهُ صالِحانِ لِذَلِكَ، ويَتَوَقَّفُ وُقوعُهُ على وُجودِ الخَبَرِ الصّادِقِ، وقَدْ عَلِمَ أنَّهُ قَدْ تَواتَرَتْ أخْبارُ المُرْسَلينَ وكُتُبُهُم بِوُقوعِه[6]، والتَّعْبير بالشَّرْطِ هُنا مُجَرَّدٌ عَن تَضَمُّنِ الشَّرْطيَّة، فالتَّقْديرُ: حينَ يَشاءُ في مُسْتَقْبَلِ الزَّمانِ، وهو مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿جَمۡعِهِمۡ﴾، ولَيْسَ مُتَعَلِّقًا عِنْدَ أكْثَرِ

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 158.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 600.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 98.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 39.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 314.
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 759.

المُعْرِبينَ بـ﴿قَدِيرٌ﴾، لِفَسادِ المعنى[1]، وهَذا الظَّرْفُ إدْماجٌ ثانٍ لإبْطالِ استِدْلالِهم بِتأخُّرِ يَوْمِ البَعْثِ على أنَّهُ لا يَقَعُ كما حُكيَ عَنْهم في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء: 51][2].

دَلالَةُ الإخْبارِ باسمِ الله ﴿قَدِيرٌ﴾ والغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِه:

كَمالُ قُدْرَةِ الله وعَظَمَتُها، فلا يَحولُ دونَ نَفاذِ مَشيئَتِه شيءٌ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ خَتْمَ الآيَةِ بالإخْبارِ عَن تَمامِ قُدْرَةِ اللّه ﷻ بِصِفَةِ القُدْرَةِ ﴿قَدِيرٌ﴾؛ وذَلِكَ لِمُناسَبَةِ السّياقِ؛ إذِ القَديرُ تعالى هو كامِلُ القُدْرَةِ، بِقُدْرَتِه أَوْجَدَ المَوْجوداتِ، وبِقُدْرَته دَبَّرَها، وبِقُدْرَته سَوّاها، وأحْكَمَها، وبِقُدْرَته يُحْيي، ويُميتُ، ويَبْعَثُ العِبادَ لِلْجَزاءِ، الَّذي إذا أرادَ شَيْئًا؛ قالَ لَهُ: ﴿كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾ [البقرة: 117]، وبِقُدْرَتِه يُقَلِّبُ القُلوبَ، ويَصْرِفُها على ما يَشاءُ، ويُريدُ[3]، وجاءَ الخَبَرُ نَكِرَةً للتَّعْظيمِ.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الغَيْث والمَطَر:

الغَيْثُ للإنْعامِ والإغـــاثَـــةِ، والمَطَرُ للعذابِ والاستئصالِ

الغَيْثُ: الحَيا النّازِلُ مِنَ السَّماءِ، وهوَ كَذَلِكَ الكَلَأُ يَنْبُتُ مِنَ المَطَرِ، وسُمّيَ المَطَرُ غَيْثًا؛ لأنَّهُ يُغيثُ الخَلْقَ[4]، وأمّا المَطَرُ؛ فهو كَذَلِكَ الماءُ المنسكِبُ من السَّحابِ، ولَكِنَّ مَعْناهُ المِحوريَّ انْسِكابٌ أوِ انْحِدارٌ بِقوَّةٍ أَوْ سُرْعَةٍ مَعَ استِرْسالٍ[5]؛ ولِذا فقَدْ خصَّصهُ الاستِعْمالُ القُرْآنيُّ لِمَعاني العَذابِ غالبًا، كَقَوْلِه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٨٤﴾ [الأعراف: 84]، فالصِّيغَةُ القُرْآنيَّةُ

(1) السمين، الدّر المصون: 9/ 554.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 98.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 947.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (غيث)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 28.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مطر).

اختصَّتِ المَطَرَ لا الغَيْثَ؛ لأنَّهُ أقْوَى، وأغْزَرُ تَدَفُّق مياهٍ، فناسَبَ عُقوبَةَ المُجْرِمينَ، وقَدْ ذَكَرَهُ القُرْآنُ على سَبيلِ الاسْتِعارَةِ في قَوْلِه: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: 32]، وبِهَذا المَعْنَى سائِرُ ما في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيبِ، كَقَوْلِه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾ [الحجر: 74].

واسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الغَيْثَ في الحديث على نِعْمَةِ اللّٰه في الأَرْضِ، فقالَ دالًّا البَشَرَ على سُنَّتِه في الكَوْنِ في تَرَعْرُعِ النَّباتِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِمَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾؛ لأنَّ النَّباتَ يُريدُ رَحْمَتَهُ الَّتي تَتَجَلَّى في الماءِ الخَفيفِ، فيَنْتَعِشُ، ولِذَلِكَ لَم يَذْكُرِ المَطَرَ الَّذي يُغْرِقُهُ[1]، وكَقَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: 34]، ولَم تفرِّقِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ بينَ اللَّفظينِ.

القنوط واليأس:

القُنوطُ ظُهورُ علاماتِ اليأسِ على بَدَنِ الإنْسانِ

القُنوطُ: الإياسُ من الخير[2]، وهوَ يَدُلُّ على انْقِطاعِ الأَمَلِ بالكُلِّيَّةِ؛ إذ لا يُقالُ: قَنَطَ إلّا إذا اشتدَّ يَأْسُهُ مِنَ الشَّيْءِ[3]، وقيلَ اليَأسُ: هوَ قَطْعُ الرَّجاءِ والأمَلِ مِنْ تَحْقيقِ أمرٍ مُعيَّنٍ، وهوَ شُعورٌ يَنْشَأُ في القَلْبِ والعَقْلِ، وأمّا القُنوطُ؛ فهوَ تَأثيرُ اليَأسِ عِنْدَما يَظْهَرُ على بَدَنِ الإنْسانِ بِشَكْلٍ ظاهِرٍ في مَلامِحِه وتَصَرُّفاتِه[4].

البَثّ والنَّشْر:

البَثُّ تَفريقٌ في أماكِنَ كَثيرَةٍ مُتَبايِنَةٍ، وأمّا النَّشْرُ؛ فهوَ البَسْطُ

البَثُّ هوَ تَفْريقُ الشَّيْءِ وإظْهارُهُ، وبَثَّ الشَّيءَ والخَبَرَ يَبُثُّه: فرَّقه، فتَفَرَّقَ، وأَصْلُهُ: نَشْرُ ما كانَ مُجْتَمِعًا مُنْضَمًّا وتَفْريقُهُ، ووضْعُ الأشْياءِ في أمكِنَةٍ كَثيرَةٍ، وقولك: بَثَّ، يُفيدُ تَفْريقَ أشْياءَ كَثيرَةٍ في

(1) ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص: 44.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قنط).

(3) النحاس، معاني القرآن: 6/ 314.

(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 5 - 6.

مَواضِعَ مُخْتَلفَةٍ مُتَبايِنَةٍ، وإذا فرَّقَ بَينَ شَيْئَينِ؛ لَم يَقلْ: بَثَّ[1]، وأمّا النَّشْرُ؛ فهو تفرُّقٌ ببسطٍ وامتدادٍ نُشوءًا أو إيقاعًا[2]، ولا يَلْزَمُ مِنهُ التَّفْريقُ في أماكِنَ مُخْتَلِفَةٍ مُتَبايِنَةٍ، وعليه فالبثُّ أخَصُّ مِنَ النَّشْرِ؛ لأنَّ فيه زيادَةً عَلَيْه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 151، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بثث - بثبث)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 97.

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نشر).

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾﴾ [الشورى: 30 - 31]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بعدَ بَيانِ دَلائلِ الأُلوهيَّةِ والوحدانيَّةِ، جاءَ التَّذْكيرُ بالتَّكْليفِ والمسؤوليَّة

لَمّا ذَكَرَ اللهُ سُبْحانَهُ بِنِعَمِه عِبادَهُ، وكانَ السّياقُ لِتَعْدادِ ما ناسَبَ مَقْصودَ هَذِهِ السّورَةِ مِنها؛ كانَ الفِكْرُ جَديرًا بِأنْ يَخْطُرَ لَهُ ما في الدُّنْيا مِنَ الأمراضِ والأنْكادِ والهُمومِ والغُمومِ بِالإشْقاءِ فيها والإسْعادِ، فقالَ شافيًا لِعَيِّ سُؤالِه عَنْ ذَلِكَ بِبَيانِ ما فيه مِن نِعْمَتِه على وجْهٍ دالٍّ على تَمامِ قُدْرَتِه، عاطِفًا على ما هو مَضْمونُ ما مَضى بِما تَقْديرُهُ: فهو الَّذي خَلَقَكم، ورَزَقَكم وهو المُتَصَرِّفُ فيكم بَعْدَ بَثِّكم بِالعافيَةِ والبَلاءِ تَمامَ التَّصَرُّفِ، فلا نِعْمَةَ عِنْدَكم ولا نِقْمَةَ إلّا مِنهُ، ولا يَقْدِرُ أصْحابُها على رَدِّها ولا رَدِّ شَيْءٍ منها، فهو وليُّكم وحْدَهُ، ولَمّا كانَ مَن يُعاقِبُ بِما دونَ المَوْتِ، رُبَّما ظَنَّ بَعْضُ الغافِلينَ أنَّهُ عاجِزٌ؛ بيَّنَ تعالى أنَّهُ لَوْ أرادَ؛ مَحَقَهُم بِالكُلّيَّةِ، ولَمّا نَفى امْتِناعَهم بِأنْفُسِهم، وكانَ لَهُ سُبْحانَهُ مِنَ العُلُوِّ ما تَقْصُرُ عَنْهُ العُقولُ، ونَفى أن يَكونَ ثَمَّ وليٌّ لِشَيْءٍ مِن أُمورِهم بِالاسْتِقْلالِ يَدْفَعُ عَنْهُم شَيئًا يُريدُهُ سُبْحانَهُ بِكم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَصَٰبَكُم﴾ و﴿مُّصِيبَةٖ﴾: (صوب) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على نُزولِ شَيْءٍ واسْتِقْرارِه، ومِن ذَلِكَ الصَّوابُ في القَوْلِ والفِعْلِ، كَأنَّهُ أمْرٌ نازِلٌ مُسْتَقِرٌّ[2]، والصَّوْبُ: المَطَرُ، وصابَ السَّهْمُ نحو الرَّمية

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 315 - 316.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).

يَصوبُ صَيْبوبةً؛ إذا قَصَدَ، وسَهْمٌ صائبٌ، أي: قاصِدٌ[1]، والمَعْنَى المِحوريُّ هويٌّ إلى شَيْءٍ مَعَ موافَقَته، أي: الوُقوعُ والاصْطِدامُ بِه، والإصابة: النُّزولُ بالشَّيءِ واللَّحاقُ به خَيْرًا كانَ النّازِلُ أو شَرًّا، ثُمَّ كَثُرَ في الشَّرِّ، فالإصابَةُ في الخَيْرِ اعْتِبارًا بالصَّوْب، أيْ: بالمَطَر، وفي الشَّرِّ اعتِبارًا بإصابَةِ السَّهْم[2]، والمُصيبَةُ مِمّا أصابَهُم به الدَّهْرُ، ولَم تُسْتَعْمَلْ في القُرْآنِ إلّا في التَّعْبيرِ عَمّا يَعُدُّهُ الإنْسانُ شَرًّا، وأصْلُها في الرَّميَةِ، ثُمَّ اخْتَصَّتْ بالنّائِبَةِ[3]، وهيَ اسْمٌ لِلحادِثَةِ الَّتي تُصيبُ بِضُرٍّ ومَكْروهٍ، وقَدْ لَزِمَتْها هاءُ التَّأْنيثِ لِلدَّلالَةِ على الحادِثَة؛ فلِذَلِكَ تُنوسيَتْ منها الوَصْفيَّةُ، وصارَتِ اسْمًا لِلْحادِثَةِ المَكْروهَةِ[4]، نَحْوَ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

2) ﴿كَسَبَتۡ﴾: (كسب) أَصْلٌ صَحيحٌ، وهوَ يَدُلُّ على ابتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ، فالكَسْبُ مِنْ ذَلِكَ، ويُقالُ: كَسَبَ أهْلَهُ خَيْرًا، وكَسَبْتُ الرَّجُلَ مالًا، فكَسَبَهُ[5]، والكَسْبُ: طلبُ الرِّزق[6]، وكَسَبَ يَكْسِبُ كَسْبًا، وتَكَسَّبَ واكتَسَب، قالَ سيبَوَيْه: كَسَبَ: أصابَ، واكْتَسَب: تَصَرَّف، واجْتَهَد[7]، والمَعْنَى المِحوريُّ: جَمعُ الشَّيْءِ وتَحْصيلُهُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ بِجُهْدٍ ما؛ أخْذًا مِنْ حَيْثُ كانَ[8]، والكَسْبُ اصْطِلاحًا: ما يَتَحَرّاهُ الإنسانُ مِمّا فيه اجْتِلابُ نَفْعٍ، وتَحْصيلُ حَظٍّ، كَكَسْبِ المالِ، وقَدْ يُسْتَعْمَلُ فيما يَظُنُّ الإنْسانُ أنَّهُ يَجْلِبُ مَنْفَعَةً، ثُمَّ استَجْلَبَ به مَضَرَّةً، وقَدْ ورَدَ في القُرْآنِ في فِعْلِ الصّالِحاتِ والسَّيِّئات، فمِمّا اسْتُعْمِلَ في الصّالِحاتِ قَوْلُهُ: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: 158]، ومِمّا يُسْتَعْمَلُ في السَّيِّئات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾ [الأنعام: 120]، وأمّا قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ [آل عمران: 161]؛ فمُتَناوِلٌ لَهُما[9].

3) ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾: (عجز) أصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما على الضَّعْفِ، والآخَرُ على

(1) الخليل، كتاب العين: (صوب).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (صوب).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (صوب).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 99.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسب).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (كسب).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كسب).
(9) الرّاغب، مفردات القرآن: (كسب).

مُؤَخَّرِ الشَّيْءِ، فالأوَّلُ: عَجِزَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، فهوَ عاجِزٌ، أيْ: ضَعيفٌ[1]، ويُقالُ: أعْجَزَني فُلانٌ؛ إذا عَجِزْتُ عَنْ طَلَبِه وإدْراكِه[2]، والمَعْنَى المِحوريُّ: رَخاوَةُ المُجْتَمِعِ في أسْفَلِ الشَّيْءِ وطَراءَتُهُ لِذَهابِ الشِّدَّةِ والقوَّةِ مِنْ أثْنائِه[3]، وعَجَّزَ الرَّجُلُ وعاجَزَ: ذَهَبَ، فلَم يوصَلِ إليه، ومِنْهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ [سبأ: 5]، أيْ: ظانّين أنَّهم يُعْجِزوننا؛ لأنَّهم ظَنّوا أنَّهم لا يُبعثون، وأنَّه لا جَنَّةَ ولا نارَ[4]، فالمُعْجِزُ: الغالِبُ غَيْرَهُ بِانْفِلاتِه مِن قَبْضَتِه[5]، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، أي: لَنْ تَخْرُجوا، أو تَنفلتوا من قَبْضَةِ اللّٰه، فلا يُعجِز اللّٰه تعالى شيءٌ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اقترافُ السَّيِّئاتِ سبَبُ المصائِبِ، ومَنْ ظَنَّ أنَّ النَّجاةَ بِقوَّتِه فهو الخاسِرُ الخائبُ

بَيَّنَ اللّٰه تعالى في هَذه الآيَةِ أنَّ ما يُصيبُ النّاسَ مِنْ بَلاءٍ، كَمَرَضٍ وخَوْفٍ وفَقْرٍ، فإنَّما هوَ بِسَبَبِ ما اكْتَسَبوهُ مِنْ ذُنوبٍ، وما اقترَفوهُ مِنْ خَطايا، ويَعْفو تعالى عَنْ كَثيرٍ مِنَ السَّيِّئاتِ، فلا يُحاسِبُهُم عَلَيْها رَحْمَةً مِنهُ بِهِم، وقَدْ جاءَ في السُّنَّة ما يُفَسِّرُ الآيَةَ خَيْرَ تَفْسيرٍ، فعَنْ عَليِّ بْنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه قالَ: «ألا أُخْبِرُكُم بِأفْضَلِ آيَةٍ في كِتابِ اللّٰه، وحَدَّثَنا بها رَسولُ اللّٰه ﷺ؟ قالَ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾، وسَأُفَسِّرُها لَكَ يا علي، ما أصابَكُم مِنْ مَرَضٍ، أوْ عُقوبَةٍ، أوْ بلاءٍ، في الدُّنْيا فبِما كَسَبَتْ أيْديكُم، واللّٰه تَعالَى أكْرَمُ مِنْ أنْ يُثَنِّيَ عَلَيْهِمُ العُقوبَةَ في الآخِرَةِ، وما عَفا اللّٰه تَعالَى عَنْهُ في الدُّنْيا، فاللّٰه تَعالَى أحْلَمُ مِنْ أنْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عجز).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عجز).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عجز).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 103.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (عجز).

يَعودَ بَعْدَ عَفْوِه»(1)، ثُمَّ حَذَّرَ سُبْحانَهُ النّاسَ مِنْ عِقابِه، فبَيَّنَ أنَّهُم لَيْسوا بِقادِرينَ على الهَرَبِ من سُلْطانه وجَبَروتِه في أيِّ مَكانٍ مِنَ الأرْضِ أوْ في غَيْرِها؛ لأنَّ قُدْرَتَهُ تعالى لا يُعْجِزُها أنْ تأتيَ بهم مِنْ أيِّ مَكانٍ كانوا فيه، ولَيْسَ لَهُم غَيْرُ اللهِ تَعالَى مِنْ وليٍّ يَتَوَلَّى أُمورَهُم، أوْ نَصيرٍ يَدْفَعُ عَنْهُم عَذابَهُ؛ إنْ أرادَ بِهمُ العَذابَ(2).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾:

انتِقالُ النَّظْمِ إلى بيانِ شَأنٍ يَتعلَّقُ بأُمورِ الدُّنْيا والآخِرَةِ، وهوَ المَصائِبُ

الواو في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ استئنافية على قَوْلِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوَسُّطِ بيْنَ الكمالَيْن: كَمالِ الانقِطاعِ، وكَمالِ الاتِّصالِ، فقَدِ انقَطَعَ الكَلامُ عَنْ آياتِ اللهِ وحِكْمَتِه في بَسْطِ الرِّزْقِ وإنْزالِ الغَيْثِ وبَثِّ الخَلْقِ، وبَدأَ الحَديثُ في أثَرِ اقترافِ السَّيِّئاتِ فيما يُصيبُ اللهُ به النّاسَ مِنْ مَصائِبَ، وسَعةِ عَفْوِه، وفي الوَقْتِ نَفْسِه فثَمَّةَ اتِّصالٌ بينَ الآيَةِ وما سَبَقَها، فإنَّ بَسْطَ الرِّزْقِ وتَقْديرَهُ بَيانٌ لِشَأنِ اللهِ مَعَ خَلْقِهِ في الدُّنْيا بَعْدَ ما بَيَّنَ شَأنَهُ مَعَهُم في أمرٍ مَعَ الآخِرَةِ، ومَصائِبُ النّاسِ في الدُّنْيا مِنْ بَقايا شَأنِهم فيها، فالآيَةُ على هذا الوجْهِ مُتَمِّمَةٌ لما قبلَها، كأنَّها جُزْءٌ مِنْها(3).

مَعْنَى ما ودَلالَتُها في: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ وتَنَوُّعُ القِراءاتِ في: ﴿فَبِمَا﴾:

تَعَدُّدُ المَعاني بِتَعَدُّدِ التَّقْديراتِ النَّحْوِيَّةِ مِنْ إعْجازِ القُرآنِ الكَريمِ

في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ جاءَتْ (ما) إمّا شَرْطيَّةً، وإمّا مَوْصولَةً، وهيَ في الحالتَيْنِ في مَحَلِّ رَفْعِ مُبْتَدَأ(4)، والمُبْتَدَأُ إذا كانَ مَوْصولًا، صِلَتُهُ جُملَةٌ فِعْلِيَّةٌ؛

(1) رواه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب، حديث رقم: (659).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 38.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 160.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 37، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 338، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 40، والخطيب وآخران، التّفصيل: 25/ 96 - 97.

فإنَّ الفاءَ تَدْخُلُ كثيرًا على خبَرِه؛ لِما فيه مِن مَعْنى الشَّرْطِ؛ لإشْعارِه بابْتِناءِ الخَبَرِ عَلَيْه؛ فلِذا جِيءَ بالفاءِ في جَوابِ الشَّرْطِ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ﴾، وهي كذلك في قراءة الجمهور، ووَرَدَ في جَوابِ الشَّرْطِ قِراءَةٌ أُخْرى مُتَواتِرَةٌ بغَيْرِ فاءٍ ﴿بِمَا﴾[1]؛ وهي قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر؛ لأنَّ دُخولَ الفاءِ لَيْسَ بلازِمٍ في هذا الأُسْلوبِ.

وأشارَ بَعْضُ المُحقِّقين إلى أنَّ اخْتِلافَ القِراءَتَيْنِ دالٌّ على أنَّ (ما) هَهُنا مَوْصولَةٌ، فجيءَ تارَةً بالفاءِ في خَبَرِها، وأُخْرى لَم يُؤْتَ بها؛ حَطًّا لِلمُشَبَّهِ عَنِ المُشَبَّهِ به[2]، والمَعْنى في حالِ تَقْديرِها مَوْصولَةً: (الَّذي أصابَكم فيما مَضى بما كَسَبَتْ أيْديكُم)[3]، فيَكونُ الكَلامُ إخْبارًا مِنَ اللهِ تَعالى، بأنَّ الرَّزايا والمصائبَ في الدُّنْيا إنَّما هي مُجازاةٌ مِنَ اللهِ تَعالى على ذُنوبِ المَرْءِ، وتَمحيصٌ لِخَطاياهُ[4]، فالحَديثُ عَنِ المُصيبَةِ وبَيانُ سَبَبِها.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بِصيغَةِ الشَّرْطِ في: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾:

التَّـلازُمُ بيْنَ كَسْبِ السَّيِّئاتِ ووقوعِ المَصائِبِ

جوِّزَ كَوْنُ (ما) شَرْطيَّةً، في القِراءَةِ بالفاءِ: ﴿فَبِمَا﴾، وجَعَلَها مَوْصولَةً في القِراءَةِ الأُخْرى: ﴿بِمَا﴾[5]، والمَعْنَى في حالِ تَقْديرِها شَرْطيَّةً: (إنْ أصابَتْكُمْ مُصيبَةٌ فبِما كَسَبَتْ أيْديكُم)، فيَكونُ غَرَضُ الكَلامِ لَيْسَ الإخْبارَ عَنِ المُصيبَةِ، وإنَّما هوَ الرَّبْطُ بَيْنَ المُصيبَةِ وما كَسَبَتْ أيْديكُم، وتَرَتُّبُ الجَوابِ على الشَّرْطِ، وفَرْقٌ جَليل بَيْنَ المَعْنَيَيْنِ[6].

الغَرَضُ مِن تَقديمِ المَفعولِ بِه ودَلالَةُ العُدولِ عَنِ الغَيْبَةِ إلى الخِطابِ:

تَقْريبُ الطّائِعِ وتَبْكيتُ العاصي مِـن دَقـائِـقِ النَّظْمِ القُرْآنيِّ

قَدَّمَ النَّظْمُ الحَكيمُ المَفعولَ به في ﴿أَصَٰبَكُم﴾ على الفاعِلِ ﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾، وجاءَ بِضَميرِ المَخاطَبِ (كُم)، وعَدَلَ عَنِ الإتيانِ

(1) ابن الجزري، النّشر: 2/ 367.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 40.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 30.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 37.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 40.
(6) أبو موسى، آل حم، ص: 160.

بِه ضَميرًا مُنْفَصِلًا، فلَم يَقُلْ: (وما أصاب مِن مُصيبَةٍ إيّاكُم)؛ للاهتِمام بتَوْجيه الخِطابِ إلَيهم؛ إذْ هُمُ المَخاطَبونَ غالِبًا بالجَمعِ للحِسابِ في الآيَةِ السّابِقَة، وعدَلَ كَذَلِكَ عَنِ الإتْيانِ بِه مُظْهرًا (ما أصابَ العِبادَ مِنْ مُصيبَةٍ)، أوْ غائِبًا (أصابَهُم)؛ لإرادَةِ مواجَهَتِهم بالخِطابِ؛ زيادَةً في تَقْريبِ الطّائِعِ وتَبْكيتِ العاصي[1].

دَلالَةُ عَوْدِ الضَّميرِ في: ﴿أَصَٰبَكُم﴾:

تَنَوُّعُ مَرْجِعِ الضَّميرِ بينَ المُؤْمِنينَ والكافِرينَ يَزيدُ مِن كَثافَةِ مَعاني القُرآنِ

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿أَصَٰبَكُم﴾، فالجُمهورُ على أنَّ الآيَةَ في حَقِّ المُؤْمِنينَ، وهوَ الأكْثَرُ والأظْهَرُ والأشْهَرُ، فأمّا الكافِرُ؛ فعُقوبَتُه مُؤَخَّرَةٌ إلى الآخِرَة؛ وقيلَ: هَذا خِطابٌ لِلْكُفّارِ، فقَدْ كانوا إذا أصابَهُم شَرٌّ؛ قالوا: هَذا بِشُؤْمِ مُحَمَّد، فرَدَّ عَلَيْهم، وقال: بَلْ ذَلِك بِشُؤْمِ كُفْرِكُم[2]، ذَلِكَ أنَّهُ لَمّا أصابَ قُرَيْشًا مِنَ القَحْطِ والجوعِ اسْتِجابَةً لِدَعْوَةِ النَّبيِّ ﷺ عَلَيْهم، وكانَتْ تِلْكَ الدَّعْوَةُ ناشِئَةً على ما لا قوَّةَ بِه مِنَ الأذى؛ لا جَرَمَ كانَ ما أصابَهم مُسَبَّبًا على ما كَسَبَتْ أيْديهم، مِنْ أقْوالِ الشِّرْكِ والأذى لِلنَّبي ﷺ وفِعْلِ المُنْكَراتِ النّاشِئَةِ عَنْ دينِ الشِّرْكِ، فالخِطابُ لِلْمُشْرِكينَ ابْتِداء؛ لأنَّهُمُ المَقْصودونَ من سياقِ الآياتِ كُلِّها، وهم أوْلى بهَذِه المَوْعِظَةِ؛ لأنَّهم كانوا غَيْرَ مُؤْمِنينَ بوَعيدِ الآخِرَة، ويَشْمَلُ المُؤْمِنينَ بِطَريقِ القياس، وبما دَلَّ على شُمولِ هَذا الحُكْمِ لَهم مِنَ الأخْبارِ الصَّحيحَةِ ومِن آياتٍ أُخْرى[3].

مَعْنَى ﴿مِّن﴾ ودَلالَتُها في: ﴿مِّن مُّصِيبَةٖ﴾:

في إصابَةِ المُؤْمِنِ بِأيِّ مُصيبَةٍ تَكْفيرٌ لِذُنوبِه ورَفْعٌ لِدَرَجاتِه

جاءَتْ ﴿مِّن﴾ في الآيَةِ بَيانيَّةً على القِراءَتَيْن؛ وذَلِكَ لِما في المَوْصولِ واسْمِ الشَّرْطِ مِنَ الإبْهامِ[4]، وهيَ لإفادَةِ الاسْتِغْراقِ، وقَدْ ورَدَ في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ مِنَ الأحاديثِ والآثارِ ما يُؤَكِّدُ هَذا الاسْتِغْراقَ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 315.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 31.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 98.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 98.

ومِنْهُ ما ورَدَ عَنْ عائِشَةَ زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ أنَّ رَسولَ اللَّه ﷺ قالَ: «لا يُصيبُ المُؤْمِنَ مِنْ مُصيبَةٍ، حَتَّى الشَّوْكَةِ إلّا قُصَّ بِها مِنْ خَطاياهُ، أوْ كُفِّرَ بِها مِنْ خَطاياهُ»[1].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بـ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ نَكِرَةً:

العُمومُ المَخْصوصُ في الآيَةِ بَيانٌ لِرَحْمَةِ اللَّه وعَدْلِه وفَضْلِه

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بِلَفْظِ: ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ نَكِرَةً لإفادَةِ العُمومِ، فقَدْ وقَعَتِ النَّكِرَةُ هُنا في سياقِ الشَّرْطِ، وسياقُ الشَّرْطِ كَسياقِ النَّفْيِ في أنَّ النَّكِرَةَ لِلعُمومِ[2]، أي: إنَّ أيَّ مُصيبَةٍ مَهْما كانَتْ؛ فإنَّها مُتَرَتِّبَةٌ على ما كسبَتْهُ أيْدي النّاسِ مِنَ المَعاصي والذُّنوبِ، ولَكِنَّهُ عُمومٌ مُخْصوصٌ بِأصْحابِ الذُّنوبِ مِنَ المُسْلِمينَ وغَيْرِهِم، فإنَّ مَن لا ذَنْبَ لَهُ كالأنْبياءِ ﷺ قَدْ تُصيبُهُم مَصائِبُ، ففي الحَديثِ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ: أيُّ النّاسِ أشَدُّ بلاءً؟ قالَ: «الأنْبياءُ ثُمَّ الأمْثَلُ فالأمْثَلُ، فيُبْتَلَى الرَّجُلُ على حَسَبِ دينِه»[3]، ويَكونُ ذَلِكَ لِرَفْعِ دَرَجاتِهم أوْ لِحِكَمٍ أُخْرى خَفِيَتْ عَلَيْنا، وأمّا الأطْفالُ والمَجانينُ؛ فقيلَ: غَيْرُ داخِلينَ في الخِطابِ؛ لأنَّهُ لِلْمُكَلَّفينَ، وبِفَرْضِ دُخولِهِم أخْرَجَهُمُ التَّخْصيصُ بِأصْحابِ الذُّنوبِ، فما يُصيبُهُم مِنَ المَصائِبِ فهو لِحِكَمٍ خَفِيَّةٍ، وقيلَ: في مَصائِبِ الطِّفْلِ رَفْعُ دَرَجَتِه ودَرَجَةِ أبَوَيْه أوْ مَن يُشْفِقُ عَلَيْه بِحُسْنِ الصَّبْرِ، ثُمَّ إنَّ المَصائِبَ قَدْ تَكونُ عُقوبَةً على الذَّنْبِ وجَزاءً عَلَيْهِ بِحَيْثُ لا يُعاقَبُ عَلَيْهِ يَوْمَ القيامَةِ[4]، وقَدْ تُصيبُ الصّالِحينَ نَكَباتٌ ومَصائِبُ وآلامٌ، فتَكونُ بَلْوى وزيادَةً في الأجْرِ، ولِما لا يَعْلَمُهُ إلّا اللَّه، وقَدْ تُصيبُ المُسْرِفينَ خَيْراتٌ ونِعَمٌ إمهالًا واستِدْراجًا ولأسْبابٍ غَيْرِ ذَلِكَ مِمّا لا يُحْصيه إلّا اللَّه، وهو

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، حديث رقم: (6731).

(2) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 10/ 393.

(3) رواه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر، حديث رقم: (2578).

(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 41.

أَعْلَمُ بِخفايا خَلْقِهِ ونيّاتِهم ومَقاديرِ أَعْمالِهم مِن حَسَناتٍ وسَيِّئاتٍ، واسْتِعْدادِ نُفوسِهم وعُقولِهم لِمُخْتَلِفِ مَصادِرِ الخَيْرِ والشَّرِّ[1].

دَلالَةُ التَّعبيرِ بِـ ﴿كَسَبَتْ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

لَمّا كانَ السّياقُ سياقَ جَزاءٍ بالمَصائِبِ على إتيانِ المَعاصي والذُّنوبِ، فقَدْ عُبِّرَ بمادَّةِ الاكْتِسابِ، لِما فيه مِنْ مَعْنَى التَّحْصيلِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ بِجُهْدٍ ما[2]، فلَم تصِبْهُمُ المَصائِبُ إلّا بسببِ الحِرصِ والاجْتِهادِ والإصْرارِ على اكْتِسابِ المَعاصي اتِّباعًا للشَّهَواتِ، وعَبَّرَ النَّظْمُ الكَريمُ بالفِعْلِ ﴿كَسَبَتْ﴾ في صيغَةِ المُضيِّ؛ للدَّلالَةِ على التَّحقُّقِ مِن ارْتِكابِها والتَّلَبُّسِ بِفِعْلِها؛ فإنَّ النُّفوسَ مَطْبوعَةٌ على النَّقائِضِ، فهي لا تَنْفَكُّ عَنْها.

مِنْ تَمامِ عَدْلِ اللهِ عِقابُ المُصِرّينَ على المَعاصي المُتَلَبِّسينَ بِها

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بِالمَجازِ المُرسَلِ ﴿أَيْدِيكُمْ﴾:

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أضافَ النَّظْمُ الحَكيمُ الكَسْبَ إلى اليَدِ؛ وذَلِكَ لأنَّ العَمَلَ غالِبًا ما يَكونُ باليدِ، كَما أنَّ الكَسْبَ لا يَكونُ باليَدِ، بَلْ بِالقُدْرَةِ القائِمَةِ باليَدِ، ومِنْ ثَمَّ فقَدْ أَطْلَقَ اليَدَ، وأرادَ القُدْرَةَ[3]، وفيه إشارَةٌ إلى أنَّ كُلَّ نَكَدٍ لاحِقٍ إنَّما هو بِسَبَبِ ذَنْبٍ سابِقٍ، أَقَلُّهُ التَّقْصيرُ، فالآيَةُ داعيَةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ إلى المُبادَرَةِ عِنْدَ وُقوعِ المُصيبَةِ إلى مُحاسَبَةِ النَّفْسِ لِيَعْرِفَ مِن أَيْنَ جاءَ تَقْصيرُهُ، فيُبادِرَ إلى التَّوْبَةِ عَنْهُ والإقْبالِ على اللهِ؛ لِيُنْقِذَ نَفْسَهُ مِنَ الهَلَكَةِ، وفائِدَةُ ذَلِكَ - وإنْ كانَ الكُلُّ بِخَلْقِه وإرادَتِه - إظْهارُ الخُضوعِ والتَّذَلُّلِ، واستِشْعارُ الحاجَةِ، والافْتِقارُ إلى الواحِدِ القَهّارِ[4].

غالِبُ العَمَلِ يَكونُ باليَدِ، وفي المَجازِ حَثٌّ على مُحاسَبَةِ النَّفْسِ على ما اقْتَرَفَتْهُ

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَيَعْفُواْ﴾:

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ بالواوِ المُفيدَةِ للعَطْفِ أو الاستِئْنافِ[5] قَوْلَهُ

بَعْدَ ذِكْرِ الجَزاءِ عَدْلًا، جاءَ ذِكْرُ العَفْوِ فضْلًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 102.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كسب).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 601.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 315.
(5) الخطيب وآخران، التّفصيل: 25/ 98.

تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ على جُملَةِ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، وذَلِكَ لِما بَينَ الجملتَين مِنَ التَّوَسُّطِ بينَ الكَمالَين: كَمالِ الانْقِطاعِ، وكَمالِ الاتِّصالِ؛ إذْ لَمّا ذَكَرَ عَدْلَهُ؛ أَتْبَعَهُ فضْلَهُ، ولَولا عَفْوُهُ وتَجاوُزُهُ؛ لما تَرَكَ على ظَهْرِها مِن دابَّةٍ[1].

دَلالَةُ التَّعبيرِ بِمادَّةِ العَفْوِ:

كَثافَةُ الدَّلالاتِ المَعْنَويَّةِ في العَفْوِ ففيها تَرْكُ المُؤاخَذَةِ والتَّغْطيَةُ والمَحْو

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِمادَّةِ العَفْوِ في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾، وذَلِكَ لِما فيها مِنَ الدَّلالَةِ على تَرْكِ الشَّيْءِ، فعَفْوُ اللهِ تعالى عَنْ خَلْقِه تَرْكُهُ إيّاهم، فلا يُعاقِبُهُم، فضْلًا مِنْهُ، كَما أنَّ في العَفْوِ أيْضًا مَعْنَى السَّتْرِ وتَغْطيَةِ الشَّيْءِ بِطَبَقَةٍ خَفيفَةٍ أو هَشَّةٍ، فالعَفْوُ عَنِ السَّيِّئاتِ عَدَمُ المُؤاخَذَةِ عَلَيْها، كَأنَّ مَنْ عَفا غَطّاها، أوْ أعْرَضَ عَنْها، فلَم يَنْظُرْ إلَيْها[2]، كَما تَشْتَمِلُ مادَّةُ العَفْوِ على مَعْنَى الدُّروسِ، كَقَوْلِهم: (عَفَتِ الدِّيارُ)، أي: ذَهَبَتْ آثارُها[3]، والمَعْنى: أنَّهُ تَعالى يَعْفو، أيْ: يَصْفَحُ، فلا يُصيبُ كَثيرًا مِن عِبادِه الَّذينَ استَحَقّوا جَزاءَ السّوءِ بِعُقوباتٍ دُنْيَويَّةٍ؛ لأنَّهُ يَعْلَمُ أنَّ ذَلِكَ ألْيَقُ بِهِم، فالمُرادُ هُنا: العَفْوُ عَنِ المُؤاخَذَةِ في الدُّنْيا، ولا عَلاقَةَ لَها بِجَزاءِ الآخِرَةِ، فإنَّ فيه أدِلَّةً أُخْرى مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ[4].

مَعْنَى ﴿عَن﴾ ودَلالَتُها في: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾:

بِكَرامَةِ العفْوِ يَصيرُ بَيْنَ التّائِبينَ وذُنوبِهِم مَدًى بَعيدٌ

عَدَّى النَّظْمُ الحَكيمُ الفِعْلَ ﴿وَيَعۡفُواْ﴾ بِحرفِ الجَرِّ ﴿عَن﴾، فقَيَّدَ الفِعْلَ بِشِبْهِ الجُملَةِ، فلَم يكتَفِ بـ﴿وَيَعۡفُواْ﴾؛ وذَلِكَ لأنَّ مِنْ دَلالَةِ حَرْفِ ﴿عَن﴾ المُجاوَزَةَ، ومَعْنَى المُجاوَزَةِ الابتِعادُ، تَقولُ: (انْصَرَفَ عَنْهُ)، ووَضَعَهُ عَنْهُ، بِمَعْنَى: رَفَعَهُ عَنْهُ بَعْدَ أنْ كانَ عَلَيْه، وتَقولُ: انْتَقَلَ عَنْهُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 316.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عفو).
(3) معمر بن المثنى، شرح نقائض جرير والفرزدق: 3/ 976.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 102.

وابْتَعَدَ عَنْهُ، ونَأى عَنْهُ، وانْحَرَفَ عَنْهُ، فكُلُّها تُفيدُ المُجاوَزَةَ والبُعْد[1]، فأفاد التَّعْبيرُ بحَرْفِ ﴿عَن﴾ سَعَةَ رَحْمَةِ اللّه وغُفْرانِه وعَفْوِه، فيُباعِدُ بَيْنَ التّائِبينَ وذُنوبِهم.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ (يَعفو):

عـفْـوُ الـلـه عَـنْ عِبادِه مُتَجَدِّدٌ لا ينقَطِعُ

في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بصيغةِ المُضارَعَةِ (يَعْفو)؛ للدَّلالَةِ على التَّجَدُّدِ الاسْتِمراريِّ، فعَفْوُهُ تعالى وسَتْرُهُ لا ينْقَطِعُ ساعَةً واحِدَةً عَن عِبادِه في لَيْلٍ أو نَهارٍ، للتّائِبِ وغَيْرِ التّائِبِ، فعَفْوُه تباركت آلاؤُه راجِعٌ إلى مَشيئَتِه غَيْرُ مَوْقوفٍ على التَّوْبَة[2].

الغَرَضُ مِن التَّنكيرِ في: ﴿كَثِيرٖ﴾:

مِنْ سَعةِ عَفْوِه سبحانه أنَّـهُ يَعْفو عَنْ كَثيرٍ مِنَ الذُّنوبِ وعَنْ كَثيرٍ مِنَ النّاسِ

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿كَثِيرٖ﴾ نَكِرَةً للتَّهْويلِ والتَّكْثيرِ؛ إذِ المُرادُ أنَّهُ تعالى يَعْفو عَنْ كَثيرٍ مِنَ الذُّنوبِ، فلا يُحاسِبُ عليْها في الدُّنْيا، أوْ يَعْفو عَنْ خَلْقٍ كَثيرٍ، أوْ تكونُ ﴿كَثِيرٖ﴾ صِفَةً لِمَحْذوفٍ، أيْ: عَنْ خَلْقٍ أوْ ناسٍ، ولا مانِعَ مِنَ الجَمعِ بيْنَ التَّقديرَينِ، فهو تعالى يَعْلَمُ أحْوالَ عبادِهِ وما تَغَلَّبَ مِن حَسَناتِهم على سَيِّئاتِهم، فيُعامِلُهُم بما تَقْتَضيه الحِكْمَةُ الإلَهيَّةُ مِن إمهالِ بَعْضِ عِبادِه أوْ مِن ابْتِلاءِ بَعْضِ المُقَرَّبينَ، وتِلْكَ مَراتِبُ كَثيرَةٌ وأحْوالٌ مُخْتَلِفَةٌ تَتَعارَضُ، وتَتَساقَطُ، والمُوَفَّقُ يَبْحَثُ عَنِ الأَسْبابِ، فإنْ أعْجَزَتْهُ؛ فوَّضَ العِلْمَ إلى اللّه[3].

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَمَآ أَنتُم﴾:

بَـعْـدَ الامـتـنـانِ بـالـعَـفْـوِ، يأتي الاحْـــتِـراسُ؛ حَـتّـى لا يَـغْـتَـرَّ الـمُـتَـهـاوِنـونَ والغافِلونَ

عَطَفَ النَّظْمُ الجَليلُ قَوْلَ اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ على جُملَةِ ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ بواوِ العَطْفِ[4]، وهو احتِراسٌ، أيْ: يَعْفو عَنْ قُدْرَةٍ، فإنَّكم لا تُعْجِزونَهُ، ولا تَغْلِبونَهُ، ولَكِنْ

---

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 3/ 54.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 41.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 102.

(4) الخطيب وآخران، التّفصيل: 28/ 70، وقد تكون الواو للاستِئْنافِ أو الحالِ.

يَعْفو تَفَضُّلًا[1]؛ إذْ قَدْ تُغْري هَذِه السَّعةُ مِنَ العَفْوِ بَعْضَ أهْلِ الإيمانِ بالغَفْلَةِ اعْتِمادًا على هَذا الإكْرام، فجاءَتْ هَذِه الآيَةُ، وفيها قَدْرٌ مِنَ الغَضَبِ والوَعيدِ لِتَتَوازَنَ مَعَ آيَة: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾، ويَكون التَّرْهيبُ قد جاءَ بَعْدَ التَّرْغيبِ؛ لِيَظَلَّ المُؤْمِنُ بَيْنَ هاتَيْنِ الحالَتَيْن، راجيًا رَحْمَةَ رَبِّهِ وخائِفًا مِنْ عِقابِهِ[2].

دَلالَةُ النَّفْيِ بِـ (ما):

ليسَ في مَقْدورِ أحَدٍ كائِنًا مَنْ كانَ أنْ يَخْرُجَ على قَدَرِ الله وسُلْطانِه

في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ آثَرَ النَّظْمُ الجَليلُ استِعْمالَ (ما) لِنَفْيِ قُدْرَتِهم على الهَرَبِ ممّا قَدَّرَهُ اللّهُ؛ وذَلِكَ لأنَّ النَّفْيَ بِـ(ما) آكَدُ مِنَ النَّفْيِ بِـ(لَيْسَ)، فإنَّها تَقَعُ جوابًا لِلْقَسَم، وهيَ أوْسَعُ استِعْمالًا مِنها أيضًا، فـ (لَيْسَ) مُخْتَصَّةٌ بِنَفْيِ الجُمَلِ الاسميَّةِ، وأمّا (ما)؛ فتَنْفي الجُمَلَ الفِعْلِيَّةَ والاسْمِيَّةَ[3]، والمُرادُ: ما أَنْتُمْ بِجاعِلينَ اللّه ﷻ عاجِزًا عَنْ أنْ يُصيبَكم بالمَصائِبِ بِما كَسَبَتْ أيْديكم[4]، وإنْ رَكِبْتُم في الهَرَبِ مَتْنَ كُلِّ صَعْبٍ وذَلولٍ، والمُرادُ بَيانُ دَوامِ انتِفاءِ الإعْجازِ، لا بَيانُ انتِفاءِ دَوامِ الإعْجازِ، فإنَّ الجُمْلَةَ الاسميَّةَ كَما تَدُلُّ على دَوامِ الثُّبوتِ تَدُلُّ بِمَعونَةِ المَقام - إذا دَخَلَ عَلَيْها حَرْفُ النَّفْيِ - على دَوامِ الانْتِفاءِ لا على انْتِفاءِ الدَّوامِ[5].

الغَرَضُ مِن تَعْريفِ المُسْنَدِ إلَيْهِ بِضَميرِ الخِطابِ جَمعًا، والمُرادُ بالمُخاطَبِ ﴿أَنتُم﴾:

تَقْريرُ نَفْيِ إعْجازِهم لله، لا اخْتِصاصِهِم بالنَّفْيِ، فكلُّ الخَلْقِ مَقْهورونَ بِعَظَمَتِهِ تعالى

جاءَ المُسْنَدُ إلَيْهِ ضَميرَ خِطابٍ جَمعًا ﴿أَنتُم﴾ مَسْبوقًا بالنَّفْيِ، وهَذا البِناءُ الَّذي يَتَقَدَّمُ فيه النَّفْيُ على المُسْنَدِ إلَيْه، والخَبَرُ اسْمٌ مُشْتَقٌّ، وإنْ كانَ يُفيدُ الاخْتِصاصَ في مَواقِعَ كَثيرَةٍ، فإنَّهُ هُنا لا يُفيدُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 103.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 163.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 41.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/ 188.

الاخْتِصاصَ؛ لأنَّ المَعْنَى لَيْسَ على أنَّكُم خُصوصًا، لا تُعْجِزونَ اللهَ في الأرْضِ بِخِلافِ غَيْرِكُم، وتَعالَى عَنْ ذَلِكَ، وإنَّما هوَ بِناءٌ يُفيدُ التَّقْوِيَةَ والتَّقْرِيرَ، بِخِلافِ قَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البَقَرَة: 167]، فإنَّ المَعْنَى على الاخْتِصاصِ، أنَّهُم خُصوصًا لا يَخْرُجونَ، بِخِلافِ غَيْرِهِم مِنْ أصْحابِ المَعاصي المُؤْمِنينَ، فإنَّهُم يَخْرُجونَ، وقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ كَثيرًا في الكِتابِ العَزيزِ في مَقاماتِ التَّهْديدِ والتَّرْهيبِ، كَما في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٰتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ١٣٤﴾ [الأنعام: 134]، وقَوْلِه جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿۞وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ٥٣﴾ [يونس: 53]، وقَوْلِه سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾ [هود: 33]، وهيَ في كُلِّ هَذا خِطابٌ لِلكافِرينَ[1].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ:

دوامُ عَجْزِ البَشَرِ أمامَ قُدْرَةِ الله، فلا يُعْجِزونَ اللهَ شَيْئًا

جاءَ التَّعْبيرُ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ المَنْفِيَّةِ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ لِبَيانِ عَجْزِهِم الكامِلِ عَنِ النَّجاةِ مِنَ المَصائِبِ إنْ قَدَّرَها اللهُ عَلَيْهِم جَزاءً بِما كَسَبَتْ أيْديهِم مِنَ المَعاصي والذُّنوبِ والآثامِ، والتَّعْبيرُ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ دَليلٌ على ثُبوتِ العَجْزِ لَهُم واسْتِمْرارِهِ مِنْهُم، فإنَّهُم أمامَ مَقْدورِ اللهِ لَيْسوا بِناجينَ، مُفْلِتينَ مِنْ عِقابِهِ في أيِّ وقْتٍ مِنْ أوْقاتِ حَياتِهِم، أوْ بَعْدَ حَياتِهِم، فالجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ لِدَوامِ الاسْتِمْرارِ، والمُرادُ: دَوامُ اسْتِمْرارِ النَّفْيِ وتَأْكيدُهُ نَفْيَ الاسْتِمْرارِ[2].

مَعْنَى الباءِ ودَلالَتُها في خَبَرِ (ما) ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾:

تأكيدُ عَجْزِهِم الدّائِمِ المُلاصِقِ لَهُم رَدٌّ على افْتِرائِهِم على رَسولِ اللهِ ﷺ

جاءَتِ الباءُ في قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ زائِدَةً على أصْلِ الصِّناعَةِ النَّحْوِيَّةِ؛ إذِ الأصْلُ: (وما أنتم مُعْجِزينَ)، وقد آثَرَ النَّظْمُ البَليغُ اسْتِعْمالَ الباءِ هَهُنا لِتَأْكيدِ وَصْفِهِم بِالعَجْزِ؛ وذَلِكَ لأنَّ

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 163.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 245.

المَقامَ لَمّا كانَ مَقامَ تَحَدٍّ وإظْهارِ المُعانَدَةِ مِنْهُم بالافْتِراءِ على رسولِ اللّه ﷺ كَذِبًا وزورًا وبُهتانًا؛ أكَّدَ الاسْمَ بالباءِ، فدَلَّتْ أيْضًا على أنَّ وصْفَهُم بالعَجْزِ صارَ مؤكدًا ومُلاصِقًا لَهُم لا يَنْفَكُّ عَنْهُم أبَدًا.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِ(مُعْجِزينَ) مادَّةً وصيغَةً:

بَيانُ دَوامِ انْتِفاءِ العَجْزِ عَنِ الفِرارِ مِنْ قَدَرِ الله سُبْحانَهُ

آثَر النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بِمادَّةِ الإعْجازِ في قَوْلِه: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ مِنَ العَجْزِ، لِما فيها مِنَ الدَّلالَةِ على التَّأخُّرِ والضَّعْفِ[1]، وصارَ في التَّعارُفِ اسْمًا لِلْقُصورِ عَنْ فِعْلِ الشَّيْءِ، وهوَ ضِدُّ القُدْرَةِ[2]، والمُعْجِزُ: الغالِبُ غَيْرَهُ بِانْفِلاتِه مِن قَبْضَتِه، والهَمزَةُ في فِعْلِ (أعْجَزَ) الَّذي اشْتُقَّ مِنْهُ (مُعْجِزٌ) دالَّةٌ على التَّعْدِيَةِ، وقَوْلُهُ: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾، أي: جاعِلينَ مِنْ طَلَبِكُم عاجِزًا عَنْكُم غَيْرَ قادِرٍ على إدْراكِكُم، وإيثارُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ اسْمِ الفاعِلِ على المُسْتَقْبَلِ، فلَم يَرِد في النَّظْمِ القُرْآنيِّ مَثَلًا: (وَما أنْتُم تُعْجِزونَنا)؛ لِلإيذانِ بِكَمالِ قُرْبِ الإتْيانِ، ولِلدِّلالَةِ على الدَّوامِ الَّذي يُفيدُهُ العُدولُ عَنِ الفِعْلِيَّةِ إلى الاسْمِيَّةِ، وهَذا الدَّوامُ مُتَوَجِّهٌ إلى النَّفْيِ، فالمُرادُ: دَوامُ انْتِفاءِ الإعْجازِ، والمُعْجِزونَ: الغالِبونَ، أي: وما أنْتُم بِغالِبينَ الَّذي طَلَبَكُم، أي: بِمُفْلِتينَ[3].

فائِدَةُ حَذْفِ مفعول ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾:

تَعَذُّرُ مُمانَعَةِ الرَّبِّ سُبْحانَهُ ومُدافَعَتِه، عَمّا أرادَهُ وقَضاهُ

حَذَفَ النَّظْمُ الكَريمُ مَفْعولَ اسم الفاعِلِ في قَوْلِ اللّه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، والتَّقْديرُ: بِمُعْجِزينَ اللّهَ تَعالَى، وقيلَ: ما أنْتُم مِمَّنْ يُعْجِزُ مَنْ يُعَذِّبُكُم، ويَجوزُ أنْ يَكونَ قَدِ اسْتُعْمِلَ اسْتِعْمالَ اللّازِمِ؛ لأنَّهُ قَدْ كَثُرَ فيه حَذْفُ المَفْعولِ، حَتَّى قالَتِ العَرَبُ: "أعْجَزَ فُلانٌ"؛ إذا ذَهَبَ في الأرْضِ، فلَم يُقْدَرْ عَلَيْهِ[4]، والمَقْصودُ مِنَ المَحْذوفِ التَّنْبيهُ على أنَّ أحَدًا لا يَجوزُ أنْ يُمانِعَ رَبَّهُ، ويُدافِعَهُ عَمّا أرادَ، وقَضَى، ثُمَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (عجز).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 196.
(4) السمين، الدّرّ المصون: 6/ 220 - 221.

إنَّهُ تَعالَى بَيَّنَ أنَّ هَذا الجِنْسَ مِنَ الكَلماتِ، إنَّما يَجوزُ عَلَيْهِم ما داموا في الدُّنْيا، فأمّا إذا حَضَروا مَحْفِلَ القيامَةِ، وعايَنوا قَهْرَ اللّه تَعالَى وآثارَ عَظَمَتِهِ؛ تَرَكوا ذَلِكَ، واشْتَغَلوا بِأشْياءَ أُخْرَى[1].

دَلالَةُ تَقْييدِ عَدَمِ الإعْجازِ بِالأرْضِ دونَ السَّماءِ، ودَلالَةُ التَّعْريفِ في: ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

عُمومُ قُدْرَةِ اللّه في الأرْضِ، فلا تـوجَدُ بُقْعَةٌ في الأرْضِ تَعْصِمُ مِنْ إرادَتِه تعالى

في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ قَيَّدَ النَّظْمُ الحَكيمُ النَّفْيَ بِقَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لأنَّهُ لَمّا كانَ مَن ثَبَّتَ قُدْرَتَهُ على مَحَلِّ العُلوِّ بِخَلْقِه، وما أوْدَعَهُ مِنَ المَصْنوعاتِ، أجدرَ بِالقُدْرَةِ على ما دونَهُ؛ أشارَ إلى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، ولَمّا كانَ الكَلامُ في العُقوبَةِ في الدُّنْيا قَبْلَ المَوْتِ، ولَم يَكُنْ أحَدٌ يَدَّعي فيها التَّوَصُّلَ إلى السَّماءِ، لَم يَدْعُ داعٍ إلى ذِكْرِها بِخِلافِ ما مَضى في العَنْكَبوتِ[2]، وذَهَبَ بَعْضُهُم إلى أنَّ التَّقْييدَ هنا لإرادَةِ التَّعْميمِ، أي: في أيِّ مَكانٍ مِنَ الأرْضِ لِئَلّا يَحْسَبوا أنَّهم في مَنَعَةٍ بِحُلولِهِم في مَكَّةَ الَّتي أمَّنَها اللّه تَعالى، وذَلِكَ أنَّ العَرَبَ كانوا إذا خافوا سَطْوَةَ مَلِكٍ أو عَظيمٍ سَكَنوا الجِهاتِ الصَّعْبَةَ[3]؛ رَغْبَةً في الامتِناعِ بِها مِنْ أنْ يَصِلَ إلَيْهِم أحَدٌ، وقيلَ: إنَّ المُرادَ أنَّكم لا تُعْجِزونَ مَن في الأرْضِ مِن جُنودِهِ تَعالى، فكَيْفَ بِمَن في السَّماءِ[4]، وجاءَتِ الأرْضُ مُعَرَّفَةً لإفادَةِ الجِنْسِ، فلا مَهْرَبَ لكم في الأرْضِ رُغْمَ اتِّساعِها.

مَعْنَى الواوِ ودَلالَتُها في: ﴿وَمَا لَكُم﴾:

بعْدَ نَفْيِ إمكانِ الهَرَبِ، جاءَ نَفْيُ الوَلِيِّ أوِ النَّصيرِ، فانْتَفَتْ كَلُّ سُبُلِ الوِقايَةِ

جاءَتِ الواوُ في قَوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَا لَكُم﴾ عاطِفةً، فعَطَفَتْ قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ على قَوْلِه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فبَعْدَ أنْ نَفى النَّظْمُ الحَكيمُ أنْ يَكونَ لَهم مَنجًى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/ 265.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 317.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 103.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 41.

مِن سُلْطَةِ اللَّه بِنَفْيِ أَنْ يَكونَ لَهم مَلْجأً يلجؤونَ إِلَيْه لِيَنْصُرَهم، ويَقيَهم مِن عَذابِ اللَّه؛ أَعْقَبَهُ بِبيانِ أَنَّهم لَيْسَ لَهُم وليٌّ يَتَوَلَّاهُم، فيَمنَعُهُم مِن سُلْطانِ اللَّه، ولا نَصيرَ يَنْصُرُهُم على اللَّه؛ إنْ أرادَ إصابَتَهُم، فيَغْلِبونَهُ، فجَمَعَتِ الآيَةُ نَفْيَ ما هو مُعْتادٌ بَيْنَهم مِن وُجوه الوِقايَةِ[1].

الغَرَضُ مِن تَقْديمِ ﴿لَكُم﴾ على ﴿وَلِيّ﴾:

قَدَّمَ النَّظْمُ الحَكيمُ شِبْهَ الجُملَةِ ﴿لَكُم﴾؛ للتَّقْريرِ والتَّوْكيدِ على حَقيقَةِ انْتِفاءِ النّاصِرِ والوَلِيِّ سِوَى اللّه ﷻ، وغالبًا ما يكونُ دُخولُ (ما) النّافية على الخَبَرِ الجارِّ والمَجرورِ المُقَدَّمِ؛ لإفادَةِ الاخْتِصاص، ولَكِنَّهُ لا يَسْتَقيمُ هَهُنا؛ لأنَّ الاخْتِصاصَ يَجْعَلُ المَعْنَى: (وَما لكم خُصوصًا مِن دونِ اللّه مِن وليٍّ، بِخِلافِ غَيْرِكُم)، وهَذا المَعْنَى يُسْتَعاذُ بِاللّه مِنْهُ؛ لأنَّهُ لَيْسَ لَهُم، ولا لِغَيْرِهم مِنْ دونِ اللّه مِنْ وليٍّ[2].

لا وليَّ ولا ناصِرَ لَهُم ولا لِغيْرِهم سِوَى اللهِ، فالتَّقْديمُ للتَّقْريرِ والتَّوكيدِ

دَلالَةُ ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

دلَّتْ ﴿مِّن﴾ على استِغْراقِ نَفْيِ الأولياءِ أوِ النُّصَراءِ من دونِ اللّه، فأكَّدَتِ اختصاصَه تعالى بالولايةِ والنُّصْرَةِ الحقيقيَّة، وزادَتْ مِن تَأكيدِ نَفْيِ وِلايَةِ كُلِّ أحدٍ سِواه[3]، فلا عاصِمَ سِواه مِنَ المَصائِب، وقيلَ: المُرادُ مَن يَعْبُدُ الأصْنامَ، فبَيَّنَ أنَّهُ لا فائِدَةَ فيها البَتَّةَ، والنَّصيرُ هو اللّه تَعالى، فلا جَرَمَ هو الَّذي تَحْسُنُ عِبادَتُهُ[4].

استِغْراقُ نَفْيِ الأولياءِ والنُّصَراءِ، وتَأكيدُ اخْتِصاصِهِ وحْدَهُ بِهما

مَعْنَى ﴿دُونِ﴾ وإضافَتُها إلى لَفْظِ الجلالَةِ:

دلَّ التَّعبيرُ بكلمة ﴿دُونِ﴾ مَعَ إضافَتِها إلى لَفْظِ الجَلالَةِ على أنَّ أيَّ ولايَةٍ أو نُصْرَةٍ مِن غيرِ اللّهِ حقيرةٌ صغيرةٌ مُهانَةٌ؛ وذلكَ لأنَّ (دونَ) ظَرْفُ مكانٍ، يُعَبَّرُ به عنِ المَنْزِلَةِ الدَّنِيَّةِ[5]، وهوَ نقيضُ فوق،

لا تُطْلَبُ الولايةُ والنُّصْرَةُ إلّا مِنَ الله سبحانَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 104.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 165.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الشورى، ص: 262.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 601.
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (دون).

وهوَ تَقْصيرٌ عَنِ الغايَةِ، والدّونُ: الحَقيرُ الخَسيسُ[1]، فالمادَّةُ تَدورُ حَوْلَ عَدَمِ الرِّفْعَةِ وهبوطِ المكانَةِ، وفي ذلكَ ذمٌّ لكُلِّ ولايَةٍ أو نُصْرَةٍ مِنْ دونِ اللّه تعالى.

دَلالَةُ التَّصْريحِ بِلفْظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

التَّعبيرُ بالاسمِ الأعْظَمِ حثٌّ على إحْسانِ الظَّنِّ بالله

دَلَّ التَّصْريحُ بلفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ دونَ التَّعْبيرِ بالضَّميرِ (مِنْ دونِه) على أنَّ اللهَ وحْدَه هوَ النّاصِرُ والوَليُّ حَقيقَةً، وجاءَ التَّصْريحُ بالاسْمِ الأعْظَمِ تَذْكيرًا بِهَذِه الحَقيقَةِ الخالِدَةِ؛ كَي يتَنَبَّهَ هؤلاءِ المُفْتَرونَ مِنْ قُرَيْشٍ أوِ الغافِلونَ مِنَ المُسْلِمينَ إلى سوءِ ظَنِّهم باللّه سبحانَه، فيَعودوا إلى حُسْنِ الظَّنِّ به.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظ: ﴿وَلِيّ﴾:

في التَّعْبيرِ بالوَليِّ من كَثافةِ المعاني ما ليسَ في غَيرِه مِنَ الألفاظِ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ عن نَفْيِ وُجودِ النّاصِرِ أوِ المُعين بقولِه: ﴿وَلِيّ﴾؛ إذِ الوَلاءُ والتَّوالي أن يَحْصُلَ شيئانِ فصاعَدًا حُصولًا لَيْسَ بيْنَهُما ما لَيْسَ منْهما، ويُسْتَعارُ ذلكَ للقُربِ مِنْ حيثُ المكانُ والنِّسْبَةُ، والدّينُ، والصَّداقَةُ، والنُّصرَةُ، والاعتقادُ[2]، ففي التَّعبيرِ بالوَليِّ مِن كثافةِ المعاني ما ليسَ في غيرِه مِنَ الألفاظِ، ولذلكَ آثَرَ البيانُ القرآنيُّ هذا اللَّفْظَ؛ لبيانِ شدَّةِ ضَلالِ الكافِرينَ المُفْتَرينَ على رَسولِ اللّه ﷺ الَّذينَ عانَدوهُ، وكَذَّبوهُ.

دَلالَةُ الجمعِ بينَ الوليِّ والنَّصير:

نصْرُ الله لِعبادِه هـو حسـنُ المَعونَةِ والتأييدِ لَهُم

جَمَعَ النَّظْمُ الحكيمُ بينَ نَفْيِ الولايةِ ونَفْيِ النُّصْرَةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، وذلكَ لقطعِ الأطْماعِ في الانتفاعِ بالولايَةِ أوِ النُّصْرَةِ كِلَيْهما مُجْتَمِعَتَيْنِ أو مُنْفَرِدَتينِ مِنْ غيرِ اللّه، حتَّى يَتَرَسَّخَ في عقولِ المُتَلَقّينَ أنّه لا سبيلَ إلى أيِّ شَكْلٍ من أشكالِ العونِ أو النَّصرِ إلّا مِنْ عِنْدِ اللّه تعالى.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (دون).

(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (ولي).

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ﴿نَصِيرٍ﴾ دونَ (ناصرٍ):

مَعْنَى النَّصيرِ أوسعُ مِنْ معنى النّاصِرِ وأبلغُ منه

آثَرَ البَيانُ القرآنيُّ التَّعْبيرَ بصيغَةِ المُبالَغَةِ ﴿نَصِيرٍ﴾ دونَ اسْمِ الفاعِلِ؛ لأنَّ مَعْنَى (نصيرٍ) أوسعُ مِنْ حَيْثُ إنَّ (فعيلًا) مِنْ أبْنِيَةِ المُبالَغَةِ، فيُعْطي كثرةً[1] في المعنَى المرادِ، ولمّا كانوا في موقفٍ شديدٍ عصيبٍ؛ فإنَّهُم أحوجُ ما يكونُ للنَّصيرِ بما فيه مِن معاني المُبالَغَةِ في النُّصرَةِ دونَ النّاصرِ فحسب.

سِرُّ تَقْديمِ الوَلِيِّ على النَّصيرِ:

الوليُّ أقربُ مِنَ النَّصيرِ وأسْهَلُ منالًا

قَدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ ذِكْرَ الوَليِّ على النَّصيرِ لأمرينِ اثنينِ: **الأوَّلُ:** القُرْبُ؛ إذِ الوَليُّ أقربُ مِنَ النَّصيرِ؛ إذْ به تقومُ الأمورُ والأحوالُ، ثُمَّ يكونُ النَّصيرُ في أحوالِ النُّصرَةِ والتَّأييدِ في ساعاتِ المَصائِبِ والابتلاءاتِ والرَّزايا، **والثّاني**: السُّهولَةُ؛ لأنَّ الرُّكْنَ الشَّديدَ الَّذي يُسْتَنَدُ إليْه إمّا وليٌّ يَشْفَعُ، أوْ ناصِرٌ يَدْفَعُ، والأوَّلُ أسْهَلُ الطَّريقَينِ؛ فلِذَلِكَ قَدَّمَ الوَليَّ على النَّصيرِ[2].

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿وَلِيّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾:

بيانُ عجزِ كُلِّ وليٍّ أو نَصيرٍ مِنْ دونِ الله على العُمومِ

عَبَّرَ الحَكيمُ بتَنْكيرِ كلمتَيْ ﴿وَلِيّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾، وذَلِكَ للدَّلالَةِ على العُمومِ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ، والتَّحْقيرِ مِنْ حَيْثُ المَعْنَى، فكُلُّ وليٍّ أوْ نَصيرٍ اتُّخِذ مِنْ دونِ اللّه، سَواءٌ أكانَ جَليلًا أوْ حَقيرًا، ومَهْما كانَ، وفي أيِّ زمانٍ كانَ، لا تَكْمُلُ وِلايَتُه، ولا تُسْتَكْمَلُ نُصْرَتُهُ لِمَنْ والاه، ونَصَرَه، بَلْ كُلُّ وِلايَةٍ أو نُصْرةٍ دونَ وِلايَةِ اللّه ونُصْرَتِه ناقصةٌ غيرُ تامَّةٍ.

سِرُّ توسُّطِ (لا) بينَ المعْطوفينَ:

تأكيدُ نَفْيِ النَّصيرِ أدْعَى للعَوْدَةِ إلى الله ﷻ

توَسَّطَتْ (لا) بينَ المَعْطوفَيْنِ في قَوْلِه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾، لتأكيدِ النَّفْيِ؛ لأنَّ نَفْيَ الوَليِّ لا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ

(1) الغرناطي، ملاك التّأويل: 1/ 48.

(2) النّيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 380.

النَّصيرِ بالضَّرورةِ، فنَفَى النَّظْمُ وجودَ أيٍّ مِنْهُما؛ حَثًّا لَهُم على الالتِجاءِ إلى اللّٰه تعالى.

دَلالَةُ العَطْفِ والنَّفْيِ في: ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾:

نَفْيُ أوْهامِ الأفْهامِ أنْ يَكونَ نَصْرٌ مِنْ دونِ اللّٰه

عَطَفَتِ الآيَةُ النَّصيرَ على الوَليِّ في قَوْلِه: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، والعَطْفُ يَقْتَضي المَغايَرَةَ، والمُغايَرَةُ هَهُنا لِلاحْتِراس، فالوَليُّ قَدْ يَضْعُفُ عنِ النُّصرَةِ، والنَّصيرُ قَدْ يَكونُ أجْنَبيًّا عَنِ المَنْصورِ، فلِحُصولِ التَّكامُلِ بَيْنَ وِلايَةِ الوَليِّ ونُصْرَةِ النَّصيرِ عَطَفَ الواحِدَ على الآخَرِ؛ لأنَّ نَفْيَ الوَليِّ لا يَقْتَضي نَفْيَ كُلِّ نَصيرٍ؛ إذْ لا يَكونُ لأحَدٍ وليٌّ؛ لِكَوْنِه دَخيلًا في قَبيلَةٍ، ويَكونُ أنْصارُهُ مِنْ جيرَتِه[1]، فكَمَنَتْ بَلاغَةُ الاحْتِراسِ في اكْتِمالِ المَعاني، ونَفْيِ أيِّ ظَنٍّ يَرِدُ على الأذْهانِ في نُصْرَةِ أحَدٍ مِنْ دونِ اللّٰه تعالَى.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الكسْب والعَمل:

العَمَلُ أعَمُّ مِنَ الكَسْبِ، والكَسْبُ ما كانَ فيه الجِدُّ والقَصْدُ أظْهَرُ

الكَسْبُ: الفِعْلُ العائِدُ على فاعِلِه بِنَفْعٍ أو ضَرٍّ، وقالَ بَعْضُهُم: الكَسْبُ ما وقَعَ بِمِراسٍ وعِلاجٍ[2]، وأمّا العَمَلُ؛ فإنَّهُ أعَمُّ مِنَ الكَسْبِ؛ لأنَّ الكَسْبَ واقِعٌ على ما لِلإنْسانِ فيه تَعَمُّلٌ وعِلاجٌ[3]، فعَبَّرَ بما كَسَبَتْ دونَ عَمِلَتْ؛ لِلإشارَةِ إلى أنَّهُم قَدْ فعَلوا ذَلِكَ مُتَعَمِّدينَ؛ لأنَّهُم يُريدونَ الكَسْبَ؛ إذِ الكَسْبُ: كُلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الإنسانُ بِكَدِّه لِجَلْبِ نَفْعٍ أوْ دَفْعِ ضُرٍّ، ولِذَلِكَ لا يوصَفُ فِعْلُ اللّٰه بالكَسْبِ؛ لأنَّ فِعْلَهُ بَريءٌ عَنْ جَلْبِ المَنافِعِ ودَفْعِ الضَّرَرِ، فأعْمالُهُم السَّيِّئَةُ الَّتي اجْتَرَحوها كانَتْ بِقَصْدٍ وتَعَمُّدٍ وعِلاجٍ؛ لأنَّهُم قَصَدوا الضَّرَرَ والانتِفاعَ بها، فكانَ التَّعْبيرُ بالكَسْبِ عَنْ أفْعالِهِم تِلْكَ في سِياقِ الجَزاءِ بالمَصائِبِ والبَلايا أدَقَّ وأبْلَغَ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 695.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 137.

(3) الغرناطي، ملاك التّأويل: 2/ 427.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢﴾ [الشّورى: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

آيـةٌ أخـرى حـاضـرةٌ مشـهـودةٌ تـدلُّ عـلى وحـدانـيَّـة الله سبحانه

لَمّا دَلَّ سُبحانَه على تَمامِ قُدرتِه واختيارِه، وخَتَم بنَفيِ الشَّريكِ اللّازِمِ للوَحدانيَّةِ الَّتي اعتِقادُها أساسُ الأعمالِ الصّالحةِ؛ دَلَّ عليها بأعظَمِ الآياتِ عِندَهم، وأوضَحِها في أنفُسِهم، وأقرَبِها إلى أفهامِهم؛ لِما لهم مِن الإخلاصِ عندَها، فقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾: أصلُ مادَّة (جري) هو انسياحُ الشَّيءِ[2]، والمعنى المحوريُّ: انتقالٌ بحركةٍ خفيفةٍ سريعة مسترسلةٍ متَّصلة[3]، والجريُ: المَرُّ السَّريع، وأصله في الماءِ أو ما يجري مجراه، وجرَتِ السَّفينةُ ونحوُها: سارتْ، وانتقلتْ من مكانٍ إلى آخر، والجاريةُ يعني السَّفينة الَّتي تجري في البحر، وجمعها: جَوارٍ، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾، والجاريةُ: هي السَّفينةُ السّائرة في البحر[4]، وسُمّيت بذلك؛ لأنَّها تجري في البحرِ بسرعةٍ وخِفَّة[5].

2) ﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾: أصلُ (علم) أثَرٌ بالشَّيءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَن غيره، من ذلك العلامة، والعَلَمُ ما يُعرف به الشَّيء كالرّايةِ أو الجبل؛ لأنَّه بارزٌ شامل، والعَلامةُ: هي شيءٌ يُنصبُ في الفَلواتِ، تهتدي به الضّالَّة، فهي دلائلُ يُستدلُّ بها، كالجبلِ، والرّاية، والعُمُدِ البالغة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 317.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جري).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جري).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 540، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 257.
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (جرى).

الغِلَظ وغيرِها[1]، ومعنى ﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ هنا: كالجبال، شَبَّهَ السُّفنَ في البحر بالجبالِ الظّاهرة لكلِّ أحدٍ[2]، أو كالقصورِ العالية[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

يتابعُ البيانُ القرآنيُّ بيانَ كَمالِ قُدرتِه وعظَمتِه، فيقول: ومِن العَلاماتِ الباهِرةِ الدّالَّة على عَظيم سُلطانِ اللهِ ومُلكِه، وكَمالِ قُدرتِه وغَيرِ ذلك مِن صِفاتِ كَمالِه، السُّفُنُ الجاريةُ في البَحرِ، الَّتي هي كالجِبالِ.

جريانُ السُّفنِ العظيمة في البحر من العلامات الدّالَّة على كمالِ قدرة الله

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ما سبق من الآيات الدّالَّة على وحدانيَّته وكمالِ قُدرته سبحانه، كـ﴿خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: 29]، وما بثَّ فيهما من دابَّة، وأنَّ ما أصابَهم مِن مُصيبةٍ هو مُسبَّبٌ عن اقترافِ أعْمالِهم، وتَذكيرُهم بحُلولِ المصائبِ تارةً، وكشْفِها تارةً أُخرى، وأنَّهم في الحالتَين غيرُ خارجِينَ عن قَبْضةِ القُدرةِ الإلهيَّة، وفي هذا العطف ذِكرٌ لمثال آخَرَ - أوضحَ في أنفسهم، وأقربَ إلى أفهامهم - يَظْهَرُ فيه كمالُ قدرةِ اللّه تعالى وإنعامه على عباده.

مثالٌ آخَرُ يَظْهَرُ فيه كمالُ قدرة الله تعالى وإنعامُه على عباده

دلالة التَّعبير بـ(مِنْ):

حرفُ الجَرِّ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ﴾ للتَّبعيض[4]، فالسُّفنُ الجارية في البحر، حتّى لكأنَّها من ضخامتها وعِظَمِها كالجبال الشّاهقة هي بعضُ الآيات الدّالَّة على كمالِ قدرة اللّه.

بعضُ الآيات كافٍ في الدَّلالة على كمالِ قدرة الله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (علم).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (علم)، والنّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 257.
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 760.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 264.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ءَايَـٰتِهِۦ﴾ جمعًا مضافًا:

الآياتُ العظام الكثيرات الشّريفات القدْر علاماتٌ دالَّةٌ على الإعجازِ الكونيّ

آثرَ البيان الحكيمُ التَّعبيرَ بلفظِ (آيات) في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ دونَ لفظ (أدلَّة)؛ للإشارة إلى الإعجاز الإلهيِّ الكونيِّ للجواري في البحر، وعلى كونها علامةً ظاهرةً على قدرةِ اللّه سبحانه والوصولِ إلى الحقِّ، فالآيةُ أوسعُ دلالةً من لفظ العلامة أو الدَّليل؛ فهي العلامةُ الظّاهرة الواضحةُ والبرهانُ والمعجزةُ[1]، وجاء لفظُ الآيات جمعًا لا مُفردًا؛ للدَّلالة على تعدُّدِ آيات اللّه سبحانه وعِظَمِها، وإضافةُ الآياتِ لضمير الجلالة في قوله تعالى: ﴿ءَايَـٰتِهِ﴾ تخصيصٌ لها باللّه ﷻ، وإيذانٌ بعَظَمتها وعُلوِّ شأنها، وسُموٍّ مكانتِها في الشَّرف، فهي دالَّةٌ على تمامِ قدرته واختياره ووحدانيَّته وعظيم سُلطانه.

الغرضُ من تقديم الخبر ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ على المبتدأ:

في التَّقديم عنايةٌ بآياتِ الله، وتشويقٌ لإحداها؛ وهي الجواري في البحر

قدَّم النَّظمُ القرآنيُّ الخبرَ، وهو ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ على المبتدأ، وهو ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ﴾؛ للاهتمامِ والعنايةِ بالمُقَدَّم، فهي آياتُ اللّه الدّالَّة على الحقِّ، وللتَّشويقِ للمُؤخَّر، وهي هذه السُّفنُ العظيمة الَّتي تجري في البحر.

الغرض من حذف موصوف ﴿ٱلْجَوَارِ﴾:

في الحذف اختصارٌ ومنعٌ للالتباس وبلاغةٌ في لفت الانتباه

حُذِفَ الموصوفُ (السُّفن)؛ لأنَّ الجواري من الصِّفات الَّتي جرَتْ مجرى الأعلام للسُّفن[2]، وتكون بذلك نُكْتَةُ الحذفِ هي عدم الالتباس[3]، وكذلك للاختصار، وهو أبلغُ في لفتِ الانتباه إلى مكانِ العِبرة، وهي تسْخيرُ البَحرِ لِجَري السُّفن.

بلاغةُ التَّعبيرِ المجازيِّ في إطلاق الجريان على السُّفن:

العِبرةُ بذِكر الجواري أظهَرُ، والنِّعمةُ بها أكثَرُ

أُطلِقَ الجريانُ على السُّفن مجازًا؛ إيماءً إلى مَحلِّ العِبرةِ؛

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 154، و155.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 318.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 602.

لأنَّ العِبرةَ في تَسخيرِ البحرِ لِجَرْيِها، وتَفكيرِ الإنسانِ في صُنعِها، فالعِبرةُ بذِكْرِ الجواري أظهَرُ، والنِّعمةُ بها أكثَرُ[1].

دلالةُ التَّعريف بـ (اللّام) في: (﴿ٱلْجَوَارِ﴾، و﴿ٱلْبَحْرِ﴾، و﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾):

الاستدلالُ بما هو معهودٌ واضحٌ أدلُّ على بيانِ كمالِ قدرته سبحانه

لامُ التَّعريف في ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ و﴿ٱلْبَحْرِ﴾ و﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ عهديَّةٌ، والعهدُ فيها ذهنيٌّ؛ لعهدِ النّاس بهذه الأشياء وإلفهم لها، وتعريفها بلام العهد في سياقِ التَّشبيه يجعلُ المتلقّي أكثرَ إدراكًا وفهمًا بوجهِ الشَّبهِ - وهو الارتفاعُ والضَّخامةُ - لأنَّه يُلْحِقُ شيئًا معهودًا بشيءٍ معهودٍ مثله، ولو نُكِّرَ الطَّرفان أو أحدُهما؛ لفاتَتْ هذه المَزية[2]؛ للدَّلالة على الكثرةِ والتَّنوُّع، فالسُّفنُ في البحر تتعدَّدُ أشكالُها وأحجامُها ووظائفُها، وللدَّلالة كذلك على الحركةِ الدّائمة لجريانِ السُّفن في البحر، وهذا أظهرُ في الامتنان؛ إذ سخَّر لهم السُّفنَ الكثيرة الَّتي تجري لحاجاتهم المختلفة، وجمع المشبَّه به (الأعلام) للتَّناسب مع جمع المُشبَّه ﴿ٱلْجَوَارِ﴾.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ دون (على):

من تمامِ القُدرةِ الإلهيَّة تمكُّنُ السُّفنِ واستقرارُها حالَ جريانِها

في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ عبَّر القرآنُ بالظَّرف ﴿فِي﴾ دون (على)؛ لأنَّ السُّفنَ العظيمة لا تطفو فقط على سطحِ البحر، بل تسيرُ ضمنَ مياهه محاطةً به من كلِّ جانب، وهذا يتناسَبُ مع وصفها ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾، أي: الجبال، فالجبالُ جُزءٌ منها داخلَ الأرض، وليس فوقَها فقط، وكذلك للإشعار بتمكُّنها واستقرارها، وهي تجري إضافةً إلى استعلائها على الماء، فيظهرُ بذلك كمالُ الامتنانِ مع كمالِ القدرة الإلهيَّة.

الغرضُ من التَّعبير بالتَّشبيه في قوله: ﴿ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾:

جَريانُ السُّفنِ العظيمةِ وعدمُ غرقِها آيةٌ من آياتِ الله

هذا التَّشبيهُ فيه دلالةٌ على أنَّها رغم عِظمها تجري في البحر عند هبوبِ الرّياح على أسرعِ الوجوه، وعند سكون هذه الرّياح، وأنَّها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 105.

(2) صلاح حبيب سليمان، من أسرار التّعريف والتّنكير في سورة الشّورى، ص: 279.

رغمَ كونها في غايةِ الثِّقل تبقى على وجهِ الماء، فلا تغرق[1]، وكما أنَّ الجبل جُزءٌ منه داخلَ الأرض يُثَبِّته، كذلك السُّفنُ العظيمة يغوصُ جُزءٌ منها داخلَ البحر أثناءَ جريانها، ومع ذلك لا تغرَق، وفي هذا تمامُ تناسبٍ بين طرفي التَّشبيه، واختارَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظ (الأعلام) دون الجبال؛ لاتِّساع دلالةِ لفظِ الأعلام، ومن أهمِّها البُروزُ والظُّهور، كما أنَّ من (الأعلام) ما هو ثابتٌ، ومنها ما هو متحرِّكٌ، فالتَّشبيهُ بها أبلغُ وأدقُّ؛ إذِ السُّفنُ في البحر ظاهرةٌ لكلِّ أحدٍ، وهي تشبهُ الجبالَ في عظمتها ورسوخها، والمناراتِ العاليةَ والرّايات في ظهورها وحركتها، وهي دلائلُ يُستدَلُّ بها على كمالِ قدرةِ الصّانع سبحانه في التَّسخير والإنعام.

بلاغةُ الإعجاز القرآنيِّ في الإخبار عن التَّقدُّم العلميِّ في صناعة السُّفن:

تشبيهُ السُّفنِ بالأعلام له دلالةٌ علميَّة عميقة

في تشبيهِ السُّفن الجارية في البحر بالأعلام إعجازٌ علميٌّ؛ لأنَّ المُرادَ بالأعلامِ الجبالُ الظّاهرة لكلِّ أحدٍ[2]، ولم يكن هذا حالُ السُّفن في عهده ﷺ، فمَن الَّذي أنبأه بأنَّه سيأتي زمانٌ تُبنى، وتُنشَّأ فيه السُّفن في البحر عند الموانئ بطريقة هرميَّة كالجبال الشّاهقة، كما يحصل في عصرنا الحديث، وقد ازدادَ هذا المعنى بيانًا وإخبارًا بهذا الإعجاز في سورة الرَّحمن في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝٢٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥﴾ [الرّحمن: 24 - 25]، كما أنَّ تشبيهَ السُّفن بالجبال ليس مجرَّدَ تشبيهٍ بلاغيٍّ، بل له دلالةٌ علميَّة عميقة، فكما أنَّ الجبال لها جُزءٌ ظاهر وآخر مغمور في الأرض (كالأوتاد)، فإنَّ السُّفن أيضًا لها جزءٌ مغمور في الماء يحفظُ توازنَها، ويمنعها من الغرق، وأنَّ قوَّة الطَّفو تعتمدُ على حجمِ الجُزء المغمور من الجسم، وكما أنَّ الجبالَ متنوِّعةٌ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 602.

(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (علم)، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 257.

الألوانِ والأشكال والأحجام؛ فالسُّفنُ الحديثة كذلك، إضافةً إلى أنَّ الظَّرفيَّة ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ تُشيرُ إلى السُّفن الغوّاصة في قاع الماء، ووَصْفُ السُّفنِ بالرَّواكد الثَّوابت يدخل فيه السُّفن الحربيَّة الثّابتة، الَّتي يكون منها مهبطٌ للطّائرات، وغير ذلك.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ:

جريانُ السُّفن إظهارٌ لقُدرة الله، وإنشاؤها إبرازٌ لنعمهِ سبحانه

في آية الشّورى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾، وفي آية الرَّحمن: ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٢٤﴾ [الرّحمن: 24]، شبَّه سبحانه الجواري في البحر بالأعلام؛ إلّا أنَّه في الشّورى بدأ الآية بقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ﴾؛ وذلك للتَّناسب مع ما سبقها من قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشّورى: 29]، كما أنَّه لم يَذكرْ لفظَ (المنشآت)؛ لأنَّ سياق الآيات في سورة الشّورى تتحدَّث عن آياتِ اللّٰه الكونيَّة؛ للدَّلالة على كمالِ قدرةِ اللّٰه تعالى وأُلوهيَّته، فذُكِر أنَّ جريانَ السُّفنِ من آياته، فلم يتطلَّبْ ذِكْرُ صناعتها، ولم يذكرْ أنَّها له ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ﴾ [الرحمن: 24]، وبيَّن أنَّ مُجرَّدَ جريانِ السُّفن العظيمة الَّتي كالجبال في البحر دليلٌ على قدرةِ اللّٰه تعالى، بينما آيةُ الرَّحمن بدأتْ بملك اللّٰه تعالى للجواري ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ﴾ [الرحمن: 24]، وهو ملكُ تسخيرِ السَّير فيها، وأضافتْ لفظ ﴿ٱلۡمُنشَـَٔاتُ﴾ [الرحمن: 24]؛ لأنَّ سياقَ سورةِ الرَّحمن تذكيرٌ بنِعمِ اللّٰه تعالى وجميلِ إبداعِ صُنعِ خَلْقِه سبحانه، فالتَّذكيرُ بأنَّ السُّفنَ العظيمة مصنَّعةٌ بدقَّةٍ يُبرزُ نعمةَ الصِّناعة والتَّسخير، فأتى بلفظ (له) لِلتَّنْبِيهِ على أنَّ إنشاءَ السُّفن في البحر وصناعتها، لا يخرجُها عن ملكِ اللّٰه، فهو المنعمُ الأوَّلُ والآخر.

❁ الفروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الفُلك والسَّفينة:

الفُلك هو اسمٌ للسَّفينة، وسُمّيت بذلك لاستدارتها، ولأنَّها تُدارُ في البحر؛ إذ أصلُ مادَّة (فلك) تدلُّ على استدارةٍ في شيء، والفَلَكُ:

الـفُـلـك مـوجُ البحرِ المستدير، والفُلك واسعُ الحجمِ، والسَّفينة صغيرة الحجم

موجُ البحر المستدير المضطرب المُتَرَدِّد[1]، وقد ورد لفظُ الفلكِ في القرآن الكريم في (23) موضعًا، ويظهرُ أنَّه أطلقَ لفظ الفُلكِ؛ للدَّلالة على سَعتها وكِبَرِ حجمِها، وامتلائِها بالرُّكّاب والبضائع، وجَرْيها في عُرْضِ البحر مع تلاطم الأمواج، ووردَتْ في مقامِ تذكير الإنسان بنِعم الله وقدرته، أمّا السَّفينةُ؛ فهي الأصلُ في تسميتها؛ إذ يُعرَّفُ الفُلْكُ بالسَّفينة[2]، وسُمّيت بذلك؛ لأنَّها تَسْفُنُ الماء، كأنَّها تقشُره، أي: تغوصُ فيه، وتُزيحُهُ حين جَرْيها، أو لأنَّها خشبٌ نُحِتَ، وصُنِعَ، وفي هذا إشارةٌ إلى أصلها الَّذي صُنعت منه؛ إذ تدلُّ في أصلِ مادَّتها على تنحيةِ شيءٍ عن وجهِ شيء كالقِشْر[3]، وقد ورد لفظُ السَّفينة في القرآن في ثلاثةِ مواضع، ويظهرُ أنَّه أطلقَ اسمَ السَّفينةِ عندما أرادَ الإشارةَ إلى أصلها، أو الإشارةَ إلى صغرِ حَجْمِها، واقتصارِ استعمالها على الأمور الهيِّنة كحملِ المسافرين، وقد جاء هنا بلفظ الجواري؛ لكونه أنسبَ للسّياق وما جاء فيه من ألفاظ: ﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ ﴿يُسۡكِنِ﴾ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ ﴿فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ﴾، وللإيماء إلى محلِّ العِبرة؛ لأنَّ العِبرةَ في تسخيرِ البحر جريُ السُّفن، وتفكيرُ النّاس في صُنعها وجَرْيها، فهي سُفنٌ عظيمة كالجبال، تسعُ ناسًا كثيرين، وتجري بسُرعة، ومن ثَمَّ العِبرةُ تكون بها أظهرُ، والنِّعمةُ تكون بها أكثر[4].

البحر والنَّهر:

البحرُ الواسعُ العميقُ تتأثَّر أمواجُه بهبوبِ الرِّيح، فتجري فيه السُّفنُ العظيمة

البحرُ أعمُّ من النَّهر، فكلُّ نهرٍ عظيم بَحرٌ، وكلُّ نهرٍ لا ينقطعُ ماؤه، فهو بحرٌ، فالبحرُ هو المكانُ المتَّسعُ ذو الماء الكثير، مِلْحًا كان أو عَذْبًا، وهو خِلافُ البَرِّ، سُمِّيَ بذلك لعُمقِهِ واتِّساعه، وقيل: لِمُلوحَته،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فلك).

(2) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (فلك).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سفن).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 105.

وقيل: لِسِعَتِهِ وانبساطِه، وله ساحلٌ أو شاطئ، وله أمواجٌ ومَدٌّ وجَزرٌ[1]، بينما النَّهرُ أصلُه الشَّقُّ الواسعُ الَّذي يجري فيه الماءُ، وسُمِّيَ نهرًا؛ لأَنَّهُ يَنْهَرُ الأرضَ، أي: يَشُقُّها بجريانه، وكُلُّ كَثِيرٍ جَرى، فَقد نَهَرَ، ومياهُ النَّهرِ تكون عذبةً وغزيرة، وله ضفافٌ، ويصبُّ في البحر أو البحيرة أو غيرهما[2]، وقد استُعملَ لفظُ البحرِ دونَ النَّهر في الآية؛ لكونه أنسبَ مع السّياق، وذِكْرِ السُّفن العظيمة الَّتي هي كالجبال، الَّتي تُحرِّكها الرّياح، فالبحرُ أوسعُ وأعمقُ وأعظمُ من النَّهر، وله أمواجٌ تتأثَّر بهبوبِ الرّيح، فقد يسكنُ الموجُ، ويهدأ بسكون الرّيح، بينما النَّهرُ ماؤه جارٍ لا يسكن.

(1) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (بحر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نهر).

﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤﴾ [الشّورى: 33 - 34]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

في إجراءِ السُّفن وفي ركودهنَّ على السّواء آياتٌ لكلِّ صبّارٍ شكور

لَمّا ذكرَ آيةَ إجراء السُّفن العظيمة في البحر كالأعلام؛ أتبعها بآيةٍ أخرى لا تقلُّ عظمةً، وهي: إسكانُ اللهِ للرّيحِ؛ لتَركُدَ هذه السُّفن، كما لو كانت قد فارقتها الحياةَ، فقال: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾، أي: جعلَ في إجراء السُّفن وفي رُكودِهنَّ على السّواء آيات لكلِّ صبّارٍ شكور.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يُسۡكِنِ﴾: أصلُ (سكن) خلافُ الحركةِ والاضطراب[1]، ويدلُّ على الاستقرار، وسكنَ الحَرُّ والرِّيحُ والبَردُ: هدأ، وسكنَ، فلا يتحرَّك[2]، ومعنى ﴿يُسۡكِنِ﴾ في الآية موافِقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أي: يجعل الرِّيحَ تهدأ، ولا تتحرَّك، وينقطع هبوبُها، فلا تجري السُّفن في البحر[3].

2) ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾: فِعلُ (ظلَّ) مِن أفعالِ الكَونِ، أَخَواتِ (كانَ) الَّتي تدُلُّ على اتِّصافِ فاعِلِها بحالَةٍ لازِمةٍ، ويُستعمَلُ بمَعنى (صارَ)، وأصلُ (ظلل) يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشيءٍ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغَيرِه[4]، وظلَّ يفعلُ كذا، أي: استمرَّ، وواصل، أي: لزومُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سكن).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 541، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلل).

أو ملازمة[1]، ومعنى ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾ في الآية: فيبْقَينَ ثوابِتَ على ظَهرِ البَحر[2]، أو فيَصِرنَ ثوابتَ سواكن لا تتحرَّك[3].

3) ﴿رَوَاكِدَ﴾: أصل (ركد) يَدُلُّ عَلى سُكونٍ، يُقالُ: رَكَدَ الماءُ: سَكَنَ، ورَكَدَتِ الرِّيحُ، أي: سكنَت، وكذلك السَّفينة[4]، والمعنى المحوريُّ: ثباتُ ما شأنهُ الحركة في مكانه متجمِّعًا لا يبرح، وكُلُّ ثابِتٍ في مَكانٍ، فهوَ راكِدٌ، والماءُ الرّاكدُ هو الدّائمُ السّاكنُ الَّذي لا يَجري[5]، والرَّواكِدُ: جَمْعُ راكِدَةٍ، والرُّكودُ: الاستِقرارُ والثُّبوتُ[6]، والمعنى: فَيَظلَلْن وقوفًا ثوابتَ لا تجري، فلا تجيء، ولا تذهب[7].

4) ﴿ظَهۡرِهِۦٓ﴾: أصلُ (ظهر) يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، والظَّهْرُ من كلِّ شيء: خِلافُ البَطْنِ، والأصلُ فِيهِ كُلِّهِ: ظَهْرُ الإنسانِ، وهو خِلافُ بطنِهِ[8]، والظَّهرُ يُطْلَقُ على أعلى الشَّيءِ إطلاقًا شائِعًا، يُقالُ: ظَهرُ البَيتِ، أي: سَطحُهُ، فَظَهرُ البَحرِ سَطحُ مائِهِ ووجهه البادي لِلنّاظِرِ[9].

5) ﴿صَبَّارٖ﴾: من (صبر)، وأصلُه مِن الحبسِ، يُقالُ: صَبَرتُ نَفسي عَلى ذَلِكَ الأمرِ، أي: حَبَستُها[10]، والصَّبّارُ: مَن حبسَ نفسَهُ عن التَّوجُّهِ إلى ما لا ينبغي، ووكَّلَ هِمَّتَهُ بالنَّظرِ في آياتِ اللّه تعالَى والتَّفكُّرِ في آلائِه، وصبرَ على طاعةِ اللّه، أو هو كلُّ مؤمنٍ كاملٍ مُتَخَلِّقٍ بِخُلُقِ الصَّبْرِ عَلى الضَّرّاءِ، والشُّكرِ لِلسَّرّاءِ، فإنَّ الإيمانَ نصفه صبرٌ، ونصفُهُ شكرٌ[11].

6) ﴿يُوبِقۡهُنَّ﴾: أصلُ (وبق) هلكَ، ووبقَ يَوْبَقُ وبقًا؛ إذا تثبَّطَ، فهلك[12]، ووبِقَ النَّباتُ من شدَّة الجفاف: هلَك، والموبقاتُ: الكبائر من المعاصي والذُّنوب المُهْلكات، وكلُّ حاجزٍ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلل).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 33.
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 760.
(4) الرّاغب، المفردات: (ركد).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ركد).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 542، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 257، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 33.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظهر).
(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 209، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.
(10) مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة، المعجم الوسيط: (صبر).
(11) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 542، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 33، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وبق).

بَين شيئَين فَهوَ مَوْبِقٌ، وأوْبَقَه: حبَسَه، ومنهُ قولُه تعالَى: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾، أي: يحْبِسُ السُّفُنَ ورُكْبانَها، فَلا تجري بهم؛ عُقوبَةً لَهُم[1]، والمعنى: أو يُهلكُهُنَّ بالغرق[2].

7) ﴿وَيَعۡفُ﴾: أصلُ (عفو) يدلُّ على تَركِ الشَّيءِ، وكُلُّ من استَحَقَّ عُقوبَةً، فَتَرَكْتَهُ؛ فقد عَفَوْتَ عَنهُ[3]، والعَفوُ: الصَّفحُ عن الجاني وتَرْكُ عُقوبَةِ المُستَحِقِّ، والعفو عن الذُّنوب: عَدَمُ المؤاخذة عليها، مِن عَفَتِ الرِّياحُ الأَثَرَ، أي: دَرَسَتْهُ ومَحَتْه، وغالبُ ما في القرآن من هذا التَّركيب هو بمعنى الصَّفحِ[4]، ومعنى ﴿وَيَعۡفُ﴾ هنا: يصفحُ عن كثيرٍ من ذنوبكم، فلا يعاقِبُ عليها[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ كمالِ قدرةِ اللهِ في إسكانِ الرِّيحِ أو إرسالِها لرُكودِ السُّفنِ أو إغراقِها

يقول تعالى ذكره: إن يَشَأِ اللَّهُ الَّذي قد أجرى هذه السُّفُن في البَحرِ ألَّا تَجريَ فيه؛ يُسكِنِ الرِّيحَ الَّتي تُسَيِّرُ تلك السُّفُنَ، فيَثبُتْنَ في مَواضِعِهنَّ على سَطحِ الماءِ، فلا يَتقَدَّمْنَ، ولا يَتأخَّرْنَ، إنَّ في ذلك الجري أو ما ذُكِرَ مِن حالِ السُّفُنِ في سَيرِها ورُكودِها لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ يَستَدِلُّ بها، ويَعتَبِرُ كُلُّ مَن كان كَثيرَ الصَّبرِ، كثيرَ الشُّكرِ للّهِ تعالَى، أو إن يَشَأِ اللَّهُ؛ يُغرِقْ تِلك السُّفُنَ؛ بسَبَبِ ذُنوبِ أهلِها، ويَتجاوَزِ اللّهُ عن كَثيرٍ مِن الذُّنوبِ، فلا يعاقِب عليها[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

في الاستئنافِ البيانيِّ بيانٌ لِما يُخوِّفهم من آيةِ جريانِ السُّفنِ في الماءِ

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ عن الَّتي

(1) الزّبيديّ، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (وبق).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 542، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 760.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عفو).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 543.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 541، و542، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 39.

قبلها: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾، ولم يأتِ بينهما بعاطف؛ لِما بينهما من شِبهِ كمالِ اتِّصال؛ إذ جاءتْ جملة: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ما قبلها يُثيرُ سُؤالًا في نُفوسِ السّامِعين، وهو: وما تلكَ الآياتُ؟ فذكَرَ في الجوابِ ما يخوِّفهم منها، ويُعرِّفهم أنَّ جميعَ ما أباحهم إيّاه من شؤونها إنَّما هو بقدرته واختياره[1].

سرُّ التَّعبير بـ﴿إِن﴾ دون (إذا):

عبَّر البيانُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ بـ﴿إِن﴾ دون (إذا) الَّتي تُفيدُ القطعَ بوقوعِ الشَّيء وتيقُّنِ تحقُّقِه؛ لكون هُبوبِ الرّيح سنَّةً كونيَّة لا تتغيَّر، ولا تتبدَّل إلّا إذا شاءَ اللّهُ سبحانه، فقطعَ هبوبَها، أي: قد جعل اللّهُ هبوبَ الرّيحِ هو الأصل؛ لاستمرارِ حركة الحياة، وأمّا قطْعُها؛ فأمرٌ طارئٌ وفقَ تقديرِ اللّه سبحانه، كما أنَّه يوافقُ سُنَّةً أُخرى، وهي أنَّ رحمتَه سبقتْ غضبه.

هبوبُ الرّيح سنَّةٌ كونيَّةٌ لا تتغيَّر، ولا تتبدَّل إلّا إذا شاءَ الله قطْعَ هبوبِها

دلالةُ التَّعبير بالفعليَّة ﴿يُسۡكِنِ﴾ مضارعًا دون الاسميَّة:

التَّعبيرُ بالجملة الفعليَّة ﴿يُسۡكِنِ﴾ دون الاسميَّة أنسبُ للمقام، فسُكونُ الرّيح أمرٌ طارئ يتجدَّد عند مشيئةِ اللّه لذلك، وليس أمرًا ثابتًا مستمرًّا، وإلّا لخالفَ سُنَّةً كونيَّة في خَلْقِ الرّيح، كما أنَّ في المضارع تصويرًا لحالةِ إسكان الرّيح وقطْعِ هبوبِها المُؤدّي لركود السُّفنِ وعدمِ جريانها.

سكونُ الرّيحِ أمرٌ طارئٌ يتجدَّدُ عند مشيئةِ الله لذلك

معنى اللّام في ﴿ٱلرِّيحَ﴾، ودلالتُها:

لامُ التَّعريفِ في لفظ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ جنسيَّةٌ؛ تدلُّ على جنسِ الهواءِ المتحرِّك القويِّ، الَّذي يكون سببًا في تسيير السُّفن الكبيرة في كلِّ مكان؛ لأنَّ السّياقَ هو سياقُ تذكير بنِعم اللّه على الإنسان في هذا

هواءٌ متحرِّكٌ قويٌّ يسيِّرُ السُّفنَ الكبيرة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 319.

الكون، وليستْ هنا عهديَّةً تدلُّ على العذاب، كما في قوله مثلًا: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤﴾ [الأحقاف: 24].

بلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ في الآية:

الرّيحُ والرّياحُ للخير والشّرّ، ولا فرقَ بينهم

روي في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾، قراءتان مشهورتان، فقد قرأ الجمهورُ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد، وقرأ نافع وأبو جعفر ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بصيغة الجمع[1]، وقد فرّق بعضُ العلماء بين لفظَيِ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد، و﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

وللتفريق بين معنيي القراءتين يمكن أن يقال: إنَّ (الرّيح) إذا ذُكرت مطلقةً فالغالبُ أن تكون في العذاب، و(الرّياح) إنِ استُعملت غيرَ مقيّدَةٍ فإنّ الغالبَ أن تكون للرّحمة[2]، وأمّا إذا قُيّدا بالإضافةِ أو بالوصف خرجا عمّا هو الغالبُ لنُكتةٍ، ولعلَّ النّكتةَ هنا أنّ قراءةَ الجمهور توجّهُ على ملاحظة صفةِ (العصف) الدّالّةِ على الشّدّة والقوّةِ والإهلاك، وقراءةَ غيرِهم توجّهُ على ملاحظة صفةِ السكون والرحمة.

وملمح بلاغي آخر في توجيه قراءة الجمع والإفراد هو اختلاف الجهة، فوجه القراءة بالجمع هو إتيانها من كل جانب، وذلك معنى يدل على اختلاف هبوبها، فهي رياح لا ريح؛ لأن الريح الواحدة إنما تأتي من جانب واحد، فكان لفظ الجمع فيها أولى، لتصرّفها من جهات فيكون لفظها مطابقا لمعناها في الجمع، ووجه القراءة بالتوحيد أن الواحد يدلّ على الجمع؛ لأنه اسم للجنس، فهو أخفّ في الاستعمال، مع ثبات معنى الجمع فيه[3].

تعدّد القراءات في ﴿ٱلرِّيحَ﴾ وثراء المعنى:

قرأ أبو جعفرٍ ونافع لفظ (الرِّيح) في قولِه تعالى:﴿إِن يَشَأۡ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 02/ 223.
(2) ابن خالويه، الحجّة، ص: 91.
(3) مكّي، الكشف: 1/ 271.

تسكينُ الريحِ الشّديدة بالنسبةِ للمخلوق أعظمُ من تسكينِ الرياح الخفيفة

﴿يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ بالجمْع: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾، وقرأ الباقون ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بلَفْظِ المفْردِ[1]، وفي القراءةِ بلَفظِ المفرَدِ ما يدُلُّ على أنَّ الرِّيحَ قدْ تُطلَقُ بصيغةِ الإفرادِ على رِيحِ الخيرِ، وأنّ ما قيل من أنَّ (الرِّياحَ) للخيرِ و(الرِّيحَ) للعذابِ في القرآنِ هو غالبٌ لا مُطَّرِدٌ، وقدْ قُرِئَ في آياتٍ أُخرى (الرِّياحُ) و(الرِّيحُ) في سِياقِ الخيرِ دونَ العذابِ[2].

معنى الفاء ودلالتُها في: ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾:

إسكانُ الرّيحِ يتسبَّبُ عنه بقاءُ السُّفنِ ثوابتَ مستقرّاتٍ من غير سيْر

(الفاء) في قولِه تعالى: ﴿فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ عاطفةٌ[3] أو سببيَّة، أي: فتَسبَّبَ عن إسكانِ الرّيح أنَّ السُّفنَ العظيمة يَظلَلْنَ ثوابتَ مستقرّاتٍ من غير سير[4]، أو للتَّعقيب والمباشرة، بما يُظهِرُ كمالَ قدرةِ اللّٰه تعالى[5].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إزالةُ أيِّ عُسْرٍ يواجهُ السُّفنَ حالَ سكونِها من كمالِ قدرة الله

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بـ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾ دونَ (يَبْقينَ أو يَقُمنَ)، مع أنَّ أصلَ (يَظْلَلْنَ) الثَّباتُ والإقامةُ نهارًا؛ وإسكانُ الرّيح ورُكودِ السُّفن يكون في اللَّيل أو النَّهار؛ وذلك لأنَّ النَّهارَ مَوضعُ الاقتدارِ على الأشياءِ، وهو المُنتظَرُ عِندَ كلِّ مُتعسِّرٍ للسَّعي في إزالةِ عُسْرِه، وتَيسُّرِ أمْرِه[6]، ويجوزُ أن تكونَ (ظَلَّ) هنا بمعنى صار؛ لأنَّ المعنى ليس على وقتِ الظُّلول، وهو النَّهارُ فقط[7]، والتَّعبير بصيغةِ المضارع؛ للدَّلالة على تجدُّدِ حالةِ بقاءِ السُّفنِ ثابتاتٍ مستقرّات على ظهرِ البحر؛ إذا شاءَ اللّٰهُ ذلك، بما يدلُّ على كمالِ عَظَمَةِ قدرةِ اللّٰه سبحانه، وإثباتُ اللّامَيْنِ وفَتْحُ لامِه الأولى في الفعل (يَظْلَلْنَ)؛ يشيرُ إلى أنَّ

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 223.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 105.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 39.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 319.
(5) محمّد الهلال، التّفسير الثّري: 25/ 41.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 319.
(7) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 556.

السُّفنَ الكبيرة يَظللنَ على ظَهْرِ البحر ثوابتَ مستقرّات من غير سير ثَباتًا ظاهِرًا[1].

دلالةُ التَّعبير بالفاعل بنون النِّسوة في الفعل ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾ و﴿يُوبِقۡهُنَّ﴾:

نعمةٌ ورحمةٌ حوَّلتها ذنوبُهم إلى نقمةٍ وعذاب

السُّفنُ في اللُّغة العربيَّة مؤنَّثةٌ مجازيَّة، تُعامَل معاملةَ المُؤنَّثِ في الأفعال والضَّمائر، ولذا فنون النِّسوةِ في ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾ و﴿يُوبِقۡهُنَّ﴾ تعودُ على السُّفن، ويُشيرُ ذِكرُها في ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾ إلى الرَّحمة حين تسكنُ الرّيح، فتصبحُ السُّفنُ آمنةً كالأُمِّ الحنون، وفي ﴿يُوبِقۡهُنَّ﴾ إلى التَّذكيرِ بأنَّ هذه السُّفنَ كانت نعمةً، فأصبحت نقمةً بذنوبهم ومعاصيهم.

سرُّ اختيارِ صيغة ﴿رَوَاكِدَ﴾ خبر ظَلَّ:

التَّعبيرُ بخبر ظَلَّ جمعًا (رواكد) أبلغُ في تصويرِ الرُّكود التّامِّ والشَّديد

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿رَوَاكِدَ﴾ - وهو جمعُ راكدة - دون (راكدات)؛ للدَّلالة على الكثرة؛ إذ جمع التَّصحيح للعدد القليل، وجمع التَّكسير للعدد الكثير، فعبَّر بالأنسب للحال والواقع، ولتناغُم لفظ ﴿رَوَاكِدَ﴾ مع كلمات الآية الأُخرى، مثل: ﴿يُسۡكِنِ﴾ و﴿ظَهۡرِهِۦٓ﴾؛ إذ تحملُ جميعُها دلالاتِ الثِّقلِ والقوَّة، بينما (راكدات) قد تُضعِفُ هذا الإيقاعَ بسبب خفَّتِها النِّسبيَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

استقرارُ السُّفنِ على ظهرِ البحر وعدمِ غرقِها دليلٌ على قدرة الله

التَّعبيرُ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾؛ لإفادة الثَّبات والاستقرار على ظهرِ البحر وعدم الغَرق؛ بما يدلُّ على عظيم قدرة الله في حملِ الماء للسُّفن الكبيرة، أي: يَظللنَ ثوابتَ ثَباتًا ظاهِرًا.

سرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿ظَهۡرِهِۦٓ﴾ دونَ (سطْحه):

آثرَ البيانُ الحكيم التَّعبيرَ بلفظ ﴿ظَهۡرِهِۦٓ﴾ دونَ سطحه؛ للمبالغة في الدَّلالة على استقرارِ السُّفن وعدمِ غرقِها، فهي قائمةٌ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 319.

شيءٍ صُلبٍ قويٍّ بارزٍ وظاهر، و(ظهر) أصلٌ يَدُلُّ عَلى قوَّةٍ وبُروزٍ، ومن ذلك: ظَهَرَ الشَّيءُ يَظْهَرُ ظُهورًا، فهو ظاهِرٌ، ولأنَّ الأصل فيه: ظَهْرُ الإنسانِ، وهو خِلافُ بَطْنِه، وهو يَجمَعُ البُروزَ والقوَّةَ[1]، وهو هنا استعارةٌ شاعتْ حتّى قاربتِ الحقيقة، فظَهْرُ البحرِ سطحُ مائه البادي للنّاظر[2].

مبالغةٌ في الدَّلالةِ على استقرارِ السُّفن وعدمِ غرقِها وظهورِها وبُروزِها

سرُّ اختيار أحوالِ الفُلْك في البحر دونَ ما في البحر من المنافع الأخرى:

أحوالُ الفُلكِ أظهرُ من غيرِها في إبرازِ كمال قدرةِ الله

اختارَ البيانُ الحكيم ذِكْرَ أحوالِ الفُلْكِ في البحر دونَ ما في البحر من المنافع الأخرى؛ لكونها نعمةً ظاهرةً يراها كلُّ النّاس، ولا تحتاجُ إلى كثير بحثٍ وتأمُّل، وهذا يناسِبُ سياقَ النِّعم الَّتي تذكرها الآياتُ، وهي كلُّها ظاهرةٌ غيرُ خفيَّةٍ كإنزالِ الغيث، وخَلْقِ السَّماوات والأرض وما خَلَقَ فيهما من دابَّة.

سرُّ فصل جملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ عمّا قبلها:

استئنافٌ بيانيٌّ يوضِّحُ المُنتَفِعَ من آياتِ الله، وهو الصَّبّار الشَّكور

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ذِكْرَ آياتِ جريانِ السُّفنِ الكبيرة في الماء أو إسكانها تستثير سؤالًا، مفادُه: لِمَن هذه الآيات، ومن الَّذي ينتفعُ بها؟ فجاء الفصْلُ لشِبه كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ الجملةَ الثّانية وقعَتْ جوابًا نتجَ عن الجملةِ الأولى، فلم تُعطَفْ على الأولى، أو أنَّها جاءتْ كالتَّأكيد لِما قبلها، فهي ليستْ خبرًا مستقلًّا.

دلالةُ التَّأكيد بـ﴿إِنَّ﴾ وبالجملة الاسميَّة:

تأكيدُ قدرةِ الله على ما ذَكَرَ مِن حالِ السُّفُنِ في سَيْرِها ورُكودِها

أتى البيانُ القرآنيُّ بحرفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ وبالجملةِ الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ رغمَ كون المشركين في البحر يُخلصون الالتجاءَ إلى الله؛ لأنَّهم مع طُلوعِهم إلى البَرِّ يَنسُبونَ له شُرَكاءَ، فكانوا بذلك بمَنزِلَةِ مَن لا يَعُدُّ ذَلِكَ آيَةً أصْلًا؛ فَلِذَلِكَ أكَّدَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.

بـ(إنَّ)، أي: ما ذَكَرَ مِن حالِ السُّفُنِ في سَيْرِها ورُكودِها مِمّا لا يَقْدِرُ عَليهِ إلّا اللّهُ سُبحانَهُ، بِدَليلِ ما لِلنّاسِ كافَّةً مِنَ الإجماعِ على التَّوَجُّهِ في ذَلِك إلَيهِ خاصَّةً والانخِلاعِ مِمّا سِواهُ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

تغلغُلُ الدَّلائلِ على قدرةِ الله وتمكُّنُها فيما ذُكِر من حالِ السُّفن

عبَّر القرآنُ الكريم بـ ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾؛ للإشارةِ إلى قوَّة هذه الدَّلائلِ وتغلغلِها وتمكُّنِها فيما ذُكِرَ من حالِ السُّفن في سَيرِها ورُكودِها، وعدمِ انفكاكِها عنها، وهذا أدعى لِلَحْظِها عند من تفكَّر، وتدبَّر.

دلالةُ تعريف الآيات باسم الإشارة للبعيد وتنكيرها ﴿ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾:

تصريفُ السُّفنِ جريًا وركودًا لا يكون إلّا بقدرةِ مُصرِّف الآيات سبحانه

المشارُ إليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ هو: جَرْيُ هذه الجواري في البَحرِ بقُدرةِ اللّهِ؛ إذ سَخَّر لها البحرَ، وأجرَى لها الهواءَ[2]، أو ما ذُكِرَ مِن حالِ السُّفُنِ في سَيرِها ورُكودِها[3]، والتَّعريفُ بأسلوب الإشارة تعظيمٌ للمشارِ إليه، والإشارة هنا بما يُشار به للبعيد؛ إيماءٌ إلى بُعْده عن مقدور البشر، وأنَّه لا يكون إلّا بقدرة مُصرِّف الآيات سبحانه، ومع التَّعظيم بالتَّعريف يأتي التَّعظيم بالتَّنكير، فهي آياتٌ عظيمةٌ[4].

فائدةُ اللّامِ في قوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، وفائدةُ تنكيرِها وجمعِها:

تأكيدُ الآياتِ وتفخيمُها لِلَفتِ نظرِ المنكرين وعمومِ العقلاء إليها

لامُ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ للتَّوكيد، وهي واقعةٌ في اسم ﴿إِنَّ﴾ المُؤخَّر؛ لتأخُّره عن الخبر، وهو الجارُّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، وفائدةُ اللّام التَّوكيدُ؛ لِلَفتِ نظر المشركين المنكرين ونظرِ العقلاء عمومًا إلى هذه الآيات، وفائدةُ مجيء الآيات مُنكَّرةً، فلم يقل: (إنَّ هذه الآيات)؛ وذلك

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 320.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 542، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 209، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 371.

(3) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 3/ 771، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 319، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.

(4) صلاح حبيب سليمان، من أسرار التّعريف والتّنكير في سورة الشّورى، ص: 280.

لتفخيمِ الآيات وتعظيمها، وجمعَ البيانُ الحكيمُ لفظَ الآيات، ولم يفردها؛ للدَّلالة على كثرةِ الآيات الدّالَّة على قدرة اللّه تعالى وعظمتها، بما يدلُّ على عظمةِ شُؤونِهِ ﷻ في تصريفِ السُّفن في البحر جَريًا ورُكودًا[1]، والمعنى: إنَّ في ذلك لآياتٍ عظيمةً في أنفسها، كثيرةً في العدد؛ دلالةً على باهر قدرته[2].

سرُّ اختيار ﴿صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ مادَّةً وصيغةً وتنكيرًا:

مبالغةٌ في الاتّصاف بالصَّبرِ والشُّكر

﴿صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ صيغةُ مبالَغَةٍ، أي: كثير الصَّبْرِ كَثِير الشُّكرِ، وقد عبَّر البيانُ الإلهيُّ بهذه الصّيغة؛ تناسبًا مع السّياق؛ لأنَّ أهوالَ البحرِ وشدائدَ الرّيحِ تحتاجُ إلى صبرٍ على صبر، وإجراءُ السُّفن يحتاجُ إلى شكرٍ كثير، وفي هذا تنويهٌ بحال المؤمن الَّتي يجبُ أن يكون عليها في السَّرّاء والضَّرّاء، ويُفيد التَّنكير في كلٍّ من ﴿صَبَّارٖ﴾ و﴿شَكُورٍ﴾ العمومَ، وسَبْقُ النَّكرةِ بلفظ (كلٍّ)، وهو من ألفاظِ العموم يُدخلُ هذا العمومَ في دائرةٍ من الإحاطةِ والشُّمولِ لكلِّ ما يصلحُ أن يُطلَق عليه لفظُ ﴿صَبَّارٖ﴾ ولفظ ﴿شَكُورٍ﴾.

سرُّ تقديمِ ﴿صَبَّارٖ﴾ على ﴿شَكُورٍ﴾:

الصَّبرُ يسبِقُ الشُّكرَ ويُحتاجُ إليهِ

قدَّمَ النَّظمُ الحكيمُ الصَّبرَ على الشُّكر في قوله: ﴿صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾؛ لأنَّ الصَّبرَ على الشَّدائد والكُرَبِ يسبِقُ الشُّكرَ، فالمؤمنُ يحتاجُ إلى الصَّبرِ قبل أن يتمكَّن من شكرِ اللّه على نعمه، ممّا يُظهِر تسلسلًا منطقيًّا في التَّعاملِ مع المصاعب، والصَّبرُ نفسُه يحتاجُ إلى شكر[3]، وللتَّأكيد كذلك على أهمّيَّة الصَّبر كصفةٍ أساسيَّة يجبُ أن يتحلّى بها المؤمن.

بلاغةُ التَّذييل في الآية:

جُعِلتْ أحوالُ الفُلكِ في البحرِ آياتٍ لكلِّ صبّارٍ شُكورٍ؛ لأنَّ في

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 42.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 221.

(3) محمّد هلال، التّفسير الثّري: 25/ 41.

يَنتفِعُ بآياتِ اللهِ المشهودةِ العِيانيَّةِ أهلُ الصَّبرِ والشُّكرِ

الحالتَينِ خَوفًا ونَجاةً، والخوفُ يَدْعو إلى الصَّبرِ، والنَّجاةُ تَدْعو إلى الشُّكرِ، والمرادُ: أنَّ في ذلك آياتٍ لكلِّ مُؤمنٍ مُتخلِّقٍ بخُلُقِ الصَّبرِ على الضَّرّاءِ، والشُّكرِ للسَّرّاءِ؛ فهو يَعتبِرُ بأحوالِ الفُلْكِ في البحرِ اعتبارًا يُقارِنُه الصَّبرُ أو الشُّكرُ، وإنَّما جُعِل ذلك آيةً للمؤمنينَ؛ لأنَّهم هم الَّذين يَنتفِعونَ بتِلك الآيةِ، فيَعلَمونَ أنَّ اللهَ مُنفرِدٌ بالإلهيَّةِ، بخِلافِ المشرِكينَ؛ فإنَّها تمُرُّ بأعيُنِهم، فلا يَعتبِرونَ بها[1]، وإنَّما عبَّر عن المؤمنِ بوصفي الصَّبرِ والشُّكرِ؛ للتَّنبيه على أنَّ المؤمِنَ يَجِبُ ألّا يَكونَ غافِلًا عن دَلائِلِ مَعرفةِ اللهِ البتَّةَ؛ لأنَّه لا بدَّ أن يكونَ إمّا في البَلاءِ، وإمّا في الآلاءِ؛ فإن كان في البَلاءِ؛ كان مِن الصّابِرينَ، وإنْ كان في النَّعماءِ؛ كان مِن الشّاكِرين[2]، وبيانُ ذلك في الآيةِ أنَّ هذه السُّفُنَ إن جَرَت على ما يَنْبغي؛ فوَظيفةُ الإنسانِ الشُّكرُ، وإن جَرَت على ما لا يَنْبغي؛ فوَظيفتُه الصَّبرُ[3].

دلالةُ عطف قولِه: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ﴾ على جزاءِ الشَّرط:

حالُ السُّفنِ في سَيْرِها ورُكودِها لا يَقْدِرُ عليه إلّا اللهُ سبحانه

﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ﴾ عَطْفٌ على جزاءِ الشَّرط ﴿يُسۡكِنِ﴾ بحرف العطف ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ﴾، والتَّقدير: إن يَشَأْ؛ يُسَكِنِ الرِّيحَ، فتركد الجواري على متن البحر، وتقف، أو يرسلِ الرّياحَ عاصفةً فيها، فيوبقهنَّ، أي: يهدِّدُهم اللهُ في البحر بإحدى بليَّتين؛ إمّا بسكون الرّيح، فتقفُ السُّفن رواكِدَ على ظَهْرِ الماء، فتتعطَّل مصالحُهم، أو يرسلُ الرّياحَ عاصفةً فيها، فيهلكنَ بسبب الإغراق[4]، ولهذا استعملَ حرفَ العطف ﴿أَوۡ﴾ الَّذي يفيدُ التَّقسيمَ، دون الواو الَّذي يفيدُ الجمع؛ لأنَّ ﴿يُوبِقۡهُنَّ﴾ قسيم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 602.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 265.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 602.

﴿يُسۡكِنِ﴾، ولكنَّه طوى ذِكرَ السَّبب في المعطوف؛ اقتصارًا على المقصود الَّذي هو الإيباق، أي: الإهلاك[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّمير في: ﴿يُوبِقۡهُنَّ﴾:

موقفُ الإهلاكِ الشَّديد وسرعتُه لا يتناسبُ مع الإطناب

الضَّميرُ في قوله: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ﴾ يرجعُ إلى السُّفن الجواري في البحر، وقد آثرَ النَّظمُ الحكيم التَّعبيرَ به دون الاسم الظّاهر؛ اختصارًا، لأنَّه قد سبق ذكرُها، ولأنَّ موقفَ الإهلاك الشَّديدِ وسرعتَه لا يتناسبُ مع الإطناب بذِكر الاسم الظّاهر.

بلاغةُ التَّعبير بالمجاز العقليّ في: ﴿يُوبِقۡهُنَّ﴾:

خطرٌ يواجِهُ السُّفنَ نتيجةً لأفعال أهلها

قولُه: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ فيه إيقاعُ الإيباقِ، أي: الإغراق على السُّفنِ الجَواري مع أنَّه حالُ أهلِهنَّ؛ للمُبالَغةِ والتَّهويل في إهلاكِ أهلِ هذه السُّفن[2]، ولتأكيد إرادةِ العموم في هلاك الرُّكّاب[3]، وهذا مجازٌ عقليٌّ[4]، يُعبِّرُ عن الخطرِ الَّذي يواجهُ السُّفنَ؛ نتيجةً لأفعال أهلها، وفيه تجسيدُ السُّفن ككائناتٍ حيَّةٍ تتأثَّرُ بأفعال أهلها، ممّا يُعطي بُعدًا إنسانيًّا للمَجاز، ويُعزِّزُ من تأثيرِ المعنى.

معنى الباءِ ودلالتُها في: ﴿بِمَا﴾:

المعاصي سببٌ لإغراقِ السُّفنِ الجَواري

الباءُ في قوله تعالى: ﴿يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ سببيَّةٌ، والمعنى: يُغرِقُهُنَّ بِسَبَبِ كَسْبِهم، أو بسببِ ما كسبوا، والكسْبُ الَّذي يُؤدِّي إلى العقوبةِ هو المعاصي، إمّا بترْكِ الواجباتِ، وإمّا بفِعْلِ المُحَرَّماتِ[5]، وفي هذا تحذيرٌ من المعاصي، وبيانُ أنَّها سببٌ للعقوباتِ[6].

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 245.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 33.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 321.
(4) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 245.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 322، وابن عثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 266.
(6) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 268.

معنى (ما) ودلالتُها في: ﴿بِمَا﴾:

(ما) بين المصدريَّة والموصوليَّة بيانٌ لكسبهم السَّيّئ الَّذي أرداهم

(ما) في ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ إمّا مصدريَّة، والتَّقدير: أو يوبقهنَّ بكسبهم، وفي التَّعبير بالمُؤَوَّل من (ما) المصدريَّة ومدخولِها ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ - بدل المصدر الصَّريح (كَسْبِهم) - إطنابٌ مُؤذِنٌ ببيانِ قُبْحِ عملهم، وتوكيدٌ؛ لأنَّ المصدرَ المُؤَوَّل أقوى وآكَدُ في الدَّلالة على الحَدَثِ من المصدر المجرَّد؛ لكون فعلِ كسبوا ماضيًا يُفيدُ تحقُّقَ الوقوعِ وانقضائه، أي: وقوعَ الذُّنوب والمعاصي من الرّاكبين في هذه السُّفن، أو موصولةٌ، والتَّقدير: أو يوبقهُنَّ بالَّذي كسبوا، وفي المصدريَّة إيماءٌ إلى وجهِ استحقاقِهم لحُكم هذا الجزاء من عقوبة الإغراق، وعلى كلا الاحتمالين فإنَّ في الأسلوب نصًّا على سببِ الهلاك، وهو الكسب السَّيئ؛ لأنَّ الباء سببيَّةٌ[1]، وهذا يتناسبُ مع ما أشارَ إليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشّورى: 30].

سرُّ التَّعبير بـ﴿كَسَبُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

نفوسٌ أُشربت الذُّنوبَ، وصارت لها كالجبلَّة، فاستحقَّت الإيباق

عُبِّر بالفعل ﴿كَسَبُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ نفوسهم أُشرِبَتِ الذُّنوبَ والمعاصي حتّى صارت، وكأنَّها كالجِبِلَّة لهم، واستمرّوا في ارتكابها، وجَدّوا، واجتهدوا فيها[2]، حتّى صارت دُرْبَةً، وأحلتها نفوسُهم، وكذلك في استعمالِ الكسب دونَ الاكتساب استعارةٌ تهكُّميَّة على طريقة قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21][3]، كما أنَّ القرآنَ عبَّر في الآية بالكسب دون غيره، فلم يقل: (أو يوبقهنَّ بما أذنبوا، أو أساؤوا)؛ تنبيهًا على أنَّ الكافر انتقلَ عن الفطرة الَّتي خُلق عليها، وكسب السَّيّئات،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 39.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 322.
(3) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 9/ 441.

فصار كاسبًا لها، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ المؤمن سلكَ ما ينبغي، والكافرَ سلكَ ما لا ينبغي.

دلالةُ العطف في قوله: ﴿وَيَعۡفُ﴾:

إنـجـاءُ كـثيرٍ ممَّن يستحقّون الإهلاكَ إحدى حالتَي السُّفنِ الموبَقَة

﴿وَيَعۡفُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ عطفٌ على ﴿يُوبِقۡهُنَّ﴾، فهو في معنى جَزاءٍ للشَّرطِ المُقدَّرِ، أي: (وإن يَشَأ؛ يَعْفُ عن كَثيرٍ من النّاس الَّذين في هذه السُّفنِ الموبَقَة، بأن ينجيَهم بعَوْمٍ أو غيره، فلا يوبقهم مع استحقاقِهم أن يوبَقوا)، وهذا العطْفُ اعتراضٌ[1]، وعُطِفَ بالواو؛ لأنَّ فعلَ الإنجاءِ قِسْمٌ من حالتي السُّفن الموبَقَة، وهو بمعنى ما رويَ عن أهلِ المدينة من نَصْبِ (يعفوَ) بتقدير (إنْ)؛ ليكون المعنى: يوقع إيباقًا وعفوًا[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل (يعفو) مادَّةً وصيغةً:

في إزالـةِ الذَّنب ومَحْوه وتجدُّدِ ذلك زيادةُ فضلٍ مـن الـلـه على عبادِه

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظ (العفو) دونَ المغفرة في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾؛ لأنَّ العفو يُنبئُ عن المَحوِ والإزالة[3]، والمغفرةُ تُنبئُ عن السَّترِ والتَّغطيةِ[4]، وإزالةُ الذَّنبِ ومَحوُهُ أبلغُ من سترِه وتغطيته، وعَفْوُه سبحانه عن كثيرٍ ممَّن يستحقّون الإغراق، أو عن النّاسِ عمومًا متجدِّدٌ؛ ولذا جاءَ التَّعبير بفعل المضارعة، وفي هذا بيانٌ لزيادةِ فضلِه على عبادِه، وإقامةٌ للحُجَّة عليهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بطريق المقابلة بين هذه الآية والسّابقة عليها في سكونِ الرّيح وإرساله:

مقابلةٌ تُظهرُ عظَمةَ القدرة الإلـهـيَّـة واتِّـزانَ النِّعم والعقوبات

قابلَ البيانُ القرآنيُّ في الآيتين الكريمتين بين سكونِ الرّيح وإرسالها؛ إذ التَّقديرُ هو: (إنْ يشأ؛ يُسكِنِ الرّيح، فيَرْكُدْنَ، أو يُرسلْها، فيوبق ناسًا، ويُنجِ آخرينَ بطريق العفوِ)، وفي هذه المقابلة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 107.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 322.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (عفو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).

بيانٌ لكمالِ قدرة اللّه المطلقة، الَّتي تجمعُ بين الأمانِ والإهلاك، وبين الحياةِ باستقرارِ السُّفن وسلامتِها، والإماتةِ بتدميرها وإغراقها، وبين النِّعمةِ والنَّقمة، فإمساكُ الرّيح نعمةٌ تُبقي السُّفنَ آمنةً، وإرسالُ الرّيح العاتية نقمةٌ تُهلكها، وبيانٌ أنَّ اللّهَ هو المتصرِّفُ في الأضداد من السُّكون والعصف، والأمنِ والهلاك، أي: هو الَّذي لا يخرجُ شيءٌ عن مشيئته ﷻ، كما أنَّ هذه المقابلة ليستْ مجرَّدَ أسلوبٍ بلاغيٍّ، بل درسٌ عَقَديٌّ يُعلِّمُ المؤمنَ أنَّ النِّعمَ بيد اللّه، وهو قادرٌ على قلبها إلى نقم، وأنْ يتفكَّر في حكمةِ اللّه بين الأضداد، وأن يدركَ دقَّةَ القرآن في التَّعبيرِ عن التَّوازن الكونيِّ بقوَّة لغويَّةٍ مبهرة.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿عَن﴾:

من عظيم فضل اللهِ التَّجاوزُ وعدمُ المؤاخذة أصلًا

حرف الجرِّ ﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ للمُجاوزة، وهو يحمل دلالةَ التَّركِ والتَّجاوزِ والإعراض، أي: يتجاوزُ عن كثيرٍ من الذُّنوب، ولا يُؤاخذُ به، ويُعرِضُ عن أصحابها، ولو قيل: (وَيَعْفو مِن كَثِير)؛ لَكان المعنى أنَّه يُزيلُ بعض الذُّنوب، لكن ﴿عَن﴾ تُفيد التَّجاوزَ وعدمَ المؤاخذةِ أصلًا، فـ﴿عَن﴾ هنا أبلغُ؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ اللّهَ لا يُحاسِبهم أصلًا على كثير من الذُّنوب، لا أنَّه يمحوها بعد المحاسبة.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿كَثِيرٖ﴾، ودلالة تنكيرها:

سَعةُ رحمةِ اللهِ مع عظيمِ عَدْله

التَّعبيرُ بلفظ ﴿كَثِيرٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ يُظهرُ الرَّحمةَ الإلهيَّة وسعةَ مغفرةِ اللّه؛ إذ يتجاوزُ عن كثيرٍ من الزَّلّاتِ، ولا يحاسبُ عليها، ولم يقل: (يعفو عن كلِّ شيء)، بل ﴿عَن كَثِيرٖ﴾؛ لأنَّ بعضَ الذُّنوب كالكبائر، تحتاجُ إلى توبةٍ بما يحقِّق مع الرَّحمة العدلَ فيها، ونُكِّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿كَثِيرٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾؛ لإفادةِ الكثرة الَّتي لا يُحصيها، ولا يُحيطُ بها إلّا عِلْمُ اللّه تعالى، وهذا يدلُّ على عظيم فضلِه وعَفْوِه، وأنَّ رحمتَه سبقتْ عذابَه.

سرُّ حذفِ موصوف ﴿كَثِيرٍ﴾:

اكتفاءُ البيانِ القرآنيِّ في قوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ بذِكرِ الصِّفة ﴿كَثِيرٍ﴾ عن ذِكرِ الموصوف؛ وذلك للإيجاز؛ لكونه مفهومًا من السّياق في قوله: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾، والكلامُ أبلغُ عندما يُختَصر مع وضوحِ المعنى، ولإفادةِ العموم، فـ﴿كَثِيرٍ﴾ قد تشملُ الذُّنوبَ والزَّلّاتِ والتَّقصيرَ، بل، وحتّى بعضَ العقوبات الدُّنيويَّة؛ ومنها الإغراق، كما أنَّ ذِكرَ موصوفٍ واحد يُقلِّل من شمولِ العفو الإلهيِّ، فاللّهُ يعفو عن ﴿كَثِيرٍ﴾ بلا تحديد، ممّا يوحي بسَعة رحمته ومغفرته، وللاهتمام والتَّركيز على الصِّفةِ والتَّأمُّل فيها، فَحَذْفُ الموصوفِ يجعل القارئ يتساءل: عن أيِّ كثير يعفو؟ فيتأمَّل في سَعة مغفرة اللّه.

إيجازٌ وإظهارٌ لكمالِ عفوه، ودَفعٌ في عظيمِ رحمته

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(يُسْكِن) و(يوْقِف):

آثرَ البيانُ الحكيم لفظَ ﴿يُسۡكِنِ﴾ دون (يوقف)؛ لكونه أنسبَ للسّياق، وأدلَّ على كمالِ قدرةِ اللّه تعالى، فالرّيحُ الَّتي من شأنها الحركة - الَّتي تحرِّكُ السُّفنَ الكبيرة العظيمة، فتجري في البحر بسرعة - اللّهُ قادرٌ على إسكانها وهدوئها، وذهابِ حركتها تمامًا، وقطعِ هبوبها، فيتسبَّب عن ذلك ركودُ السُّفن واستقرارُها على ظهر البحر، فإنَّ أصلَ (سَكَن) يدلُّ على خِلافِ الاضطِرابِ والحرَكَة، وهو سكونُ الشَّيءِ واستقرارُه بعد تحرُّك[1]، بخلافِ (يوقف) فإنَّ أصله يَدُلُّ عَلى تَمَكُّثٍ فِي شَيءٍ[2].

هــدوءُ الرّيـح الَّتي من شأنها الحركة وقطعُ هبوبِها دليلٌ عـلى قـدرتـه سبحانه

الرُّكود والثَّبات:

الرُّكودُ: هو هدوءٌ وسكونٌ وثباتُ الشَّيءِ المُتحرِّك؛ إذ أصله يَدُلُّ عَلى سُكونٍ، ومعناه المحوريُّ: ثباتُ ما شأنهُ الحركةُ في مكانه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سكن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقف).

من كمالِ قدرته سبحانه إيقافُ السُّفن وعدمُ جريانها في البحر؛ إن شاء

متجمِّعًا لا يبرح[1]، بينما الثُّبوتُ هو دوامُ الشَّيء على حالةٍ واحدة، وهو ضِدُّ الزَّوال؛ إذ أصله يدلُّ على الدَّوام[2]، وقد استُعمِلَ هنا لفظُ رواكد دون ثوابت؛ لكونه أنسبَ مع السُّفن الَّتي من شأنها الحركة، فيدلُّ على أنَّ المعنى: فَيَظْلَلْن وقوفًا ثوابتَ لا تجري، فلا تجيء، ولا تذهب، أي: غيرَ جارياتٍ، لا غيرَ متحرِّكاتٍ أصلًا[3]، وفي هذا بيانٌ للقدرةِ الإلهيَّة في إسكانِ السُّفن ووقوفِها في البحرِ، وعدمِ جريانها؛ إن شاءَ سبحانه، ممّا يدعو للتَّفكُّر في إنعامهِ سبحانه في هبوبِ الرّياح وجريان السُّفن.

العفْو والصَّفح:

من تفضُّله سبحانه أنَّه لا يُعاقِبُ المُذنبين مباشرةً بما عملوا

الصَّفحُ أبلغُ من العفو، فقد يعفو الإنسانُ، ولا يَصْفَحُ، فالصَّفْحُ: تركُ التَّثريب وتركُ لومه، والعفو: تَرْكُ عُقوبَةِ المذنب[4]، بينما أَصْلُ الصَّفح من (صفح)، وهو عَرْضُ الشَّيءِ وجانِبُهُ، ومنهُ سُمّيَ العَفوُ صَفحًا؛ لأنَّ الَّذي يَصفَحُ كأنَّهُ يُقابِلُ المُسيءَ بِصَفحَةِ عُنُقِهِ إعراضًا عن إساءَتِه، أو يَتَجاوَزُ الصَّفحَةَ السَّيِّئَةَ، ويُقابِلُهُ بِالصَّفحَةِ الجَميلَةِ[5]، أي: تجاوزتُ الصَّفحَةَ الَّتي أثبتُّ فيها ذنبَه من الكتابِ إلى غيرها[6]، وقد استُعمِلَ لفظُ العفوِ هنا؛ لمناسبته للسّياق؛ وللدَّلالة على أنَّه سبحانه يعفو عن المُذنبين، فلا يؤاخذُهم بما كسبوا، فلا يغرقهم في البحر، وأنسبُ كذلك مع لفظِ ﴿كَثِيرٖ﴾؛ إذ إنَّه سبحانه يتركُ معاقبةَ المذنب في كثيرٍ من المواضع، ولا يؤاخذه عليها مباشرةً؛ تفضُّلًا منه وامتنانًا.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ركد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ثبت).
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 221.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 362.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(6) الرّاغب، المفردات: (صفح)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 421.

الإيباقُ والإهلاكُ:

هـــلاكٌ قـــويٌّ شديدٌ شاملٌ لا يَشِذُّ عنه أحدٌ، ولا خلاصَ لأحدٍ منه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ بالإيباق دون الإهلاك أو الإغراق؛ لأنَّ كلمةَ (يوبِق) تُعبِّر عن الهلاك القويِّ الشَّديدِ والشّامل والمفاجئ، الَّذي لا يَشِذُّ عنه أحدٌ، ولا خلاصَ لأحدٍ منه[1]، وفي هذا من العذاب ما فيه، فهو يشملُ مع الهلاك المادّيِّ الهلاكَ المعنويَّ، كما أنَّ التَّعبيرَ بهذا اللَّفظ يُضفي بُعدًا تصويريًّا على المعنى، ويُعَزِّز من تأثيره، وكأنَّهم وقعوا في مهلكةٍ وغرق أدّى إلى هلاكهم، ويُعطي توازنًا مع ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾؛ إذ يُظهر أنَّ اللّهَ قد يُعاقبُ البعضَ - بسبب أفعالهم - العقابَ الشَّديدَ، ولكنَّه في الوقت نفسه يُظهرُ رحمتَه وعفوَه عن الكثيرين منهم.

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وبق).

﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥﴾ [الشّورى: 35]

آياتُ اللهِ اختبارٌ لمن يستبصرُ وعمًى لمن يُنازِعُ، ويكذِّب

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا كان كلُّ ما سبقَ من الآيات - من تسخيرِ البحرِ وإجراءِ السُّفن، وإسكانِ الرّيح ورُكودِ السُّفن، أو إرسالِ الرّياح عاصفةً، فيُهلِكُهُنَّ بالإغراق، ويعفو عمَّن يشاء - على صورةِ الاختبار لمن يستبصر فيدوم إخلاصُه، أو للانتقام من العصاة بإغراقهم؛ قال مُحذِّرًا لمن يَرجعُ إلى العمى، ويجادلُ في آياتِ اللّه، فلا يكون خلاصُه: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾: (جدل) أصل واحد، وهو من باب استِحكام الشَّيءِ في استرسالٍ يَكونُ فيه، وامتِدادِ الخُصومَةِ ومُراجَعَةِ الكَلامِ[2]، وأصلُ الجدْلِ شِدَّةُ الفَتْلِ، فكأنَّ المتجادِلَين يَفتِلُ كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيِه بامتِدادِ الخُصومَةِ ومُراجَعَةِ الكَلامِ بينهما، فالجِدالُ: المفاوضةُ على سبيلِ المنازعة والمغالبة، والجِدالُ فيه معنى الشِّدَّةِ والإحكامِ ومراجَعَةِ الكلامِ والغَلَبَةِ[3]، ومعنى ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾: يخاصمون[4].

2) ﴿مَّحِيصٖ﴾: الحيص: الحَيْدُ عَنِ الشَّيءِ، حاصَ عَنهُ يَحيصُ حَيصًا: رَجَعَ، ويُقالُ: ما عَنهُ مَحيصٌ، أي: مَحيدٌ ومَهرَبٌ[5]، والمَحيصُ: مَصدَرٌ ميميٌّ مَن حاصَ؛ إذا أَخَذَ في الفرارِ ومالَ في سَيرِه، ومعنى ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾: ما لهم من فرارٍ ومَهْربٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 322.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيوميّ، المصباح المنير: (جدل).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 543.
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حيص).

ولا مَخْلصٍ من لقاءِ اللّه، ومن عقابِه؛ إذا عاقبهم على ذنوبهم، وكُفْرِهم به، ولا لهم منه ملجأ[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا مَفَرَّ ولا مَهرَبَ من عقابِ الله لمَن يُجادلُ في آياتِ الله

يَعلم الَّذين ينازعون على وجهِ التَّكذيب، فيُجادِلون في آياتِ اللّهِ تعالى لِدَفعِها وإبطالِها، أنَّه لا مَفَرَّ لهم ولا مَهربَ يَحيدونَ إليه مِن عِقابِ اللّهِ تعالى، وأنَّه "لا مخلصَ لهم إذا وقفتِ السُّفن، وإذا عصفتِ الرّياح، فيصيرُ ذلك سببًا لاعترافهم بأنَّ الإلهَ النّافع الضّارَّ ليس إلّا اللّه"[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تعدُّدُ القراءاتِ في: ﴿وَيَعۡلَمَ﴾، وأثرُه على المعنى:

في اختلاف القراءتَين إثراءٌ لمعنى تهديدِ المشركين من عذابٍ لا مهربَ منه

في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمَ﴾ قِراءتان متواترتان[3]، **الأولى:** قرَأ بها نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو جعفرٍ برفع ﴿وَيَعۡلَمُ﴾، على أنَّه كلامٌ مستأنفٌ لا ارتباطَ له بما قبلَه، والواو استئنافيَّة، والاستئنافُ إمّا بجُملةٍ فِعليَّةٍ، ويكونُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعِلًا، قيل: مَعناها: (وسيَعلَمُ الذين يُجادِلون في آياتِنا)، وإمّا بجُملةٍ اسميَّةٍ، أي: (وهو يَعلَمُ الذين يُجادِلون في آياتِنا)، ويكونُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مَفعولًا[4]، وفي هذا الاستئنافِ تَهديدٌ للمشرِكينَ بأنَّهم لا مَحيصَ لهم مِن عَذابِ اللّهِ تعالَى، **والثّانية:** قراءةُ النَّصبِ، قرَأ بها الباقون ﴿وَيَعۡلَمَ﴾، وهو على العَطفِ على تعليلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: لِيَنتقِمَ منهم، ويَعلَمَ الَّذين يُجادِلون، أو الواوُ واوُ المعيَّةِ الَّتي يُنصَبُ الفِعلُ المضارِعُ بعْدَها بـ(أن) مُضمَرةً[5].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 544، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 108، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 760.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 603.

(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 367.

(4) ابن زنجلة، حُجّة القراءات، ص: 643، والسّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 80، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 38، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 341.

(5) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 643، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 603، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 33.

دلالةُ التَّعبير بجملة: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ بين الخبر والإنشاء:

بين خبرٍ يُرادُ به التَّهديد، وخبرٍ فيه إنذارٌ بعذابٍ قريبٍ

قولُه: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ على قراءةِ الرَّفع، وتقدير الاستئناف بجملة فعليَّة هو خبرٌ مُرادٌ به الإنشاءُ والطَّلبُ، فهو في قوَّةِ: (وليَعلَم الَّذين يُجادِلونَ، أو اعلَموا يا مَن يُجادِلونَ)، وليّس خبرًا عنهم؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بذلك حتّى يَعلَموه، وذلك لأنَّ الآية: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ استئنافٌ أُريد به تَهديدُ المشرِكينَ بأنَّهم لا مَحيصَ لهم مِن عَذابِ اللّهِ تعالَى؛ لأنَّه لمّا قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾؛ صار المعنَى: ومِن آياتِ انفرادِه بالإلَهيَّةِ الجَواري في البحرِ، والمشرِكونَ يُجادِلونَ في دَلائلِ الوحدانيَّةِ بالإعراضِ والانصرافِ عن سَماعِها، فهدَّدَهم اللّهُ بأن أعلَمَهم أنَّهم لا مَحيصَ لهم مِن عَذابِه.

وأمّا إذا كان الاستئنافُ بجملة اسميَّة، والتَّقدير: (وهو يعلم الَّذين يجادلون)؛ فهو خبر، وكذا على قراءة النَّصب ﴿وَيَعۡلَمَ﴾ هو خبرٌ، ويجوزُ أن يُجعَلَ الخبرُ مُستعمَلًا في مُقارَبةِ المُخبَرِ به؛ كقولِهم: قدْ قامَتِ الصَّلاةُ، فلمّا كان عِلمُهم بذلك يوشِكُ أن يَحصُلَ؛ نُزِّلَ مَنزلةَ الحاصلِ، فأخبَرَ عنهم به، وعلى هذا الوجْهِ يَكونُ إنذارًا بعِقابٍ يَحصُلُ لهم قَريبٍ، وهو عَذابُ السَّيفِ والأسْرِ يومَ بَدْرٍ، وذُكِر فِعلُ (يَعلَم)؛ للتَّنويهِ والاعتِناءِ بالخبرِ، والتَّعبيرُ بصيغة المضارعة في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾؛ للدَّلالة على تجدُّدِ التَّهديد للمشركين بأنَّهم لا محيصَ لهم من عذاب اللّه؛ فعِلْمُ اللّهِ بمجادلتهم مستمرٌّ لتجدُّدِ تعلُّق علمه بكلِّ مجادلٍ؛ كلَّما حصل جدال[1]، وشاملٌ لكلِّ شيء، وهذا على قراءة الرَّفع، وتقدير الآية: (وهو يَعلَمُ الَّذين يُجادِلون في آياتنا)، أو علمهم بأنَّهم لا محيصَ لهم من العذاب متجدِّدٌ مستمرٌّ، على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 323.

تقدير: (ولْيَعلَم الَّذين يُجادِلونَ) بقراءة الرَّفع، أو تقدير: (لِيَنتقِمَ منهم، ويَعلَمَ الَّذين يُجادِلون).

الغرضُ من التَّعبيرِ باسْم الموصول وصلتِه ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾:

مجادلةُ المشركين لإبطالِ الحقِّ هو وجهُ استحقاقهم تهديدَ الله

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن المجادِلين في آياتِ اللّه في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ للإيماءِ إلى وجهِ استحقاق المشركين لتهديد اللّه سبحانه، وهو مجادلتهم لإبطالِ الحقِّ، وللدَّلالة على العموم، فالتَّعبيرُ به يشملُ كلَّ مَن ثبتَتْ له هذه الصِّلة (يجادلون في آيات اللّه)، والمعنى: ويعلمَ كلَّ الذين يجادلون في آياتِ اللّه لإبطالِ الحقِّ ما لهم من محيص، والتَّعبيرُ بصيغة المضارع الَّتي تفيدُ الاستمرارَ والتَّجدُّد تشيرُ إلى تجدُّدِ جدالِ المشركين واستمراره، وكأنَّه أمرٌ ملازمٌ لهم معتادون عليه، بما يدلُّ على شدَّةِ طغيانهم وإفسادهم.

معنى ﴿فِيٓ﴾ ودلالتُها:

جدالُ المشركين لإبطالِ الحقِّ متأصِّلٌ فيهم

﴿فِيٓ﴾ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ تفيدُ تغلغُلَ جدالِ المشركين لإبطال الحقِّ، وتمكُّنَ هذا الجدالِ منهم في جميع آيات اللّه الكونيَّة والقرآنيَّة، وجميعِ ما تشتمل عليه هذه الآيات.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجمع مضافًا لنون العظمة ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

مجادلةُ الكافرين في آيات الله رغم كثرتها دليلٌ على شدَّة طغيانهم

عبَّر البيانُ الحكيم بصيغة الجمع في لفظ الآيات؛ للدَّلالة على كثرة الأدلَّة الدّالَّة على الحقِّ وتنوُّعها، وللإشارة إلى شدَّة طغيان المشركين وتعنُّتهم، فهُم لم يجادلوا في آية واحدة من آيات اللّه، وإنَّما جادلوا في جميع الآيات الإلهيَّة وكلِّ الآيات القرآنيَّة[1]، وأضافَ الآيات إلى نونِ العَظَمة؛ ليلفتَ الانتباهَ إلى أنَّ مقامَ العَظَمة شديدُ المنافاة للمجادلة، وتعظيمًا لها، وإعلاءً لمكانتها عن أن تكون محلًّا للجَدَلِ أو الشَّكِّ، وفي هذا استقباحٌ لِما كان عليه الكافرون من

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 267.

الشِّركِ والنِّزاعِ في تمامِ القدرة بإنكارِ البعث، وتنديدٌ بمجادلتهم في آياتِ اللّه الَّتي لا تُضاهَى عظمتُها، ولا تقايس جلالتُها وعِزَّتها[1].

سرُّ النَّفي بـ ﴿مَا﴾ دونَ غيرها من أدوات النَّفي:

نفيٌ مؤكَّدٌ لأيِّ مَخْلَصٍ أو مَهْربٍ للمُجادلين في آياتِ الله من عقابه

﴿مَا﴾ نافيةٌ لا عملَ لها، وقد آثرَ التَّعبيرَ بها دون غيرها؛ لقوَّةِ النَّفي بها؛ إذ إنَّها آكَدُ من (ليس)، فالنَّفيُ فيها مُؤكَّدٌ قاطع، وهو نفيٌ في الماضي والمستقبل، فيتأكَّد بذلك نفيُ أيِّ مَخْلَصٍ ومَهْربٍ للَّذين يجادلون في آياتِ اللّه من عقابِ اللّه.

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُم﴾:

تهديدٌ وتحذيرٌ خاصٌّ بالَّذين يُنازعون في آياتِ الله تكذيبًا

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُم﴾ على المبتدأ ﴿مَّحِيصٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ إفادةُ الاختصاص، أي: نفي أن يكون للَّذين يجادلون في آياتِ اللّه خاصَّة دون غيرهم أيُّ محيدٍ ومَهْرَبٍ من عذابِ اللّه، وفي هذا تحذيرٌ لهم وتهديد، فيكون ذلك سببًا لاعترافهم، بأنَّ الإلهَ النّافع الضّارَّ، ليس إلّا اللّه ﷻ.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في: ﴿مِّن مَّحِيصٍ﴾:

نفيُ نجاةِ المشركين من عذاب الله أمرٌ مؤكَّدٌ مُحقَّقٌ

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ صلةٌ[2]، تفيدُ توكيدَ الاستغراق في النَّفي، أي: تأكيد عدمِ نجاتهم من العذاب، فما لهم من مهربٍ ومنجًى من عذابِ اللّه؛ مهما حاولوا الهرب.

الغرضُ من حَذف مُتعلّق ﴿مَّحِيصٍ﴾، وبلاغةُ التَّعبير بالمصدر الميميِّ منكَّرًا:

في الإبهامِ تهويلٌ يتضمَّنُ التَّهديدَ

حذفَ البيانُ القرآنيُّ متعلِّقَ ﴿مَّحِيصٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾؛ إذِ التَّقدير: لا مَحيصَ لهم مِن عَذابه؛ وجاء ذلك إبهامًا له، وتَهويلًا للتَّهديد؛ لِتَذهَبَ النَّفْسُ كُلَّ مَذهبٍ مُمكنٍ[3]، والمحيصُ: مصدَرٌ ميميٌّ من حاصَ؛ إذا أخذَ في الفرارِ، ومال في سَيْرِه، وقد عبَّرَ به البيانُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 323.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 267.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 107.

القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ دون المصدرِ القياسيِّ الأصليِّ، وهو (حيصًا)؛ زيادةً في التَّأكيد؛ لقوَّةِ دلالةِ المصدر الميميِّ على الحَدَث، وهو انتفاءُ هروبهم ونجاتهم من عذاب اللّه، وأتى البيانُ القرآنيُّ بالمصدر ﴿مَّحِيصٍ﴾ نكرةً مسبوقًا بـ ﴿مِّن﴾ في سياق النَّفي؛ ليبلغَ الأسلوبُ الغايةَ في تأكيد نفي جنسِ المحيص عنهم، فليس لهم أيُّ منجًى أو أيُّ مهربٍ من لقاءِ اللّه وعذابه.

بلاغةُ التَّذييل بقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾:

الضّارُّ والنّافعُ هو الله، وكلُّ أمرٍ يحدثُ إنّما هو بتأثيره

ذيَّلَ البيانُ الإلهيُّ بهذه الجملة؛ ليزدادَ بها المعنى اتِّضاحًا وتأكيدًا، وليبيِّنَ عجزَهم الكامل، وتناقضَ حالِهم، فبينما يحاولون دحضَ الحقِّ بجدالهم، هم في الحقيقة عاجزون عن الفرار من قدرة اللّه، فهذا التَّذييلُ التَّوكيديُّ يُظهِرُ عاقبةَ الموصوفين بالنِّزاع والمجادلة في آيات اللّه، وأنَّه لا مَهْرَبَ لهم ولا محيدَ عن عذاب اللّه، فكما أنَّ ركّابَ السَّفينة في قِمَّة العجز؛ إذ لا مَخْلَصَ لهم إذا وقفتْ، أو عصفتِ الرّياحُ؛ كذا لا مَهْرَبَ للمجادِلين من عذابِه بعد البعث، فلا بدَّ من الاعتراف بأنَّ الضّارَّ والنّافعَ ليس إلّا اللّه، وأنَّ كلَّ أمرٍ حدثَ فإنَّما هو بتأثيره[1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المُجادَلة والمُحاجَّة:

شــدَّةُ تناقضِ المشركين؛ إذ يجادلون في آيات الله وهُم في قِمَّةِ العَجز

المطلوبُ بالحِجاج هو ظهورُ الحُجَّة، والمطلوبُ بالجِدال الرُّجوعُ عن المذهب، فكأنَّ كلًّا من المتجادِلَين يَفتِلُ صاحبَه عن قوله إلى قوله، ويُقوّي قولَه، ويُضعِّفُ قولَ صاحبِه، وكأنَّ كلًّا منهما يريدُ أن يصرعَ صاحبَه، ويجعلَه بمنزلة من يُلقيه بالجِدالة، فالجِدالُ: هوَ المُفاوَضَةُ على سَبيلِ المُنازَعة والمُغالَبة[2].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 124.
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جدل).

وأمّا المُحاجَّةُ؛ فهي أن يطلبَ كلُّ واحد من المُحاجِّين أن يَردَّ الآخرَ عن حُجَّته ومَحجَّته[1]، وهي تثبيتُ القصدِ والرَّأي لما يُصحِّحُه[2]، ومن هنا كان استعمالُ لفظ المجادلةِ في الآية أنسبَ للسّياق؛ إذ إنَّه ينعَى على الكافرين شدَّةَ مخاصمتِهم للآيات بدون حُجَّة ولا دليل، بل كان كلُّ همِّهم مغالبةَ الحقِّ وبذْلَ الجهد في صرف المسلمين عن دينهم.

المَحيص والمفَرُّ والمَهرب:

المَحِيصُ: هو المَيْلُ في جَوْرٍ وتَلَدُّدٍ[3]، وهو المكان والمأوى الَّذي يَحيدون إليه، وهو موضعُ الرَّوغان.

الَّذين يجادلون في آياتِ الله ما لهم من محيدٍ ولا ملجأ ولا مراغٍ يروغونَ فيه

بينما الفرارُ: هو الانكشافُ والرَّوغان والهُروب، والمَفرُّ: المَوضعُ والمَلجأُ الَّذي يَفِرُّ إليه الإنسانُ من شيءٍ خافه، والابتعادُ عمّا يواجِهُ بخفَّة وإسراعٍ واسترسال، فالفرار: يتضمَّنُ الانكشافَ والخوفَ والهروب بعيدًا بخفَّةٍ وسرعة، واللُّجوءَ إلى مصدرِ الأمن والنَّجاة[4].

وأمّا الهربُ؛ فهو الفرارُ والجِدُّ في الذَّهابِ مذعورًا، ويكون للإنسان ولبعض أنواعِ الحيوان، والمَهربُ موضعُ الهرب[5]، وقد أتى التَّعبير بلفظ محيص؛ لكونه أنسبَ لحالِ الَّذين يجادلون في آياتِ اللّه، فالتَّعبيرُ بالمحيص أقوى من مُجرَّد الفِرار والهرب، ومن مُجرَّد العدول والحُيود، فيظهر بذلك قمَّةُ عجزِ الَّذين يجادلون في آيات اللّه، فما لهم من محيدٍ ولا ملجأ ولا مخلص ولا مأوًى، ولا منجًى ولا مَراغٍ يَروغون فيه.

(1) الرّاغب، المفردات: (حجّ).
(2) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعريف، ص: 298.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حيص).
(4) ابن فارس، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فرر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (هرب).

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾ [الشّورى: 36]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ما يمنعُ من قَبولِ الدَّليلِ إنَّما هو الرَّغبةُ في الدُّنيا

لَمّا ذكَرَ اللّه تعالى دَلائِلَ التَّوحيدِ؛ أردَفَها بالتَّنفيرِ عن الدُّنيا، وتَحقيرِ شَأنِها؛ لأنَّ الَّذي يَمنَعُ مِن قَبولِ الدَّليلِ إنَّما هو الرَّغبةُ في الدُّنيا؛ بسَبَبِ الرِّياسةِ، وطَلَبِ الجاه، فإذا صَغُرَتِ الدُّنيا في عيْنِ الرَّجُلِ؛ لم يَلتَفِتْ إليها، فحينَئذٍ ينتَفِعُ بذِكرِ الدَّلائِلِ[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَمَتَٰعُ﴾: المتاعُ: كلُّ شَيءٍ يُنتفَعُ به، ويُتبلَّغُ به، ويُتزوَّد، والفناءُ يَأتي عليه في الدُّنيا، والجَمْعُ أمتِعَةٌ[2]، والمقصود بالمتاع في الآيةِ: ما يُنتفَعُ به زَمَنًا ثمَّ يَزولُ[3].

3) ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: أصلُ (وكل) يدلُّ على اعتِمادِ غيرِك في أمرِكَ، وهو إظهارُ العَجْزِ في الأمرِ والاعتِمادُ على غَيْرِكَ، وسُمِّيَ الوكيلُ وكيلًا؛ لأنَّهُ يوكَلُ إليهِ الأمرُ[4]، ومعنى التَّوكُّلِ هنا: إفرادُ للَّهِ بِالتَّوَجُّهِ إليهِ في كُلِّ ما تَعجِزُ عَنهُ قُدرَةُ العَبدِ؛ فَإنَّ التَّوَجُّهَ إلى غَيْرِهِ في ذَلِكَ يُنافي التَّوحِيدَ[5]، فهُم يَكِلونَ أمورَهم إلى ربِّهم، هو مَفْزَعُهم ومعتَمَدُهم، فلا ملجأ لهم من اللّهِ إلّا إليه، ولا ضارَّ ولا نافعَ سواه[6].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 603.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(3) الصّاوي، حاشية على الجلالين، ص: 1724.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (وكل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 109.
(6) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 132، والصّاوي، حاشية على الجلالين، ص: 1724.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

حَقيقةُ الدُّنيا ومتاعُها بالنِّسبةِ للآخِرةِ، والمنهجُ القويم للفوزِ بأجرها

يقولُ تعالى مُبيِّنًا حَقيقةَ الدُّنيا ومتاعَها بالنِّسبةِ للآخِرةِ، والمنهجَ القويم للفوز بأجر الآخرة: فما أوتيتُم أيُّها النّاس، أو المشركون مِن شَيءٍ في الدُّنيا، فإنَّما هو مَتاعٌ زائِلٌ تتمَتَّعونَ به في حَياتِكم الدُّنيا، وما عِندَ اللهِ مِن الثَّوابِ والجَزاءِ في الآخِرةِ خَيرٌ مِن مَتاعِ الدُّنيا، وأدوَمُ للَّذين آمَنوا بما وجَب عليهم الإيمانُ به، ويَعتَمِدونَ على رَبِّهم وحْدَه، ويُفَوِّضونَ إليه جَميعَ أُمورِهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتُها في: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾:

تفريعٌ يحملُ تذكيرًا بأنَّ النِّعمةَ الدُّنيويَّةَ نِعمةٌ قَصيرةُ الزَّمانِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ تفريعيَّةٌ، فرَّعتِ الآيةَ على جُملةِ: ﴿۞وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ﴾ [الشّورى: 27] إلى آخِرِها؛ فإنَّها اقتَضَتْ وُجودَ مُنعَمٍ عليه ومَحروم، فذُكِّروا بأنَّ ما أوتوهُ مِن رِزقٍ هو عَرَضٌ زائلٌ، وأنَّ الخيرَ في الثَّوابِ الَّذي ادَّخَرَه اللهُ للمؤمنينَ، مع المناسَبةِ لِما سبَقَه مِن قولِه: ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ مِن سَلامةِ النّاسِ مِن كَثيرٍ مِن أهوالِ الأسفارِ البَحريَّةِ؛ فإنَّ تلك السَّلامةَ نِعمةٌ مِن نِعَمِ الدُّنيا، ففُرِّعَتْ عليه الذِّكرى بأنَّ تلك النِّعمةَ الدُّنيويَّةَ نِعمةٌ قَصيرةُ الزَّمانِ، صائرةٌ إلى الزَّوالِ، فلا يَجعَلُها الموفَّقُ غايةَ سَعْيِه، وليَسْعَ لِعَمَلِ الآخِرةِ الَّذي يأتي بالنَّعيمِ العَظيمِ الدّائمِ، وهو النَّعيمُ الَّذي ادَّخَرَه اللهُ عِندَه لِعِبادِه المؤمنينَ الصّالحينَ(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (ما) في: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ﴾ موصولةٌ ضُمِّنَتْ معنى الشَّرط، وهو مُجرَّدُ ملازمةِ الخبر لمدلول اسم الموصول، ولذلك اقترنَ جوابُها بالفاء، ولا تُعَدُّ هنا شرطيَّةً؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 109.

المعنى على الإخبار لا على التَّعليق، وفي الموصوليَّة إفادةٌ للعموم، أي:كلُّ ما أوتيتموه من شيءٍ فهو متاعٌ زائل[1]، ولفتٌ وتنبيهٌ إلى ما سيأتي بعد هذا الخطاب، وأنَّه من الأمورِ المهمَّة الَّتي يجب ألّا تغيبَ عن قلوبِ المؤمنين، وذلك بما تتضمَّنُه (ما) من الإبهام الَّذي يستدعي التَّشويق، أو هي شرطيَّةٌ في محلِّ رفع مبتدأ، وقوله: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، تقديره: (هو)، أي: فهو متاع[2]، وهي جملةُ جوابِ الشَّرط، وفي الشَّرطية إفادةُ اقترانِ الزَّوال والفناءِ بكلِّ ما أوتيتموه.

في الموصوليَّة إفادةٌ لعمومِ زوالِ ما أوتوا من متاعِ الدُّنيا، وفي الشَّرطيَّة لزومُ زوالِه

إيثارُ التَّعبيرِ بالإيتاء، ودلالةُ بناء الفعل ﴿أُوتِيتُم﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظ الإيتاء دونَ الإعطاء؛ للمبالغة في بيانِ عدم قيمةِ كلِّ ما يُؤتاه الإنسانُ من متاعِ الحياة القريبة الدَّنيئة الَّتي لا نفعَ فيه لأحدٍ إلّا مدَّةَ حياته؛ إذ إنَّ الإيتاء عطاءٌ من دون تملُّكٍ، ويمكن أن يُنزعَ، أو يُستردَّ، ويشمل الأمورَ المعنويَّة والمادّيَّة، ولم يأتِ البيانُ القرآنيُّ بفاعل ﴿أُوتِيتُم﴾ لشُهرته؛ إذ لا مُؤتٍ غيرُه سبحانه، ولتنزيهه وبيانِ جلالِه بأنَّ كلَّ ما أوتيتموه من متاعِ الدُّنيا لا يساوي عند الله شيئًا، ولذا لم ينسبه لنفسه، ولتحقيرِ مُتَعِ الدُّنيا في نفوسِ المخاطَبين بعدم ذِكرِ مُعطيها سبحانه، وكذلك لفتُ الانتباه إلى ما سيأتي بعد هذا الخطاب، وأنَّه من الأمورِ المُهمَّة الَّتي يجبُ ألّا تغيبَ عن قلوبِ المؤمنين.

لفتُ الانتباهِ إلى أنَّ كلَّ ما أوتيَه الإنسانُ في الدُّنيا متاعٌ زائل

مرجعُ ضميرِ الخطاب ودلالتُه في: ﴿أُوتِيتُم﴾:

الخطابُ في قوله: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾ للمشركينَ؛ جريًا على نَسَقِ الخِطابِ السّابِق، ويَنسَحِبُ الحُكمُ على المؤمنينَ بلَحنِ الخِطابِ[3].

خطابٌ موجَّهٌ لجميعِ النّاس بأنَّ متاعَ الدُّنيا زائل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 109.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 326، وابن عثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 272.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 35، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 109.

ويجوزُ أن يكونَ الخِطابُ للنّاس مطلقًا، أي: فما أوتيتم أيُّها النّاس من النِّعم الظّاهرة[1].

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾:

بيانُ أنَّ كلَّ شيء أوتيه الإنسان في الدُّنيا متاعٌ زائل

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ بيانيَّةٌ، سواءٌ كانت (ما) شرطيَّة أم موصوليَّة؛ لِما في الموصولِ واسم الشَّرطِ مِنَ الإبهام، وهي لبيانِ الجنس وعمومِه[2]، والمعنى: ما أوتيتُم من شيء أيِّ شيءٍ في حياتكم الدُّنيا، فما هو إلّا متاعٌ قليلٌ حقيرٌ من أمتعتها الفانية بالنِّسبة؛ لِما عند الله في الآخرة، ويمكن أن تكون صلةً؛ لتوكيدِ عموم ﴿شَيۡءٖ﴾؛ فإنَّها نكرةٌ في سياقِ النَّفي، ودخولُ ﴿مِّن﴾ عليها يزيدها في التَّعميم؛ لتشملَ كلَّ ما أوتوه من متاع الدُّنيا من الأمور المادّيَّة والمعنويَّة من كلِّ ما يرغبونَ، ويتنافسونَ فيه.

معنى الفاءِ ودلالتُها في: ﴿فَمَتَٰعُ﴾:

إيـتـاءُ مـا أوتي الإنـسـانُ سببٌ لـلـتَّـمـتُّعِ بـه في الحياة الدُّنيا

(الفاء) في قوله: ﴿فَمَتَٰعُ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ، سواءٌ كانت (ما) شرطيَّةً أم موصوليَّةً تضمَّنت معنى الشَّرط، من حيثُ إنَّ إيتاءَ ما أوتوا سببٌ للتَّمتُّع به في الحياة الدُّنيا، ممّا أدّى لدخول الفاء في جوابها[3].

سرُّ التَّعبير بالمتاع، والغرض من إضافته للدُّنيا في: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾:

متاعُ الدُّنيا قليلٌ وحقيرٌ، وشأنه الفناءُ والزَّوالُ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ المتاع في قوله: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ دون النَّعيم؛ تَنبيهًا على قِلَّتِه وحَقارتِه وخساسته وفنائه، فهو شيءٌ شأنُه أن يُتمتَّع، ويُتلذَّذ به، ويُتبلَّغَ به، ويُتزوَّدَ أيامًا قلائل، ثمَّ إلى فناءٍ وزوال[4]، ولأنَّ الحِسَّ شاهِدٌ بأنَّ كُلَّ ما يَتعلَّقُ بالدُّنيا، فإنَّه يكونُ سَريعَ الانقِراضِ والانقِضاءِ[5]، وفي إضافة

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 544، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 326.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 45.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 34.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 244.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 603.

المتاع إلى الحياة الدُّنيا مبالغةٌ في بيانِ حقارةِ هذا المتاع وسرعةِ انقراضِه، بأن جعله من الدُّنيا الفانية؛ لأنَّه يُبيِّن أنَّه لا يعودُ نفعُه إلى غيرها، فهو إلى زوال[1]، وهو مع ذلك محشوٌّ بالمُنغِّصاتِ، وممزوجٌ بالغُصص[2]، وذلك جديرٌ بالإعراضِ عنه، وعمّا يُسبِّبه من الأعمال إلّا ما يُقرِّب إلى الله[3]، وبهذا لا ينبغي أن يُؤثِر الفاني على خساسته على الباقي مع نفاسته.

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾:

العقلُ يقتضي ترجيحَ الخيرِ الباقي على الخسيسِ الفاني

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، والمعنى: والَّذي أوتيتم، فهو متاعُ الحياة الدُّنيا، والَّذي عند الله خير وأبقى[4]، وفي هذا الجمعِ زيادةُ بيانٍ بأنَّ مطالبَ الدُّنيا خسيسةٌ منقرضة؛ لأنَّ كلمة ﴿خَيۡرٞ﴾ دليلٌ على أنَّ متاعَ الدُّنيا مليءٌ بالمُنغِّصات، وكلمةُ (أبقى) دليلٌ على اضمحلاله وزواله، وصريحُ العقل يقتضي ترجيحَ الخير الباقي على الخسيسِ الفاني[5].

الغرضُ من التَّعبير بالاسم الموصول (ما):

إبهامٌ في ثوابِ ما عندَ الله مُشعِرٌ بعظمته ومُشوِّقٌ إليه

عبَّر البيانُ الحكيم بالاسم الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾؛ للإشارةِ إلى وجهِ بناء الخبر، وهو كونه عند الله؛ توصُّلًا إلى تعظيمه وتفخيمه، والتَّشويق إليه؛ لِما في (ما) من الإبهام المُشْعِر بأنَّه أمرٌ مَهول.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، وسرُّ الإضافة:

عنديَّةٌ إلَهيَّةٌ تُنبِئُ بالعظمةِ والفخامةِ

﴿عِندَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ ظرفُ مكانٍ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 40.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 759.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 326.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 25/ 327.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 603.

متعلِّقٌ بمحذوف، لا محلَّ له من الإعراب؛ لأنَّه صلة لـ (ما)، و﴿خَيۡرٞ﴾ خبرُها[1]، وهو مجازٌ، واستعمالُها دونَ (لدى) أنسبُ للسّياق الَّذي يتحدَّثُ عن الثَّواب الأُخرويِّ؛ إذ تُستخدمُ (عند) في اللُّغة عن شيء في حوزتك، سواءٌ كان حاضرًا أم غائبًا، بخلاف (لدى) فإنَّها لا تُستخدم إلّا للشَّيء الحاضر[2]، وفي إضافته إلى الاسم الجامع لكلِّ صفاتِ الجلال والجمال والكمال والمُلْكِ الأعظم المحيطِ بكلِّ شيء قدرةً وعِلمًا، من نِعَم الدّارين ما يستوجبُ أن يكونَ الثَّوابُ عظيمًا[3]، فالثَّوابُ من العظيم لا يكون إلّا جليلًا عظيمًا، كما أنَّ الإضافة تُفيدُ الاختصاصَ، أي: هو المُختصُّ به، فالثَّوابُ الأُخرويُّ مختصٌّ باللّه، ولا يكون من غيره سبحانه، كما تقول: عندي ما تريد، تقصدُ اختَصصتُكَ به.

دلالةُ التَّعبير بالخيريَّة في لفظ: ﴿خَيۡرٞ﴾، والغرض من التَّنكير:

في الاشتقاقِ من الخيريَّة مزيدُ تفخيمٍ وتعظيمٍ لهذا الثَّواب الأُخرويِّ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظ ﴿خَيۡرٞ﴾ دون غيره كـ (أفضل وأنفع)، في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾؛ لكون لفظ الخير أوسعَ دلالةً؛ إذ هي كلمةٌ جامعةٌ للمَرغوب فيه، كالعقل والعدلِ والفضلِ والشَّيء النّافع[4]، وفي هذا مزيدُ تفخيم وتعظيم لهذا الثَّواب الأخرويِّ، ومجيءُ ﴿خَيۡرٞ﴾ مُنكَّرًا للتَّعظيم والتَّفخيم؛ لتجتمعَ في التَّعبير العظَمةُ والفخامةُ من خلال جملة الصِّلة والاشتقاق من الخيريَّة ومجيئه منكَّرًا.

معنى الواو ودلالتُها في: ﴿وَأَبۡقَىٰ﴾:

الجمعُ بين الخيريَّةِ والبقاءِ، مُؤذِنٌ بكمالِ الثَّواب

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَبۡقَىٰ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه ﴿خَيۡرٞ﴾، وبالجمع بين البقاء والخيريَّة يتحقَّقُ كمالُ ثوابِ الآخرة، فالخيريَّةُ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 42.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير: (لدن).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 327.
(4) الرّاغب، المفردات: (خير).

للجَوْدة واللَّذَّة والحُسْن، والأبقى للزَّمان، أي: جمعَ بين كونه هو خَيْرٌ ذاتًا لخلوصِ نفعِه، وأبقى زمانًا؛ إذ لا يَزولُ، ولا يَفْنى[1].

دلالةُ التَّعبير بـ (أفعل) التَّفضيل في: ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾:

تـفـوُّقُ نـعـيـمِ الآخـرةِ الباقي على متاعِ الدُّنيا الزّائلِ كمًّا وكيفًا وزمانًا

عبَّر القرآنُ بلفظ ﴿خَيۡرٞ﴾ ولفظ (أبقى)، وهما من أسماءِ التَّفضيل؛ ليُنَبِّه على أنَّ كلَّ شيء أوتيَه الإنسانُ من متاعِ الحياة الدُّنيا مهما كان ثمينًا أو ذا قيمةٍ، أو مهما بقي مصاحبًا للإنسان لُمدَّةٍ وإن طالت، فإنَّ ما عند اللّهِ من الثَّواب هو خيرٌ منه في الكمالِ واللَّذَّةِ والحُسْن، وأبقى منه في الدَّوام والاستمرار وعدم الانقطاع، وبهذا تظهر المقابلةُ والبَوْنُ الشّاسعُ بين متاعِ الدُّنيا الزّائل، ونعيم الآخرة الباقي كمًّا وكيفًا وزمانًا.

دلالةُ عدمِ ذِكْر المُفضَّل عليه في: ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾:

ما عـنـدَ اللـهِ من الثَّوابِ خيرٌ وأبقى من كلِّ شيءٍ

﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ اسما تفضيلٍ حُذِف متعلّقُهما، وهو المُفضَّل عليه؛ للعِلم به ولدلالةِ ما قبلَه عليه، والتَّقدير: وما عند اللّه خيرٌ وأبقى ممّا يتقلَّبُ فيه الكفّار من متاعِ الدُّنيا الخسيس الزّائل، ولإفادةِ العموم؛ فإنَّ حذف المتعلِّق مُؤذنٌ بالعموم، والتَّقدير: وما عند اللّه خيرٌ وأبقى من كلِّ شيء، قد يُظَنُّ أنَّ فيه خيرًا وبقاءً، ولا تعارضَ بين التَّقديرين؛ لأنَّ الأوَّل من أفرادِ الثّاني.

سرُّ عدمِ ذكر الآخرة في مقابلة ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾:

ما عـنـدَ اللـه أعـظـمُ مـن أنْ يُـحـصـرَ، وأجـلُّ من أن يُسَمّى، ويوصفَ

لم يأتِ البيانُ القرآنيُّ بذِكْرِ الآخرة في مقابلةِ الحياة الدُّنيا، واكتفى بقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾؛ لكون ما عند اللّهِ أعظمَ من أن يُحْصرَ في مفهوم الآخرة فقط، فما عند اللّه يشملُ كلَّ ما عدا المتاع الدُّنيا، فيشملُ رضوانَ اللّه، والنَّعيمَ المقيم، والفضلَ الإلهيَّ غيرَ المحدودِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 34.

معنى اللّام، ودلالتُها في: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

اللّامُ الدّاخلة على الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، إمّا أن تكون للبيان، أي: أعني للَّذين آمنوا، فهُم من لهم هذه النِّعمة[1]، وإمّا أن تُفيدَ الاختصاص، فهي للمؤمنين لا لغيرهم من الكفرة، وفي هذا تعريضٌ بالمشركين المُكذِّبين بالبعث، بأنَّهم محرومون ممّا عند اللّه من النَّعيم، وفي هذا التَّعريضِ تأييسٌ لهم.

التَّكرِمةُ والأفضليَّةُ لأهلِ الإيمان لا لغيرهم

الغرضُ من التَّعبيرِ باسْمِ الموصول وصلتِه في: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

التَّعريفُ بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ دون الاسم الظّاهر؛ إذ لم يقل: (خيرٌ وأبقى للمؤمنين)؛ مُؤْذِنٌ بعِلَّة استحاقِ المؤمنين لهذا الثَّواب العظيم والنَّفيس، وهي تحقُّقُهم بالإيمان باللّه، وتوكُّلُهم على الَّذي لم يَرَوا إحسانًا قطُّ إلّا منه وحدَه، بما ربّاهم من الإخلاص له[2]، ومُفيدٌ تعظيمَ شأنِ هؤلاء المؤمنين؛ لِما في الاسم الموصول ﴿لِلَّذِينَ﴾ من الإبهام المُشعِر بذلك، ودالٌّ على العموم، فما عند اللّه من الثَّواب خيرٌ وأبقى لكلِّ المؤمنين المتوكِّلين على اللّه وحدَه.

الإيمانُ هو عِلَّةُ الاستحاقِ لِما عند اللّه من الثَّوابِ العظيم

دلالةُ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

استلزمَ استعمالُ الاسم الموصول ﴿لِلَّذِينَ﴾ أن يأتيَ بالفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الإيمان ممَّن يستحقّون الثَّوابَ العظيم الَّذي وعدَ اللّهُ به، ولأنَّ الإيمانَ سابقٌ في الوجود لِما جاء بعدَه، وهو التَّوكُّل.

استحقاقُ ثوابِ اللّهِ العظيم لمن تحقَّقَ منه الإيمان

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ للعطف على جملة الصِّلةِ، أي: عليه دونَ غيرِه، وهذا التَّوكُّلُ إفرادٌ للّهِ بالتَّوجُّهِ إليه في كلِّ ما

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 4/ 601.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 46، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 328.

تَعجز عنه قُدرةُ العبْدِ، فإنَّ التَّوجُّهَ إلى غيرِه في ذلك يُنافي التَّوحيدَ، وجاء العطفُ على الصِّلةِ، ولم يُؤتَ معه باسم مَوصولٍ، بخِلافِ ما ورَدَ بعْدَه؛ لأنَّ التَّوكُّل متمِّمٌ للإيمان، فكلاهما شيءٌ واحد، ولا غنى لأحدهما عن الآخر[1]، فقد جمعَ بهذا العطف بين صفتين تنفيان الشِّركَ الأكبر والشِّركَ الخفيَّ الدَّقيق الَّذي لا يُرَى، كالرّياء والاتِّكال على غير اللّه.

التَّـوكُّـلُ على الـلـه مـتـمِّـمٌ لـلإيـمـان، ولا غـنـى لأحدهما عن الآخر

دلالةُ التَّعبير بحرف الاستعلاء (على):

التَّعبيرُ بأداة الاستعلاء (على) في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ تمثيلٌ للإسناد والتَّفويض إليه سبحانه بالحَمْل عليه؛ لأنَّ الحَمْلَ أبينُ في الرّاحة، وأظهرُ في البُعد من الهَمِّ والمَشقَّة[2]، وفي استعمالِ أداةِ الاستعلاء إيماءٌ إلى أنَّ المتوكِّلَ على اللّه متمكِّنٌ مستقِرٌّ مطمئِنٌّ واثقٌ باللّه، ومتجاوِزٌ لكلِّ قَلَقٍ ومخاوفٍ.

التَّوكُّل إسنادُ الأمرِ وتفويضُه إليـه سبحانه بالحَمْلِ عليه

سرُّ اختيار الرُّبوبيَّة ﴿رَبِّهِمۡ﴾ دون اسم الجلالة (الله):

آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ تنويعًا في الكلام؛ إذ سبقَ في الآية ذاتِها في قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولأنَّ الرُّبوبيَّة تُناسِبُ سياقَ التَّفويضِ والاعتمادِ الكُلّيِّ على اللّه، فالتَّوكُّل يحتاجُ إلى ثقةٍ بالرِّعاية والتَّدبير، فهُم يتوكَّلون على المُدبِّر المُحسنِ المُربّي لهم، المُنعم عليهم، الَّذي لم يَرَوا إحسانًا قطُّ إلّا منه وحدَه بما ربّاهم من الإخلاص له، وهذا يتناسب مع ما ذكر في السّياق من النِّعَمِ.

الرُّبوبيَّةُ تُناسِبُ سياقَ التَّفويضِ والاعتمادِ الكلّيِّ على الله

غرضُ الإضافة في: ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

أفادَ التَّعريفُ بالإضافة في ﴿رَبِّهِمۡ﴾ تشريفَ المضافِ إليه، وهم المتوكِّلون، وتعظيمَ توكُّلهم؛ لأنَّهم يتوكَّلون على خالقهم، وهم

تـشـريـف المُـتـوكِّـلـين على ربِّهم، وتعظيم توكُّلهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 109.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 328.

يعلمون أنَّه مالكهم وراعيهم وحافظهم؛ إذ لم يَرَوا إحسانًا قطُّ إلّا منه وحده، وهذا أدعى لأن يصلَ التَّوكُّلُ عندهم إلى أرفعِ درجاته، وأخلصِ حالاته[1].

الغرضُ من تقديم وصفِ الإيمان على التَّوكُّل في الآية:

التَّوكُّل الحقُّ على الله لا يكون إلّا من المؤمن الحقِّ بالله

في تقديم الإيمان على التَّوكُّل في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لفتةٌ مهمَّةٌ، وهي أنَّ صِدقَ التَّوكُّلِ يَظهَرُ؛ إذا كان الإنسان مؤمنًا بالله، فالتَّوكُّل من غير إيمانٍ يكون قبلَه لا ينجع؛ إذ الإيمانُ يتحقَّق أوَّلًا، ثمَّ يأتي بعدَه التَّوكُّل، الَّذي يكون نتيجةً وثمرةً للإيمان.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع في: ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾:

التَّوكُّلُ من المؤمنين يتجدَّدُ؛ كلَّما تجدَّد أمرٌ مهمٌّ

عبَّر بصيغة المضارع في قوله: ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ رغم أنَّه معطوفٌ على الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ التَّوكُّل يأتي بعد الإيمان؛ فالإيمانُ يتحقَّق أوَّلًا ثمَّ يأتي بعدَه التَّوكُّل الَّذي يقتضي الرُّجوعَ إلى الله واللُّجوءَ إليه في كلِّ أمر، وحياةُ الإنسان في تقلُّبٍ، وأمورُهُ في تجدُّدٍ؛ لذلك ناسبَ أن يُصاغَ التَّوكُّلُ على الله على صيغة المضارعة؛ لِما لها من دلالة التَّجدُّد والحدوث[2].

الغرضُ من تقديم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ على الفعل ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾:

إفرادُ اللهِ بالتَّوجُّه إليه في كلِّ ما تعجزُ عنه قدرةُ العبد

تقديمُ الجارِّ والمجرور على الفعل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ لإفادة الحَصْر، الَّذي يدلُّ على توحيدهم لله، فهُم لا يعتمدون إلّا على ربِّهم وحده، لا على غيرِه أصلًا[3].

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ:

مراعاةُ السّياقِ لحال المُخاطَبين بلاغةٌ قرآنيَّة

الاختلافُ بين قوله تعالى هنا: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وبين قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ

(1) صلاح حبيب سليمان، من أسرار التّعريف والتّنكير في سورة الشّورى، ص: 286.
(2) صلاح حبيب سليمان، من أسرار التّعريف والتّنكير في سورة الشّورى، ص: 289.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 34.

﴿ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٦٠﴾ [القصص: 60]، أنَّه في آية الشّورى عطفَ بالفاء ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾، ولم يذكرِ الزّينة، وإنّما اكتفى بذِكرِ المتاع، وختمها بقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، بينما في آيةِ القصص عطفَ بالواو ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ [القصص: 60]، وذَكَر فيها الزّينةَ إضافةً إلى المتاع، وختمها بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾ [القصص: 60]، وتوجيهُ ذلك: أنَّ الكلامَ في آية الشّورى متعلِّقٌ بما قبلَه أشدَّ تعلُّقٍ؛ لأنَّه عقَّبَ ما لهم من المخافة بما لهم من الأمَنَة، فناسبَ مجيءُ الفاءِ المقتضية للتَّعقيب[1]، بينما الكلامُ في آية القصص لم يتعلَّق بما قبلَه كبيرَ تعلُّقٍ، فناسبَ مجيءُ الواوِ المُقتضية لمُطلَقِ الجمعِ، وأمّا ذِكْرُ الزّينة في آيةِ القصص؛ فلأنَّ السّياق في الكفّار، وهم المُغترّون بالدُّنيا وزينتِها من مساكنَ وأموالٍ وخَدمٍ، وقد جاءت بعد قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ [القصص: 59]، فخاطَبَ الَّذين أوعدَهم بمثل ما أهلكَ به من قبلهم، وأنَّه ليس لهم فيما أوتوه في الدُّنيا عِوضٌ مّما يفوتُهم في الأخرى، فجميعُ أغراضِ الدُّنيا مستوعَبةٌ بهَذَين اللَّفظين، ومن ثَمَّ ناسبَ ختمُها بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾ [القصص: 60]، وأمّا آية الشّورى؛ فقد تقدَّمتها آياتُ نعمةٍ على عباده، في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، إنْ شاء؛ أنجى أهلَها، وإنْ شاء؛ أهلكَهم بذنوبهم، والمؤمنون بالآخرة لا يغترّون بزينةِ الدُّنيا؛ فناسبَ عدمُ ذِكْرِ الزّينة؛ ولأنَّه ليسَ القَصْدُ في هذا المكان استيعابَ جميعِ ما يُؤتَون في دنياهم، بل هو مطلوبهم في تلك الحال من النَّجاة والأمن في الحياة، فلم يحتجْ إلى ذكرِ الزّينة، ومِن ثَمَّ ناسبَ ختمُها بقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المتاع والنَّعيم:

المَتاعُ ما ينتَفَعُ بِهِ انتفاعًا قَليلًا غيرَ باقٍ، بل يَنقَضِي عَن قريب[3]، فالمتاعُ عامٌّ في كلِّ ما يُتمتَّع به؛ إذ أصلُه يدلُّ عَلى مَنفَعَةٍ وامتِدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ[4]، وكُلُّ شَيءٍ يُنتَفَعُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 21/ 246.

(2) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل وغُرّة التّأويل، ص: 987، و988، وابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 286.

(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 804.

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (متع)، والعسكريّ، الوجوه والنظائر، ص: 454.

كلُّ ما يُستمتَعُ، ويُتلذَّذُ به في الدُّنيا فانٍ؛ مهما طالتْ مُدَّته

به، ويُتَبَلَّغُ به، ويُتَزَوَّدُ، والفَناءُ يأتي عَليهِ في الدُّنْيا فهو متاع[1]، وأمّا النَّعيمُ؛ فهو أخصُّ من المتاع؛ إذ أَصلُه يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ[2]، وهو نقيضُ البُؤس، فالنَّعيمُ حُسْنُ الحالِ وراحةُ البال، وما يُتلَذَّذُ به في الدُّنيا من الصَّحة والفراغ والأمن والمطعمِ والمشرب، ونَعِيمُ اللّهِ تعالى: عَطِيَّتُه الكَثِيرَةُ الوافِرَة[3]، إذًا: فأخصُّ ما يُميّزُ المتاعَ هو الانتفاعُ به مدَّةً مع سُرعةِ زوالِه، ولهذا أُضيفَ غالبًا إلى الدُّنيا، بينما أخصُّ ما يُميِّزُ النَّعيمَ هو طيبُ العيشِ وامتدادُه، ولهذا ذُكِرَ غالبًا مع الآخرة، ومن هنا ناسبَ التَّعبيرُ بالمتاع مضافًا إلى الدُّنيا الزّائلة؛ ليُنبِّهَ على سُرعةِ زوال كلِّ ما يَستمتِعُ به الإنسانُ في الدُّنيا، فمهما طالتْ لذَّتُه، فإنَّه فانٍ وزائلٌ، وما عند اللّه خيرٌ وأبقى.

البقاءُ والدَّوام والخُلود:

عدمُ فناءِ نعيم الآخرة وأبديَّته تزهيدٌ بمتاعِ الدُّنيا الزّائل والفاني

البقاءُ هو عدمُ الفناء، ودوامُ الشَّيءِ وثباتُه على حالهِ الأولى، فالباقي هو الَّذي لا يفنى، وما يقابله يأتي عليه الفناء[4].

بينما الدَّوامُ سكونُ الشَّيء وامتدادُ الزَّمان عليه، فالدَّوامُ على الشَّيءِ عَدَمُ الانقطاع عنه[5].

وأمّا الخلودُ؛ فهو المُلازمةُ على حالةٍ ثابتةٍ من غير طُروء التَّغيير، وهو تبرِّي الشَّيءِ من اعتراضِ الفساد[6].

وإن كانت هذه الألفاظ الثَّلاثة متقاربةً جدًّا إلّا أنَّ البيانَ الإلهيَّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(3) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نعم).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بقي).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (دوم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلد).

آثرَ استخدامَ لفظِ البقاء هنا؛ لأنَّه أنسبُ للسّياق الَّذي ذُكِرَ فيه متاعُ الحياة الدُّنيا الزّائل والفاني، وأنَّ ما عند اللّهِ دائمٌ أبديٌّ سرمديٌّ لا يفنى، ولا يزول، وفيه تعظيمٌ لِما عند اللّه من نعيمِ الآخرة الأبديِّ، وحثٌّ على طلبه والرَّغبة فيه، والزُّهد في متاعِ الحياة الدُّنيا الزّائل، وعدم التَّعلُّق به.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾ [الشّورى: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

من دلائلِ الإيمانِ وصدْقِ التَّوكُّل اجتنابُ كبائرِ الإثمِ والفواحش

لَمّا كان كُلٌّ مِن الإيمانِ والتَّوكُّلِ أمرًا باطِنًا؛ كان لا بُدَّ مِن دَلائِلِه مِن ظواهِرِ الأعمالِ، وكانتْ تَخْلياتٍ مِن الرَّذائلِ، وتَحْلياتٍ بالفَضائلِ، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَجۡتَنِبُونَ﴾: (جنب) له أصْلانِ مُتَقارِبانِ، أحدُهما: النّاحِيةُ، والآخَرُ البُعدُ[2]، وجنَّبَه الشَّيءَ تجْنيبًا؛ أي: نحّاهُ عنه، وجعلَه ناحيةً منه وجانبًا، وكذلك جنَّبتُه، وقولُه تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النّحل: 36]، أي: اترُكوه بالكلِّيَّة[3]، فالاجتِنابُ المرادُ في الآيَةِ موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أي: يبتعدون عن كبائر الإثم والفواحش، ويتركونها.

2) ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾: الكبائر واحِدَتُها كَبيرَةٌ، وهيَ الفَعْلَةُ القبيحةُ مِنَ الذُّنوبِ المنهِيِّ عَنها شَرعًا، العَظيمِ أمرُها كالقَتلِ والزِّنى والفِرارِ مِنَ الزَّحْفِ وغَيْرِ ذَلِكَ، فالكبيرةُ متعارَفةٌ في كلِّ ذنبٍ تعظُمُ عقوبتُه[4]، وهو المعنى المراد هنا، أي: الفِعلاتُ الكَبيرَةُ، وهيَ الآثامُ العَظيمَةُ الَّتي نَهى الشَّرعُ عَنها نَهْيًا جازِمًا[5].

3) ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾: الذَّنب؛ لأنَّ هذا الإثمَ بطيءٌ عَنِ الخير مُتأخِّرٌ عنه[6]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 328، و329.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جنب).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جنب).
(4) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 110.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (أثم).

والإثمُ: التَّقصيرُ، وسُمّيت الخمرُ إثْمًا؛ لأنَّها تقصرُ بشاربها لذهابها بعقله، والإثمُ لا يكون إلّا تعمُّدًا[1]، والإثمُ ما يَحْمِلُ على قَلَقِ النَّفس، وهو معصيةٌ وخطيئةٌ تستحقُّ على صاحبها الذَّمَّ والعقوبةَ عليه[2]، وهو المعنى المراد هنا.

4) ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾: جَمْعُ فاحِشَةٍ، وهيَ: الفِعلَةُ المَوصوفَةُ بِالشَّناعَةِ، والَّتي شَدَّدَ الدِّينُ في النَّهيِ عَنها، وتَوَعَّدَ عَلَيها بالعَذابِ، أو وضَعَ لَها عُقوباتٍ في الدُّنيا لِلَّذي يَظْهَرُ عَلَيهِ مِن فاعِليها، وهَذِهِ مِثْلُ قتلِ النَّفس، والزِّنى، والسَّرِقَةِ، والحِرابَةِ"[3].

5) ﴿غَضِبُواْ﴾: الغضبُ هو السُّخْط ضدُّ الرِّضا[4]، والغَضَبُ: ثورانُ دمِ القلبِ إرادةَ الانتقام[5]، وهو مِنَ المَخْلوقِينَ، شيءٌ يُداخِل قُلوبَهم، ومِنهُ مَحمودٌ ومَذمومٌ؛ فالمَذمومُ: ما كانَ في غَيرِ الحَقِّ، والمَحمودُ: ما كانَ في جانِبِ الدِّينِ والحَقِّ، والغَضَبُ مِن اللَّهِ صفةُ فعل، آثارُه: سُخْطُه على مَن عَصاه، وإعراضُه عَنهُ، ومُعاقَبَتُهُ لَهُ[6]، ومعنى الغضب هنا موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

التَّخلّي عن الرَّذائلِ والتَّحلّي بالفضائل

يتابعُ البيانُ الإلهيُّ بيانَ صِفاتِ عِبادِه المؤمنينَ المستحقِّين للثَّوابِ العظيم، المتوكِّلين على اللّه، فيقولُ: وما عند اللّهِ خيرٌ وأبقى للَّذين آمنوا، الَّذين يَجتَنِبونَ كَبائِرَ الإثمِ والفواحِش كالقتْلِ والزِّنى، وإذا غَضِبوا على مَن أساءَ إليهم، واجترمَ إليهم جرمًا يَصفَحونَ عنه، ويَتغاضَونَ عن إساءتِه، ويَستُرونَها عليه، ولا يَنتَقِمونَ لأنفُسِهم[7].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 233.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (إثم)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 40.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 110.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غضب).
(5) الرّاغب، المفردات: (غَضِب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (غضب).
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 545.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ العطف في: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾:

ثوابُ الآخرة لمَن جمعَ بينَ التَّوحيدِ والعِفَّةِ والعفو

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾، فيه إتباعُ الموصولِ السّابقِ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، بمَوصولاتٍ مَعطوفٍ بعضُها على بعضٍ، كما تُعطَفُ الصِّفاتُ للمَوصوفِ الواحدِ، فكذلك عطْفُ هذه الصِّلاتِ ومَوصولاتِها، أصحابُها مُتَّحِدونَ، وهم الَّذين آمَنوا باللّهِ وحْدَه[1]، ويكون بهذا العطف قد جمعَ بينَ التَّوحيدِ والعِفَّةِ والعفو؛ إذ إنَّه سُبحانَه أخبَرَ أنَّ ما عِندَه خيرٌ لِمَن آمَنَ به، وتَوَكَّلَ عليه، وهذا هو التَّوحيدُ، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، فهذا اجتنابُ داعي القوَّةِ الشَّهوانيَّةِ، ثمَّ قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾، فهذا مُخالفةُ القوَّةِ الغَضَبيَّةِ[2]، كما أنَّه بهذا العطف جمعَ بين الإيمان والتَّوكُّل، وهما عملان قلبيّان، وما يصدقهما؛ فالمؤمنُ يُترجِمُ عملَه إلى سلوكٍ، بأنْ يُطَهِّر عملَهُ من كلِّ المحرمات، ويأتي بالأعمال الحسنة.

سرُّ تكرارِ اسمِ الموصول (ٱلَّذِينَ):

ما عِندَ اللهِ خيرٌ وأبْقَى للمُؤمنينَ الَّذين هذه صِفاتُهم

كرَّر البيانُ الحكيم الاسمَ الموصول (الذين)، ولم يعطفْ صفةَ اجتنابِ كبائرِ الإثم على الصِّفات السّابقة من غير اسم الموصول، فلم يقل: (وما عند اللّه خير وأبقى للَّذين آمنوا، ويجتنبون كبائرَ الإثم، واستجابوا لربِّهم)، رغمَ أنَّ أصحابَها مُتَّحِدونَ، وهم الَّذين آمَنوا باللّه؛ وذلك اهتمامٌ بالصِّلاتِ، فيُكرَّرُ الاسمُ الموصولُ؛ لِتكونَ صِلتُه مُعتنًى بها، حتّى كأنَّ صاحبَها المتَّحِدَ مُنزَّلٌ مَنزلةَ ذواتٍ مُتعدِّدةٍ، فالمقصودُ: ما عِندَ اللّهِ خيرٌ وأبْقَى للمُؤمنينَ الَّذين هذه صِفاتُهم، أي: أتْبَعوا إيمانَهم بها، وهذه صِفاتٌ للمُؤمنينَ باختِلافِ الأحوالِ العارضةِ لهم،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 110.

(2) ابن القيّم، الفوائد، ص: 81.

فهي صِفاتٌ مُتداخِلةٌ قد تَجتمِعُ في المؤمنِ الواحدِ؛ إذا وُجِدتْ أسبابُها، وقد لا تَجتمِعُ؛ إذا لم توجَدْ بعضُ أسبابِها(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَجۡتَنِبُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

من صفات المؤمنين المبالغةُ في ترك الكبائر والابتعاد عنها

في التَّعبيرِ بلفظ ﴿يَجۡتَنِبُونَ﴾ دون (يجانبون)؛ للدَّلالة على أنَّ هؤلاء المؤمنين يبذلون الجهدَ، ويجتهدون، ويُكلِّفون أنفسَهم أن يُجانبوا كبائرَ الإثمِ والفواحش(2)؛ لأنَّ الاجتناب جاءَ على صيغة (الافتعالِ) الَّتي تدلُّ على شدَّةِ الطَّلبِ والمحاولةِ والتَّحرّي، والاجتهادِ في الطَّلب، والمبالغةِ في الفعل، كما أنَّه لم يُعبِّر بالابتعاد؛ لأنَّ الاجتنابَ أبلغُ منَ الابتعاد؛ لأنَّ الاجتنابَ يجمعُ بين معنى النّاحية والبُعد(3)، فيكون في ذلك زيادةٌ في مدحِ صفات المؤمنين، فهُم لم يبتعدوا عن كبائرِ الإثم فقط، بل تركوها بالكلّيَّة، وكأنَّهم جعلوها في ناحيةٍ أخرى غيرِ ناحيتِهم، والتَّعبيرُ بصيغة المضارعة يلائمُ واقعَ المؤمنين الصّادقين في استمرارِ اجتهادهم في اجتنابِ الكبائر والفواحش، ودوامِهم على ذلك(4)، وما يتعرَّضون له من وساوسِ شياطين الإنس والجنِّ، الَّتي لا تنقطعُ، ممّا يجعلُ هؤلاء المؤمنين أهلًا لاستحقاقِ تكريم اللّه لهم في الآخرة.

تعدُّد القراءات في: ﴿كَبَـٰٓئِرَ﴾ بين الجمع والإفراد، وثراء المعنى:

المؤمنونَ ما بين مجتنبٍ لكلِّ الكبائر، ومُجتنبٍ لأعظمها، وهو الشِّرك

قرَأها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿كَبِيرَ﴾ بالإفرادِ، وقرَأ الباقون ﴿كَبَـٰٓئِرَ﴾ بالجمع(5)، ومعنى ﴿كَبَـٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾: الفَعلاتُ الكَبيرةُ مِن جنسِ الإثم، وهي الآثامُ العَظيمةُ الَّتي نَهى الشَّرعُ عنها نَهْيًا جازمًا، وتَوعَّدَ فاعِلَها بعِقابِ الآخِرةِ، مِثلُ: القَذْفِ والاعتداءِ والبَغيِ، وعلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 110.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 329.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جنب).

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 46.

(5) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 643، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 367.

قِراءةِ ﴿كَبِيرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ مُرادٌ به معنى كَبائِرَ الإثم؛ لأنَّ المفردَ لَمّا أُضيفَ إلى مُعرَّفٍ بلامِ الجِنسِ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، كان له حُكمُ ما أُضيفَ هو إليه[1]، أي: قراءةُ الإفراد بمعنى قراءة الجمع، أو هي أبلغُ لشمولها المفرد[2]، أو أنَّ قراءةَ الإفراد المراد به كبيرُ الإثم، وهو الشِّرك[3]، فيكون في قراءة الإفراد إشارةٌ إلى سعةِ رحمة اللّه تعالى؛ إذ يكفي اجتنابُ أعظم الكبائر، وهو الشِّرك؛ ليدخلَ في صفة المؤمنين، ممّا يُعطي أملًا للمُذْنبِ بالتَّوبة؛ إذا اجتنبَ ذنوبًا دونَ الشِّرك، وفي قراءة الجمع تَظْهَرُ صفةُ المؤمن المُلْتَزم باجتناب جميعِ الكبائر.

الغرضُ من إضافة ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ إلى ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾:

من رحمته سبحانه أنَّ التَّشديدَ يكون للعظائم من الإثم دونَ الصَّغائر

الكبيرةُ هي الفَعْلَةُ القبيحةُ مِنَ الذُّنوبِ المَنهيِّ عَنها شَرْعًا، العَظِيم أمرُها، والإثمُ لفظ عامٌّ يشملُ كلَّ معصيةٍ، صغيرةٍ كانت أو كبيرة، ففي إضافةِ ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ إلى ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ دلالةٌ على أنَّ هناك درجاتٍ في الإثم، فليس كلُّ إثم كبيرًا، ومِن ثَمَّ المدح يتركَّزُ على اجتنابِ العظائم من الإثم دونَ التَّشديد على الصَّغائر، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النّجم: 32]، وهذا من رحمته سبحانه بعباده المؤمنين.

دلالةُ العطف في: ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾:

تخصيصُ الفواحش بالذِّكر بعد الكبائر تنبيهٌ من خطورتها

عَطْفُ الفواحشِ على كبائر الإثم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ الفواحشَ جمعُ فاحشة، وهي من جملة كبائر الإثم، وقد خصَّها اللّهُ تعالى بالذِّكرِ بهذا العطف؛ اهتمامًا بها، وتنبيهًا على خطورتها،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 110.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 329.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 39.

وأكثرُ ما تُطلَقُ الفواحشُ على جريمة الزِّنى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء: 32]، أو أن تكونَ الفواحشُ هي الصَّغائر، وهي ما أنكره الشَّرع والعقل والطَّبع، كسرقة لقمة، والإقرارِ على المعصية من شيخٍ جليل القَدْرِ لمن لا يخشاه، ولا يرجوه، فاستعظمَ النّاسُ أمرَها؛ لدلالتها على الإخلال بالمُروءة، ويكون المعنى: وما عند الله خيرٌ وأبقى للَّذين يجتنبون الكبائر، وهي جِنسُ الفِعال الكِبار، ويجتنبون الصَّغائر لإخلالها بالمُروءة[1].

دلالةُ التَّعبير بـ(الفَواحِشَ) جمعًا دونَ الإفراد:

من كمالِ صفاتِ المؤمنين اجتنابُ جميعِ الفواحش

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن (الفواحشِ) بصيغة الجمع، فلم يقل: (يجتنبون كبائر الإثم والفاحشة)؛ توافقًا مع الجمع في ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾، وللدَّلالة على اجتنابِ المؤمنين الموصوفين لكلِّ الفواحش، سواءٌ أُريدَ بها ما فَحُشَ، وعَظُمَ قُبْحُه من الذُّنوبِ أو الصَّغائر، وفي هذا مزيدُ مدحٍ للمؤمنين في الآية، فهُم يجتنبونَ جميعَ الفواحشِ مع كثرتها وتَعدُّدِها، ولو عَبَّر بالمفرد؛ لظُنَّ أنَّ المرادَ بالاجتنابِ هو فاحشةُ الزِّنى فقط.

معنى اللّام ودلالتُها في الإثم والفواحش:

في العمومِ دليلٌ على صلاحِ المؤمنين المستحِقِّ للثَّواب العظيم

لامُ تعريف ﴿ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ جنسيَّةٌ، تفيدُ العمومَ، أي: يجتنبون جنسَ كبائرِ الإثم وجنسَ الفواحش، أي: جميعها، وهذا العمومُ يدلُّ على صلاحِ المؤمنين المستحقِّ للثَّواب العظيم من الله، وبما أنَّ اللّامَ للجنس؛ فإنَّ الجمعَ في اللَّفظين للمبالغة، أو باعتبار تعدُّدِ من يصدرُ عنه هذا الاجتناب.

سرُّ التَّعبير بالواو في: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ﴾:

لَمّا كان كَثيرٌ مِن كَبائرِ الإثمِ والفواحشِ مُتسبِّبًا عن القوَّةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 329.

مِـن صـفـاتِ المؤمنين إمساكُ أنـفُـسِـهـم عـن الانــدفــاعِ مع داعيةِ الغضبِ

الغضَبيَّةِ، مثل: القتلِ والجراحِ، والشَّتْم والضَّرْبِ؛ أعقبَ ذلك بالثَّناء على الَّذين يَجتنِبونَها، فذكَرَ أنَّ من شِيمتِهم المَغفرةَ عِندَ الغضبِ، أي: إمساكَ أنفُسِهم عنِ الاندفاعِ مع داعيةِ الغضبِ[1].

دلالةُ التَّعبير بـ(إذا) دون (إن):

الغضَبُ طَبيعةٌ نفسيَّةٌ لا تَكادُ تَخْلو عنه نفْسُ أحدٍ على تَفاوُتٍ

جيءَ بكَلمةِ (إذا) المُضمَّنةِ معنَى الشَّرطِ، والدّالَّةِ على تَحقُّقِ الشَّرْطِ؛ لأنَّ الغضَبَ طَبيعةٌ نفْسيَّةٌ لا تكادُ تَخْلو عنه نفْسُ أحدٍ على تَفاوُتٍ؛ لإفادةِ التَّقوِّي، وتَقييدُ المسنَدِ بحَرْفِ (إذا) المفيدةِ معنى الشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ الغُفرانِ؛ كلَّما غَضِبوا[2].

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها في: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ﴾ صلةٌ، وقد أفادَ ذِكْرُها توكيدَ تجاوزِهم عن الشَّخصِ الَّذي أغضبَهم، وصَفْحِهم عنه، وحِلْمِهم عليه.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿غَضِبُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

غـضـبُ المـؤمـن طَبيعةٌ نفسيَّةٌ وحالةٌ عَرَضيَّةٌ تـزولُ، والعَفوُ صـفـةٌ أصـلـيَّـةٌ تبقى

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظِ الغضب دون غيره من الألفاظ، كالسُّخط مثلًا؛ لأنَّ الغضبَ أشدُّ من السُّخط، وأعمُّ من جهةِ أنَّه يكون من الصَّغير على الكبير، ومن الكبير على الصَّغير[3]، فهو يُصيبُ الجميعَ؛ إذ هو طَبيعةٌ نفسيَّةٌ لا تَكادُ تَخْلو عنه نفْسُ أحدٍ على تَفاوُتٍ، فكان التَّعبيرُ به هنا أنسبَ مع مقامِ مدحِ المؤمنين؛ لأنَّ الغضبَ على طبعِ النّار، واستيلاؤه شديدٌ، ومقاومتُه صعبة، وقد أتى بصيغة الماضي ﴿غَضِبُواْ﴾؛ للإشارة إلى تحقُّقِ وقوعِ الغضب من المؤمنين، وسرعةِ انقضائه، فهُم لا يبقونَ، ولا يستمرّون عليه، بل يغفرون سريعًا، وكأنَّ الغضبَ لحظةٌ عابرةٌ في حياتهم، بينما العفوُ هو الأصلُ، وفي هذا مزيدُ امتداحٍ لهم على هذه الصِّفة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 110، و111.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 330، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 111.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 130.

سرُّ تقديم الغضب في قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾:

الغضبُ ردَّةُ فعلٍ أوَّليَّةٍ، والغُفرانُ خُلقٌ أصيل يُنبِئُ عن قوَّةِ الإيمان

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الغَضَبَ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾، ولم يقل: (هم يغفرون؛ إذا ما غضبوا)؛ إشارةً إلى الاهتِمام بإطفاءِ جَمْرِه، وتَبْريدِ حَرِّه[1]؛ لِما له من أخطارٍ وأضرارٍ على الفردِ والمجتمع، فالغضبُ حالةٌ طبيعيَّةٌ تعتري الإنسانَ، لكنَّ الفضيلة الحقيقيَّة هي التَّجاوزُ عنه، فالغضبُ ردَّةُ فعلٍ أوَّليَّة، والغُفرانُ تصرُّفٌ اختياريٌّ واعٍ، وخُلُقٌ أصيلٌ يُنبئُ عن قوَّة الإيمان، فالمؤمنون ليسوا معصومين عن الغضب، ولكنَّهم مُسيطرون على عواقبه.

الغَرض من تقديم المسند إليه ﴿هُمۡ﴾ على خبره الفعليِّ:

في اختصاصهم بالمغفرة حالَ الغَضبِ دليلٌ على قوَّة إيمانهم

تقديمُ المسنَد إليه ﴿هُمۡ﴾ على الخَبرِ الفِعليِّ ﴿يَغۡفِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾، يفيدُ القَصْرَ والاختصاصَ، والمعنى: هم دون غيرهم الَّذين يغفرون عند الغضب، أي: هم الأخِصّاءُ بالمغفرةِ حالَ الغَضب لعزَّةِ منالِها، لا يغولُ الغضبُ أحلامَهم، كما يغولُ حلومَ النّاس[2]، فبَواطنُهم في غفْرهم كظواهرهم[3]، وهذا دليلٌ على قوَّةِ الإيمان عندهم، وللتَّأكيد كذلك على أنَّ المؤمنين هم أصحابُ القرار، فالغُفرانُ منهم هم، ليس مجاملةً لأحد، ولا إجبارًا من أحد، فالمَغفرةُ حينما تكون بسببِ شفاعة من أحد يكون الجميل للشّافع، وفي هذا دليلٌ على شِدَّةِ إخلاصهم في غُفرانهم لمَن يسيء إليهم.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَغۡفِرُونَ﴾:

كلَّما حدثَ للمؤمنين غضبٌ جدَّدوا غفْرًا

عبَّر البيانُ الحكيم عن فعل المؤمنين للغُفران بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على تجدُّد العفوِ والصَّفح منهم، واستمرارهم عليه، وأنَّه

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 330.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 228، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 34.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 330.

كلَّما حدثَ لهم غضبٌ؛ جدَّدوا غفرًا، أي: محوًا للذَّنب عينًا وأثرًا مع القدرةِ على الانتقام، فسجاياهم تقتضي الصَّفحَ دون الانتقام ما لم يكن من الظّالمِ بغيٌ؛ لأنَّه لا يُؤاخذ على مُجرَّد الغضبِ إلّا متكبِّرٌ"[1].

سرُّ ترتيب الأوصاف في الآية:

دَرْءُ المفاسدِ مقدَّمٌ على جَلْبِ المصالح

قدَّمَ النَّظمُ الحكيمُ اجتنابَ كبائرِ الإثم والفواحش على المغفرة عند الغضب؛ لأنَّ التَّخْليات - وهي دَرْءٌ للمفاسدِ - مُقدَّمةٌ على التَّحْلياتِ الَّتي هي جلْبٌ للمَصالحِ[2].

سرُّ تخصيص الغضب بالغُفران:

الغَضَبُ على طَبعِ النّارِ استيلاؤُه شَديدٌ ومُقاومتُه صَعبةٌ

خَصَّ الغَضَبَ بلَفظِ الغُفرانِ؛ لأنَّ الغَضَبَ على طَبعِ النّارِ، واستيلاؤُه شَديدٌ، ومُقاومتُه صَعبةٌ[3]، وكذلك للمقارنة الضِّمنيَّة مع أخلاق الجاهليَّة؛ إذ كان الغضبُ يُؤدّي إلى الإقدام على الثَّأرِ والانتقام، فبيَّن أنَّ المؤمنَ الحقَّ إذا ما غضبَ؛ يعفو، ويصفح، ويتخلَّق بأخلاق ربِّه في المغفرةِ والعفو.

سرُّ مدحِ المؤمنين بهذه الصِّفة في: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾:

المغفرةُ عند الغضب تدلُّ على كمالِ الإيمانِ، وتُنبئ عن سُموِّ الأخلاق

جُعِلَت المغفرةُ عند الغضب صفةَ مدح يتَّصفُ بها المؤمنُ الحقُّ؛ لأنَّها تدلُّ على كمالِ الإيمان، ولأنَّها تمثِّلُ أعلى درجاتِ الإحسان، والمؤمنُ يتخلَّقُ بأخلاقِ الله من العفو والمغفرة، فيَفترقُ بذلك عن أخلاقِ الجاهليَّة، الَّذي كان يدفعُهم الغضبُ للانتقام والثَّأر، ولأنَّ خُلُقَ المغفرةِ عند الغضب يُساهمُ في تحقيقِ السَّلامِ الاجتماعيِّ؛ إذ يُؤدّي إلى إطفاءِ نارِ العداوات، وتقليلِ النِّزاعات من خلالِ القدرة على التَّحكُّم في النَّفسِ، وقوَّةِ الإرادة، وتمامِ العقل والرُّشْد.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 330.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 328، و329.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 603.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

من بلاغةِ القرآن مراعاةُ السّياقِ ووحدةُ الموضوع

قوله تعالى هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾، وقولُه في سورة النَّجم: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النّجم: 32]، مدْحٌ للمؤمنين لاجتنابهم كبائرَ الإثم والفواحش، إلّا أنَّ الاختلافَ بين الآيتين أنَّه في آية النَّجم أضافَ قولَه: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النجم: 32]، فاستثنى من اجتنابِ الكبائر والفواحش اللَّممَ، وهي صغائرُ الذُّنوب، بينما في آية الشّورى لم يستثنِ، وتوجيهُ ذلك: أنَّ سياقَ الآياتِ في سورة الشّورى عن ذِكرِ الفضائل المطلقة للمؤمنين؛ إذ ذَكر صفاتِ المؤمنين الكاملةَ، من توكُّلهم على اللّه حقَّ التَّوكُّل، ومغفرتِهم عند الغضب، واستجابتِهم لربِّهم، وإقامتِهمُ الصَّلاةَ، والعفوِ والإصلاحِ وغيرِها من صفاتِ الإحسان، فناسبَ ذِكرُ اجتنابِ الكبائر والفواحشِ دونَ استثناء، ممّا يُبرِزُ كمالَ أخلاقِهم وصفاتِهم، وأمّا في سورة النَّجم؛ فالسّياقُ هو التَّخفيفُ عن العبادِ وعدمُ اليأس، والتَّرغيب بالتَّوبة؛ فناسبَ استثناءُ الصَّغائر؛ إظهارًا لسَعةِ مغفرةِ اللّه تعالى، وتخفيفًا عن العِباد، ولهذا قال بعدَها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم: 32].

۞ الفُروقُ المعْجَميَّة:

الاجتناب والابتعاد:

في مبالغةِ بُعدِ المؤمنين عن كبائرِ الإثم مزيدُ مدحٍ لكمال صفاتهم

الاجتنابُ أبلغُ من الابتعاد؛ لأنَّ الاجتنابَ يجمعُ بين معنى النّاحية والبُعد، وجنَّبهُ الشَّيءَ: نحّاهُ عنه، وجعلهُ ناحيةً منه وجانبًا، وابتعدَ عنه بالكلّيَّة[1]، بينما الابتعادُ تركُ مسافةٍ بينَه وبين الشَّيء، فهو خلافُ القُرْبِ، والمباعَدَةُ: تباعدُ الشَّيء عن الشَّيء والنَّأيُ عنه[2]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جنب).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربية المعاصرة: (بعد).

وقدِ استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الاجتنابِ دونَ الابتعاد؛ زيادةً في مدحِ صفات المؤمنين، فالاجتنابُ هنا لم يدلَّ على مُجرَّدِ ابتعادهم عن كبائر الإثم وعدم اقترافها، بل دلَّ على المبالغة في بُعْدهم عنها وتَرْكِها بالكلّيَّة، وكأنَّهم جعلوها في ناحيةٍ أخرى غيرِ ناحيتهم.

الإثم والذَّنب:

المـؤمـنـون يجتنبون كلَّ كبيرةٍ تُؤخِّرهم عن الخير، وتنفِرُ منها نفوسُهم

الإثمُ: هو البُطْءُ والتَّأَخُّرُ عن الخير والتَّقصير؛ لأنَّ ذا الإثم بَطِيءٌ عَنِ الخَيرِ مُتَأَخِّرٌ عَنهُ، وسُمّيت الخمرُ إثمًا؛ لأنَّها تقصرُ بشاربها لذهابها بعقله، فالإثمُ هو الذَّنبُ الَّذي يستحقُّ العقوبةَ عليه، ولا يكون إلّا تعمُّدًا[1]، وهو معصيةٌ وخطيئةٌ تستحِقُّ على صاحبها الذَّمَّ واللَّومَ والعقاب، ويحملُ على القلقِ؛ فتنفرُ منه النَّفسُ، ولا يطمئنُّ له القلب، وفي الحديث: «الإثمُ ما حاكَ في صدرك»[2]، ولا يَصِحُّ أن يوصفَ بِهِ إلّا الحرام، سَواء أُريد بِهِ العقابُ، أو ما يُسْتَحَقُّ بِهِ من الذُّنوب[3]، وأمّا الذَّنْبُ؛ فهو كلُّ جُرمٍ ومعصيةٍ، صغيرةً كانت أو كبيرةً، عمدًا كانت أو سهوًا، ويُطلَقُ على ما يُقصدُ بالذّات، ويُعبَّر به عن التَّأَخُّرِ والتَّخلُّفِ والسُّفولِ وهبوط الرُّتبة، ثمَّ استُعمل في كلِّ فعلٍ تُسْتوخَمُ عقباه، ولهذا يُسمّى الذَّنْبُ تبعةً؛ اعتبارًا بما يحصلُ من عاقبته[4]، إذًا: فالذَّنبُ هو ذاتُ الجُرم، صغيرًا كان أو كبيرًا، عمدًا كان أو سهوًا، بينما الإثمُ هو التَّأَخُّر عن الخير، ولا يكونُ إلّا عمدًا، وتنفرُ منه النَّفسُ، ويُطلقُ على ذاتِ الإثم وعلى العقوبة، ولهذا كان استعمالُه هنا أنسبَ؛ فهُم يجتنبون كلَّ كبيرةٍ تُؤخِّرُهم عن الخيرِ، وتنفرُ منها نفوسُهم.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أثم)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 233.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2553).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (إثم)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 469، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 40.

(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذنب)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 221، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 40.

المغفرةُ والعَفو والصَّفح:

المغفرةُ: تغطيةُ الذَّنبِ بإيجابِ المثوبة، أي: الغفرانُ يقتضي إسقاطَ العقاب، وإسقاطُ العقاب: هو إيجابُ الثَّواب، فلا يستحقُّ الغفران إلّا المؤمنُ المستحِقُّ للثَّواب، ولذلك كَثُرتِ المغفرة من صفاتِ اللّه تعالى دونَ صفاتِ العباد، فلا يُقال: غفرَ زيد لك إلّا شاذًّا قليلًا.

بينما العفو يقتضي إسقاطَ اللَّوم والذَّمِّ، ولا يقتضي إيجابَ الثَّواب، ولهذا يُستعمَلُ في العبد، كما يستعملُ في صفات اللّه، فالعفو: إسقاطُ العذاب الجسمانيِّ، والمغفرةُ: إسقاطُ العذاب الرَّوحانيِّ، والتَّجاوزُ عنهما، وقيل: العفوُ أبلغُ من المغفرة، فإنَّ الغفران يُنبئُ عن السَّتر، والعفوَ يُنبئَ عن المَحو، وهو أبلغُ من السِّتر؛ لأنَّ السِّترَ للشَّيء قد يحصلُ مع إبقاءِ أصله، بخلافِ المَحو فإنَّه إزالة جملةً ورأسًا.

وأمّا الصَّفحُ؛ فهو التَّجاوزُ عن الذَّنب، من قولك: صفَحْتُ الورقةَ؛ إذا تجاوزتها، وقيل: هو ترْكُ مؤاخذة المُذْنب بالذَّنب، وأن تبديَ له صفحةً جميلة، ولهذا لا يُستعملُ في اللّه تعالى(1).

وقد ناسبَ هنا استعمالُ المغفرة؛ لأنَّه واردٌ في سياق مدح صفات المؤمنين، ولتظهرَ المقابلةُ بشكلٍ أبلغ بين الغضب والغفران، ففي شدَّة غضبهم لا ينتقمون، أو يعاقبون، وإنَّما يتجاوزون العقابَ الجسمانيَّ والرّوحانيَّ، ويتركون العقابَ، وربَّما يحسنون.

مع شدَّةِ غضبهم، لا ينتقمون بل يتجاوزون العقابَ الجسمانيَّ والرّوحانيَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عفو)، (غفر)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 363، و364.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾ [الشّورى: 38 - 39]

مناسبة الآيَتَيْنِ لما قَبْلهما:

بعد التَّخليَةِ تأتي التَّحليَةُ

لَمّا أتمَّ ما منه التَّخلِّي - من اجتنابِ كبائر الإثم والفواحش وإمساكِ أنفُسِهم عنِ الاندفاعِ مع داعيةِ الغضبِ - أتْبعَه ما به التَّحلِّي؛ بإجابة ما دعا إليه اللّه، والانقياد لطاعته وأداء الصَّلوات، والتَّشاور والتَّناصح، وغيرِ ذلك[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾: الاستجابةُ قيل: هي الإجابةُ، وحقيقتُها هي التَّحرّي للجوابِ والتَّهيُّؤُ له، لكن عُبِّرَ به عنِ الإجابةِ لِقلَّةِ انفكاكِها منه[2]، والمقصودُ مِنَ الاستجابة في الآية: الاستجابَةُ لدَعوَةِ النَّبيِّ ﷺ، فَإنَّهُ دَعاهُم إلى الإسلامِ مُبَلِّغًا عَنِ اللّه، فَكأنَّ اللّه دَعاهُم إلَيه، فاستَجابوا لِدَعوَتِه، فأطاعوا أمرَه، واجتنبوا زجرَه[3].

2) ﴿شُورَىٰ﴾: مُشتَقٌّ من شَورِ العسلِ، فكأنَّ المُستَشيرَ يَأخُذُ الرَّأيَ مِن غيرِه[4]، والمَشورة: استخراجُ الرَّأي بمراجعةِ بعضٍ إلى بعض، والشّورى: الأمرُ الَّذي يُتشاوَرُ فيه، والمُشاوَرَةُ: استخراجُ صائبِ الرَّأي من الغير[5]، والشّورَى مَصدَرٌ كالبُشْرى والفُتيا، وهيَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 331.
(2) الرّاغب، المفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (جوب).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 211، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 111.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شور).
(5) الرّاغب، المفردات: (شور).

أنَّ قاصِدَ عَمَلٍ يَطلُبُ مِمَّن يَظُنُّ فِيهِ صَوابَ الرَّأيِ والتَّدبيرِ أن يُشِيرَ عليهِ بما يَراهُ في حُصولِ الفائِدَةِ المَرجوَّةِ مِن عَمَلِه[1].

3) ﴿أَصَابَهُمُ﴾: أصابته مصيبةٌ، أي: أخذته، فهو مُصابٌ[2]، فالإصابةُ: النُّزولُ بالشَّيء واللَّحاقُ به خيرًا كان النّازل أم شرًّا، ثمَّ كَثُرَ في الشَّرِّ[3]، وكلمة (مصيبة) لم تُستعمل في القرآن إلّا في التَّعبير عمّا يعدُّهُ الإنسانُ شرًّا[4]، ومعنى ﴿أَصَابَهُمُ﴾ هنا موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أي: نزلَ، ولَحِقَ بهم البغيُ.

4) ﴿ٱلْبَغْيُ﴾: البغيُ: قصدُ الفساد، وتجاوزُ الحقِّ إلى الباطل، والبغيُ: الظُّلمُ، وقيل: كلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدار الَّذي هو حدُّ الشَّيء بَغيٌ[5]، والبَغيُ: الاعتداءُ عَلى الحَقِّ، فَمَعنَى إصابَتِهِ إيّاهُم أنَّهُ سُلِّطَ عَلَيهِم، أي: بَغَى غَيرُهُم عَلَيهِم[6].

5) ﴿يَنتَصِرُونَ﴾: انتَصَرَ: انتَقَمَ[7]، والنَّصرُ: الإمدادُ بما فيه زيادةٌ مناسبةٍ وقوَّةٍ، والنَّصرُ والنُّصرة: حُسنُ المَعونة، أو عَوْنُ المظلوم، والانتصارُ: الانتقامُ من الظّالم بعونِ المظلوم عليه، ونَصَرْتُه على عدوِّه، ونَصَرْتُه منه نَصرًا، أعنْتُه، وقوَّيْتُه[8]، والمعنى في الآية: ينتصرون لأنفسهم بدَفْعِ البغي اللّاحقِ بهم[9].

۞ المعنى الإجماليُّ:

يتابعُ النَّظمُ الكريم ذِكْرَ صفات عِبادِهِ المؤمنينَ، فيقولُ: الَّذين

مـن أمَّـهـاتِ الـفَـضـائِـلِ أوصـافٌ، الـفاعِـلـونَ لها كالجَسَدِ الواحِدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 112.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (صوب).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب).
(5) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بغي).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 113.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(8) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والفيوميّ، المصباح المنير، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نصر).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 113.

أجابوا رَبَّهم إلى كُلِّ ما دَعاهم إليه، فلَبَّوا دَعوتَه، وانقادوا لطاعتِه، وأدَّوا الصَّلَواتِ على الوَجهِ التّامِّ المُستقيم الَّذي أُمِروا به، ويَتداوَلونَ الرَّأيَ فيما نَزَل بهم، ولا يَستَبِدُّ أحَدٌ منهم برأيِه دونَ الآخَرينَ في الأُمورِ المُشتَرَكةِ بينهم؛ فشَأنُهم العامُّ شورى بينهم؛ فهُم ومِمّا رزَقَهم ربُّهم يَتصَدَّقونَ، ويَبذُلونَ في سَبيلِه، والَّذين إذا بَغَى عليهم باغٍ، واعتدَى عليهم مُعْتَدٍ؛ فإنَّهم يَنتَصِرونَ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطف في: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

أوصافٌ أخرى للمؤمنين تُنبئُ عن كمالِ أخلاقهم

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ مَوصولٌ آخَرُ وصِلَةٌ أُخرَى، معطوف على ما قبلهما، ومَدلولُهما من أعمالِ الَّذين آمَنوا الَّتي يدعوهم إليها إيمانُهم، والمقصودُ منها ابتداءً هم الأنصارُ، ومعنى ذلك: أنَّهم مِن المؤمنينَ الَّذين تَأصَّلَ فيهم خُلُقُ الشّورى(1).

الغرضُ من التَّعبير باسْمِ الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، ودلالةُ تكراره:

استجابةُ المؤمنين لله هي علَّةُ استحقاقِهم ثوابَ الآخرة

في التَّعريف بالموصوليَّة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ إيذانٌ بعِلَّة استحقاقِ المؤمنين ثوابَ الآخرة، وهي استجابتُهم للّه في كلِّ ما أمرهم به، أو نهاهم عنه، وإقامتُهم الصَّلاةَ، وتشاورُهم فيما بينهم في كلِّ ما ينوبهم، ممّا يحوجهم إلى تدبير.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إجابةُ المؤمنين لله محقَّقةٌ، لا يُخالِطُها كَراهيةٌ ولا تردُّدٌ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفعل ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ دون (أجابوا)، أي: بزيادةِ السِّينِ والتّاءِ؛ للمُبالَغةِ في الإجابةِ، أي: هي إجابةٌ لا يُخالِطُها كَراهيةٌ ولا تَردُّدٌ(2)، كما أنَّه أتى به ماضيًا؛ للإشارة إلى أنَّ استجابتهم في المستقبل أمرٌ محقَّقٌ منهم، فهو كأنَّه وقع، ومضى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 111.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 111.

معنى اللّام ودلالتُه في: ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾:

مــن صــفــاتِ المــؤمــنــين اسـتـجـابـتُـهـم لربِّهم خاصَّة

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ لامُ التَّقوية، يُقال: استجابَ له، كما يقال: استجابه، وتدلُّ على الاختصاص، أي: استجابوا له خاصَّة، والظّاهر أنَّه أُريدَ منه استجابةً خاصَّة، وهي إجابةُ المبادرة مثل أبي بكر وخديجةَ وعبدِ اللّه بنِ مسعود وسعدِ بن أبي وقاص ونقباءِ الأنصار، أصحابِ ليلة العقبة[1].

غرضُ الإضافة في: ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾:

إحـسـانُ الـلـه وتـشـريـفُـه وعـنـايـتُـه بـالمـؤمـنين داعٍ لاستجابة أوامره

إضافةُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ إلى ضمير المؤمنين في قوله: ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾؛ للإشارةِ إلى تشريفهم ومدى عنايتِه وإحسانِه ورحمتِه ولطفهِ بالمؤمنين، وإلى أنَّ الدّاعيَ لهم إلى إجابته إحسانُه إليهم[2].

دلالةُ عطف ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على الاستجابة:

إقامةُ الصَّلاة من أعظم مظاهر الاستِجابةِ لله

عطْفُ إقامةِ الصَّلاةِ على الاستجابة للّه من باب عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ إقامةَ الصَّلاة - وهي أداؤها على أكملِ وجهٍ - من أعظم مظاهر الاستِجابةِ للّه، والعطفَ للدَّلالةِ على شَرفِ الصَّلاة وفَضلِها الخاصِّ بها[3]، وللتَّنويهِ بمكانة الصَّلاة بأعمال الإيمان[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (أقاموا) مادَّةً وصيغةً:

المقصودُ من فعل الصَّلاة توفيةُ حقوقِها وشرائطِها، لا الإتيانُ بهيئتها فقط

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن أداءِ المؤمنين للصَّلاة بلفظ (أقاموا)، ولم يقل: (صلّوا)؛ للدَّلالة على أنّهم أتَوا بها على أكملِ هيئاتها بما لهم من القوَّة[5]، والتَّجلُّد والتَّشمُّر لأدائها بلا فتْرةٍ عنها ولا تَوانٍ[6]، وإقامةُ الشَّيء تستلزمُ لوازمَ عِدَّة، منها: الاهتمام به، وجَعْلُه على أحسن أحواله وأقدرها، وجَعْلُه مستقيمًا، فيأتون بالصَّلاة في أحسنِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 111.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 331.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 759.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 113.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 331.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).

أحوالها وصورها، قائمةً، معتدلةً، مستويةً، معدَّلةً، ويداومون عليها، وفي التَّعبير بصيغة الماضي إشارةٌ إلى تحقُّق وقوعِ إقامةِ الصَّلاة منهم في الحاضر والمستقبل؛ للإشارة إلى مداومتهم عليها، وفي هذا مزيدُ مدحٍ لهم.

معنى اللّام ودلالتُها في الصَّلاة:

إقـامـةُ المؤمنين للصَّلاة المعهودة على وجهٍ يقتضي ثبوتَها دائمًا

لامُ تعريفِ الصَّلاة في قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عهديَّةٌ، معهودها ذِهنيٌّ؛ لأنَّ الصَّلاة ممّا لا يغيبُ معناها عن أذهان المؤمنين، فالمرادُ: الصَّلاة المعهودة الَّتي هي ركن من أركان إيمانهم، وتفيدُ اللّامُ مع الأمر بإقامة الصَّلاة أنَّ المؤمنين أوجدوا صورتَها محمولة بروحها على وجهٍ يقتضي ثبوتَها دائمًا[1].

دلالةُ توسُّط أمر الشّورى بين إقامةِ الصَّلاة والإنفاق:

بيانُ أثرِ الشّورى وأهـمّـيَّـتـهـا في استـقـامـةِ حـالِ المجتمع المؤمن

البيانُ القرآنيُّ هنا فصل بينهما بـ(أمر الشّورى) في قوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾؛ لوقوعِ المشاورةِ عند اجتماعِهم للصَّلواتِ[2]، فكأنَّه ينتهزُ فرصةَ الاجتماع هذه، ويأمرهم بأن يكونَ أمرهم شورى بينهم[3]، وللإشارة إلى أن تكون الشّورى بينهم وفقَ منهجِ اللّه والالتزام بطاعته، وبما يحقِّق الخيرَ لعباد اللّه، وللفتِ الانتباه كذلك إلى أهمّيَّة الشّورى وأثرها في استقامة حال المجتمع المؤمن، سواءٌ فيما يتعلَّق بحقوق اللّه أو حقوقِ العباد.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ﴾:

التَّـشـاورُ طاعةٌ للهِ واقترابٌ إليه

الواو للعطف، عَطفت جملةَ: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ على جملة الصِّلةِ؛ لتضيفَ صفةً أخرى من صفات مدح المؤمنين، وهي التَّشاورُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 331.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 34.
(3) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 22/ 13802.

بينهم، وفي العطف على الاستجابة للّه وإقامة الصّلاة إشارةٌ إلى أنَّ التَّشاورَ طاعةٌ للّه، واقترابٌ إليه.

غرضُ الإضافةِ في: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ﴾:

الشّورى مطلوبةٌ في كلِّ ما ينوبُ المؤمنين ممّا يحوجهم إلى تدبير

إضافةُ اسم الجنس إلى ضمير المؤمنين (هم) في قوله تعالى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ تُفيدُ العُمومَ بمَعونةِ المَقام، أي: جَميعُ أُمورِهم، وكلُّ ما ينوبهم ممّا يَحوجهم إلى تدبيرٍ مُتشاوَر فيها بَيۡنهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدر ﴿شُورَىٰ﴾ دون غيره:

أمرُ المؤمنين هو نفسُه الشّورى

اختيارُ التَّعبيرِ بالمصدر ﴿شُورَىٰ﴾ دونَ غيره كالتَّشاور؛ لإفادة المبالغة في تأكيدِ اتِّصافهم بهذا الخُلُقِ، أي: يتشاورون مشاورةً عظيمة، مُبالغين ممّا لهم من قوَّةِ الباطن وصفائه في الإخلاص والنُّصح[2]، فأمرُهم هو نفسُه الشّورى، كما تقول: رجل عادِلٌ، ورجلُ عَدۡلٍ، فجعلته العدلَ ذاتَه[3]، فالإخبارُ بالمصدرِ يُفيدُ المبالغة[4].

دلالةُ وصفهم بالتَّشاور في قوله: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ﴾:

في الوصف بالشّورى أمرٌ بتَرْكِ الاختِلافِ، والتَّوفُّرِ على الائتِلافِ

في وصفِ المؤمنين المستحقّين لما عند اللّه من ثواب بأنَّهم يتشاورون فيما بينهم في كلِّ ما يهمُّهم، في سياق المَدح والثَّناء دلالةٌ على عظيمِ جدوى الشّورى وجلالةِ نفعها، قال الحسن رحمه اللّه: "ما تشاورَ قومٌ إلّا هُدوا لأرشدِ أمرهم"[5]، وقال ابن العربيِّ: "الشّورى: أُلۡفَةٌ للجماعة، ومسبارٌ للعقول، وسببٌ إلى الصَّواب"[6]، وأنَّ في هذا الوصفِ أمرًا بتَرۡكِ الاختِلافِ، والتَّوفُّرِ على الائتِلافِ، فهذا لا يكونُ إلّا فرعًا عن اجتِماعِهم، وتَوالُفِهم، وتَوادُدِهم، وتَحابُبِهم، وكَمالِ عُقولِهم، وأنَّهم إذا أرادوا أمرًا مِن الأمورِ الّتي تَحتاجُ إلى إعمالِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 332، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 112.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 332.
(3) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 22/ 13803.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 112.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 334.
(6) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 4/ 91.

الفِكرِ والرَّأيِ فيها؛ اجتَمَعوا لها، وتَشاوَروا، وبَحَثوا فيها، حتّى إذا تبَيَّنَت لهم المَصلحةُ؛ انتَهَزوها، وبادَروها[1].

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾:

لا بدَّ أن تكونَ الشّورى عند كلِّ مؤمنٍ خُلُقًا ثابتًا لا ينفكُّ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ عن اتِّصافِ المؤمنين بالشّورى بجملة اسميَّة لا فعليَّة، رغمَ أنَّ الجملة الفعليَّة موافِقةٌ لسياقِ الآية الَّذي جاء بجُمَلٍ فعليَّةٍ سبقَتْها، وجاءتْ بعدَها؛ لِمَزيدِ الاهتمام بالشّورى، وللتَّنويه بها[2]، وللدَّلالة على أنَّ الشّورى أمرٌ مستقِرٌّ فيهم، وأنَّها لا بدَّ أن تكون الشّورى خُلقًا ثابتًا لا ينفكُّ عند كلِّ مؤمن[3].

سرُّ عدمِ تقييد أمر الشّورى:

الشّورى تشملُ جميعَ أمورِ المؤمنين؛ لأنَّها مُفضِيَةٌ إلى الرُّشدِ والصَّوابِ

أثْنى اللّهُ تعالى في قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ على الإطلاقِ دونَ تَقييدٍ بالشّورى الخاصَّةِ التي تَشاوَرَ بها الأنصارُ في الإيمانِ؛ إذ عُرِف الأنصارُ بالشّورى؛ وذلك لبيان أهمّيَّة الشّورى في جميع الأمور، وأنَّها لا تقتصرُ على المسائل الدّينيَّة، فالشّورى مفضيَةٌ إلى الرُّشدِ والصَّوابِ، وكان مِن أفضَلِ آثارِها أنِ اهتَدى بسَبَبِها الأنصارُ إلى الإسلام[4].

دلالةُ التَّقييد بالظَّرف ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في أمر الشّورى:

التَّشاورُ يكون بين المتشاوِرين، لا يستبدُّ أحدُهم برأيه

﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرفٌ مُستَقِرٌّ، وهو صفةٌ لـ ﴿شُورَىٰ﴾، والتَّشاوُرُ لا يكونُ إلّا بينَ المُتشاوِرين، فالوجهُ أن يكون هذا الظَّرفُ إيماءً إلى أنَّ المؤمنين المدوحين لا فرقَ في حال المشاورة بين كبيرٍ منهم وصغير، بل كلٌّ منهم يُصغي إلى كلامِ الآخر، وينظرُ في صحَّته وسقمه، بتنزيله على أصولِ الشَّرع وفروعه، فلا يستبدُّ أحدٌ منهم برأي؛ لدوامِ اتِّهامه لرأيه؛

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 760.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 43.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 332.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 112.

لتحقُّقه نقصَه بما له من غزارة العِلمِ وصفاء الفهم، ولا يعجلون في شيء، بل صار التَّأبّي لهم خُلُقًا[1]، وفي ذلك اجتماعُ الكلمة واتِّصال الأيدي، والتَّعاضُدُ على الخير[2]، وكذلك إيماءٌ إلى أنَّ الشّورى لا ينبغي أن تتجاوزَ من يهمُّهم الأمرُ من أهلِ الرَّأي، فلا يدخلُ فيها من لا يهمُّه الأمرُ، وإلى أنَّها سرٌّ بين المتشاوِرين[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمجاز في إسنادِ الشّورى إلى الأمر:

إسنادُ الشّورى إلى الأمرِ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الشّورى تُسنَدُ للمتشاوِرين، وأمّا الأمرُ؛ فهو ظرفٌ مجازيٌّ للشّورى، ألا ترى أنَّه يقال: تشاوَرا في كذا، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: 159]، فاجتمعَ في قوله: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ﴾ مجازٌ عقليٌّ، واستعارةٌ تبعيَّةٌ ومبالغة[4].

إسنادُ الشّورى إلى الأمـرِ مجازٌ عقليٌّ

بلاغةُ عطفِ قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ على ما سبق:

إن كان العطفُ في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فَلِأنَّ الإنفاقَ مِن الاستِجابةِ للّه، ويكون العطفُ للدَّلالةِ على شَرفِ الإنفاق وفَضلِه[5]، ومكانته في أعمالِ الإيمان باللّه تعالى، وإن كان العطفُ على قوله تعالى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾، فَلِلدَّلالة على أنَّ المواساةَ بالأموال مع الاتِّحاد في الأقوال، والإنفاق في الأفعال أعظمُ جامعٍ على محاسنِ الخلال، وأظهرُ دالٍّ على ما ادَّعى من الاتِّحاد في الحالِ والمآل، وللدَّلالة على أنَّ الإنفاقَ منهم على وفقِ ما حدَّده اللّهُ لهم؛ فَواسَوا بالمشورة في فضلِ عقولهم، وبالإنفاق في فضلِ أموالهم؛ تقوًى منهم ومراقبةً للّه، لا شهوةَ نفس[6]، ومن

شَرفُ الإنفاقِ وفَضلُهُ ومكانتُه في أعمال الإيمان والمواساة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 332.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 39.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 112.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 759.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 333.

دلائلِ العطف بين هذه الجمل الثَّلاثة أنَّ الشّورى تجتمعُ مع الصَّلاة، والإنفاقَ في تحقيق الجسديَّة الواحدة وترك الاختِلافِ والتَّوفُّرِ على الائتِلافِ، وهذا لا يكونُ إلّا فَرعًا عن اجتِماعِهم وتَوالُفِهم، وتَوادُدِهم وتَحابُبِهم، وكَمالِ عُقولِهم سواءٌ في إقامتهم للصَّلاة، أو في اجتماعهم وتشاورهم، أو في إنفاقهم على عباد اللّه.

معنى (مِنْ) ودلالتُها في: ﴿وَمِمَّا﴾:

تخفيفٌ على المؤمنين بقَبولِ اليسيرِ إنْ لم يجدوا غيرَه

(مِنْ) في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ للتَّبعيض، أي: ومن بعضِ ما رزقناهم ينفقون، وقد أفادتِ التَّخفيفَ والتَّسهيلَ على المؤمنين بأنَّ اللّهَ راضٍ منهم باليسيرِ من الإنفاق؛ إنْ لم يجدوا غيرَه[1]، وأنَّ المطلوبَ إنفاقُ بعضِ ما أُعطوه لا كلِّه.

الغرضُ من التَّعبير بالاسم الموصول (ما):

في كونِ المال من رزقِ اللّه حثٌّ لهم على الإقبالِ على الإنفاق واستدامته

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾، دون الاسم الظّاهر، فلم يقل: (والمنفقين)؛ لتذكيرِ المؤمنين ولفتِ انتباههم إلى أنَّ أموالهم الَّتي ينفقون منها، أو الَّتي ينبغي أن يُنفقوا منها، إنَّما هي رزقُ اللّهِ ساقه إليهم، وجعلهم مستخلفين فيه من غيرِ حولٍ منهم ولا حيلة، وفي هذا حثٌّ لهم على مداومةِ الإنفاق، وحثٌّ غيرهم على الإقبالِ على الإنفاق من مالِ اللّه الَّذي آتاهم، كما أنَّ الموصوليَّة تفيدُ العمومَ؛ لتشملَ كلَّ رزقٍ من مالٍ وقوَّةٍ وجاهٍ وعلمٍ، وغير ذلك.

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾:

رزقُ اللّهِ لهم محقَّقُ الوقوع فهو من سُنَنِ اللّه الكونيَّة

التَّعبيرُ بصيغة الماضي في قوله: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ رغم أنَّ الرِّزق من اللّهِ مستمرٌّ في الحاضر والمستقبل؛ فللدَّلالة على أنَّ رزقَ اللّهِ لهم قد تحقَّقَ في الماضي، ويتقلَّبون في آثاره، وهو في الحاضرِ والمستقبل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 333.

محقَّقُ الوقوعِ، ولا ينقطع، ولهذا جعلَ اللّهُ مستقبله كالماضي؛ لأنَّ رِزْقَ اللّهِ من سُننه الكونيَّة.

الغرضُ من إسناد الفعل إلى نون العظَمة في: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾:

عظمةُ رزقِ الله تعالى تستلزمُ عظيمَ شكره

عبَّرَ البيانُ الحكيم بنون العظَمةِ بصيغة الجمع في ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾؛ للإشعارِ بعظمةِ الرُّبوبيَّة، كأنَّه يقول: رزقناهم بعظمتنا من غيرِ حولٍ منهم ولا قوَّة"[1]، وللإشعارِ بعظمةِ نعمةِ رزقِ اللّه الَّتي تستلزمُ الشُّكر، ولترغيبهم بالإنفاقِ بالإشارةِ إلى تسهيله عليهم، بأنَّه لا مدخلَ لهم في الحقيقة في تحصيله، وإنَّما هو رزقُ اللّه، ولتذكيرهم بما يتعارفونه بينهم من أنَّه لا مطمعَ في التَّقرُّب من العظماء إلّا بالهدايا[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يُنفِقُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

في بلوغِ المؤمنين الغايةَ في الإنفاقِ دلالةٌ على كرمهم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الإنفاق دونَ غيره؛ للدَّلالة على كرمهم، وأنَّهم بلغوا الغايةَ في بذلِ المال؛ لأنَّ أصلَ الإنفاقِ هو الإنفاد، يُقال: أنفقَ القوم؛ إذا نفدَ ما عندهم[3]، ويُطلق على خروجِ المال ونحوه من اليدِ إلى المُنفَق عليه، وكذلك لشمولِ الإنفاق بالمال وبغيره، والإنفاق الواجبِ والمستحبِّ والمباح[4].

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور (ممّا) على الفعل ﴿يُنفِقُونَ﴾:

من صفاتِ المؤمنين إنفاقُهم المالَ على حبِّه

قدَّم الجارَّ والمجرور (ممّا) - وهو المُنفَقُ منه - على فعلِ الإنفاق ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ للاهتمام بهذا الرِّزق، وأنَّه من عندِ اللّه أعطاهُ سبحانه للأغنياء؛ ليعطوا منه الفقراء، فالمالُ مالُه سبحانه، وللإيذان بأنَّ المؤمنين ينفقونَ من هذا الرِّزق رغمَ ما له في نفوسهم من معزَّةٍ، وفي هذا مدحٌ لهم، قال تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨﴾ [الإنسان: 8]، كما أنَّ التَّقديمَ أفادَ - مع مراعاةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 333.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 333.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (نفق).
(4) الرّاغب، المفردات: (نفق).

الفاصلةِ - القصرَ الَّذي يوجِّه الأفهامَ إلى أنَّ المطلوبَ إخراجُ بعضِ المال لا كلِّه؛ إذ لو قال: (ينفقون ممّا رزقناهم)؛ لأفادَ أنَّهم ينفقون بعضًا، وهذا لا يدلُّ على كون المسكوت عنه ليس مُنفقًا كذلك، بخلاف صيغة القَصْر.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يُنفِقُونَ﴾:

دوامُ إنفاقِ المؤمنين المالَ في جميعِ الأحوال دلالةٌ على قوَّةِ إيمانهم

التَّعبيرُ بصيغة المضارعة الَّتي تُفيدُ التَّجدُّدَ الحُدوثيَّ لفعلِ الإنفاق جاء ملائمًا لدوام الإنفاقِ الواقعِ منهم وتجدُّده دون توقُّفٍ، أي: إنَّهم كانوا يديمون الإنفاقَ كرمًا منهم، وإن قلَّ ما بأيديهم اعتمادًا على فضلِ اللّه ﷻ، لا يقبضون أيديَهم كالمنافقين[1]، كما أنَّ في التَّعبير بالمضارعة مقابلَ التَّعبيرِ عن الرِّزقِ بالفعل الماضي ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إشارةً إلى أنَّ من صفاتِ الممدوحين فعلَ الخير بما رُزقوا من مالٍ، ولو لم يَزددْ هذا المالُ.

الغرضُ من حذف متعلّق الإنفاق:

تشجيعٌ على الإنفاق في جميعِ الوجوه

حُذِفَ مُتعلِّق الإنفاق، أي: المُنْفَق عليهم، فلم يقل: (وممّا رزقناهم ينفقون على الفقراء أو اليتامى أو المساكين)؛ لإفادةِ العموم بحيثُ يشملُ كلَّ من يصلحُ أن يُنفقَ عليه من مستحقّي الزَّكاة والصَّدقات من الفقراء واليتامى والمساكين، وكذا الوالِدَين والزَّوجة والأولاد، وإكرام الضَّيف والجار وغيرهم، ولو ذكر أحد هؤلاء؛ لانحصر به، وفي العموم تشجيعٌ على الإنفاق في جميعِ الوجوه، وقد يكون الحذف كذلك للتَّركيز على الإنفاق من حيثُ هو قربةٌ إلى اللّه بحَدِّ ذاتها.

بلاغةُ الإدماج في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾:

الَّذي امتنَّ عليهم بالرِّزق هو الَّذي يمدحهم على الإنفاق

في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إدماجُ غرضٍ في غرضٍ؛ إذ أدمجَ غرضَ الامتنانِ عليهم بأنَّ اللّهَ قد رزقهم بغرضِ المدحِ لهم بالإنفاق، وإلّا فليس الإنفاقُ مِن غيرِ ما يُرزَقُه المُنفِقُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 333.

دلالةُ عطف ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ على ما سبق:

الانـتـصـارُ عـنـدَ البَغيِ فَضيلةٌ، كما أَنَّ العَفوَ عـنـدَ الـغَـضَـبِ فَضيلةٌ

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ﴾ عطفٌ على ما سبق؛ لأنَّه لَمّا كانت إدامةُ الغَفْرِ جالبةً للفسادِ، مُجرِّئةً على العناد، وكان البغيُ - وهو التَّمادي في السّوءِ - محقِّقًا لقصدِ الذَّنبِ، مُجوِّزًا للإقدام على الانتقام، وكان الانتصارُ من الفجّار ربَّما أحوجَ مع قوَّة الجَنانِ إلى إنفاقِ المال؛ عقَّبَ الإنفاقَ بمدحِ الانتصار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾[1].

سرُّ تكرار اسم الموصول (ٱلَّذِينَ):

الانـتـصـارُ من الـظُّـلـم صفـةٌ خاصَّةٌ تستحِقُّ الـذِّكـرَ مستقلَّةً عن غيرها

هذا مَوصولٌ رابعٌ، وصِلتُه خُلُقٌ أرادَه اللهُ للمُؤمنين، وقد كرَّر البيانُ الحكيم الاسمَ الموصول؛ لتكون صلتُه معتنًى بها، حتّى كأنَّ صاحبَها المتَّحدَ منزَّلٌ منزلةَ ذوات، فيتأكَّد بذلك اختصاصُهم بكلِّ صفة، كأنَّ كلَّ واحدةٍ منها تستحقُّ أن تُذكرَ لوحدها، فالانتصارُ من الظُّلمِ صفةٌ خاصَّةٌ تستحقُّ الذِّكرَ مستقلَّةً عن غيرها؛ لِما فيها من عدلٍ وشجاعةٍ، وهو ما يختلفُ عن صفاتِ التَّسامح والمغفرة أو الصَّبر الواردة قبلَها.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿إِذَآ﴾ دون (إن):

من عدْلِ المؤمنين أنَّهم لا ينتقمون إلّا إذا تحقَّقَ البغيُ عليهم

ذكر البيانُ القرآنيُّ أداةَ التَّحقُّق ﴿إِذَآ﴾ دون (إن) الَّتي تُستعملُ للشَّكِّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ شرطها لا بدَّ من وقوعه بالفعل أو بالقوَّة[2]، أي: إنَّ المؤمنين لا ينتقمون إلّا إذا تحقَّقَ البغيُ عليهم، وهذا من عدلهم وإنصافهم.

سرُّ التَّعبيرِ بالإصابة في: ﴿أَصَابَهُمُ﴾ دون المَسِّ:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالإصابة دونَ المسِّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ هذا البغي

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 334.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 334.

عليهم، وتسلُّطِه عليهم، وتمكُّنِه منهم، وتأثيرِه فيهم[1]؛ لأنَّ أصلَ الإصابة يدلُّ على نزولِ شيءٍ واستقرارِه قرارَه[2]، بخلافِ المَسِّ الَّذي يدلُّ على خفَّةِ الإصابة، وكأنَّه من مقدِّماتها، أو من أقلِّ درجاتِها، والمسُّ يُقال فيما يكون منه إدراكٌ بحاسَّةِ اللَّمسِ[3].

الأصلُ في المؤمن أن يسامحَ إلّا إذا زادَ الاعتداءُ عن حدِّه

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿أَصَابَهُمُ﴾:

جاءَ فعلُ الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ بصيغة الماضي الَّتي تُفيدُ تحقُّقَ الوقوع؛ لتتناسبَ مع حتميَّةِ وقوعِ البغي والعدوان على المؤمنين وتأكُّدِه، وهذا يُؤيِّدُه الواقعُ، ومجيءِ الماضي مع حرف ﴿إِذَآ﴾ الَّذي يفيد التَّحقُّق، ومعنى الإصابةِ الَّتي تعني نزولَها بهم، وتمكُّنَها منهم، كلُّ ذلك يُؤكِّد أنَّ المؤمنين حقًّا لا ينتقمون إلّا إذا تحقَّقَ البغيُ عليهم، وهذا من عدلهم وإنصافهم.

وقـوعُ البغي والعدوانِ على المؤمنين أمرٌ حتميٌّ

سرُّ التَّعبير بالبغي دون غيره:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالبغي دونَ الظُّلم أو الاعتداء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾؛ لأنَّ البغي أشدُّ من الظُّلم والاعتداء، وهو بذلك يتضمَّنُ الظُّلمَ والفسادَ والتَّعدّي والتَّمادي في الشَّرِّ والكِبر معًا، ولِما في لفظ البغي من قصدِ الفساد، بخلافِ الظُّلم أو الاعتداء، فقد يقعُ بدون قصد، ومثل هذا لا ينتَقِمُ من أجله المؤمنون، ولِما فيه كذلك من المبالغةِ في الظُّلم والاعتداء، فكلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدار - الَّذي هو حدُّ الشَّيء - بغيٌ[4]، ولهذا لا بدَّ للباغي أن يوقَفَ عند حَدِّه لسوءِ حاله، وأن يُنتصرَ منه؛ كي لا يستشري بغيُه وظُلْمُه في المجتمع؛ إذ مثل هذا لا ينفعُ معه التَّسامح.

المؤمنون ينتصرون ممَّن قصدَ وبالغَ في الظُّلم والفساد والتَّعدّي

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 334.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(3) الرّاغب، المفردات: (مسس).
(4) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بغي).

معنى اللّام في: ﴿ٱلۡبَغۡيُ﴾، ودلالتُها:

الاعتداءُ على الحقِّ معهودٌ تَلْفِظُه الفِطَرُ السَّليمة

لامُ تعريفِ البغي في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾ عهديَّةٌ، معهودها ذِهنيٌّ، وهو المبالغةُ في الظُّلم والاعتداء على الحقِّ والفساد، وهذا تلفظُه الفِطَر السَّليمة، فمعنى إصابتِه إيّاهم أنَّه سلَّطَ عليهم، أي: بغى غيرُهم عليهم(1).

دلالةُ ضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾ بين المبتدأ والخبر:

المؤمنون لا يَرضَون الذِّلَّة، ولا يتردَّدون في الانتصارِ للحقِّ

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ أدخلَ البيانُ الحكيمُ ضميرَ الفصل ﴿هُمۡ﴾، الَّذي فصلَ بين الموصول وبين خبره؛ لإفادةِ تقوّي الخبر وتوكيده، أي: لهم مزيدُ اختصاصٍ بالانتصار(2)، وليس للقصر؛ لأنَّ غيرَ المؤمنين ينتصرون لأنفسهم؛ إذا أصابهم البغي، فهُم مشتركون مع غيرهم في هذه الصِّفة، وليسوا مختصِّين بها، والمعنى: لا ينبغي أن يتردَّدوا في الانتصار لأنفسهم(3)، وللتَّأكيد كذلك على أنَّ المؤمنين هم أصحابُ القرار، أي: هم بأنفسهم خاصَّة ينتصرون؛ لِما لهم من قوَّةِ الجنان والأركان المعلمة بأنَّ ما تقدَّم من غفرانه ما كان إلّا لعُلوِّ شأنهم لا لهوانهم(4).

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

غايةُ المؤمن من ردِّ الظُّلم إقامةُ الحقِّ والعدل لا التَّشفّي

التَّعبيرُ بفعل ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ دون (ينتقمون) مثلًا؛ لكون لفظِ الانتصار أنسبَ للسّياق وحالِ المؤمنين، ومدحُهم لكمال صفاتهم وفضائلهم واتِّصافهم بالعدل، فالانتصارُ من النَّصر، وهو طلبُ إزالة الظُّلم وإعانةِ المظلوم، واستعادةِ الحقِّ والمنع من الظُّلم(5)، وهو فعلٌ مشروعٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 113.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 75.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 114.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 334.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نصر).

بقدرِ الضَّرورة؛ فيتناسبُ مع وقوع البغي عليهم وانتصارهم بدفعه عنهم، وهذا يتضمَّن العدل؛ إذ غايتُه إقامةُ الحقِّ، ويقتصر على ردِّ الاعتداء دون تجاوز، فينتقمون من الظّالم بنفس القدر دون زيادة، وهذا ما أكَّده سبحانَه في الآية بعدَها ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾(1)، بينما الانتقامُ يعني معاقبةَ الظّالمِ بدافعِ الغضب أو الإذلال، والمبالغةَ في العقوبة مع الكراهيَة والسُّخط(2)، ولهذا قد يتجاوز المنتَقِمُ حدَّ العدل إلى التَّشفّي والزّيادةِ في العقاب، وإشباعِ الغضب الشَّخصيِّ، وهذا لا يتناسبُ مع مدحِ المؤمنين على أخلاقهم وكمالِ صفاتهم، فهو سبحانه لم يمدحهم على الانتقام، وإنَّما مدحهم على الانتصارِ، وهو القدرةُ والقوَّةُ على استيفاء حقِّهم ودفعِ الظُّلم عنهم، وبهذا يظهرُ الفرقُ بين أخلاقهم وأخلاق الجاهليَّة، الَّذين كانوا ينتقمون إشباعًا لغضبهم الشَّخصيِّ.

وقد أوثِر الخبرُ الفعليُّ، وهو ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ دون أن يقال: (منتصرون)؛ لإفادة معنى تجدُّد انتصارِ المؤمنين لأنفسهم وتكراره؛ كلَّما أصابهم البغيُ بما أعطاهم اللّه من سَعة العقل وشدَّة البطش وقوَّة القلب؛ زجرًا للباغي عن معاودته وعن الاجتراء على غيره، مكرِّرين لذلك؛ كلَّما كرَّر لهم، فيكون ذلك من إصلاح ذات البين، ليسوا بعاجزين ولا في أمر دينهم متوانين(3)، ومجيء الفعل مضارعًا؛ فلأنَّ المضارع هو الَّذي يجيء معه ضميرُ الفصل(4).

الغرضُ من إسناد فعل الانتصار إلى واو الجماعة:

لا يكون تمامُ التَّمكُّن الرّادع إلّا مع الاجتماع

التَّعبيرُ في فعل ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ بالإسناد إلى الجمع؛ للإشارة إلى

(1) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 22/ 13804.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نقم).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 335.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 114.

أنَّه لا يكون تمامُ التَّمكُّن الرّادع إلّا مع الاجتماع، ومن كان فيها مفردًا كان همُّه طويلًا وبثُّه جليلًا، قال إبراهيم النَّخعيُّ: "كانوا يكرهون أن يذلّوا أنفسَهم، فيجترئ عليهم الفسّاق"(1).

سرُّ جَعْلِ هذه الصِّفة في مقام المدح:

التَّذَلُّلُ لِمَن بَغى ليس مِن صِفاتِ مَن جَعَل اللهُ له العِزَّةَ

ذَكَر سُبحانَه في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ هؤلاء المنتَصِرينَ في مَعرِضِ المَدح، كما ذكَرَ المَغفِرةَ عندَ الغَضَبِ في مَعرِضِ المدح؛ لأنَّ في إقامَةِ الظّالم عَلى سَبيلِ الحَقِّ وعُقوبتِه بما هوَ لَهُ أهلٌ؛ تَقويمًا لَهُ، وفي ذَلِكَ أعظَمُ المَدْحِ(2)، ولأنَّ التّذَلُّلَ لِمَن بَغى ليس مِن صِفاتِ مَن جَعَل اللّهُ له العِزَّةَ؛ حيثُ قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]، فالانتِصارُ عندَ البَغيِ فَضيلةٌ، كما أنَّ العَفوَ عندَ الغَضَبِ فَضيلةٌ(3)، ولأنَّ الانتصارَ لأنفسهم رادعٌ للباغين عن التَّوغُّل في البغي على أمثالهم، وذلك الرَّدعُ عونٌ على انتشارِ الإسلام؛ إذ يقطع ما شأنه أن يخالج نفوسَ الرّاغبين في الإسلام من هواجس خوفهم من أن يُبغى عليهم(4).

دفعُ توهُّمِ معارضة هذه الآية لقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾:

الانتِصارُ عندَ البَغيِ فَضيلةٌ، كما أنَّ العَفوَ عندَ الغضَبِ فَضيلةٌ

لا تعارضَ بين قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾؛ لأنَّ العفو على قسمين، **أحدهما**: أن يكون العفو سببًا لتسكينِ الفتنة وجناية الجاني، ورجوعِه عن جنايته، **والثّاني**: أن يصيرَ العفو سببًا لمزيد جراءة الجاني، ولقوَّة غيظه وغضبه، وآيةُ العفو محمولةٌ على القسم الأوَّل، وآيةُ الانتصار محمولةٌ على القِسْم الثّاني(5)، وكذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 335.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 547.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 620.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 114.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 604.

لاختلافِ المقامين[1]، فمِن صِفاتِ الَّذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون: أنَّهم لا يَرضَونَ بالذُّلِّ والانخناسِ عن الأخذِ بحقِّهم، ولَيْس مِن لازم الانتصارِ أن يَقتَصَّ منهم؛ لأنَّ مَن عَفا عن قُدرةٍ وعِزَّةٍ؛ فإنَّه لا شكَّ أنَّه مُنتصِرٌ، ومَن أخَذَ بحقِّه؛ فهو مُنتصِرٌ[2].

❁ الفروق المعجميَّة:

الإصابة والمَسُّ:

انتصارُهم يكون بعد تمكُّن البغي منهم، وليس بمجرَّد مساسه بهم

المَسُّ أخفُّ من الإصابة، فالإصابةُ: النُّزولُ بالشَّيء واستقرارُه قرارَه، والتَّمكُّنُ منه واللَّحاقُ به، خيرًا كان النّازل أو شرًّا[3]، وأصابَ السَّهمُ؛ إذا لم يُخطئ، وأصابَ الشَّيءَ: وجَدَه، وأراده، وأصابته مصيبةٌ: أخذته[4]، والمَسُّ: هو اختبارُ حالِ الشَّيء باليد أو بالجسم؛ إذ حقيقتُه جَسُّ الشَّيء، وذلك بوضْعِ اليد على شيء؛ ليعرفَ وجودَه، أو يختبرَ حالَهُ، فالمَسُّ يُقال فيما يكون منه إدراكٌ بحاسَّةِ اللَّمسِ[5]، وقدِ استُعمِلَ هنا لفظُ الإصابة لمناسبته للسّياق؛ وللدَّلالة على صبرِ المؤمنين على الأذى، وأنَّهم لا ينتصرون إلّا عند تمكُّن البغي منهم، وليس بمجرَّد مسِّه لهم، وفي هذا مزيدُ مدحٍ لهم على عدْلِهم.

البغي والظُّلْمُ:

البغيُ أشدُّ من الظُّلم، والباغي أسوأُ حالًا من الظّالم

الظُّلمُ أعمُّ وأشملُ من البغي؛ إذِ البغيُ نوعٌ من أنواعِ الظُّلم[6]، وهو من أشدِّها، فالبغيُ هو الاعتِداءُ على الحَقِّ، وقصدُ الفساد، وشدَّةُ الطَّلبِ لِما ليس بحقٍّ بالتَّغليب، وكلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدار - الَّذي هو حَدُّ الشَّيء - بغيٌ، وهو بذلك يتضمَّنُ الظُّلْمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 114.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 292.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب).

(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صوب).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (مسس).

(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 345.

والفسادَ والتَّعدّي والكِبر معًا[1]، بينما الظُّلمُ عامٌّ؛ إذ هو وضعُ الشَّيء في غير موضعه تعدّيًا، وهو تجاوزٌ عن المستحقِّ بمنعه وانتقاصه[2]، فالظُّلمُ: هو كلُّ تعدٍّ على الحقوق سواءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا؛ إذ يتراوحُ الظُّلمُ ما بين أكبرِ الكبائر - وهو الشِّرك بالله تعالى - وبين ارتكابِ أصغرِ الذُّنوب، وقدِ استَعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ البغي، وخصَّه بالذِّكر؛ تنبيهًا على شدَّتهِ وسوءِ حالِ صاحبه[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 232، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بغي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلم).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 345.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [الشّورى: 40]

مناسبةُ الآية لما قبلَها:

الانتِصارُ يَجِبُ أن يكونَ مُقيَّدًا بالمِثْلِ؛ لأنَّ ذلك هو العدل

لَمّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾؛ أردَفَهُ بما يدُلُّ على أنَّ ذلك الانتِصارَ يَجِبُ أن يكونَ مُقَيَّدًا بالمِثْلِ؛ فإنَّ النُّقصانَ حَيفٌ، والزِّيادةَ ظُلمٌ، والتَّساويَ هو العَدلُ، وبه قامت السَّماواتُ والأرضُ؛ فلهذا السَّبَبِ قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾[1]، فبعد أن مدَحَهم بقوَّتهم على الانتصار لنفوسِهم وتقاضيهم منها ذلك، حتّى إذا قَدَروا على مَن بغى عليهم، وتمكَّنوا من استيفاءِ ما لهم عليه؛ ندبهم إلى الخُلُقِ الشَّريف من العفو والصَّفح، فقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾[2].

شَرحُ المُفْرَدات:

1) ﴿سَيِّئَةٖ﴾: المعنى العامُّ للسّوءِ ما يحصلُ للإنسانِ من الغمِّ والهمِّ من أمورِ الدُّنيا والآخرة، وما يعرِضُ له من الأمورِ النَّفسيَّةِ، كفقدِ المالِ والجاهِ وغيرِه[3]، "والسّوءُ نعتٌ لكلِّ شيءٍ رديء، والسّوء: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدّاءِ"[4]، والسَّيِّئةُ من بابِ القُبحِ، تقولُ: رجلٌ أسوأُ، أي: قبيحٌ، وامرأةٌ سوْءاءُ، أي: قبيحةٌ، ولذلكَ سُمِّيَتِ السَّيِّئةُ سيِّئةً[5].

2) ﴿عَفَا﴾: فعلٌ ماضٍ من العفو، وقد سبقَ بيانُ معناه اللُّغويِّ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 604.
(2) ابن القيّم، مصباح التّفاسير: 15/ 231.
(3) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(4) الخليل، العين: (سوأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).

والمراد هنا: فمن عفا عمَّن أساءَ إليه إساءَته إليه، فغفرها له، ولم يعاقبه بها، وهو على عقوبته عليها قادرٌ؛ ابتغاءَ وجه اللّه[1].

3) ﴿وَأَصۡلَحَ﴾: أصلُ (صلح) يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ[2]، وقد أصلَحَ الشَّيءَ بعدَ فَساده: أقامَه، ومن المجاز: أصلَحَ إليه: أحسَنَ، والصّالِحُ: الَّذي يُؤَدِّي إلَى اللّه ﷻ ما افترضَ عَليه، ويُؤَدِّي إلى النّاس حُقوقِهم، والمُصلِحُ: المُقيمُ على الإيمان، المُؤَدِّي فَرائِضَه اعتقادًا وعَملًا[3]، ومعنى ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ في الآية: أصلحَ بينَه وبين ظالمه العفو[4].

4) ﴿فَأَجۡرُهُۥ﴾: أصلُ (أجر) الكراءُ على العَمَلِ[5]، ومنه سُمِّيَ الثَّوابُ أجْرًا؛ لأنَّ اللّهَ يَجزِي العَبدَ عليه[6]، ومعنى ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، أي: ونَصرُهُ على ظالِمِهِ مَوكولٌ إلى اللّه، فَيُؤَجِرُ الَّذينَ عَفوا، ويَنتَصِرُ لَهُم على الباغِينَ[7]، وسيعطيه ﷻ من الثَّواب ما لا يعلمهُ إلّا هو سبحانه[8].

۞ المعنى الإجماليُّ:

تحديدُ الانتصار، والتَّرغيبُ في العَفوِ والصَّفحِ، وذَمُّ الظُّلم

يقولُ تعالى آمِرًا بالعدل في العقوبة، ومُرغِّبًا في العَفوِ والصَّفح: وجَزاءُ سَيِّئةِ المُسيءِ عُقوبتُه بمِثلِ جِنايتِه، بلا زِيادة، فمَن عفا عمَّن أساءَ إليه، وأصلَحَ؛ فأجرُه على اللّه، إنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الَّذين يَعتَدون على النّاسِ، فيَظلِمونَهم ابتِداءً، أو يُجاوِزونَ الحَدَّ في الاقتِصاصِ مِمَّن ظَلَمَهم.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 458.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(3) ابن سيده، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (صلح).
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 151.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(6) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 116.
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 43.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاعتراضِ بهذه الآية بين السّابق واللّاحق:

في الاعتراضِ تَحديدٌ للانتصارِ وترغيبٌ في العفْوِ

ثَلاثُ جُملٍ معترضةٍ، الواحدةُ تِلْوَ الأُخرى بَيْنَ جُملةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾، وجُملةِ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾، وفائدةُ هذا الاعتراضِ تَحديدُ الانتصارِ، والتَّرغيبُ في العفْوِ، ثمَّ ذَمُّ الظُّلمِ والاعتداءِ[1].

دلالةُ الواو في: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ﴾:

الانتِصارُ يَجِبُ أن يكونَ مُقَيَّدًا بالمِثْلِ دونَ زيادة أو نقصان

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ﴾ عاطفةٌ[2]، والمعطوف عليه ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾؛ إذ أفادَ هذا العطفُ أنَّ الانتِصارَ يَجِبُ أن يكونَ مُقَيَّدًا بالمِثْلِ دونَ زيادة أو نقصان، وهذا هو العدل.

سرُّ التَّعبير بـ (جزاء) دون عقاب:

العقوبةُ في المجازاة يجبُ ألّا تزيدَ عليها في عينٍ ولا معنًى أصلًا

آثَرَ البيانُ الحكيمُ لفظَ الجزاءِ دونَ العقاب في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ﴾؛ لِما في معنى الجزاء من الدَّلالة على العدلِ في العقوبة بمقابلة السَّيِّئة بالعقوبة وقيام العقوبة مقامها، مع الغناءِ والكفايةِ[3]، وهذا لا يدلُّ عليه لفظُ العقاب، كما أنَّ الجزاء أعمُّ من العقاب، فالجزاءُ يكون ثوابًا، ويكون عقابًا؛ إذ هو ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشَرٌّ، أي: يكون منفعةً، ويكون مضرَّةً كالجزاء على الشَّرِّ[4]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ البادئَ هو الَّذي فعلَهُ لنفسه، فإنَّ الأفعالَ مستتبعةٌ لأجزيتها حَتمًا، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشَرٌّ، بينما العقابُ يختصُّ بالعذابِ[5]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 114.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 44.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 301، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (جزي).
(5) الرّاغب، المفردات: (عقب).

فإنْ قوبلَتِ السَّيِّئةُ بمثلها من الشَّرِّ، فهو جزاءُ العدل، وإن قوبلت بمثلها من الخير؛ فهو العفو والإحسان، وفي هذا إشارةٌ إلى ما جاء من قوله تعالى بعدَه: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

سرُّ التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ﴾ دون الفعليَّة (يُجزى):

وجوبُ العدل في الجزاء، وعدم الاعتداء قانونٌ إلهيٌّ ثابت

عبَّر البيانُ الحكيمُ بالجملة الاسميَّة دونَ الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾؛ للمبالغة في بيانِ عدلِ الله سبحانه، بأن جعلَ جزاءَ كلِّ سيِّئةٍ بمثلها لا أكثر ولا زيادةَ عليها، وللدَّلالة على أنَّ وجوبَ العَدلِ في الجزاءِ وعَدَمَ الاعتداءِ فيه قانونٌ إلهيٌّ ثابتٌ.

دلالةُ حَذْفِ موصوفِ ﴿سَيِّئَةٖ﴾ في: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ﴾:

العدلُ مطلوبٌ في جزاء كلِّ إساءة مهما كانت

﴿سَيِّئَةٖ﴾ صِفةٌ لِمَحذوفٍ، أي: فِعلة تَسوءُ مَن عومِلَ بها، على وزْن (فَيْعِلَة)؛ مُبالَغةً في الوصفِ، أي: إنَّ المُجازِيَ يُجازي مَن فعَلَ معه فِعلةً تَسوؤه بفعلةٍ سيِّئةٍ مثلِ فِعْلتِه في السّوءِ[1]، وقد حُذِف الموصوفُ للإيجاز، فهو مفهوم من السّياق، وكذلك لتوسيع المعنى وتعميم الحُكم؛ ليشملَ كلَّ أنواعِ الإساءةِ سواءٌ كانت قولًا أم فعلًا أم غيرَ ذلك، وهذا يتناسبُ مع مقامِ العدل المطلوب في الآية.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمشاكلة ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾:

في إبرازِ العقوبة في صورةِ السَّيِّئة تنفيرٌ من ارتكابها في حقِّ الغير

سمّى البيانُ القرآنيُّ العقابَ ﴿سَيِّئَةٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، فلم يقل: (وجزاءُ سيِّئة عقابٌ مثله)؛ لأنَّها تسوءُ من تنزلُ به، أي: وإن كان الانتصارُ من الخصالِ الحميدة إلّا أنَّه في نفسه إساءةٌ إلى الغير، وبذلك روعيَ المعنى اللُّغويُّ[2]، أو أنَّه لّما جُعِل أحدُهما في مقابلة الآخر على سبيلِ المجاز المرسل بعلاقة السَّببيَّة - إذ إنَّ المعنى الأصليَّ للفظ سببٌ في المعنى المراد، وهو المجازاة -

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 115.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 229، وحاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 254.

أُطلِقَ اسمُ أحدِهما على الآخر[1]، أي: هو جِناسُ المُزاوَجةِ اللَّفظيُّ، فإنَّ السَّيِّئةَ الثّانيةَ ليَسَت بسَيِّئةٍ، وإنَّما هي مُجازاةٌ عن السَّيِّئةِ، سُمِّيَتْ باسمِها؛ لِقَصْدِ المزاوَجةِ والمشاكلة[2]، وفي كلا الأمرين أثرٌ نفسيٌّ في التَّخويف من السَّيِّئة؛ حتّى لا يحلَّ مثلُها بالفاعل ممّا يسوؤه، وتهكُّمٌ واستهزاءٌ بفاعل السَّيِّئة، فإنَّ "البادئَ هو الَّذي فعلَهُ لنفسه، فإنَّ الأفعالَ مستتبعةٌ لأجزيتها حتمًا، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شرًّا؛ فشرٌّ"[3]، ففي التَّعبير بالسَّيِّئة "رعايةٌ لحقيقة اللَّفظ، وإشارةٌ إلى أنَّ الانتصارَ مع كونه محمودًا، إنَّما يحمدُ بشرط رعاية المماثلة، وهي عَسِرةٌ، ففي مساقها حثٌّ على العفو من طريق الاحتياط"[4].

بلاغةُ التَّهذيبِ في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾:

التزامُ الأدبِ مع اللهِ سُبحانَه في إسنادِ فِعلِ الإساءةِ إليه

في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ بَلاغةُ التَّهذيبِ؛ فإنَّها سَلِمَتْ مِن المحذورِ الَّذي يَقتضي تَهذيبَها، فإنَّها عدلَتْ عن إسنادِ الإساءةِ إلى اللهِ؛ أدبًا معه سبحانه، فأتَى النَّظمُ على مُقتضَى البلاغةِ مِن مَجيءِ تَجنيسِ الازدواجِ فيه على وجْهِه مِن غيرِ تَغييرٍ؛ إذ لا ضَرورةَ تدعو إلى تَغييرِه[5].

الغرضُ من تنكير (سيئة) في الموضعين:

جزاءُ كلِّ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلُها في النَّوعِ والعددِ والمقدارِ والكيفيَّة

نكَّر البيانُ الإلهيُّ لفظَ السَّيِّئة في الموضعين من قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾؛ لإفادة العموم والإبهام مع الأفراد في الأولى، أي: جزاءُ كلِّ سيِّئة، ولإفادة النَّوعيَّة مع الأفراد؛ لأنَّ المعنى: وجزاء سيِّئة - أيِّ سيِّئةٍ - سيِّئةٌ مثلُها في النَّوع والعدد، فلا ينبغي لمن يُردِ الاقتصاصَ لنفسه أن يتجاوز في المقدار أو الكيفيَّة، وإلّا كان

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 605.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 196، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 45.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 34.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 47.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 45.

ذلك ظلمًا يأباهُ الشَّرع، قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ [غافر: 40][1].

دلالةُ الإضمار في: ﴿مِّثۡلُهَاۖ﴾:

الجـزاءُ يُقـاسُ عـلى مـثـلِ الإسـاءة، وهذا هو مبدأُ العدل

الضَّمير (ها) في ﴿مِّثۡلُهَاۖ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ يعودُ إلى السَّيِّئة الأولى لا الثّانية، وهذا مفهومٌ من السّياق؛ إذِ الجزاءُ يُقاس على نفسِ الإساءة، لا على غيرها، فيكون في هذا الإضمار إيجازٌ يدلُّ على بلاغةٍ قرآنيَّةٍ، ودلالةٌ على الانطلاقِ يكون في الجزاء من المماثلة للإساءة، وهذا هو مبدأ العدل.

معنى الفاء ودلالتُها في: ﴿فَمَنۡ عَفَا﴾:

الأمـرُ بالـعدل في الانـتـصـار تفرَّعَ عنه العفوُ والإصلاح

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ تفريعيَّة، والجملة تفريعٌ على جملة: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، وهو قرينةٌ تدلُّ على انتقالٍ من الإذن في الانتصار من أعداءِ الدّين إلى تحديدِ إجرائه بين الأُمَّة؛ لأنَّه سمّى تركَ الانتصارِ عفوًا وإصلاحًا، ولا عفوَ ولا إصلاح مع أهل الشِّرك، ويُؤكِّد ذلك قرينةٌ أخرى، وهي: الوعدُ بأجرٍ من اللّه على ذلك العفو، ولا يكون على الإصلاح مع أهلِ الشِّرك أجر[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ(مَنْ) دون (الذي):

العـفوُ اختيارٌ ولـيـس وصـفًا دائمًا

التَّعبيرُ بـ(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ دون (الذي) أنسبُ وأبلغُ في المعاني، وأدلُّ على المراد؛ لأنَّ (مَن) تدلُّ على الشَّرطيَّة والجزاءِ بشكل أوضح، فقد ربطَتْ في الآية بين العفو والأجر برباطٍ شَرْطيٍّ، وبيَّنت أنَّ من اختار العفوَ؛ فقد ترتَّب على هذا الاختيارِ الأجرُ العظيم من اللّه، أمّا لو قيل: (فالذي عفا، وأصلح؛ فأجره على اللّه)؛ لخفتَتْ دلالةُ الشَّرطِ

(1) صلاح حبيب سليمان، من أسرار التّعريف والتّنكير في سورة الشّورى، ص: 291.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 114، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 48.

والجزاء، ولدلَّت على الوصف المطلق، فكان استخدام (مَن) لإظهار أنَّ العفو اختيارٌ، وليس وصفًا دائمًا.

دلالةُ العطف في: ﴿وَأَصۡلَحَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ عطفَ الإصلاحَ على العفو؛ للدَّلالة على أنَّه لا بدَّ من اجتماعِ الإصلاح مع العفو حتّى ينالَ الأجرَ العظيم من الله تعالى، أي: إن عفوتم، وأصلحتم في العفو؛ فأجرُكم على الله؛ إذ ليس كلُّ عفوٍ محمودًا، فإنَّ العفو دون إصلاح قد يُفسدهُ الطَّرف الآخر بالاستمرار في الظُّلم، فلا بدَّ من العفو الَّذي يحفظُ المجتمع، ويحمي الحقوق من استهانةِ الظّالم بحقوق الآخرين.

العفوُ دونَ إصلاحٍ قد يُفسدهُ الطَّرفُ الآخر بالاستمرار في الظُّلم

دلالةُ التَّعبير بصيغة الماضي في: ﴿عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ دون المضارع:

التَّعبيرُ بصيغة الفعل الماضي في قوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ العفو والإصلاح ووقوعهما، وتأكُّد هذا الوقوع، وكأنَّ اللهَ يخبرنا بأنَّ هناك من سيعفو، ويصلح حتمًا، ممّا يُعطي طمأنينةً بأنَّ العفو والإصلاح موجودٌ في المجتمع، بينما المضارع يفيدُ الاحتمالَ، كما أنَّ الشَّرطَ مع الماضي يُعطي قوَّةً في الرَّبط؛ فيفيد أنَّ الأجرَ ملازمٌ للعفو والإصلاح - لا محالةَ - ومترتِّب عليهما، ممّا يعطي ثقةً بالنَّتيجة.

العفو والإصلاحُ واقعٌ متحقِّقٌ، والأجرُ مترتِّبٌ على وقوعهما

إيثارُ التَّعبير بـ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ دون غيره من الألفاظ:

عبَّر النَّظم الحكيمُ بلفظِ الإصلاح في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾، دونَ قوله مثلًا: (فمن عفا، وأحسن، أو سامح)؛ لمناسبة لفظ الإصلاح للسّياق، ولاتِّساع دلالته وشموله، ولكونه أعمقَ وأبلغ؛ فالإصلاحُ خِلافُ الفسادِ[1]، وهو يشملُ القولَ والعملَ وفق ما يرضاه

القرآنُ يريدُ مجتمعًا مُصْلَحًا خاليًا من الفساد، لا مجرَّدَ أفراد متسامحين

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).

الشَّرع، وما هو خيرٌ وصواب، وذلك من خلال إصلاحِ العلاقة مع الظّالم بِوُدِّه والإحسان إليه بالعفو، وإصلاحِ النَّفس بالتَّخلُّص من الحقد على الظّالم، وإصلاحِ المجتمع بمَنعِ الظُّلم وتخليصه من الفساد، وبضمان عدمِ تكراره في المستقبل، فالتَّعبيرُ بالإصلاح شَمِلَ البُعدَ الفرديَّ والاجتماعيَّ، وربطَ بين العفو ونتيجته والغايةِ منه، فالقرآنُ يريد مجتمعًا مُصْلحًا خاليًا من الفساد، لا مجرَّدَ أفرادٍ متسامحين.

الغرضُ من حذف متعلِّق الفعل (أصْلَحَ):

أجـرٌ عظيـم لمن عفا، وأصلحَ كلَّ ما فيه فساد

الفعل (أصْلَحَ) من قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ متعدٍّ لم يُذْكَر مفعولُهُ؛ لدلالة السّياق عليه، ولإرادة العموم، أي: ليشملَ كلَّ أنواعِ الإصلاح، والتَّقدير: فمن عفا، وأصلح بين النّاس في العَفْوِ، وأصلح لنفسه، وأصلح بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء[1].

سِرُّ تعقيب: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ﴾، بقوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾:

سلوكُ الانتصارِ غـيرُ مـأمـونِ العِـثـارِ، بينما العـفـوُ مأمونُ العِثارِ محمودٌ في الدّارين

عقَّبَ البيانُ الإلهيُّ على مجازاة السَّيِّئة بالسَّيِّئة: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، بقوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾؛ لأنَّ تحقُّق المثليَّةِ من العبد الملزوم للعجز لا يكادُ يوجد، فتسبَّبَ ذِكْرُ العفوِ بإسقاط حقِّه كلِّه أو بالنَّقص عنه؛ لتتحقَّقَ البراءةُ ممّا حَرَم من المجاوزة؛ لأنَّ سلوك الانتصار غيرُ مأمون العِثار، بينما مَن عفا، وأصلح؛ فهو سالكُ الطَّريق المأمونِ العِثار المحمودِ في الدّارين، فيكون في هذا التَّعقيب حثٌّ وتنبيهٌ على أنَّه وإنْ كان سلوكًا لطريقِ الاحتياط، فإنَّه يتضمَّنُ مع ذلك إصلاحَ ذاتِ البين المحمود؛ ليكون زيادةَ تحريضٍ عليه[2]، ولأنَّ "في التَّرغيب في عفوِ المظلوم عن ظالمه حِفظَ آصِرة

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 607، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 40، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 336.

(2) الآلوسيّ، روح البيان: 13/ 47، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 336.

الأُخوَّة الإسلاميَّة بين المظلوم وظالمه؛ كيلا تنثَلِم في آحاد جزئيّاتِها، بل تزداد بالعفو متانة"[1].

معنى الفاء ودلالتُها في: ﴿فَأَجۡرُهُۥ﴾:

الأجرُ العظيمُ من الله مترتِّبٌ على العفو والإصلاح

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ رابطةٌ لجواب الشَّرط، تُفيد أنَّ هذا الأجرَ العظيم من اللّه مترتِّبٌ على العفو والإصلاح، أي: من عفا، وأصلح؛ استحقَّ الأجرَ العظيم من اللّه - لا محالةَ - وبدون تأخُّر.

سِرُّ التَّعبير بالاسميَّة (أجْرُهُ)، وبيانُ غرضِ الإضافة:

ثبوتُ أجرِ من عفا وأصلح، واختصاصُه به

عبَّر البيانُ الحكيمُ بالاسميَّة في قوله تعالى: ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ - دونَ الفعل الَّذي يدلُّ على التَّجدُّد والحدوث، فلم يقل: (فيثيبه اللّه، أو يؤجره اللّه) - للمبالغة في بيانِ ثباتِ واستمرارِ وعدِ اللّه في إعطاء الأجر لمن عفا، وأصلح، وأنَّه حقيقةٌ ثابتة، وقانونٌ إلهيٌّ لا يتغيَّر، وفي هذا تأكيدٌ لضمان الأجر، وإظهارٌ لعظمة المتكفِّل سبحانه، وشعورٌ بطمأنينة المؤمن بالوعد، وهذا من عظيم كرم اللّه سبحانه وفضله، وفي إضافة الأجر إلى ضمير من عفا، وأصلح ﴿فَأَجۡرُهُۥ﴾، دلالةٌ على الاختصاص، وكأنَّ الأجر صار من مختصّاته الَّتي في حيازته، وحقٌّ له على اللّه أن يعطيَه إيّاه.

سرُّ التَّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

من عفا وأصلحَ؛ حُقَّ له الأجرُ الجزيل من الله تفضُّلًا وكرمًا منه سبحانه

في التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، دلالةٌ على العُلوِّ والتَّفضُّل، وتأكيدِ تحقيق الوعد، فاللّه هو العالي الَّذي وعد بأن يعطيَ الأجرَ لمن يعفو، ويصلح، تفضُّلًا منه وتكرُّمًا، فقولُه: ﴿عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ كأنَّه وثيقةٌ وضمانٌ لهذا الأجر، وفي هذا ترغيبٌ بالعفو والإصلاح، من خلال تأكيدِ تحقُّق الأجر الجزيل من اللّه على هذا العفو.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 116.

دلالةُ الإبهامِ في عدم تعيين الأجر في قوله: ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾:

الأجـرُ مـن الله عظيمُ الشَّأن، لا يُدرِكُ كنهَهُ إلّا الله

في قوله تعالى: ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ دون تعيين الأجر، وعْدٌ مُبهمٌ لا يقاسُ أمرُه في التَّعظيم، مُنبِئٌ عن عظم شأنِ الموعودِ وخُروجِه عن الحَدِّ المعهودِ[1]، وأنَّه بالقدر الَّذي لا يُدرِكُ أحدٌ - غير اللّه تعالى - كُنْهَهُ؛ لأنَّه من اللّه العظيم الكريم سبحانه، المُعطِي المثيب المتفضِّل على عباده، "المُحيطِ بجميع صفات الكمال، فهو يعطيه على حسب ما يقتضيه مفهومُ هذا الاسمِ الأعظم"[2]، وفي إبهام الأجر زيادةٌ في التَّرغيب بالعفو.

سرُّ فصلِ جُملة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

تعليلٌ يُحذِّر من الظُّلم لمَن بغى، ولمَن عاقب على البغي

فَصَلَ القرآنُ جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عمّا قبلها؛ لكونها جاءت في مَوضع العِلَّةِ لِكلامٍ مَحذوفٍ، دلَّ عليه السِّياقُ، فيُقدَّرُ، أي: فيَأجُر الَّذين عَفَوا، ويَنتصِرُ لهم على الباغينَ؛ لأنَّه لا يُحِبُّ الظّالمينَ، ويَجوزُ أيضًا أن يكونَ التَّعليلُ مُنْصرِفًا لمفهوم جُملة: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، أي: دونَ تَجاوُزِ المماثَلةِ في الجَزاءِ، فيكونُ ما صدقَ الظّالمينَ: الذين يَتجاوَزونَ الحَدَّ في العُقوبةِ من المؤمنينَ، على أن يكونَ تَحذيرًا من مُجاوَزةِ الحَدِّ[3]، وفي هذا تَهذيبٌ، فإنَّ الانتصارَ لا يَكادُ يُؤمَنُ فيه تَجاوُزُ السَّيِّئةِ والاعتداءُ، خُصوصًا في حالةِ الفوَرانِ والغَلَيانِ والتهابِ الحَميَّةِ، ولهذا ندبَ إلى العفو بعد المدح بالانتصار؛ مُبيِّنًا أنَّ عِلَّته كراهةُ أن يوضَع شيءٌ في غير محلِّه؛ لأنَّه لا يعلم المماثلة في ذلك إلّا اللّه، فذكر أنَّه لا يحبُّ الظّالمين؛ للتَّأكيد على كَفِّ النَّفس لما لها من عِظَم الاسترسال في الانتصار، وفي هذا جَوابٌ لِمَن يَتساءلُ: ما معنى ذِكْرِ الظُّلم عَقِبَ العفو، معَ أنَّ الانتصارَ ليس بظُلم[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 607، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 35.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 336.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 116.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 607، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 337، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 46.

في الإضمار إيجازٌ بلاغيٌّ، وإظهارٌ للعظمةِ والهيبة الإلهيَّة

سرُّ التَّعبيرِ بالإضمار ﴿إِنَّهُۥ﴾ دون قوله: (إنَّ الله):

أضمرَ البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الجليل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقل: (إنّ اللّه لا يحبّ الظالمين)؛ للإيجاز البلاغيِّ؛ لأنَّ الضَّميرَ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدٌ على ﴿ٱللَّهِۚ﴾ الَّذي ذُكِر قبلَه مباشرةً في قوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فلا حاجةَ إلى ذِكره صريحًا، وأيضًا لإظهار العظَمة والهيبة الإلهيَّة، فالإشارةُ إلى الذّاتِ الإلهيَّة دون حاجةٍ إلى التَّصريح كنايةٌ عن عُلوِّ مقامِه وعظيم شأنه سبحانه، وفي الإضمار كذلك إشارةٌ إلى أنَّ المثليَّةَ من الغيب الخفيِّ؛ لأنَّه لا يعلم المماثلة في ذلك إلّا اللّه[1].

اللهُ لا يرضى عن الظّالمين، ولا يوفِّقهم، ويتوعَّدُهم بالعقاب

دلالةُ التَّعبيرِ بنفي المحبَّة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

"حَقيقَةُ المَحَبَّةِ - وهيَ مَيْلُ النَّفسِ إلى ما تُؤْثِرُهُ - مُستَحيلَةٌ في حَقِّ اللَّهِ تعالى، ولا واسِطَةَ بَيْنَ المَحَبَّةِ والبَغضاءِ بالنِّسبَةِ إلى اللَّهِ تَعالى؛ لأنَّهُما مَجازانِ عَن إرادَةِ ثَوابِه، وإرادَةِ عِقابِه، أو عَن مُتَعَلَّقِ الإرادَةِ مِنَ الثَّوابِ والعِقابِ، وذَلِكَ بِخلافِ مَحَبَّةِ الإنسانِ وبُغضِه، فَإنَّ بَينَهُما واسِطَةً، وهيَ عَدَمُهُما؛ فَلِذَلِكَ لا يَرِدُ عَلى نَفْيِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تعالى أن يُقالَ: لا يَلْزَمُ مِن نَفيِ المَحَبَّةِ وُجودُ البُغْضِ، بَل ذَلِكَ لازِمٌ لِما بَيَّنّاهُ مِن عَدَمِ الواسِطَةِ بَينَهُما في حَقِّهِ تَعالى"[2]، أي: المحبَّةُ من اللّه ليست عاطفة، بل هي تشريفٌ وتكريمٌ وتأييد، فنفيُ المحبَّة فيه ردعٌ للظّالم، وتحذيرٌ من الظُّلم، وتوعُّدٌ ضمنيٌّ بالعقاب، ويقتضي الذَّمَّ الدّالَّ على تحريم الظُّلم، فاللّهُ تعالى لا يُقِرُّ الظّالمين، ولا يرضى عنهم، ولا يوفِّقهم، ولا يُعينهم على ظلمهم، والظّالم بمَحلٍّ من غضبِ اللّه عليه، ولو عبَّر بالبُغض، فقال: (إنَّه يبغض الظّالمين)؛ لكان التَّركيزُ على شدَّة العقاب.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 337.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 242.

معنى (اللّام) ودلالتُها في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

كلُّ ظالمٍ يدخلُ في زمرة مَن لا يحبُّه الله

لامُ التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جنسيَّةٌ استغراقيَّةٌ تفيدُ العموم؛ لتشملَ كلَّ ظالم متجاوزٍ للحدِّ، فهذا النَّفيُ يشملُ كلَّ ظالم بغَضِّ النَّظر عن درجة ظُلمِه؛ لأنَّ الظُّلمَ منافٍ لصفات اللّه في العدل والحكمة، فلا يمكن أن يحظى برضاه، وهنا في الآية يشملُ مَن بدأ بالظُّلم، واعتدى أوَّلًا، ويشملُ أيضًا المتجاوزين الحَدَّ في الانتقام؛ لأنَّه تَعَسُّر رعايةُ طريقِ المماثلة، وقلَّما تخلو عن الاعتداء والتَّجاوز، لا سيَّما في حال الحرب والتهاب الحميَّة، فيكون دخولًا في زمرةِ من لا يُحبُّه اللّه تعالى[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالظّالمين بصيغة اسم الفاعل دونَ المعتدين:

نفيُ محبَّةِ الله تشملُ مَنِ ابتدأ الإساءة ومن تجاوزَ المثلَ في المعاقبة عليها

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دون المعتدين، فلم يقل: (إنَّه لا يحبُّ المعتدين﴾؛ لأنَّ الظُّلم أعمُّ من الاعتداء؛ إذِ الظُّلمُ وضْعُ الشَّيءِ في غير موضعه تعدِّيًا، وهو تجاوزٌ عن المستحقِّ بمنعِه وانتقاصه[2]، فالظُّلمُ: هو كلُّ تعدٍّ على الحقوق سواءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا، بينما الاعتداءُ تجاوزُ ما ينبغي أن يُقتَصر عليه، وهو الظُّلمُ الصُّراح[3]، فكان استعمالُ نفي محبَّة الظّالمين هنا أنسبَ، أي: إنَّ اللّه لا يحبُّ الظّالمين البادئينَ بالسَّيِّئةِ، ولا المُتعدِّينَ في الانتقام، وفي هذا تحذيرٌ مِن ارتكاب أيِّ ظُلم يمكن أن يقع، والتَّرغيبِ في تحرِّي العدل، وعبَّر باسم الفاعل ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ - وهو من أهمِّ الأسماء الصَّرفيَّة في اللُّغة العربيَّة - دون الفعل، فلم يقل: (إنَّه لا يحبُّ الَّذين ظلموا)؛ للدَّلالة على الثُّبوت والدَّوام، فظُلْمُهم غيرُ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 607، والقرطبيّ، الجامع في أحكام القرآن: 16/ 41، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 48.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلم).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن فارس، مجمل اللّغة: (دعو).

محدَّد بزمن، بل هو ثابتٌ ملازمٌ لهم؛ فبيَّن سبحانه أنَّه لا يحبُّ الثّابتين على ظلمهم، المُداومين عليه، ولو عبَّر بالفعل (ظلموا)؛ لَما دلَّ على هذه المعاني؛ إذ إنَّه يدلُّ على وقوعِ الحَدَث قبلَ زمانِ المتكلِّم، أو حدوثِه مطلقًا.

بلاغةُ توالي المُؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

المبالغةُ في تأكيدِ انتفاء مَحبَّةِ اللهِ للظَّالمين للتَّنفير من الظُّلم

أكَّد ﷻ قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بعِدَّة مؤكِّدات، التَّوكيدُ بـ(إنَّ) الَّتي تُفيدُ توكيدَ الخبرِ، وهو عدمُ محبَّة اللّه للظّالمين، والتَّأكيدُ بالجملةِ الاسميَّة، الَّتي تَدلُّ على الثَّباتِ وقوَّةِ الحُكْم وبَقائِه، وهي كالتَّعليل لِما قبلها، وتحملُ التَّحذيرَ من الظُّلم، وكذلك التَّوكيدُ باسم الفاعل ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، بما يُعطي للمعنى مزيدًا من المبالغة والثُّبوت والدَّوام والاستمرار، لا مجرَّدِ الحدوثِ والتَّجدُّد، وكلُّ هذه المُؤكِّداتِ مجتمعةً أفادت المبالغةَ في تأكيد انتفاء مَحبَّةِ اللّهِ للظُّلم والظّالمين؛ وجاء ذلك تنفيرًا من الظُّلم وتحذيرًا منه ومن عواقبه.

بلاغةُ التَّذييل بجملة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

تنبيهٌ للمنتصر بعدمِ استيفاء الزِّيادة من الظّالم وأن يلتزمَ بالعدل

التَّذييلُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من نوعِ التَّذييل العامِّ الَّذي يجري مجرى المثل، وغرضُه أمران، **الأوَّل:** توكيدُ فقدانِ الظّالمين الباغين على النّاس محبَّة اللّه ﷻ، وتوكيدُ محبَّتِه للمؤمنين المُقسطين، المُنضبطين بما وجَّه اللّهُ إليه من العفو والصَّفح واحتسابِ الأجر على اللّه، وفقَ مفهوم المخالفة، **والثّاني**: التَّعليلُ لِما سبق؛ إمّا لِكلام مَحذوفٍ، وهو: فيَأجُر اللّهُ الَّذين عَفَوا، ويَنتصِرُ لهم على الباغينَ؛ لأنَّه لا يحبُّ الظّالمين، أو تعليل لمفهوم قولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، كما أنَّ في التَّذييل تنبيهًا على أنَّ المجنيَّ عليه لا يجوزُ له استيفاءُ الزّيادة من الظّالم؛ لأنَّ الظّالم فيما وراء ظلمِه معصوم، والانتصارُ لا يكاد يؤمَنُ فيه تجاوزُ التَّسوية والتَّعدّي، خصوصًا في حالِ

الحرب والتهاب الحميَّة، فربَّما صار المظلوم عند الإقدام على استيفاء القصاص ظالمًا[1].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الجزاء والعقاب:

الجزاءُ يشملُ الثَّوابَ والعقابَ، فيُشيرُ إلى العدلِ وإلى العفو

الجزاءُ أعمُّ من العقاب، فيكون الجزاءُ ثوابًا، ويكون عقابًا، كما أنَّ الجزاء يُشير إلى العدلِ في العقوبة[2]، والجزاءُ هو ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فَشَرٌّ، أي: يكون منفعةً، ويكون مضرَّةً، كالجزاء على الشَّرِّ[3]، بينما العقاب يختصُّ بالعذابِ[4]، وعاقبَه على ذنبه: جزاه سوءًا بما صنع[5]، ولا يشير إلى العدل في المعاقبة[6]، ومن هنا كان استعمال لفظِ الجزاء أنسبَ؛ لكونِهِ أعمَّ من العقاب؛ إذ يشملُ الثَّوابَ والعقاب، فيدلُّ بذلك على مقابلةِ السَّيِّئة بمثلها، وهذا هو مبدأ العدل، كما يتركُ المجالَ للعفو، فلا يحصرُ المعنى في العقاب بمثل السَّيِّئة.

الأجْر والثَّواب:

الأجرُ لا يكونُ إلّا بالنَّفعِ دون الضَّررِ، ويكون عوضًا عن عمل

الأجرُ: ما يعودُ من ثوابِ العمل، دنيويًّا أو أُخرويًّا[7]، وهو العِوَض المَأخوذ في العقد على المنافِع[8]، فهو عِوَض العمل والانتفاع[9]، وأصله الكِراءُ على العمل[10]، بينما الثَّوابُ: ما يرجعُ إلى الإنسان من جزاءِ أعماله، خيرًا كان أم شرًّا[11]، أي: ما يَرجعُ على المُحسِنِ من إحسانه،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 607.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 301، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (جزي).
(4) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (عقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أجر)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 131.
(8) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 112.
(9) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أجر).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ثوب).

وعلى المسيءِ من إساءته[1]؛ إذ أصلُ الثَّواب هو "العودُ والرُّجوعُ"[2]، فالفرقُ بين الأجرِ والثَّواب: هو أنَّ الأجرَ أخصُّ من الثَّواب من جهة أنَّه لا يكونُ إلّا بالخير، أي: في النَّفعِ دون الضُّرِّ، ويمكن أن يكون على الحسنات، كما يمكن أنْ يكون عن طريقِ المعاوضة بالانتفاع، بينما الثَّوابُ يكون بالخير وبالشَّرِّ، إلّا أنَّه بالخيرِ أخصُّ[3]، فاستعمالُ لفظِ الأجر أنسبُ مع السّياق الَّذي يتحدَّث على أجر من يعفو، ويُصْلِح.

(1) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 1/ 299.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثوب).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 237، والرّاغب، المفردات: (أجر).

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾﴾ [الشّورى: 41 - 42]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتصارُ للحقِّ ليس ظُلمًا يُبغضه الله

لَمّا كان قولُه سبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سادًّا لبابِ الانتِصارِ؛ لِما يُشعِرُ به مِن أنَّه ظُلمٌ على كُلٍّ، قال مُؤَكِّدًا نَفيًا لهذا الإشعارِ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[1]، فلمّا بَيَّنَ تَعالى في قوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ما للنّاظِرِ في مَصالِحِ العِبادِ، المُنْسَلِخِ مِن حظِّ نَفسِهِ؛ إحسانًا إلى عِبادِ اللّهِ مِنَ الرُّتْبَةِ العُليا بَينَ ما لِهَذا الذّابِّ عَن نَفْسِه، القاصِدِ لِشِفاءِ صَدْرِهِ وذَهابِ غَيْظِهِ من حقٍّ، فقال: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظُلۡمِهِۦ﴾: (ظلم) أصلٌ يدلّ على وضْع الشَّيءِ في غير موضعِهِ تعدّيًا، فالظُّلمُ: الجَوْرُ والميل عن القصدِ، ومُجاوَزَة الحدِّ، وهو خلافُ الحقِّ[3]، فمن تعدَّى من الحقِّ إلى الباطل؛ فقد وضعَ الشَّيءَ في غيرِ موضعه، وبذلك يُسمّى ظالمًا"[4]، ومعنى ﴿ظُلۡمِهِۦ﴾ في الآية: ظلْم الظّالم له[5].

2) ﴿سَبِيلٍ﴾: السَّبيلُ في القرآن الكريم معناه الطَّريق، وهو بهذا في كلِّ القرآن، وإنَّما يختلفُ المُراد بحسب السِّياق، وهو المُمتَدُّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 337.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 337.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(4) الرّاغب، المفردات: (ظلم).
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 44.

طولًا، سُمِّيَ السَّبيلُ بذلك لامتداده[1]، "والمُرادُ بِالسَّبيلِ: موجِبُ المؤاخَذةِ بِاللّائِمَةِ بَينَ القَبائِلِ، واللَّمزِ بالعُدوانِ، والتَّبِعَةِ في الآخِرَةِ على الفَسادِ في الأرضِ بِقَتلِ المُسالمين، سُمّي بذلك سَبيلًا عَلى وجْهِ الاستِعارَةِ؛ لأنَّهُ أشبَهَ الطَّريقَ في إيصالِهِ إلى المَطلوبِ"[2].

3) ﴿وَيَبۡغُونَ﴾: البَغيُ: قَصْدُ الفساد، وتجاوزُ الحقِّ إلى الباطل، والبغيُ: الظُّلمُ، وقيل: كلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدار الَّذي هو حَدُّ الشَّيء بغيٌ[3]، والبَغيُ في الأرضِ: الاعتداءُ عَلى ما وضَعَهُ اللَّه في الأرضِ مِنَ الحَقِّ الشّامِلِ لِمَنافِعِ الأرضِ الَّتي خُلِقَتْ لِلنّاسِ[4]، ومعنى ﴿وَيَبۡغُونَ﴾: يتجاوزون في أرضِ اللهِ الحَدَّ الذي أباحَ لهم ربُّهم، إلى ما لم يأذن لهم فيه، فيُفسدون فيها بغيرِ الحقِّ[5].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

دفْعُ الظُّلمِ والبغيِ أمرٌ محمودٌ لا عُقوبةَ عليه ولا لَومَ ولا حَرَجَ

أكَّدَ سبحانه ما سبَقَ أن بيَّنَهُ، مِن أنَّ دَفْعَ بَغْيِ الباغي أمرٌ محمودٌ، فقال تعالى: مَنِ انتصَرَ من ظالم له بعْدَ تَحقُّقِ وُقوعِ ظُلمِه، فأولئك المُنتَصِرونَ لا عُقوبةَ عليهم، ولا لَومَ ولا حَرَجَ؛ إذا أخَذوا حَقَّهم دونَ زيادةٍ، إنَّما العُقوبةُ والإثمُ على الَّذين يَعتَدونَ على النّاسِ في دِمائِهم أو أموالِهم، أو أعراضِهم أو غيرِ ذلك من حُقوقِهم، ويَتجاوَزونَ الحَدَّ بالفَسادِ في الأرضِ بالكُفرِ أو المعاصي، أو التَّكبُّرِ على النّاسِ، وطَلَبِ الاستِعلاءِ عليهم بغيرِ حَقٍّ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطْفِ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾:

في تعدُّدِ المعطوفِ عليه ثراءٌ للمعنى

يجوزُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 119.
(3) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بغي).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 121.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 550.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 549، و550، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 760.

﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ عطفًا على جُملة: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، فيكونَ عُذرًا للَّذين لم يَعْفوا، ومِن ثَمَّ تكون الجُملةُ مُرتبطةً بغرَض انتصارِ المسلم على ظالمه مِن المسلمينَ؛ تَكملةً لجُملة: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ويَجوزُ أنَّه عطْفٌ على جُملة: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ وما بيْنَ ذلك اعتراضٌ، ومِنْ ثَمَّ تكون الجُملةُ مُرتبطةً بغرَضِ انتصارِ المؤمنينَ مِن بَغْيِ المشركينَ عليهم، وهو الانتصارُ بالدِّفاعِ، سَواءٌ كان دِفاعَ جَماعاتٍ، وهو الحربُ، فيَكونُ هذا تَمْهيدًا للإذنِ بالقِتالِ الَّذي شُرِع مِن بعْدُ، أم دِفاعَ الآحادِ؛ إن تَمكَّنوا منه؛ فقد صار المسلمونَ بمكَّةَ يَومئذٍ ذَوي قوَّةٍ يَستطيعونَ بها الدَّفْعَ عن أنفُسِهم آحادًا، كما قِيل في عزِّ الإسلام بإسلامِ عُمَرَ بنِ الخطّابِ[1]، وفي تعدُّد المعطوف عليه ثراءٌ للمعنى ما بعدَه ثراء.

معنى اللّام ودلالتُها في: ﴿وَلَمَنِ﴾:

تأكيدُ حقِّ المظلومين في الانتصارِ لأنفسهم دونَ زيادةٍ

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ لامُ الابتداء جيء بها للتَّأكيد، على اعتبار (مَن) اسم موصول بمعنى (الَّذي)، أو موطِّئةٌ لقَسَم محذوف، على اعتبار (مَن) شرطيَّة، وجوابُ القَسَم قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾[2]، وعلى المعنيين تُفيدُ تأكيدَ حقِّ المظلومين في الانتصارِ لأنفسهم ممَّن بغى عليهم، وظلمهم دونَ زيادةٍ.

معنى (مَن) ودلالتُها في: ﴿وَلَمَنِ﴾:

في الشَّرطيَّة أو الموصوليَّة عمومٌ لكلِّ مَنِ انتصرَ بعْدَ ظُلْمِهِ

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ إمّا شرطيَّةٌ لمجيء الجملة بعدَها مقترنة بالفاء[3]، أو موصولةٌ بمعنى (الذي) ضُمِّنَتْ معنى الشَّرط، والمعنى: وللَّذي انتصرَ بعد ظلمه[4]، والتَّعريف بها على الاحتمالين يفيدُ العمومَ لكلِّ مَنِ انتصرَ بعْدَ ظُلْمِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 118.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 345، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 118.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 44.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 345، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 337، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 118.

دلالةُ التَّعبير بـ: ﴿ٱنتَصَرَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّحرِّي في معاقبةِ الظّالم وردعِه نصرٌ للمظلومينَ وللمجتمعِ

سمّى البيانُ القرآنيُّ المعاقبةَ للظّالمِ انتصارًا، ولم يُسَمِّهِ عفوًا؛ لأنَّ معاقبةَ الظّالمِ والمتكبِّرِ والمُفسدِ الَّذي يخاف منه النّاسُ وردْعَهُ عن ظُلْمِه، وعن التَّوغُّلِ في البغي على أمثالِ المظلوم يُعدُّ نَصْرًا، وجاءتِ الصّيغةُ على وزنِ (افتعل)؛ لتدلَّ على شدَّةِ الطَّلبِ والمحاولة والتَّحرّي، والاجتهادِ في طلب الجزاءِ العادل، وهذا مبالغةٌ في الإقرار للمظلومِ بالانتصار لحقِّه.

سرُّ التَّقييد بالظَّرفيَّة ﴿بَعۡدَ﴾:

الانتصارُ مِن الظّالمِ يكون بعْدَ تحقُّقِ وقوعِ ظُلْمِهِ

أفادَ التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿بَعۡدَ﴾ في قوله: ﴿بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ التَّنْبيهَ على أنَّ هذا الانتصارَ لا يكون إلّا بَعدَ أن تحقَّقَ أنَّهم ظُلموا[1]، أي: لا بدَّ مِن إصابةِ البغي والظُّلم ووقوعِه، وأمّا إرادةُ البغي على الغيرِ، وإرادةُ ظُلْمِه مِن غير أن يقعَ منه شيءٌ، فهذا لا يُجازَى بمثلِه، وإنَّما يُؤَدَّبُ تأديبًا يَردعُهُ عن قولٍ أو فعلٍ صدرَ منه[2].

غرضُ الإضافةِ في: ﴿ظُلۡمِهِۦ﴾:

الانتصارُ حقٌّ للمظلوم

الهاءُ في قوله: ﴿ظُلۡمِهِۦ﴾ مضافةٌ إلى المصدر، والإضافةُ من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِه، أي: بعد كونه مظلومًا[3]، أو بعدَ ظلْمِ الظّالمِ إيّاه، وتؤيّد ذلك قراءة من قرأ: (مِنْ بعدِ ما ظُلِم) بالبناء للمجهول[4]، ولا يَصِحُّ أن يَكونَ مضافًا إلى فاعِلِه؛ لأنَّه لو كان كذلك؛ لكانَ المعنى: (ولِمَن انتصرَ بعدَ أن يَظلمَ النّاسَ)، والظّالمُ ليس معتدًى عليه، حتَّى ينتصرَ لنفْسِه[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 118.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 760.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 118.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 44، وهي قراءة شاذة.

(5) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 304.

معنى الفاء ودلالتُها في: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

الفاءُ بين توكيدِ المعنى وربطِ الشَّرط بالجزاء

الفاءُ في قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إمّا للتَّوكيد(1)؛ لِما للموصول من شِبْهِ الشَّرط(2)، إنْ كانت (مَنْ) موصولة، أو هي رابطةٌ لجواب الشَّرط إنْ كانت (مَنْ) شرطيَّة(3)؛ لتدلَّ على سببيَّة ما قبلها، وهو الانتصار للنَّفس ممَّن ظلمها - فيما بعدَها - وهو نفيُ العقاب عنهم والعتاب، مع ربط الشَّرط بالجزاء.

الغرضُ من التَّعبير باسم الإشارة (أولَئِكَ) في صدر الجملة:

اهتمامٌ بالمنتصرين لحقوقهم، وتنبيهٌ على عَدمِ مُؤاخَذتِهم

جيءَ باسمِ الإشارةِ (أولَئِكَ) في صَدْرِ جَوابِ الشَّرْطِ؛ لِتَمْييزِ الفريقِ المذكورِ في قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أَتَمَّ تَمْييزٍ، وللتَّنبيهِ على أنَّ سَبَبَ عدمِ مُؤاخَذتِهم هو أنَّهم انتَصَروا بعد أن ظُلِموا، ولم يَبدؤوا النّاسَ بالبَغْيِ، ومن كان كذلك؛ فلا سبيلَ عليه(4).

دلالةُ النَّفي بـ ﴿مَا﴾:

تأكيدُ نفْيِ مؤاخذةِ من أخذوا حَقَّهم دونَ زيادةٍ

آثرَ البيانُ الحكيمُ نفيَ مؤاخذةِ مَنِ انتصروا لأنفسهم ممَّن ظلمهم، وأخذوا حَقَّهم دونَ زيادةٍ بـ﴿مَا﴾ دون غيرها من أدواتِ النَّفي؛ تأكيدًا للنَّفي، وذلك لقوَّةِ النَّفي بها، فهي تقعُ جوابًا للقَسَم، وكثيرًا ما يقترنُ منفيُّها بـ﴿مِّن﴾ الاستغراقيَّة المُؤكِّدة، كما هو في هذه الآية، بخلاف بقيَّة الأدوات.

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِم﴾:

اهتمامٌ للآخذ بحقِّه، والقاصدِ لشفاء صدره، وذهابِ غيظِه

قدَّم البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾؛ اهتمامًا بالمؤمنين الَّذين انتصروا لأنفسهم ممَّن ظلمهم، وتأكيدًا على أنَّه ليس عليهم من جُناح، وهم يزاولون حقَّهم المشروعَ دونَ اعتداءٍ، ويقصدون شفاءَ صدرهم وذهابَ غيظهم.

(1) محمّد الهلال، التّفسير الثّريّ: 25/ 49.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 338.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 44، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 119.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 119.

توكيدُ رفعِ كلِّ حَرَجٍ وضِيقٍ عمّن لم يَعفُ، وانتصرَ على من ظَلَمَهُ

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾:

﴿مِّن﴾ الدّاخلةُ على نكرة في سياقِ نفي، حرفُ صلةٍ تُفيد التَّوكيد، والدَّلالة على العموم في استقصاءِ جنسِ السَّبيل مع توكيد النَّفي[1]، أي: أنّ الله سبحانه قد رفَعَ كلَّ حرَجٍ وضِيقٍ، ورفعَ أدنى شيء من الإثم على مَن لم يَعفُ، وانتصرَ على مَن ظَلَمَهُ بطريقٍ مُؤكَّد[2].

مبالغةٌ في تمكينِ المظلوم من الانتصارِ لحقّه

سرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿سَبِيلٍ﴾، وبلاغةُ المجاز فيه:

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ السَّبيل في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ دون لفظ مؤاخذة؛ لكونه أرادَ من لفظ السَّبيل المعنى المجازيَّ، والمجازُ أبلغُ؛ إذ أصْلُ السَّبيلِ الطَّريقُ الَّذي فيه سهولة، وجمعُه: سُبُلٌ[3]، والمرادُ بالسَّبيلِ هنا موجِبُ المُؤاخَذةِ باللّائمةِ[4]، وللإشارة إلى أنّه لا مؤاخذةَ مهما كانت قليلةً، ولو قيل: (ما عليهم مؤاخذة)؛ لانحصر المعنى في نفي العقاب، فالتَّعبير بالسَّبيل أشملُ، وهو: أنَّه لا طريقَ لأحدٍ أن يلومهم، أو يحاسبَهم، أو يطالبهم بأيِّ حقٍّ، حتّى لو بدا فعلُهم مشابهًا للجُرم ظاهريًّا، وهذا الشُّمولُ في المعنى يدلُّ على مراد الشّارع في تمكين المظلوم من الانتصار لحقِّه.

استئنافٌ يبيِّنُ المستحقّين للمُؤاخذة والعقاب

موقعُ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ ...﴾، ودلالتُه:

جاء قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ استئنافًا بَيانيًّا لِما قبله، فإنَّه لمّا جَرَى الكلامُ السّابقُ كلُّه على الإذنِ للَّذين بُغِيَ عليهم أن يَنتصِروا ممَّن بَغَوا عليهم، ثمَّ عُقِّبَ بأنَّ أولئك ما عليهم مِن سَبيلٍ؛ كان ذلك مَثارَ سُؤالِ سائلٍ عن الجانبِ الَّذي يَقَعُ عليه السَّبيلُ المنفيُّ عن هؤلاء[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 338.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 78.
(3) الرّاغب، المفردات: (سبل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 119.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 120.

الغرضُ من التَّعبير بأسلوب القَصْرِ بـ: ﴿إِنَّمَا﴾:

مبالغةٌ في تأكيدِ العُقوبة والإثمِ على الَّذين يَعتَدونَ على النّاس

القَصرُ المُفادُ بحَرْفِ ﴿إِنَّمَا﴾ تأكيدٌ لِمَضمونِ جُملة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾؛ لأنَّه كان يَكفِي لإفادةِ مَعنى القصْرِ أن يُقابَلَ نفي السَّبيل عن الَّذين انتَصَروا بعدَ ظُلْمِهم بإثباتِ أنَّ السَّبيلَ على الظّالمينَ؛ لأنَّ إثباتَ الشَّيءِ لِأحَدٍ ونَفْيَه عمَّن سِواه يُفيدُ معنى القصْرِ، وهو الأصلُ في إفادةِ القَصْرِ بطَريقِ المساواةِ أو الإطناب، فلمّا أُورِدَتْ أداةُ القَصْرِ هنا، وهي ﴿إِنَّمَا﴾؛ حصَلَ نفْيُ السَّبيلِ عن غيرِهم مرَّةً أُخرى بمُفادِ القَصْرِ، فتَأكَّدَ حُصولُه الأوَّلُ الَّذي حصَلَ بالنَّفيِ[1].

معنى اللّام ودلالتُها في لفظ: ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾:

إعادةُ لفظِ (سَبِيلٍ) مُعرَّفًا بلامِ التَّعريفِ يُفيدُ أنَّه عينُ ما ذُكِر

تعريفُ ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾ باللّام في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ للعهدِ، والعهدُ ذِكريٌّ؛ لِسَبْقِ ذِكْرِ السَّبيل منكَّرًا في الآية السّابقة، وهي: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾، ومِن ثَمَّ فإنَّ المرادَ بـ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾ في هذه الآية عَينُ المرادِ به في الآية السّابقة، بقَرينةِ أنَّه أُعيدَ مُعرَّفًا باللّامِ بعدَ أن ذُكِر مُنكَّرًا؛ فإنَّ إعادةَ اللَّفظِ النَّكرةِ مُعرَّفًا بلامِ التَّعريفِ، يُفيدُ أنَّ المرادَ به ما ذُكِر أوَّلًا، وهذا السَّبيلُ هو: الجزاءُ والتَّبِعةُ في الدُّنيا والآخِرة[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

تهكُّمٌ بمَن كانوا يتكبَّرون على النّاسِ بغيرِ حَقٍّ ويستعلونَ عليهم

عبَّر البيانُ الحكيمُ بحرفِ الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ﴾؛ للإشارة إلى تمكُّن العقوبةِ والإثم من الَّذين يَعتَدونَ على النّاسِ في دِمائِهم أو أموالِهم أو أعراضِهم، وفي الاستعلاء كذلك تَهكُّمٌ بمَن كانوا يتكبَّرون على النّاس بغيرِ حَقٍّ، ويستعلون عليهم، ومعاملتهم بالمثل باستعلاء العقوبة عليهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 120.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 120.

المؤاخذةُ تشملُ كلَّ ظالمٍ لا الرّاسخين في الظُّلم فقط

الغرضُ من التَّعبير بالموصول وصلتِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصولِ في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ﴾ دونَ الاسم الظّاهر، فلم يقل: (على الظّالمين)؛ للإيماءِ إلى وجهِ استحقاقهم هذا الوعيد، وهو ظلمهم للنّاس وبغيهم واستمرارهم على ذلك الظُّلم والبغي، ولقصدِ الإبهام الَّذي من أسراره التَّنبيهُ على التَّعميم، فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من ألفاظِ العموم؛ لتشملَ المؤاخذةُ كلَّ ظالم، لا الرّاسخين في الظُّلم فقط، فبِمَقدارِ ظُلم الظّالم يكونُ جَزاؤُه، ويَدخُلُ ابتداءً فيه الظّالمونَ المُتحدَّثُ عنهم، وهم مُشرِكو أهلِ مكَّةَ، والنّاسُ المتحدَّثُ عنهم، وهم المسلِمونَ يَومئذٍ[1]، كما أنَّ في التَّعبير باسم الموصول مجموعًا إعلامًا بكثرة المفسدين؛ تجرئةً على الانتصار منهم، فإنَّهم وإن كانوا كثيرًا؛ فإنَّ اللّهَ خاذلهم[2].

استمرارُ الكافرين على الظُّلم يُعلِّلُ اختصاصَهم بالعذابِ الأليم

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَظۡلِمُونَ﴾:

في مجيءِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ أمارةٌ على استمرارِ الكافرين على الظُّلم بكافَّة أشكاله وتكرارهم إيّاه، وهذا يُعلِّلُ استحقاقَهم للعذابِ الأليم، واختصاصهم بنوعِ هذا العذاب، وفيه إشارةٌ كذلك إلى أنَّ السَّبيلَ والمؤاخذة تكون على مَن يتكرَّر منهم الظُّلم، بحيثُ صار ظلمُهم دأبهم الَّذي لازمهم حتّى الممات، أمّا الَّذين ظلموا، ثمَّ تابوا، فسيدخلهم اللّهُ في رحمته.

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

اللّام في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ للعهد الذِّهنيِّ؛ لأنَّ الذِّهن ينصرفُ عند سماع لفظ النّاس معرَّفًا بـ (الـ) إلى مَن وقعَ عليهم ظلم هؤلاء، وليس كلَّ النّاس.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 120.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 338.

دلالةُ عطْفِ ﴿وَيَبۡغُونَ﴾ على ﴿يَظۡلِمُونَ﴾:

البَغيُ من أشدِّ أنواعِ الظُّلمِ

العطْفُ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن بابِ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذا اعتبرنا البغيَ نوعًا من أنواع الظُّلم، خصَّهُ بالذِّكرِ؛ تنبيهًا على شدَّته وسوءِ حالِ صاحبِه(1).

سرُّ التَّعبير بـ: ﴿وَيَبۡغُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

مجاوزةُ الكافرين الحَدَّ في فسادٍ شاملٍ ومتطوِّرٍ ومتجدِّدٍ

التَّعبيرُ بالبغي دونَ غيره؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ فسادهم وعلى ضلالهم وخيبتهم؛ لأنَّ البغيَ يدلُّ على التَّرقّي في الفساد والانتشار، من قولهم: بغى الجرحُ؛ إذا ترقّى، وترامى في الفساد(2)، وأمّا التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعةِ؛ فللدَّلالةِ على تجدُّدِ واستمرارِ هذا البغي الشّامل المنتشر المُترقّي في الفساد، بحيثُ صار بغيُهم دأبهم الَّذي لازمهم حتّى الممات، وللإشارةِ إلى أنَّ المؤاخذة تُكرَّرُ لتكرُّرِ البغي منهم.

سرُّ تقييد البغي بقوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾:

تأكيدٌ لمذمَّة البغي، واحترازٌ عن البغيِ بحقٍّ

قولُه: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿وَيَبۡغُونَ﴾، وهو لِكشفِ حالةِ البَغْيِ؛ إمّا لإفادةِ تأكيد مَذمَّتِه؛ إذ لا يكونُ البغيُ إلّا بغيرِ الحقِّ؛ فإنَّ مُسمَّى البغْيِ هو الاعتداءُ على الحقِّ، وأمّا الاعتداءُ على المُبطِلِ لأجْلِ باطلِه؛ فلا يُسمَّى بَغْيًا، ويُسمَّى اعتداءً، قال تعالَى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: 194](3)، أو لكونه احترازًا به عن البغيِ بحقٍّ، وهذا على اعتبارِ البغي هنا وفقَ أحد المعنيين اللُّغويّين، وهو طلبُ الشَّيء، فحينَئِذٍ ينقسمُ إلى طلبِ بحقٍّ، وطلبٍ بغير حقٍّ، وعبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾ معرَّفًا بـ (الـ)، ولم يقل: (بغير حقٍّ)؛ للدَّلالة على الحقِّ الكامل الَّذي لا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 345.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/ 174.
(3) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 255، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 121.

باطلَ فيه بوجهٍ؛ لأنَّ الفعلَ قد يكون بغيًا وإنْ كان مصحوبًا بحقٍّ، كالانتصار المقترن بالتَّعدّي فيه[1].

دلالةُ التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

التَّعبيرُ بالظَّرفيَّة إيذانٌ بتغلغلِ وانتشارِ بغي الظّالمين

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بحرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ دون (على)؛ للدَّلالة على تغلغلِ بغي الظّالمين في الأرض وانتشاره وتمكُّنه فيها.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، ومعنى اللّام فيها:

النّاسُ مستخلَفون في الأرضِ، مكلَّفون بإعمارهما لا البغيِ فيها

قيَّدَ البيانُ القرآنيُّ البغيَ بلفظِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ دون الدُّنيا؛ لأنَّ النّاسَ مُستخلَفون في الأرض، ومكلَّفون بإعمارهما لا البغي فيها، "بما يفسدها بعد إصلاحها بتهيئتها للصَّلاح طبعًا وفعلًا وعلمًا وعملًا"[2]، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: 30]، وبهذا تظهر بشاعةُ نقْضِهم للأمانة، وهذا المعنى لم يكن ليظهر؛ لو عبَّر بالدُّنيا، وخاصَّةً أنَّ السّياقَ يتحدَّث عمّا تُعْمَر به الأرضُ من طاعةِ اللّه والاستجابةِ لأوامره فيما يتعلَّق بحقوق اللّه وحقوق العباد، ولام التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ إمّا عهديَّة، والمقصود: أرضُ مَكَّةَ، أو جنسيَّة استغراقيَّة، تشملُ جميع الكُرَةِ الأرضيَّةِ، وهو الأليقُ بِعُمومِ الآيةِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾ [البَقَرَة: 205]، وقال: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعْراف: 85]، فكلُّ فَسادٍ وظُلْمٍ يَقَعُ في جُزْءٍ مِنَ الأرضِ؛ فهوَ بَغْيٌ يستحقُّ العقاب[3].

سرُّ فصلِ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾:

فصَلَ البيانُ الحكيمُ قولَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ عمّا قبلَهُ؛ إمّا لِما بينهما من كمال اتِّصال بكون جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 339.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 338.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 121.

بيانُ ماهيَّةِ السَّبيلِ الَّذي أثبته اللهُ على الظّالمين الباغين في الأرض

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ بَيانًا لجُملةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ﴾؛ إنْ أُريدَ بـ(السَّبيلِ) في قولِه: ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ سَبيلُ العِقابِ في الآخرةِ، أو بدَلُ اشتمالٍ منها؛ إن أُريدَ بالسَّبيلِ هنالك ما يَشمَلُ المَلامَ في الدُّنيا، أي: السَّبيلُ الَّذي عليهم هو أنَّ لهم عَذابًا أليمًا جَزاءَ ظُلمِهم وبَغْيِهم[1]، أو أنَّ جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جاءتِ استئنافًا بيانيًّا؛ لِما بين الجملتين من شِبهِ كمالِ اتِّصال، فكأنَّه لَمّا أثبتَ عليهم بهذا الكلام السَّبيلَ؛ كان السّامع جديرًا بأن يسأل عنه، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

الغرضُ من التَّعبير باسْم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الموصوفونَ بالظُّلمِ والبغي أحرياءُ بالعذابِ الأليم وبغضاءُ وبُعداء من الله

بعد التَّعريف بالموصوليَّة للظّالمين والبغاة، يأتي تعريفُهم باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بما يُذكَرُ بعْدَ اسم الإشارةِ؛ لأجْلِ ما ذُكِر قبلَه، من الظُّلمِ والبغيِ بغيرِ الحقِّ، مع تَمْييزِهم أكمَلَ تَمْييزٍ بهذا الوعيدِ[3]، وفي الإشارةِ إليهم بما يُشار به للجمع البعيد ذَمٌّ لصنيعهم، وإبعادٌ لهم عن رحمةِ اللّه، فهُم البغضاءُ البُعداء من اللّه[4].

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾:

اختصاصُ الكافرين بالعذابِ الأليم واستحقاقُهم له

قدَّم البيانُ القرآنيُّ متعلِّقَ الخبر ﴿لَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختصاص، وهو قَصْرُ صفةٍ على موصوفٍ قَصْرًا ادِّعائيًّا، أي: اختصاص هؤلاء الكافرين بالعذابِ الأليم واستحقاقهم له، فلا يراهُ غيرُهُم من أهلِ المعاصي؛ لظلمهمُ النّاسَ وبغيهم في الأرض، وفي هذا إيماءٌ بشِدَّةِ ألمه، فضلًا عمّا تحمله الجملةُ الاسميَّةُ من دلالةٍ على ثباتِ العذابِ ودوامِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 121.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 339.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 121.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 339.

سرُّ وصْفِ العذابِ بالأليم في: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

عذابٌ يُؤْلِمُ من وقَعَ عليه، فقد بلَغَ الغايةَ في الإيلام

وصَفَ البيانُ الإلهيُّ العذابَ بصيغةِ المبالغة ﴿أَلِيمٌ﴾، وهي بمعنى اسم الفاعل، أي: عذابٌ مؤلِمٌ موجِعٌ للقلوبِ والأبدانِ، يُؤَلِمُ من يقع عليهم، بما آلَموا من ظلموه من عباد اللّه، أو بمعنى اسم المفعول، أي: عذابٌ مؤلِمٌ بما يدلُّ على بلوغ العذاب الغايةَ في الإيلام.

الغرضُ من التَّنكير في: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

عذابٌ أليمٌ لا يُقْدَر قَدْرُه في الشِّدَّةِ والإيلامِ

تنكيرُ لفظَي العذابِ والأليم في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تهويلٌ له، فهو لا يَقدِرُ قدرَهُ وقدرَ ألمِه، ولا يَعلمُ كُنْهَهُ إلّا اللّه، بما يدلُّ على كمالِ فظاعةِ حالِهم ما لا يَخْفى؛ بسببِ أوصافِهم القبيحةِ من الظُّلمِ والبغيِ بغيرِ الحقِّ، وردعٌ لهم عنها، وفي هذا من التَّهديد والإنذار ما فيه.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشّورى: 43]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تأكيدٌ بمدحِ الصّابرِ عنِ الانتصار

لَمّا أفهمَ سياقُ الكلامِ السّابق وترتيبُه أنَّ مَن صَبَرَ عنِ الانتصار أحسنُ حالًا ممَّن انتصرَ؛ لأنَّ الخطأ في العفو أولى من الخطأ في الانتقام، أكَّده بمدح الصّابر؛ لأنَّ السّياق أفهمَ أيضًا مدحَ المُنْتَصِر، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾، أي: عنِ الانتصار من غير انتقام ولا شكوى[1]، كما أنَّه لَمّا بيَّن أنَّه ليس على المنتصر بعد ظلمه من جُناحٍ، وهو يزاول حقَّه المشروعَ؛ عاد إلى التَّوازن والاعتدال وضبط النَّفس والصَّبر والسَّماحة في الحالات الفرديَّة، وعند المقدرة على الدَّفع، وحين يكون الصَّبرُ والسَّماحة استعلاءً لا ذُلًّا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَزۡمِ﴾: العزْمُ والعَزيمةُ: عَقْدُ القلبِ على إمضاء الأمر[2]، ويُقال: عَزَمتُ على الأمر: عقَدْتُ النِّيَّةَ على إمضائِه[3]، ومعنى ﴿عَزۡمِ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أي: "عَقْدُ النِّيَّةِ على العَمَلِ والثَّباتُ على ذَلِكَ"[4].

2) ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾: جَمعُ أمرٍ[5]، وله معانٍ عدَّة، ومنه: الأمرُ نقيضُ النَّهي، والأمرُ واحدٌ من أمور النّاسِ، فأمّا الواحدُ مِنَ الأمور؛ فقولهم: هذا أمرٌ رضيتُه، وأمرٌ لا أرضاه، وفي المثل: أمرٌ ما أتى بك، والأمرُ: لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها[6]، والمراد بالأمورِ هنا: الخِلالُ والصِّفاتُ[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 339.
(2) الرّاغب، المفردات: (عزم).
(3) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (عَزَمَ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 122.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أمر).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أمر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 122.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

أهلُ الصَّبر والغفران هم أهلُ العزائمِ

ختمَ سبحانه الصِّفاتِ الكريمةَ للمؤمنين، بأنَّ مَن صبرَ على ما يَنالُه من أذى النّاسِ، وسترَ ذَنْبَهم، وتَغاضَى عن إساءتِهم، وتسامَحَ، فلم يَنتَصِرْ لِنَفسِه، وهو على الانتصار ممَّن ظلَمَهُ قادرٌ؛ ابتغاءَ وجهِ اللّه وجزيلِ ثوابه؛ فإنَّ صَبْرَه وغُفرانَه هذا مِنَ الأُمورِ المَشكورةِ الحَميدةِ الَّتي حَثَّ اللّه عليها، وأكَّدَها، وعَزَمَ على عِبادِه العمَلَ بها، وجَعَلَ عليها ثوابًا جَزيلًا وثَناءً جميلًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاعتراضِ بهذه الآية بين السّابق واللّاحق:

في الاعتراض بيانُ مَزيَّةِ المؤمنينَ الَّذين تَحمَّلوا الأذى، وصبَروا عليه

جاءَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ اعتراضًا بين جُملةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ وجُملةِ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾؛ لبَيانِ مَزيَّةِ المؤمنينَ الَّذين تَحمَّلوا الأذى من المشركِينَ، وصبَروا عليه، ولم يُؤاخِذوا به مَن آمَنَ ممَّن آذَوْهم، وبيانِ مَزيَّةِ المؤمنينَ الَّذين يَصبِرونَ على ظُلمِ إخوانِهم، ويَغفِرونَ لهم، فلا يَنتصِفونَ منهم، ولا يَستَعدونَ عليهم[2].

دلالةُ الواو في: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾:

عطفٌ يُصوِّرُ التَّوازنَ بين صيانة النَّفس من الحقد ومن الضَّعف والذُّلِّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جُملةُ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[3]، وهذا العطفُ يصوِّرُ الاعتدالَ والتَّوازن بين الاتِّجاهين، ويحرص على صيانة النَّفس من الحقد والغيظ، ومن الضَّعف والذُّلِّ، ومن الجور والبغي، وتعلُّقها باللّه ورضاه في كلِّ حال، وتجعل الصَّبرَ زادَ الرِّحلة الأصيلَ، كما أنَّ كِلا الأمرين العفو والانتصار مِن مَحاسِنِ الشَّريعةِ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 551، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 760.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 122.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 122.

الحنيفيَّةِ، وتَوَسُّطِها بين الاقتصاصِ البَتَّةَ، والعَفْوِ كُلِّيًّا؛ لأنَّ العقلَ السَّليم يرى فِيهما إفْراطًا وتَفْرِيطًا[1].

معنى اللّام ودلالتُها في: ﴿وَلَمَن﴾:

توكيدٌ بلام الابتداء أو بالمَوَطِّئَةَ للقَسَم لمضمون الخبر

اللّامُ في ﴿وَلَمَن﴾ يَجوزُ أن تَكونَ لامَ ابتداءٍ، و(مَن) مَوصولَةً مُبتَدَأً، والجُملَةُ المُؤَكَّدَةُ بـ﴿إِنَّ﴾ في مَوضِعِ الخَبَرِ، ويَجوزُ أن تَكونَ اللّامَ المَوَطِّئَةَ للقَسَمَ المَحذوفَ، و(مَن) شَرطيَّةٌ، وجَوابُ القَسَمِ قولُهُ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، وجَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ؛ لِدَلالَةِ جَوابِ القَسَمِ عَليهِ[2]، وفي المعنيين توكيدٌ على كونِ صبرِ الصّابر وعفوه مِن أمورِ العَزم، أو على كون الصّابر والغافر من ذوي العَزمِ؛ لأنّه تَحمَّلَ، وسَتَرَ، وتحمَّلَ، فَصبَرَ، وعفا، فَغَفَرَ.

سرُّ التَّعبير بالاسم الموصول (مَنْ) دون (الّذي):

استحقاقُ وصفِ العَزْمِ لكلِّ من صبر وغفر

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ موصولةٌ بمعنى (الَّذي)، والمعنى: وللَّذي صَبَرَ، وغفَرَ، إنَّ ذلك من عزم الأُمورِ[3]، وفائدة التَّعبير بـ(مَنْ)؛ لإفادة هَذَين الاحتمالين؛ اللَّذَين يَدلّان على العموم، فكلُّ مَن صبر، وغفر، فإنَّ صبْرَهُ ومغفرته من الأمور العظيمة، وتزيدُ الموصوليَّةُ في الدَّلالةِ على بيانِ علَّةِ استحقاقِ وصْفِ العزم للصَّبر والمغفرة، أو للصّابر والغافر.

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿صَبَرَ وَغَفَرَ﴾:

تحقُّقُ فعلِ الصَّبرِ والمغفرة شرطٌ للاتِّصاف بالفعل المحمود المشكور

التَّعبيرُ عن فعلِ الصَّبرِ والمغفرةِ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ فعْلِ الصَّبرِ والمغفرة، وللاتِّصاف بالفعلِ المحمودِ المشكورِ، ونيلِ مراتبِ أهل العزم.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 373.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 345.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 345، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 122.

الغرضُ من حذف متعلّق ﴿صَبَرَ﴾:

في عموم صبر الصّابر دلالةٌ على استحقاقه مرتبةَ أولي العزم

حذفَ البيانُ القرآنيُّ متعلّقَ ﴿صَبَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾؛ اختصارًا؛ لكونه مفهومًا من السّياق، ولإفادةِ العموم؛ إذ لو ذكرَ أحدَ أفراده؛ لاقتصرَ عليه، فهو صبرٌ على الظُّلم والأذى والإساءة[1]، وهو صبرٌ عن الانتِصارِ من غَيرِ انتقامٍ ولا شكوى[2]، وفي عموم صبرِ الصّابر دلالةٌ على كون هذا الصَّبر من خلالِ العزم، أو استحقاقِ الصّابر مرتبةَ أولي العَزم.

دلالةُ عطْفِ المغفرةِ على الصّبر في: ﴿صَبَرَ وَغَفَرَ﴾:

جمعٌ بين فضيلتَين الصَّبر على الإساءة وغفران الإساءة

عطْفُ المغفرةِ على الصَّبرِ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾؛ للجمع بين فضيلتَين هما الصَّبر على الإساءة، ثمَّ غُفران الإساءة، فمن النّاس من يَصبِر على من أساء إليه، لكنَّه لا يغفر له إساءته[3]، فالصَّبرُ يجتمع مع الانتصار ولو بعد حين، والغَفْرُ أخصُّ منه، ولو اكتفى به، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾؛ لكفى، لكن نبَّه به على أنَّ الصَّبر ممّا يتنافسُ فيه المتنافسون، فليَرتَقِبِ المرتقبون[4].

غرضُ تقديم الصّبر على المغفرة:

العفوُ المحمودُ ما نشأ عن التَّحمُّل لا العجز

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ الصَّبْرَ على المغفرةِ في قوله تعالى: ﴿صَبَرَ وَغَفَرَ﴾؛ اهتمامًا بالصَّبر، وأنَّه مِن شَأنِ أولي العَزم، ولأنَّ العفو يحتاجُ إلى صبرٍ وقوَّة تحمُّل، وللإشارةِ إلى أنَّ الإصلاحَ بالعَفْوِ والإغضاءِ إنَّما يُحْمَدُ؛ إذا كانَ عَن قُدْرَةٍ لا عَن عَجْزٍ، فإنَّه رغمَ قدرته على الانتقام صبر عنه، وعفا عمَّن أساء إليه[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 230.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 339.
(3) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 22/ 13808.
(4) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 256.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 48، ويرى الشّهاب الخفاجيّ، أنّ مضمون الآية تكرار لمضمون آية العفو قبلها، وأنَّ الصّبر هو الإصلاح، وأنّه قُدّم هنا وعُبّر عنه بالصّبر، الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 425.

دلالةُ توالي المؤكِّدات في: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾:

مبالغةٌ في التّأكيد على أهمّيّة الصَّبر والعفو، وأنَّ أهلَهما هم أهلُ العزائمِ

اشتمَلَ هذا الخبَرُ وهو قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ على أربعةِ مُؤكِّداتٍ، هي: اللّامُ، و﴿إِنَّ﴾، ولامُ الابتِداءِ، والوَصْفُ بالمصدرِ في قوله: ﴿عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ تَنْويهًا بمَضمونِه، وزِيدَ؛ تَنويهًا باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، فصار فيه خَمسةُ اهتماماتٍ[1].

مَرجعُ الإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾، ولطيفة البُعْد فيها:

إبرازٌ لوَصْفَي الصَّبر والمغفرة، وبيانُ علوِّ شأنِهما وشأنِ أصحابِهما

الإشارَةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ إلى ما يُفْهَمُ مِن مَصْدَرِ ﴿صَبَرَ وَغَفَرَ﴾، والعائِدُ عَلى المَوْصولِ المُبْتَدَأِ مِنَ الخَبَرِ مَحْذوفٌ؛ لِدَلالَةِ المَعْنى عَليه، أي: (إنَّ ذَلِكَ مِنهُ)، وأمّا إن كانَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارَةً إلى المُبْتَدَأِ، وهو الاسم الموصول في ﴿وَلَمَن﴾؛ كانَ هو الرّابِطُ، ولا يَحْتاجُ إلى تَقْديرِ مِنهُ، وكانَ الحذف في ﴿عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، أي: إنَّهُ لَمِن ذَوِي عَزْمِ الأُمورِ[2]، وفي الإشارةِ إبرازٌ لهَذَين الوصفين في صورةِ الشَّيء المحسوس الَّذي يُشار إليه؛ حثًّا على الصَّفح والعفو، وفي إيثار اسم الإشارة المتضمِّن مَعنى البُعدِ إيذانٌ ببُعدِ رُتبةِ فعلِ الصَّبر والمغفرة، فهو فعلٌ بالغٌ في العُلوِّ جِدًّا[3]، أو بُعدِ رتبةِ الصّابر الغافر من ذوي العزم.

معنى حرف الجرِّ (مِنْ) ودلالتُه:

الصَّبرُ والمغفرة بعضٌ من عَزَماتِ الله تعالى

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ تبعيضيَّة، والمعنى: إنَّ هَذَين الوَصفَين - وهما الصَّبر والمغفرة - بعضٌ من الصِّفات والخلال الحميدة، الَّتي حَثَّ اللّه عليها، وأكَّدها، وعَزَمَ على عِبادِه العمَلَ بها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 122.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 345.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 340.

سِرُّ اختيارِ التَّعبير بلفظ: ﴿عَزۡمِ﴾:

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ العزمِ دون غيره، لما في العزم من مزيد قوَّةٍ وثباتٍ، ونفاذٍ وجِدٍّ وصبرٍ[1]، وهذا هو الأنسبُ لسياق الأمر بالصَّبر على مَكروهٍ حدَثَ بظُلم، والعفو عن صاحبه؛ طلبًا لرضاءِ اللّٰه والأجر الَّذي ضَمِنَه سبحانه ممَّا هو خيرٌ وأبقى، فهذا أمرٌ يحتاج إلى قوَّةٍ وثباتٍ، وصبرٍ وإقدام بعد رَويَّةٍ وفِكْرةٍ من أهلِ الإيمان.

في العزمِ مزيدُ قوَّةٍ وثباتٍ ونفاذٍ وجِدٍّ وصبرٍ وإقدامٍ بعد رويَّةٍ وتفكُّرٍ

الغرضُ من إضافة ﴿عَزۡمِ﴾ إلى ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾:

المُراد بلفظ ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ الخِلالُ والصِّفات، وإضافةُ ﴿عَزۡمِ﴾ إلى ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ من إضافة الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: إنَّ الصَّبرَ والمغفرة مِن الأُمورِ العَزْم، الَّتي يجب أن يَعزِمَ عليها كلُّ أحدٍ؛ لما فيه من كمال المزيَّة، وهذا الوَصفُ بالعَزْمِ مُشعِرٌ بمدْحِ الموصوفِ، أي: مدح هذه الصِّفات؛ لأنَّ شأنَ الفضائلِ أن يكونَ عملُها عَسيرًا على النُّفوسِ؛ لأنَّها تُعاكِسُ الشَّهواتِ، ومِن ثَمَّ وُصِفَ أفضَلُ الرُّسلِ بـ(أولي العزمِ)[2].

في الإضافة بيانٌ بأنَّ الصَّبرَ والمغفرة عَزْمَةٌ من عَزَماتِ الله

سِرُّ وصفِ الجمع ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ بالمفرد ﴿عَزۡمِ﴾:

معنى قوله تعالى: ﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾: لمن الأمور العزْم، و﴿عَزۡمِ﴾ مفردٌ، و﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ جمع، وقد وصَف البيانُ القرآنيُّ ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾، وهي جمع بمفرد؛ لأنَّ أصلَ ﴿عَزۡمِ﴾ أنَّه مصدرٌ، فيلزَمُ لفظه حالةً واحدةً، وهو هنا مصدرٌ بمعنى اسم الفاعل، أي: الأمور العامَّة العازمُ أصحابُها، ولذا فإنَّ وصْفَ الأمورِ بـ(العزم) من الوصفِ بالمصدرِ؛ للمُبالَغةِ في تَحقُّقِ المعنى فيها وثباته، فالعزمُ عَقْدُ النِّيَّة على العمَل، والثَّباتُ على ذلك وعدمُ التَّردُّد بعد تبيُّن السَّداد[3]، و﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ -

وصفُ الجمع بالمصدر مبالغةٌ في تحقُّقِ المعنى فيها وثباتِه

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حزم).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 122.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 123.

الَّتي لها من الأهليَّة؛ لأن يُعزَم عليها - قد صارت في أنفسها كأنَّها ذوات العزم، أو متأهِّلَة لأن تعزِم على ما تُريد(1).

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

الصَّبرُ في الموضعِ الَّذي أُبيحَ فيه الانتصارُ من ظالمٍ باغٍ أشدُّ والعزمُ عليه أوكدُ

أكَّدَ البيانُ الحكيم الخبرَ باللّام في سورةِ الشّورى في قولِه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، وتركَه في سورةِ لُقمانَ في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: 17]؛ لأنَّ الصَّبرَ على مَكروهٍ حدَثَ بظُلمٍ وبغيٍ وجنايةِ جانٍ - كقتْلِ ولَدٍ، وهو ما دلَّ عليه السّياق في الشّورى - أشَدُّ مِن الصَّبرِ على مَكروهٍ حدَثَ بلا ظُلمٍ، كمَوتِ ولَدٍ، وعلى شدائدَ لا يهيِّج النُّفوسَ الانتصارُ فيها، ولا تدعو دواعٍ إلى الانتقام لها - وهو ما دلَّ عليه السّياق في لقمان - وكذلك العزْمُ على الأوَّلِ أوكَدُ منه على الثّاني(2)؛ لأنَّ هناك فرقًا بين الصَّبر على مصيبة لك فيها غريمٌ، والصَّبرُ على مصيبة ليس لك فيها غريم(3)، كما أنَّ الموضع الَّذي أُبيحَ فيه الانتصافُ، فالصَّبرُ فيه أشَقُّ، وكَظْمُ الغَيظِ معه أشَدُّ، والكلامُ فيه إلى التَّوكيدِ أحوَج(4).

أمرٌ آخر، وهو أنَّه في سورة الشّورى جمعَ بين الصَّبر والغفران، بخلافِ سورة لقمان الَّذي ذُكِر فيها الصَّبر فقط، يعني: أنَّنا في سورة الشّورى أمام مرحلتَين: الصَّبر على الإساءة، ثمَّ غفران الإساءة، فكثيرٌ من النّاس يصبرُ على مَن أساء له، ولكنَّه لا يغفر له إساءَته؛ لأنَّ مرحلة الغُفران تحتاجُ إلى قوَّة إيمان، وقوَّة عزيمة تُطْفِئُ نارَ الحِقد والثَّأر والانتقام، وقوَّةٍ أُخرى تستمدُّ منها طاقةً

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 340.
(2) الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 224، وزكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 509، و510.
(3) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 22/ 13807.
(4) الإسكافيّ، درّة التّنزيل وغُرّة التّأويل: 2/ 1158، و1160، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 419، و420.

للمغفرة، وهذه لا تكون إلّا للمؤمن الواثقِ بأنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، وأنَّه سينال بالعفو ما لم ينلْهُ بالانتقام[1]، وإضافةً لِما سبق فإنَّ الصَّبر على المصيبة الَّتي فيها غريمٌ، مظنَّةُ عدمِ الوقوع، ولذا صَدَّر الكلام في آية الشّورى باللّام المُؤكِّدة[2].

(1) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 22/ 13808.
(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 255.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾ [الشّورى: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تحذيرٌ للظّالمين الضّالّين بعد تذكيرهم

بعدَ أنْ حَكى اللّه تعالى أصنافًا مِن كُفرِ المشرِكينَ وعِنادِهم وتَكذيبِهم، ثمَّ ذكَّرَهم بالآياتِ الدّالَّةِ على انفرادِ اللّهِ تعالى بالإلهيَّةِ وما في مَطاوِيها مِن النِّعَم، وحذَّرَهم مِن الغُرورِ بمَتاعِ الدُّنيا الزائلِ؛ أعقبَه بقولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾[1].

وأيضًا: بعد أن بيَّن تعالى للمؤمنين في الآيات السّابقة المنهجَ القويم الَّذي يجبُ أن يُتَّبع في الحياة الدُّنيا، وصفةَ المؤمنين الَّذين يَدَّخِرُ اللّهُ لهم عنده ما هو خيرٌ وأبقى؛ يعرِضُ هنا صورةَ من خرجَ عن هذا المنهج، فهو ضالٌّ أضلَّه اللّهُ عن سبيل الهداية والعدل، وما ينتظره من ذُلٍّ وخسران[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُضۡلِلِ﴾: الضَّلالُ: العُدولُ عَن الطَّريقِ المُستَقيم، ويُستعمَلُ ممَّن يكونُ منه خطأٌ ما، ولذلك نُسِبَ الضَّلالُ إلى الأنبياء بمعنى الخطأ[3]، ومعنى ﴿يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾، أي: خذلَه اللّهُ عن الرَّشادِ، أو حِرْمانُهُ من تَدارُكِه إيّاهُ بالتَّوْفيق[4].

2) ﴿مَرَدّٖ﴾: الرَّدُّ: صَرفُ الشَّيءِ ورَجْعُه، وردَّ عليهِ الشَّيءَ؛ إذا لم يَقبَلْهُ، واستَرَدَّ الشَّيءَ وارتَدَّه: طَلَبَ رَدَّهُ عَليهِ[5]، وقيل: ردَّ يَتَعَدَّى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 123.
(2) صلاح سليمان، من أسرار التّعريف والتّنكير في سورة الشّورى، ص: 298.
(3) الرّاغب، المفردات: (ضلل).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 551، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 123.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ردد).

إلى المفعولِ الثّاني بإلى عِند إرادةِ الإكرام، وبِعَلى للإهانة[1]، والمَرَدُّ: مَصدَرٌ ميميٌّ لِلرَّدِّ، والمُرادُ بِالرَّدِّ: الرُّجوعُ، ويجوزُ أن يَكونَ ﴿مَرَدِّ﴾ بِمَعنَى الدَّفعِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يسلّي اللّهُ رسولَه ﷺ حتّى لا يستبدَّ به الأسى من فَرْطِ عنادِ قومه، فيُقرِّرُ سبحانه أنَّه المنفردُ بالهدايةِ والإضلالِ، فيقولُ: ومَن يُضلِلْه اللّهُ عن طَريقِ الحَقِّ بسَبَبِ ظُلمِه؛ فليس له أيُّ وليٍّ يَتولّاه، فيهديه، أو ينصره بعد إضلال اللّهِ إيّاه، ثمَّ سَلّى اللّهُ نبيَّه بالإشارة إلى ندم الضّالين حين يرون العذابَ يوم القيامة، فيقول: وترى الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم - يا مُحمَّدُ - يقولونَ حينَ رُؤيةِ العَذابِ يومَ القيامةِ: هل لنا طريقٌ أو وسيلةٌ للرُّجوعِ إلى الدُّنيا؛ لِنَعمَلَ بطاعةِ اللّهِ؟ وجاء ذلك جَزَعًا ممّا هم فيه.

تسليةُ النَّبيِّ بتصويرِ هولِ الموقفِ على الظّالمين في اليومِ الآخرِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ عاطفة، والمعطوفُ عليه قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾[3]، فكلتا الجملتين عن حالِ الظّالمين، وما ينتظرهم في الآخرة من العذاب الأليم والخذلان.

بيانُ حالِ الظّالمين، وما ينتظرهم في الآخرةِ من العذابِ الأليمِ والخذلانِ

معنى (مَنْ) ودلالتُها في: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾:

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾، تحتملُ أن تكون شرطيَّةً، والفاءُ رابطةٌ لجوابِ الشَّرط، والشَّرطيَّةُ تُفيدُ اقترانَ نفيِ النّاصر للضّالين الظّالمين بخذلان

ذمٌّ وتهديدٌ لكلِّ من يَحكمُ اللهُ بخذلانه

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ردد).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 123.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 123.

اللّه تعالى إيّاهُ، مع إفادة العموم، وهذا يعني: أنَّ أيَّ أحدٍ يُقدِّرُ اللّهُ تعالى عليه أن يَضِلَّ، فإنَّه لا يُمكِنُ أن يتولّاه أحدٌ بعدَ اللّه، ومعنى هذا: أنَّه لا يُمكِنُ أن يَهدِيَه أحدٌ، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ [الجاثية: 23][1]، أو أن تكون (مَنْ) موصوليَّة، وجاءتِ الفاءُ لِما تضمَّنته الجملةُ من معنى الشَّرط، والمعنى: والَّذي يُضَلِلهُ اللّهُ، فما له من وليٍّ من بعده، والتَّعريفُ بالموصوليَّة هنا للإشارةِ إلى وجهِ بناء الخبر، فجملة الصِّلة ﴿يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ تُنبِئُ بأنَّ الخبر الَّذي سيأتي بعدَها، سيكون ذمًّا وتهديدًا، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ﴾[2]، وأيضًا أفادتِ العمومَ والإبهام؛ ليشملَ كلَّ ظالمٍ باغٍ، وأنَّه ضالٌّ مخذول.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿يُضۡلِلِ﴾ مادَّةً وصيغةً:

من سننِ الله أنَّه لا يزيغُ عن شرعِ اللهِ الواضحِ أحدٌ إلّا بطردٍ عظيم

آثرَ القرآنُ الكريم استعمالَ لفظِ الضَّلال في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ﴾؛ لبيانِ أنَّ ما شرعه من الطَّريق في غايةِ الوضوح لا يزيغُ عنه أحدٌ إلّا بطردٍ عظيم[3]، كما أنَّ التَّعبير بلفظ ﴿يُضۡلِلِ﴾ دون (يضلُّ)، يدلُّ على أنَّ إضلالَ اللّه للظّالمين والباغين في الأرض بعدم البيان أو بعدم التَّوفيقِ هو إضلالٌ واضحٌ؛ لأنَّهم لم يريدوا الهدايةَ، واتَّبعوا الشَّيطانَ[4]، وفي إيثار المضارعة على الماضي، فلم يقل: (أضلّ)؛ ليَعُمَّ الحُكمُ كلَّ الأوقات، ولدَفعِ التَّوهُّم أنَّ هذه السُّنَّةَ الإلَهيَّةَ خاصَّةٌ بالماضي.

الغرضُ من إسناد الإضلال إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

تهويلٌ لشأنِ خذلانِ اللهِ للظّالمين الباغين وتفظيعه

في إضافة الإضلالِ إلى اللّه - الجامعِ لصفات الجلال والكمال - عن طريق الفاعليَّة في قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ تهويلٌ لشأنِ هذا

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 313.
(2) صلاح حبيب سليمان، من أسرار التّعريف والتّنكير في سورة الشّورى، ص: 298.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 341.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 341.

الإضلالِ وتفظيعه؛ لِما في الاسم الجليل من تربيةِ المهابة في النُّفوس والتَّخويف، وجاء ذلك مبالغةً في التَّحذير منه بالامتناع عن أسبابه.

بلاغةُ التَّعبير بالكنايةِ في: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ﴾:

نَـفْـيُ الــوليِّ يَستلزِمُ أنَّ مَوْلاه في عَناءٍ وعَذابٍ

نفْيُ الوليِّ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ كِنايةٌ عن نَفي أسبابِ النَّجاةِ عن الضَّلالةِ وعَواقبِ العُقوبةِ عليها؛ لأنَّ الوليَّ مِن خَصائصِه نفْعُ مَولاهُ بالإرشادِ والانتشالِ والنُّصرة، فنَفْيُ الوليِّ يدُلُّ بالالتزام على احتياجِ إلى نَفْعِه مَولاه، وذلك يَستلزِمُ أنَّ مولاه في عَناءٍ وعَذابٍ، فهذه كِنايةٌ تلويحيَّةٌ، وقد جاء صريحُ هذا المعنى في قولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٢٣﴾ [الزّمر: 23]، وقولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ٤٦﴾ [الشّورى: 46][1]، وفي هذا تَحقيرٌ لأمْرِ الكفَرة[2].

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿مِن وَلِيّٖ﴾:

تحذيرٌ من حال مَن حقَّتْ عليه كلمةُ الله أن يكون من أهلِ الضَّلال

﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ﴾ خبرٌ مقدَّم، و﴿وَلِيّٖ﴾ مجرورٌ لفظًا مرفوعٌ محلًّا على أنَّه مبتدأٌ مؤخَّر[3]، وفي تقديم الخبر إفادةُ الاختصاص، أي: ليس لمن يُضِلُّه اللّهُ أيُّ وليٍّ في ذلك الوقت، وهو يومُ القيامة[4]، كما أنَّ التَّقديمَ يُعطي انطباعًا بالتَّحذير من حال هذا الشَّخص الَّذي لا يوجَد من يُسانده.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في جرّ ﴿وَلِيّٖ﴾ منكّرًا:

تأكيدُ استغراقِ نَـفْـيِ الــوليِّ لِمَن حَكَمَ اللهُ بخذلانه

أفادَ دخولُ ﴿مِن﴾ على اللَّفظ المُنَكَّر ﴿وَلِيّٖ﴾ في سياقِ النَّفي تأكيدَ استغراقِ النَّفي وشمولِه كلَّ أفرادِ المنفي - وهم الأولياء - أي: ليس له أيُّ وليٍّ يَتولّاه، فيهديه، أو ينصره بعد إضلال الله إيّاه عن طريقِ الحقِّ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 123.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 346.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 47.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 341.

معنى ﴿مِّنۢ﴾ ودلالتُها في ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾:

تخلّي اللهِ عن الظّالمين، وتأكيدُ نفي أيِّ ناصرٍ لهم غير الله

﴿مِّنۢ﴾ في قولِه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ إمّا لتوكيدِ نفي أيِّ ناصرٍ أو مُحبٍّ أو قريبٍ للضّالّين غير اللهِ سبحانه[1]، أو لابتداء الغاية، وهي معنويَّة؛ كنايةً عن تخلّي اللهِ عن هؤلاء الضّالين، والمعنى: فما له من وليٍّ من بعد خذلان اللهِ له، ومعاملتِه معاملةَ البعيد، مِن وكْلِه إلى نفسه وغيره من الخَلْق في شيءٍ من زمان البُعد، ولو قلَّ[2]، كما تُشير ﴿مِّنۢ﴾ إلى انتفاء الوليِّ عقيبَ الخذلان.

غرضُ الإضافةِ للضَّمير العائد للاسم الجليل في: ﴿بَعۡدِهِۦۗ﴾:

إيجازٌ وتأكيدٌ على أنَّه لا ولايةَ يومَ القيامة إلّا ولايته سبحانه

الضَّميرُ في قوله: ﴿بَعۡدِهِۦۗ﴾ عائدٌ على اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾[3]، والمعنى: فما له من وليٍّ دونَ اللهِ أو غيره، وقد عبَّر بالضَّمير دونَ الاسم الظّاهر اختصارًا؛ لأنَّه سَبَقَ ذِكْرُه، ولأنَّه أعرفُ من أن يُصرَّح بالاسم الظّاهر، فلا ولايةَ يومَ القيامة إلّا ولايتُه، كما قال سبحانه: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]، وقيل: الضَّميرُ للخذلان المفهوم من ﴿يُضۡلِلِ﴾، والمعنى: ما له من ناصرٍ يتولّاه من بعد خذلانِ اللهِ تعالى إيّاه[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾:

في الاستعارةِ إشارةٌ إلى معاملةِ اللهِ للضّالين معاملةَ المتروكِ البعيد

(بَعْد) في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ بمعنى (دونَ) أو (غير)، استُعيرَ لفظُ (بَعْد) لمعنى (دونَ)؛ لأنَّ (بَعْد) مَوضوعٌ لِمَن يَخلُفُ غائبًا في مكانه أو في عَمله، فشَبَّهَ ترْكَ اللهِ الضّالَّ في ضلالِه بغَيبةِ الوليِّ الَّذي يَترُكُ مَوْلاه دونَ وصيٍّ ولا وكيلٍ لِمَوْلاه[5]، فحُذِفَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 124.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 342.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 124.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 50.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 124.

ما يدلُّ على الحالة المُشبَّه بها، ورُمِزَ إليه بلازمه، وهو لفظ ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾.

دلالةُ عطف ﴿وَتَرَى﴾ على: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ﴾:

عطْفُ بيانٍ لحال الضّالّين؛ فما وجدوا الوليَّ بل وجدوا النّدامةَ

قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ عطفٌ على جُملةِ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾، وهذا تَفصيلٌ وبَيانٌ لِما أُجمِلَ في الآيتَينِ المعطوفِ عليهما، وهما قولُه: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾، وقولُه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾، والمعنى: أنَّهم لا يَجِدونَ مَحيصًا ولا وليًّا، فلا يَجِدونَ إلّا النَّدامةَ على ما فات، فيقولون: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالخطاب في: ﴿وَتَرَى﴾:

الإخبارُ بظُهور حال الظّالمين تعجيبٌ منه ودعوةٌ للاعتبارِ به

الخِطابُ في قوله: ﴿وَتَرَى﴾ لغيرِ مُعيَّن، أي: عامٌّ يشملُ كلَّ مخاطبٍ؛ إشارةً إلى أنَّ حالَ الظّالمين في الظُّهور بحيثُ لا يختصُّ بها راءٍ دونَ راءٍ، أو الخِطابُ للنَّبيِّ ﷺ، والمقصودُ في الحالين: الإخبارُ بحالِهم أوَّلًا، والتَّعجيبُ منه ثانيًا، فلم يقل: (والظّالمونَ لَمّا رأَوُا العذابَ؛ يقولونَ)، وإنَّما قيل: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للاعتبارِ بحالِهم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿وَتَرَى﴾:

تصويرٌ يستدعي التَّعجُّبَ والاعتبارَ بحالِ الظّالمين

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿وَتَرَى﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الرُّؤيةَ بصريَّةٌ، وقد آثرَ صيغة المضارعة؛ لما أنَّ الرُّؤيةَ ستكونُ يوم القيامة، أي: أُريد بها الاستقبال، مع تمثيلِ الصّورة، وكأنَّها تقعُ حالَ الخطاب، بما يكون أدعى للتَّعجُّب والاعتبار بحالهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإظهار ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دون الإضمار:

أظهرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الظّالمين - وهم منكرو الرِّسالاتِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 124.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 125.

السَّماويَّة والحياةِ الآخرة، وعبدةُ الأصنام من دون اللّه - في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقل: (وتراهم)؛ لبيانِ أنَّ الضّالَّ ظالمٌ بكونه لا يَضَعُ شيئًا في موضعه، فوَصْفُهم بالظّالمين أبينُ في استحقاقهم العذاب، ويحتملُ أن يكونَ أظهرَ لفظَ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لقصده استغراقَ جنسِ الظّالمين، بأن يشملَ جميعَ الظّالمين، ويدخلُ ضمنَهم الظّالمينَ المذكورين في الآيات السّابقة، وهم الَّذين يظلمون النّاس، ويبغون في الأرض بغير الحقِّ.

الضّالُّ ظالمٌ بكونه لا يضعُ شيئًا في موضعه

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿لَمَّا﴾:

عبَّر البيانُ الحكيم بـ﴿لَمَّا﴾ دون (حين) في قوله تعالى: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ﴾؛ لتدلَّ على الشَّرطيَّةِ أو الحينيَّة؛ إذ لو عبَّر بـ(حين)؛ لَما دلَّتْ على معنى الشَّرطيَّة الَّتي تُفيدُ اقترانَ تحقُّقِ وقوعِ التَّمنِّي بالعودة إلى دار العمل، وتكراره؛ كلَّما رأوا العذاب، بما يُشيرُ إلى استمرار خيبةِ رجائهم.

اقترانُ تكرارِ تمنِّي الظّالمين بالعودة إلى دارِ العمل؛ كلَّما رأوا العذاب

دلالةُ التَّعبير بالماضي في: ﴿رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾:

جاء فِعلُ الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ بصِيغةِ الماضي، وخولف بينَه وبين الأوَّل ﴿وَتَرَى﴾، مع أنَّ فعلَ ﴿رَأَوُاْ﴾ يقعُ في المستقبل، فالرُّؤيةُ المَذكورَةُ ليست بِحاصِلَةٍ في الحالِ، إذِ التَّقدير: لَمَّا يَرَوْنَ العَذابَ؛ وذلك للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِ رؤية العذاب[1]، فالمُضيُّ مُستعارٌ للاستقبالِ؛ تشبيهًا للمستقبلِ بالماضي في التَّحقُّق[2]، وجاء ذلك تأكيدًا للوعيد الشَّديد الَّذي وعدَ اللّهُ به الظّالمين، فعذابُهم أمرٌ مُحَتَّمٌ[3].

رؤيةُ الظّالمين لعذابِ الآخرة محقَّقةُ الوقوع، وعذابُهم أمرٌ محتَّمٌ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ مُعَرَّفًا:

اللّام في ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ عهديَّةٌ، والعهد ذِكْريٌّ؛ لأنَّ اللَّفظَ ذُكِرَ قبلَ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 83، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 50.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 125.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 342.

عذابُ يومِ القيامة عذابٌ معلومٌ مصيرُ الظّالم إليه

ذلك مُنكَّرًا في قوله تعالى في جزاء الظّالمين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وهو عذابُ يومِ القيامة، المعلومُ مصيرُ الظّالمِ إليه، والمعنى: لَمّا رأوا العذابَ المعلوم مصيرُ الظّالم إليه رؤيةً محيطةً بظاهره وباطنه؛ يتمنَّون الرَّجعة إلى الدُّنيا؛ لتدارك ما فات[1].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿يَقُولُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

قولٌ تصوَّروه في أنفسهم، وتوهَّموا تحقُّق مضمونِه، ونطقوا به

التَّعبيرُ بالقول دونَ الصُّراخ والاستغاثة في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لكون التَّعبير بلفظ القول أنسبَ للمقام؛ إذ حالُهم هو حالُ تندُّم وتحسُّرٍ، وخيبةِ أمل، وتمنٍّ لأمرٍ تصوَّروه في أنفسهم، وتوهَّموا تحقُّقَ مضمونِه، ونطقوا به؛ رغم علمِهم باستحالته، وهذا يناسبُه لفظُ القولِ الَّذي يُستعملُ على أوجهٍ، منها: للمنطوق من الأحرف، وللمُتَصَوَّر في النَّفس قبلَ التَّلفُّظ، وللاعتقاد، وللدَّلالة على الشَّيء، وللعناية الصّادقة بالشَّيء، وللإلهام[2].

دلالةُ التَّعبير بالجملة الحاليَّة الفعليَّة ﴿يَقُولُونَ﴾:

تصويرٌ وتكرارٌ لذُلِّ الكافرين وتهاوي كبريائهم

جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حالٌ من ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: تراهم قائلين، فالرُّؤيةُ مُقيَّدَةٌ بكونها في حال قولهم ذلك[3]، ولكنَّ البيانَ القرآنيَّ عبَّر عن الحال بالفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ دون (قائلين)، وخالفَ بين فعل ﴿يَقُولُونَ﴾ وبين فعل ﴿رَأَوُاْ﴾ في المضارعيَّة والماضويَّة؛ لأنَّ ﴿يَقُولُونَ﴾ أُريد به الاستقبالُ مع تمثيلِ ما سيقع، كأنَّه واقعٌ الآن تراهُ الأبصار، وللإشارة إلى أنَّ هذا القولَ يتكرَّر منهم كثيرًا، وفي هذا كنايةٌ لطيفةٌ عن خيبةِ رجائهم وعدمِ الاستجابة لهم في قولهم[4]، والمعنى: يقولون مُكرِّرين ممّا اعتراهم من الدَّهش، وغلبَ على قلوبهم من الوجلِ والانكسار[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 342.
(2) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (قول).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 125.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 36.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 342.

الغرضُ من التَّعبير بالاستفهام في: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ﴾:

الاستِفهامُ بحَرْفِ ﴿هَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ استفهامٌ مجازيٌّ، المرادُ منه التَّمنّي، ويُردَفُ على هذا المعنى: التَّندُّمُ على ما فات، والفَزَعُ والجزع ممّا هم فيه، وإيثار ﴿هَلۡ﴾ توهُّمًا منهم للطَّمع في الاستجابة لهم[1]، أو يُرادُ به إنكارُ رجوعِهم إلى الحياة الدُّنيا، بما يدلُّ على قنوطهم ويأسهم من النَّجاة، أي: هو استفهام إنكاريٌّ في معنى النَّفي؛ ولذلك أُدخِلَت ﴿مِّن﴾ على ﴿سَبِيلٖ﴾؛ لأنَّه نكرة في سياق النَّفي[2].

تندُّمُ الطُّغاةِ البُغاةِ على ما فات، وفَزَعُهم وجَزَعُهم ممّا هم فيه

دلالةُ التَّعبير بحرف ﴿إِلَىٰ﴾:

﴿إِلَىٰ﴾ حرف جرٍّ، ومعناه: انتهاءُ الغاية، وهي أمرٌ تمنَّوه، وهو الخلاصُ من العذاب الَّذي يلقونه، سواءٌ بالرُّجوعِ إلى الدُّنيا للعمل، أو بدفعِ العذاب عنهم.

منتهى غايةِ الظّالمين الخلاصُ من عذابِ يوم القيامة

دلالةُ عدمِ ذِكْرِ محلِّ المَرَدِّ في الآية:

حذفَ البيانُ القرآنيُّ محلَّ المَردِّ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ﴾، فلم يَقُل: هل من مردٍّ إلى الدُّنيا؛ اختصارًا لأنَّه مفهوم من الكلام؛ لأنَّ الدُّنيا هي دارُ العمل والآخرة هي دار الجزاء، كما أنَّ الاختصار يُنبِئُ بسوءِ حالهم الَّذي لا يقدرون فيه على بسط الكلام، أو لإفادة العموم، فهُم يطلبون أيَّ مَردٍّ يكون فيه خلاصُهم ممّا يلاقونه من العذاب.

الحذفُ للاختصار أو للإنباء بسوءِ حال الظّالمين

دلالةُ التَّعبير بالمصدر الميميِّ ﴿مَرَدّٖ﴾:

(المَرَدُّ) في قوله تعالى ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ مصدَرٌ ميميٌّ للرَّدِّ، وقد عبَّر به القرآنُ دونَ المصدر القياسيِّ الأصليِّ، وهو (ردٌّ)؛ لاتِّساع دلالة المصدر الميميِّ ﴿مَرَدّٖ﴾؛ فإنَّه يأتي بمعنى الرَّدِّ، أي الرُّجوع، يُقال رَدَّهُ: إذا أرجَعَهُ، ويجوزُ أن يكون بمعنى الدَّفْعِ، أي

المصدرُ الميميُّ أدلُّ على يأسِ الظّالمين مع لهفتهم لأيِّ طريق للخلاص

---

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 37.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 125.

هل إلى ردِّ العذاب عنّا الَّذي يبدو لنا سبيلٌ حتّى لا نقع فيه، فهوَ في مَعنى ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾ [الطّور: 7 - 8][1]، ولأَنَّ المصدر الميميَّ في دلالته على الحدث أقوى من دلالة المصدر العامِّ، فالتَّعبيرُ بالمصدر الميميِّ يصوِّرُ المعنى المصدريَّ واقعًا قائمًا متحقِّقًا في الوجود، والمعنى هل إلى ردٍّ إلى دارِ العمل وزمانه، مُخلِّصٍ من هذا العذاب[2]، وهذا يدلُّ على أنَّهم بلغوا الغايةَ في تمنِّيهم لأمرٍ لا يتحقَّق لما رأوا من عذاب.

الغرضُ من تنكير ﴿مَرَدّٖ﴾ و﴿سَبِيلٖ﴾، ودلالة دخول ﴿مِّن﴾ على ﴿سَبِيلٖ﴾:

صيغةٌ موحيةٌ بانهيارِ الظّالمين مع التَّطلُّع إلى أيِّ بارقةٍ للخلاص

أفادَ تنكيرُ ﴿مَرَدّٖ﴾ و﴿سَبِيلٖ﴾، في قوله تعالى: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾، العمومَ والإبهامَ، والمعنى: يتمنَّون حينما يرون العذاب أن يُردّوا أيَّ مَردٍّ من أيِّ سبيل؛ كي يُؤمنوا، ويعملوا صالحًا، ونلحظ مع الدَّلالة على العموم فيهما الدَّلالةَ على المبالغة في التَّعظيم في ﴿مَرَدّٖ﴾؛ لأنَّهم يرونه في هذا اليوم عظيمًا بعيدَ المنال، والدَّلالة على المبالغة في التَّحقير في ﴿سَبِيلٖ﴾؛ إذ إنَّهم يتمنَّون الرَّدَّ من أيِّ سبيل، ولو كان ضئيلًا[3]، ودخول ﴿مِّن﴾ الَّتي هي للصِّلة على النَّكرة ﴿سَبِيلٖ﴾؛ للمبالغة في هذا المعنى المراد من التَّنكير، بما يدلُّ على شدَّة ضيقِهم من رؤيتهم العذابَ.

سرُّ التَّعبير بـ﴿سَبِيلٖ﴾ دون غيره:

تمنّي أهلِ النّار لطريقٍ سَهْلٍ يوصلُهم إلى غايةِ الخلاص من العذاب

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظ السَّبيل في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾، دون غيره من الألفاظ كالمَخْرج أو المَنْفذ مثلًا؛ لكون لفظِ السَّبيل أوسعَ دلالةً، وأنسبَ للسّياق والمقام، وأدقَّ في التَّعبير؛ إذ دلَّ معنى السَّبيل على تمنّيهمُ الرُّجوع إلى الدُّنيا للعمل فيها وتدارك ما فاتهم، بطريقٍ سهل طويل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 125.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 342.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 425.

ظنّوا أنَّهم سيحقّقون في نهايته غايتَهم، وهو الخلاص من العذاب[1]، وليس مجرَّدَ مخرجٍ مؤقَّتٍ، ودلَّ كذلك على تمنّيهم أيَّة طريقةٍ ووسيلةٍ تدفع عنهم العذابَ، وتنقذهم منه، بينما لو عبَّر بالمَخْرج أو المَنفذ؛ لما دلَّ على هذه المعاني الدَّقيقة؛ إذ يَدُلّان على الخروج من مكان محصور ومُغلَق، فالمَخرَجُ يُشيرُ إلى مكان الخروج من أزمة أو ضيق، والمَنفذ يُطلَق على الخروج، وموضع نفوذ الشَّيء، كالفتحة في جدار[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبل).

(2) الفيوميّ، المصباح المنير، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نفذ).

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥﴾

[الشّورى: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذِكْرُ حالِ المشركينَ عندَ العرضِ على النّارِ بعدَ ذِكْرِ رؤيتِهم لها

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ أنّ الذين يظلمون النّاسَ ويبغون في الأرض بغير الحقّ لهم عذابٌ أليم على ما اجترحوا منَ البغي والعُدوان، وأنّهم حين يرون العذاب يومَ القيامة يطلبون الرّجوع إلى الدّنيا؛ بيّنت هذه الآيةُ حالَهم عندما يُعرَضون على النّار، بأنّهم خاشعون أذلّاءُ ينظرون من طرف خَفِيّ، وأهلُ الإيمان يقولون: إنّ الكافرين لفي خسران مبين؛ لأنّهم أضاعوا النّفس والأهل[1].

ومنها: لمّا ذكرَ ﷻ رؤيةَ المشركينَ للعذابِ؛ عقَّبَهُ بذِكْرِ حالِهم حينَ يُعرَضونَ على النّارِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُعۡرَضُونَ﴾: (عرض) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ الطّولِ[3]، وأصلُه أن يُقال في الأجسام، ثمّ يُستعمل في غيرها؛ قال تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾ [فصّلت: 51]، ويُطلق على اتِّساعِ ما يواجهُ النّاظرَ مِنَ الشّيءِ الكثيفِ[4]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: أعرضَ الشَّيءُ، أي: بدا عَرْضُهُ، وعَرَضْتُ الشَّيءَ على البيعِ، وعلى فلانٍ، أي: أظهرتُه لهُ،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 149.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 608، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 80، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 342.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (عرض).

وأبرزتُهُ إليه، كأنّي في ذاكَ قد أريتُه عَرْضَهُ[1]، ويُستعمَلُ في إظهارِ شيءٍ لِمَنْ يراهُ لترغيبٍ أو لتحذيرٍ، ومِنْ إطلاقاتِهِ قولُهم: عُرِضَ الأسرَى على الأميرِ، وهو إمرارُهم ليرَى رأيَهُ في حالِهم ومعاملتِهم، والمرادُ بالعرضِ هنا: أنَّهُ يُمَرُّ بهِم مَرًّا عاقبتُهُ التَّمكُّنُ منهُم والحُكمُ فيهِم، فكأنَّ جهنَّم إذا عُرِضوا عليها تحكمُ بما أعدَّ اللّهُ لهُم مِنْ حريقِها[2].

2) ﴿خَٰشِعِينَ﴾: (خشع) أصلٌ يدلُّ على الذُّلِّ والتَّطامنِ[3]، وانكسارِ النَّفسِ، فيكونُ للمخافةِ، وللمهابةِ، وللطّاعةِ، وللعجزِ عنِ المقاومةِ[4]، يقالُ: خشعَ، إذا تطامنَ وطأطأ رأسَهُ[5]، وخشعَ ببصرِهِ: غضَّهُ[6]؛ لأنّ أكثر ما يُستعمل الخشوعُ فيما يوجد على الجوارح، والمرادُ بالخشوعِ هنا: الانكسارُ والتَّواضعُ[7].

3) ﴿ٱلذُّلِّ﴾: ما كان عن قهر؛ يُقال: ذَلَّ يذل ذُلًّا، وهو في أصله يدلُّ على الخضوعِ والاستكانةِ، واللِّينِ[8]، ومِنْ ذلكَ يُقالُ: ذلَّتِ الدّابَّةُ تَذِلُّ ذلًّا، فهي ذَلولٌ[9]، والذُّلُّ: ضدُّ العِزِّ[10]، وهو المرادُ هنا.

4) ﴿طَرْفٍ﴾: (طرف) أصلٌ يدلُّ على تحريكِ الجفونِ في النَّظرِ[11]، فالطَّرْفُ: أصلُهُ مصدرٌ، وهو تحريكُ جَفْنِ العينِ، يقالُ: طَرَفَ، أي: حرَّكَ جَفْنَهُ، وقد يُطلَقُ على العينِ، ولذلكَ لا يُثنَّى ولا يُجمَعُ[12]، والمرادُ بهِ هنا: حركةُ العينِ[13].

5) ﴿خَفِيٍّ﴾: (خفي) أصلٌ يدلُّ على السَّتْرِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: خَفِيَ الشَّيءُ يَخْفَى،

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عرض).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126.
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خشع).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (خشع).
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 45.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذلل).
(9) الخليل، العين: (ذلل).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (ذلل).
(11) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).
(12) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (طرف)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.

وأخفيتُهُ[1]، والخِفاءُ: ما يُستَرُ بهِ؛ كالغِطاءِ[2]، والاستخفاءُ: طلبُ الإخفاءِ، والمرادُ بكونِ النَّظرِ خفيًّا هنا: أنَّهُ لا حِدَّةَ لهُ، فهو كمسارقةِ النَّظرِ، وذلكَ مِنْ هَوْلِ ما يرونَهُ مِنَ العذابِ، أو أنَّهُ ذليلٌ، أو أنَّ النّاظرَ لا يفتحُ عينيه، إنَّما ينظرُ ببعضِها[3].

6) ﴿مُّقِيمٍ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على عَزْمٍ أوِ انتصابٍ[4]، ومنهُ قولُهم: قامَ قِيامًا، إذا انتصبَ[5]، والقِيامُ والقِوامُ: اسمٌ لِما يقومُ بِهِ الشَّيءُ، أي: يَثْبُتُ، والإقامةُ في المكانِ: الثَّباتُ، ويُعبَّرُ بها عنِ الدَّوامِ[6]، أي: في مكان تدوم إقامتُهم فيه للعذاب، وهو المرادُ هنا.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

سوءُ حالِ المشركينَ يومَ القيامةِ

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن حالٍ آخرَ مِنْ أحوالِ المشركينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: وترى أيُّها النّاظر أو يا محمَّدُ؛ الظّالمينَ يُمَرُّ بهم على النّارِ خاضعينَ متذلِّلينَ، ينظرونَ مِنْ طَرْفٍ ذليلٍ، أو ضعيفٍ، أو لا ينظرونَ نظرًا كاملًا مِنْ شدَّةِ الانكسارِ، إنَّما ينظرونَ ببعضِ أعيُنِهم، أو يسارقونَ النَّظرَ، ثمّ تَذْكُر الآيةُ ما يقوله المؤمنون فيهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ باللّهِ ورُسُلِهِ: إنَّ المغبونينَ الَّذينَ غَبَنوا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ، باختيارِ الكفرِ على الإيمانِ، في عذاب مقيم ثابتٍ لا يزولُ عنهُم[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ حالِ المشركينَ عندَ الدُّنوِّ مِنَ النّارِ

بلاغةُ عطفِ ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿وَتَرَى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خفي).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (خفي).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 552، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (قوم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(6) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 552، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 215.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾ [الشّورى: 44][1]، أو هما معطوفانِ على قولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ [الشورى: 44][2]، وأصلُ الكلام: والظّالمون لمّا رأوا العذابَ يقولون وهم يُعرضون عليها خاشعين، وبذلك تظهر بلاغةُ العطفِ في أنَّهُ تعالى أثبتَ رؤيتَهم العذابَ، ثمَّ أثبتَ اقترابَهم مِنْ محلِّه، وبيَّنَ حالَهم في ذلكَ الاقترابِ[3].

سرُّ التّعبير بالرّؤية، ودلالةُ تَكرارِها:

هَــوْلُ منظرِ عرضِ المشركينَ على النّارِ

آثَر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالرّؤية في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ دونَ البصر أوِ النّظر؛ لأنّ المُراد هنا الرّؤيةُ الحِسّيّة مع الإدراك بالتّفكّر والتّعقّل لهذه الحالة التي يُعرضون فيها على النّار، ولأنّها تُفيد الثّبوت؛ فلا مجال للتّشكيك في وقوع هذا المشهد للظّالمين، وأُعيد فعلُ الرّؤية ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾ بعدَ تقدُّمِه في قولِه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾ [الشورى: 44]؛ للاهتمام بهذهِ الرُّؤية وتهويلِها[4]؛ لأنَّها رؤيةُ أمرٍ فظيعٍ هائلٍ، وهو عرضُ المشركينَ على النّارِ، وللإشعارِ بأنَّها رؤيةٌ مستقلّةٌ عن سابقتِها، وذلك يكون دلالةً على تعدّد المواقف؛ فتعدّدتِ الرّؤيةُ لذلك.

تعيينُ المخاطَبِ بـ ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾:

افتضاحُ حالِ المشركينَ يومَ القيامةِ

الظّاهرُ أنَّ الخطابَ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ عامٌّ لكلِّ مَنْ يتأتّى منهُ الرُّؤيةُ[5]، ولكلّ متشوّفٍ إلى العِلْم بحالهم، وفي هذا التّعميم مبالغةٌ مِنْ حيثُ إنّهُ يوحي بأنَّ حالَهم قدِ اشتهرَ وذاعَ، بحيثُ لا يخفَى على أحدٍ، ويحتملُ أنْ يكونَ الخطابُ للنَّبيِّ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 47.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 51.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 342.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 125.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 35، وأبو موسى، آل حم، ص: 211.

ﷺ وأتباعِه[1]، وذلك من باب التّسلية له ﷺ ولأتباعه عندما يرون مشهدَ هؤلاء الظّالمين وهم يُعرضن على النّار.

سَبْقُ ذكرهم، والتّهوين من شأنهم

دلالةُ الإضمار في: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾ دونَ الإظهار:

جاء التّعبير القرآنيّ بالإضمار في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾ عنِ الظّالمين دونَ ذِكْرهم؛ لسَبْقِ الحديث عنهم في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: 44]؛ فأغنى ذلك عن إعادته، وفيه إشارة إلى التّهوين من شأنهم فليسوا أهلًا للذّكر حتّى مع ظُلْمهم.

استحضارُ صورة رؤيةِ المشركينَ في يوم القيامة

دلالةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾؛ لأنَّهُ أمرٌ مستقبلٌ يكونُ يومَ القيامةِ، ولاستحضارِ صورةِ الرُّؤيةِ وكأنَّها تقعُ الآنَ؛ لتفظيعِها وتهويلِها، وفي ذلك توبيخٌ للمشركين، وتحذيرٌ لمن يريد أن يسلك مسلَكهم.

فَضْحُ الكافرين على رؤوس الأشهاد

سرُّ التّعبيرِ بالعرْض في: ﴿يُعۡرَضُونَ﴾:

عبّر القرآنُ الكريم بالعرض في قوله: ﴿يُعۡرَضُونَ﴾ لِما فيه من معنى الإظهار من باب عرض المتاع، وذلك من باب فضحهم على رؤوس الأشهاد؛ لأنّهم صاروا كالسّلعة المعروضة أمامَ أعين الجميع، وفيه تصويرٌ للمعنى الحسّيّ، وهو إلجاؤهم إلى أن يُحازوا النّارَ بعرضهم الذي يلزم منه المحازاةُ بطولهم، وفي هذا دلالةٌ على التّمكّن منهم؛ فكأنّ جهنّمَ عندما يُعرضون عليها تتحكّم فيهم، بما أعدّ اللّهُ لهم منَ العذاب.

تصويرُ عرضِ المشركينَ على النّارِ وتجدُّدِه

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿يُعۡرَضُونَ﴾:

الظّاهرُ أنَّ التَّعبيرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ﴾؛ لتصويرِ المشهدِ، وتجليةِ صورةِ المشركينَ في هذهِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 51.

الحالةِ[1]، وزيادةِ ما فيها مِنَ الحركةِ والحيويَّةِ، وكأنَّ المخاطَبَ يراها وهي تقعُ في وقتِ الخطابِ، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التّهديدِ والوعيد، ويحتملُ أنْ يكونَ المُرادُ التَّنبيهَ على تَكرارِ العرضِ وتجدُّدِهِ[2]؛ وذلك لتَعدّد المواقفِ والمشاهد في يوم القيامة.

سرُّ بناءِ ﴿يُعۡرَضُونَ﴾ للمفعولِ:

الاعتبارُ والزَّجرُ بفعلِ العَرْضِ

بُنِيَ فعلُ ﴿يُعۡرَضُونَ﴾ للمفعولِ؛ لأنَّ المقصودَ حصولُ الفعلِ، لا تعيينُ فاعلِهِ؛ لأنَّ الاعتبارَ والزَّجرَ والوعيدَ والتَّهديدَ كلُّ ذلكَ ساكنٌ في الفعلِ مِنْ حيثُ هو فعلٌ، وليسَ مِنْ حيثُ فاعلُهُ، والَّذينَ يَعْرِضونَ الكافرينَ على النّارِ همُ الملائكةُ، كما دلَّتْ عليهِ آياتٌ أخرى[3]، وفيه إشارةٌ إلى سلب ذاتيّتهم وشخصيّتهم؛ فهم يُعرضون على جهنّم دونَ رأيٍ لهم أوِ اعتراض؛ لأنّهم سُلبوا ما كانوا يتطاولون به في دُنيا النّاس، وصورتُهم في ذلك صورةُ المُجْرِمِ الذي يُعرض على القضاء للمحاكمة.

بلاغةُ الحالِ في: ﴿يُعۡرَضُونَ﴾:

الـرُّؤيـةُ منصبَّةٌ على هول أحوالِ المشركيَن

قولُه تعالى: ﴿يُعۡرَضُونَ﴾ حالٌ مِنْ ضميرِ المفعولِ في ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾؛ لأنَّ الرُّؤيةَ بصريَّةٌ[4]، أي: وتراهم حالَ كونِهم يُعرَضونَ عليها... إلخ[5]، وفائدةُ هذهِ الحالِ وما بعدَها بيانُ أنَّ الفعلَ (تراهم) منصبٌّ على هذهِ الأحوالِ المُخيفةِ، وأوَّلُها حالُهم وهم يُعرَضونَ على النّارِ[6].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿يُعۡرَضُونَ﴾:

تَمَكُّنُ النّارِ مِنَ الكافرينَ

تَظْهَر بلاغةُ الاستعارة في قوله تعالى: ﴿يُعۡرَضُونَ﴾؛ لأنّ أصلَ العَرْضِ إظهارُ الشَّيءِ وإراءتُهُ للغيرِ، وإطلاقُهُ في قولِهِ تعالى هنا: ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ من باب الاستعارةِ؛ حيثُ استُعيرَ لفظُ

---

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 212.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 343.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126، وأبو موسى، آل حم، ص: 212.
(4) السَّمين، الدّرّ المصون: 9/ 563، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 622.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 343.
(6) أبو موسى، آل حم، ص: 212.

﴿يُعۡرَضُونَ﴾ لمعنى المرور؛ أي: تمرُّ بهم مَرًّا عاقبتُه التَّمكُّنُ منهُم والحُكمُ فيهم، فكأنَّ جهنَّم إذا عُرِضوا عليها تَحكَّمُ بما أعدَّ اللّهُ لهُم مِنْ حريقِها وعذابِها الشَّديدِ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بـ (على) في: ﴿عَلَيۡهَا﴾:

لا يخفَى على المشركينَ أهوالُ جهنَّم

حرفُ الجرِّ (على) في قولِه تعالى: ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ يدلُّ على الاستعلاءِ، وكأنَّ الكفّارَ عندَ العَرضِ على النّارِ يُعَلَّونَ عليها؛ حيثُ يكونون فوقَها كهيئة المُصلي على النّار، وفي ذلك إشارةٌ إلى شدّة رؤيتهم للنّار، بحيثُ لا يخفَى عليهم هَوْلُها، وفي ذلكَ مِنَ التَّهويلِ والتَّخويفِ ما لا تُحيطُ بهِ العبارةُ.

دلالةُ الإضمارِ في: ﴿عَلَيۡهَا﴾:

الضَّميرُ في ﴿عَلَيۡهَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ عائدٌ على النّارِ، وعَوْدُهُ عليها معَ أنّها لم يتقدَّم لها ذِكْرٌ؛ لأنَّهُ يدلُّ عليها قولُهُ: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [الشّورى: 44][2].

دلالةُ التّعبيرِ بـ: ﴿عَلَيۡهَا﴾ دون (عليه):

جاء التّعبير بقوله: ﴿عَلَيۡهَا﴾ دون (عليه) بتأنيث الضّمير؛ لأنَّ ذلكَ العذابَ المرئيَّ هو النّارُ، ولو روعِيَ اللَّفظُ لقيلَ: (عليه)[3].

سرُّ التّعبيرِ بالخشوع ﴿خَٰشِعِينَ﴾:

أوثِرَ التّعبيرُ بالخشوع في قوله: ﴿خَٰشِعِينَ﴾ دون غيره؛ لأنّ الخشوع يظهر أثرُه على الجوارح، كما ورد ذلك في آيات متعدّدة؛ نحو: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ﴾ [طه: 108]، وقال أيضًا: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ [القلم: 43]، إلى غير ذلك منَ الآيات التي تُبرِز حالةَ الذّلّ والانكسار، وهذا هو المناسب لمشهد الظّالمين؛ فصَوْتُهم ضعيفٌ، وبصرُهم عليه غشاوةٌ، وهذا هو المرادُ في تصوير هيئتهم في يوم القيامة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 41، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 260.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 45، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126.

بلاغةُ الحالِ ﴿خَٰشِعِينَ﴾:

صَغارُ المشركينَ عندَ العَرْضِ على النّارِ

تظهر بلاغةُ موقع ﴿خَٰشِعِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ﴾، في أنّها حالٌ ثانيةٌ مِنْ ضميرِ المفعولِ في ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾[1]، وفي هذا بيانٌ للهيئةِ الَّتي يكونونَ عليها عندَ العرضِ، أي: حالَ كونِهم حقيرينَ مُهانينَ[2]، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّنبيهِ على صَغارِهم وسوءِ حالِهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعل ﴿خَٰشِعِينَ﴾:

الصَّغارُ ملازمٌ للكافرينَ عندَ العَرْضِ

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ﴾؛ للدّلالةِ على ثباتِ وصفِ الخشوعِ لهُم عندَ العَرْضِ، وبيانِ أنَّهُ وصفٌ ملازمٌ لهُم في ذلكَ الحينِ، والمعنى: يُعرَضونَ عليها حالَ كونِهم في غايةِ الضَّعَةِ الثّابتةِ لهُم[3]، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم سببٌ في هذه الهيئةِ بما قدّموا منَ الظّلمِ والعدوانِ على أهلِ الإيمانِ، وكأنّهم هم الذين أوجدوا لأنفسهم هذه الهيئةَ الذّليلةَ، وفي التّعبيرِ به ملمحٌ نفسيّ لتصويرِ حالتهم في الدّنيا منَ التّكبّرِ والاستعلاءِ؛ فجاءَ العقابُ من جنسِ ما فعلوا.

نُكْتَةُ التَّقييدِ بـ ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾:

الخشوعُ المذمومُ هو ما فيهِ مَهانةٌ لصاحبِهِ

قُيِّدَ الخشوعُ بالذُّلِّ في قولِه تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾؛ لبيانِ أنَّ المرادَ بهِ الذَّمُّ؛ لأنَّ الخشوعَ هو الاستكانةُ، وهو محمودٌ في الأصلِ[4]، وإنّما أخرجه مخرجَ الذّمّ اقترانُه بالعذابِ في الآيةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِنَ﴾:

خشوعُ المشركينَ ناشئٌ عنِ الذُّلِّ

أوثِرَ التّعبيرُ بـ ﴿مِنَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾؛ لأنّها تعليليّةٌ[5]، تفيدُ تعليلَ الخشوعِ، والمعنى: خاشعينَ بسببِ الذُّلِّ لِعظَمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 608، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 547.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 343، وأبو موسى، آل حم، ص: 212.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 346، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 343.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 425، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 17/ 257.

ما لَحِقهم[1]، وليسَ خشوعُهم لتعظيمِ اللّهِ والاعترافِ لهُ بالعبوديَّةِ؛ لأنَّ ذلكَ الاعتقادَ لم يكنْ مِنْ شأنِهم في الدُّنيا[2].

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلذُّلِّ﴾:

(أل) في ﴿ٱلذُّلِّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ للجنسِ، وفي التَّعبيرِ بهِ مبالغةٌ وإيماءٌ إلى كثرةِ ما يَعتري المشركينَ مِنَ الصَّغارِ والهَوانِ بعدَ أنْ كانوا في الدُّنيا بُغاةً ظالمينَ أشدّاءَ[3]، وفي التّعبيرِ بها إشارةٌ إلى أنّهم جمعوا بين الذّلّ الظّاهريّ والباطنيّ؛ مناسبةً لمعصيتهم بالاستكبار.

هَـوانُ المشركينَ بعدَ كبريائِهم

سِرُّ التّعبير بالذّلّ دونَ الصّغار:

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالذّلّ في قوله تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ دونَ الصَّغار؛ لوجود فرق بينهما؛ فالذّلُّ خضوعٌ وانقياد مفروض بقوّة خارجيّة، وهذا ما يتناسب مع مشهد الظّالمين في يوم القيامة؛ فكما فرضوا سيطرتَهم على النّاس وأذلّوهم، جاء التّعبير من باب الموافقة، وفي ذلك تبكيتٌ للظّالمين، فكما قَهَروا النّاسَ في الدّنيا، قُهِروا في الآخرة؛ بخلاف الصَّغار؛ فهو دلالةٌ على هوان الإنسان وخضوعه برضا نفسه من غير قوّة خارجيّة.

خـضـوعُ أهـلِ النّارِ وانقيادُهم مفروضٌ عليهم بـقـوّةٍ خارجيّة لـتـبـكـيـتـهـم وقهرهم

بلاغةُ التَّعبيرِ بالنَّظرِ:

لّما كانَ الذُّلُّ ألوانًا، صوَّرَ بأقبحِ صورةٍ في قولِهِ: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيٍّۗ﴾، بلفظِ النَّظرِ الَّذي هو مماسَّةُ البصرِ لظاهرِ المُبصَرِ[4]، ففيهِ إيماءٌ إلى أنَّ نظرَهم نظرٌ قليلٌ منكسِرٌ مِنْ شدَّةِ الذُّلِّ، وفي التّعبير به أيضًا إشارةٌ إلى مُجرّد التّحديق بحاسّة الإبصارِ دونَ الإدراك لذات الشّيء، يُؤكّد هذا سياقُ الآية: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيٍّۗ﴾.

نـظـرُ المـشـركـينَ عـنـدَ الـعَـرْضِ قليلٌ منكسِرٌ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 50.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.

(3) أبو موسى، آل حم، ص: 212.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 343.

نُكْتَةُ التّعبير بالفعليّة ﴿يَنظُرُونَ﴾:

نظرُ المشركينَ مستمِرٌّ بصورةٍ قبيحةٍ

جيءَ بصيغةِ الفعليّة في قولِه تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾، دونَ التّعبير بالاسميَّةِ كما في ﴿خَٰشِعِينَ﴾؛ للدِّلالةِ على تكرُّرِ النَّظرِ وتجدُّدِهِ منهُم[1]، ولأنَّ صورةَ النَّظرِ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ مِنْ أحفلِ صوَرِ هذا المشهدِ، ومِنْ أدقِّها، وصيغةُ المضارعِ تُصوِّرُ الملامحَ الخفيَّةَ الخاطفةَ، وتُصوِّرُ حالتَهم الفظيعةَ[2].

بلاغةُ الحالِ ﴿يَنظُرُونَ﴾:

جملةُ ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ في موضعِ الحالِ مِنْ ضميرِ ﴿خَٰشِعِينَ﴾؛ لأنَّ النَّظرَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ حالةٌ للخاشعِ الذَّليلِ، والمقصودُ مِنْ ذِكْرِها تصويرُ حالتِهم الفظيعةِ[3].

سرُّ حذفِ مفعولِ ﴿يَنظُرُونَ﴾:

إفادةُ العموم

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ للتَّعميم، وفي هذا دلالةٌ على كثرة الأهوال التي يشاهدها المشركون؛ فهم ينظرونَ العذابَ، وينظرونَ أهوالَ الحشرِ، وينظرونَ نعيمَ المؤمنينَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ[4]، من باب الحسرة لهم.

سرُّ التّعبير بـ ﴿مِن﴾:

ابتداءُ نظرِ المشركينَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ

أوثِر التّعبير بـ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾؛ لتَعدّد معناها؛ فتحتمل أن تكون لابتداءِ الغايةِ المجازيِّ، أي: يبتدئُ نظرُهم مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ[5]، ويحتملُ أَنْ تكونَ بمعنى الباءِ، أي: ينظرونَ بطَرْفٍ خَفِيٍّ[6].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 343، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 547.

(2) أبو موسى، آل حم، ص: 212.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 231، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.

(6) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 257، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 547.

بلاغةُ المجازِ في لفظِ الطَّرفِ:

الطَّرفُ في الأصلِ: تحريكُ جَفْنِ العينِ، يقالُ: طَرَفَ، إذا حرَّكَ جَفْنَهُ، وقد يُطلَقُ على العينِ، مِنْ بابِ تسميةِ الشَّيءِ بفعلِهِ[1].

نُكْتَةُ إفرادِ الطَّرْفِ:

المصدرُ لا يُثنَّى ولا يُجمَعُ

الطَّرْفُ أصلُهُ مصدرٌ، وهو تحريكُ جَفْنِ العينِ، ولذلك لا يُثنَّى ولا يُجمَعُ، وقد يُطلَقُ على العينِ، وجاء مُفردًا في قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ﴾ [إبراهيم: 43]، وفي قولِهِ تعالى هنا: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيّٖۗ﴾[2].

بلاغةُ الوصفِ بـ ﴿خَفِيّٖۗ﴾:

نظرُ المشركينَ ذليلٌ مقرونٌ بالمهانةِ والخوفِ وتنكيسِ الرُّؤوسِ

وُصِفَ الطَّرْفُ بالخفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيّٖۗ﴾؛ إمّا لأنَّ نظرَهم ذليلٌ ضعيفٌ مقرونٌ بالمهانةِ، والخفاءُ يستلزمُ الضَّعفَ، فذُكِرَ المَلْزومُ وأُريدَ اللّازمُ، وإمّا لأنَّهُ لا يَبدو نظرُهم؛ فهم ناكِسو الرُّؤوسِ، لا يرفعونَ أبصارَهم للنَّظرِ رفعًا تامًّا، وإمّا لأنَّهم يسارقونَ النَّظرَ إلى النّارِ خوفًا منها، كما ينظرُ المقتولُ إلى السَّيفِ، فلا يَقدِرُ أنْ يملأَ عينَهُ منهُ، ولا يفتحُ عينَهُ كما يفعل في نظره إلى الشَّيءِ المحبوب، إنَّما ينظرُ ببعضِها[3].

بلاغةُ التّعبيرِ بجملة: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيّٖۗ﴾:

تجسيدٌ بارع وتصويرٌ رائع لحالتهم الفظيعة

تظهر بلاغةُ التّعبير في هذه الجملة بأنّها تجسيدٌ بارع وتصوير رائع لحالتهم الفظيعة، لمن يقف أمامَ الموت الذي ينتظره، والسّيف مُسَلَّطٌ على رأسه، وهو يحرك الحدقة أو يقلّبها، ويحدُّ النّظرَ بأجفانه، ويُحرِّكُها تحريكًا ضعيفًا خفيًّا يُمَكِّنه من مسارقة النّظر؛ لأنّ مَن ينظر إلى أمر مكروه يحاول أن يُزْوِي ناظرَه عنه، بيدَ أنّه لا يتمالك نفسَه دون أن يَرْمُقَ ما يكرهه[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 41، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 45، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 257.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.

دفعُ توهّم تعارض ظاهرِ هذه الآية، مع ما ورد في سورة الإسراء من أنّهم يحشرون عُميًا:

اختلافُ الموقفين أوِ الجهتين ما بين السّورتين

قد يتوهّم البعضُ وجودَ ما ظاهرُه التّعارضُ بين قوله: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾، وبين ما ورد في سورة الإسراء من أنّهم يُحشَرون عُميًا؛ قال تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ [الإسراء: 97]؟ والجواب على ذلك: أنّه لا تعارضَ؛ حيثُ يُحمل موضعُ الشّورى على أنّه وصفٌ لهم في ابتداء الموقف، ثمّ بعد ذلك يُجعلون عُميًا، أو أنّ الجهة منفكّة، بأن تكون آية الشّورى في قوم، وآيةُ الإسراء في قوم آخرين[1].

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَقَالَ﴾:

تبشيرُ المؤمنينَ وردْعُ الكافرينَ

يحتملُ أنْ تكونَ الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، ونُكْتَةُ العطفِ: أنَّهُ سبحانَهُ لمّا وصفَ حالَ الكفّارِ، حكَى ما يقولُهُ المؤمنونَ فيهم[2]؛ تبشيرًا للمؤمنينَ، وردْعًا للكافرينَ[3]، ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ، والجملةُ حالٌ مِنْ ضميرِ الغيبةِ في ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾، أي: تراهُم في حالِ الفظاعةِ الملتبسينَ بها، وتراهُم في حالِ سماعِ الكلامِ الذّامِّ لهُم، الصّادرِ مِنَ المؤمنينَ إليهِم في ذلكَ المشهدِ، وحُذِفَتْ (قد) معَ الفعلِ الماضي لظهورِ قرينةِ الحالِ[4].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالماضي في: ﴿وَقَالَ﴾:

خبرُ اللهِ تعالى واقعٌ لا محالةَ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ هذا القولِ، وأنَّهُ سيقعُ يقينًا يومَ القيامةِ؛ لأنَّ ما أخبرَ اللّهُ به فهو واقعٌ لا محالةَ، ويحتملُ أن يكونَ القولُ في الدُّنيا، فهو واقعٌ موقعَ اليقين من نفوس المؤمنين، وعلى هذا يكون الماضي على حالِهِ[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 181.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 608.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 344.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 35، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 257.

دلالةُ ورود الخطاب في الرّؤية، والغَيبةِ في القول:

معـاينـةُ العـذابِ أدخلُ في التّهـويل، ومجيءُ القولِ بالغَيبة على الأصل

ورد الخطاب في الرّؤية في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾، والغَيبةِ في قوله: ﴿وَقَالَ﴾؛ لأنّ معاينة العذابِ لمّا كانت أدخلَ في التّهويل، جُعِل العذابُ قريبًا مشاهدًا، وخُصّوا بالخطاب على سبيل استحضار الحال لمزيد الابتهاج، ولم يكن في الخسران ذلك المعنى؛ لأنّه أمر معقول، والمحسوسات أقوى؛ لاسيما إذا كنّ موجباتِ الخُسران؛ فجيء به على الأصل من الغَيبة[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإيمـانُ سببُ الفلاحِ والنَّجاةِ

عُبِّرَ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لمدحِ المؤمنينَ بما في حيِّزِ الصِّلةِ مِنْ صفةِ الإيمانِ، الَّتي بها استحقّوا أنْ يكونوا مِنْ أهلِ النَّجاةِ والفلاحِ، وأنْ يَحكُموا بالخُسْرانِ على المشركينَ، ويجوز أن يكون التّعبير به إشارةً إلى فئة معينة مِنَ المؤمنين؛ لاقوا من هؤلاء الظّالمين ما لاقوا مِنَ العنت والإيذاء؛ فأراد القرآن أن يشفيَ صدورهم منهم.

دلالةُ الماضي في: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

إيـمـانُ أهلِ الفلاحِ متحقِّقٌ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قوله: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ الإيمانِ مِنَ القائلينَ بهذا القولِ، وللإيماءِ إلى أنَّهم قد أوقعوا هذهِ الحقيقةَ، سواءٌ كانَ إيقاعُهم لها في أوّل مراتبها أو أعلاها[2].

بلاغةُ التّوكيد في: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

إظهارُ خُسْرانِ الكافرينَ

أكّدَ القرآنُ الكريم خُسرانَ الكافرين بحرف ﴿إِنَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾؛ لتحقيقِ وقوعها[3]، والعنايةِ بإبرازها ليشفيَ صدورَ المؤمنين في يوم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 25/ 51.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 344، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 547.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 344.

القيامة بمشهد خسارة الكفّار، وفيه دلالةٌ على إبراز سعادة المؤمنين في الآخرةِ، وتوفيقِهم في الدُّنيا، بمشاهدةِ ضدِّ ذلكَ في معانديهم[1].

سرُّ التّعبيرِ بالخسران دونَ غيره:

دلالةُ الخُسران التّوبيخيّةُ لهؤلاء الظّالمين

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الخسران في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ دون غيره؛ لما يحمله من دلالة توبيخيّة لهؤلاء الظّالمين؛ لأنّهم أضاعوا أنفسَهم كما يُضيع التّاجرُ رأسَ مالِه، وهذا دليلٌ على حماقة عقولهم؛ لأنّهم عَرّضوا أنفسَهم للخسارة التي استحقّوا بها العقابَ.

بلاغةُ الإخبار بقول الذين آمنوا:

سرورُ المؤمنِ وغَمُّ الكافرِ

الظّاهرُ أنَّ قولَ المؤمنينَ: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ يكونُ بمَسمَعٍ منَ الظّالمينَ، فيزيدُ الظّالمينَ تلهيبًا لندامتِهم وخِزْيِهم، فهذا الخبرُ مستعمَلٌ في إظهارِ المَسَرَّةِ بالسَّلامةِ ممّا لَحِقَ الظّالمينَ، أي: قالوهُ تحدُّثًا بالنِّعمةِ، واغتباطًا بالسَّلامةِ، يقولُهُ كلُّ أحدٍ منهُم، أو يقولُهُ بعضُهم لبعضٍ[2].

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ المعرَّفِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

كمالُ خُسْرانِ الكافرينَ وثباتُهُ

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ المجموعِ المعرَّفِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾؛ للإشارةِ إلى كمالِ خُسْرانِهم[3]، أي: إنّهم بلغوا في الخسارة مبلغًا كبيرًا؛ فيُعْرَف الخُسران بهم؛ فصار كالعَلَميّة على هؤلاء الظّالمين، ويساعد على ذلك دلالةُ اللّام في قوله: ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ لأنَّ اللّامَ للجنسِ مُرادًا بِهِ الفردُ الأكملُ[4]، وفي التّعبير بالاسميّة تنبيهٌ على ثباتِ هذا الخُسْرانِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 344.

(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 257، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

خُسْرانُ الأنفُسِ والأهْلِينَ خُسْرانٌ عظيمٌ

جيءَ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾؛ للتَّسجيلِ عليهم بخُسْرانِ الأنفُسِ والأهْلِينَ، وذَمِّهم بذلك، وإفادةِ أنَّهم قدِ اشتهروا وعُرِفوا بذلكَ[1].

دلالةُ الماضي في: ﴿خَسِرُوٓاْ﴾:

خُسْرانُ المشركينَ مؤكَّدٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾؛ لتأكيدِ تحقُّقِ هذا الخُسْرانِ ووقوعِه، وفي ذلكَ تقويةٌ للذَّمِّ والتَّوبيخِ، وزيادةٌ للغُمومِ والحَسَراتِ لهؤلاءِ الظّالمين، الذين باعوا أنفسَهم للدّنيا وشهواتِها رغمَ تجدّدِ دعواتِ الأنبياءِ لهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

خَيْبةُ أملِ المشركينَ وضلالُ سَعْيِهم

الخُسْرانُ في الأصلِ: تلفُ مالِ التّاجرِ، واستُعيرَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾؛ لانتفاءِ الانتفاعِ بما كانَ صاحبُهُ يُعِدُّهُ للنَّفعِ؛ فإنَّهم كانوا يُؤَمِّلونَ نعيمَ أنفُسِهم، والأُنْسَ بأهليهم حيثُما اجتمعوا، فكُشِفَ لهُم في هذا الجمعِ عنِ انتفاءِ الأمرينِ، أو لأنَّهم كانوا ينكرونَ الحياةَ بعدَ الموتِ، فحَسِبوا أنَّهم لا يَلْقَوْنَ بعدَهُ ألمًا، ولا توحِشُهم فُرقةُ أهليهم، فكُشِفَ لهُم ما خيَّبَ ظنَّهم، فكانوا كالتّاجرِ الَّذي أمَّلَ الرِّبحَ، فأصابَهُ الخُسْرانُ[2]؛ فظهرت بلاغةُ الاستعارةِ في تجسيد ضياع رأس المال وعدم الانتفاع به، وهو عمرُ الإنسان، وفيه إشارةٌ لمن له قلبٌ أن يأخذ العِظَةَ والعِبرةَ من هذه الخسارة.

بلاغةُ الحصرِ في: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

لا خُسْرانَ فوقَ خُسْرانِ الكافرينَ

تعريفُ المسنَدِ إليهِ والمسندِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ يُفيدُ القَصْرَ الادِّعائيَّ، حيثُ نُزِّلَ خُسْرانُ غيرِهم منزلةَ عدمِ الخُسْرانِ، والمعنى: لا خُسْرانَ يُشبِهُ خُسْرانَهم[3].

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 257.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 129.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.

سِرُّ التّعبير بخُسْرانِ الأنفُسِ والأهلِ:

أقبحُ الفَقْدِ فَقْدُ الإنسانِ مَنْ يلوذُ به

عُبِّرَ بخُسْرانِ الأنفُسِ والأهْلِينَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾؛ لأنَّ المشركينَ خَسِروا أنفُسَهم باستحقاقِ العذابِ بسببِ كفرِهم، وخَسِروا أهلِيهم؛ لأنَّ الأهلَ إنْ كانوا معَهم في النّارِ فلا انتفاعَ بهِم، وإنْ كانوا في الجنَّةِ فقد حيلَ بينَ الفريقين[1]، وإنْ كانوا في النّارِ ففي الكلامِ إشارةٌ إلى أنَّهم قدوةٌ سيِّئةٌ لأولادِهم؛ لأنَّ أبشعَ ما يكتسبُهُ الولدُ مِنَ الوالدِ هو الانحيازُ للضَّلالِ، ومحاربةُ الحقِّ، وتركُ الدَّليلِ، واتِّباعُ الهوَى[2].

سرُّ التّعبير بيوم القيامة دونَ غيره:

يومُ القيامة هو الاسمُ العَلَم الذي ينضوي تحتَه بقيّةُ الأسماء الدّالّة على ذلك اليوم

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بيوم القيامة دون غيره منَ الأسماء؛ لأنّه الاسمُ العَلَم الذي ينضوي تحتَه بقيّةُ الأسماء، ولأنّه يدلّ على معانٍ لا توجد في غيره؛ فهو يدلّ على قيام النّاس من قبورهم لربّ العالَمين، وهو اليوم الذي تُنْصَبُ فيه الموازينُ لإقامة العَدْل بين الخَلْق جميعًا، وهو اليوم الذي تقع فيه المحاجّة والمحاورة بين الظّالمين والمظلومين؛ لذلك كان التّعبير به مناسبًا لهذا السّياق.

سرُّ التَّقييدِ بـ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

اليومُ الآخِرُ هو يومُ الحَسْرة والنَّدامةِ

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إمّا أنْ يتعلَّق بـ ﴿خَسِرُوٓاْ﴾، ويكونَ قولُ المؤمنينَ واقعًا في الدُّنيا، والمعنى: تراهُم يُعرَضونَ على النّارِ خاشعينَ مِنَ الذُّلِّ، وقد صدقَ فيهم قولُ المؤمنينَ في الدُّنيا: إنَّ الخاسرينَ هم الَّذينَ خَسِروا أنفُسَهم وأهليهِم يومَ القيامةِ، وإمّا أنْ يتعلَّقَ بـ ﴿وَقَالَ﴾، أي: يقولونَ يومَ القيامةِ إذا رأَوْهم على تلكَ الصِّفةِ:

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 46، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 344.

(2) أبو موسى، آل حم، ص: 214.

إنَّ الخاسرينَ ... إلخ[1]، وإمّا أنْ يتعلَّقَ بـ ﴿خَسِرُوٓاْ﴾، والقولُ واقعٌ في القيامةِ، وذِكْرُ القيامةِ للتَّهويلِ، وأنَّ هذا الخَسارَ لا خَسارَ بعدَهُ[2].

سرُّ تقديمِ النّفس على الأهل:

تقديم الأخصّ على الخاصّ

تقديم النّفسِ على الأهل هو من باب تقديم الأخصّ على الخاصّ؛ فمن خَسَر نفسَه - وهي ذاتُه - فخسرانُه غيرَها من بابٍ أولى، ولأنّه بخسارة نفسه كان سببًا لخسارة أهله، وفي الجمع بينهما دلالةٌ على خسرانه لكلّ شيء؛ لذلك كانت صورتهم وهم يُعْرَضون على النّار خاشعين من الذّلّ، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم فقدوا كلّ أسبابِ النّفع، وانقطعت بينهم وبين أهليهم كلُّ الأسباب؛ حيثُ أعرض الجميعُ عنهم، وكانوا يَرجون النّفعَ منهم.

سرُّ فَصْلِ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الإخبارُ بسوءِ مصيرِ الكافرينَ

فُصِل قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾؛ لأنّه استئنافٌ يُؤكّد فيه تعالى صِدقَ كلامِ المؤمنينَ[3] وتأكيدَ هلاكِ الظّالمين، ويحتملُ أنْ يكونَ مِنْ قولِ المؤمنينَ يومئذٍ، حكاهُ اللّهُ عنهُم.

بلاغةُ افتتاحِ الجملةِ بـ: ﴿أَلَآ إِنَّ﴾:

عذابُ الظّالمينَ واقعٌ لا محالةَ

افتُتِحَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ بـ ﴿أَلَآ﴾ الَّتي يُؤتَى بها في أوَّلِ الكلامِ الَّذي لهُ أهمِّيَّةٌ وشأنٌ، ثمَّ أُعقِبَ بالتَّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ؛ لتحقيقِ مضمونِه، وبيانِ أنَّهُ واقعٌ دونَ شكٍّ، وللإشعارِ بلفت انتباه الحاضرين لسماع الحُكْم في الظّالمين، بأنّهم في عذاب مقيم.

بلاغةُ الإظهارِ في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظُّلمُ سببُ العذابِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ألا إنَّهم في عذابٍ مقيمٍ)، لكنْ عُدِلَ إلى

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 231.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 82، وأبو موسى، آل حم، ص: 214.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 42، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84.

الإظهارِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ للتَّنبيهِ على علَّةِ العذابِ، وهي الظُّلمُ المرادُ بهِ الشِّركُ[1]، ولأنَّ الجملةَ تذييلٌ، فيناسبُهُ الإظهارُ في مقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ شأنَ التَّذييلِ أنْ يكونَ مستقلَّ الدّلالةِ على معناهُ؛ لأنَّهُ كالمَثَلِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ المعرَّفِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

رُسوخُ المشركينَ في الظُّلمِ

جيءَ بصيغةِ اسم الفاعلِ المجموعِ المعرَّفِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ للإشارةِ إلى رُسوخِ الكفرةِ في وصفِ الظُّلم، بحيثُ لا ينفكّونَ عنهُ[3]، وفي ذلكَ مبالغةٌ في ذمِّهم، وتأكيدٌ لاستحقاقِهم العذابَ المقيمَ، وكأنّ التّعريف صار بمثابة العلَميّة لهم.

سرُّ التّعبيرِ بالظّرفيّة ﴿فِى﴾:

العذابُ محيطٌ بالكافرينَ

أوثِر التّعبيرُ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِه ﷻ: ﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾، دون أن يقول: (لهم عذاب مقيم)؛ للدّلالة على أنَّهم غارقونَ في العذابِ، وأنَّ العذابَ صارَ لهُم بمنزلةِ الوِعاءِ، وهم كائنونَ فيه[4]، فلا ينفكّون عنه، ولا ينفكّ عنهم.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿عَذَابٍ﴾:

تنكيرُ ﴿عَذَابٍ﴾ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ لتفخيمِ العذابِ، وتعظيمِ شأنِه، أي: في عذابٍ عظيمِ الشَّأنِ، لا يُقادَرُ قَدْرُ هَوْلِه، ولا يعلمُ كُنْهَهُ إلّا اللّه.

سرُّ وصفِ العذابِ بـ ﴿مُّقِيمٍ﴾:

عذابُ المشركينَ دائمٌ لا ينقطعُ

وُصِفَ العذابُ بالإقامةِ في قولِه تعالى: ﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 258، وأبو موسى، آل حم، ص: 215.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 129.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 345، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 548.

(4) أبو موسى، آل حم، ص: 215.

للدّلالةِ على أنَّهُ دائمٌ لا ينقطعُ[1]، فلذلكَ لا يَفْتُرُونَ منهُ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ[2]، وفي ذلكَ مزيدُ تهويلٍ لشأنِ هذا العذابِ.

بلاغةُ المجازِ العقليّ:

المشركون همُ المقيمونَ في العذابِ حقيقةً

في قوله تعالى: ﴿عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ المشركينَ هُمُ المقيمونَ في العذابِ حقيقةً[3]، وليس العذابُ هو المقيمَ، إنّما أراد المبالغةَ في شدّة عذابهم؛ فليس لهم مكانٌ يقيمون فيه إلّا العذاب.

بلاغةُ التَّذييلِ في جملةِ الفاصلةِ:

عذابُ المشركينَ ألوانٌ وأنواعٌ مختلفةٌ

جملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ تذييلٌ للجُمَلِ الَّتي قبلَها، مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ [الشّورى: 44] الآياتِ؛ لأنَّ حالةَ كونِهم في عذابٍ مقيم أعمُّ مِنْ حالةِ تلهُّفِهم على أنْ يُرَدّوا إلى الدُّنيا، وذُلِّهم وسماعِهم الذَّمَّ[4]، ويدلّ هذا التّذييلُ على أنّ الكافر والفاسق يدوم عذابُهما، ويدلّ أيضًا على أنّ لفظَ الظّالم إذا أُطلِقَ يكون مخصوصًا بالكفر[5].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الخشوعُ والخضوعُ والضَّراعةُ:

انكسارُ المشركينَ في أصواتِهم وأبصارِهم

الخضوعُ يكونُ في البدنِ والجوارحِ، والضَّراعةُ تكونُ في القلبِ[6]، والخشوعُ يكونُ في الصَّوتِ والبصرِ[7]، وهو أثرُ انكسارِ النَّفْسِ مِنِ استسلامٍ واستكانةٍ، فيكونُ للمَخافةِ، وللمَهابةِ، وللطّاعةِ، وللعجز

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 46.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 345.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 215.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 129.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 181.
(6) الرّاغب، المفردات: (خشع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خشع).

عنِ المقاومةِ[1]، وقد عُبِّرَ بهِ هنا؛ للتَّنبيهِ على سوءِ حالِ المشركينَ؛ إذ يعتريهِم الانكسارُ في الصَّوتِ والبصرِ.

الخِزْيُ والذُّلُّ:

الخِـزْيُ ذُلٌّ معَ افتضاحٍ

الفرقُ بينَ الخِزْيِ والذُّلِّ: أنَّ الخِزْيَ ذُلٌّ معَ افتضاحٍ[2]، فيكونُ الذُّلُّ أعمَّ، وقد عُبِّرَ بهِ في الآيةِ لعمومِه، ولأنَّ هيئتَهم - وهي النَّظرُ الخفيُّ والخشوعُ - تفضحُهُم، فيتحقَّقُ الخِزْيُ أيضًا.

الإخفاءُ والإسرارُ:

نظرُ المشركينَ مقرونٌ بالذُّلِّ

يشتركُ الإخفاءُ والإسرارُ في أنَّ كلًّا منهما يُطلَقُ على سَتْرِ الشَّيءِ، فيقالُ: خَفِيَ الشَّيءُ يَخْفَى، وأخفيتُهُ[3]، ويقالُ: أسرَرْتُ الشَّيءَ إسرارًا، خلافُ أعلنتُهُ[4]، والسِّرُّ أيضًا الحديثُ المكتومُ في النَّفْسِ[5]، وقد يُطلَقُ الإخفاءُ على إظهارِ الشَّيءِ، تقولُ: خَفَيْتُ الشَّيءَ، إذا أظهرتَهُ[6]، ومَنْ تتبَّعَ مواضعَ استعمالِ الإخفاءِ والإسرارِ في القرآنِ الكريمِ يَلحَظُ أنَّ استعمالَ الإخفاءِ أكثرُ، وقد وُصِفَ الطَّرْفُ بالخفاءِ في قولِه تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾؛ لدلالتِهِ على الضَّعفِ والانكسارِ، كما تقدَّمَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 215.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خفي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرر).
(5) الرّاغب، المفردات: (سرر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خفي).

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ٤٦﴾ [الشّورى: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الإخبارُ بانتفاءِ الوليِّ بعدَ الإخبارِ بالعذابِ المقيم

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة مشهدَ العذاب للظّالمين، ووَصَفَهُ القرآنُ بأنّه عذاب مقيم، وكانتِ العادةُ جاريةً بأنَّ مَنْ وقعَ في شدَّةٍ وجدَ في الأغلبِ وليًّا ينصرُهُ، أو سبيلًا يُنجيه؛ جاءت هذه الآيةُ لتنفيَ ما اعتاده المشركون في الدّنيا من طلب النّصرة، وبيّنت أنّه لا وليَّ لهُم في الآخرة[1]، ولا سبيلَ للوصول إلى ذلك.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: (ولي) أصلٌ يدلُّ على قُرْبٍ؛ فالوَلْيُ: القُرْبُ، يقالُ: تباعدَ بعدَ ولْيٍ، أي: قُرْبٍ[2]، ومن الباب: المَوْلَى، ولهُ معانٍ؛ منها: الصّاحبُ، والحليفُ، والنّاصرُ، والجارُ، وكلُّ مَنْ وليَ أمرَ آخرَ فهو وليُّهُ[3]، والوَليُّ لهُ معانٍ كثيرةٌ أيضًا؛ منها: المُحِبُّ، والصَّديقُ، والنَّصيرُ[4]، والمرادُ بالأولياءِ هنا: الأعوانُ والأنصارُ[5].

2) ﴿يُضْلِلِ﴾: (ضلل) أصلٌ يدلُّ على ضياعِ الشَّيءِ وذهابِهِ في غيرِ حقِّهِ[6]، وغيابِ الشَّيءِ في أثناءِ شيءٍ، بحيثُ لا يتميَّزُ هذا عن ذاكَ[7]، يقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبَنِ، أي: غابَ، وأضلَلْتُ المَيِّتَ: دَفَنْتُهُ، والشَّيءَ: غيَّبْتُهُ، وكأنَّهُ شيءٌ قد ضاعَ[8]، والضَّلالُ بمعنى الضَّياعِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 345.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ: (ولي).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (ولي).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 46.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلل).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (ضل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلل).

ويقال لكلّ عدول عنِ المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، ويُطلَقُ بمعنى العُدولِ عنِ الطَّريقِ المستقيمِ، ويقابلُهُ الهِدايةُ[1]، وهذا هو المرادُ بالضَّلالِ هنا.

3) ﴿سَبِيلٍ﴾: (سبل) أصلٌ يدلُّ على امتدادِ شيءٍ، ومنْ ذلكَ يقالُ: أسبلَ الزَّرعُ، إذا خرجَ سُنْبُلُه، وامتدَّ طولًا[2]، والسَّبيلُ: الطَّريقُ الَّذي فيه سُهولةٌ، ويقالُ لسالكِ السَّبيلِ: سابلٌ، ويُستعمَلُ السَّبيلُ لكلِّ ما يُتوصَّلُ بهِ إلى شيءٍ، خيرًا كانَ أو شرًّا[3].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

الكافرون ليس لهم أعوانٌ وأنصارٌ يمنعونهم من عذاب الله

يُخبِرُ ﷻ عن حالٍ آخَرَ للمشركينَ المُعذَّبينَ، فيقولُ: ولم يكنْ لهؤلاءِ الكافرينَ حينَ يُعذِّبُهمُ اللّهُ يومَ القيامةِ أعوانٌ وأنصارٌ يمنعونَهم منْ عذابِ اللّه، وينقذونَهم منهُ، فأصنامُهم الَّتي كانوا يعبدونَها لا تضرُّ ولا تنفعُ، ومَنْ يَخْذُلْهُ اللّهُ عن طريقِ الحقِّ فما لَهُ مِنْ طريقٍ إلى الوصولِ إلى الحقِّ في الدُّنيا، ولا إلى الجنَّةِ في الآخرةِ؛ لأنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيدِهِ تعالى، دونَ كلِّ أحدٍ سواهُ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾:

الكافرونَ خالدونَ في العذابِ بلا نصيرٍ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾، والغرضُ مِنْ هذا العطفِ: تأكيدُ خلودِهم في العذابِ، وردُّ مزاعمِهم أنَّ آلهتَهم تنفعُهم عندَ اللّهِ[5]، وفي هذا العطف دليلٌ على مزيد ضعف الظّالمين، وعلى كمال قدرتِه سبحانه بأنّه لا يوجد من يعارضُ قدرتَه.

---

(1) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (ضلل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبل).
(3) الرّاغب، المفردات: (سبل).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 555، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 215، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 59.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 130، وأبو موسى، آل حم، ص: 216.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ المنفيِّ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

نفيُ وجودِ وليٍّ مِنْ دونِ اللهِ

عُبِّرَ بفعلِ الكونِ المنفيِّ ﴿وَمَا كَانَ﴾ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ وجودَ الأولياءِ غيرُ ممكنٍ، ولا يُتصوّر وجودُه أصلًا، وما كان للمشركين أن يُفَكّروا في ذلك، فليسَ المعنى نفيَ وجودِ الوليِّ، وإنَّما المعنى على استحالةِ أنْ يوجَدَ وليٌّ ينصرُهم مِنْ عذابِ اللّهِ؛ لأنَّ اللّهَ لا يُغالَبُ، ولا يُنتصَرُ منهُ سبحانَهُ[1].

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لَهُم﴾:

لا يملكُ المشركونَ أولياءَ

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ للملكِ والاختصاص تتعلّق بالخبر المُقدّم لـ ﴿كَانَ﴾[2]، فيفيدُ الكلامُ انتفاءَ الأولياءِ الَّذينَ يكونونَ للمشركينَ، فهم لا يملكون من ينصرهم ويدافعُ عنهم، بل هم مُفلِسونَ مِنْ كلِّ مُعينٍ وناصرٍ.

غرضُ تقديمِ ﴿لَهُم﴾:

المسارعةُ في إبطالِ اعتقادِ المشركينَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُم﴾ على ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾: للاختصاص والعنايةِ بكونِ المنفيِّ متعلِّقًا بهم، وللتَّشويقِ للمؤخَّر، ولأنَّ في المؤخَّرِ نوعَ طولٍ بما معَهُ مِنَ الوصفِ، فتقديمُهُ ربَّما يُخِلُّ بتجاوبِ أطرافِ النّظمِ، وفيه توبيخ للكافرين على زعمهم أنّ الأصنام تنفعهم في دفع العذاب عنهم.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ دون غيرها:

نفيُ الولايةِ قطعَ كلِّ ما يدورُ حولَ معاني الرّعايةِ والنّصرةِ

آثَرَ القرآنُ الكريم التَعبيرَ بـ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ لِما يحمله هذا اللّفظ من معنى القُرْب والمودّة والمعاونة، وكلّها تدور حولَ شدّة العنايةِ والرّعاية للمصالح، وعلى رأسها النّصرةُ؛ لذلك نفى القرآنُ هذه الولاية في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ لأنّهم كانوا يعتقدون فيها، فقطع

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 216.

(2) قباوة، المفصّل، ص: 1722.

القرآنُ عنهم كلّ ما يدور حول معاني الرّعاية والنّصرة من خلال نفي الولاية.

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في: ﴿مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾:

انتفاءُ وجودِ أولياءِ للمشركينَ انتفاءً مؤكَّدًا

﴿مِّن﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ جيء بها في سياق النَّفي؛ لتأكيدِ نفيِ وجود أولياءَ لهُم في يوم القيامة[1]، والمقامُ يقتضي هذا التَّوكيدَ؛ مبالغةً في إبطالِ اعتقادِهم أنَّ الأصنامَ تضرُّ وتنفعُ.

سرُّ تنكيرِ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ وجمعِهِ:

انتفاءُ أولياءِ المشركينَ انفرادًا واجتماعًا

جيءَ بلفظِ الأولياءِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ مُنكَّرًا؛ لإفادةِ العموم؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفي تعمُّ، وجاء مجموعًا باعتبار أفراد الكفرة؛ فكأنّه قيل: وما كان لأحد منهم من وليّ، أو باعتبار ما كانوا يدّعون من دون اللّه منَ الأصنام والأوثان، ويكون الجمع لإفادةِ معنى الاستغراق؛ أي: فما لهُم مِنْ وليٍّ؛ لأنَّ النُّصرةَ إذا انتفَتْ مِنَ الجمعِ انتفَتْ مِنَ الواحدِ مِنْ بابٍ أولى[2].

بلاغةُ الوصفِ بالنُّصرةِ:

الـوِلايـةُ المنفيَّةُ وِلايةُ النُّصرة

وُصِفَ الأولياءُ المنفيّونَ بالنُّصرةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ المرادَ هنا وِلايةٌ خاصَّةٌ، وهي وِلايةُ النَّصرِ[3]، وإذا كانَ الوليُّ غيرَ قادرٍ على النَّصرِ فهو كَلا وليٍّ[4]، وأيضًا جملةُ ﴿يَنصُرُونَهُم﴾ مِنْ توابعِ معناها: أنَّ الَّذينَ اتَّخذوا أولياءَ مِنْ دونِ اللّهِ يحاربونَهُ، وينتصرونَ بآلهتِهم على العزيزِ القادرِ، وها هم الآنَ في العذابِ المقيمِ، ولا يمكنُ أنْ يكونَ لهُم مِنَ اللّهِ ناصرٌ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 130.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 346.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 130.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 346.
(5) أبو موسى، آل حم، ص: 216.

أولياءُ المشركينَ لا ينفعونَهم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ

بلاغةُ صيغةِ المضارعِ ﴿يَنصُرُونَهُم﴾:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾؛ لبيانِ استمرارِ نفيِ النُّصرةِ وتجدُّدِه، أي: ليسَ لهُم أولياءُ يوجدونَ نَصرَهم في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ، لا في الدُّنيا بأنْ يَقدِروا على إنقاذِهم مِنْ وصفِ الظُّلم، ولا في الآخرةِ بإنقاذِهم مِنَ العذابِ[1].

اللهُ هو الوليُّ الحقُّ

بلاغةُ التَّقييدِ بـ ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾:

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾ صفةٌ ثانيةٌ للأولياءِ، وهي صفةٌ كاشفةٌ، و﴿مِّن﴾ صلةٌ لتأكيدِ تعلُّقِ ظرفِ ﴿دُونِ﴾ بالفعلِ[2]، وفي الكلامِ تأكيدٌ لنفيِ النّاصرِ، وبيانُ أنَّهُ وحدَهُ سبحانَهُ القادرُ على دفعِ العذابِ عنِ المشركينَ إنْ شاءَ[3].

توبيخُ المشركين في اعتقادهم ما عبدوه من دون الله

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ: ﴿دُونِ﴾:

أوثِر التّعبير بـ ﴿دُونِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾ لتوبيخ المشركين في اعتقادهم ما عبدوه من دون الله؛ لأنّ لفظ ﴿دُونِ﴾ يدور معناه حول الحقارة والدّونيّة، وفي هذا دلالةٌ على حقارة ما كان المشركون يعتقدون فيه الولايةَ والنّصرة ومهانته، وفيه بيانٌ لعُلوّه سبحانه على جميع المخلوقات، وأنّها دونه.

ذو العظَمةِ والجلالِ هو الوليّ النّاصر

سرُّ اختيارِ لفظِ الجلالةِ:

اختيرَ لفظُ الجلالةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ مِنْ صفاتِ الجلالِ والكمالِ[4]، ومنها القدرةُ والعِزَّةُ، ففي التَّعبيرِ بهِ تأكيدٌ لنفيِ النّاصرِ مِنْ دونِ الحقِّ ﷻ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 346، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 548.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 130.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 346.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 346.

اللهُ هو المُضِلُّ لمَنْ يشاءُ

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾:

الظّاهرُ أنَّ الواوَ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائل: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، ونُكْتَةُ العطفِ: أنَّهُ سبحانَهُ لمّا بيَّنَ ما لهُم، بيَّنَ ما لمَنِ اتَّصفَ بوصفِهم كائنًا مَنْ كانَ، فكأنَّهُ قالَ: لأنَّهُ هو الَّذي أضلَّهم(1).

لا هاديَ لمَنْ شاءَ اللهُ إضلالَهُ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ:

جيءَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾؛ لإفادةِ الرَّبطِ بينَ إضلالِهِ تعالى وبينَ انتفاءِ السَّبيلِ للمُضَلِّ ربطًا قويًّا لا يتخلَّفُ، لِما عَلِمَ سبحانه مِن استعداده للشّرّ والفساد، وارتكابه للشّرور والآثام، وفي ذلكَ حَثٌّ على اللُّجوءِ إليهِ ﷻ للهدايةِ إلى سواءِ السَّبيلِ، ونبذِ الأصنامِ والأوثانِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُضۡلِلِ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾؛ للتَّنبيهِ على المبالغةِ في الإضلالِ، أي: يوجِدُ ضلالَهُ لمن شاءَ مِن خَلْقه بسابق عِلْمه فيهم.

دلالةُ فَكِّ الإدغامِ في: ﴿يُضۡلِلِ﴾:

جاء الفعل ﴿يُضۡلِلِ﴾ مفكوكًا ولم يأت مُدغمًا؛ مراعاةً لسياق الآية المبنيّ على التّحذير والتّرهيب ممّا وقع فيه المشركون من ضلال بعبادة الأصنام؛ فكان المناسبُ أن يأتي الفعلُ مُظهَرًا من باب التّأكيد على سبيلِ الاستمرارِ، وذلكَ بعدمِ البيانِ لهُ، أو بعدمِ التَّوفيقِ بعدَ البيانِ(2)، وفيه دلالةٌ على أنّ الإنسانَ هو الذي يحرص على الضّلال، بابتعاده عن كلّ أسباب الهداية، فيزيدُه اللّهُ ضلالًا على ضلاله.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 346.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 346، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 548.

سرُّ إظهارِ لفظِ الجلالةِ:

لا هاديَ لِمَنْ أضلَّهُ العظيمُ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ومَنْ يُضلِلْهُ) بإضمارِ لفظِ الجلالةِ لتقدُّمِ ذِكْرِه، وإنَّما عُدِلَ إلى إظهارِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾؛ لتقويةِ الإضلالِ بكونِهِ صادرًا مِنْ ذي العظَمةِ والجلالِ[1]، ولتستَقِلَّ الجملةُ، وتكونَ تذييلًا يَجْري مَجْرَى الأمثالِ.

سرُّ إيثارِ الجملةِ الاسميَّةِ على الفعليَّةِ:

أوثِرَتِ الاسميَّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ على الفعليَّةِ، فلم يُقَلْ: (فلا يُهدَى) أو نحوُ ذلكَ؛ لِما تفيدُهُ الاسميَّةُ مِنْ أنَّ انتفاءَ السَّبيلِ أمرٌ ثابتٌ دائمٌ، لا شكَّ فيهِ.

معنى الفاءِ في: ﴿فَمَا لَهُۥ﴾:

ارتباطُ فعلِ الشَّرطِ بجوابِهِ

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ[2]، فتفيدُ تقويةَ الاتِّصالِ بينَ فعلِ الشَّرطِ وبينَ جوابِه، وفي ذلك دلالةٌ على زيادة التّوكيد للمعنى المراد من قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: فليس له سبيلٌ للوصول إلى الهداية ودفع الضّلال.

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لَهُۥ﴾:

اللّامُ الجارَّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ للمِلكِ، فتفيدُ بمعونةِ السِّياقِ أنَّ مَنْ أضلَّهُ اللهُ تعالى لا يملكُ سبيلًا إلى الهدايةِ.

سرُّ تقديمِ ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿مِن سَبِيلٍ﴾:

العنايةُ بإيقاعِ النّفيِ على كلّ السّبلِ له

قُدِّمَ ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾؛ للعنايةِ بإيقاعِ النَّفيِ على شيءٍ يختصُّ بهم، والتَّشويقِ للمؤخَّرِ، ولِما في تأخيرِ ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ مِنْ رِعايةِ الفاصلةِ.

دلالةُ ﴿مِن﴾ في ﴿مِن سَبِيلٍ﴾:

لا أملَ في هدايةِ مَنْ أضلَّهُ اللهُ

﴿مِن﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ صلةٌ لتوكيدِ النَّفيِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 346.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 48.

المستفادِ مِنْ (ما)، وفي ذلكَ مبالغةٌ في بيانِ أنَّ مَنْ أضلَّهُ ذو العظمةِ والجلالِ فلا هاديَ لهُ[1]، إذ تفيدُ ﴿مِن﴾ الدّاخلةُ على النَّكرةِ المنفيَّةِ أنَّهُ قد استُقصِيَ البحثُ عن سبيلٍ لهذا الضّالّ، فلم يوقَفْ عليهِ.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿سَبِيلٍ﴾:

كلُّ طُرُقِ الهدايةِ مسدودةٌ في وجهِ مَنْ أضلَّهُ اللهُ

تنكيرُ ﴿سَبِيلٍ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ للعموم؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفي تعُمُّ، فيشملُ كلَّ سبيلٍ مُخلِّصٍ مِنَ الضَّلالِ وآثارِهِ[2]، والمعنى: فما لَهُ مِنْ طريقٍ يصلُ بهِ إلى الحقِّ في الدُّنيا، والجنَّةِ في الآخرةِ؛ لأنَّهُ قد سُدَّتْ عليهِ طُرُقُ النَّجاةِ[3].

بلاغةُ التَّذييلِ في جملةِ الفاصلةِ:

لا وليَّ ينصرُ المشركينَ، ولا سبيلَ لخلاصِهِم

قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ تذييلٌ لقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾، والغرضُ منهُ توكيدُ معناهُ[4]؛ إذِ انتفاءُ السَّبيلِ يشملُ انتفاءَ الأولياءِ؛ إذِ الوليُّ عادةً سبيلٌ مِنْ سُبُلِ الخلاصِ.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

تشابه قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ فاصلةُ هذه الآية مع قوله قبل ذلك في نفس السّورة: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ [الشّورى: 44]، وكلّ آيةٍ وُضِعَت في موضعها الدّقيق؛ فلا يَظُنّ البعضُ جوازَ تبادلِ الآيتين لقُرب المعنى منهما؛ لأنّ الآية الأولى لها دلالتُها المناسبة لسياقها، والآية الثّانية كذلك، ولو وُضِعَتْ هذهِ الآيةُ الَّتي هي رأسُ الفصلِ، بإزاءِ هذهِ الآيةِ الَّتي هي خاتمةُ الفصلِ؛ لوُجِدَ الكلامُ واحدًا، وإنْ كانَتْ جملةُ الفاصلةِ وضعَتْ كلمةً مكانَ كلمةٍ، فشقَّتْ للجملةِ طريقًا آخرَ أصابَتْ بهِ مقامَها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 346، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 548.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 130.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 46.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 258، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 130.

بيانُ ذلكَ: أنَّ الجملةَ الَّتي هي رأسُ الفصلِ قالَتْ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ [الشورى: 44]، وفي هذا معنى أنَّهُ ليسَ هناكَ أحدٌ يدفعُ عن هذا الَّذي أضلَّهُ اللّهُ، وكانَ هذا إيماءً خفيًّا بذكرِ صورةِ الجحيمِ الَّذي حُكِمَ عليهم به، ثمَّ لمّا تمَّ وضعُهم في الجحيم بدخولِ ﴿فِي﴾ على كلمةِ ﴿عَذَابٖ﴾، ثمَّ أُغلِقَتْ عليهم أبوابُ الجحيم بذكرِ كلمةِ ﴿مُّقِيمٖ﴾؛ جاءَتْ كلمةُ ﴿سَبِيلٖ﴾ في آيةِ الخاتمة مكانَ كلمةِ (وليٍّ)؛ لأنَّ المرادَ هنا: أنَّهُ لا سبيلَ لهُ إلى الهروبِ، وكلُّ الطُّرُقِ مغلَقةٌ، وكلُّ ما يُتوهَّمُ أنَّهُ سبيلٌ للتَّخفيفِ لا وجودَ لهُ، وبهذا التَّغييرِ الطَّفيفِ اختلفَ الحالُ في الجملةِ الَّتي فتحتِ الموقفَ، والجملةِ الَّتي أغلقتِ الموقفَ، وهذا مِنْ أدقِّ أسرارِ البيانِ[1].

وممّا يُذْكَر في بلاغة التَشابه: دِقّةُ التّناسبِ لكلّ آية في موضعها، وأنّ الآية الأولى جاءت بعد قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشورى: 43]، وسياقُها فيه دلالةٌ على ولاية اللّه لمن هُدِيَ بإرشادهم إلى عزائم الأمور، ناسبَ بعد ذلك نفيُ ولايته عمّن أضلّ بقوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ [الشورى: 44]، وأمّا الموضعُ الثّاني فقد جاء مُصَدّرًا بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾ ردًّا على قولهم: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾ [الشورى: 44]؛ لذلك ناسبَه التّعبيرُ بقوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٖ﴾، وعلى ذلك فلا يوجد تَكرارٌ[2].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الضَّلالُ والغَيُّ:

الغَيّ أعمُّ منَ الضّلال

الفرقُ بينَ الضَّلالِ والغَيِّ: أنَّ الضَّلالَ يعني الضَّياعَ والتِّيهَ، والعُدولَ عنِ القَصْدِ وطريقِ الحقِّ، والغَيَّ يعني الجهلَ بالأمورِ،

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 217.

(2) عبد العظيم، استدراكات ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 384.

وفسادَ الرَّأيِ والاعتقادِ، والغَيُّ يُؤدّي إلى الضَّلالِ؛ فمَنْ جَهِلَ بالأمورِ، وفَسَدَ رأيُهُ واعتقادُهُ، جارَ عنِ القَصْدِ، وانحرفَ عنِ الطَّريقِ المُستقيمِ[1]، وقد عُبِّرَ بالإضلالِ هنا؛ لدلالتِهِ على أنَّهُ ﷻ يجعلُ مَنْ يشاءُ جائرًا عن القَصدِ.

(1) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 683.

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ٤٧﴾ [الشّورى: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الـوعـيـدُ تـحذير لطلبِ الاستجابةِ

لمّا أطنبتِ الآياتُ القرآنيّة فيما سبق في ذِكْر الوعدِ والوعيدِ؛ ذكرت بعدَهُ المقصودَ من هذا التّرهيب، وهو دعوة الظّالمين المنحرفين عن طريق الهدى إلى أن يستجيبوا لربّهم، فقالَ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾[1].

ومنها: لمّا ذكرَ تعالى في الآيات السّابقة ما يكونُ في يوم القيامةِ مِنَ الأهوالِ والأمورِ العِظام؛ حذَّرَ منهُ، وأمرَ بالاستعدادِ لهُ؛ للنَّجاةِ مِنْ هذهِ الأهوالِ بقوله: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾: (جوب) أصلٌ يدلُّ على مراجعةِ الكلامِ[3]، وجوابُ الكلام هو ما يقطع الجَوْب؛ فيَصلُ من فم القائل إلى سمع المستمع؛ لكن خُصّ بما يعود منَ الكلام دون المبتدأ منَ الخطاب، ومِنْ ذلكَ: الجوابُ الَّذي يقالُ في مقابلةِ السُّؤالِ، والاستجابةُ: الإجابةُ، وحقيقتُها: هي التَّحرّي للجوابِ والتَّهيُّؤ لهُ[4]، ومعنى ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾: أجيبوهُ إذا دعاكم إلى ما فيهِ نجاتُكم[5].

2) ﴿لَّا مَرَدَّ﴾: (ردد) أصلٌ يدلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ، تقولُ: رَدَدْتُ الشَّيءَ أرُدُّهُ رَدًّا، وسُمِّيَ المُرتدُّ بذلكَ؛ لأنَّهُ أرجعَ نفسَهُ إلى الكفرِ[6]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 608، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 25/ 98.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 215، وأبو موسى، آل حم، ص: 218.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوب).
(4) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 60.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردد).

وقيلَ: الرَّدُّ: صرفُ الشَّيءِ بذاتِهِ أو بحالةٍ مِنْ أحوالِه، فمِنَ الرَّدِّ بالذّاتِ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، ومِنَ الرَّدِّ إلى حالةٍ كانَ عليها قولُهُ سبحانَهُ: ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: 149][1]، ويقالُ: استردَّ الشَّيءَ، أي: استرجعَهُ[2]، ومعنى ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾: لا يردُّهُ أحدٌ بعدَ ما حكمَ بهِ سبحانه[3].

3) ﴿مَّلۡجَإٖ﴾: (لجأ) أصلٌ يدلُّ على حيِّزٍ قويٍّ حصينٍ، يحفظُ ما يلوذُ بِهِ ويدخلُهُ[4]، ومِنْ ذلكَ: الملجأُ، وهو ما يُتحصَّنُ بِهِ قلعةً كانَ أو نحوَها، ويُطلَقُ على النّاسِ أيضًا، فيقالُ: فلانٌ ملجأُ فلانٍ، أي: يحوطُهُ ويحويهِ[5]، والمرادُ بالملجأِ هنا: ما يُلاذُ بِهِ[6].

4) ﴿نَّكِيرٖ﴾: (نكر) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ المعرفةِ[7]، فالإنكارُ ضدُّ العِرْفانِ[8]، ويقالُ: أنكرتُ على فلانٍ، إذا فعلتُ بِهِ فعلًا يردعُهُ[9]، قال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤﴾ [الحج: 44]، وأصلُه أن يَرِد على القلب ما لا يتصوّره، ومعنى ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾: إنكارٌ وجحودٌ لِما اقترفتُم[10].

المَعْنى الإجْماليّ:

اتِّقاءُ العذابِ يكونُ بالإيمانِ والطّاعةِ

يأمرُ اللّهُ تعالى المسرفينَ على أنفسِهم بالكفرِ، فيقولُ: أجيبوا داعيَ اللّه، وهو رسولُه، وآمِنوا به، واتَّبِعوهُ على ما جاءَكم بِهِ مِنْ عندِ ربِّكم، مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ عظيمٌ، لا شيءَ يَرُدُّ مجيئَهُ، وذلك

(1) الرّاغب، المفردات: (ردد).
(2) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (ردد).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 60.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (لجأ).
(5) الرّاغب، المفردات: (لجأ).
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 60.
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(8) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (نكر).
(9) الرّاغب، المفردات: (نكر).
(10) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 60.

يومُ القيامةِ أو يومُ ورودِ الموتِ، ما لكم أيُّها المخاطَبونَ مِنْ مَعْقِلٍ تحترزونَ فيه، ولا ملجأ تلجؤونَ إليه، ولا عُذْرَ لكم، أو لا مُنكِرَ لِما يُلِمُّ بكم منَ العذاب(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾:

الزَّواجرُ تُهيِّئُ بعضَ النّفوس للقبولِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافُ كلامٍ جديدٍ، فيه معنى النَّتيجةِ للمواعظِ المتقدِّمةِ؛ لأنَّ ما تقدَّمَ مِنَ الزَّواجرِ يُهيِّئُ بعضَ النُّفوسِ لقَبولِ دعوةِ الإسلامِ(2).

نُكْتَةُ الالتفاتِ في: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾:

الاهتمامُ بالمخاطَبِ مِنْ دواعي الإجابةِ

في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ التفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى الخطابِ، غرضُه بيانُ مزيدِ عنايةٍ، ولفتُ انتباهِ عباده للاستجابة إلى دعوته سبحانه، ولهُ دلالةٌ أخرى، وهي رفعُهم إلى مقامِ خطابِهِ جلَّ شأنُهُ، وتقريبُهم منهُ، وأنَّهُ صارَ معَهم، وهذا أدعَى إلى الإجابةِ(3).

دلالةُ الأمرِ في: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾:

الاستجابةُ للهِ واجبةٌ

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ للوجوب، فيُفيدُ أنَّ استجابةَ المخاطَبينَ أمرٌ فَرْضٌ عليهم، ويدلُّ على الوجوب ما في السِّياقِ مِنَ التَّهديدِ لغيرِ المستجيبينَ، وفيه دلالةٌ على تأكيد الاستجابة وسرعةِ القيام بمضمون ما فيها؛ لأنّها عنوانٌ على طاعتهم للّه ربّ العالَمين.

سرُّ التّعبيرِ بالاستجابة دونَ الإجابة:

طلبُ الإجابةِ مؤكَّدٌ

آثَر القرآن الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ بزيادةِ السِّين والتّاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ دون (أجيبوا)؛ لأنَّ

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 555، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 215، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 61.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 130.

(3) أبو موسى، آل حم، ص: 218.

الاستجابة تكون فيما فيه القَبولُ لِما دُعِيَ إليه؛ بخلاف أجاب، فهو أعمّ لأنّه قد يجيب بعدم القَبول، وبينهما عمومٌ وخصوص وجهيّ، كما أنّ الهمزة والسّين والتّاء تدلّ على الطّلب، وكأنّ الآية تُعَلِّمُهم طلبَ التّوفيق منَ اللّه للإجابة[1]، ويجوز أن تكون السّين والتّاء لتأكيدِ الأمرِ بالإجابةِ[2]، ولذلكَ لم يُقَلْ: (وأجيبوا ربَّكم)، أو نحوُ ذلكَ.

بلاغةُ المجازِ في لفظِ الاستجابةِ:

امتثالُ أمرِ اللهِ فرضٌ على النّاسِ

أُطلِقَتِ الاستجابةُ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ على امتثالِ ما يطالبُهم بِه النَّبيُّ ﷺ تبليغًا عنِ اللّه تعالى على طريقةِ المجازِ؛ لأنَّ استجابةَ النِّداءِ تستلزمُ الامتثالَ للمُنادي، وقد كثُرَ إطلاقُها على إجابةِ المستنجِدِ، والمعنى: أطيعوا ربَّكم، وامتثلوا أمرَهُ[3].

دلالة اللّامِ في: ﴿لِرَبِّكُم﴾:

المبالغةُ في الاستجابةِ للهِ

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ لتأكيدِ تعديةِ الفعلِ إلى المفعولِ، نحوُ: حمدتُ لهُ، وشكرتُ لهُ، وتُسمَّى لامَ التَّبليغِ، ولامَ التَّبيينِ، وأصلُهُ: استجابَ دعاءَهُ لهُ، أي: لأجلِهِ لهُ، فاختُصِرَ لكثرةِ الاستعمالِ، فقالوا: استجابَ لهُ، وشكرَ لهُ[4].

سرُّ إيثارِ لفظِ الرُّبوبيّةِ (ربكم) دون لفظ الجلالة:

المُحسِنُ حَرِيٌّ بالاستجابةِ لهُ

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بإسناد الاستجابة للفظ الرّبوبيّة (ربكم) مضافًا إلى ضميرِ المخاطَبينَ في قولِه ﷻ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾، دون لفظ الجلالة (اللّه) كما في سورة الأنفال: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: 24]؛ لِما يدلُّ عليهِ هذا اللَّفظُ مِنَ الإحسانِ والتَّربيةِ، والتَّذكيرِ بنعمةِ الإيجادِ مِنَ العدمِ، وفي ذلكَ حثٌّ على الإقبالِ والاستجابةِ، أي:

(1) السَّمين، الدّرّ المصون: 2/ 290.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 131، وأبو موسى، آل حم، ص: 219.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 131.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 131، وأبو موسى، آل حم، ص: 219.

استجيبوا لربِّكم الَّذي لم ترَوْا إحسانًا إلّا وهو منهُ[1]، وإذا مسَّتْكم البأساءُ والضَّرّاءُ ضلَّ مَنْ تدعونَ إلّا إيّاهُ[2]، ولِما في هذهِ الإضافةِ مِنَ التَّقريبِ لهُم، والتَّحبُّبِ لهُم؛ بخلاف موضع سورة الأنفال؛ فالسّياق مختلف؛ حيثُ جاءت هذه الآية بعد الحديث عن غزوة بدر وما يتعلّق بها منَ الجهاد والقتال، والنّفسُ بطبيعتها يتغلّب عليها حُبّ الدّنيا؛ فتحتاج في مثل هذا إلى تربية المهابة في القلوب؛ لتعظيم التّشريعات؛ فناسبَ ذلك التّعبيرُ بلفظ الجلالة.

بلاغةُ حذفِ مُتعلَّقِ الاستجابةِ:

وجوبُ الامتثالِ لكلِّ ما أمرَ اللهُ بهِ

حُذِف متعلّق الاستجابة في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ لإفادة العموم؛ أي: استجيبوا لربِّكم فيما دعاكُم إليهِ بواسطةِ رسولِه ﷺ، مِنَ الوفاءِ بعهدِهِ في أمرِهِ ونهيِهِ[3]، وفيه إشارةٌ إلى ضرورةِ الاستجابةِ لكلِّ ما دعا إليهِ ﷻ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِّن﴾ في: ﴿مِّن قَبۡلِ﴾:

الظّاهرُ أنَّ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ لابتداءِ الغايةِ الزَّمانيَّة، فتفيدُ وجوبَ الاستجابةِ لهُ سبحانَهُ قبلَ زمنِ مجيءِ اليومِ الَّذي لا مَرَدَّ لهُ مِنَ اللّهِ.

دلالةُ دخولِ ﴿مِّن﴾ على الظّرفية في: ﴿مِّن قَبۡلِ﴾:

مِنْ رحمةِ اللهِ بعبادِهِ التّوسعةُ في زمنِ الاستجابةِ

لمّا كانَ الخوفُ مِنَ الفَوْتِ موجبًا للمبادرةِ؛ قالَ تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ بإثباتِ حرفِ الجرِّ، ولم يقل: (قبلَ)، مشيرًا بالجارِّ إلى أنَّهُ يُعتدُّ بأدنَى خيرٍ يكونُ في أدنَى زمنٍ يتَّصلُ بالموتِ[4]، وفي ذلكَ رحمةٌ بهم؛ لأنَّهُ سبحانَهُ يقولُ: استجيبوا وأنتُم في فُسْحةٍ، مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ اليومُ الَّذي لا تُقبَلُ فيهِ الإجابةُ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 347، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 548.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 218.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 347.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 347.
(5) أبو موسى، آل حم، ص: 219.

سرُّ التَّعبيرِ بالإتيانِ دونَ المجيءِ:

إتيانُ اليومِ الموعودِ يسيرٌ على اللهِ

عُبِّرَ بالإتيانِ دونَ المجيءِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، ومِنْ ذلكَ قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهِهِ: أتِيٌّ، وأتاوِيٌّ[1]، والمجيءُ أعمٌّ[2]، فيكونُ في التَّعبيرِ بالإتيانِ هنا إشارةٌ إلى أنَّ إتيانَ اليومِ الموعودِ أمرٌ يسيرٌ على اللهِ تعالى، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ التَّلويحِ بالوعيدِ، وفي التّعبيرِ به توبيخٌ لعَبَدَة الأصنامِ بأنّ أصنامهم لا تملك من أمر هذا اليوم شيئًا.

نُكْتَةُ صيغةِ المضارعِ في: ﴿يَأۡتِيَ﴾:

إتيانُ اليومِ الموعودِ أمرٌ مستقبِلٌ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾؛ لأنَّ هذا الإتيانَ أمرٌ مستقبلٌ، لم يتحقّقْ بعدُ، وصيغةُ المضارعِ تفيدُ ذلكَ، وممّا يُذكر في سرّ التّعبير به الدّعوةُ إلى استحضار مشاهدِ هذا اليوم، ليكون ذلك واعظًا لهم إلى الاستجابة لأمر ربّهم، ولأمر رسوله ﷺ.

سرُّ التّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَن يَأۡتِيَ﴾:

إتيانُ اليومِ الذي لا مَردّ له يقترب مِنَ النّاس بمرور الزّمن

أوثِر التّعبيرُ بالمصدر المؤوّل ﴿أَن يَأۡتِيَ﴾؛ لدلالته على أنّ إتيان اليوم الذي لا مَردّ له يقترب مِنَ النّاس بمرور الزّمن، وفي هذا تصويرٌ لقُرْب الحَدَث بوقوع آياتٍ ومشاهدَ تدلّل على قُرْب إتيانه.

غرضُ تنكيرِ ﴿يَوۡمٞ﴾:

عِظَمُ شأنِ اليومِ الموعودِ

الظّاهرُ أنَّ تنكيرَ ﴿يَوۡمٞ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ لتعظيم شأنِ هذا اليوم، أي: مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ هائلٌ فظيعٌ عظيمُ الشّأنِ، بدليلِ ما وُصِفَ بهِ هذا اليومُ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾، وهذا اليومُ الموعودُ هو يومُ القيامةِ، أو يومُ ورودِ الموتِ[3].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أتي).

(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 609، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 347.

المبالغةُ في تهويل مشهد ذلك اليوم للظّالمين حتّى يستجيبوا لربّهم

سرُّ نسبةِ المَرَدّ إلى اليوم:

أُسند المَرَدّ إلى اليوم في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ مع أنّ الخَلْق همُ المقصودون؛ للمبالغة في تهويل هذا المشهد للظّالمين حتّى يستجيبوا لربّهم، ويُقْبِلوا على ما دعاهم إليه منَ الإيمان.

أمرُ اللهِ لا يُرَدُّ بأيِّ صورةٍ مِنَ الصّوَرِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لَّا﴾ النّافيةِ للجنسِ:

جيءَ بـ ﴿لَّا﴾ النّافيةِ للجنسِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾؛ لإرادةِ التَّنصيصِ على نفي جميعِ أفرادِ جنسِ المَرَدِّ، وهذهِ الجملةُ شديدةُ الاختصارِ، قويَّةُ الدِّلالةِ، وحاسمةٌ في أنَّ هذا اليومَ إذا جاءَ لا يُرَدُّ بأيّ صورةٍ مِنْ صوَرِ الرَّدِّ، وهذا مِنْ أفعلِ العقائدِ في النُّفوسِ وأشدِّها تأثيرًا[1].

ذِكْرُ عواقبِ العصيانِ مِنْ مُؤيِّداتِ الدّعوةِ إلى اللهِ

سرُّ التَّعبيرِ بـ: ﴿لَّا مَرَدَّ﴾:

أوثر التّعبيرُ بقوله: ﴿لَّا مَرَدَّ﴾ دون لا مرجع؛ لأنّها تومئُ إلى قول الظّالمينَ لمّا رأوا العذابَ: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾ [الشّورى: 44]، وكأنَّ الآيةَ تُذكِّرُهم بالأهوالِ وهي تدعوهُم إلى اللّهِ[2]، وفي التّعبير به دون المرجع إشارةٌ إلى أنّ المَردّ يقع بفعل فاعل، لذلك عَبّر به في الآية، لِما يُشير إليه من انتفاء الرّدّ الحاصل بفعل فاعل.

دلالة اللّامِ في: ﴿لَهُۥ﴾:

اللّامُ الجارَّةُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ للاختصاص، والمعنى: لا مَرَدَّ لإثباتِه، بل هو واقعٌ، و﴿لَهُۥ﴾ خبرُ ﴿لَّا﴾ النّافيةِ[3].

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في: ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ ابتدائيَّةٌ، وهو ابتداءٌ مجازيٌّ[4].

---

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 219.

(2) أبو موسى، آل حم، ص: 219.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 131.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 131.

بلاغةُ موقعِ ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ مِنْ حيثُ الإعرابُ:

لا رادَّ لِما حَكَمَ اللهُ بِهِ

﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿لَّا مَرَدَّ﴾، أي: لا يَردُّهُ اللّٰهُ بعدَما حَكَمَ به، أو متعلِّقٌ بـ ﴿يَأۡتِيَ﴾، أي: مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ مِنَ اللّٰهِ يومٌ لا يَقدِرُ أحدٌ على ردِّهِ[1]، والأوَّلُ أنسبُ؛ لأنَّ الإتيانَ مِنَ اللّٰه تعالى واضحٌ، لا فائدةَ في الإخبارِ به، والمقصودُ نفيُ إمكانِ ردِّهِ مِنَ اللّٰهِ تعالى[2]، ويجوزُ أنْ يتعلَّقَ بالكونِ الَّذي في خبرِ ﴿لَّآ﴾، والتَّقديرُ: لا مَرَدَّ كائنًا مِنَ اللّٰهِ لهُ[3]، ويجوز أن يكون خبرًا لمبتدأ محذوف؛ أي: ذلك مِنَ اللّٰه تعالى، وتكون الجملة استئنافًا في جواب سؤال مُقدّر، تقديره: (ممّن ذلك)، أو حالًا من الضّمير المستتر في الظّرف الواقع خبرَ ﴿لَّآ﴾[4].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

ما حَكَمَ بِهِ العظيمُ لا مَرَدَّ لهُ

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنَّهُ الاسمُ الأعظمُ الجامعُ لأوصافِ الإحسانِ والإنعامِ على المطيعينَ، والقهرِ والانتقامِ مِنَ العاصينَ، والمعنى: لا مَرَدَّ لهُ مِنَ الَّذي لهُ جميعُ العظَمةِ، وإذا لم يكنْ لهُ مَرَدٌّ منهُ، لم يكنْ لهُ مَرَدٌّ مِنْ غيرِهِ[5].

علَّةُ فصلِ ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ لبيانِ أنَّ أمرَ اللّٰهِ لا عاصمَ منهُ[6]، وفي ذلكَ تأكيدٌ للتَّهديدِ الَّذي يشتملُ عليهِ الكلامُ السّابقُ.

غرضُ تقديمِ ﴿لَكُم﴾:

عنايةُ اللهِ بأمرِ خلقِهِ

قُدِّمَ ﴿لَكُم﴾ على ﴿مِّن مَّلۡجَإٖ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 231، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 258.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 131.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 25/ 52.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 347، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 548.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 132.

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾، ولم يقل: (لا ملجأ لكم)؛ لأنّ المقصود إبرازُ العنايةِ بهم، وفي هذا إغراءٌ بالإجابة، وكأنَّهُ سبحانَهُ يُشعِرُهم بمزيدِ العنايةِ بأمرِهم، وليسَ المرادُ الاختصاصَ؛ لأنَّ الاختصاصَ معناهُ: ما لكم أنتُم خصوصًا ملجأٌ، وهذا ليسَ بمرادٍ؛ لأنَّهُ لا ملجأ لهُم ولا لغيرِهم[1].

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في: ﴿مِّن مَّلۡجَإٖ﴾:

لا أملَ في النَّجاةِ مِنْ أمرِ اللهِ

جيءَ بـ ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾؛ لتوكيدِ النَّفيِ المستفادِ مِنْ ﴿مَا﴾، والإغراقِ فيهِ[2]، وفي ذلكَ قطعٌ لآمالِهم في النَّجاةِ مِنْ أمرِ اللّه، حيثُ أُغْلِقت كلُّ طُرُقِ الخَلاص أمامَهم، ولم يبقَ لهم إلّا طريقُ الاستجابة.

سرُّ التّعبير بلفظ: ﴿مَّلۡجَإٖ﴾:

لا ناصرَ مِنْ عذابِ اللهِ

أوثر التّعبيرُ بقوله: ﴿مَّلۡجَإٖ﴾ دون (مأوى) في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ﴾؛ لوجود فرقٍ بينهما، فالمأوَى: مكانُ الأوِيِّ، وهو ما ينضمُّ إليهِ الإنسانُ، ويتَّخذُهُ مكانًا له، أمّا الملجأُ: فهو مكانُ اللَّجَأ، واللَّجَأُ: المصيرُ والانحيازُ إلى الشَّيءِ، فالمَلجأُ: المكانُ الَّذي يصيرُ إليهِ المَرءُ؛ لطلبِ التَّوقّي والحمايةِ، ويُطلَقُ مجازًا على النّاصرِ، وهو المرادُ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾، أي: ما لكم مِنْ شيءٍ يَقيكم مِنْ عذابِ اللّهِ[3].

غرضُ تنكيرِ ﴿مَّلۡجَإٖ﴾:

كلُّ الملاجِئِ مِنْ أمرِ اللهِ منتفيَةٌ

تنكيرُ ﴿مَّلۡجَإٖ﴾ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾ لإفادةِ العمومِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تعمُّ، وفي ذلكَ تهديدٌ شديدٌ للمخاطَبينَ؛ إذ يفيدُ الكلامُ انتفاءَ جميعِ أفرادِ الملجأ، حصينًا كانَ الملجأُ أو غيرَ حصينٍ.

---

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 220.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 347، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 548.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 132.

بلاغةُ التَّقييدِ بـ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

قُيِّدَ بـ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾ دون يوم القيامة؛ للمبالغةِ في التَّهديدِ والوعيدِ؛ لأنَّ العبدَ في هذا اليوم - وهو يومُ القيامةِ أو يومُ ورودِ الموتِ - أحوَجُ ما يكونُ إلى ما يتَّقي بهِ ويحتمي، فإذا فقدَهُ هنالكَ فهو في حَسْرةٍ شديدةٍ وغَمٍّ عظيم، وفي هذا التّقييد إشارةٌ إلى نفي الملجأ في كلّ المشاهد والمواقف.

فقدُ الملجأِ عندَ شدَّةِ الحاجةِ إليهِ حَسْرةٌ عظيمةٌ

بلاغةُ عطفِ ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾:

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ على قولِهِ: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾؛ لزيادةِ الوعيدِ والتَّهديدِ؛ إذِ انتفاءُ العاصمِ وانتفاءُ الحُجَّةِ غايةُ الإفلاس؛ لأنّهم لا يستطيعون الفرارَ ولا الإنكار، وفي الجمع بينهما بالعطف إشارةٌ إلى رأفة اللّه بعباده بتصوير الموقف قبل وقوعه؛ ليعودوا إلى الاستجابة وهم في فسحة من الوقت.

انتفاءُ العاصم والحُجَّةِ غايةُ الإفلاسِ

سرُّ تَكرارِ النَّفيِ:

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ما لكُم مِنْ ملجأٍ يومئذٍ ولا نكيرٍ)، لكنْ عُدِلَ إلى تَكرارِ النَّفيِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾؛ للمبالغةِ في النَّفيِ بإعادةِ النّافي وما في حيِّزِهِ؛ إبلاغًا في التَّحذيرِ[1]، وقطعًا لأعذارِ المعتذرينَ، ولِما في استقلالِ الجُملتينِ من تأكيدِ نفيِ الأمرينِ اللَّذينِ لا منجاةَ لهُم في هذا اليوم إلّا بهما[2]، فلم يبقَ لهُم إلّا الاستجابةُ لربِّهم؛ ليكونوا منَ النّاجينَ.

لا نجاةَ إلّا بالاستجابةِ لأمرِ اللهِ

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في: ﴿مِّن نَّكِيرٖ﴾:

جيءَ بـ ﴿مِّن﴾ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾؛ لتوكيدِ النَّفيِ المستفادِ مِنْ (ما)، والمبالغةِ فيه، وفي ذلكَ تأكيدٌ لانتفاءِ سُبُلِ النَّجاةِ سوى الاستجابةِ للّهِ تعالى.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 347، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 548.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 221.

ليسَ أمامَ المذنبينَ إلّا الاعترافُ بذنوبِهم

بلاغةُ التّعبيرِ بالنَّكيرِ:

أوثر التّعبيرُ بالنَّكير في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ على صيغة (فعيل) لتعدّد المراد به؛ فهو اسمُ مصدرِ (أنكرَ)، أي: ما لكم إنكارٌ لشيءٍ ممّا اقترفتموهُ، ودوِّنَ في صحائفِ أعمالِكم، أي: لا يَسَعُكم إلّا الاعترافُ دونَ تنصُّلٍ[1]، أوِ المعنى: وما لكم مِنْ نكيرٍ ممَّنْ يُنكِرُ ذلكَ، حتَّى يتغيَّرَ حالُكم بسببِ ذلكَ المُنكِرِ[2]، وبناءً عليهِ فالنَّكيرُ بمعنى المُنكِرِ، وممّا يُذكر في سِرّ اختياره: مناسبتُه للموقف الذي لا ينجو فيه صاحبُه إلّا بالهرب، كما سبق في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٍ﴾، أو بإنكار الذّنب، وهو المذكور هنا لقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

غرضُ تنكيرِ ﴿نَّكِيرٍ﴾:

تنكيرُ ﴿نَّكِيرٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ لإفادةِ العموم؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تعمُّ، وفي ذلكَ تقويةٌ لتهديدِ المخاطَبينَ؛ إذ يفيدُ الكلامُ انتفاءَ جميعِ أفرادِ النَّكيرِ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 231، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 132.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 609.

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨﴾ [الشّورى: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تسليةُ النَّبيِّ بعدَ إعراضِ المعرِضينَ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة أمرَ اللّه لنبيّه ﷺ بدعوة المشركين إلى الإيمان في آيات كثيرة في السّورة؛ لكنّهم أعرضوا ولم يقبلوا؛ قال اللّه لرسوله في هذه الآية من باب الإعلام بمقامه وعُلوّ قدره: إن أعرض المعرضون بعد هذا كلّه، ولم يستجيبوا، فما أرسلناك حفيظًا عليهم، ومتكفّلًا بهم، فما عليك إلّا البلاغ(1).

ومنها: لمّا أمرَ ﷻ بالاستجابةِ لهُ في الآية السّابقة؛ سلّى نبيَّهُ ﷺ في هذه الآية بأنَّهُ غيرُ مسؤولٍ عن إعراضِ المعرِضينَ بعدَ أداءِ ما كلّفهُ اللّهُ به(2).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَفِيظًاۖ﴾: (الحفظ) يقال تارةً لهيئة النّفس التي بها يثبت ما يُؤدّي إليه الفهم، وتارةً لضبط الشّيء في النّفس، ويُضادُّه النّسيان، وتارةً لاستعمال تلك القوّة؛ فيُقال: حفظت كذا حفظًا؛ ثمّ يُستعمل فيما يدلُّ على مراعاةِ الشَّيءِ(3)، وتعهُّدِهِ وتفقُّدِهِ ورِعايتِه(4)، ومِنْ ذلكَ يقالُ: حفظَ المالَ والسِّرَّ، أي: رعاهُ(5)، والمحافظةُ: المراقبةُ(6)، والحفيظُ: هو الموكَّلُ بحفظِ الشَّيءِ(7)، والمراد هنا: فما أرسلناكَ متكفِّلًا بهم(8).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 132.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 42، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 348.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حفظ).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (حفظ).
(7) الخليل، العين: (حفظ).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 132.

2) ﴿ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾: (بلغ) أصلٌ يدلُّ على الوصولِ إلى الشَّيءِ[1]، ومِنْ ذلكَ: البُلوغُ، وهو الانتهاءُ إلى أقصى المَقْصِدِ والمُنتهَى، مكانًا كانَ أو زمانًا أو أمرًا مِنَ الأمورِ المُقدَّرةِ[2]، يقالُ: بلغَ زيدٌ مُرادَهُ، إذا وصلَ إلى ما يريدُ[3]، وبلغَ المكانَ بُلوغًا، إذا وصلَ إليهِ وانتهَى[4]، والبلاغُ: التَّبليغُ[5]، وهو إيصالُ الخبرِ إلى المخبَرِ به، وهو المرادُ هنا[6].

3) ﴿أَذَقۡنَا﴾: (ذوق) أصلٌ يدلُّ على اختبارِ الشَّيءِ مِنْ جهةِ تطعُّمٍ[7]، والذَّوقُ: وجودُ طعمِ شيءٍ بالفمِ[8]، وأصلهُ فيما يقلُّ تناولُه دونَ ما يكثر، فإنّما يكثر منه يقال له الأكلُ، وكَثُرَ في القرآنِ استعمالُ الذَّوقِ والإذاقةِ في العذابِ[9]، والمرادُ بالإذاقةِ هنا: الإصابةُ[10].

4) ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾: (صوب) أصلٌ يدلُّ على نزولِ شيءٍ واستقرارِه، ومِنْ ذلكَ: الصَّوابُ في القولِ والفعلِ، كأنَّهُ أمرٌ نازلٌ مُستقِرٌّ في قرارِه، وهو خِلافُ الخطأِ[11]، وهو يقالُ على وجهينِ؛ أحدُهما: باعتبارِ الشَّيءِ في نفسِه، فيقالُ: هذا صوابٌ، إذا كانَ في نفسِهِ محمودًا ومرضيًّا، كقولِكَ: الكرمُ صوابٌ، والثّاني: باعتبارِ القاصدِ إذا أدركَ المقصودَ، فيقالُ: أصابَ كذا، أي: وجدَ ما طلبَ، ويقالُ: أصابَ السَّهمُ: إذا وصلَ إلى المرمى بالصَّوابِ[12]، والمرادُ بإصابةِ السَّيِّئةِ لهُم هنا: نزولُها بهِم.

5) ﴿كَفُورٞ﴾: (كفر) أصلٌ يدلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[13]، وقد وُصِفَ اللَّيلُ بالكافرِ؛ لسَتْرِهِ الأشخاصَ، والزّارعُ لسترِهِ البذرَ في الأرضِ، وكُفْرُ النِّعمةِ وكُفْرانُها: سَتْرُها بتركِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلغ).
(2) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(3) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (بلغ).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (بلغ).
(5) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).
(8) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ: (بلغ).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (ذوق).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(12) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (صوب).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفر).

أداءِ شُكْرِها[1]، والكفرُ: نقيضُ الإيمانِ[2]، والمرادُ بـ ﴿كَفُورٌ﴾ هنا: أنَّهُ نسّاءٌ للنِّعمةِ، ذكّارٌ للبليَّةِ[3].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إعراضُ المشركين عن دعوةِ الحقّ في السّرّاء والضّرّاء

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن حالِ المشركينَ معَ دعوةِ الحقِّ، ويواسي نبيَّهُ، فيقولُ: فإنْ أعرضَ هؤلاءِ المشركونَ عمّا أتيتَهم بهِ مِنَ الحقِّ، فلم يستجيبوا لكَ؛ فدَعْهم، فإنّا لم نُرْسِلْكَ إليهم رقيبًا عليهِم، تحفظُ عليهِم أعمالَهم وتُحصيها، ما عليكَ إلّا أنْ تُبلِّغَهم ما أرسلناكَ بهِ إليهِم، فإذا بلَّغتَهم ذلكَ فقد قضيتَ ما عليكَ، فإنّا إذا أعطَيْنا ابنَ آدمَ مِنْ عندِنا سَعَةً؛ سُرَّ بما أعطَيْناهُ، وإنْ أصابَهم فقرٌ ومرضٌ ونحوُ ذلكَ بسببِ ما أسلفَتْ أيديهِم مِنَ الكفرِ والمعاصي؛ جَحَدوا نعمةَ اللهِ، وأيِسوا مِنَ الخيرِ؛ فإنَّ الإنسانَ جَحودٌ نِعَمَ ربِّهِ، يُعدِّدُ المصائبَ، ويَجْحَدُ النِّعَمَ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَإِنْ﴾:

إعلامُ اللهِ لرسولِهِ بأداءِ مهمّتِهِ وإنْ أعرضَ المُعرِضون

الفاءُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ﴾ للتَّفريعِ على قولِهِ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ الآيةَ، وهو جامعٌ لِما تقدَّمَ؛ إذ أمرَ اللهُ نبيَّهُ بدعوتِهم للإيمانِ مِنْ قولِهِ في أوَّلِ السّورةِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشّورى: 7]، ثمَّ قولِهِ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ﴾ [الشّورى: 15]، وما تخلَّلَ ذلكَ واعترضَهُ مِنَ الأمرِ الصَّريحِ والضِّمنيِّ، إلى قولِهِ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ الآيةَ، ثمَّ فرَّعَ على ذلكَ كلِّهِ إعلامَ الرَّسولِ ﷺ بمقامِهِ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (كفر).
(2) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (كفر).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 60.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 556، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 61.

وعملِه إنْ أعرضَ مُعرِضونَ مِنَ الّذينَ يدعوهُم، وبمعذرتِهِ فيما قامَ به، وأنَّهُ غيرُ مُقصِّرٍ، ولمّا كانَ ما سبقَ مِنَ الأمرِ بالتَّبليغِ والدَّعوةِ مصدَّرًا بقولِهِ أوائلَ السّورةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾ [الشّورى: 6]؛ ناسبَ أنْ يُفرِّعَ على تلكَ الأوامرِ بعدَ تمامِها مِثلَ ما قدَّمَ لها، فقالَ: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾[1].

نُكْتَةُ الالتفاتِ في: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾:

المُعرِضُ لا يستحِقُّ شرفَ الخطابِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ تلوينٌ للكلامِ، وصرفٌ لهُ عن خطابِ النّاسِ بعدَ أمرِهم بالاستجابةِ في قولِهِ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾، وتوجيهٌ لهُ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ[2]، وإلّا فالظّاهرُ أنْ يقالَ: (فإنْ أعرضتُم)، ونُكْتَةُ هذا الالتفاتِ: نقلُهم مِنَ الخطابِ الّذي فيهِ غايةُ الاقترابِ منهُم، إلى طريقِ الغَيبةِ المشيرِ إلى أنَّهم لمّا أعرضوا أعرضَ اللّهُ عنهُم، وغيَّبَهم عن حضرةِ شرفِ الخطابِ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بـ (إن) دونَ (إذا):

غفلةُ المُعرِضينَ عنِ التَّدبُّرِ في دلائلِ الحقِّ

جيءَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ بأداةِ الشَّرطِ الّتي تكونُ في الأمرِ المشكوكِ فيه، معَ أنَّ إعراضَهم مقطوعٌ بهِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لو تدبَّروا ما أعرضوا، خصوصًا إذا تدبَّروا صورةَ الظّالمينَ، وما آلَ إليهِ حالُهم، وعَلِموا أنَّ اليومَ لا مَرَدَّ لهُ مِنَ اللّهِ، وأنَّهُ ما لهُم فيهِ مِنْ ملجأٍ، وما لهُم مِنْ نكيرٍ، كلُّ ذلكَ يقطعُ بعدمِ الإعراضِ فضلًا عن أنْ يكونَ مشكوكًا فيهِ[4]، وممّا يُذْكَر في سرّ التَّعبير بـ (إن) دون (إذا): فتحُ البابِ أمامَ المُعرضين للاستجابة لأمر ربِّهم؛ بخلاف التّعبير بـ (إذا)، فإنّه يقْطَعُ بعدم رجوعهم عنِ الإعراض.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 132.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 36، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 52.

(3) أبو موسى، آل حم، ص: 222.

(4) أبو موسى، آل حم، ص: 222.

نُكْتَةُ صيغةِ الماضي في: ﴿أَعۡرَضُواْ﴾:

إعراضُ المشركينَ متحقِّقٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي ﴿أَعۡرَضُواْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ الإعراضِ ورسوخهم فيه، وللتَّوصُّلِ بهذهِ الصّيغةِ إلى ذمِّهم بسببِ صدورِهِ عنهُم، معَ أنَّ الظّاهرَ أنْ يصدرَ عنهُم خلافُهُ؛ لقوَّةِ دلائلِ الحقِّ ووضوحِها.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإعراضِ دونَ التّولّي:

شـدَّةُ نُـفـورِ المشركينَ مِنَ الحقِّ

عُبِّرَ بالإعراضِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ دون التّولّي؛ لأنَّ المُعرِضَ هو الَّذي يُديرُ ظهرَهُ لِما أمرَهُ اللّهُ به، ولِما دعاهُ إليه، وفي ذلكَ إيذانٌ بأنَّهم لم يتدبَّروا، ولم يُراجعوا، ولو تدبَّروا وراجعوا لأقبلوا[1]؛ بخلافِ التّولّي فهو أقلّ منَ الإعراضِ؛ لأنّ المتولّي إذا نَدِم سَهُل عليه الرّجوعُ.

غرضُ حذفِ متعلَّقِ الإعراضِ:

شأنُ المشركينَ الإعراضُ عنِ الحقِّ

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ تقديرُهُ: فإنْ أعرضوا عنِ الإيمانِ[2]، وقد حُذِفَ المتعلَّقُ لظهورِهِ مِنَ السِّياقِ، وللإشارةِ إلى أنَّ هؤلاءِ المشركينَ شأنُهم الإعراضُ عنِ الحقِّ أيًّا كانَ، وأنَّ ذلكَ صفةٌ مِنْ صفاتِهم، وفيه إشارةٌ إلى أنّ هؤلاء المشركين يُعْرِضون عن كلّ ما فيه الخير، ولذلك يكون الحَذْفُ من باب العموم، ويجوز أن يكون المراد الإعراضَ عن الرّسول ﷺ، ولكنّ القرآنَ لم يذكر ذلك بأن يقول: (فإن أعرضوا عنك)، من باب تعظيم قَدْرِه ﷺ وعُلوّ مكانته.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

مَنْ لم يُرسَلْ حفيظًا على المشركينَ، فهو غيرُ مؤاخَذٍ بإعراضِهم

تدلُّ الفاء في قوله ﷻ: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ على ترتيبِ ما بعدَها على الجوابِ المحذوفِ؛ لأنَّ هذا المحذوفَ مُقدَّرٌ، والمُقدَّرُ كالمَذكورِ[3]، وهي واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ، وليسَت جوابًا لهُ؛ لأنَّ

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 222.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 260.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133، وأبو موسى، آل حم، ص: 223.

إرسالَهُ ﷺ غيرَ حفيظٍ أمرٌ متقرِّرٌ، أعرَضوا أو أقبَلوا، والجوابُ محذوفٌ، وحَذْفُهُ يمنحُ القارئَ سَعَةً في التَّقدير، يوجبُ عليه أنْ يراجعَ السِّياقَ، وأنْ يعيدَ التَّدبُّرَ والمراجعةَ، وأنْ يقولَ: إنَّ أصلَ الكلامِ: فإنْ أعرَضوا فلا تأسَفْ عليهِم، ولا تحزَنْ، أو أنْ يقولَ: فإنْ أعرَضوا فلا لومَ عليكَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

الحَرَجُ والتَّقصيرُ منفيّانِ عن النَّبيِّ يقينًا

جيءَ بصيغةِ الماضي المنفيِّ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عدمَ إرسالِ النَّبيِّ ﷺ حفيظًا أمرٌ قد ثبتَ وتقرَّرَ، وفي ذلكَ تقويةٌ لمقامِ المواساةِ لهُ، ورفعِ الحَرَجِ والتَّقصيرِ عنهُ، وفي هذا التّعبيرِ إشارةٌ إلى تكريمِ اللّه لرسوله، وإعلامٌ برسالته ﷺ إلى خَلْقه، وأنّ المنفيَ الحفظُ وليس عدمَ الرّسالة.

سِرُّ التّعبيرِ بالإرسالِ في: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

الإرسالُ يحملُ معنى التّؤدَةِ والتّأنّي والطّمأنينة

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالإرسال في قوله: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ دون البعث؛ لأنّ الإرسال يحمل معنى التُّؤدَة والتّأنّي والطّمأنينة؛ بخلاف البعثِ، فيحمل معنى الإثارةِ والتّوجيه، ولمّا كان المقام هنا في تسليته ﷺ على إعراض قومه عن قَبول الدّعوة كان التّعبير بالإرسال هو الأنسبَ؛ لِما فيه من معاني الطّمأنينة.

إسنادُ الإرسالِ إلى نونِ العظَمةِ:

فعلُ العظيمِ عظيمٌ

أُسنِدَ فعلُ الإرسالِ المنفيِّ إلى نونِ العظَمةِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾؛ لتعظيم شأنِ عدمِ إرسالِ النَّبيِّ حفيظًا على المشركينَ، وتعظيم شأنِ المُرسِلِ سبحانَهُ، والمعنى: فما أرسلناكَ - معَ ما لَنا مِنَ العظَمةِ - عليهِم حفيظًا[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 348، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 548.

دلالةُ تعْديةِ فعل الإرسال بـ (على):

ما على الرّسول إلّا البلاغ

عُدّي فعلُ الإرسال بـ (على) دون (إلى) أو (اللّام) فقال تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾؛ لأنّ تعدية الفعل (أرسل) باللّام تعني التّبليغ، وتعديتُه بـ (إلى) فيها مزيدُ تأكيدٍ على البلاغ؛ بخلاف تعديتِه بـ (على) فهي تعني الإلزامَ والحملَ على الشّيء، ولذلك جاء النّفي هنا في قوله: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾؛ لبيان أنّ الإلزام ليس من شأنه ﷺ، وإنّما شأنُه البلاغُ فقط.

سِرُّ التَّعبير بـ (على):

الحفيظُ مهيمنٌ على ما يحفظُهُ

عُبِّرَ بحرفِ الجرِّ (على) في قولِه تعالى شأْنُهُ: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ - وهو متعلِّقٌ بـ ﴿حَفِيظًاۖ﴾ - لأنَّ الحفيظَ هنا بمعنى الوكيل، ولذلكَ عُدِّيَ تعديتَهُ، وأيضًا في التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ إشارةٌ إلى أنَّ الحفيظَ مهيمنٌ على ما وُكِّل بحفظِه، حتَّى كأنَّهُ مُستَعْلٍ عليهِ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

ليس عليك هُداهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿حَفِيظًاۖ﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾؛ للعنايةِ بتعلُّقِ انتفاءِ إرسالِهِ ﷺ حفيظًا بالمُعرِضينَ؛ لأنّ الرّسول ﷺ كان معنيًّا بقومه، حريصًا على هدايتهم؛ فأراد اللّهُ أن يُخفّف عن نفسه ﷺ؛ فقال له: لستَ حفيظًا على هؤلاءِ المشركين المُعْرِضين، ولو لم يُقَدّمِ الجارُّ والمجرور لفُهِمَ انتفاءُ حفظِه على الإطلاق، وهذا غير مراد.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالحفيظِ:

الحفظُ لله والبلاغُ للرّسول ﷺ

عُبِّرَ بالحفيظِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾؛ لِما تشيرُ إليهِ هذهِ الكلمةُ مِنْ كونِ الحفيظِ رقيبًا على ما وُكِّلَ بحفظِه، يحفظُ أعمالَهُ، ويُحصيها[1]، ويقهرُهُ على الامتثالِ[2]، ففي الإتيانِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 609، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 47.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 348.

بهذهِ الصِّفةِ في سياقِ النَّفي تنبيهٌ على أنَّهُ ﷺ مكلَّفٌ بالتَّبليغ فقط، وليسَ إليهِ إحصاءُ أعمالِ العبادِ، ولا إجبارُهم على الإيمانِ، وإنَّما ذلكَ للّهِ وحدَهُ إنْ شاءَ، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّخفيفِ عنهُ ﷺ والتَّسليةِ لهُ[1]، وفيها موافقةٌ لسياق السّورة في إثبات هذه الصّفة للّه تعالى؛ حيثُ ورد ذلك في قوله: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾ [الشّورى: 6]؛ لأنّ الحفظ من خصائص الألوهيّة.

نُكْتَةُ صيغةِ (فعيل) في: ﴿حَفِيظًاۖ﴾:

المبالغةُ في نفي رقابةِ النّبيّ ﷺ على الخَلْقِ

الحفيظُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ (فعيلٌ) بمعنى (فاعلٍ)، أي: بمعنى حافظٍ، وفي التَّعبيرِ بصيغةِ (فعيلٍ) مبالغةٌ في نفيِ اتِّصافِهِ ﷺ بالرَّقابةِ على الخَلْقِ، وليلائمَ مِنْ حيثُ الوزنُ كونَهُ بمعنى الرَّقيبِ والوكيلِ، فهما أيضًا علّةُ زِنَةِ (فعيلٍ).

علّةُ فصلِ ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾:

الرّسولُ مبلّغٌ لا حفيظٌ

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ عن قولِهِ: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾، ولم يُعطَفْ عليهِ؛ لأنَّهُ مؤكِّدٌ لهُ؛ لأنَّ قَصْرَ رسالتِهِ ﷺ على البلاغِ تأكيدٌ لنفيِ أنْ يكونَ حفيظًا[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ فصلُهُ عنهُ؛ لأنَّهُ بيانٌ لهُ، باعتبارِ أنَّ هذهِ الجملة دالَّةٌ على جوابِ الشَّرطِ المقدَّرِ[3].

بلاغةُ القَصْرِ بالنَّفي والاستثناءِ:

التّفريقُ بينَ مقامِ الألوهيّةِ ومقامِ الرّسالةِ

القَصْرُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ إضافيٌّ، أي: إنْ عليكَ إلّا البلاغُ لا الحفظُ[4]، وأمّا الهدايةُ والإضلالُ فإلينا[5]، وقد جاءَ القَصْرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ معَ أنَّ المخاطَبَ ﷺ لا يُنكِرُ ذلكَ ولا

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 223.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 223.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 426.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 348.

يجهلُهُ - والمقامُ مقامُ (إنَّما) الَّتي تُستعمَلُ فيما لا يجهلُهُ المخاطَبُ، أو فيما مِنْ شأنِهِ ألّا يجهلَهُ - لأنَّ الجملةَ الَّتي قبلَها مهيِّئة لها، وجِيءَ بالنّفي والاستثناءِ لتأكيدِ هذا المعنى البالغ الأهمِّيَّةِ في عقيدةِ المسلمينَ، وهو الفرقُ الحاسمُ بينَ مقامِ الألوهيَّةِ ومقامِ الرِّسالةِ، وأنَّ الحفيظَ والوكيلَ هو اللّهُ لا غيرُهُ، وأنَّ النُّبوَّةَ بلاغٌ عنهُ لا غيرُ[1]، وفيه توجيه للدّعاة أن يبذلوا جهدَهم في البلاغ فقط، وليس عليهم النّتائجُ، فهذا مَردّه إلى اللّه.

بلاغةُ الجِناسِ بينَ (إنْ) الشّرطيّة و﴿إِنۡ﴾ النّافية:

التّناغمُ اللّفظيُّ بينَ أداتَي الشَّرطِ والنَّفيِ

(إنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ شرطيَّةٌ، و﴿إِنۡ﴾ الثّانيةُ في قولِهِ: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ نافيةٌ، والجمعُ بينَهما في هذهِ الآيةِ جناسٌ تامٌّ[2]، وهو لونٌ مِنْ ألوانِ المحسِّناتِ اللَّفظيَّةِ، يُعطي تناغمًا لفظيًّا في الكلامِ.

دلالةُ التّعبير بحرف الاستعلاء (على):

البـلاغُ أمانـةٌ ثقيلةٌ

حرفُ الجرِّ (على) للاستعلاءِ، وهو يشيرُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ إلى أنَّ البلاغَ تكليفٌ للنَّبيِّ ﷺ، وهو أمانةٌ ثقيلةٌ واجبةٌ عليه، وفي التّعبير بها تسليةٌ للرّسول ﷺ، لمّا نفى عنه أمرَ الحفظ للمُعرِضين؛ فيكفيكَ يا رسولَ اللّه أمرُ البلاغ، وما يكتنفُه مِنَ الصّعاب والمشاقّ.

غرضُ تقديم ﴿عَلَيۡكَ﴾:

النّبيُّ ﷺ محلُّ العنايةِ

قُدِّمَ ﴿عَلَيۡكَ﴾ على ﴿ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّم المُكلَّفِ ﷺ، وللتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وهو البلاغ؛ ليُتلقَّى بنفسٍ يقظَى، وفي التّقديم إشارةٌ إلى أنّ أمر البلاغ هو اختيارُ اللّه لك، وفي هذا تفريقٌ بين مقامِ النّبوّة ومقامِ الألوهيّة.

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 223.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133.

سرُّ التّعبير بالبلاغ دون غيره:

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالبلاغ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ دونَ غيره كالإخبار والإعلام؛ لأنّ البلاغ يدلُّ على إيصال الخبر إلى المخبَر به، وفي هذا دلالةٌ على أنّ وظيفةَ النّبيّ إيصالُ الرّسالة إليهم على الوجه الأكمل، من غير تقصير ولا فتور.

الدّلالةُ على إيصال الخبر إلى المُخبَر به على الوجه الأكمل

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بلاغٌ مخصوصٌ، وهو بلاغُ الرِّسالةِ الَّتي كلَّفَ اللّهُ تعالى بها نبيَّهُ ﷺ، وفي ذلك إخراجٌ لأمور البلاغ التي لا تتعلّق بالرّسالة، بل هي من شؤون الدّنيا.

بلاغُ الرِّسالةِ هو المعهود

بلاغةُ عطفِ ﴿وَإِنَّآ إِذَآ﴾:

جملةُ ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾، لِما تضمَّنَتْهُ هذه مِنَ التَّعريضِ بتسليةِ الرَّسولِ ﷺ على ما لاقاهُ مِنْ قومِه، والمعنى: لا يَحْزُنْكَ إعراضُهم عن دعوتِكَ؛ فقد أعرضوا عن نِعمتي وعن إنذاري بزيادةِ الكفرِ[1]، وممّا يُذْكَر في بلاغة عطف هذه الجملة: أنَّهُ لمّا ذكرَ ما أرسلَهُ بهِ؛ أتبعَهُ بما جُبِلَ عليهِ الإنسانُ؛ لبيانِ أنَّهُ ﷺ لا حُكمَ لهُ على الطِّباعِ، وأنَّ الَّذي عليهِ إنَّما هو الإسماعُ لا السَّماعُ[2].

لا عجبَ في الإعراضِ عنِ المخلوقِ بعدَ الإعراضِ عنِ الخالقِ

بلاغةُ التّوكيدِ في: ﴿وَإِنَّآ﴾:

دلّ التّوكيدُ بـ (إنّ) في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾؛ على شدَّةِ العنايةِ ببيان طبع الإنسان عند النّعمة والنّقمة، من البَطَر والكفر، وتجليتِه وإظهارِه[3].

العنايةُ بوصفِ فرحِ الإنسانِ بالنِّعمةِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133، وأبو موسى، آل حم، ص: 224.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 349.

(3) أبو موسى، آل حم، ص: 225.

سوءُ معاملةِ الإنسانِ معَ ربِّهِ

سرُّ ابتداءِ الكلامِ بضميرِ العظّمةِ (إنّا):

ابتداءُ قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾ بضميرِ الجلالةِ مسنَدًا إليه فعلٌ دونَ أنْ يقالَ: (وإذا أذَقْنا الإنسانَ ... إلخ، معَ أنَّ المقصودَ وصفُ هذا الإنسانِ بالبَطَرِ بالنِّعمةِ، وبالكفرِ عندَ الشِّدَّةِ؛ لأنَّ المقصودَ مِنْ هذهِ الجملةِ تسليةُ الرَّسولِ ﷺ عن جَفاءِ قومِهِ وإعراضِهم، فالمعنى: أنَّ معاملتَهم ربَّهم هذهِ المعاملةَ تُسلِّيك عن معاملتِهم إيّاكَ[1]، وممّا يُذْكر في سرّ التّعبير بهذا الأسلوب أنّه حكايةٌ لبيان أنّه خُلقٌ للنّاس كلّهم؛ لكنّ مظاهره متفاوتةٌ بتفاوت أفراده في التّخلّق بالآداب الدّينية[2]، وفي وقوعِ ضميرِ العظَمةِ اسمًا لـ (إنَّ) مِنْ إيقاظِ السّامعِ وتنبيهِهِ ما لا يخفَى[3].

رحمةُ اللهِ سبقَتْ غضبَهُ

سرُّ تصديرِ الشَّرطيّةِ الأولى بـ﴿إِذَآ﴾ والثّانيةِ بـ(إنْ):

تصديرُ الجملةِ الشَّرطيَّةِ الأولى بـ ﴿إِذَآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾، والثّانية بـ (إنْ) في قولِه: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾؛ لأنَّ إذاقةَ النِّعمةِ محقَّقةٌ كالصِّحَّةِ وسَعَةِ ذاتِ اليدِ والأمنِ، فاستُعملَ فيها ﴿إِذَآ﴾ الَّتي تُستعمَلُ في مقامِ الجَزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، بخلافِ إصابةِ البليَّةِ[4]، فهي نادرةٌ بالنِّسبةِ لإصابتِهم بالنِّعمة، ولذلكَ استُعمِلَ فيها (إن)، الَّتي تُستعمَلُ في مقامِ الشَّكِّ في وقوعِ الشَّرطِ[5]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ النِّعمةَ هي الأصلُ؛ لعمومِ رحمتِهِ تعالى، وسَبْقِها غضبَهُ[6]، وعلى أنَّ النِّعمةَ مِنْ مَحْضِ عطاءِ اللّهِ، مِنْ غيرِ أنْ يكونَ للإنسانِ أيُّ حقٍّ فيها[7].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 134.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 225.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 261.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 135.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 350.
(7) أبو موسى، آل حم، ص: 226.

نعيمُ الدُّنيا قَطْرةٌ في نعيم الآخرة

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإذاقةِ:

عُبِّرَ بالإذاقةِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ نِعَمَ اللهِ في الدُّنيا وإنْ كانَتْ عظيمةً إلّا أنَّها بالنِّسبةِ إلى السَّعاداتِ المُعَدَّةِ في الآخرةِ كالقَطْرةِ بالنِّسبةِ إلى البحرِ[1]؛ فلذلك سُمّي الإنعامُ بها إذاقةٌ، وفي التَّعبيرِ بالإذاقةِ تنبيهٌ على تحقُّقِ النِّعمةِ؛ لإشعارِها بشدَّةِ الإصابةِ[2]؛ لأنَّ الشَّيءَ المَذوقَ يتمكَّنُ طعمُهُ منَ الفمِ، ولا يمكنُ دفعُهُ، فالإذاقةُ هنا مجازٌ في شدَّةِ الإصابةِ[3].

تشبيهُ الإعطاءِ المُشتمِلِ على إدراك أثر النّعمة بتذوّق ما يُؤكل ممّا يُشتهى ويُرغَب فيه

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿أَذَقۡنَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَذَقۡنَا﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ، بتشبيه الإعطاء المُشتمِل على إدراك أثر النّعمة منَ الطّعام والملبس والصّحّة، وغيرها منَ المحسوسات بتذوّق ما يُؤكل ممّا يُشتهى ويُرْغَب فيه، ووجه الشّبه تحصيلُ الشّيء والانتفاع به على وجه حصول المقصود منه[4].

إذاقةُ النِّعَم كثيرةٌ متيقَّنةٌ

بلاغةُ صيغةِ الماضي في: ﴿أَذَقۡنَا﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾؛ لأنَّ ﴿إِذَآ﴾ تُستعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بحصولِه[5]، ولذلك غُلِّبَ معَها لفظُ الماضي؛ لأنَّهُ أقربُ إلى القطعِ باعتبارِ لفظِه، وإنْ كانَ معناهُ على الاستقبالِ؛ لأنَّ الشَّرطَ يقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ، فتكونُ إذاقةُ الرَّحمةِ وفَرَحُ الإنسانِ بها أمرينِ مقطوعًا بهما.

تعظيم شأن النِّعَم بأداء شكرها للعظيم سبحانه

نُكْتَةُ إسنادِ الإذاقةِ إلى نونِ العظَمةِ:

أُسنِدَ فعلُ الإذاقةِ إلى نونِ العظَمةِ في قولِه تعالى: ﴿إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ هذا الفعلِ بكونِهِ صادرًا عن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 609.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 261.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 135.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 7/ 247.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 427.

ذي العظَمةِ والجلالِ، أي: أذَقْنا بالعظَمةِ الَّتي لا يمكنُ مخالفتُها[1]، وفي ذلكَ تنبيهٌ للإنسانِ على عِظَمِ شأنِ النِّعَمِ، وأنَّهُ ينبغي احترامُها، وأداءُ حقِّ اللّهِ فيها بشكرِها وصرفِها في وجوهِ الخيرِ.

سرُّ التّعبيرِ بالإنسان دون النّاس:

الإيماءُ إلى أنّ الخُلُقَ المُخْبَرَ به عنهم مختصٌّ بنوعهم

عدل القرآنُ الكريم عنِ التّعبير بالنّاس إلى التّعبير بالإنسان في قوله: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ للإيماء إلى أنّ هذا الخُلُقَ المُخْبَر به عنهم هو من أخلاق النّوع، لا يزيلُه إلّا التّخلّق بأخلاق الإسلام؛ فالذين لم يُسلموا باقون على هذا الخُلُق، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ ؛ لأنّ اسم الإنسان اسمُ جنس يتضمّن أوصافَ الجنس المسمّى به، على تفاوتٍ في ذلك بسبب غلبة الهوى، وآياتُ القرآن في هذا الإطار كثيرةٌ، منها: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾ [المعارج: 19]، ومنها: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾ [العاديات: 6][2].

دلالةُ تعريفِ الإنسانِ في الموضعينِ:

احتمالُ الدّلالةِ للجنسِ والعهدِ

اختلفَتْ أقوالُ المفسِّرينَ في دلالة (أل) في لفظ الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾؛ **فمنهُم** مَنْ حملَها على خصوصِ الإنسانِ الكافرِ باللّهِ[3]، **ومنهُم** مَنْ حملَها على ما يعمُّ أصنافَ النّاسِ[4]، **ومنهُم** مَنْ حملَها على إرادةِ المعنيين، على أنَّ أوَّلَهما هو المقصودُ، والثّاني مندرجٌ بالتَّبَعِ[5]، **ومنهُم** مَنْ عكسَ، وعلى هذَينِ الوجهينِ: فالمرادُ بالإنسانِ في الموضعِ الأوَّلِ والموضعِ

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 548.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 135.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 232.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 349، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 36، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 52.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84.

الثّاني معنىً واحدٌ، وهو تعريفُ الجنسِ المراد بهِ الاستغراقُ، أي: إذا أذَقْنا النّاسَ، وإنَّ النّاسَ كفورونَ، ويكونُ استغراقًا عُرفيًّا أُريدَ بهِ أكثرُ جنسِ الإنسانِ في ذلكَ الزَّمانِ والمكانِ؛ لأنَّ أكثرَ نوعِ الإنسانِ يومَئذٍ مشركونَ، وهذا هو المناسبُ لقولِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾، أي: شديدُ الكفرِ، ولقولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، أي: مِنَ الكفرِ[1]، وذهب البعض إلى ترجيح أنّ (أل) في الموضع الأوّل للعهد، وفي الثّاني للجِنس، والقرينة الدّالّة على العهد قولُه: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، والمعهود الكفّارُ المخاطبون؛ لترتّب قولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ على قوله: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾[2].

دلالةُ (مِنْ) في: ﴿مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾:

(مِنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ للابتداءِ، فتُفيدُ أنَّ ابتداءَ النِّعَمِ مِنَ اللّهِ تعالى، فهو المُفيضُ للعطايا والهِباتِ.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنَّا﴾:

الرَّحمةُ مِنَ اللهِ يقينًا

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِنَّا﴾ على ﴿رَحۡمَةٗ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾؛ للعنايةِ بكونِ الرَّحمةِ مِنَ اللّهِ، وكونِها عطاءً مَحْضًا[3]، وللتَّشويقِ للمُؤخَّرِ ليَرْسَخَ في النَّفسِ عندَ ورودِهِ عليها.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالرَّحمةِ دون النّعمة:

الرَّحمةُ عطاءٌ مَحْضٌ مِنَ اللهِ

المرادُ بالرَّحمةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ النِّعمةُ مِنَ الصِّحَّةِ والغِنى والأمنِ[4]، وفي التَّعبيرِ عنها بالرَّحمةِ للدّلالةِ على أنَّ هذهِ النِّعمةَ مِنْ مَحْضِ عطاءِ اللّهِ وفضلِه، مِنْ غيرِ أنْ يكونَ لهذا الإنسانِ أيُّ حقٍّ فيها[5]، وفي التّعبير بها دون النّعمة الإشارةُ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 261.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 227.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 232، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 260.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 52.

دعوة الإنسان إلى توظيف النّعم للوصول بها إلى الرّحمة؛ لأنّ بعض النِّعَمِ قد تصل بصاحبها إلى الشّقاء؛ لذلك عَبّر عنها بالرّحمة؛ لحثّ الإنسان على الاستجابة لأمر ربّه.

سرُّ التّعبيرِ بالرّحمة دونَ الحَسَنَة:

إصابةُ الحسنة تَفَضّلٌ مِنَ الله ورحمةٌ

عبّر القرآنُ الكريم بالرّحمة في جملة الشّرط الأولى ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾، مع أنّ المناسبَ لمقابلة الشّرطيّة الثّانية ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ التّعبيرُ بالحسنة؛ للإشارة إلى أنّ إصابة الحسنة تَفَضّلٌ مِنَ الله ورحمةٌ، وأمّا السّيّئة فبِكَسْب العبد، ولذا لم يَذْكُر في الرّحمة ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾[1].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿رَحۡمَةٗ﴾:

مظاهرُ الرَّحمة الإلهيَّة عديدةٌ

دلّ تنكيرُ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ على تعدّد مظاهرِها وأنواعها؛ فأيّ نوعٍ مِنْ أنواعِ الإكرامِ مِنْ صحَّةٍ أو غِنىً ونحوِ ذلكَ[2]، هو رحمةٌ مِنَ الله تعالى.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالفَرَحِ دونَ البَطَر:

الإنسانُ مجبولٌ على حُبِّ النِّعَمِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفرح في قوله: ﴿أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾؛ لأنّ المرادُ بالفرحِ في الآية ما يشملُ الفرحَ المجاوِزَ حَدَّ المَسَرَّةِ إلى حدِّ البَطَرِ والتَّجبُّرِ[3]، وهذا أغلب استعمالات القرآن الكريم في موضع الذّمّ، وفي التَّعبيرِ بِهِ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ مجبولٌ على حُبِّ النِّعَم، ومشغوفٌ بها؛ بخلاف البَطَر فيُطلق على سوء استعمالِ النّعمة، بوضعها في غير موضعها، ولأنّ الفَرَحَ أعمُّ مِنَ البَطَر؛ لأنّه يكون محمودًا ويكون مذمومًا، بخلاف البَطَر.

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 261.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 349.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 135.

دلالةُ التّعبير بالماضي ﴿فَرِحَ﴾:

رسوخُ صفةِ البَطَر والتّجبّر فيهم، مع عدم دوام البَطَر طويلًا

جاء التّعبيرُ بالماضي ﴿فَرِحَ﴾ ولم يأت بالمضارع الذي يدلّ على استحضار الصّورة؛ لأنّ المقام هنا يدلّ على رسوخ صفة البَطَر والتّجبّر فيهم، وفيه إشارةٌ إلى أنّ هذا الفرح والبَطَر لم يَدُم طويلًا.

دلالةُ إفرادِ الضَّميرِ في: ﴿فَرِحَ﴾ وجمعِهِ في: ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾:

مراعاةُ لفظِ الإنسانِ تارةً ومعناهُ أخرى

توحيدُ الضَّميرِ في ﴿فَرِحَ﴾ لمراعاةِ لفظِ الإنسانِ، وإنْ كانَ معناهُ جمعًا، ولذلكَ جاءَ بعدَهُ ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بضميرَي الجماعة، ثمَّ عادَ إلى الإفرادِ، فقالَ: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾[1]، وممّا يُذْكَر في سرّ جمعِ الضّمير في قوله: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لأنّه ليس كلُّ إنسان يدخل في حيِّز هذا الشّرط، وجوابِه فيَكفر باللّه أو يُسيء الظّنّ به في حال الضّرّ، بل إنّ الواقعين في حيِّز هذا الشّرط وجوابِه هم الذين لا يؤمنون باللّه مطلقًا، أو لا يؤمنون به إيمانًا ثابتًا، بل إيمانُهم متزعزع[2].

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِهَاۖ﴾:

فرحُ الإنسانِ واقعٌ على الرّحمةِ

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَرِحَ بِهَاۖ﴾ لتعديةِ الفعلِ إلى المفعولِ، فتفيدُ أنَّ فرحَ الإنسانِ واقعٌ على الرَّحمةِ وملاصق لها؛ فكأنّه لا انفصالَ بين الفَرَح والنّعمة، وفي هذا تصويرٌ لطبيعة الإنسان في تلقّي النّعمة.

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ ...﴾:

بيانُ جوهرِ الإنسانِ في الشّدّةِ والرَّخاءِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾، وهو تمامٌ لهُ، والشِّقُّ الثّاني مِنْ معناهُ، وهاتانِ الجملتانِ في تقابلِهما

---

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 260، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 135.

(2) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 85.

تكشفانِ جوهرَ الإنسانِ ومَعْدِنَهُ، وأنَّهُ لن يعيشَ حياةً إنسانيَّةً منضبطةً إلّا بالوَحْيِ واتِّباعِ الشَّرعِ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بـ (إنْ) في: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾:

دلّ التّعبير بـ (إنْ) في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ على قلّة الإصابة بالسّيّئة في مقابلة إصابتهم بالنّعمة، وهي كثيرة، وسبق تفصيل ذلك عند سرّ التّعبير بـ ﴿إِذَآ﴾.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإصابةِ دونَ المَسّ:

الرَّحمةُ أكثرُ مِنَ النِّقْمةِ

عُبِّرَ بالإصابةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دون المسّ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إصابةَ السَّيِّئةِ أخفُّ مِنْ إصابةِ الرَّحمةِ المُعبَّرِ عنها بالإذاقة[2]، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لكونِ الرَّحمةِ أكثرَ مِنَ النِّقْمةِ، ولأنّ المَسّ أعمُّ؛ لأنّه يقال في كلّ ما ينال الإنسانَ من أذًى؛ بخلاف الإصابة، فهي أخصّ.

نُكْتَةُ صيغةِ المضارعِ في: ﴿تُصِبْهُمْ﴾:

جِيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ﴾؛ لملاءَمتِها دلالةَ (إنْ) على عدمِ الجَزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، فتفيدُ قِلّةَ وقوعِ السَّيِّئةِ بالنِّسبةِ للرَّحمة[3].

سرُّ إسنادِ الإصابةِ إلى السَّيِّئةِ، دونَ لفظِ الجلالة:

تعليم التزامِ الأدبِ معَ الله

أُسنِدَتِ الإصابةُ إلى السَّيِّئةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ﴾، ولم يُقَلْ: (وإنْ أصَبْناهم بسيِّئةٍ) أو نحوُ ذلكَ - معَ أنَّ الخيرَ والشَّرَّ مِنَ اللهِ - ؛ للإيذانِ بأنَّ السَّيِّئةَ بمَعْزِلٍ عنِ الانتظامِ في سِلْكِ الإرادةِ بالذّاتِ[4]، وفيه تعليمٌ بالتزامِ الأدبِ مع اللّه تعالى في نسبة الفعل من باب ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠﴾ [الشّعراء: 80].

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 226.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 226.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 53.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 36.

سرُّ التَّعبيرِ بالسَّيِّئةِ:

الأمراضُ والمخاوفُ ونحوُها تسوءُ الإنسانَ

أوثِر التّعبيرُ بالسَّيِّئةِ دون غيرها في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المرضَ والفقرَ والمخاوفَ ونحوَ ذلكَ ممّا يَسوءُ صاحبَهُ، ويُلحِقُ بهِ الأذى والغَمَّ[1]؛ فهي تدلُّ على العموم؛ ويُؤكّد هذا أنّ السَّيِّئة في الأصلِ: الفَعْلَةُ القبيحةُ[2]، وهي صفةٌ مُشبَّهَةٌ مِنَ ساءَهُ، إذا فعلَ بهِ ما يَكْرَهُهُ، نقيضُ سَرَّهُ[3]، والسّوءُ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الأُخرويَّةِ والدُّنيويَّة[4].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿سَيِّئَةُۢ﴾:

كُفْرُ الإنسانِ معَ قلَّةِ الابتلاءِ

تنكيرُ ﴿سَيِّئَةُۢ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ للتَّقليلِ، والمعنى: وإنْ تُصِبْهم سيِّئةٌ وإنْ قلَّتْ فإنَّ الإنسانَ كفورٌ، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنْ ذمِّ كُفْرِهِ[5]، والتَّنبيهِ على سوءِ معاملتِه، وفي هذا تصويرٌ لجَزَعِ الإنسانِ غيرِ المؤمنِ مِنَ الإصابة بالسّيِّئة ولو كانت قليلة.

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾:

السَّيِّئةُ تُصيبُ العبدَ بكَسْبٍ منهُ

أوثِر التّعبير بالباء في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لدلالتها على السَّببيَّة، فتُفيدُ أنَّ إصابةَ السَّيِّئةِ للنّاسِ تكونُ بسببِ أعمالِهم[6]، وفي ذلكَ إقامةٌ للحُجَّةِ عليهم، وحَثٌّ لهُم على تَرْكِ الكُفرِ والمعاصي، وفيها إشارةٌ إلى عدالته ﷻ مع خَلْقِه.

سرُّ التّعبيرِ بـ (ما):

كلُّ ما يعملُهُ الإنسانُ يُجازَى عليهِ

أوثِر التّعبيرُ بـ (ما) في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لتعدّد معناها؛ فيحتمل أن تكون مصدريَّةً، والمعنى: بتقديمِ أيديهم،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 609.
(2) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (سوء).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سوء).
(4) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (سوء).
(5) أبو موسى، آل حم، ص: 227.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 36.

ويحتملُ أنْ تكونَ موصولةً، أي: بالَّذي قدَّمَتْهُ أيديهِم، وأيًّا ما كانَ فكلُّ ما يعملُهُ الإنسانُ يُجازَى عليهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّقديمِ دونَ الكسبِ:

سَبْقُ العملِ الابتلاءَ بالسَّيِّئاتِ

اختيرَ التَّعبيرُ بتقديمِ اليدينِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ دونَ كَسْبِهِما، لأنَّ عادةَ القرآنِ قد جرَتْ بأنَّهُ يستعملُ كَسْبَ اليدينِ في سياقِ الحديثِ عنِ الأخذِ والاستحواذِ، ويَستعملُ تقديمَ اليدينِ حينَ لا يكونُ السِّياقُ للحديثِ عنهما[1] كما هنا، وفي التَّعبيرِ بالتَّقديمِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ العملَ قد تقدَّمَ إصابةَ السَّيِّئةِ، وتحقَّقَ قبلَها، وذلكَ أنسبُ بمقامِ بيانِ تسبُّبِ السَّيِّئاتِ عن أعمالِهِم[2]، ولأنّ التّعبير ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾ أبلغُ مِنَ التّعبير (بما كسبت)، وذلك في مقام الذّنوب، وهذا مذكورٌ في كثير من آيات القرآن، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [آل عمران: 182][الأنفال: 51]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ [الحج: 10].

نُكْتَةُ صيغةِ الماضي في: ﴿قَدَّمَتۡ﴾:

سببُ إصابةِ السَّيِّئةِ متحقِّقٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عملَهم قد مضَى وتحقَّقَ قبلَ إصابةِ السَّيِّئةِ لهُم، وفي ذلكَ مزيدُ تأكيدٍ لكونِ إصابةِ السّوءِ لهُم بسببِ عملِهم، وفيه دليلٌ على أنّ ارتكابَهم السّيّئاتِ الذي أدّى بهم إلى العقاب أمرٌ مُتحقّقٌ فيهم، وراسخٌ في طباعهم.

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ التَّقديمِ إلى الأيدي:

أكثرُ عملِ الإنسان بيده

إسنادُ التَّقديمِ إلى الأيدي في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لتأكيدِ إسنادِ الفعلِ إلى صاحبِ الجارحةِ، كما في قولِكَ: رأَتْهُ عيني، وسَمِعَتْهُ أُذُني[3]، ولأنّ اليد هي آلةُ الفعل وسببٌ في

(1) السّامرائيّ، لمسات بيانية: 5/ 173.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 260.

(3) أبو موسى، آل حم، ص: 228.

وقوعه؛ لذلك أُسند الفعلُ إليها على سبيل المجاز المرسل؛ لأنّ الفاعل هو الإنسان لا اليد، والعلاقة هي السّببيّة؛ لأنّ اليد هي السّبب فيما يقترفه الإنسانُ من أعمال.

كلُّ نفسٍ مؤاخَذةٌ بعملِها لا بعملِ غيرِها

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾:

إضافةُ الأيدِي إلى ضميرِ النّاسِ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لبيانِ اختصاصِها بهِم، وفي ذلكَ مزيدُ تأكيدٍ لصُدورِ التَّقديم عنهُم، والمعنى: بما قدَّمَتۡ أيديهِم، لا أيدي غيرِهم، وفي الإضافة دليلٌ على أنّ المسؤليّة ذاتيّة، ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدّثر: 38].

ابتئاسُ الإنسانِ بإصابةِ السَّيِّئةِ

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَإِنَّ﴾:

الظّاهرُ أنَّ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ رابطةٌ لجواب (إن) الشّرطيّة، أو عِلّةٌ للجواب المُقدّر، والتّقدير: (وإن تصبهم سيّئةٌ نَسوا النّعمة فورًا؛ لأنّ الإنسان كثيرُ كُفْران النّعمة)، وعلى ذلك تكون جملة ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ ليسَت جوابَ الشَّرطِ؛ إنّما دليلٌ عليه؛ لأنَّهُ غيرُ مترتِّبٍ على إصابةِ السَّيِّئةِ، وربَّما كانَ ترتُّبُهُ على إذاقةِ الرَّحمةِ أقربَ؛ لأنَّهُ يقالُ: ﴿كَفُورٞ﴾ في سياقِ ذِكْرِ النِّعمةِ، وجوابُ الشَّرطِ المحذوفُ هنا يُساعِدُ على تقديرِهِ جوابُ الشَّرطِ المذكورُ في الجملةِ قبلَهُ[1].

سِرُّ ذِكْرِ هذه الفاصلة مع إصابة السّيّئة:

ذُكِرَ وصفُ الإنسانِ بالكُفر للنّعمة في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ معَ إصابةِ السَّيِّئة؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يُفيدُ كثرةَ السَّيِّئاتِ، وأنَّ إصابةَ السَّيِّئةِ لهذا الإنسانِ قليلٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ السَّيِّئاتِ الَّتي قدَّمَتْها يداهُ، وأنَّهُ لم يُحاسَبْ على كلِّ ما قدَّمَتْهُ يداهُ، وهذا يوجِبُ الشُّكرَ، ولكنَّهُ كَفورٌ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 350.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 227.

سِرُّ مَجيءِ الفاصلة جملةً اسميّة:

جاءت فاصلةُ الآية ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ جملةً اسميّة؛ للإشارة إلى أنّ هذا الوصفَ للإنسان ليس وصفًا عارضًا، بل هو جِبلّةٌ وطبيعة فيه، حتّى ولو لم يظهر ذلك في معيشته مع النّعم فترةً منَ الزّمن؛ فإذا ما أصابه ضرٌّ كشفَ حقيقتَه، وأبان عن جُحوده ونُكرانه.

وَصْفُ الكُفرانِ في الإنسانِ ليس عارضًا، بل هو جِبلّةٌ وطبيعة فيه

بلاغةُ التَّوكيدِ في: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾:

توكيدُ قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملة؛ لأنَّهم كانوا يدَّعونَ الشُّكرَ، ويُنكِرونَ الكفرَ[1]، أو لمناسبةِ التَّسليةِ، بأنْ نُزِّلَ السّامعُ الَّذي لا يشكُّ في وقوعِ هذا الخبرِ منزلةَ المُتردِّدِ في ذلكَ؛ لاستعظامِهِ إعراضَهم عن دعوةِ الخيرِ، فَشُبِّهَ بالمُتردِّدِ على طريقةِ المَكنيَّةِ، وحرفُ التَّأكيدِ مِنْ روادفِ المشبَّهِ بهِ المحذوفِ[2].

استعظامُ الإعراضِ عن دعوةِ الخيرِ

سرُّ إظهارِ لفظِ الإنسانِ:

جاء التّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ مُظهرًا، ولم يُقَلْ: (فإنَّهُ كَفورٌ) بالإضمارِ، ليُسجَّلِ على أنَّ جنسَ الإنسانِ موسومٌ بكفرانِ النِّعَم[3]، وأنَّ طبيعتَهُ تقتضي هذهِ الحالةَ، إلّا إذا أدَّبَها الرَّجلُ بالآدابِ الَّتي أرشدَ اللّهُ إليها[4]، وممّا يُذْكر في سرّ التّعبير بالإظهار ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: الإشارةُ إلى أنّ كُفرانه مسبّبٌ عن نسيانه نعمةَ اللّه عليه، وهذه الدّلالة مستفادَةٌ مِن اشتقاق لفظِ الإنسان بناءً على أنّه منَ النّسيان[5].

جنسُ الإنسانِ كفورٌ بالنِّعَمِ

بلاغةُ المجازِ في إسناد كُفران النّعمة إلى جنس الإنسان:

أُسندت هذه الصّفة (كفران النّعمة) إلى جنس الإنسان، معَ

الحُكْمُ على الجِنس بحالِ أغلبِ أفرادِه للملابسة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 350.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 134.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 232، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 83.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 609.
(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 260.

كونِها مِنْ خواصِّ المجرمينَ لغلَبتِهم فيما بينَ الأفرادِ[1]؛ يعني: أنّه حَكَمَ على الجِنس بحالِ أغلبِ أفراده للملابسة على المجاز العقليّ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالكَفورِ:

شأنُ الإنسانِ تعدادُ النِّقَمِ ونسيانُ النِّعَمِ

عُبِّرَ بالكفورِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ دونَ غيرِه كالجُحود والنّكران؛ لأنَّهُ يُطيفُ بهذهِ الكلمةِ معانٍ كثيرةٌ، منها الحزنُ، ومنها اليأسُ، ومنها الإحباطُ، ومنها القُنوطُ[3]، ومنها نسيانُ النِّعمةِ رأسًا، وتذكُّرُ البليَّةِ واستعظامُها، وعدمُ تأمُّلِ سببِها[4].

سرُّ التّعبير بـ (فعولٍ) دون فاعل:

شـدَّةُ مبالغةِ الإنسانِ في الكفرِ

عَبّرَ بصيغةِ (فعولٍ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾، ولم يُقَلْ: (كافرٌ)؛ للتَّنبيهِ على شدَّةِ مبالغةِ الإنسانِ في الكفرِ، أي: فإنَّ الإنسانَ شديدُ الكفرِ[5]، ويَذْكُر البليّةَ ويستعظمُها ولا يتأمّلُ سببَها؛ فحالُه كفرانُ النّعمِ، غير شكورٍ لها.

بلاغةُ الاحتباكِ في الآية:

في هذه الآيةِ احتباكٌ؛ حيثُ ذكر الفرحَ أوّلًا في قوله: ﴿فَرِحَ بِهَا﴾، وهو دالٌّ على حذف الحُزْن ثانيًا، وذَكر الكُفْرَ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾، وهو دالٌّ على حَذْفِه أوّلًا[6]، وبيانُ ذلك فيما يلي: ذَكَرَ في الحالة الأولى الفرَحَ؛ لأنّه السّببُ في كُفر النّعمة، فأبْرَزَه تحذيرًا منه، ولم يَذْكُر كُفران النّعمة في اللّفظ، اكتفاءً بدلالة مقابله عليه، وللإشارة إلى أنّه لا ينبغي أن يقع منَ الإنسان، وذَكَر الكفرَ في الحالة الثّانية للدّلالة على خطورة الجَزَع وعدم الثّبات عند الشّدائد، وأنّه يُؤدّي إلى الكفر، ولم يَذْكر الحُزْنَ في اللّفظ لدلالة الكلام عليه، وللإشارة أنّه لا ينبغي أن يكون منَ الإنسان.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 36.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 180.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 227.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 232.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 647.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشّورى: 49 - 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيتينِ لِما قبلَهما:

اللهُ هو المتصرِّفُ المتفرِّدُ بالمُلْكِ والملكوتِ والخَلْقِ والأمرِ

لمّا ذكرَ ﷻ في الآية السّابقة إذاقةَ الإنسانِ الرَّحمةَ وإصابتَهُ بالسَّيِّئةِ؛ أتبعَ ذلك بقوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ لبيانِ أنَّ لهُ المُلْكَ العلويَّ والسّفليّ، وأنّه يفعل ما يريد، وأنَّهُ يقسمُ النِّعمةَ والبلاءَ كيفَ أرادَ، ويَهَبُ لعبادِهِ منَ الأولادِ ما تقتضيهِ مشيئتُهُ[1].

ومنها: لمّا قدَّمَ ﷻ في هذهِ السّورةِ أنَّ لهُ التَّصرُّفَ التّامَّ في عالَمِ الخَلْقِ بالأجسامِ المرئيَّةِ، وفي عالَمِ الأمرِ بالأرواحِ الحسِّيَّةِ والمعنويَّةِ القائمةِ بالأبدانِ، وختمَ بتصرُّفِهِ المُطلَقِ في الإنسانِ منْ إنعامٍ وانتقامٍ، فدلَّ ذلكَ على أنَّ لهُ التَّصرُّفَ التّامَّ ملكًا وملكوتًا، خلقًا وأمرًا؛ لذلك أتبعَهُ الدَّليل في هاتين الآيتين على أنَّ تصرُّفَهُ ذلكَ على سبيلِ المُلْكِ والقهرِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُلْكُ﴾: (ملك) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصحَّةٍ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: أملكَ عجينَهُ، أي: قوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، ويقالُ: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ؛ لأنَّ يدَهُ فيهِ قويَّةٌ صحيحةٌ[3]، ويُطلَق على التّصرف بالأمر والنّهي في الجمهور، واللّهُ سبحانَهُ هو مالكُ كلِّ شيءٍ، يتصرَّفُ فيهِ كما يشاءُ[4].

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 232، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 609، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 347.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 351.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملك).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 43.

2) ﴿يَهَبُ﴾: الهِبَةُ: أنْ تجعلَ مِلْكَكَ لغيرِكَ بغيرِ عِوَضٍ، يقالُ: وهبتُهُ هِبَةً ومَوْهِبَةً ومَوْهِبًا[1]، ويوصَفُ اللّٰهُ تعالى بالواهبِ والوهّابِ بمعنى أنَّهُ يُعطي مِنْ غيرِ استحقاقٍ عليه، بل هو تفضُّلٌ منهُ على خَلْقِهِ[2]، وهو المرادُ هنا.

3) ﴿عَقِيمًاۚ﴾: (عقم) أصلٌ يدلُّ على غُموضٍ وضيقٍ وشدَّةٍ[3]، ويُبْسٍ مانعٍ مِنْ قبولِ الأثرِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: يومٌ عقيمٌ، أي: لا فرحَ فيه، وريحٌ عقيمٌ، أي: غيرُ لاقحٍ، أي: لا يأتي بمطرٍ، إنَّما هي ريحُ الإهلاكِ[4]، وداءٌ عقامٌ: لا يقبلُ البُرْءَ، والعقيمُ مِنَ النِّساءِ: الَّتي لا تقبلُ ماءَ الفَحْلِ[5]، والمرادُ بالعقيمِ هنا: الَّذي لا يولَدُ لهُ، مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

كمالُ قدرةِ اللهِ وسلطانِهِ

يُخبِرُ اللّٰهُ تعالى عن كمالِ سلطانِهِ وقدرتِه، ويَذكرُ صوَرًا مِنْ ذلكَ، فيقولُ: للّٰهِ سلطانُ السَّماواتِ السَّبعِ والأرضينَ، يفعلُ في سلطانِهِ ما يشاءُ، ويخلقُ ما يشاءُ خَلْقَهُ؛ فيُعطي مَنْ يشاءُ مِنْ خَلْقِهِ مِنَ الولدِ الإناثَ دونَ الذُّكورِ، ويُعطي مَن يشاءُ منهُم الذُّكورَ دونَ الإناثِ، أو يخلطُ بينَهم بأنْ تلدَ المرأةُ غلامًا، ثمَّ تلدَ جاريةً، ثمَّ تلدَ غلامًا، ثمَّ تلدَ جاريةً، وهكذا، ويجعلُ مَنْ يشاءُ عقيمًا، لا يولَدُ لهُ، إنَّ اللّٰهَ ذو علمٍ بما يخلقُ، وقدرةٍ على خَلْقِ ما يشاءُ[7]، وليس ذلك لأحدٍ إلّا اللّٰه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

اللّٰهُ متفرِّدٌ بالخَلْقِ والأمرِ

علَّةُ فصلِ ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما

(1) الرّاغب، المفردات: (وهب).
(2) السَّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيدي، تاج العروس: (وهب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقم).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (عقم).
(5) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ: (عقم).
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 60.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 556، و557.

بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ فهذهِ الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ما سبقَهُ مِنْ عجيبِ خَلقِ الإنسانِ الَّذي لم يُهذِّبْهُ الهَدْيُ الإلهيُّ، يُثيرُ في نفسِ السّامع بعضَ الأسئلة عن فَطْرِ الإنسانِ على هذَينِ الخُلُقينِ اللَّذينِ يتلقَّى بهما نعمةَ ربِّهِ وبلاءَهُ، وكيفَ لم يُفْطَرْ على الخُلُقِ الأكملِ؛ ليتلقَّى النِّعمةَ بالشُّكرِ، والضُّرَّ بالصَّبرِ، وعن سببِ إذاقةِ الإنسانِ النِّعمةَ مرَّةً، والبُؤسَ مرَّةً، فيَبْطُرُ ويكفرُ، فكانَ جوابُهُ أنَّ اللّهَ المتصرِّفُ في السَّماواتِ والأرضِ، يخلقُ فيهما ما يشاءُ مِنَ الذَّواتِ وأحوالِها[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في صدرِ الآيةِ:

ثبوتُ مِلْكِ اللهِ للسَّماواتِ والأرضِ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ للدّلالةِ على ثُبوتِ هذهِ الحقيقةِ، وهي كونُ مُلْكِ السَّماواتِ والأرضِ للّه، وفي التّعبيرِ بها إشارةٌ إلى ثبوت ملكيّتهِ سبحانه للسّماوات والأرض قبلَ خَلْق النّاس، وفي ذلك توبيخٌ للذين يعبدون الأصنام التي لا تملك شيئًا، فضلًا عن ملكيّتها لأنفسها.

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لِّلَّهِ﴾:

المُلْكُ والاختصاص

اللّامُ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للمِلْكِ والاختصاصِ، فاجتمعَ في الكلامِ إثباتُ التَّصرُّفِ في السَّماواتِ والأرضِ للّهِ في كلمةِ ﴿مُلۡكُ﴾، وإثباتُ اختصاصِهِ تعالى بهذا التَّصرُّفِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

ذو العظمةِ والجلالِ له المُلْك والتّصرّف التّامّ

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لأنَّهُ الاسمُ الأعظمُ الدّالُّ على صفاتِ الجلالِ والكمالِ، الجامعُ لمظهرِ العظمةِ، ومقامِ اللُّطفِ والإحسانِ والرَّحمةِ، والمعنى: للمَلِكِ الأعظمِ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ[2]، وفي التّعبير به تربيةٌ للمهابة في القلوب.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 136.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 351.

دلالةُ تقديم ﴿لِّلَّهِ﴾:

الاختصاص والحصرُ

قُدِّمَ قوله: ﴿لِّلَّهِ﴾ على ﴿مُلۡكُ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ والحصرِ، والمعنى: للّهِ مُلْكُ السَّماواتِ والأرضِ، لا لغيرِهِ سبحانَهُ اشتراكًا أوِ استقلالًا(1)، وقد قوَّى هذا التَّقديمُ دلالةَ اللّامِ الجارَّةِ.

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

الإضافةُ في قولِهِ تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بمعنى اللّامِ، أي: للّهِ المُلْكُ المتعلِّقُ بالسَّماواتِ والأرضِ.

سرُّ التّعبيرِ بلفظ: ﴿مُلۡكُ﴾ دون (مِلك):

عَبّر القرآنُ الكريم بقوله: ﴿مُلۡكُ﴾ بالضّمّ في: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، ولم يقل: (مِلك) بالكسر؛ لأنّ المراد إثباتُ سلطانه وقدرته سبحانه، ولأنّ المُلك يتضمّن المِلك.

سرُّ تخصيصِ السّماواتِ والأرض بالذِّكر:

السّماواتُ والأرضُ من أعظمِ المخلوقاتِ الظّاهرةِ وأعجبِها

خصّ القرآنُ الكريم ذِكْرَ السّماواتِ والأرض، مع أنّ اللّه ﷻ له المُلك والمَلكوت، وله ملك الدّنيا والآخرة؛ لأنّهما من أعظم المخلوقات الظّاهرة وأعجبِها، ولأنّ المخلوقاتِ لا يخلو سُكناها منَ السّماوات أوِ الأرض؛ فالمُلكيّة لهما تتضمّن مُلكيّةَ ما فيهما والتّصرّفَ في شؤونهما.

براعةُ الطِّباقِ بينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

الكونُ كلُّهُ مقهورٌ بسلطانِ اللهِ

جُمِعَ بينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ رعايةً لمُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ، وفائدتُهُ هنا التَّنبيهُ على أنَّ الكونَ كلَّهُ مِنَ العَرْشِ الذي هو غايةُ الارتفاعِ، إلى الفَرْشِ (الأرض) الَّذي هو غايةُ الانخفاضِ؛ مقهورٌ بسلطانِ اللّهِ تعالى، وفي ذلكَ دليلٌ باهرٌ على وحدانيَّتِهِ وقدرتِهِ.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 53.

سرُّ التّعبيرِ بالخَلْق في: ﴿يَخۡلُقُ﴾:

أوثِر التّعبيرُ بالخَلْق دون غيره في قوله: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ لأنّه أعمُّ الألفاظ؛ فهو يُطْلَق في اللّغة على خَلْق الأشياء وإيجادها، وهو المناسبُ للإنسان في سياق هذه الآية التي تتحدّث عن خَلْق الذّكور والإناث، والنّاظرُ في آيات القرآن الكريم التي تتحدّث عن خَلْق آدم، يجد أنّ لفظَ الخَلْق هو الغالب في قصّته؛ بخلاف غيره منَ الألفاظ كالبَرْء والتّصوير، فهما يندرجان تحت الخَلْق.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿يَخۡلُقُ﴾:

تجدُّدُ الخَلْقِ واستمرارُهُ

عُبِّرَ بالمضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ للدِّلالةِ على تجدُّدِ الخَلْقِ واستمرارِهِ بحسَبِ المشيئة[1]، وفي التّعبير بالمضارع دلالةٌ على تصرّفه تعالى في خَلْقه، في تجدُّد الخَلْق كما يشاؤه ﷻ؛ فلا يمنعه مانعٌ فهو الذي يملك الزّمان؛ فيخلق فيه ما يشاء كما يشاء، دون معقّبٍ على أمره في الخَلْق.

سرُّ التّعبير بـ ﴿مَا﴾ دون (الّذي):

كثرةُ مخلوقاتِ اللهِ تعالى

أوثِر التّعبيرُ بـ ﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ دون (الذي)؛ لإفادة العموم، أي: يخلقُ ما يشاؤُهُ ممّا تعلمُهُ وممّا لا تعلمُهُ[2]، وفي ذلكَ توسعةٌ لدائرةِ الخَلْقِ، وزيادةُ تنبيهٍ على القدرةِ والعظَمةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمشيئةِ:

لا مُعقّبَ للهِ على ما يخلقُ ولا مانعَ لهُ

عُبِّرَ بالمشيئةِ في قولِ الحقِّ عزَّ وعلا: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ لبيانِ أنَّهُ ﷻ لا يجبُ عليهِ خَلْقُ شيءٍ، ولا يمنعُهُ أحدٌ ممّا أرادَ خَلْقَهُ؛ لأنَّهُ يتصرَّفُ في مُلْكِه، وفي ذلكَ مِنَ العظَمةِ والكِبرياءِ ما لا يخفَى[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 353، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 549.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 36.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 262.

سرُّ فَصْلِ جملة ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾:

هِبَةُ الذُّرِّيَّةِ مِنْ وجوهِ الخَلْقِ البديعةِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾ عن قولِهِ: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ لِما بينَهما مِنْ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ بدلٌ منهُ، بدلُ بعضٍ من كلٍّ، والمعنى: يجعلُ أحوالَ العبادِ في الأولادِ مختلفةً على مقتضَى المشيئةِ، يَهَبُ لبعضٍ إمّا صِنفًا واحدًا ذكرًا أو أنثى، أوِ الصِّنفينِ معًا، ويُعقِمُ آخرينَ[1]، أو هو بدلُ اشتمالٍ؛ لأنَّ خَلْقَهُ ما يشاءُ يشتملُ على هِبَتِهِ لِمَنْ يشاءُ ما يشاءُ[2]، ويجوزُ كونُهُ استئنافًا أو بيانًا[3]، وهما أيضًا مِنْ موجِباتِ الفصلِ.

سرُّ التّعبير بالهبة في: ﴿يَهَبُ﴾:

هبةُ الله عطاءٌ بلا عِوَض، ومِنحةٌ بلا غَرَض

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالهبة في قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ دون الإيتاء أوِ الإعطاء؛ لأنّ الهبة يدور معناها اللّغوي حولَ العطاء الخالي مِنَ العِوض، ولذلك من أسمائه سبحانه الوهّاب، ومعناه: المُتفضّل بالعطاء بلا عِوض، ومانِحُ الفضلِ بلا غَرض، ومعطي الحاجةِ بلا سؤال[4]، لهذه المعاني اختار القرآن التّعبيرَ بالهبة في المواطن التي تفضّل اللّهُ بها على عباده، ولا سيما في أمر الإنجاب، والنّاظرُ في آيات القرآن الكريم يجد ذلك على ألسنة الأنبياء؛ فإبراهيمُ عليه السلام قال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصّافات: 100]، وزكريا قال: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥﴾ [مريم: 5]، وعباد الرّحمن قالوا: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ [الفرقان: 74]، ولم يرد بلفظ الإيتاء أوِ الإعطاء، ممّا يُؤكّد خصوصيّة التّعبير بالفعل ﴿يَهَبُ﴾ في أمر إنجاب الذّرّيّة.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 85.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 138.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 427، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 53.
(4) عمر، معجم اللّغة العربية المعاصرة: (وهب).

بلاغةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿يَهَبُ﴾:

تجدُّدُ هبةِ الإناثِ والذُّكورِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ هذا حدثٌ متجدِّدٌ في خَلْقِهِ ما بقيَ في الأرضِ إناثٌ وذكورٌ[1]، وفي التّعبير بالمضارع دلالةٌ على قيّوميّته سبحانه في تصريف أمور الخَلْق في أمر الإنجاب، وفيه طمأنةٌ لمن حُرِمَ الإنجاب بأنّه إذا دعا ربّه، استجاب اللّهُ دعاءه؛ لأنّ أمر الهبة مُتجدّدٌ.

سِرُّ تعديةِ فعل الهِبَةِ باللّامِ:

تضمينُ الهبةِ معنى الخَلْقِ

عُدِّيَ فعلُ الهِبَةِ باللّام في قولِهِ تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾، وقولِهِ: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، معَ أنَّ فعلَها متعدٍّ بنفسِهِ إلى مفعولينِ؛ لتضمينِ الهِبَةِ معنى الخَلْقِ، ولئلّا يُتوهَّمَ أنَّ الولدَ كانَ لغيرِ الوالدِ، ووهبَهُ اللّهُ لهُ[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾:

عُبِّرَ بالموصولِ في قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾، وقولِهِ: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾؛ ليَشملَ كلَّ مَنْ حكمَتْ مشيئةُ اللّهِ تعالى بأنْ يوهَبَ لهُ إناثٌ أو ذكورٌ.

سِرُّ التّعبيرِ بالمشيئةِ في: ﴿يَشَآءُ﴾:

المشيئةُ تقتضي الوجودَ بخلافِ الإرادةِ

أوثر التّعبيرُ بالمشيئة في قوله: ﴿يَشَآءُ﴾ دون الإرادة لوجود فرقٍ بينهما؛ فالمشيئة لغةً الإيجادُ، والإرادةُ طلبُ الشّيء، والمشيئة تقتضي الوجودَ؛ فلذلك قيل: (ما شاء اللّه كان)؛ بخلاف الإرادة فإنّها لا تقتضي وجودَ الشّيء؛ كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، وربّما يريد الإنسانُ لنفسه العُسْر، ولمّا كانتِ المشيئة تقتضي الوجودَ، ناسبَ التّعبيرُ بها في أمر الإنجاب؛ بخلاف الإرادة[3].

---

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 231.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 345.

(3) زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن، ص: 112.

بيانُ طبيعةِ الإنسان عند استقبال المولود

سرُّ تنكيرِ (الإناثِ) وتعريفِ ﴿ٱلذُّكُورَ﴾:

نُكِّرَ لفظُ (الإناثِ)، وعُرِّفَ لفظُ ﴿ٱلذُّكُورَ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾؛ لأنَّ التَّنكيرَ هو الأصلُ في أسماءِ الأجناسِ، وتعريفُ الذُّكورِ باللّامِ؛ لأنَّهم الصِّنفُ المعهودُ للمخاطَبينَ، فاللّامُ لتعريفِ الجنسِ، وإنَّما يصارُ إلى تعريفِ الجنسِ لمقصدٍ، أي: يَهَبُ ذلكَ الصِّنفَ الَّذي تعهدونَهُ، وتتحدَّثونَ به، وترغبونَ فيهِ[1]، وفي تعريفِ الذُّكورِ أيضًا رِعايةٌ للفاصلةِ[2]، وفي تعريف الذّكور مع ما فيه منَ الاستدراك لقضية التّأخير؛ التّنبيهُ على أنّه المعروف الحاضر في قلوبهم أوّلَ كلّ خاطر، وأنّه الذي عقدوا عليه مناهم؛ فمُيِّزوا بسِمَةِ التَّعريفِ[3]؛ لأنَّ التَّعريفَ تنويهٌ وتشهيرٌ، وفيهِ جبرٌ لتأخيرِهم في الذِّكرِ[4].

عنايةُ الإسلامِ بشأنِ الإناثِ

سرُّ تقديمِ (الإناثِ) على ﴿ٱلذُّكُورَ﴾:

قُدِّمَتِ (الإناثُ) على ﴿ٱلذُّكُورَ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾؛ لأنَّهُ تعالى ذكرَ البلاءَ في آخرِ الآيةِ السّابقةِ، وكفرانَ الإنسانِ بنسيانِهِ الرَّحمةَ، ثمَّ عقَّبَهُ بذِكْرِ مُلْكِهِ ومشيئتِه، وذكرَ قسمةَ الأولادِ، فقدَّمَ الإناثَ لأنَّ سياقَ الكلامِ أنَّهُ فاعلٌ ما يشاؤُهُ، لا ما يشاؤُهُ الإنسانُ، فكانَ ذِكرُ الإناثِ اللّاتي مِنْ جملةِ ما لا يشاؤُهُ الإنسانُ أهمَّ، والأهمُّ واجبُ التَّقديمِ[5]، أو لأنَّ الإناثَ أكثرُ لتكثيرِ النَّسْلِ، فلذا جازَ تعدُّدُ الزَّوجاتِ، أو لأنَّ الكلامَ في البلاءِ، والعربُ تَعُدُّهنَّ بلاءً، أو لتطييبِ قلوبِ آبائِهنَّ، أو للمحافظةِ على الفواصلِ[6]، أو تأنيسًا لهُنَّ وتشريفًا؛ ليُهتمَّ بصَوْنِهنَّ والإحسانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 138.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 48.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 261.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 232.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 427.

إليهنّ[1]، وفي تقديم الإناث على الذّكور تعريضٌ بالمشركين فيما كانوا يعتقدونه منَ التّشاؤم بولادة البنات[2].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَيَهَبُ﴾:

هِبَةُ الذُّكورِ مِنْ صورِ خَلْقِ اللهِ ما يشاء

قولُهُ تعالى: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾، وفيهِ تفصيلٌ لصورةٍ أخرى مِنْ صورِ خَلْقِ اللّهِ تعالى ما يشاءُ، وفي العطف دلالةٌ على أنّه ﷻ هو القادر على الجمع بين هبة الإناث والذّكور، وليس ذلك إلّا له سبحانه.

بلاغةُ تَكرارِ الهبةِ والمشيئةِ:

الأولادُ فضلٌ مِنَ اللهِ لمن يشاء

في تكرارِ فِعْلَي الهِبَةِ والمشيئةِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ إطنابٌ، حيثُ لم يُقَلْ: (يَهَبُ لمَنْ يشاءُ إناثًا أو ذكورًا)، والغرضُ مِنْ ذلكَ: الاهتمامُ بشأنِ المشيئةِ، والتّنبيهُ على تغايرِ الهِبَتينِ، واستقلالِ كلٍّ منهما، والتّأكيدُ على أنَّ هِبَةَ الأولادِ مَحْضُ فضلٍ مِنَ اللّهِ[3]، وللإشارة إلى أنّ هبة الذّكور تُساوي هبةَ الإناث؛ فلا ينبغي التّقليلُ من شأن الإناث، بل كلّ هبة منهما تستحقُّ الشّكرَ لذاتها.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ الإناثِ والذُّكورِ:

كلُّ ما للنّاسِ مِنَ الأولادِ هِبَةٌ مِنَ اللهِ

في الجمعِ بينَ الإناثِ والذُّكورِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ رعايةٌ لمُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ، والغرضُ منهُ التَّنصيصُ على أنَّ هذَينِ الصِّنفينِ مِنَ الأولادِ هِبَةٌ مِنَ اللّه، أحبّوا ذلكَ أو كَرِهوهُ، وفيه إشارةٌ إلى عدالة القسمة الإلهيّة في هبة الذّكور والإناث؛ لاستقامة الحياة المجتمعيّة من خلال الهبتين؛ لأنّه لا تستغني واحدةٌ منهما عنِ الأُخرى.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 348.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 138.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 263.

المقامُ يقتضي التّقسيمَ

بلاغةُ العطفِ بـ ﴿أَوۡ﴾ دونَ الواوِ:

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ بـ ﴿أَوۡ﴾ المفيدةِ للتّقسيم، دونَ الواوِ الّتي عُطِفَ بها في قولِهِ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾؛ لأنَّهُ قسيمُ المشتركِ بينَ القسمينِ السّابقينِ[1] الّذين هما الإناث والذّكور؛ فكأنّه قيل يهب لمَن يشاء صِنفًا واحدًا منَ الأولاد أو صنفين؛ فإنّ الصّنفين قسيمٌ للصّنف الواحد؛ فكان المقامُ مقامَ ﴿أَوۡ﴾ دونَ الواو[2]؛ لأنّ المراد هو الانفرادُ بأحدِ الصِّنفين، سواءٌ تعدَّدَ أو لا، فلو عُطِفَ بالواوِ توُهِّمَ أنَّهُ قسمٌ لكلٍّ منَ القسمينِ دونَ المشتركِ بينَهما[3].

اقترانُ الذُّكورِ والإناثِ في الهِبَةِ

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالتَّزويجِ دونَ الهِبةِ:

عَبّرَ النّظم الكريم في إعطاءِ الصِّنفينِ معًا بالتَّزويج دونَ الهبة كما سبق في قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، فقال: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾؛ لأنَّ كلَّ شيئينِ يُقرَنُ أحدُهما بالآخرِ فهما زوجانِ، وكلُّ واحدٍ منهما يقالُ لهُ: زوجٌ[4]، والمرادُ هنا: الجمعُ بينَ البنينَ والبناتِ في الهِبَةِ[5].

استمرارُ التَّزويجِ وتجدُّدُه

بلاغةُ صيغةِ المضارعِ في التَّزويجِ:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾؛ للدّلالةِ على استمرارِ التَّزويجِ وتجدُّدِه بحسَبِ ما تقتضيهِ مشيئَتُهُ تعالى وقدرتُهُ، وفي التّعبير بالمضارع إشارةٌ إلى كمال قدرته سبحانه في خَلْق ما يشاء منَ الجمع بين الذّكور والإناث اقترانًا أو تواليًا.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84.

(2) ابن التّمجيد والقونويّ، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 17/ 265.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 427.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 610.

(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 48، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 138.

مرجعُ الضَّميرِ في: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ﴾:

ضميرُ المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ للأولادِ منَ الإناثِ والذُّكورِ[1]؛ إذ هم الَّذينَ يقعُ عليهِم فعلُ التَّزويجِ، ويُقْرَنُ بينَهم.

بلاغةُ الموقعِ الإعرابيّ لـ: ﴿ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾:

احتمالُ الحالِ والمفعولِ

﴿ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ حالٌ مِنْ ضميرِ المفعولِ في ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ﴾، أي: أو يُزوِّجُهم حالَ كونِهم ذُكرانًا وإناثًا، أو مفعولٌ ثانٍ إنْ ضُمِّنَ التَّزويجُ معنى التَّصييرِ، أي: أو يُصيِّرُهم ذُكرانًا وإناثًا[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالذُّكرانِ دونَ الذُّكورِ:

قلَّةُ الذُّكورِ عندَ الاجتماعِ، وكثرتُهم عندَ الانفرادِ

عُبِّرَ بالذُّكرانِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾، وهو جمعُ قِلَّةٍ، وعُبِّرَ بالذُّكورِ في قولِه: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، وهو جمعُ كثرةٍ؛ لأنَّ العادةَ أنَّهُ إذا أُفرِدَ شخصٌ بالذُّكورِ كانوا أكثرَ مِنْ أنْ يُقرَنوا بالإناثِ؛ فإنَّ المرأةَ إذا ولدَتْ ذكورًا فقطْ كانَ عددُ الذُّكورِ أكثرَ عادةً مِنْ أنْ تَلِدَ ذُكرانًا وإناثًا[3].

سرُّ تقديمِ الذُّكرانِ على الإناثِ:

بيانُ مقتضى حكمةِ اللهِ في الخَلْقِ

تقديمُ الذُّكرانِ على الإناثِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ جاء وفقَ مقتضى حِكمتِه سبحانه في الخَلْقِ، كما قال: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: 13]، وقولِه: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ [القيامة: 39]، ولزوالِ أسبابِ تقديمِ الإناثِ عليهِم فيما سبقَ[4].

نُكْتَةُ العطفِ بالواوِ في: ﴿وَيَجۡعَلُ﴾:

عدمُ النَّسلِ قسيمُ هِبَةِ النَّسلِ مطلقًا

عُطِفَ بالواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ دونَ (أو)

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 262، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 375.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 427، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 375.
(3) السّامرائيّ، أسئلة بيانيّة، ص: 254.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 232، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 261.

كسابقِهِ؛ لظهورِ أنَّهُ قسيمُ المشتركِ بينَ الأقسامِ المتقدِّمةِ[1]؛ لأنَّ ما قبلَهُ هو هِبَةُ النَّسلِ مطلقًا، وهذا عدمُ النَّسلِ، فهو غيرُ محتاجٍ للتَّنبيهِ باستعمالِ (أو)[2]، والجهةُ الجامعةُ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ تناسبُ التَّضادِّ[3]، وممّا يُذْكَر في سرّ العطف بالواو أنّ هذا الصّنفَ الرّابعَ ليس قسيمًا للمشترَك بين القسمين، بل قسيمٌ للمشترَك بين الأقسام المتقدّمة، وهذا من دلالة العقل لا من دلالة اللّفظ، ولذلك كان العطفُ بالواو الجامعة بين وهبِ الولد لَمن يشاء، وجَعْلِ مَن يشاء عقيمًا في مطلق الحصول[4].

سرُّ العدولِ عن لفظِ الحرمانِ إلى لفظِ الجَعلِ:

ذِكْـــرُ تـابـعِ الحِرمانِ يُغني عن ذِكْرِهِ

عُدِلَ في قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ عن لفظِ الحرمانِ والمنعِ إلى لفظٍ هو رِدْفُهُ وتابعُهُ، وهو لفظُ الجَعْلِ[5]؛ لأنَّهُ يُغني عنهُ، ويفيدُ عِلَّةَ الحِرمانِ، وفي التّعبير بالجَعْل تطييبٌ لخاطر الإنسان، في أنّ ما يفعله اللّهُ من جَعْله عقيمًا له حِكمةٌ لا يعلمُها إلّا اللّه، ولو اطّلع عليها لأدرك حِكمةَ اللّه فيما فعل؛ بخلاف لفظ الحِرمان، فقد يُفهَم منه العقوبةُ، وهذا غيرُ مُرادٍ.

سرُّ التّعبير بالجَعْل دونَ الخَلْق مادّةً وصيغةً:

التّفريقُ بين حالتين؛ بين خَلْقِه عقيمًا وبين تصييره عقيمًا لحِكمةٍ يعلمها سبحانه

أوثِر التّعبيرُ بالجَعْل في قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ دون الخَلْق كما ورد في صدر الآية ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ لوجود فرقٍ بينهما؛ فالخَلْق معناه في اللّغة: تقديرُ الأشياء وإيجادُها على مثالٍ لم يُسْبَق إليه، وقد يكون بمعنى إيجادِ الشّيء منَ الشّيء كما في قوله: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ [المائدة: 110]؛ أمّا الجَعْل في اللّغة فيُطلَق

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 427.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 265.
(4) ابن التمجيد والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 265.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 54.

على التّهيئة والصّنع، وتصيير الشّيء من حالة إلى حالة؛ لذلك كان التّعبير به مع أمر العُقم ليُفرّق بين حالتين؛ بين خَلْقِه عقيمًا وبين تصييره عقيمًا لحِكمة يعلمها سبحانه، وقد يكون ذلك موقوتًا لفترة زمنيّة، والواقع يُؤكّد ذلك؛ فقد يصير كلٌّ منهما عقيمًا، ثمّ إذا افترق وتزوج كلٌّ بزوج آخَرَ وأنجبا؛ فهذا دليلٌ على الجَعْل فيما مضى، ولو عَبّر بالخَلْق بأن قال: (ويخلق من يشاء عقيمًا)، لم تظهر الحِكمةُ فيما أراده اللّهُ من إظهار قدرته سبحانه، وممّا يُؤكّد ذلك أنّه جاء بالفعل المضارع (يجعل)؛ للدّلالة على تجدّد الأحداث في حياة الإنسان؛ فكما أنّ أمر الخَلْق والهبة متجدّدان؛ فكذلك فعلُ العُقْم تتجدّد صورُه، وهذا دليلٌ على قيّوميّتِه سبحانه على مُلكه، يفعل فيه ما يشاء.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَن﴾:

شمولُ الجَعْلِ كلَّ مَنْ دخلَ تحتَ المشيئةِ

عُبِّرَ بالموصولِ ﴿مَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾؛ دونَ (الذي)؛ لإفادة العموم ليشملَ كلَّ مَنْ حكمَتْ مشيئةُ اللّهِ تعالى بأنْ يُجعلَ عقيمًا، وفي التّعبير بالعموم جبرٌ للخاطر؛ حيثُ جَعل ذلك أمرًا يشترك فيه الكثيرُ، والأمر إذا عمّ هان الخَطْب.

نُكْتَةُ تَكرارِ المشيئةِ:

العطاءُ والمنعُ بمشيئةِ اللهِ

كُرِّرَ فعلُ المشيئةِ في الآية مع هِبَة الإناث وهِبَة الذّكور، ومع أمر العُقْم في قولِه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ للاهتمام بشأنِه، وبيانِ أنّ كلّ فعلٍ من هذه الأفعال السّابقة ليس عبثًا، وإنّما واقعٌ بمشيئته سبحانه؛ فالعطاءُ بمشيئةِ اللّه، وكذلكَ الحِرمانُ والمَنْعُ، وفي هذا طمأنةٌ للإنسان على أنّ هذه المقادير تجري بمشيئته لا بمشيئة الإنسان؛ فيرضى بما قسم اللّه له.

سِرُّ التّعبير بـ ﴿عَقِيمًاۚ﴾ دون عاقر:

أوثِر التّعبير بالعُقْم في قوله: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾، دونَ أن

العُقم مَنعُ الإنجاب الكليّ، والعُقر مَنعُ الإنجاب الجُزئيّ

يكون التّعبير (ويجعل من يشاء عاقرًا)؛ لوجود فرقٍ بينهما، فالعُقْر يُطلق على مَنْع الإنجاب الجُزئيّ، بدليل قصّة زكريا عليه السلام لمّا قال: ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ [آل عمران: 40]، ودعا ربّه فاستجاب له ورُزِق الولد، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ [الأنبياء: 90]، بخلاف العُقْم؛ فهو يُطْلق على منع الإنجاب الكُليّ، ولذلك لما بُشّرت امرأةُ إبراهيم بإسحاق تعجّبت وقالت: كيف وأنا عجوز عقيم؛ فكان الجواب: إنّ ذلك بأمر اللّه الذي لا يُعجزه شيءٌ؛ قال تعالى: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [هود: 73]، والفرق بينهما ظاهر؛ فمع امرأة زكريا كان بالدّعاء، ومع امرأة إبراهيم عليه السلام كانت بالمعجزة.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (فعيل):

العقيمُ يشملُ الرِّجالَ والنِّساءَ

عُبِّرَ بصيغةِ (فعيلٍ) في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾؛ لأنَّها بمعنى (مفعولٍ)، فتشملُ كلَّ مَنْ لا يولَدُ لهُ مِنْ رجلٍ أوِ امرأةٍ[1]، وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بهذه الصّيغة؛ الدّلالةُ على شدّة تمكّن الصّفة، وأنّه لا يستطيع أحدٌ أن يغيّر قَدَرَ اللّه فيه، وفي هذا ردٌّ على مَن يدّعون علاجَ العُقْم؛ لأنّ ذلك ليس لهم؛ بخلاف العُقْر الذي يُطْلَق على منع الإنجاب الجزئيّ؛ فَلِلطّب في ذلك سبيل، بدليل التّعبير بالإصلاح في قوله: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ [الأنبياء: 90].

حكمةُ تأخيرِ الحِرمانِ عنِ الهبة:

غلَبةُ العطاءِ على المنعِ

أُخِّرَ الحِرمانُ عنِ الهِبَةِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾؛ لأنَّ إنعامَهُ على عبادِهِ أهمُّ عندَهُ، وتقديمُ الأهمِّ واجبٌ في الكلامِ البليغِ، والآيةُ إنّما سيقَتْ للاعتدادِ بالنِّعَم، وإنّما أُتِيَ بذِكرِ الحِرمانِ؛ ليُمدحَ بالقدرةِ على المنعِ كما يُمدَحُ بالعطاءِ، فيُعلَمَ أنَّهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 139.

لا مانعَ لِما أعطَى سبحانَهُ، ولا مُعطِيَ لِما منعَ[1]، وفي التَّقديمِ أيضًا إيذانٌ بأنَّ العطاءَ أكثرُ مِنَ المنعِ.

بلاغةُ التَّقسيمِ في الآيتَين:

ذِكْــرُ صــوَرِ العطاءِ والمَنعِ في الأولادِ

في قولِه تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ فنُّ التَّقسيمِ، وهو استيفاءُ المتكلِّمِ جميعَ أقسامِ المعنى الَّذي هو شارعٌ فيه، بحيثُ لا يغادِرُ منهُ شيئًا؛ فإنَّهُ سبحانَهُ إمّا أنْ يُفرِدَ العبدَ بهبةِ الإناثِ، أو بهبةِ الذُّكورِ، أو بهما جميعًا، وإمّا ألّا يَهَبَهُ شيئًا[2].

سرُّ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ عمّا قبلَها:

خَلْقُهُ سبحانَهُ جـارٍ عـلى وفْـقِ الحكمةِ والقدرةِ النّافذةِ

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ في موضعِ العِلَّةِ للمُبدَلِ منهُ، وهو ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾، فموقعُ (إنَّ) هنا موقعُ فاءِ التَّفريعِ، والمعنى: أنَّ خَلْقَهُ ما يشاءُ ليسَ خَلْقًا مُهمَلًا عَريًّا عنِ الحِكمةِ، بل هو جارٍ على وفْقِ الحكمةِ والقدرةِ النّافذةِ[3]، وممّا يُذْكَر في سرّ الفصل: أنّ هذه الجملةَ صارت كمَضرب المثلِ في فعل كلّ شيء؛ فتقول: إنّه عليم قدير؛ فكان الفصل مُفيدًا لتعليل الأمور في عمومها، ومنها: أمرُ الهِبَةِ والمَنْعِ في صدرِ الآية.

سرُّ توكيدِ جملةِ الفاصلةِ:

تـأكيـدُ حكمـةِ اللهِ وقـدرتِـهِ في أفعالِهِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ لكمالِ العنايةِ بمضمونِهِ[4]، وهو تعليلُ أنَّ الخَلقَ والمَنعَ والعطاءَ جارٍ على وفْقِ الحِكمةِ والقدرةِ، وممّا يُذْكر في سرّ تصدير جملة الفاصلة بالتّأكيد: دَفْعُ الأوهامِ والخواطر التي تجول في خاطر الإنسان، ولا سيما في أمر المنع مِنَ الإنجاب؛ فجاء التّأكيد ليُبيِّنَ أنّ ذلك بقَدَرِ الله تعالى.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 54.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 54، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 25/ 97.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 139.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 266.

وجهُ إيثارِ صفتَيِ العِلْمِ والقُدرةِ:

كمالُ الفعلِ بصُدورِه عن عِلْمٍ وقُدْرةٍ

اختيرَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ صفتا العِلْمِ والقُدرةِ دونَ غيرِهما مِنْ صفاتِهِ تعالى؛ لمناسبتِهما ما سبقَ مِنَ الكلامِ، ببيانِ أنَّهُ ﷻ يفعلُ ما يفعلُ مِنَ الخَلْقِ والهِبَةِ والمنعِ بحكمةٍ واختيارٍ[1]، وذلكَ كمالُ الفعل، وفي ذلك لفتُ نظرٍ لمن وُهِبَ له مِنَ الأولاد على تعدّد صفة الهبة إناثًا أو ذُكورًا، أو ذُكورًا وإناثًا؛ بأنّ ذلك واقع لك بعلم اللّه وحِكمته، والواجب عليك شُكْرُ هذه النّعمة؛ لأنّها جاءت مِنَ العليم القدير، وأيضًا: جبرٌ لخاطر من حُرِم هبةَ الأولاد، بأنّ ذلك واقعٌ بعِلْمِ اللّه وقدرته، وعليه أن يستقبل قدرَ اللّه فيه بالرّضا؛ لأنّه مِنَ العليم القدير.

بلاغةُ صيغةِ (فعيل) في: ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ (فعيلٍ) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾؛ للمبالغةِ في اتِّصافِهِ تعالى بالعِلْمِ والقُدرةِ، والمعنى: إنَّهُ مبالغٌ في العِلْمِ والقُدرةِ[2].

غرضُ تقديمِ العليمِ على القديرِ:

العِلْمُ أعظمُ شروطِ المُلْكِ

قُدِّمَ العليمُ على القديرِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّهُ الوصفُ الَّذي هو أعظمُ شروطِ المُلكِ[3] في التّصرّف فيه؛ فهو سبحانه عليمٌ بمَن يستحِقّ كلَّ نوعٍ من هذه الأنواع، وقديرٌ على ما يريد أن يخلق؛ فالخَلْقُ مبنيٌّ على العِلْم، وفي ذلك إشارةٌ على كمال فعل العطاء والمَنْع.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الهِبَةُ والإعطاءُ:

عطاءُ اللهِ مَحْضُ تفضُّلٍ منهُ

الهِبَةُ تكونُ مِنْ غيرِ مقابلٍ ولا عِوَضٍ، والإعطاءُ أعمُّ، والإعطاءُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 85، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 266.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 37، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 54.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 356.

في الأصلِ: اتِّصالُ الشَّيءِ بالآخذِ لهُ؛ كإعطائِكَ المالَ لزيدٍ؛ ليتَّجرَ لكَ به، ولا يقتضي التَّمليكَ، وأمّا الهِبَةُ فتقتضي التَّمليكَ، فإذا وهبتَهُ شيئًا فقد ملَّكتَهُ إيّاهُ، ثمَّ كَثُرَ استعمالُ الإعطاءِ في التَّمليكِ، فيقالُ: أعطاهُ مالًا، إذا مَلَّكَهُ إيّاهُ[1]، وقد عُبِّرَ بالهِبَةِ في الآيةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الأولادَ مَحْضُ فضلٍ وكرمٍ منهُ ﷻ.

(1) النّزهي، الفروق اللّغويّة، ص: 40.

﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾

[الشّورى: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ الوحيِ وأقسامِهِ بعدَ بيانِ كمالِ العِلْمِ والقُدرة

لمّا بيَّنَ تعالى كمالَ قدرتِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ في تقسيم النّعم الجِسمانيّة التي يهبُها لعباده، أتبعها بتقسيم النّعم الرّوحيّة التي اختصّ بها أنبياءَهُ بوَحْيِهِ وكلامِهِ[1]، ومنها: لمّا تمَّ القسمُ الأوَّلُ ممّا بُنِيَ على العلم والقدرةِ، وكانَ خَلْقُهُ إيّاهُ إبداعًا مِنْ غيرِ توسيطِ سببٍ، وقد يكونُ بتوسيطِ سببٍ؛ أتبعَهُ القِسْمَ الآخرَ الأعلى الَّذي العِلْمُ فيهِ أظهرُ، وهو الوَحْيُ، وقسَّمَهُ أيضًا إلى ما هو بواسطةٍ، وإلى ما هو بغيرِ واسطةٍ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَحۡيًا﴾: أصل (الوحي) الإشارةُ السريعة، ويدلُّ على إلقاءِ عِلْمٍ في خفاءٍ أو غيرِهِ إلى الغيرِ[3]، وذلكَ يكونُ بالكلامِ على سبيلِ الرَّمزِ والتَّعريضِ، وقد يكونُ بصوتٍ لا تركيبَ فيه، وقد يكونُ بإشارةٍ ببعضِ الجوارحِ، وبالكتابةِ، ويقالُ للكلمةِ الإلَهيَّةِ الَّتي تُلْقَى إلى أنبيائِهِ وأوليائِهِ: وحْيٌ، وذلكَ أنواعٌ كما دلَّ عليهِ قولُهُ تعالى هنا: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ الآيةَ، وذلكَ إمّا برسولٍ مُشاهَدٍ تُرى ذاتُهُ ويُسمَعُ كلامُهُ، كتبليغِ جبريلَ عليه السلام للنَّبيِّ ﷺ في صورةٍ مُعيَّنةٍ، وإمّا بسماعِ كلامٍ مِنْ غيرِ معاينةٍ؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 611، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 550.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 357.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحي).

كسماعِ موسى كلامَ اللّه، وإمّا بإلقاءٍ في الرّوعِ، وإمّا بإلهامٍ، وإمّا بتسخيرٍ، وإمّا بمَنامٍ[1].

2) ﴿حِجَابٍ﴾: (حجب) أصلٌ يدلُّ على المنعِ منَ الوصول، ومِنْ ذلكَ يقالُ: حجبتُهُ عن كذا، أي: منعتُهُ[2]، والحاجبُ: المانعُ عنِ السُّلطانِ، والحِجابُ: المنعُ مِنَ الوصولِ، والمرادُ بهِ هنا: أنْ يوحَى إلى النَّبيِّ مِنْ حيثُ لا يرَى مكلِّمَهُ ومُبلِّغَهُ[3].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

صوَرُ الوَحْيِ

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن صوَرِ الوَحْيِ، فيقولُ: وما ينبغي لبشرٍ مِنْ بني آدمَ أنْ يُكلِّمَهُ ربُّهُ إلّا بإحدى ثلاث؛ إمّا أن يوحِيَ إليه وحيًا، بأن ينفث في قلبه ويُلْقيَ في روعه، سواء كان هذا في اليقظة أو في المنام، وإمّا أن يكلّمَه من وراء حجاب؛ فيسمعَ الكلامَ ولا يعرفَ مصدرَه، كما حصل لموسى عليه السلام، وإمّا أن يكلّم اللّهُ الرّسولَ منَ البشر، بأن يُرسِل إليه مَلَكًا منَ الملائكة كجبريل أو غيرِه، فيوحيَ ذلكَ الرَّسولُ إلى المُرسَلِ إليهِ ما يشاءُ ربُّهُ أنْ يوحِيَهُ إليه، مِنْ أمرٍ ونهيٍ وغيرِ ذلكَ، إنَّهُ سبحانه وتعالى عَلِيٌّ عن صفاتِ المخلوقِينَ، يفعلُ ما تقتضيهِ حِكمتُهُ، فيُكلِّمُهُ تارةً بواسطةٍ، وتارةً بغيرِ واسطةٍ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾:

عطفُ القِصّة على القِصّة

قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ عطفٌ على ما سبقَ مِنْ حكايةِ تُرَّهاتِهم، عطفَ القِصَّةِ على القصَّةِ، وهو رجوعٌ إلى إبطالِ شُبَهِ المشركينَ الّتي أشارَ إليها قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ

(1) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ: (وحي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحي).
(3) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ: (حجب).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 558، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 63.

﴿إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾ [الشّورى: 3]، وقولُه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ [الشّورى: 13]، ويَزيدُهُ وضوحًا قولُه بعدَ هذهِ الآيةِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشّورى: 52].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ المنفيِّ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

البَشرُ غيرُ مؤهَّلينَ لتكليمِ اللهِ لهُم، إلّا بالصّوَرِ المذكورةِ

عُبِّرَ بفعلِ الكونِ الماضي المنفيِّ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾؛ للدّلالة على أنَّ البشرَ غيرُ مؤهَّلينَ لتكليمِ اللّهِ لهُم إلّا بالطُّرقِ المذكورةِ في الآيةِ؛ إذ معنى (ما كانَ لبشرٍ): ما صحَّ لهُ[1]، وما أمكنَ لهُ، و﴿كَانَ﴾ تامَّةٌ، والفاعلُ ﴿أَن يُكَلِّمَهُ﴾[2].

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لِبَشَرٍ﴾:

ليسَ للبشرِ إلّا ما أعطاهُم اللهُ

اللّامُ الجارَّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ للمِلكِ والاستحقاقِ، فتفيدُ بمعونةِ سياقِ النَّفيِ انتفاءَ مِلْكِ البشرِ واستحقاقِهِ أنْ يُكلِّمَهُ اللّهُ بغيرِ الصّوَرِ المذكورةِ في الآيةِ.

دلالةُ تنكيرِ ﴿لِبَشَرٍ﴾:

أفاد تنكيرُ (بشر) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ العمومَ؛ لأنَّهُ نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، فيُفيدُ استغراقَ النَّفيِ، والمعنى: وما صحَّ لأحدٍ مِنَ البشرِ[3].

سرُّ التّعبيرِ بالتّكلّمِ دونَ غيرِه:

بالكلامِ يبلغُ مرادُ اللهِ سبحانهُ إلى النّبيّ ﷺ

عُبِّرَ بالتَّكلُّمِ في قولهِ: ﴿أَن يُكَلِّمَهُ﴾ دون غيرِه؛ لأنَّ المرادَ بهِ بلوغُ مرادِ اللّهِ إلى النَّبيِّ، سواءٌ كانَ ذلكَ البلوغُ بكلامٍ يسمعُهُ ولا يَرى مصدرَهُ، أو بكلامٍ يُبلِّغُهُ إليهِ المَلَكُ عنِ اللّهِ تعالى، أو بعلمٍ يُلقَى في نفسِ النَّبيِّ، يوقِنُ بأنَّهُ مرادُ اللّه، وإطلاقُ الكلامِ على هذهِ الأنواعِ الثَّلاثةِ بعضُهُ حقيقةٌ، مِثلُ ما يسمعُهُ النَّبيُّ، كما سمعَ موسى، وبعضُهُ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 233.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 266.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 611.

مجازٌ قريبٌ مِنَ الحقيقةِ، وهو ما يُبلِّغُهُ المَلَكُ إلى النَّبيِّ؛ فإنَّهُ رسالةٌ بكلام، وبعضُهُ مجازٌ مَحْضٌ، وهو ما يُلقَى في قلبِ النَّبيِّ معَ العلم، فإطلاقُ فعلِ ﴿يُكَلِّمَهُ﴾ على جميعِها مِنِ استعمالِ اللَّفظِ في حقيقتِهِ ومجازِه، وإسنادُ فعلِ ﴿يُكَلِّمَهُ﴾ إلى اللّهِ إسنادٌ مجازيٌّ عقليٌّ[1]، ولا تتأتّى هذه المعاني إلّا منَ التّعبيرِ بالكلامِ في قولِه: ﴿أَن يُكَلِّمَهُ﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ ﴿أَن يُكَلِّمَهُ﴾:

عُبِّرَ بالمصدرِ المُؤوَّلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ دون المصدر الصّريح؛ ليَقعَ التَّصريحُ بالفاعلِ والمفعولِ على أتمِّ وجوهِهِ[2].

نُكْتَةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ:

تكليمُ العظيمِ عظيمٌ

أُظهِرَ لفظُ الجلالةِ في موضعِ الإضمارِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾؛ تعظيمًا للوَحْي، وتشريفًا لمقدارِهِ بجلالِ إيثاره، والمعنى: وما كانَ لبشرٍ أنْ يُكلِّمَهُ ذو العظَمةِ والجلالِ، الجامعُ لصفاتِ الكمالِ إلّا وحيًا[3].

بلاغةُ القصرِ بالنَّفي والاستثناءِ:

لا طريقَ لتكليمِ اللهِ للبشرِ إلّا الصّوَرُ المذكورةُ

القَصْرُ بالنَّفي والاستثناءِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ يحصرُ كلامَ اللّهِ للبشرِ في هذهِ الطُّرقِ المذكورة، وبناءً على ذلكَ يوصَفُ الإنسانُ الّذي كلَّمَهُ اللّهُ بواحدٍ منها، بأنَّ اللّهَ قد كلَّمَهُ[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالوَحْيِ:

اشتمالُه على كلِّ صورِ تكليمِ اللهِ للبشرِ

عُبِّرَ بالوَحْيِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ دون غيره لشموله لكلّ صوَرِ التّكليمِ منَ اللّهِ للإنسانِ، وهي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 141.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 357.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 357، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 550.
(4) أبو موسى، آل حم، ص: 233.

إلقاءُ العلمِ في خفاء، فيشملُ الإلهامَ والقذفَ في القلبِ أوِ المنام[1]، وبذلك تزدادُ عظَمةُ الوَحْي، ومكانةُ الرُّسُلِ المخصوصينَ بهِ دون باقي البَشرِ.

الوَحْيُ ليسَ فيهِ صوتٌ ولا ترتُّبُ كلماتٍ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿وَحۡيًا﴾:

آثر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالمصدر ﴿وَحۡيًا﴾؛ لأنّه لمّا كانَ الوَحْيُ الّذي بلا واسطةٍ ليسَ فيهِ صوتٌ ولا ترتُّبٌ في كلماتٍ - معَ كونِه أخفَى الأقسام - ؛ عُبِّرَ فيهِ بالمصدرِ، فقيلَ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾[2].

تعدّدت صورُ تكليمِ الله لرسله، فعُبِّر بالاسميّة والفعليّة لجمع هذه المعاني

سِرُّ تَعدُّدِ تراكيبِ صوَرِ الوحي:

من بلاغة التّعبير القرآنيّ تعدّدُ تراكيبِ صورِ الوحي الدّالّة على تكليم اللّهِ الرُّسُلَ بتراكيبَ مختلفةٍ، فجِيءَ بالمصدرِ أوّلًا في قولِه: ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾، وجِيءَ بما يُشبِهُ الجملةَ ثانيًا، وهو قولُهُ: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، وجِيءَ بالجملةِ الفعليَّةِ ثالثًا، بقولِهِ: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ﴾[3]، وفي ذلك جمعٌ لمعاني الاسميّة والفعليّة في تعداد صوَر تكليم اللّه لرسلهم؛ لأنّه لمّا كان الوحيُ الذي بلا واسطة من أخفى الأقسام، وليس فيه صوتٌ ولا تَرتُّبُ كلماتٍ، عَبّر بالمصدر، وعَبّر فيما يُلْقيه المَلَكُ بما يَدلُّ على التّجدّد؛ فقال: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ﴾، ولمّا كان الوحي مُسبّبًا عنِ الإرسال، ومُرتّبًا عليه، قال: ﴿فَيُوحِيَ﴾ على سبيل التّجديد والتّرتيب[4].

تقسيمُ أنواعِ تكليمِ اللهِ للبشرِ

دلالةُ العطفِ بـ ﴿أَوۡ﴾:

عُطِفَ بـ ﴿أَوۡ﴾ دون الواو في قولِه ﷻ: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾؛ للدّلالةِ على التَّقسيمِ لأنواعِ تكليمِ اللّهِ تعالى للبشرِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 233.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 359.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 144.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 651.

ويجوز أن تكون بمعنى الواو؛ فتفيدُ الجمعَ بين صورتين من صوَر الوحي، ولا يتأتّى ذلك إلّا من ﴿أَوۡ﴾.

دلالةُ ﴿مِن﴾ في: ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾:

الظّاهرُ أنَّ ﴿مِن﴾ في قولِه ﷻ: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ لابتداءِ الغايةِ مجازًا، فتُفيدُ أنَّ ابتداءَ التَّكليمِ يكونُ مِنْ وراءِ حجابٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ: ﴿وَرَآيِٕ﴾:

وراءَ الحجاب ما ستره الشّيءُ وحَجبه

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بكلمة ﴿وَرَآيِٕ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ دون (خلف)؛ لأنّ مادّة (ورى) تدلّ على السَّتر والحِجاب، ومعنى (وراء كذا): ما ستره الشّيءُ وحَجَبه، وهذا هو المناسب لسياق الآية في تكليم اللّه لرسله؛ بخلاف لفظ (خلف)؛ فلا يؤدّي هذا المعنى، إنّما يدلّ على التّأخير في المكان، وليس هذا مرادًا هنا.

سرُّ التّعبيرِ بالحجاب دون السّاتر:

السّترُ لا يمنع مـنَ الـدّخـول على المستور، أمّا الحجابُ فيمنع

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالحجاب دون السّاتر في قوله: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾؛ لوجود فرقٍ بينهما؛ فالحجاب هو المانعُ والممنوع به، والسَّتر هو المستور به، ولأنّ الحجاب يطلق على السّتر إذا قصد المنع؛ فيقال حجبه: إذا قصد منْعه، ولا يقال ذلك لمن جلس في بيته إلّا إذا قصد منْعَ غيره، وعلى هذا فالسّتر لا يمنع منَ الدّخول على المستور، أمّا الحجاب فيُمنع، ولمّا كان الكلام في تكليم اللّه لرسله كان التّعبير بالحجاب هو المناسبَ لعظمته ﷻ ولجليل قدره[1].

سرُّ تنكيرِ ﴿حِجَابٍ﴾:

تنكيرُ ﴿حِجَابٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ للتَّعظيم، أي: مِنْ وراءِ حجابٍ عظيمٍ، ويحتملُ أنْ يكونَ للنَّوعيَّةِ، أي: مِنْ وراءِ نوعٍ مِنْ أنواعِ الحجابِ.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 322.

بلاغةُ الاحتباكِ في الآية:

مناسبةُ تركِ التَّصريحِ لسياقِ العظَمةِ

يمكنُ تنزيلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ على الاحتباكِ؛ بأنْ يكونَ ذِكْرُ الحجابِ ثانيًا دليلًا على نفيِه أوَّلًا، وذِكْرُ الوَحْيِ الدّالِّ على الخفاءِ أوَّلًا دليلًا على الجهرِ ثانيًا، وذِكْرُ الحجابِ ثانيًا دليلًا على الرُّؤيةِ أوَّلًا، وسرُّهُ: أنَّ تركَ التَّصريحِ والدّلالةَ عليها بالحجابِ؛ أولى بسياقِ العظَمةِ[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ﴾:

استمرارُ إرسالِ الملَكِ وتجدُّدُهُ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾؛ للدّلالةِ على استمرارِ إرسالِ الرَّسولِ وتجدُّدِهِ[2]، وفي ذلك دلالةٌ على عناية الله بأمر البشر بإصلاحهم وهدايتهم من خلال تتابع الرّسل.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿رَسُولٗا﴾:

تنكيرُ ﴿رَسُولٗا﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ للإفرادِ، أي: فردًا مِنْ أفرادِ الرُّسُلِ، أي: مِنَ الملائكةِ، وهو جبريلُ أو غيرُهُ[3]، ويحتملُ أنْ يكونَ لتعظيمِ الرَّسولِ بعظَمةِ ما يحملُهُ مِنَ الوَحْيِ.

سرُّ التّعبيرِ بالفاءِ في: ﴿فَيُوحِيَ﴾:

لمّا كانَ الوَحْيُ مُسبَّبًا عنِ الإرسالِ، ومُرتَّبًا عليهِ؛ عُبِّرَ بفاءِ السَّببيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾[4].

نُكْتَةُ صيغةِ المضارعِ في: ﴿فَيُوحِيَ﴾:

تجدُّدُ الوَحْيِ واستحضارُ صورتِه العظيمةِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ الوَحْيِ واستمرارِهِ[5]، ويحتملُ أنْ تكونَ صيغةُ المضارعِ لاستحضارِ صورةِ الوَحْيِ العظيمةِ الشَّأنِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 359.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 359.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 144.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 359، وأبو موسى، آل حم، ص: 235.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 359.

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ للملابسةِ، فتُفيدُ أنَّ الوَحْيَ الَّذي يقومُ بِه المَلَكُ يكونُ مُلتبِسًا بإذنِ الحقِّ جلَّ وعزَّ.

سرُّ التَّعبيرِ بالإذنِ في: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾:

الوَحْيُ بتمكينِ اللهِ

عُبِّرَ بالإذنِ في قولِه تعالى: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ دون العِلْم؛ للتَّنصيصِ على أنَّ المُبلِّغَ للوَحْيِ - وهو المَلَكُ - لا فعلَ لهُ دونَ إقدارِ اللّهِ وتمكينِه، فهو بمنزلةِ آلةٍ[1]، وفي التَّعبيرِ بِه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ اللّهَ سبحانَهُ عالمٌ بهذا الوَحْيِ وآمِرٌ به، وفي ذلكَ حثٌّ على الاتِّباعِ والانقيادِ[2]، ولأنّ الإذن أخصُّ منَ العِلم، ولا يكاد يستعمل إلّا فيما فيه مشيئة ما، ضامَّه الأمرُ أم لم يُضامّه، ولأنّ الإذن في الشّيء إعلامٌ بإجازته[3].

غرضُ تقديمِ ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾:

كونُ الوَحْيِ بتمكينِ اللهِ محلُّ العنايةِ

تقديمُ ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ للعنايةِ بكونِ الوَحْيِ بإقدارِ اللّهِ تعالى وتمكينِه، والإيماءِ إلى كونِه حقًّا، لا ينبغِي أنْ يُرتابَ فيه، بل تجبُ المسارعةُ إلى تصديقِهِ والعملِ بمقتضاهُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالإضمارِ في: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾:

الوحيُ إعلامٌ في خفاء، يناسبُه الإضمارُ الذي يحمل معنى الخفاء

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالإضمارِ في قوله: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾، ولم يأت بالإظهار بأن يقول: (بإذن اللّه)؛ لسبْق الاسم الظّاهر في قوله: ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾، ولأنّ الوحي إعلامٌ في خفاء، فناسبَه الإضمارُ الذي يحمل معنى الخفاء.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 360.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 235.
(3) الرّاغب، المفردات: (أذن).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَا﴾:

عُبِّرَ بالموصولِ ﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ ليشملَ كلَّ ما يأذنُ اللّهُ تعالى بتبليغِه، مِنَ الأوامرِ والنَّواهي، وغيرِ ذلكَ[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمشيئةِ:

المَلَكُ المُرسَلُ لا يجاوزُ ما حُدَّ لهُ

عُبِّرَ بالمشيئةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ المَلَكَ المُرسَلَ لا يخرجُ عمّا حدَّهُ اللّهُ تعالى لهُ، ولا يُبلِّغُ ما لم يُؤمَرْ به، ولا يَنْقُصُ ممّا أُمِرَ به[2]، وفي هذا دليلٌ على أنّ الرّسل ﷺ دورُهمُ البلاغُ، ولا يجوز عليهم الزّيادةُ أوِ النّقصان، وفي هذا تربيةٌ للمسلمين بأن يلتزموا شرعَ اللّه دون زيادة أو نقصان.

بلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ في الآيةِ:

الجمع بين الحال والاستقبال ليشمل جميع الأحوال

قَرَأ نافعٌ وابن ذكوان بخلفه بِرَفْعِ اللّامِ: ﴿أَوۡ يُرۡسِلُ﴾، وإسْكانِ الياءِ: ﴿فَيُوحِي﴾، وقرأ الباقون بالنّصب فيهما[3]، "وحُجّة مَنْ رفع وأسكن الياء أنّه استأنَفَهُ وقطعه ممّا قبله، أو رَفَعه على إضمار مبتدأ تقديره: (أو هو يرسل رسولًا)، ويجوز رفع ﴿يُرۡسِلُ﴾ على الحال، على أن يجعل ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ حالًا، ويعطف عليه ﴿أَوۡ يُرۡسِلُ﴾، ويعطف عليه ﴿فَيُوحِي﴾، وحجة من نصب أنه حمله على معنى المصدر، لأن قوله: ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ معناه: (إلّا أن يوحيَ)، فيعطف ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ﴾ على (أن يوحيَ) فنصبه، تقديره: (إلا أن يوحيَ أو يرسلَ رسولًا ﴿فَيُوحِيَ﴾)، ولا يحسن عطفه على ﴿أَن يُكَلِّمَهُ﴾؛ لأنه يلزم منه تغير المعنى، لأنّه يُصيِّر المعنى إلى نفي الرسل، أو إلى نفي المرسَل إليهم الرسل، لأنه يَصيِّرُ التقديرَ: (وما كان لبشر أن يرسل رسولًا)، أي: أن يرسِلَه اللّه رسولًا، فلا بدَّ من حمله - إذا نصبه - على معنى وحي"[4].

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 376.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 360.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 368.

(4) مكي بن أبي طالب، الكشف: 2/ 254.

سرُّ فصلِ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ عمّا قبلَه:

ارتباطُ صوَرِ تكليمِ اللهِ تعالى بالحكمةِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ بمنزلةِ تعليلٍ لِما سبقَ مِنْ أقسامِ تكليمِ اللّهِ تعالى لِمَنْ يشاءُ مِنَ البشرِ، فهو سبحانَهُ يختارُ ما يشاءُ مِنْ صوَرِ تكليمِهِ للبشرِ[1].

بلاغةُ توكيدِ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾:

وَحْيُ اللهِ مقترنٌ بالحكمةِ البالغةِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بمضمونِه، وهو اتِّصافُهُ تعالى بالعُلوِّ والحكمةِ، وللرَّدِّ على مَنْ يطعنُ في الرَّسولِ والقرآنِ والتَّوحيدِ، وذلكَ ببيانِ أنَّ الوَحْيَ الدّالَّ على العَظَمةِ الباهرةِ مقترنٌ بالحكمةِ البالغةِ[2]، وفي التّأكيدِ إشارةٌ إلى أنّ الوحيَ مصدرُه منَ اللّه، وليس منَ الرّسل؛ فهو عالٍ عن كلّ أغراضِ البشر، حكيمٌ فيما شَرَعَ.

وجهُ إيثارِ صفتَي العُلوِّ والحكمةِ:

لولا العُلوُّ والحكمةُ ما تأهّلَ البشرُ لتلقّي الوَحْيِ

اختيرت صفتا العُلوِّ والحكمةِ دونَ غيرِهما في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾؛ لمناسبتِهما للغرضِ؛ لأنَّ العُلوَّ في صفةِ العَلِيِّ عُلوُّ عظمةٍ فائقةٍ، لا تناسبُها النُّفوسُ البشريَّةُ الّتي لم تَحْظَ مِنْ جانبِ القُدُسِ بالتَّصفيةِ، فما كانَ لها أنْ تتلقَّى مِنَ اللّهِ مرادَهُ مباشرةً، فاقتضَى عُلوُّهُ أنْ يكونَ توجيهُ خطابِهِ إلى البشرِ بوسائطَ، يُفضي بعضُها إلى بعضٍ، وأمّا وصفُ الحكيمِ: فلأنَّ معناهُ المُتقِنُ للصُّنعِ، العالمُ بدقائقِه، وما خطابُهُ البشرَ إلّا لحكمةِ إصلاحِهم، وما وقوعُهُ على تلكَ الكيفيّاتِ الثَّلاثِ إلّا مِنْ أثرِ الحكمةِ؛ لتيسيرِ تلقّي خطابِهِ ووَعْيِهِ دونَ اختلالٍ فيه، ولا خروجٍ عن طاقةِ المتلقّينَ[3].

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 91.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 360.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 85، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 91، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 150.

سِرُّ تقديمِ العليِّ على الحكيمِ:

التَّخليةُ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ

قُدِّمَ العليُّ على الحكيمِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾؛ لأنَّهُ تعالى بعُلوِّهِ يُهيِّئُ نفوسَ البشرِ لتلقّي خطابِه، وبحكمتِهِ يختارُ مِنْ صوَرِ التَّكليمِ ما يُبلِّغُ بِهِ ما يشاءُ على الوجهِ الأتمِّ الأكملِ.

دلالةُ صيغةِ (فعيل) في: ﴿عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾:

جيءَ بصيغةِ (فعيلٍ) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾؛ للمبالغةِ في اتِّصافِهِ تعالى بهاتَينِ الصِّفتينِ[1]، وبيانِ أنَّهُ بلغَ فيهما مبلغًا لا حدَّ لهُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالحكيمِ دونَ العظيمِ:

نهايةُ الوَحْيِ تتجلَّى فيهِ الحكمةُ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ رجوعٌ ظاهرٌ إلى قولِهِ في أوَّلِ السّورة: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤﴾ [الشّورى: 4]، وقد جاءَ هنا بقولِهِ: ﴿حَكِيمٌ﴾ بدلَ قولِهِ هناكَ: ﴿ٱلۡعَظِيمُ ٤﴾ [الشورى: 4]؛ لأنَّ العظيمَ جاءَ في مطلعِ ذِكْرِ الوَحْيِ، والحكيمَ جاءَ في مقطعِ ذِكْرِ الوَحْيِ، ومطلعُ الوَحْيِ تتجلَّى فيهِ العظمةُ، ونهايةُ الوَحْيِ تتجلَّى فيهِ الحكمةُ[2].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الكلامُ والقولُ والنُّطْقُ:

التَّكلُّمُ بلوغُ مُرادِ اللهِ إلى النَّبيِّ

الكلامُ: هو ما كانَ مُكتفِيًا بنفسِه، وهو الجملةُ، والقولُ: ما لم يكنْ مُكتفِيًا بنفسِه، وهو الجزءُ مِنَ الجملةِ، ثمَّ إنَّهم قد يتوسَّعونَ، فيضَعونَ كلَّ واحدٍ منهما موضعَ الآخرِ[3]، وأمّا النُّطْقُ: فهو الأصواتُ المُقطَّعةُ الَّتي يُظهِرُها اللِّسانُ، وتفهمُها الآذانُ، ولا يكادُ يقالُ إلّا للإنسانِ، ولا يقالُ لغيرِهِ إلّا على سبيلِ التَّبَعِ، نحوُ: النّاطقِ والصّامتِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 360.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 235.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (كلم).

فيُرادُ بالنّاطقِ ما لهُ صوتٌ مِنَ الإنسانِ وغيرِه، وبالصّامتِ ما لا صوتَ لهُ، ولا يقالُ للحيوانِ: ناطقٌ إلّا مُقيَّدًا أو على سبيلِ التَّشبيهِ[1].

والحاصلُ: أنَّ الكلامَ أخصُّ مِنَ القولِ والنُّطقِ، فالنُّطْقُ يقالُ للأصواتِ المُفهمةِ، والقولُ ما لم يكنْ مُكتفِيًا بنفسِه، وهو جزءُ الجملةِ، والكلامُ ما كانَ مُكتفِيًا بنفسِه، وهو الجملةُ.

السِّترُ والغِطاءُ والحِجابُ:

سماعُ الكلامِ دونَ رؤيةِ المتكلِّمِ

السِّتْرُ ما يَستُرُكَ عن غيرِكَ وإنْ لم يكنْ مُلاصِقًا لكَ، كالحائطِ والجبلِ، تقولُ: تستَّرتُ بالحيطانِ، ولا تقولُ: تغطَّيتُ بالحيطانِ، وإنَّما تقولُ: تغطَّيتُ بالثِّيابِ؛ لأنَّها مُلاصِقةٌ لكَ[2]، والحجابُ: ما يمنعُكَ عن مشاهدةِ غيرِكَ، والمرادُ بهِ هنا الخفاءُ، بحيثُ يسمعُ المخاطَبُ الكلامَ، ولا يرَى المتكلِّمَ، وليسَ كالحجابِ في الشّاهدِ[3].

الإرسالُ والبعثُ:

مناسبةُ الإرسالِ لكلامِ اللهِ الَّذي هو رحمةٌ ورِفْقٌ

يشتركُ الإرسالُ والبعثُ في مَلْمَحٍ دلاليٍّ عامٍّ، وهو توجيهُ الشَّيءِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، ويفترقانِ بأنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ والإثارةِ، كبعثِ البعيرِ مِنْ مكانِه، والإرسالَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ الرِّفْقِ والرَّحمةِ إلّا في المواضعِ الَّتي جاءَ مركَّبًا فيها معَ حرفِ الاستعلاءِ (على)، نحوُ: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣﴾ [الفيل: 3][4]، وقد اختيرَ الإرسالُ دونَ البعثِ في الآيةِ؛ لأنَّهُ الأنسبُ بتكليمِ اللهِ تعالى الَّذي هو رحمةٌ ورِفْقٌ، وفيهِ تشريفٌ للمُرسَلِ والمُرسَلِ إليهِ.

---

(1) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (نطق).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 288، وزيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 99.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 43.

(4) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 136، و137.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشّورى: 52 - 53]

الإيحاء إلى الرّسول الكريم كان بطرق الإيحاء إلى الرُّسل السّابقين

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

حدّدتِ الآيةُ السّابقةُ صورَ تكليمِ اللّه تعالى رُسُلَه وأنبياءَه عليهم الصَّلاة والسَّلام عمومًا، وقطعتْ بأنَّ هذه الصّورَ محصورةٌ في ثلاث صور، وعدَّدتها، ثمَّ تابَع السّياقُ هنا الإخبارَ بأنَّ إيحاء اللّه تعالى إلى رسوله محمَّد ﷺ أيضًا بهذه الصّورِ الثّلاث.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: (وحي)، الوَحيُ: الإشارة، والكتابة، والرِّسالة، والإلهام، والكلام الخفيُّ، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك[1]، وهو في القرآن على خمسة أوجه، منها: الإرسال، قال تعالى: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ [النّساء: 163]، ومنها: الإلهام، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: 111]، أي: ألهمتُهم الإيمانَ[2]، فالوحي في قوله تعالى: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾، يعني: إنزالَه تعالى القرآن على الرَّسول ﷺ.

2) ﴿رُوحٗا﴾: (روح) أصلٌ كبير مطَّرِد، يدلُّ على سَعة وفُسْحة، وأصل ذلك كلِّه الرّيح، وأصلُ الياء في الرّيح الواو؛ إذ أصلُها رِوْحٌ، فصارت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، كما فعلوا مثل ذلك في

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (وحي).
(2) العسكريّ، الوجوه والنظائر: (وحي).

الميزان والمِيْعاد، فالرّوح: روح الإنسان، وإنَّما هو مشتقٌّ من الرّيح، وكذلك البابُ كلُّه[1]، والرّوح: الوحيُ، كقوله تعالى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [غافر: 15]، أي: يُلْقي الوحي من أمره[2]، والرّوحُ المضاف في قوْلِه: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: 87] هوَ جِبْرِيلُ عليه السلام، والرّوحُ: عيسَى عليه السلام، والرّوحُ: حَفَظَةٌ على المَلائِكَةِ الحفظةِ على بَني آدَمَ، ويُرْوى أنَّ وُجوهَهُم مِثلُ وُجوهِ الإنس[3]، ومعنى قول الله تعالى: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[4]: هو القرآن، سُمِّيَ القُرآنُ روحًا؛ لأنَّ به حياةَ القُلوب.

3) ﴿أَمْرِنَا﴾: (أمر) أُصولٌ خَمسَةٌ، الأمرُ مِنَ الأُمورِ، والأمرُ ضِدُّ النَّهيِ، والأَمَرُ - بِفَتْحِ الميم - النَّماءُ والبَرَكَةُ، والمَعْلَمُ، والعَجَبُ، فَأمّا الواحِدُ مِنَ الأُمورِ؛ فَقَولُهُم: هَذا أمرٌ رَضيتُهُ، وأمرٌ لا أرضاهُ، والأمرُ الَّذي هوَ نَقيضُ النَّهْيِ قَوْلُكَ: افعَلْ كَذا، وأمّا النَّماءُ؛ فيُقال: امرَأةٌ أمِرَةٌ، أي: مُبارَكَةٌ على زَوجِها، وقَد أمِرَ الشَّيءُ، أي: كَثُرَ، وتَقول العَرَبُ: مَنْ قَلَّ؛ ذَلَّ، ومَن أمِرَ؛ فَلَّ، أي: مَن كَثُرَ؛ غَلَبَ[5]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾: من شأننا، وقضائنا، وقولنا[6].

4) ﴿نَّهْدِى﴾: (هدى) أصلان؛ أحدهما: التَّقدُّم للإرشاد، والآخر: بَعْثَةُ لَطَفٍ، فالأوَّل قولهم: هديتُه الطَّريق هدايةً، أي: تقدَّمتُه؛ لأرشِدَه، وكلُّ متقدِّم لذلك هادٍ، وينشعب هذا، فيقال: الهُدى: خلاف الضَّلالة، والبابُ في هَذا القياسِ كُلِّه واحِدٌ، والأصلُ الآخَرُ: الهَديَّةُ: ما أهدَيْتَ مِن لَطَفٍ إلَى ذي مَوَدَّةٍ، يُقالُ: أهدَيْتُ أُهدي إهداءً، والمِهْدَى: الطَّبَقُ تُهْدي عَلَيهِ[7]، فالهُدى في قوله تعالى: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ من الأصل الأوَّل، والمعنى: نُرشد، ونَدُلُّ به مَن نشاء إرشادَه ودلالتَه من عبادنا.

5) ﴿ٱلْأُمُورُ﴾: الأمْرُ مُفرد، جمعُه: أمور، وهو الحالُ أو الشَّأن، ومنه: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧﴾ [هود: 97]، ويُراد بالأمر القيامة كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، والقضاء كقوله:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(2) الأنباري، الزّاهر: 2/ 375.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (روح).
(4) الخطابيّ، غريب الحديث: 3/ 253.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 299.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدى).

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يونس: 3][1]، والدّين نَحْو: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 48]، أي: دينُ اللّه والقُرْآنُ ومُحَمَّدٌ ﷺ، والقَوْلُ نَحْو: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ [هود: 66]، والعَذابُ نَحْو: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [إبراهيم: 22][2]، والأمور في الآية: هي الشُّؤونُ والأحوال والحقائق، وكلُّ موجودٍ مِنَ الذَّوات والمعاني[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإيمانُ معونةٌ رحمانيَّة يوفِّق اللهُ إليها مَن شاء من عباده

وكما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك - أيُّها النَّبيُّ - أوحينا إليك قرآنًا من عندنا، تحيا به القلوبُ والأرواح، وتحيا به مصالحُ الدُّنيا والدِّين، ما كنتَ تدري قبلَه ما الكتبُ السّابقة ولا الإيمان ولا الشَّرائع الإلهيَّة، ولكن جعلنا القرآنَ ضياءً للنّاس، نهدي به هدايةَ معونةٍ وتسديد، ونوفِّق إلى الإيمان به مَن نالَتْهُ مشيئتُنا من النّاس إلى الصِّراط المستقيم، وإنَّك - أيُّها الرَّسول - لَتَدُلُّ، وتُرْشِدُ هدايةَ إرشادٍ ودلالةٍ إلى سبيل قويم، وحقيقة سمحاء، ودينٍ خالصٍ بإذن اللّه - وهو الإسلام - صراطِ اللّه الَّذي له ملكُ جميع ما في السَّماوات وما في الأرض، لا شريك له في ذلك، ألا إلى اللّه - أيُّها النّاسُ - تَرْجِعُ جميعُ مآلاتِ الأمور كلِّها، من الخير والشَّرِّ، فيُجازي كُلًّا بعمله: إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فَشَرٌّ[4]. فالآيتان الكريمتان تُرشدان إلى بيان مِنَّةِ اللّهِ على رسولِه ﷺ بإنزالِ القرآنِ الَّذي صار به عالِمًا بالكتابِ وعالِمًا بالإيمانِ، وأنَّ الهدايةَ والضَّلالَ بمشيئةِ اللّه، وأنَّ هَدْيَ النَّبيِّ ﷺ هَدْيٌ مستقيمٌ لا اعوجاجَ فيه، فليس فيه اعوجاجٌ في الخَبَرِ، وليس فيه اعوجاجٌ في الشَّرائعِ، بل كلُّها مَبنيَّةٌ على العدْلِ والفضْلِ[5].

---

(1) عُمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أمر).
(2) أبو البقاء، الكلّيّات: (أمر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 156.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 150، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 780، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسر، ص: 489.
(5) العثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 360، و361.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى (الواو) في: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾:

القرآن أُنزِل من عند الله تعالى كما أُنزِلت الكتبُ الَّتي سبقته

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ حاليَّةٌ، وصاحبُ الحال هو ﴿رُوحٗا﴾، والمعنى على هذا: (وأوحينا إليك روحًا من أمرنا حالةَ كونِه مشبهًا للوحي المعهود مع مَن سبقك من الأنبياء والرُّسل بإرسال رسول، وهو (جبريل) عليه السلام؛ ليوحيَ بإذنه ما يشاء)، أو (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه رأسُ الآية السّابقة: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ [الشورى: 51]، "وهذا دليلٌ على أنَّ القرآن أُنزل من عند اللّه تعالى، أعقب به إبطالَ شبهتِهم الَّتي تَقدَّم لإبطالها قولُه تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ [الشورى: 51] الآية، أي: كان وحينا إليك مثلَ كلامِنا الَّذي كلَّمْنا به مَن قَبْلَك، على ما صرَّح به في قولِه تعالى: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النّساء: 163]، والمقصود من هذا هو قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾"[(1)].

دلالةُ (الكاف) في: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ﴾:

الإشارةُ لما بعد الإيحاء، فوَحيُ الله لرسوله أعزُّ وحيٍ وأشرفه ولا يماثله غيرُه

(الكاف) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ للتَّشبيه؛ تعقد مشابهة بين وحي اللّه تعالى إلى سيِّدنا محمَّد ﷺ، ووحيه سبحانه إلى الرُّسل السّابقين؛ إذ يقول تعالى في الآية السّابقة: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ [الشورى: 51] الآية، ويقول هنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الآية، والمعنى: وكما كنّا نوحي إلى سائرِ رسلِنا، كذلك أوحَينا إليك - أيُّها النَّبيُّ - هذا القرآنَ وحيًا ورحمةً من أمرِنا[(2)]، والمشابهةُ هنا في الإيحاء إلى الرَّسول ﷺ بطريق مَلَكِ الوحي الَّذي كان يوحَى بطريقه إلى المُرسَلين السّابقين؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 150.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 541.

إذ يقول تعالى: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: 51]، ثمَّ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، أي: من خلال رسول هو أمين الوحي جبريلُ ﵇، قال ابن عاشور: "يجوز أن تكون الإشارةُ إلى ما يأتي مِن بعدُ، وهو الإيحاء المأخوذ من ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، أي: مثلَ إيحائنا إليك أوحينا إليك، أي: لو أُريد تشبيه إيحائنا إليك في رِفعة القَدْر والهُدى ما وُجِد له شبيهٌ إلّا نفسُه، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: 143]، والمعنى: إنَّ ما أوحينا إليك هو أعزُّ وحي وأشرفه، بحيثُ لا يماثله غيرُه، وكِلا المَعْنَيين صالحٌ"(1).

مرجعُ الإشارة في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، ولطيفةُ إيثار التَّعبير بها:

من مزايا الإشارة ضغطُ الكلام الكثير في لفظ يسير، يوفِّر العناية على تَلَقّي الحُكْم

الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ترجع إلى الصّور الثَّلاث المذكورة في الآية السّابقة: ﴿وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ [الشورى: 51]، قال الطَّيبيُّ: "وما اجتمعت تلك المراتب الثَّلاث إلّا لسيِّدنا صلواتُ الله عليه، حيثُ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ الآية، والله أعلمُ بأسرار كلامه"(2)، ولطيفةُ إيثار التَّعبير بالإشارة هنا ضغطُ تلك الصّور الثَّلاث في لفظ الإشارة الموجز اليسير (ذا)؛ توفيرًا لعناية السّامع على تَلَقّي جملةِ الخبر: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا﴾.

سرُّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾:

عظمةُ الفاعل تَدْعَم تحقُّقَ إخبارِه

في صياغة الفعل (أَوْحَى) ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ - برغم أنَّه تعالى كان لا يزال (يوحي) حينَها - إلماحٌ إلى اطِّراد الوحي على هذه الأنماط الثَّلاثة منذ بَدء الإيحاء، من أوَّل رسول وإلى آخره، إلى سيِّدنا محمَّد ﷺ، وإفادةٌ بأنَّ تحقُّقَ ذلك تحقُّقٌ يدفع كلَّ شكٍّ فيه، وممّا يدعم تلك الدَّلالة إيثارُ الفاعل هنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 151.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب: 14/ 89.

ضميرَ العظَمة - كما سيأتي تفصيلُه قريبًا؛ إن شاء اللّه تعالى - ففيه إشعارٌ بأنَّ ما أخبر ﷻ به من أخبار محقَّقٌ مقطوع بها، وهكذا تتآزر عناصرُ التَّركيب على تقرير الحدَث وتأكيدِ وقوعِه.

وجهُ إسناد الإيحاء إلى ضمير العظَمة في: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾:

تعظيمُ الموحَى بـه، وتشريف الموحَى إليه

إسنادُ فعلِ الإيحاء إلى ضمير العظَمة في جملة: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ يُضفي على الموحَى به - القرآن الكريم - تعظيمًا وإجلالًا، فهو كلامُ اللّه العظيم ﷻ، وكلامُه العظيم لا بدَّ أن يكون عظيمًا؛ لأنَّه يأخذ صفتَه، وكذلك إسنادُ فعلِ الإيحاء إلى ضمير العظَمة في جملة: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ يُضفي على الموحَى إليه ﷺ تكريمًا وتشريفًا، فهو عبدُه ورسولُه وخاتَمُ رسلِه وأنبيائه، وفي ضمير العظَمة الجمعيِّ - إلى ذلك - إفساحُ مجال الفاعِلين؛ ليشملَ أمينَ الوحي جبريل عليه السلام، بخلاف ضمير العظمةِ المُفرَد، ففعلُه يختصُّ به تعالى، لا دورَ لأحدٍ آخرَ فيه، وفقَ تعليلِ ثعلب النَّحوي: "كلُّ ما كان في القرآن (فعلنا)؛ فهو أمرُه تعالى بأعوانه، أمر به جبريلَ وميكائيلَ وملائكتَه، وما كان (فعلتُ)؛ فهو ما تَفرَّد به سبحانه"[1].

دلالةُ التشبيه في: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾:

القرآنُ أعزُّ وحي وأشرفُه؛ بحيثُ لا يماثله غيرُه

التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ واقعٌ في مطلق الإيحاء؛ أي: إنَّ إيحاءَه تعالى إلى رسوله الخاتم ﷺ كان في إطار الوسائل الثَّلاث، ﴿وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: 51]، فالموحَى به - القرآن الكريم والشَّريعة الحنيفيَّة - مختَلِفٌ في كثير مِن تفاصيله؛ إذِ الشَّريعة الخاتَمة متضمِّنة ما يَصلُح للنّاس جميعًا إلى قيام السّاعة، والشَّرائعُ السّابقةُ كانت مُحَيَّنةَ الصَّلاحيَّةِ بأحاينيها غيرَ صالحةٍ لغير أُمَمِها؛ لذلك يقال: الوحي إليه ﷺ متفرِّد عن الوحي إلى الرُّسل السّابقين

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (روح).

ﷺ، بحيثُ يصير المعنى: "لو أُريد تشبيهُ إيحائنا إليك في رِفعة القَدْر والهُدى، ما وُجِد له شبيهٌ إلّا نفسه، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: 143]، والمعنى: إنَّ ما أوحينا إليك هو أعزُّ وحْيٍ وأشرفُه بحيثُ لا يماثله غيرُه، وكِلا المعنيين صالح"[1].

نُكْتَةُ تقييد الإيحاء بـ ﴿إِلَيۡكَ﴾، ولطيفةُ تقديمه على المفعول:

الرَّسول الكريم أفضلُ مَن أوحِيَ إليه، ودفعٌ لتهمة الكافرين له بادّعاء الرِّسالة

في تقييد الإيحاء بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾، وتقديمِ القيد على المفعول في جملة: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا﴾ تنويهٌ بمكانته ﷺ عند ربِّه تعالى، وأنَّه ﷻ أوحى إلى رسوله الخاتم ﷺ لا إلى غيره ﴿رُوحٗا﴾ من أمره، وذلك يُبرز فضيلتَه ﷺ على جميع النّاس، وفي ذلك - أيضًا - تقريرٌ يدفع عنه ﷺ تُهمةَ الكافرين بادِّعاء الرِّسالة واختلاقِ الموحَى به - القرآن الكريم - فتقديمُ القيد لافتٌ، وناظرٌ إلى مثل هذه التُّهمة داحضٌ لها.

حكمةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رُوحٗا﴾:

القرآنُ الكريم تحيا به مصالحُ الدُّنيا والدِّين؛ لِما فيه من الخير الكثير

في اصطفاء وصف ﴿رُوحٗا﴾ للموحَى به على الرَّسول ﷺ دون (قرآنًا) أو (كتابًا)، تنبيهٌ إلى قوَّة الصِّلة بين القرآن الكريم وروح الإنسان، بحيث تجدُ الرّوحُ في القرآن سعادتَها وطمأنينتَها كأنَّه تَوْءَمُها، وفي الذِّكر الحكيم ما يَلْفت إلى ذلك؛ إذ يقول اللّهُ تعالى هنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾، ويقول في قصَّة خَلْق آدمَ ﵇: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر: 29]، فظهر بذلك انتماؤهما إلى مصدر واحد، وانبثاقُهما من مشكاة نورٍ وهدًى واحدة، وإلى ذلك يُفصِح وصفُ القرآن الكريم بـ ﴿رُوحٗا﴾ أنَّ به حياةَ الدّين، وأنَّه حياةُ الذِّكر والشَّرف للمؤمنين[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 151.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 143.

فـ "الخَلْق يَحيَونَ به في دينهم، كما يحيا الجسد بالرّوح"(1)، فـ "فيهِ حَياةٌ مِن مَوْتِ الكُفْرِ"(2)، و"القرآن روحٌ من روح اللّه، والَّذي حمله إلى الرَّسول ﷺ روحٌ من روح اللّه كذلك، فهو روح يحمله روح، وهذا يعني من جهة أخرى أنَّ القرآن الكريم حياةٌ وروحٌ تَلْبَس النُّفوسَ المستعِدَّةَ لاستقبالها، كما تَلْبَس الحياةُ والأرواحُ الأجسادَ بعد أن يتمَّ تكوينُها، وتُصبحَ مهيَّأةً لاستقبالها، وكما أنَّ كلَّ جسد يلبس من الأرواح بِقدرِ ما هو مستعدٌّ له، كذلك النُّفوس يُفاض عليها من روح القرآن على قدر ما هي مستعِدَّة له ومهيَّأةٌ لِقَبوله"(3)، وكذلك القرآن الكريم "تحيا به مصالحُ الدُّنيا والدّين؛ لِما فيه من الخير الكثير والعِلْم الغزير، وهو مَحْضُ مِنَّةِ اللّه تعالى على رسوله ﷺ وعبادِه المؤمنين، من غير سببٍ منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾"(4).

دلالةُ تنكير ﴿رُوحٗا﴾:

في تنكير المفعول ﴿رُوحٗا﴾ في جملة: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا﴾ تفخيمٌ لأثره في حياة المؤمنين به، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، كما في تنكيره ترهيبٌ للكافرين به، بأنَّه عليهم دمارٌ وخَسار، كما قال تعالى في تكملة الآية الكريمة نفسها: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء: 82]، كما أنَّ في تنكير ﴿رُوحٗا﴾ تعظيمًا لشأنه بين الكتب السَّماويَّة، فضلًا عن غيرها من الكتب على الإطلاق؛ فالتَّنكير يلفِتُ إلى تفرُّد هذا الموحَى به إليه ﷺ، وأنَّه نمطٌ جديد وحيد في بابه، فريدٌ في خصائصه وصفاته، ويُؤكِّدُ الواقع أنَّ الكتاب العزيز كذلك فعلًا، فقد وقف الخَلق جميعًا أمامَ عظمته منذ أُنزل على الرَّسول ﷺ مشدوهين، مضطرّين إلى

القرآنُ الكريم نمطٌ جديد وحيد في بابه، فريدٌ في خصائصه وصفاته

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 234.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 624.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 98.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 762.

إظهار العجز عن مجاراته في لغته ومعانيه، وتشريعاته وأحكامه، وأخلاقه وآدابه، وسُموِّ مقاصدِه وسعادةِ الأخذ به في حياة الإنسان.

القرآنُ الكريم سببٌ في الحياة الأُخرويَّة الهانئة

وجهُ تسميةِ القرآن: ﴿رُوحٗا﴾:

سُمّي القرآنُ ﴿رُوحٗا﴾؛ "لكونه سببًا للحياة الأُخرويَّة الموصوفة في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: 64]، والرَّوحُ التَّنفُّسُ، وقد أراحَ الإنسانُ؛ إذا تنفَّس، وقوله: ﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾ [الواقعة: 89]، فالرَّيحانُ: ما له رائحةٌ، وقيل: رِزق"[1]، فتسميةُ القرآنِ ﴿رُوحٗا﴾ "استعارةٌ أو مجازٌ مرسل؛ لِما فيه من الهداية والعِلْم الَّذي هو كالحياة"[2].

تلاقي دلالات الوحي واتِّساقُ نصوصِ الدّين يؤكِّدان أنَّه كلام الله ودينُه الحقُّ

موقعُ الجارّ والمجرور ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾:

جاء القيد بالجارِّ والمجرور ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ وصفًا للنَّكرة ﴿رُوحٗا﴾، كأنَّه قيل: روحًا حكيمًا أو عزيزًا أو نحوه، ويُحتَمل أن يكون الجارُّ والمجرور ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ حالًا[3]، والمعنى: وكذلك أوحينا إليك روحًا حالةَ كونِه من عندنا، على أنَّ الوصف بالجارِّ والمجرور يُتيح دلالة الأمر، ودلالةَ الإضافة إلى ضمير العظَمة في ﴿أَمۡرِنَاۚ﴾، إضافةً إلى ما يفيده حرف ﴿مِّنۡ﴾ من تبعيض، والتَّبعيض هنا يقرِّر اتِّساقَ نصوصِ الدّين، وتَلاقي دلالاتِ الوحي الكريم مع قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف: 109]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧﴾ [لقمان: 27]، و﴿مِّنۡ﴾ في القيد بالجارِّ والمجرور ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ تلفتُ إلى عظَمة العِلْم الإلهيِّ وسعته، وأنَّه الَّذي لا يُحدُّ بحدود: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: 7]، وإلى

(1) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن، ص: 369.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 377.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 53.

ذلك، ففي هذا القيد ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ إفساحٌ لدخول السُّنَّة الشَّريفة في حيِّز الموحَى به إليه ﷺ، ففي الذِّكر الحكيم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [النّجم: 3 - 4]، وفي الحديث الشَّريف: يقول رَسولُ اللّهِ ﷺ: «ألا إنّي أوتيتُ الكِتابَ ومِثْلَهُ مَعَهُ، ألا إنّي أوتيتُ القُرآنَ ومِثْلَهُ مَعَهُ»[1]، وذلك التَّلاقي والاتِّساق بين نصوص الدّين الحنيف ممّا يقرِّر صِدقَ نسبةِ القرآن الكريم إلى قائله ﷻ، وصِدقَ رسالةِ النَّبيِّ ﷺ، ويَدحض افتراءَ الكافرين في تكذيبهم إيّاه ﵇ في دعوته، ويحتمل أن يُراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ الكلامُ، فيكون المعنى: وكذلك أوحينا إليك روحًا مِن كلامنا، فتكون ﴿مِّنۡ﴾ هنا لابتداء الغاية، أي: أوحينا إليك روحًا مبتدَأً مِن كلامنا، ومنبثِقًا من قرآننا.

نُكْتَةُ استعمال ﴿أَمۡرِنَاۚ﴾ عوضَ (وَحْينا):

يجب أن يكون أمرُ الله تعالى نافذًا، وحُكمُه مُبرمًا

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بمفردة (أمر) في القيد ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾؛ لِما لها من إشارات قويَّة، تُضفي على الوحي خطورةً وجلالًا، وتوجب له توقيرًا لا يُفهم من أيِّ تعبير آخر، كما لو قيل: (وكذلك أوحينا إليك روحًا من وحْينا)، كما أنَّ في مفردة (الأمر) إلماحًا إلى وجوب توقير الوحي الإلهيِّ واتِّباعِه؛ لأنَّه كلمة اللّه العزيز الغالب، فلا يَسَعُ العقلاءَ معاندتُه أو التَّورُّكُ عليه؛ لأنَّه حُكمٌ مبرم، وأمْرٌ نافذ.

لطيفةُ إضافةِ الأمر إلى ضمير العظمةِ في: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾:

كلامُ الله تعالى يتَّصف بصفاته، مِن العِزَّة والعُلوِّ والحِكْمة والجَلال وغيرِها

في إضافة الأمر إلى ضمير العظمةِ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ إضفاءٌ لمعاني التَّوقير والتَّعظيم على هذا الوحي الشَّريف؛ لأنَّ المُضاف يَكتسب من المُضاف إليه صفاتِهِ؛ فتُضفي تلك الإضافةُ على (الأمر) هنا من صفات اللّه تعالى العِزَّةَ والعُلوَّ والحِكْمة والجلال

(1) ابن حنبل، المسند أحمد: 28/ 410، وبرقم: 17174.

وغيرَها من صفاته العُلا ﷻ، و"الأمر هنا بمعنى الشَّأن العظيم، كقولِهم: أمِرَ أمْرُ فلانٍ، أي: شأنُه، وقولِه تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر: 4]"(1).

عِلَّة فصل جملة ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ عمّا قبلها:

فُصِلت جملةُ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ عن جملة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال؛ إذ إنَّ الثّانية مقرِّرةٌ لمعنى الأولى، فإنَّه ﷺ ما كان يعلم هذا العِلمَ العزيز الحكيم، ولا يدري عن الكتابة ولا القراءة، فتأكَّدَ أنَّ هذا الَّذي جاء به وحيٌ من عند اللّه تعالى، وأنَّه ﷺ لا يمكنه إبداعُه، ولا ادِّعاؤُه.

أُمّيَّةُ الرَّسول الكريم تؤكِّد أنَّ القرآن العظيم وحيٌ لا يمكنه إبداعُه ولا ادّعاؤه

معنى ﴿مَا﴾ في: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ نافيةٌ، تنفي عن الرَّسول ﷺ صراحةَ العِلْمَ، بل الدّرايةَ بالكتابِ والكتابة، والقرآن والقراءة، وهذا دليلٌ عقليٌّ منطقيٌّ على صِدقه ﷺ، والمعنى: (إذا كان محمَّد ﷺ أُمِّيًّا لا يكتب، ولا يقرأ، ولا يدري عن ذلك شيئًا، ثمَّ جاءكم فجأةً بأرقى مكتوبٍ وأفخم مقروءٍ، ألا يدلُّكُم ذلك على صِدقه في دعواه النُّبوَّةَ والرِّسالةَ وتبليغَه عن اللّه تعالى رسالتَه؟) فقد أجمع العلماء على أنَّه "لا يجوز أن يُقال: الرُّسلُ كانوا قبل الوحي على الكفر"(2)، أمّا ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ فالرَّسول ﷺ "لا يَشُكُّ في أنَّه كان لا يدريه، ولا يعلمه حتّى أدراهُ، وأعلمَهُ، أمّا ﴿ٱلْإِيمَٰنُ﴾ حيثُ أُخبِر أنَّه لا يدريه؛ فهو يحتمل: ما كنتَ تدري ما الإيمان في حقِّ اللِّسان؟ أو: ما كنتَ تدري ما الإيمان في حقِّ الإيمان؟ أو ما كنتَ تدري ما الإيمانُ في حقِّ قَدْرِه ومحلِّه ومنزلتِه عند اللّه تعالى؟"(3).

تعلُّمُ الكتابِ والقرآنِ من أجلِّ النِّعم الَّتي تستوجب الشُّكرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 151.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 614.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 143.

وفي إخبار اللّه تعالى رسولَه ﷺ بقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ امتنانٌ من اللّه تعالى عليه؛ إذ يحتِّمُ معناه: "أوحيناه إليك يا محمَّد من غير سببٍ منك"[1]، فاستوجبَ الشُّكرَ والصَّبرَ على تبليغه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكَوْن الماضي في: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾:

نفيُ الكتابة عنه ﷺ أدْخلُ في الإعْجازِ، وأدَلُّ على صِحَّةِ نبوَّتِه

من معاني عدم درايته ﷺ بـ "معنى عدم دراية الكتاب: عدم تعلُّقِ علمِه بقراءة كتابٍ أو فهمه، ومعنى انتفاءِ دراية الإيمان: عدم تعلُّقِ علمِه بما تحتوي عليه حقيقةُ الإيمان الشَّرعيِّ من صفات اللّه وأصول الدّين، ولذلك قال: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾، ولم يقل: (ما كنتَ مؤمنًا)، والرُّسل معصومون من الشِّرك قبلَ النُّبوَّة، فهُم موحِّدون للّه، ونابذون لعبادة الأصنام، ولكنَّهم لا يعلمون تفاصيلَ الإيمان، وكان نبيُّنا ﷺ في عهد جاهليَّةِ قومِه يعلم بُطلانَ عبادةِ الأصنام، وإذ قد كان قومُه يُشركون مع اللّه غيرَه في الإلهيَّة، فبُطلانُ إلهيَّة الأصنام عندَه تمحِّضُه لإفراد اللّه بالإلهيَّة لا محالة"[2]، ويفيدُ فعلُ الكونِ الماضي الدَّلالةَ على استصحابه ﷺ عدمَ الدِّرايةِ بالكتاب والإيمان منذ ولادته وحتّى لحظةِ الإيحاء إليه بالرّوح من أمره تعالى؛ "لأنَّه ﷺ كان أُمِّيًّا لا يقرأ، ولا يكتب، وذلك أدْخَل في الإعجاز، وأدلُّ على صحَّة نبوَّتِه"[3]، و"أمّا الجانبُ التَّشريعيُّ؛ فلم يكن يعلم منه شيئًا إلى أن تَلقّاه وحيًا من ربِّه سبحانه، في أحكام الصَّلاة، والزَّكاة، والصَّوم، والحَجِّ، وفيما أحلَّ اللّهُ تعالى، أو حَرَّم، فنَفْيُ عِلْمِ النَّبيِّ ﷺ بالإيمان قبلَ الوحي ليس على إطلاقه، وإنَّما هو نفيٌ لِتمامِ العِلْم بالإيمان كلِّه عقيدةً وشريعةً"[4].

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 762.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 152.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 624.

(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 98.

حكمةُ التَّعبير بالدّراية، ولطيفةُ صوغِها مضارعًا:

الرُّسُل قبلَ الوحي مؤمنون، والمضارعةُ فيها امتنان

اللّافتُ اصطفاءُ النَّظم الكريم التَّعبيرَ بِنَفْي (الدِّراية) دون (العِلْم) في جملة: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾؛ وذلك أنَّ نفي الدِّراية خِلْوٌ مِن التُّهمة له ﷺ؛ لأنَّه نَفْيٌ لدرايته الكتابَ أصلًا، ونفيٌ لدرايتِه تفاصيلَ الشَّريعة السَّماويَّة، قالوا: أو في الآية حَذْفُ المضاف، أي: ولا تدري أهلَ الإيمان، يعني: مَن الَّذي يؤمن، ومَن الَّذي لا يؤمن؟ فقد أجمع الأصوليّون على أنَّ الرُّسُل قبلَ الوحي كانوا مؤمنين، ونبيُّنا محمَّدٌ ﷺ كان يعبد اللّهَ قبلَ الوحي على دين إبراهيمَ عليه السلام[1]، وصِيغَ الفعلُ ﴿لَا تَدۡرِي﴾ مضارعًا لاستحضار فترة عدمِ الدّرايةِ، وكأنَّها ماثلةٌ وقتَ الخطاب، برغم أنَّه ﷺ الآن يدري، ويعلم، وقد أوحِي إليه أرقى كتاب، وتَوثَّق في نفسه أنقى إيمان، لكنَّ في المضارعة تمييزًا للمِنَّة الإلهيَّة، وتكريمًا لجناب النَّبيِّ ﷺ.

معنى ﴿مَا﴾ في: ﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾:

استفهاميَّةٌ لبيان عدمِ علمِه ﷺ بالكتاب قبلَ الوحي

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ استفهاميَّةٌ واردة على أصل وضعها؛ بيانًا لعدم علمه ﷺ بالكتاب العظيم قبلَ الوحي إليه بالرِّسالة، ولا بتفاصيل الشَّريعة، وما يتعلَّق بها من جميع أركان الإيمان.

دلالة جملة ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ على الحال:

ما أوتيَهُ الرَّسولُ من الشَّريعة من مواهب الله تعالى؛ امتنانًا عليه وعلى أُمَّتِه

سبقت الإشارةُ إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ "في موضع الحال من ضمير ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، أي: أوحينا إليك في حال انتفاءِ علمِكَ بالكتاب والإيمان، أي: أفضنا عليك موهبةَ الوحي في حال خُلُوِّك عن عِلَم الكتاب وعِلَم الإيمان، وهذا تَحَدٍّ للمُعاندين؛ ليتأمَّلوا في حال الرَّسول ﷺ، فيعلموا أنَّ ما أوتيَه من الشَّريعة والآداب الخُلُقيَّة هو من مواهب اللّه تعالى، الَّتي لم تَسبِق له مزاولتُها، ويتضمَّن امتنانًا عليه وعلى أُمَّته المسلمين"[2].

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 61.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 152.

دلالةُ تكرار النَّفي في: ﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾:

في جمع نفي درايته ﷺ عن ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ إلى نفي درايته عن ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾، دلالةٌ على الارتباط الوثيق بينهما، والتَّنبيه إلى أنَّ معرفة الكتاب هي السَّبيل إلى معرفة الإيمان، وأنَّ الإيمان الصَّحيح لا بُدَّ أن يُؤَسَّس على الكتاب، وأنَّ مهمَّة الكتابِ تَصحيحُ مسارِ الإيمان وتثبيتُ أركانه، وصونُه منَ الاختلال، ودليلٌ على أنَّ اقترانَهما ذِكرًا دليلُ وجوبِ اقترانِهما واقعًا؛ فهما ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ و﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ الكاملان، الحقيقان بذلك التَّعريف المخصَّصِ لهما من بين كلِّ كتاب وإيمان، و"إدخالُ (لا) النّافية في قوله: ﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ تأكيدٌ لِنفي درايتِه إيّاه، أي: ما كنتَ تدري الكتابَ ولا الإيمانَ؛ للتَّنصيص على أنَّ المنفيَّ درايةُ كلِّ واحد منهما"[1] على استقلال؛ تعديدًا للمِنَنِ الرَّحمانيَّة عليه وعلى أُمَّته ﷺ.

الإيمانُ الصَّحيح يُـؤَسَّـس على الكتاب، وفيه تَصحيحُ مسارِ الإيمان وتثبيتُ أركانِه

نُكْتَةُ حذفِ متعلّقِ الدِّراية:

حُذِف متعلِّق الدِّراية في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾؛ والتَّقدير: ما كنتَ تدري ما الكتابُ لولا الرِّسالةُ، ولا الإيمانُ لولا البلوغُ، أو: ما كنتَ تدري ما الكتابُ لولا إنعامُنا عليك، ولا الإيمانُ لولا هدايتُنا لك[2]، وفي حذْفِ هذه المتعلِّقات تصفيةٌ للأسلوب ممّا يُشوِّش على توفير العناية على ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾، و﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾؛ لبيان عظمتهما في حياة الإنسان، وإن كانا بإنعام اللّٰه تعالى وهدايته.

لأخـذِ الـكـتـاب والإيـمـان أثـرٌ عـظـيـم فيمن يوفَّق إليهما

بلاغةُ المجاز بلفظ ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ على الشَّريعة:

ذهب بعضُ العلماء إلى أنَّ الإيمان هنا هو "الإيمان باللّٰه تعالى، وهذا يعرفُه الرَّسولُ ﷺ بعد بلوغه وقبلَ نبوَّته، أو أنَّ ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 150.

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 212.

الإيمانُ والشَّريعةُ أحدُهما يُتمِّم الآخر؛ ولا يَكمُل، ولا يُقبَل أحدُهما دونَ الآخر

دينُ الإسلام، وهذا لا يعرفُه إلّا بعدَ النُّبوَّة"[1]، و﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ بالمعنى الثّاني كنايةٌ عن الشَّريعة بكلِّ تفاصيلها العَقديَّةِ المعنويَّة، والفعليَّةِ الحِسِّيَّة؛ لأنَّه لازمٌ من لوازمها، وهو "رأسُها وأساسُها، وقيل: أراد بـ ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ هنا الصَّلاة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 143]، يعني: الصَّلاةَ، فسمّاها إيمانًا"[2]، وفي التَّعبير بـ ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ عن (الشّريعة) إيحاءٌ بأنَّ ممارسةَ تكاليفِ الشَّريعة، والتزامَ حدودِها وتفاصيلِها كما عَلَّمها الوحيُ الرَّسولَ ﷺ، جانبٌ من جوانب الإيمان، وأنَّ جانب العقيدةِ في ﴿ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ لا يَكْمُل ولا يُقبَل ما لم يُتَوَّج ويُفَعَّل بإقامة تفاصيل الشَّريعة المبنيَّة عليه، فكلاهما يُتمِّم الآخَرَ، ويُنجِحُ مقصِدَه.

معنى (الواو) في: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورًا﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورًا﴾ عاطفةٌ على رأس الجملة السّابقة ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾؛ فبينهما توسُّط بين الكمالين - بمصطلح أهل المعاني - لأنَّ كلتَيهما إخبارٌ من اللّه تعالى، مخاطَبٌ بها الرَّسولُ ﷺ، وإن أُريدَ بالخطاب كفّارُ قريش؛ لأنَّه ﷺ يعلم ذلك، ولا يجهله، ولا يدفعه.

دلالةُ (لَكِنْ) في: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورًا﴾:

اللهُ تعالى يتدارك أولياءَه فيعلِّمُهم، ويوفِّقُهم للعمل بالعِلْم

(لكن) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورًا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ استدراكيَّةٌ، والمعنى: ما كنتَ تدري ذلك، ولكنَّنا تداركناكَ، وعلَّمناكَ، وجعلنا هذا الوحيَ نورًا لكَ، ولِمَن نشاء من عبادنا، فـ "الاستدراكُ هنا ناشِئٌ على ما تضمَّنَتْه جملةُ: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ لأنَّ ظاهر نفي درايةِ الكتاب أنَّ انتفاءَها مستمرٌّ؛ فاستُدرِك بأنَّ اللّه تعالى هداه بالكتاب وهدى به أُمَّتَه، فالاستدراكُ واقعٌ في المَحَزِّ، والتَّقدير: ما كنتَ

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 212.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 624.

تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، ثمَّ هديناكَ بالكتاب ابتداءً، وعرَّفناكَ به الإيمانَ، وهَديتَ به النّاسَ ثانيًا، فاهتدى به مَن شِئْنا هدايتَه، أي: وبقي على الضَّلال مَن لم نشأ له الاهتداءَ، كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ [البقرة: 26]"[1].

بلاغةُ التَّشبيه في: ﴿جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾:

يَهتدي بنور الإيمان مَن لا يَحول دونَ اهتدائِه به حائلٌ

في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ تشبيهٌ للوحي بالنّور بليغٌ، فكلاهما هُدًى يَهدي به اللّهُ تعالى مَن يشاء من عباده، **والأوَّل:** نورٌ معنويٌّ يُنير دروبَ الأرواحِ لِنَفْس الإنسان، **والثّاني**: نورٌ حِسّيٌّ يُنير دروبَ الحياة لجسد الإنسان، فوجهُ الشَّبهِ بينهما مطلقُ الهداية المتوفِّرة في كلٍّ منهما، ولمّا كان النّور الحسّيُّ أوضحَ للإنسان؛ لأنَّه يكشف لِعَينَيْه الأشياءَ، فلا يتصادم معها؛ قيس عليه النّورُ المعنويُّ الَّذي يكشف لروح الإنسان دروبَها الخاصَّةَ بها، فلا تتصادم، أو تتخبَّطُ في غياهب عالَمِها، وإنَّما تسير على هُدًى وتبيان فيما يخصُّها، كَسَيْرِ الجسدِ على هدًى وتبيان فيما يَخصُّه، و"النّور وسيلةُ الاهتداء، ولكن إنَّما يَهتدي به مَن لا يكون له حائلٌ دونَ الاهتداء، وإلّا لَم تنفعه وسيلةُ الاهتداء، ولذلك قال تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾، أي: نَخلق بسببه الهدايةَ في نفوس الَّذين أعددناهم للهُدى من عبادنا، فالهدايةُ هنا هدايةٌ خاصَّةٌ، وهي خَلْقُ الإيمانِ في القلب"[2]، أمّا مَن كان لديه حائلٌ من رؤية الإيمان؛ فلا يظفر بذلك النّورِ، ولا بتلك الهدايةِ.

إيثارُ التَّعبير بلفظ (الجَعْل)، ولطيفةُ صَوْغِه ماضيًا:

كلُّ ما حصل، ويحصل قد قُضيَ به منذ الأزل في علم الله تعالى

مِن دلالات التَّعبير بـ (الجعل) في قوله: ﴿جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ شيءٍ في ملكوته تعالى، وكلَّ عملٍ يُعمَل في كونه ﷻ، إنَّما هو بإذن اللّه تعالى وتوفيقه وجَعْلِه، وأنَّه تعالى ما لم يأذن بشيءٍ من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 154.

ذلك وغيره لا يكون، واللّهُ تعالى أعلم، وفي صَوْغ فعلِ الجَعْل ماضيًا في جملة ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ إيحاءٌ بأنَّه قد تحقَّق، وتمَّ، وقُضيَ به في عِلْم اللّه تعالى منذ الأزل.

وجهُ توحيد ضمير المفعول في: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، بعد ذِكْر الكتاب والإيمان:

القرآنُ والإيمانُ يــتـــآزران في سعـادة العبد الـدُّنـيـويَّـة والأُخرويَّة

مِن العلماء "مَن قال: إنَّه راجع إلى القرآن دونَ الإيمان؛ لأنَّه هو الَّذي يُعرَف به الأحكام، فلا جرمَ شُبِّه بالنّور الَّذي يُهتدى به، ومنهم من قال: إنَّه راجعٌ إليهما معًا، وحَسُنَ ذلك؛ لأنَّ معناهما واحدٌ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: 11]"[1]، وجْهُ توحيد الضَّمير في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ بعد ذِكر ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ و﴿ٱلْإِيمَٰنُ﴾ - وهما مثنى - الإيحاءُ بِتَلازمهما؛ إذِ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ يشتمل على بيان حدود الإيمان، وتفاصيل شريعتِه - من عبادات ومعاملات وأخلاق وآداب وغيرها، وتلك كلُّها لا حاملَ على تنفيذها، ولا مُنشِّطَ إلى تفعيلها في الحياة إلّا الإيمانُ، أو وُحِّد ضمير ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾، و﴿ٱلْإِيمَٰنُ﴾؛ لأنَّه قصَد به الخبرَ عن الكتابِ، أو لأنَّ أسماءَ الأفعالِ يَجْمَعُ جميعَها الفعلُ، كما يقالُ: إقبالُك وإدبارُك يعجبُني؛ فيوحَّدُ، وهما اثنان[2].

دلالةُ التَّعبير بالنّور، ولطيفةُ تنكيرِه في المفعول ﴿نُورًا﴾:

القرآنُ والإيمان وسيلةُ اهتداءِ الـرّوح، كما أنَّ الـنّـور وسيلةُ اهتداءِ الجَسَد

مفردة (النور) أبلغُ مفرداتِ اللُّغة في الدَّلالة على وسيلة الاهتداء والإرشادِ والاسترشادِ الحِسِّيَّيْن، ففي تشبيه الوحي الكريم بها إضفاءٌ لمعاني تلك الوسيلة وخصائصِها الحِسِّيَّة على الوحي في جانبه المعنويِّ الرّوحيِّ، وعلى ذلك: فالوحيُ الشَّريف - من القرآن الكريم والسُّنَّة الشَّريفة - أبلغُ ما تُحَصَّلُ به الهدايةُ في الإرشاد والاسترشاد المعنويِّ الرّوحيِّ، وفي تنكير ﴿نُورًا﴾ إيحاءٌ بعظَمة نورِ القرآن الكريم والسُّنَّةِ الشَّريفة وفخامتِه، وبالغِ أثرِه في الهداية

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 615.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 543.

والسَّلامة مِن تخبُّط النُّفوس وظُلمةِ الأرواح، و"بيانُه الَّذي بَيَّن فيه ممّا لهم في العمل به الرَّشادُ، ومِنَ النّارِ النَّجاةُ"[1]، "فإن كان المرادُ هو الإيمان، فهو نورٌ بالحُجَج والبُرهان، وهو كما ذكر: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزُّمر: 22]، وإن كان المرادُ هو الكتاب؛ فهو نورٌ؛ لِما يَرفع جميعَ حُجبِ القلوبِ وسواترِها عمَّن اتَّبعَه، ونظرَ إليه بعين التَّعظيم"[2].

حكمةُ التَّعبير بمفردةِ الهداية في: ﴿نَّهۡدِي﴾:

مهمَّةُ الوَحْيِ هدايةُ النّاسِ والأخذُ بأيديهم إلى مرافِئِ السَّلامة في الدُّنيا والآخرة

في التَّعبير بمفردة الهداية في جملة الصِّفة ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ﴾ نصٌّ على وجه الشَّبَهِ المقصود من التَّشبيه في ﴿جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾، وتصريحٌ بمهمَّة الوحي الأولى، وأنَّها لهداية النّاس، والأخذِ بأيديهم إلى مرافئِ السَّلامة ومَكامِن الأمان في الدُّنيا والآخرة، والهدايةُ هنا هدايةُ توفيقٍ وتسديدٍ ومعونة؛ لأنَّها من اللّه تعالى، والمعنى: "نُرشِدُ به، ونُسَدِّدُ إلى سبيلِ الصَّوابِ"[3]، ومن أسباب الظَّفر بها اتِّباعُ الوحي الشَّريف والأخذُ به؛ وذلك سببُ النَّجاةِ إلى سبيل السَّعادة.

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿نَّهۡدِي﴾:

مِن جدَّد الأخذَ بالكتاب والإيمان؛ تَجدَّد له الهُدى طولَ المدى

وفي صوغ الفعل ﴿نَّهۡدِي﴾ مضارعًا دلالةٌ على ضمان تجدُّد ذلك الهُدى لَمن أخذ بالكتاب، والتزم الإيمانَ والشَّرعَ، وأنَّه لا يزال في حِصن حصين من أسباب الرَّدى ما استمسك بها، وفي ذلك دعوةٌ إلى كلِّ أحد يعقل أن يلتزم تعاليمَه.

نُكتَةُ تقديمِ القيد ﴿بِهِۦ﴾ على المفعول ﴿مَن نَّشَآءُ﴾:

في تقديم القيد بالجارّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعول في جملة: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾، تنويهٌ بعظَمة الوحي الشَّريف،

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 542.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 144.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 542.

هدايةُ القرآن هي المعتمَدَةُ بعد نزوله على الرَّسول ﷺ

وقوَّةِ أثرِه في هداية مَن يشاء اللّهُ تعالى هدايتَه، وأنَّ هدايةَ الكتابِ والإيمان السَّببُ الوحيدُ لِهداية الخَلْق؛ إذِ التَّقديم هنا يمنحُهما خصيصةً ليست لغيرهما في الهداية، وإن كانت الكتبُ السَّماويَّةُ السّابقة - قبلَ تحريفها - كُتُبَ هدايةٍ أيضًا، غيرَ أنَّه بعد بعثة الرَّسول ﷺ، وإنزالِ القرآن الكريم وشريعةِ الإسلام، صارت هدايتُه هي الهداية المعتَمَدة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: 85]، ثمَّ إنَّ القرآن الكريم أشملُ منها تفاصيلَ، وأرحبُ أحكامًا، وأدقُّ إحْكامًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: 48]، فضلًا عن أنَّه الكتابُ المُعْجِز، الخالِدُ إعجازُه إلى يوم الدّين، فهو الأبقى وُجودًا، والأفصح بيانًا، والأبلغ عبارةً، ممّا يُؤهِّلُه للاختصاص بأن يَهْدِيَ ﴿بِهِۦ﴾ اللّهُ تعالى مَن يشاء من عباده.

لطيفةُ تقييد ﴿نُورٗا﴾ بالوصْف ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ﴾:

القرآنُ الكريمُ ضمانٌ لتحقيق الهُدى لمن استمسكَ به

في تقييد المفعول الثّاني ﴿نُورٗا﴾ بجملة الصِّفةِ ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ﴾ تقريرٌ لنورانيَّة الوحي الشَّريف وتمامِها؛ بحيثُ يضمن تحقيقَ غايتِه العُظمى من الهداية لِمَن استمسك به، وفي الحديث الشَّريف: «فَقَدْ تَرَكْتُ فيكُم ما لَن تَضِلّوا بَعْدي إنِ اعتَصَمْتُم به كِتابَ اللّه، وأنتُم مَسؤولونَ عَنّي، فَما أنْتُم قائِلونَ؟»، قالوا: نَشْهَدُ أنَّكَ قَد بَلَّغْتَ، وأدَّيْتَ، ونَصَحْتَ، فَقالَ بإصْبَعِه السَّبّابَةِ يَرْفَعُها إلى السَّماءِ، ويَنْكُبُها إلى الأرْضِ: «اللّهُمَّ اشهَدْ، اللّهُمَّ اشهَدْ، اللّهُمَّ اشهَدْ» ثَلاثًا[1].

معنى (الباء) في: ﴿بِهِۦ﴾:

الوحيُ الشَّريف سببٌ مُهمٌّ لهداية المهتدين

(الباء) في جملة الصِّفة: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ﴾ باء السَّببيَّة، فالوحي الشَّريف سببٌ مُهمٌّ لهداية المهتدين بإذن اللّه تعالى، فإنَّه كلمة اللّه

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (1218) باختلاف يسير، والنّسائيّ في السنن الكبرى، برقم: (3987).

تعالى الباقية في دُنيا النّاس إلى يوم الدّين، واللّه تعالى يجعله سببًا في هداية مَن يشاء هدايته.

مرجعُ الضَّمير في: ﴿بِهِۦ﴾:

الضَّمير في القيد ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ﴾ "يحتمل القرآنَ، ويحتمل الإيمانَ نفسَه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ [يونس: 9]، أي: يجعله بالإيمان مهتديًا، واللّه تعالى أعلم"[1]، وفي إطار استواء الاحتمالين يتَّضِحُ أنَّ أثرَ القرآن والإيمان كليهما في هداية المهتدين خطيرٌ، فليَلْتزِمْهما مَن رغب في الظَّفر بالاهتداء.

أثـرُ القـرآنِ والإيمـانِ في الظَّفر بالاهتداء عظيم

علَّةُ التَّعبير بالموصول في: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾:

في مجيء مفعول ﴿نَّهۡدِي﴾ اسمًا موصولًا في جملة: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ إفساحٌ لدلالات جليلة، منها: جملةُ الصِّلة بدلالاتها الوفيرة، ويفسح الموصول أيضًا لِدُخول عديد المهتدين ممَّن لا يُحاط بهم عدًّا، منذ الإيحاء إلى رسول اللّه ﷺ بهذا الوحي الشَّريف، وحتّى آخر الزَّمان؛ فلا يحتمل المقام هنا التَّعبيرَ بالاسم الصَّريح، ولا يَسَعُه إلّا الموصول الدّال على شمول عموم ﴿مَن نَّشَآءُ﴾.

الاسمُ الموصول أرحبُ دلالةً؛ وأوسعُ لِما لا يتَّسِعُ له الاسمُ الصَّريح

معنى ﴿مِنۡ﴾ في: ﴿مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ تبعيضيَّة؛ إذ إنَّ هدايةَ اللّهِ تعالى تختصُّ ببعض عباده دونَ بعض، بحسب علمِه مَن يستأهلها ممَّن لا يستأهلها، ممَّن اختارها دونَ مَن كفر بها ورفضَها، وفي ذلك إلماحٌ لكثرة العباد كثرةً لا يُكتَرث معها لَمن كفر باللّه تعالى، وضَلَّ عن الدّين، وإن كان اللّهُ تعالى غنيًّا بنفسه عن النّاس وعن الخَلْق جميعًا، ويُشْتَمُّ في ﴿مِنۡ﴾ معنى البيانيَّة أيضًا، ويدعم هذه الإشارةَ أنَّ مدخولها (عباد) لا (عبيد)؛

عبـادُ اللـه كـثيرون، فلا يُكتَرث لِمَن كفر منهم، واللهُ غنيٌّ عن العالَمين

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 144.

لما اشتُهِر أنَّ (عباد) وصفٌ للمؤمنين الطّائعين اختيارًا بخاصَّة، وأنَّ (عبيد) عامٌّ لكلِّ النّاس طوعًا أو قهرًا، والمعنى على أنَّ ﴿مِنْ﴾ بيانيَّة: نهدي به عبادَنا الَّذين اختاروا الإيمانَ على الكفر.

دلالةُ تعلُّق الهدايةِ بالمشيئة في: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾:

يدلُّ تعلُّقُ الهدايةِ وتوقُّفُها على المشيئة الرَّبّانيَّة أنَّ أحدًا لا يهتدي بدون توفيقه ﷻ، وإنِ اتَّخذ كلَّ أسبابِ الاهتداء فلا بدَّ له في سبيل طلب الهداية من أن يتعلَّق بكَرَم اللّه تعالى، وأن يتطلَّع إلى معونته وتوفيقه، وإلّا فلن يظفر بالهداية أبدًا، والعياذُ باللّه تعالى.

لا يمكنُ لأحد أن يهتديَ إلّا بتوفيق الله تعالى ومعونته

وَجهُ المضارعةِ في الفعل ﴿نَّشَآءُ﴾:

المضارعة في فعل المشيئة في قوله تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ تدلُّ على رحمة اللّه تعالى بالعباد؛ إذ إنَّه يوليهم أسبابَ الهداية، ويُجدِّد لهم العطاءاتِ، ويَمُدُّهم بالتَّوفيق مَدًّا متجدِّدًا لا يخفتُ، ولا ينقطع، وذلك بعضُ ما تنشره المضارعةُ في الفعل ﴿نَّشَآءُ﴾؛ فما أكرمَ ربَّنا ﷻ!

ما أكرمَ ربَّنا ﷻ؛ إذ يولي عبادَه أسبابَ الهداية! ويُجدِّدُ لهم أمدادَ التَّوفيق!

بلاغةُ حذفِ مفعول المشيئة في: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾:

شاع في الذِّكر الحكيم حذْفُ مفعول المشيئة الإلَهيَّة؛ لأنَّ مشيئته ﷻ نافذةٌ لا يعوقها عائقٌ، والمعنى: نهدي مَن نشاء هدايتَه؛ فدلَّ الحذفُ على طلاقة القُدرة الإلهيَّة، وأفاد أنَّ كلَّ شيء يجري في كونه ﷻ على وفق مشيئته، لا يَندُّ عنها شيءٌ، ومثلُ هذا الحذف لِمفعول المشيئة كثيرٌ في الكلام عمومًا[1]، وفي الذِّكر الحكيم بخاصَّة؛ لأنَّ اللّه ﷻ هو القادر على كلِّ شيء، فمُجَرَّد تعلُّقِ مشيئتِه بالأمر إيذانٌ بحصوله، واللّه تعالى أعلم.

مشيئةُ الله تعالى نافذةٌ بمجرَّد تعلُّقها بالأمر

سرُّ الاكتفاء بذِكْر مَن شاء الله هدايتَهم، والسُّكوتِ عن مصير الآخرين:

صرَّح النَّظمُ الكريم في جملة: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 287.

بفريق المهتدين بتوفيق اللّه تعالى، وسكت عن الباقين، والتَّقدير: "فاهتدى به مَن شئنا هدايتَه، وبَقِيَ على الضَّلال مَن لم نشأ له الاهتداءَ، كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: 26]"[1]، فلم يتعرَّض لهم بذِكر، وفي ذلك اكتفاءٌ يُلمَح بطريق مفهوم المخالفة، أي: ومَن لم نشأ هدايتَه منهم يَضلّون، فيهلَكون في الكفر والمعاصي، وفي ذلك إيحاءٌ بإهمال شأن مَن ضاع في مَهامِه الكُفر وأودية الضَّلال، وأنَّه ليس جديرًا بالانشغال به، أو بذِكر أخباره ومصيره.

مَن ضاع في أودية الضَّلال؛ فليس جديرًا بذِكر أخباره والانشغالِ بمصيره

دلالةُ استعمال لفظ (عباد) دون لفظ (عبيد):

استُعمل في قوله تعالى: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ لفظُ (عباد) دون (عبيد)، ومن وجوه التَّفرقة بين اللَّفظين ما ذكره الشَّيخ الشَّعراويُّ من قوله: "إنَّ الخَلْق جميعًا عبيدُ اللّه تعالى، المؤمنُ منهم والكافرُ، وإن تأبَّى الكافر على اللّه في الإيمان، فهو مقهور له تعالى في مسائل أخرى، كالمرض والموت وغيره، ثمَّ أعطانا اللّه تعالى مجالًا للاختيار؛ ليُثيب مَن يُثيب بحقٍّ، ويُعذِّبَ بحقٍّ، والعبادُ هم الَّذين يخرجون عنِ اختياراتهم الممنوحة لهم من اللّه تعالى إلى مُراد اللّه سبحانه في الحُكم، وبهذا المنطقِ يكون الجميعُ في الآخرة عبادًا؛ لأنَّه لا اختيار لهم، ويستوي في ذلك المؤمنُ والكافر، يوم يقول سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]"[2]، وإيثارُ وصفِ (عباد) هنا يدعم هذا الاجتهادَ؛ لأنَّ المقام هنا مقامُ هدايةٍ يمنحها اللّه تعالى لمن يشاء من العِباد المؤمنين المختارين، وليس مقامَ محاسبةٍ لما قدَّمه العبدُ في حياته الدُّنيا؛ إذ وردت لفظةُ: (عبيد) في مثل هذه السّياقات القرآنيَّة، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: 182].

النّاس في الدُّنيا عبادٌ مختارون وعبيدٌ مقهورون، وفي الآخرة كلُّهم عباد لا يخيّرون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 153.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11040.

نُكْتَةُ الإضافة إلى ضمير العَظَمَة في: ﴿عِبَادِنَاۚ﴾:

إضافةُ (عباد) إلى ضمير العظمة في ﴿عِبَادِنَاۚ﴾ يُضفي عليهم التَّشريفَ والتَّكريم، ويُلَوِّح بأنَّهم استأهلوا هذه الرُّتبةَ من الإضافة إليه ﷻ بأخذهم بهذا الوحي الكريم، وإن كان هو سبحانه الَّذي وفَّقهم إليه، وهداهم ﴿بِهِۦ﴾؛ ففضلُه عليهم أوَّلًا، وفضله عليهم آخِرًا، وبتمسُّك العبد بكتاب اللّه تعالى وشريعته الخاتمة يدخُل في ﴿عِبَادِنَاۚ﴾، وذلك سبيل الشَّرف والكرم، فاللَّهمَّ اجعلنا منهم يا كريم.

تمسُّكُ العبدِ بكتاب الله تعالى وشريعتِه الخاتمة يمنحُه شرفًا وكرامةً

معنى (الواو) في: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ قد تكون استئنافيَّة، تستأنف خبرًا جديدًا، يخبر بواقعٍ، هو أنَّ الرَّسول ﷺ بهذا الوحي، وهذا الكتاب يهدي هدايةَ إرشادٍ ودلالةٍ وبيان - كما تفسِّره الآياتُ الأخرى.

وقد تكون (الواو) هنا عاطفة؛ إذ "لمّا أثبت الهدي إلى اللّه، وجعلَ الكتاب سببًا لتحصيل الهداية؛ عطف عليه وساطة الرَّسول في إيصال ذلك الهدي؛ تنويهًا بشأن الرَّسول ﷺ، فجملة: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾ عطف على جملة: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾"[(1)].

على مَن يمتلك أدواتِ الدَّعوة إلى الهُدى أن يُرشِد النّاس إليه، ويدلَّهم عليه

معنى (إنَّ) في: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾:

(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ توكيديَّة، اقتضاها تقدُّم الإخبار بهدايته تعالى بالوحي الشَّريف مَن يشاء من عباده، وذلك يوهم أنَّ هداية الرَّسول ﷺ لا داعيَ لها، وأنَّها وعدمَها سواءٌ، فجاء توكيدُ هذا الخبرِ؛ لانتزاع ذلك الوهم الذي قد يتبادر، والمعنى: ومؤكَّدٌ - يا محمَّد - أنَّ دورك في الدَّعوة إلى اللّه تعالى هو توجيه النّاس وإرشادُهم ودلالتُهم على سبيل الحقِّ وفضائلِه،

الرَّسولُ ﷺ سببٌ أكيدٌ في هداية مَن شاء اللّهُ تعالى هدايتَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 154.

ومخاطرِ الضَّلال ومفاسده، وذلك سبب في هدايتهم الَّتي يشاؤها اللّهُ تعالى لمن يهتدي منهم.

مرجعُ ضمير الخطاب في: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾:

مَـنِ اقـتـدى بالنَّبيِّ؛ نالَه من الإرشـاد للحقِّ نصيب

المخاطَبُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هو الرَّسول ﷺ؛ لأنَّه المخاطَب الأوَّل بهذا القرآن المجيد، والمخاطَب الرَّئيسُ - إن جاز التَّعبير - بهذا الدّين، والمعنى: "وإنَّك يا محمَّدُ لتهدي إلى طريقٍ مستقيم عبادَنا، بالدُّعاءِ إلى اللّه تعالى، والبيانِ لهم"[1]، والظّاهر أنَّ هذا الخطاب لا ينسحب على جميع الدُّعاة من بعده ﷺ، إلّا مَن حذا حَذْوَه، والتزم حدود الدّين، كما أُنزلت؛ لأنَّ أحدًا لا يضمن أنَّه يهدي إلى صراط مستقيم على القَطْع، إلّا رسول اللّه ﷺ، لكِنِ المسلمون يجتهدون في أن يتمثَّلوا دعوتَه ﷺ كما دعاها، ويحاولوا ألّا يتزيَّدوا، أو يتنقَّصوا من الدّين في دعوتهم.

معنى (اللّام) في: ﴿لَتَهۡدِيٓ﴾:

الرَّسـول قطعًا يهدي إلى صراط مستقيم

(اللّام) في جملة الخبر: ﴿لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هي اللّام المُزحلقة المفيدةُ للتَّوكيد، وهي تتآزر مع (إنّ) في توكيد الخبر: ﴿لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، بعد الإخبار بهداية اللّه تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾.

دلالةُ التَّعبير بالهداية في: ﴿لَتَهۡدِيٓ﴾:

هـدايـةُ الـنَّـبـيِّ والـدُّعـاة هدايةُ دلالةٍ على الخير وإرشـادٍ إليه، لا هدايةُ توفيقٍ وتسديد

هدايةُ الرَّسول ﷺ أمَّتَه هدايةُ دلالةٍ على الخير وإرشاد إليه - أي: "لَتَدعو، أو لَتُبَيِّن لهم الصِّراط المستقيم"[2]، وهذه الهداية هي المقصودة هنا، وقد قال اللّهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرّعد: 7] - لا دلالة على توفيقٍ ومعونة وتسديد؛ لأنَّ هذه من توفيق اللّه تعالى ومن

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 543.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 144.

عطاياه مَن يشاء مِن عباده، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: 56].

فائدةُ المضارعة في الفعل ﴿لَتَهْدِىٓ﴾:

هَـدْيُ النَّـبيِّ نـبراسٌ وضّـاءٌ لِحَمَلَةِ الدَّعوة من بعده

صَوْغُ فعلِ الهداية في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مضارعًا يدلُّ على هِمَّتِه ﷺ في الدَّعوة إلى الله تعالى، وأنَّه لم يكن يَفتُر، ولا يَألوفي ذلك جهدًا، وإنَّما ظَلَّ يُجدِّد الدَّعوة، ويُنوِّع أساليبَها؛ حرصًا على أن تُثْمِرَ ثمارها، ويبقى دورُ المضارع بعد رحيله ﷺ قائمًا في استحضار ذلك الجهد وتلك الهِمَّة؛ نبراسًا لحملة مشعل الدَّعوة من أُمَّتِه إلى يوم الدّين، وفي المضارعة إشارةٌ إلى خلود دعوتِه الشَّريفة ﷺ غَضَّةً مُتجدِّدة على صفحة الزَّمان؛ وذلك بِخلود القرآن الكريم الَّذي بَلَّغه الأُمَّة؛ فظَلَّ يُتلى، ويُعْمَل به آناءَ اللَّيل وأطرافَ النَّهار، وكذا بالسُّنَّة الشَّريفة الَّتي سنَّها على مدار اليوم واللَّيلة، في المأكل والمشرب والمَلْبس والمسكن وغيرها.

لطيفةُ حذفِ مفعول (تهدي):

دعـوةُ الـرَّسـول عالميَّةٌ في إيصال الهُدى للنّاس

في حذفِ مفعول الفعل (تهدي) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ توجيهٌ دقيق، هو أنَّ رسالة النَّبيِّ ﷺ رسالةٌ عامَّةٌ، مُنزَّلةٌ إلى قومه مِن العرب وإلى غير قومه من النّاس جميعًا، كما قال ﷺ: «وكانَ النَّبيُّ يُبْعَثُ إلَى قَوْمه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلَى النّاسِ عامَّةً»[1]، وفي ذلك دلالةٌ على عالَمِيَّة الدَّعوة المحمَّديَّة، والرِّسالةِ الإسلاميَّة الخالدة، فـ "حذف مفعول ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ للعموم، أي: لَتَهدي جميعَ النّاس، أي: تُرْشِدُهم إلى صراط مستقيم، وهذا كقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [البلد: 10 - 11]"[2]، و"حُذِفَ المفعولُ ثقةً بغاية

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (335).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 154.

الظُّهورِ"(1)، كما أنَّ في حذف مفعول الفعل (تهدي) توفيرًا لعناية السّامع على العِلْم بأنَّه، كما أنَّ القرآن الكريم يهدي، فكذلك الرَّسولُ ﷺ يهدي(2)، و"أنَّ الرَّسول صلواتُ اللّه وسلامُه عليه هو نورٌ مِن هذا النّور، وأنَّه مَعْلَمٌ من معالم الحقِّ، يهدي إلى الحقِّ وإلى طريق مستقيم، وذلك في سُنَّتِه القوليَّة والعمليَّة، وهذا يعني أنَّ السُّنَّة المُطهَّرة - قوليَّة وعمليَّة - هي من هذا النّور السَّماويِّ"(3)، وفي ذلك غايةُ التَّشريف والتَّكريم للرَّسول ﷺ.

نُكْتَةُ استعمال التَّأكيد في خبَرين:

من مقتضيات توكيد الخبرِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾ بمُؤكِّدَيْنِ أنَّه "مستعملٌ في تثبيت قلب النَّبيِّ ﷺ بالشَّهادة له بهذا المقام العظيم - فالخبرُ مستعملٌ في لازم معناه - على أنَّه مستعملٌ أيضًا للتَّعريض بالمُنكرين لِهَدْيِه ﷺ، فيكون في التَّأكيد ملاحظةُ تحقيقِه وإبطالُ إنكارهم، فكما أنَّ الخبر مستعملٌ في لازمين من لوازم معناه، فكذلك التَّأكيدُ بـ (إنَّ) مستعملٌ في غرضَين مِن أغراضه، وكِلا الأمْرَين ممّا أُلْحِق باستعمال المُشْتَرك في معنييه"(4)، وقد سبق الإلماحُ إلى أنَّ تحقيق غرضَيْن متضادَّيْنِ في آنٍ واحد حُكم عامٌّ للذِّكر الحكيم، وقد ورد ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء: 82].

من براعة النَّظم الكريم تحقيقُه غرضَيْن متضادَّيْنِ في آنٍ واحد

معنى حرف الجَرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في الآية:

﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ مستعملةٌ في معنى (اللّام)، أي: لتهدي النّاسَ، وتدلُّهم؛ ليأخذوا

الرَّسولُ ﷺ يهدي النّاس ليرتقوا مراقي العِزَّة والسَّعادة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 38 بتصرُّف.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 615.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 99.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 155.

بالوحي الشَّريف، وقد تُفيد ﴿إِلَىٰ﴾ معنى انتهاء الغاية المكانيَّة المجازيَّة[1]، فيكون المعنى: إنَّك لتهدي النّاس؛ ليَبلُغوا تمامَ الهدى، ويصلوا إلى أعالي معاني الوحي، فيَشرفوا بِشَرافته، ويرتَقوا مراقيَ العِزَّة والسَّعادة.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿صِرَٰطٖ﴾، ولطيفةُ تنكيره:

الإسلام طريقٌ واضح، وتنكيرُ الصِّراط أنسبُ بمقام التَّعريض

في التَّعبير بالـ ﴿صِرَٰطٖ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة؛ إذ عبَّر بـ ﴿صِرَٰطٖ﴾ عن "الإسلام، وهو طريق اللّه الذي دعا إليه عبادَه"[2]، و"التَّوحيد السّليم من زوايا الأغيار"[3]، فهو "دينٌ مستقيم"[4]، استقامتُه مقرَّرة، وتنكير ﴿صِرَٰطٖ﴾ للتَّعظيم؛ ولأنَّ التَّنكير أنسبُ بمقام التَّعريض بالَّذين لم يأبهوا بهدايته[5]، وتعريضٌ بأديانهم المُخْتَلَّة، وعقائدِهم الفاسدةِ المُهترئةِ.

نُكْتَةُ وصفِ ﴿صِرَٰطٖ﴾ بـ ﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

دينُ الإسلام بالغٌ في الاستقامةِ مبلغَ التَّمام

معنى ﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾، أي: "شديد التَّقوُّم؛ لأنَّه كأنَّه يريد أن يُقَوِّمَ نفسَه، فهو بعد وجود تَقَوُّمِه حافِظٌ لها من أدنى خَلل، وهو كلُّ ما دعا إليه من خصال هذا الدّين الحنيف، الَّذي هو مِلَّةُ إبراهيمَ عليه السلام"[6]، وفي التَّعبير بأصل الـ ﴿صِرَٰطٖ﴾ دلالةٌ على استقامته، فإذا وُصِف مع ذلك بـ ﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ دلَّ دلالةً قاطعة على بُلوغِه في الاستقامة مبلغَ التَّمام، وأنَّ ذلك من المُقرَّر الَّذي لا يُشَكُّ فيه.

(1) قباوة، المفصّل، ص: 1725.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 544.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 62.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 544.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 155.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 373.

بلاغةُ التَّعريضِ في: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

في الإشادة بهَدْيِ الرَّسول ﷺ تعريضٌ مُؤلِمٌ بضلال الكافرين عنه

في النَّصِّ على المفعول ﴿مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ تصريحٌ بذِكر الفريق الَّذي وفَّقَهُمُ اللهُ تعالى إلى الهداية، وأعانهم، وسَدَّدَهم، فآمنوا بالوحي الشَّريف، وارتقوا في مراقي الإيمان حتّى صاروا ﴿عِبَادِنَاۚ﴾، وفي ذلك التَّصريح تعريضٌ بخذْلان الفريق الآخر من الكافرين الَّذين لم يَهتدوا، ولم يُسَدَّدوا، وأنَّهم هم المشؤومون المخذولون، فـ "في الكلام تعريضٌ بالمشركين؛ إذ لم يهتدوا به، وإذ كَبُرَ عليهم ما يدعوهم إليه، مع أنَّه يهديهم إلى صراط مستقيم"[(1)]، فإن كان النَّصُّ لم يذكرهم صراحةً؛ فقد ذكرَهم، وشَنَّع عليهم تعريضًا، بِذِكْرِ المؤمنين المَوَفَّقين، وذلك يُؤْلِمُهم، ويُؤْذِيهم، ولعلَّه يُجْدِي فيهم، فيَسْلُكوا الصِّراطَ المستقيم، ويُؤْمِنوا بالدّين القَويم.

فائدةُ موقع: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾:

صراطُ الرَّسول ﷺ هو صراط الله المستقيم

جاء قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ بدلًا من ﴿صِرَٰطٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وفيه مبادرة إلى نفي التُّهمة عمّا يدعو إليه الرَّسولُ ﷺ، وأنَّه إنَّما يدعو إلى ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك تزكيةٌ لدعوته ﷺ، وتقريرٌ لكونه مُرْسلًا بهذا الوحي الشَّريف، وأنَّ هذا الوحيَ يُمَثِّل صراطَ اللّه تعالى المستقيم، ودينَه القويم، فـ "الصِّراطُ الثّاني ترجمةٌ عن الصِّراطِ الأوَّل"[(2)]، و"أُبْدِلَ منه تعظيمًا لشأنه، بدلَ كلٍّ من كلٍّ، معرفةً من نكرة، لافتًا القولَ من مَظهر العظَمة إلى أعظم منه؛ إشارةً إلى جلالة هذا الصِّراط، بما فيه من مجامع الرَّحمة والنِّقمة ترغيبًا وترهيبًا"[(3)].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 154.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 544.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 373.

دلالةُ إضافةِ ﴿صِرَٰطِ﴾ إلى الاسم الجليل في: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾:

الإضافةُ إلى الله فيها تشريفٌ وعظمةٌ وكمال وصَونٌ من النَّقص

في إضافة ﴿صِرَٰطِ﴾ إلى الاسم الجليلِ في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ تزكيَةٌ للصِّراط الَّذي يدعو إليه الرَّسول ﷺ، وأنَّه ﴿صِرَٰطِ﴾ قويم، محفوظ مِنَ الاختلال والاختلاف والقصور، "وإضافتُه إلى اللّه تعالى للتَّفخيم والتَّشريف"(1)؛ لأنَّ الاسم الجليل يُضفي عليه عظمةً وصيانةً من كلِّ نقص، ويمنحُه الكمالَ والجمالَ، ويُغري بالاستمساك به، و"تأكيدِ وجوبِ سلوكِه، فإنَّ كونَ جميعِ ما فيها من الموجوداتِ له تعالى خَلْقًا ومِلْكًا وتصرُّفًا، ممّا يوجبُ ذلكَ أتمَّ إيجابٍ"(2)، كما "عُدِل عن إضافة ﴿صِرَٰطِ﴾ إلى اسم الجلالة ابتداءً لِقَصْد الإجمال الَّذي يعقبه التَّفصيل؛ بأنْ يُبدَل منه بعد ذلك ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾؛ ليتمكَّنَ بهذا الأسلوبِ المعنى المقصودُ فضلَ تمكُّنٍ، على نحو قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 6 - 7]"(3).

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾:

الموصولُ يُفسِح الأسلوبَ بما لا يستطيعُه الاسمُ الظّاهر

التَّعبيرُ بالموصول في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ يتيح ما لا يتيحُه الاسمُ الصَّريح، كما لو قيل: (صراط اللّه مالك السَّماوات)؛ وذلك لِما في الموصول هنا مِن إبهام مُشَوِّقٍ، وما يتيحُه من دلالة القَصْر بتقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾، وما يتيحُه من دلالة العموم في الموصول الآخر ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، إلى آخر تلك الميزات الَّتي يهيِّئ لها التَّعبيرُ بالموصول دونَ سواه، ثمَّ دلالةُ الظَّرفيَّة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وإلى ذلك فـ "إجراءُ وصفِ اسم الجلالة باسم الموصول وصلته؛ للإيماء إلى أنَّ سبب استقامةِ الصِّراط الَّذي يهدي إليه النَّبيُّ بأنَّه صراطُ الذي يملك ما في السَّماوات وما في الأرض، فلا

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 52.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 38.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 155.

يَعْزُب عنه شيءٌ ممّا يَلِيق بعباده، فلمّا أرسل إليهم رسولًا بكتاب؛ لا يُرْتاب في أنَّ ما أُرْسِلَ لهم فيه صلاحُهم"[1].

معنى ﴿مَا﴾ في جملة: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾:

سَعَةُ ملكوتِ الله تعالى يوفِّر للإنسان الثِّقةَ في دينه

﴿مَا﴾ في جملة: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ تتَّسِع لعموم المخلوقات الَّتي يعلمها النّاسُ، من السَّماوات ببروجها، وكثرةِ كواكبها ونجومِها، واتِّساع أفلاكها، والأرضِ بواسع بحارِها، وتَعدُّدِ أحيائها، ومُلوحةِ مياهها، وعُذوبةِ أنهارِها، وعظيم جبالها، وتنوُّعِ ثمارها، وكلُّ ذلك جدير بأن يَستَوقِفَ العبدَ، ويستثيرَ فيه البصرَ والبصيرةَ؛ ليلتمِسَ الحِكَم، وينتهي إلى الإيمان بالخالق العظيم ﴿ٱللَّهِ﴾ ﷻ، فيَثِقَ في ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾، ويَرتميَ في أحضانه، ولا يوليَه ظهرَه، وفي الجمع بين مِلْكِيَّة ما في السَّماوات وما في الأرض له ﷻ، في جملة: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ دلالةٌ تدعم ضمانَ تلك السَّلامةِ للسّالكين؛ لأنَّه (صراطٌ) مُراعًى فيه جميعُ الحيثيّاتِ الَّتي يعلمُها السّالِكُ، والَّتي لا يعلمُها، ممّا ينفرد مُنزِلُه بالإحاطة بها؛ لذا كان وسيظلُ أقومَ (صراطٍ).

معنى (ال) في: ﴿ٱلۡأَرۡضِۗ﴾:

الأرضُ نعمةٌ؛ فينبغي الحذرُ من عصيان الله تعالى فيها

(الـ) في ﴿ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ عهديَّة، أي: الأرض التي عهدْتُموها، ونَعِمْتُم فيها، وتقلَّبتم فيها، وفي التَّذكير بها وتحديدِها - مع العِلْم بها - مزيدُ تعنيفٍ، ومَزيدُ تبكيت، على أنَّ ﴿ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ "مطلَقةٌ على الدُّنيا"[2].

معنى ﴿أَلَآ﴾، وبلاغةُ التَّذييل بجملة: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ "تذييلٌ وتنهيَةٌ للسّورة بِختام ما احتوَت عليه من المجادلة والاحتجاج بكلام قاطع جامع، منذرٍ بوعيد للمُعْرضين فاجع، ومُبشِّرٍ بالوعد لكلِّ خاشع، وافتتحت

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 155.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 206.

الأمور بمآلاتها؛ فليفعلْ كلُّ إنسانٍ ما يشاء

الجملةُ بحرف التَّنبيه لاسترعاء أسماع النّاس"[1]، و"توجيهِ الذِّهنِ وتنبيههِ إلى شيء مُهمٍّ يَجيء بعدَها، مُؤكِّدِ الوقوع عند المتكلِّم[2]، وما بعدَها جملةُ الختام: ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ حُكمٌ كبير خطير، يُبشِّر المؤمنين، ويتوعَّد الكافرين، ويقطع بصيرورة كلِّ العباد، وإفضاءِ جميع المآلات إلى الحَكَم العدلِ سبحانه، للحُكم الفَصْل في الآخرة، وإنَّما الأمورُ بخواتيمها، فليفعلْ كلٌّ ما يحلو له، ويقطفْ ثمرتَه المُرتقبة.

نُكْتَةُ تقديم: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

انقطاعُ الحُكم والسُّلطان في ذلك اليوم إلّا لله

تقديمُ القيد ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ على عامله ﴿تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ يعطي دلالةَ القَصْرِ الحقيقيِّ التَّحقيقيِّ، ويُقرِّرُ أنَّ صيرورتَها إلى وجهة واحدة لفصل القضاء، و"إن قال قائلٌ: أوَليست أمورُهم في الدُّنيا إليه؟ قيل: وإن كان إليه تدبيرُ جميع ذلك، فإنَّ لهم حُكّامًا ووُلّاةً ينظرون بينَهم، وليس لهم يومَ القيامةِ حاكمٌ ولا سلطانٌ غيرُه، فلذلك قيل: إليه تصيرُ الأمورُ هنالك، وإن كانت الأمورُ كلُّها له، وبيدِه قضاؤُها وتدبيرُها في كلِّ حالٍ"[3].

دلالةُ إيثار الإظهار على الإضمار، في: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

التَّهديد وتربية المهابة والإجلال لدى العبيد

كان من مقتضى الظّاهر أن يُضمَر الاسمُ الجليل، فيُقال: (ألا إلينا تَصيرُ الأُمورُ)؛ لأنَّه صريح في صدر الآية: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، غيرَ أنَّ النَّظم الكريم آثَر الإظهارَ، فقال ﷻ: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ وذلك لِما لاسم الجلالة من تأثير مُخيف، وجلالٍ مَهيب في مقام التَّهديد هذا، ربَّما لا يُؤدّيه التَّعبيرُ بالإضمار، فكان تكرارُه ظاهرًا في هذا المقام أبرعَ، إضافةً

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 155.
(2) ابن هشام، أوضح المسالك: 2/ 25.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 544.

إلى أنَّه يخلع على المقام مهابةً وجلالةً، وقد آذَنتِ السّورةُ بالانتهاء؛ فحَسُن الإظهارُ تربيةً لتلك المهابة، وبخاصَّة أنَّها ختمٌ بِخَبرِ قَصْرِ المصير على أنَّه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى دونَ سواه، فمَن يُذكَر صريحًا، ويُجَلجِلُ اسمُه؛ إن لم يُذْكَر ﴿ٱللَّهِ﴾ ﷻ؟

معنى ﴿إِلَى﴾ في: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

محطُّ الأمورِ ونهايتُها إلى ما يقضيه اللهُ من ثواب المؤمن وعقابِ الكافر

﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ غائيَّةٌ، تُفيد انتهاءَ الغايةِ، وتقَرِّرُ أنَّها نهاية كلِّ حيٍّ، وأنَّ المحطَّة الأخيرة لكلِّ حَدَث من أحداث الحياة الدُّنيا إنَّما هي إلى الآخرة للحساب، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ [النّور: 39]، فصيرورةُ الأمور وإرفاؤُها إلى محطّتها الأخيرة هنالك في دار الحساب عند اللّه تعالى، يوم ينادي سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: 16]، فيجيبُ نفسَه ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]، "فيقضي فيها بقضائه العادل، وبحُكمه النِّهائيِّ الَّذي لا مُعقِّبَ له"[1].

بلاغةُ الاستعارة في فعل الصَّيرورة:

تَكَشُّفُ الحقائقِ في الآخرة، والجزاءُ منعقدٌ على ما ظهر

﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ هي الأحداث والفِعال الصّادرة عن العِباد، بل هي العبادُ أنفسُهم، وتلك الأحداث والأفعال أشياءُ معنويَّةٌ، وحسابُ العِباد منوطٌ بها قطعًا، فجاء فعلُ صيرورتها مُجَسِّدًا لها على سبيل الاستعارة الكاشفة المُظهرةِ للحقائق، كما هي يومَ القيامة، "فيذهبُ تلبيسُ المُلَبِّسين، ويهونُ جبروتُ المُتَجبِّرين، ويُقِرُّ بالحقِّ مَن كان فيه من المُعاندين، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢﴾ [لقمان: 22]، وقولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123]"[2].

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 52.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 156.

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿تَصِيرُ﴾:

مَــرَدُّ جميعِ أمــور الـخَـلْـق إليه تعالى يومَ القيامة

المضارعة في الفعل ﴿تَصِيرُ﴾ تُصوِّر الواقعَ، وهو أنَّ الأحداث والحوادثَ تُفْضِي إلى غاية، هي آخِذةٌ طريقَها إليها الآن عبرَ قطعِ الدُّهورِ والأزمان، فـ "المضارعُ على ظاهره"[1]، و"المراد به الدَّيمومةُ، كقوله: زيد يُعطي، ويَمنع، أي: مِن شأنه ذلك، ولا يُراد به حقيقةُ المستقبل، أي: تُرَدُّ جميعُ أمورِ الخَلْق إليه تعالى يومَ القيامة، فيقضي بينهم بالعدل، وخُصَّ ذلك بيوم القيامة؛ لأنَّه لا يمكن لأحد أن يدَّعيَ فيه لنفسه شيئًا"[2].

دلالةُ التَّعبير بالصَّيرورة في: ﴿تَصِيرُ﴾:

الإشــــارةُ إلى سَلْبِ الأسباب الَّــتــي كــانــت للخَلْق في الدُّنيا

في التَّعبير بالصَّيرورة في جملة: ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ تصويرٌ لغويٌّ مُجرَّدٌ لِحركة الأحداث، وانطلاقِها إلى غايةٍ محدَّدَةٍ سلفًا، هي الانتهاءُ والوصول إلى دار الحساب، فـ "فيه وعيدٌ بالبَعْث المُستَلزِم للمُجازاة، ووعدٌ بنعيم الجنّات، فيُثيبُ المُحسنَ، ويعاقبُ المُسيء"[3]، و"الوسائطُ قدِ ارتَفَعتْ، والنّاسُ كلُّهم قد جُرِّدوا مِن حَوْلهم وقوَّتِهم؛ فقد سُلِبوا الأسبابَ الَّتي كانت لهم في الدُّنيا، وفي هذا من الوعد للمُهتدين إلى الصِّراط المستقيم بالثَّواب المُقيم والفوز العظيم، كما فيه من التَّهديد والوعيد بالعذاب الشَّديد للضّالّين المُكَذِّبين"[4].

بلاغةُ التَّذييل بجملة: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾:

في خـتـام سـوَر الـقـرآن يتحقَّق اتِّـسـاق المعاني مع الـفـراغ من التِّلاوة

في ختم السّورة الكريمة بجملة التَّذييل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ يَلوح الوعدُ لِمَن عانق الوحيَ، وآمن به، وناصَرَ الدّين ورسولَه ﷺ، وسلك ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، ويقتربُ الوعيدُ لِمَن عانَد الوحيَ، وكفرَ به، وناهضَ الرَّسولَ ﷺ، وانحرفَ عن ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ تعالى،

(1) القِنَّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 12/ 322.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 352.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 12/ 324.
(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 780.

فهذه الجملةُ هي أنسبُ ختامٍ من حيثُ اتِّساقُ معناها مع الفراغ من التِّلاوة الشَّريفة؛ إذ يتلاءم الفراغُ من السّورة الكريمة مع انتهاء الأحداث وصيرورتِها الأخيرة إلى اللّه تعالى، ففي تنهيَةِ السّورة بهذه الآية مُحَسِّنٌ حَسَّنَ الختام[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 156.

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّيُّ والمدنيُّ:

سورة الزُّخرف كلُّها مكّيَّة بالاتِّفاق[1]، وذُكِرَ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزّخرف: 45] نزلت بِالمَسجد الأقصَى[2]، وهذا لا يتنافى مع كونها مكيَّة؛ لأنَّ المراد بالمكِّيِّ ما أُنزِلَ قبلَ الهجرة.

ترتيب النُّزول، وترتيب المصحف، وعدُّ الآي:

ترتيب سورة الزُّخرف بين الشّورى والدُّخان في المصحف هو ترتيبها في النُّزول أيضًا

هي السّورة الثّالثة والأربعون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، جاءت بين سورتي الشّورى والدُّخان، وهي السّورة الثّالثة والسُّتّون في ترتيبها النُّزوليِّ، نَزَلَتْ بين السّورتَيْن السّابقتَيْن[3]، وهي ثَمانون وثماني آيات في الشّاميِّ، وتسع وثمانون في عدد الباقينَ، واختلافهم في آيتَيْن منها[4].

فضائل السّورة:

إحدى الحواميم، ومن السّور المثاني

عند البحث والتَّحقيق في آثار فضلها نجد أنَّها تدخل في السّور المثاني، وهي السّوَرُ الّتي آياتُها مِئَةٌ أو أَقَلُّ، الّتي قال فيها النَّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[5].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 45.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 157.
(3) دروزة، التّفسير الحديث: 4/ 488.
(4) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 221.
(5) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطّبرانيّ في المعجم، برقم: (187)، والبيهقيّ في شعب الإيمان، برقم: (2415).

اسم السّورة، ومناسبة تسميتها:

للاغترار بزخرف الدّنيا أثر ينبغي علاجه

وردت تسميتها بسورة (الزّخرف) و(حم الزّخرف) في كتب السُّنَّة والتَّفسير، فقد ذكر البخاريُّ تسميتَها بـ(حم الزُّخرف)[1]، وذكر التِّرمذيُّ تسميتَها بسورة (الزّخرف)[2]، وقد ذكر الكثيرون أنّ تسميتها بالزُّخرف إنَّما كان لورود هذه اللَّفظة فيها، في قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ٣٥﴾ [الزّخرف: 34 - 35]، والزُّخرف هو الذَّهَب، وقد وردت اللَّفظةُ في سياق وصف بعضِ نعيم الدُّنيا الزّائل، ومقارنته بنعيم الآخرة الدّائم، مع ورود ذِكر هذه اللَّفظة في ثلاث سورٍ سواها[3]، ولم تُسمَّ باسمه؛ لكون هذا اللَّفظ فيهنَّ ورد موصوفًا أو مُضافًا.

وقد حاول البقاعيُّ الرَّبطَ بين اسمها ومقصودها، فقال: "ومقصودُها: البشارة بإعلاء هذه الأُمَّة بالعقل والحكمة، حتّى يكونوا أعلى الأمم شأنًا؛ لأنَّ هدايتَهم بأمر لَدُنيٍّ هو من غريب الغريب، الَّذي هو للخواصِّ، فهو من المرتبة الثّانية من الغرابة، وأنَّ ذلك أمر لا بدَّ لهم منه، وإنِ اشتدَّت نفرتُهم منه، وإعراضُهم عنه، قال تعالى شاهدًا لذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزّخرف: 44]، أي: تكونون أهلًا لأن يسألكم العلماءُ من جميع الأُمم عن دقائق الأحكام والحِكم، وحتّى تكونوا أهلًا للجنَّة، وعلى ذلك دلَّت تسميتُها بالزُّخرف، كما في آيتها"[4].

ولا شكَّ أنَّ الرَّبط بين اسم السّورة ومقصودِها أو محورِها إنَّما هو ناشئٌ من ضبط هذا المحور وتحديده، ومحورُها برأينا يقوم على بيان

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه: 4/ 1820.
(2) أخرجه التّرمذيّ في سننه: 5/ 378.
(3) الأنعام: 112، ويونس: 24، والإسراء: 93.
(4) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 2/ 465، و466.

أثر الاغترار بالمظاهر المادّيَّة في الزَّوال الحضاريِّ والوجوديِّ، فسُمِّيَت السّورةُ بهذا الاسم؛ لما فيها من تمثيل رائع لمتاع الدُّنيا الزّائل؛ لذا عرضت السّورةُ جانبًا ممّا كانت الدَّعوة الإسلاميَّة تُلاقيه من مصاعب وعقبات، ومن جِدال واعتراضات، وتَعْرِض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها في النُّفوس، وكيف يُقرِّر في ثنايا علاجها حقائقَه وقِيَمَه في مواجهة الخُرافات والوثنيّات، والقيمِ الجاهليَّةِ الزّائفة، القائمةِ في بعض النُّفوس في كلِّ زمان ومكان.

المحور العامُّ للسّورة:

محورُ السّورة يقوم على بيان أثر الاغترار بالقيَم المادّيَّة في الزَّوال الحضاريِّ

إذا كان محورُ سورةِ الشّورى الَّتي سبقت هذه السّورةَ يقوم على ضرورة تأكيد اتِّباع الوحي الإلهيِّ من أجل تحقيق وحْدةِ الأُمَّة ونبذِ فُرقتِها؛ إذ اعتنت السّورةُ بشكل لافتٍ بالوحي الإلهيِّ من خلال أركانه الثَّلاثة: الموحِي، والوَحي، والموحَى إليهم، فإنَّ هذه السّورةَ متَّصلة تمامَ الاتِّصال بهذه الرّوح التَّركيبيَّة لسورة الشّورى، وهي متمِّمَة لما جاء فيها، فمِحْورُها العامُّ يقوم على بيان أثر الاغترار بالقيم المادّيَّة الزّائلة في زوال الحضارات وتبديل القيم، ولذلك فقد قامت السّورةُ الكريمة بتعليل موقف المشركين في عنادهم للحقِّ، ومجادلتِهم بالباطل، وكثرةِ خصومتهم ولجاجِهم في شأن الوحي والرِّسالة والإيمان، وذلك بسبب تعلُّقِهم بالقيم المادّيَّة الزّائفة، وزُخْرفِ الحياة الدُّنيا، وتكذيبهم بالقيم الرّوحانيَّة الخالدة بخلود الحقِّ.

ويمكن بيانُ ما تقدَّم من خلال النِّقاط الآتية:

أوَّلًا: استهلَّت السّورةُ مطلعَها بالحديث عن إعجاز القرآن ولغته ومكانته، على اعتبار أنَّه المرجعُ الأساس في وزنِ القيم والموازين بميزان اللّه ﷻ.

ثانيًا: تحدَّثت السّورةُ عن مصير المُكذِّبين بالوحي، من السّابقين

الَّذين آثَروا القِيَم المادّيَّة الزّائلةَ على القيم العُلْويَّة الدّائمة؛ وجاء ذلك تحذيرًا للمخاطَبين من أن يصيبَهم ما أصاب مَن سبقهم.

ثالثًا: عرضت السّورة لبعض الآيات الكونيَّة الدّالَّة على وحدة الخالق واستحقاقه العبادةَ، وذلك في معرض ردِّ شبهاتهم حولَ حقيقة الوحدانيَّة، فجادَلتْهُم أكثرَ من مرَّة في شِرْكِهم باللّه، وحَذَّرَتْهُم من مآلات أمرهم؛ لتُصَحِّحَ لهم القيَمَ والموازينَ المنحرفةَ لديهم.

رابعًا: بيَّنَتِ السّورةُ لهم بشكلٍ مباشِرٍ أثرَ التَّرفِ والتَّعلُّق بمتاعِ الدُّنيا الزّائل في تحقُّق هلاكهم، وهلاكِ مَن كان قبلَهم، فبيَّنَت لهم أنَّ أوَّلَ فئةٍ من شأنها أن تُحارِب الحَقَّ هي فئةُ المُترفِين، وبيَّنَتْ لهم أنَّ كلَّ ما يمكن أن يُحصِّلوه مِن مكاسبَ مادّيَّةٍ ومنافعَ دنيويَّةٍ ما هو إلّا متاعٌ زائل.

موضوعاتُ السّورة وخصائصُها:

مَدارُ السّورةِ يدور حولَ التَّحذير من متاع الدُّنيا الزّائل

موضوع هذه السّورة لا يخرج عن موضوعات السّور المكّيَّة في بيان أصول الاعتقاد، فبدأت السّورةُ ببيان مصدرِ القرآن العظيم، وهو الوحيُ الإلهيُّ، وتأكيدِ عربيَّته ومصداقيَّته، وجَعْلِه معجزةَ الإسلام والنَّبيِّ ﷺ الخالدةَ إلى يوم القيامة، وكونه أداةَ إنذارِ قريشٍ وقبائلِ العرب الَّذين أسرفوا في مُتَع الدُّنيا، وكذَّبوا رسولَهم كتكذيب مَن سبقهم من الأمم، ثمَّ أبانت بنحو قاطع أدلَّةَ وجودِ اللّه ﷻ وقدرتَه ووحدانيَّتَه من خلق السَّماوات، والأرضِ وتذليلها وتمهيدها وإيجادِ طُرقِها، وإنزالِ الغيث النّافع عليها، وخَلْقِ أصناف الأشياء والفلك والأنعام لأهلها، واعترافِ المشركين صراحةً بأنَّ الخالق هو اللّه ﷻ، ولكنَّهم لوَّثوا ذلك الاعترافَ بالوثنيَّة والخُرافة، وأوردت قصصَ بعضِ الأنبياء من أولي العزم، كإبراهيمَ الخليلِ وموسى وعيسى عليهم السلام؛ ليعتبروا بها، ويتَّعظوا بأحداثها ونتائجها.

وأهمُّ موضوعات السّورة جاءت كما يأتي:

أوَّلًا: بيانُ إقرار المشركين بتوحيد الرُّبوبيَّة المقتضي توحيدَ الأُلوهيَّة، والتَّعجيبُ من حالهم؛ فهُم يعترفون بأنَّ اللّه هو خالقُهم وخالقُ المخلوقات كلِّها، ومع ذلك اتَّخذوا شركاءَ عاجزين عن النَّفع والضُّرِّ والتَّصرُّف.

ثانيًا: إبطال ما كانت عليه عقيدةُ المشركين في الملائكة؛ إذ جعلوهم بناتٍ للّه وعبدوهم، مع اعتقادهم أنَّ البناتِ أقلُّ قَدْرًا من الذُّكور، ومستندُهم في ذلك تقليدُ آبائهم، وإبطالُ زعمهم أنَّهم على مِلَّة إبراهيم.

ثالثًا: بيان أنَّ الدُّنيا ليست ميزانًا لَمحبَّةِ اللّه للعبد، فالمشركون استبعدوا أن تنزلَ الرِّسالةُ على محمَّدٍ ﷺ، وهو يتيمٌ فقيرٌ، ورغبوا في أن يكونَ الوحيُ على رجلٍ عظيمٍ صاحبِ جاهٍ وثراءٍ، فردَّ القرآنُ هذه القِيَمَ الأرضيَّةَ الزّائفة.

رابعًا: التَّهديد بمجيء السّاعة فجأةً، وتصويرُ حالِ النّاس في مشهد القيامة، ووصفُ حالِ المؤمنين بعد دخولهم الجنَّة، وتعقيبُه بحال المجرمين في جهنَّم، وتذكيرُهم بإحصاء الملائكة أعمالَهم، وأنَّ ما هم فيه من العذاب سببُه أعمالُهم.

خامسًا: ختمت السّورةُ ببيان وصفِ نعيم الجنَّة الَّذي لا مثيل له، والمُخَصَّصِ للمؤمنين بآيات اللّه، المسلمين المُنقادين لربِّهم، وإيضاحِ أهوال القيامة وشدائدِ الأشقياء أهلِ النّار؛ إذ يتقلَّبون في عذاب جهنَّم، وإفلاسِهم من شفاعة الأصنام والآلهة المزعومة، وإعلانِ اليأس من إيمان هؤلاء المشركين والإعراض عنهم، فسوف يعلمون ما يلقونه من العذاب[1].

الخصائصُ الموضوعيَّة لسورة الزُّخرف:

أوَّلًا: تميَّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال، فلا يوجد سورة من أخواتها الحواميم، أو غيرِها من السّور الَّتي استُهلَّت بالأحرف المقطَّعة، تشبهها في مطلعها.

ثانيًا: تميَّزت السّورةُ الكريمة بموضوعاتٍ وتفصيلاتٍ لم تَرِد في غيرها من السّور، مثل:

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 25/ 112، و114.

تميَّزت سورةُ الزُّخرف بخصائصَ أفردتها عن غيرها من السّور

ذِكْرِها لدُعاء ركوب الأنعام، وحديثِها عن تألُّه فرعونَ وادِّعائِه مُلْكَ مصرَ، واستخفافِه بقومه، وكذلك ذِكرُها اسمَ خازنِ النّار، ونداءَ الكافرين له، وعن تقييض الشَّياطين للمعرضين، وعن إبطال بنوَّة عيسى وتأليهِه، وكذلك حديثُ الكافرين عن نزول القرآن وغيرِ ذلك.

الخصائصُ الأسلوبيّة لسورة الزُّخرف:

أنساقٌ تعبيريَّة فريدة خاصَّة، وإكثار من الحديث عن التّرف والزُّخرف

أوَّلًا: تفرَّدت السّورةُ الكريمة بأنساق تعبيريَّة فريدة كثيرة خاصَّة بها، منها قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾، ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف: 18]، ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: 19]، ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف: 33]، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: 54]، ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: 55]، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: 56]، ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: 67]، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ﴾ [الزخرف: 71]، ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: 75]، ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الزخرف: 88]، وغيرها الكثير.

ثانيًا: تميَّزتِ السّورةُ الكريمة بكثرة حديثها عن ألفاظ التَّرف والزُّخرف بصيغ واشتقاقات لم ترد في غيرها من السّور، مثل: ﴿ٱلْحِلْيَةِ﴾ [الزخرف: 18]، و﴿مُتْرَفُوهَآ﴾ [الزخرف: 23]، و﴿وَزُخْرُفًا﴾ [الزخرف: 35]، و﴿أَسْوِرَةٌ﴾ [الزخرف: 53]، وكلُّ ذلك مرتبطٌ ارتباطًا مباشرًا بمِحور السّورة الكريمة.

ثالثًا: ذُيِّلت ثمانٍ وسبعون آية من آياتها بحرف النّون، أي: بنسبة تصل إلى 88% من آياتها، ممّا أعطاها إيقاعًا موسيقيًّا خاصًّا بها، يُسهِّل حفظَها وتلاوتَها.

رابعًا: تفرَّدت هذه السّورةُ بألفاظ لم يَرِد لها من جذرها أيُّ اشتقاقٍ آخر في القرآن الكريم، نحو: ﴿أَبۡرَمُوٓاْ﴾ [الزخرف: 79] و﴿مُبۡرِمُونَ ٧٩﴾ [الزخرف: 79] في قوله: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ٧٩﴾ [الزخرف: 79]، ومثل هذه الألفاظ مرتبطة بالمِحور الرَّئيس للسّورة الكريمة.

مُناسَبَةُ السّورَةِ لِما قبلَها:

سورةُ الزُّخرف متَّصلة تمامًا بسورة الشّورى مضمونًا وأسلوبًا

هذه السّورة متمِّمة لما تقدَّم في سورة الشّورى، وتوجَزُ أوجهُ اتِّصالِهما فيما يأتي:

أوّلًا: تشابه مطلع الزُّخرف مع مطلع الشّورى وخاتمتها في وصف القرآن الكريم، وبيان مصدره: وهو الوحيُ الإلهيُّ.

ثانيًا: التَّشابه في إيراد الأدلَّة القاطعة على وجود الله ﷻ ووحدانيَّته، ووصفِ أحوال الآخرة ومخاوفها، وأهوالِ النّار الّتي يتعرَّض لها الكفّارُ، ومقارنته بنعيم الجنَّة وإعداده للمؤمنين المتَّقين.

ثالثًا: يعدُّ موضوعُ الوحي رابطًا بين السّورتَيْن، فسورةُ الزُّخرف هي امتدادٌ لما في سورة الشّورى وإتمامٌ لها.

﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزّخرف: 1 - 4]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

أتمُّ عادةٍ للقرآن الكريم اتِّصالُ خواتمِ سوَرِه ببَوادي تَواليها، وروائِحِها بِغواديها

خُتِمتِ السّورةُ السّابقة - الشّورى - بالحديث عن كتاب اللّه تعالى، وأنَّه روحٌ يُحيي دينَ مَن يؤمن به، ويعمل عليه، وأنَّه صراطُ اللّه المستقيم، الَّذي يدعو إليه الرَّسولُ ﷺ، ويوفِّقُ اللّهُ تعالى إلى الإيمان به من يُقبِل عليه، ثمَّ جاء مطلع سورة الزُّخرف متابعًا الحديثَ عن القرآن الكريم، ومقسِمًا أنَّ اللّه تعالى أنزله قرآنًا عربيًّا؛ ليَفْقَهَهُ العربُ، ويتأكَّدوا من كونه قرآنًا إلَهيًّا، فوقَ طاقةِ الرَّسول ﷺ.

وللبقاعيِّ كلامٌ نفيس في آخر سورة الشّورى، يقول فيه: "رجَع آخرُ السّورة على أوَّلها، وانعطف مَفْصِلُها على مَوصِلها، واتَّصل من حيث كونُه في الوحي الهادي في أوَّل الزُّخرف، على أتمِّ عادةٍ لهذا الكتابِ المنير، مِنِ اتِّصال الخواتم فيه بالبوادي، والرَّوائح بالغَوادي"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾: (بين) أصلٌ واحِدٌ، وهو بُعدُ الشَّيءِ وانكِشافُهُ، فالبَيْنُ الفِراقُ، يُقالُ: بانَ يَبينُ بَينًا وبَينونَةً، وبانَ الشَّيءُ، وأبانَ؛ إذا اتَّضَحَ، وانكَشَفَ، وفُلانٌ أبيَنُ مِن فُلانٍ، أي: أوضَحُ كَلامًا مِنهُ[2]، وقد جاءت كلُّ مفردات التَّراكيب القرآنيَّة لاشتقاقات مادَّة (بين) - عدا الظَّرف (بين) - بمعنى الوضوح والظُّهور، وبان الشَّيءُ: اتَّضَح؛ فهو بَيِّن، والبَيان: ما بُيِّن به الشَّيءُ من الدَّلالة وغيرها: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ﴾ [آل عمران: 118]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ [البقرة: 160] أي:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 375.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).

بَيَّنوا الَّذي جاءهم من اللّه، فلم يكتموه، والبيِّناتُ الَّتي أنزلها اللّهُ تعالى: ما بَيَّنَ من أمر نبوَّة محمَّد ﷺ ومَبْعثِه وصفته في الكتابين التَّوراة والإنجيل، ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: 87] هي ما أُظْهِر على يديه من الحُجَج والدَّلالة على نبوَّته[1]، ومعنى ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾: الواضح الظّاهر.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أصلُ القرآن الكريم في اللَّوح المحفوظ، الَّذي لا يبلغه أحدٌ، ولا تمتدُّ إليه يَدٌ

يُقْسِم الحقُّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالقرآن الكريم، ذي اللُّغة الفصيحة والبيان العالي، عمّا فيه من راقي المعاني - على أنَّه جَلَّ جَلَالُهُۥ أنزل الكتاب العزيز الواضح، المُرْشِدَ إلى طريق الحقِّ والسَّعادة باللُّغة العربيَّة البليغة، لغةِ المُنَزَل إليهم؛ ليَفهموا خصائصَه الفريدةَ، ومعانيَه السَّديدةَ، وأحكامَه الرَّشيدة، فإنَّهم بلغته أعرف، ولبيانه أفقه، وإنَّ هذا القرآن عند اللّه تعالى ذو مكانةٍ رفيعة، وشرفٍ كبير، وقدر عالٍ، وأحكام سديدة، وحِكَم حكيمة، وهو مُحْكَم لا ينسخُه غيرُه، بل هو باقٍ كتابَ حُكْمٍ وتشريعٍ، فأصلُه في اللَّوح المكنون المحفوظ؛ للإشارة إلى كمال الحفظ، وعظيمِ الرِّعاية، وتمامِ العناية به.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى (الواو) في: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾:

القَسَمُ بالكتاب المُبين يَدلُّ على أنَّ عنصر الإبانة فيه مِن أخصِّ صفاته

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ واوُ القَسَم؛ يُقْسِمُ جَلَّ جَلَالُهُۥ بالكتاب الَّذي مِن أخصِّ صفاته الإبانةُ عن معانيه وأحكامه وأخلاقِه، وفي هذا القَسَم دليلٌ على عظَمة هذا الكتاب، وأنَّه حقيقٌ بالإيمان به، والأخذِ بما فيه، فهو منهجُ حياةٍ عقيدةً وشريعةً، وقال بعضُ العلماء: إنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ معطوفٌ على ﴿حمٓ﴾ المُقْسَم به، وبين هَذين المتعاطِفَيْن اختلافٌ واتِّفاق، فهُما

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).

مختلفان؛ لأنَّ أحدَهما رمزٌ وإشارة، وهو ﴿حمٓ﴾، والآخرَ كلامٌ بَيِّنُ القصدِ واضحُ الدَّلالة، وهو (الكِتابِ المُبِينِ)، وهما متَّفقان؛ لأنَّ الخَفيَّ والجَلِيَّ - كلاهما من عند اللّٰه تعالى، ومن كلام اللّٰه ﷻ، قال: وممّا يُستأنس به في هذا المقام، أنَّه قد جاء بعد هذا القَسَم، نفيُ صفةِ الكهانة عن الرَّسول الكريم، وأنَّ ما يقوله من ألفاظ لا يفهمون دلالتها - كهذه الحروف المُقَطَّعة - ليس هو من قبيل كلام الكُهّان الَّذي يَجيء كلُّه رموزًا وطلاسمَ، وإنَّما هو قول رسول كريم، تلقّاهُ وحيًا مُنَزَّلًا من ربِّ العالَمين[1]، فـ "إن جُعِلَت ﴿حمٓ﴾ قَسَمًا؛ كانت الواوُ عاطفةً، وإن لم تُجعَل قَسَمًا؛ فالواو للقَسَم"[2]، وفي "القَسَم بالقرآن تنويهٌ بشأنه، وهو توكيدٌ لِما تضمَّنه جوابُ القَسَم؛ إذ ليس القَسَم هنا برافعٍ لتكذيب المُنكرين؛ إذ لا يُصَدِّقون بأنَّ المُقْسِم هو اللّٰهُ تعالى، فإنَّ المخاطَبَ بالقَسَم هم المنكِرون، بدليل قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾"[3].

بلاغةُ التَّناسب في القَسَم:

من العجيب في هذا القَسَم أنَّ المُقْسَم به والمُقْسَم عليه واحدٌ، فالقَسَم بـ (الكتاب المبين)، والمُقْسَم عليه كونُه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، أي: مبينًا؛ ممّا يُقرِّر بلوغَه في صفة الإبانة والإعرابِ غايةَ الغايات، وأنَّه النَّمطُ الفريد الَّذي لا يبلغ مستوى عربيَّتِه وإبانته كتابٌ آخَرُ على الإطلاق، وأنَّه بلغ في جانب الإبانة والإعراب ما جعله جديرًا بأن يُقْسِمَ الخالقُ العظيم سبحانه به عليه، فسبحانَ مَن هذا كلامُه! يقول الزَّمخشريُّ: "وهو من الأيمان الحَسَنَةِ البديعة؛ لِتَناسُبِ القَسَم والمُقْسَم عليه، وكونِهما من وادٍ واحد"[4]، قال ابن المُنَيِّر: "ووجهُ التَّناسُب فيه أنَّه أقسَمَ بالقرآن، وإنَّما

القـرآنُ الكريم هو النَّمط الَّذي لا يبلغ مستوى عربيَّتِه وإبانته كتابٌ آخر

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 103.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 626.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 159.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 236، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 96.

يُقسَم بعظيم، ثمَّ جعل المُقسَم عليه تعظيمَ القرآن بأنَّه قرآنٌ عربيٌّ، مَرْجوٌّ به أن يَعقِل به العالِمون، أي: يتعقَّلوا آياتِ اللّه تعالى، فكان جوابُ القَسَم مُصَحِّحًا للقَسَم"[1].

دلالة (ال) في: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾:

القرآنُ الكريم هو الجدير بأن يُقسِم اللّهُ تعالى به؛ وذلك لِما أودع فيه من أسرار

المقصودُ بالكتاب في جملة القَسَم: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ هو "القرآن، ومعناه: وربِّ الكتاب، أو: والكتابِ، وللّهِ ﷻ أن يُقسِم بما شاء، وإن لم يكن ذلك لغيره من خَلْقه"[2]، و(الـ) في ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ عهديَّةٌ، تَلْفِتُ الأذهانَ إلى القرآن الكريم المُدوَّن في المصاحف، فهو (الكتاب) الجدير بأن يُقسَم به؛ لأنَّه الَّذي: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فُصِّلت: 42]، وهو فقط من بين الكُتب السَّماويَّة الجديرُ بأن يُقسِم اللّهُ تعالى به، ممّا يُؤَكِّدُ تَفرُّدَه في خصائصه ومزاياه، وما أودع اللّهُ تعالى فيه من الأسرار، وقد قيل: "المراد بالكتاب الكتابةُ والخَطُّ، أقسمَ بالكتابة لِكثرة ما فيها من المنافع، فإنَّ العلوم إنَّما تكامَلَتْ بسبب الخطِّ؛ فإنَّ المُتقدِّم إذا استنبط علمًا، وأثبتَه في كتاب، وجاء المُتأخِّر، ووقفَ عليه؛ أمكنَه أن يزيد في استنباط الفوائد، فبهذا الطَّريق تكاثَرتِ الفوائدُ، وانتهت إلى الغايات العظيمة"[3].

نُكْتَةُ وصفِ الكتاب بـ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾:

القرآنُ الكريم باهِرٌ مُبْهِرٌ في كلِّ جوانبه، وأعظمُها فيه جانبُ الإبانة

ومعنى ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾: أنَّه "أبان طُرقَ الهُدى من طُرق الضَّلالة، وأبان ما تحتاج إليه الأُمَّة في أبواب الدّيانة"[4]، وأنَّه "بَيِّنُ الحروفِ، وبَيِّنُ الهدى والرَّشدِ والبَركةِ، واللّهُ تعالى قد بَيَّنَ فيه أحكامَه

(1) ابن المنيِّر، الانتصاف: 4/ 235.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 214.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 616.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 236.

وحلالَه وحرامَه، وفي هذا موضع القَسَم"[1]، في وصف (الكتاب) بـ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ إشاراتٌ جليلةٌ، منها: لفْتُ الكفّار من المُخاطَبين به - وهم أهل البلاغة - إلى ما ينفرد به القرآنُ الكريم من بيان، فهُم أدرى النّاسِ بما فيه؛ لتمام عربيَّتِهم وتأهُّلِهم للغَوص على دقائقه، فيعلمون بذلك دليلَ صِدقِ نسبتِه إلى اللّٰه تعالى، وحقًّا لقد بهرهم إلى درجة أنَّهم يعادون الرَّسولَ ﷺ نهارًا، ثمّ يَتَخفَّون ليلًا؛ ليستمعوه منه تحت جُنْحِ الظَّلام؛ لِما يجدون من لذَّةٍ ببيانه وجمالِ إعرابِه عن معانيه، ومن تلك الإشارات كذلك: أنَّ جانب الإبانةِ في (الكتاب) أبرزُ صفاتِه على الإطلاق.

أجل، إنَّ خصائصه كثيرة ومبهرةٌ لأهل التَّخصُّصات جميعًا، لكنَّ الإبانة فيه أعمُّ وأشملُ؛ بحيثُ لا تخلو منها آيةٌ ولا كلمةٌ من كلماته.

دلالة (ال) في: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾:

مع وجوب تعريف ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ نعتًا لـ (الكتاب)؛ لموافقة التَّعريف فيه، تُصرِّح (الـ) في ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ بتفرُّد هذا (الكتاب) من بين غيره من الكتب بميزة الإبانة بذلك المستوى الباهر، وأنَّ غيره من الكتب المتَّسِمة بِسِمة البيان؛ إذا قيست به؛ كانت إبانتُها كَلا إبانةٍ، وإذا قورنت إبانتُها بإبانته؛ طَمَسَها، وأطفأ نورَها، وهي في ذلك كالشَّمس بالنِّسبة لأنوار البشر؛ إذا طلعت، وجاء نورُ اللّٰه تعالى؛ جعل أنوارَهم ظلمات.

إذا قِيسَ كلُّ بيانٍ ببيان القرآن الكريم صار كأنَّه ظلمة

دلالةُ صَوغِ الوصف ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ اسم فاعل:

من اللّافت بقوَّةٍ في وصف ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ صَوْغُه اسمَ فاعل؛ إذ يُقرِّر أنَّ صفة البيانِ ميزةٌ لهذا (الكتاب)، ليست فقط من جهة أنَّه بيِّنٌ واضح جليُّ المعاني والأحكام وغيرِها، بل وإلى ذلك هو (مبين)، أي: كاشِفٌ عن أسرارٍ بعيدةِ الغور لِمَن تدبَّره، وكان أهلًا للغَوص

القرآن الكريم بيِّنٌ في نفسه، مُبينٌ لِحِكَمِه وأحكامه

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 214.

على تلك اللَّطائف والأسرار الدَّقيقة العميقة، وهذا عملُ أهل البيانِ مع القرآن بتوفيق الرَّحمن ﷻ، والقرآنُ الكريم إلى ذلك "مُبينٌ بين الحلال والحرام، وما يُؤتى، وما يُتَّقَى، مبين بين الحقِّ والباطل، مبين بأنَّه من اللّه تعالى، ليس هو من تأليف البشر، ولا من توليدهم، ولكنَّه من اللّه تعالى حيثُ عجزوا عن إتيان مثله"[1].

دلالةُ الجملةِ الاسميَّة في: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾:

كونُ القرآنِ الكريم مُبينًا حقيقةٌ ثابتةٌ دائمةٌ لا تتبدَّل

إيثارُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ دونَ الفعليَّة في جواب القَسَم، كما لو قيل: (والكتاب المبين لقد جعلناه قرآنًا عربيًّا) يُهيِّئُ لدخول (إنَّ)، ويجمع بينها وبين اسميَّة الجملة؛ فيُحقِّقان وكادَةَ الخبرِ، وثبوتَه ودوامه، وخُلوَّه من عنصر الزَّمان - الماثل في الفعليَّة - والزَّمان مارٌّ غيرُ قارٍّ[2] ولا مستقرٍّ.

موقعُ جملة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾:

البيانُ القرآنيُّ جدير بأن يكون قَسَمًا ومُقْسَمًا عليه معًا

جاءت جملةُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ جوابَ القَسَم السّابق عليها مباشرةً في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، وبها تتأكَّد جدارةُ البيانِ القرآنيِّ، بأن يكون قَسَمًا ومُقسَمًا عليه معًا.

معنى (إنَّ) في: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾:

تأكيدُ المقرَّر تقريعٌ للمُخاطَب وتُهمةٌ لعقله، وقد يكون تأكيدُه لخطورةِ في ذاته

(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ توكيديَّةٌ، ويبدو أنَّ غايتها ليست انتزاعَ شكٍّ وقَرَ في نفس المخاطَبين مِن كفّار قريش، وإنَّما جاءت لتقريعهم، ولَيِّ أعناقِ قلوبهم إلى تدبُّر البيان القرآنيِّ، وكأنَّها تقول لهم: أنتم لا تعرفون هذا البيانَ المُعْرِبَ عمّا تحتَه من كنوز، وكأنَّ عربيَّتكم ناقصةٌ، وذلك يؤلِمُهم حقًّا؛ لأنَّ البيان الأصيل أغلى ما يملكون، وله أقاموا الأسواقَ الأدبيَّةَ، وعقدوا المحاكمَ الشِّعريَّة، فهُم أولى النّاسِ بِفهم بيان (الكتاب المبين)،

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 145.
(2) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 187.

وعربيَّةِ هذا القرآنِ العربيِّ، فإذا أُكِّدَ لهم الإخبارُ بذلك؛ قَرَّعَهم، وعَرَّض بغبائهم، ومَن يفهم ذلك؛ إن لم يفهموه؟ وإلى ذلك أيضًا تقولُ: (إنَّ) بخطورة الخبر، وأهمِّيَّتِه في ذاته بغضِّ النَّظر عن وجود منكِر، وقد قالوا في دواعي التَّوكيد: "وقد يَكونُ التَّأكيدُ مِن جِهَةِ أنَّ القَضيَّةَ في نَفْسِها مِمّا يُهْتَمُّ به، وإن لَم يَكُن هُناكَ مُنْكِرٌ"(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بضمير العظَمة في: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ﴾:

العظيمُ يُبدِع العظيمَ؛ لذا جاء بيانُ الله تعالى عظيمًا

التَّعبيرُ بضمير العظَمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ يُلْمِحُ إلى عظَمة البيان القرآنيِّ، وعُلوِّ درجةِ إعرابه عن مقاصده ومعانيه وأحكامه؛ إذ إنَّ العظيم يُبدِع العظيم، فلا بُدَّ من أن يأتيَ كلامُ العظيم وبيانُه عظيمًا، عظَمةً تلائمُ عظمتَه، والقرآنُ كلامُ اللّٰه تعالى، وكلامُ اللّٰه تعالى يحمل صفاتِ قائلِه ﷻ، فكان "صَرْفُ القولِ إلى مَظهر العظَمة تشريفًا للكتاب ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ﴾، أي: صَيَّرناه، ووضعناه، وسمَّيْناه مطابقةً لحاله بالتَّعبير عن معانيه بما لنا من العظَمة"(2).

سرُّ إيثار التَّعبير بالجَعْل في: ﴿جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا﴾:

إنـزالُ القرآن الكريم عربيًّا مُبينًا أمرٌ مقصودٌ قَصْدُه

إذا كان المقصود بالجَعْل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾: أنزلناه، وسمَّيناه قرآنًا، ونَظَمْناه بالعربيَّة(3)، ففي إيثار التَّعبير بالجَعْل دونَ الإنزال أو التَّسمية تنبيهٌ إلى أنَّ خصيصة القُرآنيَّةِ المُعْرِبة المُبينة في (الكتاب المبين) مقصودٌ قَصْدُها، ودليلُ ذلك: خُلوُّ الكتبِ السَّماويَّة الأُخرى من تلك المِيزة؛ ذلك أنَّها كانت كُتُبَ عقائد وشرائع، ولا يُقصد بها التَّحدّي، بخلاف (الكتاب المبين) الَّذي كان ولا زال، وسيظلُّ عُمدةَ التَّحدّي للثَّقلَين جميعًا إلى يوم القيامة، في كلِّ جوانبه اللُّغويَّة والشَّرعيَّة وغيرهما مطلقًا.

---

(1) العسقلانيّ، فتح الباري: 1/ 74.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 378.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 145.

دلالةُ صيغة الماضي ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ في السّياق المحكم:

الخصائصُ التَّركيبيَّة في الذِّكر الحكيم تُقرِّر أنَّه غيرُ حادث ولا مخلوق

في صَوغ فعل الجَعْل ماضيًا في جملة: ﴿جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا﴾ إلماحٌ إلى قِدَم (الكتاب المبين)، وأنَّه غيرُ حادث ولا مخلوق؛ لأنَّه كلام اللّه تعالى، وكلامُ اللّه تعالى يحمل صفتَه ﷻ، وهكذا تفوح الخصائصُ التَّركيبيَّة بما يُقرِّر دقَّةَ التَّلاقي والتَّناغم بين معاني الدّين الحقِّ وأحكامِه، ويُؤكِّد أنَّه الدّين الحقُّ، وأنَّ كتابه المبين هو الكتابُ الخالد، معجزةٌ باهرة على صفحة الزَّمان وامتداد المكان.

معنى (لعلّ) في: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾:

غايةُ جَعْلِ القرآن (عربيًّا) تَحقُّقُ صفةِ العقلِ عند الكفّار

(لعلّ) في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ تعليليَّةٌ؛ إذ تدلُّ على أنَّ غاية جَعْل القرآن ﴿عَرَبِيًّا﴾ تَحقُّقُ صفةِ العقل عند المخاطَبين من الكفّار، قال أبو السُّعود: "﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ جوابٌ للقَسَم، لكن لا على أنَّ مرجعَ التَّأكيدِ جَعْلُه كذلكَ - كما قيلَ - بل ما هو غايتُه الَّتي يُعرِبُ عنها قولُه تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، فإنَّها المحتاجةُ إلى التَّحقيقِ والتَّأكيدِ؛ لكونِها مُنْبِئَةً عنِ الاعتناءِ بأمرهم، وإتمام النِّعمةِ عليهم، وإزاحةِ أعذارِهم، أي: جعلنا ذلكَ الكتابَ قُرآنًا عربيًّا؛ لكي تفهموه، وتحيطوا بما فيهِ من النَّظمِ الرّائقِ والمعنى الفائق، وتقفوا على ما يتضمَّنُه من الشَّواهدِ النّاطقةِ بخروجِه عن طَوقِ البشرِ، وتعرفوا حقَّ النِّعمةِ في ذلك، وتنقطعَ أعذارُكم بالكلِّيَّةِ"[1].

و(لعلَّ) في الأصل حرفُ رجاء، وفي كلام اللّه تعالى حرفُ تَرْجِيَة، وقد أوثِر هنا على حرف التَّعليل (اللّام)؛ لِبَثِّ روح الرَّجاء في المخاطَبين أن يبلغوا درجةَ العقل، فينتفعوا بعربيَّة القرآن الكريم، وبِبيانه وفصاحته في الاستدلال على صِدق محمَّد ﷺ في نسبته القرآنَ الكريم إلى مصدره الحقِّ، وأنَّه كلام اللّه تعالى، والمعنى:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 39.

﴿جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾؛ "رجاءَ أن تعقِلوا، أو لِتعقلوا، وذلك يرجع إلى قوم مخصوصين قد عقلوه، وفهموه؛ إذ لم يعقلوه جميعًا، ولا يُتَصَوَّرُ أن يُنزلَه؛ ليعقلوه، ولا يعقلوه، فإنَّ ما أراد اللّه تعالى يكون لا محالةَ، وما فَعَّل ينفعل، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النّحل: 40]، أو: لكي يَلزمَهم أن يعقلوه، ويتَّبعوه؛ ليزولَ عُذرُهم، والاحتجاجُ على اللّه تعالى أنَّه كان على غير لساننا، وعلى هذا يخرج تأويل (لعل) في جميع القرآن أنَّه للتَّحقيق؛ إذا كان من اللّه تعالى، فَإن قيلَ: فعلى التَّأويل الأخير، كيف يخرج قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٨٩﴾ [البقرة: 189]، لا يستقيم أن يقال: لكي يلزمَكم أن تفلحوا؟ قيل: معناه: لكي يلزمَكم السَّببَ الَّذي به تُفلحون، وهو مباشَرةُ الإيمان والطّاعات، واللّه أعلم"[1].

مرجعُ ضمير الخطاب في: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

مَن أعمل عقلَهُ في تدبُّر الكتاب المبين بمنأى عن الهوى؛ وصَل، وإلّا خُذِل

المخاطَبون في جملة: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هم العربُ، ثمَّ مَن وراءَهم من النّاس إلى يوم القيامة، فمِنهم من عقَل، وفَقِه، وآمَن، وهؤلاء المؤمنون الموفَّقون، ومنهم مَن عقَل، وحَقَد، وصَدَّ، وهؤلاء محجوبونَ بالجُحود، ومنهم من لم يعقل، ولم يفهم، وهؤلاء محجوبون بأسبابهم، وكلُّ مَن بلغتهم الدَّعوةُ مِن هؤلاء وهؤلاء كافرون مخذولون مُؤاخذون، فتأتي جملة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مُقَرِّعَةً لهم، حاضَّةً على أن يُعمِلوا عقولَهم، ويستثمروا تفكيرَهم في سبيل الوقوف على الحقائق الباهرة في (الكتاب المبين)، فمن أعمل عقلَه في تدبُّر (الكتاب المبين) بمنأى عن الهوى؛ وصل، وإلّا خُذِل.

دلالةُ التَّعبير بالعقل في: ﴿تَعْقِلُونَ﴾:

في التَّعبير بالعقل في جملة: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ دليلٌ على "أنَّ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 145.

العقل هو الوسيلة الَّتي يُتَوَسَّلُ بها إلى الإفادة من القرآن، وأنَّ مَن يجيء إليه مُتخلّيًا عن عقله، غيرَ متدبِّرٍ لآياته، لا يَنال مِن خيره شيئًا"[1]، ويقول الرّازيُّ: "قوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ القرآنَ معلوم، وليس فيه شيء مبهمٌ مجهول، خلافًا لمن يقول: بعضُه معلوم، وبعضُه مجهول"[2].

العـقـلُ هـو الوسيلة التي يُـتَـوَسَّـلُ بها إلى الإفـادة من القرآن

نُكْتَةُ المضارعة في: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

المضارعة في الفعل ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ تدعو إلى استثمار نِعمة العقل في كلِّ وقت وحين، وإلى تحريك العقل وتجديد الفكرِ، وعدم إهمال أنواره أبدًا، فإنَّ إحياء التَّفكير بالعقل وتنشيطَ التَّدبُّر في القرآنَ الكريم المبين المعرِب عن كنوزه يُثمر التَّقوى، ويغذّي البصيرةَ، وينتج الفِكْرَ الرَّصين، ويوصِلُ إلى الاستدلال على صِدق نسبته إلى الحقِّ جَلَّ وَعَلَا.

إعـمـالُ العقلِ في الـقـرآن الـكـريـم يُـثـمِـر التَّقوى، ويَغذو البصيرة، ويُنتجُ الفِكْرَ الرَّصين

لطيفةُ حذفِ المفعول في: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

جاء الفعل ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ غير مقيَّدٍ بِمعمول مخصوص، وذلك يحتمل كونه لازمًا، والمعنى: لعلَّ نعمة العقل تحصُل لكم، ولعلَّ عقولَكم تكتمل، وتزدهر ببيان (الكتاب المبين).

ويحتمل كونه متعدّيًا إلى مفعولٍ محذوف، تقديرُه: لعلَّكم تعقلون ما في القرآن العربيِّ المبين من الحَقِّ والهُدَى والصَّواب، ممّا يدعوكم إليه رسولُنا ﷺ، وتعقلون ما فيه صلاحُكم وفلاحُكم، فتعتنقوه؛ فَنُمِدُّكُم بالتَّوفيق والتَّسديد والإنجاح.

النَّظرُ في الكتاب المـبـين يُـكـمِّـل نـعـمـةَ العقل لأصـحـابـه، ويـوقـفُـهـم على باهر أسراره

بلاغةُ التَّعريض في: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾:

في قول اللّه تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ تعريضٌ بالكفّار، وبإهمالهم نعمةَ العقلِ الَّتي منحهم اللّهُ تعالى إيّاها، وأنَّهم

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 105.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 617.

"بمكابرتهم كانوا كمن لا يعقلون"[1]، فيهبطون عن رُتبة الإنسانيَّة الَّتي كَرَّمَهم اللّهُ تعالى بها، ويَبوؤون لذلك بإثم تعطيل نعمةِ العقل الكبيرة، كذلك في جملة: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تحذيرٌ كِنائيٌّ بأنَّهم إن لم يَعقلوا الحقيقةَ من هذا الكتاب العربيِّ المبين؛ فلن يعقلوها أبدًا، فإنَّه سبيل إدراكها.

من أهمل نعمةَ العقل كمَن حُرِمَها أصلًا، ويبقى عليه إثمُ تعطيلها

معنى (الواو) في: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ "عطفٌ على جملة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، فهو زيادةٌ في الثَّناء على هذا الكتاب ثناءً ثانيًا؛ للتَّنويه بشأنه رفعةً وإرشادًا"[2]، فجملة: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ "داخلةٌ تحت معنى القَسَم، أو مستأنَفَةٌ مقرِّرة لِما قبلها"[3].

زيادةُ الثَّناء على هذا الكتاب؛ للتَّنويه بشأنه رفعةً وإرشادًا

دلالةُ (إنَّ) في: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

(إنّ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ﴾ توكيديَّةٌ، اقتضاها شكُّهم في سماويَّةِ القرآن الكريم، ولعلَّ شكَّهم في هذا زهَّدهم في تدبُّره والوقوفِ على دلائل صِدقه؛ فجاءت (إنَّ) لإزالة ذلك الشَّكِّ، ورفعِ الحُجُب عن أبصارهم؛ حتّى يُنعِموا النَّظرَ في (الكتاب المبين)، وما دام مُبينًا فجدوى النَّظر فيه قريبةٌ محقَّقَةٌ إن شاء اللّه تعالى.

جدوى النَّظر في الكتاب المبين قريبة محقَّقة إن شاء الله تعالى

مرجعُ ضمير الغائب المنصوب في: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾:

ضميرُ الغائب المنصوب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعود إلى القرآن الكريم السّابقِ ذِكْرُه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، أو إلى ما يكون مِن الخَلْق من طاعةٍ ومعصية، وإيمانٍ أو كفر[4]، فهذا وذلك مدوَّنٌ عند اللّه تعالى، لا تمتدُّ إليه يدٌ، فيُزاد في أيٍّ منهما، أو يُنقَص.

كلٌّ مِن القرآن الكريم وأعمالِ العِباد محفوظٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 159.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 162.
(3) القِنّوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 12/ 328.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 215.

معنى ﴿فِيٓ﴾ في قوله: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾:

الظَّرفيَّةُ تُقرِّر حفظَ القرآن من كلِّ تغيير أو تبديل

﴿فِيٓ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ ظرفيَّةٌ، تُقَرِّر انتماءَ القرآن الكريم إلى ﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: اللَّوح المحفوظ، وأنَّ القرآن الكريم مكنونٌ محفوظ؛ لا يمكن لأحد أن يَزيد فيه، أو يُنقص منه؛ اتِّساقًا مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9].

نُكْتَةُ التَّقييد بـ: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا﴾:

القرآنُ جامعٌ لأحوال المُحْدَثات، فكأنَّه المشتملُ على جميع ما يقع

جاء التَّقييد بالقيدين: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا﴾ دحضًا لزعم المشركين أنَّ (الكتاب المبين) مِن اختلاق الرَّسول ﷺ، فيقول لهم: "إن كذَّبتُم به يا أهلَ مكَّة، فإنَّه عندنا شريفٌ رفيعُ القَدْرِ، مُحْكَمُ النَّظم، في أعلى طبقات البلاغة ودرجات الفصاحة، لا يوجَد فيه اختلافٌ ولا تناقض"[1]، وإنَّه "عندنا في مكان قُدسيٍّ، مُحاطٌ بكمال التَّقدير والتَّعظيم والحفظ، كما أنَّه رفيعُ الشَّأن، جليلُ القَدْر، تسمو منزلتُه بين سائر الكتب المُنَزَّلة؛ لإعجازه واشتماله على عظيم الأسرار، ومُحْكَم التَّشريعات، وجميلِ السَّجايا، وكريم الشَّمائل والأخلاق"[2]، "وإنَّما خَصَّه اللهُ تعالى بهذا التَّشريف؛ لكونه كتابًا جامعًا لأحوال جميع المُحْدَثات، فكأنَّه الكتابُ المشتمِلُ على جميع ما يقع في مُلك الله ومَلكوته، فلا جَرَمَ حصل له هذا التَّشريف"[3].

حكمةُ تقديم: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا﴾ على الخبر:

للقرآن مصدرٌ مُقدَّس عند الله تعالى نُسخ منه، فلا يمكن العبثُ فيه

قُدِّم القيدانِ بالجارِّ والمجرور والظَّرف ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا﴾ على الخبر ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾؛ لأهمِّيَّتِهما في هذا السِّياق؛ إذِ التَّقديمُ ينتزع الشَّكَّ، ويُطَمئِن المخاطَبين إلى صِحَّة نسبةِ (الكتاب المبين)

---

(1) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 12/ 328.

(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 784.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 618.

إلى مصدره العُلْوِيِّ، وأنَّه كتابٌ مكنون مصون في أُمِّ الكتاب عند اللّه تعالى، وتقديمُ القيدَين في ذلك "يفيد بادئَ بَدْءٍ أنَّ عُلوَّه وحِكْمَتَه ثابتةٌ في الأُمِّ، وأنَّ الأُمَّ في غايةِ الغرابة عنده ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: كائنًا في أصلِ كلِّ كتابِ سماويٍّ، وهو اللَّوح المحفوظ، وزاد في شرفه بالتَّعبير بـ (لدى)، الَّتي هي لخاصِّ الخاصِّ، وأغربِ المستغرَب، و(نون العظَمة)، فقال مُرَتِّبًا للظَّرف على الجارِّ؛ ليُفيدَ أنَّ أُمَّ الكتابِ من أغرب الغريب الَّذي عنده، ﴿لَدَيۡنَا﴾"[1].

لطيفةُ الإضافة إلى ضمير العظَمة في: ﴿لَدَيۡنَا﴾:

الإضـافـةُ إلى ضمير العظَمة يُـبـيِّن مقتضى حالِ المخاطَبين

من أعظم أسباب الوثوق في عُلوِّ قدرِ (الكتاب المبين) أن يَعرف المخاطَب أنَّ (الكتاب المبين) محفوظٌ عند الحفيظ ﷻ، وقد كانت مشكلةُ قريشٍ إنكارَ كونِه من عند اللّه تعالى، ولم تكن مشكلتُهم الإلحادَ وإنكارَ الإلهِ مِن أصله، وقد كانوا يقولون عن الأصنام: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزّمر: 3]؛ لذلك كانَتْ إضافةُ اللَّدُنِّيَّة إلى ضمير العظَمة في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا﴾ مطلبًا ضروريًّا يَفي بمتطلَّبات مقتضى الحال، فإن لم يؤمنوا؛ فخسرانُهم عليهم، و"لا يضيره تكذيبُ المُكَذِّبين، ولا طعنُ الطّاعنين"[2].

بلاغةُ الاستعارة، وما وراءَها من كناية في: ﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

على النّـاس أن يـوَقِّـروا القـرآنَ الكريم توقيرَهم لأُمَّهاتِهم

﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هو "اللَّوح المحفوظ، وهذا فيه تشريفٌ للقرآن وترفيع"[3]، كما قال: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ [البروج: 22]، وهو الكتاب الَّذي كتبَ اللّهُ فيه مقاديرَ الخَلْق قبلَ أن يخلقَهم، ولا يعلم حقيقتَه إلّا اللّه، وأُمُّ الشَّيء: أصلُه، ومنه يُقال لمكَّة: أُمُّ القُرى؛ لأنَّها أصل البلاد[4]، "أو أنَّ القرآن في الكُتُب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 380.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 60.
(3) ابن عطيّة، التّحرير والتّنوير: 9/ 358.
(4) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 1/ 31.

المتقدِّمة، فإنَّ الأُمَّهات سُمِّيت أُمَّهات؛ لتَقَدُّمها على الولد، وهو كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشّعراء: 196]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى: 18 - 19]"[1]، وعلى ذلك: ففي ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة؛ إذ استُعير لفظُ الأُمِّ للأصل، وهذه الاستعارة تُحَقِّقُ المبالغةَ في تأكيد أصالة الكتاب الكريم في انتمائه إلى العِلْم الإلهيِّ الأزليِّ، ووراءَ ذلك دلالاتٌ كنائيَّةٌ لُزوميَّةٌ، منها: وجوبُ الاحتفاء بـ (الكتاب المبين)، وتوقيره وتبجيله، احتفاءَ الأبناء بأُمِّهم وتوقيرِهم وتبجيلِهم إيّاها.

براعةُ الكناية في مفردة الكتابة:

في حفظ المكتوب بالكتابة ضمانٌ لسلامته من التَّغيير والتَّبديل

مفردةُ الكتابة في قوله تعالى: ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ "بمعنى المكتوب، أي: المُحَقَّق الموَثَّق، وهذا كنايةٌ عن الحقِّ الَّذي لا يَقبل التَّغيير؛ لأنَّهم كانوا إذا أرادوا أن يُحقِّقوا عهدًا على طول مُدَّةٍ كتبوه في صحيفة[2].

وذلك يدلُّ دلالةً قاطعة على أنَّ في الكتابة ضمانًا لسلامة المكتوب من التَّغيير والتَّبديل؛ وذلك يدلُّ على أنَّ (الكتاب المبين) سالمٌ من التَّبديل والتَّغيير، والزِّيادة والنُّقصان، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]، وأصل الكَتْبِ: ضَمُّ أديمٍ إلى أديم بالخياطة، وحُمِلَ عليه ضَمُّ الحروفِ بعضِها إلى بعضٍ بالخطِّ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضُها إلى بعض باللَّفظ، فالأصلُ في الكِتابَةِ: النَّظمُ بالخَطِّ، لكن يُستعارُ كلُّ واحد للآخر، ولهذا سُمِّي كلامُ الله - وإن لم يُكْتَبْ - كِتابًا كقوله: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 1 - 2]، وقوله: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: 30]، ويُعبَّر عن الإثبات والتَّقدير والإيجاب والفَرْضِ والعَزْم بالكِتابَةِ، ووجهُ ذلك: أنَّ الشَّيء يُراد، ثمَّ يقال، ثمَّ يُكْتَبُ، فالإرادة مبدأ، والكِتابَةُ منتهى،

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 146.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 160.

ثمَّ يُعبَّر عن المراد الَّذي هو المبدأ؛ إذا أُرِيدَ توكيدُه بالكتابة، الَّتي هي المنتهى، قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21][1].

دلالةُ تلاحق المُؤَكِّدات:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ عامِرٌ بعناصر التَّأكيد، من (إنّ)، و(اللّام)، واسميَّة الجملة، وتتمثَّل مقتضيات هذا الحشد من المُؤكِّدات بالنِّسبة للمؤمنين في دعم معاني الاحتفاء والاحتفال في نفوسهم بعظَمة الخبرِ المُؤكَّد (عليٌّ حكيم)، أي: إنَّه خبر في ذاته جديرٌ بألّا يُساق غفلًا، ومَثَلُ (الكتاب المبين) في وجوب توقيره مَثَلُ الرَّئيس أو الأمير الَّذي ينبغي إضفاءُ هيبةِ السُّلطان عليه، فلا يتجوَّل وحدَه، وإن كان بين أحبابه، ولا يُخشى منهم عليه شَرًّا، ولا يدخلُ على المحافِل مُفردًا بلا تشريفة، وقد سبق عن ابن حجر أنَّه قال: "وقد يكون التَّأكيد مِن جهة أنَّ القضيَّة في نفسها ممّا يهتمُّ به، وإن لم يكن هناك منكِرٌ"[2].

توقيرُ القرآن الكريم حتمٌ لا تهاوُنَ فيه

وتتمثَّلُ مقتضياتُ هذا الحشد من المُؤكِّدات بالنِّسبة للكافرين في أنَّهم "كانوا ينكرون تعظيمه عنادًا، وإن كانوا يُقرّون بذلك في بعض الأوقات، قال مؤكِّدًا لذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، وتنبيهًا على أنَّه أهلٌ لأن يُقسَم به، ويُزادَ في تعظيمه؛ لأنَّه لا كلامَ يُشبِهُه، بل ولا يدانيه بوجه"[3].

لطيفةُ الجمع بين ﴿لَعَلِيٌّ﴾، و﴿حَكِيمٌ﴾:

في الجمع بين صفتَي العُلوِّ والحِكمة في قوله تعالى: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ دقيقُ الدَّلالة؛ إذ لمّا كان العَلِيُّ قد لا تَصحبُه في عُلوِّه حِكمةٌ - فلا يثبت له عُلوُّه، فيتهوَّر بنيانُه - قال: ﴿حَكِيمٌ﴾، أي: بليغٌ في

مِن المعاني القرآنيَّة ما لا يبلغُها أنبلُ النُّبلاء، إلّا بتفهيم العليِّ الكبير سبحانه

(1) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(2) العسقلانيّ، فتح الباري: 1/ 74.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 380.

كلٍّ مِن هاتين الصِّفتَين، راسخٌ فيهما رسوخًا لا يُدانيه فيه كتاب، فلا يُعارَض في (علِيّ) لفظُه، ولا يُبارى في ﴿حَكِيمٌ﴾ معناه، ويعْلو، ولا يُعْلَى عليه بِنسخ ولا غيره، بل هناك مكتوبٌ بأحرفٍ وعبارات فائقةٍ رائقة، تعلو عن فَهْمِ أعقل العقلاء، ولا يمكن بوجه أن يبلغها أنبلُ النُّبلاء، إلّا بتفهيم العَلِيِّ الكبير، الَّذي هو على كلِّ شيء قدير[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 381.

﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ٥﴾

[الزّخرف: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

القرآنُ الكريم ذِكرٌ وشرف لِمَن آمن به، وتقرَّب إليه

في الآيات السّابقة أقسم اللّهُ تعالى بـ (الكتاب المبين) على أنَّه أنزلَه قرآنًا عربيًّا، وأنَّ القرآن الكريم مُدوَّنٌ لديه ﷻ في اللَّوح المحفوظ، وأنَّه عالي القَدْرِ ذو منزلة شريفة، معمورٌ بالحِكمة، ثمَّ انتقل النَّظمُ الكريم هنا إلى تهديد كفّار قريشٍ بِصَرْفه هذا الذِّكرَ العليَّ الحكيم عنهم؛ إذ لم ينتفعوا ببيانه وحِكمته، ولأنَّهم أسرفوا على أنفسهم في الكفر والعناد، وتجاوزوا الحَدَّ في معاداته، برغم أنَّه (ذِكر) لهم وشرفٌ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَنَضۡرِبُ﴾: (ضرب) أصلُ الضَّربِ: إيقاعُ شيءٍ على شيء، كَضَرْبِ الشَّيءِ باليد، والعصا، والسَّيف، ونحوها، قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾ [الأنفال: 12]، ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمّد: 4]، وضَرْبُ الأرضِ بالمطر، وضَرْبُ الدَّراهم؛ اعتبارًا بِضَرْبِ المِطرقة، وقيل له: الطَّبع، اعتبارًا بتأثير السِّمَة فيه[1]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾، أي: أَنَتْرُك إنذارَكُم إعراضًا، ونهملُكم، فلا نعرِّفُكم ما يجب عليكم؟[2].

2) ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾: (ذكر) الذِّكر، بالكَسرِ لَهُ مَعنيان: التَّلَفُّظ بالشَّيء، وإحضارُه في الذِّهْن، بِحَيْثُ لا يغيب عنهُ، وهو ضِدُّ النِّسيان، والذُّكر بالضَّمِّ: للمعنى الثّاني لا غير، وإذا أُريد بِالذِّكر الحاصِلُ بِالمَصْدَرِ

(1) الرّاغب، المفردات: (ضرب).
(2) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضرب).

يُجْمَع على (أذكار)، وهو الإتيان بألفاظٍ وردَ التَّرغيبُ فيها، ويُطلَق، ويُراد به المواظبَةُ على العمل بما أوجبَه، أو ندبَ إلَيه، كالتِّلاوة وقِراءَةِ الأحاديث ودرسِ العِلْم، والنَّفْلِ بالصَّلاةِ، والذِّكْر: التَّلفُّظُ بالشَّيء وإحضارُه في الذِّهن بحيثُ لا يغيب عنه، ويُطلق على الصِّيت والثَّناء[1]، والذِّكر هنا القرآنُ الكريم، لوحظ فيه معنى عدم نسيانه، بل إدامةُ الحفظِ فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: 50]، وقولُه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: 8]، أي: القرآن[2]، فمَعْنى ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾: أفَنُنَحّي عنكم الذِّكرَ والقرآنَ، ونُبْعِدُه عنكم، ونُمسكُ عن إنزاله لكم؟

3) ﴿صَفْحًا﴾: (صفح) صَفْحُ الشَّيءِ: عَرْضُه وجانبُه، كَصَفْحَةِ الوجه، وصَفْحَةِ السَّيفِ، وصَفْحَةِ الحَجَرِ، والصَّفْحُ: تَرْكُ التَّثريب، وهو أبلغُ من العفو، ولذلك قال: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: 109]، وقد يعفو الإنسانُ، ولا يَصْفَحُ، قال: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزّخرف: 89][3]، فمَعْنى ﴿صَفْحًا﴾: من صَفَح عَن فلان، أي: أعرض عَنهُ موَلّيًا[4]، أي: إعراضًا عنكم، أو هو حال من فاعل نضرب، أي: نضرب عنكم الذِّكر صافحين، أي: مُعْرِضين عنكم[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

حِكمةُ الله تعالى ورحمتُه تقتضيان الحِلمَ بالمُخطئين والصَّبر عليهم

أَنُخَلِّيكُم إلى كُفركم وجُحودكم، فنَصْرِفُ عنكم نُصْحَنا ودعوتنا؟ ونُمسكُ عنكم إنزالَ القرآنِ الكريم عليكم بسبب عنادكم وعداوتكم للحقِّ، ومغالاتِكم في كُرهِهِ والكيدِ له؟ لا، لن نتركَ تذكيرَكُم ودعوتَكم إلى الهُدى، فمِن حِكمتنا ورحمتنا بالمُخْطئين

(1) أبو البقاء، الكلّيّات، ص: 456.
(2) الرّاغب، المفردات: (ذكر).
(3) الرّاغب، المفردات: (صفح).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صفح).
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 192.

أن نتعهَّدَهم بالتَّذكير والنُّصح والمعالجة، فـ "ننزِّلَ عليكم الكتابَ، ونوضِّحَ لكم فيه كلَّ شيء، فإن آمنتُم به، واهتديتم؛ فهو من توفيقكم، وإلّا قامت عليكم الحُجَّة، وكنتم على بيِّنةٍ من أمركم"[1]، لكنّا لسَعة رحمتِنا لا نفعل ذلك، بل نَهْديكم إلى الحقِّ بإرسال الرَّسول الأمين ﷺ، الَّذي هو ذِكْرٌ، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝١٠ رَّسُولٗا﴾ [الطّلاق: 10 - 11]، وبإنزال الكتاب المبين؛ حتّى آمن أغلبُهم، وعانق القرآنَ الكريم والدّينَ الحقَّ، وعاش به وله، ومات عليه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الهمزةِ في: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ﴾:

تكذيبُ المُكذِّبين لا يَمنع من دعوتهم، وإصرارُهم عليه يوجِب عقوبتَهم

(الهمزة) في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾؛ للاستفهام الإنكاريِّ التَّهديديِّ؛ إذ لا يستفْهِم اللّٰهُ تعالى استفهامًا حقيقيًّا، بل يُنكِر عليهم ما هم عليه من الإسراف؛ إذ يقول تعالى بعده: ﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾، فإسرافُهم في الكفر ومجاوزتُهم حدودَ الحقِّ الَّذي يدعوهم إليه الرَّسولُ ﷺ منَ التَّوحيد والإيمان، جديرٌ بتنفيذ هذا التَّهديدِ ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾، ونُهْمِلُكم ونُخليكُم إلى الضّياع.

و"إن كان ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ هو القرآن أو الرَّسولُ؛ فالتَّأويل: أنَّه وإن عُلِمَ منكم الرَّدُّ والتَّكذيبُ، فلا يمنعُه ذلك عن إنزاله عليكم، وبَعْثِه رسولًا إليكم وإن أنكرتم، وإن كذَّبتُموه، وردَدتموه؛ فلا يحمله ذلك على رفعه من بينكم بشرككم وكفركم.

وإن كان ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ هو العذاب، فيصير كأنَّه يقول: أفنَترُكُ تعذيبَكم، أو نمسكُ عنه، ولا نعاقبُكم، وأنتم قومٌ مسرفون؟ أي: مشركون"[2].

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 762.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 148.

دلالةُ (الفاء) في: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾:

اللهُ تعالى لا يُهمِل عبادَه، فمن آثَرَ الكفرَ على الإيمان؛ كان جُرْمُه وجنايتُه

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ عاطفة، وهي "للعطف على محذوف، تقديرُه: أنُهْمِلُكم، فنضربُ عنكم الذِّكرَ؟ إنكارًا لأن يكون الأمرُ على خلاف ما قُدِّم من إنزاله الكتاب"[1]، وفي هذه (الفاء) "بيانُ أنَّ ما قبلها - وهو جَعْلُ القرآنِ عربيًّا - سببٌ لِما بعدها، وهو إنكارُ أن يَضرب سبحانه الذِّكرَ عنهم صَفْحًا، أي: إعراضًا"[2]، ففي (الفاء) "تفريعُ الاستفهام الإنكاريِّ على جملة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: أتحسبون أنَّ إعراضَكم عمّا نُزِّل من هذا الكتاب يَبعثُنا على أن نَقطع عنكم تَجَدُّد التَّذكير بإنزالِ شيءٍ آخَرَ من القرآن؟"[3]، وفي حذف المعطوف عليه (نهملُكم) إشارةٌ لطيفة، وهي أنَّ اللّه تعالى لا يُهْمِل عبادَه، وأنَّ الكفر والضَّلال الَّذي يُؤْثِرونه على الإيمان والهُدى، ثمَّ يموتون عليه، إنَّما هو جريمتُهم هم.

معنى الضَّربِ في الفعل ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾، وبلاغةُ التَّضمين فيه:

الدَّلالةُ على الله نِعمةٌ كبرى

المقصود بالضَّرب في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ الإعراضُ عنهم، وإهمالُ شأنِهم، وتخليتُهم إلى الضّياع في مَهامِه الكفر والضَّلال؛ إذ إنَّ دعوتهم إلى الحقِّ، ودلالتَهم عليه دلالةَ إرشادٍ وتوجيهٍ نعمةٌ كبرى، وتخليتَهم إلى أنفسهم خِذْلانٌ كبيرٌ، فمن جاءته الدَّعوة، فاستقبلها باستبشار؛ أعانه اللّهُ تعالى، وأمَدَّه بهداية التَّوفيق والتَّسديد، ففي التَّعبير بالضَّرْب إذًا تضمينُ معنى الإمساك، والصَّرف، والإعراض، والذَّهاب؛ والدّالُّ على ذلك التَّضمين تعديةُ فعلِ الضَّرب بـ (عن)، الَّتي تتعدّى بها تلك الأفعالُ، والمعنى: "أفنُعْرِضُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 237.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 65.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 163.

عنكم، ونترُكُكم أيُّها المشركون فيما تحسبون، فلا نُذكِّرُكم بِعِقابنا من أجل أنَّكم قومٌ مشركون؟"[1]، أو "أفنذهبُ عنكم بهذا القرآن سُدًى، لا تسألون، ولا تُعاقَبون على تكذيبكم إيّاه، وقالَ بَعضُهُم: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ﴾، أي: فيُمْسِكُ عنكم، فلا يُذَكِّرُكم"[2].

لطيفةُ إسناد الضَّرب إلى ضمير العظَمة في: ﴿أَفَنَضۡرِبُ﴾:

عقوبةُ العظيم -إذا عاقَب- عظيمةٌ، كما أنَّ كرمَه -إذا أكرم- عظيمٌ

في إسناد فعل الضَّرب إلى ضمير العظَمة في جملة: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ دَعْمٌ للتَّهديد، وتقويةٌ للزَّجر، وترشيحٌ للتَّخويف؛ إذ إنَّ ضَرْب الذِّكر عنهم صفحًا سيكون من العظيم ﷻ، ممّا يقطع بخطورة الأمرِ، وشِدَّة العقوبة على هؤلاء الكافرين، فعقوبةُ العظيم - إذا عاقب - عظيمةٌ، كما أنَّ كرمَه - إذا أكرم - عظيم.

جمالُ الاستعارةِ التَّمثيليّة في: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ﴾:

أهلُ العِناد من الكفّار كالإبل الشّاردة، الَّتي تستحقُّ التَّأديبَ ولَيَّ أعناقِها

الضَّرب في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ "مستعارٌ لمعنى القَطع والصَّرف؛ أخْذًا من قولهم: ضَرْبَ الغرائبِ عن الحوض، أي: طردَها وصَرْفَها؛ لأنَّها ليست لأهل الماء، فاستعاروا الضَّربَ للصَّرف والطَّرد"[3]، وهي استعارةٌ تمثيليَّة؛ إذ "شَبَّه حالةَ هذه التَّنحيةِ بحالة ذَوْدِ غرائبِ الإبل عن الحوض، وبولَغَ فيه، ثمَّ استُعمل هنا ما كان مستعملًا هناك، قال الميدانيُّ: "ضربَه ضَرْبَ غرائبِ الإبل، ويُروى: أضْرِبُهُ ضَربَ غريبةِ الإبل، وذلك أنَّ الغريبة تزدحمُ على الحياض عند الوِرْد، وصاحبُ الحِياض يَطردُها، ويَضْرِبُها بسبب إبلِه، ومنه قول الحَجّاج في خُطبته يُهدِّد أهلَ العِراق: واللّه، لأضربنَّكم ضَرْبَ غرائبِ الإبِلِ، يُضْرَبُ في دفع الظّالم عن ظُلمهِ بأشدِّ ما يُمكن"[4].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 548.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 147.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 163.

(4) الميدانيّ، مجمع الأمثال: 1/ 419، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 99.

بلاغةُ التَّعريض بالمعاقبة في: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ﴾:

التَّعريضُ في مقام التَّحذير بيانٌ هامس، والتَّصريحُ مثيرٌ مُستفِزٌّ

إنَّ ضَرْبَ ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ صفحًا عن الكافرين في حَدِّ ذاته لا يُمثِّل كبيرَ تهديد، ولا مزيدَ تخويفٍ، لولا ما وراءَه من التَّعريض بالمعاقبة، وإن كان إعراضُ اللّه تعالى عن الإنسان وإهمالُ شأنِه كبيرَ خطرٍ عند من يعرف حَقَّه تعالى، لكنَّ هؤلاء المنكرين لا يعرفون له حَقًّا، وبناء على ذلك كان التَّلويح بالمعاقبة الكافية وراءَ هذا الأسلوب، وهو المقصود من السُّؤال، ففيه تعريضٌ هامِسٌ، لا تصريحٌ مستفِزٌّ يستثير غضبَهم وكبرياءَهم.

بلاغةُ الكناية في التَّعبير بالضَّرب صَفحًا:

القرآنُ الكريم يريد العُتبى ممَّن أغضبه، وينتظر مصالحتَه

من لوازم الضَّرْبِ في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ معنى المغاضبة؛ إذ إنَّ المُغاضِبَ "يريد العُتبى ممَّن أغضبَه، وينتظر مصالحتَه! وقد صالح العربُ القرآنَ، وأعتبوه، وأدَّبوا المتطاولِينَ عليه، وقَتَلوا مِن أجل ذلك أبناءَهم، وآباءَهم، وإخوانَهم، وباعوا أنفسَهم بيعَ السَّماحِ للّه تعالى، في سبيل نُصْرَة دين اللّه ﷻ الَّذي جاء به، وفي الاستفهام بقوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ إنذارٌ وتنبيهٌ، يُشْعِر بالحِرْص على هداية هؤلاء المشركين، مع أنَّ إسرافَهم في الضَّلال والعِناد، كان يَقضي بأن يُصْرَفَ القرآنُ عنهم، من غير إنذار أو إعذار"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالصَّفح في: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾:

الصَّفحُ أشدُّ الإعراض، وهو في كلِّ سياقٍ بحسبه

الصَّفح في اللُّغة: "الإعراض بِصَفْح الوجه - وهو جانبه - وهو أشدُّ الإعراض عن الكلام؛ لأنَّه يجمع تركَ استماعِه، وتركَ النَّظرِ إلى المتكلِّم"[2] معًا، قال ابن قتيبة: "والأصل فيه أنَّك تولِّيه

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 107.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 164.

صفحةَ عُنُقِكَ"[1]، ومنه أُخِذ الصَّفْحُ عن المُذنب، فإنَّه يعني: "ترْكَ التَّثريب، وهو أبلغُ من العَفو، ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [البقرة: 109]، وصفحتُ عنه: أوليْتُه منّي صفحةً جميلةً، مُعرِضًا عن ذَنبه، أو لقيتُ صفحتَه متجافيًا عنه، أو تجاوزت الصَّفحة الَّتي أُثْبِتَ فيها ذَنبُه من الكتاب إلى غيرها، من قولك: تصفَّحت الكتابَ"[2].

موقع ﴿صَفۡحًا﴾ من التَّركيب:

المفعوليَّة والحاليَّة والمَصدريَّة فيها إعراض عنهم بتنحية الذِّكر عنهم

جاءت كلمةُ ﴿صَفۡحًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ مفعولًا لأجله، وعاملُه الفعل (نضرب)، و"انتصابُه كانتصاب ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ﴾ [النّمل: 88]، فيحتمل أن يكون بمعنى العَفو والغَفْر للذَّنب، فكأنَّه يقول: أفَنَترُكُ تذكيرَكم وتخويفَكم عَفوًا عنكم وغَفرًا لإجرامكم؛ إذ كنتم - أو من أجل أن كنتم - قومًا مسرفين، أي: هذا لا يصلح"[3].

أو يكون ﴿صَفۡحًا﴾ "بمعنى الجانبِ، فينتصب على الحال، أي: صافحين معرضين"[4]، أو هو مصدرٌ معنويٌّ لـ(نضرب)، فإنَّ تنحيةَ الذِّكر عنهم إعراضٌ، أي: أفَنُعْرِضُ عنكم بتَرْكِ إنزالِ الذِّكر صفحًا وإعراضًا لأجل ﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾[5].

نُكْتَةُ تقييدِ الضَّرب بالجارِّ والمجرور ﴿عَنكُمُ﴾، ولطيفة تقديمه:

تكذيبُ كفّارِ قريش إلى رتبة يستحقّون بها صَرْفَ الخيرِ عنهم

في تقييدِ الفعل ﴿أَفَنَضۡرِبُ﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿عَنكُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ مزيدُ تخويفٍ وزجرٍ لمشركي قريشٍ عن كفرهم، وعن مجاوزتِهم حدودَ الحقِّ إلى الكفر، والمغالاةِ

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 395.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 101.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 46.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 237.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 192.

في محاربة الحقِّ، وفي تقديمه تأكيدٌ للزَّجر والتَّخويف، فكأنَّهم هم بخاصَّة مَن يَستحِقّون صَرْفَ الخير عنهم، وإهمالَ شأنِهم، وفي ذلك كنايةٌ عن عُتوِّهِم وتَجَبُّرِهم في معاداة الرَّسول ﷺ، وتكذيبِهم بالقرآن الكريم، ومعاندتِهم للدِّين.

توجيهُ القراءاتِ في قوله تعالى: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ وبلاغتها:

التَّعليلُ والشَّرطيَّة في القراءات القرآنيَّة يُثري الدَّلالات التَّركيبيَّة

في قوله تعالى: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائيّ وأبو جعفر وخَلَف بالكسر: ﴿إِن كُنتُمْ﴾، وقرأ الباقون بالفتح: ﴿أَن كُنتُمْ﴾، والمعنى على الفتح فيه معنى التَّعليل، أي: "بمعنى: لأن كنتم"[1]، و"الكسر على أنَّه جزاءٌ استَغْنَى عن جوابه بما تَقَدَّمه، كما تقول: (أنت ظالم؛ إن فعلت كذا)، قال الفرّاء: ومثله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ﴾ [المائدة: 2] بالفتح والكسر: ﴿إِن صَدُّوكُمْ﴾"[2]، قال الزَّمخشريُّ: "فإن قلت: كيف استقام معنى ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّة، وقد كانوا مسرفين على البتِّ؟ قلتُ: هو من الشَّرط الَّذي ذَكَرْتُ أنَّه يَصدر عن المُدِلِّ بِصحَّة الأمر، المُتحقِّقِ لِثُبوته، كما يقول الأجير: (إن كنت عملتُ لك؛ فوفِّني حقّي)، وهو عالم بذلك، ولكنَّه يُخَيِّل في كلامه أنَّ تَفريطك في الخروج عن الحقِّ فعلُ مَن له شَكٌّ في الاستحقاق مع وضوحه استجهالًا له"[3].

نُكْتَةُ التَّقييد بـ (إن) على قراءة كسر همزتها:

ما ينبغي لأحدٍ حَباه اللهُ تعالى نعمةً أن يُسرف فيها

من المُقرَّر أنَّ استعمال (إنْ) يكون للشَّرط المشكوكِ في وقوعه، وأنَّ (إذا) للشَّرط المقطوع بوقوعه، فالتَّقييد بـ (إنْ) في قراءة الكسر: ﴿إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ قُصِد به "تنزيل المخاطَبين المعلوم إسرافُهم منزلةَ مَن يُشَكُّ في إسرافه؛ لأنَّ توفُّرَ الأدلَّة على صِدق

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 550، وابن الجزري، النشر: 2/ 368.

(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 64، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الهمزة، وقرأ باقي العشرة بفتحها، يُنظر: ابن الجزري، النشر: 2/ 254.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 237.

القرآن مِن شأنه أن يُزيل إسرافَهم، وفي هذا ثقةٌ بحقِّيَّة القرآن، وضربٌ من التَّوبيخ على إمعانهم في الإعراض عنه"[1].

فقراءةُ الكسر توحي إليهم أنَّ (كونَكم مسرفين ممّا كان حقُّه ألّا يكون إلّا افتراضًا، فلا ينبغي لكم أن تكونوا مسرفين، وقد حباكم الخالقُ الكريم سبحانه بهذا الشَّرف الكبير، شرفِ إنزالِ القرآن الكريم إليكم وبِلُغَتِكم)، وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزّخرف: 44].

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي في: ﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾:

الإســـرافُ في مـعــاداة الحـقِّ متأصِّلٌ -غالبًا- في طِباع أهلِه

التَّعبيرُ بالكون الماضي في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ إلماحٌ إلى تأصُّل الإسراف في طبعهم، وأنَّهم قد أوغلوا في مجاوزة الحَدِّ إيغالًا مقيتًا، وإلّا لخلا التَّركيب من الفعل ﴿كُنتُمۡ﴾، ولَقيل مباشرةً: أن أسرفتم، إضافة إلى ما تُضيفُه الجملةُ الاسميَّة في ﴿كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ - وهي من نتاج إقحام الكون الماضي - من تأكيد إسرافهم ومجاوزتهم الحَدَّ في معاداة الرَّسول ﷺ ودعوته الشَّريفة.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿قَوۡمٗا﴾، ولطيفةُ تنكيره:

الإســرافُ طَبعٌ لـلـكـفّـار، وبـه قوامُ قوميَّتِهم

التَّعبيرُ بـ ﴿قَوۡمٗا﴾ يُستَعمل في الرِّجال غالبًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: 11]، فالتَّعبير بـ ﴿قَوۡمٗا﴾ هنا يعكس شدَّةَ الإجرام الَّذي واجهوا به الدَّعوةَ وداعيَها ﷺ؛ إذ الرِّجال في الجُرم أشدُّ، وإنْ قُصِد بـ ﴿قَوۡمٗا﴾ عمومَهم من رجال ونساء، فالتَّعبير بـ ﴿قَوۡمٗا﴾ يُخْلَع على كيدهم وجُرْمِهم وعدائهم وإسرافهم ومجاوزتهم الحَدَّ فظاعةً وشناعة وبشاعة لا تُتصوَّر، ومع ذلك ها هو الذِّكرُ الحكيم برُقيِّهِ وجمالِه يُعرَّض

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 164.

لهم مجرَّدَ تعريض بالمعاقبة، ويرسل إليهم برسائل التَّخويف المُهذَّب في صيغة سؤال ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾، وذلك إضافة إلى أنَّ "إقحام ﴿قَوۡمٗا﴾ قبلَ ﴿مُّسۡرِفِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الإسرافَ صار طبعًا لهم، وبه قَوام قوميَّتِهم"(1).

فائدةُ التَّعبير بالإسراف في: ﴿كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾:

أغلبُ إطلاقِ الإسراف على الإكثار من الأفعال الضّارَّة

الإسرافُ في القيد ﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ "هو الكفر والضَّلال البعيدُ في عبادة غير اللّه ﷻ، والتَّشريكُ به"(2)، وفي التَّعبير بالإسراف تلخيصٌ وافٍ لما صدر منهم من صنوف الإجرام، مثل الكفر والعناد والحرب الَّتي جابهوا بها الرَّسول ﷺ ودعوته الشَّريفة، وإلى ذلك فالتَّعبير بالإسراف يتضمَّن مجاوزةَ الحَدِّ، "والإسرافُ: الإفراط والإكثار، وأغلب إطلاقِه على الإكثار من الفعل الضّائر؛ ولذلك قيل: لا سرفَ في الخير، والمقام دالٌّ على أنَّهم أسرفوا في الإعراض عن القرآن"(3)، وفي وعْظِه تعالى هؤلاء الكافرين المُكذِّبين دلالةٌ على أنَّ "المُسرِفَ أهلٌ لأن يوعَظ، ويُكلَّم بما يَرُدُّه عن الإسراف"(4)، "أي: لأنْ كنتُم منهمكينَ في الإسرافِ مصرِّينَ عليه، على مَعْنى أنَّ حالَكُم وإنِ اقتَضَى تخليتَكُم وشأنَكُم حتَّى تموتوا على الكفرِ والضَّلالةِ، وتبقوا في العذابِ الخالدِ، لكنّا لسعةِ رحمتِنا لا نفعل ذلكَ، بل نهديكُم إلى الحقِّ بإرسالِ الرَّسولِ الأمينِ وإنزالِ الكتاب المبين"(5).

لطيفةُ صَوْغ ﴿مُّسۡرِفِينَ﴾ اسمَ فاعل:

الكافرون يغالون في إسرافهم ضِدَّ الحقِّ وأهلِه

صَوْغُ الخبرِ ﴿مُّسۡرِفِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ يعكس ثبوتَ صفةِ الإسراف ودوامَه فيهم، ممّا يؤكِّد غُلوَّهم في الإضرار بالرَّسول ﷺ ودعوتِه، ومجاوزتَهم الحدَّ في تكذيب القرآن الكريم، وهم الكاذبون.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 164.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 46.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 164.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 385.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 40.

نُكْتَةُ حَذْفِ متعلّق الإسراف في: ﴿كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾:

إسرافُ الكفّار في التّكذيب إيذاء للمسلمين

لم يحدِّدِ النَّظمُ الكريم متعلِّقًا مُعيَّنًا لإسراف هؤلاء الكفّار المسرفين، ولم يقل: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ في كذا وكذا، كأن يقول: (كنتم قومًا مسرفين في الجهالة، مجاوزين الحَدَّ في الضَّلالة)[1]، وذلك الإطلاق يفيد عمومَ إسرافِهم في كلِّ الجوانب، فقد كانوا مسرفين في تكذيب كلام اللّٰه تعالى، وكانوا مسرفين في سوء الأدب مع رسوله ﷺ، وكانوا مسرفين في إيذاء المسلمين، وفي الحيلولة بينهم وبين ممارستهم شعائرَ دينِهم الَّذي ارتَضَوا، إلى آخر جهات الإسراف الَّتي تبجَّحوا فيها، ولم يتورَّعوا عنها.

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 3/ 265.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا
كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ
ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ [الزّخرف: 6 - 8]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

العِلمُ بِسيَرِ السّابقين من الأُمم الهالكة يمدُّ الدّاعية بقوَّة الاحتمال والتَّفاؤل

في الآيات السّابقة هدَّد اللّهُ تعالى مشركي مكَّة بصَرْف الدَّعوة عنهم، وحرمانِهم من هذا النّور العظيم إن لم يَكُفّوا عن الكفر والكيد للدّين، ثمَّ انصرف الخطابُ هنا عنهم إلى الرَّسول ﷺ، يُسلّيه، ويُثبِّته على طريق الدَّعوة، ويُذَكِّرُه بصبر الرُّسل السّابقين على دعوة أقوامهم، وبإهلاك اللّه تعالى مَن كفر منهم، وفي ذلك بَعْثٌ للتَّفاؤل في نفسه ﷺ، وتبشيرٌ بأنَّ اللّه تعالى ناصِرُه، وتهديدٌ للمشركين بأنَّ إهلاكَهم محتمَلٌ؛ إن لم ينتهوا عن تكذيب الرَّسول ﷺ، ومحاربةِ دعوته.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَطْشًا﴾: (بطش) أصلٌ واحِدٌ، وهو أَخْذُ الشَّيءِ بِقَهرٍ وغَلَبَةٍ وقوَّةٍ[1]، يقال: بطَش بعَدوِّه وغيرِه، أي: أخذه بالعُنْف والسَّطْوة وفتَك به، وعاقبه بغلظة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾ [الشّعراء: 130]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾ [البروج: 12]، وبطَش على فلان: سطا عليه بسُرعة، والبَطْش: شِدَّة الظُّلم والطُّغيان[2]، ومعنى الآية: أشدُّ قوَّة.

المَعْنى الإجماليُّ:

من أساليب الدَّعوة ضَرْبُ الأمثال بذِكْر مصائِر الكفّار مِنَ الأُمم السّالفة

واعلم يا رسولَ اللّه أنَّنا أرسلنا قبلَك كثيرًا من الرُّسل إلى الأُمم السّابقة، وأنَّ هؤلاء الرُّسل قدِ احتملوا من أقوامهم في سبيل تبليغ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطش).
(2) عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بطش).

دعوتهم الأذى البالغَ، إلى حدٍّ أنَّه ما من رسولٍ إلّا استهزأ به قومُه، وسَخِروا منه، ولمّا أسرف الكفّارُ، وجاوزوا الحَدَّ في تكذيب الرُّسل وإيذائهم - كما فعل قومُك - وهم أشدُّ من قومك قوَّةً وبطشًا وتصلُّبًا في الحرب على الدّين وأوليائه - أنزلنا بهم الهلاكَ، وجعلنا سيرتَهم على الألسنة عبرةً، ومَثَلًا سيّارًا على صفحة الدَّهر، فإن لم ينتهِ قومك عن تكذيبك والكيدِ لديننا؛ أنزلنا بهم مثلَ ما أنزلنا بأولئك الكفّار الأوَّلين، فليس قومُك من ذلك ببعيد؛ لأنَّ إهلاك الكفّار المسرفين في كفرهم سُنَّةٌ لا تتبدَّل، وترشدُ الآياتُ إلى أنَّ في إهلاك الأقوى دليلًا على أنَّ إهلاك من هو دونه أحرى وأوْلى، ولا سيَّما مع شِدَّة كُفْره، وفي هذا تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى (الواو) في: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا﴾:

(الواو) في جملة: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عاطفةٌ على جملة: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ عطْفَ القصَّةِ على القصَّة[1]، والأقرب أن تكون (الواو) هنا للاستئناف؛ إذ إنَّ المخاطَب في الجملة الأولى هم كفّارُ قريش، بينما المخاطَب في الجملة الثّانية هو الرَّسول ﷺ؛ إذ سيقت مواساةً له وشدًّا لأزره، حتّى يتأسَّى بالأنبياء السّابقين في الصَّبر على إيذاء كفّار قريش، فلمّا كان كلُّ استفهامٍ منهما موجَّهًا إلى مخاطَبٍ غيرِ المخاطَبِ الآخَر؛ كانت هذه (الواو) إلى الاستئناف أقرب، والله تعالى أعلم.

الاستئنافُ أولى من العطف إذا اختلف المخاطَب بكلْتا الجُملتين

دلالة (كَمْ) الخبريّة في: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا﴾:

(كم) في قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ خبريَّةٌ معنًى، وهي كناية عن كثرة المرسَلين إلى الأُمم السّابقة قبلَ رسول

استـئـنـاسًـا بعموم البلوى، ينبغي ألّا يتأذّى الدّاعية بتكذيب مَدعوّيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 165.

اللّه الخاتمِ ﷺ، وفيها دعمٌ للمواساة في نفس الرَّسول ﷺ؛ بتعليمه أو تذكيره أنَّ الرُّسل في الأقوام السّابقة تحمَّلوا كثيرًا، وصبروا طويلًا في سبيل نشر دعوتهم، فـ "الآياتُ تسليةٌ لمحمَّد عليه السلام، وذِكْرُ أُسوةٍ له، ووعيدٌ لهم وتهديدٌ بأن يصيبَهم ما أصاب مَن هو أشدُّ بطشًا"[1]، "فلا ينبغي أن تتأذّى من قومك بسبب إقدامهم على التَّكذيب والاستهزاء؛ لأنَّ المصيبة إذا عمَّت؛ خفَّت"[2]، و(كَمْ) في قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ مفعول ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، و"أصله اسمُ استفهام، فنُقِل من الاستفهام إلى الإخبار على سبيل الكناية، وشاع استعماُله في ذلك حتّى صار الإخبار بالكثرة معنًى مِن معاني (كم)، والدّاعي إلى اجتلاب اسم العدد الكثير، أنَّ كثرةَ وقوعِ هذا الحُكْم أدخلُ في زجرهم عن مثله، وأدخلُ في تسلية الرَّسول ﷺ وتحصيلِ صبره؛ لأنَّ كثرة وقوعِه تُؤْذِن بأنَّه سُنَّة لا تتخلَّف، وذلك أزجرُ وأسلَى"[3].

وجهُ صَوْغِ الفعل في: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ ماضيًا:

القطعُ بإرسال اللّه تعالى الرُّسلَ إلى الأُمم السّابقة

صَوْغُ الفعلِ في جملة ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ ماضيًا يدلُّ على القطع بإرسال اللّه تعالى الرُّسلَ إلى ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وأنَّه تكرَّر، ولم يُجْدِ معهم شيئًا، فأقاموا على التَّكذيب حتّى أنزلَ اللّهُ تعالى بهم أسبابَ الإهلاك، فهلكوا، واستُؤْصِلوا.

لطيفةُ إسنادِ الإرسالِ إلى ضمير العظَمة في: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

القرآنُ الكريمُ نَزَلَ مِن قِبَل العظيم سبحانه، فوجبَ تقديرُ الرَّسولِ ورسالته

ضمير العظَمة في ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ يدلُّ على عظَمة الرِّسالة الَّتي جاء بها الرُّسل عليهم السلام من عند اللّه تعالى إلى النّاس، وأنَّه لذلك يجب الإيمانُ بها وإكرامُها، وإكرامُ من جاؤوا بها؛ تعظيمًا وإكرامًا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 46.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 619.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 165.

لَمَن أرسلهم ﷻ، فالعظيمُ إنَّما ينزل عظيمًا، ممّا يوجب تعظيمَه واحترامَه، وعدمَ التَّعرُّض له بسوء.

من بلاغة الاستعارة في: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

احترامُ الرَّسولِ واجبٌ، فمن أهانَهُ حقَّ عليه العقابُ

كلَّفَ اللّهُ تعالى الأنبياءَ والمرسَلين بالتَّبليغ، وهذا التَّكليف عُبِّرَ عنه بالإرسال، ولِما لهذا التَّكليف من خطورة؛ صوِّر في صورة إرسالٍ من مكان بعيد، وأنَّ المُرسَل به رسالةٌ جليلة، يحملها الرَّسولُ؛ ليؤدّيَها إلى المرسَل إليه، فكأنَّه تكبَّد مشاقَّ حَمْلِها، وعالج بُعدَ السَّفر بين المُرسِل والمرسَل إليه، ومن المفروض احترامُ الرَّسولِ القادم برسالة، بل والحفاوةُ به وحُسْنُ استقبالِه، والحفاوةُ باستقبال السَّفير أو الرَّسولِ تكون بحسب قَدْر الَّذي أرسلَه، وبهذا الإيحاء في فعل ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ كان ينبغي على الأوَّلين، كما ينبغي على قريشٍ تكريمُ الرَّسولِ وإكرامُ وفادته؛ لأنَّه قادمٌ من أعظم مرسِلٍ هو اللّهُ ﷻ، فلمّا آذوا الرُّسلَ؛ حَقَّ عليهم الهلاكُ؛ فاحذروا يا قريش من إهانة نبيِّكم ﷺ.

دلالةُ الجمع بين الإرسال والنُّبوَّة في: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ﴾:

علـى الـدّاعـي أن يـحـشـد كـلَّ إمـكـانـاتِ الدَّعوة؛ حرصًا عـلـى هـدايـة مدعوّيه

جَمَع النَّظْمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بين الإرسال والنُّبوَّة؛ وذلك يوفِّر للمُرسَل إليهم من الأوَّلين إمكاناتِ الرِّسالة والنُّبوَّة - على ما يفرِّق به العلماءُ بين النَّبيِّ والرَّسول - في المبعوث إليهم بالدَّعوة، ومع ذلك لم يُثْمِر في كفّار الأُمم السّابقة خيرًا ينتفعون به، فأنزل اللّهُ تعالى بهم إهلاكَهُ، وفي ذلك الجمع بين المُفردتَين ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ﴿نَّبِيّٖ﴾ دعمٌ لصبر الرَّسول ﷺ على عَنَتِ الكفّار، وتهوينٌ لما يَلْقَى من أذاهم.

سرُّ تنكير ﴿نَّبِيّٖ﴾ على العموم في: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ﴾:

أنبياءُ الله تعالى ورسلُه جديرون بالتَّكريم لِما بذلوه في سبيل الدَّعوة

يدلُّ تنكير ﴿نَّبِيّٖ﴾ على رفعة شأنِ الأنبياءِ عند اللّه تعالى، ويُضفي عليهم تفخيمًا، ويمنحُهم تكريمًا، ويوحي بأنَّهم هم جديرون بالتَّكريم؛ لِما بذلوه في سبيل الدَّعوة إلى توحيد اللّه ﷻ،

وهم أيضًا كانوا جديرين بالتَّكريم مِن أُممهم؛ لأنَّهم من قِبَل الله تعالى أُرسِلوا، وإكرامُ الرَّسولِ مِن إكرام مُرسِلِه، وقَدْرُه مِن قَدْرِه.

معنى ﴿فِي﴾ مِن: ﴿فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

أنبياءُ الله تعالى ورسلُه كانوا أوساطًا في أقوامهم

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ظرفيَّةٌ، توحِي بأنَّ أنبياء الله تعالى ورسلَه السّابقين كانوا مثلَ رسولِنا محمَّد ﷺ أوساطًا في أقوامهم، وأنَّهم أفْنَوا حياتَهم في سبيل هدايتهم إلى ما فيه خيرهم.

معنى (ال) في: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ودلالةُ التَّعبير به:

اطِّرادُ سُنَّةِ الله تعالى بإهلاك مُكَذِّبي الرُّسل والأنبياء قديمةٌ قِدَمَ الأمم

﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جمع الأوَّل، وهو هنا مُستعمَلٌ في معنى الماضين السّابقين، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٧١﴾ [الصّافات: 71]، فإنَّ الَّذين أُهلِكوا قدِ انقرضوا بِقطع النَّظر عمَّن عسى أن يكون خَلَفهم من الأُمم[1]، وقد عبَّر الذِّكرُ الحكيم عن الأُمم السّابقة على أُمَّة العرب بـ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ دون (السّابقين)؛ لِما في (السابقين) من معاني السَّبْق، وهو مدحٌ لا مكانَ له هنا، إضافةً إلى أنَّ وصف (السّابقين) قد يوهِم أنَّ المقصود بهم أُمَّةُ عيسى عليه السلام، فهُم السّابقون على أُمَّة الرَّسول ﷺ مباشرةً، وربَّما تتخطّاهم إلى جيل أو جيلين، أو أُمَّة أو أُمَّتين مثلًا، أمّا وصْفُ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ فيَضْرِب في جذور التّاريخ البشريِّ حتّى أُمَّةِ نوح عليه السلام ومَن تلاهم من الأُمم، وفي ذلك دعْمُ كنايةٍ عن اطِّراد سُنَّة الإهلاك للمسرفين في تكذيب الأنبياء والمرسلين.

معنى (الواو) في: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾:

تصويرُ حال الأمم السّابقة مع أنبيائهم

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم﴾ حاليَّةٌ، وجملة: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ في موضع الحال من ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 165.

أي: والحال أنَّه ما من نبيٍّ أتاهم إلّا كَذَّبوه، وناصبوه العِداءَ، وهذا الحال هو المقصود من الإخبار[1].

معنى (ما) في: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾:

نافيةٌ مفيدةٌ الحَصْرَ

(ما) في جملة: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ نافيةٌ لإفادة الحصر، وليست هنا للنَّفي المطلق، فقد أتاهم أنبياءُ كثيرون، كما تقول الآية السّابقة: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ فلا يجوز أن تكون (ما) نافيةً نفيًا مطلقًا؛ لإرسال الله تعالى أنبياءَ في الأوَّلين.

براعةُ التَّعبيرِ بالإتيان في: ﴿يَأۡتِيهِم﴾:

تكاليفُ دعوةِ الأنبياء عليهم السلام أقوامَهم سهلةٌ يسيرةٌ

لمّا كان الفعل (أتى) ممّا يُستعمَل في المَعاني والأزْمانِ[2]، وفي الأمور السَّهلة والميسورة[3]؛ كان التَّعبير به مسندًا إلى الأنبياء عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾ دالًّا على يُسْرِ التَّكاليف الَّتي كانوا عليهم السلام يكلِّفون بها أقوامَهم، وذلك يتَّسِق مع قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ [ص: 86]، وفي ذلك إكرامٌ لأنبياء الله تعالى، وإشادةٌ بتفانيهم في خدمة أقوامهم بلا كُلفة يتكفَّل بها الأقوامُ، ومع ذلك اليُسر، وعدمِ مطالبة الأنبياء بالأجر، رفض الكفّارُ قَبولَ الدَّعوة، وناصبوا أنبياءَهم العِداء؛ ممّا يعكس خُبثَ نفوسِهم، وظُلْمَةَ أرواحِهم.

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿يَأۡتِيهِم﴾:

آثار النُّبوّات من الدعوة إلى التَّوحيد والعمل بمقتضاه مستمرَّةٌ إلى يوم القيامة

المضارعةُ في قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾ تُفيد استحضارَ إتيانِ الأنبياء أقوامَهم، كأنَّه حاضر مشاهَد، وكأنَّ أثرَ ذلك الإتيان لا يزالُ ممتدًّا منذُ زمن ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ حتّى الآن، أو أنَّه أثرٌ جدير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 166.

(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 365.

(3) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 2/ 68.

بالبقاء على صفحة الزَّمان، متجدِّدًا لا يخبو، ولا ينطفئ؛ لذلك يقول الزَّمخشريُّ: "﴿وَمَا يَأۡتِيهِم﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ مستمرَّة، أي: كانوا على ذلك، وهذه تسليةٌ لرسولِ اللّه ﷺ عن استهزاء قومه"[1].

نعم، إنَّه الدّين السَّماويُّ الدّاعي إلى توحيد اللّه تعالى وامتثالِ شَرْعِه، منذ أوَّلِ الأنبياء إلى آخرهم عليهم السلام جميعًا، وهذا ما يُصَرِّح به قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، فهذا الدّين هو الَّذي يَضمن للعبد السَّعادةَ العاجلة والآجلة.

معنى ﴿إِلَّا﴾، وبلاغةُ القَصْر في: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا﴾:

نسبةُ مُؤمني كلِّ أُمَّةٍ إلى نسبة كافريها ضئيلةٌ لا تكاد تُذكَر

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ قصْرٌ قاطِعٌ بعموم استهزاء الأوَّلين من جميع الأنبياء الَّذين أرسلهم اللّهُ تعالى إليهم، وهذا العموم مبنيٌّ على التَّجوُّز؛ إذ ليس كلُّ الأوَّلين كذَّبوا بكلِّ الأنبياء؛ ففي الحديث الشَّريف: «لِكُلِّ نَبيٍّ حَواريٌّ، وحواريّي الزُّبَيْرُ»[2]، لكنَّ نسبةَ المؤمنين بالأنبياء إلى نسبة المُكَذِّبين المُسْتهزئين لا تُمثِّل شيئًا يُذْكر، فكأنَّها نسبةٌ لا يُعْتَدُّ بها أصلًا؛ لذلك أَطْلَقَ القَصْرَ؛ ليكون حقيقيًّا عموميَّ النَّفيِّ.

نُكْتَةُ تقديمِ القيد ﴿بِهِۦ﴾ على الخبر ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

حُسْنُ خُلُقِ الأنبياء والدُّعاةِ تُجَرِّئ عليهم مجرمي الكافرين

قَدَّم النَّظمُ الكريم القيدَ بالجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الخبر في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ إمعانًا في فضح خُبث تلك النُّفوسِ الَّتي تتجرَّأُ على الاستهزاء بالصّالحين والدُّعاة المصلحين، ودعاةِ الحقِّ والدِّين، وكأنَّهم لا يستهزئون إلّا بالأنبياء ومَن سار على دربهم، وانتهج نهجَهم، ولا يستهزئون بغيرهم؛ مبالغةً في بيان سوءِ أخلاقِهم وجُرأتِهم على صفوة خَلْق اللّه تعالى، وتلك حقيقة يُؤصِّل

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 237.

(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (6833)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2415)، قالَ الزَّجّاج: الحَواريّون: خُلْصانُ الأنبياء عليهم السلام، وصَفْوَتُهُم، يُنظر: الزّبيديّ، تاج العروس: (حور).

لها سُموُّ أخلاقِ الأنبياء ودعاةِ الحقِّ، ولو أنَّهم - حاشاهم - كانوا غِلاظًا قُساةً في دعوتهم؛ لَتَهَيَّبَهُم أولئك المجرمون، لكنَّهم مأمورون بالدَّعوة إلى اللّه تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لذلك يتجرَّأ عليهم هؤلاء السَّفلةُ.

مرجعُ الضَّميرِ في كلٍّ مِن: ﴿كَانُواْ﴾، و﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

من الأوَّلين مَن لم يستهزئ بنبيِّه، لكنَّهم قلَّة قليلة

الضَّمير في قوله: ﴿كَانُواْ﴾، ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يرجع إلى ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، و"ظاهرُه العموم، أي: عموم الأوَّلين، والمراد به الخصوصُ فيمَن استهزأ، وإلّا فقد كان في الأوَّلين مَن لم يستهزئ"(1) بل آمن، لكنَّهم نسبةٌ لا تكاد تُذْكَر بالنِّسبة إلى كثرة المستهزئين، كما سبق بيانه.

بلاغةُ الالتفات من المتكلِّم ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا﴾، إلى الغيبة في: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم﴾:

القرآن الكريم يُشيد بدور الأنبياء عليهم السلام، ويُعرِّض بغضب الله تعالى لهم

في الالتفات من المتكلِّم في قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إلى الغَيبة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾ لَفْتٌ إلى دور الأنبياء عليهم السلام في ميدان الدَّعوة، وإشادةٌ بجهودهم، وتكريمٌ لجنابهم، وعدمُ غَمطٍ لهم، وإلماحٌ إلى غضب اللّه تعالى لأجلهم، وتعريضٌ بما يترتَّب عليه من معاقبة الكفّار المستهزئين بهم.

معنى (الفاء) في: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾:

التَّفريعُ والسَّببيَّة المُؤذِنان بهلاك مُستهزئي كفّار قريش

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ "تفريعٌ وتسبُّبٌ عن جملة: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾"(2)، أي: فأهلكنا أشدَّ من قريش بطشًا، أي: أهلكنا هؤلاء الأشدَّ؛ فيمكنُنا إهلاكُ قومِك يا محمَّد.

دلالةُ التَّعبير بالإهلاك، وصَوْغُهُ ماضيًا:

اللهُ تعالى لا يُحابي أحدًا في الحقِّ

من شأنِ التَّعبير بالإهلاك الصَّريح وتسليطِه على ضمير

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 46.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 166.

المتحدَّث عنهم، إثارةُ الخوف في قلوب المُكذِّبين الجُدُد من كفّار قريش، وإشعارُهم بهوانهم على الله تعالى، مثل أولئك المُهلَكين الأوَّلين، الَّذين كانوا أشدَّ منهم بطشًا، وأنَّ قريشًا ليسوا أعزَّ على الله تعالى منهم، فيحابيهم في الحقِّ، وفيه تصريحٌ بأنَّ عذاب الله تعالى إذا نزل بِقوم؛ استأصلهم بالكلّيَّة، وصَوْغُ فعلِ الإهلاك ماضيًا يُراعِي مُضيَّ إهلاكِ الأوَّلين الأشدِّ بطشًا، ويُحذِّر مشركي مكَّة من أنَّ تحقُّق ذلك فيهم واردٌ ومقطوعٌ به؛ إن تمادَوا، ولم يتوبوا، فـ "فيه تحذيرُ أولَئِك الكَفَرةِ أن ينزل بهم الهلاكُ بتكذيبهم الرَّسول، وسوءِ معاملتِهم إيّاه، كما نزل بأولَئِكَ الكَفَرة المتقدِّمين بتكذيبهم الرُّسل، وسوءِ معاملتِهم إيّاهم، والله أعلم"[1].

لطيفةُ إسناد الإهلاك إلى ضمير العظَمة:

إهلاكُ الله للمشركين دليلٌ على شناعة الذَّنب وشِدَّة الفَتْك

إسنادُ الإهلاك الصَّريح إلى ضمير العظَمة يَحمل مزيدَ تهديدٍ، ويقرِّر أنَّه لا مَنَعَةَ لِلمُكذِّبين بِرُسُل الله تعالى ودينه أمامَ جبروت العظيم ﷻ، النّاطق به ضميرُ العظَمة: (نا) في جملة ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ﴾، ممّا شأنه جَعْلُ المُكذِّبين يَرعَوون، ويتملَّكُهم الفَزَع من ذلك المصير الأليم، وفي هذا الإسناد مزيدٌ من التَّطمين لقلبه ﷺ، ووعدٌ له بأنَّ الله تعالى ناصرُه على قومه، كما فيه وعيدٌ بشِدَّة الفَتْك بهؤلاء الَّذين عاندوا رسولَ الله، وكذَّبوه، واستهزؤوا به، وسَخِروا منه[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالشِّدَّة، وصَوغُه على (أفعل) في: ﴿أَشَدَّ﴾:

تدليلُ الذِّكر الحكيم بالأدلَّة المنطقيَّة العقليَّة على صحَّة أحكامه

اصطفى النَّظمُ الكريم مفردةَ الشِّدَّة، وصاغَها على (أفعل) في قوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾، أي: "أكثر عددًا وجَلَدًا"[3]؛ "لإثبات حُكمِهم لهؤلاءِ بطريقِ الأولويَّةِ"[4]، والمعنى: أنَّنا "أهلكنا مَن كان أشدَّ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 149.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 786.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 619.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 40.

قوَّةً وبطشًا من هَؤُلاءِ، ثمَّ لم يتهيَّأ لهم الامتناعُ لِشِدَّة قوَّتهم وبطشهم عمّا نزل بهم من العذاب، فعلى ذلك لو نزل لهَؤُلاءِ لم يتهيَّأ لهم الامتناعُ مع ضعفهم"[1]، وفي ذلك الأسلوبِ دليلٌ منطقيٌّ عقليٌّ يُهَوِّن من شأن كفّار قريش في أنفسهم أمامَ قدرةِ اللّه تعالى؛ فإذا فتكَ بالأشدِّ منهم ظلمًا وجبروتًا؛ فما عَمَلُهُ فيهم، وهم الأضعف؟ لا شكَّ أنَّ بطْشَه بهم، وفَتْكَه سيكون أقسى وأفظعَ، وسيكون أمرُهم عليه أيسرَ وأهونَ.

لطيفةُ الاكتفاءِ بالوصف ﴿أَشَدَّ﴾ عن موصوفه:

يَحذفُ النَّظمُ الكريمُ الموصوفَ، ويَكتفي بوصفه حين يتعلَّق الغرضُ به دونَه

اكتفى النَّظمُ الكريم بالوصف ﴿أَشَدَّ﴾ عن موصوفه (قومًا)؛ إذ التَّقدير: "فأهلكنا قومًا أشدَّ قوَّةً من هؤلاء القوم"[2]، أي: قريش، وفي ذلك الاكتفاءِ توفيرٌ لعناية المُتلقّي على ربط حُكم الإهلاك بالوصف ﴿أَشَدَّ﴾، لا بالموصوف (قومًا)؛ فالتَّهديد بإهلاك الأشدِّ أقطعُ في التَّخويف والزَّجر لكفّار قريش من التَّهديد بإهلاك القوم، وإن كان هو هم.

معنى (مِنْ) في: ﴿مِنۡهُم﴾:

معاقبةُ مشركي قريشٍ أيسرُ على الله ممّن تجاوزوهم في الكفر

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾؛ لابتداء غاية التَّفضيل، وتتعلَّق بـ ﴿أَشَدَّ﴾، وهي تعطي معنى المجاوَزة؛ أي: أهلكنا مَن تجاوزوهم في البطش والإسراف ومجاوزة الحَدِّ في الكفر والتَّكذيب بالدِّين؛ فمعاقبةُ هؤلاء وإهلاكِهم علينا أيسر.

مرجعُ الضَّمير في: ﴿مِنۡهُم﴾:

الضَّمير في القيد ﴿مِنۡهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ يرجع إلى مشركي مكَّة، السّابقِ خطابُهم في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾، وانصرف الخطاب عنهم - كما سيأتي - تهديدًا لهم، وتحقيرًا لشأنهم.

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 149.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 627.

بلاغةُ الالتفات في: ﴿أَشَدَّ مِنۡهُم﴾:

في الالتفات بالخطاب عن الكفّار إلى الرّسول تكريمٌ له وإهانةٌ لهم

بعد أن كان الخطاب موجَّهًا إلى قريش في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾، انصرف عنهم إلى خطاب رسول الله ﷺ عنهم، فقال تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾؛ احتفاءً به ﷺ، وتكريمًا له، و"لأنَّ الغرض الأهمَّ من هذا الكلام هو تسليةُ الرَّسولِ ﷺ، ووعْدُه بالنَّصر، ويستتبع ذلك التَّعريضُ بالَّذين كذَّبوه، فإنَّهم يبلغهم هذا الكلام"[(1)]، كذلك يُعرِّض الالتفاتُ بتحقير كفّار قريشٍ وتهديدِهم، بأنَّكم لستُم أهلًا للحضرة الإلهيَّة، وقد كفرتم، وصددتم عن دين الله تعالى، وناوأتُم رسولَه ﷺ.

لطيفةُ حذفِ وعيدِهم في: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾:

في الاكتفاء بالتَّلويح عن التَّصريح بالتَّهديد والوعيد مواربةٌ لبابِ الرُّجوع والاعتذار

في جملة: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ اكتفاءٌ عن التَّصريح بإهلاك المشركين من قريش؛ فإذا كان الله تعالى قد أهلك أشدَّ منهم بطشًا، ولم يُعجزوه؛ فإنَّ إهلاك هؤلاء - وهم أضعفُ منهم بطشًا - أقربُ، وأمرُهم عليه أهون، وفي ذلك الحذفِ مواربةٌ لبابِ التَّوبة، وحَضٌّ على الإيمان بالله تعالى، وبالقرآنِ الكريم، وبالرَّسولِ ﷺ؛ إذ لم يقطع لهم بالإهلاك، بل لوَّح لهم، وخوَّف دونَ التَّصريح بالوعيد، يقول ابن عاشور: "وهذا ترتيبٌ بديع في الإيجاز؛ لأنَّ قوله: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ يقتضي كلامًا مطويًّا، تقديره: فلا نعجز عن إهلاك هؤلاء المسرفين، وهم أقلُّ بطشًا، وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾ [محمّد: 13]"[(2)].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿بَطۡشٗا﴾، وموقعه الإعرابيُّ:

في التَّعبير بمفردة البطش تفظيعٌ لكيد ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ للرُّسل عليهم السلام ولدعوتهم إلى التَّوحيد؛ ممّا يدعم دلالةَ التَّهوين من قدر كفّار قريشٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 166.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 166.

الكفّار الأوّلون كانوا أشدَّ اضطهادًا لدعوة التّوحيد من الكفّار الآخِرين

وتحقيرِ كيدهم: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ٤٦﴾ [إبراهيم: 46]، وذلك يرمي - كما سبق بيانُه - إلى تحقيق غايتين على التّوازي، **الغاية الأولى**: تطمينُ الرّسول ﷺ إلى ضآلة هؤلاء وهوانهم على الله تعالى، فمتى شاء؛ أهلكَهم، ومكَّن لك ولدينك يا رسولَ الله، **والغاية الثّانية**: ترهيبُ الكفّار، وبثُّ الذُّعرِ في نفوسهم، بالتَّعريض بإهلاكهم وإمضاءِ ما يريد، وقد صاروا ماضيًا، كما قال: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، و"انتصب ﴿بَطۡشٗا﴾ على التَّمييز لِنسبة الأشدِّيَّة"[1]، أو على الحال مِن فاعل (أَهۡلَكۡنَا)، أي: باطشين نحن بهم[2]، وأنزلنا بهم بطشنا.

نُكْتَةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنۡهُم﴾ على التَّمييز ﴿بَطۡشٗا﴾:

هوانُ الكفّار على الله تعالى ويُسْرُ إهلاكِهم

في تقديم القيد ﴿مِنۡهُم﴾ على التَّمييز ﴿بَطۡشٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ دَعۡمٌ لدلالةِ ضآلةِ هؤلاء الكفّارِ من قريش وأضرابهم، وهوانِهم على الله تعالى، ويُسرِ إهلاكهم؛ إن تمادَوا في الكفر، ولم يتوبوا إلى الإيمان، وكأنَّهم الأضعفُ بالنِّسبة لتاريخ الكفر والكافرين، والأهونُ والأشدُّ حقارةً، وكأنَّ معنى ﴿أَشَدَّ مِنۡهُم﴾، أي: أشدُّ منهم هم بخاصَّة، فهُم بخاصَّة الأضعفُ في مقابلة الأوَّلين؛ أخذًا بمفهوم المخالفة.

معنى (الواو) في: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

يذهب الكافرون إلى مطاوي المجهول

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ حرفُ عطف، والجملة معطوفة على ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ﴾[3]، ويحتمل أن تكون استئنافيَّة، تكشف مصيرَ هؤلاء الـ ﴿أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾، وأنَّهم ذهبوا إلى مزابل التّاريخ، بينما خُلِّدتْ دعوةُ التَّوحيد، وخُلِّدت سيَرُ المرسَلين المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 167.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 66.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 61، والدّرّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 569.

دلالةُ التَّعبير بالمضيِّ مادَّةً وصيغةً، ونُكْتَةُ إسنادِه إليهم:

قَصَصُ المهلَكين وحالُهم العجيبة حقُّها أن تسير مسيرَ المثَل

في التَّعبير عنِ انتهاء أمر الكافرين الأوَّلين - المضروبين مثلًا لقريشٍ - بمفردة المضيِّ، وسَبْكِها في صيغته في الفعل (مضى) تقريرٌ لِتَحَقُّق فنائهم، والفراغِ من إفنائهم، ومضيّهم هم حتّى كأنَّهم واصلو رحلةَ التَّكذيب والعنادِ إلى الهلاك والفناء مختارين، دونَ أدنى كُلْفة لإهلاكهم وإفنائهم، وفيه "كناية عن استئصالهم؛ لأنَّ مُضيَّ الأحوال يكون بمضي أصحابها، فهو في معنى قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾ [الأنعام: 45]"[1]، ويحتمل معنى ﴿وَمَضَىٰ﴾ أنَّه سبق، و"سلف في القرآن في غير موضع منه ذِكر قصَّتهم، وحالِهم العجيبة الَّتي حقُّها أن تسير مسيرَ المَثَل، وهذا وعدٌ لرسول الله ﷺ، ووعيدٌ لهم"[2].

براعةُ المثل في جملة: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

استئصال الكافرين الأوَّلين للعبرة، ولا تُستأصَل أُمَّة محمَّد عليه الصلاة والسلام

معنى ﴿مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ في جملة: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: "سُنَّة الأوَّلين، أو عقوبةُ الأوَّلين، أو عِبرة الأوَّلين، أو خبر الأوَّلين أنَّهم أُهْلِكوا بالتَّكذيب"[3]، أو أنَّهم كانوا مثلًا يَتمثَّل به مَن بعدَهم[4]، أو المَثَل هنا يعني: "تشبيهَ حالِ الكفّار الماضية بحال هؤلاء في التَّكذيب، ولمّا أُهلِك أولئك بتكذيبهم، فعاقبةُ هؤلاء أيضًا إلى هلاك"[5]، أو أنَّ المقصود "ومضى عذاب الأوَّلين - وهو عذابُ الاستئصال - فلا يُعذِّب هذه الأُمَّةَ بمثل عذابهم؛ لفَضْل نبيِّنا مُحَمَّد عليه أفضل الصَّلوات وأكملُ التَّحيّات وبركاته ورحمته، وهو ما قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]؛ فبفضله ورحمته أبقى هذه الأمَّة إلى يوم القيامة، والله أعلم"[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 167.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 237.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 216.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 387.
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 64.
(6) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 149.

بلاغةُ الكناية في جملة: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

الكنايةُ فيها زيادةُ إثباتِ المعنى، فجعلَتْهُ أبلغَ وآكَدَ وأشَدَّ

في قوله تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ كنايةٌ عن استئصال الكافرين من الأوَّلين؛ لأنَّ مُضيَّ مَثَلِهم دليلُ مضيِّهم هم بطريقة الأوْلى، ففي الكناية دليلُ صِدقِها، كما يقرِّر عبد القاهر الجُرجانيُّ: "وليس الشَّأن في أبلغيَّة الكناية أنَّك زدتَ في ذات المعنى، وإنَّما أنَّك زدتَ في إثباته"[1].

دلالةُ الإظهار في جملة: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

قد يترجَّح الإظهار في مقام الإضمار؛ ليُصَحِّحَ إجراءَ العبارةِ مَجْرَى المثَل

في قوله تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ إذ سبق ذكر ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ صريحًا، ثم كُرِّر ذِكرهم إضمارًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم﴾، ﴿كَانُواْ﴾، ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، فكان السّياقُ لمواصلة الإضمار، فيقال: (ومضى مثلهم)، غيرَ أنَّ إظهارَهم يُقرِّر هوانَهم على الله تعالى، وهوانَ كلِّ الكافرين بعدَهم بطريق الأوْلى؛ إذ كانوا هم ﴿أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾، ثمَّ في الإظهار تحديدٌ لمسار المعنى؛ إذ لو قيل: (ومضى مثلهم)؛ فربَّما انصرف الضَّمير - عند السّامع - إلى مرجع الضَّمير في قوله تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنۡهُم﴾ والضَّمير في ﴿مِنۡهُم﴾ إلى كفّار قريش، فيُظَنُّ أنَّه أهلك كفّارَ قريشٍ فقط لا الأوَّلين، فتضعفُ القرينةُ، ويرتبك المعنى بارتباك مراجعِ الضَّمائر؛ فَلَزِمَ الإظهارُ، وإلى ذلك يترجَّح الإظهار هنا، لـ "يكون الإخبار عنهم صريحًا وجاريًا مَجرَى المَثَل"[2].

---

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 71.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 167.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾ [الزّخرف: 9 - 10]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

المناظراتُ الجادَّة تفضح تناقُضَ الضّالِّ، وتُجَلِّي اختلالَ عقلِه

في الآيات السّابقة ضربَ اللّهُ تعالى لكفّار قريش مثلًا لإهلاكه الكافرين من الأوّلين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يُطَمْئِنُ بذلك رسولَه ﷺ، ويتهدَّد الكافرين بمثل هذا الإهلاك؛ إن لم يؤمنوا، ويَكفّوا عن التّكذيب بالدّين، ثمَّ وجَّه الرَّسولَ ﷺ هنا إلى مُحاجَّتهم بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ بحيثُ يفضحُهم، ويُجلّي تناقضَهم واختلالَ عقولِهم؛ إذ إنَّهم يُقرّون للّهِ تعالى بالخَلْق، ثمَّ يشركون معه في الألوهيَّة غيرَه، مدَّعين أنَّ أصنامَهم واسطةٌ لهم عندَه ﷻ، قائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزّمر: 3].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَهْدًا﴾: (مهد) المَهْدُ: ما يُهَيَّأُ للصَّبيِّ، قال تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩﴾ [مريم: 29]، والمَهْد والمِهاد: المكان المُمَهَّد الموطَّأ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: 53]، و﴿مِهَٰدًا ۝٦﴾ [النّبأ: 6]، وذلك مثلُ قولِه: ﴿ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: 22]، ومَهَّدتُ لك كذا: هيَّأتُه، وسوَّيتُه، قال تعالى: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤﴾ [المدّثر: 14][1]، فالمقصودُ بـ ﴿مَهْدًا﴾ في الآية، أي: بيئةً صالحةً للحياة وللمعيشة، كأنَّها مهدُ الطِّفل الصَّغير.

(1) الرّاغب، المفردات: (مهد).

2) ﴿سُبُلًا﴾: (سبل) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ مِن عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امتِدادِ شَيءٍ، فالأوَّلُ مِن قيلِكَ: أسبَلْتُ السِّتْرَ، وأسبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وبِمائِها، والسَّبَلُ: المَطَرُ الجَوْدُ، وسِبالُ الإنسانِ مِن هَذا؛ لأنَّهُ شَعْرٌ مُنْسَدِلٌ، والثّاني: المُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ، وهوَ الطَّريقُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لامتِداده[1]، فالمقصود بـ ﴿سُبُلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، أي: طُرُقًا ممهَّدةً للسّالكين.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

من رحمة الله تعالى بعباده تهيئةُ الأرض للمعاش

واعلم يا رسولَ اللّه أنَّك إن واجهْتَ كفّار قومِك بسؤالهم عمَّن خَلَقَ السَّماوات والأرض؛ ما وسِعَهم إلّا الاعترافُ بأنَّه اللّه تعالى، فهو اللّه العزيز العليم، الَّذي مِن صفته كمالُ العِزَّة وتمامُ العِلْم؛ فلا يَعوق إرادتَه شيءٌ، ولا يَنِدُّ عن علمه شيءٌ، هو اللّه الَّذي هيَّأ لكم الأرضَ، وجعلها موطَّأةً مهيَّأةً للحياة، وفيرة أسبابها، كالمهاد الَّذي يُهَيَّأ للرَّضيع الضَّعيف، فتمارسون على هذه الأرض حياتَكم براحة وسلام، وذلك رحمةٌ من الخالق ﷻ بكم، وجعل لكم في الأرض سُبُلًا وطُرُقًا، وجعل لكم بين جبالها فِجاجًا تسلكونها، وتنتقلون فيها حيثُ تشاؤون، ولا يَعوقُكم عائقٌ يحول دون مرادكم، وفي ذلك - لِمَن يُنعِم النَّظرَ - دليلُ القدرة المطلقة، وشاهِدُ الوحدانيَّة الحَقَّة للّه الواحد ﷻ؛ فتهتدون بها إليه، وتستدلّون بها عليه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ﴾:

من مكنون اعتقاد الكافرين أنَّ خلق السَّماواتِ والأرضِ لله تعالى لا لمعبوداتهم

(الواو) في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ﴾ تحتمل العطف على جملة: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ عطْفَ الغرض، وهو انتقالٌ إلى الاحتجاج على بُطلان الإشراك بإقرارهم الضِّمني أنَّ أصنامهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبل).

خاليةٌ عن صفة استحقاق أن تُعبَد[1]، أو أن تكون (الواو) استئنافيَّة، تستأنف خطابًا للرَّسول ﷺ وللدُّعاة من بعده؛ بحيثُ تكشف مكنونَ اعتقادِ المشركين فيما يتعلَّق بقضيَّة الخَلْق، وأنَّها للّه تعالى، ولا تعلُّق للأصنام بها.

معنى (اللّام) في: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾:

(اللّام) في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ تؤذن بِقَسَم، وتوطِّئ له، وتقديره: واللّهِ لئن سألتهم مَن خَلَق السَّماواتِ والأرضَ؛ فلَن يجدوا بُدًّا مِنَ الاعتراف والإقرار بأنَّه اللّه.

دلالةُ (إنْ) في: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾، ولطيفةُ إيثارِها على (إذا):

(إن) في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ شرطيَّة، تُفيد احتمالَ سؤالِه ﷺ إيّاهم هذا السُّؤال أو عدمَ سؤالِه، وهي للشَّكِّ والاحتمال وعدمِ القَطْع، فتُخَيِّرُ الرَّسولَ ﷺ، وتُفسِحُ له بحيثُ يعالجهم بحسب الأحوال، ولا تقطعُ بوجوب سؤالِهم، ولا تُلْزِمُه به، وتوحي بأنَّ له أن يَتحيَّن لكلِّ نِقاش حينَه، وأن يُرجِّحَ لكلِّ مَدعوٍّ ما يناسبُ حالَه من أساليب الدَّعوة؛ إن سؤالًا، وإن إخبارًا، أمّا (إذا) - لو عُبِّر بها في غير القرآن - فتقطعُ بوجوب أحدِ الاحتمالين، وهو سؤالهم، وذلك يُضيِّق على الدّاعية خياراتِ الدَّعوة الَّتي تقتضي لكلِّ مقامٍ مقالًا.

للدّاعيَة أن يَتحيَّن لكلِّ نقاشٍ حينَه، وأن يُرجِّحَ لكلِّ مَدعوٍّ ما يناسبُه

حكمةُ السُّؤال في: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾:

في التَّعبير بالسُّؤال في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تنبيهٌ إلى جدوى المناظرات والمناقشات مع الكافرين والجاحدين في دَحْض أباطيلِهم، وإلزامِهم الحُجَّةَ، وإلجائِهم إلى الإقرار بالحَقِّ صاغرين، وذلك إذا كان المُناظِر على مِنهاج الفقهاء الأذكياء، ذوي الفطنة والعِلْم والتَّبحُّر في الدّين.

مناظرةُ الجاحدين مُجديَةٌ في دحض أباطيلهم، وإلجائهم إلى الإقرار بالحقِّ صاغرين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 167.

نُكْتَةُ صَوْغِ الفعل ﴿سَأَلْتَهُم﴾ ماضيًا:

جاء الفعل (سأل) في جملة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ﴾ ماضيًا، مع أنَّه مستعمَلٌ في المستقبل، بدلالة (إن) الشَّرطيَّة، ولطيفةُ ذلك: الإلحاحُ على بيان جدوى السُّؤال في إقناع المخالِفين، وضرورتِه وأهمِّيَّتِه في استنطاقهم بالحقِّ.

مرجعُ ضمير الخطاب في: ﴿سَأَلْتَهُم﴾:

المخاطَبُ الأوَّل بالقرآن الرَّسولُ ﷺ، ثمَّ كلُّ مَن يَصلُح لهذا الخطاب

تاء الخطاب في جملة: ﴿سَأَلْتَهُم﴾؛ للنَّبيِّ ﷺ، وهو ظاهر سياق التَّسلية، ولأنَّه المخاطَبُ الأوَّلُ من النّاس بالقرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ [الشّعراء: 193 - 194]، أو يكون الخطاب لِغير معيَّن؛ ليَعُمَّ كلَّ مخاطَبٍ يُتَصَوَّر منه أن يسألَهم[1]؛ إذ «إنَّ العُلماءَ ورَثَةُ الأنبياءِ»[2] في حَمْلِ عِبءِ الدَّعوة والتَّصدّي للكفر والكافرين، ووراءَ هذا الخطاب (لئن سألتَهم) تعجيبٌ من حال الكافرين؛ إذ إنَّهم يُكَذِّبونه ﷺ في دعوته، ويُنكِرون رسالتَه، ويرفضون التَّوحيد، بينما هم يُقرّون للّه تعالى بالخَلْق والأمر.

مرجعُ ضمير المفعول في: ﴿سَأَلْتَهُم﴾، ولطيفةُ التَّعبير به:

مَن يتجرَّأ على إيذاء الرَّسول ﷺ جديرٌ بالإهمال والبُغْض

جاء ذِكر كفّارِ قريش - المُتحَدَّثِ عنهم - في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ إضمارًا لا إظهارًا، وبالإظهار يكون التَّقدير: (ولئن سألت الكفّار)، وفي ذلك الإضمار إكرامٌ لرسول اللّه ﷺ وتطييبٌ لخاطره؛ كِفاءَ ما صبر على أذاهم، كذلك في إيثار ذِكرهم بالإضمار تثبيطٌ لشَرِّهم، وإهمالٌ لشأنهم، واستهانةٌ بقَدْرِهم، وبُغْضٌ لكفرهم وجَهْلِهم؛ وهكذا يَستَحقُّ من يتجرَّأ على إيذاء الرَّسول الكريم ﷺ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 168.

(2) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (3641)، والتّرمذيّ في سننه، برقم: (2682)، وابن ماجه في سننه، برقم: (223) مطولًا، والدّارميّ في مسنده، برقم: (348).

نُكْتَةُ صَوْغِ الفعل ماضيًا في: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

جاء فعلُ الخَلْقِ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لِما في صيغة الماضي من الإشارة إلى قِدَم خَلْقِهما عن خَلْق ما بعدَهما من الإنس والجنِّ، فصيغةُ المُضيِّ تتَّسِق مع الواقع، وتلفت الغافلين إليه.

الإشارةُ إلى قِدمِ خَلْقِهما عن خَلْقِ ما بعدَهما من الإنسِ والجِنِّ

لطيفةُ حكاية السُّؤال بصيغته في: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

في النَّصِّ على صيغة السُّؤال الذي سيُلقيه الرَّسولُ ﷺ على الكفّار تعليمٌ وتوجيهٌ إلى الأسئلة المُحْكمة في إلجاء المنكرين إلى الاعتراف الصَّريح، والإقرار المباشَر لله تعالى بالحقِّ والمُلْك.

صَوْغُ أسئلةِ المناظرات بإحكام يَضطرُّ أهلَ الباطل إلى الخضوع للحَقِّ

موقع: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾:

تقع جملة ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ من التَّركيب الأكبر: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ موقع المفعول؛ إذِ التَّقدير: ولئن سألتهم قائلًا: مَن خَلَقَ السَّماوات والأرض، وحُذِف العامل؛ إيجازًا وتركيزًا على مقول القولِ دونَ القولِ نفسِه.

قد يُحذَفُ القولُ للتَّركيز على مَقولِه دونَه

معنى (اللّام) في: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، وموقعُ فعلِ القول فيها:

(اللّام) في جملة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ لامُ التَّوكيد الواقعةِ في جواب القَسَم؛ لأنَّ جملة: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يجتمع فيها جوابا القَسَم والشَّرط المُتقدِّمين في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾، "وهذا على القاعدة في اجتماع الشَّرْط والقَسَم، من حذف جواب المتأخِّر منهما"[1]، وفي هذا الدَّمجِ البديع تعانُقٌ يمنح التَّراكيب القرآنيَّة وثاقةً، ويدعم وحدةَ السّياق القرآنيِّ الكريم.

اجتماعُ جوابَي القَسَم والشَّرْط يُحقِّق التَّعانُقَ في السِّياق ويمنحُه الوثاقة

دلالةُ التَّعبير بالقول في جملة الجوابين:

في التَّعبير عن الجواب بالقول في جملة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ تصريحٌ فيه تأكيدٌ لنسبة هذا الإقرار إليهم، وذلك بِنطقهم المباشَرِ بلا مواربةٍ ولا مغالطة، بنسبةِ الخَلْق إلى الله تعالى دونَ سواه، ممّا يزيد

الاعترافُ باللِّسان حُجَّةٌ مُلْزِمة

(1) القِنَّوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 12/ 329.

العجَب من تناقُضهم عجبًا، ويُقرِّر "أنَّ الحُجَّةَ قائمةٌ عليهم شاؤوا أو أبَوا"(1)، ويعرّيهم أمامَ أنفسِهم، ويُؤكِّد الدَّليل على جُرْمِهم في تكذيبهم رسولَ اللّهِ ﷺ.

براعةُ حشد المؤكِّدات:

مهما حاول الكاذِبُ إخفاءَ كَذِبه فإنَّه سيسقط في الاعتراف بالحقِّ

في إحاطة اعتراف المشركين الصَّريح بنسبة خَلْقِ السَّماوات والأرض للّه تعالى بالمُؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وهي اللّام الموطِّئة للقَسَم ﴿وَلَئِن﴾، واللّام في أوَّل الإقرار ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، ونون التَّوكيد الثَّقيلة في آخره - دلالةٌ على عمق الإيمان بنسبة الخَلْق إلى اللّه تعالى وتقرُّره في نفوسهم، ممّا يعكس حجمَ معاناتِهم النَّفسيَّة في تناقُض اعتقادِهم مع سلوكهم، فبينما هم يؤمنون بذلك، يُكذِّبون الرَّسولَ ﷺ، ويجاهدون دعوتَه إلى توحيد اللّه تعالى والإيمانِ بالقرآن الكريم وإلى ذلك، فـ"تأكيد الكلام باللّام الموطِّئة للقَسَم، ولام الجواب، ونونِ التَّوكيد؛ لتحقيق أنَّهم يُجيبون بذلك؛ تنزيلًا لغير المُتردِّد في الخبر منزلةَ المُتردِّد"(2).

بلاغةُ الكناية في: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾:

تناقُضُ المشركِ في سلوكه وعقائده دليلُ اختلالِ تفكيره

يقول ابن عاشور: بأنَّ تنزيل غيرِ المُتَردِّدِ في الخبر منزلةَ المُتَردِّد في تضافر التَّأكيدات في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ﴾؛ "كنايةً عن جدارة حالتهم بالتَّعجيب من اختلال تفكيرهم وتناقض عقائدهم، وإنَّما فرض الكشف عن عقيدتهم في صورة سؤالهم عن خالقهم؛ للإشارة إلى أنَّهم غافلون عن ذلك في مجرى أحوالهم وأعمالهم ودعائهم، حتّى إذا سألهم السّائلُ عن خالقهم لم يتريَّثوا أن يجيبوا بأنَّه اللّه تعالى، ثمَّ يرجعون إلى شِرْكهم"(3).

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 40.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 167.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 167.

حكمةُ إعادةِ ذِكْرِ المسند في: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾:

عبادةُ غيرِ الله مع الإقرار له بالخَلْق والأمر دليلُ الغفلة ونهاية الضَّلال

ذُكِرَ فعلُ الخَلْق في سؤال المشركين: ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، ما يغني عن تكراره في جوابهم: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، لكنَّهم كرَّروه، فقالوا: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، وفي ذلك دلالةٌ على عمق إيمانهم بإسناد خَلْق السَّماوات والأرض إلى الله العزيز العليم، "وهذا أسوأُ لحالهم، وأشدُّ لعقوبتهم؛ لأنَّهم عبدوا بعضَ مخلوقات الله تعالى، وجعلوه شريكًا له، بل عمدوا إلى ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا ينفع، ولا يَضُرُّ من المخلوقات - وهي الأصنام - فجعلوها شركاءَ لله سبحانه"[(1)].

نُكْتَةُ إيثار ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ هنا دونَ الاسم الجليل:

إفحامُهم بأنَّه الَّذي يجب رجاؤُه في الشَّدائد لِعزَّته، والإخلاصُ له لكمال عِلمِه

في إيثار وصفَي العِزَّة والعِلْم تركيزٌ على دلالتيهما، فإنَّ مَن يَقْدِر على خَلْق هذه الكائنات العملاقة الَّتي لا يُحاط بها، لا يكون إلّا ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، الَّذي لا يعجزُه شيءٌ، والَّذي وسِعَ علمُه كلَّ شيء، وقد "عُدِل عنِ الاسم الجليل إلى ذكر الصِّفتين؛ "زيادةً في إفحامهم، بأنَّ الَّذي انصرفوا عن توحيده بالعبادة عزيزٌ عليم، فهو الَّذي يجب أن يرجوه النّاسُ للشَّدائد لِعزَّته، وأن يخلصوا له باطنهم؛ لأنَّه لا يخفى عليه سِرُّهم، بخلاف شركائهم فإنَّها أذلَّةٌ لا تعلم، وإنَّهم لا ينازعون وصفَه بـ العزيز العليم"[(2)].

دلالةُ تخصيص صِفتَي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

إقرارُهم بصفتَي العزيز العليم، ينادي بتبكيتهم والتَّعجيب من شِرْكهم

نَصَّ مقولُ القولِ في جملة: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ على صِفتَي العِزَّةِ والعِلم بخاصَّة من بين أسماء الله تعالى الحُسنى وصفاته العُلا؛ إقرارًا بما يفتقده الكفّار في معبوداتهم من الأصنام وغيرها دونَ الله تعالى، فلا عِزَّة لها، ولا عِلم يُمَكِّنها به إبداعُ هذه الأكوانِ

---

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 12/ 329.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 168.

والأجرام العظيمة، بل إنَّ "الأصنام عاجزةٌ عن دفْعِ الأيدي"[1]، والَّذي خلق السَّماوات والأرض ينبغي أن يكون عزيزًا متفرِّدًا بالعِزَّة، فلا يحتاج إلى مُعين، ولا يدخل على عِزَّته ضَيْمٌ بِمشاركة شريك، وصفتا ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ وإن لم تكن ممّا نطق به القوم مقالًا، فقد نطقوا به حالًا والتزامًا، فإنَّ إقرارهم بأنَّ اللّه تعالى هو الذي خلق السَّماوات والأرض، يَقضي بأن يكون للّه سبحانه العِزَّةُ المطلقة، والعِلمُ الشّامل[2]، و"إذا كانوا مُقرِّين بذلك؛ فكيف يجعلون له الولدَ والصّاحبةَ والشَّريك؟ وكيف يُشركون به مَن لا يَخلق، ولا يَرزق، ولا يُميت، ولا يُحيي!"[3].

دلالةُ الحذفِ في: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

الاسمُ الجليل متضمِّنٌ الأسماءَ الحسنى والصِّفاتِ العُلا كلَّها؛ فكلُّها من مقتضياته

جمهورُ المفسِّرين على أنَّ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ من قول اللّه تعالى، لا من جواب الكفّار، وأنَّهم إنَّما قالوا: (خلقهن اللّه) فقط، كما ورد في آياتٍ أُخَر، لكنَّ الاسم الجليل - وهو (اللّه) - "متضمِّنٌ لهذه الأوصاف ومستلزِمٌ لها، فكأنَّهم لمّا قالوا: (اللّه)؛ ذَكروا هذه الأوصافَ كلَّها ضِمنًا، فحكاه اللّهُ تعالى عنهم بما يلزمه، ومعناه، وإن لم يقصدوه"[4]، فوَصَفَ اللّهُ تعالى نفسَه بذلك، وسيق سياقًا واحدًا[5]، وقد أفاض ابن المُنَيِّر في تفصيل ذلك، فقال: "والذي يظهر أنَّ الكلام مجزَّأٌ، فبعضُه من قولهم، وبعضُه من قول اللّه تعالى، فالَّذي هو من قولهم: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾، وما بعدَه من قول اللّه ﷻ، وأصل الكلام أنَّهم قالوا: (خلقهن اللّه)، ويدلُّ عليه قوله في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 168.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 109.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 763.
(4) الخفاجيّ، عِنايةُ القاضي: 7/ 433.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 105.

[لقمان: 25]، ثمَّ لمّا قالوا: (خلقهنَّ اللّهُ)؛ وصفَ اللّهُ تعالى ذاتَه بهذه الصِّفات ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ ولمّا سيق الكلامُ كلُّه سياقةً واحدة؛ حُذِف الموصوف مِن كلامهم، وأُقيمت الصِّفاتُ المذكورة في كلام اللّه تعالى مقامَه، كأنَّه كلامٌ واحد"[1]، ولا فرق بين أن يكون وصفا ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ من كلامهم، أو من كلام اللّه تعالى؛ "فإنَّه حكايةُ كلامٍ عنهم متَّصل به كلامُه تعالى على أنَّه مِن تتمَّته، وإن لم يكن قد تفوَّهوا به"[2].

موقعُ قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ من التَّركيب:

عِـزَّةُ الله تعالى وعِـلْـمُـه المحيطُ سببان في جَعْله الأرض مهدًا

قولُ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ كلامٌ مبتدأٌ غيرُ متَّصلٍ بما قبلَه، ولو كان متَّصلًا بما قبله من جملة مقول الكفّار؛ لقالوا: (الذي جعل لنا الأرضَ مهادًا)[3] بصيغة التَّكلُّم، ففيه تَخَلُّصٌ مِنَ الاستدلال على تفرُّده بالإلهيَّة - بأنَّه المُنفرد بخَلْق السَّماوات والأرض - إلى الاستدلال بأنَّه المُنفرِد بإسداء النِّعم الَّتي بها قَوام أَوْدِ حياة النّاس، فالجملةُ استئنافٌ حُذِف منها المبتدأ، والتَّقدير: هو الَّذي جعل لكم الأرضَ مهادًا؛ إذ تقدَّم الحديثُ عن اللّه تعالى فيما قبلَ هذه الجملة[4]، أو يكون قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ بدلًا أو بيانًا لصِفتي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، فالعزيزُ العليم: هو الَّذي جعل لكم الأرض مهدًا، وهيَّأها لحياتِكم، وأنَّ عِزَّتَه وعِلْمَه المحيطَ سببان في جَعْل الأرضِ كذلك.

وجهُ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

في التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ لَفْتٌ إلى ما يتعلَّق بمصالح المشركين من تفاصيل جملةِ الصِّلة، من

(1) ابن المنيِّر، الانتصاف: 4/ 238.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 66.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 627.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 168.

جَعْلِه تعالى الأرضَ مهدًا، وجَعْلِها كذلك لهم هم بخاصَّة...إلخ، كما أوثِرَ التَّعبير بالموصول؛ "للاشتهار بمضمون الصِّلة، فساوَى الاسمَ العَلَم في الدَّلالة"(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿جَعَلَ﴾ ماضيًا في الصِّلتَين معًا:

أحكمَ اللهُ تعالى خَلْقَ الأرضِ للإنسان، وكلُّ ما فيها تمَّ برحمته تعالى

في اصطفاء الفعل ﴿جَعَلَ﴾ في الصِّلتين: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ دون غيرِه من الأفعال، مثل: (خلق) و(سخّر)، إشارةٌ إلى إحكامِه تعالى خَلْقَ الأرضِ وترتيبَها وتمهيدَها لحياة الإنسان، وشَقِّ فِجاجِها بين الجبال، وفي صَوْغ فعل الجَعْل ماضيًا ﴿جَعَلَ﴾ إيحاءٌ بأنَّ كلَّ ما في الأرض ممّا كُشِف، وممّا لمّا يُكتشف بعدُ، قد تحقَّق، وتمّ بفضل اللّه تعالى ورحمته، وفي ذلك "دلالةٌ على الانفراد بِالقُدرة العظيمة، وعلى النِّعمة عليهم، ولذلك أقحم لفظَ (لَكُمْ) في الموضعَيْن، ولم يقل: الَّذي جعل الأرض مهادًا، وجعل فيها سبلًا، كما في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النَّبأ: 6 - 7]؛ لأنَّ ذلك مَقامُ الاستدلال على مُنْكري البعث، فسِيقَ لهم الاستدلالُ بإنشاء المخلوقات العظيمة، الَّتي لا تُعدُّ إعادةُ خَلْقِ الإنسانِ بالنِّسبة إليها شيئًا عجيبًا"(2).

نُكْتَةُ الاكتفاء بموصولٍ واحد، وتكرارِ الصِّلتين:

تعدُّدُ النِّعم يوجب لله تعالى الطّاعةَ والشُّكرَ، وذلك يستلزم المزيدَ

اكتفى النَّظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ بموصولٍ واحد ﴿ٱلَّذِى﴾ للصِّلَتين ﴿جَعَلَ﴾ ﴿وَجَعَلَ﴾؛ "لأنَّ الصِّلَتين تجتمعان في الجامع الخياليِّ؛ إذ كلتاهما من أحوال الأرض، فجَعَلَهما كجَعْلٍ واحد"(3)، ومن لطائف تَكرار فِعلِ الجَعْلِ التَّنبيهُ إلى تَعداد النِّعم وتنوُّعِها، ممّا بثَّه اللّهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 169.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 169.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 167.

تعالى للنّاس في الأرض؛ ممّا يوجِب له تعالى الطّاعةَ، والشُّكرَ، ممّا يستلزم المزيد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 7]، وفي تكرار فعلِ الجعل أيضًا إلحاحٌ على إحكام العزيز العليم خَلْقَ الأرض، وإيجادَ السُّبُلِ فيها.

معنى (اللّام) في: ﴿لَكُمُ﴾، ولطيفةُ تقديمِه على المفعول:

هيَّأ اللهُ تعالى الأرضَ للإنسان، واختصَّه بما فيها جميعًا

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ لامُ الاختصاص، أي: إنَّه تعالى اختصَّهم بالأرض، وهيَّأها خِصّيصًا لهم لا لغيرهم، بكلِّ ما فيها من أنهارٍ وبحارٍ وجبالٍ وغيرِها، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: 13]، وفي تقديم القيد بالجارِّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ على المفعول ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ تنبيهٌ قويٌّ إلى تكريم اللّٰه تعالى لهم، وعنايته بهم، وكأنَّه يُمَلِّكُهم الأرضَ هم بخاصَّة، وفي ذلك التَّقديمِ تناغمٌ مع دلالة (اللّام) في هذا القيد.

لطيفةُ الاكتفاءِ بخَلْق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ عمّا دونَها:

الاكتفاءُ بالسَّماوات والأرض مناسِبٌ لمعارف الإنسان ومصالحه الَّتي لا تتعدّاها

في النَّصِّ على خَلْق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ اكتفاءٌ عن ذِكْر ما وراءَهما من المخلوقات العِظام، وإن كانت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ في مُلك اللّٰه تعالى شيئًا ضئيلًا، فعن مجاهد قال: "ما السَّماواتُ والأرْضُ في الكُرْسيِّ إلّا كَحَلْقَةٍ في أرْضٍ فَلاةٍ"(1)، وذلك الاكتفاءُ مناسِبٌ لمعارف الإنسان ومصالحه، الّتي لا تتعدّى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾.

بلاغةُ التَّشبيه في: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾:

في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ تشبيهٌ حسّيٌّ كاشفٌ لهم عن المعنى، وفي إيثار الحِسّيَّة هنا اتِّهامٌ لإدراكهم بالبلاهة، وتقريرٌ؛ لأنَّهم لا يفهمون إلّا ما يُشاهدونه بأُمِّ أعينهم، وفي التَّصوير

(1) ابن حنبل، السّنّة: 1/ 247، وبرقم: (456).

بالمَهْد إشاراتٌ حانية؛ فـ "المهد: الَّذي يُهَيَّأ للوليد ساعةَ يولد؛ إذ يقوم على هذا المهد مَن يرعى هذا الوليد، ويسهر على راحته، فهذه الأرض هي المهدُ الَّذي يحتوي النّاسَ، والَّذي تحفُّه عنايةُ اللّه ورعايتُه، بما يُمِدُّهم به سبحانه من نِعَمِه، وما يُفيض عليهم من فضله، وأنَّه لولا هذه الأَمْدادُ لم يكن للنّاس حياةٌ"[1]، "ولو شاء؛ لجعلها مَزلَّةً لا يثبت فيها شيءٌ، كما ترون من بعض الجبال، ولو شاء؛ لجعلها متحرِّكةً، فلا يمكن الانتفاعُ بها في الزِّراعة والأبنية، فالانتفاع بها إنَّما حصل لكونها مسطَّحةً قارَّةً ساكنة"[2].

الكفرُ يطمس إدراكاتِ صاحبِه، ويحولُ بينَه وبين دقائق المعاني

توجيهُ القراءات القرآنيَّةِ في لفظ: ﴿مَهْدًا﴾ وبلاغتها:

قرأ الكوفيون ﴿مَهْدًا﴾، وقرأ الباقون ﴿مِهَادًا﴾[3]، والفرق بينهما: أنَّ المَهْدَ مصدرٌ، والمهادَ اسمُ مصدرٍ، كالفَرْش: المصدر، والفِراش: اسمٌ لما يُفْرَشُ، والمعنى على المصدر: جعْلُ الأرضِ نفْسَ المَهْدِ مبالغةً، كأنَّ الأرضَ في حقيقتها مجعولةٌ من المَهْدِ لكثرةِ ما يلزمُها هذا الوصفُ، ويتمكَّن منها، وإمّا على حذف مضاف، أي: جعلَها ذاتَ مَهْدٍ، وإمّا بجعلِ المصدر على معنى المفعول اتِّساعًا في المعنى، أي: مُمَهَّدَةً، والمعنى على اسم المصدر ﴿مِهَادًا﴾ إرادةُ النوعيَّة، أي: نوعٌ محدَّدٌ في التمهيد والرّاحة لكلِّ إنسانٍ، فالمصدرُ يدلُّ على الجنسيَّة، واسم المصدر يدلُّ على النوعيَّة، فالمَهْدُ هو المعنى المجرَّدُ الجامع لأنواع المُهودِ وألوانها، والمَهْدُ يُثبِتُ حقيقةَ الجنس للأرض في عموم مواضعها، والمهادُ اسم المصدرِ، يدلُّ على النَّوعيَّة، أي: لونٌ مُعيَّنٌ مُحدَّدُ المجال، فيدلُّ على اسم الشَّيءِ الذي يتلبَّس به الفاعلُ، فيُمهَد، كالفِراش الذي هو الشَّيء المحدَّد الذي يفترشُهُ الفاعل، ويلابسه، وأمّا المصدرُ ﴿مَهْدًا﴾؛ فيدلُّ على معنى الشَّيء

أصلُ المهدِ مصدرٌ ثم جُعِلَ اسمَ جنسٍ لما يُمهَّد للصبيّ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 110.
(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 12/ 330، والتسطيح بنسبة هيئتها الظاهرة.
(3) ابن الجزري، تحبير التيسير، ص: 458.

قبل ارتكابه وتخصيصه بمُباشرة الفاعلِ له، ولذا فإنَّه لمّا أراد هنا أن ينبِّهَ على الوصف المعنوي الثابت للأرض؛ عبَّرَ بالمصدر، وحين يريد أنْ ينبِّهَ على مباشرةٍ لنوعٍ من هذا الوصف يعبِّرُ باسم المصدر، هذا؛ لأنَّ اسمَ المصدرِ يدلُّ على الاسم المفهومِ من الحدث، والمصدرُ يدلُّ على الحدث، فاسمُ المصدرِ هو أثرُ المصدر، واسم المصدر يدلُّ بموجبِه على اسم الشَّيء وعلى الذاتِ التي تعلَّق بها، أو باشَرَتْهُ[1].

أو أنَّ المَهْدَ مفردٌ، والمِهادَ جمعُهُ، كفَرْخٍ وفراخٍ وكَعْبٍ وكِعابٍ، والمعنى على الجمع، أي: جَعَلَ كلَّ موضعٍ منها مَهْدًا لكلِّ واحدٍ منكم، والمعنى على المفرد: إرادةُ الجنسِ، وهو من دلالاتِ الإفرادِ، فالجمعُ لاستيعابِ مواضعها وأقاليمها، والإفرادُ لكونها في جملتها طبقةً واحدة[2].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿سُبُلَا﴾:

تيسيرُ وسائلِ السَّيرِ في الأرض لُطفٌ عظيمٌ من الله تعالى يستحِقُّ شُكْرَه

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلَا﴾ امتنانٌ من الله تعالى على عباده؛ إذ "مكَّن لهم الوصولَ إلى حوائجهم الَّتي فرَّقها في الأمكنة المتباعدة؛ بما جعل لهم فيها سبلًا وطُرقًا يسلكون فيها؛ ليصلوا إلى الحوائج الَّتي فُرِّقت في البلدان المتباعدة، ما لولا جَعْلُه فيها السُّبلَ والطُّرقَ التي جعَل؛ ما قَدروا السُّلوكَ فيها، ولا عرفوا أنَّهم من أيِّ جهةٍ يصلون إلى حوائجهم الَّتي فُرِّقت؟ فيلزمهم بما ذُكِر القيامُ بشُكْره على تلك النِّعم"[3].

وإنَّ من السُّبُل سبلًا وطُرقًا مائيَّةً وزراعيَّة[4]، ومنافذَ بين سلاسل الجبال المتَّصلة، يَنفُذون منها إلى ما وراءَها من الأقطار[5]، وبها يعرفون وجوهَ الأرضِ، وينتقلون من مكان إلى مكان دونَ أن يَضِلّوا؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 518.

(2) ابن عادل، اللباب: 13/ 276، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 436، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 518، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 12/ 366.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 151.

(4) حجازيّ، التّفسير الواضح: 3/ 385.

(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 763.

فيضربون في كلِّ وجهٍ من وجوه الأرض، ثمَّ يعودون إلى مواطنهم، كما تعود الطَّير آخِرَ النَّهار إلى أعشاشها[1]، و"في تيسير وسائل السَّير في الأرض لُطف عظيمٌ؛ لأنَّ به تيسيرَ التَّجمُّع والتَّعارُف، واجتلابَ المنافعِ، والاستعانةَ على دَفْعِ الغوائل والأضرار، والسَّيرُ في الأرض قريبًا أو بعيدًا من أكبر مظاهرِ المدنيَّة الإنسانيَّة؛ ولأنَّ اللّٰه جعل في الأرض معايشَ النّاسِ من النَّبات والثَّمر وورقِ الشَّجر والكَمَأةِ والفقعِ، وهي وسائل العيش، فهي سبلٌ مجازيَّة"[2].

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليَّة في: ﴿لَّعَلَّكُمۡ﴾:

(لعلَّ) في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ للتَّعليل، أي: جعل لكم الأرض مهدًا، وجعل لكم فيها سبلًا؛ "لكي تهتدوا في أسفاركم إلى مقاصدكم"[3]، ولتكونوا على "رجاءِ حصول علمِكم بوحدانيَّة اللّٰه تعالى، وبما يجب له، ومعنى الرَّجاء المستفادِ من (لعلَّ) استعارةٌ تمثيليَّةٌ تبعيَّة، مَثَّل حالَ مَن كانت وسائلُ الشَّيء حاضرةً لديه، بحال مَن يُرَجَّى لحصول المتوسَّل إليه"[4].

تـدبُّـرُ صُـنـعِ الـلـه تـعـالى في كونه يَهدي إلى توحيده

دلالةُ الهداية في: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾:

الهداية في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ تتعلَّق بالاستدلال بالخَلْق على الحَقِّ سبحانه، بإرشاد الرَّسول ﷺ لا معاداته، أي: لعلَّكم "تهتدون إلى وجود الصّانع الحكيم، أو تهتدون إلى مقاصدكم ومصالحكم"[5]، وفي جملة: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ "دلالةُ حِكْمته؛ ليَدُلَّهم على أنَّه إنَّما جعل لهم ما ذُكِر لحِكمة، لم يجعلها عبثًا باطلًا؛ فيَلزَمُ حيثُ فرَّق حوائجَهم في أمكنة متباعدةٍ، ثم مَكَّن لهم الوصولَ

مَن قدَر على أن يجعل الأرضَ مهدًا، ويسلكَ للنّاس فيها سُبلًا، لا يُعجِزُه شيءٌ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 110.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 170.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 65.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 170.
(5) حجازيّ، التّفسير الواضح: 3/ 385.

إليها؛ ليُعْلَمَ أنَّ الَّذي مَلكَ أنفسَهم هو مالكُ أطرافِ الأرض؛ إذ لو كان هذا غيرَ مالكٍ ذلك؛ لمنعهم عن الوصول إلى حوائجِهم، وفيه دلالةُ قدرتِه؛ إذ جعل لهم في الأرض ما ذَكر من التَّسخير لهم، حتّى يظهروها، ويفترشوها، ويسلكوا فيها السُّبلَ الَّتي جعلها لهم إلى حيثُ أرادوها، وقصدوها، ومكَّن لهم ذلك ليُعلَم أنَّ مَن قَدَر على ما ذُكِرَ لا يُعجزه شيءٌ"[1].

نُكْتَةُ المضارعةِ في: ﴿تَهْتَدُونَ﴾:

تقليبُ النَّظرِ في خَلْق الله تعالى وتجديدُه يَزيد العبدَ هُدًى وإيمانًا

المضارعةُ في جملة ﴿تَهْتَدُونَ﴾ تحمل العبد على تقليب النَّظرِ في خَلْق اللّه تعالى حيثما تقلَّب في الأرض، وتجديدِ الفكر، فتتجدَّدُ له الهدايةُ، ويبصرُ أسرارَه تعالى في تمهيدها، وفي سبلها وفجاجها، ويقلِّب النَّظرَ، ويُجَدِّد الفِكرَ؛ فيزداد هُدًى إلى هُداه، وإيمانًا إلى إيمانه، واستقامةً على دين اللّه، فيفوز فوزًا عظيمًا إن شاء اللّه تعالى.

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 151.

﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١١﴾ [الزّخرف: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

كمالُ المِنَّةِ بالوجودِ وتنوُّعِ النِّعمة

لمّا ذكرَ اللّه تعالى أنَّه الّذي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وما فيها، وذكرَ أنَّه جعلَ الأرضَ مهدًا للإنسانِ، ووضعَ فيها سُبُلًا وطُرُقًا يَهتدي بها الإنسانُ إلى مَقصدِهِ أوّلًا وإلى ربِّه ثانيًا؛ ناسَبَ أنْ يذكُرَ أنَّ هذه الأرضَ تحتاجُ إلى عواملِ بقاءٍ ودوامٍ، وهو الماءُ الذي ينزل بقَدَرٍ؛ ليُحيِيَ الأرضَ بعدَ مَوْتِها، بخروجِ أنواعِ النَّباتِ والمزروعاتِ، ومثلُ هذا الخروجِ يكونُ بروزُ الإنسانِ من القبرِ للبَعْثِ والحِساب.

في حين رأى البقاعيُّ وجهًا آخرَ مَفادُهُ: "لمّا كان إنزالُ الماءِ من العُلوِّ في غايةِ العجَبِ لا سيَّما إذا كان في وقتٍ دونَ وقتٍ، وكان إنباتُ النَّباتِ به أعجبَ، وكان دالًّا على البعثِ ولا بدَّ، وكانَ مقصودُ السّورة أنَّه لا بدَّ من ردِّهم عن عِنادِهم بأعظمِ الكُفرانِ إلى الإيمان، والخضوعِ له بغايةِ الإذعان؛ قال دالًّا على كمالِ القدرة على ذلكَ وغيرِهِ بالتَّنبيهِ على كَمالِ الوصفِ بالعطفِ"(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِقَدَرٖ﴾: (قدر) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِهِ ونِهايَتِه، وقَدَرْتُ الشَّيءَ أقدِرُهُ وأقْدُرُهُ مِنَ التَّقدير، وقَدَّرتُه أُقَدِّرُهُ، والقَدْرُ: قَضاءُ اللّه تَعالَى الأشياءَ عَلى مَبالِغِها ونِهاياتِها الَّتي أرادَها لَها، وهو القَدَرُ أيضًا(2)، وإذا وافقَ الشَّيءُ شيئًا؛ قيل: جاءَ عَلى قَدَرِه، والمطر ينزل بمقدار، أي: بقَدَرٍ وقَدْرٍ(3)، وقَدَرَ الرِّزقَ يَقْدِرُهُ ويَقْدُرُهُ:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 391.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(3) الخليل، العين: (قدر).

قَسَمه، والقَدْرُ والقُدْرَةُ، والمِقْدارُ: القوَّةُ، وقَدَرَ عَلَيه يَقدِرُ ويَقدُرُ وقَدِرَ، بِالكَسرِ، قُدرَةً وقَدارَةً وقُدورَةً وقُدورًا وقِدْرانًا وقِدارًا[1]، والمرادُ به في الآية: بِتَقْديرٍ يكْثُرُ نَفعُهُ، ويقلُّ ضَرَرُهُ، أو بِمِقْدارِ ما عِلمنا من الكِفايَة في المصالحِ والمَعاش[2].

2) ﴿فَأَنشَرْنَا﴾: (نشر) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على فَتْحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه، ومِنهُ نَشَرْتُ الكِتابَ، خِلافَ طَويتُهُ، ونَشَرَ اللهُ المَوتى، فَنَشَروا، وأَنْشَرَ اللهُ المَوْتَى أيْضًا، قالَ تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾ [عبس: 22][3]، ونشَرتُ الثَّوب والكتابَ نَشْرًا: [بسطتُهُ]، والنُّشور: الحياة بعد الموت[4]، ونَشَرَ اللّه المَيْتَ، وأنشَرَه، لُغَتانِ فصيحتان، والمَيِّت منشورٌ ومُنْشَرٌ[5]، ونَشَرَ اللهُ المَيِّتَ يَنْشُرُه نَشْرًا ونُشورًا، وأنشرَهُ، فَنَشَرَ: أحياهُ[6]، والمرادُ بِه في الآيةِ: إحياءُ البلْدةِ المُجدِبةِ بأصنافِ النَّبات، وأهلِها بالسَّقْي والزِّراعة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إحياء المخلوقات كـإنـبـات المزروعات

هذهِ الآيةُ الكريمةُ استمرارٌ وامتدادٌ لبيانِ أنعُمِ اللهِ وآلائِهِ عليهم، فبيَّن لهم أنَّه - تعالتْ عظمتُهُ - نزَّلَ من السَّحاب ماءً بمقدارٍ معلوم، لا هو بالماءِ القليلِ الذي تشُقُّ، أو تستحيلُ معه الحياة، ولا هو بالكثيرِ الذي يُتلِفُ، ويؤذي، وإنَّما هو بحسبِ ما يحتاجُهُ النّاسُ لهم ولدوابِّهم، واستنبات الزَّرع من أرضهم، فأحيا به أرضًا قَحْلاءَ جرداءَ، مثل هذا الإخراج والإحياء نُخرِجُكم من قُبوركم أحياءَ، ونَنشرُكُم بعدَ موتِكم، وما ذلك على اللهِ بعزيزٍ فهو - سبحانَهُ - خلقَكُم بَدءًا، وكما بدأكُم تَعودونَ.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قدر).
(2) أبو البقاء، الكليات، ص: 739.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).
(4) الخليل، العين: (نشر).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رشن).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (نشر).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الواو) في: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ﴾:

عطفَ النَّظمُ قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ﴾ على ما قبلَها؛ للدَّلالةِ على الاستِدْلالِ والامتِنانِ بِخَلْقِ وسائِلِ العَيْشِ فيها، وهو ماءُ المَطَرِ الَّذي بِهِ تُنْبِتُ الأرْضُ ممّا يصلحُ لاقتياتِ النّاسِ[1]، فبينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ تناسبٌ في ذكرِ الأدلَّةِ على الخالقِ الحكيمِ والامتنانِ بالخلقِ العَجيب.

الاستدلالُ على الخالقِ الحكيمِ والامتنانِ بالخلقِ العجيب

دلالة الاسم الموصول في: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ﴾:

دلَّ التَّعريفُ بالاسمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ﴾ على ذاتٍ مُبهَمةٍ عظيمةِ الشَّأنِ معلومةٍ للمُخاطَبِ بالصِّلة؛ إذ لا يُخاطَبُ بها إلّا مَن كانَ بينَهُ وبينَ المتكلِّمِ بها علمٌ بمضمونِها، وانحصارُ صلتِها في واحدٍ لا يقبلُ التَّعدُّدَ؛ إذ لا يقدرُ على هذه الأفعالِ إلّا خالقُ السَّمواتِ والأرضِ.

إبهامُ الموصولِ دالٌّ على عَظَمةِ الشَّأنِ

دلالةُ إعادةِ الاسم الموصولِ:

أعادَ النَّظمُ الكريمُ الاسمَ الموصولَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ﴾ بعدَ قولِه قبلُ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: 10]؛ للاهْتِمامِ بِهَذِهِ الصِّلَةِ اهتِمامًا يَجْعَلُها مُسْتَقِلَّةً، فَلا يَخْطُرُ حُضورُها بِالبالِ عِنْدَ حضورِ الصِّلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَها، فَلا جامِعَ بَيْنَها وبَيْنَهُما في الجامِعِ الخيالي، فَأُعيدَ اسْمُ المَوْصولِ؛ لأنَّ مِصْداقَهُ هو فاعِلُ جَميعِها[2]، وقرَّر البقاعيُّ أنَّه: "بإعادةِ الموصولِ الدّالِّ على الفاعلِ المُذكِّرِ بعظَمَتِه؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الإعادةَ الَّتي هذا دليلُها هي سرُّ الوجود، فهي أشرفُ ممّا أُريدَ من الآيةِ الماضيةِ بمَهْدِ الأرضِ وسَلْكِ السُّبُلِ"[3].

كلُّ أفعالِهِ تعالى جليلةٌ وشؤونِهِ عظيمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 170.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 170 - 171.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 391.

سرُّ جملةِ صِلة المَوصول:

التَّدبُّر في الصُّنعِ تـوصُّلًا للخالقِ الحكيم

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالجملةِ الفعليَّةِ صلةِ الموصول في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ﴾؛ للدَّلالةِ على الحدوثِ والتَّجدُّد، ممّا يستدعي التَّأمُّلَ في المنزِّلِ للماء من السَّماءِ بعدَ أنْ لم يكُنْ نازِلًا، والغرضُ من جملةِ الصِّلةِ إزالةُ الإبهام في الموصولِ إيضاحًا له وكشفًا عن مَعناه، وقد أفادتْ جملةُ الصِّلةِ أنَّ ذلك العملَ العجيبَ والصُّنعَ المُحكَم دالٌّ على خالقٍ حكيمٍ عظيمِ الشَّأن.

سرُّ استعمالِ الفعلِ المضعَّف ﴿نَزَّلَ﴾:

نـزولُ المطرِ آيةٌ والـتَّـنـزيـلُ آيـةٌ أُخرى

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي المضعَّفِ ﴿نَزَّلَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ﴾ دونَ الفعل (أنزلَ)؛ لبيانِ أنَّ تنزيلَ المطرِ يحدثُ على دُفعاتٍ وبشكلٍ منظَّمٍ ومرتَّبٍ بخلاف الفعلِ (أنزل) الَّذي يدلُّ على نزولٍ واحدٍ دفعةً واحدةً؛ إذ الفعلُ المضعَّفُ يدلُّ على الحصولِ التَّدريجيِّ دونَ الدَّفعيِّ، كما أفادَ الفعلُ الماضي على تحقُّقِ ذلك التَّنزيلِ الَّذي لا شكَّ في حصولِه ووقوعِه ممّا يحتاجُ إلى التَّأمُّلِ في نزولِه، وفي الحكمة من تنزيلِه بشكلٍ تدريجيٍّ، فتكونُ هنالكَ آيتانِ: النُّزولُ والتَّنزيلُ المتدرِّجُ، قال البقاعي: "أي: بحسَبِ التَّدريجِ، ولولا قُدرتُه الباهرةُ؛ لكانَ دُفعةً واحدةً أو قَريبًا منها"[1].

دلالةُ تعلُّقِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالفعل الماضي:

تعظيمُ تنزيلِ المطَرِ بتشخيصِ مكانِ نُزولِه

تعلَّقَ بالفعلِ الماضي الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ﴾؛ لبيانِ مكانِ التَّنزيلِ، والمرادُ بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ الأعالي الصّادقةُ بالغَيم والسَّحابِ، "وسُمّيَ نازِلًا مِنَ السَّماءِ؛ لأنَّ كُلَّ ما سَماكَ؛ فَهو سَماءٌ"[2]، وإنَّما لم يقل: (من الغيوم أو السَّحاب)؛ للدَّلالة على عظَمةِ التَّنزيلِ بعظَمةِ المكان، وأنَّ التَّنزيلَ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 391.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 620.

بقضاءٍ منسوبٍ للهِ تعالى، وكأنَّهُ صادرٌ من السَّماءِ، وأنَّ المطرَ لم يختصَّ بغيمٍ في مكانٍ معيَّن، بل كلُّ السَّماءِ تمطرُ، فيُعطي دلالةَ الاتِّساعِ في تنزيلِ المطرِ، و(الـ) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ دالَّةٌ على الجنسِ المتحقِّقِ في الغيمِ الممتدِّ في الأعالي، وكلُّ ذلك من عجائبِ الصُّنعِ والإحكامِ في الخلقِ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

السَّماءُ محلُّ نزولِ الغيثِ والرِّسالاتِ

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعولِ به ﴿مَآءَۢ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمامِ بمكانِ التَّنزيلِ على المُنزَّلِ؛ لأنَّ الغرضَ من السّياقِ بيانُ قدرةِ اللهِ تعالى على فعلِ ما لا يَستطيعُهُ أحدٌ من المخلوقينَ، ولفتُ الانتباهِ إلى أنَّ السَّماءَ هي مَهبطُ الآياتِ والرِّسالاتِ التي تَغيثُ الأرواحَ، والَّذي يُنزِّلُ الماءَ المغيثَ للأبدانِ يُنزِّلُ الآياتِ المُحكَماتِ، ويبعثُ الرِّسالاتِ.

سرُّ تنكيرِ لفظِ: ﴿مَآءَۢ﴾:

الماءُ المُنزَّلُ أساسُ كلِّ صورِ الحياة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن (الماءِ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ﴾ بلفظِ النَّكرةِ؛ للدَّلالةِ على تعظيمِ ذلك الماءِ وتفخيمِ مَكانتِهِ؛ إذ هو الَّذي يُحيي الأرضَ بعدَ مَوْتِها، ويَغيثُ الإنسانَ والحيوانَ.

دلالةُ تعلُّقِ: ﴿بِقَدَرٍ﴾ بلفظِ ﴿مَآءَۢ﴾:

الخَلْقُ المُحكَمُ يدلُّ على خالقٍ حكيمٍ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ ناعتًا (الماءَ) بشِبْهِ الجُملةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ﴾؛ للدَّلالةِ على تخصيصِ الماءِ المنزَّلِ بأنَّه وفقَ مَوازينَ مُحكَمةٍ ومَقاديرَ مُحدَّدةٍ، تدلُّ على عجيبِ الصُّنعِ وكمالِ الإتقانِ في الخَلْقِ، فالغرضُ من الصِّفةِ الاحتراسُ عن الماءِ المنزَّلِ الَّذي لا يكونُ بقدرٍ معلومٍ ونسبةٍ نافعةٍ كما في الطّوفان، فـ: "ما وقعَ في بعضِ الأوقاتِ من الضَّررِ بكثرةِ المطَرِ أو

بقلَّتِه؛ فلتضمُّنِه خيرًا راجحًا عليه، وإن لم نطَّلِعْ عليه"[1]، وهكذا يكونُ النُّزولُ آيةً والتَّنزيلُ التَّدريجيُّ آيةً أُخرى، والتَّنزيلُ من السَّماءِ آيةً ثالثةً، وهذهِ الثلاثةُ تتلاءَمُ معَ وصفِ (العَزيز)، وتحديدُ كمّيَّةِ المنزَّلِ آيةً رابعةً، وهي تتلاءَمُ معَ وصفِ (العَليم) الواردِ في قولهِ قبلُ: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: 9].

دلالةُ لفظِ (قَدَرٍ):

تــوازُنُ الخـلـقِ دليلٌ على الحقِّ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظِ (القدَر) في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك التَّنزيلَ يكونُ بمقدارٍ معيَّنٍ ونسبةٍ مُتوازنةٍ وكمّيَّةٍ مُحدَّدةٍ، أي: "بمقدارٍ تقتضيهِ مَشيئتُهُ المبنيَّةُ على الحِكَمِ والمَصالحِ"[2]، "وعَلَى حَسَبِ ما تَقْتَضيه مَشيئَتُهُ في أرْزاقِ عِبادِهِ بِالتَّوْسيع تارَةً والتَّقْتيرِ أُخْرَى"[3]، ولا يعني هذا التحديدُ أنَّ المنزَّلَ قد لا يكونُ طوفانًا، كما حدثَ لقومِ نوحٍ عليه السلام، ويحدثُ أحيانًا تخويفًا؛ لأنَّ ذلك هو قدَرُ الطّوفان والتَّخويفِ المناسب لهما، لكنَّ الآية في معرضِ الامتنانِ والاستدلالِ، ولذا قالَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: "ليس كما أُنزِلَ على قومِ نوحٍ بغير قدَرٍ حتَّى أغرقَهُم، وأهلكَهُم، بل هو بقَدَرٍ حتى يكونَ معاشًا لكم ولأنعامكم"[4]، كما تشيرُ كلمة (القدر) إلى أنَّه تنزيلٌ محكومٌ بقدرةٍ عظيمة؛ إذ تحديدُ كمّيَّةِ الماء تدلُّ على قادرٍ حكيم فيما يفعَلُ، وأنَّ ذلك التقديرَ أمرٌ عظيمٌ تُنبئُ عنه لفظةُ (القدَر)، أو أنَّ المراد: "بِقَضاءٍ وحَتْمٍ في الأزَلِ"[5] وبناءً على هذا المعنى يكونُ ﴿بِقَدَرٍ﴾ في موضعِ الحالِ من ضميرِ الفاعلِ في ﴿نَزَّلَ﴾.

---

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 287.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 41.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 628.
(4) النّيسابوري، التّفسير البسيط: 20/ 16.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 361.

دلالةُ (الفاءِ) في: ﴿فَأَنشَرۡنَا﴾:

نظامُ السَّببيَّةِ خاضعٌ لإرادةِ الله تعالى

عطفَ النَّظمُ الكريم قولَهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ﴾ بالفاءِ العاطفةِ الدالَّةِ على التَّعقيبِ والتَّفريع والسَّببيَّة، فـ:"الفاءُ التَّعقيبيَّةُ لاعتبارِ شروعِ النَّماءِ عقيبَ نُزولِ المطر"[1]؛ للدَّلالة على أنَّ إحياءَ الأرض المُجدِبةِ يكونُ عقيبَ الماءِ المُنزَّل ومُسبَّبًا عنه؛ تعليمًا للنّاس للأخذِ بالأسبابِ، وإلّا فالمَوْلى تعالى لا يفعَلُ لسببٍ وعند حدوث علَّةٍ؛ إذ هو يأمُرُ العناصرَ والقوى والأسبابَ والمسبَّبات جميعًا.

دلالةُ الإنشارِ على الإحياءِ:

تصويرُ إحياءِ الأمواتِ بإحياءِ الأرضِ

عبَّر النَّظمُ الكريم عن (الإحياءِ) بالفعلِ (أَنْشَرْنا) في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾؛ لأنَّ الإنشارَ والنَّشرَ يكونُ للشَّيءِ المطويِّ، فيُعمَدُ إلى بَسْطِهِ وفَرْشِهِ وإعادةِ انتشارِه، وهذا تصويرٌ لعمليَّةِ الإحياءِ للأموات، وإنْ كان الحديثُ عن البلدةِ المُجدِبة؛ فكما أنَّ البلدةَ تكون بسببِ الجَدْبِ، كأنَّ أرضَها لشدَّة الجدبِ والتَّقحُّلِ مطويَّةٌ مشدودةٌ، فإنَّ الماءَ النّازلَ عليها يعملُ على بَسْطِها ورُبوِّها واهتزازها مثلَ حركةِ ميِّتٍ يعودُ للحياة، فإنَّ الميتَ تحت أطباقِ الثَّرى مطويٌّ برِمْسِه، فيكونُ نشرُهُ بإعادةِ انتشارِهِ بعدَ تجميعِ أجزائِهِ وذرّاته وفتحِ أطباقِ ذلك الرِّمسِ المُحيطِ به.

نكتةُ استعمالِ الفعلِ المَزيدِ (أَنْشَرْنا):

أفعالُ الله تعالى عظيمةُ التَّأثيرِ عاليةُ التَّدبير

عبَّر النَّظم الكريم بالفعلِ الثلاثيِّ المزيد (أنشرَ) في قوله تعالى: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ﴾ مع أنَّ الفعلَ المجرَّد (نشرَ) يتعدَّى بنفسه؛ للدَّلالةِ على المبالغةِ في عمليَّةِ النَّشر، معَ التَّقويةِ للحدث إشارةً إلى جلالِ التَّأثير وعظمةِ التَّدبير؛ إذ الآيةُ في معرضِ الامتنان والاستدلالِ على

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 287.

عظيم صُنْعِ اللّه وخَلْقِه، فيكونُ النَّشرُ للبلد الميِّتِ بزيادة (الهمزة) دالًّا على قوَّةِ ذلك النَّشر وعظمتِهِ وفخامةِ أمرِه، ولذا أسندَهُ إلى ذاتِهِ الجليلةِ الَّتي لا يقدرُ أحدٌ على مثلِ فعلِها.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ في: ﴿فَأَنشَرۡنَا﴾:

إحـياءُ الأرضِ بالنَّبات دليلٌ على إحياءِ الموتى للحِساب

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن إخراجِ النَّباتِ من الأرضِ المُجدبة بالإحياءِ، الَّذي هو النَّشرُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾؛ لعلاقةِ المُشابَهةِ بينهما؛ بجامعِ أنَّ كلًّا منهما يحصلُ بعدَ سُكونٍ وهُمودٍ، فقد استعارَ النَّشرَ الذي هو الإحياءُ لإخراجِ النَّبات على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، والغرضُ من الاستعارةِ للنَّشر بدلَ (الإحياء) وبدل (الإخراج) الإتيانُ بلفظٍ يتَّسقُ معَ سياقِ الآيةِ لإثباتِ الحَشْرِ والنَّشْرِ للخلائقِ يومَ الدّين، فاختارَ النَّظمُ اللَّفظَ الَّذي يتناسَبُ مع الغرضِ المقصودِ من وقوعِ الإخراجِ للخلائقِ من عالمِ القُبور بالنَّشر.

نكتةُ استعمالِ الماضي مُسنَدًا لضمير العَظَمةِ:

دلالــةُ تحـقُّقِ الإحياءِ والنَّشرِ والـخـروجِ على عَـظـمـةِ المَـوْلى سبحانه

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الإحياءِ والنَّشرِ والخروج للنَّبات بعدَ نُزولِ الغَيْثِ، وأُسنِدَ إلى ضميرِ العظمة؛ للدَّلالة على أنَّ النَّشر والإحياءَ لا يصدُرُ إلّا من العظيمِ القادرِ على كلِّ شيء.

دلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿بَلۡدَةٗ﴾:

دلالــةُ التَّنكير عــلى شــمـولِ رحمة الله تعالى

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ (المُنشَرَ) في قولِه تعالى: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾؛ للدَّلالةِ على فردٍ غيرِ معيَّنٍ من البلدات؛ إذ شأنُهُ تعالى إغاثةُ البلادِ وأهلِها بالمطرِ النّافع، كما أفادَ تنكيرُها أنَّ المطرَ قد ينزلُ عليها مُباشرةً، وقد يكونُ فيها على شكلِ عيونٍ وآبارٍ تعتمدُ على تلك الأمطارِ، كما يفيدُ التَّنكير دلالةَ شمولِ الرَّحمة الإلهيَّة جميعَ المخلوقاتِ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِۦ﴾:

قدَّم النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ في قولِه تعالى: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمام بسببيَّةِ الماءِ في إخراجِ النَّبات، وأنَّ تنزيلَ الماء مِنَّةٌ ينبغي للعبد التَّفكُّرُ فيها والشُّكرُ عليها دونَ الانخداعِ باستقلالِ الماءِ بإخراجِ النَّبات دون خلقِ العزيزِ الحكيم.

الماءُ نعمة تسبُّبٍ تدعو للتَّأمُّلِ والشُّكر

نكتةُ العدولِ عن التَّأنيثِ في النَّعت:

عدلَ النَّظمُ عن تأنيثِ النَّعتِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾؛ فلم يقل: (بلدةً ميتةً)؛ وذلك لأنَّ المرادَ بـ(البلدة) المكانُ عُمومًا دونَ تخصيصٍ ببلدةٍ ما، فعدلَ النَّظمُ عن التَّأنيثِ؛ لبيانِ المرادِ بحقيقةِ البَلدة، وإنَّما عبَّر عن مُطلقِ المكانِ بالبلدةِ؛ لأنَّ البلدةَ تُسكَنُ بالنّاس المقيمينَ فيها، وهم أحوجُ إلى الماءِ من مُطلقِ المكان، قال البقاعيُّ: أي: "مكانًا يَجتمِعُ النّاسُ فيهِ للإقامةِ مُعتنونَ بإحيائِهِ مُتعاوِنونَ على دوامِ إبقائِه"[1]، وعلَّل ابن عاشور العدول بقوله: "وإنَّما وُصِفَتِ (البَلْدَةُ)، وهيَ مُؤَنَّثٌ بـ(المَيِّتِ)، وهو مُذَكَّرٌ؛ لِكَونِه عَلَى زِنَةِ الوصفِ الَّذي أصلُهُ مَصدَرٌ، نَحو: عَدلٌ وزورٌ، فَحَسُنَ تَجريدُهُ من عَلامَةِ التَّأنيثِ عَلى أنَّ المَوصوفَ مَجازيُّ التَّأنيثِ"[2]، "وقال سعدي المفتي: لا يبعُدُ أن يكونَ تأنيثُ (البلدة) وتذكيرُ (الميت) إشارةً إلى بلوغِ ضعفِ حالِه الغايةَ"[3].

دليلُ النَّشرِ والحشرِ لا يختصُّ بمكانٍ دونَ آخرَ

دلالةُ توجيهِ قراءَتَي: ﴿مَّيۡتٗاۚ﴾:

قرأ أبو جعفر: ﴿مَّيِّتٗاۚ﴾ بتشديدِ الياء، والباقونَ بتخفيفِها[4]، وكانَ الزَّجّاج قد ساوى بينَهُما، ورأى أنَّ (المَيْتَ) أصلُه (المَيِّتُ) بالتَّشْديدِ، إلّا أنَّه يُخفَّفُ، فَيُقالُ: مَيْتٌ ومَيِّتٌ، والمَعْنَى واحِدٌ، وقالَ

بثُّ الحياةِ فيما انقطعَ الأملُ بإحيائِهِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 392.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 171.

(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 197، وينظر: البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 392.

(4) مجير الدين الحنبلي، فتح الرحمن: 6/ 208.

بَعضُهم: يُقال لما لم يَمُتْ: مَيِّت، والمَيْتُ ما قد ماتَ، وهَذا خطأٌ، إنَّما (مَيِّتٌ) يصلُحُ لما قد ماتَ، ولِما سيموتُ[1]، في حين فرَّقَ بعضُهُم بأنَّ المشدَّدَ يقالُ لميِّتِ الأناسيِّ، والمُخفَّفَ منه لمَيْتِ غيرِ الأناسيِّ[2]، والَّذي نميلُ إليه أنَّ الغالبَ في المشدَّد لما سيموتُ بعدُ، وإنْ كانَ يقالُ لمَنْ ماتَ أيضًا، وبناءً على هذا فإنَّ توصيفَ البلدِ بالمشدَّدِ يدلُّ على أنَّه قاربَ الموتَ والجَدْبَ الكاملَ، بخلافِ الوصفِ بالمُخفَّف، فإنَّه دالٌّ على حالةٍ مَيئوسٍ منها، وهذا أنسبُ بمقصَدِ التَّشبيهِ؛ إذ يصلُ المقبور إلى حالةٍ منَ التَّفتُّتِ والتَّلاشي يعسُرُ على الذِّهن البشريِّ عودتُهُ للحياة، فيكون توصيفُ البلد بالمخفَّف أدلَّ على كمالِ القُدرة في الإعادةِ للحياةِ والنَّشرِ للحِساب.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيبةِ إلى التَّكلُّم:

سوقُ الالتفاتِ لغرض التَّنبيه على الخالق سبحانه

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرۡنَا﴾ التفاتٌ من الغَيبةِ إلى التَّكلُّم، يَبعَثُ إلى الإيقاظِ للسّامع، ويُحقِّقُ مَزيدًا من الإصغاء، ويفيدُ هنا أنَّ تنزيلَ الغَيثِ مِنَ السَّماءِ أمرٌ ملحوظٌ وواقعٌ، فعبَّرَ عن الفاعلِ لهُ بأسلوبِ الغَيبة، وأمّا إنشارُ البَلدةِ الميّتِ بذلك الماءِ وإحيائِها بالنَّبات وكافَّةِ صورِ الحياةِ؛ فأمرٌ خفيٌّ على ملاحظة الفاعلِ فيه؛ إذ قد يُتوهَّمُ أنَّ فاعلَهُ هو الماءُ المنزَّل، فأبرزَ المتكلِّمُ نفسَهُ؛ ليُبيِّنَ أنَّ فاعلَ النَّشرِ والإحياءِ هو اللهُ تعالى، وأنَّ الماءَ مجرَّدُ سببٍ لا يكفي من دونِ الفاعلِ الحقيقيِّ، كما أنَّ المقصودَ من إنزالِ الماءِ هو النَّشرُ والإحياءُ، فكانَ إظهارُ المتكلِّمِ ذاتَهُ مُتَّفقًا معَ المقصدِ والهدفِ من الإخبارِ.

العلاقةُ بين الفعلَين (أنْشَرْنا) و(تُخْرَجونَ):

التَّبادلُ الموقعيُّ دالٌّ على تساوي المقدورَينِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ علاقةٌ مُحكمَةٌ؛ إذ عبَّرَ النَّظمُ عن فعلِ إخراجِ النَّباتِ من الأرضِ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: 14/ 244.

(2) الزّبيدي، تاج العروس: 5/ 102.

بـ(الإنشار)، وعبَّر عن فعلِ إنشارِ الأمواتِ من الأرض بـ(الإخراج)؛ للدَّلالةِ على أنَّ كلًّا من الفعلينِ صورةٌ واحدةٌ، فإنْ كانَ إخراجُ النَّباتِ من الأرض مَقدورًا للّه تعالى، وهو إحياءٌ وإنشارٌ في الحقيقة، فما بالُكم تُنكِرونَ إخراجَ الأمواتِ من الأرض، فكانَ التَّبديلُ الموقعيُّ لكلٍّ من الفعلينِ معَ ما يَقترنُ به تصويرٌ للتَّساوي بينَهُما، والتَّساوي يوجِبُ الاعترافَ واليقينَ المطلَقَ بتحقُّقِ كلٍّ واحدٍ منهما للّهِ تعالى.

دلالةُ المجازِ في قولِهِ: ﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾:

يـدور بـقـاءُ البُلدانِ مع حياة الإنسانِ وجودًا وعدمًا

وصفَ النَّظمُ الكريمُ (البلدةَ) بالنَّعت ﴿مَّيۡتٗاۚ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾، وهو توصيفٌ مجازيٌّ؛ إذِ البلدةُ لا تقومُ بها الحياةُ والمَوْتُ، بل المرادُ أنَّه: "كان قد يَبِسَ نباتُه، وعَجَزَ أهلُهُ عن إيصالِ الماءِ إليه؛ ليحيا به"[1]، ومن ثمَّ يَحتمِلُ النَّظمُ أنَّ النَّعت جارٍ على غيرِ مَن هو له؛ إذ المرادُ بالمَيِّت أهلُها وسكّانُها، وعليه يكونُ توصيفُ (البلدة) بالموتِ مجازًا عقليًّا علاقتُهُ مكانيَّةٌ؛ إذ الميِّتُ حقيقةً أهلُها، لكنَّه نسبَ الموتَ إلى البلدةِ للمُبالغةِ، ويحتملُ النَّظمُ أن يكونَ في ضمير ﴿مَّيۡتٗاۚ﴾ الراجعِ إلى (البلدة) استعارةٌ بالكناية؛ إذ شبَّه البلدةَ بإنسانٍ يحيا، ويَموتُ، ثمَّ حذفَهُ، وأبقى من خواصِّه ولوازمِهِ الموتَ، قال الهرريُّ: "شبَّهَ زوالَ النَّماءِ عنها بزوالِ الحياةِ عنِ البدَنِ"[2]، ونلحظ أنَّ النَّظمَ استعاضَ عن الإحياءِ بالنَّشر، ووصف البلدةَ بالموت؛ ليكون الوصفُ قرينةً على المرادِ بالنَّشر، وهو الإحياءُ.

دلالةُ الاعتراض بـ﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾:

الاسـتـدلالُ ضـمـنَ الاستدلال أنفعُ عندَ الجِدال

آثرَ النَّظمُ الكريمُ إيرادَ الجملةِ الاعتراضيَّةِ بينَ المُتعاطفينِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١١ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾؛ للدَّلالة على تحقيقِ استدلالٍ على تحقُّق البعثِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 392.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 197.

والنُّشور في مقامِ الاستدلالِ على إلهيَّة اللّه تعالى وتفرُّدِه بالخلْقِ والإيجاد[1]، والمعنى: تُخرَجونَ من قُبورِكم بالبعثِ إخراجًا مثلَ إخراجِ النَّباتِ من الأرض، فـ(كذلك) صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ دلَّ عليه التَّشبيهُ[2].

بلاغةُ التَّشبيهِ في: ﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾:

إحياءُ المَوْتى أمرٌ مُمكِنٌ بل واقعٌ

شبَّه النَّظمُ الكريمُ إخراجَ الأمواتِ مِن أجداثِهم وإحياءَهُم من قبورِهم بإنشارِ البلَدِ الميِّتِ عقيبَ نُزولِ الغَيث في قولِه تعالى: ﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على إمكانِ المشبَّهِ وعدمِ استحالتِه، كما يزعمُه هؤلاءِ المُشركون، وأنَّ مَن قدرَ على إعادةِ الحياةِ إلى الأرضِ المُجدِبة؛ لهو قادرٌ على إعادةِ الإنسان إلى الحياة بعدَ المَوْتِ، "فتشبيهُ إحيائِهم بإحياءِ البلدةِ المَيِّت، كما يدلُّ على قدرة اللّهِ تعالى وحِكمتِه مُطلقًا، فكذلك يدلُّ على قدرتِه على القيامةِ والبَعْثِ"[3]، بقي أنَّ النَّظمَ عبَّر عن المُشبَّه به باسم الإشارةِ الموضوعِ للبعيد؛ للدَّلالةِ على أنَّ عمليَّة الإنباتِ عقيبَ نزولِ الغيثِ أمرٌ عظيمٌ ومُعجزةٌ باهرةٌ، لكنَّ الإلفةَ بها تجعلُها أمرًا عاديًّا، وعندما يُشبَّهُ الأمرُ المتنازَعُ في حصولِه بالأمر العظيم يكتسبُ المشبَّهُ منه دلالةَ الفخامة؛ إذ جميعُ أفعالِ اللّه تعالى عظيمةٌ لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يفعلَ مِثلَها، بقيَ أنَّ تشبيهَ المضارعِ المستقبليِّ بالماضي المتحقِّقِ يفيدُ أنَّ المستقبليَّ أمرٌ مُتحقِّقُ الوقوعِ كتحقُّقِ المشبَّهِ به.

دلالةُ توجيهِ القراءةِ القرآنيَّة في: ﴿تُخۡرَجُونَ﴾:

الإخـراجُ أعمقُ دلالـةً علـى الـوقـوعِ مـن مجرَّدِ الخروج

قَرَأ الجُمهورُ ﴿تُخۡرَجُونَ﴾ من قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ بالبِناءِ لِلنّائِب، وقَرَأَهُ حَمْزَةُ والكِسائيُّ وابْنُ ذَكْوانَ عَنِ ابْنِ عامِرٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 171.

(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 219.

(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 197.

وخلف العاشر: ﴿تَخْرُجُونَ﴾ بالبناءِ للفاعِلِ[1]، وبناءً على صيغةِ المعلوم فإنَّ الفعلَ المضارعَ مجرَّدٌ لازمٌ، قُصِدَ به تشبيهُ خروجِهم المتجدِّدِ المستمرِّ من القبورِ عند البعثِ بهيئةِ نشورِ النَّباتِ من الأرض المتحقِّق الحُصول عيانًا، وأمّا على صيغةِ المجهولِ؛ فإنَّ المضارعَ مأخوذٌ من الفعلِ المزيدِ على الثُّلاثيِّ؛ للدَّلالة على التَّعدية، ويكون المقصودُ تشبيهَ إخراجِهم بهيئةِ الإنشار، ففي الأوَّلِ يكون الخروجُ استجابةً لأمرِ المُحيي ولازمًا للإخراج، وفي الثّاني يكونُ جَبْرِيًّا وقسريًّا مثل إخراج النَّبات بعد نزولِ المطَر.

بديعُ السَّجع:

عمدَ النَّظمُ الكريمُ إلى السَّجعِ في آياتِ الاستدلالِ على إلهيَّةِ اللّه تعالى وحدَهُ ووقوعِ الحشرِ والنَّشرِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾ [الزخرف: 10] و﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، وقوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾؛ لتوليدِ إيقاعٍ مُنسجِمٍ عقيب كلِّ استدلال، وكأنَّ القارئَ يركُنُ إلى تجاوُبٍ صوتيٍّ هادئٍ منسابٍ بعدَ كلِّ برهانٍ ودليلٍ محسوسٍ مشاهَدٍ مُتسلسلٍ دالٍّ على عظمةِ اللّه وعجيبِ خَلْقِه وباهِرِ قُدرتِهِ.

البرهان العقليُّ مسبوك بتجاوب صوتيّ هادئ

بلاغةُ الالتفاتِ:

التفتَ النَّظمُ من أسلوبِ المتكلِّم إلى أسلوبِ المخاطَب في قوله تعالى: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، وكان حقُّ النَّظم: (وكذلك نُخرِجُكم)؛ لكنَّه لمّا أرادَ خِطابَهم وتوعيتَهُم وإيقاظَ عقولِهم وأسماعِهم؛ التفتَ عن المتكلِّم، وجعل ذاتَهُ الجليلةَ غائبةً ليُخاطِبَهم؛ لعلَّهم يَهتدونَ، فإنَّ نقْلَ الحديثِ من صيغةِ المتكلِّم إلى صيغةِ المُخاطَبِ دعوةٌ للتَّأمُّلِ في الأدلَّةِ؛ إذ أنتم المقصودونَ بالتَّوعيةِ والإرشادِ.

إيقاظُ العقولِ الغافلةِ والأسماعِ اللّاهية

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 267.

اختلافُ الإدماجِ يورِثُ اختلافَ النَّظْمِ

المتشابهُ اللَّفظيُّ:

بينَ قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتٗاۚ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورٗا ٤٨ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتٗا﴾ [الفرقان: 48 - 49] تشابهٌ لفظيٌّ في كثيرٍ من المكوِّنات اللَّفظيَّة، وتشابهٌ مَقصديٌّ من حيثُ كونُهما دليلين على إمكانِ البَعثِ والحياةِ بعدَ المَوْتِ، وامتنانٌ على النّاسِ بكَمالِ النِّعَم، واستدلالٌ على انفرادِ اللّه تعالى بالخَلْقِ العظيمِ والصُّنعِ العَجيب، الَّذي ما إنْ تأمَّلَهُ المُنصِفُ حتى التزمَ بالصِّراطِ المُستقيم، لكنْ عبَّر في الفرقانِ بالفعلِ: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ [الفرقان: 48]، وهنا بالفعلِ: ﴿نَزَّلَ﴾؛ لأنَّ المقامَ مُختلفٌ، ففي الفرقانِ كان محطُّ الاهتمامِ مُنصَبًّا في كونِه طَهورًا نافِعًا مُفيدًا، فكانَ الفعلُ الَّذي يدلُّ على الإنزالِ دونَ التَّدريجِ فيه، وأمّا هنا؛ فإنَّ محطَّ الاهتمامِ يتركَّزُ على أنَّه ينزلُ بقدرٍ محدودٍ حتى يكونَ نافِعًا كافيًا؛ فآثرَ الصّيغةَ الدّالَّةَ على التَّدريجِ والتَّنزيلِ المُترتِّب، كما تضمَّنَتِ الآيتانِ فائدةً مع الإنزالِ والتَّنزيلِ للمطرِ، ففي (الفرقان) كانت الفائدةُ المُدمجةُ أنَّه ماءٌ طهورٌ، وهنا كانت أنَّه بقدَرٍ معلوم نافعٍ غيرِ ضارٍّ، وآثر النَّظمُ في الفرقانِ التَّعبيرَ عن إخراجِ النَّباتِ بالإحياءِ، فقال: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ﴾ [الفرقان: 49]، وهنا عبَّر عنه بالإنشارِ، فقال: ﴿فَأَنشَرۡنَا﴾؛ لأنَّ التَّركيز في الفرقانِ على نعمةِ الغيث، ومِن ثَمَّ لم يُذكِّرْ فيها بالنَّشر للأمواتِ والبعثِ لهم مِنَ القُبور، وهنا كان التَّركيزُ على إمكانِ البعثِ والنُّشور، ولذا نوَّهَ به، فقالَ هنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾، فكانَ المُناسِبُ استعمالَ كلٍّ مِنَ الفعلين معَ مُناسِبهما وما يقَعُ التَّركيزُ عليه.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإنشار والإحياء والإخراج:

الإخراجُ ضدُّ الإدخالِ، والإنشارُ ضدُّ الطَّوِي، والإحياءُ ضدُّ

الإماتةِ، ولكنْ لمّا كان بين هذه المصادرِ تلازُمٌ؛ كان هنالك تجوُّزٌ في الاستعمال، وأعمُّ هذه الألفاظ الإخراجُ؛ لأنَّ الإنشارَ فتْحٌ للمطويِّ، فيلزمُ منه الإخراجُ، والإحياءَ بثُّ الحياةِ في الشَّيءِ فيخرجُ منهُ الحيُّ، ولذا يُستعمَلُ كلٌّ من الإنشارِ والإحياءِ للإخراج؛ لأنَّه اللّازمُ الأعمُّ لَهُما، وأمّا العلاقةُ بينَ الإنشارِ والإحياءِ؛ فتتوضَّحُ بأنَّ المطويَّ كالميّت الَّذي طويَ قبرُهُ عليه، فيكونُ نشرُهُ وبَسْطُهُ إحياءً له، قال الرّاغب: "إنَّ نشْرَ اللّه الميِّتَ مُستعارٌ من نَشْرِ الثَّوْبِ"(1)، فالنَّشرُ أعمُّ منَ الإحياءِ، ولذا فإنَّ كلَّ إحياءٍ نشْرٌ للميّتِ، وليس كلُّ نشرٍ مختصًّا بإحياءِ الميِّت.

الإخــراجُ أعـمُّ الثَّلاثةِ، والنَّشرُ أعـــمُّ مـن الإحياء، وبينها تلازمٌ

(1) الأصفهاني، المفردات، ص: 805.

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ
مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا
ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ
مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزّخرف: 12 - 14]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تسخيرُ المكانِ وما فيهِ لخِدمةِ الإنسانِ

لمّا ذكرَ المَولى تعالى استدلالًا وامتنانًا خلْقَ الأرضِ؛ لتكونَ مَهْدًا، وجعلَ فيها سُبُلًا، وبيَّن أهمّيَّةَ الماءِ لدوامِ الحياة على هذه الأرضِ؛ ذكَّرَ بعدَ ذلك بنعمةِ إيجادِ المخلوقاتِ كلِّها والأصنافِ المتعدِّدةِ بصورةِ زَوجينِ؛ ليدومَ النَّسلُ، ويَستمرَّ، وخصَّ الإنسانَ دون المخلوقاتِ بمزيدِ الإنعامِ مِن ركوبِ الفُلك والأنعامِ مَعَ شُكْرِ المُنعِمِ على كلِّ تلك النِّعَمِ وعدمِ نسيانِ الرُّجوعِ إليه بالإيمانِ به والعمَلِ بأوامرِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾: أصلٌ يَدُلُّ عَلى مُقارَنَةِ شَيءٍ لِشَيءٍ، مِن ذَلكَ الزَّوجُ زَوجُ المَرأةِ، والمَرأةُ زَوجُ بَعْلِها، وهو الفَصيحُ[1]، ويقال: لفُلانٍ زوجانِ من الحَمامِ، أي: ذكرٌ وأُنثى[2]، والزَّوجُ: خلافُ الفَردِ، يقال: زوجٌ أو فردٌ[3]، والزَّوْج: الصِّنْف من الشَّيء، وقَولُهُ تعالَى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: 58]، قالَ مَعْنَاهُ: ألوانٌ من العَذاب، ووصفُهُ بالأزواج؛ لأنَّه عَنى بذلك الأنواعَ من العَذاب والأصنافَ منْهُ[4]، والزَّوْجُ الشَّكْلُ يَكونُ لَهُ نَظيرٌ كالأصْنافِ والألوانِ، أو يَكونُ لَهُ نَقيضٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زوج).
(2) الخليل، العين: (زوج).
(3) الجوهري، الصّحاح: (زوج).
(4) الصّاغاني، المحكم والمحيط الأعظم: (زوج).

كالرَّطْبِ واليابِسِ والذَّكَرِ والأُنْثَى واللَّيْلِ والنَّهارِ والحُلْوِ والمُرِّ[1]، والمرادُ به في الآيةِ: الأصنافُ مِنَ المخلوقاتِ بأَسْرِها؛ إذِ الزَّوجُ كلُّ ما يَصيرُ به الواحدُ ثانيًا[2].

2) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: الفُلكُ: السَّفينةُ، يُذكَّرُ ويؤنَّثُ، وهي واحدةٌ، وتكونُ جمعًا، والفُلْكُ: جماعةُ السُّفُنِ[3]، والفَلَكُ محرَّكةً: مَدارُ النُّجوم، والجمعُ: أَفْلاكٌ وفُلُكٌ بضمَّتينِ، ومن كلِّ شيءٍ مُسْتَدارُهُ ومُعْظَمُهُ، ومَوْجُ البَحْرِ المُضْطَرِبُ، والماءُ الذي حَرَّكَتْهُ الرِّيحُ، والتَّلُّ من الرَّمْلِ حَوْلَهُ فَضاءٌ، وقِطَعٌ من الأرضِ تَسْتَديرُ، وتَرْتَفِعُ عما حَوْلَها[4]، والمرادُ به في الآية: السُّفُنُ التي تَمْخُرُ عُبابَ الماءِ الَّذي هو كالفَضاء.

3) ﴿لِتَسْتَوُۥا۟﴾: أصلُ الاستواءِ مِن (سَوى)، وهو يَدُلُّ عَلى استِقامَةٍ واعتِدالٍ بَيْنَ شَيئَينِ، وفُلانٌ وفُلانٌ عَلَى سَوِيَّةٍ مِن هَذا الأمرِ، أي: سَواءٍ[5]، والسَّواءُ: العدلُ، وسَواءُ الشَّيءِ: وسَطُهُ، وسوَّيتُ الشَّيءَ، فاستوى، وهما على سويَّةٍ من هذا الأَمْرِ، أي: على سَواءٍ، ورجلٌ سَويُّ الخَلْقِ، أي: مستوٍ، واستَوى على ظَهْرِ دابَّته، أي: عَلا، واستقرَّ، واسْتَوى إلى السَّماءِ، أي: قَصَدَ، واستوى، أي: استولَى، وظَهَرَ[6]، واستوى عَلى الفَرَسِ: استَقَرَّ، واستوى المَكانُ: اعتَدَلَ، وسَوَّيْتُه: عَدَّلْتُهُ[7]، والسَّوِيَّة: كساءٌ يُحْشَى بثُمام أو ليفٍ أو نحوه، ثمَّ يُجعَلُ على ظهرِ البعير، والمعنى المحوريُّ: استقامةُ ظاهرِ الشَّيءِ أو سَطحِهِ لامتلاءِ غؤورِ وسَطِه، واستوى على ظَهْرِ دابَّتِهِ: استقرَّ كقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾[8]، والمرادُ به في الآية: الاستقرارُ عليها بشكلٍ معتدلٍ ومُريحٍ وسَيطرةٍ.

4) ﴿سُبْحَٰنَ﴾: لهُ أَصلانِ، أَحَدُهُما: جِنْسٌ مِنَ العِبادَةِ، والآخَرُ جِنْسٌ مِنَ السَّعي، فالأوَّلُ السُّبْحَةُ، وهيَ الصَّلاةُ، ومِنَ البابِ التَّسْبيحُ، وهو تَنْزيهُ اللهِ من كُلِّ سوءٍ، والتَّنْزيهُ: التَّبْعيدُ[9]، ثُمَّ استُعْمِلَ في مواضعَ تقْرُب مِنهُ اتِّساعًا، يُقال: سَبَّحْتُهُ أُسَبِّحُهُ تَسبيحًا

(1) الفيومي، المصباح المنير: (زوج).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 172.
(3) الخليل، العين: (فلك).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (فلك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوى).
(6) الجوهري، الصّحاح: (سوى).
(7) الفيومي، المصباح المنير: (سوى).
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سوى).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).

وسُبحانًا، وقيلَ مَعناهُ: التَّسرُّع إليْهِ والخِفَّة في طاعَته[1]، وسُبحانَ اللّهِ: تَنْزيهًا للّه من الصّاحِبَةِ والولَدِ، ونُصِبَ على المَصْدرِ، أي: أُبَرِّئُ اللّه من السّوءِ براءَةً، أو معناهُ: السُّرْعَةُ إليه، والخِفَّةُ في طاعَتِهِ[2]، وقالَ الرّاغبُ: أصلُه في المَرِّ السَّريع، فاستُعير للسُّرعة في العَمَل، ثمَّ جُعِلَ للعباداتِ قَولًا وفِعلًا[3]، والمرادُ بِهِ في الآيةِ: قولُ سُبحانَ اللّهِ المُشتمِلُ على تنزيهِهِ عن كلِّ ما لا يَليقُ بِهِ من نسبةِ الشَّريكِ لهُ في الخَلْقِ والإنعامِ والعِبادةِ.

5) ﴿سَخَّرَ﴾: أصلٌ مُطَّرِدٌ مُستَقيمٌ، يَدُلُّ عَلَى احتِقارٍ واستِذلالٍ، ويُقالُ: رَجُلٌ سُخْرَةٌ، يُسَخَّرُ في العَمَلِ[4]، والسُّخْرةُ ما تَسَخَّرْتَ من خادمٍ ودابَّةٍ بلا أجرٍ ولا ثمَنٍ، تقولُ: هم لك سُخْرَةً وسُخْريًّا، وقد سَخَّرَها اللّه لخلقه تَسْخيرًا، وتَسَخَّرتُ دابَّةً لفلان: ركبتُها بغيرِ أجْرٍ[5]، وسَخَّرَهُ تسخيرًا: كَلَّفَهُ عَمَلًا بلا أُجْرَة، وكذلك تَسَخَّرَهُ، والتَّسْخيرُ: التَّذْليلُ، وسُفُنٌ سَواخِرُ؛ إذا أطاعَتْ، وطابَتْ لها الرّيحُ[6]، والمعنى المِحوريُّ: انقيادٌ بيُسْرٍ مع عدمِ مُقاومةٍ، ويلزمُ ذلك الخفَّةُ، كما تجري السَّفينةُ، وتتحرَّكُ بيُسْرٍ، لقوَّتِها وضعفِ مُقاومةِ الماء، كما يلزمُ من عدمِ المقاومة الضَّعفُ، ومنه جاءتِ (السُّخْرَة)[7]، والمرادُ به في الآية: ذلَّلَ لنا المخلوقاتِ مُنقادةً مُطيعةً.

6) ﴿مُقْرِنِينَ﴾: (قرن) له أصلانِ صَحيحانِ، أحَدُهُما يَدُلُّ عَلى جَمعِ شَيءٍ إلَى شَيءٍ، والآخَرُ شَيءٌ يَنتَأُ بِقوَّةٍ وشِدَّةٍ، فالأوَّلُ: قارَنْتُ بَينَ الشَّيئَيْنِ، وقَولُهُم: فُلانٌ مُقرِنٌ لِكذا، أي: مُطيقٌ لَهُ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾، وهو القياسُ؛ لأنَّ مَعناهُ أنَّهُ يَجوزُ أن يَكونَ قِرْنًا لَهُ، والقَرينَةُ: نَفسُ الإنسانِ، كَأنَّهُما قد تَقارَنا، والأصلُ الآخَرُ: القَرْنُ لِلشّاةِ وغَيرِها، وهو ناتِئٌ قَويٌّ[8]، وأقْرَنَ لهُ، أي: أطاقَهُ، وقَويَ عليهِ[9]، فَهو مُقْرِنٌ، وكذلكَ أقْرَنَ عَليه، ومِنه قولُه تَعالَى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾، أي: مُطيقينَ، وهو من

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث: (سبح).
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (سبح).
(3) الزّبيدي، تاج العروس: (سبح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(5) الخليل، العين: (سخر).
(6) الجوهري، الصحاح: (سخر).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سخر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(9) الجوهري، الصّحاح: (قرن).

قوْلِهم: أقْرَنَ فُلانًا: صارَ لَهُ قِرْنًا[1]، والقِرْن بالكسر: الكُفْؤُ والنَّظيرُ الَّذي يُقْرَن بك[2]، والمرادُ بِه في الآيةِ: نفيُ القُدرةِ والطّاقةِ على فعلِ اللّه تعالى وخَلْقِه وعجيبِ صُنْعِه.

7) ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾: (قلب) له أصلانِ صَحيحانِ، أحَدُهُما: يَدُلُّ عَلى خالِصِ شَيءٍ وشَريفه، والآخَرُ: عَلى رَدِّ شَيءٍ مِن جِهَةٍ إلَى جِهَةٍ، وقَلَبْتُ الثَّوْبَ قَلبًا، وقَلَبْتُ الشَّيءَ: كَبَبْتُه، وقَلَّبْتُهُ بيَدي تَقْليبًا[3]، وقَلَبْتُ فلانًا عن وجهه، أي: صرفتُه، والمُنْقَلَبُ: مصيرُك إلى الآخرة[4]، وقلبتُ الشَّيءَ، فانقلبَ، أي: انكبَّ، والمُنْقَلَبُ يكون مكانًا، ويكون مصدرًا، مثل المُنْصَرَف، وقلبتُهُ بيدي تقليبًا[5]، وفي حَديثِ دُعاءِ السَّفر «أعوذُ بِكَ مِنْ كآبَةِ المُنْقَلَب»، أي: الانقِلاب مِنَ السَّفَرِ، والعَوْدِ إلَى الوطَنِ، يَعْني: أنَّهُ يَعودُ إلَى بَيتِه، فَيَرَى فيهِ ما يُحْزِنه، والانقلابُ: الرُّجوع مُطْلَقًا[6]، والمعنى المحوريُّ للقَلْبِ: باطنُ الشَّيء ولُبُّه، وقَلْبُ الأرض إخراجٌ لباطنها[7]، والمرادُ به في الآية: الرُّجوعُ إلى الأصلِ والعودةُ إلى اللّه تعالى.

❖ المَعنى الإجْماليُّ:

تسخيرُ الكائنات موجِبٌ للشُّكر إلى المَمات

أي: وهو الَّذي خلقَ الأصنافَ كلَّها من جبالٍ متنوِّعةِ الألوانِ والأحوالِ والأحجام، إلى أُناسٍ يَختلفونَ في ألوانِهم وألسنَتِهم، إلى حيوانٍ تتباينُ أنواعُهُ، إلى عوالمَ في البَرِّ والبحرِ وفي السَّمواتِ وفي الأرض، لا يعلَمُ حقيقتَها إلّا هو سُبحانه، وأجرى لكُمُ من السُّفُن ما يَحملُكم في جوفِها، وذَلَّلَ لكم الأنعامَ من الإبل وغيرها ما تركبونَهُ،

(1) الزّبيدي، تاج العروس: (قرن).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قرن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(4) الخليل، العين: (قلب).
(5) الجوهري، الصّحاح: (قلب).
(6) ابن الأثير الجزري، النهاية: (قلب).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قلب).

وتعلونَ ظَهْرَه؛ لتستقِرّوا على ظهورِها، وتتمكَّنوا منها، ثمَّ تَذكروا بقلوبِكم وألسنَتِكم نعمةَ ربِّكم وعطاءَهُ لكم، وتقولوا: سبحانَ الَّذي سخَّر لنا هذا، ولو شئتَ ألّا تُمكِّنَنا من هذه الدوابِّ والأنعامِ الَّتي لا حولَ لنا معَها ولا قوَّةَ إلّا بك - لو شئتَ - لفعلتَ، ولكنَّك يسَّرْتَها لنا، وملَّكتَنا أمرَها، وما كُنّا أبدًا مُطيقينَ ذلك ولا قادرينَ عليه، وإنّا لراجعونَ وصائرونَ إلى اللهِ ربِّنا بعدَ مَماتنا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الواو) في: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ﴾:

خلْقُ الأرضِ وما يُصلِحُها مِهادٌ لخَلْقِ الإنسانِ وما يحتاجُهُ فيها

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ على ما قبلَهُ؛ "للانتقالِ مِنَ الاستدلالِ والامتنانِ بخَلْقِ وسائلِ الحَياةِ إلى الاستدلالِ بخَلْقِ وسائلِ الاكتِسابِ لِصَلاحِ المَعاشِ، وذَكَرَ منها وسائلَ الإنتاجِ، وأتبَعَها بوسائلِ الاكتِسابِ بالأسفارِ للتِّجارَةِ"[2]، والغرضُ من تفصيلِ هذهِ المَخلوقاتِ الرَّدُّ على المشركينَ المُعترفينَ بأنَّه خلقَ السَّمواتِ والأرضَ، وتناسَوا أنَّه خلقَ كلَّ شيءٍ، فلا يستحقُّ أيُّ شيءٍ العبادةَ من دونِه، ومِن ثَمَّ عدَّد المعطوفاتِ، وتكلَّم عن معاني خلقِهِ لها وحِكمتِهِ في إيجادِها.

دلالةُ الاسمِ الموصولِ (الَّذي):

إبهامُ الذّاتِ بالموصولِ لقصدِ تعظيمِ الجليلِ سبحانه

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ الدّالِّ على ذاتٍ عظيمةٍ جليلةٍ؛ لأنَّ الاسمَ الموصولَ موضوعٌ لمُبهَمٍ يُفسَّرُ بجملةِ الصِّلةِ، والإبهامُ يدلُّ على أنَّ تلك الذّاتَ تتحيَّرُ فيها الألبابُ والعقولُ، وأنَّ جملةَ الصِّلةِ تكشِفُ عن شيءٍ من فعلِها وعظَمَتِها، ولذا آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بالموصولِ في الجملِ المُتعاطفةِ؛ لبيانِ إبهامِ تلك الذّاتِ حتَّى إنَّ العقلَ لا يستطيعُ الوصولَ إلى شيءٍ من كمالاتِها إلّا من خلالِ ما تُفسِّرُهُ جملةُ الصِّلة.

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 790 - 791.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 172.

دلالةُ تكرُّرِ الاسمِ المَوصول:

كرَّرَ النَّظمُ الكريمُ الاسمَ الموصولَ (الَّذي) في الآياتِ الثَّلاثِ المُتعاطفة؛ للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ نعمةٍ من تلك النِّعَم، وكلَّ خلقٍ من ذلك الخَلْقِ، وما يتضمَّنُه من حِكَمٍ ودلالاتٍ عندَ التَّأمُّلِ في صُنْعِه وحكمةِ إيجادِهِ يَحتاجُ إلى ذِكرٍ مُستقِلٍّ للخالقِ والمُنشئِ والجاعلِ لها، كما أفادَ التَّكرارُ أنَّه لا سبيلَ لمعرفةِ حقيقةِ الخالقِ إلّا بشيءٍ من أفعالِهِ المحسوسةِ التي تظهَرُ لنا؛ لنُدرِكَ شيئًا من عظمتِهِ وقُدرتِه.

مِن شأنِ النِّعَمِ العجيبةِ إبرازُها مُستقِلَّةً بالبَيان لتَعظِيمِ المُنعِم

سرُّ جُملةِ الصِّلةِ في: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن صَدْرِ جملةِ الصِّلةِ بقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾؛ للدَّلالة على كمالِ قدرتِه، وأنَّ مِن شأنِ الإلهِ الحقِّ خلْقَ الأشياءِ من العَدَم، والمشركونَ اعترفوا من قبلُ بأنَّ السَّماءَ والأرضَ مخلوقانِ للّه تعالى، فأوضحَ النَّظمُ لهم أنَّه المتفرِّدُ بالخلق، فكيفَ يُشركونَ به ما لا يخلُقُ شيئًا؟ بقي أنَّ النَّظمَ اختارَ صيغةَ الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الخَلْقِ ووقوعِه، وإنْ كان بعضُ الخلق بالنِّسبة لنا يحصُلُ الآنَ أو في المستقبل؛ لأنَّ الخلْقَ الآنيَّ والمستقبليَّ لتحقُّقِ وجودِهِ كأنَّه مخلوقٌ ماضيًا.

الإلــهُ الـحـقُّ هـو الـقـادرُ على إيجادِ الخَلْق

دلالةُ خلْقِ الأزواجِ:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بجُملةِ الصِّلة مُتعلِّقةً بـ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ مخلوقٍ له زوجٌ ومثيلٌ ومقارنٌ، وكلُّ واحدٍ منهما دالٌّ على أنَّ له موجِدًا اختارَ له القرينَ والزَّوجَ والمَثيل، وكلُّ ما له مثيلٌ مُتعدِّدٌ ومُتكثِّرٌ، فيفتقرانِ إلى الذّاتِ الَّتي لا يُمكِنُ أنْ تكونَ متعدِّدة ومُتكثِّرةً، وإلّا كانت مُفتقِرةً إلى ذاتٍ أُخرى اختارَتْ لها المثيلَ، وهو مُفضٍ إلى التَّسلسُلِ الباطل[1]، كما أفادَتِ الزَّوجيَّة أنَّ كلَّ صنفٍ مخلوقٍ له

تنوُّعُ المخلوقاتِ دليلُ وحدانيَّةِ الخالقِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 621.

مثيلٌ من جنسِهِ ونوعِهِ وصفته، بقي أنَّ (الـ) الدّاخلةَ على الجمعِ دالَّةٌ على الاستغراقِ الكلّيِّ، كما يُنبئُ عنه التَّوكيدُ بلفظِ (الكلِّ)، وإنَّما عبَّر باللَّفظِ المُستغرِقِ لإبطالِ دَعوى المُشركينَ في استحقاقِ بعضِ المَخلوقات العبادةَ من دونِ اللّه تعالى؛ إذ ما مِن صنفٍ إلّا وهو مخلوقٌ للّه تعالى، فلا يستحِقُّ أنْ يكون مَعبودًا.

دلالةُ التَّوكيدِ المعنويِّ ﴿كُلَّهَا﴾:

كـلُّ الأصـنـافِ مُفتقِرةٌ للخالقِ بإنصاف

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن الاستغراقِ الشُّموليِّ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ بلفظِ التَّوكيد (كل) الدّالِّ على دفْعِ توهُّمِ عدمِ الشُّمولِ وإرادةِ البعض، وفي هذا التَّوكيدِ تقريرٌ للشُّمولِ المتحصَّلِ من (الـ) الاستغراقيَّة في ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾، وتثبيتٌ للمعنى الكلّيِّ في ذهنِ السّامع، ويُفهَمُ مِن هذا الشُّمولِ الكلّيِّ افتقارُ كلِّ الأصناف بأزواجِها إلى الخالقِ الحكيم تعالى.

دلالةُ استعمال ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ دون (الزَّوجين):

الجمعيَّةُ تفيدُ شمولَ الأفـراد، والـتَّـثـنـيـةُ تـدلُّ على الصِّنفين

عبَّر النَّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ عن (الزوج) بلفظِ الجمعِ (أزواج)، في حين عبَّرَ عن خلْقِ الثَّمرات في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد: 3] بلفظِ الزَّوجينِ مثنًّى؛ لأنَّ في عالم الثِّمارِ يكون هنالك الذَّكرُ والأُنثى، وكلُّ واحدٍ منهما زوجٌ بسببِ اقترانِه بغيره، فالزَّوجان بمعنى (اثنين)، تربطُهما علاقةُ مُشابهةٍ ومقارنةٍ كالذُّكورة والأنوثة وليس أربعةً، إذ: "الزَّوجُ في اللُّغةِ الواحدُ الَّذي يكونُ معَهُ آخَرُ، والاثنان زوجانِ، يقال: زَوْجا خُفٍّ، وزوجا نَعْلٍ، ويقالُ لكلٍّ من القرينينِ من الذَّكر والأُنثى من الحيواناتِ المُتزاوِجة: زوجٌ، ولكلِّ قرينينِ في غيرِها كالخُفِّ والنَّعل، ولكلِّ ما يقترنُ بالآخَرِ مُماثِلًا لهُ أو مُضادًّا: أزواج"[1]، وأمّا هنا؛ فإنَّ النَّظم أرادَ ما هو الأعمُّ من

(1) السَّمين، عمدة الحفاظ: 2/ 151.

الذُّكورة والأنوثة، وهي المخلوقاتُ بأسرِها، فيشملُ كلَّ صنفٍ وفردٍ مُرتبِطٍ بأشباهِهِ وأمثالِه، وليس المرادُ مجرَّد الذَّكر والأُنثى واللَّيل والنَّهار من الثُّنائيّات، بل كلُّ مخلوقٍ له أزواجٌ وأمثالٌ، "فَهو كُلُّ ما يَصيرُ بِهِ الواحِدُ ثانيًا، فَيُطْلَقُ عَلى كُلٍّ مِنهُما أنَّهُ زَوْجٌ لِلآخَرِ مثل الشَّفْعِ"(1)، فيشملُ جميع المخلوقاتِ بأسرِها.

دلالة المجاز في: ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾:

عظمةُ الخالقِ ووحدتُهُ ممّا يجبُ على النّاسِ معرفتُهُ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عنِ المَخلوقاتِ والأصنافِ بلفظِ ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾؛ تسميةً للشَّيءِ بما يؤولُ إليه؛ إذ مِن شأنِ كلِّ فردٍ وصنفٍ مخلوقٍ بعد خلقِهِ أن يكونَ له مثيلٌ وشبيهٌ وزوجٌ وقرينٌ في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِه، ولذا قالوا: "خلقَ كلَّ شيءٍ، فزوَّجَهُ"(2)، وإنَّما عبَّر عنهم بالزَّوجيَّة؛ للدَّلالة على عظمةِ الخلقِ ووحدةِ الخالقِ؛ إذ الاثنينيَّةُ المتكرِّرةُ في الخلقِ تدلُّ على الوحدانيَّةِ في جنابِ الحقِّ، وإلّا لكانَ مثلَ المخلوقاتِ في الافتقارِ - تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا - إذ "كونُها أزواجًا يدلُّ على أنَّها مُمكِنةُ الوجودِ، وأنَّ مُحدِثَها فردٌ منزَّهٌ عن المُقابِلِ والمُعارِضِ"(3).

دلالة (الواو) في: ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾:

كلُّ المخلوقاتِ مُسخَّرةٌ، ولخدمةِ الإنسانِ مُذلَّلة

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ على قولِهِ: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ عطفَ النَّتيجةِ على المقدِّمة؛ لبيانِ حكمةِ الخلقِ وإتقانِه، وبهذا العطفِ نُدركُ التَّعاطفَ السّابقَ في قولِهِ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [طه: 53]، وقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا﴾؛ إذ هنالك إيجادٌ أصليٌّ شبيهٌ بالمقدِّمة، وما يترتَّبُ عليه من خدمةِ الإنسانِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 172.
(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 8/ 380.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرَّيحان: 26/ 198.

الشَّبيه بالغايةِ والنَّتيجة، فلمّا ذكرَ خَلْقَ الأزواجِ كلِّها؛ عطفَ عليها تسخيرَها لخدمةِ الإنسان؛ ليؤولَ الخلقُ بأسْرِهِ مُسخَّرًا لهذا الإنسان، فيكونَ من أعلى الجُحودِ كُفرانُ المُسخِّرِ تعالى، ورأى البقاعيُّ أنَّ العطفَ تفسيرٌ للمُرادِ بالأزواجِ، وهي المخلوقاتُ بأسرِها، فقال: "ولمّا ذكرَ الأزواجَ، وكانَ المُتبادرُ إلى الذِّهنِ إطلاقَها على ما هو من نوعٍ واحدٍ؛ دلَّ على أنَّ المراد ما هو أعمُّ، فقالَ ذاكرًا ما تشاكلَ في الحَمْلِ، وتباينَ في الجِسْمِ"[1].

دلالةُ الفعلِ (جعلَ) دونَ (خلقَ):

إيجادُ المَعدومِ تخليقٌ، وتَسخيرُ المَخلوقِ جَعْلٌ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ (جعلَ) دونَ (خلقَ) في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الخلْقَ يتعلَّقُ بالمعدومِ إيجادًا، والجعْلَ يتعلَّقُ بالموجودِ تصييرًا وتسخيرًا، فقد سخَّرَ الفُلْكَ بموادِّها الطّافيةِ على الماءِ، والأنعامَ بظُهورِها المتحمِّلة آلةَ ركوبٍ يتنقَّلُ بها الإنسانُ لتحصيلِ مَنافِعِه وتحقيقِ أغراضِه.

دلالةُ المَجازِ العقليِّ:

الفاعلُ الحقيقيُّ هو اللهُ تعالى

أسندَ النَّظمُ الجعلَ إلى اللهِ تعالى في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾، على سبيلِ المجازِ العقليِّ؛ لأنَّ الجاعلَ لها مركوبةً هو الإنسانُ بالتَّفكيرِ والصِّناعةِ، لكنْ لمّا أقدرَ اللهُ تعالى الإنسانَ على ذلك؛ نَسَبَ الفعلَ إلى ذاتِه الجليلة؛ إظهارًا للامتنانِ بخَلْقِ الإنسانِ وصُنْعِه وفِكْرِه[2].

سرُّ مُباشرةِ الجَعْلِ للفُلك دونَ الأنعامِ:

التَّمييزُ بينَ المَصنوعِ والمَخلوقِ للكشفِ عن الحكمةِ البالغة

لاحظَ بعضُ المُفسِّرينَ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ دخولَ فعلِ (الجَعْلِ) مباشرةً على ﴿ٱلْفُلْكِ﴾، ودخولَهُ بالعطفِ والتَّبعِ على (الأنعامِ)، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك التَّمييزُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 393.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 173.

بينَ المَصنوعِ والمَخلوقِ، فالفلكُ مجعولةٌ بالصُّنعِ، وأمّا الأنعامُ؛ فهي مخلوقةٌ، ومِن ثمَّ حكم بأنَّ تقديمَ: "الفُلْكَ عَلى الأنعامِ؛ لأنَّها لَم يَشمَلْها لفظُ ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾؛ فذِكْرُها ذِكْرُ نِعْمَةٍ أُخْرَى، ولَو ذَكَرَ (الأنعامَ)؛ لَكانَ ذِكرُهُ عَقِبَ ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾ بِمَنْزِلَةِ الإعادَةِ، فلَمّا ذَكَرَ ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ بِعُنْوانِ كَونِها مَركوبًا؛ عَطَفَ عَلَيها (الأنعامَ)، فَصارَ ذِكرُ (الأنعامِ) مُتَرَقَّبًا لِلنَّفسِ لِمُناسَبَةٍ جَديدَةٍ"[1]، والَّذي يبدو لنا أنَّ كُلًّا من الفُلْكِ والأنعامِ مَجعولًا؛ لأنَّ الخلقَ سبقَتِ الإشارةُ إليه بقوله: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾، ويشملُ كلَّ أحدٍ صارَ زوجًا بسببِ وجودِ مُشابِهِه، لكن قُدِّمَ الفُلْك على الأنعام؛ لأنَّ جَعْلَ الفلكِ، وهي غيرُ عاقلةٍ أداةً للرُّكوبِ أظهرُ على التَّسخيرِ والامتنانِ؛ إذ طوَّعَ الأجسامَ الثَّقيلةَ للطَّفْوِ على الماءِ، وتلك آيةٌ تتعلَّقُ بما أودعَهُ في خواصِّ الموادِّ من أسرارٍ وآياتٍ، تدلُّ على الإتقانِ في الجَعْلِ، كما أنَّ الأنعامَ خلقَها، وذلَّلَ ظُهورَها للحَمْلِ والنَّقلِ أيضًا، قال الهرريُّ: "وتقديمُ الفُلْك على الأنعام؛ لأنَّ الفلكَ أدلُّ دليلٍ على القُدرةِ الباهِرة، والحِكمةِ البالِغةِ"[2].

دلالةُ الإضمارِ في: ﴿وَجَعَلَ﴾:

تغييبُ الجاعل في الخطاب تحريضٌ للخلق على أسرار الخالق سبحانه

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن فاعلِ (الجعل) بأسلوبِ الغَيبةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ﴾ مع أنَّ الجاعلَ هو الخالقُ العَظيم؛ للدَّلالةِ على العِلْمِ به دونَ ذِكرِهِ صَريحًا، وأنَّ الذِّهن لا يلتفتُ إلَّا إليه، كما أنَّ الحديثَ عن أمرٍ عظيمٍ في الجَعْلِ والخَلْقِ والتَّكوين، فناسَبَهُ الإضمارُ والتَّغييبُ؛ بحثًا عن أسرارِ الخَلْقِ الموصِلِ إلى عظمةِ الخالقِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 173.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 198.

دلالةُ تقديمِ البَيانِ على المُبَيَّن:

التَّقديمُ للبيان أهمُّ في مقامِ الاستدلالِ والامتنانِ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ تقدَّمَ البيان لـ(ما) المُبهمةِ عليها؛ للدَّلالة على الاهتمام بالبيانِ؛ إذْ ذِكْرُ المركوبِ من ﴿ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أهمُّ في مقامِ الامتنان والاستدلالِ على عظيمِ خَلْقِ الله وكريمِ فَضلِه، وكما قدَّم النَّظمُ الكريمُ المجعولَ لهم في ﴿لَكُم﴾؛ قدَّمَ المجعولَ ﴿ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ على الجَعْلِ ﴿تَرْكَبُونَ﴾؛ لأنَّ الجعلَ ظاهِرٌ للعيانِ، لكنْ نُسيَ التَّخصيصُ بالإنسانِ، فقدَّمه، ولم تُذكَرِ النِّعمُ، فقدَّمَها، فكانَ التَّقديمُ لهما تحقيقًا لهذا المرادِ، مع الحفاظِ على الفاصلةِ القرآنيَّة، قال الهرريُّ: "وتقديمُ البيانِ على المُبيَّنِ للمُحافظةِ على الفاصلةِ النّونيَّة"(1).

دلالةُ استعمالِ ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ دونَ (السُّفُن):

ركوبُ الأمواجِ العاتيةِ مِن نِعَمِ الله العاليَة

في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ على لفظِ (السُّفُن)؛ لأنَّ المرادَ الدَّلالةُ على ركوبِ الماءِ بالأمواج، ومن معاني الفُلكِ الموجُ، فتكونُ الفلكُ راكبةً على الماءِ، والراكبُ فيها راكبٌ على الماءِ أيضًا بواسطتِها، بخلافِ السَّفينة فإنَّها مشتقَّةٌ من السَّفْنِ، وهو التَّقشيرُ؛ لأنَّها تقشرُ وجهَ الماءِ بجَرْيِها، والمرادُ في النَّظمِ الامتنانُ بالرُّكوبِ دونَ شقٍّ وجهِ الماءِ، ولعلَّ اختيارَ ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ من الفَلَك بمعنى الدَّورانِ والطَّواف، فيكونُ صادِقًا بالطّائراتِ والقِطاراتِ الَّتي تطوفُ حولَ الأرضِ أيضًا.

دلالةُ استعمالِ (الأنعامِ) دونَ (الإبل):

التَّذكيرُ بالنِّعمة تذكيرٌ بشُكرِ المُنعِم

في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ آثرَ النَّظمُ استعمالَ (الأنعام) دونَ (الإبلِ)؛ لما في لفظِ (الأنعام) من دلالةٍ على النِّعمةِ التي نُسيَ شكرُها والانتباهُ لمُسخِّرِها، وإنْ كان المرادُ بها الإبلَ بقرينةِ المقامِ.

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 198.

سرُّ الاقتصارِ على ﴿ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

تسخيرُ الأشقِّ من الفلك والأنعام يؤذنُ بتسخير الأدنى

اقتصرَ النَّظمُ الكريمُ من آلاتِ التَّنقُّلِ على ﴿ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾؛ لأنَّهما أعلى أنواعِ ما يركَبُهُ الإنسان؛ إذ الفلكُ تعتلي الأمواجَ مِنَ المياه، والأنعامُ تعتلي الأمواجَ منَ الكُثبانِ الرَّمليَّة، فإن كانَ اللّه تعالى مُسخِّرًا للأشقِّ؛ فُهِمَ بالأولويَّة أنَّه مُسخِّرٌ للأدنى منهما.

دلالةُ الموصولِ في: ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾:

المناسبُ لمقامِ الامتنانِ إبهامُ المِنَنِ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن المركوباتِ بـ﴿مَا﴾ الموصولةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الإبهامِ المفيدِ للعُموم، الصّادقِ بأنواعٍ كثيرةٍ ممّا يَستعمِلُه الإنسانُ وسيلةً للتَّنقُّلِ، وفي ذلك كمالُ النِّعمة وتمامُها لِمَنْ أرادَ أن يتأمَّلَ، أو يعقِلَ، وتفسيرُ الإبهام بـ﴿ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ لا يَقتضي الحصرَ، بل ذكرَ بعضَ الأفرادِ للتَّمثيلِ بصنفَي المركوبِ المائيِّ والبرّيِّ.

دلالة حذف مفعول ﴿تَرۡكَبُونَ﴾:

الإيجاز في الكلام توضيح وإفهام

حذفَ النَّظمُ الكريمُ الضَّميرَ العائدَ على الموصولِ ﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾، والتَّقديرُ: (تركبونه)، وكثيرًا ما يُحذفُ الضَّميرُ المتَّصلُ المنصوبُ العائدُ؛ إيجازًا في اللَّفظ واكتفاءً بالمَرجِعِ ومُحافظةً له هنا على العمومِ والإبهام.

نكتةُ الاقتصارِ على الرُّكوب:

النَّقلُ البرّيُّ والمائيُّ أساسُ العمَلِ التِّجاريِّ

اقتصرَ النَّظمُ على فائدةِ الرُّكوب، معَ أنَّ للأنعام فوائدَ أُخرى، وذلك في قولِهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾؛ للدَّلالة على أهمّيَّة النَّقلِ البرّيِّ والمائيِّ في العمَلِ التِّجاريِّ، قال الطَّبري: "جعلَ لكم من السُّفُنِ ما تركبونَهُ في البِحارِ إلى حيثُ قَصَدتُم، واعتمدتُم في سَيرِكُم فيها لَمَعايِشِكم ومَطالِبِكم، ومن الأنعامِ ما تركبونَهُ في البَرِّ إلى

حيثُ أردتُم مِنَ البُلدان، كالإبلِ والخَيلِ والبِغالِ والحَمير"(1)، وبذلك يتَّسقُ الامتنانُ في جَعْلِ الأرضِ مَهدًا ووضْعِ السُّبُلِ فيها؛ لأهميَّةِ ذلك في تحصيلِ الرِّزق، ويتَّسقُ مع تنزيلِ الماءِ لإحياءِ الأرضِ بالزُّروعِ والأثمارِ، وبذلك يتحقَّقُ خلقُ الأرض وعناصرِ العملِ والقوتِ والمَنافعِ فيها.

دلالةُ التَّعديةِ في: ﴿تَرۡكَبُونَ﴾:

التَّغليبُ تمييزٌ للأصيلِ مِنَ التّابِع

عدَّى النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الرُّكوب) إلى ضمير ﴿ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾، والتَّقدير: (تركبونَهُ) مع أنَّ فِعلَ الرُّكوب يتعدَّى إلى ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ بالحرف، فيقال: ركبتُ فيه "للرَّمز إلى مكانتها"(2)، وإلى (الأنعام) مُباشرةً، فيقالُ: ركبتُ الأنعامَ، وعلَّلَ المفسِّرونَ ذلك بتغليبِ ركوبِ الأنعام على ركوبِ الفُلك؛ للفرقِ بين الرُّكوبِ الأصيلِ واللّاحق؛ إذ أصلُ الرُّكوبِ يكونُ للأنعامِ المركوبةِ، في حين أنَّ الفلك لا تُركَبُ أصلًا بل يحصُلُ الرّاكبُ فيها، فكانَ ركوبُهُ لها لاحِقًا، فغلَّبَ النَّظمُ الرُّكوبَ الأصيلَ عليهِ لذلك(3)، وعلَّلَ البيضاويُّ بوجهٍ آخَرَ، فقال: "أوِ المخلوقَ للرُّكوبِ على المَصنوعِ له، أوِ الغالبَ على النّادر"(4)، في حين علَّلَ الهرريُّ التَّغليبَ بقوَّةِ المتعدّي بنفسِهِ على المتعدّي بالحرف، فقالَ: "تغليبُ إحدى اعتبارَيِ الفعلِ لقوَّتِه على الآخَرِ، فإنَّ (ركبَ) يُعدّى إلى (الأنعام) بنفسِه، يقالُ: ركبت الدابَّةَ، وإلى (الفُلك) بواسطةِ حرفِ الجرِّ، يقالُ: ركبتُ في الفُلك"(5).

استعمالُ اللَّفظِ في حقيقتِهِ ومَجازِه:

كلُّ المخلوقات حيِّها وجامِدِها مُسخَّرٌ للإنسان

استعملَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الرُّكوب) من قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 574.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 41.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 173.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 87.
(5) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 239، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 198.

﴿لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾ في معناه الحقيقيِّ عندَما أسندَ الرُّكوبَ إلى ضميرِ (الأنعام)، في حين استعملَ الركوبَ بمعنى: الحصولِ في الشَّيء، عندَما أسندَ الرُّكوبَ إلى الفُلك؛ وذلك على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ بتشبيهِ الفُلك بدابَّةٍ، ثمَّ حُذِفَتْ، وأُبقيَ من خواصِّها الرُّكوبُ[1]، ويمكنُ أنْ يقالَ: إنَّ فعلَ (الرُّكوب) موضوعٌ للقدرِ المُشترَكِ، وهو مطلقُ الاعتلاءِ للشَّيء، سواءٌ كان الاعتلاءُ بالاستقرارِ على ظَهْرِهِ أم بالحصولِ فيهِ بعدَ اعتلائِهِ.

دلالة حرف (اللّام) في ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ﴾:

مـآلُ النِّعَمِ العليَّة كالعِلَلِ الغائيَّة

عبَّر النَّظمُ في قولِهِ تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ بـ(لام) العاقبةِ أوِ الصَّيرورةِ؛ إذِ الاستواءُ على ظهورِ الفُلك والإبلِ نتيجةٌ وعاقبةٌ للجَعْلِ المَذكور، وليس علَّةً وسَببًا له، ففي الحرفِ استعارةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ شبَّه المآلَ بالعلَّة بجامعِ التَّرتُّب على الشَّيء، وتقديرُ النَّظم: (وجعلَ ما تركبونَ لكم، فتستوون على ظهوره)، وإنَّما عبَّر عن المترتِّب على الشَّيءِ بالعلَّةِ لإظهارِ النِّعمةِ وإبرازِ الامتنانِ عليهم، كأنَّه الباعثُ للفاعلِ على الفعلِ، وذهبَ البقاعيُّ إلى أنَّ (اللّام) دالَّةٌ على التَّعليلِ[2]، وهو بعيدٌ؛ لأنَّ جعْلَها مركوبةً لا يتمُّ إلّا بأنْ كانتْ صالحةً للرُّكوب، فيكونُ الاستواءُ على ظهورِها مآلًا وعاقبةً لذلك الجَعْلِ.

دلالةُ المضارعِ في: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ﴾:

مِن كمالِ النِّعمةِ استمرارُها

الفعلُ المضارعُ في قولِهِ تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ منصوبٌ بأنِ المُضمرة، دالٌّ على تجدُّدِ الفعلِ واستمرارِه، ومن شأنِ النِّعمةِ العظيمة أنَّها تكونُ مُتجدِّدةً دائمةً لا تنقطِعُ.

دلالةُ الاستواءِ في: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ﴾:

نِعَمُ اللهِ تعالى كاملةٌ لا يَشوبُها نقصٌ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن الحِكمةِ مِن خلقِ ما يَركَبُهُ الإنسانُ في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 173.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 394.

قولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ بـ(الاستواءِ) الدّالِّ على الاعتلاءِ على الشَّيءِ والاستقرارِ على سبيلِ الاعتدالِ والثَّباتِ والتَّمكُّنِ[1]، فلا نُبوَّ فيه ولا تزلزلَ ولا اهتزازَ يجعلُ المرتقيَ في حالةِ عدمِ راحةٍ أوِ ارتياحٍ، وبذلك يكمُلُ الامتنانُ، وتعظُمُ النِّعمةُ، وتكمُلُ لهذا الإنسانِ.

دلالةُ (الاستواءِ) بينَ الدّابَّةِ والفُلكِ:

الاستقرارُ في الشَّيءِ مُستلزِمٌ للاستقرارِ عَليه

جمعَ النَّظمُ الكريمُ بينَ (الفُلك والدابَّة) في الاستواءِ عليهما بقولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، معَ أنَّ الاستواءَ بالنِّسبةِ للدَّوابِّ يكون على الظُّهور وبالنِّسبة للفلكِ يكونُ في البُطونِ، وذلك للتَّغليبِ أيضًا، كما أنَّ المُستويَ داخلَ الفلك يكونُ مُستويًا على ظهرِها أيضًا ومعتدلًا.

دلالةُ ﴿عَلَىٰ﴾ في: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾:

الجمعُ بينَ الاستعلاءِ الحقيقيِّ والمَجازيِّ

عدَّى النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الاستواء) في قولِه تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالِّ على الاستعلاءِ، وهذا بالنِّسبة للدَّوابِّ استعلاءٌ حقيقيٌّ، وبالنِّسبةِ للفُلك استعلاءٌ مجازيٌّ؛ إذ الاستواءُ يكون فيها لا عليها، إلّا أنَّه نظرَ إلى أنَّ للسَّفينةِ ظَهْرًا أيضًا[2]، فيكون الاستواءُ عليها استعلاءً حقيقيًّا أيضًا.

دلالةُ جمعِ (الظُّهور) وإفرادِ ضَميرِه:

الضَّميرُ ناظرٌ للَّفظِ، والمضافُ ناظِرٌ للمَعنى

جمعَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (ظَهْر) في قوله تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، أي: ظهورِ ما تركبونَهُ من الفُلك والأنعام، ولفظُ ﴿مَا﴾ وإنْ كانَ مفردًا لفظًا إلّا أنّه جمعٌ معنًى؛ إذ فُسِّرَتْ بالفُلك والأنعام، وجمعُ (الظَّهر) بالنَّظرِ إليه، فيكونُ الضَّميرُ مَنظورًا فيه لِلَفْظِ (ما)، والجمعُ مَنظورٌ فيه للمعنى، فـ: "إيرادُ لفظِ (ظهور) بصيغة

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 394، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 199.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

الجمع، مع أنَّ ما أُضيفَ إليه مفرد نظرًا للمعنى؛ لأنَّ مرجِعَ الضَّمير جمعٌ في المعنى، وإنْ كان مفردًا في اللَّفظ"[1]؛ للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ ظهرٍ من المذكوراتِ مُستوٍ في الصُّعود عليه والجلوس فوقَهُ، وقالَ البقاعي: "جمعَ الظَّهرَ نظرًا للمعنى؛ تكثيرًا للنِّعمة، وأفردَ الضَّمير ردًّا على اللَّفظ؛ دلالةً على كمالِ القُدرةِ بعظيم التَّصريف برًّا وبحرًا، أو تنبيهًا بالتَّذكيرِ على قوَّةِ المركوب؛ لأنَّ الذَّكرَ أقوى من الأُنثى"[2].

دلالةُ التَّغليبِ في (الظُّهور) وعدمُها:

صنعٌ عجيبٌ ونعمةٌ مُحكمَةٌ

إنَّ الظُّهورَ مِن مُقترَناتِ الدَّوابِّ دونَ الفُلك، ولذا قالَ الهرريُّ: "والظُّهورُ للأنعامِ حقيقةً لا للفُلك، فدلَّ على تغليبِ الأنعامِ على الفُلك"[3]، والَّذي يبدو لنا أنَّ الفلك لها ظهورٌ مثلُ الدَّوابِّ، وكما يكونُ الجلوس في بطونِها يكون الاستقرارُ على ظُهورها أيضًا، فلا تغليبَ[4]، ويمكنُ القولُ بأنَّ الجلوسَ في بطونِ الفلك يكونُ ظهرًا باعتبارِ أنَّها تمخُرُ على ظهرِ الماءِ، فيكونُ جمْعُ (الظُّهور) بالنِّسبة للدَّوابِّ نفسها، وبالنِّسبةِ للفُلك باعتبارِ الماءِ الَّذي تجري عليه، وأيًّا مّا كانت الظُّهورُ حقيقةً أو تغليبًا؛ فإنَّ الاستواءَ على تلك الظُّهور دليلٌ على كمالِ الإتقانِ في النِّعَمِ والصُّنع.

دلالةُ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

التَّراخي في ذكرِ النِّعمةِ دليلُ التَّأمُّل في كَمالها

عطفَ النَّظم الكريم بـ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لِتَسْتَوُواْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾؛ لأنَّه: "لمّا أتمَّ النِّعمةَ بخلقِ كلِّ ما تدعو إليه الحاجةُ، وجعلَهُ على وجهٍ دالٍّ على ما لهُ من الصِّفات؛ ذكرَ ما يَنبغي أنْ يكونَ من غايتِها على ما هو المتعارفُ بينَهم من شُكْرِ المُنعِم، فقالَ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 199، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 41، والشّوكاني، فتح القدير: 4/ 628.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 394.

(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 199.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

دالًّا على عظيم قدرِ النِّعمة وعلوِّ غايتِها وعلوِّ أمرِ الذِّكرِ بحرفِ التَّراخي: ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ﴾"[1]، ونحسَبُ أنَّ العطف كان بـ﴿ثُمَّ﴾ دونَ (الواوِ أوِ الفاء)؛ لإعطاءِ الفُسحةِ للمُتأمِّلِ قبلَ ذكرِ النِّعمةِ والشُّكرِ عليها، حتّى يكونَ شُكرُهم للمُنعِم عن استغراقٍ في حقيقةِ إنعامِه وإكرامِه، أو لأنَّ الإلهامَ إلى معرفةِ ترويضِ الدَّوابِّ وصناعةِ السُّفنِ بالانتباهِ إلى كيفيّاتِ طَفْوِها يحتاجُ إلى زمنٍ بالنِّسبة للمُخاطَبين.

نكتةُ بيانِ العاقبةِ في: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ﴾:

التَّوطئةُ والتَّمهيدُ لشُكرِ نِعمةِ الحَميدِ المَجيد

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ ببيانِ عاقبةِ خَلْقِ المَركوباتِ بالاستواءِ على ظُهورِها في قولِه تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ﴾؛ ليكونَ الاستواءُ عليها تمهيدًا وتوطئةً لذكرِ تلك النِّعمةِ العظيمةِ والشُّكرِ عليها؛ إذ جعلَها مركوبةً سهلةَ القيادِ لا يَنبو الجالسُ عليها، ولا يضجَرُ منها، فيكونُ سببًا لذكرِ تلك النِّعمة والاعترافِ بالخالقِ المُنعِم والتَّوجُّهِ إلى شُكْرِه.

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ﴾:

لا سبيلَ للإحاطةِ بالنِّعَمِ عندَ شُكْرِ المُنعِم

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (النِّعمة) إلى (الرَّبِّ) في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستغراق العرفيِّ؛ لأنَّ حالةَ الاستواءِ والارتياحِ تدعو إلى التَّأمُّلِ، فتتوالى النِّعَمُ على الذِّهن، وتتداعى، فيقدمُ المؤمنُ على شُكرِها، والنِّعمةُ وإنْ كانت مفردةً لفظًا، لكنَّها دالَّةٌ على جنسِ ما وردَ ذِكرُهُ من نِعَم عديدة، وكانتْ إضافتُها دالَّةً على الاستغراقِ العرفيِّ؛ لشمولِ النِّعَمِ المذكورةِ وغيرِها ممّا لا يُحصَى كثرةً، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ الإفرادَ في النِّعمة منظورٌ فيه إلى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾، وهي مفردةٌ لفظًا جمعٌ معنًى، فيكونُ إفرادُ النِّعمةِ مراعاةً للفظِها.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 394.

نكتةُ الإضافةِ إلى (الرَّبِّ):

الـرَّبُّ الكـريـمُ لا يُـعـطـي إلّا العطاءَ الجَزيل

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (النِّعمة) إلى اللهِ تعالى بوصفِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَن خلقَ الأرضَ وجعلَها مَهْدًا، ووضعَ فيها سُبُلًا، وأنزلَ الماءَ لإحيائها، وخلقَ كلَّ شيء، وأتقنَه، ويسَّرَ قيادَهُ والارتقاءَ إليه؛ فهو الرَّبُّ الَّذي يُربّي الأشياءَ، ويُبلِّغُها إلى حالةِ الاكتمال والتَّمام، فتكونُ إضافةُ النِّعمةِ إليه؛ للدَّلالةِ على كمالِ تلك النِّعمة الَّتي لا سبيلَ لأحدٍ على أدائِها وتقديمِها، وفيه تعريضٌ بالمشركينَ الَّذين آمَنوا بربوبيَّته، وأشركوا معه آلهةً يَعبُدونَها من دونِهِ؛ إذ كيف يستقيمُ ذلك مع أنَّه المُتفضِّلُ بكلِّ شيءٍ؟

دلالةُ الذِّكرِ في: ﴿تَذۡكُرُواْ﴾:

حقيقةُ الشُّكرِ الصّادقِ مصدرُهُ القلبُ والوُجدان

عبَّر النَّظمُ بالذِّكرِ للنِّعَمِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ﴾، وأرادَ به الذِّكرَ القلبيَّ دونَ اللِّسانيِّ؛ لأنَّ حقيقةَ شُكرِ المُنعِمِ على إنعامِه يكون بعملِ القلبِ والثَّناءِ عليهِ المتضمِّنِ للاعترافِ بأنَّه المتفضِّلُ والمنعِمُ على سبيلِ الانفرادِ لا يُشارِكُهُ غيرُهُ في الإنعامِ والمنِّ والفَضلِ، فالمرادُ: "جَعَلَ لَكُم ذَلِكَ نِعمَةً؛ لِتَشعُروا بها، فَتَشكُروهُ عَلَيها، فالذِّكرُ هُنا هو التَّذَكُّرُ بِالفِكرِ لا الذِّكرُ بِاللِّسانِ"[1].

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿تَذۡكُرُواْ﴾:

الشُّكْرُ عن ذِكرٍ أعمَقُ أثَرًا وأعلى خَبَرًا

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ بأسلوبِ الكنايةِ؛ إذ ذُكِرَ الملزومُ، وأُريدَ به لازمُهُ؛ لأنَّ ذِكرَ نعمةِ اللهِ تعالى عندَ التَّلبُّسِ بها يرادُ منهُ شكرُ تلك النِّعمة، وليس مجرَّدُ ذكرِها القلبيِّ والتَّأمُّلِ فيها، ولكنْ لَمّا كانَ الذِّكرُ القلبيُّ لها مقدِّمةَ الشُّكرِ لها؛ عبَّر بالملزومِ؛ ليَنتقِلَ الذّاكرُ إلى لازمِه، وهو الشُّكرُ بالقلبِ واللِّسانِ والجَوارحِ، "وذِكْرُ النِّعْمَةِ كِنايَةٌ عَن شُكرِها؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

لأنَّ شُكرَ المُنعِم لازِمٌ لِلإنعام عُرْفًا، فَلا يَصرِفُ عَنْهُ إلّا نِسيانُهُ، فَإذا ذَكَرَهُ؛ شَكَرَ النِّعمَةَ"[1]، وإنَّما لم يُعبِّرِ النَّظمُ باللّازم مُباشرةً بأن يقولَ: لتَشكُروا نعمةَ ربِّكم؛ لأنَّ الشُّكرَ العميقَ يَنبغي أن يكونَ عن ذكرٍ قلبيٍّ وتفاعُلٍ نفسيٍّ عميقٍ حتى يكونَ هنالك شكرٌ عن تأمُّلٍ وإدراكٍ، ونكتةُ العُدولِ: "مِن (تَحمُدوا) إلى ﴿تَذۡكُرُواْ﴾ تصوير حالة كون المركوب مُذلَّلًا منقادًا، وأنَّه لولا تمكينُ اللّه لم يُتمكَّن منه"[2].

نكتةُ التَّقييدِ بـ﴿إِذَا﴾:

الاســـتـــواءُ الجَسديُّ يرافِقُهُ اعتدالٌ نفسيٌّ

قيَّد النَّظمُ الكريمُ ذِكرَ نعمةِ اللّه تعالى وشُكرَها بالظَّرف ﴿إِذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ لنُكَتٍ جليلةٍ، منها: أهمّيَّةُ اقترانِ الشُّكر على النِّعمةِ عندَ التَّلبُّس بها ومعايَشَتِها والتَّنعُّم بآثارِها، فإنَّ الشُّكرَ يكونُ مُقارِنًا لأفضالِ المُنعِم وإكرامِه، قال ابن عاشور: "فإنَّ ذِكرَ النِّعمَةِ في حالِ التَّلَبُّس بِمَنافِعِها أوقَعُ في النَّفسِ وأدعَى لِلشُّكرِ عَلَيها، وأجدَرُ بِعَدَمِ الذُّهولِ عَنها"[3]، ومنها أنَّ الاستواءَ اعتدالٌ وهناءٌ جسديٌّ في الرُّكوب، والنَّفسُ المُستويةُ هي الَّتي تشكرُ المُنعِمَ، ولا تجحَدُهُ حقَّه، فيكونُ الاستواءُ والاعتدالُ في الجِلسةِ والنَّفس الشّاكرة؛ إذِ الاستواءُ المكانيُّ يَستدعي الاستواءَ النَّفسيَّ، فيُبادِرُ إلى شُكرِ المُنعِم الحقيقيِّ وتلك من خواصِّ النَّفسِ المُعتدلة، ومنها: أنَّ التَّقييدَ بالظَّرف أفادَ التَّعريضَ بالمُشركينَ والجاحدينَ الذينَ يتقلَّبون في نِعَمِ اللّه تعالى المُحيطةِ بهم، وهم يَشكُرونَ غيرَهُ أو يَستكبِرونَ على شُكرِ المُنعِم الحقيقيِّ، فهَذا: "تَعريضٌ بِالمُشرِكينَ؛ إذ تَقَلَّبوا في نِعَمِ اللّه، وشَكَروا غَيْرَهُ؛ إذِ اتَّخَذوا لَهُ شُرَكاءَ في الإلَهيَّةِ، وهُم لَم يُشارِكوهُ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 14/ 106.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

الأنعامِ"[1]، وفي ذلك التَّعريضِ تسليةٌ للشّاكرين بأنَّ شكْرَهم بإزاء النِّعَم محبوبٌ مقبولٌ.

بلاغةُ ردِّ الأعجاز على الصُّدور:

الاستواءُ الأوَّلُ ذهنيٌّ والثّاني فعليٌّ وواقعيٌّ

في قولِه تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فنٌّ بديعيٌّ يُسمّى (ردَّ الأعجاز على الصُّدور)، وفائدتُهُ أنَّ عاقبةَ جعْلِ المركوبِ مستويًا عندَ الاستعلاءِ عليه سهلَ القياد غيرَ نابٍ ولا مُتزلزِلٍ أمرٌ ملحوظٌ ذهنًا، ويترتَّبُ عليه شكرٌ عندَ وقوعِهِ وممارستِهِ فِعلًا، وبذا يتَّضحُ الفرقُ بين الاستوائَين؛ إذ الاستواءُ الأوَّلُ دالٌّ على نعمةِ ذلك الرُّكوبِ ومآلِ ذلك التَّسخير ذهنًا، والاستواءُ الثّاني كانَ إيجادًا وتحقُّقًا وممارسةً لتلك النِّعمة بشكلٍ عمليٍّ وواقعيٍّ.

دلالةُ (الواوِ) العاطفةِ في: ﴿وَتَقُولُوا﴾:

الإقرارُ بالرُّبوبيَّة والاعترافُ بالوحدانيَّة

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا﴾ على ما قبلَهُ؛ ليكونَ الذِّكرُ اللِّسانيُّ بالتَّسبيحِ والتَّنزيهِ مُرتبِطًا بالذِّكر القلبيِّ والشُّكرِ للرَّبِّ على النِّعَم المذكورة، فيتحقَّقُ شكرُ المُنعِم، وهو الرَّبُّ تعالى، ويرتبطُ معَهُ التَّنزيهُ عن الشُّركاءِ والنَّقائص، فيكون هنالك إقرارٌ بالرُّبوبيَّة واعترافٌ بالوحدانيَّةِ معًا، "وإنَّما لم يجِئْ (ولتُسبِّحوا)، كما هو المُناسبُ لما قبلَه للتَّشويق إلَى هذا القَوْل، أعني: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى﴾؛ إذ التَّسبيحُ يُطلقُ عَلَى التَّنزيهِ بأيِّ كلامٍ كانَ"[2].

دلالةُ المصدرِ ﴿سُبْحَـٰنَ﴾:

بحارُ الوحدانيَّةِ عميقةُ الأغوارِ والأسرارِ

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ عن مَقولِ القولِ بالتَّسبيحِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا﴾، وهو مصدرٌ منصوبٌ بفعلٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 290.

محذوفٍ لزومًا، تقديرُهُ: (نُسبِّحُ سُبحانَ)، أي: نُكثِرُ من التَّسبيحِ؛ إذ المصدرُ مأخوذٌ من الفعلِ المضعَّفِ، وهو دالٌّ على الحقيقةِ الكاملةِ، ممّا يُفيدُ مضمونُهُ الاستغراقَ في الوحدانيَّةِ والإعلانَ عن عدمِ مُشاركةِ أحدٍ للّه تعالى في الخلقِ والإنعامِ، "فافتَتَحَ هَذا الشُّكْرَ اللِّسانيَّ بِالتَّسْبيحِ؛ لأنَّهُ جامِعٌ لِلثَّناءِ؛ إذِ التَّسْبيحُ تَنْزيهُ اللّه عَمّا لا يَليقُ، فَهو يَدُلُّ عَلى التَّنْزيهِ عَنِ النَّقائِصِ بِالصَّريحِ، ويَدُلُّ ضِمْنًا عَلى إثْباتِ الكَمالاتِ للّه في المَقامِ الخَطابيِّ"[1]، فالتَّنزيهُ للّهِ تعالى مُستلزِمٌ للثَّناءِ عليه، فيكونُ مُشتمِلًا على الحَمْدِ، فهو تنزيهٌ وثناءٌ، بقي أنَّ صيغةَ التَّسبيحِ مفيدةٌ لمعنى التَّعجُّبِ؛ إذ لمّا ظهرَ لهم أنَّ تلك الفُلك والأنعام مسخَّرةٌ لهم؛ تعجَّبوا من كمالِ عظَمةِ اللّه وقُدرته، فقالوا ذلك على سبيل التَّعجُّبِ والاستعظام[2].

دلالةُ تلقينِ صيغةِ التَّسبيحِ:

تعليمُ الألفاظِ دعـوةٌ للـتَّـأمُّلِ بمضامينِها

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بأسلوبِ الإرشادِ القوليِّ عندَ شُكرِ المُنعِمِ في قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾، فقد تضمَّنَ النَّظمُ تلقينَ صيغةِ القولِ وصيغةِ الشُّكرِ لجملةٍ معيَّنةٍ تقالُ عندَ الاستواءِ، كما لقَّنَ صيغًا كثيرةً كصيغةِ الحمدِ وصيغةِ الاسترجاعِ وغيرهما في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: 2]، وقوله ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: 156]، قال ابن عاشور: "فَلَقَّنَهُم صيغَةَ شُكرٍ عِنايَةً بِه، كَما لَقَّنَهُم صيغَةَ الحَمدِ في سورَةِ الفاتِحَةِ وصيغَةَ الدُّعاءِ في آخِرِ سورَةِ البَقَرَةِ"[3]، وفي ذلك إرشادٌ لحقيقةِ الألفاظِ الَّتي يريدُ اللّه تعالى من الإنسانِ أن يقولَها، إرشادًا منه وتعليمًا لما يُنالُ به رِضاه، ودعوةً للتَّأمُّلِ بمضامينِها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 41.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

دلالةُ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

التَّعريضُ بالمُشْركينَ والرَّدُّ على الجاهلينَ

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ عن المُنزَّه بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ للدَّلالةِ على ذاتٍ معهودةٍ معلومةٍ عند المُخاطَبين؛ إذ المُستأثِرُ بالإيجادِ والخلقِ إنَّما هو اللهُ تعالى دونَ ما سِواه، وفيه تعريضٌ بالجاهلين؛ إذ كيفَ يُعلَمُ أنَّه الرَّبُّ الخالقُ الموجِدُ المُسخِّرُ لكلِّ شيءٍ، ويُشرَكُ معَهُ غيرُهُ، ويُعبَدُ مَن سِواه، ولذا آثر النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالموصولِ عن التَّعبير باسمِ العلَم.

دلالةُ صلةِ الموصولِ ﴿سَخَّرَ﴾:

تعليلُ التَّسبيحِ دالٌّ على الإقرارِ بالخالقِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ عن الذّاتِ الإلهيَّةِ بالاسم الموصول في قولِه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ للدَّلالةِ على تعليلِ الحمد والتَّسبيح للّه تعالى بما تضمَّنَتْهُ جملةُ الصِّلة، والتَّقديرُ: (ننشئُ التَّنزيهَ للّه تعالى؛ لأنَّه المُسخِّر لهذا)، فاستِحْضارُ الجَلالَةِ بِطَريق المَوصوليَّة؛ لِما يُؤْذِنُ بِهِ المَوصولُ مِن عِلَّةِ التَّسبيحِ حَتَّى يَصيرَ الحَمْدُ الَّذي أفادَهُ التَّسْبيحُ شُكْرًا لِتَعليلِهِ بِأنَّهُ في مُقابَلَةِ التَّسْخيرِ لَنا"[1]، ويفيد التَّعليلُ الاعتراف بالتَّسخير المستلزم وجود المسخِّر الحكيم العالم، ومَن قدر على تسخير الأشياء؛ فهو الخالق لها الجاعل لها وظيفة معيَّنة.

دلالةُ فعلِ (التَّسخير):

التَّعريضُ بالمُشركينَ في عبادةِ المُسخَّرين

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ الكريم استعمالَ فعلِ (التَّسخير) في قولِه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾، "والتَّسخير: التَّذليل والتَّطويعُ، وتَسْخيرُ اللهِ الدَّوابَّ هو خَلْقُهُ إيّاها قابِلَةً لِلتَّرويضِ فاهِمَةً لِمُرادِ الرّاكِبِ، وتَسخيرُ الفُلْك حاصِلٌ بِمَجموعِ خَلْقِ البَحرِ صالِحًا لَسَبحِ السُّفُنِ عَلَى مائِه، وخَلْقِ الرّياحِ تَهُبُّ، فَتَدْفَعُ السُّفُنَ عَلَى الماءِ، وخَلْقِ حيلَةِ الإنسانِ لِصُنْعِ الفُلْكِ، ورَصْدِ مَهابِّ الرّياحِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

ووضْعِ القُلوعِ والمَجاذيفِ، ولَوْلا ذَلِكَ؛ لَكانَتْ قوَّةُ الإنْسانِ دونَ أنْ تَبْلُغَ استِخْدامَ هَذِهِ الأشياءِ القَوِيَّةِ"[1]، وللدَّلالةِ على أنَّ الجماداتِ والحيواناتِ خادمةٌ للإنسان؛ إذ فعلُ التَّسخيرِ يدلُّ على العملِ بلا عِوضٍ ولا مُقابلٍ، مع ما يوحيهِ بالإهانةِ والتَّحقيرِ، وفي ذلك كنايةٌ عن كمالِ الإنعام؛ إذ يَعتليها الإنسانُ، وتنقلُهُ من مكانٍ إلى آخرَ بلا مقابلٍ، وفيه تعريضٌ بالمشركينَ؛ إذ يَعبُدونَ المسخَّرَ لهم باتِّخاذهِمُ الأوثانَ مَعبوداتٍ من دونِ اللّه تعالى.

كمالُ النِّعمةِ تخصيصُ المُسخَّرِ بالشّاكرين

دلالةُ تقديمِ شبهِ الجُملة ﴿لَنَا﴾:

قدَّم النَّظمُ الكريمُ شبهَ الجملةِ الواقعةِ حالًا ﴿لَنَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ على المفعولِ به المُشارِ إليه؛ للدَّلالة على تقييدِ التَّسخيرِ بالمسخَّر لهم، وفي ذلك إتمامٌ للنِّعمة؛ إذ إنَّه مسخَّرٌ بكونِهِ لنا دونَ مَن سِوانا.

الشُّكرُ عندَ مُشاهدةِ النِّعمة صِدقٌ ورَغبة

دلالةُ اسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ عن المشارِ إليه، وهو كلٌّ من الفُلك والأنعام باسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ للدَّلالة على كمالِ استحضارهِ وتميُّزِهِ عندَ المتكلِّم المُثني؛ فاسمُ "الإشارَةِ موجَّهٌ إلَى المَركوبِ حينَما يَقولُ الرّاكِبُ هَذِهِ المَقالَةَ من دابَّةٍ أو سفينة"[2]، ومن أفضلِ الشُّكرِ وأكملِهِ أن تكونَ النِّعمةُ حاضرةً عند الشّاكرِ ظاهرةً لديه، يتنعَّمُ بها فيُنْشئُ الثَّناءَ والتَّسبيحَ بكلِّ صدقٍ ورَغبةٍ، وبيَّن الطّيبيُّ أنَّ في لفظِ ﴿هَٰذَا﴾ مزيدَ تقريرٍ لمَعنى التَّعجُّب[3] المُفادِ من (سُبحان).

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَمَا كُنَّا﴾:

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ (واو) الحال في قولِهِ تعالى: ﴿سَخَّرَ لَنَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 175.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 175.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 106.

اختصاصُ مَولانا بخَلْقِ المُسبَّبات كما اختصَّ بخلْقِ الأسباب

﴿هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾؛ للدَّلالة على القدرةِ الإلهيَّة التّامَّة على التَّسخيرِ للمَخلوقات، الَّتي قد يُظَنُّ للغافلينَ أنَّه تسخيرٌ إنسانيٌّ، يكونُ بصِناعةِ الفُلك وترويضِ الدَّوابِّ، فاحترزَ النَّظمُ عن ذلك الوهمِ بجملةِ الحالِ؛ نفيًا لتأثيرِ السَّببِ النّاقصِ، وتثبيتًا لفاعليَّة اللّٰه تعالى في الأسبابِ والمسبَّبات معًا، "وجُملَةُ ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَنَا﴾، أي: سَخَّرَها لَنا في حالِ ضَعفِنا بأن كانَ تَسخيرُهُ قائِمًا مَقامَ القوَّةِ"(1).

دلالةُ النَّفيِ بـ(ما):

استحضارُ النِّعمة مُزيلٌ للحَوْلِ والقوَّة

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم بـ(ما) النّافيةِ؛ للدَّلالة على استغراقِ الأزمنةِ الماضية معَ التَّأكيدِ للنَّفي؛ نفيًا للطّاقةِ والحَوْلِ عن فعلِ التَّسخير وما يوصِلُ إليه، وذلك من أعظَمِ أنواعِ الثَّناء بأنْ يَتبرَّأَ الشّاكرُ المسبِّحُ من حَوْلِه وقوَّتِه في فعلِ شيءٍ من تلك النِّعَم.

دلالةُ فعلِ الكَينونةِ المَنَفيِّ:

عدمُ حدوثِ الكَوْنِ فَضْلًا عن حدوثِ الإطاقةِ

وجَّهَ النَّظمُ الكريمُ النَّفيَ إلى فعلِ الكَوْنِ دونَ الخبرِ نفسِه في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، فلم يقل: وما نحنُ مُطيقينَ وقادرينَ، وذلك لأنَّ نفيَ فعلِ الكونِ، وهو يدلُّ على مطلَقِ الحدث، ثمَّ يتوجَّهُ إلى الحدثِ بخصوصِه يكونُ أكثرَ تمكُّنًا في النَّفي وتحقُّقًا له؛ إذ لم يوجَد كونٌ يتحقَّقُ فيه الطّاقةُ والحَولُ، فضلًا عن وجودِهما أصلًا.

دلالةُ لفظِ ﴿مُقْرِنِينَ﴾ في السّياق:

نفيُ الطّاقةِ يَستلزِمُ نفيَ الفِعلِ أصلًا

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ الكريم لفظَ ﴿مُقْرِنِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، أي: مُطيقينَ وقادِرينَ؛ لأنَّ الفعلَ (أقرنَ له) صارَ مُطيقًا مثلَهُ، كالإقران والمُقارنة، "قالَ الزَّجّاج: ﴿مُقْرِنِينَ﴾:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 175.

مُطيقينَ، واشتقاقُهُ من قولِك: أنا لفلانٍ مُقرنٌ، أي: مُطيقٌ، أي: قد صِرتُ قِرنًا له"[1]، "وقالَ الواحِديُّ: وكَأنَّ اشتِقاقَهُ مِن قَولِكَ: ضربَ له قِرنًا، ومعنى: أنا قِرْنٌ لِفُلانٍ، أي: مِثالُهُ في الشِّدَّةِ، فَكَأنَّ المَعْنَى: أنَّهُ لَيسَ عِندَنا مِنَ القوَّةِ والطّاقةِ أن نَقْرِنَ هَذِهِ الدّابَّةَ والفُلْكَ، وأنْ نَضْبُطَها"[2]، وفي ذلك نفيٌ لأصلِ الطّاقةِ والحَوْلِ والقوَّةِ والقُدرة، فضلًا عن مُمارسةِ الفعل وتحقيقِهِ وإنجازِه، وبناءً على هذا المعنى يكونُ الضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ عائدًا إلى التَّسخيرِ المفهومِ مِن ﴿سَخَّرَ﴾.

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

على السّالكينَ في مَقامِ الثَّناء التَّجرُّدُ والفَناء

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ المُتعلِّقَ باسم الفاعل ﴿مُقْرِنِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمام؛ إذ لا إطاقةَ للعبدِ على التَّسخيرِ وغيرِه، كما يحصلُ بهذا التَّقديم انسجامٌ بينَ ﴿سَخَّرَ لَنَا﴾ وبين ﴿لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، فهو يُسخِّرُ عن قدرةٍ عظيمةٍ لنا، ونحن عاجزونَ عن أيَّةِ قُدرةٍ فضلًا عن تأثيرٍ، "وقيلَ: إنَّ مَعنى ﴿مُقْرِنِينَ﴾: مُماثِلينَ لَهُ في القوَّةِ، مِن قَولِهِم: هو قِرْنُ فُلانٍ؛ إذا كانَ مِثْلَهُ في القوَّةِ"[3]، وبناءً عليه فإنَّ الضَّمير في (له) عائدٌ إلى اللّٰه تعالى، ويكون التَّقديم مفيدًا للاختصاص.

نكتةُ استعمالِ صيغةِ اسمِ الفاعل:

العَجزُ التّامُّ والافتقارُ الدّائم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن نفيِ الإطاقةِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ الوصفِ على سبيلِ الحُدوث والحصول، فلا مُحاولةَ تنجحُ في تحقيقِ التَّسخير مهما تعدَّدَتْ، وتكاثَرَتْ.

دلالةُ العطفِ بالواوِ في: ﴿وَإِنَّآ﴾:

الدُّنيا دارُ ارتحالٍ وزَوال

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ على

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 108.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 622.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 628.

ما قبلَهُ؛ للدَّلالة على اقترانِ الثَّناءِ والتَّسبيح للّه تعالى بتذكُّرِ الرُّجوع إليه تعالى، والجامعُ بينَهما خياليٌّ، "واتِّصالُهُ بذلك؛ لأنَّ الرُّكوبَ للتَّنقُّلِ، والنِّقلةُ العُظمى هو الانقلابُ إلى اللّه تعالى، أو لأنَّه مَخطَرٌ، فيَنبغي للرّاكب ألّا يغفَلَ عنه، ويستعدَّ للقاءِ اللّه تعالى"[1]، والرُّجوعُ من الأسفارِ إلى الوطنِ حالةٌ مُذكِّرةٌ بالرُّجوعِ من دار الدُّنيا إلى دار الآخِرة، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ السَّفر وما فيهِ مثلُ رحلةِ الدُّنيا، وأنَّ السَّفرَ مهما طالَ؛ فلا بدَّ من عَوْدة، ودارَ الدُّنيا مهما طالَتْ؛ فلا بدَّ من العودةِ إلى اللّه تعالى، فناسبَ عطفُ هذا الجزء من القَولِ على ما قبلَه، "وهَذا إدماجٌ لِتَلْقينِهِمُ الإقرارَ بِالبَعثِ، وفيهِ تَعريضٌ بِسُؤالِ إرجاعِ المُسافِرِ إلَى أهلِه، فَإنَّ الَّذي يَقدِرُ عَلى إرجاعِ الأمواتِ إلى الحَياةِ بَعدَ المَوتِ يُرجَى لِإرجاعِ المُسافِرِ سالِمًا إلى أهلِه"[2].

التَّغايرُ بينَ المُتعاطفين:

العـــدولُ عن التَّناسُبِ إعجازٌ مبين

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميَّةَ الخبريَّةَ على الجملةِ الفعليَّةِ الإنشائيَّةِ في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾: "إذ الانقلابُ إلى الرَّبِّ للجزاءِ يُنكرُهُ كثيرٌ من النّاس أو يتردَّدونَ فيه، فالمقامُ مَقامُ التَّأكيدِ، فأُكِّدَ بتأكيداتٍ، وهي: الجُمْلَةُ الاسميَّة وكلمةُ إنَّ واللّامُ، ولتَحْصيل هذه الفائدَةِ لم يُراعِ لمُحسِّنات الوصل التَّناسُبَ بينَ الجملتينِ في الفعليَّة؛ إذ التَّسخيرُ لكونِه أمرًا بديهيًّا لا يحتاج إلَى التَّأكيد"[3]، وعبَّر بالجملةِ الفعليَّة عنِ التَّسخير؛ لأنَّه متجدِّدُ الخلقِ والتَّكوين، وعن الانقلابِ إلى اللّه تعالى بالجملةِ الاسميَّة؛ لأنَّ ذلك أمرٌ ثابتٌ ومقرَّرٌ ردًّا على المُنكرينَ والنّافينَ له، وعبَّر عن الشُّكر بالجملة

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 87، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 622، والزّمخشري، الكشّاف: 4/ 240.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 175.

(3) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 292.

الإنشائيَّة؛ لأنَّ الشُّكر مطلوب إيجادُهُ، وذلك بالإنشاءِ يتحقَّقُ، وعن الانقلابِ إلى اللهِ بالخبريَّة؛ لأنَّ ذلك مطلوبٌ اعتقادُهُ، فيُناسبُهُ اعتقادُ النِّسبة الخبريَّة واليقينُ بمضمونها.

دلالةُ توالي المؤكِّدات:

حشَدَ الخطابُ المؤكِّدات لتأكيد العود إلى الله

تَوالَت في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ مجموعةٌ من المُؤَكِّدات، هي (إنَّ، واللّامُ المُزحلَقَةُ، واسميَّةُ الجُملةِ، وتقديمُ الجارِّ والمجرور)؛ للدَّلالة على تحقيقِ هذه النِّسبة المتعلِّقة بالعودةِ إلى اللّهِ تعالى خصوصًا؛ إذ لا يشكُّ عاقلٌ في أنَّ السَّفرَ لا بدَّ له من إيابٍ إلى الأهلِ ونهايةٍ في الطَّريق، وأنَّ الحياةَ لا بدَّ لها من نهايةٍ، لكنَّ الجزءَ الَّذي لوحِظَ في التَّوكيد، وهو محلُّ الإنكار متعلِّقٌ بمضمون قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾، فكان التَّأكيدُ مُراعيًا له، وجاء التَّعبير بصيغةِ الجمعِ معَ أنَّ القائل واحدٌ؛ لأنَّ التَّشريكَ في مثله مثلُ التَّشريكِ في الدُّعاء أقربُ من حصولِ المقصود[1].

إظهارُ اسمِ الرَّبِّ دونَ الإضمار:

مـن لـوازمِ الاعتقاد تفخيمُ المُعتقَدِ به

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بالاسمِ الظّاهرِ ﴿رَبِّنَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، وكان الظّاهر (وإنا إليه لمنقلبون)؛ لكونه مَعْطوفًا عَلَى ﴿سَخَّرَ لَنَا﴾، لكن أظهرَ في مَوضِعِ المُضمَرِ؛ لكمالِ التَّقرُّرِ وللتَّفخيم، واختيرَ اسمُ الرَّبِّ هنا دون غيره؛ لأنَّ الانقلابَ من آثارِ التَّربيَة[2]، وفي ذلك إرشادٌ وحثٌّ على تفخيمِ المعتقدِ الدّينيِّ في قلوب المُعتقِدينَ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾:

لكلِّ سفرٍ نقطةُ بدايةٍ هي محلُّ العَودة

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ على مُتعلِّقِهِ ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾؛ للدَّلالة على

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 292.
(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 292.

اختصاصِ انقلابِ القائلينَ بالعودةِ إلى اللّه تعالى دونَ ما سِواه، وفي ذلك التَّقديمِ أيضًا ردٌّ وتعريضٌ بالمشركينَ، الَّذين يَنفونَ البعثَ والنَّشرَ والحَشْرَ بدليلٍ حسّيٍّ، وهو السَّفر، الَّذي يلزمُ منه الانطلاقُ من مكانٍ، والعَودةُ إلى المكانِ نفسِه، والدُّنيا أيضًا انطلاقةٌ من عندِ اللّه تعالى ثمَّ عَوْدةٌ إليه؛ إذ كانوا يُؤمِنونَ بأنَّ الخالقَ هو اللّه تعالى، لكنَّهم يُنكرونَ العَوْدةَ إليه تعالى بالمَوتِ.

دلالةُ اسمِ الفاعلِ مادَّةً وصيغةً:

الرُّجوعُ القسريُّ ولا مَحالةَ إلى الله تعالى

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ عن عودةِ المُسافرينَ سَفَرًا دُنيويًّا وأُخرويًّا بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المشتقَّةِ من الانقلابِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾؛ لأنَّ الانقلابَ منَ القلْبِ والرُّجوعِ؛ للدَّلالةِ على حالةٍ تعاكُسيَّةٍ ورجوعٍ إلى نقطةِ البداية، وأمّا الصّيغةُ؛ فإنَّها دالَّةٌ على المطاوعةِ، وهي تشير إلى أنَّ عمليَّةَ الرُّجوعِ ليست اختياريَّةً، وكأنَّ هنالك قوَّةً ضاغطةً للعودةِ، فينقلبُ راجِعًا، ومن المعلوم أنَّ الموت استجابةٌ قسريَّةٌ، فناسبَ التَّعبيرُ عن العودةِ بهذه الصّيغة، كما أنَّ العودة إلى الوطن استجابةٌ قسريَّةٌ لهُ وللأهلِ والولَد.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

أزْواجٌ وفرادى:

الزَّوجُ أخصُّ من الفردِ مُطلقًا

(الزَّوج) في كلامِ العرَبِ يُطلَقُ على الواحدِ الَّذي له شبيهٌ من صنفِهِ أو نَوْعِه، ولذا يقالُ: "لفُلانٍ زوجانِ من الحَمام، أي: ذكرٌ وأُنثى، قال سُبحانَهُ: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: 27]"[1]، "وأنْكَرَ النَّحْويّونَ أنْ يكونَ الزَّوْجُ اثنَيْن، والزَّوْجُ عندهمُ الفَرْدُ، وقالَ ابْنُ الأنْباريِّ: والعامَّةُ تُخطِئُ، فَتَظُنُّ أنَّ الزَّوْجَ اثنانِ، ولَيسَ ذَلِكَ من مَذهَبِ العَرَبِ؛ إذ كانوا لا يَتَكَلَّمونَ بِالزَّوجِ موحَّدًا في مِثلِ قَولِهِم:

(1) الخليل، العين: 6/ 166.

زَوْجُ حَمام، وإنَّما يَقولونَ زَوجانِ مِن حَمام، وزَوجانِ مِن خِفافٍ، ولا يَقولونَ لِلواحِدِ مِنَ الطَّيْر: زَوْجٌ، بَلْ لِلذَّكَرِ فَردٌ ولِلأُنْثَى فَردَةٌ، وأمّا تسميتهمُ الواحِدَ بِالزَّوْجِ؛ فَمَشْروطٌ بِأن يَكونَ مَعَهُ آخَرُ مِن جِنْسِه، والزَّوْجُ عِندَ الحِسابِ خِلافُ الفَرْدِ، وهو ما يَنقَسِمُ بِمُتَساوِيَين"[1]، والَّذي يتبيَّنُ أنَّ علاقةَ التَّبايُنِ في اصطلاحِ أهلِ الحِساب، وأمّا عند العرب الفصحاء؛ فإنَّ الزَّوجَ أخصُّ مُطلقًا من الفرد؛ إذِ الزَّوجُ مأخوذٌ بشرطِ الشَّبيهِ بخلافِ الفرد.

(اسْتَوَيْتُم) و(صَعَدْتُم) و(عَلَوْتُم) و(رَكِبْتُم):

الاستواءُ يَستلزِمُها جميعًا بخلافِها

الصُّعودُ تصويرٌ لعمليَّةِ الارتقاءِ من الأسفلِ إلى الأعلى، ويَنتهي الفعلُ بحدودِ الوصولِ إلى العلوِّ، فإذا اعتلاه؛ يقالُ: عَلَوْتُه، فإذا أخذَ وضعيَّةَ الرُّكوبِ المُناسبةَ لذلك، يقالُ حينئذ: رَكِبَهُ، فإن رَكِبَهُ، وتمكَّنَ من الجلوسِ والاستقرارِ والرّاحة؛ يقالُ: استَوى عليه، وبهذا يكونُ الاستواءُ على الشَّيءِ مُستلزِمًا لذلك كلِّه بخلافِها، ومِن ثَمَّ آثَرَ النَّظمُ القرآنيُّ - في مقامِ التَّفضُّلِ والامتنانِ بتسخيرِ وسائلِ النَّقلِ المُعتدِلة المُريحةِ - التَّعبيرَ بالاستواءِ دونَ غيرِه.

الظَّهر والبطن:

الظَّهرُ إمّا مُشترَكٌ لفظيٌّ أو تغليبٌ

الظَّهرُ خلافُ البَطنِ، وتطلقُ الظُّهورُ على الخارجِ وعلى الجهةِ المقابلةِ لبُطونها، وسُمّي ظَهْرًا لظهورِه للعين، وأمّا البُطونُ؛ فتطلقُ على ما في الدّاخلِ والجهةِ المُقابلةِ للظُّهور، لكنْ قد يُستعمَلُ الظَّهرُ، ويرادُ به البطنُ، إمّا على سبيلِ الاشتراكِ اللَّفظيِّ أَوْ بطريقِ التَّغليبِ المَجازيِّ، عندما يردُ (الظَّهر) واصفًا لأمرين يختلفانِ ظَهْرًا وبَطْنًا، فيُغلَّبُ الظَّهرُ على البَطن، فيقالُ: (ظهور)، ومِن ثَمَّ عبَّر المولى تعالى في قوله: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ مع أنَّ الضَّميرَ راجعٌ إلى ما يركبُهُ الإنسان من بطونِ الفُلك وظهورِ الدَّوابِّ، لكنْ غلَّبَ الظهرَ،

(1) الفيومي، المصباح المنير: 1/ 258.

ولعلَّ سرَّ التَّغليب أنَّ الأصل في الاستواءِ على الشَّيءِ يكونُ على ظهرِهِ دونَ بَطْنِه، كما أنَّ الفُلكَ العظيمةَ قد يُستقَرُّ على ظهورِها كما يُستقَرُّ في بطونِها، فراعى الظُّهورَ دونَ البُطونِ.

(مُنقلبون) و(راجعونَ):

الـرُّجـوعُ أمـرٌ اخـتـيـاريٌّ والانـقـلابُ أمـرٌ قسريٌّ

يُستعمَلُ كلٌّ من (الانقلاب والرجوع)؛ للدَّلالة على العودةِ بعد الذَّهاب، والإيابِ بعدَ الاتِّجاهِ إلى مكانٍ معيَّن أو موقفٍ أو رأيٍ ما، فيقالُ: انقلبَ إليه، ورجعَ عنه، إلّا أنَّ الرُّجوعَ يكونُ عملًا اختياريًّا، فيقالُ: سافرَ، ورجعَ إلى بلدِه، وأمّا الانقلاب؛ فيكونُ قسريًّا لدلالةِ المُطاوعة على تأثيرِ القلب فيه، فيستجيبُ له، ومن ثمَّ آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ عنِ الرُّجوع إلى اللّٰه تعالى بالانقلابِ في قولِ المُسافِر: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ دونَ (راجعون)؛ لأنَّ السَّفرَ مَظنَّة الخطرِ، فيتعرَّضُ في الطَّريق للهلاك، فيكونُ انقلابُهُ إلى اللّٰه تعالى أمرًا اضطراريًّا، بخلافِ قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: 156]؛ لأنَّ هذا القولَ بعدَ حُلولِ المُصيبةِ للآخر بخلافِ الدُّعاءِ في السَّفرِ فإنَّه على مَظِنَّة وقوعِ الخَطر.

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الزّخرف: 15 - 16]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

غضُّ الطَّرفِ عن أدلَّةِ ألوهيَّتِهِ في مُنتهى الجُحود

لمّا قرَّرتِ الآياتُ الكريمةُ السّابقةُ تفرُّدَ اللّهِ تعالى بالخلقِ والإيجاد، وما يجبُ على العاقلِ من اعتقادِ وحدانيَّتِهِ وشُكرِ نِعَمِه، وتنزيهِهِ عمّا لا يليقُ به مِن شوائبِ النَّقصِ؛ بسببِ الشِّرك المُستلزمِ لذلك، ووجوبِ اعتقادِ الرُّجوعِ إليه؛ بيَّن النَّظمُ أنَّ قسمًا كبيرًا من الخَلْقِ جحَدوا وجودَهُ ووحدانيَّتَهُ، ورَمَوهُ بسماتِ العَجْزِ حتَّى ادَّعوا أنَّ لهُ ولَدًا وبناتٍ، وذكر البقاعيُّ وجهًا آخر لمناسبة الآيتين بقوله: "ولمّا عُلِمَ بهذا الاعترافِ منهُ وما تَبِعَهُ من التَّقريبِ أنَّ العالَمَ كلَّه مُتزاوِجٌ بتسخيرِ بعضِهِ لبعض، فثبتَ أنَّ خالقَهُ مباينٌ له لا يصحُّ أصلًا أنْ يكونَ مُحتاجًا بوجهٍ؛ لأنَّه لا مثلَ له أصلًا؛ كانَ موضعُ التَّعجيبِ من نِسبتهم الولدَ إليه سبحانه، فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جُزْءًا﴾: الجزءُ أصلٌ واحِدٌ، هو الاكتِفاءُ بِالشَّيءِ، يُقالُ: اجتَزَأتُ بِالشَّيءِ اجتِزاءً؛ إذا اكتَفَيْتُ به، وأجزَأني الشَّيءُ إجزاءً؛ إذا كَفاني، والجُزءُ: الطّائِفَةُ مِنَ الشَّيءِ[1]، والجزءُ واحدُ الأجزاء، وجزَأتُ الشَّيءَ جُزْءًا قَسَمْتُهُ، وجَعَلْتُهُ أجزاءً، وكذلك التَّجزئةُ[2]، والجُزْءُ: البَعْضُ، ويُفْتَحُ، وجزَأَهُ، كـ(جَعَلَهُ): قَسَّمَهُ أجزاءً، كَجَزَّأَهُ، ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾، أي: إناثًا[3]، قالَه ثَعْلَب، وفي الغريبَين

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزأ).
(2) الجوهري، الصّحاح: (جزأ).
(3) الفيروزابادي، القاموس: (جزأ).

للهرويِّ: وكأنَّه أراد الجِنْسَ، والمرادُ بهِ في الآية إمّا الإناثُ والبناتُ، أوِ اتِّخاذُ الشَّريكِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تناقضُ مَقولاتِ الكافرين ذلٌّ دائمٌ ومُبين

نَسَبَ هؤلاءِ الكافرونَ إلى اللهِ الولدَ، وجعلوه من خلقِهِ وعبادِه، وهذا دليلٌ على عنادِهم، وأنَّهم مُناقضونَ لما يقولونَ؛ إذ اعترفوا بأنَّ اللهَ خالقُ السَّموات والأرض، ثمَّ وصَفوهُ بصفاتِ المخلوقينَ الَّتي تُناقِضُ كونَه خالقًا للسَّمواتِ والأرضِ وخالقًا لما فيهما، وهذا يدلُّ على فرطِ جَهلِهِم وسَخافةِ عُقولِهم، فربُّنا لا تنالُهُ الوحشةُ، فيحتاجُ إلى أنيسٍ، ولا يُصيبُهُ الذُّلُّ، فيتعزَّزُ، ويتقوَّى، إنَّ هذا الصِّنفَ والنَّوعَ من المخلوقاتِ المُنكِرِ لأنعُمِ ربِّه أشدَّ الإنكارِ مبالغٌ في ذلك، يبدو ذلك الإنكارُ منه واضحًا جليًّا، أو يُعلِنُهُ، ويُجاهِرُ، ويذيعُ به، بلِ اتَّخذ لنفسِهِ ممَّن خلقَهُ أخسَّ النَّوعينِ شأنًا وأدناهما منزلةً، وهو البناتُ، وآثرَكم، واختارَ لكم أفضلَ، وهو الذُّكور، مع أنَّكم أشدُّ خلقِ اللهِ نفورًا من الإناثِ، وأمقتُكُم لهنَّ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الواو) في: ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

بيانُ موقفِ المُشركينَ مِنَ الاعتقادِ الصَّحيحِ وتناقُضِهم فيه

تحتملُ (الواوُ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ العطفَ على ما قبلَ الجُمَلِ الاعتراضيَّةِ الواقعةِ بعدَ قولِهِ: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ٩﴾ [الزخرف: 9] أو الحاليَّةَ منه، أمّا العطفُ؛ فللدَّلالةِ على جَمْعِهِم وقَرْنِهم بينَ الاعترافِ بالخالقِ من جهةٍ وإشراكِهم به من جهةٍ أُخرى، والغرضُ منهُ تصويرُ موقفِهم وبيانُ حقيقةِ مُعتقَدِهم، وأمّا الحاليَّة؛ فهي تكونُ لبيانِ تناقُضِهم العجيبِ بينَ دَعوى الانفرادِ بالخالقيَّةِ معَ الإشراكِ به في العبوديَّة، فقد اعترَفوا بأنَّ العزيزَ العليمَ هو الَّذي خلقَ السَّماءَ والأرض، ومع ذلك جَعَلوا

له شُرَكاء؛ فيكونُ التَّقييد بالحاليَّةِ بيانًا لتناقُضِهم وتهافُتِ فِكْرِهم، وفيها دلالةٌ: "تعجُّبٍ مِن جهلِهم، وتنبيهٌ على قلَّةِ عُقولِهم؛ إذ وصَفوهُ بصفاتِ المَخلوقينَ"[1].

عدمُ اكتفاءِ المُشركينَ بالنِّسَبِ الكلاميَّة

دلالةُ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ في: ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾ استعملَ النَّظمُ الكريم فعلَ (الجَعْل) الموضوعِ في الأصلِ للدَّلالةِ على التَّصيير بالعَمَلِ والصُّنعِ باليد، كقولنا: جَعَلْتُ الطِّينَ خزَفًا، أي: صيَّرْتُه ذلك، وأُطلِقَ الجعلُ هنا على الحُكمِ والإثباتِ في الكلام[2]، قال البغوي: "ومَعنَى الجَعلِ هاهُنا الحُكْمُ بِالشَّيءِ، والقَولُ كَما تَقولُ: جَعَلْتُ زيدًا أفضَلَ النّاسِ، أي: وَصَفْتُه، وحَكَمتُ بِهِ"[3]، فمعنى (جعَلوا): حَكَموا بنسبةٍ كلاميَّةٍ لا دليلَ عليها في الواقعِ والعقل؛ إذ شُبِّه الحُكم باللَّفظِ على الشَّيءِ بتصنيعِ شيءٍ وتصييرِه شيئًا آخرَ، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، وأُبقيَ المشبَّهُ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، والغرضُ من الاستعارةِ بيانُ أنَّ حُكمَهم قد خرجَ من حيِّزِ النَّظرِ والإثباتِ الكلاميِّ إلى ساحةِ التَّنفيذِ والمُمارسةِ العمليَّة للشِّركِ بألوانِه وصورِه المتعدِّدة، قال البقاعيُّ: "والحال أنَّهم نسبوا له، وصيَّروا بقولهم قبل سؤالك إيّاهم نسبة هم حاكمون بها حكمًا لا يتمارون فيه، كأنَّهم متمكِّنون من ذلك تمكُّنَ الجاعل فيه"[4]، والفعلُ الماضي دالٌّ بصيغتِه على تحقُّقِ ذلك الجعلِ وصُدورِه منهم اعتقادًا أنَّه الحقُّ، بل ومارسوهُ بكلِّ فاعليَّةٍ وقوَّةٍ، وذهبَ بعضُهُم إلى أنَّ الماضيَ في مثلِ هذا للاستمرار؛ لأنَّ هذا الجعلَ وقعَ منهُم في الماضي، ولم يوجَد دليلٌ عَلى الانقطاع، فيفيدُ الاستمرار[5].

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 202.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 201.
(3) البغويّ، معالم التَّنزيل: 4/ 156.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 399.
(5) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 294.

سرُّ الإضمارِ بالواو في: ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

التَّأمُّلُ في سياقِ الخطابِ يُنتزَعُ منه الوصفُ بالتَّأمُّلِ

أضمَرَ النَّظمُ الكريم الجاعلينَ والحاكِمينَ بالولد والبنوَّة للّه تعالى في قولِه: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، فلم يقُل: (المشركون) مثلًا؛ للدَّلالة على مجرَّدِ الذات، ثمَّ ينتزعُ من السّياق الدّالِّ على الاعترافِ بالخالقِ ونسبةِ الولدِ له مفهومًا لائقًا بهم، واللّائقُ هنا هو (المتناقضون)، ولم يُصرِّح به النَّظمُ للدَّعوةِ إلى التَّأمُّلِ في موقفِهم وما يلزمُ منه من تناقضٍ يُستنبَطُ، ويُفهَمُ.

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ في: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ﴾:

فَداحةُ الشِّركِ تَجعَلُه أكبرَ ذنبٍ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالجارِّ والمجرور في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾؛ للدَّلالة باللّام المخصِّصة على أنَّ هذا الجعلَ مختصٌّ باللّه تعالى، وهو نسبةُ البناتِ إليه، ويُشيرُ إلى فداحةِ جُرمِهم وشناعةِ موقفِهم؛ إذ نسبوا لهُ دونَ ما سواهُ ما لا يريدونُ نسبتَهُ إليهم، وهم جنسُ البناتِ والإناث الَّذي يترفَّعونَ عنهُ غُرورًا وظُلْمًا، وفي التَّعبيرِ عنِ الذّاتِ الجليلةِ بضميرِ الغَيبةِ استحضارٌ لوصفَي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٩﴾ [الزخرف: 9]؛ إذ الضَّميرُ عائدٌ إلى ما اعترَفوا به، ويفيدُ النَّعيَ عليهم بأنَّه عزيزٌ، فلا يحتاجُ إلى ولدٍ يقوّيه، فضلًا عن بنتٍ، وعليمٌ يعلمُ كلَّ شيءٍ، ولم يعلَم أنَّ له بناتٍ تنسبونَهنَّ إليه، وفي ذلك عظيمُ الرَّدِّ عليهم بتناقضِهم في كونِه عزيزًا وعليمًا، وأنَّه يُنجِبُ البناتِ، أو يَتبناهُنَّ.

دلالةُ تقدُّمِ الحالِ ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾:

الهيئةُ العبادِ مستحيلةٌ عَقْلًا

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الحالَ على صاحبِها في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾؛ إذ الجارُّ والمجرورُ حالٌ من ﴿جُزۡءًاۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مناطَ الخطَلِ والتَّناقض هي الحالُ المتقدِّمة، وليس ادِّعاء الجزئيَّة فحسبُ، فإنَّ الجزئيَّةَ محالةٌ على اللّه تعالى؛ لأنَّها تستلزمُ الحدوثَ والاحتياجَ إلى الأجزاء، قال القنوجي: "وسمّاهُ جُزءًا دلالةً

على استحالتِه على الواحدِ في ذاتِهِ؛ لأنَّ المركَّبَ لا يكونُ واحدَ الذّات"[1]، لكنَّ النَّظمَ قدَّمَ الحالَ؛ لبيانِ أنَّهم حَكَموا بإلهيَّةِ العباد، وذلك جمعٌ بينَ المُتناقضينِ، وفيه: "إشارةٌ إلى أنَّ الولدَ لا يكونُ عبدَ أبيه، والملائكةُ عبادُ اللّه، فكيفَ تكونُ البناتُ عبادًا؟"[2].

دلالةُ استعمالِ (العِبادِ) دونَ (العَبيد):

الملائكةُ عبادُ اللهِ المقرَّبون

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بصيغةِ جمعِ التَّكسير (عِباد) في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾ دونَ (عبيده)؛ لأنَّ (العبادَ) يدلُّ على معنى العِبادة والرِّفعة والقُرب مِنَ اللّه تعالى وطاعته، بخلافِ (العبيد)؛ فإنَّه دالٌّ على معنى العبوديَّة، وفيه شيءٌ من الامتهانِ وعدمِ التَّوقيرِ، وإنَّما اختارَ النَّظمُ العباد؛ لأنَّ المشركينَ حكمَوا بنسبةِ الملائكةِ إلى اللّه تعالى بالبنوَّة، وهم من خيرةِ عبادِ اللّه المُقرَّبين.

نكتةُ إضافةِ العبادِ إليهِ سبحانه:

تناقُضُ المُشركينَ في نسبةِ عبادِ اللهِ إلى شركائه

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (العِباد) إليه تعالى في قولِهِ: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾؛ للدَّلالةِ على تشريفِ المَنسوبينَ بالبعضيَّة إلى اللّه تعالى، فلم يَنسِبوا له إلّا خيرةَ عبادِهِ وأشرفَهم لدَيه، كما تدلُّ الإضافة على تفنيدِ دَعواهُم وتناقُضِ خِطابهم، فهم أثبتوا أنَّ اللّه خالقُ السَّمواتِ والأرض، ثمَّ اعتقدوا بالشَّريك، وهو من عبادِهِ وخيرةِ خَلقِه، فقالتِ العربُ: الملائكةُ بناتُ اللّه، وقالتِ النَّصارى: المسيحُ ابنُ اللّه، وقال غيرُهما مثلَ تلك الأقوال، وما ذلك إلّا تناقضٌ؛ لأنَّه لو كان له ولدٌ أو بناتٌ؛ لزمَ أن يكون الشَّريكُ مُتأخِّرًا عنه في الوجود، فلن يكونَ إلهًا حينئذٍ، وإنْ كانوا معَه؛ فلن يتَّصفوا بالبعضيَّة والجزئيَّة والولديَّة، كما دلَّتِ الإضافةُ على أنَّهم عبادٌ للّه، فكيف يكونونَ شُركاءَ لهُ تعالى، وهذا موطِنُ التَّعجيبِ والاستغرابِ لقولِهم الباطِل؟

(1) القنّوجي، فتح البيان: 12/ 334.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 202.

دلالةُ لفظِ ﴿جُزۡءًاۚ﴾:

الجُزءُ يفيد ثراءً معنويًّا من حيث صدقُه على متعدِّد

اختلفَ المفسِّرونَ في دلالةِ ﴿جُزۡءًاۚ﴾ من قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾ على قولين، أحدُهما: أنَّ ﴿جُزۡءًاۚ﴾ بمعنى: إناثًا(1)، "وإنَّما عبَّر عن الولدِ بالجزءِ؛ لأنَّه بعضُ أبيهِ وجزءٌ منهُ"(2)، واستدلّوا له بشاهدٍ من كلامِ العرب، ويكون التَّقديرُ: (وجعلوا له من عباده إناثًا)، وذلك للرَّدِّ على مُعتقَدِ العرَب المُخاطَبينَ بالآيةِ أنَّ الملائكةَ بناتُ اللّه تعالى، وثانيهما - وهو ما ذهبَ إليه الزَّمخشريُّ ومُتابعوه - أنَّ الجزءَ بمعنى: أنَّهم قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، فجَعلوهم جُزءًا لهُ وبعضًا منهُ"(3)، أي: ولَدًا وبَنَاتٍ مِنَ المَلَائِكَةِ(4)، أو: "عِدْلًا هو الولدُ"(5)، قال ابن عطيَّة: "والجزءُ: القَطْعُ من الشَّيءِ، وهو بعضُ الكلِّ، فكأنَّهم جعلوا جزءًا من عبادهِ نصيبًا له وحظًّا، وذلك في قولِ كثيرٍ من المتأوِّلينَ قولَ العرب: الملائكةُ بناتُ اللّه(6)، ويصدُقُ حينئذٍ بقولِ العربِ وغيرِهم ممَّن نَسبوا، وحكموا على بعضِ عباد اللّه تعالى بالبعضيَّة والجُزئيَّة، والَّذي يترجَّحُ الثّاني؛ إذ تسميةُ الإناثِ بالجُزء فيها خلافٌ بين رواةِ اللُّغة، وأنَّ الاقتصارَ على جعلِ الإناث للّه تعالى يَتنافى مع كثيرٍ من المعتقدينَ بالشَّريك للّه تعالى على سبيل البعضيَّة والجزئيَّة، قال الرازي: "والَّذي يَدُلُّ عَلَى أنَّ هَذا القَولَ أوْلَى أنّا إذا حَمَلْنا هَذِهِ الآيَةَ عَلى إنكارِ الشَّريكِ للّه، وحَمَلْنا الآيةَ الَّتي بعدَها على إنكارِ الولَدِ للّه؛ كانَتِ الآيَةُ جامِعَةً لِلرَّدِّ عَلى جَميعِ المُبْطِلينَ"(7)، والَّذي يهمُّنا أنَّ اختيارَ لفظِ (الجُزءِ) المحتملِ لمعنيينِ يُفيدُ ثراءً معنويًّا؛ إذ يصدُقُ بالإناثِ والذُّكور وبالمَلائكةِ وغيرِهم.

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 110، والسّمين، عمدة الحفاظ: 1/ 323، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 407.

(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 201.

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 241.

(4) تفسير مجاهد، ص: 592.

(5) تفسير مقاتل بن سليمان: 3/ 790، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 561.

(6) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 48.

(7) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 623.

الـجُـزءُ مقابلٌ لـلـمـركَّـب والـجزئيُّ مقابلٌ للكلّيّ

نكتةُ استعمالِ (الجزءِ):

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ (الجُزء) في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾، أي: قطعةً منه وبعضًا بمعنى الجزءِ لا بمعنى الجزئيِّ، وهذا يدلُّ عَلَى أنَّهم يَعتقدونَ أنَّ المَلائكَةَ بناتُ اللّه تعالَى حَقيقَةً لا بمعنى التَّبنّي[1].

مِن شَأنِ حَقيقةِ الإنسانِ جَحْدُ الحُقوقِ

بلاغةُ التَّذييل:

ذيَّلَ النَّظمُ الآيةَ الكريمةَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالةِ على جُرمِ ما يقترفُهُ بهذا الحُكم، وفداحةِ ما يذهبُ إليه بهذا التَّصوُّر، وتناقُضِ ما يعتقدُهُ من هذا الجعلِ؛ إذ يعترفُ بأنَّ اللّه تعالى خالقُ كلِّ شيءٍ، ولكنَّه يحكمُ له بالشَّريك مِن عبادِه، وما هذا إلّا نابعٌ من حقيقةٍ شأنُها الكفرُ والجُحود الصَّريح الَّذي لا لبسَ فيه، وتغطيةُ الحقائقِ البيِّنةِ الَّتي يُنكِرُها مَن طَبعُهُ المُبالغةُ في الإنكارِ، كما "يَدُلُّ عَلى استِنكارِ ما زَعَموهُ بِأنَّهُ كُفرٌ شَديدٌ"[2].

تغطيةُ الحُقوقِ شـأنٌ إنـسـانيٌّ غالب

دلالةُ اسميّة الجُملةِ ومُؤكِّداتها:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالجُملةِ الاسميَّة المؤكَّدةِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالةِ على تثبيتِ هذه الحقيقةِ بأكثرَ مِن مؤكِّد؛ دفعًا لأيِّ إنكارٍ أو ريبةٍ في أذهانِ المُخاطَبين، وذلك "لإنكارِهِم أن يكونَ عندَهم كفرٌ"[3]، فقد اختيرتِ الجملةُ الاسميَّةُ وحرفا التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾، و(اللّامُ) المُزحلقةُ، واستُعمِلَت صيغةُ المُبالغةِ ونعتُها؛ للدَّلالة على أنَّ مِن شأن هذا الإنسانِ وطبعِه على سبيلِ العُموم والكثرة جحودَ الحقيقةِ النّاصعةِ البيِّنةِ الصَّريحة.

دلالةُ التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريم عن ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ مُعرَّفًا باللّام في قولِه تعالى:

---

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 293.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 177.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 399.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾، فقيل: إنَّها للعَهْدِ الذِّكريِّ، أي: الكافرَ القائلَ لذلكَ[1]، وقيلَ: إنَّها للجنسِ، فاللّام إمّا للعهدِ، والمعهودونَ هم الكفرةُ المَذْكورونَ، أو للجنس فيكونُ الحكمُ عليهِ باعتبارِ بعضِ أفرادِه، ومآلُهُ التَّغْليبُ[2]، والَّذي يبدو لنا أنَّ المرادَ بها الدَّلالةُ على الجنسِ والحقيقةِ المعهودةِ ومآلها العهدُ، ويَكفي لتحقُّقها وجودُها في فردٍ، فكيف إذا كانت في أكثريَّة تلك الأفرادِ، وإنَّما اختيرت (اللّام الجنسيَّة)؛ للدَّلالةِ على كثرةِ هذا الصِّنفِ من الإنسان، وهو الجاحدُ المغطّي للحقيقةِ الواضِحة، سواءٌ كان المرادُ الكفرَ الأصليَّ أم كُفرانَ النِّعَم.

الحقيقةُ تتحقَّقُ بالواحدِ فكيفَ بالأكثريَّة؟

دلالةُ الحُكمِ في: ﴿لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾:

حكمَ النَّظمُ الكريمُ على الإنسان بأنَّه كفورٌ مبينٌ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالةِ على تقريرِ حقيقةٍ من الحقائقِ الإنسانيَّة، وهي رؤيتُهُ للحقيقةِ والإيمانُ بضدِّها، وللتَّحذيرِ من هذا الطَّبعِ ومُقاومته والتَّخلُّص منه، وتسليةِ المؤمنينَ المُنقادين بأنَّ هذا طبعٌ غالبٌ يحتاجُ إلى صبرٍ ودعوةٍ مُستمِرَّةٍ من أجل التَّخليصِ والتَّطهيرِ منه.

رسالةٌ تحذيريَّةٌ لمواجهةِ هذا الطَّبعِ غيرِ المُستقيم

دلالةُ استعمالِ صيغةِ ﴿لَكَفُورٞ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾ آثرَ النَّظمُ استعمالَ صيغةِ المُبالغة؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ الاتِّصافِ بهذا الوصفِ، قال البيضاويُّ: "أي: ظاهرُ الكُفرانِ، ومِن ذلك نسبةُ الولدِ إلى اللّه؛ لأنَّها من فَرْطِ الجَهْلِ بهِ والتَّحقيرِ لشأنِه"[3]، فقد صار طبْعًا متأصِّلًا فيه؛ إذ يَعرِفُ المُنعِمَ الحقيقيَّ، ويشكُرُ غيرَهُ بلا خجلٍ ولا اكتراث، وما ذاك إلّا

شُكْرُ غيرِ المُنعِمِ انحرافٌ خطيرٌ عن فطرةٍ سليمةٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 399، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 49، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 203.

(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 294.

(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 88.

لانحرافٍ خطيرٍ عن طبعٍ مُستقيمٍ وفطرةٍ سَليمةٍ، ويَحتمِلُ أنَّ المرادَ مُطلقُ الكفرِ الصّادقِ بكُفرِ النِّعمةِ والكُفرِ باللّٰه تعالى.

دلالةُ الإبانةِ في: ﴿مُّبِينٌ﴾:

لا يُنكِرُ الآياتِ الواضحاتِ إلّا الكافرُ المُبِينُ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بلفظِ الـ﴿مُّبِينٌ﴾ نعتًا لـ(كفور) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالةِ على إظهارِ كُفرِه الشَّديد، والإبانةُ عن الشَّيءِ تستلزمُ الظُّهور والوضوحَ، وأُريدَ به عند بعضٍ ما يَستلزمُهُ دونَ معنى التَّعديةِ[1]، وعندَ بعضٍ أُريدَ به التَّعديةُ، "أي: مُبينٌ الكفرَ في نفسِهِ مُنادٍ عليها بالكفرِ بَيانًا لذلك لكلِّ أحدٍ"[2]، فلا يحتاجُ إلى دليلٍ لبيانِ كُفرِهِ وجَحْدِه لإظهارِهِ لهُ وإبانتِهِ؛ إذ نسبةُ الولدِ إليهِ كُفْرٌ[3] بواحٌ، ومن دقَّةِ الاستعمالِ القرآنيِّ وصفُ كُفرِ الإنسانِ بأنَّه مبينٌ واضحٌ ظاهرٌ؛ لأنَّه يُنكِرُ أدلَّةً واضحةً بيِّنةً، فأفادَ الوصفُ التَّوافقَ بينَ وصفِ الجاحدِ ووصفِ ما يَجحَدُهُ، فهو ينكرُ آياتٍ واضحاتٍ ودلائلَ مُبيِّنةً، ولذا اتَّصف كفرُهُ بأنَّه مبينٌ واضحٌ، كما دلَّ النَّعتُ على التَّعليلِ لصيغةِ المُبالغة؛ والرَّمزِ إلى توصيفِ آيات المُنعِمِ الحقيقيِّ بالمُبينة.

دلالةُ حرف ﴿أَمِ﴾ في ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾:

انتقاصُ كمالِ الألوهيَّةِ انتقاصٌ لحقيقتِها

استعملَ النَّظمُ الكريم ﴿أَمِ﴾ العاطفةَ المُنقطعةَ بمعنى (بل)[4]؛ لعطفِ قولِهِ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ﴾ على ما قبلَه؛ للدَّلالةِ على الإضرابِ والانتقالِ في كشفِ تناقُضاتِهم من ادِّعائِهم في عبادِ اللّٰه الجزءَ له إلى ادِّعائِهم اختصاصَهُ باتِّخاذِ البناتِ دونَ البنين، فهي للتَّجهيل لهم[5]، قال الهرريُّ: "وأم مُنقطِعةٌ، مقدَّرةٌ بـ(بل) الإضرابيَّة،

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 49.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 399.

(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 203.

(4) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 241.

(5) مجير الدّين الحنبلي، فتح الرّحمن: 6/ 210.

وبالهمزة على أنَّها للإنكارِ والتَّوبيخ، والتَّعجُّبِ مِن شأنِهم"[1]، فإنْ كان المعطوفُ عليه مُفيدًا لتناقُضِهم وجهالتِهم في فهْمِ حقيقة الألوهيَّة، فإنَّ المعطوفَ دالٌّ على زيادةِ التَّجهيلِ لهم في كمالاتِها[2].

دلالةُ الهمزة في: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾:

الاستفهامُ الإنكاريُّ أبلغُ من مجرَّدِ النَّفي

﴿أَمِ﴾ المنقطعةُ في قولِه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٍ﴾ دخلتْ على استفهام بالهمزةِ المَحذوفة؛ للدَّلالةِ على الإنكارِ لادِّعائِهم اتِّخاذَهُ تعالى الملائكةَ بناتٍ[3]، وهُم من جملةِ خلقِه، لما يلزم ذلك من اتِّخاذِ الأضعفِ حسبَ معتقدِهم في الأنثى دونَ الذَّكر وفي البنتِ دونَ الابن، فهو إنكارٌ وتعجيبٌ من مَقالتِهم واجترائِهم: "حيثُ لم يَقنَعوا بأنْ جعلوا له جزءًا حتى جعَلوا لهُ من مخلوقاتِه أجزاءَ أخسَّ ممّا اختيرَ لهم وأبغضَ الأشياءِ إليهم"[4]، وذِكرُ (التَّعجيبِ لانفهامِهِ منَ الإنكارِ ولازمٌ له، فلا جمعَ بينَ المَعنَيَين المَجازيَّين؛ إذ التَّعجيبُ ليسَ بمرادٍ منَ اللَّفظ بل مفهومٌ من عَرَضِ الكَلام"[5]، وتوبيخ[6] وتجهيلٌ لتصوُّرِهم مقامَ الألوهيَّةِ ولوازمَها الكماليَّة، يقول القشيريُّ: "وعابَهُم بما قالوا إذ - على حدِّ قولِهم - كيفَ يُؤْثِرُهم بالبنينَ، ويجعلُ لنفسِه البناتِ؟ ففي قولِهم ضلالٌ - إذ حَكَموا للقديمِ بالولد - وفيه جهلٌ؛ إذ حَكَموا له بالبناتِ ولهُم بالبنينَ، وهم يَستنكفونَ من البنات، ثمَّ أيُّ عيبٍ في البناتِ؟ ثمَّ كيفَ يحكمونَ بأنَّ الملائكةَ إناثٌ، وهم لم يُشاهدوا خِلقَتَهُم؟ كلُّ ذلك كان منهم خطأً مَحْظورًا"[7]، وإنَّما كان النَّفيُ بطريقِ الاستفهام؛ لبيانِ أنَّ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 203.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 178.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 178.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 88.
(5) حاشيتا القونوي وابن التمجيد: 17/ 294.
(6) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 4/ 66.
(7) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 364.

الدَّعوى المنفيَّةَ لغرابتِها وشدَّةِ افترائِها غيرُ متصوَّرةٍ ومعلومةٍ حتى إنَّ النّافيَ لها يَتساءَلُ عنها.

دلالةُ الفعلِ ﴿ٱتَّخَذَ﴾:

قَطْعُ الطَّريقِ على المُجادلينَ مِن مُهمّاتِ المُناظِرين

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ﴾ دونَ الأفعالِ الدالَّةِ على الولادةِ والإنجاب؛ لما فيه من العمومِ الشّاملِ للولادةِ والتَّبنّي؛ قطْعًا لقولِ مُجادِلٍ من المُشركين أنَّهم لا يقصدونَ الإنجابَ، وهُم خلقُهُ وعِبادُهُ وما يستلزمُهُ مِن تناقُضٍ بل يريدونَ التَّبنّيَ الاختياريَّ للحادثِ مِن خلقِه فحسبُ، وهو مختارٌ في ذلك، فأتى النَّظمُ باللَّفظِ الأعمِّ دلالةً(1)؛ لما يلزمُهُ التَّبنّيَ من اتِّخاذِ الأضعفِ والأوْهَنِ والعاجزِ ولدًا دون الأقوى والأقدرِ حسبَ زَعْمِهم ووهْمِهم، والفعلُ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ دالٌّ بصيغتِه على المُبالغةِ والحبِّ للأخذِ والضَّمِّ والتَّصيير منذُ الماضي، وكأنَّه أمرٌ مقطوعٌ بصحَّتِه مهتمٌّ بشأنِه.

تقديمُ المفعولِ الثّاني ﴿مِمَّا يَخۡلُقُ﴾:

مِن دقائقِ المُناظرة تقديمُ الأهمِّ في المُحاورة

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ المفعولَ الثّاني ﴿مِمَّا يَخۡلُقُ﴾ على المفعولِ الأوَّلِ ﴿بَنَاتٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ﴾؛ لأنَّ الفعلَ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ ممّا يتعدَّى إلى مفعولينِ أصلُهما المبتدأ والخبر؛ للدَّلالةِ على الاهتمامِ بالخبرِ؛ إذ الإبلاغُ بكونه مخلوقًا أنفى لكونِه إلهًا منسوبًا بالولديَّة إلى اللّٰه تعالى، ولأنَّ الاتِّخاذَ بالتَّبنّي يتوضَّحُ بالمتَّخذِ منه المُتبنَّى، فقدم إيضاحًا لذلك.

دلالةُ التَّعبيرِ بالحرفِ (مِنْ):

نسبةُ البناتِ للجَليل لازمُها التَّفضيل

استعملَ النَّظمُ حرفَ الجرِّ (مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ﴾؛ إمّا للدَّلالةِ على معنى الابتداء، فيكون ابتداءُ اتِّخاذِ البنات من مَخلوقاتِه، وكأنَّ المخلوقاتِ محلٌّ ومكانٌ ومصدرٌ

---
(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 178.

للاتِّخاذ، فيكون هنالك استعارةٌ مكنيَّةٌ بتشبيهِ المخلوقاتِ بالمصدرِ الَّذي يُتَّخذُ منهُ، ويختارُ، ثمَّ حذفَهُ، وأبقى من لوازمِهِ (مِنْ) الدالَّة على ابتداءِ المَكان، أو على معنى التَّبعيضِ، فيكونُ البناتُ متَّخذينَ من عموم ما يخلُقُ، وما ذاك إلّا لتفضيلِهِ البناتِ على البنين، مع أنَّ التَّفضيلَ لديكُم في الاتِّخاذِ للبنينَ، فيكونُ تفضيلُكم مخالفًا لتفضيله، ودالًّا على عدم حُسنِ الاختيارِ - تعالى اللهُ عمّا يقول الظّالمونَ علوًّا كبيرًا - فيكونونَ قد نَسَبوا للّه تعالى ما لا يَتناسَبُ وفقَ مَقاييسِهم، وما ذاك إلّا للتَّنزُّلِ معَهُم في المُحاورة إيصالًا لهم إلى موطِنِ الخلَلِ في تلك الدَّعاوى الباطلة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمَوصولِ وصِلتِهِ:

الصِّلةُ تُنادي بعلَّةِ الاستغرابِ والاستنكارِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بالموصول وصِلتهِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٍ﴾؛ للدَّلالةِ على العموم المُنبعِث من (ما) الموصولةِ، الدّالِّ على ضعفِ الاختيارِ من عموم خلقِهِ بتفضيلِهِ البناتِ على البنينَ، والمرتبطِ بصلةٍ دالَّةٍ على علَّةِ النَّفي المفهوم من الاستفهام الدّالِّ على التَّعجيبِ والاستنكارِ والاستغراب؛ إذ كيف يصحُّ أنْ يتَّخذَ بناتٍ آلهةً ممّا يخلُقُ، وذلك موجبٌ للتَّناقض؛ إذ الإلهُ الحقُّ لا يكونُ مَخلوقًا، أو كيف يصحُّ أن يتبنَّى بناتٍ آلهة، وهنَّ من جملةِ خلقِهِ وعاجزات، فلم يكُنِ الاختيارُ حَسَنًا، و "تَسَلُّطُ الإنكارِ عَلى اتِّخاذِ البَناتِ مَعَ عدمِ تَقَدُّمِ ذِكْرِ (البَناتِ)؛ لِكونِ المَعلومِ مِن جَعلِ المُشركينَ للّه جُزءًا أنَّ المَجعولَ جُزءًا لَهُ هو المَلائكَةُ، وأنَّهُم يَجعَلونَ المَلائِكَةَ إناثًا، فَذلِكَ مَعْلومٌ مِن كَلامِهِم"[1].

دلالةُ العطفِ بالواوِ:

تعليقُ النَّفيِ بالقيدِ المُحقَّقِ مُثبِتٌ لهُ

عبَّر النَّظمُ الكريم بالواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ الدالَّةِ إمّا على معنى العطفِ، فتكونُ الجملةُ داخلةً

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 178.

في حُكمِ التَّعجيبِ والإنكارِ[1]، وإمّا على مَعنى الحالِ؛ ليكونَ مَصَبُّ النَّفيِ والإنكارِ للاتِّخاذ مُقيَّدًا بحالِ إعطائِكم البنينَ خالصةً، فيكونَ مُثبِتًا عدمَ اتِّخاذِ البناتِ؛ "لأنَّ إعطاءَهُمُ البَنينَ واقِعٌ، فَنَفيُ اقترانِه باتِّخاذِه لِنَفسِه البَناتِ يَقتَضي انتِفاءَ اتِّخاذِه البَناتِ، فالمَقصودُ اقترانُ الإنكارِ بهَذا القَيدِ، وبهَذا يَتَّضِحُ أنَّ (الواو) في جُملَةِ: ﴿وَأَصۡفَىٰكُم﴾، لَيسَتْ واوَ العَطفِ؛ لأنَّ إنكارَ أن يَكونَ أصفاهُم بِالبَنينِ لا يَقتَضي نَفيَ الأولادِ الذُّكورِ عَنِ اللَّه تَعالَى"[2].

دلالةُ الفعلِ (أَصْفاكُمْ) مادَّةً وصيغةً:

الإصفاءُ بالذُّكورِ في مُقابَلةِ اتِّخاذِ البناتِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي (أصفاكُم) في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على معنى التَّخصيصِ والاختيار، أي: خصَّكُم، واختارَ لكم البنينَ، قال ابنُ عطيَّة: "خصَّكُم، وجعل ذلك صفوةً لكم"[3]، وإنَّما عبَّر بالفعل (أصفى) من الصَّفْوِ؛ للدَّلالةِ على حيازتِكم البنينَ على سبيلِ الانفرادِ دونَ غيركم؛ لأنَّه تعالى مختصٌّ بالبنات، فيكونُ الذُّكورُ لكم خاصَّةً، ولا يدلُّ هذا على انتفاءِ البناتِ عنهم؛ لأنَّ المقصودَ قصرُ الذُّكورِ عليكم دونَ قصرِكم على الذُّكور، "يُقالُ: أصفَيْتُهُ بِكَذا، أي: آثَرْتُهُ به، وأصفَيْتُهُ الوُدَّ: أخلَصتُهُ لَهُ"[4]، كما دلَّت صيغةُ الماضي على أنَّ ذلك الإصفاءَ مُتحقِّقٌ في الماضي لا سبيلَ لنفيِ تحقُّقِ وقوعِهِ.

دلالة تقديمِ البناتِ على البنينَ:

الرَّدُّ على العربِ في تحقيرِ الإناثِ

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ (البنات) على (البنينَ) في قولِهِ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾؛ للرَّدِّ على العربِ في تحقيرِهم جنسَ الإناثِ والبنات، وكراهتِهم لهُنَّ والمبالغةِ في

(1) ابن عادل، اللباب: 17/ 241، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 42، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 239.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 179.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 5/ 49.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 629.

تفضيلِ الذُّكور عليهنَّ، كما أنَّ النَّظمَ قدَّم ذِكرَ (البنات) هنا على (البنين)، وأخَّرَهُنَّ في الإسراءِ، فقال: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ [الإسراء: 40]؛ لأنَّ السّياقَ مُختلف[1]؛ إذ المرادُ هنا الرَّدُّ على دَعواهم نسبةَ البنات إلى الله تعالى، فاقتضى التَّقديمَ بخلافِ سياقِ (الإسراء)، فليس هنالك تلك النِّسبةُ، فجرى النَّظمُ على الأصل، قال الطِّيبيُّ: "الرَّدُّ واردٌ على نسبةِ البناتِ إلى الله ﷻ، فكانَ ذكرُ (البنات) هو الَّذي سيقَ له الكلامُ أصالةً، وذكرُ (البنينَ) مُستطرَدًا لمزيدِ الإنكارِ والتَّتميمِ فيه"[2].

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيبةِ إلى الخِطاب:

توجيهُ الخِطابِ المُباشِرِ دلالةٌ على شدَّةِ الإنكار

في قولِه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ التفتَ النَّظمُ الكريمُ من الغيبةِ في ﴿ٱتَّخَذَ﴾ إلى الخطاب في ﴿وَأَصْفَىٰكُم﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ الإنكارِ والتَّوبيخ[3] على مقالتِهم من خلالِ توجيهِ الخطابِ لهم بشكلٍ مباشرٍ؛ لكي يَلتفِتوا إلى ما يَستلزِمُهُ قولُهم من انتقاصٍ في كمالِ الألوهيَّةِ وجلالِها.

دلالةُ حرفِ الباءِ:

الباءُ داخلةٌ على المقصورِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الباء) في قولِه تعالى: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على قصرِ البنينَ على المُخاطَبين، فهي داخلةٌ على المقصورِ دونَ المقصورِ عليه؛ لأنَّ (البنين) مقصورونَ على المُخاطبينَ، فلا يَتنافى معَ إنجابِهم للبنات، بخلافِ قَصْرِ المُخاطبينَ على إنجابِ البنين، فقدَّمَ النَّظمُ المقصورَ عليه، وهو ضميرُ المخاطَبينَ، وأخَّرَ المقصورَ، وهم (البنون)؛ وفُهِمَ بقرينةِ المقابلةِ أنَّ الاتِّخاذَ مُقتصِرٌ على البناتِ مِن مَخلوقاتِه، وليسَ قصرُ البناتِ على الاتِّخاذِ الإلهيِّ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 179.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 112.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 179.

دلالةُ تنكيرِ ﴿بَنَاتٍ﴾ في السّياقِ المُحكَم:

بيانُ جُرمِ المُخاطَبينَ الشَّنيع وقولِهم الفظيع

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿بَنَاتٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٍ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقيرِ حسبَ زعم المُخاطَبينَ، الَّذين يَرَونَ أنَّهنَّ أقلُّ شأنًا من البنينَ، فحَكى النَّظمُ الكريمُ نسبتَهم البناتِ، وهُنَّ أقلُّ شأنًا للّه تعالى لبيانِ عظيم جُرْمِهم وشَناعةِ قولِهم، قال الهرريُّ: "وتنكيرُ بناتٍ لتربيةِ الحَقارةِ، كما أنَّ تعريفَ البنينَ لتربيةِ الفَخامة"[1]، وذهبَ ابن عاشور إلى أنَّ التَّنكير هو الأصلُ في أسماءِ الأجناس[2].

دلالةُ تعريفِ (البنينَ) في السّياقِ المُحكَم:

نسبةُ الأكملِ لهم جريرةٌ شنيعةٌ

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ بلفظَ (البنين) في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّنويهِ بشأنِ الذُّكورِ على حسَبَ مُعتقدِهم أنَّ الذُّكورَ أفضلُ من البناتِ، ولبيانِ عظيمِ جُرْمِهم وشنيعِ قولِهم؛ إذ نسبوا الأكملَ لهُم، ونسبوا الأقلَّ كمالًا للّه تعالى[3]، فكانَتْ قسمةً غيرَ عادلة، فاللّام دالَّةٌ على الجنسِ الَّذي يتحقَّقُ فيه مفهومُ البنوَّة على سبيلِ الكمالِ.

بديعُ الطِّباقِ بينَ (البنينَ والبنات):

الشِّركُ جنايَةٌ عَظيمةٌ على حَقيقةِ الذّاتِ الإلهيَّة وكمالاتِها معًا

في قولِهِ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٍ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ طباقٌ بينَ (البناتِ والبَنينَ)؛ لكونِهما من الألفاظِ المتضادَّة؛ وذلك للدِّلالةِ على البَوْنِ الشّاسعِ فيما نسبوهُ للّه تعالى وما نَسبوهُ لأنفُسِهم، وأنَّهم بحسب معتقدِهم التَّفضيليِّ بينَ الجنسينِ قلَّلوا من شأنِ الألوهيَّةِ، وعظَّموا من شأنِهم، فأتَوا بقولٍ فيه إشراكٌ في حقيقةِ الألوهيَّةِ مع نقصانٍ في كمالاتِها.

---

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 203.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 179.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 363.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

العباد والعبيد:

كلٌّ من (العِباد والعبيد) جمعُ (عبد)، وهو الدّالُّ على معنى العبوديَّة والافتقارِ والحاجة لسيِّدِه، لكنْ خصَّ النَّظمُ الكريم لفظَ (العِباد) في مقام الاحترامِ والتَّوقيرِ والتَّقدير، ونسَبَهم لأنفُسِهم، وأنَّهم اختاروا العبوديَّةَ للمَوْلى تعالى عن اختيارٍ ورغبةٍ، ولم يُساقوا لها سَوْقًا كالعبدِ الآبِق، فقد أعملوا عقولَهم، وارتضَوا بمقامِ العبوديَّة للّه تعالى عن اختيارٍ، وأمّا (العبيد)؛ فإنَّهم خُصّوا في النَّظم الكريم بمقاماتِ العبوديَّة المُهانة، الَّتي اتَّصفَتْ بالعبوديَّة عن اضطرار؛ إذ أرادت أن تتمرَّدَ على مولاها الجليل، لكنَّها لم تخرج بتمرُّدِها عن مقام العبوديَّة بمعنى الذُّلِّ والإهانة.

المخلوقاتُ بأسْرِها بينَ العِباديَّةِ الكريمةِ والعَبيديَّةِ الذَّليلة

الكَفور والكافر والكفّار:

كلٌّ منَ (الكَفور والكافِر والكفّار) مشتقَّةٌ من (الكُفر) الدّالِّ على السَّتْرِ والتَّغطيةِ للشَّيء، والَّذي أُطلِقَ في لسانِ الشَّرع على الجاحد، فهو حقيقةٌ واحدةٌ لا تختلفُ إلّا باعتبارِ مُتعلّقاتها، ومِن ثَمَّ فإنَّها تختلفُ بحسبِ الشِّدَّةِ والكثرةِ نظرًا إليه؛ فإنَّ (الكافر) اسمُ فاعلٍ أُريدَ به معنى الصِّفةِ المشبَّهة الدّالَّة على الثُّبوت للوصفِ ودوامِه، ويُطلَقُ على أصلِ الكُفر، وهو اتِّصافُ المُخاطَب بالشَّريعةِ بالجَحْدِ لها، ولما جاءَتْ به، وأمّا (الكفور)؛ فإنَّها صيغةُ مُبالغةٍ لـ(كافر)؛ للدَّلالة على تحوُّل الكُفْر في نفسِ المكلَّف إلى صورةٍ شديدةٍ تمارسُ الجَحْدَ لنِعَم اللّهِ تعالى الظّاهرةِ الواضحةِ البيِّنةِ، وأمّا (الكَفّار)؛ فإنَّها صيغةُ مبالغةٍ أيضًا للدَّلالةِ على حالةٍ أشدَّ كفرًا من (الكفور)؛ فهو لا ينفكُّ عن المُجاهرة بكُفرِه في كلِّ الأحوالِ والأوْقات.

الكُفْرُ دَرَجاتٌ بِحَسَبِ مُتعلّقِهِ

(أصْفَى) و(اصطَفَى):

كلٌّ مِنَ الفعلين (أصفى واصطفى) مشتقّانِ من (الصَّفْو)، وهو

الاصطفاءُ أكثرُ مُبالغةً منَ الإصفاءِ

الخلوصُ من الشَّيءِ، ويُطلَقانِ على الاختيارِ والاختصاصِ بالشَّيءِ حتى يكونَ خالصًا له، أمّا الفعلُ (أصفى)؛ فإنَّهُ مزيدٌ على الثُّلاثيِّ بالهمزةِ للدَّلالةِ على التَّعديةِ المختصَّةِ بإخلاصِ الشَّيءِ المَكروهِ للمُصطَفَى لهُ المُدَّعى خلوصُهُ معَ إخلاص واختصاص للمقصورِ بالمقصورِ عليه، ومن ثمَّ قال تعالى: ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾، أي: قصرَ البنينَ عليكم بعد ادِّعاءِ ذلك؛ إذ الباءُ داخلةٌ على المقصور، وأمّا الفعلُ (اصطفى)؛ فهو من المزيدِ على الثُّلاثيِّ بحرفينِ على وزن (افتعلَ)؛ للدَّلالةِ على التَّصفيةِ للشَّيء مع اختيارِهِ وانتخابِهِ على سبيلِ المُبالغةِ والعنايةِ به والحبِّ لتحصيله للمُصطَفي، ومنه قولُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا﴾ [آل عمران: 33]، أي: اختارَ، وانتخبَ بعدَ تصفيةٍ وتطهيرٍ، والحاصلُ أنَّ الإصفاءَ: تصفيةٌ وإخلاصٌ من أجلِ المُصطَفَى له، والاصطفاءَ: تصفيةٌ وإخلاصٌ له واختيارٌ من أجلِ المُصطفي.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨﴾ [الزّخرف: 17 - 18]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

دوامُ التَّوبيخِ واللَّومِ بما يُناسِبُ كُفرَ القومِ

لمّا أنكرَ المولى عليهم اتِّخاذَهُ للبناتِ وإخلاصَهُم بالذُّكورِ والبنين؛ زادَ النَّظمُ في الإنكارِ والتَّوبيخِ؛ إذ نسبوا للّٰه ما يَكرهونَ وِلادتَهُ لهُم مِنَ البنات، فلو افترضنا أنَّ للّٰه تعالى ولدًا، فالأليقُ أنْ يكونَ ذكَرًا لا أُنثى؛ لأنَّهم يَأنَفونَ منهُنَّ لضَعْفِهِنَّ، وأوضحَ وجهَ الضَّعفِ بأنَّها تُربَّى على الزّينةِ؛ كنايةً عن الضَّعفِ والنُّقصانِ، وأنَّها عند الجِدال لا تُقيمُ الحُجَّةَ والبُرهان.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُشِّرَ﴾: (بشر) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ، ويُقالُ: بَشَّرْتُ فُلانًا أُبَشِّرُهُ تبشيرًا، وذَلِكَ يَكونُ بالخَيرِ، ورُبَّما حُمِلَ عَلَيهِ غيرُهُ مِنَ الشَّرِّ، وأظُنُّ ذَلِكَ جِنْسًا مِنَ التَّبكيتِ، فَأمّا إذا أُطلِقَ الكَلامُ إطلاقًا؛ فالبِشارَةُ بِالخَيرِ، والنِّذارَةُ بِغَيْرِهِ[1]، والبِشارةُ: ما بُشِّرْتَ به، والبُشارة: حقُّ ما يُعطى على ذلك، البُشرى: الاسمُ، والبَشارةُ: الجَمالُ، ويقالُ: بشَّرتُه بمولودٍ، فأبشرَ إبشارًا، أي: سُرَّ[2]، والبِشْرُ الطَّلاقَةُ، والتَّبْشيرُ في عُرْفِ اللُّغَة مُختصٌّ بالخَبَرِ الَّذي يُفيدُ السُّرورَ، إلّا أنَّه بِحَسَبِ أصْلِ اللُّغَة عِبارةٌ عَن الخَبَرِ الَّذي يُؤَثِّر في البَشَرةِ تَغيُّرًا، وهذا يكونُ للحُزْنِ أيضًا، فوجَبَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(2) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (بشر).

أن يكـونَ لفـظُ التَّبْشيرِ حَقـيقَةً في القِسمَين[1]، والمرادُ بِهِ في الآيةِ: التَّبشيرُ بقَصْدِ التَّهكُّمِ والاستخفافِ.

2) ﴿ضَرَبَ﴾: أصلٌ واحِدٌ، ثُمَّ يُستَعارُ، ويُحمَلُ عَلَيهِ[2]، والضَّرْبُ يقَعُ على جميع الأعمالِ[3]، والضَّرْبُ: مصدرُ ضَرَبْتُه ضَرْبًا، وضربْتُ في الأرض: أبتغي الخيرَ من الرِّزق[4]، وضَرَبَ اللهُ مثلًا، أي: وصَفَ، وبيَّنَ[5]، ومِن المجاز: (الضَّرْبُ) بالفَتْح هو المِثْلُ والشَّبيهُ، وجَمْعُه ضُروبٌ، وهَذِه الأشياءُ عَلى ضَرْبٍ واحِدٍ، أي: عَلى مِثالٍ، وضَرْبُ المَثَلِ: إيرادُه ليُتَمَثَّل به، ويُتَصَوَّر ما أرادَ المُتَكَلِّمُ بيانَهُ لِلمُخاطَب، يُقالُ: ضَرَب الشَّيءَ مَثَلًا، وضَرَبَ بِه، وتَمَثَّلَه، وتَمَثَّلَ بِه، ثُمَّ قالَ: وهَذا مَعْنى قَوْلِ بَعْضِهِم: ضَرْبُ المَثَلِ: اعتِبارُ الشَّيءِ بِالشَّيءِ وتَمثيلُه بِهِ[6]، والمرادُ به في الآيةِ: الجَعْلُ والصُّنْعُ.

3) ﴿كَظِيمٌ﴾: أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعنًى واحِدٍ، وهو الإمساكُ والجُمَعُ لِلشَّيءِ، مِن ذَلِكَ الكَظْمُ: اجْتراعُ الغَيظِ والإمساكُ عَن إبدائه، وكَأنَّهُ يَجْمَعُهُ الكاظِمُ في جَوْفِه[7]، تقولُ: أرَى الإبلَ كَظومًا لا تجترُّ، وقومٌ كُظَّمٌ، أي: ساكتونَ[8]، وهو مَجازٌ مأخوذٌ من كَظَمَ البَعيرُ الجِرَّة، وكَظَم البابَ يَكْظِمه كَظْمًا: قامَ عَليه، وأغْلَقَه بِنَفْسِه أو بغَير نَفسِه، وكَظَمَ البَعيرُ كُظومًا؛ إذا أمسَكَ عَنِ الجِرَّةِ، وقيل: رَدَّدَها في حَلْقِه، والجِرَّةُ: ما يُخرجه مِنْ كَرِشِه، فَيَجْتَرُّ، ومن المَجاز: رَجُلٌ كَظيمٌ ومَكْظومٌ، أي: مَكْروبٌ قد أخَذَ الغَمُّ بكَظَمِه، أي: نَفَسِه، ومِنْه قَولُه تَعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾ [النحل: 58][9]، والمرادُ بِهِ في الآيةِ: المُمْسِكُ عَنِ الكَلامِ كربًا وحُزنًا.

4) ﴿يُنَشَّؤُاْ﴾: النَّشَأُ: أحْداثُ النّاسِ، يُقالُ للواحِدِ أيضًا: هونَشَأُ سَوْءٍ، والنّاشئُ الشابُّ، يُقال: فَتًى ناشئٌ، والفِعْلُ نَشَأَ يَنْشَأ نَشْأً ونَشْأةً ونشاءَةً، وأنْشَأهُ اللهُ: خَلَقَهُ، ونَشَأتُ في بني

(1) الزّبيدي، تاج العروس: (بشر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرب).
(3) الخليل، العين: (ضرب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (ضرب).
(5) الجوهري، الصّحاح: (ضرب).
(6) الزّبيدي، تاج العروس: (ضرب).
(7) الخليل، العين: (كظم).
(8) الجوهري، الصّحاح: (كظم).
(9) الزّبيدي، تاج العروس: (كظم).

فلانٍ نَشْأً ونُشوءًا؛ إذا شَبَبْتُ فيهم، ونُشِّئَ وأُنْشِئ بمعنًى[1]، والنّاشِئُ: فويْقَ المُحْتَلِم، وقيل: هو (الغُلامُ والجارية)، وقد (جاوزا حَدَّ الصَّغرِ)، وكَذٰلِكَ الأُنْثى، والنَّشَأُ قد ارتفعْنَ عَن حَدِّ الصِّبا إلى الإدراك، أو قَرُبْنَ منْهُ[2].

5) ﴿ٱلۡحِلۡيَةِ﴾: الحَلْيُ: كلُّ حِلْيةٍ حلَّيت به امرأةً أو سَيْفًا أو نحوهُ، والجميعُ: حُليٌّ، وحَليَتِ المرأةُ، أي: لَبِسَتْهُ، والحُليُّ للمرأةِ وما سِواها، فلا يقالُ إلّا حِلْيَةٌ للسَّيفِ ونحوه، والحِلْيةُ: تَحْلِيَتُك وجهَ الرَّجلِ؛ إذا وصفتَهُ[3]، والجميع حُليٌّ، قالَ اللّه: ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ [الأعراف: 148]، وحِلْيةُ السَّيفِ جمعُها حِلًى، مثلُ لِحْية ولِحًى، ورُبَّما ضُمَّ، وحِلية الرَّجُلِ: صِفَتُهُ، وحَلَيْتُ المرأةَ أحْليها حَلْيًا وحَلَوْتُها؛ إذا جعلتَ لها حُليًّا[4]، والمرادُ به في الآية: ما تتحلَّى به المرأةُ وتتزيَّنُ.

6) ﴿ٱلۡخِصَامِ﴾: أصلانِ: أحَدُهُما: المُنازَعَةُ، والثّاني: جانبُ وِعاءٍ، فالأوَّلُ: الخَصْمُ الَّذي يُخاصِمُ، والذَّكَرُ والأُنْثَى فيهِ سَواءٌ، والخِصامُ: مَصْدَرُ خاصَمْتُهُ مُخاصَمَةً وخِصامًا، والأصلُ الثّاني: الخُصمُ جانِبُ العِدْلِ الَّذي فيهِ العُروةُ[5]، والخُصومةُ: الاسمُ من التَّخاصُم والاختصام، يقال: اختصمَ القومُ، وتخاصَموا، وخاصمَ فلانٌ فلانًا مُخاصَمَةً وخِصامًا[6]، والخُصومَة: الجَدَلُ، خاصمَهُ خصامًا غَلبَهُ بالحُجَّة، واختصمَ القومُ، وتخاصَموا[7]، والمرادُ به في الآيةِ إمّا الجدالُ أوِ القِتال.

7) ﴿مُبِينٖ﴾: (البَيْنُ) أصلٌ واحِدٌ، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانكِشافُهُ، وبانَ الشَّيءُ وأبانَ؛ إذا اتَّضَحَ، وانكَشَفَ[8]، وبانَ الشَّيءُ وأبانَ وتَبَيَّنَ وبَيَّنَ واستبانَ، والبَيِّنُ من الرِّجالِ الفَصيحُ[9]، والبيانُ: الفصاحةُ واللَّسَنُ، وفلان أبْيَنُ من فلانٍ، أي: أفصحُ منهُ وأوضحُ كلامًا، والبيانُ:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (نشأ).
(2) الزّبيدي، تاج العروس: (نشأ).
(3) الخليل، العين: (حلي).
(4) الجوهري، الصحاح: (حلي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(6) الخليل، العين: (خصم).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (خصم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(9) الخليل، العين: (بين).

ما يتبيَّنُ به الشَّيءُ من الدَّلالةِ وغيرها[1]، والمرادُ به في الآية: الإيضاحُ عن المقصَدِ والإفهامُ عندَ الحديث بالحُجَّةِ والبُرهان أو تحقيقُ النَّصر.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

كمالُ الاجتراءِ بنسبةِ ما يأنَفُ مِنه السُّفهاء

المعنى: أنَّه إذا أخبرَ أحدُ المُشركينَ بولادة ما؛ جعلَهُ مَثَلًا للرَّحمن، وشبيهًا له تعالى؛ إذِ الولدُ لا بدَّ أن يُجانِسَ الوالدَ ويُماثِلَه، وصارَ وجْهُهُ شديدَ السَّواد من سوءِ ما بُشِّرَ به، وهو حَزينٌ، فكيفَ تأنفونَ أنتُم منَ البنات، وتَنسِبونَها إلى اللَّهِ ﷻ؟ أيَجترئونَ، ويبلغونَ الغايةَ في إساءةِ الأدب، ويجعلونَ للَّه تعالى الأُنثى الَّتي تنشأُ، وتُربَّى، وتكبرُ في الحِلْية والزِّينة لنَقْصِها؛ إذ لو كَمُلَت في نفسِها؛ لما تكمَّلَتْ بالزِّينة، وهي أيضًا لا تقدرُ على إقامةِ الحُجَّة عند الخِصام والجدالِ، الَّذي لا يكادُ يخلو الإنسانُ منه في العادةِ، وغير قادرٍ على تقريرِ دَعواه، وإقامةِ حُجَّتِه، كما يقدرُ الرَّجلُ عليه، لنُقصانِ عقلِه وضَعْفِ رأيِه، وهذا بحسَبِ الغالب، وإلَّا فمن الإناثِ مَن هو أهلُ الفصاحةِ، والفاضِلاتُ على الرِّجال[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾:

التَّقييدُ والبيانُ تصويرٌ لشناعةِ المنسوبِ للرَّحمن

تحتملُ (الواوُ) في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ الدَّلالةَ على الحالِ أو على الاعتراض[3] أو على الاستئناف، أمّا دلالتُها على الحال؛ فلأنَّ النَّظمَ لمّا أنكرَ اتِّخاذَ اللَّهِ تعالى الملائكةَ بناتٍ، وأنَّه أصفاهم بالبنينَ؛ قيَّدَ ذلك الإنكارَ، وعلَّله بحالة اسوداد الوجهِ عندَ التَّبشيرِ والإخبارِ بإنجابِهم البنات، وتكونُ الجملةُ

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (بين).

(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 204 - 2 - 5.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 179.

حالًا من ضمير المخاطَب (أصفاكم)؛ لبيانِ شناعةِ مقولتِهم؛ إذ كيف يتَّخذُ اللّٰه مخلوقًا يجلبُ اسودادَ الوجهِ والحُزن والكرب عندَ حصولِهِ لهم، فقد: "كانوا مِمَّن يَكرَهُ البَنَاتِ، ويُحَقِّرُهُنَّ، فَنِسبَتُها إلَى اللّٰه مُفضٍ إلى الاستِخفافِ بِجانِبِ الإلهيَّة"[1]، وهذا الرَّدُّ بناءً على مُتعارَفِهم من هَوْنِ أمرِ البنات مقابلَ نعمةِ البنين، وقد تكونُ (الواوُ) اعتراضيَّةً بينَ الاستفهامينِ الإنكاريَّين؛ لبيان أنَّ ما نسبوه للّٰه تعالى ممّا يخجلونَ منه، ويشعرونَ بالكَرْبِ الشَّديدِ عندَ نزولِهِ بهم، فيتَّضحُ وجهُ الإنكارِ، ويتبيَّنُ، وأمّا دلالتُها على الاستئنافِ؛ فلأنَّ مدخولَها يفيدُ تقريرَ حُكمِ ما قبلَه[2].

دلالةُ (إذا) في: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾:

تحقُّقُ الوقوعِ دالٌّ على صدورٍ مُؤكَّدٍ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالظَّرف المتضمِّنِ معنى الشَّرط في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ القول منهم على سبيلِ الجزمِ بالحصول؛ لبيان أنَّ ذلك الَّذي ينتابُهم عندَ البُشرى بالبنتِ واقعٌ لا سبيلَ للتَّردُّد فيه، فكيف يَنسبونهُ للّٰه تعالى، وهو محلُّ الكمالاتِ؟

دلالةُ الفعلِ المَجهول:

عدمُ تغيُّرِ موقفِ المفعولِ يَقتضي حذفَ الفاعلِ

عبَّرَ النَّظمُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا﴾ بالفعلِ المبنيِّ للمجهول؛ للدَّلالةِ على أهمّيَّةِ الحدث، وهو التَّبشيرُ دونَ الفاعلِ له، أي: "من أيِّ مُبشِّرٍ كانَ"[3]؛ إذ مناطُ الاهتمامِ في الإخبارِ حصولُ التَّبشيرِ لهم وموقفُهم منه، فأيُّ فاعلٍ للتَّبشير لا يؤدّي إلى تغييرِ موقفِهم من الحدثِ الَّذي يُصيبُهم بالكآبة والحُزنِ الشَّديدين.

دلالةُ نائبِ الفاعل:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن نائبِ الفاعل بلفظِ (الأحد) في قولِهِ تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 179.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 42.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 401.

التَّركيزُ على الحدثِ يَستلزمُ التَّعميمَ لما وقعَ عليهِ

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾؛ للدَّلالةِ على أهمّيَّةِ الحدث، وهو التَّبشيرُ دونَ خصوصِ مَن وقعَ عليه ذلك؛ إذ مناطُ التَّركيزِ في الإخبارِ حصولُ البِشارةِ لهم وموقفُهم منها، فأيُّ مَن وقعتْ عليه البِشارةُ لا يؤدّي إلى تغييرٍ في حقيقةِ الإخبارِ بذلك، وبذلك يتناسَبُ حذْفُ الفاعل معَ تعميم نائبِهِ في تحقيقِ دلالةِ العموم المُقتضيةِ اشتراكُهم في التَّشاؤُم من البنات، ومعَ ذلك فقد قاموا جميعًا بنِسبَتِها للّه تعالى.

التَّهكُّمُ والاستخفافُ بيانٌ لفداحةِ إشراكِهم بالله تعالى

دلالةُ فعلِ (التَّبشير):

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن الإبلاغِ بإنجابهم للبناتِ بفعلِ التَّبشير في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾؛ للدَّلالةِ على التَّهكُّم بهم والاستخفافِ بعقولِهم؛ "لأنَّ البِشارَةَ إعْلامٌ بِحُصولِ أمْرٍ مُسَرٍّ"(1)، فهنالك استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ شُبِّهَ فعلُ التَّبليغِ المَشوبِ بالحزنِ بفعلِ التَّبشيرِ المشوبِ بحصولِ الفَرحةِ لهم تشبيهَ الضِّدِّ بالضِّدِّ؛ تهكُّمًا بما كانوا ينفرونَ منهُ، واستخفافًا بعقولِهم الَّتي لم تساوِ بينَ البنينَ والبنات، والغرضُ من الاستعارةِ التَّهكمّيَّة تنزيلُ غيرِ المبشَّرِ به منزلةَ المبشَّرِ به، ومع ذلك يَضجَرونَ من البنات، وينزعجونَ منهُنَّ لبيانِ شدَّةِ فداحةِ إشراكِهم، ورأى البقاعيُّ أنَّه أطلقَ التَّبشيرَ؛ تنبيهًا على أنَّه ممّا يَسُرُّ كالذَّكَر سواء في أنَّ كُلًّا منهما ولدٌ، وتارةً يسُرُّ، وتارةً يضُرُّ، وهو نعمةٌ من الخالق؛ لأنَّه خيرٌ من العُقْم"(2).

الإعراضُ عن الظّالمينَ تقبيحٌ مُشين

دلالةُ الالتفاتِ في: ﴿أَحَدُهُم﴾:

التفتَ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾، ولم يقل: (أحدكم) المناسب لـ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾؛ "للإيذانِ باقتضاءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 180.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 401.

ذكرِ قبائِحِهم أنْ يُعرِضَ عنهم، ويَحكي لغيرِهم؛ تعجُّبًا منها"[1]، و"لتأكيدِ الإجرامِ وتشديدِ التَّوبيخ"[2].

دلالةُ (ما) في: ﴿بِمَا ضَرَبَ﴾:

الإبهامُ ملائمٌ لقبح الاتِّهام

عبَّرَ النَّظمُ بـ(ما) الموصولةِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلًا﴾؛ للدَّلالةِ على الجنسِ الَّذي ادَّعي أنَّه جزءٌ للّه تعالى، وذلك الجنسُ هو جنسُ الأُنثى دونَ الذَّكَر، وإنَّما عبَّرَ عن الأنثى بـ(ما) المبهمةِ دونَ (مَن) أوِ (الأنثى)؛ للدَّلالةِ على شناعةِ ما نسبوهُ للّه تعالى، حتى إنَّه لا يُخبَرُ عنه إلّا بالمُبهم؛ تصويرًا لشناعتِه وشدَّةِ قُبحِه، وكانَ التَّعبيرُ بالموصول للإشارةِ إلى أثَرِ الصِّلةِ في تعليلِ مآلِ التَّبشير بالبنتِ من اسودادِ الوجْهِ وكَظْمِ الغيظِ.

دلالةُ لفظِ ﴿ضَرَبَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

نسبتُهُم الإناثَ تعدٍّ بلا تروٍّ

عبَّرَ النَّظمُ بالفعلِ الماضي ﴿ضَرَبَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلًا﴾؛ للدَّلالةِ على الجَعْلِ والصُّنْعِ "المُتعدّي إلى مفعولينِ، حُذِفَ الأوَّلُ منهما"[3] العائدُ على الموصول، والتَّقديرُ: (بما جعلَهُ للرَّحمنِ مَثَلًا)، "وعبَّر به دونَ أنْ يقولَ: (بما جعلَ) موضِعَ ﴿بِمَا ضَرَبَ﴾؛ تعليمًا للأدبِ في حقِّه سبحانه في هذه السّورة، التي مقصودُها العلمُ الموجِبُ للأدبِ، وزيادةً في تقبيحِ كُفرهم"[4]، فقد نجمَ من نِسبتِهم الإناثَ للّه تعالى جعْلٌ وصنْعٌ، أي: جَعَلوا، وصَنَعوا للّه تعالى شبيهًا من خلقِه، وإنَّما عبَّرَ عنهما بالضَّربِ لما فيه من التَّعدّي والمُجاوزة، ففي الفعل استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، كما دلَّت صيغةُ الماضي على صدورِ ذلك منهم على سبيلِ التَّحقُّقِ والتَّيقُّنِ.

---

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 204.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 239.

(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 204.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 401.

دلالةُ (المثَل):

المُماثلةُ مِن سِماتِ الحَوادِثِ

عبَّرَ النَّظمُ عن المجعولِ للّه تعالى بـ(المَثَل) في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾؛ لأنَّه صارَ بنِسبتِه للّه تعالى شَبيهًا ومَثيلًا له في الحقيقةِ والكَمالات، كما هو شأنُ المخلوقاتِ الَّتي لها مثلٌ وشبيهٌ؛ "إذ الولدُ لا بدَّ أنْ يُماثِلَ الوالدَ"(1)، فتكون هنالك إشارةٌ إلى أنَّ ذلك الجعلَ منهم مُؤدٍّ إلى مماثلةِ المنسوبِ للمَنسوبِ إليه، وذلك مستلزمٌ الشِّركةَ والاحتياجَ والمُشابهةَ للحوادث، ونبَّه البقاعيُّ إلى أنَّ علَّةَ التَّعبيرِ بالمثل؛ لأنَّه: "لمّا كانت نسبةُ الولد إليه سبحانَه ممّا لا يَنبغي أنْ يخطرَ بالبالِ على حالٍ من الأحوال، كانت نسبتُهُ على سبيل الحقيقةِ أبعدَ منها على طريقِ المثالِ بأنْ يقالَ: (الملائكةُ عندَهُ في العزَّةِ بمنزلةِ البناتِ عندَ الأب)؛ قال مُرشِدًا إلى أنَّ ما قالوه لو كانَ على قصدِ التَّمثيلِ في غايةِ القباحةِ فضلًا عن أن يكونَ على التَّحقيق"(2).

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الرَّحمن):

علَّةُ تنزُّهِهِ عن الأُنثى أنَّه الرَّحيمُ الرَّحمن

آثَرَ النَّظمُ إيرادَ الاسمِ الجليل (الرَّحمن) في قولِه تعالى: ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ دونَ غيره من الأسماءِ الحُسنى؛ لأنَّهم كانوا يجهلونَ هذا الاسم للّه تعالى أوَّلًا، وأنَّه لكونِه صفةً مشبَّهةً دالٌّ على المُلازَمة للرَّحمةِ والدَّوام عليها، فيكونُ تصويرًا لشناعةِ ما أقدَموا عليهِ مِن نسبةٍ، فهو الرَّحمنُ على ما يقولونَهُ، ويَنسبونَه إليه ثانيًا، كما أنَّ نسبةَ الأنثى إليه الَّتي هي عنوانُ الرَّحمةِ وسببٌ لرحمةِ الأبِ ورقَّته لا يحتاجُ لها المَولى تعالى؛ لأنَّه الرَّحمنُ، قال البقاعيُّ: "وعدلَ عن الوصفِ بالرُّبوبيَّةِ - لأنَّه قد يُدَّعى المُشاركةُ في مطلقِ التَّربيةِ - إلى الوصفِ الدالِّ على عمومِ الرَّحمة، فتأمُّلُه بمجرَّدِهِ كافٍ في

(1) الحنبلي، فتح الرحمن: 6/ 210.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 401.

الزَّجرِ عن سوءِ قولِهم، فقال: ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾، أي: الَّذي لا نعمةَ على شيءٍ من الخلق إلّا وهي منهُ[1].

دلالةُ ﴿ظَلَّ﴾ في: ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ﴾:

استمرارُ الحُزنِ من سوءِ الفَهْمِ

عبَّرَ النَّظمُ بالفعل ﴿ظَلَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾؛ للدَّلالةِ على الصَّيرورةِ مع الاستمرارِ أيضًا؛ بخلافِ الفعلِ (صار) الدّالِّ على مُجرَّدِ الصَّيرورة؛ تصويرًا لاستمرارِ سَوادِ وجوهِهم وشدَّةِ كربِهم وحُزنهم، حتى إنَّهم لا ينفكّون عنه زمانًا طويلًا؛ بيانًا لمدى جَهلِهم بقيمةِ البنات، وتهكُّمًا بهم في نسبتِهم ما يخجلونَ منه على سبيلِ الدَّوامِ للّه تعالى، وهو أهلُ الكَمالاتِ كلِّها، كما أنَّ الفعلَ ﴿ظَلَّ﴾ يدلُّ على الصَّيرورةِ والاستمرارِ في النَّهار؛ ولذا قال البيضاويُّ: "لأنَّ أكثرَ الوضْعِ يتَّفقُ باللَّيلِ، فيظلُّ نهارُهُ مُعتِمًا مُسودَّ الوجهِ من الكآبةِ والحَياءِ من النّاس"[2]؛ إذ "تغيُّرُ الوجهِ لا سيَّما بالسَّواد لا يُدرَكُ حقَّ الإدراك إلّا بالنَّهار؛ عبَّر بما هو حقيقةٌ في الدَّوام نهارًا، وإن كان المرادُ هنا مطلقَ الدَّوام"[3].

دلالةُ الكنايةِ في: ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾:

إنجابُ البناتِ مُثيرٌ للشُّبُهات باعتبارِ العوائدِ الفاسدة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بأسلوبِ الكنايةِ في قولِه تعالى: ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾؛ إذ ذكرَ اسودادَ الوجه، وهو ملزومٌ للازمِ هو الخزيُ والخجلُ الاجتماعيُّ الشَّديدُ الَّذي ينتابُهُم من إنجابِ البنات، فـ:"اسودادُ الوجهِ كنايةٌ عن الاغتمامِ والتَّخجيل كما أنَّ بياضَ الوجهِ وإشراقَه كنايةٌ عن الفرحِ والسُّرور"[4]، والكنايةُ تجوِّزُ إرادةَ المعنى الأصليِّ، أي: "شديدَ السّوادِ من سوءِ ما بُشِّرَ به، ويحتملُ أن يكونَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 401.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/ 218.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 402.
(4) الشّربيني، السّراج المنير: 2/ 238.

اسودادُ الوجهِ عبارةً عن الكراهةِ"(1)، فهي كنايةٌ عن صفةٍ تدلُّ على قيمٍ اجتماعيَّةٍ فاسدةٍ، تنظرُ للبنات على أنَّها جالبةٌ لسوادِ الوجهِ النّاجم عن العارِ والخزْيِ والنَّدامةِ، فالآيةُ انتقادٌ لذلك الموقفِ الاجتماعيِّ الفاسدِ، واستخفافٌ بعقولِهم في نسبةِ ما يُشعِرُهم بالخَيبةِ والنَّدامةِ والخَجَلِ للّٰه تعالى.

دلالةُ جوابِ الشَّرطِ ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ﴾:

تعلُّقُ الخزيِ والعارِ بالخبرِ غيرِ السّارِّ

وقعَ قولُه تعالى: ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ جوابًا لشرطٍ غيرِ جازم؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الشُّعورَ بالخيبة مقترنٌ بوقتِ التَّبشير، وكأنَّ بينَ التَّبشيرِ والشُّعورِ بالخجلِ والخيبةِ تزامنًا لا ينفكُّ، بل يتعلَّقُ بعضُهما بالآخَرِ تعلُّقًا ظاهِرًا، فهُم يترقَّبونَ وقتَ البِشارةِ؛ ليعقبَهُ الشُّعور بكمالِ الخَيبةِ على سبيلِ الدَّوام.

دلالةُ استعمالِ لفظِ ﴿مُسۡوَدّٗا﴾ دونَ (أسْودَ):

كمالُ السَّوادِ دالٌّ على فسادِ الاعتقاد

آثرَ النَّظمُ الكريمُ صيغةَ اسمِ المفعولِ على صيغةِ اسمِ التَّفضيل في قولِه تعالى: ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾؛ للدَّلالة على كمالِ الاسوداد؛ إذ المسودُّ يفيدُ كمالَ السّواد للمتَّصفِ به، بخلافِ الأسودِ فإنَّه يدلُّ على كونِ السَّوادِ أكثرَ من الآخر، وإنْ كان في نفسِه ليس قاتِمًا، كما أفادَ اختيارُ اللَّونِ الأسود دونَ اللَّونِ الأحمر - الَّذي يُشعرُ بالخجل أيضًا - أنَّ السَّواد هو شعورٌ بالخجلِ معَ العارِ والخزيِ والاحتقانِ للدَّم في العُروق من شدَّةِ الغضَب والانزعاج.

دلالةُ الجملةِ الاسميَّةِ: ﴿وَهُوَ كَظِيمٞ﴾:

الشُّعورُ بالعار يُخالِطُهُ الغَيظُ العميق

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالجملةِ الاسميَّة الحاليَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ كَظِيمٞ﴾؛ للدَّلالةِ على ثبوتِ وصفِ الكَظْم للوجهِ مع تقييدِ الوجهِ بشدَّةِ الغَيظِ المَكظوم، فلم يكنِ الشُّعورُ بالعارِ المُنبئ عنهُ لونُ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 204.

الاسودادِ، بل خالطَهُ الشُّعورُ بالحُزنِ النَّفسيِّ العميقِ، حتى إنَّ غيظَهُ مكظومٌ محبوسٌ عن الانطلاق، وذلك أشدُّ أنواعِ الغيظِ وأصعبُ حالاتِهِ؛ إذ يحسُّ صاحبُهُ بالغيظِ ولا يستطيعُ الإفصاحَ عنه؛ خجَلًا من معرفةِ أهلِ النّادي بمُصيبتِهِ الَّتي حلَّتْ على رأسِه، والضَّميرُ في الجملةِ الاسميَّة راجعٌ إلى الوجهِ الموصوفِ بالاسودادِ حتى يتجسَّدَ السَّوادُ الخارجيُّ معَ الغيظِ الدّاخليِّ.

دلالةُ لفظِ ﴿كَظِيمٌ﴾:

منْعُ الغيظِ منَ الانفلاتِ تصويرٌ لشدَّةِ المأساةِ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بلفظ ﴿كَظِيمٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ لما في الصّيغةِ (فعيل) القائمةِ مقامَ المفعولِ من مُبالغةٍ للغيظِ القائمِ في وجهِ ذلك السّامعِ للخبرِ غيرِ السّارِّ، فالكظمُ حبسٌ للغضَبِ من الانفجار، ولا يَستطيعُ التَّعبيرَ عن شدَّةِ كربِه، وذلك يُعطي احتقانًا للوجهِ فوقَ سَوادِه، وقال ابن عاشور: "هو المُمْسِكُ، أي: عَنِ الكَلامِ كربًا وحُزنًا"[1].

دلالةُ الخبرِ:

تشنيعُ موقفِ الظّالمين من نِعَمِ ربِّ العالمينَ

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ عن موقفِ الظّالمينَ النّاسبينَ البناتَ للّه تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ لبيانِ مدى ظُلمِهم والتَّعجيبِ من شناعةِ نِسبتِهم جنسًا يخجَلونَ منه، ويكرهونَهُ للّه تعالى، فالمرادُ: "أنَّهم يكرهونَ البناتِ، فكيفَ ينسبونَها إلى اللّه؟"[2]، وليس المقصودُ موافقتَهم على ذلك الحُكم بتفضيلِ البنينَ على البنات، وإنَّما الغرضُ إلزامُ الخصمِ بقُبحِ ما يصدُرُ عنه جدلًا؛ حتَّى ينتبهَ لسوءِ فَهْمِه وصنيعِه، بل المقصودُ بعد ذلك التَّشنيعُ عليهم برفضِ نعمةٍ من نِعَمِ اللّهِ تعالى بمنحِهِم البناتِ وعدمِ رِضاهُم بمرادِ اللّه تعالى واختيارِه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 180.

(2) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 256.

دلالةُ الاستفهامِ في: ﴿أَوَمَن﴾:

تكرارُ الإنكارِ تشنيعٌ للشِّركِ البَوار

دلَّ الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ على الإنكارِ للاتِّخاذ المقدَّرِ في مدخولِ الاستفهام، قال الهرريُّ: "الهمزةُ فيه للاستفهام الإنكاريِّ الاستقباحيِّ داخلةٌ على مَحذوفٍ"[1]، أي: نُنكِرُ اتِّخاذَ اللهِ مَن يُنشَّأ في الحليةِ - وهُنَّ البناتُ - كما نُنكِرُ سابقًا اتِّخاذَهُ البناتِ وإصفاءَكُم بالبنينَ، والغرضُ من تكرارِ الإنكارِ زيادةُ التَّوبيخِ[2]، وبيانُ عدم اللّياقةِ في نِسبةِ ما يَأنَفونَ منهُ، ومَن يكونُ ضعيفًا في متعارَفِهم أَنْ يكونَ مَنسوبًا للّه تعالى بالبنوَّةِ أو بالتَّبنّي.

دلالةُ العطفِ:

الإلهُ الكاملُ لا يُنسَبُ له إلّا كلُّ كمالٍ

عطفَ النَّظمُ الكريمُ جملةَ الاستفهامِ الإنكاريِّ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ على جملةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ في قولِهِ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٍ﴾، والتَّقدير: (بلْ أتَّخذَ ممّا يخلقُ بناتٍ؟ وأتَّخذ مَن يُنشَّأ؟)، فيكونُ (مَنْ ينشأ) في الآية مفعولًا به لفعلٍ محذوفٍ[3]، دلَّ عليه المذكور "(جعلوا)"، أي: أو جعلوا مَنْ شأنُهُ أنْ يُربَّى في الزّينةِ، وهو عاجزٌ عن أن يتولّى أمرَهُ بنفسِه، فالهمزةُ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه، وقد جوَّزَ انتصابُها بمضمرٍ معطوفٍ على ﴿ٱتَّخَذَ﴾، فالهمزةُ حينئذٍ لإنكارِ الوقوعِ واستبعادِه[4]، ويكونُ بين الجملتَين تناسُبٌ في الإنشاءِ، وهو من مُحسِّناتِ الوصلِ، والعطفُ وإنْ كانَ دالًّا على المغايرة إلّا أنَّه تتلاقى الجملتانِ في الإنكار، لكنَّ الإنكارَ الأوَّلَ في اتِّخاذِ اللّه البناتِ خالصًا، والثاني في اتِّخاذِ الجنسِ الضَّعيفِ الَّذي يتربَّى على الدَّلال.

(1) الهرري، حدائق الرّوح الرّيحان: 26/ 205.
(2) الحنبلي، فتح الرحمن: 6/ 211.
(3) السّمين، الدرّ المصون: 9/ 578.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 42.

دلالةُ البدليَّةِ:

إبدالُ الموصولِ منَ الظّاهرِ تأشيرٌ لعلَّةِ إنكارِه

يجوزُ أنْ يُعربَ الاسمُ الموصول (مَنْ) في قولِه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ بدلًا من ﴿بَنَاتٍ﴾ في قولِه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٍ﴾ بدلَ كلٍّ مِن كلٍّ[1]، ويكونُ البدلُ تقريرًا للمعنى وتأكيدًا له، وإشارةً إلى علَّةِ إنكارِ اتِّخاذِهِ البناتِ، وهي التَّنشئةُ في الحليةِ التي هي عنوانُ الضَّعف.

دلالةُ بناءِ المجهولِ في قولِه: ﴿يُنَشَّؤُاْ﴾:

البناتُ مَخلوقاتٌ للزّينةِ والتَّحلّي

عبَّرَ النَّظمُ بالفعلِ المضارعِ المبنيِّ للمجهول ﴿يُنَشَّؤُاْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ البنتَ لا تتزيَّنُ في أوَّلِ أوقاتِ وجودِها بذاتِها، بل يتولَّى الآخرونَ تنشئَتَها على هذه الطَّريقة، وتحاطُ بصنوفِ الزّينة غيرَ مسؤولةٍ عن ذلك، والغرضُ بيانُ أنَّها مَظهَرُ الدَّلالِ والضَّعفِ من أوَّلِ أوقاتِ وجودِها، ثمَّ تستمرُّ على ذلك في باقي أيّامِ حياتِها، وعبَّر بالمضارعِ الدّالِّ على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ من أجل بيان أنَّ تلك التَّنشئةَ ثابتةٌ لها على سبيلِ الاستمرارِ.

دلالةُ (التَّنشئةِ) مادَّةً وصيغةً:

تنشئةُ البناتِ على حُبِّ الزّينةِ وتجميلِ الشَّكل

عبَّر النَّظمُ بالفعلِ ﴿يُنَشَّؤُاْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾، بمعنى: إحداثِ الشَّيءِ وتربيتِه، أي: يتربّى في الحِليةِ والزّينة[2]؛ لما في (النَّشء) مِن دلالةٍ على أوَّلِ أوقاتِ وجودِ الشَّيء، فتكون البنتُ منذُ أوَّلِ أوقاتِ وجودِها ناشئةً على تزيينِ المظهَرِ والاعتناءِ بالشَّكلِ أكثرَ من المضمونِ بخلاف الابن، الَّذي ينشأ على تنمية عواملِ القوَّة الدّاخليَّة وتعديلِ المضمونِ دونَ الظّاهر والشَّكلِ الخارجيِّ، كما دلَّتْ صيغةُ (التفعيل) على أنَّ ذلك حاصلٌ لها على سبيلِ المبالغةِ والكَثرة، حتى يتحوَّلَ عندَها إلى شعارٍ تعتادُهُ، وتسيرُ عليه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 181.

(2) السّمين، عمدة الحفاظ: 4/ 176.

دلالةُ التَّعديةِ بـ ﴿فِي﴾:

الحِليةُ مُحيطةٌ بالبناتِ إحاطةَ الظَّرفِ بالمَظروف

عدّى النَّظمُ الكريمُ الفعلَ ﴿يُنَشَّؤُاْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ بالحرفِ ﴿فِي﴾ دونَ (على)؛ للدَّلالة على أنَّ التَّنشئةَ المصاحبةَ للحِليةِ والمستعليةَ عليها مُحيطةٌ بها، وظرفٌ للنّاشئِ على سبيل الاقترانِ، لا تفارقُه في حالٍ من الأحوال، وأنَّ البنت تُنشَّأ داخلَ الحِلية، وكأنَّ الحِلية محيطةٌ بها إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروف لا تفارقُها من أوَّل أوقاتِ وجودِها إلى باقي أيّامِ حَياتِها.

دلالةُ الاستعارةِ في الحرفِ:

العنايةُ بالمظاهرِ على صعيدِ السَّرائر

استعارَ النَّظم الكريمُ الحرفَ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾؛ للدَّلالة على معنى المُصاحبة أوِ الاستعلاء استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً[1]؛ إذ الحليةُ تستعلي البنتَ، أو تصاحبُها في جميعِ أوقاتِ وُجودها؛ للدَّلالة على أنَّ من شدَّةِ المُصاحبةِ بينَها وبينَ الحِلية تكون البنتُ ناشئةً فيها دون مجرَّدِ المُصاحبةِ والمُلابسةِ لها، قال القونوي: "في جَعْلِ الزّينة ظرفًا للتَّربيةِ مُبالَغَةٌ عظيمةٌ، ولفَرْطِ رغبتهنَّ في الزّينة كأنَّهنَّ مُحاطةٌ بالزّينة إحاطةَ المَظروف بالظَّرْف"[2].

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾:

لا يليقُ بالضَّعيفِ المُعتنى بظاهرِه نسبتُهُ للمُحيطِ بالبَصائر

عبَّرَ النَّظمُ عن (البنات) بأسلوبِ الكناية في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾؛ إذ ذكرَ الملزومَ، وهي التَّنشئةُ في الحِلية، وأرادَ اللّازم، وهي البناتُ، فهي كنايةٌ عن الموصوفِ، وإنَّما كنَّى عنهنَّ بذلك للدَّلالةِ على الضَّعف مع الاعتناءِ بالمظاهر، وأنَّ البنتَ مثلُ دُميةٍ يُجمَّلُ شكلُها؛ لتكونَ محطَّ الإعجابِ وإثارةِ الانتباه، فلا تصلُحُ لمواطنِ الدِّفاعِ في الحروبِ والمَعارك، وبتلك الكنايةِ يشيرُ النَّظمُ إلى تعاسةِ عُقولِهم في نسبتِهم المخلوقَ الضَّعيفَ المُعتنى بمظهرِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 181.

(2) حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 17/ 297.

الخارجيِّ للّهِ تعالى، قال الطِّيبيُّ: "وفي العدولِ إلى هذه الألفاظِ منَ التَّصريحِ بذكرِ (البنات) إدماجٌ لمعنى ذمِّ التَّشبُّهِ بالنِّساء، وفي مفهومِ المُدمَجِ رمزٌ إلى التَّرغيب في التَّزيُّنِ بلباسِ التَّقوى، والاهتمامِ بعِمارةِ الباطِنِ، ورفضِ الالتفاتِ إلى الظّاهر[1].

دلالةُ ﴿ٱلۡحِلۡيَةِ﴾:

آلاتُ الزِّينةِ للرِّقَّةِ والجَمال

عبَّر النَّظمُ بلفظ ﴿ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾؛ للدَّلالةِ على الزّينةِ وآلاتِ التَّجميل؛ إشارةً إلى أنَّ البنتَ تهتمُّ بأمور الزّينةِ وأدواتِ التَّجميل دونَ آلاتِ الحربِ والأسلحة، فيكونُ ذِكرُ ﴿ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ مشيرًا لقَصرِ اهتمامِها على الآلاتِ الرَّقيقة بخلاف (الابن)، المهتمِّ بالآلاتِ الخَشنةِ القتاليَّةِ، فكيفَ يُنسَبْنَ للّه تعالى، وهُنَّ غيرُ قادراتٍ على الدِّفاعِ عن أنفُسِهنَّ، والولد إنَّما يراد للدِّفاعِ عن أبيهِ أو في الأقلِّ عن نفسِهِ.

مَرجعُ الضَّميرِ (هوَ):

النِّساءُ شقائقُ الرِّجالِ

أرجعَ النَّظمُ الضَّميرَ (هوَ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ إلى (مَنْ) بقيدِ تنشئتِهِ في الحِلية، وإنَّما ذُكِّرَ الضَّميرُ والمُكنَّى عنه البنات؛ لمراعاةِ لفظِ (مَنْ) دونَ مَعناها[2]، ولعلَّ سرَّ اختيارِ الضَّميرِ مُذكَّرًا دون (هي) الدَّلالةُ على أنَّ كُلًّا من البنين والبنات سواءٌ في الخِلقة، إلا أنَّ المُتعارفَ بينهم جعْلُ البناتِ أقلَّ شأنًا من البنين، ومع ذلك نسبوهُنَّ للّه تعالى؛ تصويرًا للوقاحةِ وتعجيبًا بالصَّنيع واستخفافًا بالعُقول.

دلالةُ تقديمِ المتُعلِّق ﴿فِي ٱلۡخِصَامِ﴾:

الحبسُ عن البيانِ وقتَ الاحتياجِ

قدَّمَ النَّظمُ المتعلِّقَ من الجارِّ والمجرور على مُتعلَّقِهِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾؛ للدَّلالة على تحديدِ محلِّ عدمِ

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 114.

(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 205.

الإبانةِ وذلك عندَ طلبِ الإبانة؛ إذ حالةُ الجِدال وانتزاعِ الحقِّ والمطالبةِ بالحقوق يحتاجُ للإبانة والتَّعبير، وحينَها تصابُ البنتُ غالبًا بالحبسةِ، وتلجأُ للبكاءِ والصُّراخ، أو توردُ الحُجَّةَ عليها، وهي تظنُّها نافعةً لها، و﴿ٱلۡخِصَامِ﴾ مصدرٌ دالٌّ على المشاركةِ يُرادُ به شدَّةُ الخصومةِ واشتدادُ حالِها.

دلالةُ الجُملةِ الحاليَّة:

الولدُ إمّا للدِّفاع بالسِّلاح أو بالكلام

عبَّر النَّظمُ بالجملةِ الحاليَّة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾؛ للدَّلالةِ على تقييدِ امتناعِ اتِّخاذِ البنات للّه تعالى بكونِهنَّ في الخِصام لا يبِنَّ عن مقاصدِهنَّ، والنَّظمُ بذلك يُحاجِجُهم على متعارفِهم للإقناعِ، فكيفَ يتَّخذُ البناتِ لنفسِه، وهُنَّ يُنَشَّأنَ على الحِلية، ولا يُبِنَّ عن مقاصدِهنَّ في مواقفِ الخِصام والجِدال؛ إذ الولدُ إنَّما يُرادُ للدِّفاع عن أبيه، وهُنَّ يُنشَّأن على الحِلية دونَ آلاتِ السِّلاح، أو ليُجادلَ عن أبيه، وهُنَّ لا يُبِنَّ عن مَقاصدِهِنَّ عندَ الحديثِ.

دلالةُ ﴿غَيۡرُ﴾:

التَّغايُرُ التّامُّ بينَ البناتِ والإبانة

عبَّرَ النَّظمُ بلفظِ ﴿غَيۡرُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾؛ للدَّلالةِ على نفيِ الإبانةِ، وإنَّما اختارَ لفظ ﴿غَيۡرُ﴾ للنَّفي مع أنَّها موضوعةٌ للمغايرةِ؛ لبيانِ شدَّةِ النَّفي، فليست الإبانةُ منفيَّةً عن البنت فحسبُ، بل مغايرةٌ لها ذاتًا وصفة، ولا تجتمعُ معها في حالٍ من الأحوال، وكأنَّ الإبانة قد تحوَّلت إلى ذاتٍ، وصارَ بينها وبين البناتِ تغايرٌ تامٌّ، بخلافِ النَّفي الَّذي يدلُّ على عدمِ الإبانة في وقتٍ دونَ آخَرَ.

دلالةُ اسمِ الفاعلِ ﴿مُبِينٖ﴾:

الانفعالُ الشَّديدُ يُفقِدُ المرأةَ البيانَ والوُضوح

عبَّرَ النَّظمُ عن الإبانةِ باسم الفاعل ﴿مُبِينٖ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ الإبانة على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرار، أي: توجدُ عدمُ الإبانة عند الخصامِ الكلاميِّ

والجدالِ عن الحقوقِ أمامَ المُجادلين، وإن كانت مُبيِّنةً عندَ غيرِ الجدالِ والدِّفاع عن الوالدِ والعَشيرة والأهلِ، وأصلُ الإبانةِ الفصلُ بين الأشياء، ونفيُ الإبانة عنها، بمعنى: أنَّها لا تفصلُ بينَ أجزاءِ بَيانها وكلامِها، فلا يكونُ مفهومًا لما يعرضُ لها منَ الصُّراخ والبكاء عندَ الجدال، فلا يُفهَمُ بَيانُها.

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزّخرف: 19 - 20]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الجهلُ بالطَّريق مِن سوءِ النَّظر لدَى التَّحقيق

لمّا حكى اللّه تعالى جَعْلَهم الملائكةَ بناتٍ له، وبيَّن أنَّهم قد أشرَكوا بذلك الجَعْلِ، وانتقَصوا من حقيقةِ الإلهيَّة، بل انتقَصوا من كَمالِها بنسبةِ البناتِ الضُّعفاءِ دون البنينَ الأقوياءِ؛ ذكرَ أنَّهم في ذلك الجَعْلِ والنِّسبةِ قد توهَّموا توهُّمًا كبيرًا؛ إذِ اعتقدوا أنَّ الملائكةَ بناتٌ، وأنَّهم من جنسِ الإناث، فأرادَ إبطالَ أصلِ الدَّعوى القائمةِ على وهمٍ، كما أبطلَ ما قامَت عليه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخْرُصُونَ﴾: الخَرْصُ: الكذِبُ، والخرّاصونَ: الكذّابونَ، ويَخْرُصون: يكذِبونَ[1]، يُقال: تَخَرَّصَ فلانٌ عَلَيَّ الباطلَ، واختَرَصَهُ، أي: اختلَقه، وافتعَله، قالَ: ويجوز أنْ يكونَ (الخرّاصونَ) الَّذينَ إنَّما يَتَظَنّونَ الشَّيءَ، لا يحُقّونَهُ، فيَعمَلونَ بما لا يَعلمونَ، وأصلُ الخَرْصِ: التَّظَنّي فيما لا يَستَيْقِنُه، ومنه قيل: خَرَصْتُ النَّخْلَ والكَرْمَ؛ إذا حَزَرْتَ ثمَرَهُ؛ لأنَّ الحَزْرَ إنَّما هو تقديرٌ بظَنٍّ لا إحاطَةٍ، ثمَّ قيلَ للكَذِب: خَرْصٌ، لِما يَدْخُلُهُ من الظُّنونِ الكاذِبةِ[2]، وقيلَ: الاسمُ بالكَسرِ، والمَصدَرُ بالفَتحِ، يُقالُ: كَم خِرْصُ أرضِكَ؟ وكَم خِرْصُ نَخلِكَ؟ وفاعِلُ ذلكَ الخارِصُ، والجَمعُ الخُرّاصُ، ومِنَ المَجازِ

(1) الخليل، العين: (خرص).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (خرص).

الخَرْصُ: الكَذِبُ، فهو خارِصٌ وخَرّاصٌ، أي: كَذّابٌ[1]، والمرادُ به في الآية: يَكذبونَ نتيجةَ الحَزْرِ والتَّخمينِ والظَّنِّ الفاسِدِ.

المَعنى الإجْماليُّ:

شأنُ المُخطِئين اعتقادُ مذهَبِ الجَبْريّين

إنَّ هؤلاءِ المُشركينَ سَمّوا الملائكةَ الَّذين هم عبادُ الرَّحمنِ إناثًا، وقد أنكرَ عليهم ذلك السَّفَهَ والجهلَ، ووبَّخَهُم على افترائِهم، فهل حَضَروا خلقَ اللّه إيّاهم، فشاهدوهُم إناثًا؟ إنَّهم لم يَشهَدوا خَلْقَهم، ولم يَقِفوا على أمرِهم حتَّى يَحكُموا هذا الحُكْمَ، وقد هدَّدَهُم اللّهُ، وتوعَّدَهُم بأنَّ شهادتَهُم ستُسجَّلُ، وتُرصَدُ في صحائفِ أعمالِهم، ويُسألونَ عن دَعواهُم سُؤالَ تقريعٍ وإهانةٍ، ويُحاسَبونَ على ذلك حِسابًا يَنتهي بالعذابِ الأليمِ؛ لأنَّ هذه الدَّعوى ما هي إلّا افتراءٌ على اللّه، كما قالَ الكفّار في مَوطِنِ الحِساب طَلَبًا للنَّجاةِ: لو شاءَ اللّه ألّا نَعبُدَ الملائكةَ؛ ما عَبَدْناهُم، ولكنَّنا عَبَدْناهُم بمشيئتِه وإرادتِه، ويَبنونَ على ذلك أنَّهم ما داموا قد عَبَدوا الملائكةَ بإرادة اللّه ومشيئتِه، فلا يُعاقِبُهم اللّه على ذلك؛ فردَّ اللّه عليهم بأنَّهم يتوهَّمونَ، ويتقوَّلونَ على اللّه زورًا وبهتانًا[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الواو) في: ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

تغايرُ المُتعاطفَينِ لتغايُرِ الرَّدَّين

عطفَ النَّظمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ على قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾؛ لبيانِ أنَّهم صيَّروا لهُ شُركاءَ من عبادِه، ولكنْ في التَّصييرِ الأوَّلِ ذِكرَ (الإناث) بطريقِ الجُزئيَّةِ؛ لأنَّ المقصود الرَّدُّ عليهم بأنَّ نسبةَ البناتِ إليه يُنافي كمالَهُ تعالى، وفي التَّصييرِ الثاني ذَكرَ (الإناثَ) بطريقِ التَّصريحِ؛ للدَّلالة

(1) الزّبيدي، تاج العروس: (خرص).
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 794.

على أنَّ موطنَ الخللِ اعتقادُهُم أنَّ الملائكةَ بناتٌ وإناثٌ، فيكونُ بين المتعاطفين تغايرٌ لتغايرِ المقصدَينِ من إيرادِ الجعْلِ والرَّدِّ عليه، قال الزَّمخشريُّ: "قد جَمَعوا في كَفرةٍ ثلاثَ كَفَرات، وذلك أنَّهم نَسَبوا إلى اللّه الولدَ، ونَسَبوا إليه أخسَّ النَّوعينِ، وجعلوه من الملائكةِ، فاستخفّوا بهم، واحتقَروهم"[1].

دلالةُ الفعلِ (جَعَلوا) مادَّةً وصيغةً:

الإشــراكُ كُلفةٌ وصُعــوبــةٌ والتَّوحيدُ يُمْنٌ وسُهولة

عبَّرَ النَّظمُ بالفعل (جَعَلوا) في قولِه: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ الدالِّ على معنى التَّسميةِ والحُكم والقولِ[2] الدالِّ على وجودِ الاعتقاد التزامًا، "قال الزَّجّاج: "الجعلُ هنا في معنى القولِ والحُكم على الشَّيءِ، تقولُ: جَعَلْتُ زيدًا أعلمَ الناسِ، أي: قد وصَفْتُهُ بذلك، وحَكَمْتُ به"[3]، والتَّقديرُ: (سَمَّوْهُم إناثًا، وحَكَموا بذلك عن اعتقادٍ)، كما يحتملُ أنْ يكونَ الجعلُ بمعنى الاعتقادِ أوِ التَّصيير، ولعلَّ النَّظم تركَ هذه الأفعالَ، وعبَّر بـ(الجَعْل)؛ لبيانِ أنَّ ذلك العملَ وتلك النِّسبةَ فيها صعوبةٌ وشدَّةٌ وكُلفة، كما دلَّ الماضي بصيغتِهِ على تحقُّقِ ذلك الجَعْلِ وصدورِهِ منهم ممّا لا يَسَعُهُم إنكارُهُ.

نُكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى الضَّميرِ (جَعَلوا):

أهلُ الشِّرك أهلُ غفلةٍ وجَهالة

أسندَ النَّظمُ الفعلَ (جعلوا) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ إلى الضَّميرِ العائِدِ إلى المُشركين؛ للدَّلالةِ على أنَّهم قد بلَغوا من الجهلِ مكانًا كبيرًا، فقد نَسَبوا الضَّعيفَ إلى اللّه تعالى، واعتقدوا الملائكةَ إناثًا وبناتٍ للّه تعالى، ولا يقدُمُ على هذا العمَلِ إلّا غافلٌ يحتاجُ إلى توبيخٍ.

دلالةُ مفعولَي الجَعْل:

عدَّى النَّظمُ فعلَ الجَعْلِ إلى مفعولَينِ أصلُهما المبتدأُ والخبرُ في

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 244.

(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 307، والسّمين، عمدة الحفاظ: 1/ 328.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 115.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾؛ للدَّلالةِ على سوءِ حُكمِهم وجهالةِ تصوُّرِهم؛ إذِ (الملكانيَّة) تُنبئ عن القوَّةِ والجلال والعظَمة، و(الأنوثة) تنبئُ عن الضَّعف والدَّلالِ والبَساطة، فيكونُ ذلك الجعلُ مُخالِفًا لما يُنبئ عنهُ لفظا المفعولين؛ إذ جمَعوا في ذلك الجعلِ بينَ النَّقيضينِ والأمرينِ المُتنافيين، وجلُّ اعتمادِهم في ذلك الحُكم والجعلِ على دلالةِ (التاء) في لفظِ ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾، الَّتي توهَّموا منها أنَّها تدلُّ على التَّأنيثِ مع أنَّها للمبالغةِ في القوَّةِ والعظَمة، فيكون ذِكرُ المفعولين بهذينِ العُنوانينِ دليلًا على سُقوطِ مُعتقَدِهم وبيانًا لسَخافةِ حُكمِهم.

بـيـنَ المـلائـكـةِ والأُنـوثـةِ تـنـافٍ وتقاطُعٌ

دلالةُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

في قولِه: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ استعملَ النَّظمُ الاسمَ الموصولَ المذكَّرَ صفةً للملائكة، وفي هذا التَّذكيرِ اللفظيِّ ردٌّ عليهم بأنَّ الملائكةَ باعتبارِ لفظِهم ليسوا إناثًا فَضلًا عن حقائقِهم، فليسوا أيضًا ذُكورًا، بلِ التَّوصيفُ إثباتٌ لذكورتِهم اللَّفظيَّة الَّتي توهَّموا من (التاء) اللّاحقةِ أنوثتَهم المعنويَّة، فكانَ التَّوصيفُ بالموصولِ كنايةً ترُدُّ دعواهم، وبيانًا لكونِ (التاءِ) دالَّةً على المبالغةِ في الاتِّصافِ بالمَلَكانيَّة؛ إذ الملائكةُ لا يتَّصفونَ بذكورةٍ ولا أنوثةٍ.

المَـلائـكــةُ لا يتَّصِفونَ بذُكورةٍ ولا أُنوثةٍ

دلالةُ صلةِ المَوصول:

عبَّر النَّظمُ بالجملةِ الاسميَّة صلةً للموصولِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾؛ للدَّلالةِ على ثبوتِ هذا الحُكم لهم ودوامِهم على العُبوديَّة للرَّحمن تعالى، والجملةُ الاسميَّةُ مصدَّرةٌ بضميرِ الفصلِ والحصرِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم في حالةِ استغراقٍ في عبادة اللّه تعالى، وفي الصِّلة إيماءٌ إلى التَّوبيخِ للمشركينَ على جَعْلِهم وحُكمِهم بأنوثةِ الملائكة، وأنَّهم بناتٌ للّه تعالى؛ إذ هم عبادٌ للرَّحمنِ يَعبدونَهُ، ويَخضعونَ له، فكيفَ يُنسَبونَ إليه على أنَّهم بناتُه؟

تشريفُ الملائكةِ بمَقامِ العبوديَّةِ يَنفي جُزئيَّتَهُم للهِ تعالى

إذ الولدُ لا يكون عابدًا لأبيهِ؛ لمُشاركتِهِ له في الحقيقةِ الإلهيَّة، كما أنَّ الصِّلةَ أفادَتْ تقريرَ وظيفةِ الملائكةِ، وهي أنَّهم في حالةِ عبادةٍ وخضوعٍ وطاعةٍ، فلا ينبغي التَّقديسُ لهم، واعتقادُ أنَّهم مُنتسِبونَ بالجزئيَّةِ للّٰه تعالى، والصِّلةُ تشريفٌ وتكريمٌ لهم؛ إذ أعلى ما يَمنَحُهُ الرَّبُّ الجليل أنَّ مَخلوقاتِهِ عبادٌ له خاضِعونَ لعظمتِهِ.

دلالةُ الإخبارِ بلفظِ ﴿عِبَٰدُ﴾:

العــبــوديَّـةُ المـمـدوحـةُ هي الـنّـاشـئـةُ عن رَغبةٍ وإقبال

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في الإخبارِ عن الضَّميرِ الرّاجعِ إلى ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لفظَ (العباد) دونَ لفظِ (العَبيد)؛ لأنَّ العبيدَ غلبَ إطلاقُهُ على العَبْدِ الخادمِ المضطرِّ الَّذي لا يلزمُ منهُ الولاءُ لسيِّدِه، فهو لقبٌ على الخادِمِ وعلَمٌ عليه، بخلافِ (العِباد) الَّذي يوحي بأنَّه حرٌّ، لكنَّه اختارَ العبوديَّةَ طَواعيَةً والطّاعةَ رغبةً لا قَهْرًا، فهي صفةُ مدحٍ لطائفةٍ من عَبيده.

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

كـلُّ المَـلائـكـةِ يَـتـشـرَّفـونَ بـإضـافـتِـهـم للرَّحمن

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿عِبَٰدُ﴾ إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ إضافةً استغراقيَّةً؛ للدَّلالةِ على دخولِ جميعِ أفرادِ الملائكةِ بالعُبوديَّةِ والخضوعِ للّٰه تعالى، فلا شيءَ منهم يكونُ مَنسوبًا بالبنوَّة للّٰه تعالى، كما أفادتِ الإضافةُ تشريفًا لمقامِهِم السّامي بإضافتِهِم إلى اللّٰه تعالى، وتمييزًا لهُم عمَّن يتبادَرُ إلى أذهانِهم أنَّهم عبادُ الرَّحمن، وهُم يتوجَّهونَ إلى أصنامٍ وأوثانٍ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، وإنَّما آثرَ النَّظمُ الإضافةَ إلى لفظِ (الرَّحمن) دونَ بقيَّةِ الأسماءِ الجليلة؛ ردًّا عليهم بما ضرَبوا للرَّحمنِ من مثلٍ بالبنات؛ فاختارَ النَّظمُ ذاتَ الاسم الجليلِ لبيانِ عُبوديَّتِهم للرَّحمن؛ ليتوافقَ الرَّدُّ معَ الدَّعوى.

نكتةُ توجيهِ القراءاتِ في: ﴿عِبَٰدُ﴾:

قَرَأ نافعٌ، وأبو جعفر، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عامرٍ، ويعقوبُ ﴿عِبَٰدُ﴾

كـمـالُ الإعـجـازِ
مع دقَّةِ الإيجازِ

من قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ بلفظِ ﴿عِندَ﴾ بالنّون ساكنةً وفتحِ الدالِ من غيرِ ألفٍ على أنَّه ظرفٌ[1]، "وقد جاءَ التَّنزيلُ بالأمرينِ جَميعًا في وصفِ الملائكة، وذلك قولُه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: 26]، وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: 206]"[2]، وفي كلٍّ من القراءَتين إعجازٌ؛ إذ عبوديَّتُهم تدلُّ على عدم إلهيَّتهم مع تكريمهم، ومناسبة المعنى في قراءة ﴿عِبَٰدُ﴾ هي "لأنَّ اللّه تعالى إنَّما كذَّبَهم في قولهم: (بنات اللّه)، فأخبرَ أنَّهم عبيدُهُ، وليسوا بناتِه"[3]، ومناسبة المعنى في قراءة ﴿عِندَ﴾ هي كونُهم عندَ الرَّحمن بما في ذلك من مدح[4].

وتتوجّه العندية على معنى أنّهم حاضرونَ مكانًا مجازيًّا دالًّا على الانقيادِ لحضرتِهِ وجلالِه، وأنَّهم مخلوقونَ في الملأ الأعلى؛ ليأمُرَهم بما يريدُ، "والعِنديَّةُ عِنديَّةُ تَشريفٍ، أي: الَّذينَ هُم مَعدودونَ في حَضرَةِ القُدسِ المُقَدَّسَةِ بِتقديسِ اللّه، فَهُم يَتَلَقَّونَ الأمرَ مِنَ اللّه بِدونِ وساطَةٍ، وهُم دائِبونَ عَلَى عِبادَتِه، فَكَأنَّهُم في حَضرَةِ اللّه"[5]؛ إذ: "شبَّه الهيئةَ المأخوذةَ من المَلائكَةِ وقُربَهم من اللّه تَعالَى بحسبِ التَّجرُّدِ عنِ العلائقِ الجسمانيَّةِ بالهيئةِ المُنتزَعَةِ عن أشخاصٍ وقُرْبِهم من المَلِكِ العظيم، بحَيْثُ يقبلُ شفاعتَهم، ويخصُّهُ بأنواعِ الكرامةِ، فاستُعمِلَ ما هو للمشبَّه به في المشبَّه"[6]، فالعبوديَّةُ على القراءةِ الأولى حقيقيَّةٌ، والعنديَّةُ على القراءةِ الثّانية مجازٌ، "أي: عنديَّةُ منزلةٍ ومكانةٍ لا مَنزلٍ ومَكانٍ"[7]، ولا يبعُدُ أن تكونَ عنديَّتُهم

(1) الحنبلي، فتح الرحمن: 6/ 211، وابن الجزري، النشر: 2/ 368.
(2) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 4/ 67.
(3) الثّعلبي، الكشف والبيان: 8/ 331.
(4) الثّعلبي، الكشف والبيان: 8/ 331.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 182.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 17/ 298.
(7) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 268.

للّه تعالى كنايةً عن الخضوعِ لأمرِهِ يُلبّونَ ما يريدُ منهم، ويخضَعون لما يحكُمُ بهِ.

دلالةُ الجملةِ الاعتراضيَّةِ: ﴿أَشَهِدُواْ ...﴾:

الحكمُ على الشَّيءِ قد ينبَعُ من الشُّهودِ له والحضورِ عندَهُ

عبَّر النَّظمُ الكريم بالجملةِ المُعترضةِ: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾ بينَ جملةِ: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾، وجملةِ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾؛ للرَّدِّ على دَعواهم أنوثةَ الملائكة؛ إذ الحكمُ على الشَّيءِ قد ينبَعُ من الشُّهودِ له والحضورِ عندَهُ، والحاكمونَ بأنوثةِ الملائكةِ كانوا غائبينَ عن مَشهدِ خلقِ الملائكة، فلم يُدركوا خلقَ اللّه تعالى لهم، فكيف يتسنَّى لهم الحكمُ بالأنوثة مع أنَّهم لم يروا زمنَ تخليقهم؟ وبذا بطلَ السَّندُ الحسيُّ على أنوثتِهم، كما بطلَ السَّندُ العقليُّ؛ إذِ الملائكةُ بقَضِّهم وقضيضِهم عبادٌ للرَّحمن لا يَعصونَ أمْرَهُ، ويفعلونَ ما يُؤمَرونَ.

دلالةُ الاستفهامِ في: ﴿أَشَهِدُواْ﴾:

الحاكمُ بالتَّخمينِ يَستحِقُّ التَّوبيخَ والتَّهوين

تصدَّرَ الجملةَ الاعتراضيَّةَ الاستفهامُ الإنكاريُّ التَّوبيخيُّ في قولِهِ تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على بُطلانِ دَعواهم أنوثةَ الملائكةِ فَضْلًا عن كونِهم بناتٍ للّه تعالى، وللتَّوبيخِ على إصدارِ حُكمٍ لم يَرَوا وقتَ حُدوثِه، فيكونُ رَجْمًا بالغيبِ وتخمينًا موجبًا للتَّهوينِ مِن شأنِه، فهذا: "استفهامٌ فيه نفيٌ، يعني: لم يَشهَدوا خَلْقَهم على وجهِ التَّوبيخِ والتَّقريع"[1]، "بمعنى أنَّهم يقولونَ ذلك من غيرِ أن يَستندَ قولُهم إلى عِلْم، فإنَّ اللّه لم يضطرَّهُم إلى علم ذلك، ولا تطرَّقوا إليه باستدلالٍ، ولا أحاطوا بهِ عن خبرٍ يوجِبُ العِلْمَ، فلم يبقَ إلّا أن يُشاهدوا خلقَهُم، فأُخبروا عن هذه المُشاهدة"[2].

(1) السّمرقندي، بحر العلوم: 3/ 254.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 244.

دلالةُ الفعلِ (شَهِدوا):

انتفاءُ المشاهدة يستلزم الجهالة

عبَّرَ النَّظمُ بالفعل (شَهِدوا) في قولِهِ: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾، وهو مِنَ الشُّهودِ بمعنى الحضور لا مِن الشَّهادة، أي: أَحَضَروا خلْقَ اللّه تعالى إيّاهم، فشاهدوهُم إناثًا حتى يَحكموا بأنوثتهم، فإنَّ ذلك إنَّما يُعلَمُ بالمُشاهدة، وهو تجهيلٌ لهم وتهكُّمٌ بهم، فإنَّهم إنَّما سَمِعوه من آبائهم، وهم أيضًا كذّابون جاهلونَ، وفيه تخطئةٌ للمنجِّمين، وأهلِ الحِكمة المُمَوِّهةِ في كثيرٍ من الأمور، فإنَّهم بعقولهم القاصرةِ حَكَموا على الغيب[1].

نكتةُ توجيهِ القِراءاتِ في: ﴿أَشَهِدُواْ﴾ وبلاغتها:

الاستفهامُ عنِ الرُّباعيِّ المجهولِ والثُّلاثيِّ المَعلوم

في قولِهِ تَعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾ "قَرَأ نافِعٌ وأبو جَعفَرٍ بِهَمزتَين - أولاهُما مَفتوحَة والأُخرَى مَضمومَةٌ - وسُكونِ شينِ ﴿أَؤُشۡهِدُواْ﴾ مَبْنِيًّا لِلنّائِب، وعَلى هَذِهِ القِراءَةِ، فالهَمْزَةُ لِلاستِفهامِ وهو لِلإنكارِ والتَّوبيخِ، وجيءَ بِصيغَةِ النّائِبِ عَنِ الفاعِلِ دونَ صيغَةِ الفاعِلِ؛ لأنَّ الفاعِلَ مَعْلومٌ أنَّهُ اللّه تَعالَى؛ لأنَّ العالَمَ العُلويَّ الَّذي كانَ فيه خَلْقُ المَلائِكَةِ لا يَحْضُرُهُ إلّا مَن أمَرَ اللّه بِحُضورِه، والمَعنى: أأَشْهَدَهُمُ اللّه خَلْقَ المَلائِكَةِ؟.

وقَرَأَهُ الباقونَ بِهَمزَةٍ مَفتوحَةٍ مبنيًّا للفاعل، فالهَمزَةُ لاستِفهامِ الإنكارِ دَخَلَت عَلى فِعلِ شَهِدَ، أي: ما حَضَروا خَلْقَ المَلائِكَة عَلى نَحوِ قَولِهِ تَعالَى: ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ١٥٠﴾ [الصافات: 150]"[2].

دلالةُ المُضارعِ المَجهولِ المقرونِ بالسّين: ﴿سَتُكۡتَبُ﴾:

الكتابةُ للأعمال والأقوالِ دالَّةٌ على التَّهديدِ بالحِساب

عبَّرَ النَّظمُ بالفعلِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لكتابةِ شَهادتِهم المُزيَّفةِ ودَعواهُم الكاذبةِ بأنَّ الملائكةَ إناثٌ وبناتٌ للّه تعالى، واختيرَتْ صيغةُ الفعلِ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 208.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 368، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 183.

المجهول؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأهمَّ كتابةُ تلك الدَّعوى الجوفاءِ دونَ الاهتمامِ بكاتبِها، وإن كانَ معلومًا من السّياق؛ لأنَّ الغرضَ التَّهديدُ والإعلامُ بالتَّسجيل عليهم الدّالِّ على وجودِ محاسبةٍ على ذلك الأمر المُسجَّلِ عليهم، واقترنَتِ (السّينُ) المُؤكِّدةُ الدّالَّةُ على الوعدِ الَّذي لا يتخلَّفُ بتسجيلِ ذلك وكتابتِهِ؛ ليكونَ التَّهديدُ مؤكَّدًا ثابتًا؛ لعلَّهم يَرجِعونَ عن دَعواهُم، "ويحتمِل أن تكونَ للاستعطافِ إلى التَّوبة"[1]، فـ"إنَّما ضُجَّ إلى الاستقبال، فأتى بالسّينِ الدّالَّةِ عليه؛ ليتضمَّنَ الكلام معنى انفساحِ الوقت للتَّوبةِ، وبناءِ الرَّجاء على الاستعطافِ لقبولِها قبلَ كتابةِ ما قالوا[2].

محلُّ جملةِ ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾:

الإنكارُ المَمزوجُ بالوعيد يشتملُ على التَّوعُّدِ والتَّهديدِ

فصلَ النَّظمُ جملةَ: ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ عمّا قبلها؛ لما بينهما من علاقةِ كمالِ الاتِّصال؛ إذ محلُّ هذه الجملةِ بدلُ اشتمالٍ ممّا قبلَها؛ لأنَّ مَفادَ قولِهِ: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾ الإنكارُ الدّالُّ على الوعيد، ومفادَ هذه الجملةِ التَّوعُّدُ بالعذابِ والتَّهديدُ لهم عن تلك الدَّعوى الكاذبة[3]، وفائدةُ الإبدالِ تقريرُ مَعنى المؤاخذةِ على الأعمالِ والأقوالِ وتأكيدُ ذلك التَّهديدِ والوعيد.

دلالةُ الكنايةِ في: ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾:

مِن لوازمِ كتابةِ الدَّعوى الشَّنيعةِ المُؤاخذةُ عَليها

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ بكتابةِ الشَّهادةِ الواردةِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ عنِ الحسابِ والمُؤاخذةِ والعقاب[4] على تلك الشَّهادةِ الكاذبةِ المدَّعيةِ أنَّ الملائكةَ إناثٌ، وقد اتَّخذَهُم اللّهُ بناتٍ له تعالى، وإن كان المولى تعالى لا يحتاجُ لكتابةِ عمَلٍ حتى يُحاسِبَ عليه؛ إذ مجرَّدُ القولِ مُسجَّلٌ في عِلمِهِ؛ لكنَّه تعالى يُخاطِبُ العباد

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 209.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 73.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 184.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 184.

على وفقِ ما يَفهمون؛ إذ جرتِ العادةُ لإقامةِ الحجَّة أنَّ التقييدَ بالكتابة يجعلُ المقيَّدَ حُجَّةً على صاحبِهِ؛ ليكونَ مُؤاخَذًا به، فأطلقَ النَّظمُ الملزومَ، وهو الكتابةُ للشَّهادة، وأرادَ اللّازم منها، وهي المُحاسَبةُ عليها.

دلالةُ الاستعارةِ في: (شَهادة):

التَّـهـكُّـمُ نـذيـرٌ لـيـعـودَ المـدَّعـي لرُشدِهِ

سمَّى النَّظم الدَّعوى الكاذبةَ الخاليةَ عن المشاهدةِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ شهادةً، مع أنَّها مجرَّدُ دَعوى لم يَشهَدِ المدَّعي شيئًا من أحداثِها، وهو خلقُ اللّٰه تعالى الملائكةَ على سبيلِ التَّشبيهِ للدَّعوى الخاليةِ منَ المُشاهدة بالدَّعوى المُشاهَدةِ أحداثُها تهكُّمًا بهم، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تهكُّميَّةٌ؛ لعلَّهم عندما يسمعونَ بالاستخفافِ في دعواهم الكاذبةِ الخاليةِ منَ المُشاهدة يعودونَ إلى الحقِّ والحقيقةِ، ويتركونَ الزَّيفَ والدَّجَل، وهنالك أيضًا جناس الاشتقاقِ بينَ ﴿أَشَهِدُواْ﴾ و﴿شَهَٰدَتُهُمۡ﴾، فإنَّ الأوَّلَ من الحُضور والثّاني من الكلامِ الَّذي يُتحمَّلُ، ويُطلَبُ تأديتُهُ.

دلالةُ العطفِ في: ﴿وَيُسۡـَٔلُونَ﴾:

تـوالي الكِنايتينِ للتَّأكيدِ

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الفعليَّةَ: ﴿وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ على الجملةِ الفعليَّةِ: ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾؛ تأكيدًا لدلالةِ الكنايةِ اللّازمةِ من كتابةِ أقوالِهم وأعمالِهم، وهو الحسابُ على تلك الشَّهادةِ الكاذبة، فيكونُ في المعطوفِ كنايةٌ تأكيديَّةٌ أُخرى على المُؤاخذة وإنزالِ العقاب بهم؛ إذ اللّازمُ من الكتابةِ إيقاعُ العذابِ، واللّازمُ من السُّؤالِ إنزالُهُ، فتكونُ الكنايةُ الثّانيةُ مُؤكِّدةً للكنايةِ الأولى مُحقِّقةً لها.

دلالةُ بناءِ الفعلِ المُضارِعِ للمجهولِ: ﴿وَيُسۡـَٔلُونَ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالفعلِ المُضارعِ في قولِهِ: ﴿وَيُسۡـَٔلُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ للسُّؤالِ المكنَّى به عن الحسابِ على جميع

أقوالِهم الكاذبةِ لا سيَّما دَعواهم أنوثةَ الملائكةِ وشهادتَهم المُزيَّفة بذلك، كما دلَّ بناءُ الفعلِ للمجهولِ على التَّركيزِ على الحدثِ؛ لأنَّه مناطُ التَّهديدِ والوعيد، وإن كان السّائلُ مَعلومًا من السّياق؛ إذ ليس المرادُ بالسُّؤال الاستفهامَ لغرضِ الحصولِ على الجواب، بل التَّهديدُ والتَّخويفُ لعلَّهم يرجعونَ إلى الحقِّ المُبين.

بناءُ الفعلِ للمجهولِ للتَّركيزِ على مناط التَّهديدِ والوعيد

دلالةُ (الواوِ) في: ﴿وَقَالُواْ﴾:

تعليلُ الكُفّار من أقبحِ الأعذار

عطفَ النَّظمُ قولَه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ على قولِهم السّابق: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٩﴾ [الزخرف: 9]، فقد اعترَفوا بأنَّ اللّه هو الخالقُ، وإنَّما عبدوا غيرَهُ بمشيئتِه وإرادته، وذلك دليلٌ على رِضاه عن صحَّة إشراكِهم، قال ابن عاشور: "فَحُكيَ هُنا ما استَظْهَروهُ من مَعاذيرِهم عِندَ نُهوضِ الحُجَّةِ عَلَيهم، يَرومونَ بها إفحامَ النَّبيِّ ﷺ والمُسلمينَ، فَيقولونَ: لَو شاءَ اللّه ما عَبَدْنا الأصنامَ، أي: لَو أنَّ اللّه لا يُحِبُّ أن نَعبُدَها؛ لَكانَ اللّه صَرَفَنا عَن أن نَعبُدَها، وتوهَّموا أنَّ هَذا قاطِعٌ لجدالِ النَّبيِّ ﷺ لَهُم؛ لأنَّهُم سَمِعوا من دينِهِ أنَّ اللّه هو المُتَصَرِّفُ في الحَوادِثِ، فَتَأوَّلوهُ عَلَى غَيرِ المُرادِ مِنهُ"[1].

دلالةُ ﴿لَوۡ﴾ الشَّرطيَّة:

القياسُ الشَّرطيُّ الواهِمُ في المقدِّمات

استعملَ النَّظمُ الأداةَ الشرطيَّةَ ﴿لَوۡ﴾ على لسانِ المُشركينَ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ للاستدلالِ على صحَّة عِبادتهم؛ إذ يلزمُ من تعليقِ عدم العِبادةِ للأصنام على المَشيئة أنَّ العبادةَ لها في الواقعِ كانَ بتأثيرِ المشيئةِ، وأنَّ المشيئةَ دليلُ الرِّضا والقبولِ والاستحسانِ، فنتجَ عن عبادتهم لها رِضا اللّه تعالى عن شِركِهم، قال ابن عاشور: "وهَذا القَولُ الصّادِرُ مِنهُم يَنتَظِم مِنهُ قياسٌ استِثنائيٌّ أن يُقالَ: لَو شاءَ اللّه ما عَبَدْنا الأصنامَ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 184.

بِدَليلِ أنَّ اللّه هو المُتَصَرِّف في شؤوننا وشؤون الخَلائِق، لَكنّا عَبَدْنا الأصنامَ بِدَليلِ المُشاهَدَةِ، فَقد شاءَ اللّه أن نَعبُدَ الأصنامَ"[1].

دلالةُ فعلِ المَشيئةِ:

لا يـلـزَمُ مـنَ المَشيئةِ الرِّضا والقَبول

استعملَ النَّظمُ فعلَ المشيئةِ على لسانِ المُشركينَ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ ما يَشاؤُهُ اللّه، ويُريدُهُ، فهو خيرٌ، وهنا يكمُنُ سوءُ الوهمِ والتَّصوُّرِ؛ إذِ المشيئةُ والإرادةُ أعمُّ من الرِّضا وعدمِ الرِّضا، فقد يشاءُ اللّه، ويريدُ ما لا يَرضاهُ ولا يُحبُّهُ، فمَثارُها: "تَخْليطُ العامَّةِ والدَّهْماءِ من عَهدِ الجاهِليَّةِ بَينَ المَشيئَةِ والإرادة، وبَين الرِّضا والمَحَبَّةِ، فَبَنَوا عَلَى ذَلكَ تَخليطًا بَينَ مَشيئَةِ اللّه بِمَعنى: تَعَلُّق إرادَتِهِ بِوقوعِ شَيءٍ، وبَينَ مَشيئَتِهِ الَّتي قَدَّرَها في نِظامِ العالَمِ مِن إناطَةِ المُسَبَّباتِ بِأسبابِها، واتِّصالِ الآثارِ بِمُؤَثِّراتِها؛ فَمَشيئَةُ اللّه بِالمَعنى الأوَّلِ يَدُلُّ عَلَيها ما أقامَهُ مِن نِظامِ أحوالِ العالَمِ وأهلِه، ومَشيئَتُهُ بِالمَعنى الثّاني تَدُلُّ عَلَيها شرائعُهُ المَبعوثُ بِها رُسُلُهُ"[2]، وتعبيرُهم عن المشيئةِ بالفعل الماضي دالٌّ على تحقُّقِ الفعلِ ووقوعِه.

نكتةُ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾:

تدليسُ المُشركينَ عـذرٌ للانحرافِ عنِ الموحِّدين

في قوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ استعملَ النَّظمُ لفظَ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ دون سائرِ الأسماءِ الجليلة؛ لبيانِ أنَّ المشيئةَ الإلهيَّة قد أرادَتْ عبادةَ الأصنامِ لعنوانِ الرَّحمة فيها، التي لا يَليقُ بها أنْ تَترُكَ النّاسَ يَعبدونَ الخطأَ، ويعكفونَ عليه، قال البقاعيُّ: "لأنَّ عمومَ الرَّحمة يَمنَعُ الإقرارَ على ما لا يَنبغي"[3]، وما هو إلّا تدليسٌ منهم؛ إذ رحمتُهُ وإحسانُهُ وإرادتُهُ الخيرَ بالنّاس لا تَقتضي عدمَ إرادتِهِ للشَّرِّ، وأنّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 185.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 406.

يريد ما يَرضَى وما لا يَرضى لعبادِه، ولذا قيل: "إسنادُ المشيئةِ إلى اللّه إيمانٌ وتوحيدٌ، إنْ صدرَ منَ المُؤمنِ، وإلّا فكفرٌ وشِركٌ؛ لأنَّه منَ العناد والعصبيَّةِ والجهلِ بحقيقةِ الأمرِ، فلا يُعتبَرُ"[1].

دلالةُ ضَميرِ الغَيبةِ في: ﴿مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾:

المَعبودُ الحقُّ لا يوصَفُ بذكورةٍ ولا أُنوثةٍ

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بضميرِ الغَيبةِ للعاقلِ مَجموعًا في قولِه تعالى: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾؛ ليعودَ إلى كلِّ المعبوداتِ الباطلةِ بطريقِ التَّغليب، "فَضَميرُ الغَيبَةِ في ﴿مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ عائِدٌ إلَى مَعلومٍ مِنَ المَقامِ ومِن ذِكرِ فِعلِ العِبادَةِ؛ لأَنَّهُم كانوا يَعبُدونَ الأصنامَ، وهُمُ الغالِبُ، ولَيسَ عائِدًا إلَى المَلائِكَةِ؛ لأَنَّهُم كانوا يَزعُمونَ المَلائِكَةَ إناثًا، فَلَو أرادوا المَلائِكَةَ؛ لَقالوا: ما عَبَدناها، أو ما عَبدناهُنَّ"[2]، ولذا قالَ "مجاهد: يعني الأوثان"[3]، سواءٌ كانوا يَعتقِدونها إناثًا أو ذُكورًا؛ لأنَّ الأصلَ إذا اجتمعَ مذكَّرٌ ومؤنَّثٌ، وأُريدَ عَوْدُ الضَّميرِ إليهما، فإنَّ المذكَّر يُغلَّبُ على المؤنَّث، وفيه دلالةٌ على تشريفِ المذكَّرِ على المؤنَّث، ولو كانَتْ آلهةً حقَّةً ما وُصِفَتْ بذكورةٍ ولا أُنوثةٍ، ويحتملُ أنَّهم لمّا صوَّروا الملائكةَ بصورِ الأصنامِ، وهي مذكَّرةٌ باللَّفظ؛ عبَّروا عنها بضميرِ المذكَّر باعتبارِ صورِها الصَّنَميَّة، وإنَّما استَعملوا ضميرَ العاقلِ معَها؛ لأنَّهم يَعتقِدونَها تَسمَعُ، وتعقِلُ.

فصلُ جملةِ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾:

سَلْبُ العِلمِ واليقينِ كافٍ في جوابِ الظّالمين

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾؛ لعلاقةِ شبهِ كمالِ الاتِّصال؛ إذ نشأ سؤالٌ بعدَ قياسِهِم الفاسد، مفادُهُ: بماذا أُجيبوا عنه؟ فجاءَ الجوابُ بنفي العلمِ عنهُم؛ "لأنَّ مُقَدَّمَ القياسِ الاستِثنائيِّ، وهو ﴿لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ مَبنيٌّ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 212.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 184.
(3) الثّعلبي، الكشف والبيان: 8/ 331.

عَلَى التِباسِ المَشيئَةِ التَّكوينيَّةِ بالمَشيئَةِ التَّكليفيَّةِ، فَكانَ قياسُهُم خليًّا عَنِ العِلْمِ، وهو اليَقينُ"[1]، و"دالًّا على أنَّ أصولَ الدّينِ لا يُتكلَّمُ فيها إلّا بقاطِعٍ"[2].

دلالةُ تقديمِ الخبرِ ﴿لَهُم﴾:

غالبُ استدلالاتِ المُشركينَ ظنّيَّةٌ

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ شِبهَ الجُملةِ الواقعةِ خبرًا مقدَّمًا على المبتدأ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾؛ للدَّلالةِ على الانحصارِ بعدمِ العِلْمِ واليقينِ لهم دونَ مَن سواهم مِن المؤمنينَ، فإنَّهم يعلمون أنَّ هنالك فرقًا بينَ المشيئةِ من جهةٍ والقبولِ من جهةٍ أخرى، أو بين المشيئةِ التَّكوينيَّةِ والمشيئةِ التَّكليفيَّةِ.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ المقدَّم:

شناعةُ الجُرمِ المُقتَرَف تتطلَّبُ التَّعظيمَ والتَّبعيدَ

عبَّر النَّظمُ الكريم باسم الإشارة (ذلك) مُقدَّمًا على متعلَّقه في قولِه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾؛ للدَّلالةِ على انحصارِ عدمِ اليقينِ بخصوصِ الدَّعوى المُشارِ إليها من أنَّ اللهَ تعالى قد شاءَ عِبادتَهم، وهذا دليلُ رِضاهُ عليها، وإنَّما استعملَ النَّظمُ اسمَ الإشارةِ للبعيدِ؛ لبيانِ شَناعةِ دَعواهُم؛ إذ كيف يَرضَى اللهُ بالشِّركِ والعِبادةِ لمَن دونَهُ تعالى.

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾:

سَلبُ العِلْمِ كلِّيًّا مظهرٌ شَناعةَ الدَّعوى الظّالمة

أوردَ النَّظمُ المبتدأ مؤخَّرًا نكرةً ومسبوقًا بـ﴿مِنۡ﴾ الاستغراقيَّة الزّائدةِ بعدَ النَّفيِ في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾؛ للدَّلالةِ على سلبِ كلِّ فردٍ من أفرادِ اليقينِ على سبيلِ الكمالِ في دَعواهم رضا اللّهِ تعالى بإشراكِهم؛ إذِ النَّكرةُ في مَعرِضِ النَّفيِ دالَّةٌ على العُمومِ، وأفادَتْ ﴿مِنۡ﴾ الزّائدةُ دلالةَ التَّوكيدِ على سَلْبِ العِلْمِ بالكلِّيَّةِ عنهم، مع التَّنصيصِ على إرادةِ الاستغراقِ، فيكونُ تجهيلًا كاملًا لهم في تلك الدَّعوى الظّالمةِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 186.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 406.

نكتةُ فصلِ: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا﴾:

سلبُ العلمِ يورِّث العيشَ في ظِلالِ الوَهْمِ

فصلَ النَّظمُ الكريمُ جملةَ: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ عن سابقتِها؛ لعلاقةِ كمالِ الاتِّصالِ بينهُما؛ إذِ الجملةُ الثّانيةُ بمنزلةِ عطفِ البيانِ لما تقدَّمَها؛ لأنَّ سلبَ العلمِ عنهم يدلُّ على حالةٍ من الوهمِ والظُّنونِ الباطلةِ التي تَنتابُهُم في دَعواهم صحَّةَ الشِّركِ باللّٰه تعالى، قال البقاعيُّ في إيلاءِ النَّفي للنَّفي: "ولمّا كان العلمُ قد يَنتفي، والمعلومُ ثابتٌ في نفسِهِ؛ قالَ نافيًا لذلك: ﴿إِنۡ هُمۡ﴾، أي: ما هُم ﴿إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾، أي: يكذِبونَ في هذه النَّتيجة"[1].

دلالةُ القصرِ في: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا﴾:

أهلُ الأوهامِ في الاعتقادِ مَسجونونَ داخلَ ظنونِهم الفارغة

اختارَ النَّظمُ أسلوبَ القصرِ بالنَّفي و﴿إِلَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على قصرِ الموصوفِ على الصِّفةِ ادِّعاءً؛ مبالغةً في تصويرِ وهْمِهم الباطل واستدلالِهم الخاطئ، فقد انحصَروا في الحَزْرِ والتَّخمين، ولم يُفارقوهُ في أمورِ عبادتِهم حتَّى كأنَّهم سَجَنوا أنفُسَهم داخِلَهُ.

دلالةُ لفظِ: ﴿يَخۡرُصُونَ﴾:

المُشركونَ يَعتاشونَ على التَّخمينِ في أُصولِ الدّينِ

استعملَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿يَخۡرُصُونَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على حالةِ التَّوهُّمِ الشَّديد في أصولِ الدّينِ النّاجمِ عن أدلَّةٍ قائمةٍ على الحَزْرِ والتَّخمين؛ إذ الخَرْصُ: "الكذبُ، وكلُّ قولٍ بالظَّنِّ والتَّخمينِ، سواءٌ طابقَ الواقعَ أم لا، أي: ما هُم إلّا كاذبونَ فيما قالوا"[2]، والعقيدةُ الصَّحيحةُ لا تقومُ على الرّاجحِ فَضْلًا عن مجرَّدِ التَّخمين؛ لأنَّ بابَ العقيدةِ يحتاجُ إلى الأدلَّةِ اليقينيَّةِ دون التَّخميناتِ والظُّنونِ الوهميَّة.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 407.

(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 211.

التَّشابه اللَّفظيُّ بين كلٍّ من: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾، **و:** ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾:

الـخـرصُ مقابلُ الكذبِ الخالص، والظَّنُّ مقابلُ الكذبِ المَخلوطِ بالصِّدق

عبَّرَ النَّظمُ الكريم هنا بنَفْيِ العِلْم عنهم وإثباتِ الخَرْصِ لهم، في حينِ عبَّر في (الجاثية) بنفيِ العلْم عنهم وإثباتِ الظَّنِّ لهم، وإنَّما: "قاله هنا بلفظِ ﴿يَخۡرُصُونَ﴾، وفي الجاثية بلفظ ﴿يَظُنُّونَ ٢٤﴾ [الجاثية: 24]؛ لأنَّ ما هنا مُتَّصِلٌ بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الآية، أي: قالوا: الملائكةُ بناتُ اللّه، وأنَّ اللّه سبحانَه قد شاءَ منا عبادتَنا إيّاهُم، وهذا كذبٌ، فناسَبَهُ ﴿يَخۡرُصُونَ﴾، وما هناك مُتَّصِلٌ بخَلْطِهم الصِّدقَ بالكذبِ، فإنَّ قولَهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ [الجاثية: 24] صدقٌ، وكذَبوا في إنكارِهم البعثَ، وقولِهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24]، فناسَبَهُ ﴿يَظُنُّونَ ٢٤﴾ [الجاثية: 24]، أي: يَشُكّونَ فيما يَقولونَ"[1].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الجَعْل والحُكم والتَّسمية:

الحُكمُ يُقصَدُ منهُ الإثباتُ بخلافِ التَّسميةِ، والجعلُ إيجادٌ لَهُما

(الحُكمُ) هو إثباتُ شيءٍ لشيءٍ آخَرَ، ويدلُّ على معنى القوَّةِ والإحكامِ في الأمر، و(التَّسميةُ) هو إعطاءُ وصفٍ واسمٍ لشيءٍ، وكلٌّ من الحُكم والتَّسميةِ راجعانِ إلى القولِ، لكنَّ الحُكمَ يُقصدُ منه الإثباتُ، بخلاف التَّسميةِ الَّتي يَنشأ عنها الإثباتُ بلا قَصْدٍ، وأمّا (الجعلُ)؛ فهو الإيجادُ لهما، ولمّا كان كلٌّ مِنَ الحكم والتَّسمية حاصلَينِ بالجعلِ؛ ساغَ استعمالُهُ بمعناهما، لكنَّه ينفردُ عنهما بأنَّه تصييرٌ وقلبٌ للحقائقِ عند التَّسميةِ على سبيلِ الكُلفةِ والابتداعِ.

المشيئة والإرادة:

تطلقُ المشيئةُ في اللُّغةِ على الإيجادِ، ومنه الشَّيءُ، وهو الموجودُ، وأمّا الإرادةُ؛ فهي الطَّلبُ، والمرادُ هو المَطلوبُ، وكلُّ موجودٍ مطلوبٌ،

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 211.

المَشيئةُ أعمُّ من وجهٍ من الإرادةِ اصطلاحًا

وليس كلُّ مطلوبٍ مَوجودًا، فالعلاقةُ بينهما لغةً العمومُ المُطلق، لكنَّهما في اصطلاحِ المُتكلِّمين يكونُ بينَهما عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ؛ إذ مشيئةُ اللهِ عبارةٌ عن تجليةِ الذّاتِ والعنايةِ السّابقةِ لإيجادِ المعدومِ أو إعدامِ الموجودِ، وإرادتُهُ عبارةٌ عن تجليتِهِ لإيجادِ المعدوم، فالمشيئَةُ أعمُّ من وجهٍ من الإرادةِ، وقال الجامي: بتغايُرِ المشيئةِ والإرادةِ؛ إذ إنَّ المشيئَةَ: توجُّهُ الذاتِ الإلهيَّةِ نحو حقيقةِ الشَّيءِ ونفسِه، اسمًا كان ذلك الشَّيءُ أو صفةً أو ذاتًا، والإرادةَ: تعلُّقُ الذّاتِ الإلهيَّةِ بتخصيصِ أحدِ الجائزينِ من طرَفَي المُمكنِ أعني وجودَهُ وعدمَهُ، فالإرادةُ إذا تعلَّقت بالماهيَّة تُرجِّحُ تارةً جانبَ وجودِه وتارةً جانبَ عدمِه، بخلاف المشيئةِ، فإنَّ مُتعلَّقها نفسُ الماهيَّةِ من غير ترجُّحِ أحدِ جانبَيها[1].

(1) التهانوي، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 2/ 1553.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ٢١ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ٢٢﴾

[الزّخرف: 21 - 22]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

عـدمُ امـتـلاكِ البُرهان العقليِّ مُـؤذِنٌ بـعـدمِ امتلاكِ القاطِعِ النَّقليِّ

لمّا أبطلَ النَّظمُ بالدَّليلِ العقليِّ صحَّةَ عبادتِهم الأوثانَ، وأبطلَ دَعواهم أنَّ اللّه تعالى قد شاءَ مشيئةَ رِضًا لعبادتِهم لها بنفيِ العِلْمِ اليقينيِّ عنهم، وأبطلَ دَعواهُم أنَّ الملائكةَ بناتُ اللّه تعالى بأنَّهم لم يشهدوا خلقَهم حِسًّا، وما يَستلزِمُهُ عَقلًا من نقصانٍ في حقيقةِ الألوهيَّة؛ بيَّنَ النَّظمُ أنَّه لا سندَ لهم على تلك الدَّعاوى الباطلةِ مِنَ النَّقلِ أيضًا، فكيفَ يُقدِمونَ على أمرٍ في حقِّ اللّه تعالى لم يُنقَلْ، ولم يأمُرِ اللّه تعالى به، وإنْ كان لا سندَ لهم من الحسِّ والعقلِ والنَّقل، فلم يبقَ لهم إلّا التَّقليدُ للآباءِ على ضَلالاتِهم، والتَّقليدُ لا يُغني من الحقِّ شَيئًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾: (مسك) أصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى حَبْسِ الشَّيءِ أو تَحَبُّسِهِ[1]، وفي فلانٍ إمساكٌ ومَساكٌ ومَسكةٌ: كلُّه من البُخْلِ، وأمسكتُ الشَّيءَ، وتمسَّكتُ به، واستمسَكْتُ به، كلُّه بمعنى: اعتصمْتُ به، وأمسَكْتُ عن الكلامِ، أي: سَكَتُّ[2]، واستمسَكْتُ بالشَّيء؛ إذا تحرَّيتَ الإمساكَ، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف: 43]، وقال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾[3]، والمرادُ به في الآية: مُبالِغونَ في التَّمسُّك بالكتابِ مُتعلِّقونَ به تعلُّقًا شديدًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسك).
(2) الخليل، العين، والجوهري، الصّحاح: (مسك).
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 768.

2) ﴿أُمَّةٍ﴾: (أمم) أصلٌ واحِدٌ يَتَفَرَّعُ مِنهُ أربَعةُ أبوابٍ، وهيَ الأصلُ والمَرجِعُ والجَماعَةُ والدّينُ[1]، وأُمُّ الشَّيء: أصلُهُ، والأُمَّةُ: الجماعةُ، قال الأخفش: هو في اللَّفظ واحدٌ، وفي المعنى جمعٌ، وكلُّ جنس من الحيوان أمَّةٌ، والأُمَّةُ: الطَّريقةُ والدّينُ، يقال: فلانٌ لا أُمَّةَ له، أي: لا دينَ له، ولا نِحْلَةَ له[2]، ويقالُ لكلِّ ما كان أصلًا لوجودِ شيءٍ أو تربيتِهِ أو إصلاحِهِ أو مَبدئِهِ أمٌّ، والأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمَعُهم أمرٌ مّا إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اختيارًا، وجمعُها: أمم، وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]، أي: صنفًا واحدًا وعلى طريقةٍ واحدةٍ في الضَّلالِ والكُفر، وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، أي: على دينٍ مُجتمِعٍ[3]، والمرادُ به في الآية: النِّظامُ والطَّريقةُ والدّينُ المُجمَعُ عليهِ.

3) ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾: (أثر) لَهُ ثَلاثَةُ أُصولٍ: تَقْديمُ الشَّيءِ، وذِكرُ الشَّيءِ، ورَسْمُ الشَّيءِ الباقي[4]، وأثَرُ الشَّيء: حصول ما يدلُّ على وجوده، يقال: أثَرَ وأثَّر، والجمعُ: الآثار، قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: 27][5]، والأثْرُ: بقيَّةُ ما تَرى من كُلِّ شيءٍ وما لا يُرَى بعدَ ما يُبْقي عُلْقَةً[6]، وتقولُ أيضًا: خَرَجتُ في إثره، أي: في أَثَره، والأثَرُ بالتَّحريك: ما بقيَ مِن رَسْمِ الشَّيءِ وضربةِ السَّيفِ، وسُنَنُ النَّبيِّ ﷺ: آثارُهُ، واستأثَرَ فلانٌ بالشَّيء، أي: استبدَّ به[7]، وأثَرُ الدّارِ بَقيَّتُها، والجَمْعُ آثارٌ مِثْلُ سَبَبٍ وأَسْبابٍ[8]، والمرادُ به في الآية: أخبارُهُم والحِكاياتُ الَّتي تُتناقَلُ عَنهُم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

أنكرَ اللّهُ سبحانَه على المشركينَ عبادتَهم للملائكةِ بلا دليلٍ ولا برهانٍ، وأبطلَ دَعواهم، أي: بل أأنزَلْنا عليهم، وجِئناهم بكتابٍ من قبلِ القرآنِ نطقَ بصحَّةِ ما يدَّعونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمم).
(2) الجوهري، الصّحاح: (أمم).
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 85 - 86.
(4) ابن فارس، المقاييس: (أثر).
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 62.
(6) الخليل، العين: (أثر).
(7) الجوهري، الصّحاح: (أثر).
(8) الفيومي، المصباح المنير: (أثر).

تقليدُ الآباءِ في أُصولِ الدّينِ ضَلالٌ مُبين

من هذا الباطلِ، فهُم بهذا الكتابِ مُتمسِّكونَ؟ لم يثبُتْ أنَّ لديهم كتابًا بذلك يَستمسِكونَ به، أي: إنَّهم لم يأتوا بحُجَّة أو دليلٍ من النَّقلِ أوِ العقلِ يؤيِّد ما ذهبوا إليه، وزَعَموه، بل إنَّهم اعترفوا بأنَّه لا سندَ لهم ولا حجَّةَ لديهم سِوى أنَّهم قلَّدوا آباءَهم وأسلافَهم فيما اعتقدوهُ، وهؤلاءِ بهذا التَّقليد قد تَرَكوا التَّبصُّر والتَّدبُّرَ فيما يحيطُ بهم من آيات بيِّناتٍ، ولو تأمَّلوا لهداهم ذلك إلى أنَّ اللّه هو الحقيقُ أنْ يُعبَدَ وحدَهُ دونَ سِواه، وأنْ يُنزَّهَ عن الأولاد ذكورًا أو إناثًا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بـ﴿أَمۡ﴾:

دَعاوى المُشركِينَ خاليةٌ من الدَّليلِ الحسّيِّ والعقليِّ والنَّقليِّ

عطفَ النَّظمُ قولَه تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا﴾ بـ﴿أَمۡ﴾ المُنقطِعةِ الدالَّةِ على الإضرابِ الانتقاليِّ كـ(بل)، "أي: بَل أأَعْطَيْناهُم كِتابًا مِن قَبْلِ القُرْآنِ بِأن يَعبُدوا غيرَ اللّه"[2]، والانتقال إمّا من قولِه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾، لنفيِ أن يكونَ قولُهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ مُستندًا إلى دليلِ النَّقل، كما نفى أن يكونَ مُستنِدًا لدليلِ العقل[3]، أو مِن قوله: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾[4]؛ لنفيِ أنْ يكونَ لهم مستنَدٌ نقليٌّ، كما نفى أن يكونَ لدَعواهم أنوثةَ الملائكةِ مستندٌ منَ الحسِّ، فقد بانَ أنَّ كلَّ دَعاويهم مفتقرةٌ إلى دليلٍ حسّيٍّ أو عقليٍّ أو نقليٍّ، قال البيضاويُّ: "كأنَّه لمّا أبدى وجوهَ فسادِها، وحكى شُبهتَهم المزيَّفة؛ نَفَى أنْ يكونَ لهم بها علمٌ من طريقِ العقل، ثمَّ أضربَ عنه إلى إنكارِ أن يكونَ لهم سندٌ من جهةِ النَّقل"[5].

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 795 - 796.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 631.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 186.
(4) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 269.
(5) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 89.

دلالةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ:

النَّفيُ بالاستفهامِ أبلغُ في الإنكارِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن النَّفي بأسلوبِ الاستفهام المقدَّرِ بعدَ (أم) العاطفة في قولِه: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا﴾؛ للدَّلالة على تنزيلِ هذا الأمرِ المنفيِّ منزلةَ الأمرِ المجهولِ الَّذي يُستفهَمُ عنه، ويرادُ معرفتُهُ مع أنَّه معلومٌ، والغرضُ من التَّنزيلِ الدَّعوةُ للمُخاطَبين إلى الجوابِ عن ذلك بالنَّفي، فيكون إقرارًا منهم على عدمِ الإيتاءِ المذكورِ معَ دلالةٍ على التَّوبيخ[1]، قال الرّازي: "والمَعنى أنَّهُم [هَل] وجَدوا ذَلِكَ الباطِلَ في كِتابٍ مُنَزَّلٍ قَبلَ القُرآنِ حَتَّى جازَ لَهُم أن يُعَوِّلوا عَلَيه، وأن يَتَمَسَّكوا به، والمَقصودُ مِنهُ ذِكرُهُ في مَعرِضِ الإنكارِ، ولَمّا ثَبَتَ أنَّهُ لَم يَدُلَّ عَلَيهِ لا دَليلٌ عَقليٌّ ولا دَليلٌ نَقليٌّ؛ وجَبَ أن يَكونَ القَولُ بِهِ باطِلًا"[2].

دلالةُ الفعلِ الماضي: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾:

التَّكذيبُ بأبلغِ نفيٍ مقطوعٍ بحصولِه وتحقُّقه

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي المنفيِّ مدلولُهُ بالاستفهامِ الإنكاريِّ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا﴾؛ دلالةً على نفيِ الإيتاءِ في الماضي؛ ليكونَ النَّفيُ مَقطوعًا بحصولِه وتحقُّقِه، ودعوةً للمُخاطَبين إلى تذكُّرِ حالِهم السّابقة، هل آتاهُمُ الله كتابًا يُقرُّهم على شيءٍ ممّا ادَّعَوه، وفي التَّعبير بفعلِ الإتيانِ دلالةٌ على الإعطاءِ والمنحِ لكتابٍ بكلِّ يُسرٍ وسُهولةٍ يُجيزُ لهم الشِّركَ.

دلالةُ الفاعلِ والمفعولِ في: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾:

تعظيمُ الفاعلِ تفخيمٌ للفعلِ المنفيِّ

عبَّر النَّظمُ بالفعلِ الماضي المُسنَدِ إلى ضميرِ العَظَمة في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ﴾؛ دلالةً على عظمةِ الفاعلِ وفَخامتِه الَّذي لم تتعلَّق قدرتُهُ بفعلِ الإيتاءِ، فيَكتسِبُ الفعلُ فخامةً؛ ليكونَ النَّفيُ أعمقَ وأشدَّ، كما تعلَّقَ الفعلُ بضميرِ الغَيبةِ الواقعِ

(1) الحنبلي، فتح الرحمن: 6/ 213.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 627.

مَفعولًا به أوَّل؛ لبيانِ غَيبتِهم عن الخطابِ وعدمِ تعقُّلِهم لفَحواه؛ إذ الأصلُ في الاستفهامِ توجيهُهُ لمُخاطَب.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿كِتَٰبًا﴾ في السّياق:

تعميمُ المنفيِّ أبلغُ في التَّكذيب

عبَّر النَّظمُ عن المفعولِ به الثّاني نكرةً في قوله تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبًا مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ دلالةً على العُموم؛ إذ النَّكرةُ في سياقِ النَّفي تفيدُ العموم، والمعنى: لم نُؤتِهم أيَّ كتابٍ من قبلُ يُقرُّهُم على شِركهم وأوهامِهم.

دلالةُ النَّعتِ بشبهِ الجُملة: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾:

استغراقُ الأزمنةِ يُؤكِّدُ الانتفاءَ ويُحقِّقُهُ

عبَّر النَّظمُ بشبهِ الجُملةِ الواقعةِ نَعتًا للنَّكرة في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبًا مِّن قَبۡلِهِۦ﴾؛ لتحديدِ زمنِ الإتيانِ للكتابِ المُؤتى لهم بأنَّه قبلَ القرآنِ الَّذي يَنهاهُم عن ذلك؛ إذ لو جاءَهم كتابٌ من قبل القرآن يُجيزُ لهم الشِّركَ؛ وقعَ التَّنافي بينَ الكتابين، ولمّا نفى إتيانَهم بكتابٍ قبلَ القرآن؛ ثبتَ عدمُ استنادِهم إلى دليل نقليٍّ تُعارِضُ آياتُهُ آياتِ القرآنِ في ذلك، وإنَّما عبَّر عن الظَّرف الزَّمانيِّ بـ﴿مِّن﴾ المزيدةِ للتَّوكيد؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ وجودِ كتابٍ على سبيل الاستغراقِ الزَّمانيِّ القبليِّ لنزولِ القرآنِ الكريمِ.

مَرجِعُ الضَّميرِ في: ﴿قَبۡلِهِۦ﴾:

نباهةُ الشَّأنِ تُغني عنِ الذِّكرِ

عادَ الضَّميرُ في ﴿قَبۡلِهِۦ﴾ من قولِه تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبًا مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ على القرآنِ الكريم، مع أنَّه لم يرد له ذِكرٌ في السّياق؛ للدَّلالةِ على أنَّ نباهةَ شأنِهِ تُغني عن تقدُّمِ مرجعٍ له، ولأنَّ دلالةَ قوله: ﴿كِتَٰبًا مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ تشيرُ إلى أنَّ الكتابَ المتأخِّرَ هو القرآنُ الكريم الَّذي هدمَ الشِّرك، وأبطلَهُ، وأجاز الزَّمخشريُّ عوده أيضًا إلى الرَّسول[1]، ورأى ابنُ كثير عَودَهُ إلى شِركِهِم[2].

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 245.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 224.

دلالةُ (الفاء) في: ﴿فَهُم بِهِۦ﴾:

الجديرُ بالمُخاطَبينَ تعقيبُ الإتيانِ بالاستمساكِ

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميَّةَ على ما قبلَها بالفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعقيبِ والتَّسبُّبِ؛ إذ يَستعقِبُ الإتيانَ الاستمساكُ، ويتسبَّبُ عنه، وفي ذلك إشارةٌ إلى ترتُّبِ الاستمساكِ عن الإتيانِ، وأنَّ ذلك هو الجديرُ بالمُخاطَبينَ؛ لما في ذلك الاستمساكِ من مصالحَ عظيمةٍ، قال القونويُّ: "والفاءُ في ﴿فَهُم﴾ للسَّببيَّة، والإنكارُ مُتوجِّهٌ إليهما جَميعًا، أي: لا كتاب فضلًا عن التَّمسُّك به"[1].

دلالةُ استعمالِ ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اللّائقُ بالمؤمنين الاستمساكُ بالقرآنِ الحَكيم

استعملَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ الفاعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ الدّالَّ بمادَّتِهِ على طلَبِ المَسْك؛ مبالغةً في التَّمسُّك بالشَّيء، حتى كأنَّ المتمسِّكَ يطلبُ المسكَ، ويريدُ تحصيلَه، وفي هذه الصّيغةِ دلالةٌ على أنَّ التَّمسُّكَ باقٍ مهما تشوبُهُ المُنغِّصاتُ والمعوِّقات، فهو لا يريدُ التَّفلُّتَ منه، ويحافظُ على البقاءِ ماسِكًا به، ففيه: "مُبالَغَةٌ في (مُمْسِكونَ)، يُقالُ: أَمْسَكَ بِالشَّيءِ، إذا شَدَّ عَلَيهِ يَدَهُ، وهو مُستعمَلٌ مَجازًا في مَعنَى الثَّباتِ عَلَى الشَّيءِ، كَقَولِهِ تَعالَى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف: 43]"[2]، كما دلَّت صيغةُ اسمِ الفاعل على الاستمرارِ والدَّوام على حالةِ المَسْك، وفي ذلك إرشادٌ للمؤمنينَ بأنَّ اللّائقَ بحالِهم الاستمساكُ بالقُرآن الحَكيم، قال ابن عاشور: "وفي هَذا ثَناءٌ ثالِثٌ عَلى القُرآنِ ضِمنيٌّ؛ لاقتِضائِهِ أنَّ القُرآنَ لا يَأتي إلّا بِالحَقِّ الَّذي يُستَمسَكُ بِهِ"[3].

دلالةُ اسميَّةِ الجُملةِ في: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَهُم بِهِۦ

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 187.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 186.

مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾؛ للدَّلالة على ثبوتِ هذا الحُكْمِ ودَوامِه؛ إذ شأنُ العاقلِ الحَصيف أن يَستمسِكَ بأحكام اللّه تعالى؛ لأنَّها النَّجاةُ الحقيقيَّةُ من كلِّ الأضرارِ والآفاتِ والأوهام.

استمرارُ المُؤمنينَ على الاستمساكِ بالذِّكر الحَكيم

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِۦ﴾:

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الحَصْرِ؛ إذ الاستمساكُ لا يكون إلّا بالكتاب المنزَّلِ لا بغيره، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ (المسك) قد يكون بِهِ وبغيرِه، وأمّا (الاستمساك)؛ فإنَّه لا يكونُ إلّا به دونَ غيره؛ ممّا يدلُّ على أنَّ المسكَ في الحالةِ الطبيعيَّة، وأمّا عند التَّعرُّض للفتنِ الَّتي تجعلُ المكلَّفَ ضعيفًا؛ فإنَّ عليه أنْ يَستمسِكَ به، ولا يتركَهُ إلى غيره؛ مهما واجهتْهُ من ظروفٍ.

عندَ الفِتنِ والخُطوبِ يتأكَّدُ الاستمساكُ بكلامِ علّامِ الغُيوب

دلالةُ ﴿بَلۡ﴾:

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بالحرف ﴿بَلۡ﴾ العاطفِ قولَهُ تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ﴾ على مضمونِ قوله: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الإضرابِ الإبطاليِّ للمنفيِّ المفهوم من سلبِ العلم عنهم أو وجودِ النَّقلِ المُثبتِ لشِركهم، فأبطلَ النَّظمُ امتلاكَهم لأيِّ دليلٍ يثبتُ المطلوبَ، وأثبتَ لهم دليلًا واحدًا لا يُسمِنُ، ولا يُغني من جوعٍ، ألا وهو التَّقليدُ للآباءِ المانعِ لهم من التَّوحيد، "فَكانَ هَذا الكَلامُ مَسوقًا مَساقَ الذَّمِّ لَهُم؛ إذ لَم يُقارِنوا بَينَ ما جاءَهُم بِهِ الرَّسولُ وبَينَ ما تَلَقَّوهُ من آبائِهم، فَإنَّ شَأنَ العاقِلِ أن يُمَيِّزَ ما يُلْقَى إلَيهِ مِنَ الاختِلافِ، ويَعْرِضَهُ عَلى مِعْيارِ الحَقِّ"[1].

التَّقليدُ مانعٌ من التَّوحيد

دلالةُ استعمالِ الفعلِ الماضي ﴿قَالُوٓاْ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريم بفعلِ القولِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 187.

جـواب الاسـتـفـهـام الإنكـاريّ مُزيلٌ للإنكار

﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾؛ جوابًا عن الاستفهاماتِ السّابقة، وإنْ قُصِدَ منها الإنكارُ والتّوبيخ؛ لأنَّ دلالةَ الاستفهام الأصليَّة ملحوظةٌ، وتحتاجُ إلى جوابٍ؛ لينَدفعَ الإنكارُ والتّوبيخُ المُبتنى عليه، واختارَ النَّظمُ فعلَ القول لما فيه من معاني الاعتقادِ الدّالَّةِ على الاعتدادِ بالرَّأيِ الفاسدِ الصّادرِ منهم، وكانت صيغةُ المضيِّ مفيدةً تحقُّقَ ذلك القولِ وصُدورِهِ منهُم على سبيلِ القَطْعِ.

دلالةُ جملةِ مقولِ القَوْلِ:

التَّقليدُ للآباءِ طريقةٌ عَمْياء

عبَّر النَّظم عن مقولِ القولِ بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾، وهي جملةٌ اسميَّةٌ في محلِّ النَّصب مفعولٌ به؛ دالَّةٌ على افتقادِ الدَّليلِ الحسّيِّ والعقليِّ والنَّقليِّ، وامتلاكِ دليل التَّقليدِ الذي لا قيمةَ له في أصولِ الدّينِ وبابِ الاعتقادات، فقد كانوا مُتَّبعينَ لآبائِهم سائرينَ على طرائقِهم في الاعتقاداتِ دونَ إعمالِ عقلٍ أو نظرٍ في تلك المناهجِ والطَّرائقِ المُنحرفةِ عن الدّيانةِ الأصليَّة.

سرُّ التَّوكيدِ بالأداةِ (إنَّ):

مـلـكَ التَّقليدُ قلوبَ المُشركين

اختارَ النَّظمُ الجملةَ الاسميَّةَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ للدَّلالةِ على ثبوتِ ذلك المَعنى ودوامِه، وقد صُدِّرت الجملةُ بأداةِ التَّوكيد (إنَّ)؛ لتحقيقِ ذلك المعنى الثّابتِ؛ ردًّا على مَن يعتقدُ أنَّهم كانوا يَمتلكونَ دليلًا غيرَ التَّقليد، أو أنَّهم نظَروا في البراهين، وأعملوا العقولَ في الآيات، فأكَّد النَّظمُ اقتصارَهم على تقليدِ الآباء من دونِ هدًى أو فهْمٍ.

دلالةُ اللَّفظِ ﴿وَجَدۡنَآ﴾:

التَّعبيرُ بالوجود يـفـيـد دوامَ الحالةِ المَعهودة

استعملَ النَّظمُ الفعلَ (وجَد) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ للدَّلالةِ على رُؤيةِ الآباء على فعلٍ مُعيَّنٍ لازمٍ وسماعِهم ذلك بالتَّناقُل، وإنَّما عبَّر عن فعلِ الرُّؤيةِ والسَّماعِ بالوُجود؛ لتأكيدِ تلبُّسِهم بالفعلِ متى ما رأوهم، وسَمِعوا أخبارَهم؛ لأنَّ الوجودَ صفةٌ ملازمةٌ للموجود لا يَنفكُّ عنه، فيكونُ التَّعبيرُ بـ(الوجود) مُفيدًا لدوامِ الآباء على تلك

الحالةِ المَعهودة، كما أنَّ فعلَ الوجود مُغنٍ عن فعلِ الرُّؤيةِ والسَّماع معًا؛ لأنَّ التَّعبيرَ بفعلِ الرُّؤيةِ لا يتحقَّقُ مع جميعِ الآباء، وفعلِ السَّماع لا يتحقَّقُ إلّا مع المنقولةِ أخبارُهم، ولا يكفي لإثباتِ مُلازمتِهم ذلك الفعلَ، وجعلَ النَّظمُ الجملةَ الفعليَّةَ الماضيةَ خبَرًا لـ(إنَّ)؛ للدَّلالةِ على حدوثِ ذلك المعنى في الماضي بشكلٍ متحقَّقِ الوقوعِ.

نكتةُ استعمالِ لفظِ: ﴿ءَابَآءَنَا﴾:

المنع من اتِّباع الأبـوَّةِ المُنحرفةِ عن المنهاج

عدَّى النَّظمُ فعلَ الوجود إلى المفعولِ به المضافِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ للدَّلالة على الاستغراقِ، أي: جميعَ الآباء الَّذين رَأيناهُم، أو سَمِعْنا أخبارَهم، فالمرادُ بـ(الآباء) ما يصدقُ بالأب وما فوقَهُ من الأجداد؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم أبٌ لما تحته، وفي التَّعبيرِ عن الأسلافِ بلفظ (الآباء) ما يدلُّ على استدلالِهم بعمَلِ الآباء المُتوارثِ، "وهُم أرجحُ منّا عُقولًا وأصحُّ منا إفهامًا"[1]، ولا يكونُ إلّا عن أصلٍ في وهمِهم، لكنَّهم أغفَلوا النَّظرَ عنِ انحرافٍ يحدثُ في الأسلافِ، ويتمُّ توارثُهُ في الأحفاد.

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾:

مُلابَسةُ الطَّريقة للآباءِ كالدَّليل على صحَّةِ عمَلِ الأبناء

في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ عدَّى النَّظمُ فعلَ الوجودِ إلى المفعولِ به الثّاني المكوَّنِ من الجارِّ والمجرور؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا على طريقةٍ عندَ وجودِهم ورؤيتِهم لهم، والغرضُ من تعديةِ الفعلِ بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ الدَّلالةُ على التَّلبُّسِ بتلك الحالة، وذلك الوضعِ؛ حتى كأنَّ الحالة قد علتهم، واشتملَتْ عليهم، فـ "﴿عَلَىٰٓ﴾ استعارةٌ تَبَعيَّةٌ للمُلابَسَةِ والتَّمَكُّنِ"[2]، وفيه دلالةٌ على عدمِ تقوُّلِهم على الأسلافِ؛ إذ وجَدوهم على تلك الشّاكلةِ وتلك الدّيانةِ من دون تأثيرٍ لهم فيهم، أو تحريفٍ لطريقتِهم الَّتي رأوهم عليها.

(1) الشربيني، السّراج المنير: 3/ 558.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 187.

دلالةُ الاستعارةِ في: (الأُمَّة):

إيهامُ المُؤمنينَ بقوَّةِ حُجَّةِ المُقلِّدين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن الدّينِ والطَّريقةِ والمُعتقَدِ بالأمَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، لتوحي بأنَّهم كانوا مُتَّفقينَ على ذلك المبدأ وتلك الطَّريقة، والأمَّةُ منَ (الأمّ)، وهو القصدُ، فالأمَّةُ: الطَّريقةُ التي تُؤَمُّ، أي: تُقصَدُ، كالرُّحْلة للمَرحولِ إليه، والأمَّةُ: الحالةُ الَّتي يكونُ عليها الآمُّ، وهو القاصدُ"[1]؛ ولذا تُطلَقُ الأمَّةُ على الدّين؛ لأنَّ الدّينَ يُقصَدُ، و"لأنَّ القومَ كانوا يَجتمِعونَ على دينٍ واحدٍ، فتقامُ الأمَّةُ مكانَ الدّين، ولهذا قيلَ للمُسلمين: أمَّةُ محمَّد ﷺ؛ لأنَّهم على ملَّةٍ واحدة، وهي الإسلامُ"[2]، فيقوى استدلالُهم على صحَّةِ التَّقليد بعملِ الجمعِ الكثيرِ وعدَمِ تفرُّقِ الكلمةِ، وفي تنكيرِ (الأمَّة) ما يُنبئُ عن التَّعظيمِ لتلك الطَّريقةِ والدّيانةِ حسبَ مُعتقدِهم الزّائف.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ﴾:

التَّديُّنُ المشهورُ أفضلُ من التَّديُّنِ المُبتدَعِ المَهجور

عطفَ النَّظمُ الجملةَ الاسميَّةَ من قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ على الجملةِ الاسميَّةِ قبلَها؛ للدَّلالةِ على الجمعِ والاقترانِ بينَ وجودِ الآباءِ على منهاجٍ معيَّن مسلوكٍ مشهورٍ، واتِّباعِ ذلك المنهاجِ وذلك الدّينِ المُتوارَث، فبينَ الجملتَين مُحسِّنُ الاتِّصالِ من تناسُبِهما خبرًا لفظًا ومعنًى، والمعنى: أنَّه لم يكنْ تديُّنُهم بدعيًّا ومُستحدَثًا كالدّينِ الجديد، بل دينٌ أصيلٌ يستمدُّ مشروعيّتَهُ من تقليدِ الآباءِ وانتشارِهِ وشُهرتِه، والهدايةُ تحصلُ باتِّباعِ التَّديُّنِ المشهورِ دونَ التَّديُّنِ الغريبِ المهجورِ في الواقعِ والمُجتمَع، والحقُّ أنَّ هذا التَّقليدَ إنَّما يصحُّ مع الدّينِ الحقِّ دونَ ما حدثَ فيه الانحرافُ؛ "لأنَّه لا حُجَّةَ للآباءِ أيضًا، فلا علمَ لهم؛ لأنَّه لو كان لهم حُجَّةٌ؛ لكان

---

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 245.

(2) السّمرقندي، بحر العلوم: 3/ 255.

للأبناءِ حجَّةٌ أيضًا، بل لا تقليدَ في الحَقيقَةِ؛ لكونِهم مُتَّبعينَ الحُجَّةَ حينَئِذٍ"[1]، والغرضُ من الخبرينِ المتعاطفينِ الإقرارُ بالتَّقليد، لكنَّ هذا تقليدٌ نافعٌ وصحيحٌ بزعمِهم؛ إذ هم يتَّبعونَ آباءَهم، ولم يَأتوا بشيءٍ من عندِ أنفُسِهم، وآباؤُهم كانوا على الحقِّ والبرهانِ، لكنَّ ذلك باطلٌ في الاستدلال؛ إذ لم يكن آباؤُهم مُجمِعينَ على ذلك، ولم يَستنِدوا إلى بُرهانٍ منقولٍ أو معقولٍ، بل كانوا مُنحرفينَ عن ديانةِ إبراهيمَ عليه السلام.

دلالةُ تكرارِ (إنّا) في: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾:

الـرَّدُّ علـى نُفاةِ التَّقليد بتعدُّدِ التَّوكيد

كرَّرَ النَّظمُ التَّوكيدَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تقويةِ الخبرِ الدّالِّ على حصولِ الاهتداءِ النّاجِم عن اتِّباعِ آثارِ الآباءِ والأسلاف؛ دفعًا لشكِّ مَن يتوهَّمُ أنَّ ذلك التَّقليدَ خطأٌ محضٌ لا يجوزُ العملُ به؛ مبالغةً منهم في التَّزييفِ وتقويةً للسَّندِ الكاذبِ.

دلالةُ تقديمِ الحالِ: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾:

التَّعريضُ بضلالِ أصحابِ الدّينِ الجديد

قدَّمَ النَّظمُ شبهَ الجُملة الواقعة حالًا في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تقييدِ حالةِ الاهتداء بكونِهم سائرينَ على تلك الآثار، وعاملينَ بتلك الطَّريقةِ والدّيانة الموروثة، فيُفيد تخصيصَ الاهتداءِ بكونِهم سالكينَ على تلك الآثارِ دونَ ما عداها، وفيه تعريضٌ بأصحابِ الدّينِ الجديدِ بأنَّهم ضالّونَ مُنحرفونَ عن دينِ الآباءِ؛ لقَصرِهم الاهتداءَ بتلك الآثارِ دونَ ما سواها، وجوَّزَ ابن عاشور: "أن يَكونَ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ مُتَعَلِّقًا بـ ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ بِتَضْمينِ ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ مَعنى (سائِرونَ)"[2].

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 187.

دَعوى عدمِ التَّقليدِ معَ التَّعريضِ بالأخبارِ النَّبويَّة

دلالةُ لفظِ (الآثار):

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظِ (الآثار) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على عدمِ تقليدِهِم المَحْضِ للآباء، فإنَّهم كانوا يتَّبعونَ آثارًا وأخبارًا يَفهمونَها، ويعملونَ بمُقتضاها؛ إذ الأثَرُ يأتي بمعنى الخَبر، كما أفادَ تسميةُ الخبرِ بالأثرِ التَّعريضَ بالأخبار النَّبويَّة، فهُم يتَّبعونَ أخبارًا وآثارًا أفضلَ من الآثارِ النَّبويَّةِ والأخبارِ الَّتي يَأتي بها مِن الوحي في زَعْمِهم.

الانشغالُ بالآثار مُجانبةٌ للفطرة السَّويَّة

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾:

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ عن الاتِّباعِ والتَّقليدِ للآباء والأسلافِ بقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ إذ تقييدُ الاهتداءِ بحالةِ السَّيرِ على الآثارِ المنقولةِ والأخبارِ المرويَّة عنهم كنايةٌ عن المتابعةِ لهم بالدّيانة والمَنهج دونَ إعمالِ العقلِ والنَّظر، عندَ مُقابلةِ الأخبارِ النَّبويَّةِ بالآثارِ المَرويَّةِ عن آبائِهم وأسلافِهم، كما يحتملُ النَّظمُ الاستعارةَ؛ إذ "جَعَلوا اتِّباعَهُم إيّاهُمُ اهتِداءً؛ لِشدَّةِ غُرورِهِم بِأحوالِ آبائِهِم، بِحَيثُ لا يتأمَّلون في مُصادفةِ أحوالِهم للحقِّ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 187.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مِـلَّـةُ أهـلِ الكُفرِ واحدةٌ، وأقوالُهم متوافقةٌ معهودةٌ

لمّا ذكر النَّظمُ الجليلُ أنَّ الذين كفروا بالنَّبيِّ ﷺ آثروا تقليدَ آبائهم: أتبعَهُ في هذه الآية ببيان أنَّ تمسُّكَ أهلِ الكفر والضَّلال بطريقة الآباء تقليدًا لهم هو أمرٌ ليس مختصًّا بقريش، بل هو حاصلٌ من قديم الدَّهر[1]، فكانتْ هذه الآية أعمَّ مِنَ السّابقة، ومُؤكِّدةً لها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَرۡيَةٍ﴾: (قري) أَصْلٌ يدلُّ على جُمَعٍ واجْتِماعٍ، مِن ذلك القَرْيَةُ، سُمِّيَت قَريَةً لاجتِماعِ النّاسِ فيها[2]، والقَرْيُ: جَمعُ الماءِ في الحَوْض، والقَريُّ: مُسْتَجْمَعُ ماءٍ كثيرٍ في شِبْهِ وادٍ صَغيرٍ، والجمع: القُرْيانُ[3]، والقَرْيَةُ: اسمٌ للموضعِ الذي يجتمع فيه النّاسُ، وللنّاسِ جميعًا، ويُستعمل في كُلِّ واحد منهما[4]، فالمقصودُ بها في الآية الكريمة: أهلُ بلدٍ أُرسلَ إليهم رسولٌ.

2) ﴿نَّذِيرٍ﴾: (نذر) أصلٌ يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ[5]، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، وهو المُحَذِّرُ مِنْ شَرٍّ يُتَوَقَّعُ، والجَمْعُ: النُّذُرُ[6]، ويقع على كُلِّ شيءٍ فيه إنذارٌ، إنسانًا كان أو غيرَهُ[7]، والإِنْذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ - كما أنَّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 627، والمراغي، تفسير المراغي: 25/ 80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (قرى).
(4) الراغب، المفردات: (قري).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نذر).
(6) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (نذر).
(7) الراغب، المفردات: (نذر).

التَّبشيرَ إخبارٌ فيه سرورٌ - وإعلامٌ بالشَّيء يُحْذَر منه، والمُنذِر هو المبلِّغ والمُعَلِم بهذا الشَّيء، والمُنذِر كذلك: الرَّسولُ أوِ النّبيُّ، يبلِّغ بالأمر العظيم من شأن الآخرة يُخوِّفهم، ويُحذِّرهم منها[1]، وهو المراد في الآية.

3) ﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾: (ترف) أصلٌ يدلُّ على امتلاء الشَّيء بالرِّيِّ والرَّخاوة حتَّى ينتبر متميِّزًا عمّا حوله كالتُّرْفَة (وهي الهنَةُ النّاتئة في وسَط الشفَة العليا خِلْقةً)، يُقالُ: رَجُلٌ مُتْرَفٌ مُنَعَّمٌ، وترَّفَهُ أهْلُهُ، إذا نَعَّموهُ بالطَّعام الطَّيِّبِ والشَّيْءِ يُخَصُّ به[2]، والمُتْرَفُ: الموسَّعُ عليه عَيشُه، القليلُ فيه هِمَّةً، وأتْرَفه اللّهُ[3]، والتَّرَفُ: التَّنَعُّمُ، والتُّرفةُ النَّعْمةُ، وصبيٌّ مُتْرَفٌ، إذا كانَ مُنَعَّمَ البدنِ مُدَلَّلا، والمُتْرَفُ: الَّذي قَدْ أبْطَرَته النِّعمَةُ وسَعةُ العيْشِ، وأتْرَفَتْه النَّعْمةُ؛ أي: أطْغَتْه[4]، والمراد به في الآية الكريمة: المتنعِّمون[5].

4) ﴿أُمَّةٖ﴾: (أمم) أصلٌ يدلُّ على الأصل والمَرْجِع والجَماعَة والدِّين[6]، وأصلُ هذا الباب كلِّه مِن القَصْد؛ يقال: أممتُ إليه إذا قَصدته؛ فمعنى الأمَّة في الدِّين: أنَّ مَقصدهم مقصدٌ واحِدٌ[7]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الأنبياء: 92] أي: دِينٌ واحِدٌ، وكلُّ مَن كان على دينٍ واحدٍ مخالفًا لسائر الأديان فهو أمَّةٌ على حدةٍ، وكان إبراهيم عليه السلام أُمَّةً[8]، والأُمَّة: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما؛ إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ؛ سواء كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا، أو اختيارًا، وجمعُها: أُمَمٌ، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [البقرة: 213]، أي: صنفًا واحدًا، وعلى طريقةٍ واحدةٍ في الضَّلال والكفر، وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾، أي: على دينٍ مجتمع[9]، وطريقةٍ معهودة[10].

5) ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾: (أثر) أصلٌ يدلُّ على رَسْمِ الشَّيءِ الباقي[11]، والأثر: بَقِيَّةُ ما تَرى مِن كُلِّ

(1) السَّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (نذر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ترف).
(3) الخليل، العين: (ترف).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ترف).
(5) السمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 98.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أم).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمم).
(8) الخليل، العين: (أمم).
(9) الراغب، المفردات: (أم).
(10) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 298.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثر).

شيءٍ، وذهبتُ في إثْرِ فُلانٍ؛ أي: اسْتَقْفَيتُهُ[1]، وأثَرَ فلانٌ فِعْلَ أبيه: اقْتَفاه[2]، وأثَرُ الشَّيء: حصولُ ما يدلُّ على وجودِه، والجمع: الآثار، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: 27]، ومن هذا يُقال للطريق المُستدَلِّ به على مَن تقدَّم: آثارٌ، نحو قوله تعالى: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ٧٠﴾ [الصافات: 70][3]، والمراد به في الآية الكريمة: الاقتداءُ واتِّباعُ السّابقين[4].

6) ﴿مُّقْتَدُونَ﴾: (قدو) أصلٌ يدلُّ على اقتباسٍ بالشَّيء واهتداء[5]، والاقتداء: الاتِّباعُ، ومنه الاقتداءُ بإمام الصلاة؛ وذلك أن يتَّبعَ أفعالَهُ، فلا يتقدَّمَ عليه، ولا يتأخَّر عنه، ولا يزيد عليه، ولا ينقص عنه[6]، والقُدوةُ اسمُ مَن اقْتُدِيَ به؛ إذا فعلَ مثل فعلهِ تأسِّيًا[7]، والمراد بقوله ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ في الآية الكريمة: مُتَّبِعون[8].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تقليدُ الكافرين لآبائهم منهجٌ قديمٌ عارَضوا به كُلَّ المرسلين

لا تحزن أيُّها الرَّسولُ الكريمُ لِما تراهُ مِن إعراضِ المشركينَ عن دعوتك؛ فإنَّ شأنهم كشأنِ سابقيهم في الضَّلال والكفر؛ فإنَّنا ما أرسلنا مِن قبلكَ مِن رسولٍ في قريةٍ مِنَ القرى أو في قومٍ مِنَ الأقوام إلّا قال المُنعَّمون منهم، والذين أبْطرَهُم التَّرَفُ، لِمن جاءهم بالحقِّ: إنّا وجدنا آباءَنا على دينٍ وطريقةٍ تُؤَمُّ وتُقْصَد، وإنّا على آثارِهم ونَهْجِهم سائرون، مُقتَدون بهم في عبادتهم وأفعالِهم[9].

(1) الخليل، العين: (أثر).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (أثر).
(3) الراغب، المفردات: (أثر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أثر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدو).
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قدو).
(7) الفيومي، المصباح المنير: (قدو).
(8) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 221.
(9) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 13/ 70.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

إعراضُ المشركين عن أهل الدَّعوة مسلكٌ معهودٌ

افتتح النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ بالواو في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ وهي صالحةٌ أن تكون للاعتراض، فتكون الجملةُ اعتراضيَّةً، سيقت تسليةً للنَّبيِّ ﷺ على ما لقِيَه مِن قومه، مبيِّنَةً أنَّ الرُّسلَ مِن قبله لَقوا مثلَ ما لقيَ؛ والمقصودُ أنَّ هذا دأبُ الضّالِّينَ مِنَ السّابقين واللّاحقين؛ والواوُ الاعتراضيَّة تعطفُ الجملةَ المعترِضةَ على الجملةِ التي قبلَها عطفًا لفظيًّا[1]، كما أنَّ الواو صالِحةٌ أن تكونَ للعطف[2]، فعَطَفَت مَقولةَ الضّالِّين في الزَّمن الماضي على مقولة المشركين مِمَّن عاصرَ نزولَ القرآن.

معنى الكاف ودلالتُها في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

الكُفرُ ملَّةٌ واحدةٌ، يَصدرُ عن الهوى والتَّقليد

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ (الكاف) الدّالَّة على التَّشبيه في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ أي: كما قال الذين مِن قبلهم: (إنّا وجدنا آباءنا على أمّة)، كذلك قال كفّارُ مكَّة؛ فتشابهت قلوبُهم وأقوالُهم؛ ولوجودِ هذا التَّشابه شُبِّه ما قاله السّابقون بقولِ أهلِ مكَّةَ وكفّارِها[3]، فدلَّتِ الكافُ على تشبيه الحاضرين مِن أهل الضَّلال بمَن سلفَ منهُم في خُلوِّهم مِنَ الحُجَّة وعَجْزِهم عن مُقارعة الحقِّ، ونزوعِهم لإعلان تشبُّثهم بحبل التَّقليد[4]، فشُبِّه الكُفّار مِن قُريشٍ بالكافرين مِنَ الأمم السّابقة في الرُّكون إلى أسباب التَّرف الظّاهرة، والبُعدِ عن التَّفكُّر، والارتماءِ في راحة التَّقليد.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 188.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 77.
(3) محمود موسى حمدان، أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، ص: 272.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 44.

عِلَّةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

الـعـنـايـةُ بالمشابَهة عنايةٌ برسول الله وتسليةٌ لهُ

كافُ التَّشبيه في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾؛ وإنَّما قُدِّم على متعلِّقِه وحقُّه التَّأخيرُ للاهتمام بهذه المشابَهة، وللتَّشويق لما يَرِدُ بعدَ اسم الإشارة[1]، كما أنَّ الإرسالَ متقدِّمٌ على مقالة الكافرين، فقُدِّمَ ذِكْرُه اعتبارًا بسَبْقِه زمانًا.

المَوقِعُ البيانيُّ للجملة المَنفيَّة ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا﴾:

عـمـومُ البلوى يـمحو العنَتَ عنِ الدّاعي

فصَلَ النَّظمُ الجليلُ جُملةَ ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها في حُكْمِ البيانِ والتَّفصيلِ لاسم الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي يعود إلى حال الكافرين مِن قَبلِهم، فقد سِيقَتْ الجملةُ لبيان أنَّ مسلكَ المشركينَ قائمٌ على التَّقليد وأنَّهم راسخونَ فيه، فهي ضلالةٌ قديمةٌ منذ أسلافهم، والمرادُ منَ الجملةِ المستأنفة تسليةُ النَّبيِّ ﷺ[2].

معنى ﴿مَآ﴾، ودلالةُ التَّعبير بها:

تسليةُ النَّبيِّ بأقرب الأُمَم إليه زمانًا

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ النَّفيَ بـ﴿مَآ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ وذلك لأنَّ (ما) تنفي الفعلَ الماضيَ القريبَ مِنَ الحال[3]، والمقصودُ أنَّ هناكَ زمانًا قليلًا بين حصول الفعل وما يُخبَرُ به عنه، نحو: (ما حضرَ الأستاذ)؛ فهذا التَّعبيرُ جوابٌ عنِ الجملة المثبتة: (لقد حضرَ الأستاذ)[4]، فردُّ الكافرين بالرُّكون إلى تقليدِ آبائهم والاكتفاءِ به لم يَبعُد عن سَماعِهم دعوةَ رسولهِم؛ فلمّا كان ردُّهم قريبًا مِن زمانِ دعوة الرَّسول، كان الرَّدُّ عليهم بما هو في زمانٍ قريبٍ مِن زمانِ دعوة الرَّسول وردِّهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 188.
(2) القنوجي، فتح البيان: 12/ 339.
(3) الزمخشري، المفصَّل، ص: 405.
(4) عز الدين علي مختار، أسلوب النفي أدواته ودلالاته: 1/ 275.

دلالةُ التَّعبير بـ(الإرسال) مادَّةً، وصيغةً:

التَّصريحُ بتحميلِ الرِّسالة، وتشريفِ النَّبيِّ ﷺ بها

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالإرسال في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ للدَّلالة على تحميل المبعوث رسالةً يُبلِّغُها؛ فالرَّسولُ هو مَن يحملُ القولَ والرِّسالة[1]، ففيه إثباتُ رسالتِه ﷺ بطريقِ ذِكْرِ الرُّسُل السّابقين وحالِ أقوامِهم معهم؛ في مقابلةِ رفضِ قومِه إيّاها، واقتدائهِم بآبائهِم في الكُفر؛ وهذا مِن شأنِه أنْ يُسلِّيَه ويُسرِّيَ عنه، وجاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ الفعلِ الماضي للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإرسال.

علَّةُ التَّعبير بصيغة الجمع في: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

إرسالُ الرُّسُل إلى الخَلْقِ نعمةٌ جليلةٌ، وشأنٌ عظيمٌ

أسنَدَ النَّظمُ الجليلُ فِعلَ الإرسال إلى ضمير التَّعظيم في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ لأنَّ الإرسالَ ليس إلّا للّه ﷻ، أي: أرسلناهُ بما لنا منَ العظمة[2]، وعِلَّةُ التَّعظيم أنَّ إرسالَ الرِّسالات للنّاس وتحميلَها للمُرسَلين شأنٌ عظيمُ القَدرِ، جليلُ الأثر؛ فهذا أبلغُ في إثبات رسالة نبيِّنا وتسليتِه.

عِلَّةُ تقديم شِبهِ الجملة:

تسليةُ خاتمِ المرسلين، بذِكرِ النُّذُر السّابقين

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ شِبهَ الجُملَةِ من الجارِّ والمجرور: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ على المفعول به المجرورِ لفظًا المنصوبِ مَحَلًّا في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ فلم يقل: (ما أرسلنا نذيرًا من قبلك) اهتمامًا بالتَّسلية، وتخليصًا لها من أنْ يُتوهَّمَ أنَّه يكونُ معه في زمانِه أو بعدَهُ نذيرٌ، وإفهامًا لأنَّ المُجدِّد لشريعته إنَّما يكونُ مُغيثًا لأمَّته، وبشيرًا لا نذيرًا؛ لثباتِهم على الدِّين بتصديقهم جميعَ النَّبيِّين[3].

(1) الراغب، المفردات: (رسل).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 411.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 411.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالةُ ذِكْرِها:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾؛ للدَّلالة على الأزمنة القريبة من زمان إرسالِه ﷺ؛ فإنَّ الإرسالَ لم يعُمَّ جميعَ الأزمنة التي سبقت إرسالَ النَّبيِّ ﷺ، وذلك لأنَّ التَّسلية بالأقرب أعظَمُ نفعًا[1]، ودلَّ ذلك على أنَّ تكذيبَ قريشٍ لم يكُن بِدعًا في الأمم؛ فَهُم نَهَجوا ما دَأبَ عليه مَن كان قبلَهُم وتقدَّمَهُم مِن الأمم، وأنَّهم قدَّموا الحُجَجَ ذاتها والمقولاتِ عَينَها[2]، وهذا هو مَوطِنُ التَّسلية.

تكذيبُ الأممِ للرّسلِ سنّةٌ معهودةٌ

عِلَّةُ التَّعبير بـ﴿قَرۡيَةٍ﴾:

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالقَرية في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ وذلك لأنَّ "أهلَ القُرى أقربُ إلى العقلِ وأولَى بالحكمةِ والحِكم"[3]، ومع ذلك قال مُترَفوها ما لا يقولهُ عاقِلٌ منصِفٌ؛ فيحصلُ بهذا التَّعبير أكبرُ تسليةٍ له ﷺ، ولأنَّها موطِنُ أكثر النّاس وموئِلُهم فيها، وما حولَها تَبَعٌ لها، فيكونُ الإرسالُ في القُرى أوقعَ فائِدَةً للنّاس.

إذا كان أهلُ الحِكمةِ لا يُنصِفونَ فكيفَ يكونُ غيرُهم؟!

معنى ﴿مِّن﴾، ودلالةُ التَّعبير بها:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ الدّاخلِ على الإنذار في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ وهي هنا حرفٌ مزيدٌ[4]، وتقديرُ الكلام: (وما أرسلنا نذيرًا من قبلك إلّا قيل له ذلك)، وقد جيءَ بحرفِ الجرِّ للدَّلالة على استغراق النَّفي[5]، فيكونُ المعنى أنَّ كلَّ نذيرٍ أرْسلَه اللّه تعالى قد أُجيبَ مِن قومِهِ بالكُفرِ والإعراض؛

كلُّ الرُّسل تلقَّوا كلمةَ الكُفر مِن أقوامِهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 411.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 25/ 80.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 411.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 77.
(5) الخطيب، السراج المنير: 3/ 559.

وأسلوبُ التَّعميم بذِكْرِ ﴿مِّن﴾ - إذْ مَدخولُها نكرةٌ في سياقِ النَّفي - أَدَلُّ على الغضَب الإلهيِّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإنذار مادَّةً وتنكيرًا:

مِن مقاصدِ الإرسال تخويفُ النّاسِ مِن مغبَّة شِرْكِهم

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإنذار في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ لدلالتهِ على الإخبار المَشوبِ بالتَّخويف؛ مناسبةً لسياقِ رفضِ الرَّسول والرِّسالة، والاقتداءِ بالآباءِ في الكُفر، والمرادُ به الأنبياءُ والرُّسُل[1]، وإنَّما ذكَرَ النَّذيرَ دونَ الرَّسول للدَّلالة على عِلَّة كراهتِهم ونفورِهم مِنَ الدَّعوة، فهو دعاهُم إلى ما فيه مخالفةُ أهوائِهم وعاداتِهم، بتخويفهم مِن عواقب شِرْكِهم وكُفرِهم[2]، وجاءَ بصيغةِ التَّنكير للدَّلالة على العُمومِ والشُّمول؛ فكلُّ نذيرٍ قد قِيلَتْ لهُ تلكَ المَقالةُ؛ لأنَّها وقعَت في سياقِ النَّفي ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ فهي تعُمُّ، ولا قرينةَ تصرِفُها عن ذلك.

موقِعُ جُملةِ الاستثناء:

لم يكن حالُ المشركين إلّا الكُفرَ بالمُرسَلين

وقَعَ قولُه تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ في محلِّ الحال؛ لأنَّ الاستثناءَ هنا مِن أحوالٍ مقدَّرة، أي: (ما أرسَلْنا إلى أهلِ قريةٍ في حالٍ مِن أحوالهم إلّا في حال قولٍ قالَهُ مُترَفوها: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾[3]، ونظمُهُ حالًا أبلغُ في الاستدلالِ به على تمَسُّكِ المشركينَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وجِنْسٍ بدينِ آبائهم.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالتَّرَف مادَّةً، وصيغةً:

التَّرَفُ مَدعاةٌ للكسل، ومُسبِّبٌ للتَّقليدِ والبغي

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ التَّرَفِ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ وهو دالٌّ على سعة النِّعمة وبَسطِها عليهم[4]، وإنَّما خصَّ المترَفين بالذِّكر دون سواهم، إشارةً إلى أنَّ

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 269.
(2) الخطيب، السراج المنير: 3/ 559.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 188.
(4) الراغب، المفردات: (ترف).

سعة النِّعمة والتَّرف أورَثَهُم حُبَّ البطالة، فصَرَفَهم ذلك عن النَّظر إلى التَّقليد[1]، وفي ذلك يقول الفخرُ الرّازيُّ: "بيَّنَ أنَّ الدّاعي إلى القول بالتَّقليد والحاملَ عليه إنَّما هو حُبُّ التَّنعُّم في طيِّباتِ الدُّنيا، وحُبُّ الكسل والبطالة، وبُغضُ تَحَمُّلِ مشاقِّ النَّظر والاستدلال؛ لقوله: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ وإذا عرفتَ هذا علمتَ أنَّ رأسَ جميعِ الآفاتِ حُبُّ الدُّنيا واللَّذّاتِ الجسمانيَّة، ورأسَ جميع الخيراتِ هو حُبُّ اللّه والدّارِ الآخرة"[2]، فالتَّرف ليس مذمومًا لذاته، بل هو إشارةٌ إلى أنَّ التَّرف هو العلَّة التي منعَتهُم عن طلب الحقِّ[3]، وهذا لإسرافِهم في الكُفر، وصيغةُ اسم المفعول مُشعِرَةٌ بأنَّهم لم ينالوا ذلك التَّرفَ بِجُهدٍ مَحضٍ، بل هو فضلٌ مِنَ اللّه تعالى، كما قال جلَّ شأنُه: ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [المؤمنون: 33].

سِرُّ إضافةِ (المترَفين) إلى (القرية):

النّـاس تَـبَـعٌ لكُبرائهِم

أضافَ النَّظمُ الجليلُ المترَفين إلى ضمير القريةِ في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ النّاس تَبَعٌ لكُبرائهِم، وأنَّ أمرَهُم مُرتَهَنٌ بهم، وأنَّ أمرَ النّاس قائمٌ على التَّقليد لهم؛ فلهُمُ الكلمةُ في مجتمعاتهِم، وهُم أهمُّ مَن يرفضُ الرُّسُلَ ورسالاتِهم؛ لشديدِ حرصِهم على متاعِ الدُّنيا.

سِرُّ توكيدِ الجملة:

الكافرُ مُصِرٌّ على اتِّباع آبائهِ لا ينفكُّ عن دينهِم

أكَّدَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ للدَّلالة على إصرارِهم وتمسُّكِهم بدينهِم، وتأكيدًا لتمكُّن طريقةِ آبائهِم منهُم، وهو تمهيدٌ للتَّصريحِ بالاقتداءِ بتلكَ الطَّريقة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 89.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 628.
(3) السمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 98.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ (وجدَ) مادَّةً، وصيغةً:

الاعتذارُ بوُجدانِ الآباءِ على الشِّركِ تعبيرٌ عن صَلاحِهِ ورِضاهُم به

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بِفعلِ الوجود في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، وهو هنا فعلٌ تامٌّ يدُلُّ على العثور على الشَّيء(1)، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: 23 - 24]، فهو وجودٌ بالبصر مشاهدةً، وبالبصيرةِ إدراكًا(2)، فهو وهو تعبيرٌ عَن إدراكِهم آباءَهم على طريقةٍ معهودةٍ مألوفةٍ، فَنَفَوا داعِيَ الانصراف عنها، إشارةً إلى صلاحِها وقبولهِم بها.

سِرُّ التَّعبيرِ بالآباء:

قبولُ الآباءِ الكُفرَ حُجَّةٌ عند الأبناء

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظِ الآباءِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ دون القوم، وذلك لبيان تزكيتِهم لِدينهم؛ فإنَّ الآباءَ أكثرُ معرفَةً بالأمورِ مِن الأبناء عُرفًا، أي: (وَهُم أعرَفُ منّا بالأمور)(3)، كما يُشعِرُ باستمراريَّةِ التَّقليد، وأنَّ دينهم قائمٌ على الوراثة والتَّناقل بين الأجيال.

دلالةُ إضافةِ الآباءِ إلى ضميرِ المتكلِّمين:

قوَّةُ الثِّقةِ بآبائهم، وشِدَّةُ تقليدِهم إيّاهُم

أضاف النَّظمُ الجليلُ الآباءَ إلى ضمير المتكلِّمين في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ للدَّلالة على ثقتهم فيما ورثوهُ؛ فإنَّ الابنَ أشَدُّ ما يثِقُ بأبيهِ وأسلافه، وفيها أيضًا إشعارٌ بكمال اعتزازِهم وافتخارِهم بهم؛ مِمّا يُنبِئُ بعظيمِ تمسُّكهم بدينهِم؛ ولهذا كانوا مُسرِفينَ في الكُفر.

معنى ﴿عَلَىٰٓ﴾ ودلالةُ التَّعبير به:

الحِرصُ على اتِّباعِ الأسلافِ بلا دليلٍ تَركَةٌ يَتناقلُها أهلُ الضَّلال

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ - الدّالِّ في الأصلِ على الاستعلاء - في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ للدَّلالة

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وجد).

(2) الراغب، المفردات: (وجد).

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 412.

على شدَّة المُلابَسة والتَّمكُّن[1]، فالاستعلاءُ فيهِ مجازيٌّ؛ فكان آباؤهُم شديدي التَّمسُّكِ بما ورِثوهُ عن سلَفِهم؛ تعبيرًا عن شديدِ حِرصِهم على تقليدهم وإصرارِهم على ذلك، حتَّى كأنَّهُم قد ركبوا تلكَ المِلَّة والدِّين.

علَّةُ التَّعبير بـ﴿أُمَّةٍ﴾ مادَّةً، وتنكيرًا:

الدِّينُ الموروثُ عن الآباءِ جَليلُ القَدرِ في ظَنِّ أتباعِهِ

عبَّر النَّظمُ الجَليلُ بلفظ الأُمَّة في قولهِ جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ وهي تُطلَقُ لغةً على كُلِّ جماعةٍ يجمَعُهُم أمرٌ ما كالدِّين؛ أي أنَّهم كانوا على دينٍ مجتمعٍ[2]، وعبَّر بالأمَّة دون الدِّين للدَّلالة على أنَّ دينَهُم كان يجمعُ النَّاس، وأنَّه يستحقُّ أنْ يُقصَد ويُؤتَمَّ به، وجاء اللَّفظُ نكرةً تعظيمًا لها على زعمهِم؛ أي: هي طريقةٌ عظيمةٌ[3].

دلالةُ العطف بالواو:

اتِّباعُ الأسلافِ دينٌ يفتقرُ إلى الحُجَّة

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ على جملة ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ بالواو الدَّالَّةِ على إشراكِ الثَّاني للأوَّل في الحُكم؛ للتَّنبيهِ على أنَّه مقولٌ ثانٍ لهم، جيءَ به لبيان أنَّهم لا يملكونَ بُرهانًا على صحَّة دينهِم، وأنَّهم إنَّما يعبدونَ الأصنامَ تقليدًا لآبائهِم، وبيانِ أنَّهم يقولون ذلك عند المُحاجَّة، حيث لا دليلَ ولا حُجَّة لديهم غير ذلك[4]، فالجُملتان كلاهُما قولٌ يقولونهُ، فتتابَعت أقوالُهم تلك؛ للإفصاحِ عن تأكيدِ اتِّباعِ أسلافهم.

سِرُّ توكيدِ الخَبَرِ:

أكَّدَ النَّظمُ الجليلُ الخَبَرَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾؛ وذلك لقطع رجاء الدُّعاة والمخالفين من تَوَقُّعِ صَرْفِهِم

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 187.

(2) الراغب، المفردات: (أمّ).

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 412.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 187، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 77.

عنِ التَّقليد[1]؛ وللتَّنبيه على أهميَّة الاقتداء بآثارهم، فإنَّ مِثْلَها يُقتدَى به.

معنى ﴿عَلَىٰٓ﴾ ودلالةُ التّعبير به:

التَّـمسُّكُ الشَّديد بتقليد طريقة الآباء

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ الدّالِّ على الاستعلاء في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على تمكُّنهم مِنِ اتِّباع آثار الآباء، وشدَّةِ تمسُّكهم بها، وتأكيدًا لعدم مفارقتها؛ فكأنَّهم "راكبونَ سنَنَ طريقِهم، لازمونَ له"[2]، وفيه أنَّهم يسيرون على آثارهم سَيرًا مطابقًا لها لا يكادُ ينحرفُ عنها.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(الآثار)، وإضافتِها:

تقفِّي تعاليم الآباء، وتتبُّعُ الأثر مُعَبِّرٌ عن شدَّة التَّمسُّك بدينهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالآثار في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾؛ دون أنْ يقول مثلًا: (وإنّا بهم مقتدون)؛ لِما في الآثار من دلالةٍ على شدَّة التَّمسُّك، فهي تدلُّ على الطَّريق المستدَلِّ به على مَن سبق وتقدَّم[3]، وهذا يُشير إلى شدَّة التَّقليد، فهم يتَّبعون الآثار اقتفاءَ الخطوةِ بالخطوة، دون أنْ يَحيدوا عنها، مع بيان الجُهد في ذلك؛ والمعنى أنَّهم يؤكِّدون رسوخَهم في اتِّباع دينِ أسلافهم، وأضافوها إلى ضمير الآباء تفخيمًا لها بنسبَتِها إلى مَن يلزمُ توقيرُه؛ وهم الآباءُ والسَّلف.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الاقتداء:

آثـارُ الآبـاءِ أساسُ الاقتداءِ بهم وعِلَّةٌ له

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة على الخبر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ للدَّلالة على قَصر اتِّباعهم واقتدائهم على آثار الآباء، لا على غيرها[4]، ولهذا عُلِّق الجارُّ والمجرور بـ﴿مُّقْتَدُونَ﴾، أمّا إذا جُعِل الجارُّ والمجرور خبرًا أوَّلَ، و: ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ خبرًا ثانيًا،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 412.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 412.
(3) الراغب، المفردات: (أثر).
(4) الخطيب، السراج المنير: 3/ 559.

فهو مِن تعدُّد الأخبار[1]، فيكون تقديمُ الخبر الأوَّل للاهتمام بالآثار التي هي سببُ اقتدائهم، وتأخيرُ ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ لكونه محقِّقًا لوحدة الفاصلة[2]، فكأنَّ المُقدَّمَ هو السَّببُ في المُؤَخَّر، وعلَّةٌ له في المعنى؛ والسِّياقُ لبيانِ حُجَّتهم في الاهتداء بالآباءِ، ورفضِ الرِّسالة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاقتداء مادَّةً، وصيغةً:

متابعةُ منهاج الآباء صِفَةٌ راسخةٌ في الضّالِّين

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالاقتداء اسمًا في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّهم يتَّبعون سنَّة الآباء، وأنَّهم ملازمونَ لطريقهم[3]، وأنَّها صِفَةٌ ثابِتَةٌ فيهم لا ينفكّون عنها، وعبَّر بالاقتداء دون الاهتداء كما في الآية السّابقة: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ٢٢﴾ [الزخرف: 22] لأنَّ أقوالَهم الضّالَّة كثيرةٌ مختلفة، وهي كلُّها تعبيرٌ عن كونهم إنَّما يقتدون بآبائهم، فحكايةُ تلك الأقوال من قبيل حكايةِ القولِ بالمعنى، وهي طريقةٌ مُتَّبَعَةٌ في كلام العرب[4]، أو أنَّه من باب حكايةِ ما قالوه؛ لأنَّ الذين كانوا يُخاصمون النَّبيَّ ﷺ قد زعَموا الاهتداءَ، وأنَّ الأُمَمَ قبلَهُم خاصموا رسولَهم بأنَّهم يقتدون بآبائهم ولم يزعموا الاهتداء[5]، فحكى النَّظمُ الجليلُ ذلك مِن باب الإخبار بالواقع.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّة:

الإرسال والبعث:

الإرسالُ يتضمَّنُ رسالةً؛ فهو بَعْثٌ مخصوصٌ

البعثُ أعمُّ مِنَ الإرسال؛ لأنَّه "يجوز أنْ يُبعث الرَّجلُ إلى الآخَر لحاجةٍ تخصُّه دونك ودون المبعوث إليه، كالصَّبيِّ تبعثُه إلى المكتب، فتقول: بعثْتُه، ولا تقول: أرسَلتُه؛ لأنَّ الإرسال لا يكون إلّا برسالةٍ وما

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 77، والدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 585.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 306.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 412.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 189.
(5) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 88.

يجري مجراها"[1]، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾: آثر القرآنُ التّعبير بالإرسال؛ لأنَّه يتضمَّن رسالةً؛ فإنَّ اللّه تعالى قد حمَّل الرُّسلَ رسالةً يُؤَدّونها، والرِّسالةُ على هذا تكون متضمِّنةً للبعث[2].

(1) العسكري، الفروق، ص: 289.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 295، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/ 82.

﴿۞قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: 24 - 25]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

تــرَقٍّ في بيـانِ موقفِ الكافرين مِــن الـرِّسـالـة والرَّسول

لمّا أوردَ النَّظمُ الجليل حديثَ الكفّار والمشركين في عصر نزولِ القرآن على النَّبيِّ ﷺ، انتقلَ إلى الحديث عن أسلافهم السّابقين؛ منَ الأمم التي كذَّبت الرُّسُل[1]؛ فحكى النَّظمُ الجليل عنهم قولَهم: إنّا ثابتون على دين آبائنا، لا ننفكُّ عنه، وإنْ جئتنا بما هو أهدَى فإنّا كافرون به؛ فعند هذا استحقّوا العذابَ، ولم يبقَ لهم عُذرٌ ولا علّةٌ، فأتبَعَهُ تعالى بذِكر العقاب فقال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾: (نقم) أصلٌ يدلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيبه، ونَقَمْتُ عليه أَنْقِمُ: أنكَرتُ عليه فِعلَه، والنِّقْمَةُ مِنَ العَذاب والانتِقام، كأنَّه أنْكَرَ عليه فَعاقَبَهُ[3]، وقال الخليل: نَقَمَ ينقم؛ أي: أنكرَ ولم يرضَ، وانتَقَمْتُ منه: كافأْتُه عقوبةً بما صنع[4]، والنَّقِمَةُ: المكافأة بالعُقوبَة، ونَقَمْتُ الأمرَ ونَقِمْتُه؛ إذا كَرهته، وانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُ؛ أيْ: عاقَبَه، والاسْمُ مِنْهُ النَّقِمَةُ[5]، والمراد به في الآية الكريمة الإهلاكُ بعذاب الاستئصال[6].

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 46.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 628.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقم).
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (نقم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نقم).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 414.

2) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: (عقب) أصلٌ يدلُّ على تأخير شيءٍ وإتيانه بعد غيره[1]، والعَقِبُ: مُؤَخَّرُ القَدَم، وكُلُّ شيءٍ يُعْقِبُ شيئًا فهو عَقيبُه؛ كقولك: خَلَفَ يَخْلُفُ، بمنزلة اللَّيْلِ والنَّهار، إذا قضَى أحدُهُما عَقِبَ الآخر فهما عَقيبان؛ كلُّ واحدٍ منهما عَقيبُ صاحبه، وعَقِبُ الأمرِ: آخِرُه، وعاقِبَةُ كلِّ شَيءٍ: آخِرُه[2]، وكلُّ شيءٍ خَلَفَ بعد شيءٍ فهو عاقِبٌ له[3]، والمرادُ به في الآية الكريمة: آخِرُ الأمر[4].

المَعنى الإجْماليُّ:

ذروةُ التَّحدِّي وذروةُ الإنكارِ والرَّفضِ يُنبئُ بمجيء العقاب

يحكي النَّظمُ الجليلُ عنِ الرُّسل قولَهم لأقوامهم المشركين المتمسِّكين بالتَّقليد: أتتَّبعون آباءكم ولو جئناكم مِن عند ربِّكُم بأهدَى طريقٍ إلى الحقِّ وأدلَّ على سبيل الرَّشاد ممّا وجدتُم عليه آباءَكم مِنَ الدِّين والمِلَّة؟ فحكَى عِنادَهم وإصرارَهُم إذْ قالوا: إنّا بما أُرسلتُم به جاحدونَ مُنكِرون؛ فتسبَّب عن كُفرِهم ذلك أنْ عذَّبناهم، فانتقمنا منهم بإحلالنا العقوبةَ بهم، فانظُر كيفَ كان عاقبةُ أمرِهم ونهايتُه؛ كيف صارت؟ فقد أهلكناهُم، وجعلناهُم عِبرَةً لغيرِهم، فلْيحذَروا مِن تكذيبهم؛ فيصيبَهُم ما أصابَ السّابقين[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فصلِ الجملة في صدر الآية:

المحاورةُ في الخطاب مُغنيةٌ عنِ العطف

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، سيقَتْ للجواب عن سؤال، فكأنَّه قيل: ماذا قال كلُّ نذيرٍ لأُمَّته عند ذلك؟ ولذا ترك العطفَ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(2) الخليل، العين: (عقب).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (عقب).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 414.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 587 - 588، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 491.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 306.

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتَي الفعل: ﴿قَٰلَ﴾:

حالُ قومِ رسولِ اللهِ يقتضي التَّفصيلَ بالقراءتَيْنِ معًا

قرأ فعلَ القولِ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ ابنُ عامرٍ وحفصٌ، وقرأهُ الباقون بغير ألفٍ على الأمرِ ﴿قُلۡ﴾[1]، وقراءةُ الأمرِ خطابٌ للرَّسولِ ﷺ بأنْ يقولَ ذلكَ جوابًا عن قولِ المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾ [الزخرف: 22]، ويكونُ الضَّميرُ في قراءةِ الماضي ﴿قَٰلَ﴾ عائدًا إلى ﴿نَّذِيرٍ﴾ جوابًا لقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾؛ فحصَل مِن مجموع القراءتَيْن أنَّ جميع الرُّسل أجابوا أقوامَهُم بهذا الجوابِ، وعلى كلتا القراءتَيْن جاء فعلُ ﴿قُلۡ﴾ أو ﴿قَٰلَ﴾ مفصولًا غيرَ معطوفٍ؛ لأنَّه واقعٌ في مجالِ المحاورة[2]، وكان مِنَ الممكن أنْ يُسند فعلُ القولِ إلى ضمير الجماعة (قالوا أوَلو جئناكُم) العائد إلى مجموع الرُّسُل النُّذُر؛ وعلى رأسهِم سيِّدُنا رسولُ اللّه محمَّدٌ ﷺ؛ لا سيِّما أنَّ ثمَّة قراءةً متواترةً بالجمع، وهي قراءة أبي جعفر المدني: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ جِينَٰكُمُو﴾[3]، ولكِنَّ القراءتَيْنِ تفصيلٌ ترتَّبَ على التَّفصيل في عرض مقالة قريش لرسول اللّه في الآية الثّانية والعشرين، ومقالةِ الأقوام السّابقين لرسلهم في الآية التي بعدَها، وقراءةُ الفعل الماضي إمعانٌ في التَّفصيل، بالنَّصِّ على مقالة كلِّ رسولٍ نذيرٍ لهم؛ وهذا التَّفصيلُ كلُّه أبلغُ في التَّسلية والتَّسرية عن نبيِّنا ﷺ مِن جهةٍ؛ وفي ترهيب قومه الكفّار بأحوال السّابقين التي اقتضَت عقابَ اللّه وعذابَه في الدُّنيا قبلَ الآخرة؛ لأنَّهم قومٌ مُسرِفونَ في الكفر، مِن جهةٍ أخرى؛ فكانتِ القراءتان من مقتضَيات السِّياق.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 369، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 495.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 189.

(3) أبو جعفر يبدل الهمز الساكن ويضم ميم الجمع وصلًا.

بلاغةُ التَّعبير بالاستفهام في: ﴿أَوَلَوۡ﴾:

ليس من شأن العاقل اتِّباعُ غير الحقِّ

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الاستفهام (الهمزة) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ للإنكار والتَّجهيل[1]، أي: أتتَّبعونَ دينَ آبائكم ولو جئتُكم بدينٍ أهدَى منه؟![2]، فالهمزةُ للاستفهام التقريريِّ المَشوبِ بالإنكار؛ فالمقصودُ تقريرُهم على ذلك، لاستدعائهم إلى النَّظَر فيما اتَّبَعوا فيه آباءَهم؛ لعلَّ ما دعاهُم إليه الرَّسولُ أهدَى منهم، وقُدِّمتِ الهمزة على الواو لأجل التَّصدير، والتقدير: أتقتدونَ بهم ولو جئتُكم؟[3]، فالهمزةُ داخلةٌ على جملةٍ مقدَّرةٍ دلَّ عليها السِّياق، ثمَّ عُطِفَ عليها بالواو[4].

بلاغةُ العطف بالواو:

التَّلطُّفُ في دعوة الضَّالِّينَ ومُجاراتُهم أصلٌ في الدَّعوة إلى الله

عطفَ النَّظمُ الجليلُ جملةَ (لو جئتُكمْ) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ بالواو على الجملة المقدَّرة بعد همزة الاستفهام، والتَّقدير: (أتتبعونَ آباءكم ولو جئتُكم بدينٍ أهدَى من دينهم؟)[5]، وهذا العطفُ ممّا يُسمَّى عطفَ التَّلقين، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ [البقرة: 124][6]، فقد وقعَ العطفُ بين جملتينِ لقائلَين مختلفَين، مفصولتَين بالفعل: ﴿قَٰلَ﴾، والمتكلِّمُ في الجملة الثّانية مُجارٍ للمخاطَب على قوله؛ فالرَّسولُ قد جارَى المشركينَ بقولهم بأنَّهُم وجَدوا آباءَهُم على دينٍ يستحقُّ أن يُؤَمَّ، ثمَّ عَرضَ عليهم ما هو أهدَى منه؛ تلطُّفًا معهم، ومداراةً لهم.

نكتةُ التَّعبير بـ(لو):

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بـ(لو) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 47/ 4.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 245.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 44، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 190.
(4) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 438.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 245.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 189.

الـكـافـرون يُعلنون إعلانَ الكفر في كلِّ الأحوال، حتَّى في حالِ ظهورِ الهُدَى والحقِّ

﴿بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾؛ وهي هنا شرطيَّةٌ بمعنى (إنْ)، فهي حرفُ شَرطٍ للمستقبل غيرُ جازم، أي: (إنّا ثابتون على دين آبائنا وإنْ جئتَنا بما هو أهدَى، وإنّا كافرونَ بدينكم وإنْ كان أهدَى ممّا كنّا عليه)[1]، كقوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ [النساء: 9][2]، فهي حرف شرطٍ حُذِفَ جوابُه؛ لدلالة ما قبْله عليه، والمقصودُ به المبالغةُ، ويُقال لها الوصليَّة؛ لأنَّها أفادتِ الوصلَ والرَّبط مع التَّأكيد[3]، فهو تأكيدٌ لفساد نيّاتهم، وقد جاء التَّعبير بهذا الأسلوب إلجاءً لهم إلى الاعتراف بسوء نيّاتهم التي يُضمِرونها[4]، فهُم لا يبتغونَ الهداية؛ بل محضَ التَّقليد الأعمى.

التَّوجيهُ البلاغيُّ لِقراءتَي: ﴿جِئۡتُكُم﴾:

مـقـامُ رسولنا أعـلـى مـقـامٍ في الأنبياء والرُّسل

قرأ أبو جعفر المدنيُّ قولَهُ تعالى: ﴿جِئۡتُكُم﴾ بالنّون في موضع التّاء مع ألفٍ بعدَها، هكذا: ﴿جِينَٰكُمُۥ﴾، وقرَأَهُ الباقون بتاء المتكلِّم[5]، فقراءةُ التّاء بإسناد المجيء إلى مفردٍ تتناسبُ مع القراءتيْن في ﴿قُلۡ﴾، و﴿قَٰلَ﴾؛ وقراءةُ النّون بإسناده إلى ضميرِ الجمع تتناسبُ مع قراءة الأمر ﴿قُلۡ﴾؛ "وأبو جعفر من الذين قرأوا ﴿قُلۡ﴾ بصيغة الأمر؛ فيكونُ ضمير ﴿جِينَٰكُمُۥ﴾ عائدًا إلى النَّبيِّ ﷺ المخاطَب بفعل﴿قُلۡ﴾؛ لتعظيمهِ ﷺ من جانبِ ربِّه تعالى"[6]، كأنَّ في قراءة الجمع نفيًا لشُبَهتهم التي قالوها في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ من قبْل إيراد هذه الشُّبهة؛ كما قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: 43] ثمَّ عاتبَهُ فقال: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: 43]، وهذه فائدةٌ شريفةٌ لَمن يتأمَّل.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 628.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 344.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 306.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن 13/ 78.
(5) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 495.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 189.

ويجوز أنْ تكون صيغةُ الجمع للاستتباع؛ أي يُراد بها الرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ؛ على أنَّه اسْتتْبَع إخوانَه مِنَ الرُّسُل معه في الكلام؛ وفي ذلك كلُّ تعظيم له أيضًا؛ وتَحَدُّثُه ﷺ بلسانهم جميعًا لأنَّه إمامُهم وخاتَمُهم؛ وفي هذا كلُّ تسليةٍ ربّانيَّةٍ له.

دلالةُ صيغة التَّفضيل (أَهْدَى):

مجاراةُ الكافر في ظنِّه؛ إرخاءً للعنان، وابتغاءً للعِظةِ والتَّذكُّر

عبَّر النَّظمُ الجليلُ باسم التَّفضيل في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾؛ فأطلقَ الهُدى على منهاج آبائهم المشركين، والضَّلالةُ "ليستْ من الهدايةِ في شيءٍ؛ وإنَّما عبَّرَ عنها بذلك مُجاراةً معهم على مسلكِ الإنصاف"[1]، فهو إرخاءٌ للعنان، ومجاراةٌ لهم تلطُّفًا معهم، ليتَّعظوا ويتفكَّروا، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: 24][2].

بلاغةُ التَّعبير بالموصوليّة في: ﴿مِمَّا﴾:

جزئيّاتُ الشَّريعة أهدَى مِن عُمومِ دينِ المشركين

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالاسم الموصول (ما) الدّالِّ على الإبهام والعُموم في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾؛ دونَ الاسم الصَّريح، فلم يقُلْ: (أهدَى من دينِ آبائكم)؛ تهوينًا لدين آبائهم، وتقليلًا مِن شأنه؛ في مقابلةِ غايةِ تعظيمِهم لدينِ آبائهم، وافتخارِهم به، ويُفيدُ أيضًا أنَّ الأفضليَّة واقعةٌ على عموم الأحكام والتَّعاليم التي يتضمَّنُها الدِّينانِ في سياق المفاضلة، ونظْمُ قوله: ﴿وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ صلةً أبلغُ في التَّحدِّي؛ فقد ذاعَ عنهُم ذلك القولُ، واشتهر.

دلالةُ المُضِيِّ في صلة الموصول:

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل الماضي في صلة الموصول في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ لأنَّهم وجدوا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 44.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 438، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 190.

آباءَهم على ذلك الدِّين في زمانٍ قد مضى وانقطَع، فهم لا يجدونَ آباءَهم على التَّجدُّد والاستمرار.

نكتةُ تقديمِ شبْه الجملة على المفعول به:

قدَّمَ النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة على المفعول به في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ﴾؛ فلم يقُلْ: (وجدتُم آباءَكم عليه)؛ وذلك للاهتمام بشأن الدِّين، فهو أصلُ الخلاف، وتقليدُ الآباء إنَّما وقعَ لأجل المحافظةِ على ذلك الدِّين.

دلالةُ إضافةِ الآباءِ إلى ضمير المخاطَب:

مهاجمةُ الكافر في أقـدَسِ ما يُقدِّسهُ تحطيمٌ لاستكباره، وتفريغٌ لأعذاره

أضافَ النَّظمُ الجليلُ الآباءَ إلى ضمير المخاطَب في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ﴾ للتَّصريح بأفضليَّة الدِّين الذي يدعوهم إليه على دين آبائهم، فلمّا أعلنوا تمسُّكَهم بدين الآباء صرَّحَ بأفضليَّة ما يدعوهُم إليه مع ذِكر الآباءِ الذين يُقدِّسونهم؛ تجريئًا لهم على المقارنة بين الدِّينَين، وحثًّا لهم على النُّزول مِن تكبُّرهم واستعلائِهم إلى ملاحظةِ الفرق بين المنهجَيْن.

سرُّ فَصْلِ الجملة:

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾؛ لأنَّها مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، سِيقَتْ للجواب عن سؤالٍ نشأ عنِ الإخبار بالإتيان بدينٍ أهدَى ممّا وجدَ عليه المشركون آباءَهم، فكأنَّه قيل: ماذا أجابوا؟ فحكَى ما أجابوا به[1].

سِرُّ التَّوكيد في جملة مَقولِ القول:

يُحاولون إظهارَ شدَّة كُفرهم، ردًّا على قوَّة الحقِّ وإزهاقِه باطلَهم

أكَّد النَّظمُ الجليل جملةَ مقولِ القول في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾؛ وذلك للدَّلالة على إصرارهم على الكفر وتمسُّكهم بما ورثوهُ عن آبائهم[2]، والمرادُ من ذلك بثُّ اليأس في

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 413.

(2) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 298.

نفوسِ مَن يدعونهُم؛ فأكَّدوا ثباتَهم على دين آبائِهم حتَّى في حالةِ مجيءِ ما هو أهدَى منه[1].

دلالةُ التَّعبير بالموصول (ما):

رفْضُ المشركين دعـوةَ الحقِّ جملةً وتفصيلًا

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالاسم الموصول (ما) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾؛ للدَّلالة على كفرهم بعموم ما جاء به الرُّسل[2]، فقد كفروا بالمعتقدات والأحكام والآداب والوصايا الحسنة، وهذا التَّعميم إنَّما يصدرُ عنِ الإصرار على الضَّلال، وتركِ النَّظر في أدلَّة الدّاعي؛ فهو تعبيرٌ عَنِ العناد والمكابرة.

دلالةُ التَّعبير بـ(الإرسال) مادَّةً، وصيغةً:

تعبيرُ الكفّار عنِ الدَّعوة بلفظ الرِّسالة تهكُّمٌ بالمرسلين

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بفعل الإرسال في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾؛ وذلك للدَّلالة على التَّهكُّم بالمرسلين[3]؛ إذ إنَّهم لا يؤمنون بالرِّسالة أصلًا؛ فذكروا الرِّسالةَ مجاراةً للمرسلين، أي: "أيُّها المدَّعونَ للرِّسالة"[4]، وآثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المبنيِّ للمفعول؛ للدَّلالة على أنَّهم كفروا بالرِّسالة مِن أيِّ مُرْسِلٍ كان[5]، وأسنَدوهُ إلى ضمير الجمع دون أن يقولوا: (بما أرسلتَ)؛ وذلك للدَّلالة على أنَّهم فعلوا ذلك في حالةِ الإجماع[6]، وأنَّهم كفروا بالرِّسالاتِ جميعًا تعبيرًا عن كونهِم يُكذِّبونَ الوحيَ بالجملة؛ ومَن كذَّب برسولٍ واحدٍ فقد كذَّب بجميع الرُّسُل.

نكتةُ تقديمِ شبْه الجملة على المسنَد:

حصرُ الكفر في الرِّسالة تأييسٌ للمرسلين

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة ﴿بِمَآ﴾ على المسنَد في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾؛ فلم يقُل: (إنّا

(1) المراغي، تفسير المراغي: 25/ 81.
(2) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 298.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 190.
(4) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 298.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 413.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 44.

كافرونَ بما أرسلتم)؛ وذلك لتأكيد كُفرهم بالرِّسالة، فجعلوهُ مخصوصًا بما أُرسِلوا به، بمعنى: أنَّهم لو كفَروا بشيءٍ فإنَّهم يكفرونَ بالرِّسالات، وبالمرسَلين.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكُفر مادَّةً، وصيغةً:

الكُفرُ بِستر الظَّاهر مِن الحقِّ صفةٌ راسخةٌ في أهل الضَّلال

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ الكفر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾؛ للدَّلالة على الإنكار والجحود، وأنَّهم قد ستروا ما ظهرَ مِنَ الحقِّ، وقد أفادَ التَّعبيرُ بالجُحود إقناطَ المُرسَلين مِن حصول النَّظر والتَّفكُّر في دعوَتهِم[1]، وجاء التَّعبيرُ باسم الفاعل للدَّلالة على عَراقتهِم في الكُفر، ورسوخِ هذا الوَصفِ فيهم.

معنى الفاء في صدر الجُملة، ودلالةُ التَّعبير بها:

الانتقامُ مِنَ المشركين مترتِّبٌ على عِلَّة الشِّرك

افتتح النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾ بالفاء، وهي هنا للتَّفريع؛ فقد فرَّعتِ العقابَ على قولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾، مع الإشارةِ إلى أنَّه وقعَ عقِبَه دون طولِ مُهلَةٍ مِنَ الزَّمن[2]، وهي دالَّةٌ على السَّببيَّة؛ فإنَّهم لمّا بالَغوا في إظهارِ الكُفر، وأبدَوا إصرارَهم عليه، وكان ذلك ممّا يوجبُ المقتَ الشَّديدَ: أتبَعَهُ بما تسبَّبَ عنه؛ فهو تنبيهٌ على أنَّ عِلَّةَ هلاكهِم إصرارُهم على الكفر[3]، وإيرادُ العقابِ والعِلَّة التي سبَّبَتهُ يُرادُ منه تهديدُ الكفّار بالنَّبيِّ ﷺ[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالانتقام مادَّةً، وصيغةً:

إنَّ اللهَ لا يظلمُ أحدًا، وعقابُه للعباد استحقاقٌ مُسَبَّبٌ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ الانتقام في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾ لدلالة الانتقام على إنكارِ الفعل[5]، فكأنَّه أنكرَ فعاقبَ[6]، وهذا

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 413، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 386.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 190 - 191.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 307.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 628.
(5) الراغب، المفردات: (نقم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقم).

يدلُّ على أنَّهم استحقّوا العقوبةَ لِما أظهروهُ مِنَ الكُفر والإصرار عليه[1]؛ لأنَّ النّقمة هي المكافأة بالعقوبة، واسمُ اللّه ﷻ (المنتقم)، هو البالغُ في العقوبة، وهو (مفتعِلٌ) مِن نَقَم ينقِم إذا بلغَت به الكراهةُ حدَّ السّخط[2]، فلمّا كان فيه معنى المبالغة فسَّروه بأنَّه أهلكَهُم بعذاب الاستئصال[3]، فإيثارُ التَّعبير بصيغة (الافتعال) إنَّما هو لمجرَّد المبالغة[4]، لأنَّ اللّه تعالى لا يتكلَّفُ الأشياءَ ولا يُحْوِجه منه عليها جهدٌ.

أبـلَـغُ الانـتـقـامِ وأشدُّه ما أمَرَ به كـامِـلُ العظمةِ والقدرة ﷻ

دلالةُ إسنادِ فعلِ الانتقام إلى ضمير التَّعظيم (نا):

أسندَ النَّظمُ الجليلُ فِعْلَ الانتقام إلى صيغة الجمع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾، إذِ الانتقامُ صادرٌ مِنَ اللّه فكانتِ الصِّيغةُ للتَّعظيم، أي: وقعَ الانتقامُ بما للّه تعالى مِنَ العظمة[5]، وذلك للدَّلالة على هَول العقاب وشِدَّته، فهو واقعٌ بما للّه تعالى من كمالِ القوَّة والقُدرة، ويجوزُ أنْ تكونَ هذه الصِّيغةُ للاستتباع، أي: يُرادُ بها اللّهُ تعالى وجُنودُه استتباعًا؛ وما يَعلمُ جنودَ ربِّك إلّا هو، ومآلُ الوجهَين واحد.

لا يُعاقبُ اللهُ إلّا مَنِ استحقَّ العذابَ

دلالةُ التَّقييد بشِبْهِ الجملة ﴿مِنۡهُمۡۖ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بشِبْهِ الجملة في قوله ﷻ: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾ للدَّلالة على تسلُّطِ نقمته تعالى على أولئكَ المكذِّبين الجاحدين[6]؛ فإنَّ مِن رحمةِ اللّه تعالى بعبادِه أن لا يشمَلَ عِقابُهُ إلّا الفئةَ التي كفرَت وأصرَّت، ولا يعُمَّ جميعَ النّاس.

تـكـونُ معـرفـةُ مصير الكافرين برؤيةِ آثار هلاك السّابقين

معنى الفاء ودلالةُ التَّعبير بها في: ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

عطفَ النَّظمُ الجليلُ الأمرَ بالنَّظر على الانتقام في قوله جلَّ

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 270.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نقم).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 414.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 191.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 414.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 215.

شأنُه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بالفاء للدَّلالة على السَّببيَّة[1]؛ فإنَّ التَّأمُّل والتَّفكُّر إنَّما يكون بسبب ما وقَعَ لهم مِن عذاب الهلاك والاستئصال؛ وهذا يعني عِظَمَ ذلك الانتقام، ويشيرُ أيضًا إلى أنَّ آثار تلك الأقوام التي هلكت بالانتقام موجودةٌ[2]؛ فهي شاخصةٌ تُثير فكرَ مَن يراها ويتَّعظُ بها؛ فيتأمَّلُ حالَهُم ومآلهم.

دلالةُ التَّعبير بالنَّظر مادَّةً، وصيغةً:

الاتِّعاظُ والتَّفكُّرُ بمصارع الكفرة مأمورٌ به شرعًا

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ النَّظر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ والمرادُ به نظرُ التّأمُّل والتَّفكُّر، لا نظرُ البصَر؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لَم يَرَ حالةَ الانتقام فيهم[3]، وكذلك أهلُ الإيمان، وجاء التَّعبيرُ عن ذلك بفعلِ الأمر للدَّلالة على عِظم أثرِ النّقمة[4]؛ فإنَّها عِظَةٌ للسّامع ورادِعَةٌ للنّاظر، والمخاطَبُ بفعلِ الأمر عمومُ القادرين على النَّظر والتَّفكُّر والاعتبار، أي: "فانْظُرْ أيُّها المعتبِرُ النّاظرُ"[5]، والغرضُ مِن هذا الأمر تسليةُ النَّبيِّ ﷺ، وإرشادُه إلى عَدَمِ الاكتراث بتكذيب النّاس[6]، ولعلَّه إنَّما أمرَ بالنَّظر دون أن يقول: (فتأمَّل)، أو: (فتفكَّر)، لأنَّ النَّظر كأنَّه يستدعي صورةَ مَن ينظُرُ بعينه شيئًا بِتَمَعُّنٍ؛ ليراهُ واضحًا، فقيل للتَّفكُّر في شيءٍ لإبصار حقيقتِه: (نظَر)، فهو سبيلٌ لإدراكِ الحقيقة، كإدراكِ النّاظر شيئًا بعينه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 414.
(2) القنوجي، فتح البيان: 12/ 344.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 191.
(4) الخطيب، السراج المنير: 3/ 559.
(5) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 298.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 25/ 81.

دلالةُ الاستفهام بـ﴿كَيۡفَ﴾:

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ باسم الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ إشارةً إلى أنَّ عقابهم، وحالتَه مِنَ العظمة، جديرةٌ بأن يتفكَّر فيها العاقلُ البصير(1).

دلالةُ التَّعبير بلفظ (العاقبة):

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ العاقبة في قوله ﷻ: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ لِلدَّلالة على نهاية أمرِهم وخاتمتِه، على جهةِ تَرَتُّبِها على ما كان منهم مِن إصرارٍ على الكفر؛ وهذا أدلُّ على التَّرهيب والتَّهديد؛ فقد أصبحوا مَثَلًا يُضرَب، وعِبرَةً تُعتبَر(2).

دلالةُ التَّعبير باسم الفاعل ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

شِدَّةُ تكذيبهم وإصرارِهم عليه صفةٌ راسخةٌ في أهل الكفر

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ التَّكذيب باسم الفاعل على وزن (مُفعِّلٍ) بتضعيف العين في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّهم كانوا مُصرِّين على التَّكذيب(3)، وأنَّهم عريقون فيه، وأنَّ الوصفَ ثابتٌ لهم لا يزولُ.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

العاقبة والنِّهاية:

العاقبةُ أعمُّ مِنَ النِّهاية

(العاقبة) ما يعقبُ شيئًا ويَخلفُه بعده؛ سواءٌ أكانَ الثّاني لا شيءَ بعدَه، أم لا؛ لأنَّ أصلَه يدلُّ على تأخير شيء، وإتيانِه بعدَ غيره(4)، وأمّا المُنتهَى أوِ النِّهاية فهو الشَّيء الذي يعقبُ شيئًا، ولا يعقبُه شيءٌ؛ لأنَّ أصلَه يدلُّ على غايةٍ وبُلوغٍ(5)، والنِّهايَةُ: الغايةُ، يقال: بلغ نِهايَتَهُ(6)،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 414، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 191.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 386.
(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 298.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهي).
(6) الجوهري، الصحاح: (نهى).

وأنهيتُ إليه السَّهم: أوصلتُه إليه، وانتهى: بَلَغ. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: 44]، أي: عِلْمُ موعدِ السّاعة ينتهي إلى الله تعالى، أي: يتوقَّفُ العلمُ بوقتها عنده تعالى[1]، وعبَّر في الآية بالعاقبة لأنَّها كانت الجزاءَ الذي عقَب جُرمَهم، فهو شيءٌ يعقُب شيئًا، ويَخلُفُه، فعبَّر بذلك على أنَّ الجزاء كان نتيجةً لفعلهم؛ فكان آخِرُ أمرِهم أن أصبحوا مثلًا وعِبرَة[2].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نهى).

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 386.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾ [الزخرف: 26 - 28]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

في إبراهيم وسُنَّتِه أسوةٌ وقدوةٌ للنّاس

لمّا بيَّن النَّظمُ الجليلُ ضلالَ الأقوام، بسبب اتِّباعهم التَّقليدَ دون الحُجَّةِ والبرهان، وبيَّنَ أنَّه طريقٌ فاسدٌ يورث سوءَ العاقبة، ويُحلُّ على أتباعه النّقمةَ: أردَفَهُ بقصَّة إبراهيم عليه السلام وهو أشرفُ آبائهم؛ مذكِّرًا إيّاهم بأنَّه قد ترك دينَ آبائه، وآثرَ اتِّباعَ الدَّليل على التَّسليم للتَّقليد، فيجبُ عليكم تقليدُه واتِّباعُه في طريقته[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَرَآءٞ﴾: (برأ) أصلٌ يدُلُّ على التَّباعُدِ من الشَّيْءِ ومُزايَلَتِه[2]، والبُرْءُ: السَّلامةُ منَ السَّقَم، والبراءةُ من العَيب والمكروه[3]، وأصلُ البُرْءِ والبَراءِ والتَّبَرِّي: التَّقصِّي ممّا يُكرَه مُجاورتُه؛ ولذلك قيل: بَرَأتُ مِنَ المرض، وبَرِئْتُ مِن فلان[4]، وتَبَرَّأتُ مِن كذا، وأنا بَراءٌ مِنهُ وخَلاءٌ[5]، وهو في الآية مصدرٌ بمعنى: بريء، أي: متبرِّئٌ، والمقصودُ به فيها التَّخلِّي مِمّا يعبدُه أبوهُ وقومُه بالكُلِّيَّة.

2) ﴿فَطَرَنِي﴾: (فطر) أصلٌ يدُلُّ على فتح شيءٍ وإبرازِه[6]، وعلى خروج الشَّيء أو نَفاذِهِ أوَّلَ أمرِه؛ بأنْ يُشَقَّ ما فوقه، ومِن معنى

(1) المراغي، تفسير المراغي: 25/ 83، وينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 628.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).
(3) الخليل، العين: (برأ).
(4) الراغب، المفردات: (برأ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (برأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فطر).

الأوَّليَّة والبدء يأتي معنى الخَلْق، لأنَّه بدءُ الوجود[1]، وفطَر اللهُ الخَلْق: خَلَقَهم، وابتدأ صَنْعة الأشياء، وهو فاطرُ السَّماواتِ والأرض[2]، والفَطْرُ: الابتداءُ والاختراعُ، قال ابن عبّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "كنتُ لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: 14] حتَّى أتاني أعرابيّانِ يختصِمان في بئر؛ فقال أحدُهما: أنا فَطَرْتُها، أي: أنا ابتدأْتُها"[3]، والمرادُ به في الآية الكريمة: (خَلَقَني مِن عدمٍ)[4].

3) ﴿بَاقِيَةً﴾: (بقي) أصْلٌ يدلُّ على الدَّوام[5]، وبَقِيَ الشيءُ يَبْقَى بقاءً، وهو ضدُّ الفناء، يقال: ما بَقِيَتْ منهم باقيةٌ، ولا وقاهُم من اللهِ واقية[6]، والعربُ تقول للعدوِّ إذا غلبَ: البقيَّةَ! أي: أبْقوا علينا، ولا تستأصِلونا[7]، والبَقاء: ثباتُ الشَّيء على حاله الأولى، وهو يُضادُّ الفناءَ[8]، والمرادُ به في الآية الكريمة: ثباتُ الكلمة، وعدمُ فنائها، فلا يَزال التَّوحيد فيهم[9].

4) ﴿عَقِبِهِۦ﴾: (عقب) أصلٌ يدُلُّ على تأخير شيءٍ وإتيانه بعدَ غيره[10]، والعَقِبُ: مُؤَخَّرُ القَدَم، وكُلُّ شيءٍ يُعْقِبُ شيئًا فهو عَقيبُه؛ كقولك: خَلَفَ يَخْلُفُ بمنزلة اللَّيْلِ والنَّهار؛ إذا قضى أحدُهُما عَقِبَ الآخر؛ فهُما عقيبانِ؛ كلُّ واحدٍ منهما عَقيبُ صاحبه، وعَقِبُ الأمرِ: آخِرُه، وعاقِبَةُ كلِّ شَيءٍ: آخِرُه[11]، وكلُّ شيءٍ خَلفَ بعد شيءٍ فهو عاقبٌ له، ولهذا قيلَ لوَلَدِ الرَّجل: عَقِبُه، وكذلك آخرُ كلِّ شيءٍ عَقِبُه[12]، وقولهم: ليست لفلانٍ عاقبةٌ، أي: ولد[13]، والمرادُ به في الآية الكريمة: الذُّرِّيَّة[14].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فطر).
(2) الخليل، العين: (فطر).
(3) الجوهري، الصحاح: (فطر).
(4) الخازن، لباب التأويل: 4/ 108.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بقي).
(6) الخليل، العين: (بقي).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (بقي).
(8) الراغب، المفردات: (بقي).
(9) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 270.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(11) الخليل، العين: (عقب).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (عقب).
(13) الجوهري، الصحاح: (عقب).
(14) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 629.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

قِصَّةُ إبراهيمَ مثالٌ شاهِدٌ على بُطلان التَّقليد

يقول تعالى حكايةً عَن قصَّة إبراهيم مع قومه المشركين: اذكُر أيُّها النَّبيُّ الكريمُ وقتَ قولِ إبراهيم لأبيه وقومِه الذين كانوا يعبدونَ ما يعبدهُ قومك: (إنَّني بريءٌ مِمّا تعبدونَ من شيءٍ إلّا الذي خلَقَني، فإنَّه سيوفِّقني لاتِّباع سبيل الرَّشاد)، وجعلَ إبراهيمُ ﵇ كلمةَ التَّوحيد (لا إله إلا الله) شعارًا باقيًا في ذُرِّيَّته مِن بعده؛ لعلَّهم يرجعون إلى طاعةِ ربِّهم وتوحيدِه، ويتوبونَ مِن كُفْرِهم وذنوبهم(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو) في مُفتتح الجملة:

القـرآنُ يُحـاجُّ الكُفّارَ بمنهجِهم وأقوالِهم

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ بالواو على عُموم ما سبقَ ذِكْرُه مِن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾، وهو مِن عَطْفِ غَرَضٍ على غَرَضٍ، أي عطفُ الغرض مِن ذِكْرِ قصَّة إبراهيم على الغرض مِن ذِكْرِ ضلال الأمم السّابقة وتمسُّكِهم بالتَّقليد، والمعنى: (واذْكُرْ زمانَ قولِ إبراهيم لأبيه وقومه قولًا صريحًا في التَّبرِّي مِن عبادة الأصنام)(2)، ودلالةُ هذا العطفِ بيانُ أنَّ أعظمَ آبائهم - إبراهيم ﵇ - أولى الآباءِ استحقاقًا للتَّقليد، مع ثبوت الدَّليلِ على هذا؛ لأنَّ إيمانه عن دليلٍ وبرهانٍ، كما في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ فقد تمسَّكوا بدين آبائهم كما حكاهُ سِياقُ السِّباق تمسُّكًا شديدًا عنيفًا.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف (إذ):

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالظَّرف في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾؛ وهو ظرفٌ للفعل المقدَّر

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 588، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 491.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 192.

بـ: (اذكُر)، أي: (واذكُر الحادثَ وقتَ قولِ إبراهيم)[1]، ولعلَّه إنَّما أتى بالظَّرف في مفتتح القصَّة دون أن يقول: (وقال إبراهيمُ لأبيه)، وذلك للتَّنبيه على سياق القصَّة في زمانها، والغرضُ منه استحضارُ قِصَّة إبراهيم كامِلَةً مع ملابساتِها، لا القصَّةَ وحْدَها مجرَّدةً، وهذا أنسَبُ في غرضِ الوعظِ بالقَصص، فليسَ المرادُ حكايةَ أحداثِ القصَّة وحسب، ولو لم يُذكَرِ الظَّرفُ لانتبه السّامع إلى أحداث القصَّة مجزَّأةً، فالظَّرفُ يتضمَّن التَّنبيهَ على أنَّ مضمون القصَّة مسوقٌ لمناسبة السِّياق العامِّ للكلام وأغراضِه.

كلُّ أجزاء قصَّة إبراهيم رادِعَةٌ عـن التَّقليد مُبيِّنةٌ ضلالَهُ

سِرُّ ذِكرِ إبراهيم عليه السلام:

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ ذِكرَ إيرادِ قِصَّةِ إبراهيم معبِّرًا باسمه مُجَرَّدًا في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ وذلك لتذكير السّامعين من مُشركي العرب بأعظم آبائهم، فلمّا ذَكَروا أنَّهم يتَّبعون آباءَهم ذُكِّروا بأشرَفِ أبٍ لهُم ينتسبون إليه، وهو قد نبذَ الأصنامَ والتَّقليد، فكان ادِّعاؤهُم اتِّباعَ الآباءِ موجبًا لهم اتِّباعَ إبراهيم عليه السلام[2].

النَّبيُّ إبراهيمُ عليه السلام أبٌ لهم؛ أفلا يتَّبعونَهُ؟!

سِرُّ إيقاعِ قولِ إبراهيم على أبيه:

علَّق النَّظمُ الجليلُ قولَ إبراهيمَ بأبيه، وخصَّ ذِكرَه - وهو واحدٌ مِن القوم المخاطَبين عمومًا - في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾؛ وذلك للاهتمام بذِكره؛ "لأنَّ براءة إبراهيم ممّا يعبدُهُ أبوهُ أدَلُّ على تجنُّب عبادةِ الأصنام بحيثُ لا يُتسامح فيها؛ ولو كان الذي يعبُدُها أقربَ الناس إلى موَحِّدِ اللّه بالعبادة، مثل الأب، ولتكونَ حكايةُ كلامِ إبراهيمَ قُدوةً لإبطال قولِ المشركين"[3]، فخُصَّ

نَبْذُ التّقليد مِن سُنَّةِ الأجداد، فما بالُ أقوامٍ يتمسّكون بتقليد الآباء؟!

(1) حاشية القونوي: 17/ 307.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 89.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 192.

ذكرُ أبيه ليتبيَّنَ لهم أنَّهم حينما تمسَّكوا بضلالِ الآباء فإنَّ إبراهيمَ قد قصَدَ أباه، وأسمَعَهُ كلمةَ التَّبرُّؤِ مِنَ الضَّلال، أفلا يقتدون به؟!.

دلالةُ عطفِ (قومِهِ) على (أبيه):

في ذِكْرِ الخاصِّ قبلَ العامِّ ترقٍّ في الدَّعوة

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ قومَ إبراهيم على أبيه في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ مفارقة الفردِ للجماعة أشدُّ مِن مفارقته للفرد، فبيَّن شدَّةَ ما لاقاه إبراهيم مِن نبذه التَّقليدَ، داعيًا إلى اتِّباعَه على ذلك[1]، فهو دعوةٌ لهم على استسهالِ ترك التَّقليد، وخلعِ تقليدهم مِن رتبة التَّقديس.

وفي تقديمِ الأبِ على القوم اهتمامٌ بإبطال كون حُجَّتِهم اتّباعَ الآباء؛ فقدَّم ذِكرَ الأب تنبيهًا على أنَّ أشرفَ آبائهم قد نبذَ تقليدَ أبيه، ثمَّ إنَّ مخالفة الأب والتَّخلِّيَ عن تقليده منزلةٌ مُلزِمةٌ لرتبةٍ ساميةٍ مِنَ التَّجرُّد للحقّ.

سِرُّ التَّوكيد في جملة مَقول القَوْل:

الـتَّـصـريـح بـالـبراءة مِـنَ الكفر يـدلُّ على عُلوِّ الإيمان

حكى النَّظمُ الجليل مقولةَ إبراهيم ﵇ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّه قد جَهَر وصرَّح بالتَّبرُّؤ مِن دين آبائِه[2]، وقد جاء مقولُ القَول مؤكَّدًا غايةَ التَّأكيد؛ فجاء جملةً اسميَّةً، وقد تصدَّرها حرفُ التَّأكيد (إنَّ)، وأُظهِرَت نونُ الوقاية؛ وذلك لأنَّهم "كانوا لا يتخيَّلون أصلًا أنَّ أحدًا يكون مخالِفًا لهم"[3].

دلالةُ التَّعبير بالبراء مادَّةً، وصيغةً:

إعــلانُ نـبـذ الـشِّرك بأقصى درجـات الـتَّـبرُّؤ شأنُ العظماء

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ البراء في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ لدلالته على التَّقصِّي والابتعاد عمّا يُكره مجاورتُه[4]، فدلَّ على أنَّه أعلنَ كراهتَه لأصنامهم، وأنَّه نابِذٌ لهم،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 414.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 192.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 415.
(4) الراغب، المفردات: (برأ).

ومُفارِقٌ لجماعتهم؛ والتَّبرُّؤ أوسعُ معنًى وأسخَى دلالةً؛ فهو أبلغُ في تحديدِ عقيدته، وجاء التَّعبيرُ بصيغة المصدر دون الوصف، فلم يقُلْ (بريء)، وذلك للمبالغة في براءته[1]، فجعَلَ نفسَه البراءَ ذاتَه، وهذا منتهى المبالغة في الاتِّصاف بصفةٍ ما.

معنى (ما) ودلالةُ التَّعبير بها:

براءةُ المؤمن مِنَ الأصنام وإن لم تُعبد

عبَّر النَّظمُ الجليل بـ(ما) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾؛ وقد أجاز أئمَّةُ التَّفسير أن تكون مصدريَّةً، والتَّقدير: (مِن عبادتكم)، وأن تكون موصولةً، والتَّقدير: (مِن الذين تعبدونهم)[2]، وقد نبَّه القونويُّ على أنَّ تقديرها موصولةً أبلغ؛ "لأنَّه مستلزمٌ للأوَّل دون الأوَّل؛ لأنَّ المُرادَ بالمعبود الأصنامُ فقط، والبراءةُ من الأصنام أقوى في المَرام"[3]، وهو اختيار الإمام ابنِ عاشور، فالموصولُ أبلغُ في التَّبرُّؤ؛ لأنَّ البراءةَ مِنَ الأصنام تدلُّ ضمنًا على البراءة مِن عبادتها، والبراءةَ مِنَ العبادة فحسبُ لا تستلزم البراءةَ مِنَ الأصنام ذاتًا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه يلزمُ التَّبرُّؤ مِنَ الأصنام في كلِّ حالٍ، عُبِدَت أو لم تُعبَد، والمصدريَّةُ لا تدلُّ على هذا المعنى، فهي براءةٌ مِنَ الحدثِ لا مِنَ الذّات، أمّا الموصولةُ فبراءةٌ مِنَ الذّات وما بُنِيَ عليها، وفي الموصول دلالةٌ على العموم، فتكون البراءةُ شاملةً لِكُلِّ الأصنام، ولكلِّ معبودٍ من دون اللّه تعالى[4].

دلالةُ التَّعبير عنِ العبادة بالفعل المضارع:

تجدُّدُ البراءة من آلهتهم ودوامُها

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ العبادة بالفعل المضارع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ العبادة فعلٌ لا يُتصوَّر إلّا بحالةِ التَّجدُّد والدَّوام، فهو براءةٌ مِن العبادة في الحال، وفي

(1) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 438.
(2) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 438، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 44.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 308.
(4) الواحدي، البسيط: 20/ 31.

الاستقبال[1]، والفعلُ المضارعُ يشير إلى دوام براءته؛ فلمّا تبرَّأ من المعبود، وأخبرَ أنَّهم يُجدِّدون عبادتَه: دلَّ ذلك على دوام براءتِه، ويُشيرُ كذلك إلى إصرارهم على تلك العبادة، وأنَّهم دائبون عليها.

دلالةُ حذف المفعول في: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾:

حذَفَ النَّظمُ الجليلُ المفعولَ به في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾، والتَّقدير: (تعبدونه)[2]؛ وذلك تهوينًا لمعبودِهم بإغفال ذِكرِه، وطلبًا للإيجازِ بحذفِ ما يُعلم مِنَ السِّياق، وحفظًا لنسَقِ الفاصلة.

نوعُ الاستثناء ودلالتُه:

البـراءةُ شامِلةٌ لكلِّ معبودٍ إلّا المعبودَ بحقٍّ جل جلاله

أفاد الاستثناءُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ عَدَمَ التَّبرُّؤ مِنَ الخالق تعالى، أي: (أتبرَّأ مِن كُلِّ معبوداتكم إلّا مِن اللّه ﷻ)[3]، وهو صالِحٌ لأن يكون استثناءً منقطعًا، وذلك بأنَّهم كانوا يعبدون أصنامهم فقط، ولا يعبدون اللّه تعالى، أو يكونَ متَّصلًا، إذا كانوا يعبدون اللّه تعالى ويُشركون معه الأصنام[4]، وإنَّما يكون متَّصلًا إذا اعتُبِر الاسمُ الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ شامِلًا للعاقل وغيره على إرادة الوصف، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 3] بمعنى: الطَّيِّبات[5].

علَّةُ التَّعبير بالموصوليَّة:

أهـلُ الكـفـر لا يـعـمـلـون بـمـقـتـضَى ما يعلمون

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾؛ لأنَّ الخالق معهودٌ معروفٌ، وهم معترفون بأنَّه كذلك ومقِرّون به؛ وهو معروفٌ عندهم بهذه الصِّلة ﴿فَطَرَنِي﴾؛ وهذا يُقوِّي كونَ الصِّلةِ تعليلًا في المعنى للنَّفي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 415.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 589.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 629.
(4) ابن جزي، التسهيل: 2/ 257.
(5) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 438، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 44.

والإثبات في السِّياق؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ بمنزلة (لا)، وقوله: ﴿مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ بمنزلة (إله)؛ إذ كلُّ معبودٍ يُسمَّى إلهًا؛ فآل ذلكَ إلى: (لا إلهَ إلّا الذي فطرني)[1].

دلالةُ التَّعبير بالفَطْر مادَّةً وصيغةً:

موجِدُ الإنسانِ مِنَ العدمِ هو المستحقُّ العبادةَ وحده

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفَطر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ لدلالة الفَطر على ابتداء الخَلْق مِنَ العدم، فالفَطْرُ هو الابتداءُ والاختراعُ[2]، فعبَّر بذلك للدَّلالة على أنَّه هو الذي أوجدَهُ وأظهَرَهُ منَ العدم[3]، فنبَّه بهذا الوصف على دليل اعتقاده، أي: (الذي شقَّ العدمَ فأخرَجني منه، ثم شقَّ المشاعرَ والمُدرَك)، ومَن كان بهذه القدرة الباهرة كان منفردًا بالعظمة، مستحقًّا للعبادة وحده[4]، وجيءَ به على صيغة الفعل الماضي للدَّلالة على تحقُّق الفعل.

معنى (الفاء) في: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ ودلالةُ التَّعبير بها:

خالِقُ العبادِ وموجِدُهم هو الهادي إلى الصِّراط المستقيم

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ الهدايةَ على الفَطر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ وذلك لِما فيها من معنى السَّببيَّة؛ فإنَّ اللّٰه تعالى الذي أنعمَ على العباد بإيجادهم قد أوجدَ فيهم ما يُهيِّئُ للهداية مِنَ العقل والحواسِّ؛ فإنَّ مَن قطع العلائقَ مع سائر المعبودات والضَّلالات جديرٌ بأن يمنحَهُ تعالى الهدايةَ، فكان قطعُ تلك العلائق هو السَّببَ في بلوغ الهداية[5].

دلالةُ التَّأكيد في الجملة:

أكَّد النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 21.
(2) الجوهري، الصحاح: (فطر).
(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 299.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 7.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 416.

ردًّا على إنكار مَن يُنكِر تحقُّقَ وصولِه إلى دينٍ وهدايةٍ لَم يُدركها الآباء[1]، فكأنَّهم يحتكرون الهُدى.

دلالةُ التَّعبير بحرفِ الاستقبال (السين):

ثقةُ المؤمن بربِّه تزيدُه هدًى

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحرفِ الاستقبال في قوله جلَّ شأنُه: ﴿سَيَهۡدِينِ﴾؛ فإمّا أن تكون على بابها مِنَ الدَّلالة على المستقبل، ولمّا كان هو مهتديًا قبل قوله ذلك كان المعنى أنَّه سيهديه في المستقبل هدايةً زائدةً على ما كان له قبْلَ ذلك[2]، وهذا تعبيرٌ عن ثقتِه باللّٰه تعالى، وقوَّةِ يقينِه بمولاه[3]، وإمّا أنْ تكون لمجرَّد التَّأكيد، أي: سيثبِّتني على الهداية[4]، فهي إشارةٌ إلى تمكُّن الهداية منه الآن ومستقبلًا[5]، أمّا الدَّلالة على زيادة الهدى لِمَن كان مهتديًا فصرَّح بذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى﴾ [محمد: 17]، وقولُه تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدًىۗ﴾ [مريم: 76]، وهذا يعني إدراكَهُ ﷺ عظيمَ شَرَفِ الإيمان والهداية، وقد أفادَ بهذه الهداية المقترنة بالسِّين هدايتَه في الاستقبال بعد أنْ أفادَ بقوله المحكيِّ في الشُّعراء: ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾ [الشعراء: 78] الهدايةَ في الحال؛ وكأنَّه خصَّ هذا بالسّين لأجل ما عَقَبَها به مِن ذِكرِ عقِبه ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾، فجعل هدايتَهُم هدايتَه[6].

دلالةُ التَّعبير بالهداية مادَّةً، وصيغةً:

التَّوفيقُ للخير والحقِّ محضُ نعمةٍ متجدِّدةٍ مِنَ الله

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الهداية في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾، للدَّلالة على غاية إحسانِه تعالى إليه، وتفضُّلِه عليه؛ لأنَّ الهداية هي الدَّلالةُ بلُطْفٍ؛ فمَن أحسنَ بالإخراجِ مِنَ العدم يُحسن بالرَّحْمة؛ بالإرشادِ اللّطيف الجميل إلى الحقِّ والصَّوابِ والهُدى؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 416.
(2) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 438.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 633.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 44 - 45، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 386.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 193.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 7.

وزادَ في إحسانه تعالى بأنْ كانت تلك الهداية متكرِّرةً مستمرَّةً، على جهة التَّجدُّدِ والحُدوث[1].

دلالةُ (الواو) في صدر الجملة:

مِن فضائل إبراهيمَ توريثُه التَّوحيدَ لِذُرِّيَّته

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ للدَّلالة على أنَّه قد أعلَنَ قولَه ذلك في قومه المعاصِرين، وأنَّه قد جَعَل تلك المَقولةَ باقِيةً في ذُرِّيَّته ينقلونها إلى معاصريهم مِنَ الأُمم؛ وذلك أنَّه قد أوصى بها بَنيه، وأنْ يوصوا بَنيهم بها؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 132][2]، وجاء العطفُ بالواو لأنَّ حادثة توريث الكلمة للذُّرِّيَّة مُغايرٌ لحادثةِ إعلانِها في قومه المعاصرين، فهي فضيلةٌ ومنقبةٌ أخرى لإبراهيم عليه السلام.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجَعْل مادَّةً، وصيغةً:

اتِّخاذُ التَّوحيدِ شِعارًا للذُّرِّيَّة أسمى تَرِكَةٍ يترُكها الأب

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالجَعْل في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾؛ لدلالته على التَّصيير، بأن يُصَيَّر الشَّيءُ على حالة دون حالة[3]، فقد جعل تلك المقولةَ ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ لشيءٍ آخَر؛ فهو اتَّخذها شعارًا لِعَقِبِه يتوارثونه على مَرِّ الزَّمان[4]، ونظْمُ الجعْلِ فعلًا ماضِيًا يدلُّ على غاية اهتمامِه بذلك، وحَسْمِه وفَصْلِه في ذلكَ.

بيانُ مرجع الضَّمائر في: ﴿وَجَعَلَهَا﴾:

مِن شأنِ التَّوْحيدِ أنْ يبقى ويستمرَّ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ ضميران؛ ضميرُ الفاعل، ويُراد به إبراهيمُ عليه السلام، والضَّمير المنصوبُ يعود على المقولة في قوله

---

(1) الراغب، المفردات: (هدى)، والطيبي، فتوح الغيب: 14/ 127.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 193.

(3) الراغب، المفردات: (جعل).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 194.

تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ فهي بمعنى التَّوحيد، والمعنى: (وجعَل إبراهيمُ كَلِمَةَ التّوحيد باقِيَةً في ذُرّيَّته)[1]، فقد أنَّث القرآنُ الكلامَ بعَوْدِ الضَّمير عليه مؤنَّثًا؛ حملًا له على الكلمة؛ وإنَّما يُقال للكلام: (كلمة) إذا كان كلامًا سائرًا على الألسنة مُتمثَّلًا به، أو كان الكلامُ مجعولًا شِعارًا؛ كقولهم: (لا إله إلا اللّه كلمةُ الإسلام)، وما هنا مِن هذا الثّاني؛ فالمعنى: (جعل إبراهيمُ قولَه ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ شعارًا لِعَقِبه)، فلا يخلو عقبُ إبراهيم مِن موحِّدين للّه، نابذِين للأصنام[2]، وجعلُ الكلام كلمةً يعني أنَّه مِنَ الممكن جدًّا بقاؤُه، وأنَّه لا تُعانِدُه فطرةٌ، ولا عقلٌ، ولا واقعٌ.

ثبوتُ التَّوحيد في الذُّرِّيَّة راسخٌ لا يزول

سِرُّ التَّعبير بـ(البقاء) مادَّةً، وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالبقاء في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾؛ لدلالته على ثباتِ الشَّيءِ على حالِه الأولى[3]، وذلك للتَّعبير عن جَعْلِ تلك المقولةِ ثابِتَةً في ذُرِّيَّته[4]، بأن تكونَ موروثَةً بين أجيالهم، محفوظةً مِنَ الضَّياع، متداولةً بينهم[5]، وفي هذا التَّعبيرِ إشعارٌ بأنَّ هذه الكلمة هي سرُّ بقائِهم بقاءً مُرضيًا للّه ﷻ؛ فَهُم أحياءٌ محفوظون بهذه الكلمة، وبضياعها يَضيعون ويَهلكون، ونظْمُ البقاءِ اسمًا إبلاغٌ في تقرير مدلولِه؛ فصيغةُ اللَّفظ مشاكِلةٌ لمعناه.

ذُرِّيَّـةُ إبراهيم لا تخلو مِنَ التَّوحيد؛ فهي كالوعاء الحاوي له

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِى﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ ﴿فِى﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ الذُّرِّيَّة كانت ظرفًا لبقاء هذه المقولةِ، بأنّها تتنقَّل بين الأجيال من

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 633، وابن جزي، التسهيل: 2/ 257.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 194.
(3) الراغب، المفردات: (بقي).
(4) ابن جزي، التسهيل: 2/ 257.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 387.

ذرِّيَّته؛ "فلا يزالُ فيهم مَن يوحِّدُ اللّه تعالى، ويدعو إلى توحيدِه"[1]، وكأنَّ إبراهيم ﷺ يريد أنْ يكون التَّوحيدُ بين لحم ذُرِّيَّته وعَظْمِهم، فلا يخرج منهم بحال؛ فهو كائنٌ في كلِّيَّتهم؛ يهتدون به في كلِّ أحوالهم؛ لأنَّه أشرفُ ما يحتوي عليه قلبُ العبد.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(العقِب):

ذُرِّيَّــةُ الرَّجل تعقُّبُه في الحياة وتأتي بعده

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالعَقِبِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾؛ لدلالته على إتيان شيءٍ بَعدَ غيرِه، كما سُمِّي النَّبيُّ ﷺ العاقبَ؛ وذلك لأنَّه عَقِب مَن كان قبله مِنَ الأنبياء[2]، واستُعمل هنا للدَّلالة على الذُّرِّيَّة التي تأتي بعد الرَّجل، أي: (جَعَلَ التَّوحيد باقيًا في ذُرِّيَّته)[3].

دلالةُ التّعبير بحرف التَّرجِّي:

كلمةُ التَّوحيد منــارةٌ يعــودُ إليها مَن زاغ عن الحقِّ وحاد

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف التَّرجِّي (لعلَّ) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ وقد أجاز أئمَّةُ التَّفسير أن تكون هنا مستَعمَلةً للتَّعليل، فهو تعليلٌ لِجَعْلِه تلك الكلمةَ باقيةً في ذُرِّيَّته، أي: (ليدعو الموحِّدُ منهم المشركَ جيلًا بعد جيل)[4]، وأجازوا إبقاءَ دلالتها على الرَّجاء، ويكونُ الرَّجاءُ مِن إبراهيم ﷺ؛ فهي لإنشاء الرَّجاء[5].

دلالةُ التَّعبير بـ(الرُّجوع) مادَّةً، وصيغةً:

تجدُّدُ الرُّجوع إلى الكلمة الباقية تحقيقٌ لبقائها

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ (الرُّجوع) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ لدلالة الرُّجوع على العَود إلى ما كان منه البدءُ[6]، فلمّا تَرَكَهم على الهدى، وكان مِنَ المعلوم أنَّ الإنسان قد يزِلُّ عن جادَّة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 45.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 629.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 127، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 45.
(5) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 438.
(6) الراغب، المفردات: (رجع).

الحقِّ: جعلَ إبراهيمُ ﷺ تلك الكلمةَ شعارًا لذرِّيَّته؛ لتكون مثابةً لهم، فيرجعوا إليها بعد الضَّلال[1]، وجاء التَّعبير بصيغة الفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّد الرُّجوع واستمراره وتَكراره؛ لأنَّها كلِمةٌ باقيةٌ.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الفَطْر والخَلْق:

الفَطْرُ إيجادٌ على هَيئةٍ مقرَّرةٍ، والخَلْقُ هو الإيجادُ على غير مثالٍ سابقٍ

الفَطْرُ: إظهارُ الحادِث بإخراجه مِنَ العدم إلى الوجود؛ كأنَّه شقَّ عنه فظهَر، وأصلُ البابِ الشَّقُّ، ومع الشَّقِّ الظُّهورُ، ومِن ثَمَّ قيل: تفطَّر الشَّجر؛ إذا تشقَّقَ بالورق، وفطرتُ الإناءَ شققتُه، وفطَر اللّهُ الخَلْقَ أظهرَهُم بإيجاده إيّاهم كما يظهر الورقُ؛ إذا تفطَّر عنه الشَّجَرُ؛ ففي الفَطرِ معنًى ليس في الخَلْقِ؛ وهو الإظهارُ بالإخراج إلى الوجود، وأمّا الخَلْقُ فهو التَّقْدير؛ يُقال: خلقتُ الأديم، إذا قدَّرْتَه خُفًّا أو غيره؛ وخلقَ الثَّوبُ وأخلَقَ، لم يبقَ منه إلّا تقديرُه؛ وإنَّه لخليقٌ بكذا: أي: شبيهٌ به؛ كأنَّ ذلك مُقَدَّرٌ فيه، ويُستعمل الخَلْقُ في إبداع الشَّيء مِن غير أصلٍ ولا احتذاءٍ[2]، فالفَطرُ يدلُّ على أوَّليَّةِ الخَلْق، والخَلْقُ هو الإيجادُ على غير مثالٍ سابقٍ، وفي الآية الكريمة عبَّر بالفَطْر إشارةً إلى دليلِ اعتقادِه؛ وهو أنَّ اللّه تعالى قد شقَّ العدَمَ، فأخرجه منه، ثمَّ شقَّ المشاعر والمُدرَك.

العقِب والولد:

العقب أعمُّ مِنَ الولد

العقبُ أعمُّ مِنَ الولدِ؛ لأنَّ أصله مِن: (عقب) الذي يدلُّ على تأخير شيءٍ وإتيانه بعد غيره[3]، وكلُّ شيءٍ خَلفَ بعد شيءٍ فهو عاقِبٌ له، ولهذا قيل لوَلَدِ الرَّجل عَقِبه، وكذلك آخرُ كلِّ شيءٍ عَقِبه[4]،

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 99.
(2) معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزءًا من كتاب السيد نور الدين الجزائري، ص: 224، و407، والرّاغب، المفردات: (خلق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (عقب).

وقولهم: ليست لفلانٍ عاقبةٌ، أي ولدٌ[1]، أمّا الولدُ فهم أبناءُ الرَّجل، فالوَلَدُ: الابن والابنة، وهُمُ الأهلُ والوَلَدُ[2]، فهو أخصُّ مِنَ العقب؛ فعبَّر القرآنُ في الآية بالعقب؛ لأنَّه أراد عمومَ الذُّرِّيَّة[3]، فيشمل جميعَ ذرِّيَّته التي جاءت بعده.

(1) الجوهري، الصحاح: (عقب).

(2) الراغب، المفردات: (ولد).

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 629.

﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ٢٩ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠﴾

[الزخرف: 29 - 30]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

مَن غَـرَّهُ طـولُ الأمـلِ غَفَلَ عَن وصـيَّـةِ الـحقِّ وشُكرِ النِّعم

لمّا أخبرَ النَّظمُ الجليلُ أنَّ إبراهيم الخليل نبذَ التَّقليدَ، وتمسَّكَ بالتَّوحيد، ووصَّى بَنيهِ بالبراءةِ مِنَ الشِّرك، وجعلَها شعارًا لذرِّيَّته: أتبعَ ذلك ببيانِ أنَّ مِن ذرِّيَّته مَن أعرضَ عن وصيَّته؛ فإنَّ قريشًا مِن عقبه، وهم قد سلكوا التَّقليدَ، وأعادوا مقولةَ أهل الضَّلال؛ لأنَّهم اغترّوا بإمهالِ اللّه تعالى لهم، وإمتاعِه إيّاهم بالنِّعم؛ فأشركوا عِوَضَ أنْ يشكروا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَتَّعۡتُ﴾: (متع) أَصْلٌ يَدُلُّ على مَنْفَعَةٍ وامتِدادِ مُدَّةٍ في خَيْرٍ، والمُتْعَةُ والمَتاعُ: المَنفَعَةُ، ومُتِّعَتِ المُطَلَّقَةُ بالشَّيْءِ؛ لأنَّها تَنتَفِعُ بِهِ[2]، وأصلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ يَمتَعُ مَتْعًا، أي: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ[3]، والمُتعَةُ: المَنفَعَةُ؛ والاستِمتاعُ: الانتِفاعُ[4]، والتَّمتيعُ: الإمهالُ؛ وكلُّ مَوضِعٍ ذُكِرَ فيه (تمتَّعوا في الدُّنيا) فعلى طريق التَّهديدِ[5]، ويُطلَقُ على التَّعمير، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥﴾ [الشعراء: 205]، أي: أَطَلْنا أعمارَهُم[6]، والمقصودُ بالمتاعِ في الآية: المدُّ في العمر والنِّعمة[7].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 629، وابن جزي، التسهيل: 2/ 257.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(3) الراغب، المفردات: (متع).
(4) محمد الأصبهاني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/ 148.
(5) الرّاغب، المفردات: (متع).
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (متع).
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 271.

2) ﴿سِحۡرٞ﴾: (سحر) أصلٌ يدلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِه[1]، وحقيقةُ السِّحْرِ: صَرْفُ الشَّيءِ عَنْ حَقيقَتِهِ إلى غَيْرِه، فكأنَّ السّاحِرَ لَمّا أرَى الباطلَ في صورَةِ الحَقِّ، وخَيَّلَ الشَّيءَ على غيرِ حَقيقَتِه: قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عَنْ وجْهِه، أيْ: صَرَفَهُ[2]، تَقول العَرَبُ للرَّجُل: ما سَحَرَكَ عَن وجْه كَذا وكَذا؟ أيْ: ما صَرَفَك عَنهُ[3]، والمَسْحور: ذاهِبُ العَقْلِ[4]، والمقصودُ بالسِّحرِ في الآية: الخيالُ الذي لا حقيقةَ له[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مدُّ الكافرين بالنِّعم أشغَلَهُم عن واجب التَّوحيد

بل متَّعتُ المشركين مِن أهل مكة وآبائهم مِن ذرِّيَّة إبراهيم، فمددتُ في أعمارهم، وأمهلتُهم، ولم استأصِلْهم، ووسَّعتُ رزقَهم، فاغترّوا بالمُهلة، وأكبّوا على الشّهوات، وانصَرَفوا عنِ الطّاعات، واتَّبعوا الشَّيطان، وشُغلوا بالتَّنعُّم عن كلمة التَّوحيد، حتى جاءَهم القرآن ورسولٌ يبيِّن لهم ما يحتاجون إليه مِن أمور دينِهم؛ فلمّا جاءهم الحقُّ وصَفوهُ بالسِّحر، وكفروا به، وأصرّوا على شِركهم، وأعلنوا تكذيبَهم به صراحةً جهارًا[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ التَّعبير بـ﴿بَلۡ﴾:

لِله في خَلْقِه الحكمةُ البالغة

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحرف الإضراب: ﴿بَلۡ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾؛ وهي هنا للإضراب الإبطاليِّ، فأخبر أنَّه لم يحصل ما كان قد رجاه إبراهيمُ عليه السلام مِن رجوع مَن يضلُّ مِن ذرِّيَّته إلى كلمة التَّوحيد؛ فهؤلاء العرب الذين هم ذرِّيَّتُه قد أشرَكوا، وعبَدوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سحر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سحر).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (سحر).
(5) الخطيب، السراج المنير: 3/ 560.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 238، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 491.

الأصنام، وتقديرُ الكلام: (بل لم يرجع هؤلاء وآباؤهم إلى التَّوحيد، إذ لم يتبرَّؤوا مِن عبادة الأصنام، فتركوا وصيَّة أبيهم ﷺ)[1].

دلالةُ الموقع البيانيِّ للجملة الفعليَّة:

إنَّ الله يُمهل مَن أسرفَ، لعلَّه يثوب ويتوب

فصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، سيقت للإجابة عن سؤالٍ عَن مجازاة اللّه إيّاهُم على تفريطهم في التَّوحيد، وتركِ وصيَّة أبيهم، فهل قدِ استأصلَهُم؟ فأُجيب بأنَّ اللّه متَّعهم، وأبقاهُم إلى أن يجيئهم رسولٌ منهم بالحقِّ[2].

دلالةُ التَّعبير بالتَّمتيع مادَّةً، وصيغةً:

مِن نِعَم الله مَدُّ الأعمار والنِّعم، وتركُ الاستئصالِ بالذُّنوب

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ التَّمتيع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾؛ وهو دالٌّ على انتفاعٍ ممتدِّ الوقت[3]، فدلَّ على أنَّه تعالى قد مدَّ أعمارَهُم ونعَّمهم، فغَرَّتْهم تلك النِّعَمُ؛ فانشغلوا عن شُكر اللّه، وانصرَفوا إلى سبيل الشَّيطان[4]، وهو مستعْمَلٌ هنا للدَّلالة على إمهالهم، وعدمِ استئصالهم، وهو ما يدُلُّ عليه حرفُ الغاية في قوله: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾[5]، فهذه اللَّفظةُ تكشفُ عن حالهم في حال الإمهال؛ وهذا ما سيتأسَّسُ عليه موقفُهُم الآتي مِنَ الرَّسول والقرآنِ، وقد نظَم القرآنُ هذا التَّمْتيعَ فعلًا ماضيًا للدَّلالةِ على فَنائِه وزواله، وأنَّ هذا التَّمتيعَ يوشِكُ أنْ يزول بمجيءِ الرَّسول الحقِّ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾؛ فإنّ الذُّنوب تُزيل النِّعَم، وتجلبُ النِّقم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 196.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 196.
(3) الراغب، المفردات: (متع).
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 271.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 197.

دلالةُ الإفراد في ضمير ﴿مَتَّعۡتُ﴾:

مَدُّ النِّعَم والأعمار مِن خواصِّ نِعَمِ الله تعالى

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ إسنادَ الفعلِ إلى ضمير المفرد دون ضمير التَّعظيم في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾، ولم يقل: (متَّعنا) كما قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾؛ لأنَّ التَّمتيعَ يتضمَّنُ إطالةَ العُمر التي لا يقدرُ عليها ظاهرًا ولا باطنًا إلّا اللّه ﷻ، وأمّا الانتقامُ فقد يجعلهُ بأيدي عباده مِن الملائكة وغيرهم[1].

دلالةُ التَّعبير باسم الإشارة:

تهوينُ شأنِ مَنِ استهان بالتَّوحيد

عبَّر النَّظمُ الجليلُ باسم الإشارة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾؛ إشارةً إلى المشركين الحاضرين في زمان النُّبوَّة، أي: الذين بحضرتك[2]، وفي التَّعبير عنهم بالإشارة تهوينٌ لشأنهم، وإعراضٌ عن تكريمهم بالخطاب الإلهيّ.

دلالةُ عطفِ الآباءِ على اسم الإشارة:

دوامُ النِّعَمِ مِنَ الجليل لم يَزد الضّالِّين إلّا إصرارًا

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ الآباءَ على اسم الإشارة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على امتداد نعمته عليهم، فمدَّ في أعمارهم، وأسبغَ عليهم نِعَمَه، وأعفاهُم مِنَ البلايا والنِّقَم؛ فهم مُمَتَّعون في حياة آبائهم، وبعد مماتِهم؛ فلم يزِدْهم ذلك إلّا التَّمادي في الشِّرك والغرور بالدُّنيا، وأنَّه لم يُعاجلْهم بالعقوبة[3]، فكما فعَل معَ آبائهم مِنَ التَّمتيع والإمهال فعَل معهم، وكما كان مِن آبائهم الغفلةُ والإصرارُ على الكفر كان منهم.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾، ودلالةُ التَّعبير بها:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحرف الغاية ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ للدَّلالة على الغاية مِنَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 417.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 418.
(3) الخطيب، السراج المنير: 3/ 560.

التَّمتيع؛ وهو إمهالُهم مِن عذاب الاستئصال حتَّى يحينَ مجيءُ الرَّسولِ الخاتم[1].

دلالةُ التَّعبير بالمجيء مادَّةً، وصيغةً:

الحـقُّ أحـقُّ بالقوَّة والظُّهور

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالمجيء في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ تفخيمًا للحقِّ، وبيانًا لظهوره وجلاله؛ ولم يعبِّر بالإتيان؛ لأنَّه مختصٌّ بالتَّعبير عن المجيء بسهولة، أمّا المجيء فيقال اعتبارًا بالحصول، ويقال في الأعيان والمعاني[2]، فدلَّ على حصول الحقِّ وظهوره، وهو مجيءٌ مُلابسٌ للقوَّة؛ وذلك لِما في صوت الجيم مِن دلالةٍ على الجثَّة والجُرم الذي له حدَّة[3]، فالمجيءُ مناسِبٌ لِقوَّةِ الحقِّ؛ وهو مستعارٌ لظهورِ الحقِّ لهم ظهورًا بيِّنًا؛ على جهة الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبَعِيَّة، ويجوز أن تكون الاستعارةُ في الحقِّ مكنيَّةً تخييليَّةً، ونظَم القرآنُ المجيءَ فعلًا ماضيًا للإشارة إلى قيام الحُجَّة به؛ فما تلقَّوا مِن الآيات دلَّهُم على اللّه، وعلى رسالة رسول اللّه؛ وظهر لهم ذلك كلُّه أكملَ ظهورٍ وأتمَّه.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلْحَقُّ﴾:

الـقـرآنُ حـقٌّ صـريـحٌ، فما أفحشَ تكذيبَه!

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الحقِّ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ والمرادُ به القرآنُ الكريمُ[4]، فعبَّر عنه بالحقِّ دون القرآن وغيره تصريحًا بحقِّيَّته وصدقِه؛ وأنَّ ما فيه مِن حقٍّ بادٍ وجليٍّ، فكان مِن شأنه أن يجذبَهم نحوه، فيُقبلوا عليه، وفي التَّعبير عنه بعنوان الحقِّ يظهَرُ فُحشُ جنايتهم، وغِلَظُ خطأهم؛ إذ وصَفوه بالسِّحر في قوله تعالى لاحقًا: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، ولهذا كرَّر الحَقَّ في هذه الآية.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 197.
(2) الراغب، المفردات: (جاء).
(3) المعجم الاشتقاقي المؤصل: 1/ 265.
(4) الخازن، لباب التأويل: 4/ 108.

بلاغةُ التَّعريف بأل:

التَّـنبيـهُ على كـمالِه توطئةٌ لبيانِ قُبحِ إنكارِه واتِّهامه

جاء لفظُ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ - الذي هو القرآنُ - مُعَرَّفًا بأل في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ و(أل) معناها الكمالُ؛ دلالةً على أنَّ مِن شأنِه أنْ يفرَحَ به الكفّارُ، وأنْ يُقبلوا عليه بكُلِّيّاتهم؛ لأنَّه الكاملُ في حقِّيَّتِه؛ بمطابقة الواقع إيّاه مِن غير إلباسٍ ولا اشتباهٍ؛ والظّاهرُ في كماله لكلِّ مَن له أدنى لُبٍّ؛ بما عليه القرآنُ مِنَ الإعجاز في نظمِه، وما عليه ما يدعو إليه مِنَ الحكمة مِن جميع حُكمِه، والتَّصادقِ مع ما يعلمونه مِن دين إبراهيمَ عليه السلام قبل أنْ يُبدِّلوه، ومِن أمْرِ موسى وعيسى عليهما السلام مِنَ التَّوحيد[1].

دلالةُ عطفِ (الرَّسول) على ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

القـرآنُ حُـجَّةٌ، والرَّسولُ حُجَّةٌ؛ فما للكُفر مِن معذرةٍ

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ (الرَّسول) على ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ بالواو الدّالَّة على المغايرة، فدلَّ ذلك على أنَّه جَمَعَ لهم بين الحقِّ وبين الرَّسولِ، تأكيدًا لظهور الحقِّ، وإقامةِ الحجَّةِ، فإنَّ القرآنَ وحدَه كافٍ للهداية، ولكنَّه جَعَلَ مَعَه رسولًا أمينًا مُبينًا، فكان ذلك مِن تمام النِّعمة؛ بأن بلَّغهم الرِّسالةَ على أتمِّ ما يكون مِنَ البيان والأدلَّة[2].

عِلَّةُ التَّعبير بالرَّسول نكرةً:

كان النَّبيُّ محمَّدٌ قرآنًا حقًّا يمشي على الأرض

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عنِ الرَّسول بصيغة التَّنكير في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ وذلك لتفخيم الرّسولِ، وتعظيم شأنِه، فهو رسولٌ، وأيُّ رسولٍ[3]، وإنَّما نظَم القرآنُ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ معرفةً و(الرَّسول) نكرةً؛ إشارةً إلى أنَّ هذا الحقَّ هو برهانُ نبوَّةِ هذا الرَّسول؛ فهذا الحقُّ يُعرِّفُ بهذا الرَّسول،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 23/ 7.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 80.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 45.

ويُصدِّقُه، ويُؤيِّدُه؛ فمجموعُ التَّعريف والتَّنكير يكشفُ عنِ العلاقة بين القرآنِ والرَّسول ﷺ.

سرُّ وصفِ الرَّسول بأنَّه ﴿مُّبِينٌ﴾:

صِدقُ الرِّسالة والنُّبوَّةِ ظاهِرٌ في نفْسِه لا يُحوِجُه بُرهانٌ

وصَفَ النَّظمُ البليغُ الرَّسولَ بالإبانة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه بيَّنَ الرِّسالة، وأوضَحَها بما أظهَرَ مِنَ الدَّلائل والبيِّنات[1]، ووَصْفُه بالمبين يدلُّ أيضًا على أنَّ "أمْرَه ظاهِرٌ في نفسه، لو لم تكُنْ فيه آياتٌ مبيِّنةٌ كانت بديهيَّةً تُنبيكَ بالخَبَر، وهو مع ظهورِه في نفسه مُظهِرٌ لِكلِّ معنًى يُحتاج إليه"[2]، فالغرضُ مِن هذا الوصفِ بيانُ أنَّ الرَّسولَ محمَّدًا ﷺ بلَّغَهُم هذا الحقَّ، وبيَّنَه لهم، وأقامَ الحُجَّة عليهم.

دلالةُ الواو في مفتَتَح الآية:

النِّعمةُ موجِبَةٌ لِلشُّكر، لا وصفِ الحقِّ بأنَّه سحرٌ

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على جُملة الغاية في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ لإفادة التَّعجيب مِن حال تَغافُلِهم؛ أي: قد كان لهم بعضُ العُذر قَبْلَ مجيء الرَّسول ﷺ والقرآن؛ لأنَّ للغفلاتِ المتقادمةِ غشاوةً تُصيِّرُ الغفلةَ جهالةً؛ فكان الشَّأن أنْ يستيقظوا لمّا جاءَهُم الحقُّ ورسولٌ مبينٌ؛ فيتذكَّروا كلمةَ أبيهم إبراهيم، ولكن لمّا جاءَهُم الحقُّ عقِب ذلك التَّمتيعِ لم يستفيقوا مِن غفلتهِم، بل ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾، فأفادَ تعقيبُ جُملة الغاية بهذا القولِ الإشارةَ إلى قُرب زوالِ تمتيعِهم[3]، كما أنَّه أشار إلى أنَّهم قد قابلوا النِّعمَ بالجُحود والكفر، وكان مِن حقِّ ذلك التَّمتيعِ عليهم أن يُطيعوا اللّٰه تعالى، ولكنَّهم كذَّبوا وعصَوا[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 629.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 418.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 198 - 199.
(4) الخازن، لباب التأويل: 4/ 108.

معنى (لَمّا) ودلالةُ التَّعبير بها:

الإصـــــرارُ على الكفر مع ظهور الـحـقِّ مـكـابـرةٌ وعنادٌ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بـ(لمّا) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ وهي هنا (لمّا) الحينيَّةُ أو التَّوقيتيَّةُ، فهي ظرفٌ بمعنى (حين)، وقد تضمَّنت معنى الشَّرط[1]، كأنَّه قيل: (متَّعتُ هؤلاءِ وآباءَهم، فلمّا جاءهمُ الحقُّ عقِبَ ذلك التَّمتيعِ لم يستفيقوا مِن غفلتِهم، وقالوا: هذا سحرٌ)، أي: أنَّهم كانوا قبل مجيء القرآن الحقِّ مشركينَ عن غفلةٍ وتساهلٍ؛ فلمّا جاءهم الحقُّ صاروا مشركين عن عِنادٍ ومكابرة؛ فبيَّن بذلك ما صنَعوهُ وقالوهُ عند مجيء الحقِّ، فقد وصفوا القرآن بالسِّحر وكفروا به[2]، ولم يُعلنوا الكفرَ الصَّريح عن إصرارٍ وقصدٍ إلّا بعد ظهور الحقِّ المُلزِم للطّاعة، فبيَّن تعليقُ قولِهم الكفرَ بمجيء الحَقِّ على فُحشِ كُفرِهم وغِلَظِه؛ فإنَّ الإصرارَ على الكُفر عند حلول الحَقِّ وظهورِه دليلُ المكابرة والعناد.

دلالةُ إظهار ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في محلِّ الإضمار:

في التَّكرار إشارةٌ إلى كمال ظهور حُجَّةِ الحقِّ

كان الظّاهرُ أنْ تُصاغ الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ بإضمار (الحقِّ)، أي: (ولمّا جاءهم قالوا)، أو دونَ ذِكرِ المجيء أصلًا: (فقالوا هذا سحر وإنّا به كافرون) لكونه ذُكر في الآية السّابقة: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾؛ وإنَّما كرَّرَ القرآنُ معنى مجيء الحقِّ ليؤكِّدَ في نَفْسِ المُتلَقِّي المعنى المُكرَّرَ؛ حتَّى لا يقَعَ في نفْسِه أنَّ في هذا الحقِّ نوعَ ضعفٍ أو قصورٍ، ونحو ذلك مِمّا يكونُ سببًا في وصفِهم القرآنَ بالسِّحْر؛ فعلى هذا التَّكرار يتأسَّسُ معنى التَّعجيب مِن ترتيبهم القولَ بأنَّه سحرٌ، والكفرِ به على مجيء الحقِّ.

---

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 80.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 634.

إعلانُ الكفر إصرارٌ على الضَّلال بعد طول الغفلة

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(القول) مادَّةً، وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بفعل القول في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ وذلك لبيان أنَّهم جَهَروا بعقيدتهم، فجهَروا بذلك القول، وأعلنوا كُفرَهم بالقرآن، فبيَّن أنَّهم بِصُدور هذا القول عنهم قد صاروا مُشرِكين عن إصرارٍ وعِنادٍ ومكابرةٍ بَعدَ أن كانوا مشركين عَن غفلةٍ وتساهُلٍ قبل مجيء الحقِّ[1]، وجاء فِعلًا ماضيًا تنبيهًا على أنَّ هذا القولَ مذهبُهم في الاعتقادِ، يُؤخَذُ ويُنقَل عنهم، ويُعرِّفُ بهم، ويدُلُّ عليهم.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة:

عبَّرَ الكُفّارُ عَنِ القرآنِ باسم الإشارة الدّالِّ على القرب في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٌ﴾، وذلك للتَّهوين منه، وبَيانِ ازْدرائِهم له، مع تنبيه مُخاطِبيهم على كون القرآن بهذه الصِّفة، بهاء التَّنبيه في ﴿هَٰذَا﴾.

عِلَّةُ وصْفِهم القرآنَ بلفظ (السِّحر):

لا سبيلَ لنقضِ الحقِّ إلّا بنسبته لِما لا يُعلَم شأنُه

نقَلَ النَّظمُ الجليلُ وصْفَهم القرآنَ بالسِّحر في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وذلك لأنَّهم أرادوا نقضَ الحقِّ بأن زعموا أنَّه خيالٌ لا يُطابِقُ الواقع، فهو ليس حقًّا، ولا حقيقةَ له كما زعموا[2].

سرُّ تنكيرِ (السحر):

جاء لفظُ (السِّحر) نَكِرَةً، تفخيمًا له، وتهويلًا، وتعظيمًا؛ فهو خطرٌ عظيمٌ على مَن يتلقّاه؛ وهذا في الحقيقة إنَّما يدلُّ على كمال القرآنِ؛ فقد سُقط في أيديهم، فما وجدوا شيئًا يتَّهمونهُ به إلّا نقْضَ أخصِّ أوصافه مِن أنَّه الحقُّ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 199.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 419.

التَّفنُّنُ في رفضِ القرآن بإعلانِ الكُفر والإصرارِ عليه

بلاغةُ الواو ودلالةُ التَّعبير بها:

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾؛ لأنَّها مقولةٌ أخرى مِن مقولات الضّالّين المُصرِّين على ضلالهم، أي: (إنَّهم قالوا: هذا سحرٌ فنحن لا نلتفتُ إليه، وكذلك قالوا: إنّا به كافرون سواء كان سحرًا أم غيره)، فهو ارتقاءٌ مِن وصْفِه بالسِّحر إلى إعلانِ الكُفرِ به على أيَّة حال؛ سواء كان حقًّا، أو سحرًا كما وصفناه[1].

أهلُ الكفر يسعَون إلى إخفاء حَقِّيَّة القرآن بكلِّ وجهٍ

دلالةُ التَّأكيد في سياق هذه الآية:

أكَّدَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالة على إصرارهم على الكفر، فأرادوا بذلك أن يُؤَيِّسوا النَّبيَّ ﷺ من إيمانهم به، وتركِ كُفرِهم وشركهم، وليُقاوموا ما ثبتَ في نفوسهم ونفوسِ غيرهم مِن أنَّ القرآنَ ليس بسحر؛ فقد عرَفوه قرآنًا عربيًّا مِن عند الله، ولكنَّ الظّالمينَ بآياتِ الله يجحدون[2].

سَترُ الحقِّ ونفيُ حَقِّيَّته وصْفٌ ثابتٌ في الضّالِّين

دلالةُ التَّعبير بالكفر مادَّةً، وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ الكُفر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالة على جحودهم وسَترِهم حقِّيَّتَه، أي أنَّهم مُنكِرون له وجاحدون[3]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل للدَّلالة على ثبوت الوصف لهم، فَهُم عريقونَ في الكُفر وسَترِ الحقِّ، حتَّى لا يعرفَه أحدٌ، ولا يكونَ له تابعٌ[4].

الإصرارُ على الكفر في معرض الحقِّ أمرٌ عجيبٌ

الغَرَضُ مِن جملة الخبر:

أخبر النَّظمُ الجليلُ عَن موقف الضّالِّين مِنَ القرآن الكريم في

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 199.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 199.
(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 299.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 419.

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ وذلك للتَّعجيب مِن غفلتهم وحالِهم فيها؛ فإنَّهم قبل مجيء النَّبيِّ ﷺ إليهم قد يُعذَرون؛ لِما تطاوَل عليهم الأمَدُ مِنَ الغَفَلات، ولكنَّهم بعدَ مجيئه كان ينبغي لهم التَّذكُّرُ؛ لوصيَّة إبراهيمَ عليه السلام، ولكنَّهم أصرّوا واستكبروا استكبارًا؛ فجيءَ بالخبر للتَّعجيب مِن حالِهم هذا، لا في إفادةِ صُدور هذا القول منهم؛ وذلك لأنَّه معلومٌ لَهُم وللمسلمين[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 198.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ
٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم
بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢﴾ [الزخرف: 31 - 32]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

لا نهايةَ لمطاعن الكافرين؛ فبَعْدَ الطَّعن في الرِّسالة طعَنوا في الرَّسول

لَمّا بيَّنَ النَّظمُ الجليلُ حالَ الكافرين مع القرآن، وطعنَهم فيه: أتبَعَهُ ببيان حالهِم وكُفرِهم وطَعنِهم فيمَن نزلَ عليه القرآنُ[1]؛ ثمَّ لَمّا ذَكَرَ استبعادَ الكافرين نزولَ القرآن على النَّبيِّ ﷺ، لكونه ليس عظيمًا في المال والمكانة لديهم: أتبَعَهُ بالإنكار عليهم بأنَّ "اللّه يخصُّ بالنُّبوَّة مَن يشاءُ من عباده، على ما تقتضيهِ حكمتُه وإرادتُه، وليس ذلك بتدبير المخلوقين، ولا بإرادتهم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾: (قري) أصْلٌ يدلُّ على جُمَعٍ واجْتماعٍ، من ذلك القَرْيَةُ، سُمِّيَت قَريَةً لِاجتِماعِ النّاسِ فيها[3]، والقَرْيُ: جَمْعُ الماءِ في الحَوض، والقَرِيُّ: مُسْتَجْمَعُ ماءٍ كثيرٍ في شِبْهِ وادٍ صَغيرٍ، والجميع القُرْيانُ[4]، والقَرْيَةُ: اسمٌ للموضع الذي يجتمع فيه النّاس، وللنّاس جميعًا، ويُستعمل في كلِّ واحدٍ منهما[5]، والمراد بالقريتين في الآية الكريمة مكَّةُ والطّائفُ[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 419.
(2) ابن جزي، التسهيل: 2/ 258.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (قرى).
(5) الراغب، المفردات: (قرى).
(6) ابن جزي، التسهيل: 2/ 257.

2) ﴿يَقۡسِمُونَ﴾ (قسم) أصلٌ يدُلُّ على تَجْزِئَةِ شَيْءٍ[1]، والقَسْمُ: إفرازُ النَّصيب، يقال: قَسَمْتُ كذا قَسْمًا وقِسْمَةً؛ وقِسْمَةُ الميراث، وقِسْمَةُ الغنيمة: تفريقُهما على أربابِهما[2]، والقَسيمُ: الذي يقاسمُكَ أرضًا أو مالًا بينك وبينه[3]، والقِسْمُ: الحظُّ والنَّصيب، يقال: هذا قِسْمُكَ وهذا قِسمي[4]، فقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ أي: (أهُم يفرِّقونها فيُعطونَ الرِّسالة مَن شاؤوا ويمنعونها مَن شاؤوا؟).

3) ﴿مَّعِيشَتَهُمۡ﴾: (عيش) أصلٌ يدلُّ على حَياةٍ وبقاءٍ[5]، والمعيشة: التي يعيش بها الإنسانُ مِنَ المطعم والمشرب، وكلُّ شيءٍ يعاشُ به أو فيه فهو مَعاشٌ، والنَّهار مَعاشٌ، والأرضُ مَعاشٌ للخَلْق، يلتمسون فيها مَعايِشَهم[6]، يقال: عَيشُ آلِ فلانٍ اللَّبَنُ؛ إذا كانوا يعيشون به، وعَيشُ آلِ فلانٍ الخبزُ، وعَيشُهم التَّمرُ، ورُبَّما سَمَّوا الخُبْزَ عَيْشًا[7]، والمرادُ بالمعيشة في الآية الكريمة الرِّزقُ[8]، وما يُعاش به مِن زرعٍ وضرعٍ وغيرهما[9].

4) ﴿سُخۡرِيّٗاۗ﴾: (سخر) أصلٌ يدلُّ على اسْتِذْلالٍ؛ يُقال: سَخَّرَ اللّهُ ﷻ الشَّيْءَ؛ إذا ذَلَّله لِأَمْرِهِ وإرادته؛ قال اللّهُ جلَّ ثناؤه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجاثية: 13]، ويُقال: رجُلٌ سُخْرَةٌ: يُسَخَّرُ في العملِ[10]، وسَخَّرَهُ تسخيرًا: كَلَّفَهُ عَمَلًا بلا أُجْرَة، وكذلك تَسَخَّرَهُ، والتَّسْخيرُ: التَّذْليلُ[11]، والسُّخْرةُ ما تَسَخَّرْتَ من خادِمٍ ودابَّةٍ بلا أجْرٍ ولا ثمنٍ، وسَخَرَتِ السُّفُنُ: أطاعت وطاب لها السَّيرُ، وتَسَخَّرتُ دابَّةً لفلان: ركِبتُها بغير أجرٍ[12]، والمراد به في الآية الكريمة التَّسخيرُ في الخدمة[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم).
(2) الراغب، المفردات: (قسم).
(3) الخليل، العين: (قسم).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (قسم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عيش).
(6) الخليل، العين: (عيش).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (عيش).
(8) الواحدي، البسيط: 20/ 34.
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (عيش).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(11) الجوهري، الصحاح: (سخر).
(12) الخليل، العين: (سخر).
(13) ابن جزي، التسهيل: 2/ 258.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

قِسمَةُ النُّبوَّة والأرزاق مِن شأن الله تعالى وحدَه

وقال هؤلاء المشركونَ مُتمادِينَ في جهلهم باللّه، عندما جاءَهم القرآن الكريم: (هذا سحرٌ، فإن كان هذا القرآنُ حقًّا من عند الله تعالى فهلّا نَزَلَ على رجلٍ عظيمٍ ذي سَعَةٍ ومالٍ وجاهٍ وما يُعاش به مِن زرعٍ وضرعٍ وغيرهما[1] من إحدى هاتين القريتين الكبيرتين مكَّة أوِ الطّائف؟)، فردَّ اللّه تعالى على جهلهم مُنكِرًا عليهم ذلك: (هل هُم - لا غيرهم - مَن يقسِمُ النُّبوَّة فيضعونها حيث شاؤوا؟ نحن قَسَمْنا بينهم معيشَتَهم وأرزاقَهم في حياتِهم الدُّنيا، ورَفَعنا بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ؛ فمنهُم غنيٌّ وفقيرٌ، وقويٌّ وضعيفٌ؛ وذلك ليكونَ بعضُهم مُسَخَّرًا لبعضٍ في ما يحتاجون إليه مِن أمر المعاش، وإنَّ رحمة ربِّكَ - أيُّها الرَّسول - بالنُّبوَّة وبالسَّعادة في الدّارين بنعمةِ الإيمانِ والتَّوحيد: خيرٌ ممّا يجمعون مِن حُطام الدُّنيا الفاني)[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الوصلِ في مُفتتح الآية:

مَطاعنُ الكفّار في الوحي والموحَى إليه مستمرَّة

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ على الجملة في جواب (لمّا) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[3]. فلمّا طعنوا في القرآن بكونه سحرًا أخبر عن طَعنِهم في مَن نزل عليه القرآن[4]، إمعانًا في إظهارِ كُفرِهم وتأكيده، فالعطفُ أفادَ أنَّ هذا المعطوفَ قولٌ لهُم ترتَّبَ على مجيء الحقِّ ورسولٍ مبينٍ؛ فلَمّا أدرَكوا عظَمة هذا الرَّسول بالقرآن الحقِّ قالوا هذا القولَ العجيبَ، وإنَّما قدَّموا طعنَهم في القرآن؛ لأنه يَلزَم منه

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عيش).

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 592 - 595، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 491.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 313.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 419.

الطَّعنُ في الذي جاءَهم به؛ لأنَّه بُرهانُ نُبوَّتِه، ولا يَلزَمُ مِن الطَّعن في الرَّسول الطَّعنُ في القرآن.

معنى ﴿لَوۡلَا﴾ ودلالةُ التَّعبير بها:

من ضلالات الكافرين اقتراحُهم الصِّفاتِ الواجبةَ في الرُّسَل

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بـ﴿لَوۡلَا﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾؛ وهي هنا للتَّحضيض[1]، والمرادُ مِنَ التَّحضيض إبطالُ ثبوت الرِّسالة للنَّبيِّ ﷺ، على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الملازمة؛ وذلك لأنَّ التَّحضيض على تحصيل ما هو مقطوعٌ بانتفاء حصولِه يستلزمُ الجَزمَ بانتفائه[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّنزيل:

في كلامِ الكفّارِ ما يُبيِّن عوارَهم وكذبَهم وتناقُضَهم

في جعلِ الكُفّارِ القرآنَ مُنزَّلًا إقرارٌ بأنَّه ليس مِن عندِ بَشَرٍ؛ وإنَّما هو مِن عند الله ﷻ؛ وهذا المعنى إمّا أنَّه تسرَّبَ مِن نفوسهم، مِن غير أنْ يَشْعُروا به؛ فيكون مُظهِرًا لتناقضِهم العجيب؛ لأنَّ الذي أنزلَ هذا القرآنَ العظيمَ مِن شأنه أنْ يَصطفيَ مَن يشاءُ مِنَ النّاس؛ ليُرسِله إليكم بالقرآن، وإمّا أنه جرَى على ألسنتهم؛ مِن باب الفرض والتَّقدير.

دلالةُ البناء للمفعول:

في كون لفظِ التَّنْزيلِ فعلًا ماضيًا مَبنيًّا لِما لم يُسَمَّ فاعلُه ترجيحٌ للوجه الثّاني في دلالة التَّعبير بالتَّنزيل؛ فكأنَّهم قالوا: (لولا نَزَّلَ المُنزِّلُ الذي ذكرَهُ محمَّدٌ ﷺ)، اجتهادًا منهم في إخفاء مصدر هذا القرآن، وإمعانًا في كُفرهم.

دلالةُ صيغة (فَعَّلَ):

نَزَلَ القرآنُ مُنجَّمًا مُفرَّقًا، فَكَثُرَ تكرارُ نزوله

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن نزول القرآن بصيغة التَّفعيل في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾؛ وذلك لأنَّ القرآنَ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 313.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 199.

نزَل مُنجَّمًا مُفرَّقًا على حسب التَّدريج، فالتَّعبير بصيغة التَّكثير أنسبُ لذلكَ(1).

دلالةُ اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

احتقارُهم للقرآن واستهانتُهم به بكلِّ الوسائل المتاحة

عبَّر النَّظمُ الجليلُ باسم الإشارة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾؛ حكايةً عمّا قالوه، وأرادوا بذلك تهوينَ شأنِ القرآن، فذِكرُهُ بالإشارة استهانةٌ به(2)، ويرى القونويُّ أنَّ اسمَ الإشارة هنا دالٌّ على التَّفخيم، وذلك للإشعار بأنَّ هذا القرآن حقٌّ، ولكنَّه لا يليقُ بمحمَّدٍ ﷺ(3)، وقد يُقال: المرادُ ليس التَّهوينَ ولا التَّفخيمَ، بلِ التَّعيينُ، أي: هذا القرآن الذي يتلوهُ علينا لا غيره، فأشاروا إليه لحضوره وشُخوصه بينهم(4)، ولكنَّ هذا حاصلٌ معَ أحد الدَّلالتيْن المذكورَتيْن، وعلى وجه الإشعار بأنَّه حقٌّ يكونُ هذا منهُم على سبيل الفَرْض، وإذا كان منهم على سبيل الفَرْض كان فيه نوعُ احتقارٍ واستهانةٍ بالقرآنِ، وعلى وجهِ أنَّهم يُقرّون بأنَّ القرآن عظيمٌ فإنَّ في طلب أنْ يكون الرَّسولُ المُنزَّلُ عليه رجلًا مِنَ القريتيْن عظيمًا إهانةً للقرآن أيضًا؛ لأنَّ القرآنَ العظيمَ إنَّما يُرسله اللّٰه مع عظيمٍ؛ فلعلَّ الأولى أن تكونَ الإشارةُ لاحتقارهم القرآنَ، واستهانتِهم به.

عِلَّةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾:

ما استهانوا به فيه هو محلُّ كمالِهِ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالقرآن بعد اسم الإشارة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ للدَّلالة على مَحَلِّ استهزائِهم واحتقارِهم للقرآن، وهو أنَّه جامعٌ للخير والفضائل على حدِّ ادِّعاء مَن جاءَهم به ﷺ، ففيه إشارةٌ إلى تحقيرِ المشركين للقرآن(5).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 420.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 133، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 91.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 313.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 24/ 7.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 420.

سِرُّ التَّنكير في: ﴿رَجُلٍ﴾:

زعَمَ الكفّارُ جهلًا وكِبرًا أنَّ مستحقّي النُّبوّة كثرٌ!

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ الرَّجل نكرةً في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾؛ دلالةً على التَّعظيم، أي: لو نُزِّل على رجلٍ عظيم من عُظماء القريتين[1]، كما يدلُّ على التَّكثير، أي: كثُر الرِّجالُ العُظماءُ الذين يستحقّون أن يختارهم الله للرِّسالة؛ فهلّا اختار أحدًا منهم غيرَ هذا الرَّسول؟!.

توجيهُ إفرادِ الرَّجل وتثنيةِ القريتَين:

هلّا نَزَل القرآنُ على رجلٍ يجتمع النّاسُ على عظَمَته؟!

جَعَلَ الكفّارُ المُنزَّلَ عليه رجلًا واحدًا، مَعَ تثنية القريتين في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾؛ فكيف يكون رجلًا واحدًا من قريتين؟ والجوابُ عن ذلك أنَّه أراد: (مِن إحدى القريتين)، كقوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢﴾ [الرحمن: 22]، اغتناءً بوَحدة: ﴿رَجُلٍ﴾[2]، فالمراد: رجلٌ واحد مِن أحَد رجُلَيِ القريتين العظيمَين.

نكتةُ تعريف ﴿ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾:

اختيارُهم لأكبَرِ قرى تهامة

عرَّف النَّظمُ الجليلُ ﴿ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ وهي هنا للعهد الذِّهنيِّ؛ إذِ المرادُ بالقريتين مكَّةُ والطّائف[3]، وذلك لأنَّهما أكبرُ القرى في تهامة التي هي بلدُ القائلين[4].

دلالةُ وصف الرَّجل بصفةِ العظَمة:

المالُ والزُّخرفُ معيارُ التَّعظيم عند أهل الضَّلال

وصَفَ النَّظمُ الجليلُ الرَّجلَ بصفة العظَمة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾؛ وذلك تعبيرًا عَن ظَنِّهم أنَّ الرِّسالة يجبُ أن تكون وفق العظمةِ التي عَهِدوها؛ وهو أن يكون غنيًّا بما أوتيَ من زخرف الدُّنيا ومتاعها،

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 634.

(2) ابن جزي، التسهيل: 2/ 257 - 258، والبقاعي، نظم الدرر: 24/ 7.

(3) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 439.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 199.

وغفلوا عنِ الرُّتب الرّوحانيَّة وما فيها من فضائلَ تستدعي عِظَمَ النَّفس وكمالَها(1)، وهذا يعني أحدَ أمرَيْنِ؛ إمّا أنَّهم أحسّوا بعظمة القرآن التي سيتَّصف بها الرَّسول الذي جاءَهم به، فسارَعوا إلى نفي عظمته، بُغضًا وحسدًا؛ وإمّا أنَّهم لم يشعروا بعظمته، فنَفَوا أن يكون الرَّسول الذي جاءَهم به عظيمًا، والوجه الأول هو الأعلى في ضوء أقوالهم وأحوالهم تُجاه القرآن في الذِّكر الحكيم.

عِلّة فَصْلِ الجملة:

مـقـالـتُـهـم في الرَّسـول تُحرِّك النَّفْس لمعرفةِ الجواب عليها

فصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ جوابًا عَن سؤالٍ تقديرُه: وماذا قال الله تعالى ردًّا عليهم؟ وقد سيقت للإنكار على ما قالوه، وتوبيخًا لهم ممّا اقترحوه(2)، والغرضُ مِن ذلك بيانُ أنَّ غرَضَهُم ودافعَهم إنَّما هو الحسد، لا الاستهانةُ بالقرآن(3)، فعدَلوا عنِ النَّظر إلى مضمون الرِّسالة إلى النَّظر في ذاتِ مَن أُرسِلَ إليه وحالِه مِنَ الغنى؛ بالنّظر إلى حال غيره ممَّن يعظِّمونهم.

بلاغةُ الاستفهام:

مـا أجـهـلَ مَـن يــرى نـفـسـه جديرًا بأن يقرِّر مَـن يـكـونُ نبيًّا ورسولًا!!

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالاستفهام في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾؛ وهو للإنكار والتَّجهيل والتَّعجّب والتَّعجيب؛ حيث يُريدون التَّحكُّم في شأنِ النُّبوَّة والرِّسالة(4)، أي: عجبًا لهم، وما أجهلَهم بقدر أنفُسِهم، أيبلُغ مِن أمرهم أنْ يُقرِّروا ويصطَفوا مَن يشاؤون للنُّبوَّة؟!(5).

دلالةُ تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

إنكارُ تطلُّعهم أن يكونوا أهلًا لتقرير مَن يكون نبيًّا

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ المسندَ إليه على الفعل في قوله جلَّ شأنُه:

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 133.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 421.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 132.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 630.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 25/ 85.

﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾، وذلك للإنكار على تخصيصِهم أنفُسَهم باختيار مَن يكون رسولًا؛ فإنَّ تقديمَ المسنَد إليه هنا دالٌّ على الاختصاص[1]، فلمّا نصَّبوا أنفسَهم منصبَ مَن يتخيَّر أصنافَ النّاس للرِّسالة عنِ اللّه: قد جعلوا لأنفسهم ذلك لا للّه، فكان مِن مقتضى قولهم أنَّ الاصطفاء للرِّسالة بيدِهم، فلذلك قُدِّم الضَّميرُ (هم) المجعولُ مسندًا إليه على المسنَد الفعليِّ، ليُفيدَ معنى الاختصاص؛ فسُلِّطَ الإنكارُ على هذا الحصر؛ إبطالًا لقولهِم، وتخطِئةً لهُم في تحكُّمِهم[2].

سِرُّ التّعبير عَنِ القسمة بالفعل المضارع:

رحـمـةُ اللـه لـلـخـلائـق لا تنقطع؛ فـدوامُ الحياة بدَوامها

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار[3]، فإنَّ شأن الرَّحمة وتقسيمها على العباد لا ينقطع، بل هو متجدِّدٌ دائمٌ، ثمَّ إنَّ قِسمتَهُم هذه قدِ انتهت؛ ولكنَّ القرآن يستحضرُها بالمضارعة، لتعجيبِ المخاطَب منها؛ وهذا أبلغُ في إنكارها.

دلالةُ التَّعبير بالرَّحمة وإضافتِها إلى الرَّبِّ:

الـنُّـبـوَّةُ فيضٌ مِن رحمة الله، وشأنٌ خاصٌّ مِن شؤونه

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الرَّحمة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾؛ والمرادُ بها النُّبوَّة[4]، فإنَّ اختيار أحدٍ للنُّبوَّة أعلى مراتب الرَّحمة وأسماها، ولأنَّ الاصطفاء للرِّسالة رحمةٌ للنّاس المُرسَل إليهم؛ فقد جعل القرآنُ تحَكُّمَهُم في ذلك قسمةً منهُم لرحمة اللّه باختيارهم مَن يختارُ لها، وتعيينِ المُتأهِّلِ لإبلاغها إلى المرحومينَ[5].

ودلَّت إضافتُها إلى الرَّبِّ على أنَّ النُّبوَّة محضُ إكرامٍ مِنَ الذي

(1) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 439.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 200.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 421.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 46، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 201.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 201.

سبقَ منه الإحسانُ والإنعام، فهي من وجوه إحسانه تعالى إلى الخَلْق عامَّةً، وفيها تشريفٌ له ﷺ، وإظهارٌ لعليِّ قَدْرِه[1]، كما أنَّ فيها دلالةً على اختصاص شأن النُّبوَّة بالله تعالى؛ فلا مطمعَ لهم في التَّحكُّم بها، ولا سبيلَ إلى ذلك، فالنُّبوَّة رحمةٌ عظيمةٌ وشأنٌ خاصٌّ من شؤون الخالق تعالى.

دلالةُ إيثار لفظِ الرُّبوبيَّة وإضافتِه إلى ضمير المخاطَب:

الإحسانُ بالنُّبوَّة نعمةٌ جليلةٌ مِنَ الباري تعالى

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ﴾؛ وذلك لأنَّ الرَّحمة بتخصيصه ﷺ بالرِّسالة واصطفائه أنْ يكون نبيًّا إنَّما هو من عظيم الإحسان، ووفيرِ الإنعام.

ودلَّت إضافةُ لفظِ الرَّبِّ إلى ضمير المخاطَب المرادِ به النَّبيُّ ﷺ على التَّشريف والتَّكريم[2]؛ وإنّما حسُن التَّشريفُ والتَّكريم هنا لأنَّه وردَ في سياقِ الاستهانة بالنَّبيِّ ﷺ؛ فقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: إنَّما هو استخفافٌ منهم واستهانةٌ به ﷺ، فردَّ اللّهُ تعالى على ذلك القولِ بأنْ شرَّفه بإضافته إليه؛ فكان أبلغَ ردٍّ، وأعظمَ إنكارٍ؛ بأنْ أقبلَ عليه بالخطاب[3].

دلالةُ فَصْلِ الجملة:

العاجزُ عن تدبير معيشتِه أنَّى له التَّحكُّمُ بشأن النُّبوَّة؟!

فصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ سِيقَتْ جوابًا لِمن سأل: فمَنِ القاسمُ؟[4]، ويجوزُ أن يكون الاستئنافُ تعليليًّا، وسِيقَت الجملةُ لبيان عِلّة الإنكار، فلمّا أوردَ الإنكارَ عليهم في قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ﴾: أتبعَهُ بوجهِ الإنكار، "أي: لمّا قسَمنا بين النّاس معيشتَهم؛ فكانوا مُسَيَّرين في أمورهم على نحو ما هَيَّأنا لهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 421.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 421.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 201.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 421 - 422.

مِن نظام الحياة، وكان تدبيرُ ذلك للّه تعالى ببالغِ حِكمَته، فجعلَ منهم أقوياءَ وضعفاء، وأغنياءَ ومحاويجَ، فسخَّر بعضَهم لبعضٍ في أشغالهم على حساب دواعي حاجةِ الحياة، ورفعَ بذلك بعضَهم فوق بعضٍ، وجعلَ بعضَهم محتاجًا إلى بعض، ومُسخَّرًا به؛ فإذا كانوا بهذه المثابة في تدبير المعيشة الدُّنيا: فكذلك الحالُ في إقامة بعضِهم دون بعضٍ للتَّبليغ؛ فإنَّ ذلك أعظمُ شؤون البشر، فهذا وجهُ الاستدلال"[1]، والقصدُ مِن هذا الاستئنافِ إظهارُ عَجْزِهم في تدبير المعيشة الدُّنيويَّة، فيكونون في تدبير شأن الدِّين أعجزَ[2].

نكتةُ استعمالِ الضَّميرِ المُنفصلِ ﴿نَحۡنُ﴾:

الـــرِّزقُ شـأنٌ عظيمٌ مقصورٌ عـــلى الـلــه العظيم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالضَّمير المنفصلِ المسندِ إليه، مُقدَّمًا على المسند الفعليِّ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاص في شأن تقسيم الأرزاق، أي: (نحن قسَمنا، لا غيرُنا)؛ قصرًا إضافيًّا قلبيًّا؛ فهو مِن شؤونه تعالى وحده، فهو تعالى لم يُفوِّض أحدًا يقوم بذلك عنه، وليس للعباد أن يتحكَّموا في شيءٍ، بلِ الحكمُ للّه تعالى وحده، والمعنى: (إذا كان تقسيمُ الأرزاق بيد اللّه تعالى؛ وقد قضَى بِرَفع بعضِهم على بعضٍ في الرِّزق: فكيف لا يقنَعون بقسمته في أمر النُّبوَّة؟!)[3].

وفي التَّعبيرِ بضمير التَّعظيم بصيغة الجمع ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ذلك يقعُ بما للّه تعالى مِن عظمةٍ تقتضي التَّفرُّدَ[4]، فمِن شأنِ هذه القسمة أنْ تُعرِّفَهُم باللّه؛ وأنْ تدلَّهم على اللّه؛ وأنْ يبحثوا في عظمة النَّبيِّ ﷺ، تلك العظمةِ التي اتَّصف بها بنزولِ القرآن عليه؛ بدلًا مِن أنْ يكفروا بكونهِ رسولًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 201.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 134.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 634.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 422.

دلالةُ استعمال الفعل ﴿قَسَمْنَا﴾ بصيغة الماضي:

تقسيمُ الأرزاق أمرٌ إلهيٌّ محسوم

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله جلَّ شأنُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾، للدَّلالة على أنَّ تقسيم الأرزاق قد ثَبَت وسَبَق، وأنَّه حَدَثٌ مشهورٌ معروفٌ، فلذا وقع به الاستدلالُ؛ فهو ثابتٌ سابِقٌ مقرَّرٌ لا يدافعونه؛ فدلالةُ الحسم والفصل والقطع فيه باديةٌ.

دلالةُ إسنادِ الفعل (قسم) إلى ضمير العظمة في: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾:

شأنُ الرِّزق عظيمٌ، ومِثلُه النُّبوَّة

أسنَدَ النَّظمُ الجليلُ فِعلَ التَّقسيم إلى نون التَّعظيم في قوله جلَّ شأنُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ تقسيم المعيشة وقَع بما للهِ تعالى مِن عَظمةٍ[1]، فَقِسمةُ الأرزاق عظيمةٌ لا يقوم بها إلّا الخالِقُ المتَّصفُ بالعظمة؛ إشارةً إلى أنَّ النُّبوَّة كذلك.

نكتةُ تقييدِ التَّقسيم بشِبْه الجملة:

قيَّدَ النَّظمُ الجليلُ التَّقسيمَ بِشِبه الجملةِ مِنَ الظَّرف وضميرِ الغائب في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُم﴾؛ للدَّلالة على شمول التَّقسيم كُلَّ أحدٍ منهم، فالمعيشةُ أمرٌ يوجِبُ تخصيصَ كلِّ واحدٍ منهُم بما لديه[2].

سِرُّ تخصيصِ المعيشة بالذِّكْر:

إن كان تقسيمُ المعيشة خاصَّةً لله فتقسيمُ غيرِها أولى

خصَّ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ المعيشة دون غيره مِنَ الموجودات في قوله جلَّ شأنُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾؛ إشارةً إلى القضيَّة "التي يعدّونها رحمةً، ويقصرون عليها النِّعمةَ"[3]، فإنَّهم لمّا صرَّحوا بمعيارهم لصفة التَّعظيم، وأنَّها مقتصِرَةٌ على الحظِّ ممّا في الدُّنيا - وهو ما يتعلَّق بأمر المعيشة -: صرَّح النَّظمُ الجليل بذلك؛ لينقُضَ ما تعلَّلوا به، وما بَنَوا عليه

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 422.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 422.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 422.

التَّحضيض؛ إذ قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾؛ فالمعيشةُ التي علا شأنُها لديهم نحن قسمناها بينهم؛ فلا حَقَّ لهم باتِّخاذها مُتَّكأً للتَّفاضُل؛ فتقسيمُ المعيشة بينهم أُمٌّ لتقسيم كلِّ الأشياء بينهم؛ فقصرُ قِسمَتِها على الله إبطالٌ لكلِّ ما قالوه بشأن القرآن والرَّسول ﷺ.

نكتةُ تقييدِ القسمة بشِبْه الجملة:

التَّفاوتُ بينهم في أمـر الدِّيـن أجَلُّ منه بينهُم في أمر الدُّنيا

قيَّد النَّظمُ الكريمُ القسمةَ بأنَّها في الحياة الدُّنيا في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾؛ للدَّلالة على حال المعيشة المُقَسَّمة، أي: حال كونِ تلك المعيشة في الدُّنيا[1]، وفائدةُ الحالِ تقريرُ التَّفاوت في شأن الرِّزق، وما يلزم العيش؛ للتَّدليل على أنَّهم كما تفاوتوا في شأن الرِّزق في الحياة التي هي أدنى مِنَ الحياة الآخرة: فَهُم كذلك يتفاوتون في شأن الدِّين والاصطفاء للنُّبوَّة مِن باب أَوْلى، وجاء وصفُ الحياة بالدُّنيا إشارةً إلى نُقصانها، وأنَّها بحيث لا يرضاها عاقِلٌ[2]، فكيف لهم أن يجعلوها معيارًا للتَّعظيم وأساسًا للاصطفاء لشأنٍ جليل؛ هو النُّبوَّةُ والرِّسالةُ!!

دلالةُ الواو في صدر الجملة:

كـما جعَلهُم الله متفاوتينَ في المعيشة جعَلهُم مـخـتـلـفـينَ في الرُّتب

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ رَفعَ الدَّرجات على تقسيم المعيشة بالواو في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾؛ فكان المتعاطفانِ مشترِكَين في الخبريَّة؛ للدَّلالة على أنَّه جَعَلَهم متفاوِتين في شأن المعيشة، وأنَّه كذلك قد جعلهم مختلفي الرُّتب في الرِّزق، وسائرِ ما يلزم المعاشَ[3]، ولو قال الله (رفعنا بعضَهُم) مِن غير واو: لكان تفصيلًا وبيانًا لقسمة المعيشة بينهم؛ فلَمّا تصدَّرت

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 595.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 422.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 241.

هذه الجملة بالواو دلَّ ذلك على احتفال القرآن بها؛ بجعلها معنًى مستقلًّا؛ بما في الواو مِن معنى المغايرة الذي لا يبرحُها؛ لأنَّ معنى هذه الجملة هو محلُّ التَّعليق على أقوال أهل الكفر.

دلالةُ التَّعبير بالرَّفع وإسنادِه إلى نون التَّعظيم:

منازلُ النّاس في الأرزاق كثيرةٌ متفاوِتَةٌ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالرَّفع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾؛ لدلالته على رفع المنزلة وتشريفِها[1]، فرَفَعَ بعضَ النّاس بأن جَعَلَهُم أهلَ غنًى ومالٍ دون غيرهم؛ فبذلك يصلُحُ معاشُهم[2]، وهذا الرَّفْعُ هو المناسبُ لسياق نزول القرآنِ الكريم مِن عند الله على أشرفِ الخَلق ﷺ، وسياقُ إرادة أهلِ الكفرِ خفضُ شأنِه ﷺ، والتَّهوينُ مِن شأنِ القرآن العظيم، وأسند القرآنُ فعلَ الرَّفع إلى نونِ التَّعظيم للدَّلالة على أنَّه فعلَ ذلك بما لهُ تعالى مِنَ العظمة، وبما له من نفوذ الأمر الذي لا يُنقض[3].

دلالةُ التَّعبير بـ(بعض):

تخصيصُ الرَّفع بطائفةٍ مِنَ النّاس لمصلحة الكُلِّ

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ: (بعض) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ﴾؛ لدلالته على الجزء والطّائفة، فبعضٌ مِنَ الشيء يعني: طائفةٌ وجزءٌ منه[4]، فدلَّ على أنَّه جعل النّاس مختلفينَ في التَّفاضل، فجعلَ تعالى بعضَ النّاس أفضلَ مِن بعضٍ بالرِّزق، والرِّياسة، والقوَّة[5]، وهذا المرفوعُ إنَّما رفعَه الله لحكمةٍ يَعلَمُها هو؛ وليس بلازم أنْ يعلمَها النّاسُ؛ فإنَّ البَعضيَّة لا تُنبئُ عن وصفٍ يكون عِلَّةً للرَّفع، وهذه البعضيَّةُ تُشيرُ إلى أنَّ هذا الرَّفْعَ يعودُ على النّاس جميعًا بالخير؛ لأنَّ هذا المرفوع جزءٌ من كلٍّ، همُ النّاس؛ فما يُصيبُه مِن رفعٍ يُصيبُ النّاسَ أيضًا.

(1) الراغب، المفردات: (رفع).
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 388.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 422.
(4) الفيومي، المصباح: (بعض).
(5) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 634.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف ﴿فَوۡقَ﴾:

رُتَبُ النّاس متفاوتةٌ، بعضُها فوق بعض

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالظَّرف ﴿فَوۡقَ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾؛ لدلالته على العُلوِّ، وهو نقيضُ تَحۡتٍ[1]، فدلَّ ذلك على أنَّهم درجاتٌ متفاوتة، والمرادُ: بيانُ المفاضلة في الدُّنيا في شأن الرِّزق والمنزلةِ والمكانة؛ فقد فاضلَ بينهم بالرِّزق، والرِّياسة، والقوَّة، والحرِّيَّة، والعقل، والعلم[2].

عِلَّةُ التَّعبير بـ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ مادَّةً، وصيغةً:

منازلُ النّاس صعودًا متفاوتةٌ وكثيرةٌ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ الدَّرجات في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾؛ لدلالة الدَّرجة على الصُّعود، وهي تُقال للمنزلة[3]، فلمّا كان السِّياقُ في الحديث عنِ المفاضلة بالرِّزق والمعيشة، وذلك برفع بعضِ النّاس فوق بعض: كانتِ الدَّرجات تُناسب الفوقيَّةَ والارتفاع؛ لأنَّها تُقال للصُّعود؛ وفي ذلك اللَّفظ إشعارٌ بعلَّةٍ لطيفةٍ للرَّفۡع؛ وهي الاجتهادُ في شيءٍ ما يتفاوتُ النّاس في تحصيله، وعبَّرَ عنها بالجمع للدَّلالة على كثرتها، فهي درجاتٌ ومنازلُ كثيرة؛ "متفاوتة بحسبِ القُربِ والبُعدِ حسبَما تقتضيه الحكمةُ؛ فمنۡ ضعيفٍ وقويٍّ، وفقيرٍ وغنيٍّ، وخادمٍ ومخدوم، وحاكمٍ ومحكومٍ"[4]، والقِلَّةُ في هذا الجَمۡعِ تشيرُ إلى وضوح هذه الدَّرجات والمراتب غايةَ الوضوح.

معنى اللّام، ودلالةُ التَّعبير بها:

رفعُ بعضِهم على بعضٍ فيه مصلحةُ النّاس جميعًا

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾، للتَّعليل وبيانِ الغاية، فَعِلَّةُ رفع

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فوق).
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 634.
(3) الراغب، المفردات: (درج).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 46.

الدَّرجات لبعض النّاس دون بعضهِم أنْ يَستخدم بعضُهم بعضًا[1]، وفائدةُ بيانِ علَّة الرَّفع والتَّفاوت في أمر الرِّزق التَّنبيهُ على أنَّ ذلك الرَّفعَ والتَّفضيل لم يكُن لكمال الموسَّع عليه، ولا لنقصٍ في المقتَّر عليه، بل لتكون الحياةُ صالحةً بهذا التَّفاوت[2]، والتَّصريحُ بالتَّعليلِ والغايةِ يُصوِّرُ كمالَ ظُهور المُعلَّلِ به في الواقع.

علَّةُ التَّعبير بالاتِّخاذ مادَّةً، وصيغةً:

النَّـاسُ مضطرّون لاستعمال بعضٍ في شؤونهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بفعل الأخذ بصيغة الافتعال في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾؛ لدلالة الأخذ على حَوزِ الشَّيء وتحصيله، والاتِّخاذُ افتعالٌ منه[3]، للدَّلالة على التَّكلُّف والاتِّخاذ بغاية الجُهد[4]، فالأَخْذُ يدلُّ على غاية افتقار المُتَّخِذ للمُتَّخَذِ، وصيغةُ الافتعالِ إبلاغٌ في تقرير ذلك؛ ففِعلُ الاتِّخاذ مادَّةً وصيغةً يدلُّ على أنَّ التَّفاوت في شؤونِهم ومنازلِهم اضطرَّهُم للاتِّخاذ والعملِ والسّخريَّة.

علَّةُ تَكرار لفظ (بعض):

كلُّ النّاس مشمولون بالاستعمال فيما بينهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ البعضيَّة مكرَّرًا في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾؛ للدَّلالة على العموم، فهو عامٌّ في النّاس، إذ ما منهم مِن أحدٍ إلّا وهو مستعملٌ لغيره، وغيرُهُ مستعمِلٌ لغيرِ آخر[5]، فلم يُعيَّن الفاضلُ والمفضول؛ لأنَّ السِّياق في بيان سبب تبايُنِ النّاس في الأرزاق؛ لينفيَ القرآنُ عنِ المُنزَّلِ عليه القرآنُ الأفضليَّةَ التي زعَموها في اقتراحهِم بأنْ يكونَ النَّبيُّ رجلًا عظيمًا على وفق موازينِهم.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 634.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 388.

(3) الراغب، المفردات: (أخذ).

(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 423.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 202.

دلالةُ التَّعبيرِ بالسُّخرة:

تنوّعُ الأعمالُ تبعًا لتنوُّع الحاجات، وذلك مِن أعلى مصالح النّاس

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالسُّخريَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾؛ للدَّلالة على استعمال بعضِهم بعضًا في حوائجِهم؛ وذلك لدلالته على التَّذليل والتَّكليف بالعمل[1]، وذلك بأن يستعمل أحدُهم غيرَه فيما يتعسَّر أو يتعذَّر عليه عملُه ومباشرتُه، ويأخذ للثّاني مِنَ المال ما هو مفتقِرٌ إليه مِنَ الأوَّل، فهذا بماله، وهذا بأعماله[2]، فترى النّاسَ يستعينُ بعضُهم ببعضٍ، فيقعُ بينهم التَّعارفُ والاجتماع؛ لأجْلِ حاجةِ بعضِهم إلى بعضٍ، وبهذا تتكوَّن المُدُنُ والمجتمعات[3]، ولَمّا كان المرادُ في السِّياق الاستخدامَ دون الهُزْءِ - أي: (يستخدمُ بعضُ النّاس بعضًا) - لأنَّه لا يليقُ التَّعليلُ بالهُزء: أجمعَ القرّاءُ على ضَمِّ حرفِ السِّين في قوله: ﴿سُخۡرِيّٗاۗ﴾[4].

دلالةُ الوَصلِ في صدر الجملة:

شأنُ الدُّنيا ليس معيارًا للتَّفاضل

افتتحَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ بالواو الاستئنافيَّة؛ فالجملةُ مستأنفةٌ[5]، سيقَتْ للتَّذييل على مضمون الآية، والمرادُ مِن هذا التَّذييل الرَّدُّ عليهم بأنَّ ما جعلوهُ معيارًا للتَّفاضل - كالمال - هو أقلُّ شأنًا مِن رحمته تعالى، والمالُ إنَّما جَمَعَهُ صاحبُه لفائدة نفسه؛ فلا يكون مثلَ اصطفاءِ اللّه العبدَ للنُّبوَّة[6]، والواو هنا على خلاف الظّاهر؛ لأنَّ ما بعد الواو نتاجٌ لمجموعِ ما قبلها مِنَ الآية السّابقة؛ فكان الظّاهرُ غيابَ الواو لما بينهما من كمال الاتِّصال؛ ولكنَّ

---

(1) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 440.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 423.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 202.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 25/ 7.
(5) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 82.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 202.

الواوَ أشعرت باستقلال ما بعدها، لِما فيها من معنى المغايَرة؛ لأنَّه نصٌّ في حسم قضيَّةِ القوم التي عبَّروا عنها بقولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالرَّحمة دون النُّبوَّة:

الرَّحمةُ مبعَثُ النُّبوَّة وثمرتُها

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ النُّبوَّة بالرَّحمة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ مجازًا مرسلًا؛ لعلاقة السَّببيَّة؛ لأنَّ الرَّحمة سببٌ في إرسالِ الأنبياء والرُّسل، أو لعلاقةِ المسببيَّة؛ لأنَّ إرسالَهُم يترتَّبُ عليه رحمةُ العباد. "ورحمة اللّٰه: هي اصطفاؤهُ عبدَه للرِّسالة عنه إلى النّاس، وهي التي في قوله: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾، والمعنى: (إذا كانوا غيرَ قاسمينَ أقلَّ أحوالِهم فكيف يقسمون ما هو خيرٌ مِن أهمِّ أمورهم)"[1].

دلالةُ إضافةِ الرَّحمةِ إلى لفظِ الرَّبِّ:

الـرَّحـمـةُ من ثمراتِ الرُّبوبيَّة ومقتضياتِها

أضافَ النَّظمُ الجليل الرَّحمةَ إلى الرُّبوبيَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ تعظيمًا لها، وتفخيمًا لشأنها، فهي منسوبةٌ إليه تعالى بصفَة الإحسان إلى العباد[2]، وفيها تنبيهٌ على أنَّ مِثْلَ هذه الرَّحمة لا تكون إلّا مِنَ الرَّبِّ سبحانه؛ لعلوِّ بدوِّ إحسانهِ تعالى فيها؛ أفلا يُقبِلون عليها بدلًا مِن أن ينصرفوا عنها؟!.

سرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

الـنُّـبـوَّةُ محضُ فَيضٍ مِن رحمة الرَّحمن

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الرَّبِّ دون الاسم الجليل في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الرَّحمة هي مِن فيوضات الرُّبوبيَّة، والنُّبوَّةُ ما هي إلّا نفحةٌ مِن رحمته تعالى وإحسانه، فهي مِنَ المربِّي المدبِّرِ لأمور العباد؛ ومِن ذلك أمرُ النُّبوَّة وإرسالِ الرُّسل، وإنَّما صرَف القرآنُ القولَ عَن مظهر العظمة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 202.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 423.

والسُّلطان كما في: ﴿قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم﴾ إلى الوصفِ بالإحسان: ﴿رَبِّكَ﴾؛ إظهارًا لشرفِ النَّبيِّ ﷺ[1].

دلالةُ إضافة الرَّبِّ إلى ضمير المخاطَب:

أضافَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ (الرَّبّ) إلى ضمير المخاطب المرادِ به النَّبيُّ ﷺ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ﴾ إشارةً إلى سابق الإحسان، أي: (ورحمتُ المُربِّي لك، والمدبِّر لأمرك، بإرسالكَ، وإنارةِ الوجود برسالتك)[2].

دلالةُ التَّعبير باسم التَّفضيل:

أيـن حـظـوظُ الدُّنيا مِن رُتبة النُّبوَّة

عبَّر النَّظمُ الجليلُ باسم التَّفضيل الدّالِّ على الخيريَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ وذلك لبيانِ الفرق الكبير بين رحمته تعالى التي هي هنا النُّبوَّةُ والسَّعادةُ في الدّارين[3]، وغيرها مِن كلِّ شيء؛ فهما في رُتبٍ مختلفة، فاقتضى التَّعبير عنِ الموازنة بينهما باسم التَّفضيل الذي هو نَصٌّ في الخيريَّة؛ لتأكيد سَعة الفرق بينهما؛ ووراء هذه اللَّفظة أنَّ مَن يُحاربُها أو يُنكرها ونحو ذلك فإنَّما يحرمُ نفسَه مِنَ الخير المتأكِّدِ الكثيرِ العظيم، ويُعرِّضُ نفسَه لشرٍّ عظيم.

دلالةُ التَّعبير بالموصول وصلتِه فعلًا مضارعًا:

رحمةُ الله تعالى أفضلُ مِن كُلِّ شيءٍ يجمعونه

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالاسم الموصول (ما) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾؛ لدلالته على التَّعميم؛ فرحمةُ اللّه تعالى هي خيرٌ مِن عُموم ما يجمعون، فكلُّ شيءٍ هو أدنى رتبةً مِن رحمة اللّه تعالى؛ للغموض الشَّديد الذي في هذا الموصول، وجاء التَّعبيرُ عن (الجمع) بالفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّده واستمراره، فرحمةُ اللّه تعالى هي أفضلُ من جمْعِهم مهما استدامَ وتجدَّد.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 423.
(2) الخطيب، السراج المنير: 3/ 561.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 46.

دلالةُ حذفِ المفعول به:

خيريَّةُ رحمةِ الله على كُلِّ ما يخطرُ بالبال

حذَفَ النَّظمُ الجليلُ المفعولَ به في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ فلم يقل: (ممّا يجمعونه) لدلالة السِّياق عليه، لأنَّ العائد معلومٌ؛ فاكتفى بمعرفته ذهنًا عن ذِكرِه لفظًا؛ طلبًا للإيجاز، وحفاظًا على نسَقِ الفاصلة، ولتقرير خيريَّة رحمةِ الله، وأفضليَّتها على كُلِّ مجموع.

﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣﴾

[الزخرف: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إيرادُ الرُّدود إثرَ الرُّدود لإبطال شُبَه الكافرين

لمّا ردَّ النَّظمُ الجليلُ على شُبْهة الكافرين، وأنكرَ إنكارَهم بأنْ يكون النَّبيُّ ﷺ هو النّبيَّ محمَّدًا دون أنْ يكون رجلًا عظيمًا مِنَ القريتين، وأجابَ بأنَّ اللّه تعالى هو مَن يُقسِّم الأرزاق بين عباده: أتبعَهُ بجوابٍ آخَرَ للرَّدِّ على جَهلِهِم، فبيَّن ﷻ أنَّ منافعَ الدُّنيا وما فيها مِنَ الطَّيِّبات حقيرةٌ خسيسةٌ عند اللّه؛ فلا وجهَ لبناء تفضيلِ الغنيِّ على الفقير على ذلك الأساس المُتهافِت[1]، وهذا رجوعٌ إلى التَّمتيع الذي هُم فيه؛ فهو الذي غرَّهُم ودفعَهُم إلى أنْ يُقولوا هذه الشُّبْهة المقيتةَ: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٗ﴾: (أمم/أمَّ) أصلٌ يدلُّ على الأصْل والمَرْجِع والجَماعَة والدِّين[2]، وأصلُ هذا البابِ كُلِّه مِنَ القَصْد؛ يقال: أممتُ إليه؛ إذا قَصدته؛ فمعنى الأمَّة في الدِّين: أنَّ مَقصدَهم مقصدٌ واحد[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الأنبياء: 92]، أي: دينٌ واحِدٌ، وكُلُّ مَن كان على دينٍ واحدٍ مخالفًا لسائر الأديان: فهو أمَّةٌ على حِدةٍ، وكان إبراهيم عليه السلام أُمَّةً[4]، والأُمَّة: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما؛ إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحِدٌ، أو مكانٌ واحِدٌ؛ سواءٌ كان ذلك الأمرُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 631.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمم).
(4) الخليل، العين: (أمم).

الجامِعُ تسخيرًا أو اختيارًا؛ وجمعها: أُمَمٌ، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]، أي: صنفًا واحدًا، وعلى طريقةٍ واحدةٍ في الضَّلال والكفر، وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، أي: على دينٍ مجتمِعٍ[1]، والمراد به في الآية الكريمة الاجتماعُ على الكفر[2].

2) ﴿سُقُفًا﴾: (سقف) أصْلٌ يدلُّ على ارْتِفاعٍ في إطْلالٍ وانْحِناءٍ؛ مِن ذلك السَّقْفُ سَقْفُ البيت؛ لِأنَّهُ عالٍ مُطِلٌّ[3]، والسَّقْفُ: غِماءُ البيتِ، والسَّماءُ سَقفٌ فوق الأرض[4]، وسَقْفُ البيت جَمعُهُ: سُقُفٌ، وجُعِلَت السَّماءُ سَقفًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ [الطور: 5]، والسَّقيفَةُ: كلُّ مكانٍ له سقفٌ[5]، وهو "البناء الممتدُّ على جدران البيت المغطِّي فضاءَ البيت"[6]، وهذا هو المرادُ بالسَّقف في الآية.

3) ﴿وَمَعَارِجَ﴾: (عرج) أصلٌ يدلُّ على سموٍّ وارتقاءٍ، والعُروج: الارتقاء، والمَعْرَج: المصعد[7]، يُقال: عَرَجَ في الدَّرجة والسُّلَّم يَعْرُج عُروجًا؛ إذا ارْتَقى، والمِعْراج: السُّلَّم[8]، ومِنهُ لَيلَةُ المِعْراج؛ والجَمْعُ مَعارج ومَعارِيج[9]، وعَرَجَ يعرُجُ عُروجًا، أي: صَعِد، والمَعْرَجُ: المَصْعَد[10]، والعُروجُ: ذهابٌ في صعودٍ، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [المعارج: 4]، والمعارِجُ: المصاعد[11]، والمراد به في الآية الكريمة: السُّلَّم[12].

4) ﴿يَظْهَرُونَ﴾: (ظهر) أصلٌ يدلُّ على بروزٍ؛ يُقال: ظهرَ الشَّيءُ إذا انكشفَ وبرزَ؛ ولذلك سُمِّي وقتُ الظُّهر والظَّهيرة، وهو أظهَرُ أوقات النَّهار، والأصلُ فيه كلِّه ظهرُ الإنسان[13]، والظَّهْرُ: خلافُ البطْنِ مِن كلِّ شَيْءٍ، والظَّهْرُ مِن الأرضِ: ما غَلُظَ وارْتَفَع،

---

(1) الراغب، المفردات: (أم).
(2) الواحدي، البسيط: 20/ 37.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سقف).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة: (سقف).
(5) الراغب، المفردات: (سقف).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 206.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرج).
(8) الجوهري، الصحاح: (عرج).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (عرج).
(10) الخليل، العين: (عرج).
(11) الراغب، المفردات: (عرج).
(12) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 440.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).

والبَطْن ما رَقَّ منها واطْمَأنَّ[1]، وظهَرَ على الحائط والجبل والسَّطْح: عَلاه، وصار فوقه، قال تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾، أي: يعْلون[2]، والمرادُ به في الآية الكريمة: يعْلون سطحَ البيت[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

متاعُ الدُّنيا قليلٌ زائلٌ، وهي هيِّنةٌ ضئيلةٌ عندَ الله تعالى

يُخبر النَّظمُ الجليلُ عن ضَآلةِ الحياةِ الدُّنيا عنده تعالى[4]، تحقيرًا لها، أي: ولولا مخافةُ أن يصير النّاس في مكَّة جماعةً واحدةً على الكفر، يجتمعون عليه، ويرغبون فيه، إذا رأوا الكفّار في سعةٍ مِنَ التَّنعيم: لأعطيتُ الكفّارَ أكثرَ الأسباب المفيدة للتَّنَعُّم؛ ولَجَعلنا لبيوتِهم سُقُفًا مِن فضَّةٍ وسلالمَ عليها يصعدون[5]، وذلك لهوانِ الدُّنيا على الله[6].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في مفتتح الآية:

تـأكيـدُ معنى حـقـارة الـدُّنـيا ومتاعِها

افتتح النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ بالواو في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ وهي عاطِفَةٌ لما بعدها على قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾؛ والغرضُ مِن العطفِ أنَّ المعطوفَ إبطالٌ ثالثٌ لِما أسَّسوا عليه قولَهُم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[7]، ومعنى الآية المعطوفِ عليها هنا أنَّ رحمة الله - وهي هنا النُّبوَّة، أوِ اصطفاؤهُ عبدَهُ محمَّدًا للرِّسالة - خيرٌ ممّا يجمعونهُ مِن متاع الدُّنيا، وهذا المعنى يلزمُ منه حقارةُ متاع الدُّنيا؛ وإنْ كان بيوتًا سقفُها مِن فضَّةٍ

(1) الخليل، العين: (ظهر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظهر).
(3) الواحدي، البسيط: 20/ 38.
(4) الواحدي، البسيط: 20/ 36.
(5) الخازن، لباب التأويل: 4/ 109، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 491.
(6) ابن جزي، التسهيل: 2/ 258.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 203.

ومِن معارجَ عليها يظهرون؛ فكان الظّاهرُ غيابَ الواو، لِما بينهما مِن التَّواصل الخفيِّ؛ وهو المُعبَّرُ عنه بكمال الاتِّصال؛ لكِن لمّا كان المعطوفُ دليلًا ثالثًا مستقلًّا، لوجود جديدٍ مِنَ المعنى فيه؛ وهو: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، وترتُّبِ الجواب عليه، مِمّا أنتجَ معنًى مخصوصًا بالآية: تصدَّرَتِ الآيةُ بالواو التي لا يبرَحُها معنى المغايرة؛ احتفالًا واعتدادًا بهذا الدَّليل.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(لولا):

امتنع التَّوسيعُ على الكافرين حتى لا يكون النّاسُ أُمَّةً مُجمِعَةً على الكفر

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالحرف: (لولا) في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ وهي هنا حرفُ امتناعٍ لوجودٍ، فانتفى الثّاني بسبب وجودِ الأوَّل، فانتفى الجوابُ عن الوقوع لأجل وقوع الشَّرط؛ فدلَّ ذلك على أنَّ اللّه تعالى لم يُرد أن يكون النّاسُ أُمّةً واحدةً في الكفر؛ فلذلكَ لم يوسِّع على الكافرين في عَيشِهم، أي: ولولا كراهةُ أن يرغبَ النّاسُ في الكفر عند رؤيتهم الكفّارَ في سَعةٍ ونعيم وتنَعُّم لِحُبِّهم الدُّنيا، وتوهُّم أنَّ ذلكَ لِفَضيلةٍ: لَجَعَلْنا للكافرين حُطامَ الدُّنيا، ووسَّعنا عليهم معيشتَهم[1].

سِرُّ التَّعبير بالمصدر المُؤَوَّل:

إنَّ اللهَ لا يرضى لعباده الكفرَ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالمصدر المُؤَوَّل مِن (أنْ والفعل) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ وذلك لِما في المصدر المؤوَّل مِن دلالةٍ على الزَّمن؛ متأتِّيةٍ مِنَ الفعل، فدلَّ ذلك على تجدُّدِ انتفاء جواب الشَّرط مِنَ الوقوع؛ بسبب تجدُّدِ وقوع الشَّرط؛ فاللّهُ تعالى لا يريد على مرِّ الزَّمان أن يكون النّاسُ أُمَّةً واحدةً في الكفر؛ لأنَّ النّاس عِندَهُم قابليَّةٌ لذلك الكونِ؛ إذا تحقَّقَ معنى الجواب؛ مِن تحقُّقِ السَّعة الشَّديدة في النَّعيم لأهل الكفر.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 243، والتفسير الوسيط، طنطاوي: 13/ 78.

دلالةُ التَّعبيرِ بالنّاس:

أُنسُ النّاس بمَتاع الحياة الدُّنيا واجتماعُهم عليها

عَبَّرَ القرآنُ بلفظ النّاس في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ إشارةً إلى قابليَّتهم للحُكم الذي يفترضُه القرآنُ فيهم مِنَ الاجتماع على الكفر؛ افتتانًا بنعيم أهل الكفر؛ فالنّاسُ هنا هم "أهلُ التَّمتُّع بالأموال؛ بما فيهم مِنَ الاضطراب والأُنْسِ بأنفسهم"[1].

بلاغةُ التَّعريف بِـ(ال):

مقصودُ الخطابِ المعهودُ مِنَ النّاس في مكَّة

نظَمَ القرآنُ اسمَ النّاس معرَّفًا بأل في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ﴾؛ والمراد بأل الاستغراقُ العرفيُّ، فالمقصود ليس جميعَ البشر، بلِ النّاسُ في مكَّة وجمهورُهم، فيكون التَّعريف للعهد؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ [آل عمران: 173]، ومعنى أن يكون أهلُ مكَّة أُمّةً واحدةً: أنَّهم يكونون متَّحِدين في الثَّراء، والمعنى: (ولولا أن تصيرَ أُمَّةٌ مِنَ الأمم أهلَ ثروةٍ كلَّهم - وذلك مخالِفٌ لِما قدَّره اللّه مِن اشتمال كُلِّ بلدٍ وكُلِّ قبيلةٍ وكُلِّ أُمَّةٍ على أغنياءَ ومحاويجَ لإقامة نظام العمران واحتياج بعضِهم لبعضٍ - لَجَعلْنا مَن يكفرُ بالرَّحمن وهم أهلُ مكَّة سواءً في الثَّراء والرَّفاهيَة)، ويُرجِّحُ هذا الفهمَ للتَّعريف جعلُ متعلّق الفعل: ﴿يَكۡفُرُ﴾ خصوصَ وصفِ الرَّحمن ﴿يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ فإنَّ مشركي مَكَّةَ أنكروا وصفَ الرَّحمن: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: 60]، وقد تكرَّر التَّورُّكُ عليهم بذلك في آيٍ كثيرة[2].

وقد يُقال بأنَّ (ال) هنا للاستغراق، فيُراد بالنّاس جميعُ البشر، ويكون المعنى: (ولولا أن يصيرَ النّاسُ كُلُّهم كُفّارًا لَخَصَصنا الكافرين بالمال والرَّفاهيَة وتَركنا المسلمين لِما ادَّخرنا لهم من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 26/ 7.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 204.

خيرات الآخرة، فيحسبُ ضعفاءُ العقول أنَّ للكفر أثرًا في حصول المال جَعَلَه اللّهُ جزاءً لِمَن سَمّاهم بالكافرين، فيتَّبِعوا دينَ الكفر لِتَخَيُّلِهم الملازمةَ بين سعادة العيش وبين الكفر)، وعلى هذا تفسيرُ ابنِ عبّاسٍ والحسن وقتادة والسُّدِّيّ[1].

عِلَّةُ التَّعبير بـ﴿أُمَّةً﴾:

قد تتسبَّب فتنةُ النَّعيم في الاجتماع على ما هو في غاية القُبح

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ الأمَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وهي دالَّةٌ على جماعةٍ يجمَعُهم أمرٌ ما كَدِينٍ واحِدٍ، أو زمانٍ واحِدٍ، أو مكانٍ واحِدٍ[2]، فعبَّر بالأمَّة للدَّلالة على ما يجمَعُهم؛ وهو هنا الكفر، أي: "لولا أن يصيروا كُلُّهم كُفّارًا؛ فيجتمعون على الكفر"[3]، ودلَّ على اجتماعهم على الكفر قولُه تعالى في الجواب: ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ ففي التَّعبير بالأُمَّة تقبيحٌ لهم، وتشهيرٌ بهم، وتشنيعٌ عليهم؛ فهلِ الكفرُ يُجتمَعُ عليه؟!؛ ولكنَّ الافتتان بالمال والمتاع الوسيع مِنَ البيوت والسُّقُف والمعارج والسُّرُر وغير ذلك: يتسبَّبُ في حصول الاجتماع المقصود المُتعمَّد على الكفر.

معنى اللّام، ودلالةُ التَّعبير بها:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بـ(اللّام) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ لربطِ الجواب بالشَّرط[4]، فهي تشيرُ إلى أنَّ ما بعدَها متعلِّقٌ بالجُملةِ التي قبلَها تعلُّقًا شرطيًّا؛ فيكون المعنى: (لو وقع الشَّرط لوَقَعَ الجوابُ حتمًا، أي: لصيَّرنا البتَّة)[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 204.
(2) الراغب، المفردات: (أمّ).
(3) الخازن، لباب التأويل: 4/ 109.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 84.
(5) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 300.

في الجَعْلِ قوّةُ القُدرةِ الإلهيّةِ وسطوةُ حُكمِها النّافذ

دلالةُ التَّعبير بالجعل مُسندًا إلى ضمير التَّعظيم:

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بـ(الجعل) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ للدَّلالة على التَّصيير، أي: لقدَّرنا وصيَّرنا أسبابَ الثَّراء متَّصلةً بالكُفر، ولكنَّ اللّه تعالى منَعَ ذلك التَّصيير[1].

وفي إسناد فعل (الجعل) إلى صيغة الجمع (ضمير التَّعظيم) دلالةٌ على تصيير ذلك بما للّهِ تعالى مِن عظمةٍ؛ فلا أحَدَ يُعارِضُه، لِحَقارة الدُّنيا وبُغضِها عنده، فيكون الجوابُ واقِعًا حتمًا[2].

معنى اللّام، ودلالةُ التَّعبير بها:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ للتَّخصيص، أي: (لخصَصْنا الكافرين بسَعة الرِّزق)، فيكون المعنى: (لولا كراهةُ أنْ يفضي عمومُ النّاس إلى الكفر وانقراض الإيمان: لجعلنا المالَ لأهل الكفر خاصَّةً)[3].

كمالُ قدرة اللهِ وسَعَةُ خزائنه

دلالةُ التَّعبير بالموصول (مَنْ):

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالاسم الموصول (مَنْ) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ لدلالته على العموم، أي: لَجعَلنا لكلِّ مَن يكفرُ بالرَّحمن سَعةَ الدُّنيا؛ ذكرًا كان أم أُنثى، واحدًا أم اثنين أم جماعةً؛ وهذا دالٌّ على سَعة العطاء والنَّعيم، وعلى كمال قدرة اللّه تعالى؛ إذ لا يقدرُ على ذلك إلّا إلهٌ حقٌّ هو اللّه ﷻ.

إنكارُ صفة الرَّحمن كفرٌ متجدِّدٌ في المشركين

دلالةُ التَّعبير بالكفر مادَّةً، وصيغةً:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالكفر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ للدَّلالة على إنكارهم وصْفَ الرَّحمن عنِ اللّه

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 205.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 424، والنخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 300.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 204، وينظر: الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 440.

تعالى[1]؛ بكُفرهم بالقرآنِ والرَّسولِ الذي جاءَهُم به؛ فهُم بذلك يُحاولونَ سَترَ ما مَنَّ اللّه عليهم به مِن نِعَمٍ لا حَصْرَ لها، ونظمُ الكفر فعلًا مضارعًا يؤكِّدُ العمومَ في الموصولِ (مَنْ)؛ سواء بمراعاة تفاوتِ أزمنةِ مَن يكفر بالرَّحمن، أو بمُراعاةِ أهلِ زمانٍ واحدٍ، فإنَّ المضارَعة تُبرِزُ التَّعجُّب مِن هذا الكفر المتجدِّد؛ فهل يُكفَر بمثل الرَّحمن، فضلًا عن تجديدِ ذلك؟!

ما أقبحَ الكفرَ بالرَّحمن الذي وسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيء

عِلَّةُ التَّعبير باسْم الرَّحمن دون سواه:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ باسم الرَّحمن في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ صفة الرَّحمة مقتضيةٌ لتناهي بسطِ النِّعم على الكافر؛ لولا العلَّةُ التي ذكرَها سبحانه مِنَ الرِّفق بالمؤمنين، وهي أنْ لا ينتشر الكفرُ بحُجَّة التَّوسعة على أهل الكفر توسعةً بالغةً[2].

لولا الفتنةُ لاختصَّ الكفّارُ بزخارف الدُّنيا الفانية

معنى اللّام، ودلالةُ التَّعبير بها:

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾؛ للاختصاص، أي: (لبيوتِ الكفّار خاصَّةً)[3]، وجعَلَها الطّيبيُّ دالَّةً على التَّعليل، أي: جعل السُّقفَ لأجل بيوتهم[4]، ومآلُ الوجهين واحدٌ؛ وعلى كون اللّام للاختصاص يكون فيه تمهيدٌ لإضافة البيوت إلى ضميرهم؛ فيكون في مجموع اللّام والإضافة تقريرٌ للمعنى تقريرًا يُشْبِهُ تقريرَه بأسلوب القصر.

زخرفةُ البيوت بالسُّقُف الفِضِّيَّة وغيرها هو من تمتيع أصحابِها الكافرين

الموقعُ النَّحويُّ لِشِبه الجملة، ودلالتُه:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بِشِبه الجُملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا﴾ بعد قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ على طريقة البدل، وهو

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 205.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 425.

(3) القنوجي، فتح البيان: 12/ 351.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 135.

مِن بدلِ الاشتمال[1]؛ لأنَّ الجعل للبيوت هو جَعْلٌ لأصحابها، وإنَّما جَعَلَه عن طريق الإبدال للتَّنبيه على أنَّ المخصوصَ بالإنعام هم الكافرون؛ فقدَّم ذِكْرَهم، ثمَّ بيَّن بالإبدال مكانَ ذلك الإنعام، وفي الإبدال أيضًا قَرْنٌ بين مَن يكفر بالرَّحمن وما حقَّرَه القرآن وهوَّنه؛ مِن هذا المتاع الذي منه البيوتُ وسُقفُها.

دلالةُ التَّعبير بـ(السُّقُف):

اتَّسع التَّرَفُ في البيت كلّه حتَّى ظهر في السُّقُف

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالسُّقُف على وجه الخصوص في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِّبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾؛ وذلك لبيان شدَّة التَّرف؛ بحيث إنَّهم يجعلون سقوف البيوت مِنَ الفضَّة، أي: (بَسَطنا على الكافرين مِن الزَّخارف الدُّنيويَّة، ووفَّرناها عليهم؛ إلى حيث يتَّخذون لبُيوتِهم سُقُفًا مصنوعةً مُتَّخَذَةً مِن فِضَّةٍ)[2]، وإذا كان التَّرفُ حاصلًا في أعلى البيوت كان حاصلًا فيما دونه مِن بابٍ أولى.

التَّوجيه البلاغيُّ لقراءتَي لفظ: ﴿سُقُفٗا﴾:

ظهورُ النَّعيم المفترض للكافرين وتعدُّدُه وتنَوُّعُه

قرأ قولَه تعالى: ﴿سُقُفٗا﴾ بفتح السِّين وإسكان القاف بالإفرادِ ﴿سَقۡفٗا﴾ - على إرادة الجنس -: ابنُ كثير وأبو عمرو وأبو جعفر، وقرأه الباقون بضَمِّ السِّين على الجمع[3]، وقراءةُ الإفراد تشيرُ إلى شِدَّة ظهور النَّعيم في هذه السُّقُف؛ فهو ظاهرٌ فيها على حدٍّ سواءٍ؛ وقراءةُ الجمعِ تشيرُ إلى تنوُّعِ هذه السُّقُفِ وتعدُّدِها؛ دلالةً على سَعةِ النَّعيم وكمالِه.

نكتةُ التَّقييد بشِبْه الجملة ﴿مِّن فِضَّةٖ﴾:

مِن سَعة الإنعام وكماله جَعْلُ السُّقوفِ مُضيئةً بالفِضَّة

وصَفَ النَّظمُ الجليلُ السُّقُف بأنَّها مِن فِضَّةٍ في قوله جَلَّ شأنُه:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 631.
(2) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 300.
(3) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 495.

﴿لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها مُتَّخَذَةٌ من فِضَّةٍ[1]، وإنَّما وصَفَها بذلك لأنَّ السُّقُفَ أعلى البيت، وهو مَسقطُ النَّظر؛ فكأنَّه "خَصَّها لإفادتها النّور"[2]، والنّورُ أبهى حين يكون مِن أعلى.

سِرُّ التّعبيرِ بالمعارجِ مادَّةً، وصيغةً:

مِنَ النَّعيمِ الخفيِّ العروجُ بالمصاعد

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالمعارج - وهي المصاعد - في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾؛ لدلالتها على العُلوِّ والسُّموِّ والارتقاء[3]؛ لأنَّ مَن يرقى بها كأنَّه يمشي مشية الأعرج[4]، وهذا تصويرٌ لحقيقة الصُّعود على السَّلالم أوِ المصاعد، وهذه المعارجُ مِن فضَّةٍ، لعطفها على الفضَّة[5]؛ وإنَّما جمعَها لأنَّ الكثرة أبلَغُ في سياق التَّنعيم؛ ووَجهُ النِّعمة فيها أنَّها تُسَهِّلُ الصُّعود، فهو مِنَ النَّعيم الخفيّ.

دلالةُ التَّعبير بـ(على):

الرّاكبُ على الشَّيءِ مُتمكِّنٌ منه

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ (على) - الدّالِّ على الاستعلاء - في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾؛ لأنَّ الارتقاءَ استعلاءٌ، فهم "يَعلونَ ويرتقونَ على ظُهورِها إلى المَعالي"[6]، فهو استعلاءٌ حقيقيٌّ، مع الدَّلالة على تمكُّنهم مِن تلك المعارج، وهذا أبلغُ في تقرير النَّعيم القويّ.

عِلَّةُ تقديمِ شِبْه الجملة على الفعل:

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ شِبْهَ الجُملَة على الفعل في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾، للعناية بالمُقدَّم والاهتمام به؛ لأنَّ مَوطِنَ الإنعام بالمعارج، لا بالظُّهور؛ فَقَدَّمَ ذِكْرَها تنبيهًا على ذلك؛ وتأخيرُ الفعل أنسَبُ للفاصلة.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 46.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 425.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرج).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 425.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 46.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 425.

اعتلاءُ البيوت، والظُّهورُ على سُطوحِها بالمعارج الفضِّيَّة

دلالةُ التَّعبير بالظُّهور مادَّةً، وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالظُّهور في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم يرتقون عليها؛ فإنَّ الظُّهور هو البروز؛ والظُّهورُ على الشَّيء طلوعٌ عليه[1]، فهم يعلون السُّطوحَ والعلاليَ ويَظهَرون عليها[2]، فالظُّهور أوجَزُ وأسخَى معنًى؛ وفيه دلالةٌ على كمال النَّعيم مِنَ العُلوِّ والارتقاءِ إلى المعالي، وآثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّدِ ذلك الفعل منهم؛ وهذا يدُلُّ على دوام النِّعمة واستمرارِها.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

النّاس والأُمم:

الأُمَّةُ جماعةٌ خاصَّةٌ مِنَ النّاس يجمعها أمرٌ ما

الأمَّة: كلُّ جماعةٍ يجمعهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38]، وقوله : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]، أي: صنفًا واحدًا، وعلى طريقةٍ واحدةٍ في الضَّلال والكفر، وقوله : ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، أي: على دينٍ مجتمعٍ[3]، أمّا النّاسُ فهو لفظٌ يُطلَقُ على من وُجِد فيه معنَى الإنْسانِيَّة، فيشمل كلَّ إنسانٍ وعمومَ نوعهم؛ فهم الإنس خاصَّة، وهو اسمُ جَمعٍ لا واحدَ له مِن لفظه، وأصلُه عندهم أُناس؛ فلَمّا سُكِّنَتِ الهمزة أُدغمت اللّام، وقيل: النّاسُ لغةٌ مفردةٌ، فاشتقاقُه مِنَ النَّوس، وهو الحركة؛ مِن ناس ينوس نوسًا إذا تحرَّكَ، والأناس لغةٌ أخرى[4]، وقد استعمل القرآنُ في الآية لفظَ الأمَّة؛ لأنَّ المرادَ به النّاسُ الذين يجتمعون على دين الشِّرك.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 46.
(3) الراغب، المفردات: (أم).
(4) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: (نوس)، ومعجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزءًا من كتاب السيد نور الدين الجزائري، ص: 529 - 530.

البيت والمسكن:

البيتُ هو المَأوَى والمآبُ ومَجْمَعُ الشَّملِ[1]، وهو مَأوَى الإنْسانِ بِاللَّيْلِ، وهو كُلُّ ما لَهُ جِدارٌ وسَقْفٌ، وإن لم يَكُن بِهِ ساكِنٌ[2]، والبيتُ: مكانٌ يُجعَلُ لهُ بناءٌ وفُسطاطٌ يُحِيطُ به؛ يُعَيِّنُ مكانَهُ؛ لِيَتَّخِذَهُ جاعِلُه مَقرًّا يأوي إليه، ويَستَكِنُّ به مِنَ الحَرِّ والقُرِّ[3]، أمّا المسكَنُ فأصْلُه من (سكن) وهو يَدُلُّ على خِلافِ الاضْطِرابِ والحَرَكَةِ[4]، فالسُّكونُ ضدُّ الحركة[5]، والسَّكَنُ: اسْمٌ بِمَعْنَى المَسْكونِ، والسُّكنَى: مَصْدَرُ سَكَنَ فُلانٌ البَيْتَ إذا جَعَلَهُ مَقَرًّا لَهُ؛ وهوَ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّكونِ، أيِ: القَرارِ[6]، فالمسكَنُ يتضمَّن السَّكينةَ والطُّمأنينة والاستقرار والرّاحة؛ وأمّا البيتُ فقد يتحقَّقُ فيه الأمنُ والاستقرارُ، وقد لا يكون ذلك متحقِّقًا فيه، فهو أعمُّ مِنَ المسكن من هذه الجهة؛ فعبَّر القرآنُ في الآية بالبيوت لأنَّها تدلُّ على ما لهُ جدارٌ وسَقْفٌ، فعبَّر بها لدلالتها على المأوى الذي لا يصلح إلّا بالسَّقف.

البيتُ هو المأوَى الذي يُؤوي النّاس، والمسكَنُ ما فيه راحةٌ واستقرارٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).
(2) الخليل، العين: (بيت).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 237.
(4) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (سكن).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 238.

﴿وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤﴾ [الزخرف: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الآيةُ مِن تمامِ ما قبلَها

هذه الآية الكريمة جزء مِن معنًى كلِّيٍّ، بدأتِ السّورةُ في تقريرِه مِن الآية السّابقة: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣﴾ [الزخرف: 33]، فهي جزءٌ مِن جوابِ: (لولا)؛ فاتِّصالُها بما قبلَها عُضْويٌّ، ولا ريبَ في اتِّصالِ الأبوابِ والسُّرُرِ المتَّكَأِ عليها بما قبلها، مِن السُّقُف والمعارج، فإنَّها مِن مُكوِّناتِ البُيوت.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾: (وكأ): أُصَيْلٌ يدلُّ على شَدِّ شيءٍ وشِدَّة، منه الوِكاءُ الَّذي يُشَدُّ به، وأصلُ هذا الفعل مِن الواو، وكان أصلُ اتَّكى اوْتَكى، ففُعِل به مِثْل ما فُعل بـ: اتَّزَن واتَّعَد، ومِثْلُ الاتِّكاءِ التَّوكُّؤُ، وهو التَّحاملُ على الشَّيء، يُقال: توكَّأ عليه: تحمَّل، واعتمَدَ، كـ (أوكأ)، والتُّكَأة: كـ (هُمَزَة): العَصا، وما يُتوكَّأُ عليه، وضرَبَه، فأتكأه: ألقاه على هيئة المُتَّكِئ، أو على جانبِه الأيسر، وضربتُه حتّى أتكأتُه، أي: سقط على جانبه، ويُقال: أوكأتُ فلانًا إيكاءً؛ إذا نصبتَ له مُتَّكَأً[1]، والمعنى: وسررًا عليها يعتمدون، ويستندون، على جهةِ التَّقوِّي والتَّشدُّدِ بها؛ دلالةً على تمامِ التَّنعُّم بها.

المَعنى الإجماليُّ:

لولا الفتنةُ؛ لخَصَّ اللهُ الكافرينَ بنعيمِ الدُّنْيا

يقولُ اللّهُ تعالى: ولولا أن يكون النّاسُ أمَّة واحدة في الضَّلال بالكفرِ؛ لاعتقادِهم أنَّ إعطاءَنا المالَ دليلٌ على محبَّتِنا لِمَن

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 37، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 394، وابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (وكأ).

أعطيناهُ؛ لجعلنا لبيوتهم أبوابًا مِن فِضَّةٍ، وسُرُرًا مِن فِضَّةٍ أيضًا؛ زيادةً في الرَّفاهية والنَّعيم، والحالُ أنَّهم على تلك الأسِرَّةِ الفِضِّيَّة يتَّكئونَ، ويجلسونَ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الوَصْلِ بالواو في: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾:

داعي الوَصْلِ قويٌّ لفظًا ومعنًى

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا﴾ عاطفةٌ لما بعدها، على جوابِ (لولا)، في قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا﴾ [الزخرف: 33] إلخ... أي: وجعلنا لبيوتهم أبوابًا وسررًا[2]، فبينَ الجملتيْن توسُّطٌ بينَ الكمالَيْن؛ لأنَّ كلًّا منهما خبرٌ لفظًا ومعنًى، وحسَّنَ الوَصْلَ: الاتِّفاقُ في الفِعليَّة، فإنَّ ما يتعلَّقُ به قولُه تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا﴾، يُقدَّرُ بمِثْل قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا﴾ [الزخرف: 33].

علَّةُ التَّعبير بالأبواب:

مِن أهمِّ مُكوِّناتِ البيتِ فاتحتُه

قولُه تعالى: ﴿أَبْوَابًا﴾ مفعولُ الجَعْلِ المحذوفِ، وهو جمعُ بابٍ، والبابُ يُقال لمدخل الشَّيء، وأصلُ ذلك مداخِلُ الأمكنة، كباب المدينة والدّار والبيت[3]، والسِّياقُ لذِكْرِ المُكوِّناتِ الأساسيَّةِ للبيوتِ، ولا ريبَ أنَّ الأبوابَ أو المداخِلَ منها، فلهذا ذكرَها القرآنُ.

سِرُّ تنكيرِ ﴿أَبْوَابًا﴾:

الغارِقُ في سَعةِ نعيمِ الدُّنيا مُفْتتَنٌ بها

نظَم القرآنُ مفعولَ الجَعْلِ نكرةً: ﴿أَبْوَابًا﴾؛ للدَّلالةِ على كثرة الأبوابِ، وللدَّلالة على عظمتها وفخامتها؛ رمزًا إلى اتِّساعِ الأجزاءِ المُكوِّنةِ لتلك البيوتِ؛ ممّا يتحقَّقُ به كمالُ الإغراءِ بالبيوت، والسَّكَنِ فيها، والتَّمسُّكِ والافتتانِ بها.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 26.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 87.
(3) الراغب، المفردات: (باب).

علّة التَّعبير بالسُّرُرِ:

عندَ السُّرُرِ يكونُ السُّرورُ بالرّاحةِ بعدَ التَّعبِ

قوله تعالى: ﴿وَسُرُرًا﴾ معطوفٌ بالواو على قوله تعالى: ﴿أَبْوَابًا﴾، عطف مفرد على مفرد، والقرآنُ لَمّا ذكَر الأبوابَ الَّتي منها أبوابُ حُجُراتِ البيتِ أو حُجُره؛ استدعَى في النَّفْسِ ما يتحقَّقُ للسّاكنِ في البيتِ، مِن الرّاحةِ بعدَ التَّعبِ بالنَّومِ وغيرِه، فرمز بهذا إلى الحُجُراتِ، وما يكونُ فيها مِن أشياءَ يستعملُها الإنسانُ؛ لتحقيقِ سكونه واطمئنانه وراحته، وذلك مِن مُكوِّناتِ البيتِ وأسباب التَّنعُّم فيه.

سِرُّ التَّنكيرِ في: ﴿وَسُرُرًا﴾:

الـكـافـرون لم يُبْصِروا ألوهيَّة الله في نعيمه، فـأصَـرّوا على الكفر به

نظَم القرآنُ السُّرُرَ نكرةً في قوله: ﴿وَسُرُرًا﴾؛ لتأكيد كثرة السُّرر وتنوُّعِها بعد أن ذكرها مجموعة؛ فكثرتُها ترجِعُ إلى الكَمِّ وإلى الكَيْفِ؛ لفتًا إلى عظمةِ النَّعيم فيها وفخامتِه؛ مِمّا يظهَرُ به كمالُ قدرةِ اللّه تعالى مِن جهةٍ، وكمالُ تأهُّلِ تلك البيوتِ؛ للإيواءِ والسَّكَنِ والإقامةِ والرّاحةِ؛ لإغراقِ أهلِ الكفرِ والضَّلالِ فيها؛ غضبًا وسخطًا عليهم مِن جهة أخرى.

سِرُّ حذفِ صفة المعارج والأبواب والسُّرر:

السِّياقُ يدلُّ على وصْفِ المعارجِ والأبوابِ والسُّرُرِ بأنّها مِن فِضَّةٍ

بيَّنَ القرآنُ السُّقُفَ بأنَّها مِن فِضَّة، فقولُه: ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: 33] متعلِّق بمحذوفٍ هو صفةٌ لقوله: ﴿سُقُفًا﴾ [الزخرف: 33]، وعطْفُ المعارج عليها، يعني: أنَّها تأخذ حكمها في هذا الوصفِ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿أَبْوَابًا وَسُرُرًا﴾؛ لأنَّهما معطوفانِ على السُّقُف والمعارج، أو جملتُهما معطوفةٌ على جملتِهما، والتَّقديرُ: ومعارج مِن فضَّة عليها يظهرون، ولبيوتهم أبوابًا من فضَّة، وسررًا من فضَّة عليها يتَّكِئون، وغيرُ واحد من المفسِّرين قدَّروا: (من فضة) بعدَ هذه الأشياءِ؛ لأنَّ القيدَ المُعْتبَرَ في المعطوفِ عليه مُعْتبَرٌ في المعطوفِ، ما لم تقُم قرينةٌ على

خِلافِه[1]، وقال ابن عاشور: "والمرادُ أنَّ المعارج والأبواب والسُّرر من فضَّة، فحذف الوصف مِن المعطوفات؛ لدلالة ما وصف المعطوف عليه"[2]، والإيجازُ ظاهرٌ في ذلكَ الحذفِ.

سِرُّ الوَصفِ بـ: ﴿عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾:

الـوَصْـفُ مَـدٌّ لخيطِ الرّاحةِ والسُّكونِ في السُّرُر

جملة: ﴿عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾: وصفٌ للسُّرر، يشيرُ إلى الزِّيادة في التَّنعُّم والرّاحة، فهو يدلُّ "على هدوء بالهم، وصفاءِ أوقاتهم وأحوالهم"[3]، فالضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا﴾ يرجعُ إلى السُّرُر، وقال ابن عاشور: "وفائدةُ وصفِها بجملة: ﴿عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ الإشارة إلى أنَّهم يُعطون هذه البهرجة، مع استعمالها في دَعَة العيش، والخلوِّ عن التَّعب"[4]، وإذا كانت السُّرُرُ مِن شأنِها أن يُتَّكَأ عليها، وأن تُستعمَل في دعة العيش وغيرِ ذلك؛ كان في وصفِها بذلك "زيادة تصوير للدَّعة، والغِبْطة، والرّاحة، والفراغِ مِن الشَّواغل الَّتي يُشْغَل النّاسُ بها"[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاتِّكاءِ مادَّةً وصيغةً:

في الاتِّكاءِ تمكُّنٌ مِن النَّعيم

قولُه تعالى: ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾: أصلُ هذا الفعل مِن الواو، وكان أصلُ اتَّكى اوْتَكى، ففُعِل به مِثْل ما فُعل بـ: اتَّزَن واتَّعَد؛ ومِثْلُ الاتِّكاءِ التَّوكُّؤُ؛ وهو التَّحاملُ على الشَّيء[6]، فالمعنَى: يعتمدون، ويستندون على السُّرُر، والاتِّكاءُ عليها مطلعُ الرَّفاهيةِ، وصورَةُ تمام السَّكَنِ بها وإليها، والرّاحةِ بها وعليها، ونظَمَه القُرْآنُ مُضارِعًا؛ تصويرًا لتجدُّدِ ذلكَ؛ كلَّما حَلَّ بالإنسانِ تعَبٌ في ليلٍ أو نهارٍ، فهو دالٌّ على التَّكرار والاستِمرارِ.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 212، وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 7/ 314، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 26، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 317، والآلوسي، روح المعاني: 25/ 79.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 206.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 26، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 562.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 206.

(5) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 351.

(6) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 37.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

السُّرُرُ والفُرُشُ:

في السُّرُرِ خَفْضُ العَيْشِ

السُّرُرُ جمعُ: (سَرير)، والسَّريرُ: الَّذي يُجْلَسُ عليه، من السُّرورِ؛ إذ كانَ ذلك لأولي النِّعْمةِ، وجمعُه أسِرَّةٌ وسُرُرٌ، قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصۡفُوفَةٍۖ﴾ [الطور: 20]، و﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرۡفُوعَةٌ ١٣﴾ [الغاشية: 13]، ويُقال: (سرير الميّت)؛ تشبيهًا بهِ في الصّورة، وللتَّفاؤلِ بالسُّرورِ الَّذي يَلْحَقُ الميِّتَ برجوعِه إلى جوار اللّه تعالى، وخَلاصِه من سِجْنِه المُشار إليه بقولِه ﷺ: «الدُّنيا سِجْنُ المؤمن»، والأصلُ: (سَرَّ) يجمعُ فروعَه إخفاءُ الشَّيءِ، وما كانَ مِن خالصِه ومُستَقرِّه، ومن ذلك السَّريرُ، ففيه معنى خفضِ العَيْشِ؛ لأنَّ الإنسانَ يستقِرُّ عندَه وعندَ دَعَتِه، وسريرُ الرَّأس: مستَقَرُّه، والعادةُ تشْهَدُ بعُلوِّ السَّريرِ عن الأرضِ شيئًا ما، وأنَّ هذا أمْرٌ نِسْبِيٌّ، فالسُّرُرُ هي ما يَسُرُّ الإنسانَ من المقاعدِ العاليةِ المصنوعةِ للرّاحة والكرامةِ، وأمّا الفُرُشُ؛ فجَمْعُ فِراشٍ، والفِراشُ: هو المَبْسوطُ على الأرضِ، من ثيابٍ ونحْوِه من الأقْمِشَةِ؛ لأنَّ: (فرش) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تمهيدِ الشَّيءِ وبَسْطِه، والفَرْشُ بَسْطُ الثِّيابِ، ويُقال للمَفْروشِ: فَرْشٌ وفِراشٌ، وهي توضَعُ على السُّرُرِ أيضًا، وحينئذٍ تكونُ مرفوعةً فوقَ الأرضِ؛ لأنَّ محلَّ الجلوسِ والرّاحةِ والاتِّكاءِ والنَّومِ في السَّريرِ فوقَ الأرضِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤﴾ [الواقعة: 34]، أي: هي رفيعةُ القدر، وعاليةٌ بالفعل؛ لكثرة الحَشْو، ولتراكم بعضِها على بعضٍ؛ ولأنَّها على السُّرُرِ، والقرآنُ عبَّرَ في آيةِ الزُّخرف هنا بالسُّرُرِ؛ لأنَّها أبلغُ في تقريرِ الامتنانِ بعظيمِ النَّعيمِ والرَّفاهِيَةِ، فهي تتضمَّنُ الفُرُشَ؛ لأنَّها تكونُ عليها(1).

(1) الراغب، المفردات، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (سَرَّ)، و(فرش)، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 406، و409.

﴿وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ٣٥﴾ [الزخرف: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

صدرُ الآيةِ ألَّفَ بينَ باقي أجزاءِ معانيها وبين الآيتَينِ اللَّتينِ قبلَها

لَمّا بيَّنَ تعالى في السِّياقِ القريبِ أنَّه لو شاء أن يجعل للكافرين لبيوتهم سقفًا مِن فضَّة ومعارج عليها يظهرون، وأنْ يجعل لبيوتهم أبوابًا وسُرُرًا لفعل ذلك؛ بيَّن في صدرِ هذه الآيةِ: أنَّه كذلك لو شاء أن يجعلَ لهم زخرفًا لفعل؛ فيحصلُ لهم الكمالُ في حياتهم الدُّنيا؛ لأنَّه يُفسَّرُ بالذَّهب وبالزِّينة وبهما معًا، ثمَّ عقَّب على مجموعِ الزُّخرفِ وما هو مِن تمامِه بأنَّه ليس إلّا متاعًا للحياةِ الدُّنيا، ثمَّ قرَّرَ شرَفَ أهلِ الإيمانِ بالرَّحمنِ؛ إذ يختصّون بنعيم الآخرة الَّذي مِن شأنه البقاءُ، وأمّا متاعُ الدُّنْيا؛ فمِن شأنِه الفناءُ.

❁ شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿وَزُخْرُفًاۚ﴾: الزُّخْرُفُ في اللُّغَة: الزِّينةُ وكمالُ حُسْنِ الشَّيءِ فيها، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ [يونس: 24]، ونحوَ هذا قال ابنُ عبّاس: يريدُ جمع الزّينة، والمُزخرَفُ: المُزيَّنُ، والتَّزَخْرُفُ: التَّزيُّنُ، وكلُّ ما زوِّقَ، وزُيِّنَ؛ فقد زُخْرِفَ، وقالَ الفرّاءُ: الزُّخْرُفُ هنا الذَّهَبُ؛ لذِكْرِ الفِضَّةِ من قبلُ، وقيل: هو الذَّهَبُ والغِنَى، وعلَّق عليه ابنُ منظورٍ بأنَّه أشْبَهُ الوجهيْنِ بالصَّوابِ، والأعلى في سياقِ المبالغة في تقريرِ نعيم أهلِ الدُّنيا مِن الكفرة والمشركينَ، وحَمَلُ الزُّخرفِ على ما قالَه ابنُ عبّاسٍ، أي: ذهبًا وزينةً عامَّةً كاملةً[1].

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 38، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 27، وابن منظور، لسان العرب: (زخرف).

المَعْنى الإجْماليُّ:

مآلُ متاعِ الدُّنيا الفناءُ، وشأنُ نعيمِ الآخرةِ البقاءُ

يقولُ تعالى: لولا أنْ يرغب النّاسُ في الكُفْر؛ إذا رأوا الكافر في سعةٍ مِن الرِّزْق، ويصيروا أمَّة واحدةً في الكفر؛ لجعلنا لمَن يكفر بالرَّحمن زخرفًا، أي: زينةً مِن سُتورٍ ونمارقَ ونقوشٍ، أو ذهبًا، أو زينةً وذهبًا، وما كلُّ ذلك النَّعيم مِن صريحِ السُّقُفِ والمعارجِ والأبوابِ والسُّرُرِ والزُّخْرُف، ومِن ظِلال ذلك كلِّه؛ لفظًا ونظْمًا: إلّا شيءٌ يُتمتَّع به في الحياة الدُّنيا الزّائلة الحقيرة، وهذا هو الأصلُ في ذلك؛ وإنْ خفِي عن بصائرِ الكافرين والعُصاة، وأمّا أهلُ الإيمانِ والتَّقوى؛ فلَهُم نعيمُ الآخرة، لا يشاركهم أحدٌ فيه، وهو نعيمٌ أيُّ نعيم؟ هو نعيمُ الرَّبِّ المُحْسِن العظيمِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ التَّعبير بالزُّخْرُفِ مادَّةً وصِيغَةً:

ما عند الله خيرٌ لعباده المتَّقين

الزُّخْرُفُ في اللُّغة الزِّينة وكمالُ الشَّيء فيها، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ [يونس: 24]، ونحوَ هذا قال ابنُ عبّاس: يريدُ: جمع الزِّينة[1]، وإنَّما عبَّر القرآنُ بالزُّخْرُفِ؛ إشارةً إلى أنَّ الله لولا أنْ يكون النّاسُ أمّةً واحدةً في الكُفْر؛ لجعَل لمن يكفرُ به غايةَ السَّعَةِ في الدُّنيا، مِن عظيمِ الرَّفاهيةِ والنَّعيم، قال البقاعيُّ: ودلَّ القرآنُ على ما لا يتناهَى مِن غير السُّقف والمعارج والأبواب والسُّرُر بقوله: ﴿وَزُخۡرُفٗاۚ﴾، أي: ذهبًا وزينةً عامَّةً كاملةً[2]، وفي التَّعبير به أيضًا إيماءٌ إلى فناءِ الدُّنيا وانتهائِها وأفولِها، فيكون فَرْشًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، قال البقاعيُّ: "ولمّا كان لفظُ الزُّخْرُف دالًّا على كون ذلك أمرًا ظاهريًّا

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 38.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 27.

مُتلاشِيًا عند التَّحقيق؛ دلَّ عليه بقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ الآية"[1]، ويؤيِّدُ هذا قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: 24]، وهذا سِرُّ الاقترانِ بين: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ و: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في آية مستقلَّةٍ.

سِرُّ تأخير ذكر الزُّخرف:

إذا كَمـلَ النَّعيمُ؛ أوشك فناؤُه

عطَف القرآنُ قولَه تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ بالواو على قوله تعالى: ﴿وَسُرُرًا﴾؛ ويجوز أنْ يكون مفعولًا لفعلٍ محذوفٍ يُفسِّرُه الجَعْلُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الزخرف: 33]، أي: وجعلنا لهم زخرفًا، ويجوز أنْ يكونَ الأصلُ: سقفًا من فضَّة وزخرف، أي: بعضُها مِن فضَّة، وبعضُها من ذهَب، فيكون قولُه: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ منصوبًا بالعطف على محلِّ: ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: 33]؛ لأنَّ الزُّخرف يُطلق على الذَّهب؛ لأنَّ الذَّهب يُتزيَّن به[2]، وإنَّما أخَّرَه القرآنُ في الذِّكْرِ؛ نظَرًا إلى كونه تمامَ نعيم الدُّنيا وشهواتها وزينتها، فقد قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: 24]، وهذا جارٍ على تفسيرِه بالزِّينة، وعلى تفسيرِه بالذَّهب قال ابن عاشور: "وابتُدئَ بالفضَّة؛ لأنَّها أكثر في التَّحليات، وأجملُ في اللَّون، وأخَّر الذَّهبَ؛ لأنَّه أندرُ في الحُليِّ، ولأنَّ لفظَه أسعدُ بالوقف؛ لكون آخِرِه تنوينًا ينقلبُ في الوقف ألفًا، فيناسب امتداد الصَّوت، وهو أفصحُ في الوقف"[3]، وأسرارُ التَّأخيرِ على هذَيْنِ التَّفْسيرَيْنِ تُقال على وجه جوازِ "أن يكون لفظ: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ مستعملًا في معنييه استعمالَ المشترَك، فلا يرِد سؤال عن تخصيص السُّقف والمعارج بالفضَّة"[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 27، وبتصرّف.

(2) الزمخشري، الكشاف: 25/ 137 - 138، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 206، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7: 83 - 84.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 206.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 206.

المعطوفُ إبلاغٌ في كَشْفِ حقيقة المعطوف عليه عند الله

سِرُّ الوَصْلِ بالواو في: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾: عاطفةٌ لِما بعدها على مجموعِ قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الزخرف: 33] إلى قوله تعالى: ﴿وَزُخۡرُفٗاۚ﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْن؛ فكلاهما خَبَرٌ لفظًا ومعنًى؛ والمعطوفُ تعليقٌ على المعطوفِ عليهِ؛ "والثّاني مُتمِّمٌ لمعنى الأوَّلِ وجامِعٌ له ومُحقِّقٌ له؛ لأنَّ جَعْلَ سقف الفضَّة والمعارج والأبواب والسُّرُر، لِمَن يكفرون بالرَّحمن إنَّما كان؛ لأنَّه كأنَّه لم يكُن؛ لأنَّه كلَّه متاعُ الحياةِ الَّتي كُتِب عليها الفناء، والموصوفةِ بالدُّنيا، وهذا موصولٌ بقوله تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الزخرف: 32]"[(1)].

التَّوجيهُ البلاغي لقراءتَي قولِه: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا﴾:

مهما كثر متاع الدُّنيا؛ فهو زخرفة زائلة

قولُه تعالى: ﴿لَمَّا﴾، قرأه عاصمٌ وحمزةُ وابنُ جمّاز وهشامٌ بخلف عن الحُلْواني بتشديد الميم، بمعنى: (إلّا)؛ فهي أخت (إلّا) المختصَّة بالوقوع في سياق النَّفي، وتكون (إنْ) نافية، والمعنى: (وما كلُّ ذلك إلّا متاع الحياة الدُّنيا)، وقرأه الباقون بالتَّخفيفِ ﴿لَمَا﴾، وكذلك هشامٌ مِن بقيَّة طرقه، فـ: (إنْ) هي المخفَّفة مِن الثَّقيلة، واللّام فارقة، و(ما) مزيدةٌ للتَّأكيد بين المضاف والمضاف إليه[(2)].

وقراءةُ التَّشْديد تفيدُ القَصْر، وأنَّ كلَّ ما ذُكِرَ مِن سقف الفضَّة والزُّخرف والمعارج والأبواب والسُّرُر: متاعٌ زائلٌ، يزولُ بزوال الدُّنيا، وكلُّ نعيم لا محالةَ زائلٌ؛ وهذا تعقيبٌ جيِّدٌ على ما قبلَه، وتمهيدٌ جيِّدٌ[(3)]، وقراءةُ التَّخفيفِ تعني أنَّه في الجملة مُكوِّنات بلاغيَّة ذات قيمة في دلالتها على العناية بمعنى الجملة، وليس فيها معنى

---

(1) محمد أبو موسى، آل حم، الشورى الزخرف الدخان، دراسة في أسرار البيان، ص: 353.

(2) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 495، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 207.

(3) محمد أبو موسى، آل حم، الشورى الزخرف الدخان، دراسة في أسرار البيان، ص: 352.

القصر، هذه المُكوِّناتُ هي (إن) المخففة من (إنَّ) التَّأكيديَّة، وضميرُ الشَّأن المنوي بعدها، وزيادة (ما) للتَّأكيد؛ فإذا طرَقت النَّفسَ هذه المؤكِّدات؛ استشرفت لمدلول الخطاب، وتشوَّقت لما سيُلقى إليها من بيان هوان الدُّنيا وزخرفتها.

علَّة التَّعبير بـ: ﴿كُلُّ﴾:

مَن أحاطَتْ به الدُّنيا؛ لم يكَد يخرُج منها

عبَّر القرآنُ بكلمة: ﴿كُلُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، وهي مِن ألفاظ العموم، بل هيَ أعمُّ ألفاظِه، وأضافَها إلى لفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يستحضرُ جميعَ ما يَصْدُقُ عليه اسْمُ الإشارةِ مِن السّياقِ القريبِ؛ إبلاغًا في تقرير المعنى النّاتج عن الإسنادِ، أي: في تقرير معنى أنَّ ذلك النَّعيم متاع الحياة الدُّنيا؛ فالجملةُ أفادت في نورِها أنَّ كلَّ جزءٍ مِن أجزاءِ النَّعيم السّابق ذكرُه متاع الحياة الدُّنيا، وهذا ضربٌ مِن الإيجاز مِن جهةٍ، وتوكيدٌ وتحقيقٌ لمضمون الكلام مِن جهةٍ أخرى.

سِرُّ إفراد: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ﴾:

الكثيرُ العظيمُ في ميزان البشر قليلٌ حقيرٌ في ميزان الله

يشيرُ الإفرادُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾، وقوله: ﴿مَتَٰعُ﴾ إلى حقارة الدُّنيا ودناءتها وهوانها على الله ﷻ؛ إذ لولا الفتنة؛ لخَصَّ اللّهُ بها الكافرينَ به، والإفرادُ على هذا ناظرٌ إلى قوله: ﴿ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، فهو توطئةٌ له، وفي هذا إبلاغٌ في تحقيقِ مضمونِ الجملة.

علَّةُ التَّعبير بالمتاع:

الحُكمُ على كلِّ ذلك بالمتاعِ يُحرِّك النَّفسَ المُنصِفة للتَّفكير فيه

قولُه تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾: خبرُ قولِه: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾، والخبرُ وصفٌ في المعنى لصاحبِه، والقرآنُ عبَّرَ بالمتاعِ؛ للتَّنبيهِ على فناءِ ذلكَ النَّعيم؛ وإنْ طالَ؛ لأنَّ مادَّة: (متع) تدلُّ على منفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ[1]، قال الرازيُّ: "وإنَّما سمّاه متاعًا؛ لأنَّ الإنسان يستمتعُ به قليلًا، ثمَّ ينقضي في الحال"[2]، فكيف يكونُ موقفُ النَّفْسِ العاقلةِ

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (متع).

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 209.

المُنْصِفة مِن ذلك المتاعِ الَّذي له حدٌّ ونِهايَةٌ؟ هل ستَسْتَمْسِكُ به؟ أم بالنَّعيم الباقي؟

دلالةُ تعريف ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ بـ(ال):

(الـ) في: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ للعهد الذِّهْني، أي: الحياةُ الَّتي هي القوَّة الحسّاسة، والَّتي بها سُمِّي الحيوانُ حيوانًا، وهي ضِدُّ الموتِ، ففي تعريفها استحضارٌ لها في الذِّهْنِ، وهذا يعني استحضارَ ما فيها مِن متاعٍ، كالسُّقُف والمعارج، والأبواب والسُّرُر، والزُّخرف، وفي هذا تمكينٌ لمعنى الكلام في النَّفْسِ.

يعهد الإنسان الشَّهوات؛ ما دام حيًّا

فائدةُ ذِكر الموصوف ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

قد يذكر القرآن الموصوف بالدُّنْيا - وهو الحياة - وقد لا يذكُره، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [البقرة: 85]، وقوله سبحانه: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ [البقرة: 114]، وإنَّما ذكَر القرآنُ الحياةَ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾؛ لبيانِ أنَّ كلَّ ذلك - مِن السُّقُف وما جاء بعدَه - مِمّا يحيا به الإنسانُ، ويدخلُ في حياتِه، واستمرارِها، وكمالِها، وتمامِها؛ ولذلك تكونُ فتنتها شديدة.

في ذكرِه كمالُ اعتداد بالمتاعِ؛ ترغيبًا في مطلق الانتفاع به

فائدةُ الوصف بـ﴿ٱلدُّنۡيَاۚ﴾:

وصَف القرآنُ الحياة بالدُّنوِّ في قوله تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، "أي: الَّتي اسمُها دالٌّ على دناءتها، وأنَّ لها ضرَّةً، هيَ الآخرة، وهو منقطِعٌ بالموت"(1)، فالوصفُ تصريحٌ بقَصْدِ السِّياقِ، مِن بيانِ حقارةِ الحياةِ في الدّارِ الدُّنْيا، وقلَّة شأنها، وهوانها على الله ﷻ، بالنَّظَر إلى الحياةِ في الدّار الآخرة؛ لأنَّ السَّعادةَ في الدّار الأولى فانية، والسَّعادة في الدّار الآخرة أبديَّةٌ.

أهلُ الكفرِ استبدلوا الأعلى نعيمًا بالأدنى فيه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 27.

دلالةُ الإضافة في: ﴿مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

صفةُ المُضافِ إليهِ مُعتبَرةٌ في التَّعريفِ بالمضاف

حكَم القرآنُ على السُّقُف والمعارج والأبواب والسُّرُرِ والزُّخْرُف بالمتاع، وأضافَ المتاعَ إلى الحياة الدُّنْيا، فأَفْهَمَتِ الإضافةُ أَخْذَ المتاعِ حُكْمَ الموصوفِ مع ضميمة صفتِه: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، فهو متاعٌ يحيا به الإنسانُ، فهو ينجذبُ إليه، ويُقبل عليه، ثمَّ عليه أيضًا أن يَحذر منه، فلا يَغرق فيه، بل عليه أن يتَّخذَه وسيلةً إلى ما هو أعلى منه وأفخمُ، وأشرفُ وأعظمُ، وهو نعيمُ الآخرة.

سِرُّ الوَصْلِ بالواو في: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾:

الجملةُ المعطوفةُ مُمْسِكةٌ بسلسلةٍ مِن المعاني قبلها

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ معطوفةٌ بالواو على ما بعد الواو في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بين الكمالَيْنِ، فكلٌّ منهما خبرٌ في اللَّفظ والمعنى، وحسَّنَ الوَصْلَ بالواوِ بينهما ما بينَ المُتعاطفَيْنِ مِن تقابُلٍ، معَ ضميمةِ استحضار الآيتَيْنِ اللَّتيْنِ قبل المعطوفِ عليه مِن أوَّلِ قولِه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الزخرف: 33]، فالآخرة تُقابلُها الحياةُ الدُّنيا، والمتَّقونَ يقابلُه مَن يكفرُ بالرَّحمن، ورأسُ المتَّقينَ المُخاطَبُ بقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ﷺ.

دلالةُ تعريف ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾ بـ(ال):

لا دار في الحقيقة إلّا الآخرة

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾، هي الحياةُ الآخرةُ المقابلةُ للحياة الدُّنيا، والقرآنُ مِن سُنَنِه أن يُحدِّثَ عنها أمَّةَ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، أمَّةَ الدَّعوة، وأمَّةَ الإجابة، فهي معهودةٌ لهم جميعًا، مِن هذه الجهةِ، ولا شكَّ أنَّ ذلك يُحْضِرُ في أذهانِهم ما سبَق أن تلقَّوه، فيساعدهم على الإحسانِ في تلقّي المعاني، وفقهها فقهًا ينحو بهم نحوَ الصَّواب، وعلى هذا كون (الـ) في ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾ للعهد.

علَّة التَّعبير بـ(الآخرة):

عبَّرَ القرآنُ عن دار الخلود بـ(الآخرة) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ

مِثلُ الآخرة الباقية يُؤثِره العاقلونَ على الدُّنيا العاجِلة

عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، في مقابلِ الحياة الأولى المُعبَّرِ عنها بقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾؛ ليتمَّ التَّقابُلُ بينهما بينَ فناءِ الحياة الدُّنيا، وبقاء الحياة الآخرة، ودناءة الأولى وهوانِها، وشرفِ الثّانيةِ ونفاسَتِها، وهذا مِن شأنِه أن يُحرِّكَ المُتلقِّينَ إلى تأمُّلِ حالِ الطَّرفَيْنِ في نورِ كلٍّ منهما، فيتمكَّنُ المعنى القرآنيُّ في النَّفْسِ، وذلك إحسانٌ إلى المعنى وإلى مُتلقِّيهِ جميعًا.

سرُّ حذف كلمة (الحياة) في: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾:

لا تستوي الحياة الدُّنيا والحياةُ الآخرةُ عندَ اللهِ

لَمّا كان قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾ مقابلًا لقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾؛ كان في الكلامِ حذْفٌ لموصوفٍ، وهو الحياة، أي: والحياةُ الآخرةُ عند ربِّك للمتَّقين، وحسَّنَ الحذفَ العلمُ بالمحذوف، وقربُ الدَّليلِ اللَّفظيِّ عليه منه، وقد يكون من دلالات الحذفِ اللَّفْتُ إلى المغايرةِ وعدم التَّساوي بين الحياة الدُّنيا والحياةِ الآخرةِ جملةً وتفصيلًا، وقد دلَّ القرآنُ على نفي التَّسوية بينهما بمثْلِ الحذف؛ لأنَّ مسلكَه في السّورة في الحديثِ عن أضداد مَن يكفر بالرَّحمن الإيجازُ.

فائدةٌ: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

بيانُ كمالِ شرف الحياة الآخرة في مقابل كمال دناءة الحياة الدُّنيا

قولُه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ قيدٌ لمضمونِ الجملة الَّتي طرفاها: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾، ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾؛ فقد نُسِبت (الآخرة)، وأُضيفت إليه تعالى في المعنى، وفائدةُ التَّقييدِ به: بيانُ غايةِ فخامةِ الآخرة وعظمتِها وشرفِها؛ لأنَّ الإضافةَ إلى الجليلِ دالَّةٌ على جلالة المُضافِ إليه[1]، والعِنْديَّةُ تدلُّ على القُربِ - وهو هنا قُرْبُ مكانةٍ - على جهة الاستعارة التَّمثيليَّة، فقد مُثِّلَت حالةُ قُربِ نعيم الآخرة - الَّذي أعدَّه الله للمُتَّقين - مِن الله، وكذلك قُرْبُ أهلِ التَّقْوَى منه سبحانه بحالةِ قرب النَّعيم الحِسّي والمُنعَّمينَ به مِن أحدٍ قُرْبًا حِسِّيًّا، قربَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 27.

مكانٍ، وقد دلَّ على المستعار منه المشبَّه به لفظُ: ﴿عِندَ﴾، قال القونويُّ: "وقولُهم: كلمةُ: ﴿عِندَ﴾ ليست للمكان، بل للمكانة: يُراد به الاستعارةُ التَّمثيليَّةُ"[1]، وأشار القرآنُ بالوصف بالرَّبِّ إلى أنَّ الجلالة بالحُسنِ والرّاحة، وبالإضافةِ إليه ﷺ إلى أنَّ ذلك في أعلى الغاياتِ[2]، "وكلمةُ: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، هي جوهرُ المعنى وسِرُّه في هذه الجملة؛ لأنَّها أفادت معنى الأجرِ والثَّوابِ والخيريَّةِ، وقد اكتفى الكلامُ بذكر كلمة: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ فيها من التَّشريف والتَّقدير ما لا يُقادَرُ قدرُه"[3].

بلاغةُ كاف الخطاب النَّبويِّ في لفظ: ﴿رَبِّكَ﴾:

حسدوا نبيَّنا ﷺ، فازداد كمالًا

في إضافة الرَّبِّ إلى كافِ خطابِ نبيِّنا ﷺ تنبيهٌ على غايةِ عِظَمِ إحسانِ اللّٰه إليه، وأنَّ إحسانَه إلى المتَّقين المُتَّبعين له السّائرين على نهجِه مِن إحسانِه إليه، أي: إنَّه يزيدُ في الإحسانِ إليهم والإنعام عليهم، مِن أجلِ نبيِّهم ﷺ، وبهذا يرجِعُ هذا التَّركيبُ: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ إلى التَّركيب: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢﴾ [الزخرف: 32]، وإذا كان القومُ قد حقدوا عليه، وحسدوه ﷺ حينَ قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، فإنَّ اللّٰه ربَّه قد رقّاه، وزادَه كمالًا وإحسانًا بجعْلِه رأسَ مَن يُحْسِنُ إليهم مِن المتَّقينَ في الآخرة، على ما يُفْهِمُه توجيهُ الخطابِ إليه.

نكتة تقْديم ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

قدَّم القرآنُ ما هو عُمْدَةُ معنى الجملة

كان مُقْتَضَى ظاهرِ النَّظْمِ أن يُقال: (والآخرة للمتَّقين عند ربِّك)، ولكِنْ لمّا كانَ الغرضُ تحقيرَ نعيم الدُّنيا، وتعظيمَ نعيم الآخرة؛ بادر القرآنُ إلى بيانِ عِظَم ما يكونُ في الآخرة مِن أجْرٍ وثوابٍ لمَن يُؤْمِن

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 17/ 318.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 27.

(3) محمد أبو موسى، آل حم الشورى الزخرف الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 352.

بالرَّحمنِ بتقديمِ القيدِ الحالِ: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ على قوله: ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾، وجعلِه ملتصقًا بذِكرِ الآخرة، وفيه أيضًا تشويقٌ لمعرفة أهل تلك الآخرة ونعيمها؛ يُنبئ بفخامتهم ومدحهم، وهم المتَّقون.

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾:

المتَّقون أهلُ اللهِ وخاصَّتُه

اللّامُ في قولِه: ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾: لامُ الاختصاصِ، والمعنى: والحياة الآخرة عند ربِّك، وما فيها مِن أنواع الملاذِّ والنِّعَم الَّتي يقْصُر عنها البيانُ: خاصَّةٌ بالمتَّقين[1]، وقد قَوِي معنى الاختصاصِ بالقيدِ: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ إذ يدلُّ على غاية وكادة معنى إثباتِ أنَّ الآخرةَ لهُم، فلم يحتج السّياقُ إلى أسلوبِ القَصْرِ، وإنَّما اقتصر على معنى الاختصاصِ بحرفِ اللّام؛ لكمالِ ظهور أنَّ مِثْلَ المُتَّقينَ أهلٌ لذلك العطاءِ الرَّبّانيِّ، في آخِرةِ الرَّبِّ المُنعم الكريم المُحسِن عظيم الإحسانِ، والَّتي مِن إحسانِه إليها وإلى نعيمها أنْ كانَ فيها سيِّدُ الخَلْق، ﷺ.

علَّةُ التَّعبير بالتَّقوى:

أهــلُ نـعيـم الآخـرة جمعوا بين تعظيم الله تـعـالى وتـوقير رسوله ﷺ

قولُه تعالى: ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: الَّذين يجعلون بينهم وبين غضبِ اللّه وسخطه وقايةً، مِن الإيمانِ والأعمالِ الصّالحاتِ أقوالًا وأفعالًا، فهُم جميعًا أهلُ خوفٍ، وأهمُّ أفرادِ التَّقوى في السِّياق ما يُقابِلُ الكفرَ بالرَّحمنِ، والتَّقليلَ مِن شأنِ النَّبيِّ العدنان، فعبَّر القرآنُ بصفة التَّقوى؛ مناسبةً مع سياقِ الغضب الإلهيِّ؛ بسبب استدراكهم على اللّه، بقولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، فإنَّ ذلك القولَ منهم نِتاجُ جرْأةٍ شديدةٍ على اللّه، ثمَّ على مقام رسوله، وغفلةٍ عظيمةٍ عن حقِّ اللّه ورسولِه، فلم يخافوا مِن غضبه وعذابه، وسخطِه وعقابِه، وعبَّر بها أيضًا؛ تمهيدًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 27، والآلوسي، روح المعاني: 25/ 80.

لذِكْر الغفلةِ عن ذِكْرِ اللّهِ ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾، فإنَّ الغفلة عن ذلك تكون بمقدار خلوِّ القلبِ مِن تقوى اللّه.

دلالةُ التَّعريف بـ(ال) في: ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾:

طاعةُ اللهِ تُؤلِّفُ، ولا تُفرِّقُ

عرَّفَ القرآنُ أهلَ الآخرة: (المتقين) بـ: (الـ)، وهي للجنسِ، أي: إنَّ الآخرة عند ربِّكَ لكلِّ مَنِ اتَّصَف بالتَّقوى في كلِّ عَصْرٍ ومِصْرٍ وجِنْسٍ، فيدخلُ فيهم الفقيرُ والغنيُّ، والصَّغيرُ والكبيرُ، والذَّكَرُ والأنثَى، والأبيضُ والأسودُ، والعربيُّ والأعجميُّ، وهذا يعني عِظَمَ الاتِّصافِ بالتَّقوى.

دلالةُ حذف متعلِّق ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾:

حذفوا الدُّنيا مِن قلوبِهم؛ لخوفِهم الشَّديد من الله

قولُه تعالى: ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾: اسمُ فاعلٍ مِن الفعل: (اتَّقى)، دخلتْ عليه اللّامُ الجارَّةُ، وفعلُه يتعدَّى بنفْسِه، كما في كثيرٍ مِن آيِ الذِّكْر الحكيم، ولكِنَّ القرآنَ هنا لم يذكُر له متعلَّقًا، بل قال: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَمَن يَعۡشُ﴾ الآية؛ للعِلْم بالمُتعلِّق مِن السِّياق، فهُم الَّذين اتَّقوا ما وقَع فيه أضدادُهُم مِن الكفر والمعاصي، معَ توفير الإيجاز، والانسجام الصَّوتيِّ، بالتَّوافُق معَ الفواصل السّابقةِ عليها، واللّاحِقَةِ لها، ويجوزُ أن يكونوا لمّا غلَبَت عليهم صفةُ التَّقْوى، فصاروا مُتَّقِينَ الكفرَ بالرَّحمنِ وجمهورَ المعاصي؛ كانتِ التَّقوى صفةً لهم في كلِّ حالٍ مِن غيرِ نظَرٍ إلى مفعولٍ بعينه، فإنَّ اتِّقاءَ الكفرِ بالرَّحمن منزلةٌ جليلةٌ ورُتْبةٌ علِيَّةٌ في باب التَّقوى، فهي أمُّ هذا البابِ.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ٣٦﴾ [الزخرف: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الآيـةُ تُنبِّهُ على آفاتِ حُبِّ الدُّنْيا والاشتغالِ بها

وجْهُ تعلُّق هذا الكلام بما قبله التَّنبيه على آفات الدُّنيا، وذلك أنَّ من فاز بالمال والجاه؛ صار كالأعشى عن ذكر اللّه، ومن صار كذلك؛ صار من جلساء الشَّياطين الضّالِّين المضلِّين[1].

وكذلك لَمّا كان ما قرَّرَه القرآنُ في السِّباقِ مِن نعيم دنيويٍّ مُفْهِمًا غايةَ الرّاحةِ والسَّعادةِ لأهل الكفر والمعصية؛ بيَّن في هذه الآية أنَّهم في شقاء نفْسيٍّ من شأنِه أنْ يُعكِّرَ عليهم صَفْوَ ملاذِّ الحياةِ الدُّنيا، فإنَّ اللّه يُهيِّئُ للمخذول الكافر شيطانًا يصير قرينًا له، يُبْعِدُه عن الخير، ويُقرِّبُه من الشَّرِّ، ولَمّا ذكَر تعالى المتَّقين، وكانت التَّقوى تُحرِّكُهم لذكره سبحانه؛ ذكَر في هذه الآيةِ غفلة مَن يكفر بالرَّحمن عن ذكر اللّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعْشُ﴾: (عيش) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ظلامٍ وقِلَّةِ وضوحٍ في الشَّيءِ، ثمَّ يُفرَّعُ عنه ما يُقارِبُه، مِن ذلك العِشاءُ، وهو أوَّلُ ظلامِ اللَّيلِ، ومنهُ: عَشَوْتُ إلى نارِه، ولا يكونُ ذلك إلّا أن تَخْبِطَ إليهِ في الظَّلامِ، ويُقال: رجالٌ عُشْوٌ، وهو الَّذي لا يُبْصِرُ باللَّيلِ، وهو بالنَّهارِ بصيرٌ، يُقال: عَشَى يَعْشِي عَشًى، والعَشواءُ مِن النّوقِ: الَّتي كأنَّها لا تُبْصِرُ أمامَها، فتَخْبِطُ كلَّ شيءٍ بيدَيها؛ قالوا: وإنَّما يكونُ ذلكَ من حِدَّةِ قلْبِها، والعَشا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 210.

مجازٌ عن التَّشويشِ وعدمِ التَّدبُّرِ، وليس أنَّ عينَه لم تنظُر في القرآنِ، وإنَّما بصيرتُه لم تتدبَّر القرآنَ(1).

2) ﴿نُقَيِّضْ﴾: القَيْضُ: قِشْرةُ البَيْضةِ العُلْيا اليابسة، وقيل: هي الَّتي خرَج فرْخُها، أو ماؤُها كلُّه، والمَقِيضُ موضِعُها، هذا هو أصلُ اللَّفْظة في الاستعمالِ، والمعنى المقصودُ هنا: الإتاحة وتهيئة شيء لملازمة شيء؛ لعملٍ حتّى يُتمَّه، ويُقال: قيَّضَ اللهُ فلانًا لفلانٍ: جاءَه به، وأتاحَه له، وقيَّضَ اللهُ لهُ قرينًا: هيَّأَه، وسبَّبَه مِن حيثُ لا يَحْتسِبُه، ويُستعملُ قيَّضَ في الخيرِ والشَّرِّ، وأصلُه هنا تشبيهٌ، أي: إنَّ هذا الشَّيطانَ صار مُحيطًا بالكافر العاشي عن ذكر الرَّحمن، ومستوليًا عليه، وسادًّا كلَّ المنافذ الواصلةِ إليه، كالقيض المحيط بالبيض والحافظِ له(2).

3) ﴿قَرِينٌ﴾: (قرن) أصلانِ صحيحانِ، أحدُهما يدلُّ على جمْعِ شيءٍ إلى شيءٍ، والآخَرُ شيءٌ يَنْتَأُ بقوَّةٍ وشِدَّةٍ، فمِن الأوَّلِ: قارنتُ بينَ الشَّيئينِ، والقِرانُ: الحبلُ يُقرَن به شيئانِ، والقَرَنُ الحبلُ أيضًا، ومنه القرينُ، وهوَ المُصاحِبُ، والقرينُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، والقرينُ صاحبُكَ الَّذي يُقارِنُك في كلِّ شيءٍ، وقرينُكَ: الَّذي يُقارِنُكَ، وجمعُه: قُرَناءُ، وفلانٌ قِرْنُ فلانٍ مِن الأحوالِ(3)، والمقصودُ المُصاحِبُ المُلازِمُ والمُقترِنُ والقريبُ بشدَّةٍ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن وُسِّعَ عليه في دنياه؛ اشتغل في الأغلب عن ذِكْر الله

يقولُ تعالى: ومَن يُعرِضْ، ويتعامَ، ويتغافلْ عن القرآنِ وعبادةِ الرَّحمنِ؛ نُهيِّئْ، ونُيَسِّرْ له شيطانًا، لا ينفكُّ عن الوسوسة له والإغواءِ،

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (عشو)، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 379.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات: (قيض)، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 28، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 209.

(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات: (قرن).

كقولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: 83]، فقد عدَل عن الرَّحمة والهناء إلى العذابِ والشَّقاءِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الوَصْلِ بالواو في: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾:

الضَّلالُ ينمو، ويتولَّدُ في النُّفوس، حتَّى يَصِيرَ طَبْعًا

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها مِن معنى الآيةِ إلى آخِرِ قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ﴾ [الزخرف: 30]؛ لأنَّ جملةَ: ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ﴾ [الزخرف: 30] وما بعدَها إلى هذه الجملةِ، حدَّثَتْ عن أقوالهم وعقائدهم، وآيةُ: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ وما بعدَها حدَّثَتْ عن الَّذي وراء أقوالِهم وعقائدِهم، وكأنَّ المُتلقِّي حينَ يعودُ بجملة: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ وما بعدَها إلى هناكَ، ويقِفُ قليلًا يجدُ كلامَيْن كلامًا يُحدِّثُ عن الظّاهر، وكلامًا يُحدِّثُ عن الباطنِ، والكلامانِ في أمرٍ واحدٍ، هذا يتناولُه مِن جهةٍ، وهذا من جهةٍ أخرى، ومِثْلُ هذا ممّا لا يجوزُ التَّهاونُ فيه، وهذا العطفُ يفيدُ أنَّ انصرافَهُم عن التَّدبُّر في الدَّعوة القرآنيَّة بقولهم: إنَّه سحر، وغير ذلك: كان سببًا لأنْ يُسخِّرَ اللّٰهُ شياطينَ لهُم؛ تُلازِمُهم، فلا تزالُ تصرفُهم عن النَّظرِ في الحقِّ وأدلَّة الرُّشْدِ، وهو تسخيرٌ اقتضاه نظامُ تولُّدِ الفروعِ مِن أصولِها، فلا يُتعجَّبُ مِن عَمَى بصائرِهم عن إدراك الحقِّ المبين[1]، وهو من عطفِ جملةٍ مِن الجُمَل على جملةٍ مِن الجمل، يدخلُ في باب الوَصْلِ للتَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْن.

دلالةُ أسلوب الشَّرْط:

الانصرافُ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ يوجِبُ غضبَ الرَّبِّ سبحانه

هذه الآيةُ الكريمةُ جملةٌ معنويَّةٌ واحدةٌ، تكوَّنَتْ مِن جملتيْن، هما جملة الشَّرطِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾، وجملةُ الجوابِ: ﴿نُقَيِّضْ

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 357.

﴿لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾، ثم تولَّدت مِن جملةِ الجوابِ جملةٌ هي مِن تمامِها، وهي: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾، وأسلوبُ الشُّرْطِ يتناسَبُ معَ سياقِ التَّهديدِ والتَّرهيبِ والغضبِ الشَّديدِ، بترتيبِ تسخيرِ الشَّيطانِ لهذا العاشي عن ذِكْرِ الرَّحمن، وتسبُّبِه عن العَشاء عن ذلك الذِّكْر، بما في هذا الأسلوب مِن نغمة الحَسْمِ والفَصْلِ والقَطْعِ، الحاصلةِ بترتيبِ شيءٍ على شيءٍ، وتسبُّبِ شيءٍ عن شيءٍ، في وضوحٍ وجلاءٍ في النَّظْمِ.

علَّة التَّعبير بالعشا:

العـــاشـــون عـن ذِكْـر الله منقطعو الصِّلةِ تمامًا بالله ربِّهم

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: وصَف القرآنُ حالَ أهلِ الكفرِ - الَّذين حكَموا عليه بالباطل بأنَّه سِحْرٌ - بالعَشا، وهو أنَّ كلَّ واحدٍ منهم نظَر إلى القرآنِ نظَرَ الأعشَى، وهو مَن ساء بصَرُه باللَّيل أو النَّهارِ، وليس بأعشى، فهو ينظُر في الكتابِ العربيِّ الحكيم بضَعْفِ بصَرٍ، وليس كنَظَرٍ ضعيفِ البَصَرِ، فمَثَّل القرآنُ عدمَ نظرِه في القرآنِ ببصيرتِه بنظَرِ الأعْشَى إلى الشَّيءِ المحسوسِ الظّاهرِ للبَصَر، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ في الفِعْلِ: ﴿يَعۡشُ﴾، فقد صَوَّرَ القرآنُ غفلةَ بصيرته بالعَشا الَّذي هو ضَعْفُ البَصَر؛ تصويرًا لِمَن ينسَى ذِكْرَ الله بأقبحِ صورةٍ؛ تنفيرًا مِن ذلك، وذلكَ الحالُ والوصفُ مُؤسَّسٌ على عظيمِ اشتغالِهم بطلبِ الدُّنيا، وتعظيمِهم لها؛ حتّى إنَّهم جعلوها المقياس لعظمة بشرٍ يُمكن أن يَنْزِل عليه وحْيُ الله، فقالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31][(1)].

معنى: ﴿عَن﴾، ودلالة التَّعبير بها:

الحـرفُ الَّـذي يتعدَّى به الفِعْلُ مِن تمامِه

كلمةُ ﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: حرفُ معنًى معناه المُجاوَزة، وعُدِّيَ الفِعْلُ: ﴿يَعۡشُ﴾ بها؛ لذلكَ لأنَّ في العَشا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 28، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 208، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 357.

إعراضًا عن ذِكْرِ الرَّحْمنِ، ويُستعمل هذا الحرفُ في هذا المعنى؛ إذا كانَ المُتعلِّقُ بالفِعْلِ متروكًا، نحوُ: رغِبْتُ عنِ اللهوِ، ومِلْتُ عن الجدالِ المذموم؛ ولذلك كان يُعدَّى به فعلُ الصَّدِّ والإعراضِ ونحوُهما، فكأنَّ هذا الحرفَ يوضِّحُ معنى الفِعْلِ، ويُكمِّلُه، فإنَّ المُحدَّثَ عنه قد تجاوزَتْ بصيرتُه القرآنَ العربيَّ العظيمَ، فلم تقِفْ عنده بالتَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ، وعلى هذا فقد ضُمِّنَ الفعل ﴿يَعۡشُ﴾ معنى الإعراضِ عن ذِكْرِ الرَّحمن، وإلّا فإنَّ حقَّه أن يُعدَّى بـ: (إلى) كما قال الحطيئة:

متى تأتِهِ تعشو إلى ضوءِ نارِه***تجد خيرَ نارٍ عندَها خير موقدِ

ولا يُقال: (عشوت عن النّار) إلّا بمثل التَّضمين الَّذي في هاته الآيةِ، ففي: ﴿عَن﴾ تصوير الزّيادة في الإهمال، والزِّيادةِ في موجِباتِ الغَضَبِ[1].

علَّةُ التَّعبير بالذِّكْرِ:

في القرآنِ مُتْعةٌ روحيَّةٌ ونَفْسيَّةٌ وقلبيَّةٌ لا تعدلُها متعةُ نعيمِ الدُّنيا

المرادُ بالذِّكْرِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ هو القرآنُ الكريمُ؛ بقرينة قولهم في القرآنِ، والذي جاءهم بالقرآن في سياقِ السِّباقِ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: 30 - 31]، وذكَر بعضُ العلماءِ أنَّ من فوائدِ التَّعبير بالذِّكر عنه أنَّه يرجِعُ بهذه الآية إلى قوله تعالى في مطلع السّورة: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾ [الزخرف: 5][2].

علَّة التَّعبير بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

هذا الاسْمُ هنا لهُ موقِعٌ بالِغُ السَّدادِ

اصطفى القرآنُ الاسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ تذكيرًا بآلائه تعالى عليهم، فهذا العبدُ الأعمى أو

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 209، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 360.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 209، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 357.

المُتعامِي مغمورٌ برحمة الرَّحْمن، ويعيش في نعمه، وفي كنَف رحمته، وهو صادٌّ عنه، معرض عن آياته، وإشارةً إلى أنَّ هذا الكتابَ كلَّه رحمةٌ لهم، والعاشون عنه عاشون عن كونه ذِكْرَ الرَّحْمن، فقد جهلوا، وعموا عن ذلكَ، وتمهيدًا لبيانِ شدَّة الغضب في قوله تعالى: ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾؛ لأنَّه دالٌّ على شدَّة الغضب، والَّذي يدلُّ على شناعة هذا الجُرْم المُفْضِي به إلى تسخير الشَّيطان له أنَّ هذا الجُرْمَ استخرَج هذا الغضب المُتناهِيَ مِن الرَّحيم الرَّحْمن[1].

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

مَن عشا عن ذِكْر الرَّحمن؛ أسرف في الكُفْر

أضاف القرآنُ الذِّكْرَ الَّذي هو بمعنى القرآنِ إلى الاسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، ويجوزُ أن تكونَ هذه الإضافة مِن إضافة المصدر إلى المفعولِ، أي: ومَن يعشُ عن أن يذْكُر الرَّحْمن، وأنْ تكونَ مِن إضافة المصدرِ إلى الفاعل، أي: عن تذكيرِ الرَّحْمن عبادَه سبحانه، وإنَّما أضافَ القرآنُ الذِّكْر إلى ذلك الاسم الجليلِ؛ لتشريفِ ذلك الذِّكْرِ، وللإيذانِ بنزولِه رحمةً للعالمين[2]، وإشارةً إلى كمال ظهورِ رحمانيَّتِه تعالى في كلامِه، فإنَّ الإضافة تكونُ لأدنى مُلابَسة، ووراء هذا مِن المعنى إنكارٌ عليهم أن يكفروا بكتابٍ كلُّه رحمةٌ إلهيَّةٌ، وذمٌّ لهم، وتشنيعٌ عليهم.

علَّة التَّعبير بالتَّقْييض:

هذا الجزاءُ مناسبٌ على جهة التَّمام للذَّنْبِ في جملة الشَّرْط

عَبَر القرآنُ بالتَّقْييضِ في قوله تعالى: ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾؛ نظَرًا إلى التَّعبير عن القرآنِ بالذِّكْر، فإنَّهم لَمّا انصَرفوا عن ما شأنُه أن يشغلَهُم بكليَّتِهم، فلا يكون منهم إلّا مُلازَمتُه وديمومةُ الرُّجوعِ إليه؛ عومِلوا بجنس عملهم، فهيَّأ اللّه لهم ما يُلازِمونه؛ عقابًا لهم، وهو الشَّيطانُ الَّذي سيكونُ قرينًا لكلٍّ منهم، فإنَّ التَّقْييضَ هو:

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 360.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 87، والآلوسي، روح المعاني: 25/ 80، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 209.

"الإتاحةُ وتهيئة شيء لملازمة شيء؛ لعملٍ حتّى يُتمَّه، وهو مشتقٌّ مِن اسْم جامدٍ، وهو قيض البيضة، أي: القِشْرُ المحيطُ بما في داخل البيضة مِن المح؛ لأنَّ القيض يُلازم البيضة، فلا يُفارقها حتّى يخرجَ منها الفرخ، فيتمَّ ما أتيح له القيض، فصيغةُ التَّفعيل للجَعْلِ ... وأصلُه هنا تشبيهٌ، أي: نجعلُه كالقيض لهُ، ثمَّ شاعَ حتّى صارَ معنًى مستقلًّا"[1]، ويُقال: قيَّضَ اللّهُ فلانًا لفلانٍ: جاءَه به، وأتاحَه له، وقيَّضَ اللّهُ لهُ قرينًا: هيَّأَهُ، وسبَّبَه مِن حيثُ لا يَحْتسِبُه، ويُستعملُ قيَّضَ في الخيرِ والشَّرِّ[2]، فكان تفسيرُ ﴿نُقَيِّضۡ﴾ بـ: نُسخِّر، أو نُهيِّئ، أو نُتِحْ، ونحوِ ذلكَ، تفسيرًا يُقرِّبُ المعنى، وليس حقيقته؛ لأنَّ حقيقته أنَّ هذا الشَّيطانَ صار مُحيطًا به، ومستوليًا عليه، وسادًّا كلَّ المنافذ الواصلةِ إليه، كالقيض المحيط بالبيض والحافظِ له؛ كذلكَ الشَّيطانُ يحفظُه، ويَحوطُه، ويمنعُه من كلِّ ما ليس بشيطانيٍّ، وهذا الجزاءُ هو المناسبُ لـ: ﴿يَعۡشُ﴾؛ لأنَّه عصَبَ عينيه، وسَدَّ أُذُنيه، وصار حجابًا بينَه وبينَ الذِّكْر، وهذا معناه أنَّه هو الَّذي صيَّرَ نفْسَه في قبضة الشَّيْطان، وصيَّر الشَّيْطان مُضيِّقًا عليه، ومحيطًا به إحاطةَ القيضِ بالبيضِ، يعني: دخَل في سرداب شيطانيٍّ مغلَق مِن جميع جهاتِه[3].

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿نُقَيِّضۡ﴾:

المضـارعـة تـبرز الجزاء

نظَم القرآنُ معنى التَّقْييض فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾؛ دلالةً على شدَّة الغضب، وسوء الجزاء والعقاب، فكلَّما تجدَّدَ من هؤلاء المشركين صدٌّ عن آيات اللّه، وإعراضٌ عن الذِّكر؛ تجدَّدَ لهم تقييض الشَّيطانِ، فازدادوا بُعدًا وضلالًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 209.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات: (قيض).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 28، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 361.

توجيهُ القراءات القرآنيَّةِ في: ﴿نُقَيِّضۡ﴾ وبلاغتها:

دلالـة الحضور والغيبة في إثراء المعاني القرآنية

قَرَأ يَعۡقوبُ وشعبة بخلفه بالياءِ: ﴿يُقَيِّضۡ﴾، وقرأ الباقون بالنون[1]، فحجّة من قرأ بالياء أنه أراد إبهام الفاعل (هو) العائد على اسم اللّه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، والتقدير: (ومن يعش عن ذكر الرحمن يقيِّض له الرحمن شيطانًا)، فاكتفى بالتصريح الأول، وحجة من قرأ بنون العظمة أن الفاعل هو اللّه جلَّ في علاه، وفيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب تخويفًا لهذا الذي أعرض عن ذكر ربه.

دلالة اللّام في: ﴿لَهُۥ﴾:

لـكـلِّ مـعـرض عـن ذكـر الـلـه تـعـالى شيطانٌ مخصوصٌ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾ في موضعيه في الآية: ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾: معناها الاختصاصُ، فتكون تمهيدًا للقَصْرِ الحاصلِ بتقديم: ﴿لَهُۥ﴾ على ما بعدَه: ﴿شَيۡطَٰنًا﴾، ﴿قَرِينٌ﴾؛ وذلك إبلاغٌ في إثباتِ التَّقْييضِ والاقترانِ المخصوصَيْنِ الخاصَّيْنِ بكلِّ فردٍ مِن أفرادِ العاشِينَ عن ذِكْرِ الرَّحْمنِ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾:

حـــالُ هــذا الــعــاشي عن ذِكْرِ الرَّحمنِ جِدُّ عجيبٍ

قدَّم القرآنُ الجارَّ والمجرورَ المُتعلِّقَ ﴿لَهُۥ﴾، في قوله: ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنًا﴾، وكذلكَ في قوله: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾؛ للعناية والاهتمام ببيان حال العاشي والمعرض عن ذِكر اللّه تعالى؛ لأنَّه المُحَدَّثُ عنهُ في الكلام؛ إشارةً إلى استحقاقه ذلكَ الجزاءَ، فهو الَّذي أقْبَلَ على سببِه، ورغِبَ فيه، وتعمَّدَه، فما كانَ منهُ هوَ مُقدِّمةٌ هذه النَّتيجةِ الَّتي هيَ الجزاءُ مِن الشَّيْطانِ القرينِ، وذكَر الشَّيخ أبو موسى أنَّ التَّقديم في الموضع الثّاني يفيد أنَّ القرينَ خاصٌّ به، وليس له شاغِلٌ سواهُ[2]، والتَّقديمُ بهذا توطئةٌ لقوله: ﴿قَرِينٌ﴾، وتمكينٌ لمعناه، ولمجيء الفاء، ولا مانع مِن حَمْلِ التَّقديم في الموضع الأوَّلِ عليه أيضًا، ونتَج

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 369.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 362.

عن التَّقديم في الموضع الثّاني توفُّرُ الانسجام الصَّوتيِّ بينَ الكلمةِ المُؤخَّرةِ وبينَ مِثْلِها مِن الفواصلِ قبلَها: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾، ﴿يَظْهَرُونَ ٣٣﴾ [الزخرف: 33]، ﴿يَجْمَعُونَ ٣٢﴾ [الزخرف: 32] إلخ، والفواصل بعدَها: ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، ﴿ٱلْقَرِينُ﴾، ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾، ﴿مُّبِينٍ﴾ إلخ.

علَّة التَّعبيرِ بالشَّيْطانِ:

رفَضَ الكافرُ صُحْبةَ كلامِ الرَّحمنِ، فعوقِب بُصحْبةِ الشَّيْطانِ

لَمّا كان المُحدَّثُ عنه قد عشا عن ذِكْرِ الرَّحْمنِ؛ فجهِل، أو تجاهَل رحيميَّتَه ورحمانيَّتَه تعالى في قرآنِه، وفي معاملة اللّٰه إيّاه؛ بإمطارِ نعمه عليه وإحاطته بها ليلَ نهارٍ؛ غضِب اللّٰه عليه، وقيَّضَ له شخصًا ناريًّا بعيدًا مِن الرَّحمة، يكونُ غالبًا مُحيطًا به، مُضيِّقًا عليه؛ فلهذا عبَّر القرآنُ بقوله تعالى: ﴿شَيْطَٰنًا﴾[1]، وهذا الشَّيْطانَ يُسبِّبُ لهذا العاشِي عن ذِكْرِ الرَّحْمن تَعَبًا وضيقًا نفْسيًّا يُعكِّرُ عليه صَفْوَ حياتِه وملَذّاتِه الَّتي هو مُفتتِنٌ بها افتتانًا عظيمًا حتّى جعَلَها مقياس عظمة الرِّجال في الحياة الدُّنْيا.

سِرُّ تنْكير ﴿شَيْطَٰنًا﴾:

شيطانُ هذا العاشِي عجيبٌ غريبٌ في بابِه

نظَم القرآنُ مفعولَ التَّقْييضِ: ﴿شَيْطَٰنًا﴾ نكرةً؛ للدَّلالةِ على تهويل شأنِه وحالِه معَ العاشِي، بقرينة سياقِ الغضَبِ الإلهيِّ الدّالِّ عليه أنَّ الَّذي يُقيِّضُ لهذا العاشي شيطانًا قرينًا هو الرَّحمنُ الَّذي وسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ؛ فإنَّ هذا العاشِيَ قد ارتكَب أبشع ما يرتكبُه إنسانٌ، وهو عدمُ النَّظَرِ في القرآنِ نظَرَ المُتدبِّرِ الباحثِ عن الحقِّ، فهو بذلك مُنْصرِفٌ عن رحمةِ اللّٰه، رافضٌ لها.

سِرُّ حذفِ المُتعلِّق:

العشا عن ذِكْر الرَّحمن ضلالٌ، وصحبة الشَّيطان تزيدُه

في قوله تعالى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾: لم يذكر القرآنُ متعلِّق الفعل: ﴿نُقَيِّضْ﴾؛ اكتفاءً بدلالة مفعولِه، وهو: ﴿شَيْطَٰنًا﴾؛ فعُلِم منه أنَّه مُقيَّضٌ لإضْلالِه، أي: هم أعْرضوا عن القرآن؛ لوسوسة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 28.

الشَّيْطانِ لهُم[1]، فسِرُّ الإيجاز بالحذفِ كمالُ العلم بالمحذوفِ، وأيضًا: المبالغة في الدَّلالة على إضلال الشَّيطان؛ لأنَّ ما يكون مِن الشَّيطان تُجاه هذا العاشي عن ذِكْر الرَّحْمنِ ليس مجرَّدَ إضلالٍ، بل هو غاية الضَّلال والإضلال.

معنى الفاء، ودلالة التَّعبير بها:

في قوله (قرين) جديدٌ مِن المعنَى قـد اسـتَـدعَـى الفاءَ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾: رتَّبتْ ما بعدها على ما قبلها، والَّذي قبلَها هو أنَّ الشَّيطان أحاط بهم إحاطةَ القيض بالبيض، وما بعدَها؛ أفاد أنَّه لمّا صارَ في هذا القُمْقُم لازمَهُ فيه، وقارَنَه، يَنْفُثُ فيه كلَّ معنًى شيطانيٍّ، ودامَ الحالُ على ذلكَ، واستمرَّ، ويُفْهِمُ التَّفريع بالفاء أنَّ التَّقييضَ كان لأجل مقارنته[2]، ولو قال القرآنُ: (هو له قرين)؛ لكان صوابًا في البلاغة؛ لأنَّه يلزمُ قولَه: ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾؛ ولكنَّ القرآنَ كشَف بالفاءِ عن كمالِ التَّلازُم والصُّحبةِ بينَ العاشِي عن ذِكْرِ اللّه والشَّيطانِ قرينِه؛ فإنَّ هذا العاشِيَ يكونُ في غايةِ الضَّلالِ، وكفَى بذلك دليلًا على شدَّة غضبِ اللّه الرَّحْمنِ عليه.

علَّة التَّعبير بـ: ﴿قَرِينٌ﴾:

غـايـةُ الانـدمـاج بـيـنَ الـعـاشي والشَّيطان تُصوِّرُ عـظـيـم جـرمـه وكفره

اقتَضَى جزاء الرَّحْمنِ أنْ يكونَ الشَّيطانُ قرينًا؛ لهذا العاشِي عن ذِكْرِ اللّه، ودلالةُ هذه الكلمة: ﴿قَرِينٌ﴾ على الاقتران والاقتراب، تجعلُها تنظرُ إلى التَّعبير عن القرآن بالذِّكْر، الَّذي الأصلُ أن يجذبَهُم، فينجذبوا له، ولها دلالة أخرى أدلُّ على شدَّة الغضبِ، وهي أنَّ الَّذي يعشو عن ذِكْر الرَّحْمن، ويُقيِّضُ اللّه لهُ هذا الشَّيْطانَ، يصيرُ هو الآخَرُ قرينًا للشَّيطان؛ فكلٌّ منهما قرينٌ للآخَرِ، وكأنَّه مِن جنسِه، يعني: يصيرُ هذا الآدميُّ شيطانًا[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 210.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 210، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 361.

(3) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 362.

سِرُّ تنكيرِ ﴿قَرِينٌ﴾:

أيُّ ضالٍ يكونُ فيه الشَّيطانُ حتَّى يجعلَ العاشِيَ مِثْلَه فيه

نظَم القرآنُ خبَر الشَّيطانِ نكرةً في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾؛ دلالةً على تهويل شأنه وتفخيمه، فإنَّه يُصَيِّرُ هذا العاشِيَ عن ذِكْرِ الرَّحْمنِ شيطانًا مِثْلَه، فالضَّلالُ الَّذي يكونُ فيه هذا العاشِي؛ بسببِ الشَّيْطانِ جِدٌّ عظيم، ويجوزُ أن يكون التَّنكيرُ للدَّلالة على النَّوعيَّة، أي: هو نوعٌ مِن القُرناء مخصوصٌ، فهو عجيبٌ غريبٌ جدًّا؛ لأنَّه يُصَيِّرُ قرينَه الإنسيَّ شيطانًا مِثْلَه في الضَّلالِ، فالمآلُ واحدٌ، وقال بعض العلماء: التَّنكيرُ في: ﴿شَيْطَانًا﴾، و: ﴿قَرِينٌ﴾ يدلُّ "على أنَّه شيطانٌ مُختلِفٌ في شيطنتِه، ومُتميِّزٌ في عداوتِه وصدِّه"[1].

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّةِ:

الاسميَّةُ تمكينٌ وتحقيقٌ لمعنى الجملة

نظَم القرآنُ معنَى الجملة المُفرَّعةِ بالفاء على جملة جوابِ الشَّرْطِ اسميَّةً، مَع أنَّ جملةَ الجوابِ فعليَّةٌ، فقال تعالى: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾؛ للدَّلالةِ على دوام كونه قرينًا له، أي: فكانَ قرينًا مقارنةً ثابتةً دائمةً؛ ولذلك لم يقل: نقيِّض له شيطانًا قرينًا له[2].

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 366.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 210.

المحتويات

